

جيمس بيكر

سياسة الدبلوماسية



■ الحرب الباردة

■ أوروبا كاملة وحررة

■ الصين : خطوة كبيرة إلى الوراء

■ الشرق الأوسط والخوض في

المستقع

■ التحالفات وتنافس الامبراطورية

■ الاتحاد السوفيتى . جورباتشوف

والتفكير الجديد

■ الكابوس الإنسانى فى البوسنة

■ أفريقيا نهاية العزل العنصرى

■ من برلين إلى البلقان

■ رؤية للشرق الأوسط ما بعد

الحرب

■ صدام يبقى فى السلطة

■ من الحرب الباردة إلى السلام

الديمقراطى

ترجمة

مجدى شرشر

مكتبة مديولى

مذكرات
جيمس بيكر
سياسة الدبلوماسية

الناشر

مكتبة مدبولي

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٥٨٧٢٨٥٤
الكتاب : سياسة الدبلوماسية - ملوكوت جيمس بيكر
المؤلف : جيمس بيكر
المترجم : مجدى شرشر
رقم الإيداع : ٤١٥٢ / ٢٠٠١
الترقيم الدولي : 8 - 324 - 280 - 977
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى : ١٩٩٩
الطبعة الثانية : ٢٠٠٢

مراجعة للطباعة والنشر

المترجم : ١٠ شارع السلام - أرياف القاه - التلويح
تليفون : ٩٨ - ٣٢٥٦٠٤٣ - فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

مذكرات

جيمس بيكر

سياسة الدبلوماسية

ترجمة
مجدي شرشر

2002

مكتبة مدبولي

الفصل الأول

يوم وضعت الحرب الباردة أوزارها

عندما نلتقي معا فلا بد وأن يتمخض اللقاء من نتائج. فلا
يمكننا أن نلزم الصمت حيال مثل تلك الأحداث.

إدوارد شيفرناذة

٣ آب أغسطس ١٩٩٠

فى التاسع والعشرين من كانون الثانى يناير ١٩٨١م، كنت أسير برفقة رونالد ريجان من البيت الأبيض عبر شارع ويست إكزكيوتيف إلي مبنى أولد إكزكيوتيف عند إلتقاء شارعي بنسلفانيا وسقينيثيث.

لم يكن قد مضى علي تقلد الرئيس ريجان مهام منصبه سوى عشرة أيام، لكنه أغتصم الفرصة ليرمى معلماً واضحاً يلخص رأيه الراسخ فى الاتحاد السوفيتى الذى كان ينظر إليه ريجان ومعظم الأمريكين بعين الارتياب علي نحو محق معظم حياتهم .

وقال ريجان: «لقد أعلن السوفيت صراحة وعلناً أن للقاعدة الأخلاقية الوحيدة التى يعترفون بها هي تلك التى تساهم فى دعم قنصيتهم، مما يعنى أنهم يمنحون أنفسهم الحق فى عدم اللجوء عن ارتكاب أى جريمة والكذب والخداع فى سبيل تحقيق غايتهم ... وعلي المرء أن يضع ذلك فى اعتباره لذي التعامل معهم، حتى وإن اتخذ هذا التعامل صورة الانفراج .»

كانت الكلمات جازحة وقاسية كحمام بارد، ولكنها صحيحة فى دلالتها. فبعد نحو عقد من الزمان أى فى ٣ آب أغسطس ١٩٩٠م وأنا الآن وزير للخارجية لا يسعنى أن أنكر مثل تلك الكلمات بأى إحساس بالسفرية. لقد كنت أقف فى هذا اليوم جنباً إلي جنب مع وزير الخارجية السوفيتى إدوارد شيفرنادزه فى صالة مطار فونكوفو/٢ خارج موسكو وأنا أصغى إليه وهو يسهب فى شرحه للصعفيين أسباب موافقة بلاده علي إجراء غير مسبوق بالانضمام إلي الولايات المتحدة فى إدانة غزو العراق للكويت .

وقال شيفرنادزه: «دعنى أبلغك بأنه كان قراراً صعباً بالنسبة لنا .. بسبب العلاقات طويلة الأمد التى كانت تربطنا بالعراق.. ولكن بالرغم من كل هذا ... فقد اضطررنا إلي اتخاذ مثل تلك الإجراءات ... لأن ... هذا العنوان يتعارض مع التفكير السياسى الجديد. بل إنه يتعارض فى الحقيقة مع المبادئ المتحضرة بين الدول .»

وكانت تداعيات مفاجأة شيفرنادزه مذهلة. فقد محني السوفيت فى تفكيك إمبراطوريتهم فى أوروبا الشرقية، وأذعن الكرملين لانهيار حكومة إريك هونيكرفى ألمانيا

الشرقية، مما جعل من سقوط سور برلين أمراً حتمياً. ومع ذلك فقد شكلت ردود أفعال تتسم بالسلبية علي مد الأحداث الجارف.

والآن وللمرة الأولى فقد انضم الاتحاد السوفيتي إلي الولايات المتحدة الأمريكية بفعالية منذ واحد من أوثق حلفائه .

وقبل تسعة أيام - أي في ٢٥ تموز يوليو غادرت قاعدة أندروز الجوية بولاية ميريلاند في مستهل جولة تشمل آسيا والاتحاد السوفيتي تراودني ثقة ضعيفة بأنه لدى عودتي إلي بلدي فإن يكون هناك وجود للعالم الذي وعته مداركي طيلة سنوات الشباب. ومثلما اكتشف البريطانيون في مدينة يورك قبل قرنين فقد انقلب العالم رأساً علي عقب ريات العالم الجديد مفعماً بالأمل والفرص، وبالمخاطر والغموض أيضاً بالنسبة للدبلوماسية الأمريكية .



ويشوب صدام حسين الكثير من نواحي القصور، ولحسن حظ أمريكا وبقية العالم المتحضر كان تلمذ إحساسه بالزمن أحدها. إن طاعية أخر أكثر حصافة كان سيختار بالتأكد موعداً أخر غير الثاني من آب أغسطس ١٩٩٠م للقيام بغزو جار لا حول له ولا قوة. فقد كان رئيس الولايات المتحدة يتأهب في هذا اليوم تمديداً للاجتماع مع رئيسة وزراء بريطانيا العظمى، ولم يكن يُعرف عن المرأة الحديدية أنها تقبل بأنصاف الحلول في لحظات التحدي. كما كان وزير الخارجية الأمريكي في سيبيريا لإجراء محادثات مع نظيره السوفيتي. وفي غضون ذلك كان دبلوماسيون من البلدين يكفون علي وضع اللمسات النهائية لمباحثات حول التخطيط السياسي كان مقرراً إجراؤها منذ فترة طويلة في موسكو .

إن مواجهة الطغاة ليس بالمهمة اليسيرة. لكن للخطأ التكتيكي القاتل في الحساب الذي ارتكبه صدام حسين جر مضاعفات هائلة. ووفر لنا هذا للخطأ نقطة انطلاق حاسمة في صياغة شكل مواجهتنا للآزمة.

وبدون هذه العيزة الثمينة ربما لم ننظر مطلقاً بالقدره علي تعبئة الإرادة الدولية والمحلية لمواجهة هذا للعدوان للصارخ. فلو كان صدام علي قدر من البراعة لانتظر ثلاثة أسابيع حتي يكون رعماء معظم الحكومات ومسؤولوها قد تناثروا في أنحاء شتي في العالم لتقضاء العطلات، فلو حدث ذلك لتعيرت مسيرة الأحداث .

وكما يعرف العالم فقد كانت كارثة لصدام وبصرأ للدبلوماسية الأمريكية والعسكرية الأمريكية، وعلامة مصيبة في تاريخ جورج بوش. وتسببت أوهام جنون العظمة اذي صدام حسين في إرهابك أرواح عشرات الآلاف من الجنود العراقيين مقابل نمو أربعمائة جندي أمريكي شجاع. كما أنها جرت معاناة مروعة لا لزوم لها علي مواطنيه وبؤساً لا يرأون يكابدونه حتي يومنا هذا .

ولكن في أحد الجوانب للعاصمة فإن العالم بأسره مدني لهذا المجنون. فغزوه الوحشي للكويت هيا فرصة غير متوقعة لوضع نهاية مدوية لعمسين عاماً من صراع الحرب الباردة .

ومع ذلك كان هذا آخر ما يدور بخلدی وأنا ألتوجه جواً من سنغافورة عبر هونغ كونج يوم ٢١ تموز - يوليو للقاء إدوارد شيفرنادزة في مدينة أركونتك السيبيرية التي يقطنها نحو خمسمائة ألف نسمة. واشتمل جدول أعمال اللقاء قضايا مثل الحد من التصنع النووي، وخفض القوات التقليدية في أوروبا والصراعات للذلة في أفغانستان وكمبوديا، والاستعدادات الخاصة بالقمة القادمة بين الرئيسين بوش وجورجيانثوف .

ورتب شيفرنادزة لعقد هذا الاجتماع مجاملة لمباحثاته هي أخصاص جبال تيتونز الكبرى في شهر أيلول - سبتمبر في ويومينج. وكنت أعتقد أن نقل للمباحثات من اليبدة البيروقراطية في واشنطن إلي الغرب الأمريكي بعظمته القوية قد يساهم في خلق روح جديدة من للتعانر والصراحة والثقة المتبادلة بيننا وبين مساعديننا. وثبتت صحة ذلك، ونمطت النتيجة في عدة انفراجات في قضايا الحد من التصنع للنووي والأسلحة الكيماوية. وكان شيفرنادزة توافاً للبناء علي روح جاكسون هول باستضافة مباحثات مماثلة في منطقة بحيرة بايكال الخلابية في سيبيريا. وكان من المقرر أن أترجه لاحقاً إلي منغوليا لإجراء مباحثات لتشجيع الإصلاحات الحكومية الوليدة التي تباعد عن سبعين عاماً من الحكم الشيوعي. وكنت لأزال أعاسي من

لأثار أسوأ نزلة أنفلونزا معوية أصابني في حياتي حين كنت أشارك في الاجتماع السنوي
لمنددي للتعاون الاقتصادي لآسيا والباسيفيك في سنغافورة .



في ذلك الحين كانت نزعة صدام للقتالية البلاغية الجديدة تشكل مصدراً للقلق لا
الانزعاج . واعتبر معظم مسئولى الحكومة الأمريكية أنها محاولة متعمدة من بطجي
لتخويف الكويت ودفعها للإذعان لتجنب العدوان بدفع الأموال والمساعدة في تسديد الديون
الخارجية العراقية الباهظة . ويعتقد البعض أن صدام كان يسعى للحصول على تنازلات في
نزاعه الطويل على الحدود مع الكويت، وهو النزاع الذى شمل أيضاً حق الرميثة البترول
المريح . وأبلغنا أصدقاؤنا في المنطقة، وهم الرئيس المصري حسنى مبارك والمملك حسين ملك
الأردن والمملك فهد ملك السعودية . بل والإسرائيليون أيضاً أن صدام يناور في سبيل الحصول
على مميزات دبلوماسية، وأنه لا يمد الحدة لشن الحرب . وقالوا جميعاً: خذوا الأمور ببساطة،
ولا تفلتوا، إننا نعرفه فإن يقدم على عمل جلوى .

وكان أسوأ السيناريوهات يفترض أنه قد يستولى على حق البترول المتنازع عليه في
شمال الكويت، وما هو أكثر إثارة من ذلك فقد كان أسوأ غير منطقي حتى بالنسبة لصدام .

ولدى وصولي إلى أوكوتسك في الساعة ٢٥: ٢ فجراً في الأول من آب أغسطس تجمعت
لدى المخابرات الأمريكية نذر تبحث على التلقئ تمثلت في تحريك عدة فرق من قواصدها
لتتخذ مواقع لها بالقرب من الحدود مع الكويت . ونفقت التشكيلات الهجومية التى اتخذتها
هذه القوات محلياً للصكريين إلى نتيجة حتمية وهي أن صدام مَقْدَمٌ على شن هجوم .

وهي وقت لاحق من ذلك للصباح بدلت أنا وشوغرنادزه يوماً كاملاً حافلاً بالأنشطة
شملت عقد اجتماع لمدة ساعتين . وتلا الاجتماع مأدبة غداء ثم نزهة على سفينة
هيدروفيل في بحيرة بايكال أكبر مسطح للمياه العذبة في العالم، ويخترقها أكثر من مائة
نهر، وتبدو أكبر من حجمها الطبيعي . وعقدنا اجتماعاً آخر في كوخ قديم جميل للسيد . قيل

لذا إنه بنى شخصياً بمناسبة زيارة الرئيس لينينغور التي ألغيت عقب انهيار مؤتمر قمة باريس عام ١٩٦٠م مع رئيس الوزراء السوفيتي حينذاك نيكيتا خروتشوف. ثم خرجنا في رحلة صيد لتسعين دقيقة في نهر أنجارا حيث لم يظهر شيفرنادزة وأنا إلا بصيد سمكة واحدة لكل منا، وعندما عدنا إلي للرصيف اعتلاء شيفرنادزة ثم انتزع سمكتي الأصغر بلطف قبل التقاط الصور التذكارية. وعدنا إلي الكوخ لعقد لاجتماع تكلي آخر تجاور منته المقررة بساعتين ونصف، مما استدعي إعداد مأدبة عشاء حافلة من ثمانية أصناف في ظرف ساعة واحدة. وعلي مدار اجتماعات رسمية لأكثر من ثماني ساعات بحثنا موضوع المراق دون استفاضة، وفيما بدأ الوضع محملاً بالكثير من اللذرة تحدثت موسكو وواشنطن وعواصم الشرق الأوسط هي الاجتماع علي أن سدام لا يزال يلعب لعبة التخريف .

ولم أعد إلي غرفتي بهندق أركوتسك إلا في منتصف الليل. وقبل أن أوي إلي فراشي تلقيت مكالمة هاتفية من بوب كيميت وكيل وزارة الخارجية للشئون السياسية المكلف بمتابعة الوضع في العراق في واشنطن. كان الوقت وقت الظهيرة بتوقيت واشنطن متأخراً ثلاث عشرة ساعة عن توقيت أركوتسك، وقال كيميت: إن الوضع يتدهور علي ما يبدو، وفي اجتماع لجنة النواب وهي فريق إدارة أزمة من مختلف الوكالات خلصت وكالة المخابرات الأمريكية إلي أن الخلاف بحلول يتخذ صورة الفوز. وقال كيميت أيضاً: إن اللجنة أوصت بأن يحصل الرئيس بوش هاتفياً مباشرة بصدام حسين علي أمل نفاذ وفزع هجوم عراقي. وكان الرئيس يدرس هذا الخيار مع معاونيه باستفاضة عندما تلقى نبأ العرو العراقي .

وفي تمام الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباح اليوم التالي عاود كيميت الاتصال لوبلنكي بتطور آخر. وتحدث كيميت باقتضاب عبر وصلة اتصال آمنة بالقمر الصناعي. ورغم الكشف الدوري لأجهزتنا الأمنية بحثاً عن أجهزة للتنصت كنا نفترض دائماً أن هناك من يتنصت علي حديثنا أثناء جولتنا الخارجية. وسأل كيميت: هل تذكر الموضوع الذي تحدثنا فيه من قبل، أجبت: نعم، حسناً إن رجالك كثير يفتقدون الآن أن البلد الذي كنا نتحدث عنه بات علي وشك للتمحرك علي الأرجح (ديك كبير هو نائب المحابرات المركزية الأمريكية، وقلت له: اللهم إني عرفت ذلك وسوف أتوجه للقاء صديقي هذا .

وربوني الأمل في أن يكون تقييم الوكالة مغرط في توقعاته. ففي العمل المخابراتي يكون توقع الأسوأ ولو خطأ هو الأكثر أماناً من الناحية البيروقراطية من إساءة التصرف وإخطاء الهدف.

وكلت أريد أن أعرف ماذا لدي السوفيت، فهم يرتبطون بعلاقات وثيقة مع صدام، ولهم تقييم مخابراتي أفضل كثيراً في أرض الواقع. وبعد أكثر من ساعة لاحقاً، وفي مستهل اجتماعنا أبلغت شيفرنادزه بأن لدينا أدلة علي أن العراقيين يحشدون قواتهم علي الحدود وطليت منه مراجعة الأمر مع مصادر المخابرات. وقلت له: يبدو الأمر سيئاً. نأمل أن نستطيعوا وفهم، كما أبلغه أيضاً بالقلق الذي تسببه لي للتقارير القائلة بأن السوفيت يدرسون بيع للعراق أسلحة جديدة. وأشارت إلي أن هذا أمر شيء تحتاجه العراق أو المنطقة في الوقت الراهن.

ورفض تماماً فكرة أن يكون صدام يعد العدة للهجوم. وكرر عدة مرات أن الإقدام علي شيء من هذا القبيل سيكون عملاً أعمقاً من جانب صدام. «لني لا أستطيع أن أصدق ذلك. فماذا يحتمل أن يجرى من وراءه فإنه وراء بالنسبة له. ولا مني قاتلاً: إلي جانب ذلك لو أن مثل هذا الحدث الخطير يحدث، لكان قد عرف به. لكنه كلف سيرجي تاراسينكو كبير مساعديه للشؤون السياسية مراجعة المخابرات السوفيتية. وفي نهاية الاجتماع قدم تاراسينكو الرد إليّ لدينا تقارير تفيد بحدوث أي شيء وهذا الارتياح علي شيفرنادزه وقال: «لا نقلق، لن يحدث شيء». ومع ذلك فقد علمت فيما بعد أنه زود وزارة الخارجية بتعليمات بالضغط علي العراقيين للتراجع لو ثبتت صحة الشائعات الأمريكية.

وفي التاسعة والنصف خرجنا للإدلاء بتصريحات مقتضبة عن مباحثاتنا وتلقى أسئلة الصحفيين. ولم يتم التطرق إلي الأزمة البادية في الأفق. وكان علينا أن نمضي ساعة أخرى سواً بينما الصحافة تبث تقاريرها. ومع استئناف الاجتماع سلمتني مارجريت تاثيرلر كبيرة المتحدثين باسم الخارجية الأمريكية مذكرة من صفحة واحدة جاء فيها: إن السفير الأمريكي لدي الكويت هاويل أبلغ مركز العمليات بأن القوات العراقية عبرت للحدود إلي الكويت واستولت علي بعض نقاط العبور الحدودية، ويبدو أنها تتحرك باتجاه مدينة أم قصر. وأشار إلي حدوث إطلاق نار.

• وأبلغ سفير الكويت لدى الولايات المتحدة كيلي مساعد وزير الخارجية الأمريكي بمعلومات مماثلة، وكانت نفس المعلومات لدى السفير ووصف العملية بأنها اختراق محدود، وقال لقد توغّلوا لمسافة كيلومترين أو ثلاثة. ولم يطلب المساعدة الأمريكية في تلك اللحظة، ويادرت بالقول: «أيها السادة، لقد تلقى مركز الاتصالات وللخارجية الأمريكية تقريراً بشور إلي أن العراق عبر حدود الكويت». «ولا أدري ما إذا كانت العملية احتلالاً جزئياً أم أنها تشمل الكويت كلها، ولا أدري أيضاً ما إذا كانوا يعتزمون تجاوز الكويت، ولكن هذا تقرير مؤكد بأنهم قاموا بعملية غزو».

وصحّق شيفرنادزة وأريكه تعرضه لتصلول أجهزة مخابرات دولته، واندابه الغضب من هول الفطة ناتها وكرر شيفرنادزة عدة مرات «إن هذا حماقة كبرى» وقال: «أعرب أنه سفاوح، لكن لم يدبر بخلاى مطلقاً أنه لأحمق. فالأرجح أنه سيدخل الكويت ثم ما يلبث أن ينسحب».

ومكثتلى مكالمة كيميت من استدارة حمية شيفرنادزة الجورجية إلي أقصى درجة. فلو لم يقدّر لي أن أبلغه بأنه من المحتمل حدوث غزو عراقى فريما لم يكلف نفسه عطاء مراجعة الأمر مع نظامه. وعندما أكدوا له أثنى لا أعى ما أتحدث عنه، سهلت علي ثورة المعصب التى اندلته نتيجة إحساسه بالارتباك من إقناعه باتخاذ ما كان يحظر خطوة بالغة الصعوبة.

فلو أردت إثارة خصومة أحد مع عميل فلا بأس من أن تجعله يقع فريسة للكذب من جانب العميل أو من الدوائر المتعاطفة مع العرب المؤيدة للعميل في وزارة للخارجية السوفيتية. وصب غضب شيفرنادزة من تصلول صدام في مصلحة الدبلوماسية الأمريكية في كل مراحل الأزمة.

ومارست ضغوطاً علي شيفرنادزة لوقف شحنات الأسلحة إلي العراق ومشاركة الولايات المتحدة في إدانة الغزو والسطابة بالانسحاب للقوى للقوات العراقية.

وراجع تاراسينكو موسكو، وأكد صحة معلوماتي.. واتفق شيفرنادزة علي أن هناك حاجة لشكل ما من أشكال الرد للقوى. لكنه قال إنه لا يستطيع تقديم أى ضمانات بهذا الشأن قبل التباحث مع جورباتشوف.

وأشرت قائلاً: «أعتقد أنه يتعين عليكم توجيه رسالة إلي صدام الآن، ويات من الواضح أنه لابد من اختصار ريارتي إلي أولان باتور. لكن المهم ألا تلغي كلية. ومنغوليا بلد صغير يقطنها مليوناً نسمة متجانسون عرقياً، وتتمتع باقتصاد غير معقد، ولعمد خضع هذا البلد نهضة الجارين الشيوعيين الصلاقيين الصين والاتحاد السوفيتي، وأصبحت الآن دولة حديثة العهد بالاستقلال والديمقراطية. بل إنها أول دولة شيوعية في آسيا تلتزم بإجراء إصلاحات، فقبل عدة أيام فرغت منغوليا من إجراء أول انتخابات متعددة الأحزاب منذ سبعين عاماً سجلت نسبة إقبال الناخبين فيها ٩٠ في المائة. وتباطأ امتداد الثورة في أوروبا الشرقية إلي الأورال لكن ديمقراطية منغوليا أمامها فرصة ذهبية للارتداد، وكنت أريد تقديم المؤازرة الأدبية من الولايات المتحدة لمساعدتها في تقرير المصير .

ومن محاسن الصدف أن رتب دينيس روس ويوب زوليك كبير مستشاري للشئون السياسية لعدم الانضمام إلي منغوليا والتوجه جواً مباشرة إلي موسكو لعقد اجتماعات التخطيط السياسي المشترك مع تاراسينكو. لقد كانت دفعة قيمة، لكن روس وزوليك كانا قد أصمرا هدفاً خفياً، وهو أنه بتغيبهما عن زيارة منغوليا فسوف يعودان إلي أستراليا في الولايات المتحدة الأمريكية قبل عودتنا بيومين، واعتقد أن التاريخ حافل بأمثلة عن القرارات المألوفة التي اثبتت فيما بعد أنها كانت حاسمة في مسيرة الأحداث الجسام. وسهل تغيبهما ما كنت أعتقد أنه شرط لازم للإدارة للناحية لأزمة الخليج. حيث ساهم في إقامة تعاون فعال مع السوفيت ضد حليفهم صدام .

رسم كل منهما مقعداً علي طائرة شيفرناذر للذهبة إلي موسكو، وعلمت فيما بعد أنهما استمتعا بوليمة من الكافيار والجبن والخبز الأسمر. ولم يكن هنا سوى مؤشر صغير ذي دلالة بليغة علي سوء ترتيب الأولويات الصهيونية، فالسواطين السوفيتي الحادي يضطر للانتظار لساعات في طوابير الخبز للحصول علي احتياجاته. بينما دبلوماسيوه يتهمون الكافيار في مآذهم. وأثناء الرحلة لم يدر سوى الثقيل من الحديث حول الكويت. واتفق مساعداي مع تاراسينكو علي أن الكثير لم يعرف بعد عن نوايا صدام. وكان للبعض لا يزال يعتقد أنه سيحتل الأراضي المتنازع عليها لإكسابه قوة في إيتراز للسعوديين والكويتيين للحصول علي تنازلات مالية .

وبدلاً من التوجه إلي ناشأ خارج موسكو لمباحثات مصنية علي مدار ثلاثة أيام مع تاراسينكو فسد روس وزوليك مقر السفارة الأمريكية في موسكو مباشرة لينصم إليهما بيتر هاسلوثر أحد مصاعدي روس الذي أيد فكرة الضغط علي السوفيت لإصدار بيان مشترك بإدانة العراقيين. وأصر زوليك قائلًا: لكن لا بد وأن يأتي بيكر إلي هنا، عليهما أن يقفا جنباً إلي جنب ويصدرا بياناً مشتركاً وإلا فلن يكون فاعلاً .

كانت للحسابات غاية في الوضوح فأعراب للقوتين العظميين عن تضامنها كقيل بعزل العراق، والتأثير علي الآخرين في الانضمام لنا لصعد عدوان صدام . فمال هذه الأرضية المشتركة سرورة لمنع حدوث شرخ في العالم العربي، فلو التزم الحامي الرئيسي لصدام بموقف هامشي فسوف يستطيع التولوي حلف الصمت السوفيتي، وسيحذوا حذوه الكثير من العرب. لكن إذا أمكن إقناع السوفيت بمخاطبة عملهم فسوف يستعصي علي الكافرين في المنطقة أن يظلوا في نفس للمسكر. إن صدور بيان مشترك سيشكل خطوة مهمة نحو إقامة تحالف لصعد عدوان صدام .

وعندما أثار روس الفكرة معي لأول مرة لم أصدق حقيقة أنه يمكننا إصدار بيان مشترك، فسوف يتوخي السوفيت الحذر. فهم يريدون التحدث مع بغداد، ثم ينتظرون ليروا. وسوف نعارض الدوائر المتحاطفة مع العرب في الخارجية السوفيتية إصدار بيان مشترك بدعوي عدم المخاطرة بحياة ثمانية آلاف مواطن سوفيتي يقيمون في العراق، ولكنني اعتقدت أن النتائج مجدية عن المعامرة باحتمال الفضل، وفوست روس في مفاتحة تاراسينكو بالفكرة .



وقيل مغادرة سببوريا إلي منفوليا تحدثت مع برينت سكوكروفت مستشار الرئيس للأمن القومي الذي كان موجوداً في كلوراندو للمشاركة في اجتماع الرئيس بوش مع رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر، وقال برينت لا جديد فلا يكاد يوجد عملياً تقييم ميداني

للمخابرات الأمريكية، وسوف يستغرق الأمر لثنتي عشرة ساعة ليقوم قمر التجسس الذي يسمح المنطقة بجولة أخرى «ولا يمكننا الاعتقاد بأنه سيتوقف عند الكويت، ولكن نتيقن من الأمر لعدة ساعات، لقد كان احتمالاً مضمناً، وحتى ولو سمح لنا السعوديون بنقل قوات وطائرات أمريكية إلى المملكة فلا يمكن أن يصل الأفراد أو العتاد في الوقت المناسب أو بأعداد تكفي لصد الهجوم العراقي علي شبه الجزيرة العربية، هو قرر صدام دخول العربية السعودية سنكون عاجزين عن وقفه.

وبعيد الإقلاع من أركسوك انصلت بكيميت الذي أبلغني بأنه اتضح الآن أن العراقيين يتحركون ناحية مدينة الكويت، وأن لديهم خططاً لاحتلال مدينة الكويت كلها، ثم انقطعت خطوط الهاتف مع الطائرة بدون تقشير، ولم يستطع طاقم الطائرة تفسير كيفية انقطاع خطوط اتصالاتهم المؤمنة عبر القمر الصناعي، وعرفت في وقت لاحق أن خطوط الاتصال عبر القمر الصناعي مع الطائرة من واشنطن قد تم تحويلها لتقديم مزيد من التغطية للمخابراتية لحركات القوات في العراق والكويت .

ولدى وصولنا إلي أولان باتور كان في استقبالنا السفير جوي ليك وأقلنا السيارة مباشرة إلي مجمع (خ - نينجهير وهو بيت شيفة حكومي بسيط متسخ يقع في واد تحيط به الجبال، ونحمل مقر الإقامة السابق لرئيس الوزراء إلي محمية طبيعية ترحب في أرضها الأيائل والغزلان بحرية تامة. وأتذكر كيف أنني أمضيت يوماً كاملاً أخوض في الثلج التي نصل إلي الحصر في مزرعتي في ويومينج لصيد الأيائل، وما أذا الآن تحيط بي العشرات منها وتعدني القيود المفروضة علي سيدةا .



وبأوامر سريعة عقدت اجتماعات مع عدد من الزعماء المنغوليين، وفيما بعد انتقل الجمع بأسره إلي خارج البلدة بعدة أميال لمشاهدة صورة مختصرة للنادام وهو استعراض تقليدي للمهارات القتالية، وأقيمت مباريات مصارعة ومنافسات للرماية بالسهم وسباق

للخيول التي يقودها أطفال ثلاثة أميال فازت به طقة في الخامسة من عمرها من بين أكثر من مائة متنافس، وبناءً على طلب من مضيقي جريت الرمي بالسهم وقدمت جوائز للفائزين الذين كانوا شأنهم شأن كافة المشاركين والمتفرجين يرتدون ملابس وطنية زاهية الألوان، كم كان مهرجاناً مثيراً.

وقبل انتهاء هذا المزيج المنغولي لمباريات الروديو والمصارعة أبلغني الجنرال هوارد جريغز مندوب هيئة الأركان المشتركة في الرحلة بأن لديه معلومات مستجدة لي. فبعد هبوطنا في أولان باتور انفصل جريغز عن الموكب وتوجه إلي السفارة الأمريكية المرفقة من ثلاث حجرات بمبنى للشقق السكنية، واستخدم الخط المؤمن الوحيد في السفارة للاتصال بمركز العمليات في وزارة الخارجية حيث أطلعه ديك كلارك مساعد وزير الخارجية لشؤون العسكرية السياسية علي أحدث المستجدات، ولدي عودته معي في السيارة أبلغني جريغز بأن حاملة الطائرات الأمريكية اندهندنت راسية مع مجموعتها القتالية في قاعدة ديجوجارسيا، وستتحرك علي الأرجح صوب شمال بحر العرب، ويمكن دفع طراد وفرقاطة من القوة الأمريكية في الشرق الأوسط إلي الخليج، ويقف تشكيل هجومي من طائرات إف/١٥ وإف/١٦ علي أهبة الاستعداد للإقلاع من أوروبا، وقد بدأنا اتصالاتنا مع السعوديين لمعرفة ما إذا كانوا سيسمحون بدفع هذه الطائرات للمركز في قواعدهم بالصحراء. وسوف تستمر اجتماعات لجنة النواب بالخارجية أثناء الليل لصياغة الخيارات. وسوف يجتمع الرئيس مع مجلس الأمن في غضون أربع ساعات لدراسة هذه الخيارات قبل توجيهه للقاء السيدة باتشور.

وقبل الشاء قررت الدحول عن البرنامج المتوازن الموصوع لزيارة منغوليا، بما في ذلك الجولة المقررة لصحراء جوبي. وبادرت بالاتصال بالرئيس وفاتحته في فكرة البنيان المشترك مع السوفييت، وأبلغته بأنني لا أعرف ما إذا كنا سنصل إلي هذا البيان. لكنه وافقني قائلاً إن الأمر يستحق عناء المحاولة، وفي هذه اللحظة تركنا الباب مفتوحاً لتقرير ما إذا كنت سأعود إلي واشنطن أم أتوجه إلي موسكو حتي نلتم مصالح موسكو علي أكمل وجه، وأبلغته أيضاً بأنني سأوفد ديك سولومون مساعد وزير الخارجية لشؤون شرق آسيا والباسفيك الذي يرافقني في أولان باتور إلي بكين. وباعتبار الصين أحد الأعضاء الخمسة الدائمي العضوية في مجلس

الأمن الدولي فإن تأييد الصين لإصدار قرار بإدانة الغزو واحتمال فرض عقوبات يعد أمراً حاسماً لكنه غير مضمون. فالصين في هذه اللحظة لم تكن سعيدة إلي حد كبير بسبب مروري في أجوائها أثناء رحلتي من سيبيريا إلي منغوليا دون التوقف ولو لفترة قصيرة في الصيف أثناء جولتي، وكما تبين فقد كان الطريق الأسهل بالنسبة لسولومون هو السفر إلي بكين، ففي هذا الجزء من العالم فإن الطريق المستقيم ليس دائماً هو الأسرع .

وكان العشاء أكثر إثارة من اللادام وقدمت علي للعشاء تسعة أطباق رائعة شملت الخروب التبري والصان والسان ولبي الفرس والأطباق المنغولية الساخنة، وتلا العشاء موجة ثم موجة من العارفين الموسيقيين من مختلف الأقاليم، ومنهم «عازف العجوة» الذي كان يصدر أصواتاً غريبة من عذجته أثناء عزفه علي آلة صنعت أوتارها من شعر الغزل. وخلال العشاء أفضيت لورير الخارجية بأنه سيتعين إنهاء زيارتي في اليوم التالي، وأعلنت ما أدي من أنباء غير سارة .

وامتدت مأدبة للعشاء لأكثر من ثلاث ساعات ولم تكن إلا بعد منتصف الليل، ونلتقي رسالة عاجلة من شيفرناذرة تطلب مني لقاء السفير للسوفيتي لدي منغوليا فور انتهاء العشاء. وتبين إيقاظ بيتر أفاناسينكو مترجمنا الروسي من نومه العميق بعد أن خلد إلي النوم. وسلمني السفير نسخة من البيان للعام الذي أصدره السوفيت لإدانة غزو صدام للكويت، لكن البيان كان أقل حماسة عن الرد الرسمي. وأراد شيفرناذرة أن أعرف أنه قد يكون من العمير التوصل إلي إتفاق حول البيان المشترك .

وكان المنغوليون أسخياء في كرم صيافهم لكن الاتصالات في هذا البلد تشكل كابوساً مرعجاً. فلا يوجد في البلد كله سوي تسعة خطوط هاتف دولية وضعوا واحداً منها في خنمئي والوفد المرافق لي فقط، ونتيجة لذلك وحتى خلودي إلي فراشي بعد الساعة الواحدة فجراً بقليل لم تكن نعرف أكثر مما كنا نعرفه لدي وصولنا قبل اثنتي عشرة ساعة .

وبالمصادفة اتصل روس بتاتويز في أولان باتور في نفس اللحظة وأبلغها أن شيفرناذرة يرغب في لقائي بالمطار في موسكو لبحث موضوع البيان المشترك. وأيقظتني من النوم وقدمت لي ملخصاً سريعاً، وأضافت قائلة بحزم: «إننا أردت لتمام ذلك فطورك الاتصال بالرئيس» .

وعندما اتصلت به في الساعة ١:٤٥ فجراً كان الرئيس قد أجرى محادثات هاتفية بالعمل مع الرئيس مبارك والملك حسين والرئيس اليمنى على صالح ويوشك على الاتصال بعدد آخر من زعماء العالم، ومع رعية شيفرنادزة في لقائي اتفق معي علي أنه من المهم استغلال ميزة تواجدى في منغوليا بالتوجه جواً إلي موسكو والعمل علي التفاوض لإصدار البيان المشترك غير المسبوق مع السوفيت. وباعتباره مندوباً سابقاً للولايات المتحدة في الأمم المتحدة قرر بوش قيمة تحقيق الاجماع الدبلوماسي في وقت الأزمات .

وكنيت أدرك أن التوجه إلي موسكو اقتراح يطوى علي محاطرة، شيفرنادزة قد حذرنى لئلا من أن إصدار بيان مشترك مهم سيكون أشد مشقة عما كان يظنه، ومثلت الخطورة في أنني لو ظهرت في موسكو ولم استطع التوصل إلي اتفاق مصمق الكارثة بأمال تشكيل تحالف قوى ضد صدام. فبمجرد الذهاب إلي هناك يمكن أن أضع مكانة أمريكا في الوطن، وقد تنهار العلاقة التي تربطني بشيفرنادزة وجورباتشوف. بل من المحتمل أن يذهب الاحترام الذي يكانه للرئيس بوش لأدراج للرياح. وكنيت أعي تماماً أيضاً أنه لو لم أذهب إلي موسكو فلن تكون هناك فرصة لصنوبر بيان مشترك.

وانفقت مع الرئيس علي ضرورة للشروع فوراً في صياغة مشروع قرار للأمم المتحدة يمكن أن يوفر في نهاية الأمر أساساً للعقوبات الاقتصادية ضد العراق. وأشار أيضاً إلي ضرورة التفكير في احتمال فرض حصار بحري لتطبيق هذه العقوبات.

وفي الوقت ذاته التقى تاراسينكو بنظيره الأمريكيين واصطحبهما بالسيارة إلي مقر الخارجية السوفيتية لإجراء مشاورات، واقتراح قللاً: «دعونا نعرف أحدث المستجدات» واقتصر روس أنه سيستدعي أحد ممرضيه في الساعات ليقدّم تقريراً مفصلاً موجراً وبدلاً من ذلك فتح جهاز التلفزيون علي قناة C.N.N. ورغم تواجدهم المكثف في العراق كان السوفيت أكثر جهلاً منا بما يجري. ومارس روس سغبوطاً مكثفة علي تاراسينكو لإصدار بيان مشترك وقال: «لقد حان الوقت للإعراب عن أن بوسطن أن يصبح شركاء. إننا تحدثنا عن التحول من التنافس إلي التعاون، وعلينا الآن أن نتحدث عن الشراكة. فإذا كنا قد بدأنا حقبة جديدة حقاً، فلا يجسد ذلك سوى أن نكون معاً، ولعل أبلغ تجسيد علي أننا لم نبدأ حقبة جديدة هو ألا نستطيع أن نكون معاً .

ومصي روس يقول: «سوف يستفيد صدام من أي تباعد. كما سيستفيد أيضاً من صمكم، فن يفيدكم أن تلمزوا الصمت علانية وتلقفوا سرّاً» .

ورد نارسينكو بدون تردد «إنني ألتحق مطع» واتصل هاتفياً بشوفرنادزة الذي أقره علي رأيه، وقال إنه سيتصل بجورباتشوف، وشرع اندروكاريندالي مساعد روس في البحث عن طابع آلة كتابة، وعثر علي أحدهم يكتب اللغة الانجليزية في مكان ما في الفندق .

كان أول مشروع للبيان يضم (١٣٥) كلمة، ووصف الغزو بأنه «وحشي وغير مشروع ... وهراء ومردول» . وطالب بالانسحاب الفوري من الكويت وحث كافة الدول علي المشاركة في فرض حظر علي شحنات الأسلحة للعراق وخلص إلى أنه يجب أن تمي الحكومات التي تشارك في عدوان صارخ أن المجتمع الدولي لم ولن يقبل أو يسهل هذا العدوان .

وبعد عودته إلي سباسوهامس مقر إقامة السفير الأمريكي اتصل بي روس في الساعة الرابعة فجراً في منزولي لقراءة مشروع البيان، كان مشروع البيان قوياً وواضحاً، وهو ما كنا نريده باليسيط، وأصدرت تعليماتي لروس بأن يمارع بعرضه علي سكوكروفت الذي كان يخلق في الأجواء عائداً مع الرئيس من كلورادو.

وعندما استقبلت في الصباح في أولان باتور أبلغني جروفر أن عدد القوات العراقية في الكويت بلغ مائة ألف جندي، وأنها أخذت تكرر احتلالها، ومع ذلك بذلت الدبلوماسية الشخصية للرئيس توتّي ثمارها . حيث انضمت إلينا بريطانيا وفرنسا في تجميد الأصول الكويتية لإبعادها عن يد الحكومة الحمية التي شرع الغزاة في تشكيلها . كما قررنا أيضاً تجميد الأصول العراقية في الولايات المتحدة الأمريكية .

وشحرت بأن إقامة للكتلاف دولي ضد العراق والحفاظ عليه بعد أمراً حاسماً، وسيكون مهمة عميرة . لذا فقد بدأت العملية علي الفور بسؤال وزير الخارجية المنعولي للانضمام إلينا في إدانة الغزو، وقال: «إن موقفنا يمثل في أنه باعتبارنا نحن أنفسنا بلد صغيراً، لا يجب علي أحد أن يلجأ إلي القوة، إننا ندين هذا حقيقة، كان مثل اقتراض السمكة الكبيرة للسمكة الصغيرة حكمة استعنت بها علي مدار ثلاثة أشهر في محاولتنا للحصول علي مساعدة الدول الصغيرة لتحالفنا» .

وفي غضون ذلك عاد تاراسينكو مرتبكا إلى سياتو هاوس في العاشرة صباحاً حاملاً نسخة مختلفة كل الاختلاف لمشروع البيان المشترك المقترح. وقال لقد أمضيت وقتاً صعباً مع الوزارة، كان بياناً متهاقاً. لقد أصعب البيروقراطيون علينا.

لقد أغضت تلك النسخة تفهم إشارتنا لاتخاذ إجراء مشترك وخطوات إضافية للتعامل مع الأزمة. بل والأسوأ من هذا اخذت الدعوة لفرض حظر على الأسلحة لتحل محلها إشارة صيغة بكلمة «الاحتياجات العراق» وبدا المشروع كما لو أن صلح هو للذي صاغه بنفسه .

وشكا روس قائلاً: «سيرجي» هذا ليس مشروعاً مضاداً إنه ثورة مضادة إنه غير معقول بالمرّة، إن هذا يدعو لعدم إsteller بيان علي الإطلاق، فإذا كان هذا هو كل ما يوسعكم صعله فنصف اتصل ببيكر وأوسيه بعدم المجيء .

لقد ولتت روس قوة لا يتحلى بها، وفي منغوليا كانت تفتوير قد ايقظت بالفعل وفد الصحفيين المرافقين لنا عند منتصف الليل لإبلاغهم بأنني سأختصر زيارة منغوليا وسأوجه إلي موسكو. وكنت أدرك أن ذهابي إلي موسكو سيبرز للوقوعات، ويضع مزيداً من الضغط علي شيفرنادزه وجورياتشوف لعمل الصواب، لكن تاراسينكو لم يكن يعرف أني مساعدي أزماني علانية بالذهاب إلي موسكو، وفي الواقع لم يكن روس يعرف بالأمر، ويبدو أن سياسة حافة الهاوية بدأت تؤتي مفعولها .

وقال تاراسينكو: «استرخ وكتب ما تشاء. وسوف نواصل للعمل، وعُدل روس عن اللغة المتشددة في المشروع الأصلي للبيان، ووافق تاراسينكو علي كل ما جاء بالمشروع باستثناء عبارة تقول إن الدولتين «علي استعداد لبحث اتخاذ مزيد من الإجراءات» في حالة رفض العراق للانسحاب، وخفف روس للجهة، ووجدنا تاراسينكو يحمل الوزارة علي الموافقة، وقال سأصل بك عما قيل .

ومرت أربع ساعات دون أن يتلقى روس إجابة وحاول روس بعد أن اقتدرسه انقلق من عدم إمكانية صعود تاراسينكو في المساومة ، إثنائي عن السفر إلي موسكو . لكن الطائرة كانت قد أُلغيت بالفعل، وأجبراً تمكن من الاتصال بي بعد محاولات استغرقت عدة ساعات لكن الطائرة كانت علي وشك الهبوط لإعادة للتزود بالوقود في أركوتسك، ولم يتسع الوقت

للحديث ونظراً لوقوع مطار أركوتسك في واد فلن يقضى الاتصال عبر القمر الصناعي ونحن على الأرض، وقلت له سوف اتصل بك بمجرد أن تحلق الطائرة في الجو مرة أخرى .

وأثناء هبوط الطائرة انفجر إطار إحدى عجلاتها، ولتضح أن تغيير الإطار عملية بالغة التعقيد، ففى البداية تعين إخراج محزن الطائرة بالكامل لاستخراج الإطار الاحتياطي، ثم تبين أن المرافعة العتيقة التي بحوزة السوفيت غير قوية لدرجة تستطيع التعامل مع طائرة القوات الجوية الأمريكية التي نقلنا، وتعين للقيام بعملية من عمليات الحشو المؤجلة لتحسين قدرة الراحة على رفع طائرتنا، ووجدنا الحاكم المحلي فرصة ملائمة ورتب جولة مرتجلة لأركوتسك حتي يمر الوقت .

وعودة إلي موسكو حيث انتهى تاراسينكو من وضع مشروع بيان شهد نمسناً كبيراً عن النسخة الأصلية . لكنه لا يزال غير مقبول، وأصدر البيروقراطيون علي أن صدور بيان متشدد يعرض للخطر أرباح ثمانية آلاف من السوفيت يقومون في العراق .

واحتج قائلاً: «انظر لقد أبلغتُ بأننا نحمل مسؤولية الدم الروسي، ولا يمكننا أن نفعل ذلك . إنه يذهب مدي بعيد أ للغاية . إن لنا الكثير من المواطنين هناك، إننا نعزف لخمسة أمريكية ولا يمكننا فعل ذلك، إن الأمر استلزم جهداً معنوياً لعمل البيروقراطيين، علي التوصل إلي هذا الحد .

ورد روس مهدداً: «سيرجي إذا اتصلت ببيكر فسوف أطلب منه أن يعود أدراجه . فهذا أسوأ من عدم صدور بيان علي الإطلاق .» وأذن تاراسينكو علي مضمّن قائلاً: «حسناً، قل لي ماذا يدور في ذهنك ولنقم بمراجعة مشروع البيان سطرأ سطرأ .

وتمارن روس وتاراسينكو للتوصل إلي مشروع نهائي وسط، وتوجه تاراسينكو إلي وزارة الخارجية السوفيتية علي وعد بالعودة في غضون عشر دقائق . لكن مرت ثلاث ساعات دون تلقي أي رد . ولم يكن بوسع روس للشحيط وزملائه عمل أي شيء نظراً لعدم قدرته علي الاتصال بي بالهاتف، وعدم الاتصال بتاراسينكو أيضاً . وانتهزوا هذا اليوم الصيفي غير المألوف في موسكو، وقتل الوقت جلسوا في فناء سياسوهاوس تحسباً لوقوع الأسوأ، وفي لحظة ما اعترف روس : «أعتقد أننا نتعرض لضغوطه .

وأخيراً عاد تاراسينكو بالرد. فالدوائر المؤيدة للعرب تُدفع نحو الإنعان مع استثناء واحد حاسم. وقال تاراسينكو: «إن البيان مقبول مع استثناء الحظر على الأسلحة، وكنكليه مقدس في المفاوضات فإن النقص مثل الخلاف يوضع بين أقواس، واحتج روس قائلاً: «علينا أن نلتزم بذلك، وإلا فإن يكون للبيان أي معنى أو يقود لأي عمل».

وعندما هبطت في مطار فوكوفو/ ٢ في تمام الساعة ٧:٣٠ مساءً صعد روس وزوليكا إلي الطائرة لإطلاعي علي الموقف. بينما شيفرنادزه ينتظر في إحدى القاعات وراود روس قلق عارم من أن السوفييت قد يخلقون سبباً آخر للتراجع عن إصدار بيان رغم التلميذات الأخيرة التي قدمها تاراسينكو، فالشكوك تحوم الآن حول مصداقيته: فطالما تحكم فيه المتشددون عدة مرات، وقال في تهرم: «لمت علي يقين من إنه بوسعنا إصدار البيان فلا أعرف ما إذا كان سيرجى يستطع إنجازه».

وقلت: «حسناً، إننا هنا لا ينبغي أن يستعود علينا القلق، علينا للمضي في الأمر».

وقال: «أعتقد أن هناك فرصة لكن عليك الضغط بقوة لأن الضغط يستهدف فريقه وسوف يستغل رد فعلك لتفسير سبب حذف الأقواس».

واستقبلني شيفرنادزه علي درجات قاعة الوصول، ثم توجهنا مباشرة وسط تصايح الصعيين بأسفلهم بحر قاعة مؤتمرات في الطابق الثاني. واستغرق الاجتماع ساعة ونصف الساعة، وكنا نجلس جنباً إلي جنب علي أريكة في زاوية للقاعة.

وبادرني شيفرنادزه بخطأ اعتقاده عن العراقيين، وقال: «بالطبع لقد صنعنا مما حدث وإنني أتذكر سؤالك في أركوتسك وأجبت عليه بأننا ما كنا نتوقع وقوع حدث من هذا القبيل، ومن البديهي أن هذا عمل يستحق الإنانة بطبيعته، فلمت أري منطقاً وراء هذا التصرف، وقال شيفرنادزه: إنهم خارجون لنوهم من حرب استغرقت عشر سنوات، ومعني قائلاً: إن جوربانشوف بحث رسالة شديدة اللهجة إلي صدام حله فيها علي الانسحاب الفوري، لكن لم يصلنا رد رسمي. لكن للدبلوماسيين العراقيين يقولون: لا تدققوا أن نستمر طويلاً في الكويت، وكنت أعتقد أن شيفرنادزه وشك في مثل هذه التقارير مطلقاً».

وقال شيفرنادزة: أعتقد أن إصدار بيان مشترك أمر صائب وسليم، وجور بالتشوف يتفق معى فى الرأى، لكن يقلقه بعدان هما: أن للبيان قد يعرض للخطر الثمانية آلاف سوفيتى الموجودين فى العراق، وكذلك التسبب فى الموت للموجودين فى الكويت .

كما أن البيان قد يثير أيضاً غضب حلفاء آخرين للسوفيت فى العالم العربى، وقال مستمراً فى التفكير: ليس من اليسير أن يدبر المرء ظهراً لعلاقة صداقة وتعاون توصلت على مدار العقد الأخير، ومع ذلك فقد خلص واضحاً فى الاعتبار كل شيء - إلى أنه من الضرورى إصدار البيان، فالغزو سلوك غير متحضر بالمرّة، ولا يمكننا أن نقف بمعزل عن هذا حتى ولو كانوا أصدقاءنا.

وبدأت فى الرد قائلاً: إن لدينا أيضاً مواطنين معرضين للخطر فى العراق. لكن الحاجة إلى صدور بيان ذى مضمون حقيقى، وليس بياناً منمقاً تجعل من الصياغة غير ذات الدلالة بشأن حظر الأسلحة أمراً بالغ الخطورة .

وقلت: «تعين على أن أتى إلى هنا. لأننى أعتقد أنه من الضرورى الإعراب عن أنه بوسعنا أن نتصرف كشركاء. بل وسوف نتصرف كشركاء فى مواجهة التحديات المفروضة على الأمن الدولى، وبينما من السهل التحدث عن الشراكة فإن اتخاذ خطوة غير عادية بإصدار بيان مشترك يفرض حظر دولى على الأسلحة سيرسل إشارة للعالم وللراقبين على أن الشراكة الأمريكية السوفيتية شراكة حقيقية. وسوف يوجه أيضاً إشارة على أننا دخلنا معا حقبة جديدة ستظهر أنه عند نشوب أزمة سوف نكون على أتم الاستعداد للتحرك بسرعة وهزم بطريقة حاسمة .

فإذا لم يكن بوسعنا عمل ذلك فمالنا منقول للصحافة والمجتمع الدولى، حسناً سيقال إن الولايات المتحدة والسوفيت اجتماعاً وأصدرا بياناً يؤكد ما صنعه كل جانب بالفعل. ما الأمر؟

كانت شواغله بشأن المواطنين السوفيت الموجودين فى العراق مفهومة، وهناك أكثر من أربعة آلاف أمريكى أيضاً يتواجدون فى الكويت والعراق. ومع ذلك فمن المهم ألا يرونا شيء، ولا أريد أن أعطى حق أى من الإجراءات الشجاعة التى اتخذتموها من جانب واحد، ولكن مع ديكتاتور مثل صدام فإن شهيدته تنفتح مع الأكل، ولا يجب أن نشجع بالامتناع عن إصدار بيان مناسب. وقلت: إن الدعوة علانية لفرض حظر على الأسلحة سوف تعزز جدية

عرصنا ويدوبها هل يكون لدينا «سوي بيان فارغ» وهكذا ستثور التساؤلات عما إذا كان يوسع بلدنا الدحول في شراكة حقيقية. قمحك الاختيار - هو هل بوسعنا أن نتصرف سوياً في شراكة حقيقية وتطلب من الآخرين فعل ما فعلناه، أم نكفي بتكرار مشترك لما قاله كل منا بشكل منفرد؟ لقد كنت أضرب عامداً علي أوتار قلق سويتى متأصل بعرض فرصة علي شيفرنادزة للانضمام لنا في مناقشة للعالم.

وتساءل شيفرنادزة: «حسناً فماداً عن الفرنسيين، ففرنسا أكبر شريك تجاري للعراق، وإن يكون الحظر مجدداً أو رفضت باريس الانضمام إليه، وطمأنت شيفرنادزة بأنني سأتباحث قريباً مع رولان ديما وزير الخارجية الفرنسي، وقلت إنني أتوقع لو أننا دعونا إلي عرض حظر فسوف نتعرض فرنسا لضغوط قوية لو لم تنضم لنا «فسوف يصعبهم ذلك في موقف صعب». وكنت متأملاً لو أسير شيفرنادزة علي المقاومة أن أقول إن إخفاقنا في إصدار بيان ذي معنى سيكون تذكيراً مؤلماً علي أن العلاقة بين بلدنا لم تكن هي ما تصورتها وإن يكون أمانى بد من إبلاغ الرئيس بهذه النتيجة المؤلمة. وقال شيفرنادزة لا داعي، وأصاف: «عظيم، إنني موافق. إنني أرى أن الأمر مهم بالنسبة لك، سوف ترفع الأقواس من العبارة، واعتقد أن هذا بيان مؤثر».

وغمرني الارتياح. فكم كنت أعرف أن الأمر شاق علي شيفرنادزة، فقد كان رجلاً شجاعاً. لكنه واقع تحت صغوط هائلة من الدولار القويالية للعرب في الخارجية الصهيونية، وبوسعي القول أنه كان لا يزال غير مرتاح من احتمال التعرض للخطر لو رفضت نول أخري دعوتنا لغرض حظر علي السلاح. وفي محاولة لطمأنته علمت منه فيما بعد مسيرة طويلة بعد أن أصبح رئيساً لجورجيا أنه لم يكن قد حصل علي موافقة جورباتشوف علي التفرقة الخاصة بحظر الأسلحة في البيان، وأخذ الأمر علي عاتقه اعتقاداً منه بصحة

أبلغته بأنني أوفدت مبعوثاً إلي يكون لعث الصين علي الانضمام إلينا باعتبارها مورداً رئيسياً لتكنولوجيا الصواريخ للعراقيين. وكان شيفرنادزة غير متأكد من كيفية رد فعل العرب. فموقف سوريا حاسم، وكذلك موقف مصر التي وصفها بأنها مفتاح بناء التصامن العربي. وكنت أعلم أن حصني مبارك سيكون معداً، وأما ستكون في حاجة لتعاون تام من جانب إسرائيل. فلو ظهر الإسرائيليون بشكل سافر فيما استطاع صدام حينذاك لإحداث انقسام بين العرب الآخرين بتصوير القضية علي أنها صراع عربي إسرائيلي، وقلت إن الولايات

المتحدة متحارل إقناع إسرائيل بالالزام الصمت ،حتى لا يصبحوا قضية بديلة للقضية التي ينبغي أن يتركز عليها هذا القلق» .

وقال شيفرنادزة ،كلمات للضجة التي تصدرها إسرائيل كلما كان ذلك أفصل . فذلك قد يسهم فقط في إثارة حفيظة العرب ويريد غموض القضية . . وطمانت شيفرنادزة بأننا أئرنا القضية مع الإسرائيليين بالفعل .

وفي غصون دقالت قلالت من الحوار وضعت مع شيفرنادزة الخطوط العامة الضرورية لمعايير التحالف الديلوماي الذي سيتم تشكيله ضد صدام في الأسابيع السابقة علي إقاعه بالتراجع عن غزوه للمكود .

وقبل انتهاء للمحادثات أعرب شيفرنادزة عن قلق آخر ما لبث أن لُح في تكراره علي بتأثر شديد علي مدار الأشهر السنة للتلالية . فقدقال : «هناك شائعات بأن للولايات المتحدة الأمريكية تعترم شن غارات جوية علي بغداد وطمانته بأن الشائعات غير حقيقية . ورد قائلاً : «أعرف ذلك وإلما عبق هذا الاجتماع . لكنه أراد للحصول علي إلزام بأن للولايات المتحدة لن تشرع فوراً في اللقيام بإجراء عسكري ، وأننا لن نفاجئ بشيء غير متوقع» كان شيفرنادزة يعزب بهاء علي أوتار شكوك الليبروقراطيين في وزارته .

وقلت :«يسعني القول إننا لن نقدم علي هذا العمل ، بل ويسعني أيضاً القول بصديق وبحسن نية ، إذا من مواطنونا شيئاً سوف تنقلب الدنيا رأساً علي عقب ، واعتقد أن الأمر يصرى أيضاً عليكم ، فلن نخل أيدينا .

روافق شيفرنادزة «هذا مفهوم .. ونحن نهم بإنهاء المناقشات أردت أن أذكر شيفرنادزة بالشروط الذي قطعاه ، وقلت «لنوارد ، أنت تعلم لو أن هذا حدث قبل خمسة أعوام بل وربما ثلاثة أعوام لوضعت هذا الأزمة برمتها في سياق التناقص والمواجهة بين الشرق والغرب . ولو حدث ذلك لكان في غاية للخطورة . إن هذا معيار لما أنجزناه .

وأبدي شيفرنادزة موافقته . لكنه أشار إلي أنه وكما أظهرت هذه الأزمة فإن المستقبل قد يحمل الكثير من التحديات الازهية لتلك التي لجزناها من قبل . «دعنا نركز علي النتائج فالمهم أن يؤتى هذا للعمل مفعوله .

ثم بدأ في نزول السلم للرد علي أسئلة الحشد المتضخم من الصحفيين في القاعة الرئيسية للمبني. وقبل أن يقرأ كل منا نص البيان المشترك بدأ شيفرنادزة بمقدمة مهمة كان يستحس تصور صدورهما عن وزير خارجية سوفيتي قبل عام واحد. ولا غشاضة في إعلان حقيقة أننا قد عبرنا للتو وبسرعة خاسفة سنوات منذ أحد الأيام الشتوية لكاثون اللاني يناير عام ١٩٨١، وهو اليوم الذي عقد فيه الرئيس ريجان أول مؤتمر صحفي له. فبعد عشر سنوات انقسم ما وصفه بإمبراطورية الشر إلي عدوه اللدود في تحالف ضد ما نددت به أنا وشيفرنادزة بوصفه «هذا العدول السافر ضد الأعراف الأساسية للسلوك المتحضرة من دولة حليفة للسوفيت. وبعد عشرات السنين من الأذى السوفيتي في أماكن مثل أمريكا الوسطى وأفغانستان وأنجولا جاءت مظاهرة التضامن التاريخي بين القوتين العظميين .

وحديث شيفرنادزة مودعاً وغابرت مطار فوكوفو/٢ متجهاً إلي قاعدة لندروز الجوية ووصلت أرض الوطن في الساعة ٢١:٢٠ فجراً، وبعد خمس ساعات كنت علي متن طائرة هابوكير في طريقني لكاتب ديفيد للمشاركة في اجتماع مجلس الأمن لقومي، وكنت أعرف أن في انتظارنا عدة أشهر من التفاوض. لكن في طريق عودتي إلي الولايات المتحدة نال منا الإجهاد مبلغه بما يمكن فداحة التحديات التي تواجهها الدبلوماسية الأمريكية. تكن ومع ذلك كنت أنا والفريق المعاون لي علي يقين من أن تطوراً بالغ الأهمية قد حدث لدور في مطار فوكوفو/٢.

وفرق الأطلنطي لوصولي روس مع بيدر هاوسلور صاحب الاختراع بإصدار البيان المشترك، وهنأته علي فكرته الجهنمية للعظمة .

ورد قائلاً: «السيد الوزير إن هذا يوم مثير. إنه بشكل نهاية الحرب الباردة، لقد أغلقت بالفعل اليوم فصلاً، وبدأت في كتابة فصل جديد. وكان مصيباً في رأيي. ففي هذه الليلة من شهر آب أغسطس، وبعد نصف قرن من بدء الحرب الباردة بالشكوك المتبادلة والتنافس الأيدولوجي لفتلت هذه الحرب أنفاسها الأخيرة في قاعة الوصول بأحد المطارات علي مشارف موسكو .

الفصل الثاني

عقود ثلاثة من الصداقة

هل يطوب لنا العيش من دون أصدقائنا ؟

جورج بوش

قبل يومين من انتخابات عام ١٩٨٨م كنت أتناول شرباً مع جورج بوش في مقر إقامة نائب الرئيس في ناهيل أويديرفانوري. كنا قد اختلفنا لثورة حملة انتخابية أخرى شاقة لم نحل من أحداث عارضة غير مارة، ورغم أننا لم نأخذ أي شيء علي أنه من المسلمات كانت استطلاعات الرأي تجرم أنه سيصبح رئيساً للولايات المتحدة، وباعتلى بالقول: «أريدك أن تتولي وزارة الخارجية لو فرت في الانتخابات». وقبلت علي الفور فلا مجال للإستطراد في الحديث بعد صداقة تجاوزت ثلاثين عاماً، وانتقلنا بسرعة لبحث المسائل الأخرى بما في ذلك الحملة الانتخابية وأفكاره الأولية عن الترشيحات المحتملة في الحكومة وهيئة موظفي البيت الأبيض في إدارة بوش. وفي عالم للسياسة في واشنطن المعرق في الشك حيث لا يؤخذ أي أمر مهما كان علي علاقه. فإن مثل هذا التفسير غير المعقد للمبين أن يستساغ بسهولة. لكن هذا هو ما حدث بهماسة.

ولس أكون أميناً لو قلت إنه لم يشاغلي. وليس سراً أنني كنت مهتماً بالمنصب ومنذ فترة طويلة فقد توليت منصب رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض لأكثر من أربعة أعوام، كما شغلت أيضاً منصب وزير الخزنة لثلاثة أعوام ولم أكن أرغب في العودة للاشتغال بالمهام في هيوستون بولاية تكساس. لكن الحقيقة أنني لم أبحث أمر تعييني في المنصب حتي اللحظة التي عرض فيها عليّ. وعلي نقيض بعض التقارير المنشورة لم يتطور مستقبلي عندما طلب مني نائب الرئيس ترك وزارة الخزنة لإدارة حملته الانتخابية. فلم يكن من المستساغ أن يعرض عليّ هذه المهمة، ومن المؤكد أنه من قبيل عدم اللياقة لو أنني طلبت منه ذلك. فليس هناك ما يدعو لمناقشة مثل هذه الأمور بيننا. فمن علي نفس المرجة كالمهد دائماً في علاقتنا.

والأمر لا يحتاج إلي ذكاء معقد لمعرفة أن الخارجية بوصفها أرفع الوزارات في الحكومة هي بطبيعتها أهم المواقع الحكومية عن غيرها. لكن للوطن أهم من أي منصب حكومي.

وكان لدى من الأسباب ما يدفعني إلي الاعتقاد بأن الظروف ربما تكون مهياة أمامي للتجّاح في المنصب، وخامري للشعور بأنني ألتصق بالمهارات السياسية والتفاوضية الضرورية للاضطلاع بالمنصب عليّ أكمل وجه. ومن حسن حظي أن انضم لي في مجموعة السياسة الخارجية ثلاثة رجال هم وزير الدفاع ومستشار الأمن القومي ورئيس هيئة الأركان العامة المشتركة، وثلاثتهم أصدقاء وزملاء منذ فترة طويلة، وعلي مدار نحو ثمانين سنوات لكتسبت

حبرة في قصايا السياسة الخارجية من خلال عملي كوزير للحرانة ورئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض، وثمة ميزة تميزت بها دون أسلافى المحدثين وهي العلاقة الشخصية غير المسبوقة مع رئيس الولايات المتحدة .

فعلي مدار أكثر من ثلاثين عاماً إرتبطت مع جورج بوش بصداقة وطيدة تعود إلي أيام زوجتي الأولى ماري ستيفارت حين دعيت إلي منزل بوش علي وجبة هامبورجر، واقترح أحدهم أن تصبح شركاء في مباراة للكنس في نادي هيوستون الريفي، وفزنا بالثلثين من بطولات النادي . فقد كانت مهارته في الكرات الطائرة للقوية ولعبه من على الشبكة يكمل موهبتي في اللعب اتقوى من الخط الخلفي وإرسال الكرات اللوب (العالية الماقطة) ومع ذلك فلم يكمل كل منا الآخر في صربات الإرسال، فكانت صربات إرسالنا ضعيفة لدرجة درجنا معها علي اللندر بأننا للاعبين الوحيديين اللذين يعرف أن بإمكانهما لعب صرية إرسال ثم نجرى للنصف الآخر من الملعب لصدها .

ورق بوش وباربارا بجانبى أثناء مرض ماري ستيفارت بالسرطان، ويخالف أفراد أسرتها كانا آخر من زارها من الأصدقاء أوائل عام ١٩٧٠م قبل أن تدخل في الغيبوبة التي لم تفر منها مطلقاً . إنه الرجل الذي أكن له كل الاحترام والتقدير، وهو الشخص الذي ألجأ إليه عند الاقتضاء وطالما أعجبت بنجاحه في كل ما اضطلع به في حياته، وكان هذا مع بالغ احترامي ومشاعري نحوه سبب طلبى منه أن يكون أب العماد لإبنتي ماري بونر عند نعيدها .

وفي السياسة والخدمة في الحكومة كان ارتباطنا لا فكاك منه، ويعزز كل منا الآخر بدرجة ما منذ عام ١٩٧٠م فعندما خاض جورج بوش انتخابات مجلس الشيوخ في ذلك العام ضد لويد بلينسين أوعز لي بصوررة الترشيح لشغل المقعد الذي سيتركه في مجلس النواب، وكنت أشعر وقتها بأن مسئولياتي تجاه أبنائى الأربعة الشباب تحتل الأسبقية علي احترافى السياسة .

وبعد ثلاثة أيام من خسارتي للسابقة في الانتخابات لصالح المدعى للعام في تكساس عام ١٩٧٨م اتصل بي هاتفياً في فلوريدا حيث كنت أستجم وأشد للسوان . وقال بوش : «حيرها في غيرها، وطلب منى أن نعد سوياً حملته الانتخابية للرئاسة عام ١٩٨٠م ولذا فقد

قلصت حصتي بشركتي القانونية أندروز أند كورث مما يعنى ترك ما كان سيمثل الجزء الأكبر من الحصة المالية للشركة فى ممتلكات هولارد هوجيز. وليس من طبيعى أن أنظر إلى الزراء أبداً. فمن منا فعل ذلك؟ ويكل أمانة ككث مستعداً فى هذه المرحلة من حياتى لترك مهنة المحاماة بما تتطلبه عليه من إرهاب وقطرة أقل على للحدى.

ومند ذلك الحين واقتنى الفرصة لخدمة بلدى على أرفع المستويات لحوادثى عشرة سنة، ويرجع الفضل فى هذا لجورج بوش إلى حد كبير. ولا يرجع الفضل إليه فقط فى دفعى للاهتمام بالسياسة. بل أيضاً لحصولى على أول منصب حكومى. وحتى هذا اليوم لم ينس ببنت شفة على الإطلاق بأنه كان وراء تعيينى وكهلاً لوزارة التجارة فى إدارة فورد. لكن وللحقيقة فلبنى أعرب أنه هو الذى مارس ضغطاً - بالإنابة على - علي روجر مورلون وزير التجارة حينذاك حتى رغم توجهه إلى بكن ليصبح المسئول الثانى للحكومة الأمريكية فى الاتصال بجمهورية الصين الشعبية .

ولم ندم مطلقاً برفاهية التمدد على الأريكة وللخوض فى علاقاتنا الشخصية. لكنه كان يصغى بأننا علاقة الأخ الكبير بالأخ الصغير. واعتقد أن هذا وصف موفق ودقيق ينطوى على معاملة رقيقة. وشأن معظم الإخوة والأقارب عرف عنا أننا نتجادل ونصاحب فى السر. بل كانت هناك درجة صحية من التنافس الودى بيننا، ولم يهدر أحناء فرصة لإظهار الإشادة بصفات الآخر. فعلى سبيل المثال فقد أن نشرت مجلة نيويورك تايمز موضوع غلاف عن علاقتنا فى أيار مايو ١٩٩٠م بحث المصطفى تيد شتراوس رسالة لأذعة لى جاء فيها: إنه يتعين أن أدخل فى موسوعة جينز للأرقام القياسية للعالمية لارتدائى ربطة العنق أثناء ممارستى لعبة الحدائق مع الرئيس فى البيت الأبيض. وكما هو متوقع أرسل بوب شقيق تيد شتراوس وهو رئيس سابق للحزب الديمقراطي وصديق قديم لى ولرئيس نسخة من الرسالة إلى الرئيس: «لأننى أشك حقاً فى أن لى وزير الخارجية مايكلى من اللطنة لتقدير هذه الرسالة، ولم يكن بوسع الرئيس أن يقف مكتوف اليدين فقد كتب فيها رده على الرسالة «إن شقيقك المتهور بحث بالرسالة التى ضمنها هجومه الذى يفتر إلى اللبابة والدمائة على وزير خارجيتى الاعم. فالوند شديد التأنيق وعلى أية حال فلبنى لا أعبا بما يقوله أن شتراوس وسوف أدافع عن جيمس بيكر على طول الخط».

ومع ذلك فقد كان جورج بوش نغم الدفاع عنى حتى فى الوقت الذى ربما كان يريد فيه شفى . وكوزير للخارجية منحى درجة غير عادية من حرية العمل . كان لدى تصريح بالعمل ، وربما تكون قد تجاوزت السدي فى بعض الأحيان . لكنه لم يقدم مطلقاً علي مساءلتى وعصبت منى فى مناسبتين لمل أهمهما بعد بيامى المشترك الشائن مع وزير الخارجية السوفيتى الكسندر بسمرتديخ والتضمية الصحفية التى ألحمت نفسى فيها فى خطاب حالة الاتحاد فى كانون الثانى يناير ١٩٩١ م لكنه لم يعن ذلك علي الملاً أبداً .

وبين الحين والأحر كان الأخ الصغير يستطيع رد المعروف . وكترئيس لهيئة موظفى البيت الأبيض فى إدارة رونالد ريجان أوضحت للزملاء بكل وضوح أن ولائى للرئيس . وسعيت أيضاً للتأكد علي أن نائب للرئيس بوش فى الصورة دائماً ، وكان مكتبه بهورارى فى الجناح الغربى للبيت الأبيض ، وغالباً ما كنا نتبادل الزيارات لتبادل وجهات النظر والمعلومات .

وطيلة صداقتنا لم أبخل عليه بالنصيحة الصادقة ، وأعتقد فى الحقيقة أنه قال عنى إننى الشخص الوحيد الذى كنت أبغضه بما أفكر فيه بدون رتوش حتى ولو كنت أعلم أنه لا يريد سماعه . وأكثر من مرة على مر السنين طالما سمعت واحداً من رواده الأثيرة ، لما أنت فالح . ليه أنا نائب رئيس أو رئيس وأنت لأ ؟ ، كانت هذه الكلمات تشعرو بالارتياح رغم أنها وللغربة تعد مؤشراً علي مدى قوة العلاقة التى تجمعنا . وبالطبع كانت هذه هى طريقته المظي لإبلاخى بأن الحوار قد انتهى .

وفى عام ١٩٧٥ م أراد للرئيس فورد تعيينه مديراً لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبحث الأعضاء الديمقراطيون فى مجلس الشيوخ رسالة مفادها أنهم لن يوافقوا علي تعيينه إلا إذا تعهد فورد علانية علي دعمه من خوض انتخابات ١٩٧٦ . كان طلباً مهيناً . لكن فورد ترك الأمر لجورج . وأبلغت صديقى بأنه لخطأ فادح أن تدع حزب المعارضة فى مجلس الشيوخ يملئ شروط طريقك السهلى . وقتئذ : يجب عليك ألا تفعل هذا . ويجب عليك ألا تلغى مستقبلك الاساسى لمجرد تعيينك فى المنصب . لكن بوش اخلف معى قائلاً : « إن هذا هو ما طلبه للرئيس ، إنه شىء يفيدنى وسوء أقل به » .

وحنى تعيينى وزيراً للخارجية أعتقد أن أعظم خدمة أسديتها لجورج بوش هى تولى إدارة حملته الانتخابية عام ١٩٨٠ م ويرجع الفضل إليه بالطبع حيث كان فى حاجة لشجاعة

فائقة باعتباره شخصية غير معروفة بالفعل لي قدم علي ما أقدم عليه . فقد سبق وأسر لي
و نحن نجوب أنحاء البلاد بهدف استشراف الموقف أولئذ عام ١٩٧٩ : يعزينا التأييد والمال
والمعرفة بالقول «هل تعتقد أنني مجنون لأفعلها» وفي الوقت الذي كنت أريد ترشيحه بقوة ،
مرت علينا أيام كنت أعتقد فيها أننا مخبولان . لكن عناده وشجاعته في مواجهة الحقائق
الطويلة شحدا ملكائى الإدارية . وفي ذلك الوقت كنت الجمهورى الوحيد الذى أدار حملة
انتخابات رئاسية عامة . باستثناء جون ميتشيل ، ونتيجة لتلك الخبرة اعتقدت أنني قادر علي
المساهمة بطريقة مهمة في الحملة التى بدئت من الصفر فى استطلاعات الرأى وانتهت
بصديقى وهو مرشح نائباً لرونالد ريجان .

وكان أشق الأمور علي نفسي هو لقناعه بأن الوقت قد حان للاستسلام ، وكمستول في
حملة الرئيس فورد عام ١٩٧٦ م اكتسبت براعة لا بأس بها في إحصاء الأصوات ، وبالرغم
من الفور الكبير في بنسلفانيا وميتشيجان كنت أعرف أننا خسرنا المعركة . لكن جورج بوش
لم يكن انهزامياً علي الإحلاق ، وصارعت معه ليل ليل للصواب سياسياً بالنسبة له . وقلت له :
«جورج أنتهي الأمر لقد نفدت أموالنا ومن المستحيل حسابياً أن نفوز بالترشيح . كما أن
الاستمرار في تصفيات الانتخابات التمهيدية سيدمر كل فرصة أبداً كانت لإحتمال اختيارك
نائباً للرئيس ، ولم يستمع ما كان يسمعه اعتقاداً منه أن إنسحابه سيخذل أنصاره في
الانتخابات التمهيدية القادمة . خاصة في أوهايو ونيجيرسى . ولمضى عطلة نهاية الأسبوع
يصارع لاتحاد قرار مع أفراد أسرته وأقرب أصدقائه قبل أن يخلص علي مصضى إلي
ضرورة طى خيمته .

كم هو أمر بالغ المشقة أن يكون المرء مديراً لعملة انتخابية لصديق ، وعلى أن أتذكر
أننى كنت مديراً لحملة بوش عامى ١٩٨٠ م و ١٩٨٨ م ورئيساً لهيئة موظفيه في البيت
الأبيض في انتخابات عام ١٩٩٢ م . وللافت هو أن المرء هو ناقل الأخبار السيئة وهو السند
أيضاً . وعندما يشعر المرشح بالإجهاد فإنه يلجأ لمدير حملته يلتمس تشجيعه للسير في
الطريق يوماً آخر أو ليلقى خطاباً آخر أو ليمضى ساعة في نهاية يوم فاس من الحملة
يلج علي المساهمات بالهاتف ، ومن السهل أن تخسر صلاتك في مواقف كهذه ولم يحدث
ذلك معنا .

وتعني الصداقة الكثير لجورج بوش، وكان وقاؤه لأصدقائه واحداً من مصادر قوته الشخصية وألهم البعض إلى أن الأمر انتهى بالصداقة لتصبح أقدح نقاط ضعفه السياسي فلماذا مثل وقاؤه لفترات طويلة لصداقة أناس ألحقوا الضرر بالرئاسة من منطلق حرصه على صداقتهم .

لكن يحلو له القول: «هل تطيب لنا الحياة من دون أصدقاء .. ورغم سروري بقيناً بمساهمتي في مسيرة بوش للسياسية إلا أنها كانت ستمضي حتى بدون مساعدتي، أما فيما يخصني فلو لا تأييده وصداقته لما ظفرت مطلقاً بمجالات الخدمة العامة التي أدتها .

والحاصل أن الشراكة بيننا لم يمضها السوء في ضوء شراسة أجواء السياسة . ففي آيار مايو ١٩٩٠م استدعاني ليشاركني علي جهودي في ترويج صحيفة «إثنين زائد أربعة» الخاصة بالوحدة الأمنية مع السوفييت والآخرين في بون . ولاحقاً في الرحلة كتبت إليه رسالة جاء فيها «إننا نبلى بلاءً حسناً بالنسبة لرجلين جامدين يفتقدان لأي رؤية لاتحركهما سوى الفطرة ولازلت أقول أعظم من يتصور ذلك، وأنا لازلت أتصور ذلك ؟



وقال لي جورج شولتز ذات مرة: «إن منصب وزير الخارجية هو أهم منصب في الحكومة . لكن أريدك أن تعي شيئاً واحداً هو أنه لاتوجد معايير محددة تبين أين تنتهي السياسة الخارجية لتبدأ سياسة أخرى . وهذا يعني أن الجميع يأتون بعدك .. ولكني كنت محظوظاً لأن هذا لم يسبب لي أي قلق مطلقاً . فقد سهل قربي من الرئيس أداء العمل آلاف المرات فلم يساورني أي قلق مطلقاً من احتمال الطعن أو التشكيك . كان يوصي العمل دون الالتفات لأي شيء . وكنت محظوظاً لأن أكون واحداً من أفراد فريق الأمن القومي لبوش الذي يضم نخبة من الرءلاء المتمرسين الذين عملوا سوياً بصفة أو بأخرى وجمعتهم العودة والاحترام . فلم نربطنا الزمالة والرفقة فحسب بل جمعنا الثقة المتبادلة . ولا يعني هذا أننا لم نحترف، وكم تجادلنا وتعالنا أصواتنا كالمجانين، وليس سراً أيضاً أن كلا من ديك تشيني وبرينت سكروفت كانا أكثر حذراً متى بشكل عام في إجراء بعض التخثيرات علي النهج

العماسي . الأمر الذي أثار عدداً من الاختلافات الكبيرة بيننا حول الحد من التسليح والعلاقات
الاشيوية الأمريكية والشرق الأوسط . لكن خلافاتنا لم تأخذ مطلقاً طابع الطعن في الظهور
الذي انضم به عهدا . كسينجر / روجرز ، فانس / بريجنسكي ، أو تغلب عليها صفة الخشونة
التي ميرت فريق الأمن القومي الأمريكي طيلة سنوات حكم ريجان . فم يكن هناك لغوا
هراء بين الزملاء في المستويات العليا وبالأحرى ما يتسرب إلي الصحافة أقل القليل . وبالطبع كنا
جميعاً نؤثر الصحفيين دون أن نكشف عن هويتنا لإرسال إشارات دبلوماسية سواء
للحكومات الأجنبية أو الكونجرس . لكننا لم نوظفها ليطعن كل منا في الآخر ، ونديجة لذلك
فإنني أعتقد أن أحد الإنجازات الكبرى للرئيس بوش هو حمل أجهزتنا الأمنية علي العمل
بالطريقة المعتدلة أن تعمل بها ، وكان هذا أمر جوهري في تشكيلنا من إدارة التفهيرات
التاريخية في مختلف أنحاء العالم علي الوجه الأكمل من ١٩٨٩ حتي ١٩٩٢ م .

كنت قد التفتيت بديك تشيني لأول مرة عام ١٩٧٥م بعد أيام قليلة من أدلى اليمين
الدستورية وكيلاً لوزارة التجارة أثناء تولي روجرز مورتنون لها وأراني روج أن ألتقي مع
الرئيس فورد ، ولذا فقد ذهبنا إلي البيت الأبيض بعد ظهر أحد الأيام وتوجه روج إلي المكتب
البياض وطلب مني الانتظار في مكتب نيل ياتيس السكرتير الخاص للرئيس فورد . وبعد
ربع الساعة قادني أحدهم إلي المكتب البياض وكان الرئيس مجتمعاً مع عدد من كبار
مساعديه ومن بينهم ديك تشيني الذي خلف اللواء دون راسميك في رئاسة هيئة موظفي
البيت الأبيض ، وتم تقديمي إلي ديك تشيني الذي طلب مني الجلوس بأدب جم ، وقلت
لنفسى : ما أبعد هذا يقيناً عن بعض الروايات المرعبة التي سمعتها عن عدد من رؤساء هيئة
موظفي البيت الأبيض ، وعن النظرة القاسية في الإدارات السابقة ، ولا تزال سمة الأدب
والتواضع تلامر تشيني حتي الآن ، ومن العسير أن يحتفظ للمرء بإحساسه بالتواضع في
واشنطن لكن لعية السلطة لم تستمد علي تفكيره مطلقاً .

وأثناء الحملة التمهيدية للجمهوريين عام ١٩٧٦م كلفني ديك بعد أول لحظة محرجة في
الوظيفة الحكومية إثر خوضي في الحديث دون وعي عن استقالة هنري كيسينجر من
الحكومة . فبصفتي وكيلاً لوزارة التجارة كان من اختصاصي مهام سياسة روتينية باللغة
للتواضع هي أهميتها . وكان أحدها لقاء المسؤولين الماليين لفورد في مدينة أوكلاهوما حيث
يحظي ريجان بقوة خاصة . وهي لحظة ما سلفت عن الدور الذي ميّط بهنري كيسينجر في

الفترة الثانية لرئاسة فورد، وكنت علي يقين من أن كيسينجر شخصية بغيضة بالنسبة لكثير من الجمهوريين في الجنوب والغرب، وكان اللقاء مطلقاً أمام الصحفيين. ولذا قلت بفرح، لا يسعني تصور وجوده في الإدارة لو أُعيد لانتخاب فورد. ولم أكن أعلم بوجود صحفي صمن الحضور يعمل بالجريدة الطلابية لجامعة أوكلاهوما .

وبعد يومين شاركت في احتفال أقيم بالحديقة الوردية بالبيت الأبيض وطلب مني نيل باتيس، المرور علي مكتب تشيني قبل المغادرة، وتوجهت إلي المكتب الأبيض لتشيني بزاوية الجناح الغربي دون أن يجول بحاطري علي الإطلاق أنه سيكون مكثي بعد خمس سنوات ثم بعد ست عشرة سنة وفي فترتي رئاسة اثنين مختلفين من الرؤساء الجمهوريين. وقال في عيوس: «أريد أن أريك شيئاً ونالني قصاصات صحف متضمنة تعليقاتي التي نشرتها جريدة جامعة أوكلاهوما. وتلقت وسائل الإعلام اللصل الذي صوبته نحو كيسينجر من الجريدة وأثار ضجة، ولا سيما في وزارة الخارجية حيث استشاط هنري كيسينجر غضباً، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن أنني قد تسببت في كل تلك المشاكل وتمتعت بأسفي، ورد تشيني قائلاً وهو يصحك: «لا عليك فليس الأمر مع هنري، وسيراً علي التقليد العتيق في واشنطن اتصلت به هاتفياً وقدمت لاعتذارى، فلو كان مكان تشيني رئيس آخر لهيئة موظفي البيت الأبيض لسحنت علي الفور - وله الحق في ذلك - ولكنني أتذكر أنه علمني بلباقة درساً في توخي الحذر.

وهناك واقعة أخرى طرأها كيسينجر وتشيني وتخص للمنسوجات هذه المرة. فرغبة مني في تعزيز الانفتاح التاريخي الذي فاده الرئيس نيكسون نحو جمهورية الصين الشعبية شرعت وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٧٦م في تشجيع استيراد الولايات المتحدة غير المحدود للمنسوجات الصينية، وليس من قبيل المفاجأة أن الفكرة قوبلت بمعارضة شديدة من أصحاب مصانع النسيج الأمريكيين، ولدي كثير منهم مصانع في الولايات الجنوبية التي تمثل أهمية قصوي للرئيس فورد في محركته التمهيدية الحامية ضد رونالد ريجان للفوز بترشيح الجمهوريين للرئاسة، ومع تحجج السياسة جانباً كانت وزارة التجارة تعتقد أن المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة تملئ إتياع نهج أكثر توازناً عن الذي تسير عليه وزارة الخارجية. ووردت في مسودة خطاب من المقرر أن يقيه الرئيس أمام جمعية أصحاب مصانع النسيج الأمريكيين في سان فرانسيسكو في شهر أيلول مارس، عبارة تلزم الرئيس

«صمان ألا يتعرض السوق الداخلي لتهديد خطوره وكانت صياغة العبارة غامضة لكنها تطوى علي تعاطف قصد به تبديد قلق الحضور من احتمال إغراق المنسوجات الصينية لأسواقهم، وكنا نعرف أن كيسينجر كان يريد حذف العبارة. لكن ومع اقتراب موعد إلقاء الخطاب لم يسدر أي تطبيق من جانب وزارة الخارجية علي مسودة الخطاب. وكان هنري مقاتلاً بيروقراطياً فذاً، وأسلوبه المألوف في مثل هذه المواقف هو الكسوف حتي اللحظة الأخيرة ثم إقناع الرئيس بعمل ما يريد، ولا يدع الفرصة مولتية أمام أي هجوم مضاد. وباعتباري قائماً بأعمال وزير التجارة استعسرت من اللبث الأبيض عما إذا كان كيسينجر قد حاول التدخل في الأمر. وبعد تأكيدى بما فيه الكفاية فوجئت عقب اجتماع مجلس السياسة الاقتصادية ببوب هورمانس الخبير الشاب حينذاك في الاقتصاد الدولي الذى يعمل بمجلس الأمن القومي بيلخسى بأن كيسينجر سينتظر حتى تطلع طائرة الرئيس مورد في طريقها إلي كاليفورنيا ثم يتصل هاتفياً بالرئيس ويسعى لإقناعه بحذف العبارة بدعوى أهمية العلاقات الوليدة مع جمهورية الصين الشعبية، وفي تلك اللحظة اتصلت بتشيني علي طائرة الرئيس -كان كيسينجر قد سبق في الاتصال بالفعل وأتخذ قرار مؤقت بحذف العبارة- وقلت إن اللغة التى صيغت بها العبارة تجمع ما بين السياسة القوية ولباقة السياسة. وأقرنى تشيني علي رأىي ويحث مع الرئيس الإبقاء علي النص الأصلي، ولم يمض وقت طويل حتي التفتت مع وزير الخارجية لأول مرة في حفل إستقبال أقامته وزارة الخارجية وباندرى متمماً «أه ... أنت إذن بيكر/ المنسوجاته» .

وبعد أن أفلتت بالتأكيد من التحدى الذى ولججه ريجان في التمهيدات للجمهورية عملت أنا وتشيني بشكل أوثق في الحملة الانتخابية ضد جيمى كارتر وصار علي نهجه المعتاد للتأكد من أننا أحصل علي كل ما نحتاجه كمدير للحملة الانتخابية، ونتيجة لذلك كان التنسيق بين الحملة الانتخابية والبيت الأبيض تنسيقاً رفيع المستوى ونموذجاً لحذيقته في انتخابات الرئاسة عامى ١٩٨٤ و ١٩٩٢ م .

ولم تنقطع اتصالاتنا بعد انتخابات عام ١٩٧٦ م ولطُبع كل منا الآخر علي خططه السياسية في المستقبل. وفي عام ١٩٧٨ م لنتخب تشيني نائباً في الكونجرس عن ديمونج

وأثبت أنه حليف أكيد عندما أصبحت رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض بعدما بثلاث سنوات. فطالما اتصل بي ليبلغني بأخبار باللغة الأهمية حول بعض التطورات المهمة في الكونجرس محققاً سبقي حتى على قواني التشريعية. ومع ذلك فلم تكن العلاقة سماً على عسل علي الدوام. وكما اشتبكنا بين لفينة والأخرى في بعض المعارك السياسية وخاصة في مشروع قانون الإصلاح الضريبي لعام ١٩٨٦م الذي سميت لإقراره بصفتي وزيراً للخزانة في إدارة ريجان. لكنه استعانت في معارصته، ولتذكر يوم أن أتى ديك بصحبة عضو الكونجرس عن الميسيسيبي ترونت لوث وتوعنني قائلاً: «سوف نعارضك في هذا القانون، سوف نهزمك» وتغلّبنا علي ديك رغم جهوده المضنية. لكن النزاع لم يتحول بأي حال إلي نزاع شخصي أو يؤثر علي صداقتنا وخلال العقد الماضي أمضينا أوقاتاً جميلة في رحلات سيد بيري وبيومنج وديك أحد أبنائها الأصليين وأنا وأفيد عليها وفي اثنين من هذه الرحلات أقعدنا في نفس القيمة، وكان ديك يضل الصحو وأنا أجفها .

كان ديك من أشد أنصار الحرب الباردة بشكل فاقني كثيراً، وقد اختلفنا في بعض الأحيان حول السياسة السوفيتية والحد من التصح. لكن هذا الاختلاف لم يمس صداقتنا القوية أو الاحترام المتبادل بيننا أو علاقتنا الوثيقة في العمل .

وعقب فشل تعيين جون تاور وزيراً للدفاع لأول عام ١٩٨٩م أبدت بحماس إقتراح برينت سكروفت بتعيين تشيني بدلاً من تاور. وكنت في مقر إقامة الرئيس عندما رفعت سماعة الهاتف لأعرض علي ديك تولي المنصب وطلبت في وقت لاحق ومارست عليه صبراً قوياً، وغمزتي الفرحة عندما قرر التخلي عن مسيرته المتميزة في الأداء الليابي لقبول المنصب .



وربطتني صداقة طويلة الأمد بجون تاور ولازلت أذكر هذا اليوم القاطن من أيام تموز يوليو في مدينة سان فرانسيسكو عام ١٩٧٨م فبعد الهزيمة السياسية السدوية عدت إلى تكساس بعد حملة فورد عام ١٩٧٦م وقررت السعى للحصول علي منصب السدعي للعام، والتقينا مصافحة بينما كنا نستعرض المنشورات في جزء أسباني من المدينة. ودعاني للتناول

شراب. وهكذا توجهنا إلي فندق مينجر التاريخي حيث حشد نيويورك رورفت للفرسان الأشرار لموصل الحرب. وبينما نحن نحس كوكبول الفودكا والمارتيني نطلع ناور إلي قائلاً: بيكر هل تعرف شيئاً؟ إن القذارة والبهاشة هي ما نحن فيه. وردت: سيناتور ناور لتتحدث عن نفسك. فأنا جديد علي الأمر برمته. وكم فكرت كثيراً فيما قاله ناور عندما أخذ زملاؤه السابقون في التشهير به خلال جلسات استماع تعيينه في المنصب الذي طار منه.

ولم أتوان لحظة عن تأييد تعيين ناور، وشعرت بالأسف له عندما رفض تعيينه، لكن ساورني قلق داخلي من أنه قد يدس أنفه في السواسة الخارجية بمجرد الموافقة علي تعيينه.

ولم أحرف مطلقاً للكثير من أبرر رجالات مجلس الشيوخ ممن لا يسمعون بالشراسة ففي حين كان ناور صديقاً قديماً وحليفاً سياسياً فلم يكن بلوناً في لعبة السلطة. فخلال الفترة السابقة علي إقرار التعميم جاعني ناور ملتصقاً للعرن في إقرار تعيينه. وقال: «انظر إنني أعرف ماذا يعني أن تكون وزيراً للدفاع، وماذا يعني أن تكون وزيراً للخارجية، إنك لا تراني في صفك وبصراحة فلست متأكداً من ذلك لكنني واثق من أن ديك تشبني لن يحاول مطلقاً أن يظهر بوزارة الخارجية فإنه يعرف أنني لن أدخل في ملحه.



ويسري الشيء نفسه علي برينت سكوكروفت الذي أعتقد أنه للنموذج المثالي لمستشار الأمن القومي. وسبق لسكوكروفت أن شغل هذا المنصب في عهد فورد ولم يكن جورج بوش يثق فيه ثقة مطلقة فحسب. بل كان يكن له مشاعر خاصة. وطي تقويض بعض أسلافه لم يقع برينت أسير تضخم الذات، ولم يروج لنفسه مطلقاً. وبدلاً من ذلك كان يقنع دائماً الأنزواء إلي الورا ليصبح وسيطاً أميناً للترليس.

ولطالما كلف نفسه مجهوداً زائداً في خدمة الغير ففي مراحل مبكرة أبلغني أنه لن يظهر في أي برنامج تلفزيوني ما لم أعتقد أنه يجب عليه أن يفعل ذلك. وبالطبع يسهل مع هذا القول أنه كان عرضة للحرج في أي وقت طالما خصني الأمر. وكان يستضيفنا علي الإفطار الساعة السابعة كل يوم أربعاء في مكتبه. حيث كنا نتبادل أنا وهو تشبني المعطومات

للتأكد من أننا نعرف نفس الإيقاع. وفي مرات كثيرة عندما كان ينشب خلاف بين العاملين لدي كل من منا حول قضية معينة كنا نقرأ علي بعضنا النقاط المعدة للحديث، ونكتشف في سياق ذلك قدر انعدام الثقة بين العاملين بوزارة الخارجية ووزارة للدفاع ومجلس الأمن القومي .

وخلال الاجتماعات الرسمية لمجلس الأمن القومي لجأ برينت مكرروفت إلي التزام الصمت أحياناً أثناء حديثي بدلا من طرح رأيي بديل حول إحدى قضايا السياسة الخارجية، ولا يكمن السبب في صداقتي الوثيقة بالرئيس أوجين منه، بل في احترامه للطريقة التي يشترس أن يعمل النظام بها. فظالمنا كانت له أراءه القوية التي لم يتحرج في الاختلاف بشأنها مع زملائه وكان برينت يتدبر نفسه منسقا، وهذا رأي يعصده أسلوبه المتواضع والحبرة التي استمدها من توليه رئاسة لجنة التحقيق الرئاسية في فضيحة إيران كوندرا، وتوصلت لجنة مكرروفت إلي أن جوهر المشكلة يتمثل في أن مجلس الأمن القومي تحول إلي جهة عمليات، وعبث في أمور تدخل في اختصاص الوزارات، وخاصة وزارة الخارجية. وكتمسثار للأمن القومي طبق برينت ما كان يهش به، ومع استثناءات قليلة ترك مجلس الأمن القومي مهام الدبلوماسية إلي وزارة الخارجية. وكان يتم إخطاري والحصول علي موافقتي مسبقاً علي تلك الاستثناءات، كالزيارة التي قلم بها برينت إلي الصين عام ١٩٨٩م برفقة نائب وزير الخارجية لاري إيجيلبيرجر. بل إن برينت التزم إلي أبعد مدى بالاتفاق الرسمي بيننا بضرورة إقناع موظفيه بشكل عام بالامتناع عن لقاء السفراء الأجانب .

كان أول تعاون لي مع برينت كأرونة تامة عارضة. وبعد المناظرة المنحوسة في سان فرانسيسكو عام ١٩٧٦م عندما قال الرئيس فورد إن الاتحاد السوفيتي لا يهيم علي بولندا أرسلنا أنا وبرينت إلي المركز الصحفي لشرح أن الرئيس لا يريد أبداً مرصطة للمرشح جيمي كارتر. وسأل أول صحفي عن عدد الفرق السوفيتية المتمركزة في بولندا. ورد برينت بعين نحو ست فرق. وحاولنا قصاري جهدنا علي مدار نحو نصف ساعة إبراز الجانب الإيجابي. لكننا فشلنا فشلاً ذريماً. لكنني أعجبت أيماً إعجاب بولاء برينت وصموده في وجه الشدة، وهي سمات ظالمنا سألصها المرة ثلو الأخرى في سنوات بوجل .



كان اللذانى الوحيد للباقي من كبار المسؤولين من إدارة ريجان هو كولين باول وأنا. بالإضافة إلى جورج بوش بالطبع* . ومنذ البداية ربطتنا علاقة رقيقة. وفي أحيان كثيرة عند لقائنا بمكتب سكروفت انتظاركاً لبدء بعض الاجتماعات كنا نسترجع خبراتنا المشتركة عندما كان هو مستشار الأمن القومي للرئيس ريجان وأنا وزير للخزانة كان كولين باول السوية العسكرية الفذة في جيشه صاحب عقلية راجحة ذو حاشية رقيقة وشخصية أسرة ويتمتع بإحساس نافذ فى السياسة، وكثيراً ما وجدنا أنفسنا فى خندق واحد .

ومنذ البداية طلبت من تشينى أن يستدعى رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة دين إبلاغى، والترم بذلك فيما عدا مرة أو مرتين. ولكن فى مناسبات عارضة وعندما تقرر خلافات بينهما حول قضية سياسية كبرى كان كولين يتصل بى التماساً لاستشارة خاصة، وحدث ذلك بصفة خاصة أثناء حرب الخليج حين كان تشينى أكثر تشدداً من باول فى بعض الأحيان ومع هذا ظلت العلاقة بيننا قوية لا تهدأ يوماً .



ولم أعتقد أن أجهزة صنع السياسة الخارجية لىبان حكم الرئيس ريجان قد خدمته بالطريقة الواجبة. فالمصوّر عليها غالباً هو الضداع والمضايقة والتنمية والثرثرة وجدارول الأعمال المتصلة، ومنذ اليوم الأول كانت للشكوك وانعدام الثقة خارج نطاق السيطرة بين الكثير من اللاعبين. ولا يسعى نذكر أنه مرت فترة طويلة لم يكن فيها لكل مجلس الأمن القومى بشكل غصنة لكل. وعلى مدار ثمانية أعوام عين للرئيس ريجان سبعة مستشارين للأمن القومى. وكثيراً ما اتسم أداء مجلس الأمن القومى بالتهور. كما أصبحت وثائق فضيحة إيران كوندرا بالتفصيل السمل. بل وصل الأمر أحياناً لى أنه عندما يتخذ للرئيس قراراً بشأن قضية سياسية كبرى فإن رؤوسه يتجاهلون رغبة الرئيس يطبقون سياساتهم الفاصلة .

* خلف باول الأدميرال ويليام كروى الذى لتحت رئاسته لىوة الأركان العامة المشتركة فى ٣٠ أيلول سبتمبر عام ١٩٨٩م

واعتقد أن رئاسة ريجان هي الأشد إثارة للجدل خلال ربع قرن. لكن سياسته للأمن القومي لم تنجح إلا بسبب قوته - رغم افتقار تلك السياسة إلى عنصرى التنظيم والتعاون. ولم تسد الفوضى والتخبط أى خدمة له أو للبلاد، ولم تكن الخطوة الفاشلة التى طرحها معى مايك ديفر سوى محاولة لضخ بعض العافية والانسجام فى عمليّة الأمن للقوى، وكالمترقب فقد نسفتها نفس الصغائر التى كانت سبباً فى طرحها فى المقام الأول. واستشعرها بوش جلية واضحة وهو نائب للرئيس علي مدى ثمانية أعوام، ولذا وعندما أصبح رئيساً صمم علي أن يعمل النظام بالطريقة المفترض أن يعمل بها. واعتقد أنه فعل ذلك .

«المبنى»

علي مدى أربعة عشر عاماً من الخدمة العامة لم أفقد رباطة جأشى سوى مرة واحدة حدث هذا يوم الثالث عشر من آب أغسطس ١٩٩٢م اليوم الذى أعلنت فيه تركيا وزارة الخارجية الأمريكية لأصبح رئيساً لهيئة لموظفى البيت الأبيض. كانت كلمة الوداع التى ألقيتها فى قاعة الاجتماعات بالخارجية تجربة مريرة غير متوقعة بالنسبة لى. فلم يسبق لى أن خضت غمار تجربة مماثلة. فقد أغرورقت عيناى بالدموع وأنا أستقل المصعد عائداً إلي مكتبى بالدور السابع، وأنا الآن وزير سابق للخارجية. كانت دموع للفخر ممزوجة بعزوف كبير عن ترك أكثر المناصب الحكومية التى شغرت فيها بارتياح شخصى .

وقلت فى خطاب للوداع: «إن أى نجاح حققناه يرجع فى الجانب الأعظم إلي العمل الشاق والصبر والاحتراف والالتزام من جانبكم جميعاً .. إنكم نخبة ممتازة من المحترفين. إنه لشرف عظيم أن تسبق لى للخدمة معكم». إنى أعنى كل كلمة أقولها فأنا أشعر بالفخر تجاه ما أنجزناه معاً علي مدار أربعة وثلاثين شهراً لتقست بسرعة. إن إحماسى عميق بالفراق لأننى بدلت العمل يحيط بى الغموض عما ينتظرني فى الخارجية .

وبينما كنت أشعر بارتياح كبير لملأقتى مع الرئيس وكبار مستشاريه فقد غمرنى بعض الخوف لدي البدء فى إدارة دفعة الخارجية. ولم يكن شأغلى هو إدارة جيش منظم من العاملين : فكما تعرفون سبق لى إدارة أربع حملات انتخابية وتنظيم البيت الأبيض بدجاح

وإرساء نظام راسخ بوزارة الخارجية. لذا فلم تكن البيروقراطية هي مبعث الخوف بل إدارة «المبنى» .

وبينما لا تضى وزارة الخارجية لمعلم الناس سوى مجرد مبنى حجري ضخم قائم يتألف من ثمانية طوابق . يعود إلي ما بعد الحرب للعالمية الثانية، ويطل علي طريق صبيح . لكن «المبنى» يعنى لسكانه كائناً حياً يتنفس بحسب الآراء والسياسات، وقبل إقرار تعييني انتقلت هي شهر كانون الأول ديسمبر عام ١٩٨٨م من المقر المؤقت لبوش في شارع كونديكت إلي الطابق الأول بوزارة الخارجية . حيث خصص جورج شولتز جناحاً لي ولطاقم العاملين معي . وسرعان ما أدركت هناك معني «المبنى» وآرائه حول القضايا المطروحة، واكتشفت علي الفور أن لمختلف طوابق «المبنى» آراؤها الفريدة حول الأحداث . «فالطابق السابع لا يريد أن نمسى الأمور بهذه الطريقة» ، «والطابق السادس يريد تنقيح ذلك» وفي الحقيقة كان للمرفوف الأبجدية هي الأخرى أراها علي ما يبدو فحرف «S» لا يبريد وحرف «P» ينقص فجأة و «EUR» خارج نطاق السيطرة . وكل مكتب في الخارجية حرف يرمز له ولذا فقد كانت أولي مهامى هي تعلمها . ويرمز الحرف «S» إلي وزير الخارجية بينما حرف «P» يشير إلي وكيل وزارة الخارجية للشئون السياسية أما «EUR» فهو مكتب شئون أوروبا وكندا . وبالاختصار تحول مبنى الخارجية . ذلك المبنى المشيد من الحجر الأصم إلي كائن حي تدب فيه الروح وسرعان ما أدركت السبب .

وما يدعو للسخرية أن هذا جزء من الطابع الوظيفي للمبنى نفسه . فالوزير وكبار مساعديه ووكلاء الوزارة موجودون في الطابق السابع ، ويضم الطابق السادس معظم مساعدي الوزير ونواب مساعدي الوزير . أما مديرو المكاتب الإقليمية والمكاتب فإنهم يقطنون الطابق الأولي . وتبدأ رحلة أى مذكرة مرفوعة لي بالطابق الرابع ليتم قبولها أو تنقيحها، كما أنزل ثم تنتقل إلي الطابق الخامس ثم السادس لتدرج مراجعة نهائية في الطابق السابع قبل المرمس علي . ولكن الأصل المظلمى أو المؤسسى لوزارة الخارجية يستمد جذوره بما يتجاوز الشكل المعماري للمبنى . فبدون شك تنفرد وزارة الخارجية بكثافة بيروقراطية منقطعة النظير لم أصادفها من قبل . وفي معظم وزارات الحكومة يتولي توجيه دفء العمل مجموعة صغيرة من السياسيين مع موظفي الخدمة المدنية - أي البيروقراطية السخيفة . التي يمثل الهدف منها في الارتعاع فوق قضايا السياسة وحفظ الذاكرة المؤسسية وتقديم الخبرة

الضرورية. ويوجد أيضاً في وزارة الخارجية ما يعرف بالسلك الدبلوماسي والتفصلي، وهو مجموعة منتقاة من موظفي الشؤون الخارجية تتولى مسؤولية السكاتب الوظيفية والأمريكية في واشنطن وسفاراتنا في الخارج. ويتحقق الأفراد به بعد اجتياز امتحان وزارة الخارجية وهو امتحان تحريري قاسم تعقبه سلسلة من المقابلات للشفوية، وغالباً ما يأتي الناجحون من كليات القمة في الولايات المتحدة. لا سيما يبقى ليج حيث المعرفة والفهم بالقضايا الخارجية مثل اللغات والجغرافيا والتاريخ والثقافة والأغذية والمشروبات. ويتحقق بالسلك الدبلوماسي والتفصلي بمجرد إتمام فترة للتدريب ويتناوبون للخدمة والمواقع في الخارج وفي واشنطن، وتلصق القواعد علي ألا يخدم موظف السلك الدبلوماسي والتفصلي أكثر من خمسة أعوام في واشنطن. الأمر الذي يجعله يقضي في الخارج فترات أكبر مما يقضيها في الولايات المتحدة، وبالإضافة إلي العمل المعتاد للسفارة الذي ينصب أساساً علي فهم آراء الحكومات المضيفة حيال الأحداث والإبلاغ عنها. فإن هذا الجانب للسلك الدبلوماسي والتفصلي يؤدي إلي تفاقم داء الموالاة، أي ميل الدبلوماسي للتوافق بشكل أكبر مع مصالح المضيف، عن مصالح واشنطن. فثم فاصل دقيق بين فهم موقف البلد الذي يخدم الدبلوماسي فيه وبين موالاته وتبنيه تماماً لدرجة تحولته إلي مدافع أساسي عن هذه المواقف في المناقشات السياسية. ولا يقتصر هذا الداء علي موظفي السلك الدبلوماسي والتفصلي فحسب. فهنئ حالات الموالاة التي واجهتها جامت من سفراء من خارج السلك الدبلوماسي سقطوا في هوي الدول التي يعملون بها وحكوماتها لدرجة فقدوا معها ضمير ما هو في المصلحة الوطنية الأمريكية.

وثمة خطر آخر يحدق بموظفي السلك الدبلوماسي والتفصلي يتمثل في النزوع إلي الاعتقاد بأن الآخرين لا يفهمون في الشؤون الخارجية كموظفي هذا السلك، وربما كان هذا صحيحاً تماماً قبل الحرب العالمية الثانية إلا أن الأربعين عاماً الماضية شهدت تطوراً في البرامج الأكاديمية ومراكز المعلومات والمنظمات والمؤسسات البحثية أفردت بدورها عنداً لا بأس به من أمهر المتخصصين خارج نطاق السلك الدبلوماسي والتفصلي. ونتيجة لذلك وفي حالات كثيرة كان المعين من الخارج يملك فهماً أكبر بالبلد عن الموظف المكلف بشؤون بلد معين لعامين أو ثلاثة أعوام أمضاها في المكتب.

وأخيراً فإن الضرورة الوظيفية تقتضي أن يصبح موظف السلك الدبلوماسي والتفصلي سفيراً، ويمثل هذا التحدي بمرغ القمة المهنية. لذا فإن الكثيرين منهم يرون أن أي تعيين من

المعارض في مناصب للسفراء ينارحهم حقهم الأحصيل الثابت. إضافة إلى هذا ومن منظور شخصي بحث فإن السفير الأمريكي للمعين من الخارج يمكن أن يكون شخصاً بالغ القوة .

وفي إطار الإعداد للتنظيم «السياسي» خاطبت كل للرؤساء السابقين ومعظم وزراء الخارجية السابقين وللإنصاف أبلغوني أن وزير الخارجية شخصية قادرة علي تطبيق السياسة ومرجعية هي القضايا الدولية ومورد يتعين استملاكه . ووجه كل منهم علي طريقته تحذيراً لي .



وذكرني إيدموند ماسك قائلاً: «إنهم دائماً ما يبالغون في إسفاء طابع الإثارة علي ردود أفعال عملاتهم» أما تحذير هنري كيسينجر فقد كان بالغ الوضوح «إنهم أتكياها جداً، فهم يعرضون عليك ثلاثة اختيارات : إما الحرب النووية أو الاستسلام غير المشروط أو طريقهم المفضلة في العمل» .

وكان رينشارد نيكسون أكثر حسماً، وقال لي: «إن حقبة الحرب الباردة لم تشهد سوى ثلاثة وزراء خارجية صغار هم أشيسون وفورستر دالاس وكيسينجر . وعالي ثلاثتهم من انعدام ثقة البيروقراطية . عليك أن تقودهم . لا تدعهم يسيطرون عليك» وكنت مصمماً علي ألا يحدث ذلك أبداً .

وتوليت وزارة الخارجية مفترضاً أن الرئيس يصنع السياسة الخارجية لا السلك الدبلوماسي والفصلي، وهذا هو السبب الذي هداني لي أقول بشكل قاطع في حديث نشرته مجلة تايم بعيد تعييني في المنصب: «إنني أهتم أن أكون الرئيس في وزارة الخارجية ولست رجل الخارجية في البيت الأبيض» . وكانت هذه إشارة متعمدة من جانبي وأردت بها توجيه رسالة إلي البيروقراطية بأن أسلوب في الإدارة سيكون مختلفاً عن أسلوب سلفي .

وفي فترة رئاسة ريجان كان جورج شولتز أقرب للزملاء إلي في الحكومة . وسار سبيلنا في الحياة علي خط متواز : برينستون فيللق مشاة البحرية، الخزنة ثم الخارجية . وكنت

أعتبره نموذجاً للتوظيف إلى حد ما في تلك الأيام . وكان صديقاً وكنا نرى معظم قضايا السياسية من نفس الزاوية في كثير من الأحيان . وخدم نحو ستة أعوام بتميز فريد في مناخ عدائى مرعب .

وكنتم أتابع مسار الأحداث، ولا أدرى كيف استطاع الصمود، وكنتم متعاطفاً أشد المتعاطف مع موقفه، وكم من مرة وفرت له الحماية حينما كان خصومه يحاولون للنيل منه مراراً . ففي إحدى هذه المرات علي سبيل المثال أعد بيل كلارك مستشار الأمن القومي حينذاك خطة لإيفاد جين كيركباتريك في مهمة لأمريكا اللاتينية دون علم شولتز . وأشرت علي الرئيس قائلاً : «ألا تعتقد أنه ينبغي إبلاغ وزير خارجيتك بالموضوع ؟ » فسارع إلي موافقتي وألقي الخطة .

وانتهج شولتز أسلوباً «موسمياً» في إدارة الخارجية . فاعتمد أولاً وفي المقام الأول علي السلك الدبلوماسي والقنصلي في إدارة «المبنى» وتوجيه السياسة وأبنته، ويتمثل السبب إلي حد بعيد في أن سنواته كانت ضرورية لإجراء أى تغيير إضاهي وتقديمي في الوزارة . فقد بدأت ثورة ريجان في الشؤون الخارجية مع فترة الولاية الثانية لأليكسندرهيج في الخارجية ثم ما لبث أن وفد شولتز، وكيف السلك الدبلوماسي والقنصلي مع السياسة الجديدة، وهكذا استطاع شولتز بفهم كبير الاعتماد بشدة علي خدمة المحترفين .

ولأسباب ثلاثة حاسمة واجهت وضناً مختلفاً تمام الاختلاف بطلب نهجاً موسمياً مختلفاً كالآتي :

المسبب الأول : يتمثل في أننا كنا نتجه نحو مرحلة تغيير ثوري وبينما لم يكن أحد يتصور الكيفية التي سيحدث بها هذا التغيير الثوري، كنتم أعرف منذ البداية شأن السوفيت، إننا سنكون في حاجة إلي تفكير جديد في سياستنا الخارجية . وبالطبع فإن التفكير الجديد يقتضي أناساً جديداً أصحاب عقل فذة ولديهم تصورات مختلفة، ويتكئني لديهم أساساً تضخم الذات الحاصل في السياسة الحالية . ومن المصير نبيلان مدي للصعوبة التي يواجهها البيروقراطيون في التكيف مع التغيير الجذري . ولكن وبشكل عام ينزع معظم العاملين في العمل الحكومي شأن أى عمل أخر إلي مطالبة مشكلات للغد بحلول اليوم، وفقط عندما تفشل تلك الحلول سيسمن إلي البحث عن طريق آخر . وفي القطاع الخاص هناك هدف واحد يدفع

الناس دائماً إلى تغيير أساليبها - وهو الريح - ولكن في السياسة والعمل السياسي نادراً ما يوجد هدف ولحد محدد، ويوسع أي فصيل يقف وراء سياسة معينة أن يفسر دائماً كيف توتى خطة عمله ثمارها، أو كيف ستوتى ثمارها علي أفضل وجه . فقط لو تم استنهاض هذا أو ذلك أو الآخر .

والسبب الثاني : كانت إدارة بوش إدارة جديدة، وهذا يعنى أن للكثيرين ممن عرفهم بوش إما سيخادرون الوزارة إذا كانوا تعيناً سياسياً من الخارج، أو سينتقون للعمل بالخارج إذا كانوا من السلك الدبلوماسي والقتضلى، والأهم هو أن نهى ميراث روجاش المتمثل في السلام عن طريق القوة بهدف البدء في صد الشيوعية الأسمية وتعزيز انتصار الديمقراطية في وسط وشرق أوروبا وفي الاتحاد السوفييتى نفسه . وهذا في حد ذاته يتطلب استراتيجية مختلفة تمام الاختلاف تقتضى أيضاً أشخاصاً جديداً .

السبب الأخير : كانت هناك حاجة لإيلاء اهتمام أكبر لبدء إجماع داخلى في الداخل، ورغم فوز الرئيس الساحق علي مايكل دوكلاكيس أكد الديمقراطيون سيطرتهم مجدداً علي مجلسى الشيوخ والدواب، وكان من المحتمل أن تؤدى مرارة الحملة الانتخابية إلي تسعيم الأجواء اللازمة لبدء سياسة حقيقية غير حزبية . ولهذا السبب فقد أردت أن يكون موظفو الوزارة وهيكلاها التنظيمى أكثر إرضاءً للجمهور الداخلى . ليس في الكونجرس فقط بل في البلاد بأسرها .

وفي هذا المناخ، كنت أعقد أن الجمود المؤسسى للسلك الدبلوماسى والقتضلى بقواعده وأعرافه وتسلسله للقيادى البيروقراطى المنفصل يحول دون الاعتماد عليه بمفرده من أجل مواجهة التحديات الماثلة . ومعظم موظفى هذا السلك موظفون لكفاء مطيعون ومن الصعب ألا يستغل أى وزير خارجية قوتهم، وهذا هو ما فعلته وصانف هوى لدى الكثيرين منهم، ولكن كما يتحقق الأمر برأى مجموعة كبيرة نزع بعضهم نحو تطلب الإقدام علي المغامرة أو تبني تفكير خلاق .

وللإنصاف فلم يكن الخطأ خطأهم بالكامل فأحد الأسباب الكامنة وراء عزوف بعض موظفى السلك الدبلوماسى عن التحدى بروح المبادرة يتمثل في أنهم حين يقدمون علي المبادرة فغالباً ما يواجهون معاملة خسية في عملية إقرار مجلس الشيوخ لتعيينهم، وهناك

الكثير من الأمثلة لحرقة أعضاء مجلس الشيوخ من تحريريين للتعيينات بل وأنها كلية لمجرد أنهم لا يحبون النهج السياسي للشخصية المراد تعيينها. وفي أغلب الحالات كانت الشخصية المعنية تطبق سياسة الرئيس أو وزير الخارجية. وطالما تكرر ذلك فيما يتعلق بالسياسة تجاه أمريكا الوسطى همد الكثير من هذا الأمثلة لا يستك أن تلوم الدبلوماسيين المحترفين إذا التزموا طريق الأمان، وعلي سبيل المثال كان جوك كوفي وجون بوش نيل إثنين من ألمع موظفي الملك الدبلوماسي وقد أسديا خدمات جليلة لبلدهما أثناء تولي للوزارة. لكنهما حرما من الترقية إلي منصب السفير الذي يستحقانه عن جدارة.

ولهذه الأسباب في المقام الأول فضلت تركيز سلطة السياسة مركزيا في يد فريق صغير من معاونين الموهوبين والمولدين، وجعلت منهم الإطار الخارجي.

كان هذا الأسلوب علامة مميزة لعمل في الحكومة فقد علمتني التجربة أن المديرين الذين يحيطون أنفسهم بمروسين ضعاف مثلهم الفشل. فلا مجال علي الإطلاق لاختيار سوي أفضل الأكفاء لشغل مثل هذه المواقع باللغة الحساسة. وغنى عن القول أنه خلال العقدين الأخيرين كان أكثر رؤساء هيئة موظفي للبيت الأبيض نجاحاً هم أولئك الذين أحاطوا أنفسهم بكبار المساعدين للذين يمكنهم النهوض بوظائفهم.

وبخلاف الموهبة والولاء للشخصي للرئيس ولي كنت أعرف أن هناك حاجة لتعلي فريقى بعدد من المؤهلات.. كنت أريد أناساً يمكنهم طرح الأفكار والمبادرات. أناس أولي رغباتهم قول «نعم» ليس بالضرورة لى ولكن للعمل. فالنزوع الطبيعي لأى بيروقراطية هو عدم الإقدام علي فعل أى شيء. وهذا حقيقى فى أروقة ودهاليز الخارجية. حيث يمكن أن يؤدى عمل أى شيء - إلي نشوب حرب. بل قد يؤدى إلي ما هو أسوأ في بعض الأحيان من منظور البيروقراطية - لى حدوث صراع مع العملاء الإقليميين. وأعتقد أن هذا هو سبب اللغو الكثير عن «المبني» أو «المطابق للسادس» أو «EUR»، إنها طريقة لإخفاء شخصية صانع القرار، ومن ثم تجنب المسؤولية في نهاية الأمر. فسوف يتعين علي فريقى أن يتخوق في تحويل الأفكار إلي عمل، وهذا يعنى أيضاً أنني كنت أريد مدققين ومطابقين للسياسات، وكنت أريد أيضاً أشخاصاً يفهمون في السياسة. لأن السياسة ببساطة توجه الدبلوماسية وليس العكس.

وقد كانت قوة هذا التصور التنظيمي هي التي سمحت لي بطرح مبادرات خاصة
ومناسكة وتوطيئها لتحقيق انفراج في عدد من الأزمات الدبلوماسية .

وهكذا فقد كان النظام شديد الفعالية في شن الهجوم . لكن أعوزته هذه القوة في الجانب
الدفاعي اللازم لجذب وقوع الأزمات، وألقي هذا النهج عبثاً ضخماً على وعلي أقرب
معاوني الذين لم يتمكنوا من التركيز علي كل أزمة محتملة . ومع ذلك وبوضع كل شيء في
الاعتبار ، اعتقد أنه خدمي والأهم أنه خدم إدارة بوش بشكل غير علاني .



وصمت أول مجموعة مصغرة في فريقى ثلاثة هم : بوب زوليك وديبليس روس
ومارجريت تاتولر . وجمع زوليك وهو من مواطنى ألبانى ما بين الإحساس العام للغرب
الأوسط مع التطور السياسى لمن تلقى تعليمه في أرقى المدارس الأمريكية ، علاوة علي تلقيه
التعليم في مدرسة القانون بهارفارد ومدرسة كيندى لنظم الحكم . وسبق له العمل معى في
وزارة الخزانة وكان محبوا ناجحا ومحملا سياسيا وكاتباً . وتصلت في البيت الأبيض أنه لكي
تسيطر على السياسة فلا بد أن تسيطر على الصحف ولذا فقد جعله مستشارا للإدارة (C)
وأمرت بضرورة عرض كل ورقة عليه أولاً وجعله هذا كما وصفه أحد الصحفيين ، عقلى
الثنائى الذى يمكنه تنظيم وتوليف وتنقيح الأفكار وبالتالي ضمان ألا يعرض على مكتبى
سوى نوعية واحدة من الأفكار والمبادرات ثمة للتنقيح . وباستثناء ريتشارد درامان من
السير أن تجد شخصاً مناسباً للمنصب .

وتمتع زوليك بمقدرة خارقة علي استخلاص المعلومات وعرضها في صفحة واحدة
من الرصاصاته و «النقاط الموجزة» في شكل مثالى للإيجاز . وكذلك كانت قوائم ما
تقتضى العاجلة عمله ، وإذا كانت فيه نقطة ضعف فهي أدبه الجم وسرقه عشرة أسباب تدعو
لعمل شيء ما عندما تكون ثلاثة أسباب كافية ، وشأن معظم مساعدي فإنه لا يطبق للمافات
وجعله هذا إلي جانب وضعه الوظيفي في مكتب الوزير واحداً من الشخصيات مرهوبة
الجانب في الوزارة .

ويكاد دينيس روس الذي إختبرته مديراً لفريق التخطيط السياسي (S,P) أي «فريق التخطيط التابع للوزير» أن يكون النقيض لزوليك. ويحتمل أن يكون روس لبن كاليغورنيا أكثر من يتمتع بهدوء الأعصاب في وزارة الخارجية، ومن الإهانة أن تصف شخصاً من كاليغورنيا بأنه «طريء» لكن هذه هي الكلمة الوحيدة المناسبة لوصفه، وعمل روس في البنجاب بعد حصوله علي الدكتوراه. ثم انتقل للعمل في فريق التخطيط السياسي مع هيج، ثم انضم بعدها إلي العاملين في مجلس الأمن القومي أيام ريجان وخلال دراسته الجامعية عمل روس في الحملات الانتخابية لروبرت كينيدي وجورج ماكجفرن ولايزال نسبياً من الليبراليين السياسيين رغم أنه عمل مستشاراً للسياسة الخارجية لجورج بوش في حملة عام ١٩٨٨م وبينما يتحدث زوليك «بالرصاصات» والنقاط الموجزة فإن روس يتحدث بالخط والتصورات، وتخصصه الدقيق هو الشرق الأوسط والاتحاد السوفيتي. لكن معرفته العامة مفيدة بشكل شامل رغم أن مساعدته هيلين إيلز هي الوحيدة التي يمكن أن تعينه إلي نصايه .

وشكل ثلاثتهم فريقاً شديد البأس لا تنقسم عراه، وفي الحقيقة فقد نقلت مكتب مدير التخطيط السياسي إلي «صف الماهوجني» وهو العمر الداخلي بالطابق السابع الذي سمي نسبة إلي ألواح الماهوجني التي تكسو الجدران. حيث يوجد وزير الخارجية ومساعدوه .

وفي صف الماهوجني كانت توجد أيضاً مارجريت تاتويلر مساعد وزير الخارجية للملاقات العامة، والمستحثة باسم الشؤون العامة (PA) وكانت تاتويلر أول شخص يلتحق للعمل بفريق إدارة حملة فورد عام ١٩٧٦م وأصبحت لاحقاً رئيس الحملة في بلدها ألاباما، وبعد عامين أصبحت الموظف الثاني في لجنة العمل السياسي لجورج بوش في هيوستون. وقد بدأت في واشنطن كمساعد تنفيذي لي في عهد ريجان ثم مسئولة اتصال بحملة إعادة الانتخاب عام ١٩٨٤م. وصحبتني في العمل في وزارة الخزانة كمستحثة باسمي، واقعتها رغم تحفظاتها بثولي نفس للعمل في الخارجية .

وإلغني بيكرسون ذات مرة «بأنها تتحدث بلهجة الجنوب - الجملة الرقيقة». وكانت في الوقت نفسه دسارمة وممتازة ومراوغة ودقيقة. ولعلت تاتويلر مقدرة فائقة علي تصديف الحجة والحديث السياسي للزوج لتحديد الهدف .

وتميزت بإحساس دقيق بما «يقوده داخلياً» وكانت شديدة الحساسية مما جعلها مرهوبة الجانب أكثر من روثيك. لكن ما من أحد مثلاً كان يمتلك طاقة استشعار سياسي أو ولاء شخصي .

والهم أننى أردت اللتين من السيطرة علي السياسة، وفي وزارة للخارجية يعنى ذلك السيطرة علي الكلام . وفي البنتاجون علي العكس . فإن برنامج الأسلحة هي المسألة الحقيقية وهذا يعنى الدورات لا للكلمات، وفي الخارجية فإن المرء في حاجة ليمسك علي ما يقال عن مواقف الولايات المتحدة تجاه مختلف القضايا وكان روس بمشاركة مكثفة مع روثيك يشرف علي عملية إعداد الأحاديث والكلمات، وتولت ثانويل مهمة العلاقات العامة والصحافة بمساعدة كيم هوجارد ثم جريس بوى وبينهما جودى أونيل ومارى آن يودين، وفي هذا الصدد كانت ثانويل أبرع محدث باسم الخارجية لأنها درجت مع استقنات قليلة علي تطبيق تعليماتها بالنسبة للإيجاز الصحفي في الظهور، وكانت تلتزم بما أريد أن أبلغه للصحافة لا أكثر ولا أقل . وكانت تمنحني معظم فترة بصر الظهور والساعات الأولى للمساء في التحدث مع الصحفيين عبر الهاتف حول «الخلافات» مثبتة قواعدها مرة أخرى في انصياف صارم . وبالتأكيد فقد خدم هذا غرضاً سياسياً صغيراً - كما تعلمت في البيض الأبيض - ولكن في الخارجية فقد خدم أيضاً هدف دبلوماسياً حساساً . وكانت الحكومات الأجنبية تتابع الإيجازات الصحفية للخارجية عن كثب، وأتاح لنا التوظيف الدقيق للإيجازات الصحفية إرسال مختلف الإشارات إلي الحكومات الأجنبية وتحديد خطوتنا الدبلوماسية، وخاصة فيما يتعلق بعملية السلام في الشرق الأوسط . وأشرفت ثانويل أيضاً علي تنظيم جدول المواعيد - لاختصاص كارين جروموز - وهي وظيفة أخرى حساسة ولكن لا تلفت الأنظار . وكان تحديد الشخصية للتي التقوينا ومدة اللقاء تتطوّر غالباً علي مضاعفات دبلوماسية مهمة . وهكذا فإن البروتوكول وتنظيم المواعيد عملية جوهرية . وبالطبع لم تصطلح بها جروموز وحدها، فكان يعاونها أوديس جونسن وكلاير جيلبرت وليلدا ديوان في تحديد المواعيد المتغيرة بل واستمارضة أحياناً . وللمثال فإن البروتوكول هو السياسة وقد أضفي عليه جوزيف ريد صديق جورج بوش الكثير من أسلوبه ومهارته .

وبات روثيك وروس وثانويل يعرفون بـ : المجموعة الصغيرة، ليس لأنهم لعبوا أدواراً حاسمة في أهم مبادرتي فحسب . بل أيضاً بسبب سفرهم معي . لكن كانت هناك مجموعة

مصفوة أحرى علي نص القدر من الأهمية ضمنّت لوارس إيجلبيرجر نائب وزير الخارجية وروبرت كيميت وكيل وزارة الخارجية وجانيت مولينز مساعد الوزير لشئون الكونجرس، ولم تأل هذه المجموعة جهداً في طرح المبادرات ولتقيام بالعمل الشاق في إنارة الأزمات .

ويضطلع نواب الوزير بكل العمل ولا فخر، ولم يكن أحد مؤهلاً لمعالجة المشاكل المستعصية في إنكار للذات مثل إيجلبيرجر وباعتباره (D) كان إيجلبيرجر يعرف أن مهمته هي أداء العمل البغيض الذي لا يريد أو لا يستطيع أحد غيره أدائه وكان يقدم علي للعمل بلذة يصعب علي أحد فهمها ما لم يتحدث إلي ريتشارد نيكسون الذي كان يعرف إيجلبيرجر وهو مساعد لهنري كيسينجر. وقال لي نيكسون: «إنه موال تماماً وأبست له أهدافه الخاصة وهو شخصية أليفة لطيفة» .

وكانت كل هذه الصفات حقيقية ولا سيما الصفة الأخيرة وكانت لديه مقدرة خاصة علي تفهم «المبني» والتكهن بالمشكلات ونزع فتيلها، وجعل هذا منه أسطورة في المسلك الدبلوماسي والقضلي. حيث أمضى قرابة ربع قرن من قبل أن يضم لكيسينجر ومساعديه وكان يحاول دائماً نواب من الطراز الأول. غير أنه كان بارعاً في تسيير الشؤون اليومية للوزارة بمساعدة إيفان سيلين ثم جون إني ديلور ووجرز الذي خدمني علي أكمل درجة في المواقع الإدارية البارزة في البيت الأبيض والخزانة .

وجعلت كيميت (P) لأنني أردت أن يتولي رئيس قوى الإشراف علي المكاتب الإقليمية الخمسة التي تقوم بتنفيذ الشق الأكبر من السياسة . كان كيميت قناصاً بارعاً من الغرب أصرني عندما كان يعمل في مجلس الأمن القومي أيام ريجان وبذل جهداً مضنياً محي وهو مستشار عام للخزانة. وعندما طلب مني جورج بوش ترشيح شخص ما للقيام بالمهمة الحساسة بمناقشة والتحدث إلي المرشحين المحتملين كتولب للرئيس أوصيته باختيار كيميت، وعلي نقيض الشائع فقد قام بعمل خارق وطرح كافة الأسئلة الصحيحة ولم يبدد الثقة مطلقاً. وباعتباره (P) أصبح كيميت مديراً للأزمات، وهو العمل الذي أدّره بافتدائ أثناء أزمة الخليج. وكان (الكولونيل بوب) كما هو معروف لسابق انضمامه إلي قوات المظلات يدرك كيف يدير اجتماعاً، وأن تسيير الأمور بشكل فعال وهي مهمة هامة في «المبني» حيث معايير وفواعد للمعاملات أقرب إلي انكاريكاتير، وأشبه بقسم التفاف من قبيل «أولا لا تفعل شيئاً ...

وأولاً لا تسبب ضرراً وكان كيميت رجلى فى لجنة القواب، وهى أرفع لجنة بين الوكالات الحكومية تتولى معالجة قضايا الأمن القومى دون مستوى الوزراء. وتمثلت العقبة الأخرى المحتملة أيام العمل فى الكونجرس، وكانت جانيت مولينر بوصفها مديرة للممثلين لدى اثنين من أعضاء الشيوخ سابقاً تعرف الكونجرس خير المعرفة، ولتثناء حملة بوش أظهرت مقدرة حقيقية على تفعيل الأمور بالتسويق مع رجال الإعلام. وكانت هى الاختيار الطيبى لرئاسة مكتب الاتصال بالكونجرس (H) وهى وظيفة كنت أعرف أنها حساسة بعد الحملة الانتخابية المريرة وأظهرت مهارة فائقة فى موقعها .

وحظيت المجموعتان المصغرتان بكل دعم وتأييد طاقم مكتبى كارين جاكسون وإير لايدبرى ومارلين نيومان التى كان حماسها متقدماً لدرجة انتهت بزولجها من ابنى دوج .

وأحكمت القبضة على السبني بشغل الموقع الباقية لوكلاء الوزارة ومساعدى الوزير بخليط من موظفى السلك الدبلوماسى والفنسى والتصديقات الخارجية السياسية والموظفين المدنيين .

ورغم التقيد السائد فى حينه أقدمت إدارة بوش على تعيين المزيد من الدبلوماسيين المحترفين فى وظيفة سفير بما فاق إدارة ريجان. علاوة على ذلك اخترت دبلوماسياً محترفاً ليكون واحداً من أربعة وكلاء للوزارة. كما اخترت ثلاثة من الدبلوماسيين المحترفين مساعدين للوزير من بين خمسة مساعدين للوزير فى المكاتب الإقليمية، وكلى فخر لاختيارى إيجليبريهر نائباً للوزير، وهو أول دبلوماسى من السلك الدبلوماسى والفنسى يترقى هذا المنصب، وأنا فخور أيضاً لاختياره خلفاً لى فى الوزارة عندما تركتها استجابة لطلب الرئيس بالعودة إلى البيت الأبيض .

ومع وجود نحو ستة وثلاثين مساعداً للوزير رؤساء وكالات يرفعون تقاريرهم للوزير كنت أعتقد أن التنظيم القائم غير عملى، ولهذا فقد قررت أن يخاطبنى مباشرة وكلاء الوزارة الأربعة الذين كانوا مجرد واجهة فى للنظم السابقة أو يكلفون بمشروعات خاصة على أن يخاطبنى مساعد الوزير من خلالهم. وكان لهذا الإجراء أثره فى تقليص نفوذ مساعدى الوزير، ولجذب إحساسهم بالثقة أو حدوث مشكلات سياسية حاولت تعريضهم بشنى

الوسائل . وعلي خلاف أسلافي كنت أعقد اجتماعاً يومياً لكبار العاملين دون أن يكون بينهم مساعدو الوزير وأصدرت أمراً دائماً بضرورة إدراج أي مساعد يطلب مقابلي علي جدول العوايد تلقائياً ، علاوة علي ذلك كان لدي أغلبيتهم رقم هاتف مباشر للاتصال بي .

وجراء ذلك لم تكن علاقتي حميمة « بالهنري » الذي لم يستغ فرقي الجديد . وساعدهم وحرصهم علي ذلك قدامي مندوبي الصحف في وزارة الخارجية الذين جفت مصادرهم بعد أن مركزت صنع القرار ، ولم يسعهم سوي التلهم علي نشر الآراء المثلية لبعض الدبلوماسيين المحترفين الساخطين . لكن ما أثارني حقاً هو الإتهام للشائع بأنني مبتدئ في السياسة الخارجية ، وكان قد سبق لي المشاركة علي مدى ثماني سنوات بدرجات متفاوتة في قضايا السياسة الخارجية خلال فترتي حكم ريجان ، وبالنظر إلي الماضي فربما كنت الأكثر استوعاباً لأعراف وأدبيات الثقافة الدبلوماسية . وكان يومى عمل الكثير لألتقف عدداً من الشباب وألعب موظفي السلك الدبلوماسي شباب مثل بيل بيرنز و دوان كرونز وديفيد ويلش وكين بريل ونيك بيرنز وموللي ويليامسون وريتشارد بوتشر ، وكلهم عملوا بالقرب مني وأصبحوا نجوماً . وربما كنت غير متآلف مع الجوانب الهروتوكولية لموظيفة وزير الخارجية كما يجب ، لكن التلألؤ الجماهيري كانت هي ما توقعه للرئيس بوش منى ، ولست لشهارة فيما يتعلق بالبراعة في اللطف للدبلوماسي . ففى عالم يتغير بسرعة خارقة يجب أن تمثل النتائج قمة الأولويات . فلو كنت ناجحاً فإن محاكمة البعض في السلك الدبلوماسي وبعض الموظفين الساخطين من الإدارة السابقة لا تعطى شيئاً . ولو كنت فاشلاً لما أفقذنى أو أنقذت الرئيس مشاعرهم فلم يكن الاتحاد السوفيتي هو المكان الوحيد الذى يحتاج إلي تفكير جديد فلم يكن جورج بوش ينقصه كل هذه الميراث للثقل من وزارة الخارجية .

الفصل الثالث

العالم عشية الثورة

لو أنني أعرفت برأيك المتشائم لشجعت على القصور في الاستفسار عن أفضل أشكال الانتحار بدون ألم. تكن أمتهم أنك تفرط في الإصفاء لتجلبد ويبدو أن أعظم عقلة يمكن الخروج بها من جوارب الحيلة هي ألا تثق في الخبراء . فلو صنعت الأطباء فلا شيء صحي، ولو صنعت رجال الكهنوت فلا أحد ظاهر . ولو صنعت الجمود فلا شيء آمن . فبالكل يطلب منك جرع خمره المعتق مستغفراً من جع ضحكهم من الإدراك العام الماسخ .

الثورده سالزيوري

في رسالة إلى الثورده ليرن نائب الملك في الهند

١٥ حزيران يوليو ١٨٧٧

لم يحظر ببالي مطلقاً أن أخوض في معترك السياسة. ناهيك عن السياسة الخارجية. فحرفة القانون هي السائدة بين أفراد عائلتنا. فمن جدى الأكبر إلي جدى مروراً بأبى نزولاً لأكبر اثنين من أبنائى الأربعة كان أبناء بيكر محاملون كرسوا أنفسهم للصالح العام وخدمة المجتمع وساهموا في إرساء أسس عالم للتجارة والأعمال والتعليم. فوفاً أصبحت أراضي تكساس ثانياً أكبر ولاية بالدولة في القرن التاسع عشر، وانخرط أفراد عائلتي في الخدمة العامة والمهنية فقد كان جدى الأكبر قاضى الولاية في ستينيات القرن التاسع عشر. أما جدى للكاتب بيكر فقد لعب دوراً حاسماً في تأسيس جامعة رايس في هيوستون، وفي تأسيس وتنمية العديد من المنظمات المدنية الرائدة فيها.

لكن السياسة شيء مختلف تمام الاختلاف، وكانت نصيحة الكاتبين بيكر لمن يريد أن يصبح محامياً ناجحاً: «عليك بالعمل للشاق والدراسة والاعتماد عن السياسة».

وهذا بالصعب ما فعلته خلال الأربعين عاماً الأولى من حياتى* لكن عندما مرضت ماري ستوربات ثم توفيت اتصل بى جورج بوش والتمس معاونتى في حملته الانتخابية لمجلس الشيوخ. ومنذ ذلك الحين جرفنى التيار. وعلي مدار العشرين عاماً التالية باتت السياسة والمسماة العامة هي شغلى للشاغل، وحتى ومع تولي وزارة الخارجية أصبحت أرى السياسة الأمريكية من كل الزوايا تقريباً، وتطمت فن الاستراتيجية السياسية من الصفر.

الإدراك العام والسياسة الخارجية

وأفادنى كل ذلك أيضاً إفادة عندما أصبحت وزيراً للخارجية، ومع ذلك بدأت تلص الجوانب الدولية لوظيفتى علي استحياء. فدرغم الخبرة للعملية في السياسة الخارجية التي

* بعد الفخر مع مرتبة الشرف في مدرسة الحقوق بجامعة تكساس كاني من المفترض أن ألتحق في العمل بالشركة القانونية لعائلة بيكر أند برونس، لكن الشركة في ذلك الحين كانت توضع لقاعدة مكافئة معاملة الأقارب، لذا فقد اتسمت إلي شركة أخرى كبرى في هيوستون، هي فليور أند كورت حيث تفتت في العمل ولم أصبحت من السهلة، وأطالما أصرت مراراً عن عدم ردياحي لعدم اتحالي بالعمل في شركة بيكر أند برونس لأنه مع مرور الوقت كنت مقتنعة بأنها أفضل شركة قانونية في البلاد. كما أن الشركة سرعت بالعمل عام ١٩٥٧م بقرار أول لمطافاة مكافئة معاملة الأقارب، نظراً لمعاملتي الأكاديمية الذي تدور هذا الاستثناء. وقت أيضاً لو حدث ذلك لكان أكبر خطأ في حياتي. فلو مجت القبول إلى في سبب نهاسي، رار فقلت لقبول ماذا تتراسون؟ إنه موجود هنا بسبب والده فقط.

اكتسبتها من عملي رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض فوزيراً للخزينة في عهد ريجان. فقد أمضيت الفترة من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٨م حتى كانون الثاني يناير ١٩٨٩م أعكف علي إجراء دراسة مدأنية لتلك القضايا ويذكر يوب كيميت أنه بوغت بي أنصل به الساعة السادسة والنصف صباح يوم أحد أطلب منه شرحاً لسعني - حمل - شديد، وهو مفهوم غامض في الحد من النسلج. ووجدها فرصة لطرح عبارتين للتفسير قول أن أقول: وهو كذلك .. شكرأ وأنهايت المكاملة. وحضرت كل العروض التي قدمها كل وكلاء الوزارة ومساعدى الوزير الحاليين ومعهم المعطين. فيما كان فريقى الانتقالى المباشر هو أساساً مجموعتى المصغرة بالإضافة إلى جوم سيكونى الذى انتقل إلي البيت الأبيض وعكف علي إعداد أوراق استراتيجية حول قضايا بعونها. كما استظهرت ملفات للحد من التسلح وقوائم أسماء رؤساء الدول والحكومات ووزراء الخارجية. (فان أدع بأى حال أى عضو بمجلس الشيوخ يخرجنى كما تعرض بول كلارك للحرج عند تمويبه نائباً لوزير للخارجية عام ١٩٨١م لعدم معرفته اسم رئيسى زيمبابوى وجنوب أفريقيا).

ولكل هذا بسعنى القول أن المعرفة النظرية لا تعد ضرورة مطلقة لنجاح وزير الخارجية. لأن جوهر وظيفة وزير الخارجية سياسى فى المقام الأول بمجرد أن يظهر علي الساحة الدولية، وبندو السياسة الخارجية للعين غير للخبرة خالية من الاعتبارات السياسية. إنها تتجاوز الأبعاد العزمية إلي حد كبير عن السياسة الاقتصادية والدخلية. كما أن الأساليب الدبلوماسية وصعت خصيصاً لتشويش النزاع، ولكن كوزير للخارجية كان على دائماً أن أفكر فى ثلاثة أبعاد سياسية علي الأقل ينطوى عليها أى اقتراح : هل ستكون قادري علي بناء إجماع داخلى لتأييده ؟ ما هونوع رد الفعل السياسى الذى سيولده فى عواصم الخصوم والحلفاء ، وأخيراً كيف سيغير طبيعة علاقتنا السياسية بولايأ ؟.

وليس مطلوباً من الوزير بالحكومة أن يركز علي الجانب القى. بل المطلوب هو التركيز علي الجانب السياسى للحكم. فالوزير لا يحد للقضايا علي أساس آثارها السياسية فحسب، ولا يتخذ القرارات تبعاً لشعبيتها السياسية فقط. لكنه يتخذ للقرارات وي طرح المبادرات ويتجنب الكوارث ويضع الاستراتيجيات واضعاً كل تلك المواقف فى تفكيره بقوة. إننى أفكر وأخطط بهذه الطريقة منذ أن كنت مديراً لحملة الرئيس فورد عام ١٩٧٦م وأعتقد بشدة أن

الاستراتيجية السياسية سواء أكانت محلية أو قومية أو دولية لا نتمنى أن تكون وفقاً للإدراك العام سوي تحويل الأفكار إلى أفعال في ضوء وقائع معينة وتحقيق أهداف محددة .

وفي هذا الصدد فإنني أشعر بالإرتياح دائماً للفعل لا للتأمل . ويقدر ما تستغني بالذكره فإن دأبي الشخصي والهنئي هو الانطلاق وتحريك الأمور بدلاً من اللجوء والاستغراق في التفكير فيها . ولا يعنى هذا أنني أترفع عن حياة التأمل أو عالم الأفكار . فقد علمنى أساتنتى فى مدرسة القانون قوة المنطق من خلال الحوارات للسقراطية التى لا حصر لها التى أجريناها فى قاعة الدارسة . وتعلمت أن الحجة يمكن أن تصبح مشروطاً حاداً يمكنه قطع الحجر أو النفاذ فى الأفكار الصلبة التى تحجب الموضوع الأساسى . وعلى الحجة أن يعزز وجودها موضوع أو هدف أو سبب .

وإذا لم يحدث هذا فإن تتحدى مجرد كونها مجموعة من الأفكار المثالية المطلوبة على نفسها . فما الفائدة منها ؟

ولو شئت تصديقى فإننى أقترح أن أصنف كرجل واقعى ، وقبل تخرجى كتبت بحتى الأساسى عن الخلاف لدخل حزب العمال البريطانى بين أوريس بيفان و إيرنست بيفين الذى أصبح وزيراً للخارجية ، وكان الخلاف بينهما يمس الانقسام بين الاشتراكيين الحقيقيين ومن يمكن وصفهم فى السياق الأوروبى بالاشتراكيين للديمقراطيين . تكن بالنسبة لى فقد كان الخلاف أكثر أصولية : إنه خلاف بين المثاليين والواقعيين . وكنت معجباً ببيفين وكتبت فى بحتى : « لم يكن بيفين مشغولاً بالنظريات بل بالتصرفات العملية . إنه يعرف أن الشخص المعامل يريد الخبز والعمل لا التبشير النظرى بالثورة القادمة . كان بيفين يؤمن بحل مشكلات الحاضر قبل التطرق إلى مشكلات المستقبل . فعل المشكلات الحالية يفوق اعتبارات تحقيق الهدف بعيد المدى » وبالنسبة لبيفان كان رأى لى أكبر نقاط ضعفه هو وأنصاره يتعامل فى : « الانتقار إلى التنازل أمام الواقع ، وخلصت بقدر ما يمكن أن يختص إليه طالب إلى أن المزمع يتولد لديه استيعاب بأن أولئك اليساريين يحلون مشكلات تكون بإجراء مناقشة عن معجزات سدة لا وجود لها .

وربما تكون دراسنى للقانون قد عززت تركيزى على الفعل لا للتأمل ، مى الحال على هذا المنوال منذ ذلك للحين ، وتركت خبرتى فى القانون أنراً طليبا على موقفى عندما دخلت عالم السياسة والسياسة العامة . فعدما تدخل للحكومة فأنت تقدم على هذه الخطوة

بمعتقدات وقيم معينة، ومهمتك هي تحويلها إلي وقائع دلائمة لمصلحتك. وهذا بالطبع يؤدي إلي حدوث صراعات مع الآخرين ممن يعتنقون معتقدات وقيماً مختلفة ولهم بالتالي مصالح مختلفة، وتتشكل ساحة المعارك في واشنطن من الصدام بين الأفكار، الذي يوصف عادة بأنه سياسة، مقروناً بالمعارك حول المصالح والقيم. ولكتشفت أن هذا الإدراك العام هو مرشد قيم للعمل .

ويعتبر أدق، كنت محظوظاً أن أتولى وزارة الخارجية في وقت كانت المعتقدات طويلة الأمد عن استراتيجياتية كبرى تنقلب رأساً علي عقب. فالحقيقة الواضحة أنه ما بين عام ١٩٨٩م حتي عام ١٩٩٢م شهد العالم ثورة. فالعالم كما عرفناه قد تغير بشكل بارز، وفي غمار هذه الثورة تعين إحداث تغير جذري في الافتراضات والاستراتيجيات طويلة الأمد إن لم يكن قد تم التحلي عنها كلية. وتوليت المنصب بعقل منفتح وأكثر مرونة نسبياً، وكلي اعتقاد بأنني مهياً للمسير علي إيقاع التغيير ربما بشكل أفضل من الآخرين .



كان دينيس روس محقاً عندما كتب لي في ١٦ كانون الأول ديسمبر ١٩٨٨م يقول: إن الرئيس المنتخب يقول ومعه الحق: «إن علينا أن نحلم أحلاماً كبيرة. إننا ندخل إلي فترة تختلف تمام الاختلاف عما شهدناه في حقبة ما بعد الحرب بأسرها. وليس هذا أوان تقييد تفكيرنا. وربما لا نحقق أحلامنا، ولكننا لن نملك إمكانية استشرافها إننا لم نتسمع عقولنا ونقرر بأهمية التفكير غير التقليدي» .

كان روس يرد علي اقتراح من هنري كيسينجر بأن نبحث قضية أوروبا الشرقية مع موسكو من خلاله - بالطبع - كقناة خلفية .

وكذاها سخرت روز رينجواي، وهي حينذاك مساعد لوزير الخارجية للشئون الأوروبية ومساعدتها الأول توم سيمونس من الفكرة. بينما دفع روس بأنه قريباً لا بعيداً سيتعين علينا أن نناقش أمر المنطقة مع السوفيت - ليس بهدف تقسيمها إلي «مناطق نفوذ» بل بهدف الحيولة دون وقوع أزمات وإدارة عملية التحول إلي الديمقراطية، ولنتهي بي للحال إلي تأييد هذا النهج، وأثرت قضية شرق أوروبا في اجتماعي الثاني مع شيفرونادزه في آيار مايو - رغم

أننى جمدت اقتراح هنرى كيسينجر فى صحيفة نيويورك تايمز فى ٢٨ آذار مارس. وفعلت ذلك لأننى لم أرغب فى أن يعتقد أحد أننا سننتهج نهج «مناطق النفوذ» وهو التفسير الذى ضرب به كثير من الأوروبيين اقتراح كيسينجر. علاوة على ذلك فقد أردنا إجراء المناقشات عبر قناة أمامية مباشرة مع جورباتشوف وشيفرنارد، وأن نوضح تماماً أن خيارنا ليس هو بالمعنى : ٢. وألح على اللقيض الذى تضمنته النصيحة التى تلقيناها من عاملين فى الخارجية الأمريكية أن بعضهم لن يجارى سرعة الأحداث التى توشك أن تغير العالم .

ما أمَلْتُ أن أفعله

اكتشفت فرقاً دقيقاً بين خبرتى السياسية المسابقة والمهمة التى تنتظرنى فى الخارجية. فى الوظائف الأخرى كانت طبيعة الموقف تملئ الهدف، لئلا يوضح نسبياً على أية حال. فى العمليات الانتخابية تملئ الهدف فى الفوز بالانتخابات أما فى البيت الأبيض فإنه الإدارة وتنفذ جدول أعمال الرئيس والعمل بنجاح مع الكونجرس لإقرار تشريع، وفى النهاية صمان إعادة انتخابه، وفى الحزبية كان تعزيز المصالح المالية والاقتصادية لأمريكا داخليا وخارجيا .

لكن هدف عملياً فى الخارجية أبعد ما يكون عن التجسد فى شكل محدد. فأهداف السياسة الخارجية تشمل كل شيء بدءاً من محاولة خلق التفوق للصكرى التقليدى الشامل للصوفيت فى أوروبا مروراً بمحاولة وضع نقطة انطلاق لعملية السلام فى الشرق الأوسط وانتهاء بمساعى وقف عمليات الصيد الجائر الذى يقضى على مخزون المصايد فى محيطات العالم، وكان الخطر المائل فى أن يردى أوبرقية سترد يوماً ما ستكون القوة المحركة لسياستنا، إنه خطر حقيقى شاملاً ولطالما حذرنى منه كل من التقهتهم من أسلافى .

وكما أطلت للتفكير أثناء المرحلة الانتقالية كلما أدركت أن محور التركيز فى وظيفتى ينبغي أن يبدأ بالعلاقات السوفيتية الأمريكية . فقد أشارت أول ورقة تخطيط بعد المدى قرأتها بخصوص السوفيت إلى «أن الاتحاد السوفيتى قوة عظمى على طريق الانحسار . فكافة الدلائل تشير بالفعل إلى أن قوة السوفيت آخذة فى التلاشى، وكوزير للخارجية فإن المهمة الأساسية فى العلاقات بين الشرق والغرب تكمن فى إدارة الآثار الدولية لهذا الانحسار بشكل ملئع وسلمى»

ولو قدر لي مساعدة الإمبراطورية السوفيتية على «الإنحسار الملحق» فإن فرص توسيع الديمقراطية وتحرير السوق وتصوية الصراعات الإقليمية لا حصر لها. لكن إذا توقف الإصلاح أو تغير اتجاهه فستجد أمريكا نفسها - كحد أدنى - تتصارع مع بيئة دولية غير مستقرة. وعلي أسوأ الأحوال سوف يري الحرب الباردة وقد استعالت إلي حرب ساخنة .

وفي ضوء كل هذا الواقع تملأ منطقتي الإستراتيجيتين في الصراعة، ومذ البداية استكثرت سياسة الاحتواء علي مبدأ أنه بقدر القوة التي يمكن ممارستها علي السوفييت بقدر ما يمكن حملهم علي إجراء تغيير داخلي، وهو ما وصفه للسفورجورج كيدان أول من كتب عن سياسة الإحتواء «بالمنهج التدريجي للقوة». ولم يبدأ طريق للوصول إلي الحد الأقصى للقوة في الصراعات مع السوفييت. بل بدأ بتحقيق إجماع في واشنطن. وكلما توحدت السياسة الأمريكية وخرجت من عباءة المذبذبة كلما ازدادت قوة وتماسك التحالف الغربي، وكلما قويت العلاقات الغربية للغربية كلما تعززت القوة التي ستظهر أمام موسكو لحملها علي التوافق سلمياً مع واقع إنحسارها، وكلما استطعنا دفع الاتحاد السوفيتي نحو مصالحنا وقيمنا كلما كان ذلك أفضل .

وترتيباً علي ذلك ومن وجهة نظري اقترحت من عالم عام ١٩٨٩ م من الفرار بنفس الطريقة التي اقترحت بها من السياسة والحكم. وبدأت بفكرة شاملة عن الهدف الطبيعي، وانطلقت من هذا الهدف بالمؤسسات التي يجب أن تسيطر عليها أو تؤثر عليها أياً تأثير بغية تحقيق الهدف : أي الليبرالية، أولاً ثم الكونجرس ثانياً فالصحافة ثالثاً. وبمجرد أن نبذل قصاري جهدنا في هذا الصدد فسوف نخرج في العمل علي توطيد «قاعدتنا القارية» أي العلاقات مع كندا والمكسيك وأمريكا الوسطى، ثم العمل بعد ذلك في تعزيز وتوسيع تحالفاتنا عبر الاطلنطي والهادي عند الاقتضاء. وأخيراً بوب زوليك بأن «التفكير بطريقة دوائر التركيز هو أفضل سبيل يمكن اتباعه» .

مهام ملحة :

وكما قلت في أول اجتماع للحكومة في ٢٣ كانون الثاني يناير ١٩٨٩ م كانت أولي المهام هي إعادة بناء سياسة غير حزبية، وتتطلب تلك المهمة إقامة علاقات قوية مع الكونجرس، وكانت علاقتي بالكونجرس جيدة. فعلي مدخل الأعولم للامانية الماضية عملت

عن قرب مع أعضاء كلا المجلسين من كلا الحزبين لدرجة دفعت السيناتور لويد بيندسين إلى الإشارة في كلمة تقديمي لجلسات الاستماع لإقرار تعييني إلى مشروع قانون الإصلاح السريري الذي قدمه للرئيس رونالد ريغان عام ١٩٨٦ م وقال: «لطالما تشارور معنا جيم بيكر مرات ومرات، فنحن نعرف جيم بيكر خير المعرفة» .

وكنيت أسمى أن أساس إقامة سياسية غير حربية هو تموية الخلاف حول أمريكا الوسطى . ففي نيكاراغوا وصلت حرب السنوات السبع التي تشنها الكونتراسد حركة الساندنيسا إلى طريق مسدود . بينما الكونجرس يرفض أي اعتمادات عسكرية جديدة للكونترا، وكنيت علي اقتناع بأنه ليس هناك حل عسكري مقبول للصراع، وفي السلفادور استطاع المتمردون بعد قتال لتسمع سنوات السيطرة علي ثلث أراضي البلاد . لكن يبدو أنهم عاجزون عن تحقيق الفوز . لقد كان عقد الإحباط في المنطقة وفي واشنطن . وكنيت علي يقين من أنه يتعين علينا أن نجذب أمريكا الوسطى ورامنا لوأردنا التحلي بالقدرة علي التعامل بفعالية مع إنحسار القوة السوفيتية . علاوة علي ذلك كانت أمريكا الوسطى تشكل عقبة أمام استمرار تقدم الديمقراطية في كل أمريكا اللاتينية، وبدون شك إعطرت هذه أولي أولوياتي .

وكان هدفي التالي بالمصطلح السياسي «تأمين قاعدتنا» بمعنى ضمان علاقة جيدة مع كندا والمكسيك، وخلال إدارة ريغان كان بريان مواروني رئيس وزراء كندا صديقاً مخلصاً للولايات المتحدة، وأقام علاقة وثيقة مع جورج بوش .

وأثناء عملي بالخزانة توصلنا إلي اتفاق التجارة الحرة الكندي عام ١٩٨٧ م . بل وطرقنا إلي التفكير في مميزات توسيعها لإقامة منطقة تجارة حرة باتساع القارة بأسرها حتي أثناء مفاوضاتنا حول اتفاق التجارة الحرة الكندي . ونبع جزء من اهتمامنا هذا إلي هواجس التكامل الأوربي الذي كان مقرراً له عام ١٩٩٢ م لكن للسبب الأكثر حسماً هو اهتمامنا بالرئيس المكسيكي كارلوس ساليناس دي جورتاري . كان ساليناس الذي انتخب لثوره اقتصادياً متمرساً، وملتزماً بإدخال إصلاحات لإقامة السوق الحرة، ووافق بوش علي نقله في أسرع وقت حتي قبل أداء اليمين الدستورية . وفي ٢٢ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٩ م وفي قاعدة إيلينجبتون الجوية في هيوستون وضعنا ما وصفناه «روح هيوستون» .

كان ساليناس شخصية ودودة وصديقة تتوق بوضوح إلي إقامة علاقات أفضل مع الولايات المتحدة، وأبلغنا أنه يحترم تعيين وزير المالية «جوستافو بيتروشيلي» سفيراً جديداً

لبلاده لدى الولايات المتحدة. وكوزير للخزانة سبق لي للتفاوض مع بيتروشيلى، وكان من الواضح أن سالياناس يشق طريقه نحو بدء العلاقة علي أساس إيجابى .

وأراد الرئيس وأنا نوليد للعلاقة مع المكسيك. لأنها قضية للسياسة الخارجية ذات صلة مباشرة بالسياسة الداخلية .

وأدرجت للقصيدتان الأخريتان وهما جنوب أفريقيا والشرق الأوسط علي جدول الأعمال في فترة مبكرة بسبب تداعياتهما الداخلية والدولية. وخلال مشاوراتى لفسني إلى السيداتور بول سيمون بمشاعره بأن جنوب أفريقيا يمكن أن تنفجر، ولو حدث ذلك قد تندلع أعمال الشغب في نيويورك وشيكاغو ومن أمريكية أخرى. ولم يكن يعترينى قلق كبير حيال مثل هذا الاحتمال. حيث كانت تسطر على فكرة التحرك بما يتجاوز العقوبات. فلم يكن للعقوبات التي أقرها الكونجرس لعامين سوي تأثير ضئيل علي إحداث تغيير نحو ديمقراطية غير عنصرية، وكنت أشعر أن الفرصة قد تنهيا لإقامة علاقة عمل بذاة بقدر أكبر مع الكونجرس يمكن أن تستغل بدورها لتشجيع إحداث تغيير في نظام بريتوريا. وكنت مدركاً أيضاً لضرورة مواصلة التفكير والنظر بعين الاعتبار للشرق الأوسط، وفي الوقت الذي كنت حازفاً فيه عن الانخراط في الدبلوماسية المكونية علي الفرع كان الشرق الأوسط أكثر مناطق العالم التي تخرج بالصراعات منذ الحرب العالمية الثانية. كما أن الرئيس بوش كان يعتزم مواصلة سياسة ريجان بمساندة إسرائيل بقوة. وكالجميع كنت أفترض أنه مع خروج الحراق وإيران منهكتين خاليتي التفاوض من حربهما التي شارفت العقد سوف يتمتع للخروج بالهوء .

تفعيل التحالف الغربي

وافق عام ١٩٨٩ م للثكري الأربعين لتأسيس حلف شمال الأطلسي. ورغم أن حلف الأطلسي يعد أنجح تحالف في التاريخ. فقد ماورنا القلق من أنه كلما تقدمت وتيرة الإصلاح أو لوحظ تقدمها في الاتحاد السوفيتي كلما ازدادت صعوبة الحفاظ علي التماسك الغربي. وهذا هو السبب الذي دعا نائب الرئيس حينذاك جورج بوش إلي اقتراح عقد قمة مبكرة للتحالف أثناء جملة عام ١٩٨٨ م كأن العالم يتحول من عالم ساهمت فيه المخاوف من التهديد السوفيتي في الحفاظ علي وحدة التحالف الغربي، إلي عالم تتساوي فيه علي الأرجح قوي للشد مع قوي الطرد نحو الغرب .

وكنيت علي يقين من أن إحدى مهمامي الأساسية كوزير للخارجية هي إدارة هذا التحول.

وكان من الواضح ونحن نتجه نحو إصلاح حلف شمال الأطلسي أنه يجب علينا العمل مع القوة المتنامية للمجموعة الأوروبية المقرر أن تتحول إلى سوق موحدة عام ١٩٩٢ م. وقد ساور القلق الكثير من الأمريكيين، والأمريكيين الشماليين والآسيويين، في حينه بأن الاتحاد الأوروبي ٩٢، سيؤدي إلى قيام كتلة سياسية واقتصادية أوروبية إنكفائية منفصلة عن بقية الغرب. ولنفادي هذا الأمر نطلقاً لإقامة علاقات مبكرة مع الاتحاد الأوروبي، وأصبحت علي اقتناع بأنه بينما لا يمكن أن يخلو أي شيء عن «العلاقة الخاصة» مع لندن فإن ميزان القوة داخل أوروبا يتجه نحو يون - لوس اقتصادياً فقط، ولكن أيضاً بسبب الانفتاح الذي يطرح مع الأوروبيين الشرقيين، وهكذا فإن تقوية العلاقات الأمريكية الألمانية سيصبح حاسماً في إدارة العلاقات عبر الأطلسي.

وعندما كنت وزيراً للخزانة استحوذت اليابان علي جانب كبير من اهتمامي، وخاصة في قضايا فتح الأسواق وأسعار الصرف. وكنيت قد دعوت وأنا وزير للخزانة إلى إقامة «شراكة كرونية» مع اليابان. لكن بعد أن أصبحت وزيراً للخارجية فإنه باستطاعتي تنفيذها بالفعل. وبالطبع تبين علي أن أضغ الاعتبارات الداخلية في الحسبان حيث بات إلتقاد اليابان موضوعاً بارزاً في الحملة الانتخابية للديمقراطيين، ولا سيما في العملة للتمهيدية للذئاب دوتو جيفارت. وتبين أن جعل هدفنا هو محاولة تحويل اليابان من عملاق اقتصادي تجاري إنكفائي إلى قوة اقتصادية وسياسية ترتبط بعلاقات وثيقة مع الولايات المتحدة.

وفي مكان آخر في المنطقة كانت الصين بلا ريب تتنقل لتصل أحد الأولويات الشخصية للرئيس. حيث سبق أن تولي رئاسة مكتب الاتصال الأمريكي في الصين في السبعينيات. وكانت توقعاتنا ضئيلة بأن تتحول الصين إلى هم داخلي. لكن لا أعتقد أنه خطر ببال أحد حينذاك ما حدث في ميدان تيانانمين «السلام السماوي» في حزيران يونيو ١٩٨٩ م.

وكنا مهتمين أيضاً بإقامة منطقة أشمل للدول المطلة علي الهادي ونصوب تحت لوائها القوي الاقتصادية الآسيوية «المنور» رغم صغرها، وهي تايلان وسنغافورة وأندونيسيا وهونج كونج وماليزيا، وفي الخزانة أجرينا محادثات تجارية ونقدية مع ثلاث من هذه الحكومات

تاياوان وسنغافورة وهونج كونج. كما أنني بحثت أنا وزوليكي في وزارة الخزانة عام ١٩٨٨م مع بوب فافر أحد كبار مساعدي الدوليين تطوير فكرة منظمة دول الهادي، وفي وزارة الخارجية قررت نقل فافر إلي مكتب شرق آسيا والهادي (BAP) لتطوير التعاون بين دول الهادي. ونتيجة لذلك، وعندما طرح بوب هوك رئيس وزراء استراليا اقتراح تشكيل منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والهادي «أبيك» رحبنا بمبادرته، وسمينا لتدعيم منظمته الوليدة.

وغالبا ما ألقت الندرة النسبية للمؤسسات العاملة بظلالها لدي مناقشة العلاقات الدولية. ففي المجتمع الداخلي تنتشر المؤسسات لدرجة أنها أصبحت من المسميات. لكن علي الساحة الدولية لا وجود لمثل هذا الانتشار. فأبرزها هو الأمم المتحدة وحلف الأطلسي. وبدون مؤسسات يحذر إنجاز العمل. لأنه سيتعين إجراء كل المشاورات علي المستوى الثنائي: أما مع وجود مؤسسة: فأنت تخلق مبرراً للمشاور ويمكنك توسيع التعاون لمداه. وهكذا فقد قضينا معظم فترتنا بالخارجية في تأسيس مؤسسات جديدة مثل «أبيك» وتطوير القديم منها «حلف الأطلسي» أو اتخاذ ترتيبات شبه مؤسسية. (علي سبيل المثال صيغة إثنين زائد أربعة للوحدة الألمانية).

إدارة إنهيار الشيوعية

استند افتراضني علي أنه بمجرد إنهاجنا نهجاً غير حزبي لسياستنا الخارجية وصياغة إجماع غربي مصوف نشرع في سلوك نهج ثلاثي نهج الإمبراطورية السوفيتية. وسيكون المسار الأول إجراء مناقشات مباشرة مع موسكو، وإطلاقاً من استمرار الانحسار للسوفيتي تمثلت إستراتيجيتنا في التبادلية المحدرة والحكومة والحدوسة. ولما لم تكن تلك ترف انتظار المبادرات السوفيتية: وعوضاً عن هذا كنا في حاجة إلي طرح المقترحات ذات المغزي الإستراتيجي التي يمكن أن يتقبلها للرأي العام الغربي. وتبني جورباتشوف إستراتيجية إضعاف التماسك الغربي عن طريق عرض مقترحات سخوية تجذب إنتباه للرأي العام، ومن ثم إنزعاج مكاسب اقتصادية من الغرب. ولرؤنا الانقصاص علي هذه الإستراتيجية بطرح مقترحاتنا نحن، مبادرات ترمي إلي فتح للنظام السوفيتي أمام نفوذ الغرب. مبادرات تهدف

وضع إطار مؤسسى للإستقرار والتوقعات ومنع العدول عن الإصلاح، وأخيراً تمزيق ما وصفناه بـ «الترتيبات السياسية المشروعة» فى إتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، وكنا نضمن بذلك «التحول إلى الديمقراطية»، ولم نقصد إشعال حريق سياسى فى موسكو يكشف نوايانا .

أما ضغوطنا من أجل الديمقراطية - وهى المصار الثالثى - فقد كانت أكثر وضوحاً وعلمانية. ففى هذا السياق كنا نريد أن نكون أكثر إمتلاكاً لرمام الهجوم فى مساعدة الإصلاحيين. ليس فقط عن طريق المساعدة الاقتصادية (اللى قد تسفر عن نتائج عكسية فى بعض الأحيان) بل أيضاً بتأجيل الإصلاحات السياسية والمشاركة فى معسكر - ويقدر ما كان جورباتشوف يحاول تحقيق معيزات على حساب واشتغل بورقة أوروبا الغربية لردنا «الهجوم» ومنذ البداية لمسا إستعداد أوروبا الشرقية للديمقراطية والسوق الحرة. لقد كانت علاقة عضوية بين الإصلاح فى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، وتوصلنا على وجه السرعة إلى تقسيم ضمنى للعمل على الأقل مع حلفائنا الغربيين تركيز بمقتضاه ألمانيا والأخرون على تقديم المساعدة الاقتصادية لدول أوروبا الشرقية والسوفيت. بينما نركز نحن على ضمان إحداث تغييرات فيما يسميه السوفيت «تلازم القوى» بالعمل على نزع الطابع العسكرى للسياسة الخارجية السوفيتية، ودفع جورباتشوف نحو الإصلاح السياسى .

والخمس المصار للثالثى فى الإستراتيجية بالصراعات الإقليمية. وإستهدفت سياسة ريجان استئصال المنافذ السوفيتية فى مختلف أنحاء العالم، وصادقت هذه السياسة نجاحاً كبيراً. وكان إدراكى أنه إلى جانب استمرار الضغط على حلفاء السوفيت فإن بوسنا إستغلال الانتخابات كأداة لإزاحة السوفيت، وكان التوجه نحو الديمقراطية قوياً فى الثمانينيات. كما أن إلحاح جورباتشوف على «الإنفتاح» والانتخابات يحمل الكريملين على إستمساغة للحجة للقائلة إنه إذا كانت الانتخابات شيئاً حسناً لموسكو فسوف تكون أحسن لحلفائها فى نيكاراغوا وأنجولا وأفغانستان وكمبوديا. وفى جوهر الأمر كنا نجتى ثمار نجاح سياسة ريجان الداعية لإستئصال الأنظمة الشيوعية فى العالم الثالث ولو بالقوة عند الإقتضاء. وبالتسبة لمعظم هذه الأنظمة التى كانت ولقمة تحت الحصار بالفعل أصبح بوسنا الآن التحول نحو الانتخابات كوسيلة لإتمام تحول سلمى نحو الديمقراطية .

الإعداد لعالم ما بعد الحرب الباردة

ومع تيقن الرئيس وأنا أن مهمتنا المحورية هي إنهاء الحرب الباردة . فقد شرعنا أيضاً في الإعداد لعالم ما بعد الحرب الباردة . ويشتمل هذا بدرجة كبيرة إما علي تطوير المؤسسات القائمة، أو إنشاء مؤسسات جديدة إضافة إلي ضرورة البدء في وضع إستراتيجيات بعيدة المدى للتعامل مع النوعية الجديدة للناشئة من المشكلات المعاصرة للقوميات التي لا تدرج ضمن التصنيفات التقليدية المعروفة، ومنها الإرهاب والمخدرات والبيلة ومنع إنتشار أسلحة الدمار الشامل . وكنت أعي تماماً أنه إذا كان علينا أن نتصدي لهذه المشكلات فالواجب حشد الكونجرس والشعب الأمريكي خلفنا، وهذا يعني في المقام الأول الفراغ من قضية أمريكا الوسطي بإعتبارها عقبة مستمرة أمام إقامة سياسة غير حزبية .

الفصل الرابع

وضع سياسة غير حزبية جديدة فتح حراك أمريكا الوسطى

كانت تلك أعقد القضايا خلال السنوات الثماني الأخيرة. بل كانت أكثر المسائل إثارة للاستقطاب السياسي والانقسام الشخصي عن سائر القضايا الأخرى قاطبة .

جيم زايت

رئيس مجلس النواب

إلى الرئيس المنتخب بوش

١٨ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٨

أظن أن كل رئيس جديد وكل وزير خارجية جديد يصل إلي منصبه يرأوده أمل أكيد في تطبيق الدبلوماسية بروح مقولة السيداتور فاندنبرج «في السياسة الخارجية : تغف كافة السياسات علي حافة الماء» ولم يكن جورج بوش وأنا استثناءً. وأوضح للرئيس عند مناقشة خطط السياسة الخارجية خلال الفترة الانتقالية أنه يريد الخروج من دائرة سياسة المواجهة بين السلطين التشريعية وللتنفيذية التي اتسم بها الجدل الدبلوماسي علي مدار الأعولم الثمانية الماضية. وأضنت في التأكيد علي هذا الاحترام من جانب بوش خلال جلسات الاستماع لإقرار تعييني وقلت «حتي نحقق النجاح فعلياً بمسألة الفصل بدأ واحدة» .

وتكشف مراجعة للسياسة الخارجية الأمريكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية عن حقيقة واحدة ساطعة سطوع الشمس : هي أنه منذ تأييد الرئيس ثرومان لمنظمة حلف شمال الأطلسي حتي اتفاق الرئيس ريجان حول الأسلحة النووية متوسطة المدى في أوروبا حتي كل إنجاز مهم يتأيد غير حزبي مستديم. وفي الوقت الذي كانت العلاقات بين الشرق والغرب تنهياً فيه لحلول جديدة كان الإجماع غير الحزبي يبدو أكثر من ضرورة ملحة .

ومع ذلك كان من الواضح لكنايا أن هناك عقبة كروياً واحدة تعوق أي أمل في استعادة الإجماع غير الحزبي وهي التزيف المؤلم لأمريكا الوسطي. وبأى معيار كانت مشكلة أمريكا في الثمانينيات بنفس درجة مشكلة فيتنام في كلفنا من أجل إقامة الديمقراطية في هذه المنطقة المضطربة، وهو ما تجسدت آثاره المثيرة أكثر من أي شيء آخر في الصراع بين حكومة السانديسنا في نيكاراغوا وحركة المقاومة للمعروفة «بالكونترا» التي تسولها الولايات المتحدة .

ولم تكن هناك قضية أخرى من قضايا السياسة الخارجية تطلو علي مثل هذا القدر من المعوق أو الاستقطاب. وخلال معظم سنوات العقد كانت هذه القضية بمثابة الكأس المقدس لكل من اليمين واليسار السياسي. فالصحافون يحذرون السانديسنا نافذة للسوفيت في أمريكا الوسطي، ويتعين إغلاقها وفقاً لمبدأ مونرو. غير أن معارضة الديمقراطيين لتفصيل ريجان للحل العسكري أسفرت عن قرار الكونجرس عام ١٩٨٣ بحظر تقديم أي معونة مباشرة أو غير مباشرة إلي الكونترا. وبحورها أدت محاولة الائتلاف علي هذا الحظر إلي كارثة إيران - كونترا التي أطاحت عندما تكشف عام ١٩٨٦ م برئاسة ريجان، وأورثت جورج بوش شركة مفقولة من لشك وانعدام الثقة .

ومع ذلك كان الصراع بين السلطين للتنفيذية والتشريعية يكاد أن يكون مقصوراً علي المعارضة الديمقراطية، وأتذكر أنه بعد ظهر أحد أيام عام ١٩٨٢م عندما دعا الرئيس رونالد ريجان القيادة الجمهورية للكونجرس إلي مقر إقامته في البيت الأبيض لمناقشة برنامج السلطة التشريعية، وفي إحدى المراحل تطرقت المناقشات إلي أمريكا الوسطي. واشتكي بوب ميشيل زعيم الأقلية في مجلس للواب بأسلوبه الهادئ المتوازن الذي يميز الغرب الأوسط من سوء علاقة ويليام كيسى مدير المخابرات المركزية الأمريكية بالكونجرس، ولم يشأ ميشيل القول صراحة أن الكثيرين في الكونجرس لا يثقون في بيل كيسى وإذا فقد لجأ للإعراب عن تحفظاته بشكري عامة عن ولع كيسى الأسطوري بالفضعة. وبوه ميشيل إلي أنه من العسير معرفة ما يدور في السياسة حيث يكاد يستحيل فهم كيسى معظم الوقت .

ورد الرئيس ريجان قائلاً: «أقول لك الحق - واهوب - أنه يصعب عليّ أنا فهم كيسى كثيراً». وفاضله هاررد بيكر زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ : «سيدى الرئيس، هذا ما لم أسمع به من قبله .



وبنما الرئيس المنتخب جورج بوش يتأهب لتولى مهام منصبه كان الاعتقاد السائد في مؤسسة الخارجية أن قضية الديمقراطية في نيكاراغوا قضية خاسرة وحتى بالمساعدة العسكرية (التى لم يكن الكونجرس ليوافق عليها بأى حال) فلن تستطيع الكونترا مجاراة قوة جيش الساندينوستا. ومن وجهة النظر هذه فإن أفضل طريقة علي الأرجح لإدارة الأزمة هي سياسة الاحتواء التى تحول دون تصدير الماركسية إلي الديمقراطيات المجاورة .

ولم أتفق مع هذا التقييم. فإن تجدى سياسة الاحتواء مطلقاً ماثم تقررن برادع تشكله قوة مسلحة للكونترا تتركز علي الحدود مع هندوراس، وكنت أعتقد أيضاً أن الساندينوستا ستكون أقل إقداماً علي المعامرة في سياستها الخارجية لو أبقيناها تحت ضغط داخلى مستمر يدعو للإصلاحات الديمقراطية بما في ذلك الانتخابات الحرة والنزيهة. بخلاف ذلك كنت أعتقد أنه مع وجود جورباتشوف وقوة تيار سياسته في التفكير الجديد في الكرملين فإنه قد يكتسب

التوصل إلى تسوية سلمية لمعضلة أمريكا الوسطى . لكن ليس بدون مساعدة موسكو - وحيدرنى بيكسون من أنه قد يستعصى حل قضية أمريكا الوسطى ما لم يتم إغراء جورباتشوف بوقف المساعدة العسكرية لنيكاراجوا . وأراد بوش اختبار السوفييت . لكن الشرط المسبق لهذا الإختيار هو الوصول إلى موقف موحد في الداخل . فلن يكون بمقدورنا إقناع السوفييت بأن سلوكهم في أمريكا الوسطى يشكل أكبر عقبة أمام تحسين العلاقات ما لم يكن الرئيس والكونجرس يتحدثان بلغة واحدة عن السياسة للخارجية .

البحث عن سياسة جديدة

كنت علي يقين من أن هذه المسألة لن تكون بالمسألة للهينة ، وأثناء أحداث المجاملة مع أعضاء الكونجرس شتاء عام ١٩٨٨ م ألقت علي النصيحة التي تلقيتها بالإجماع لدي إثارة موضوع أمريكا الوسطى . وأبلغوني جميعاً أنه بالنسبة للعضو فإنه لو مضى بوش قدماً في تنفيذ الوعد الذي قطعه علي نفسه أثناء الحملة الانتخابية بطلب تقديم مساعدة عسكرية للكويترا فسوف يواجه معارضة تامة ، وكان هذا هو نفس رأي لي هاميلتون رئيس لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب الذي قال : «أعلم أن علينا للزماً تجاه الكونيترا لكنهم أضط من أن يعتمد عليهم . إن طلب تقديم معونة عسكرية سيثير معركة حامية الوطيس . » وكان بوب ميشل أكثر تأكيداً في نصحه لي بقوله إنه : لا أمل .

وفي الوقت نفسه شد من أزرى ما بدا أنه إحساس قوي بحسن النية تجاه الرئيس المنتخب . فقد أبلغني السيناتور جوى بيدين «إن أمامك فرصة لإعادة تفعيل سياسة خارجية غير حربية . فالجميع هنا يقدرونك ويقدرون جورج بوش رغم حملتك القاسية . إننا نكن لكما الاحترام . وأريد أن تعرف أنني مستعد لتأييد نهج سياسة خارجية غير حربية . » وأضاف قائلاً إنه يريد العمل معي من أجل وضع آلية ما لتعاون أوثق مع مجلس النواب حول قضايا السياسة الخارجية .

وحلني السيناتور جون كيرى للعضو الليبرالي البارز والعضو اللندون للكونيترا علي لتتجاه سياسة وسط تكفل تحقيق إجماع صلب حول القضية . وقال : «إن نهجاً موحداً هو وجده

الكفيل بإسقاط أورتيجا». وحتى ألد خصوم سياسة ريجان السيداتور كريستوفر دود من كوينتيكت ترك لدى الانطباع بأنه علي استعداد للتصالح .

وبعد الانتخابات بفطرة ليحت طويلة دعيت أنا وسوزان علي حفل عشاء في منزل صديقنا القديمين بوب وهيلين شتراوس . وضمت قائمة المدعوين جيم رايت رئيس مجلس النواب وزوجته بيتي . وكان رايت ديمقراطياً متعصباً كسلطه تيب أونيل . وقد عملت معه لسنوات عندما كان رعيماً للأغلبية ، وأعرف أنه صاحب عقلية متفتحة . وبعد انتهاء العشاء تطرقت المناقشة حتماً إلي قضية أمريكا الوسطي ، وانتقد رايت بعض سياسة إدارة ريجان تجاه نيكاراغوا . لكنه أبدي تأييده للمساعدة التي تقدمها الولايات المتحدة للسلفادور . وأبلغته بأن الرئيس المنتخب يريد أن تطلق سياسة للولايات المتحدة تجاه أمريكا الوسطي من برنامج السياسة الداخلية ، وأنه لن يطلب من الكونجرس اعتماد معونة عسكرية للكونفرا . وقال رايت : في هذه الحالة فإن أمامنا فرصة حقيقية للتوصل إلي حل غير حزبي .

كنت أريد سياسة ريجان في دعم الكونفرا ولم أزل . ولكنني عدت إلي مكانتي الموقفة في الخارجية بعد كل تلك اللقاءات وكلي اقتناع بأن أمريكا الوسطي هي أولي وأهم قضايا السياسة الداخلية . فأني أمل للتوصل إلي تسوية دبلوماسية ، دون وضع سياسة خارجية غير حزبية ، مألها الفشل مالم يتم نزع قضية أمريكا الوسطي من بعدها السياسي الداخلي . وكنت علي يقين أيضاً بأن أمام الرئيس فرصة لحل ذلك علي الوجه الأمثل .

ولكن لم يكن هناك وقت كاف للمناورة . ففي ٣١ آذار مارس - أي بعد عشرة أسابيع فقط من تصيب الرئيس سوف تتوقف المعونة الإنسانية المقدمة للكونفرا . وكنت علي ثقة تامة بأن الكونجرس لن يوافق مطلقاً علي أي اعتمادات لإعادة تسليحهم . وبدون المعونة الإنسانية والتوصل لحل فوري للمصألة . فمن غير المرجح استمرار وجودهم كقوة توازن تتمتع بالمصداقية أمام جبهة اللسانديستا ، وسيستمر مأزق الأعوام للشرطة العاصمية ليسم آمالنا في وضع سياسة خارجية قائمة علي التعاون .

سيرة شخصية ودبلوماسية موجزة

- لم يكن رأيي في كيفية معالجة قضية أمريكا الوسطي نابهاً فحسب من حرص علي وضع سياسة خارجية غير حزبية يمكن أن تساهم في إجراء انتخابات حرة في نيكاراغوا . بل

أيضاً من خبراتي التي اكتسبتها من عملي رئيساً لهيئة موظفي الرئيس رونالد ريجان. فمن هذا الموقع تابعت عن كثب المعارك الضارية للفترة بين جورج شولتز وكاسبار واينبرجر وويليام كيمسي وجين كيركباتريك للهيمنة على السياسة. كما شاركت بفعالية في جهودنا التشريعية لتأييد حكومة السلفادور ضد رجال حرب العصابات الذين تدعمهم كوبا وجبهة الماسادينيسدا وتمويل الكونترا وسط معارضة قوية في الكونغرس. وكنت بالطبع على علم بالعمليات السرية في نيكاراغوا التي أمر بها للرئيس، وأشرفت عليها وكالة المخابرات المركزية خلال تلك الفترة. وبمقتضى القانون كان يتم إطلاع أعضاء الكونغرس المعنيين بشكل واف لكن أغلبهم لم يوافقوا عليها. وجلبت هذه المعارضة مزيداً من القبول المشددة على التمويل في الكونغرس عام ١٩٨٤ م .

ولم يكن لدى لنا أو للرئيس رغبة في إسعاف الحرب الأيديولوجية في تلك الفترة. وكان تأييدي وتأييد جورج بوش للكونترا مسألة مبدأ، ولكننا نعرف أنه بينما تمثل قضية أمريكا الوسطى في كثير من الأوجه قضية الجمهوريين، فلم تكن تلك الأصوات الكافية لاستعادة المعونة العسكرية، وكنا نعرف من الوهلة الأولى للكلفة الباهظة لتبني سياسة متعاسكة مستديمة تلك الكلفة التي تشبه قتل الأمريكي لأخيه وأقر بأنه من الضروري لمجمل أهداف سياستنا الخارجية ولقدرةنا على إدارة سياسة خارجية ناجحة أن نزيل هذه القضية من ساحة السياسة الداخلية .

واستهدف أحد أول قراراتي للشخصية تعزيز التزامنا بإقامة شراكة غير حزبية بطريقة مثيرة تماماً. وبعد تعييني طالب مدى، هنري هود عضو الكونغرس عن الحزب للجمهوريين من ألباني، وهو من أقوى الشخصيات المحافظة وموحد منحصر للكونترا، تعيين بيرنارد أرونسون مساعداً لوزير الخارجية لشؤون الأمريكتين (ARA) وكنت أعرف أن بيرنارد أرونسون ديمقراطي صادق من فصيلة نادرة يؤيد مساعدة الكونترا، ووصفه مساعداً سابقاً في البيت الأبيض أثناء رئاسة كارتر مسافر أرونسون إلي أمريكا الوسطى، وتكونت لديه معرفة قوية بالمنطقة، وفي عام ١٩٨٦م وبتكليف من بلتريك بوكمان مدير الاتصالات بالبيت الأبيض أعد خطاب الرئيس رونالد ريجان عن أمريكا للوسطى الذي دعا إلي تبني نهج غير حزبي أكثر تصالحاً. وأضاف لاجتماع مع بوب زوليك ومذكرة من أرونسون للكتير لانطباعنا للحملة .

وقال أرونسون «إن الرأي السائد بأن قضية أمريكا الوسطى ستكون علي الأرجح قضية تثير الانقسام والخلاف بالنسبة للإدارة الجديدة غير صحيح بالضرورة. فقد شعر أعضاء الكونجرس من التجانيين بالصدور من المعازك العتيرة للانقسام حول تقديم المعونة للكونغرس ولم يعودوا مهتمين علي تكرارها. وأمام الإدارة الأمريكية فرصة نادرة لبناء قاعدة غير حزبية جديدة لميادنها تجاه أمريكا الوسطى في الكونجرس وقادة الرأي العام. لكنها تحتاج لانتهاز الفرصة في وقت مبكر». واستفاض أرونسون في شرح رأيه بالتفصيل في حديث هاتفي خاص بعد أدائي التيمين للندوة وزيراً للخارجية، وأبلغني بأن كلا الجانبين أكثر حرصاً عن ذي قبل علي التوصل إلي حل وسط بأنفسهم. وأشار إلي أن مفتاح نزع فتيل القضية هو نهج غير حربي يستند إلي التزام بإجراء انتخابات ديمقراطية في نيكاراغوا وليس مجرد الإطاحة بالساندينستا. وتوأصرت الحكومة علي المضي قدماً في مسألة المعونة العسكرية للكونغرس فسوف يتعرض الرئيس للخرج في أول اختبار أساسي لسياسته الخارجية ويفقد مصداقيته في الداخل وفي المنطقة. لكن لو منحنا الدبلوماسية فرصة بتأييد الاتفاقيات الإقليمية القائمة فإن الحل الوسط متاح تماماً مع الديمقراطيين، وسوف تتعزز سياستنا في المنطقة عن طريق تحقيق الوحدة في الداخل. وأشار أيضاً إلي أننا نجعل من قضية أمريكا الوسطى اختباراً لسياسة جورباتشوف «في التفكير الجديد».

وعلي مدى نصف الساعة ترك أرونسون لدى انطباعاً بأنه نكي ووسطي ملوه أكثر اهتماماً بالنتائج عن الأيدولوجية.

وكان بأسلوبه ومزاجه علي نقبض تام مع سلفه رايانوت إيرامز قريته في الذكاء والمشاكس الذي تحول إلي بيع لرجال الكونجرس الديمقراطيين. وفي منتصف الاجتماع تيفنت أن أرونسون سيكون اختياراً مثالياً لمنصب مساعد وزير الخارجية لشئون الأمريكيين (ARA) وعرضت المنصب عليه وقبله بعد عدة أيام قلائل.

وكنيت مدركاً أن قلة من الجمهوريين سوف تعارض تعيين بيرلي، ولذا فقد طرحت الفكرة علي الرئيس الذي تحمس لها لوجهاتها ومغزاها. وشجعني ما نما إلي علمي من أن قيادات الديمقراطيين في الكونجرس طلبوا منه في لقاءاتهم قبول المنصب. ورغم المحاولات العارضة لتسميم الأجواء ضده من جانب بعض العاملين مع نائب الرئيس ومجلس الأمن القومي الذين أشاعوا في مجالسهم الخاصة أنه عميل مزدوج فقد أبلي بيرلي بلاءً حسناً.

اسكويبولاس تقدم الآلية

لمن الحظ كانت توجد آلية قائمة بالفعل تسمح بنسج انفتاح دبلوماسي. وفي منتصف فترة الولاية الثانية للرئيس ريجان دقّ تصميمه علي الإطاحة بجهة الساندينيسا بالقوة زعماء المنطقة إلي محاولة للتوسط لطرح حل دبلوماسي من جانبهم. وتوجت هذه الجهود التي قادها رئيس كوستاريكا أوسكار أرياس سانشير باتفاق عام ١٩٨٧ الذي وقعه في اسكويبولاس رؤساء كوستاريكا والسلفادور وجواتيمالا ونيكاراجوا وهندوراس، وكان أهم بنود الاتفاق تلك الداعية إلي وقف إطلاق النار بين جبهة الساندينيسا والكونترا وإجراء انتخابات حرة وتعددية ونزيهة، في كل الدول الواقعة علي الاتفاق .

وعشية هذا الإعلان صدقت إدارة ريجان علي تصور وقف إطلاق النار، وأعلنت تعليق مساعدة الكونترا إذا أوقف السوفيت تقديم المساعدة العسكرية للساندينيسا في غضون ستة أشهر. وقبلاً تراجع رئيس مجلس اللوب رايت عن تأييده فجأة لاتفاقية اسكويبولاس بعد موافقه قبل ثمان وأربعين ساعة علي مبادرة النهي الأبيض .

كانت إدارة ريجان قد رفضت نسخة سابقة تختلف اختلافاً طفيفاً عن اتفاق اسكويبولاس سيبرض في نهاية المطاف حلاً دبلوماسياً منقح لإدارة ريجان عاجزة عن عرقله. ووفرت هذه التحركات للديمقراطيين غطاءً سياسياً كافياً لمواصلة معارضة تقديم المعونة للكونترا. وفي شباط فبراير ١٩٨٨ م صوت الكونجرس برفض اعتماد معونة قدرها ٣٦٠ مليون دولار حتي رغم تخصيص ٢٠٦٠ مليون دولار فقط للمعونة العسكرية .

ونتيجة لذلك لم يكن أمام الكونترا من خيار سوى الموافقة علي اتفاق لوقف إطلاق النار مع الساندينيسا في شهر آذار مارس. وصارع الكونجرس باعتماد (٤٨) مليون دولار معونة إنسانية غير عسكرية للكونترا حتي أيلول سبتمبر، ثم وافق علي معونة إضافية قدرها مائة مليون دولار لتوفير الإمدادات لإثنى عشر ألفاً من أفراد الكونترا في ملائهم بهندوراس حتي ٣١ آذار مارس ١٩٨٩ م .

وفي غضون أقل من شهر بعد تصويب جورج بوش عادت مجموعة أرياس للاجتماع في كوستا ديل سور في السلفادور، وأعلنوا موافقة جبهة الساندينيسا علي إجراء انتخابات رئاسية في موعد أقصاه ٢٥ شباط فبراير ١٩٩٠ م. وفي المقابل اتفق الرؤساء الخمسة علي وضع خطة في غضون تسعين يوماً لتسريح مقاتلي الكونترا .

وساورت الرئيس شكوك وأنا أيضاً حول ما إذا كانت حكومة دانيال أورتيجا ستسمح حتي ولو بإجراء انتخابات حرة بالشكل الذي تصوره آرياس، ومع ذلك فقد وفر اتفاق اسكوبلاس أداة مناسبة يمكن بواسطتها صياغة سياسة جديدة . وكان يتعذر سياسياً مهاجمة دعوتها بإدخال إصلاحات ديمقراطية ولجراء انتخابات، وانطوت حقيقة موافقة جبهة السانديستا عليها علي أهمية رمزية علي الأمل وربما كان الأهم أنها ترتيب تفاوضت الأطراف نفسها عليه، ولم يملئه الأمريكيون للشماليين . فلو أن للرئيس اقتراح مثل هذا الاتفاق لكان خصوصاً في الكونغرس قد رفضوه . لكن نشأته في المنطقة نفسها منحه أصلاً يمكننا توظيفه لمصلحتنا .

نحو اضطراب في الكونجرس

صاغ أرونسون ببراعة ضخامة مشكلة ترويج سياسة جديدة في مذكرة بتاريخ ٧ شباط فبراير . وجاء في المذكرة «إن الثقة معدومة بين خصوم تقديم المعونة للكونغرس، والسلطة التنفيذية والمكس صحيح . فالشكوك عميقة . وسرعان ما سأدرك أن هذا في الحقيقة كان تقديماً متواضعاً . فهذا الجدول يشبه معركة علي للفداء تدرج منذ أعوام . وقد تحولت هذه المعركة إلي مواجهة صريحة دون شفقة وبلا هوادة، وبالت الحلفاء السياسية أسيرة رغبة أساسية لدي كل جانب في «نقي» الآخر . كانت حدة ودرجة العداء للتبادل بين الأطراف المتحاربة غير عادية . وكان محذواً الفسفى بالغ للصحامة حتي ليمع المرء القول بأنه المعادل الداخلي لإجلاس إسرائيل والعرب في نفس الغرفة، ومحاولة حملهم علي تسوية خلافاتهم في غضون تسعة أسابيع .

وكان كلا الجانبين يسمان أعضاء كثيرين لديهم مصلحة شخصية في القضية، وليست لديهم أي رغبة علي الإطلاق في نجاح أي شيء، وأراد المتشددون المحافظون علي اليمين التصويت بقوة علي المعونة العسكرية ظناً بأن الفشل المحتوم للتصويت سيمنعهم مبرراً لتحميل الليبراليين مسؤولية وأد الديمقراطية في نيكاراغوا . واعتبر هؤلاء كل فكرة عن السياسة غير الحزبية مؤامرة خفية دبرتها أنا والرئيس لاسترضاء جبهة السانديستا . وعلي التقيض أعتقد الليبراليون إن الأمر لا يعدوا أن يكون مجرد مؤامرة لإنقاذ الكونغرس عبر التلاعب بالألفاظ . وفي كثير من الأمثلة كانت الحدة الأيديولوجية للاعبين الأساسيين تبدو

باهتة بالقياس إلى تشدد وتصلب العاملين معهم الذين دُبّ للتكثير منهم على السفر إلى المنطقة لسنوات وإبرام صفقات سياسية في الحفاء مع مختلف فصائل الصراع .

وكانت علي يقين من أن مد هذه الفجوة يتطلب شقاً وسطياً مبدعاً يجمع بين المثالية والواقعية . وبالنسبة لي كان التخلي أدبياً وسياسياً عن الكونترا بشكل عبثاً على الضمير لكوننا سنطلب المعونة الإنسانية فقط للحفاظ على أفراد الكونترا أحياء كقوة ردع موثوق بها في حالة الوصول إلى جمود سياسي . وفي الوقت نفسه سنواصل احتضان اتفاق اسكوبولاس ونسعي لتوسيعه عبر سلسلة من سياسات الترهيب والتخريب التي تستهدف جبهة الساندنيستا . وستصبح سياستنا صارمة بدرجة أو بأخرى اعتماداً على درجة وفاء حكومة أورتيجا بعهدها .

كان لهذه الحوافز والعقبات المrazية هدف آخر : هو توفير إطار لتحقيق إجماع في الكونجرس . وأعدت هذه القائمة بطارية لتشمل علي الأقل بعض التدابير التي نعتقد أن كل عضو في الكونجرس قد ينادي بها . كانت مجموعة قليلة من الإجراءات الهذلية لأكثر عدد محتمل من الجمهور هي فقط التي نملك الفرصة لتجاوز للمداء الذي تثيره القضية في الكونجرس .

واتساقاً مع هذه الإجراءات اعتزمنا ممارسة ضغوط على السوفييت لسحب كافة المستشارين العسكريين لدول الكتلة الشرقية من نيكاراغوا ، ووقف كافة أشكال المعونة العسكرية لحكومة ماناجوا وطلب مساعدتهم في الضغط على كوبا لعدم إعادة تسليح الساندنيستا .

كانت هذه هي السياسة التي أعتمد أنها ستعيد الروح المعنوية إلى سابق ارتفاعها . فالسياسة الحالية بتركيزها على التمدد العسكري سحبت البساط بالفعل من تحت «السلام» والمفاوضات لصالح المعارضة . فالرئيس ريجان وصف عن حق مقاتلي الكونترا بأنهم مقاتلون من أجل الحرية ، لكن من الصعب الحفاظ على تأييد الرأي العام لمحاولة جيش متهم للإطاحة بحكومة ، حتي وإن كانت نعيمة كحكومة لسانديستا . وكانت أعتقد أن الشعب الأمريكي سيؤيد سياسة تعيد التركيز على الحوار حول المبادئ الديمقراطية . وببساطة لم يكن الديمقراطيون ليحجروا علي معارضة سياسة قدرت تلك الانتخابات وإن جرو أيضاً أشد مؤيدي الكونترا .

وفي جوهرها التكتيكي حملت هذه السياسة نزعة التخلي عن استراتيجية المواجهة المصرف والمصلية التي ميزت في السابق للعلاقة بين إدارة ريجان ومثقفيه في الكونجرس. وعلاوة على ذلك كما لتضح فإنها تناسب مهاراتي .

كان هذا أول وأهم نزاع سياسي يقتضي تفاوضاً دقيقاً ومنضبطاً، وهي مهول مسألتها خبرة عشرين عاماً من العمل القانوني وسنول البيت الأبيض. وكنت أعتقد أيضاً أنني وطلدت علاقة ثقة مع الكثير من أعضاء الكونجرس في تعاملاتي السابقة ربما تتجاوز جدار الشكوك والارتياح الذي أحاط بالقضية علي مدار الأعوام الثمانية الماضية. كانت مغامرة كبرى. لكني كنت أعتقد أن الفرصة مثالية للتوصل إلى مصالحة.

دبلوماسية مكوكية في الكونجرس

ومن دواعي السخيرة أن تكون أول مهمة تفاوض لي كوزير للخارجية هي التفاوض مع السلطة التشريعية لا مع قوة أجنبية. لكن التجربة ستؤكد أنها عملية شاقة ودقيقة كأي مواجهة أخرى في تعاملاتي مع اللبلان الأخرى، قمفاوضاتي علي مدار اثنين وعشرين يوماً مع زعماء الكونجرس كانت مكثفة غلبت عليها النزعة للحرية، وتخللها الكثير من القسوة. وبدأ ما استطال ليتجاوز أربعين ساعة من المباحثات بعد ظهر الثاني من آذار مارس حين عرست الاقتراح علي مجموعة تضم عشرة من الزعماء الجمهوريين بمجلس النواب والعمالين بمكتب بوب ميشيل، وسلمت كل واحد منهم مذكرة «بالقة المصرية» من ثمانين صفحات تلخص السياسة التي أفكر فيها. وفي ختام الاجتماع جمعت كل النسخ التي تم توزيعها ماعدا النسخة الخاصة بميشيل، وهو إجراء كررته في كل اجتماع مع زعماء الكونجرس .

وتضمن ملحق للمذكرة قائمة تطول علي عشرين «جائزة للأداء الإيجابي» للسانديستا نواريجا «حوافز ملبية لدعم الامتثال» لاتفاق اسكويبولاس. واقتربت القائمة بحرص شديد بأداء السانديستا، وعلي سبيل المثال إذا عملت ماناجوا قوانين الانتخبات مع نهاية نيسان إبريل كما وعدت فسوف نسمح للدبلوماسيين للنيكاراجويين بالتجول في أنحاء الولايات المتحدة دون إخطار مسبق، وإذا سمح لأحزاب المعارضة بالتسجيل مع نهاية آب أغسطس فقد تلغى المناورات العسكرية الأمريكية في هندوراس .

وإذا أُجريت انتخابات حرة ونزيهة بالفعل في شباط فبراير ١٩٩٠م فسوف نقل الولايات المتحدة من جهودها الرامية إلى إقناع اليابانيين وحلفائهم الأوربيين لقطع المعونة عن نيكاراغوا. وعلى الجانب الآخر لو حدث تزوير في الانتخابات سندرس التوجه بطلب للكونجرس لتجديد المعونة العسكرية للكونترا.

وكان الهدف هو إلقاء مسئولية معارضة الحل الديمقراطي حيث يجب أن تكون - أي علي الساندينستا. وخرجت من هذا الاجتماع متوجهاً إلي الجانب الآخر للكونجرس للإجماع مع الشيوخ للجمهوريين. وبدأ بوب دول الاجتماع بقوله «والآن لنضع جيم بيلغيم بما يريد هؤلاء الرجال عمله».

وبالنسبة للشق الأكبر كانوا موافقين ولكن بلطف حوكان جيمس هيلمر من نورث كارولينا هو الوحيد الذي أراد تقديم المعونة العسكرية للكونترا رافضاً للجهد الدبلوماسي .

وقلت لهيلمر: «أنتي أويده المعونة العسكرية للكونترا أيضاً. لكن هناك مشكلة واحدة فليس بوسعك الحصول علي الأصوات اللازمة لإعتمادها ولا أستطيع أنا أو حتي رونالد ريجان بنفسه الحصول علي الأصوات اللازمة. لكن يمكننا الحصول علي الأصوات الضرورية للموافقة علي هذا».

وفي الصباح التالي اجتمعت مع الأعضاء الديمقراطيين في مجلس الشيوخ والنواب. كان البروتوكول والحكمة يحتمان ضرورة التشاور مع أعضاء حزبي أولاً. لكن من الناحية العملية كنت أعي أن تأييد الديمقراطيين الذين يشكلون الأغلبية هو الأكثر حسماً. وإذا أمكنني إقناع المعارضة المتشككة بالموافقة علي هذه السياسة فلن يكون هناك خيار أمام الجمهوريين سوى أن يحدو حذوهم رغم أي تحفظات.

وقلت أمام الديمقراطيين «إن هذه القضية أثارت الانقسام في بلدنا وسممت أجواء سياستنا لسنوات، إننا نرغب بل وننتهز كل تلك وراء ظهورها، واستدركت قائلاً: ولكني تنجح سياستنا، علينا أن نتحدث بصوت واحد، فلا يمكن أن تكون لدينا سياسة واثنان أو ثلاثة تجاه أمريكا للوسطى. فهذا يضعف معلومات أصدقائنا ويربح خصومنا».

وعرضت ملخصاً لهذه السياسة مؤكداً علي العناصر الأساسية مثل تأييد الانتخابات والديمقراطية، وهو ما كنت أعرف أنه أكثر إغراء وجاذبية من مساعدة الكونترا. وقلت

«أعرف أن هناك ميراثاً خفياً من لنعلم الثقة من مخلفات الماضي. لكن دعونا نلقي بأورثنا علي الطاولة. ليس لدينا جدول أعمال خفي. إننا نريد أن تؤتي هذه الدبلوماسية مفعولها وسوف نسعي جاهدين وبحسن نية لتحقيق ذلك».

وأوضحت ردود الفعل الجماعية لدى الديمقراطيين لزوعهم نحو المصالحة. لكن الشكوك كانت لا تزال تساورهم حول الدوافع التي تحركي. وكما قال كريس رود: «ليست القضية مجرد نهج دبلوماسي. بل ما إذا كان سيتم تطبيقه بحسن نية».

وكنيت أعرف أن مصارحتهم هي الطريقة الوحيدة لإقناعهم بأنني ولا الرئيس تحركنا دوافع خفية. وقالت: رود: «انظر، إنني أفضل فعلياً المعونة العسكرية للكونغرس، لكننا نعرف أنها ليست من بين الأوراق، لذا فإن أطلبها مطلقاً. فليس في الأمر خدعة أو مكيدة. إننا نريد تجربة الدبلوماسية. لكننا لن تؤتي مفعولها دون اتباع نهج موهنة».

وخرجت من هذه الجولة الأولى من الاجتماعات بتعهدات بتقديم دعم عام لمخطة الرئيس. وحتى أشد الديمقراطيين تشدداً استلزمهم كثير من الجهد لغيروا آراءهم. لكن كان هناك الكثير من الفجوات التي يتعين سدها وتصنيفها، وأصبحت الأسابيع الثلاثة التالية في جولات مكوكية بين الجمهوريين والديمقراطيين، وكم مررت على أوقات أحسست فيها بأن العملية علي وشك الانهيار نتيجة للتصليب الأيديولوجي الذي أشعل نار الجدل السياسي معظم سنوات العقد.

وأذكر خروجي ذات مرة من جلسة مفاوضات مع أحد العاملين معي. وعلي حين غرة دنا منا لثان من العاملين مع رود كانا يستشيطان غضباً لدرجة انتفخت معها أوداجهما. وشكهما الغضب لأن النسخة الحالية لمشروع اتفاق تضمنت إشارتين إلي الحاجة لإدخال إصلاحات ديمقراطية في بيكاراجوا، وخرجت الكلمات من فم أحدهما كالقذائف. إن هذا استفزاز مباشر، إنكم تحاولون تهشيم ألفهم، وبدا الآخر كما لو كنت في ممر في بيركلي في عقد الستينيات.

وكما توقع لم يعترض أحد علي الضغط علي السوفيت ولسانديستنا لكن القضية الأكثر صعوبة - كماستوقع - هي قضية مساعدة الكونغرس، فالديمقراطيون يريدون أساساً اعتماد المعونة فقط لإعادة، مركز الكونغرس، وهو تعبير مخفف - كلمة التصريح - وهو ما لم

يقربه للجمهوريين ولا يتعين عليهم القبول به. وقال جيمس هيلمز: إن معونة إعادة التمرکز لا تعنى سوى التخليّة. وأطلقت علي هذا الخيار اصطلاح «إعادة الدمج» وقلت: إننا نريد الأموال لمساعدة أفراد الكونفدرال على العودة إلى ديارهم في نيوكاراجوا إننا نعتصم للظروف بالفعل كما وعدت السانديفستا. وعلي أية حال أعتقد أنه من الضروري الإبقاء علي الكونفدرال في هندوراس في حالة استعداد عسكري لحام علي الأقل لمواصلة الصلح علي ماناجوا.

ونطلب كسر هذا للجمود مساومة شاقة، ولم يكن السيناتور جون مكاي من أريزونا، وهو صوت متردد بين الجمهوريين علي استعداد لتأييد «إعادة التمرکز» إلا إننا وافق الديمقراطيون علي دراسة تقديم المعونة العسكرية للكونفدرال إننا ضللت الجهود للدبلوماسية. ورفض كريس رود علي الجانب الآخر أى اتفاق لا يتضمن مبدأ إعادة للتوزيع.

وفي النهاية وبعد عدة مناقشات حامية ولقامين صاخبين جرت المفاوضات علي حل وسط، ونص الاتفاق النهائي علي اعتماد معونة للكونفدرال لدعم «إعادة الدمج الطوعي» أو إعادة للتمرکز للطوعي، للكونفدرال، وتعهدها أيضاً بوقف المعونة عن أى قوات في الكونفدرال لتتجهك وقف إطلاق النار بشأن أى عمليات هجومية.

وتصوّرت العقبة التفاوضية النهائية حول مطالب الديمقراطيين بضرورة مراجعة الكونجرس للمعونة الإنسانية برمتها. ورغم تأكيدات علي صدق نية الإدارة في التحرك بقوة لتحقيق تسوية من خلال التفاوض، إلا أن بعض الديمقراطيين كانوا لا يزالون يرغبون في التدقيق من أنهم لا يمتدحجون إلي فخ لإجبارهم علي تجديد المعونة العسكرية. وكانت قد حصلت علي التزام خاص من جيم رايت بتجديد المعونة الإنسانية لمدة عام. وأثناء وضع اللامسات النهائية علي مشروع اتفاق علمت من جانيت مولينز ومصدرها الموثوق النائب بوتر مانيجان أن رايت فقد سيطرته علي رئيس اللجنة للفرعية في المجلس. وأصر علي أن تجديد معونة الكونفدرال لمدة عام بدون إشراف للكونجرس أمر غير وارد.

وأخيراً تجسد الحل في صورة اقتراح وسط طرحه عضو الكونجرس الديمقراطي ديليد أوبى من ويسكونسين ورئيس لجنة الاعتمادات للقرعية للعمليات الخارجية. واقترح أوبى قيام لجان الاعتمادات والشؤون الخارجية في مجلس الكونجرس بمراجعة الموقف ضمنون ثمانية أشهر. وسيكون استمرار المعونات للكونفدرال بعد ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر بموافقة اللجان الأربع.

وربما يفسر البعض مثل هذا الترتيب بأنه فيبدو بحكم الأمر الواقع من الكونجرس. ومع ذلك ومن الوجهة العملية فإن مثل هذا «الفتور» قائم بالفعل علي أن سلطة المال مكفولة بشكل حاس للكونجرس بمقتضى الدستور. وبالفعل فقد فرض الكونجرس حظراً علي كافة أشكال المعونة العسكرية للكونترا. وخلصت إلي أن الموافقة علي اقتراح أوبيس لا يهب الرئيس أيأ من حقوقه علي الإطلاق. وفي الوقت نفسه سينظر إليه باعتباره بادرة رمزية لحسن النوايا، وبرهاناً علي رغبة الرئيس في وصع سياسة خارجية غير حزبية. ووافق الرئيس علي توصيتي بقبول اقتراح أوبيس، وفي الحقيقة فقد بدأت المفاوضات معتقداً أنه إنجاز باهر لو حصلنا علي موافقة بعد المعونة لسته أشهر - أي نصف الفترة التي وعدني بها رايت. وهكذا فإن إعادة النظر في المعونة بعد ثمانية أشهر كان أكثر من مقبول .

وفي المراحل النهائية للعملية كنت أقوم ببعض الجولات في الكونجرس. بينما كان عضو الكونجرس الجمهوري دوكانان هنتر من كاليفورنيا - أشهر منتقدي السياسة غير الحربية - يجتمع مع محافظين آخرين يعدون العهد لتخريب الحل الوسط. وقررت زيارتهم دون سابق إخطار. وقلت: «سمعت أن لديكم بعض الأسئلة، واشتكي هنتر من أن الإدارة لينة للغاية في قضية الساندنيسا». وقلت مجدداً: «إنني أتفق معكم بأنه يحسن علينا أن ننتهج سياسة متشددة. لكن أين ستحصلون علي الأصوات اللازمة لإقرارها «إننا نعرف جميعاً إنه لا وجود لهذا المكان». ومع نهاية للجلسة تراجعوا عن تحفظاتهم ووافقوا علي المسنى قديماً علي مضمّن .

وفي ٢٤ آذار مارس شارك زعماء الكونجرس من كلا الحزبين في احتفال شاركت فيه أنا والرئيس في البيت الأبيض لإعلان الاتفاق. وقلت: «الآن» سوف نعمل مماء السلطة التنفيذية والكونجرس لضمان تحول الوعود بإقامة ديمقراطية في نيكاراغوا إلي ديمقراطية حقيقية،

ونص الاتفاق علي تخصيص ٥٠ مليون دولار معونة إنسانية للكونترا خلال الانتخابات في نيكاراغوا علي أن يراجعها الكونجرس في غضون ثمانية أشهر. وفي الوقت ذاته فإن موافقة الحكومة ضمننت التخلي عن السياسة السابقة بمحاولة الإطاحة بالساندنيسا بالقوة، وتقوم عوضاً عن ذلك بتأييد إجراء انتخابات ديمقراطية وأن تقبل بنتيجتها، وفي المقابل قدم لنا الأعضاء الديمقراطيون في الكونجرس مؤشراً هاماً للمرونة السعى للتوصل إلي

تسوية دبلوماسية كانت صياغة الاتفاق يكتنفها بعض الغموض البناء . لكنني كنت أعتقد أنه حل وسط ينطوي علي حصافة سياسية لمصالح متنافسة ، ويمكن أن يقضي في نهاية المطاف إلي إقامة حياة ديمقراطية في نيكاراجوا . ومن وجهة نظر تكتيكية ، انخرت كافة الأطراف عاملاً من المشاهدات والاضطراب حول قضية تقديم المعونة للكونترا .

وجاءت واحدة من أكثر اللحظات التي غمرني فيها ارتياح شخصي لدي سماعي جورج ميتشيل زعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ بفقوه بكلمات تستعصي علي الفهم للوهلة الأولى : «إنني ألق في الرئيس ووزير الخارجية لقد ولت حقبة الكراهية المتبادلة التي تورث الوهن» .

وفي ذروة لحظة النقد للرئيس خرج بويدين جواي مستشار البيت الأبيض برأي مماكن نهاء القضية . فقد صرح لصحيفة نيويورك تايمز بأن الاتفاق مطمئن فيه دستوريا . لأنه يرقى - في الواقع - إلي حد منح الكونغرس فيتو تشريعي . وكان هذا التقويم خاطئاً ولا مبرر له ، فالاتفاق في المقام الأول وثيقة سياسية تم التوصل إليها من خلال التفاوض أكثر منه تشريعاً عادياً . وعلي أية حال استشاط الرئيس غضباً من مستشاره لانقلابه من قيمة أول نصر لسياسته وللسياسة الخارجية . واستدعي الرئيس جواي إلي المكتب الليبنغواي ليحرب له عن عدم ارتياحه ، ويأمره بالكف عن الإدلاء بأى أحاديث للصحفيين بهذه الطريقة مستقبلاً .

الدبلوماسية توتّي ثمارها أخيراً بعد أن مُنحتِ الفرصة :

منح اتفاق السياسة غير الحزبية للرئيس ولي قوة عظيمة تمكّنا من تعدى السوفيت لتطبيق التفكير الجديد لجمهورية سوف بشأن استمرار المعونة لنيكاراجوا . وكان بوسمي بعد إعلان الاتفاق بشهرين وأنا في زيارة لموسكو أن أبلغ شيفرناندز بأن الرئيس وأنا متفقان في الرأي بأن تحسين العلاقات مستحيل ما لم يكف الاتحاد السوفيتي عن إزعاج منطقنا . لكن إذا أيد الاتحاد السوفيتي إجراء انتخابات حرة ونزيهة في نيكاراجوا سوف نحترم النتائج .

إننا نعرض الآن شيئاً علي الاتحاد السوفيتي طالما سمي إليه . لكنه لم يحققه في تاريخه ، وهو قبول الولايات المتحدة بدور مشروع له في الدبلوماسية في منطقنا . لكننا نفضل ذلك بشروطنا نحن : أي تعدى الاتحاد السوفيتي للمواقفة علي اتفاق اسكوبولاس كما فطت الولايات المتحدة والضغط علي حلفائه في المنطقة بنيكاراجوا وكوبا لعمل الشيء نفسه .

ربما لم يكن هناك أفضل من هذا التوقيت، وبالصدفة فقد أبرزت الصحافة مراجعتنا للعلاقات السوفيتية الأمريكية مشيرة إلى أن الرئيس الجديد ينظر نظرة متشددة لمجمل العلاقة. وهكذا فقد بدأ تحديدنا للاتحاد السوفيتي للتعاون في أمريكا الوسطى في عيونهم اختصاراً مهماً لعلاقتهم مع الرئيس الجديد. علاوة على ذلك فقد منحهم فرصة لإنقاذ ماء الوجه عند تخفيض دعمهم للساندنيسا الذي يبلغ مليار دولار في العام، وفي الوقت نفسه اكتساب مكانة للشراكة مع الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية.

وشددت علي هذه النقاط في اجتماعي مع شومرناذرة. وبمجرد إقرار تعيينه توجه بهري أرومسون إلي موسكو للقاء نظيره السوفيتي، وكان أرونسون أول، وبالقطع آخر مساعد لوزير الخارجية الأمريكية لشؤون الأمريكتين يتوجه إلي موسكو في أول زيارة رسمية له. فيما يجسد رمزاً لفترة انتقال فريدة أُنشئت فيها إدارة بوش دبلوماسيتها.

ووفق السوفيت علي وقف تسليم الإمدادات العسكرية للرئيسية إلي نيكاراجوا، ومحاولة حمل الكوبيين علي عمل الشيء نفسه، وللضغط علي الساندنيسا لقبول نتائج الانتخابات، ورغم بعض المشاكل إلا أنهم أوفوا بالشق الأكبر من التزاماتهم.

وتعين علينا أيضاً نزال الساندنيسا علي الأرض. فقد أقمنا المعارضة المتشرفة بالكود خلف مرشح واحد للمعارضة، ومارسنا ضغطاً علي منظمة الدول الأمريكية والأمم المتحدة ومركز كارتر والاتحاد الأوربي وآخرين لإغراق نيكاراجوا بمراقبي الانتخابات. وأقمنا الكونجرس بتوفير آلية لتسجيل الأصوات وأشكال الدعم الأخرى بواسطة التبرعات الوطنية من أجل الديمقراطية في محاولة للحد من الامتيازات للهائلة التي تتمتع بها الساندنيسا بسيطرتها علي الموارد الحكومية والأفراد.

وانسلنا بالرئيس السابق جيمي كارتر الذي لعب بشكل خاص دوراً حاسماً باعتباره رئيساً لمركز كارتر في تحرير التزامنا بأقوى ما يمكن بالمسياسة غير الحزبية. وساهم كارتر في إقناع دانييل أورتيجا بقبول الهزيمة في الانتخابات، واتصل بي لإبلاغني بهذه الأخبار الطيبة في الساعة الرابعة والربع فجر السادس والخمسين من شباط فبراير ١٩٩٠ م.

وكانت هزيمة دانييل أورتيجا أمام ائتلاف UNO برئاسة فيوليتا تشامورا إلباناً رائماً لـ السياسة غير الحزبية حول أمريكا الوسطى. وعلاوة علي ذلك شككت هذه الهزيمة

هزيمة أيديولوجية نكراء للشيوعية واليسار. فبمجرد أن أتيت للفرصة للمواطن العادي في نيكاراغوا أن يفصح عما يعقله في أجواء الأمن المتوفرة في مقر الانتخابات لم تحصل السانديستا إلا على أقل نسبة من الأصوات لا تضاهي حتى ما حصل عليه الجنرال بيلوشيه في شيلي قبل عام واحد .

وحدثت الهزيمة النهائية للكثير لمويدى السانديستا الذين طالبوا دعوا لمنازل وسنوات بأن النظام كان يحظى بتأييد الشعب وأرسي انتصار الديمقراطية في نيكاراغوا وتسريع جيش الكوندرا سلمياً وتعاوننا الناجح مع دول أمريكا اللاتينية والاتحاد السوفيتي، الأساس لعملنا الدبلوماسي اللاحق لانتهاء الحرب في السلفادور وضمنا وضع نهاية المعركة السوفيتية لكوبا .

وبالعمل بدأ واحدة مع الكونجرس أظهرنا أنه قياساً على كل مرارة وكراهية العقد الماضي حول قضية أمريكا الوسطى فإن مقولة آرثر فاندنبيرج عن السياسة شهر الحزبية ليست نصيحة قوية مستمرة فقط بل إنها لا تزال تولى مغزولها أيضاً .

الفصل الخامس

الاتحاد السوفيتي

جوز باتشوف، شيفر نازدة و« التفكير الجديد»

يجب على الغرب ألا يقف مكتوف اليدين ليصيح «بانهيار القرن».

بيتر فاركوني

لنار خارجية المحرر

لنار الخارجية بيكر

٥ آذار مارس ١٩٨٩م

لو كُنَّيْتُ هذه الكلمات اليوم في عالم شهد انهيار الشيوعية وتفككه الانحدار السوفيتي فإنه يستحصى وصف حجم مساهمة التهميد وخطر الشيوعية في تشكيل السياسة الخارجية الأمريكية خلال سنوات الحرب الباردة . وهي الحقيقة فإنني أعتقد أنه من الإنصاف القول إن مجرد وجود الاتحاد السوفيتي في حد ذاته قد غير حياتنا تقريباً . إن مركزياً أو هامشياً .

وفي سنوات شبأتي في هيوستون في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات وجدت في نادي ريفر أوكس الريفي منزلاً ثانياً لي . وفي عطلة للصيف كنت أمضى ساعات اليوم في لعب أو مشاهدة أو للحديث عن التنس مع اللاعبين المحترفين أندرو جيتكوف . وجيتكوف من مواليد روسيا في بداية للقرن ، وقد اهتمته الفورة البلشفية وعائلته خارج روسيا . ووجد طريقه بشكل ما إلي هذا النادي في تكساس . حيث تولى إدارة لعبة التنس ، وأشرف علي تنظيم بطولة سنوية مشهورة للتهواه . كما تولى أيضاً تعليم الصبية أمثالي كيفية لعب الكرات الأمامية اللوالبية أثناء شهر الصيف الحار الرطب . وفيما بعد كنا نجلس بالملعب نرشف البيرة أو مشروب الفواولة بالسودا .

وأحياناً كان يجدر زكريات روسيا والثروة ، ولتذكر مدي المعاناة التي لا بد وأنه كان يقاسيها نتيجة اغترابه عن أهله ووطنه . وتوالت علي ذكرتي مصم وقائع هذا التاريخ . كان من اليسر استيعاب دروسه عن الصلقة واللفظ وسلامة النفس ، وكم شرفني أن يطلب مني بعد سنوات أن أكون أباً لابنه عند الكصيد . وكان من عاقبه بعد أن أخذ حمامي وأخير ملابس التنس في نهاية اليوم أن يمتنع زيت للشعر الوردي علي شعري الأسود حينذاك . وكنت أعود إلي المنزل يحالجنني إحساس بالانتعاش لقيادرتي أمتي بسؤال من وضع كل هذا للشعم علي رأسك ؟ وإذا كان ملعب للتنس هو بيتي الثاني فإن جيتكوف كان بمثابة الأب الثاني لي ، وما كان يخطر ببالي حينذاك مدي تأثير انهيار الاتحاد السوفيتي علي حياتي المهنية مثلما تغيرت حياتي الخاصة بتأسيسه ورحيل جيتكوف إلي الولايات المتحدة * .

وما إن أعلن جورج بوش رغبته في تعييني وزيراً للخارجية ، وقبل أن يقر مجلس الشيوخ تعييني جاء السوفيت لهم نبض الإنارة الجديدة . فبعد يوم الانتخابات عام ١٩٨٨ م جامني طلب بعقد اجتماع خاص من أناتولي دوبروفين الذي عين سفيراً سوفيتياً لدي واشنطن عام ١٩٦٢ م . أثناء تولى فيكيكا خرونشوف السلطة ، واستمر في موقعه لأربعة

* أنا أدرسني بجامعة برينستون درست التاريخ الروسي ، وكنت بحثاً في أرمي مذوات الدراسة من حكومة الكمندر كيريسكي التي لم تستطع أولاً ، وهي تشكلت عقب الإطاحة بالقيصر نيكولاس الثاني وإطاح بها البلاشفة .

وعشرين عاماً، وسبقت لي معرفة دوبرونين عن ظهر قلب منذ سنواتي الأولى في الحكومة. فقد شهد مراسم تآلىي اليمين كوكيل لوزارة التجارة في آب أغسطس عام ١٩٧٥م وأتذكر كيف استعربت حضور عميد السلك الدبلوماسي الأجنبي لحفل آداء وكيل وزارة لليمين. كان بودي أن أحمّن أنه رأي هيّ نجماً بازغاً. لكن الواقع أنه اعتقد علي الأرجح أن حضوره سيمساعد السوقيت في قصايا التجارة بين الشرق والغرب التي تتمحور حول التجارة. وكنت أراه في مناسبات متفرقة بشكل عرسي أثناء عملي رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض وزيراً للتجارة، وأدركت أن نقله عام ١٩٨٦م مديراً للإدارة الدولية باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي جطه من أوثق مستشاري جورباتشوف للشئون الأمريكية. ورثت اللقاءه في مقر إقامتي بشارع فوكسهول بواشنطن. ولدي وصوله هبطت الدرج برفقته قاصداً غرفتي الخاصة. ودرجت غالباً علي عقد لقائتي الخاصة في هذه الغرفة، وسبق أن استقبلت فيها بوب ميشيل، ويات موبيهان وبوب دول وبيل برانلي وآخرين لمعالجة قضايا مثل الضمان الاجتماعي والإصلاح الضريبي.

وأبلغني دوبرونين أنه في غضون أيام سيقوم السفير السوفييتي يوري دوبرين بتسليم رسالة إلي البيت الأبيض وطلب فيها للترتيب لاجتماع مع الرئيس ريجان والرئيس المنتخب جورج بوش. فسوف يصل جورباتشوف إلي نيويورك في كانون الأول ديسمبر للمشاركة في دورة للجمعية العامة للأمم المتحدة، وتأمل موسكو للترتيب لعقد اجتماع يتواكب مع الزيارة وديبلوماسية ريككة غير رصينة أبلغني بلهجة تأمرية «إن ما نريده حقيقة هو اجتماع مع جورج بوش، إننا سعداء للتعامل معكم. فكفانكم مشهود بهاء». وتكاد هذه أن تكون شهادة منه بأنه جمهوري مخلص. لكن علاقات إدارة بوش مع إدارة ريجان أصعبت للسوقيت لطلباعاً بأنه ستكون هناك درجة من الاستمرارية فيما يتعلق بالعلاقات السوفيتية الأمريكية.

وردت عليه بأنني أؤمنُ لاطلاعي بأمر الطلب لمنتظر لعقد الاجتماع، وانتهزت الفرصة لأسأله عن كيفية سير الأمور في موسكو.

وقال ببطء تشاوم: «إن الناس تشعر بالتفوق ومبحث قلقهم هو الاقتصاد. وهناك الآن توقعات مفرطة، والكثير من التدمير والضيوط تزايد. ولا يمكننا إلغاء الدعم علي الغذاء والسلع الأساسية للتحويل إلى اقتصاد السوق بهدف زيادة الأجور». وسأله: «ماذا تعتقد بشأن

الوضع السياسي ٩. وأجاب بصراحة ووضوح: «إن ممكن الخطر هو ما إذا كان جورباتشوف سيسطيع الصمود». وكان هذا السؤال هو الذي سيضطر بالي علي مدار الأعوام الثلاثة القادمة.

اللقاء الأول مع شيفرنادزة: في فيينا شهر آذار - مارس

بعد أربعة أشهر، توجهت يوم الأحد الموافق ٥ آذار - مارس ١٩٨٩م إلي فيينا بالنمسا لإفتتاح مباحثات خفض القوات التقليدية في أوروبا (CFE) فلأربعة عشر عاماً ران القنصر علي المباحثات السابقة - مباحثات خفض المتبادل والمتوازن للقوة - ولم تحقق سوى تقدم صئيل. فما بالك بالتوصل إلي اتفاق. وكنا مصممون علي ألا يحدث الشيء نفسه لمباحثات (CFE).

وكانت المباحثات تمثل بالصفة لي فرصة للقاء عدد من نظرائي في أوروبا الشرقية والإصعاء إلي آرائهم في الإصلاح. وأبلغني وزير خارجية المجر بيتر فاركوني بأن المجر بدأت الإصلاح بالفعل عام ١٩٦٨م شهر أن، الوضع الدولي غير الموات، كما وصفه فاركوني - قد أجل الإصلاحات حتي مجيء جورباتشوف، واختصار - فقد استوعب المجريون الواقع المؤلم لسحق موسكو لانتفاضة الكسندر دويتشيك «ربيع براغ» ١٩٦٨م في تشيكوسلوفاكيا؛ والشرط الضروري للإصلاح في أوروبا الشرقية هو إجراء الإصلاح في الاتحاد السوفيتي. ومعني قائلاً: «عندما بدأت للبيرسترويكا كنا علي استعداد للمعني قديماً، وشرعنا في طرح أفكار أكثر راديكالية عن تلك التي يطرحها السوفيت، لكن لم يتخذ المجريون أي استعدادات لإزالة الأسلاك الشائكة أو التدابير الأمنية التي تفصل حدودهم عن النمسا».

وعندما استفسرت منه عن رأي السوفيت في تلك الخطوات قال: «إن السوفيت يؤيدونها تماماً. إنهم يريدون في جهودنا نموذجاً مثالياً للجهود التي يمكن أن يقوموا بها». وقال: «ليس هناك مخرج أمام الاتحاد السوفيتي سوى للبيرسترويكا وقد أقر جورباتشوف هذا بنفسه».

وسمحت المزيد من نفي هذه الآراء في وقت لاحق من اليوم ناديبوش أوليفكوفسكي وزير الخارجية البولندي. وأبلغني بالتفصيل علي الخطط للبولندية لإصلاح النظام السياسي

في بولندا. وفي مرحلة ما، وبعد أن استعصرت منه عن كيفية توافق مجلس الشيوخ مع اللبنة الحكومية، انفجر الجدل بين أعضاء الوفد البولندي حول المزايا النسبية للنظام الرئاسي الأمريكي عن النظام الرئاسي الفرنسي. وكان من الواضح أن البولنديين تجاوزوا النظرية الديمقراطية بكثير إلى حد محاولة تحديد المشاكل العملية، وهو ما جعلها بوضوح إصلاحات «ثورية»، كما وصفها ألوخوفسكى. وبات من الواضح أن البولنديين شأنهم شأن السجريين يريدون الحصول على المساعدة الأمريكية لجهودهم. وقال: «لا يكفي أن تغفروا موقف المراقب. لقد حان الوقت للبدء باتخاذ خطوات صغيرة وتؤيدوا قرائنا. السرد الوزير يجب ألا تغيبوا عن الساحة. وكان من الواضح أيضاً أنه بينما اعتمد البولنديون والسجريون على جورباتشوف لتغيير مناخ العلاقات بين الشرق والغرب حتى يتسنى إجراء إصلاحاتهم فإنهم يلتصون الآن بمساعدة الولايات المتحدة حتى يمكنهم مواصلة وتعزيز جهودهم. وكانت المناورة من أجل تأييد الإصلاحات دون حدوث انفجار ما يؤدي إلى تكوينا عملية بالغة الدقة.

وهذا لقاء فيينا لى فى المقام الأول فرصة للتحادث وإيجاز مع شيفرنادزة، وخلال الفترة الانتقالية أسر جورج شولتز لى بأنه يشعر بأن علاقة حميمة تربطه بشيفرنادزة. وأعرب عن اعتقاده بأن شيفرنادزة هو الرجل الذى يمكنه التعامل معه. وسبق لى لقائه مرة وأنا وزير للخزانة على غداء عمل استضافه ريجان بعيد تعيين شيفرنادزة خلفاً لأندريه جروميكو. وكما حدث من قبل لغت نظرى شعره الأبيض المتهدل ونظرفه الحادة وأسلوبه الرقيق. وكان يذكرنى لى حد ما بالبرت أبنشتاين. فقبل تخرجى من برايستون دعى لإلقاء محاضرة، وأثناء تقديمه صنعت قاعة المحاضرات بترحيب حماسى شاركنا فيه أبنشتاين بالتصفيق مع الحضور، وشرع فى إلقاء محاضرتنه التى لاقت نجاحاً مذهلح للظهور. وبدون شك كان يتحدث عن فتح ثورى جديد فى عالم الفيزياء. وعلمت أن شيفرنادزة كان هو الآخر محباً بثورقين إحداهما سياسية والأخرى اجتماعية. لكنه تحدث عنهما بأسلوب بسيط شيق يتسنى للجميع فهمه.

والتقانى شيفرنادزة فى ذلك اليوم بمقر إقامة السفير الأمريكى فى فيينا، وهو نفس المكان الذى استضاف لقاء كيندى وخروتشوف عام ١٩٦١م. وأردت انتهاء الفرصة لوضع قواعد لقاءاتنا فى المستقبل. لذا فقد عقدنا اجتماعاً منفرداً بوجود مترجمين فقط. ورغبت فى

إفهام شيفرنادزة حقيقتين منذ البداية . إحداهما موضوعية والأخرى إجرائية بعد أن حال استعراضنا لسياستنا الخارجية من النعترق إلى التفاسيل للجرهرية .

وموضوعياً أريد أن يعى أن الإدارة الأمريكية الجديدة تؤيد الليبريسترىكا حقيقة ، وأنا معتقد أن نجاحها سوساهم جيداً فى دعم الاستقرار الدولى ، ويمزج العلاقات السوفيتية الأمريكية بشكل إيجابى . كانت الليبريسترىكا تحفب بالفعل من خناق السوفيت لأوروبا الشرقية ، وهذا يخدم المصالح الغربية بعض للنظر عن كيفية تطور الأحداث السياسة فى موسكو . وإجرائياً أريدت المعنى فى التأكيد على علاقتى للوطيدة طويلة الأمد مع الرئيس وطمأنت شيفرنادزة بأنه فى متوء العلاقات الطيبة بين مكوكروفت وتشينى وكروى ويبنى فلن يحدث تكرار للحروب الضروس التى أبحاث إدارة السياسة للفرارية إلى جحيم فى كثير من الإدارات السابقة .

وقدر شيفرنادزة ما قلته ونوه إلى أن بوش أفضى بنفس الرسالة إلى جورباتشوف فى اجتماع جزر إيلاند فى كانون الأول ديسمبر ١٩٨٨ م . وقال مؤكداً على أنه لا يخالجه أدنى شك فى صق كلمائى : «إن هذا يطوى على أهمية غير عادية . لأنه يحدد سياسة جرهرية . وإذا كان الحال كذلك . حينئذ فهو سع الجانبين أن يوليا اعتباراً جاداً لكيفية تطوير علاقاتنا فى المستقبل» .

وقال : «علينا أن نتعامل مستقبلاً . وليست هناك حاجة للتأكد على أهمية الاتصالات الشخصية . إن هذه الاتصالات مسألة بالغة الأهمية لتهوة مناخ بناء وحدى من الثقة ، إن لم يكن صداقة فعلية ، مما ييسر مناقشة أكثر القضايا صعبية واستمرارية بروج الوفاق المتبادل من منطلق السعى لإيجاد حلول مناسبة» .

ومضى شيفرنادزة فى مناقشة الليبريسترىكا مردداً سدى نظرائه فى أوروبا الشرقية بوصفها بأنها «ثورة» ، ولكد على أنها يمكن أن تحول الاتحاد السوفيتى إلى شريك موثوق فيه للغرب ، وأفضى إلى برغبته فى بحث الليبريسترىكا بعمق مى فى أهد اجتماعاتنا فى المستقبل . لأنه «من الأهمية بمكان أن يفهم الجميع بعمق طبيعة ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى . وإيجاد شديد كانت للدولة والمجتمع فى طور إعادة التشكيل . ولكد أنه يستحيل وقف هذه العملية . لأنها حازت الآن على تأييد للرأى العام وإن تستطيع الحكومة وقفها حتى ولو رغبته فى ذلك» . كانت هذه هى المرة الأولى وربما الأخيرة التى يكشف فيها شيفرنادزة لى عن حقيقة فهمه للديناميات السوفيتية للداخلية .

وانتهزت فرصة مناقشته للأوضاع في الاتحاد السوفيتي لأطرح نصوراً رحيماً فيما يتعلق بعلاقتنا رابطاً إياها بزيارته القادمة إلي طهران. وقلت: «وبحلولك الإشارة إلي التحفيز السياسي الجديد». وأعتقد أن هذا يجب أن يتمثل في اعتبار ما إذا كان بوسعنا ترجمة ذلك إلى إجراءات ملموسة تخدم مصالحنا المشتركة. وقلت علي سبيل المثال: «من الصعب علينا أن نعهم أنه في الوقت الذي يسعى فيه المجتمع الدولي لعزل إيران لما نعتله من تهديدات قاتلة، يظهر الاتحاد السوفيتي بمظهر من يحاول حمايتها من مثل هذه الضغوط». وقلت: «إن نفس الحقيقة تسرى علي أمريكا الوسطي». حيث لا تتسجم شحنات الأسلحة السوفيتية إلي نيكاراجوا مع التفكير السياسي الجديد.

ورد شيفرنادزه قائلاً: «إنني سعيد بأن نتطرق بالذكر إلي إيران». وكانت زيارته قد تفررت قبل فترة من ظهور فضيحة. حين أهدر لية الله الخميني دم المؤلف سلمان رشدي». علارة علي ذلك بحث الخميني رسالة خاصة إلي جورباتشوف تناولت فلسفته وآراءه، وخاصة ما تعلق منها «بالآخرة» إضافة إلي رغبات الخميني في تطوير العلاقات السوفيتية الإيرانية.

وقال شيفرنادزه: «لا أعتقد أنه من الممكن عزل إيران. فهذا أسوأ للخيارات حتي لو كان ممكناً، رغم أنه من الصحيح أن إيران تضم متطرفين ومتصدين حقيقيين». لكنه مضى قائلاً بلهجة ساخرة مُذكِّراً بفضيحة إيران/كونترا: «استطيع أيضاً أن أؤكد أنه يوجد سياسيون راشدون في إيران». وأنه تحدث معهم صراحة في المسألة برمتها وعن الحاجة إلي تحسين العلاقات بين الدولتين الجارتين اللتين تربطهما حدود بطول ٢٥٠٠ كيلومتر.

وأنحمت عليه حول ما إذا كان بوسعني إبلاغ الصحافة بأنه بحث قضية سلمان رشدي مع الزعماء الإيرانيين. وأبدي حساسية مفرطة حيال ذلك قائلاً لي: إنه لو حدث هذا فإن قدرته علي ممارسة تأثير علي إيران في المستقبل ستصاب بالشلل.

وما لبثنا أن انتقنا لعقد جلسة موسعة لينضم إلينا أحد عشر مستولاً أمريكياً وثمانية مسئولين سوفيت، وتناولت المباحثات عدداً من القضايا. لكن لم يكن هناك جديد يثير الاهتمام سوى للقليل. وكانت أكثر الأفكار التي سمعتها إثارة هي اقتراح شيفرنادزه بتوسيع مجموعة العمل الخاصة بالعلاقات للثنائية إلي مجموعة تغطي التطورات الإيجابية بشكل

أكثر عمومية. (في ظل رئاسة ريجان كانت هناك أربع مجموعات عمل حكومية فرعية تتولى اتخاذ القرارات بين الوزراء، وهي الحد من التصحح وحقوق الإنسان والصراعات الإقليمية والقضايا الثلاثية. ومع تغيير ملطيف في محور تركيز كل لجنة من هذه اللجان الأربعة، فزينا إضافة لجنة خامسة هي القضايا العابرة للقوميات). وكانت مجموعة العمل الخاصة للثلاثية تلتخص أساساً في المعاضى بالشعور الدبلوماسية مثل التفضيحات والسفارات والتأشيرات، وبأما ما بدا في حيدته أنه اقتراح حمود بات يومعى أن أستشف جذور ما سوسبج مستقبلاً تأكيدت مفصلة ومطولة عن السواسة الدخلية والاقتصاد والمجتمع في الاتحاد السوفيتى في اجتماعات شيفرنادزة مستقبلاً. وفيما كان يعد مشراً علي مستجدات المستقبل في ضوء المصالح الخاصة للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة في الشرق الأوسط قال شيفرنادزة: «يمكننا في مرحلة ما دراسة إمكانية اجتماع زيرى للخارجية الأمريكى والسوفيتى في المنطقة لبحث فضائياها، واستدرك قائلاً: «إنه لا يطرح هذا الاقتراح كمسألة ملحة لأن الظروف غير مهيأة حتي الآن لعقد مثل هذا الاجتماع».

وسرعان ما تبقت في وزارة الخارجية - كما كان الحال في الخزانة - أنه سيصبح من المستحيل إنجاز عمل حقيقى في الجلسات الرسمية. فمثل هذه الاجتماعات بطبيعتها تنسم بالملحخ الشمائرى الذى يستهدف في المقام الأول طمأنه البوروقراطية لدى كل جانب، وتجنب تسرب الأنباء للصحافة. وكذلك إقناع ودفع الجانب الآخر. وكما تطلعت في وزارة الخزانة فمن الأفضل أن تقتصر مناقشة الموضوعات الحساسة مثل مفاوضات سعر الصرف علي الوزيرين ووليد أبو اللذين من كبار المساعدين. وشجعت مثل هذه اللقاءات المصفرة علي إجراء حوار متعمق وإقامة علاقات شخصية أفضل مع نظرائى. وهكذا وعد الاتحاد اجتماع ويومينج بعد ستة أشهر انتقدت معظم جلسات الاجتماع في شكل جلسات «مفردة». (وغيذا لم تكن الجلسة تقتصر علي شخصينا. فقد كنا بالطبع في حاجة إلي مترجمين. بالإضافة إلي مدونى مسحضر الجلسة. فكان من الجانب الأمريكى دينيس روس ومن الجانب السوفيتى سيرجى تارلسينكو الذى لم يكن مجرد واحد من أضع الدبلوماسيين الأجانب الذين للتقيهم بل أيضاً أنبل وأرق شخص قابفته في حياتى.



وفى يوم الأربعاء الثامن من آذار مارس أى فى اليوم التالى لعدتى من فيينا جلست مع الرئيس فى واحد من اجتماعاتنا الدورية التى تعقد كل أسبوعين. وبينما كان بوسعى الاتصال هاتفياً بالرئيس أو لقائه شخصياً فى أى وقت لإحلاعه على آرائى فى أى قضية محددة كنت أشعر أن هذه الاجتماعات غير الرسمية التى تعقد كل أسبوعين أكثر الوسائل المفيدة التى أتحدث لى. ففى المناقشات الحرة للمفترحة كنا غالباً ما نتناول بالبحث - والتساؤل، الافتراضات والنصريات التى تؤكد أى سؤاية بعينها. وكنا نفكر فى هذه اللقاءات بصوت عال، وكنت على اقتناع بأن هذا ساعدنى فى كثير من الحالات على معرفة الترائى شبه الفاطح الذى سيحدثه الرئيس حول قضية معينة.

وفى هذا اليوم بدأت بالتطرق إلى أوروبا الشرقية. وقلت: «إن البولنديين والمجريين ينطلقون وبأقصى سرعة وبأقصى مدى على طريق الإصلاح السياسى والاقتصادى، وربما يفاجئنا هذا ويخلق واقعاً جديداً فى أوروبا الشرقية». واتفقنا على أن هذا يحى استكشاف كيف يمكن أن تساعد هذه الدول اقتصادياً. إضافة إلى بحثنا عن سبل للتعبيل بالحرير السياسى. واقترح الرئيس دراسة إمكانية قيامه بزيارة فى وقت مبكر لأوروبا الشرقية.

وأخبرته بلهفة شيفرناندة لإقامة علاقة شخصية وصمان لستمرارية العلاقات الأمريكية السوفيتية. وما قلله من أنه لابد من النجاح، رغم الصعوبات والمراقيل التى تواجه البيرسترويكا. وكان الانطباع المؤكد الذى خرجت به هو أن جورباتشوف وشيفرناندة يشمران بحاجة ملحّة لنجاح البيرسترويكا على وجه السرعة. وقلت للرئيس: «أنهما زعيمان فى عجلة بالغة من أمرهما، وانيهما إحساس شديد بالعجلة لكليهما يفتقدان إلى اللخطة. ونتيجة لذلك يقومان بالبحث عن الأفكار، ومناقشة ما هو متاح، ويجاهدان لصياغة مبادرات، وأحسست أن التأكيد على المبادرات ينطوى على أثر فعال فى أوروبا. وأشارت إلى كيف أمكننى تشذيب اقتراح سوفيتى طرح فى فيينا حول خفض القوات القتيدية فى أوروبا لينجم مع أقل مبادراتنا تواضعاً حول الأسلحة الكيماوية، وأكدت على أننا فى حاجة إلى أن نشعر بالحساسية حيال هذا. لأن جورباتشوف سيطرح على الأرجح مبادرة حول خفض جوهري للأسلحة قبل أن يحدد قمة حلف الأطلسى. وعليك أن تكون مستعداً لطرح اقتراح جري وشامل».

وقلت: إنه بينما يمكننا مواصلة دفع السوفيت نحو طرح مضمون «التفكير الجديد» لإقراي الأقوال بالأفعال فإنني أقل اقتناعاً بأننا نملك من الأفكار في المجال العسكري ما يعضد التحول. وكنت أخشى من أن مراجعتنا ستكون عملية بيروقراطية معزومة وصيقة الألق، ويرجح إلي حد كبير أن تقتصر إلي الأفكار الخلاقة لمواجهة المشكلة. وفي غضون شهر تحول ظلي إلي حقيقة.

«المراجعة الاستراتيجية»

لم يكن ما يسمي بالمراجعة الاستراتيجية مراجعة استراتيجية حقيقية بل ولا مراجعة علي الإطلاق. وكانت هذه المراجعة التي بدأها الرئيس في ١٥ شباط/فبراير ١٩٨٩ م تستهدف إجراء عملية إعادة تقييم جوهرية للسياسة الخارجية الأمريكية. فبعد ثماني سنوات لمضاهي نائباً للرئيس بات الرئيس شخصياً علي اقتناع بوضع بصمته الخاصة علي السياسة. واستهدفت المراجعة إعطاء مؤشر للبيروقراطية والكونجرس ووسائل الإعلام والرأي العام علي اتساعه بأن الوقت قد حان لإعادة تقييم الافتراضات القديمة. وهذا بالأحرى اقتراحاً مستقيماً في وقت يشهد مثل هذه التغيرات الخطيرة.

ولسوء الحظ فقد ارتكبنا خطأين في طريقة إعداد خطة هذه المراجعة. أولهما: أننا كنا نبني فوق ميراث إدارة ريجان ولا نميره كما كانت ستفعل أي إدارة ديمقراطية - فمنا باستبعاد الأشخاص بطريقة مهذبة. ولهذا السبب أشرف المسؤولون السابقون من إدارة ريجان علي الجانب الأعظم من عملية المراجعة. ولأن مسؤوليتهم هي تطوير وسياسة السياسة السابقة كان لهم بالطبع مصلحة شخصية ونفسية في استثمار حالة الأمر الواقع. كان الأمر أشبه بمن يطلب من محاربي مراجعة عمارته: فربما يغير باباً هذا أو شباكاً هناك لكن من غير المرجح أن يشكك في أساس عمارته. ولا حاجة بنا للقول أن هؤلاء المسؤولين وجدوا أنفسهم غير قادرين علي التفكير بطريقة جديدة. وثاني هذه الأخطاء أنه بدلاً من التماس الأفكار والاقتراحات من مصادر ليس لها مصلحة مؤكدة في السياسة القائمة طلبنا من البيروقراطية نفسها إعداد الأوراق. وكانت النتيجة أقل قاسم مشترك من التفكير - بما ينطوي

عليه من أقصى درجات إثارة الجدل - يعمال في تنحية كل فكرة مهمة جانباً تحت إسم
الاجماع البيروقراطي.

وفي النهاية لم تحصل سوى على الفئات. وفيما يحق بمسألة الاتحاد السوفيتي وأوروبا
الشرقية عقد الرئيس لاجتماعات لمجلس الأمن للقومي أيام الثلاثين من آذار مارس والرابع
والخامس من نيسان إيريل إصافه إلي ذلك لاجتمع للرئيس مع خبراء للشئون السوفيتية غير
الرسميين في ١٢ شباط فبراير وعقدت ندوة في وزارة الخارجية في الرابع والعشرين من
شباط فبراير مع ثلاثة من الخبراء هم: ستيف سيمانتوفيتش من مركز الدراسات الدولية
والاستراتيجية وستيف مايير من معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا وجورج بريسلور من
جامعة كاليفورنيا في بيركلي.

وتركزت المناقشة في معظم تلك الاجتماعات على القضايا السوفيتية، وكان أبرز
النوازل: هل البيريسترويك تحي إعادة البناء أي أنها فرصة لالقاط الأنفاس، أم أنها
«انتقال» أو «تحول» بمعنى «تغير جوهري» في السياسة السوفيتية؟ وفي رأي ستيفر المحللين
لم تكن البيريسترويك سوى «فرصة لالقاط الأنفاس» ومنعها للسوفيت لكسر الجمود والخلف
التكنولوجي لحقبة بريجنيف وإعاش الاقتصاد السوفيتي للعمود أمام المزيد من المنافسة مع
الديمقراطية والرأسمالية في القرن القادم. وبالنسبة لعماله المحللين كانت البيريسترويك تمثل
تغيراً جوهرياً في السياسة السوفيتية. واعتبروا أن جوربا تشوف هو دويتشيك الاتحاد
السوفيتي، رجل يبدأ حقبة «اشتراكية ذات وجه إنساني».

وبالنسبة لي بدت هذه مجرد آراء أكاديمية. ففي هذا الوقت (ربيع عام ١٩٨٩) كانت
هذه الآراء تعمل بين طياتها عناصر ضعف وقوة. وما شغلي هو الإجراءات التي يمكن أن
نعمدها في مواجهة هذين الاحتمالين المختلفين بهدف تحقيق أقصى المكاسب للدبلوماسية
بأقل مخاطر ممكنة.

وربما كان هذا هو السبب الذي لم يدفعني لتكرشيء من نتائج تلك الاجتماعات سوى
الإحساس بأن يوسع المرء أن يقسم الإدارة إلي مدرستين للتفكير. فمدرسة «الأمر الواقع»
تؤكد أن كل شيء يمضي في مصلحتنا نظراً لضعف السوفيت للبالغ. ومن منطق
تفكير هذه المدرسة ما علينا سوى تحين الفرصة. لأن جورباتشوف سيقدّم التنازلات شرط
أن نتحلي بالعزم. وكانت وزارة الدفاع وبعض العاملين في مجلس الأمن للقومي أكثر جنوحاً
نصر هذا الرأي.

وكنيت أشعر ومعى كبار مستشارى بوزل أكبر نحو ما يمكن وصفه بالرأى «النشط» .
وسبق أن أبلغنى الخبراء بأنه يمكن ترجمة للبيرسترويكاً أما بـ «إعادة الهيكلة» أو «الثورة» .
وكان إحساسى أن جورباتشوف ربما يتأهب حقيقة لإحداث تغيير جوهري بعيد المدى، لكن
إن يكون يوسفاً تحديد الشروط الذى يرغب فى قطعه إلا بنحركاتنا نحن قنما . واعتقد دينيس
روس ويوب روليك أن «الجلاسنوست» «التفكير الجديد» ربما يحملان بين ملياتهما عقائد
فلسفية يمكننا نحن توظيفها بمهارة مع جورباتشوف لدفعه فى اتجاه خدمة مصالحنا
ووافقتهما على رأيهما . ومثل مرشح الرئاسة الأمريكية أسرف جورباتشوف فى تقديم الوعود .
وكانت مهمتنا هي إلزامه بالدمسك بكلامه . وجعلته الطبعة للجريدة والجذرية لإعلاناته
عرضة للقصف بنيران من صنعه . فلن يكون من اليمير عليه رفض مبادرتنا . لأنه فى
معممة الثورة سوف يبحث عن أفكار .

واعتقدت فى المقام الأول أننا لو وقفنا جامدين فسوف يستحوذ جورباتشوف على قوة
الدفع، وهذا ما أعطى فى النهاية أننا فى حاجة إلى التحرك، ففى السياسة الدولية كما فى
السياسة الداخلية فإن الهدف الجامد هو عادة الهدف الأسهل . وكلما تصركتنا كلما استحال على
جورباتشوف أن يسجل نقاطاً على حسابنا . وكنيت أعتقد أن استراتيجية جورباتشوف سوف
تقوم على شق التحالف وتقويض مركزنا فى أوروبا الغربية بمغازلة الحكومات والشعوب
الغربية، ودولياً كانت هذه فرصة لاكتساب هبة ومكثنة دولية . وكنا فى حاجة إلى مهاجمة
استراتيجيته فى مقتل، وإمطاره بالمبادرات التى سيشر بأنه مفلزم بتبنيها . وسيزدى النكوص
أو الجمود إلى الحد من خياراتنا بمرور الوقت، ويسمح بتغيير الساحة السياسية ضدنا . وأياً
كانت الميول فقد تشجعت للغاية فى أول زيارة لجورباتشوف .

الإعداد لجورباتشوف

وقبل زيارتى الأولى لموسكو فى أيار مايو ١٩٨٩ م وبينما كنت أتناهب لها فى بيت
ضيافة حكومى فى هلمسكى مصنوع من حشب الأرو قديمته للحكومة الهولندية كرمأ منها
تيفقت أن جورباتشوف وشيفرناذرة مضطران للنظر إلى إدارة بوش ببعض القلق . فقد كانت
إدارة ريجان مثلهفة فى شهرورها الأخيرة على الانتهاء من مفاوضات الحد من التسلح . ولم
تكف إدارة بوش بتجميد المفاوضات الجارية فحسب أثناء عملية «المراجعة» المطولة لكن فى

التاسع والعشرين من نيسان إيدل قال ديك تشينى تحت الإلحاح فى حديث مع شبكة CNN إنه يهيج فى نفسه أن جورباتشوف «سيقتل فى نهاية المطاف».

واتصلت بالرئيس وأثرت المشكلة الرئيسية للناجمة عن تصرفات تشينى. ولم أكن أختلف كلية مع تحليله الأساسى قو طُلبَ من الخبراء رأيهم فى ذلك الوقت لتوقعوا فشل البيريسترويكا على الأرجح. لكن لم يكن هناك مسوغ فى حينه أن تتكون الإدارة بفشل سياسة جورباتشوف سواء فى الدولار الخاصة أو العامة، وأن يسد هذا التكهّن عن وزير الدفاع. وبحث الرئيس المشكلة معى وطلب من مكروكوف أن يتأى بالتهبت الأبيض عن تصريحات تشينى. وكان هذا هو خلاص الرئيس الوحيد مع تشينى حول الاختصاصات طيلة خدمتنا مع الرئيس بوش كوزيرين للخارجية والدفاع، ولكنى لم أشف أن أرى سابقة بإطلاق يد وزير الدفاع فى الإدلاء بتصريحات عامة غير واضحة حول قضايا أساسية فى السياسة الخارجية. وشعرت حينذاك وأشعر الآن بأن الإدارة التى تبيع لنفسها الحديث بأصوات متفرقة فى السياسة الخارجية لا تخدم المصالح القومية. ويتعين أن يكون وزير الخارجية هو المستشار الرئيسى والمتحدث باسم السياسة الخارجية الأمريكية.

واتصل بى تشينى بعد هذه الواقعة ليهلنى بأنه تفهم موقفى ومأست عليه مضغوطاً ليقول شيئاً من الأفضل الإمساك عن ذكره.

وفيما يتعلق بجورباتشوف كلفى الرئيس أن يؤكد فى الدولار الخاصة ما يقوله فى العلن: إننا نريد أن تدجج البيريسترويكا. وأعطانى رسالة صغيرة مكتوبة باليد لتسليمها كان الرئيس مثلهما لدرجة أنه أراد أن يعرف فى الحقيقة كيفية سير الاجتماع حتى وإن انقطعت خطوط اتصالنا المؤمّنة. فقد أمرنى الرئيس قللاً: «اتصل بى فور أن تري جورباتشوف، ولو كان الاجتماع مباشراً حقيقة، قل إنه يذكرنى بزيارة أوتو، وإذا كان طيباً، قل، إنه يذكرنى بزيارة مولينا. ويقدم فى أوتو أفضل شواء فى هيوستون. بينما يقدم مولينا تبكس ميكس ممتاز. ونساءك: «ماذا لو مضى الاجتماع على غير ما يرام؟ رنلارئيس: «قل إنه يذكرنى بشوط نكس مع بوب موراي». وموراي أحد المعارف فى هيوستون كان تشجيعه لنفسه يدفع الرئيس نحو الجنون.

وفي محاولة لاستشراف الأبعاد الأرحب للعلاقات السوفيتية الأمريكية من منظور جورباتشوف تأكدت أن العصبية ربما تكون مست جورباتشوف وشيفرنادزه لأن تأكيدنا علي «اختبار» السوفيت في الصراعات الإقليمية لعب علي أهد أوتار صفتها، فربما يقتضيها هذا تحويل «التفكير إلي واقع، في مناطق يفصلون تقاضى للخيارات القاسية فيها. وكنت حريصاً علي عدم إذلال للسوفيت وهم يطمعون أطراف إمبراطوريتهم للكونية. لأننى لا أريد منع المتشددين في موسكو الأساس النفسى لعرقلة الانهيار.

وعلي الصعيد للدخلى كنت أعرف أن الاقتصاد يعانى من الركود. وبينما هازت الأغلبية الساحقة من مرشحي الحزب الشيوعى فى انتخابات ٢٦ آذار - مارس فقد خسرت نسبة عشرين فى المائة، وهي نسبة تصيب بالصدمة فى السياسة السوفيتية، وكان من بين الخاسرين عدد من أبرز أعضاء اللجنة المركزية أو رؤساء أفرع الحزب فى مناطق مثل موسكو وكيبك ومينسك، وكان أقوى الفائزين بوريس يلتسين الذى طرد من المكتب السياسى فى خريف عام ١٩٨٧م بعد اتهامه جورباتشوف بأنه «يعبد ذاته». وقاز بمقعد موسكو فى مؤتمر نواب الشعب بأكثر من خمسة ملايين صوت أى بنسبة تقرب من التسعين فى المائة من أصوات الناخبين الذين أتلوا بأصواتهم فى الانتخابات فى الدائرة. وفى الآونة الأخيرة سعت بطف انتفاضة وقتت فى تفلوس عاصمة جورجيا فى التاسع من شهر نيسان - إبريل. وقتل عشرون متظاهرا، ويبدو أن القوات السوفيتية استخدمت الغاز السام. كانت الانتفاضة استهلالاً لما سيصبح صيفاً ساخناً من العمل الجماهيرى حركته النزعة القومية أو الصموبات الاقتصادية.

وكان مدخلى الأساسى فى موسكو هو طمأننة جورباتشوف وشيفرنادزه بأننا نؤيد إصلاحاتهما. وكنت أريد أيضاً استفلال اجتماعاتى للاعتماد عما شرت له تأكيد مبالغ فيه علي الحد من التسليح بغية تعزيز علاقتنا بالتركيز بقدر أكبر علي القضايا الإقليمية والمعبارة للقوميات، وإعادة تعريف حوارنا حول حقوق الإنسان بالتحاوت حول «إقامة مؤسسات الديمقراطية». وكان داهى للتركيز علي الصراعات الإقليمية قد أمله الضرورة من جانب والإخبار علي الجانب الآخر. فلجانبت الذى أمله الضرورة يتمثل فى مواصلة الضغط علي السوفيت فى قومية أمريكا الوسطى. فقد كان هو الصراع الإقليمى للوحيد التسليح علي جدول

أعمالنا - دبلوماسياً وسياسياً - أما عن جانب الاختيار فقد أردت توسيع جدول أعمالنا لإحساسى بأن التغيرات السياسية الجارية فى موسكو قد تسمح بحدوث تقدم أكبر فى مجالات هى بطبيعتها مجالات سياسية أرحب من المحد من التصح. ولتصب إحساسى ذلك الوقت على أن المفاوضات تميل لأن تهيم عليها عناصر فنية خفية وموقف تستميت البيروقراطية على كلا الجانبين فى التصح بها كما لو كانت آيات منزلات. وبذا لى أن هذه المفاوضات لا تناسب ما يجرى فى علاقتنا السياسية الأرحب. فلشذا تحقيق انفراج حاسم مع السوفيت فيجب أن ينبع من اعتبارات سياسية لشعل. وأردت أن تؤدى علاقتنا السياسية والدبلوماسية الشاملة إلى تحقيق التقدم فى مباحثات المحد من التصح وليس العكس بالعكس.

وأردت أيضاً توسيع مباحثاتنا لتشمل قضايا عابرة للقوميات مثل منع الانتشار النووي ومكافحة الإرهاب والبيئة. وكان هذا طريقاً آخر لإعطاء مؤشر على أننا مستعدون لفتح التعاون بين الشرق والغرب، وأنا راغبون أيضاً فى منح السوفيت كل فرصة لإظهار أنه يمكن ترجمة التفكير الجديد إلى واقع ملموس.

وعلى صعيد حقوق الإنسان كانت العلاقات مع الاتحاد السوفيتى شديدة الضعف لدرجة أنه نادراً ما أتيح لوزير خارجية الاقترب من إجراء مناقشة جدية، فعادة ما كان الوقت المخصص لبحث مسألة حقوق الإنسان يكرس لتقديم قائمة بالمعارضين والأشخاص الآخرين الذين يحرمهم النظام بشكل فاضح من حقوقهم على أمل السماح لهم بالخروج من الاتحاد السوفيتى. ومثل هدفى فى استغلال الانفتاح الذى هيأته سياسة الجلاسنوت لتحويل تلك الجلسات إلى مناقشات حقيقية حول السبل التى يستطيع السوفيت بها إقامة المؤسسات الديمقراطية، فى بلد تأسس على حكم القانون. ومن الواضح أن فكرة «حكم القانون» فكرة لجدبية تماماً. بل إنها تهدد أساس الحزب الشيوعى. لكننى شعرت أنه كلما أمكنا تغيير نمط تفكير القادة حول هذه المفروضية، كلما باتت للفرصة أكبر أمام ناسك قواعد الحركة الديمقراطية وألحدنا على فكرة «إقامة مؤسسات» مثل هذا التغيير إنطلاقاً من الاعتقاد بأنه إذا أريد تمهيد ثورة فيتمين أن تنعكس أفكارها فى المؤسسات التى تحكم المجتمع.

آلة الزمن - زيارتى الأولى لموسكو

ومحملاً بكل الأفكار يرافقتى جمع حاشد من الخبراء أطلقهم طائرتان غادرت هلسنكى

يوم العاشر من أيار مايو في صباح متبد بالغيوم متوجهاً إلى موسكو في رحلة استغرقت ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة. ووصلت إلى مطار شيرميتيفو لعلأ قنمى الأرض للسوفيتية لأول مرة فى حياتى. وفيما نحن نتجه إلى المدينة شعرت وكأن آلة الزمن عالت بنا أذراجها إلى الزواء. وندت للمباني الشاحبة الضالفة ملفوفة بعباءة من الضباب والسديم. لكن مع خيوط الصباح كان يوسع للمرء أن يبصر مدى تدهور وتحفظ للبيئة الأساسية. وندت المباني الستالينية التى شيدت فى الثلاثينيات والأربعينات كما لو لم تكن قد أجريت فيها أى عملية إصلاح أو طلاء منذ ذلك الحين. وبدا للمعد الثقول من السيارات والشاحنات التى تسير فى الشوارع وكأنه من حقبة الستينيات والخمسينيات. وبينما بدأ حمن الهدام والبشاشة على المارة إلا أن ملابسهم بدت عتيقة بغض الشيء خاصة بالمقارنة بأناقة هلمسكى. وفى الليل تكتسى المدينة بالشوب. فالشوارع لا تضاء إلا بأنوار شاحبة متقطعة. ولا يضى مقادة السيارات مصابيح سياراتهم إلا عند اجتياز تقاطع مزدحم أو مظلم، وعند سقوط الأمطار تنكس السيارات على جانبى الطريق حتى يتمكن قائدوها من تثبيت مساحات الزجاج وهي سلعة نادرة وستعرض للسرقة لو تركت فى سيارة خالية من الركاب. وكان الضوء البراق الوحيد وسط هذه العتمة هي لوحات الإعلانات الضخمة التى تطل أسطح عدد من المباني. ويلون أحمر باهر لم يطن السوفيت عن أحدث نوع من السجائر بل عن «المعد السوفيتى». وبعد خمس وثلاثين دقيقة وصلت إلى بيت ضيافة أوسوبنيك التابع لوزارة الخارجية حيث كان شيفرنادز فى استقبالى. وانتظر شيفرنادز فى دماله أمام المبني للترحيب بنا. ولم يكن هذا مؤشراً عن دمالته بل عن دمالته أيضاً. وسوف يستغل هذا الوقت القصير «ليدير رؤوس» الصمغيين المنتظرين بشأن النتائج التى يتوقع أن تسفر عنها اجتماعنا.

وأوسوبنيك بيت ضيافة ضخم قديم يقع وسط موسكو أسماء عدد من العاملين معى ممن لا يمتدنون الروسية «الموزق» لأن هذه الصفة أقرب إلى معنى نطقه بالروسية، واعتراضاً بالمعاملات التى أمضيناها فى العمل فى موسكو. كان المنزل يخص عائلة عريقة وعقد فيه لينين اجتماعاً مبكراً ونظم للمعمارى روسى أكثر منه سوفيتى. وطالما وجدت أنه مما يدعو للسحرة أن يجرى بحث أحدث المسائل الفنية لقضايا الحد من التصلح للزوى ونحن نجلس على مقاعد واسعة مطلية باللذهب ذات رؤوس دقيقة بين جدران تكسوها النقوش وللزخارف الخشبية والفنية التى ترتفع لخمس عشرة قدماً وتعود إلى القرن الثامن عشر.

ويعد تبادل عبارات للترحيب والمجاملة توجهت إلى «الغرفة الحمراء» لعقد اجتماعا التمهيدى المنفرد. وبدأت الاجتماع بإبلاغ شيفرنادزه أنه بعد مضي شهرين علي لقائنا: شهدنا بالفعل تحولات جذرية، ولاحظنا أن الانتخابات تمثل خطوة إيجابية علي طريق تعزيز الديمقراطية. وقلت: ليس لنا مصلحة في فشل البيريسترويكا. إننا نود حقيقة أن تنجح البيريسترويكا لأنها تمثل عملية إعادة هيكلة ثورية لنظيرتكم السياسية ونهجمك تجاه العالم..

وبهذه المقدمة الموسعة حاولت طمأنته بشأن عملية المراجعة الاستراتيجية. وأبلغته بأنه لن يكون هناك تغيير في نهجنا في الاستمرارية. لكننا ستكون في حاجة إلي الاعتراف بحاجتنا إلي تنهى نهج جديد في بعض المجالات. إننا نعتقد أن هناك اتفاقاً عظيمة لتعزيز التعاون وإننا نريد إقامة علاقات فعالة وبناءة وإيجابية وموسعة. وأوضحنا رأيي قائلًا: إننا نعتقد أن التغيرات الجارية هيأت فرصة ثورية، وإننا نريد استغلالها لإقامة علاقة أكثر استقراراً يمكن التكهن بمساراتها. وانتقالاً نحو مزيد من المناقشات الفلسفية حول القضايا الأمنية أكدت مجدداً علي أننا نريد الاقتراب من هذه القضايا من زاوية سياسية أكثر منها فنية. وأردت منه أن يفهم أننا لا نمزج التوصل إلي حد ثانوي للتسلح، ولكننا نريد تجاوز المفاوضات الرسمية التي جرت في قلوب في الماضي. إننا نريد نهجاً خلاقاً لمعالجة مثل تلك القضايا: باتخاذ خطوات من جانب واحد (مثل نشر ميزانية الدفاع الحقيقية، بمعالجة مصادر الحرب مثل الصراعات الإقليمية، وعدم الإكتفاء بمعالجة وسائل الحرب كالأسلحة، والتركيز علي «الاستقرار الاستراتيجي» بدلاً من الأعداد المجردة. وفي ضوء الفروق السوفيتي في كل نظم التسلح تقريباً كنا نعتقد أن لعبة الأرقام لعبة خاسرة، ولذا فضلنا اصطلاح «الحد بدلاً من خفض». ورد بجدل فلسفي من جانبه.



وما لبثت أن بدأت في تطبيق تقليد تخصيص جانب من اجتماعا المنفرد لبحث القضايا للجساسة - وكانت في هذا الاجتماع - قضيتا نجس وأفغانستان، وليس سراً أنه أثناء الحرب الباردة انخضت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والتي جى بي للسوفيتية مع

بعضهما في لعبة القلط والفأر. وبين الحين والآخر كانت تطالبني الوكالة لبحث قضية محددة، وغالباً ما نحدد الإطار العام لكيفية احتمال تسوية مشكلة لو كان السوفيت علي استعداد لمعالجتها. وأكثر من مرة شمل هذا تبادلاً للجواسيس في هدوء تام. وبالمناسبة لأفغانستان أبليت شيفرنا دزة بأنه ليست لنا مصلحة في إقامة نظام معاد للاتحاد السوفيتي. وأن ما نريده هو أفغانستان مستقلة محايدة تنعم بالسلام. ولم يسن هذا الكثير بالنسبة له، وكان من الواضح في ذلك الحين أن الأفغان سيناهضون السوفيت لفترة طويلة قادمة. وقلت له: «لن يحل السلام في أفغانستان طالما بقي نجيب الله في السلطة. قل يقبل به المجاهدون أبداً. وإذا حل السلام قل يحل ونجيب الله في السلطة». وبعد خمسين دقيقة وجلسة قصيرة عقدت لإرضاء الصحافة لا لسبب آخر عقد أول اجتماع المجموعة المصغرة.

كانت المجموعة المصغرة حلاً وسطاً بين الجلسة الموسعة والجلسة المنفردة؛ وفي كل اجتماع للمجموعة المصغرة كان يتم تناوب الخبراء المحليين في فضائها لحد من التسلح والصراعات الإقليمية والديمقراطية وحقوق الإنسان والقضايا الثنائية والمشكلات العابرة للقوميات. وعلي سبيل المثال كان ديك شيفر مساعد وزير الخارجية لحقوق الإنسان يشارك في اجتماعات الديمقراطية. بينما كورت كامين نائب مساعد وزير الخارجية للشئون الأوروبية الذي يدخل في اختصاصه شئون الاتحاد السوفيتي، يشارك في اجتماعات للقضايا الفنية.

بدأ شيفرنا دزة بالتأكيد علي «التدخل العضوي» في جدول أعمالنا. وقال: «إن الصراعات الإقليمية بالغة الأهمية لكنني أود طرح رأي مختلف. فالمشاكل الإقليمية لا يمكن معالجتها بمعزل عن القضايا الأخرى، فهناك علاقة مباشرة بين تسوية الصراعات الإقليمية والحد من التسلح وحل المشكلات العابرة للقوميات مثل التنمية الاقتصادية والأزمات البيئية. وإذا لم نقر بالارتباط العضوي فسوف يكون من العسير بالنسبة لنا أن نتوصل إلي تسوية كونية تحل تلك المشكلات.

ومعني قائلاً: «إنني مدرك أن هناك في الولايات المتحدة وبقية أنحاء العالم من لا ينظر إلي البيروسترويك بالطريقة الصحيحة. إننا نعرف رأيكم الأساسي ورأي للرئيس، فنحن نتابع بحرص ما تقولونه وتقبلونه به. لكن هناك آراء أخرى: فلي سبيل المثال إنني اختلف مع الآراء التي أعرب عنها وزير دفاعكم مشوراً بصورة غير مباشرة إلي تحقيق تشيئين حول

فضل جورباتشوف». وأصناف قاتلاً: إنه يأمل في بحث التطورات الداخلية مجدداً مهما حدث في فيينا. وبات من الواضح لي أن شيفرنادزة يعتقد أن مفتاح تحقيق تقدم في علاقتنا في المستقبل يكمن في تقدم البيرسترويك دخلياً وأنه يريد مني أن أفهم هذه الديناميات الداخلية. ورداً علي ذلك أثرت ثلاث نقاط غاية في الوضوح قبل الانتقال إلى قضية أمريكا الوسطى. أولها: أننا نأمل على المدى البعيد أن يكون بوسنا إزالة ديناميكية للتنافس بين الشرق والغرب في الصراعات الإقليمية في العالم الثلاث.

ثانيها: أن الولايات المتحدة لا تخفي في جميعها أي مفاجآت في أوروبا الشرقية، وأن الرئيس سيزور بولندا والمجر في تموز يوليو. وقلت: «إننا محزونون بشكل خاص بسماع رأيكم في كيفية مقارنة تطورات البيرسترويك في الاتحاد السوفيتي بالإصلاح في أوروبا الشرقية. ثالثها: أنه بينما يوجد تيار من الآراء في الولايات المتحدة يعتقد أن فشل البيرسترويك يخدم مصلحة الولايات المتحدة لأنه يضعف الاتحاد السوفيتي، فلا أحد في الإدارة الأمريكية يتبنى هذا الاعتقاد. فالجميع في الإدارة يتوق إلى نجاح البيرسترويك. لقد كان وزير دفاعنا يعبر عن رأيه الشخصي فيما يتعلق بتقدير نجاح البيرسترويك - وعليكم أن تلاحظوا أن الرئيس لوسنج أنه لا يقر رأيه».

ورد شيفرنادزة قاتلاً: «إنني لم أفتأج بتصريح وزير الدفاع. إنني أعرف مدى حاجته إلى المال فيكيف يستطيع تمويل برامجه الدفاعية إذا اختفى التهديد السوفيتي؟ إنه يجازف بفقد حجه الرئيسية. ومن هذا المنظور يجب ألا نعتبر رد فعله أمراً مريئاً».



ومند البداية أبدي شيفرنادزة تفهمه لبيروقراطية السياسة في الخارج وفي الداخل. فسوف تزداد معاركه السياسية مع وزارة الدفاع السوفيتية، ولا سيما في قضايا المد من الصلح، وأعتقد أنها ولدت لديه مرارة تفوق مرارته من وزارة الدفاع الأمريكية.

والتقط شيفرنادزة الخيط الذي لقيته وبدأ في الحديث عن أوروبا الشرقية. وقال: «أعتقد أن ريارة الرئيس لبولندا والمجر إيجابية بدون شك. فالزيارات أمر عادي. فخير العادي ألا تتم

مثل تلك الزيارات . وأصناف قاتلاً : فإنه يعتقد أننا لن نفاجاً إذا ما رار جورياتشوف أوروبا الغربية ، وكلما اردادت الاتصالات للدورية بين للزعماء في شرق وغرب أوروبا كلما كان ذلك أفضل . وقال : إن مثل تلك الاتصالات تساهم في بناء الليبت الأوروبي المشترك . وينبغي ألا يكون هذا التصور مروعاً . إنه يجسد ببساطة الحاجة إلى اتخاذ جهود مشتركة لبناء أوروبا موحدة أكد علي أنها تضم الولايات المتحدة وكندا . فلا يمكن أن تحل أوروبا مقسمة . إن هذا أحد الأخطاء الفاحشة التي ارتكبتها للزعماء السياسيون في الشرق :

رسالت : ما هو رأيكم في مختلف احتمالات الإصلاح في مختلف اللبلدان ؟ فلماذا نتجه للمجر وبولندا نحو الإصلاحات بينما لا تقدم ألمانيا الديمقراطية ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا علي إجراء مثل هذه الإصلاحات ؟

ويادر بالرد بسرعة بعد أن أضمني وقتاً لا بأس به متعمناً فيه فيما يشتد وليس الإصلاحات هي أوروبا للشرقية قاتلاً : هذا سؤال مشروع : إنه يبدو بسيطاً للوهلة الأولى لكنه في الحقيقة بالغ التعقيد . فالمعوية غير متعادلة في كل دولة . فالتفكير الجديد له مبدأ واحد ينطوي علي أهمية جبرهية : حرية الاختيار ، فلكل أمة الحق في تقرير مصيرها واختيار نظامها السياسي والاجتماعي الذي تعتقد أنه الأفضل .

وقبل أن يستلرد في إجراءمقارنة بين مختلف دول أوروبا للشرقية قال من وجهة نظر فلسفية : إن الشعوب المختلفة تتبني طرقاً مختلفة في الحياة ، ومضي قاتلاً : جاء زمن شجعت فيه موسكو تطبيق النموذج السوفييتي في أوروبا للشرقية ، لكن العواقب لم تكن إيجابية مطلقاً ، وحتى بهذا التصريح المنقوص كانت هذه هي المرة الأولى التي يتبرأ فيها مسئول سوفييتي كبير من النظام السداليني للدول التابعة ، وكذلك العقيدة بروجيف الأساسية باستفدام القوة لضمان الخضوع والامتثال . وخلص شيفرنادزة إلي أن الطريق الصحيح الوحيد الذي يتعين سلوكه هو احترام اختيارات تلك الدول .

وعقب اجتماعا استقطعت جزءاً من الوقت لقاء ثلاثة أعضاء انتخبوا مؤخرأ لعضوية مؤتمر نواب الشعب . كانت حقيقة أنهم أعضاء منتخبون تنطوي علي مغزي هام . وكانت صلاحيات مؤتمر نواب الشعب متغيرة في تلك العين . لكن هامو الآن منبر حقيقي للتعبير عن الآراء المعارضة ، وسرعان ما سيصبح الجهاز التشريعي ليس مجرد مجلس صوري .

وكانت بقية اجتماعاتي في ذلك اليوم مع شيفرنادزه هادئة . واثرت قضية أمريكا الوسطى من جديد مؤكداً علي أن استمرار التنازلات حول شحنات الأسلحة السوفيتية إلي ماناجوا قد تعرقل إحراز تقدم في مجالات أخرى . ولندي شيفرنادزه اهتماماً بالغا بنهجنا للمركز علي الانتخابات . ونوه إلي أنه أجري مؤخراً عدة اتصالات مع الليكازاجويين وقال : « بوسعي طمأنكم إلي أنهم مستعدون لإجراء الانتخابات علي أساس ديمقراطي حقيقي حتي لو خسروها . وبدا أنه يشير في ذلك الوقت إلي تعديل قانون الانتخابات في نيكاراغوا الذي كان لا يزال يمنح مميزات كبرى للساندينستا .

وباسترجاع الماضي ربما كانت بصورة شيفرنادزه أكثر نفعاً في تصور الهزيمة السلمية للساندينستا عن معظم المراقبين الغربيين . وبالنسبة للشرق الأوسط أثار شيفرنادزه مجدداً فكرة الاجتماع في الشرق الأوسط ، قائلاً : « إنني أريد أن أحلم بمثل تلك الأمور » . وأجرينا أول مناقشة موسعة فيما بعد لمراجعة الاستراتيجية لتقضايا الحد من التسليح ، وانفقنا علي ضرورة استئناف محادثات مناورات في جنوب في القريب العاجل .

وفي ذلك المساء توجهت مع زوجتي سوزان لزيارة شيفرنادزه وقريته مانولي في شقتهما لهدء ما أصبح صداقة وثيقة وحميمة . وبينما كانت العصارة الخارجية للمبنى الذي يقطنه شيفرنادزه تشبه عمارة كافة المباني الأخرى في موسكو رغم اضطرابنا لاستخدام مصعد صغير وحفر لا يبع سوى ثلاثة أشخاص ، فقد كانت الشقة ذاتها بالغة الأناقة والترتيب . وكانت خطوط ديكور الشقة خطوطاً جورجية ، وكانت معظم الأطباق التي قدمت لنا أطباقاً جورجية أعدتها مانولي بنفسها . ومن جانبها قام شيفرنادزه بواجب الضيافة وأهداني بندقية .

ومن وجهة نظر دبلوماسية أصطاني للشاه صورة بالغة العمق لفهم شيفرنادزه للتغيرات التجارية في الاتحاد السوفيتي . فقد كان يدرك بوضوح التحديات الوشيكة التي تنتظر الليبريسترىكا لكنه يحوزه للوضوح فيما يتعلق بمدى قدرة النظام علي إدارة التغير . وروي لنا أنه عندما تولي جورباتشوف مهام منصبه لم يكن لدي أي منا أدنى فكرة عما يولجها . ولمسنا مدى تخلف الاتحاد السوفيتي في مجالي العلوم والتكنولوجيا . وتوصلنا إلي يقين بأنه لن يحدث إصلاح اقتصادي حقيقي إذا لم يجر إصلاح النظام السياسي فن يمكن إحداث أي

تغيير. فلا يمكن أن تكون هناك بيرسترويكا وأن تكون هناك بيرسترويكا إذا لم يتحول المواطنون إلى سادة للبلاد سياسياً. ولكن عندما ألححت في الاستفسار عما إذا كان هذا سوف يدمر عن إقامة ديمقراطية متعددة الأحزاب رد بقوله: إن النظام يأمل في إحداث تلك التغييرات في داخل نظام دولة الحزب الواحد. كان التناقض واضحاً لكن يبدو أن شيفرنادزه كان علي إيمان تام بمقدرة الحزب الشيوعي علي تجديد وتطوير نفسه ومن ثم قوي سياسية جديدة وكانت هذه واحدة من القضايا السياسية الداخلية للقوة التي تنفي شيفرنادزه عظمة بالنسبة لها رغم تغير هذا الموقف بمرور الوقت.

ولم تكن هناك أدنى صعوبة في تفسير الصعوبات القومية التي تواجهها للقيادة السوفيتية. وبدأ مناقشته بمرص مشيراً إلي أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة تغطيهما شعوب متعددة القوميات والعرقيات، وانتهز هذه النقطة البرينة ليهلنا أنه بينما يوجد في الاتحاد السوفيتي نظرياً خمس عشرة حكومة منفصلة، فإن الكثير مما يقال عن هذا الموضوع رسمياً هو محض لغو، فلم توضع النظرية موضع التطبيق، ثم تسأل في بلاغة: «ما هو حال اتحاد الجمهوريات والقوميات السوفيتية الآن؟» وجدد القول بأن قضية القوميات هي «أدق وأكثر القضايا المثيرة للمشاكل» التي تواجه الاتحاد السوفيتي. وروي لي أنه عندما قام بزيارة موطنه جمهورية جورجيا عقب أعمال العنف التي شهدتها فإنه وجد للشعب الجورجي وقد تغير تماماً.



كانت هذه هي المرة الأولى التي نبحث فيها القضية بعمق، وسرعان ما علمت في لقاءاتي اللاحقة مع شيفرنادزه في فصل الصيف والخريف مدى فهمه الدقيق لمشكلة القوميات. كان يدرك بدهاء أن البيرسترويكا والجلاسنوست والتفكير الجديد لا تنطوي علي تحرير الاقتصاد من عقالة فقط بل ستطلق اللسان للتوترات والمشاعر القومية والتاريخية التي تستقر غير بعيد من سطح المجتمع السوفيتي. فشاغله الأهم هو القوميات لا الاقتصاد. ولم يكن جورباتشوف يشاطره هذا الفهم بنفس القدر، فقد كان يؤكد دوماً أن الاقتصاد هو الأهم أولاً وثالثاً بطريق نظري وتجريدي محض.

ويبدو أن جورباتشوف لم يقدر بقدر كاف عنقوان المد القومي الذي تطلقه السياسات التي ابتدعها.

وأعطتني ردود أفعال مانولى شيفرنادزة علي مناقشاتنا دليلاً واضحاً علي كيفية النظر للأحداث من منظور قومي. وبعد أن استشارها حديث مقتضب عن إيران، قالت: إن الفارسيين كانوا أعداءً للشعب الجورجي لقرون. وأخبرتني أن القسورية سرت بجسدها عندما شاهدت صورة لزوجها مع آية الله. ويرغم احتجاج شيفرنادزة طففت تسرد بعض أحداث التاريخ الفارسي وقالت بطريقتها العازمة للصريحة المتدفقة علي الدوام: «إنني أتبني نهجاً حاصماً تجاه إيران». وحاول جاهداً منعها من الاسترسال في الحديث مذكراً إياها بأنه يحتمل ألا تتفق آراؤها مع آراء معظم السوفييت وريت قائلة: «إنك علي صواب، إن لي نهجي، نهج جورجي صريح». ومضت تروي قصة تعود إلي القرن السابع عشر عن كيفية استيلاء الفرس علي جورجيا.

فقد وقع ملك وملكة جورجيا أسري في أيديهم. وبعد أن حاولوا حمل الملكة علي الارتداد عن المسيحية ما لبثوا أن أعنموها حرقاً علي الخازوق. وأشارت مانولى إلي أن الفرس قتلوا نصف مليون جورجي، وسألت مثلاً صارخاً لما حدث في القرن السابع عشر بقولها: إن الشاه أعاد الرؤوس المقطوعة لعائلة جورجية.

وما أثير في حقيقة هو الذبرة التي روت بها مانولى هذه القصص. وهأنذا في شقة وزير خارجية الاتحاد السوفيتي التقى مع زوجته النكية المفوهة التي لم تكن في حاجة لأي استفزاز حتي تبوح بما هي عليها بأنها جورجية قومية. وتذكرت ما ناز في ذهني بأنه إذا كان بوسع زوجة عضو بالمكتب السياسي أن تطلبها مشاعر القومية فقيم بفكر وعقل رجل الشارع؟.

جورباتشوف

وفي صباح اليوم التالي للحادي عشر من أيار - مايو قطعت مسافة قصيرة من مقر إقامتي سباسو هاوس، وهو مقر إقامة السفير الأمريكي في موسكو إلي مقر الكرملين. وفي

حين كنت أفضل البقاء مع مرافقي من العاملين معي لإنهاء الأعمال التي كان يعين دائماً إنجازها في المساء قبل اجتماعات اليوم التالي. فقد كان التلق يعترض خبرائنا في مكافحة الجنس من أجهزة التنصت السوفيتية في القنصل، وطلبوا مني البقاء في مقر إقامة السفير الأمريكي. وتم إطلاعي بقرينة التنصت السوفيتي علي (وفي) سفارتنا لكن لازلت مأحوداً بمظهر الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الواقعة إلي اليمين مباشرة عبر الشارع. ويبدو أن الأجهزة الإلكترونية التي تطل من سطحها تفوق ما هو موجود في البنتاجون.

وبدأنا تشير إليها بشيء من الاستطراف إما بـ «سيدة الإرسال» أو كنيسة الاستقبال الخفيف.

وكان الانتقال إلي الكرملين أشبه بمغادرة موسكو. فالكرملين بالغ للبهاء والجمال في الداخل والخارج. كانت قباب كنائس الكرملين تتلألأ. بينما تلمع الطرق والأرصفة الحجرية. فكل شيء يبدو نظيفاً ولامعاً.

وفي الساعة العاشرة صباحاً تم اصطحابي إلي قاعة سانت كاترين لمعد اجتماع مع ميخائيل جورباتشوف. وبينما كنت أقدم إليه بشكل روتيني في المناسبات السابقة، وإلح آخرها في حفل عشاء وزارة الخارجية بمناسبة توقيع معاهدة القوات النووية متوسطة المدى في كانون الأول ديسمبر ١٩٨٧م، كان هذا أول لقاء أكون فيه محاوره الرئيسي. ولم ينضم إليه هي الاجتماع سوي شيفريادزة و مترجمه منذ أمد طويل بافيل بالاشينكو، وهو صورة طبق الأصل من الرئيس ساليناس رئيس المكسيك. (وفيما بعد ومع تكرار اجتماعاتنا كنا نمزح لترطيف جورباتشوف لرئيس المكسيك فيعمل مترجماً له). وكان بالاشينكو يستقبل المزاح بروح طيبة. ولم يزل في الاجتماع سوي مترجمي ديمتري زارينشاك الذي يعمل منذ فترة طويلة بالخارجية وهو موظف كفاء.

ودلف جورباتشوف إلي القاعة يفيض ثقة وحيوية كعادته. ورغم أنه لم يكن بالرجل الطويل أو العريض كان يصلح كممثل موهوب يطفي بحضوره علي المسرح. ويتمتع جورباتشوف بالفعل بحضور طامع بنهجه شديد التفاؤل أكثر من أي شيء آخر. وكلمة التقينا كان مفعماً بالتفاؤل لينتكرني في هذا الصدد المرة ثلث الأخرى برونالد ريجان. وكان حضور

ريجان طاعياً بنظره المتفائلة. بشأن ريجان كان جورباتشوف إيجابياً علي الدوام، وربما يكمن في هذا سبب قدرتهما علي العمل سوياً بنجاح، وفي الوقت الذي كانت مهمة الإصلاحيين تمثل مهمة رهيبة. فمن التصير عدم الإحساس بأن ثقة جورباتشوف وحدها ربما تحمل البيريسترويكا علي النجاح.

كان الناقض صارحاً مع شيفرنادزه. قشيفرنادزه مشبع بهالة من الحكمة والبصيرة تكشف مدي الصعوبة التي تكلف مهمته. وأحياناً ما بدا أن لهذه الحكمة كُلْفَتُهَا النفسية. فحينما ظهرت صعوبة الإصلاح كان يبدو وكأنه يحمل هموم العالم علي كاهله. فقد كان شعره الأبيض يظهره أكبر سناً من سنه الحقيقي. بل إن البقع للظاهرة تمت عيونه تبدو وقد اردت قدامتها ومساعدتها لتعكس حقيقة مأساة للتاريخ السوفيتي.

(وكما توثق تعاملى مع الرجلين كلما اتضح الاختلاف بينهما، وتعمق اعتقادي بأن شيفرنادزه ربما يكون أكثرهما واقعية).

وفيما تأكدت لاحقاً أنه مؤشر واضح لأولويات جورباتشوف فقد بدأ محادثاته المنفردة بالمديث عن الصحافة الأمريكية. وقال: «لقد بدأت أعرف صحفيكم الآن بحق لأكنى أواجههم في كل مكان. مع مرور الوقت تغيرت لجواه علاقتى بهم، وفي الماضى دأبو علي توجيه الأسئلة المثيرة لكن أسئلهم باتت الآن أكثر عقلانية رغم أنها بالطبع تأمرية إلي حد ما. فلأزال همهم الحصول علي الأخبار الساخنة».

وقلت: «إن المرء في حاجة لاطعاسهم لإشباع نهمهم، ومضيت في شرح إحساسى بأن صحفيى وزارة الخارجية أكثر اهتماماً بالجورهر، وأقل اهتماماً بالإثارة عن نظرائهم في البيت الأبيض».

وعندما شكرته لهذا الاجتماع للقصير قال لى: «إن هذا ليس سوى قمة جبل الجليد. سوف يبدأ بعدها الجليد فى الذوبان ليتدفق فى النهر كما يحدث مع بذلية كل ربيع». وعرفت أن جورباتشوف يحب المناقشات السليقة بالاستمارة وللكداية عن شيفرنادزه. وأحياناً كان هذا الأسلوب يضلنى، وتعين على أن أجد طريقاً مضمناً للعودة إلي تفاصيل القضايا ذاتها.

وفي هذه المرة قطعت شوطاً للأمام، وأثرت ثلاث قضايا بشكل سريع وهي: اهتمام الرئيس بإقامة علاقة نشطة وبنائة وإيجابية بين بلدينا، وانشغال الرئيس فيما يتعلق بأمريكا الوسطى، والسود المحتمل لعقد القمة .

وبادر بالرد مشيراً إلي أنه أراد فعلاً بحث نفس هذه القضايا الثلاث: «إنك علي صواب فهناك بالفعل ثلاث قضايا». وقلت «إن هذا يرجع إلي ثقافتنا القانونية» .

ورد علي: «هذا حقيقي». لكننا درسنا الاقتصاد أيضاً رغم أنك لم تعمل في هذا المجال كما عملت أنا». وانهز فرصة التطرق إلي الاقتصاد لندحول إلي أهم قضية في عقله: وهي أن سياسة الولايات المتحدة ينبغي أن تنزع إلي تأييد الليبريسديوكا. ومضي شارحاً ما يعتقد أنه مدرستان للتفكير تعكسان تماماً الجدل الدائر في واشنطن. ففي رأيه سوف تعمل الليبريسديوكا علي تحسين العلاقات الأمريكية السوفيتية . وحذر قائلاً: «فقط عندما يتلاشي الشعور بالثقة تظهر الصعوبات، وهذا ينطبق علي أي دولة، وربما تظهر الأخطاء المحتملة إنني اتعجب من كيف أنه كان ولا بد أن تؤدي سياسة ريجان «السلام من خلال القوة» إلي تلاشي الثقة السوفيتية في أولر سولوت بروجنوف وحقبني اندروپوف وتشيرنينكو القصيرين. فقد تلاشت ثقة موسكو وتصاعدت محاور السوفيت من الغرب كما أشار المحللون» .

وأخشي إلي: «أعرف أنك تتلقي الكثير من النصائح، وتشير إلي النصائح بأنه ينبغي ألا تكون الولايات المتحدة علي عجلة من أمرها، وأن تكرث حتي يفرق الاتحاد السوفيتي في حجم انحناء الاستقرار والتفكير. وسيصبح الاتحاد السوفيتي حينذاك كالنفاخة الناصجة التي ستسقط علي الأرض من تلقاء نفسها. لكن الأمور ليست بهذه البساطة». وأكد علي «خصوصية» علاقتنا وأنه لا يمكن أن تشهد أي تقدم حتي وإن كان تدريجياً ولست هناك حاجة بالضرورة إلي تحقيق قفزات في هذه العلاقة. لكنها يجب أن تكون إيجابية وبنائة وفعالة ومتطورة» .



وعن قضية أمريكا الوسطى كتب إلي الرئيس يخبره بأن شحنات الأسلحة السوفيتية قد تراجعت اعتباراً من بداية للعام. وعندما سأله عما إذا كان بوسعا لبلاغ الصحافة بهذا التطور باعثنى بالسؤال عن إمكانية الإعلان عن وقف شحنات الأسلحة إلى المنطقة من كافة المصادر. لقد كانت جرعة مصاعفة للحصول على شيء بدون مقابل. فهو علي علم تام بأن الكونجرس أوقف فعلياً كافة أشكال للمساعدات العسكرية للكونترا، وأن نهج للكونجرس تجاه أمريكا الوسطى أخرج للمساعدة العسكرية الأمريكية من نقطة التوازن علي أية حال. علاوة علي ذلك فقد ثبت أنه في حين تدفقت شحنات الأسلحة إلي نيكاراغوا فإن الشحنات لازالت مستمرة في التدفق علي كوبا، ولازالت كوبا تواصل شحن الأسلحة إلي نيكاراغوا.

وعن لقاءات القمة أراد جورباتشوف عقد قمم «دورية»، و«يخفى ألا ينظر إليها علي الدوام علي أنها شيء مثير، ويجب عدم توقع تحقيق إنجازات استثنائية في كل لقاء. ويجب اعتبارها جزءاً مهماً من العملية وزخماً لاتخاذ خطوات جديدة». وفهم جورباتشوف الحاجة إلي الحد من توقعات الصحافة والرأي العام، وكان يعتقد شأن الكثيرين في الإدارة الأمريكية بأن الاجتماعات الدورية أحد سبل تحقيق هذا الهدف.

وكانت أفضل عقد اجتماعات رفيعة المستوى تعدد توقيعاتها بشكل صارم، وإن لم تكن دورية. ومع نهاية عام ١٩٨٩م لم تصبح هذه القضية محل خلاف، فمع قضايا الحد من التسلح والوحدة الألمانية ثم أزمة الخليج لاحقاً تكررت اجتماعاتنا مع جورباتشوف وشيفريادرة لدرجة بات معها من الواضح أن هذه الاجتماعات رفيعة المستوى تمثل القاعدة لا الاستثناء.

واحتتمنا اجتماعنا المنعقد، وانضم إلينا بقية أعضاء المجموعة الموسعة من كبار المسؤولين. واستهل جورباتشوف الاجتماع بمفاجأة عن طبيعة الليبريسترىكا وقال: «في المقام الأول فإن الليبريسترىكا واقع قائم. فقد جرت العادة علي اعتبارها سياسة أو انكاساً لما نود إنجازه في كل فلسفتنا الخاصة. لكننا نعتبرها الآن حقيقة ماثلة: ففي دولة معقدة مثل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لا يسع للمرء أن يروده الأمل في الحياة اليسيرة، وخاصة في مرحلة التغيير الثوري». وتحدث المراقبون في الخارج عن «مجموعة من الإصلاحيين بقيادة جورباتشوف وعن تمتعها بتأييد الكوادر». كان هذا تشخيصاً دقيقاً لطبيعة

ما جرى داخل الاتحاد السوفيتى . لكن جورباتشوف أكد على أن الليبرستريكا فى جوهرها ترمى إلى تغيير دور الفرد وخاصة فى الاقتصاد. لكن يتعين أيضاً إحداث تغيير سياسى «كسر التوجهات الإدارية للقديمة وإزالة النظام الإدارى العتيق» وأصبح من الضرورى التحرك بشكل ما نحو الإصلاح السياسى . فالناس تشب عن الطوق ويجهرون بأرائهم من دون تردد . ويصعد نحو للصدارة أناس جدد .

واستطرد قائلاً: «يريد بعض الناس تحولاً بين عشية وضحاها . وأقول لهم عليكم تذكر أن الانفراجات السوفيتية العظيمة فى الثلاثينيات والوثبة الصينية للكبرى قبل الخمسينيات قد استتبعها حتى وثبات للخلف . وأكد على أن الأهم والضرورى هو تجنب المغالاة والاستمرار حتى النهاية» .

واستوفقتى السهولة التى يتحدث بها العامة الغربية وذكرته أن تعبيرا والاستمرار حتى النهاية، كان شعار حملة ريجان عام ١٩٨٤م التى أعيد فيها انتخابه بفوزه فى ٤٩ من ٥٠ ولاية أمريكية . وقلت له: لقد خبرت فى سنوات عملى كوزير للخزانة بأن القيادة السياسية فى أى بلد هي الأقدر على الحكم على ما سوف تجمعه الرياح بشأن الإصلاح الاقتصادى . لكن من واقع خبرتى فمن الأفضل التحرك نحو إصلاح دون إبطاء . ورد قائلاً: «لقد تأخرنا عشرين عاماً فى إصلاح الأسعار، وإن يصر التأخر علمين أو ثلاثة» .

وعن مباحثات ستارت طرح جورباتشوف أسئلة حول صواريخ كروز التى تطلق من الجو (ALCMS) وصواريخ كروز التى تطلق من البحر (SLCMS) والعلاقة بين ستارت ومعاهدة الصواريخ للصداة للصواريخ للبالستية ووصفها بأنها «جوهرية» . وتطرق جورباتشوف سريعاً إلى استعراض الموقف الذى سيتخذه حلف وارسو فى مباحثات خفض الأسلحة التقليدية فى أوروبا .

واقترح إجراء خفض منظم فى القوات والذبابات وناقلات الجند المدرعة وقطع المدفعية . كان من الواضح أنه يريد إجراء خفض فى الطائرات المقاتلة وللهليكبتر الهجومية التى يتمتع بها حلف شمال الأطلسى بتميزات كبيرة، والهدف تعويض القصور للسوفيتى

علي الأرض. وبينما تجاهلت الصحافة الاقتراح تماماً فإنها تنبأت مجدداً في استعادة للماضي
برغبة السوفيت في تجنب حدوث مواجهة عسكرية مع أوروبا.

وما لبث جورباتشوف أن ألقي بواحدة من مفاجئته المألوفة وبطريقة شبه مرتجلة أبلغني
بأن الاتحاد السوفيتي قرر سحب نحو خمسمائة رأس حربية نووية تكتيكية من أوروبا الشرقية
خلال العام الحالي. وإذا كانت الولايات المتحدة علي استعداد لاتخاذ المزيد من الخطوات
الجزئية فسوف يدرس السوفيت سحب كافة الرؤوس النووية التكتيكية من شرق أوروبا بحلول
عام ١٩٩١ م. ومضي في إغرائي قائلًا: «إن للولايات المتحدة لا تعتقد أن هذه مشكلة ملحة
لكننا في أوروبا نشعر بالعكس».

كان عرساً من جانب واحد. وحتى بعد تطبيق معاهدة خفض القوات النووية متوسطة
المدى كان السوفيت سيحتفظون بعدد ضخم من الأسلحة النووية التكتيكية في أوروبا. والأهم
من ذلك هو أن جورباتشوف كان يطمح أننا نجرى مباحثات حساسة مع الألمان والبريطانيين
والحلفاء الآخرين حول القوات النووية قصيرة المدى. لقد كانت محاولة واضحة لصياغة
اقتراح هام من الناحية الاستراتيجية في سياق محتوى سياسي أرحب وتسجيل نقاط لدي
الرأي العام الأوروبي.

وبعد استبصار عدة استفسارات من جورباتشوف أوضحت شفافية طلبه اقتراحه
وقررت إغراءه بالمقابل، وقلت: «نكم إننا لا يجب أن ندع مجالاً لإثارة الشك في أن جانباً
واحداً يسمي للحصول علي ميزة، وفي الحقيقة بحث هذا الأمر أنا ووزير الخارجية إدوارد
شيفرنادزه الليلة الماضية. ولماذا مدني الجاذبية السياسية للمفاوضات للقاسمة بالأسلحة
النووية التكتيكية. ولكننا لسنا أيضاً أنكم طورتم قولكم مؤخراً. ونحن نطمح أيضاً أنكم
تتمتعون بتفوق يبلغ ١٤٠٠ مقابل ٨٨ في قاذفات الأسلحة النووية التكتيكية. كما أن الاتحاد
السوفيتي يتمتع أيضاً بميزة كبرى في الأسلحة التقليدية رغم نوابكم العلوية».

وهكذا تظل الحقيقة ماثلة في أنه حتي نتوصل إلي اتفاق بالفعل فسيظل هناك خلل في
القوات النووية التكتيكية والقوات التقليدية لمسالح حلف وارسو. واستطردت أقرأ له تقريبا
أعدته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية للجهود السوفيتية في تحديث القوات النووية
التكتيكية، وأكدت مجدداً مرتين أننا نكفهم «الجاذبية السياسية» وراء مقترحاته.

الاختبار الحقيقي: التماسك الغربي

في ذلك المساء، وأنا عائد بالطائرة إلى بروكسل لإطلاع حلفائنا في حلف شمال الأطلسي طفتت أنامل في أول لقاء لي مع للزعيم السوفيتي. وهامونا جورباتشوف قد سجل نقطة أخرى من نقاط العلاقات العامة بعد أن بلغت الصحافة التي تجتنبها القضاة القومية دائماً في إبرار مبادرة الأسلحة النووية للتكويكة وتقل من أهمية اقتراح القوات التقليدية في أوروبا. ففي اليوم التالي خرجت صحيفة نيويورك تايمز وعنوانها للرئيس يقول: «جورباتشوف يسلم بيكر المذهول اقتراحاً حول الأسلحة، بينما جاء في هامود رولاند ليفانز وروبرت نوفاك «جورباتشوف يطوى بيكر». وتمزيت فطرة جورباتشوف في الهجومية ومخاطبة الشارع نتيجة فرط ثقته التي تقرب من حد الغرور ومن الاستقبال الذي حظى به في واشنطن عام ١٩٨٧م وفي نيويورك عام ١٩٨٨م لمتابعة إلي جولائه وزيارته لأوروبا. لكن فيما كان يدغدغ عواطف الجماهير في الخارج كانت الجماهير في الداخل أقل حماساً إلي حد بعيد. كان جورباتشوف يستغل الانتصارات التي يحققها في الخارج ليحافظ علي سلطته في الداخل - وما لم نستطع وضع اقتراح جري وخلاق سياسياً لعرضه علي قمة حلف شمال الأطلسي التي لم يتفق عليها سوى شهر، فإن جورج بوش وقامر بأن يتفوق عليه جورباتشوف دبلوماسياً.

وأبلغت الرئيس لاحقاً أن لقائي بجورباتشوف يذكرني بموليدز، وقت إن قمة الرئيس في بروكسل في غضون ثلاثة أسابيع نذكرنا بأوتو والا فسوف نواجه مشكلة دبلوماسية حقيقية.

الفصل السادس

أوروبا كاملة وحررة

الأخفاء الجدة والتفريق ضعفاء

لونهيلو : هياواته

يؤخر عالم الحكم والاستراتيجية بالمفارقات. فكل إنجاز تقريباً يحمل بين طيات نجاحه بذور مشكلة في المستقبل. كان هذا هو الحال تملأً في الورقة الرابعة التي كتبها جورباتشوف في موسكو: وهي القوات النووية متوسطة المدى وبمبادرة «الخيار صفير» الواردة في معاهدة القوات النووية متوسطة المدى الموقعة في واشنطن في كانون الأول ديسمبر عام ١٩٧٧م، سبق للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أن اتفقا على إزالة فئة كاملة من الأسلحة من مسرح العمليات. لكن هذا ترك قضية الأسلحة قصيرة المدى قائمة واتضح علي الفور أنها ستصبح أكثر قضية أوروبية مثيرة للخلاف نواجهها مع تولى السلطة*.

وكانت خطة حلف شمال الأطلسي تقضي تحديث الصاروخ النووي قصير المدى الذي يتصلح به الحلف «لأنه» سبب واحد وجيه: أنه مع استمرار احتفاظ حلف وارسو بتفوق شامل في الأسلحة التقليدية في أوروبا بات للغرب في حاجة للاعتماد على أسلحة نووية لردع أي هجوم. ولأن الصواريخ النووية قصيرة المدى تضم فئة يقل مداها عن خمسمائة كيلومتر تتمركز في ألمانيا الغربية فإن هذا يعنى أنها لو استخدمت فلا تصيب علي الأرجح سوي ألمانيا الشرقية أو بولندا. أو كما بدأ الألمان يرددون «كلما ازداد قصر مدى للصاروخ كلما ازداد عدد القتل الألمان».

كان الكل يفترض أن إدارة بوش القادمة ستواصل نفس الخطوة وتجنب إجراء أي مفاوضات حول هذا الموضوع. لكن كان هذا هو الحال قبل أن يلقى جورباتشوف خطابه أمام الأمم المتحدة في كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩م وطرح فيه المقوط العامة لخفض مخزون من جانب واحد للأسلحة التقليدية. ومرة أخرى أمسك جورباتشوف بزمام المبادرة السياسية، وما نحن لنخسر معركة الرأي العام ويتعين علينا عمل شيء لإعادة الأمور إلى نصابها.

* كانت رابعا لبيئة موظفي البيت الأبيض عندما فزع الرئيس رونالد ريغان «الخيار صفير» في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨١ ريغان لم يستطع بأي ديز في المفاوضات الخاصة بمعالجة القوات النووية متوسطة المدى. فاقى أحمد أن جورج هوانز قام بجهد حازم لإعريف روية الرئيس إلى اتفاقية تاريخية. وكانت معالجة القوات النووية متوسطة المدى مثل قرارها مهما لأنها لم تكلف بإزالة فئة كاملة من الأسلحة النووية لكنها أثرت مبدئياً مهبطين مهبطان حاسمين في تنفيذ سياسة إدارة بوش حول الحد من السلاح - ولتعايق الخيار صفير فمن ضمن علي الكرولين الذي يملك أهدافاً أكبر من القوات الجبراطة أكبر من الغرب - وأصبح هذا «المض للامصارى» حصراً حاسماً عندما شرع في بحث الأسلحة التقليدية التي كان السوفيت يشترون فيها بتفوق واسع (ملاحظة: في ذلك كانت المعاهدة تقضي إزالة نظم تحقق متخفية مكثفة. وفي السابق كان الحد من النسخ يحدد علي «الرمال اللينة» الترميم، وتحديداً كسر الجسم. أما معالجة القوات النووية متوسطة المدى فقد جعلت من التفاهل علي أرض الواقع حقيقة قائمة.

علاوة علي ذلك لم تكن القوتل النووية قصيرة للمدي سوي للبعد المرئي البارز سما بدا لي أنه تعدد خماسي الأبعاد لعلاقات صنفلي الأطلنطي. ولعل أهم هذه الإجراءات هورندا علي جورباتشوف والبيريستركاء، ولكنني كنت أشعر أنه لن يستقيم حال للعلاقات بين الشرق والغرب مالم تكن هناك وحدة بين الغرب والغرب ليس فيما يتعلق بالرد فقط، ولكن فيما يتعلق بالأبعاد الأربعة الأخرى.

فإلي جانب القوتل النووية قصيرة للمدي يتعين تطوير موقف موحد للتحالف حول الحد من الأسلحة التقليدية والتحرر الاقتصادي والسياسي في أوروبا الشرقية ومما علي أوروبا الغربية نحو التكامل.

الأربعاء، علينا أن نكون في أسبانيا

وللأسباب سالفة الذكر، ولأن الرئيس تعهد في حملته الإنتخابية بإيفاد وزير خارجيته في زيارة لمواسم الحلف للإعراب عن الأهمية التي نوليها لأوروبا وحلف شمال الأطلنطي فقد توجهت مباشرة إلي أوروبا فور أن توليت مهام منصبى في أول شهر شباط فبراير. وبالإضافة إلي الرغبة في وضع استراتيجيية متماسكة بالاستماع مباشرة من الأوروبيين كنت أشعر أيضاً أنني سأكون موضع ثقة في التعاملات المستقبلية كلما أسرعت بالتقاقات الشخصية مع زعماء الحلف. وكنت علي يقين من أنه في الوقت الذي يوجه فيه للرئيس للمخابرات المركزية الأمريكية ويقرأ تقاريرها بنهم فإنه في الأغلب يقيم تقديراته استناداً علي اتصالاته الشخصية.

ونعم هذا البعد لجمع المعلومات في الزيارة زاوية أكثر عملياً. فإذا كانت مفاوضات تحديث القوتل النووية قصيرة للمدي لتتطرنى فإننى أشعر أنني سأكون في حاجة إلي رصد شخصى قري مع زملاى وزراء خارجيية حلف الأطلنطي، وأردت أن أتلص طريقي بالمبادرة بزيارتهم أولاً. وأردت أيضاً إظهار أن الولايات المتحدة أكبر عضو في الحلف تهتم بالأعضاء الأصغر. وكنت علي يقين أيضاً أن لندن وبون وباريس تشكل بالطبع عماد الحلف. لكننا كنا نشعر أيضاً أن العديد من المواسم الأصغر ستكون علي استعداد لتأييد

موافق الولايات المتحدة لو أحست أننا نأخذ مشاورتنا معها علي محمل الجد، ويتطلب إنجاز تلك المهمة زيارة عواصم الحلف الخمس عشرة وفي ثمانية أيام فقط.

وشكلت هذه المهمة كابوسا لوجستيا لكارين جرومير وبات كيندي. وعملت كارين معي في البيت الأبيض والحرارة، وكانت أفضل من يصنع جدول المواعيد.

وفي الحقيقة كان دينيس روس يقول علي الدوام إن كارين جرومير وكارين جاكسون مساعدتيّ للنفيزيين أقدر من عمل معهم في أي مكان، وكان بات موظفاً بالسلك الدبلوماسي نحل إلي أسطورة خلال تولي شولتز للحرارية بنقل كل مرافقي شولتز إلي موسكو بالقطار من هلسنكي، وطلب مني شولتز الإبقاء عليه، ومع انتهاء الزيارة الأولى تأكدت من السبب. كان بات هو دينامو الرحلة، وعلي سبيل المثال أذكر أنه في هذه الرحلة كيف أفتت في قلعة شولس جيميش الثورونية الشهيرة في بون وأنا احتفظ في غرفتي بوسائل اتصالاتي الآمنة. ولم أعرف إلا هبعا بعد كيف اضطر العاملون مع بات إلي ربط خطوط الهاتف في قائب طوب وأقروا بها عبر خندق المياه المحيط بالقلعة لتوصيلها إلي القلعة. وبدأت الزيارة بضجة عالية في أوتوا في العاشر من شباط فبرابر عندما بدأ بريان مولروني رئيس وزراء كندا وزير خارجيته جوي كلارك ورئيس موظفي مولروني دريك بورسي في الإشارة بطريقتهم المباشرة للمألوفة إلي طبيعة المشكلة. وقال مولروني: «إنهم يجلسون في موسكو ويتطرقون مباشرة إلي جوهر صغفنا تماما كما قطع مع دوكاكيس في خطاب بوسطن هاربور. ومن ناحية أخرى فإننا حانقون في الدماء السياسي خاملون في السياسة. سيدي الرئيس عليكم إتخاذ زمام المبادرة، ربما بالقيام بزيارة لأوروبا الشرقية. وفي وزارة الخزانة أعضيت ربما طويلاً من الزمن في التفاوض حول اتفاقية للتجارة الحرة الأمريكية الكندية، ولذا فإنني أحرف محاررينا الكنديين تمام المعرفة.

ومن حسن حظ الولايات المتحدة أن يكون لها مثل هؤلاء الأصغفاء والمخلصين المساندين. ورد الرئيس موافقاً، قائلاً: «إنك علي صواب، علينا أن نبادر بالهجوم. فلا يمكننا أن نكفي برد الفعل على تحرك آخر من جورباتشوف، علينا أن نبادر للحفاظ علي تأييد الرأي العام للحلف. وربما كانت أوروبا الشرقية هي الهدف علينا بالدخول في تحوم منطقته. وإن نشير ثورة. لكن لنا الحق في معالجة حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية.

كان هذا أول اجتماع من سلسلة اجتماعات يقوم فيها مولاروني بدور انتقادي في صياغة فكرنا. وفي أيسلندا أكد وزير الخارجية جون بالدوين هانيلسون مجدداً الفكرة التي ستهيمن علي كل اجتماعاتنا مع الأوروبيين «علينا أن نأخذ زمام المبادرة».

كان الدور التالي علي مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها السير جيفري هاو. وتاتشر هي اللوم الفلسفي لرونالد ريغان، وباعتبارها زعيماً فعالاً في بلدنا كانت أوثق نظير دولي للرئيس ريغان، وكنت أعرفها معرفة جيدة. وتشهر السيدة تاتشر بالحديث السريع والحاسم، لكن طرقها وحساسها شيء مختلف تمام الاختلاف عن صورتها العامة. وكالمعتاد دخلت في الموضوع مباشرة قائلة: «لا بد من تحديث القوات النووية قصيرة المدى، وأصافت: من السهم للحفاظ علي الردع حتي وإن اعترضت ألمانيا».

واستطردت: «إن تصرفات كول تصرفات مضللة حتي بمعاييره الداخلية الخاصة. فلا يجب أن يخاف الزعماء من مسؤوليات القيادة. فليهم ألا ينفادوا للناخبين ولأن يفتنوا ما تهبه اللحظة. فذلك وصفة للهزيمة».

كان كول يقول إن حكومته الائتلافية ستعرض للانهيار إذا تمت عملية التحديث، وببما كنت متعاطفاً مع جوهر حجتها فإن ميلي شبه الدائم هو ألا أنزلق في تكهن غرائز الآخرين فيما يتعلق بسياساتهم الداخلية. وكنت أعتقد دوماً أنهم أدري بشئون بلدانهم أكثر من أي أجنبي. لكنها مضت في حديثها قائلة «لو كنا حازمين مع كول لاستطعنا إعادته إلي طبيعته ونشجيمه علي المضي قدماً، ولما لجنا القضية قبل قمة حلف الأطلسي».

وعن جورريانتشوف أبدأت تشاوماً مفرطاً. إذ أعربت عن اعتقادها بأن القوي المتكثلة صده نفسها سياسياً ستمنعه من تحقيق النجاح. كان جيفري هاو وزيراً للخزانة عندما كنت رئيساً لهيئة لمرطفي البيت الأبيض، ثم أصبح وزيراً للخارجية وأنا وزير للخزانة، وعرفه معكراً من الطرار الأول وأحببته. وقلت لها: «إننا في حاجة لدفع جورريانتشوف لاتخاذ اختيارات صعبة لصالح الإصلاح والتفكير الجديد».

وقلت مردداً أسداه اجتماعائي المابقة: «علينا أن نعمل سوياً لايجاد مبادرات لتصحيح الاعتقاد السائد لدى الرأي العام بأننا نتخذ جانب رد الفعل علي جورريانتشوف». ووافق هاو

علي ما قلته لكنه كان مقتنعاً بأن لدي جوريانشوف الكثير من المبادرات ليطرحها ،هجمته
نقيض بالكثير والكثير .

وغنى عن القول أن زيارتي إلي بون أسفرت عن موقف مختلف تمام الاختلاف حول
القوات النووية قصيرة المدي . وربما كانت الرحلة عبر القنال إلي بون أنبته بالانتقال إلي
عالم آخر . والمستشار هيلموت كول السياسي المعتاز سريع للبيئة ذو الطريقة الجذابة كان
حنوفاً قوياً لرونالد ريغان مثلما كانت مارجريت ثاتشر خلال أزمة الصواريخ الأوربية
١٩٨٢-١٩٨٣ . لكنه يتعرض الآن لضغوط قوية ويريد منا أن نوافق علي إجراء مفاوضات
مع السوفيت حول مستويات القوات النووية قصيرة المدي بحسن النظر عن موضوع
التحديث . وكان الخلاف الطلي العام خلافاً شخصياً أيضاً . فلم يكن كول علي استعداد لتلقي
التصيحة من لندن . وقال : إن السيدة ثاتشر تخلصت من صواريخها . ووضعنا هذا الانقسام
بين لندن وبون حول هذه القضية في موقف صعب غير عادي ، وكانت هناك حاجة ملحة
للتوصل إلي حل مرض لا يفرس «علاقتنا الخاصة» مع أرتق حقائقنا أو يؤثر علي علاقتنا
الجيدة مع أسدقائنا الألمان .

وانتهج وزير الخارجية هانز ديترش جينشر طريقاً غير مباشر عن طريق كول . فقد
وضع القضية في إطار أرحب مؤكداً أن القوات النووية قصيرة المدي يجب ألا تشكل اعتباراً
لولاء ألمانيا . وقال إن المضي قدماً في التحدث عام ١٩٨٩ م أو ١٩٩٠ م سيذهب في سقوط
الحكومة في انتخابات كانون الأول - ديسمبر ١٩٩٠ م ويمكن إرجاء إلخاذ قرار حتي عام
١٩٩١ أو ١٩٩٢ م . وكان مكتب للشئون الأوروبية بالخارجية قد نأب خلال الأشهر القليلة
الماضية علي تحذيري مما يعتقد أنه أخطار «الجيشية» - أي الميل المظاهري لجينشر لاتخاذ
موقف لين مع السوفيت ، وهو الموقف الذي ظهر من تصريحاته في دافوس بسويسرا عام
١٩٨٧ م وقال فيها : إنه يمكن الاعتقاد بصدق أقوال للرعي السوفيتي . لم يكن جينشر موضع
ثقة إدارة ريغان . لكن تملكلي الرغبة في إبرائه مدفوعاً جزئياً بريك بورت سفيرنا حينذاك
لدي ألمانيا .

وأذكر أنه لاحقاً في فصل الربيع وأنا ولقب بإعدي شرفات الدور الثامن بمقر الخارجية
أسأل جينشر : كيف حدث أن الجميع هنا ينظرون إليك علي أنك رجل سيء ؟ واعتقد أنك

لست بهذا الرجل السيء، وتقبل المعركة قبولاً حسنًا. وكم تولد لدى عظيم الاحترام له وإحسانه ومقدرته السياسية وبراعته في تسيير الأمور. وسرعان ما أصبحنا أصدقاء، وبعد أن عملنا بتناجح عن قرب في قضايا الوحدة الألمانية التي (اشغلت علي مسائل تتعلق بالحدود الشرقية لألمانيا). سببته عذابي أمام الآخرين في تصنيفنا الثنائية: وهي تسوية مشكلة الحدود الألمانية التي تشبه معضلة الحدود الصربية.

ومن ألمانيا توجهت إلي الدول الاسكندنافية التي كان قلدتها أكثر وضوحاً تجاه سلبيات تحديث القوات الجوية قصيرة المدى عن مارجريت تاتشر. وعندما قلت إن مسألة التحديث ما هي (إلا إظهار التصميم، تساءلت جروهارلم بروندلاند رئيسة وزراء السويد وماذا يعنى إظهار التصميم بالنسبة لجدول أعمالنا المحدود ١٩٨٤. ونفخت هي ووزير الخارجية الدانماركي أوفه إيلمان نيسين بأن الجدول الدائر حول نظم التصاميم ليس له أي علاقة في الواقع بالمعطيات العسكرية. وتحتصر علاقته بالسياسة، وأن سياستهما لا تتطابق مع سياسة بريطانيا. وكان الوضع في اليونان وتركيا علي نفس القدر من الأهمية - كنت أحرص لانتقاد لادع في ذلك الحين - لكن من منظور إقليمي، وأثار الحديث الدائر حول الوحدة الأوربية قلق البلدين من أن أوروبا الموحدة سوف تستبعدهما، ومن ثم انشابهما الصربية. ولم يكن للجوانب المهمة لأثينا سوى علاقة بسيطة بالسياسة. وأبلغت رئيس الوزراء اليوناني اندرياس بافانديرو أنه عندما كنت في مشاة البحرية خدمت مع قوات حلف شمال الأطلسي لفترة قصيرة عام ١٩٥٣م في دراما بشمال اليونان. وهناك، رحبني صدافة كوماندوز يوناني لم أعد أتذكر اسمه الأخير. فلا أتذكر سوى أنه كان برتبة كابتن وأن اسمه الأول هو بيتر. كان نحاساً صنع تحالفاً بعد نسخة رائعة لفيلوس وأمداه لي ولازلت احتفظ بهذا النمثال في غرفة المعيشة. وأبغضت بافانديرو بضرورة البحث عن كابتين الكوماندوز المدعو بيتر والذي كان يهودي النحت وخدم في دراما عام ١٩٥٣م. ووجدناه يعيش في أثينا لكنه فقد بصره الآن ولم يعد قادراً علي النحت. واتضح أن اسمه الأخير مورياتيس، ولازلا بقبائل الرماثل.

وأصبحت كيم هوجارد نائبة مارجريت تاتشر محوراً لساحة مهمة أخرى، وسبق لها العمل في المكتب الصحفي بالبيت الأبيض أثناء إدارة ريجان ثم في للخارجية، وكانت إحدى مسؤولياتها تولى مهام إدارة الفريق الصحفي المرافق لي.

وقلت كيم في الزيارات وعاية فريقها الصحفي لالتقاط الصور والمشاركة في المؤتمرات الصحفية ولتقصي هذا التعامل مع الحكومات المضيفة ووكالاتها الأمنية. ويتمتع الصحفيون بالكثير من المهارات ليس من بينها تلقى التلميحات والانتظار بفارغ الصبر. وفي هذه الزيارة أدت هذه الصفات إلي حدوث عدد من المأزق.

وبينما كنت أتأهب لأن أستقل المسعد في قصر منيف في مكان مرتفع علي تل - لقاء رئيس الوزراء، كانت كيم تلعب دورها «كلم» وتوجه عدداً مختلراً من مجموعة الصحفيين لالتقاط الصور. ولسوء الحظ اندفعت مباشرة نحو حارس أثيني مسلح برشاش عوزي وخرقة رصاص وتحرك الحارس لوقفها. وبدأت في تصرفها الحرفي المعتاد. وقالت للحارس: «سدي إنني في أمس الحاجة للوصول هؤلاء المصورين لتغطية اجتماع الوزير، ولم تترك أي إجابة. «إنني في حاجة للوصول إلي هناك. لقد سبق لك مشاهدةهم يرافقون الوزير، وما كان من الحارس إلا أن شعر رشاشه بهدف التخويف لا التهديد. كان موقفاً غريباً. فالحارس مدجج بالسلاح والسلطة، وكيم تغف سامدة ثابتة علي موقفها وصحفيوها يحيطون بها. وأحيراً ما كان من كيم إلا أن التفت حول الحارس الذي ظل جامداً في مكانه وقد أصابته صدمة بدون شك من نهورها. وعندما وصلت كيم إلي موقع التصوير لم أكن أعلم شيئاً عن المشادة التي خاضتها لثورها.

وطرحت روما ومدريد ولشبونة مواقف قوية خاصة بها مع تدويه الزعماء بشكل خاص بالانقسام الذي يدعو للسخرية والذي وجد الحلف نفسه فيه. فمن ناحية هاهو جورباتشوف يدرس نظاماً يتداعي بواجهه مقاومة حقيقية في الدخول ويفتقر لأي صيغة للتعامل مع ما يعتمل من ثورة في أوروبا الشرقية. وعلي الناحية الأخرى يوجد عالم غربي ناجح وديناميكي يذهب بالحياة والعبودية لكنه يجد نفسه مع ذلك في موقف دفاع أمام مقترحات جورباتشوف. وأكد كل الزعماء علي مقدرة جورباتشوف علي التلاعب بالرأي العام الغربي، وبنات من الواضح لي أنه يتحين علناً للتصدي لمهاراته. أي أننا في حاجة إلي «شن هجوم» - علي حد وصف بوب زوليك - يدفع أوروبا الشرقية نحو الليبرالية. ولو حاول جورباتشوف شق تحالفاً مسيحيين علناً للعمل علي تأليب الأوروبيين للشرقيين ضد موسكو. وعزز كافوكوسيلفا رئيس وزراء الليبرال هذا الرأي بالتأكيد علي أنه لن يكون بوسع الدول الشيوعية أنشروع في الإصلاحات الاقتصادية من دون سلوك طريق الديمقراطية وقال: إن الناس

تمنح الحرية الاقتصادية وسوف يرغبون في نيل الحرية السياسية . إنهم الحرية السياسية وسوف يسعون لنيل الحرية الاقتصادية .

ومن بين كل ريارتي التي شملت فرنسا أيضاً ودول اللينوتوكس وسفر حلف شمال الأطلسي ربما كان اجتماعي مع وزير الخارجية هاتر فان دين بروك بهولندا أكثرها أهمية علي الإطلاق . وقال : لقد تمننا بإسهاب عن التحديث الذي يحلق المشاكل لألمانيا . لكننا لم نلتحق إلي ما نحن بحاجة إليه بالفعل . وأضاف إنه يتفهم معارضتنا لمفاوضات القوات النووية قصيرة المدى . لكنه ينبغي إدراج عنصر الحد من التصالح في الخطوة التي سيصدرها الحلف في القمة . وتساءل : لماذا لا نذهب لتبني نهج متكامل يلبي احتياجاتنا في التحديث والحد من التسليح ؟ . وسلمني ورقة تحمل بعض الأفكار . وكان محققاً من الناحية النظرية ، وكانت هذه هي المرة الأولى وإن لم تكن الأخيرة التي يقترح فيها رجل دولة قدير حلاً للجمود الدبلوماسي . وأخيراً ها هنا الآن إنني أملك زوايا صحيحة لمن هجوم .

وفي مقر حلف الأطلسي أوضح مانفريد فونرر السكرتير العام للحلف - المدافع القوي عن حلف الأطلسي والمؤيد للبارز لقيادة الولايات المتحدة داخل الحلف - عن استعدادة لمساعدتنا في التوصل إلي حل وسط مع بون . ورغم أنه كان ألمانياً فقد تفهم مدي الحاجة القائمة لاتخاذ اختيارات صعبة .

كانت هذه هي المرة الأولى من مناسبات عدة التي أحجب فيها بنهجه الهنلي ، وكم كانت خسارة الحلف فائحة بموته متأثراً بمرض السرطان عام ١٩٩٤ م .

وفي آخر أيام زيارتي المطولة بدأت اليوم في بروكسل ، ثانية ، للاجتماع مع جاك ديلاور رئيس المفوضية الأوروبية ونائب الرئيس هانز اندرسين قبل التوجه إلي باريس لقاء رولان دوما . وبديما ابتعد للجمود إلي حد كبير عن اجتماعاتنا فقد كان نهج جاك ديلاور الفرنسي ، الذي يشدد علي التوجه الأوروبي خير تذكاري علي مدي الحاجة لتأكيد قيادة الولايات المتحدة لحلف الأطلسي ومدي قيمتها . قلن تصبح أسراً مسلماً به . وكنت أنا وبديما من خريجي الحقوق . وبالطبع كان هناك خلاف بين بلدينا في عدد من المجالات خاصة فيما يتعلق بملف الأطلسي وهكذا فإننا نخطف حول عدد من القضايا . لكن دوما كان شخصية بالغة الدماثة بحق ، وكانت حلافتنا تحدث دلماً في ود ، وذلك علي نقوض للقراري الصحفية التي تروحي بالعكس .

اتفاق أم اختلاف؟

عدت إلى واشنطن محملاً بإدراك أفضل كثيراً عن كيفية تأثير جورباتشوف على سياستنا الأوروبية. وكان الجدل حول القوات النووية قصيرة المدى يدور في قلب معضلة نفسية. فالحديث سوف يظهر حقا تصميم الحلف وسوف يخلق في الوقت نفسه في السقام الأول علانية رمزا نوريا يمكن أن يستخدمه الكرملين ضد الشعوب الغربية لتأليبها على حكوماتها. وسوف نشق موسكو التحالف ليس بإثارة كول ضد تانشر ولكن بخلق توترات سياسية في ألمانيا ستمنع حكومة كول الإنلافية لهشة من الحفاظ على الوحدة داخل التحالف.

وكان مفتاح حل هذه المعضلة يتمثل في الحد من الأسلحة التقليدية. فنحن نريد التحديث النووي لتعويض استمرار إختلال التوازن في القوات التقليدية. ورغم العرض الشامل الذي طرحه جورباتشوف في الأمم المتحدة فسوف يستمر السوفيت في الإحتفاظ بالسميزات الكبرى في الأفراد والذبابات والمدفعية وحاملات الجند المدرعة حتى مع إجراء التخفيضات التي أعلنها من جانب واحد. وإذا استمطنا بإنهاء إختلال التوازن في الأسلحة التقليدية فسوف يمكننا تجنب الحاجة إلى تحديث صواريخ لانغ. وثمة رسالة بسيطة عريت كل ما سمعته: إن حلف الأطلسي لا يسه خوض أزمة أخرى حول نشر الأسلحة النووية.

فلربما إستطاع الحلف تحمل مثل هذه الأزمة عام ١٩٨٣ عندما نولى يورى أندريوف رئيس المخابرات السوفيتية (كى جى بى) إدارة للكرملين لكن الحلف لن يستطيع الخروج من هذه الأزمة مع وجود جورباتشوف المرارغ في السلطة. وهكذا كنت أعتقد أن إهرارز تقدم حول القوات التقليدية في أوروبا يمثل شرطا مسبقا لحل مشكلة القوات النووية قصيرة المدى.

ورغم أن هذا هو الموقف الذى نتجه نحوه فقد واصلنا علانية ضغوطنا على الألمان وعلى الحلف بشأن التحديث.

وسيكون لحفض القوات التقليدية فائتان أخريان. أولاً في شرق أوروبا: فإن مشهد انسحاب القوات السوفيتية سيكون له أثر إيجابى على التحرر السياسى. فانسحاب كل جندي من جنود الجيش الأحمر للسوفيتى وعودته إلى إتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية

سيساهم في رفع الأثقال التي تكبت الديمقراطية والحرية. ثانياً في الغرب: ففي العديد من الدول ولا سيما ألمانيا تنامي إستياء متزايد وعمدى ضد ما يعتقد أنه تواجد عسكري متطفل. وسيساهم خفض عدد القوات الأمريكية بالتأكيد في تخفيف هذه المشاعر.

ولعل أن يسفر كل هذا عن أهم الآثار - أي إلغاء البعد العسكري في السياسة الخارجية السوفيتية في أوروبا. وعسى أن يطرح أثراً إيجابية علي التطورات الداخلية في الاتحاد السوفيتي. فإن نظام التحقق المفاجئ للذي نخطط لتطبيقه بالنسبة للأسلحة التقليدية في أوروبا سيؤدي إلي انتفاخ المجتمع السوفيتي. وسيكون من الصير العدول عن خفض القوات التقليدية، ومن ثم يمتني إجراء التغيير في إطار مؤسسي. وسوف يتقلص دور العسكريين في تحديد سياسات الكرملين مع استقرار التوازن في أوروبا.

وعززت جولتي في أوروبا عملياً ما توصلت إليه من قاعدة فكرية: بأن طريق النجاح مع الكرملين لم يبدأ في موسكو. بل في عواصم أوروبا الغربية وكندا. حقاً لقد قلت بشكل أكثر علانية في كلمة أمام جمعية محرري الصحف في نيويورك في 14 نيسان إبريل (في نهاية المطاف فإن نجاح سياستنا للخاصة بملاقة الشرق والغرب تعتمد علي سياستنا بشأن الغرب والغرب - أي علي مقدرة الولايات المتحدة وحلفائها علي العمل معاً.

إن ضرورة إقامة تحالف وإدارة التحالفات تشكل حقيقة ماثلة في كل نشاط سياسي. وأعتقد أن مدخلي الأول لهذه الحقيقة يعود إلي البحث الذي أعدته في برنستون. فقد أظهرت دراساتى للصراع بين أنورين بيفان وليرنست بيوغن في حزب العمال البريطاني بعد الحرب العالمية الثانية بجلاء الصعوبة الشاقة في ضرورة للحفاظ علي الوحدة في أي تحالف سياسي.

ومع هذا فإن المعرفة النظرية بالتحالفات والأحلاف التي ربما أكون قد اكتسبتها كنارس أياً كانت قد صقلها عملي في الحملات الانتخابية وعملي في وزارة الخزانة. فالنجاح في الخدمة العامة في مجتمع التعددية يتطلب في المقام الأول بناء تحالف. وحلال إدارتي ريجان تعاملت مع رعماء مختلفين في الكونجرس مثل هارولد بيكر ويوب دول وآلان سيمبسون ويوب باكود ويوب ميشيل وتريفت لوت ونيتوت جينجريفش وبيبل براونلي وديفيد

أوينى ويات، موبيهان ودان روسينكوفسكى ولويد بينتسين وجورج ميتشيل وكريس نور رسام
دان روبرت بيرد ونوم قولى وجيم رايت، وكثير لآخرون. وذلك بهدف ضمان انصباط
الحرب للجمهورى فى عمليات التصويت الرئيسية وإقامة تعالقات مع الآخرين والتغيير
المستمر للكتلات الديمقراطيةين.



وفى السياسة الخارجية أدار الرئيس ريجان بتصميم أزمة الصواريخ الأوروبية فى
السنوات الأولى لرئاسته. وأظهر أن مفتاح وحدة الحلف يكمن فى قيادة أمريكية قوية. وحللت
الحرب الباردة تمثلت المفارقة المستمرة فى العلاقات بين صفتى الأطلنطى هي: أنه بينما
كان الأوروبيون يشكون علانية من الطبيعة المفروضة للقيادة الأمريكية أبدت للنخبة السياسية
فى دوائرها الخاصة قلقاً أكبر تجاه الفراغ القيادى نتيجة التوصل لـ التردد الأمريكى.

وأخذ الخطر يتزايد من أن حلف شمال الأطلنطى سيتجهش أمام الهجوم الساحر وتهديد
سوفيتى عسكري متراجع. كانت القوى المركزية التى تعمل نحو إقرار نظام وفاق أمريكى
أوروبى أخذة فى التزايد بينما تنقص قوى الطرد المركزى، وبدون الوحدة الغربية الغربية
سوف يسيطر السوفيت أساساً على العلاقات بين الشرق والغرب لأن جورباتشوف يؤلب كل
صفة من صفته على الأخرى.

ومع ذلك ولدى العودة إلى واشنطن تعرضت للخرج فى للجهود التى بذلت بقية شهر
شباط فبراير وخلال شهرى آذار مارس ونيسان إبريل للتحرك نحو طرح إقتراح جاد بشأن
الأسلحة التقليدية. كانت العوائق البيروقراطية كبيرة أمام التحرك. وكنت أعرف أن
سكوكروفت كان يتباحث مع تشينى وكروى رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة الأمريكية
لجعلهما على التحلى بصراحة أكبر فى كونهما رؤيتهما لمفاوضات خفض الأسلحة التقليدية فى
أوروبا، لم يكن المجال رحباً على أية حال للتحرك بقوة خلال المائة يوم الأولى من عمر
الإدارة الجديدة. فهذه أكثر الأوقات المحمومة بالنسبة لأى إدارة أمريكية. وكنت أعى أن
الرئيس لا بد وأن يتعامل معها. لكنه إن يركز على قصايا الحد من التسليح حتى تقترب من
القمة. ودفعنى إحساسى بالزمن إلى الاعتقاد أنه مع قرب موعد انعقاد القمة يومى ٢٩ و ٣٠
أيار مايو فإن غرائز الرئيس للمناظرة ستشعل وسوف نستطيع كسر الجمود.

وقت التفكير جليده من جانبنا

بات الوقت سانحاً في أوائل آيار - مايو فوسما تالقت ثلاثة أحداث. الأول: تصادت المستشار كول مع الرئيس هاتفيّاً في ٥ آيار مايو- طلب كول من الرئيس إيفاد بعثة خاصة إليّيون لمحاولة حل قضية الأسلحة النووية قصيرة المدى. كان المستشار واضحاً في أهدافه. فأولاً: أريد أن تكفل القمة بالنجاح، ثانياً: أريد لكم النجاح. فسوف تكون أول زيارة لكم باعتباركم رئيساً للولايات المتحدة وأنتم صديق مخلص للأوروبيين وللأمم خاصة. فلم أنس هذه الحقيقة مطلقاً ولن أنساها. ومضي متحدثاً كصديق في تحديد الإطار الخاص بجورج بوش. وقال: «إننا في موقف تاريخي، فلا أتصور أن أرى جورباتشوف يطل كبطل جديد. إنني لم أجاهد الواقع. ومع ذلك هالتنا وأنت نشهد الأحداث تتجاوز أكثر أحلامنا تواضعاً، أي الانهيار الأيديولوجي لنظام سياسي واقتصادي. فهذه لحظة انتصارنا، انتصار لا يعود فقط إليّ جهود الولايات المتحدة. وهذا هو السبب الذي يحثوني إليّ الاعتقاد بضرورة تفعيل دوركم. وهذا مرتبط بتماسك حلف الأطلسي. ونجاح قمة الحلف».

الثاني: في ١٢ آيار مايو ألقى الرئيس خطاباً حول الشؤون السوفيتية. وقال ينبغي أن نتحرك ونجاوز الاحتواء، لكنه لم يقدم أي مقترحات جديدة سوى بث الحياة في اقتراح أيزنهاور «السموات المفتوحة» في أوروبا. ولم تكن القضية للصحفية متحمسة وبأت من الواضح أنه يتعين علينا بذل المزيد إذا أردنا أن تكفل القمة بالنجاح.

أما الحدث الثالث فهو مناورة جورباتشوف الخاصة بالقوات النووية قصيرة المدى في موسكو. وربما ضايقني ذلك، لكنه حفز الرئيس. وكان بوش يعي أنه مع التطويق الساحق للسوفيت في القوات النووية قصيرة المدى (١٤٠٠ لحلف و٨٨ مقابل لحلف الأطلسي) وربما يطرح جورباتشوف اقتراحاً آخر قبل انعقاد القمة لمحاولة إفساد أول ظهور له في أوروبا كرئيس للولايات المتحدة.

ومع جلوسنا أنا والرئيس عليّ مائدة الغذاء في ١٧ آيار مايو كان للرئيس بالغ الجديدة فقد كلف برينت التحادث مع تشيني والأميرال كروي لوضع اقتراح جرىء حول الأسلحة النووية قصيرة المدى. وقلت للرئيس «إنك في حاجة إليّ تجاوز مخلي القوة»، وهو ما يعني أن ينطلق من وجهة النظر القائلة بأن أي اقتراح لابد أن يكون له أثر سياسي أولاً وأخيراً.

واقترحت أن إجراء خفض بنسبة ٢٥ في المائة في المعدات والأفراد يعني الكثير. وكنت أعتقد أن إجراء للخفض بهذه النسبة سيولد الأثر السيلسي الذي نطلع إليه وإن يحددنا عسكرياً.

وخلال الأسبوع الثاني وفي سلسلة اجتماعات في البيت الأبيض ومنزل بوش العائلي في كينيديونكورت بامين أصغى الرئيس لكبار مستشاريه وهم يعرضون مختلف المقترحات المتاحة. وتصرف كروي كما لو كان بروجنيف لا يزال يرأس الكرملين واستمع بالفعل في مقاومة كل اقتراح. وكان تشيبي أقل تصافاً بالعقائدية إلى حد كبير لكنه شعر بأن جورباتشوف سيلحق بنا، فلماذا نتمرك إذن؟. وقلت: إننا نريد مبادرة جزئية لثلاثة أسباب: أولها أن الرئيس في حاجة لممارسة القيادة علي الحلف. ثانياً: إن أي اقتراح جرى حول الأسلحة التقليدية في أوروبا سيجعل قضية للقوات النووية قصيدة المدي غير ذات موضوع مما سيتيح لنا حل القضية والحفاظ علي وحدة الحلف. وأخيراً فإن اقتراح جورباتشوف بشأن خفض القوات التقليدية في أوروبا الذي عرّسه على في موسكو والذي لم يلق سوى اهتمام ضئيل من الصحافة، أظهر لي أنه في أمس الحاجة إلي خفض القوات التقليدية في أوروبا، ويمكننا من زعزجته عن موقفه بقدر أكبر لو اتخذنا استعداداتنا، وكنت علي اتفاق تام مع سكروفت، وكان يدفع نحو إخراج القوات السوفيتية من أوروبا الشرقية بحركة يقين تام بأن خطاب تجاوز الاحتماء، يصر بأنه «حالة الأمر الواقع» زائد السياسة.

وفيما لم يذهب علي للقمّة سوى أقل من أسبوعين أبلغ الرئيس كلا من كروي وتشبيبي «أرد فعل هذا، لا تقولوا لي لماذا لا يمكن عمله؟ بل قولوا لي كيف يمكن عمله؟».

وكان الاقتراح كما أعدناه في صياغته النهائية يسجل عدة استجابات رئيسية لحلف الأطلسي. والأهم أنه تضمن خفضاً للقوات السوفيتية والأمريكية في أوروبا بواقع عشرين في المائة أقل من المعدلات الحالية. ويقضي هذا منا خفض للقوات بواقع ثلاثين ألف جندي، لكنه يقتضي خفض القوات السوفيتية بواقع ٣٢٥ ألف جندي من أوروبا الشرقية؛ بالإضافة إلي ذلك اقترح الرئيس ضرورة إجراء مفاوضات حول المعاهدة في غضون ستة أشهر علي أن تطبق في موعد أقصاه عام ١٩٩٣ م. ويحلي هذا أن القوات النووية قصيدة المدي تصبح غير ذات بال بالضرورة في غضون عام أو عامين كحد أقصى. لقد كان نمركاً جسوراً.

وأوفد الرئيس لاري إيجلبيرجر، ويوب جيتس (نائب سكرتير في مجلس الأمن القومي) وجيم كيمبي وهو خبير في الحد من التسليح غير مشهور، ويتسم بالتواضع لاستعراض الاقتراح مع حلفائنا الرئيسيين (وأعتقد أن كيمبي نموذج لما تحتاجه أمريكا لكبار موظفيها المدنيين: فهو شخص موسوعة موال إلي أقصى حد، شديد التنظيم، ومبدع خلاق).

وفي الوقت نفسه ران الجمهور أساساً علي قضية الأسلحة النووية قصيرة المدى، واستجاب الرئيس لعرض كول بإيفاد فريق خاص فوجه جيتس وزولوك إلي بون علي هامش زيارتي لموسكو. ولم يستطيعا إحراز تقدم كبير بسبب إفراط الألمان في التمسك بموقفهم. ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت تتنازع مشكلة سياسية داخلية مصدرها التحديث غير المرتبط بالحد من التسليح بأي حال، وهكذا ينعين التوصل إلي حل وسط بين الموقعين الألمان والبريطاني. وأشار الألمان إلي استخدامهم لقبول حل وسط بقبول التحديث مقترناً بخصم ما للحد من التسليح. ولم تكن هناك محادثات سياسية داخلية تواجه ناتشر، ويمكن أن تبدو مروية لو أنها أرادت، ولذا فإنها الطرف الذي يمكن أن نعمل معه.

واجتمعت مع الرئيس في ١٩ آيار مايو وقلت: إنك بسببك لقيادة الحلف، وهذا يعني حمل منازعت علي التوصل إلي حل وسط حول الأسلحة النووية قصيرة المدى. فإذا لم نعمل فإن تدفع تاتشر اللعن وستدفعه أنت. وبعد التيقن من تصميمه علي تسرية قضية الأسلحة النووية قصيرة المدى رغم اعتراضات تشيلي وكروى لمعت لديه الرغبة في الجلوس لإجراء مباحثات شاقة وأن يؤكد القواعد الأمريكية.

راسوب تركز مهمتي لدي عبورنا الأطلسي للمشاركة في أعمال القمة في إزالة العديد من العراقيل التي تعرق المناقشات قدر الإمكان. وفي اليوم الأول في بروكسل ٢٩ آيار مايو وبينما أنا جالس مع الرئيس وزعماء وزراء خارجية آخرين إذ يبوب زولوك يبدل محاولات لإزالة التحفظات حول التصور الشامل، أي الفقرات الأربع والستين التي ستصدر كبيان حامي للقمة. وبالطبع ومع وصولنا كانت اللزمات النهائية قد وضعت علي البيان ولم يبق سوى أكثر للقضايا مثار الخلاف لتعالجها القمة نفسها. وبعد ست أو سبع ساعات أنجز زولوك عملاً عظيماً منهُياً معظم التحفظات.

وفي الساعة الخامسة مساءً جلست ويجورلي زوليك نشغل مقعد الولايات المتحدة فيما شرع جيفري هاو وهانز ديفريش جينشر وفان دين بروك ووزراء خارجية آخرون في إجراء مفاوضات. وفيما تواصلت المباحثات علي العشاء حتي الليل تزايد إحباط زوليك مني لاكتفائي بالإسقاء أو المقارعة العرضية للتحديات التي ربما تكون مقبولة للنقد.

ولسر دبليس روس إلي زوليك مستخدماً: «أماذا هو سبب إلي هذه الدرجة؟ إنه أمر غريب». وأخيراً تسأل زوليك لماذا تترجعون؟.

وفي مرحلة ما إما في ساعة متأخرة من الليل أو في ساعة مبكرة من الصباح بدأت بالقول: «إن جورج بوش باصطباره زعيماً للتحلف في سبيله لعمل مارجريت تاتشر علي التوصل إلي تسوية. وكنت أريد أن أستطيع أن أقول لها إن حجم ويجورلي سوي الأمل. فلم يكن هناك وضوح بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وهذا أفضل ما كان بوسعنا أن نفعله». وكنت أريد تيسير مهمة للرئيس قدر الإمكان. وكنت أفكر أيضاً في اليوم التالي عندما تعال تاتشر لحالة القرار إلي الرؤساء في حالة عدم تمكن الرئيس من حملها علي قبول حل وسط. وكلما اقتربت من هاو كلما أصبح من الصعب الإدعاء بأن هناك الكثير الذي يمكن تمحيقه من مكاسب.

وعلي الاعتراف بأن الساحة كانت سريرية. وكان من المقرر أن ينضم وزراء الخارجية إلي رؤساء الحكومات علي عشاء رسمي. وهكذا فقد ارتدينا جميعاً ملابس السهرة وحملنا اضطررنا إلي تبادل سدوتشات الجبن اللذيذة من كافيتريا مقر حلف الأطلسي. فضلاً عن ذلك فلم يكن هناك سوي أربعة لاعبين فقط يشاركون في اللعبة هم هاو وجينشر وفان دين بروك وأنا. ولذا عندما هم شخص آخر في الحديث والفتوق إلي تصريحاتهم الرسمية توجهت إلي جينشر لإجراء مباحثات منفردة. ثم ما لبثت أن تباهت مع هاو لإطلاعه عما يحدث مع جينشر. وكان دين بروك ينضم إلينا بين الحين والآخر ليدم حل المشكلة. وخلال المفاوضات اتصلت بالرئيس مرتين في الساعة الحادية عشرة ليلاً وللثانية عشرة والرابع بعد منتصف الليل لنعلم أن اتفاقاً النام علي تكتيكات المفاوضات.

وفي مرحلة ما حاولت التلميح لجينشر بأننا ذهبنا لأقصى مدى يمكن الذهاب إليه .
«وانتبهتني شكوك بأن جينري غير مرت علي الإطلاق . وكان ذلك نتيجة تدبير من (تشارلز)
بارك، وكان بارك هو المستشار الشخصي لانتشر لشؤون الأمن القومي، ومن الواضح أن ملفه
مايكال ألكسندر مددوب، المعركة المتجنية للذئب الذي حلف شمال الأطلسي يجلس في الغرفة
لنيمان عدم تقديم هاو أية تنازلات. /

وفي النهاية توصلنا لاتفاق حول كل شيء باستثناء قضية حاسمة واحدة: وهي قضية
السفر الثالث. فالولايات المتحدة ترغب في تأجيل التحديث لكن مع عدم التخلي عنه كلية.
وأعد زوليك أربع أو خمس مسيغ مختلفة. وتوصل جوي كلاكرك إلي فكرة وضع الحال
«جزئياً، قبل الفعل» ،يخفف، لإيضاح أنه أثناء المفاوضات ظن نسمح بالإزالة التامة للقوات
النوية قصيرة المدى. وانتهينا إلي كلمتي «تخفيضات جزئية» واقترحت وضع خط تحتها
للتأكيد علي أنه إن يكون هناك صفر. وبمثل هذه الفروق الدقيقة أن لم تكن باللغة الدقة نختتم
المفاوضات الدبلوماسية.

مفاجأة التصوره الثاقب

وفي وقت لاحق كشف الرئيس عن اقتراحه الخاص بالأسلحة النووية قصيرة المدى
لحلف ككل. وأثار ضجة مدوية في القاعة. وأبقت ناشر المجتمعين أن الاقتراح «حول»
مسار مناقشتهم، وسارعت بقبول فعل الوسط الخاص بالأسلحة النووية قصيرة المدى الذي
توصلنا إليه للتغلب للسابقة. وأخذ الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران الكلمة قائلاً «إننا نريد
ابتكاراً. لقد طويع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية تصوراً هو في الواقع جرأة فكرية بالغة
الندرة، وها هي للصحافة التي كانت تتهم الرئيس قبل أسبوع واحد بأنه سيء الطالع عاجز
عن الحديث عن «تصور ثاقب» تكباري في الإشادة به. ولم يكن أمام الرئيس سوي أن
يستغرق في الضحك. وكما قال لان ديغروي ودون أوبندورفر من واشنطن بوست فقد كان
هو نفس الرجل قبل بضعة أيام خلف. ولكنه يفهم الآن بشكل صحيح بأنه قائد حلف
الأطلسي.

ولثناء مخادرتنا أوروبا فكرت في المفارقة التي ألمعت إلي نجاحنا، فقد سمحت الدعاية الملمية التي مارسها جورباتشوف في أيار مايو لي بأن أعود إلي البيت الأبيض ولستميت في المطالبة بالتحرك في قضية الأسلحة النووية قصيرة المدى مما أتاح بدوره أن يطرح جورباتشوف مبادرته الجوهرية الخاصة بالأسلحة التقليدية في نفس اليوم. كان الرئيس يتحرك بالفعل في هذا الاتجاه وكان أكثر تقبلاً لقطع شوط أكبر. ولم تسمح تعليماته لتشيبي وكروى بدورهما بإحراز تقدم في مجال القوات التقليدية في أوروبا فحسب بل سمحت لنا بالتفاوض حول نتيجة مرضية للمصنلات التي خلقتها قصة الأسلحة النووية قصيرة المدى.

وأظهرت هذه الإنجازات أننا نحركه حقاً نحو أوروبا كاملة وحررة، كما أعلنها الرئيس في خطابه في ماينز - ألمانيا عقب القمة مباشرة. ومع ذلك فلم نتج فسحة من الوقت للاستمتاع بمذاق نجاحنا في أوروبا. فطلي الطرف الآخر من الكرة الأرضية كانت الأحداث في سبيلها لتأخذ منحني خطراً نحو الأسوأ.

الفصل السابع

الصين: خطوة كبيرة إلى الوراء

هذا بلنن داخلي صيني .

تشيان تشيتشين

هذا ما نقضي به تشيان تشيتشين

وزير الخارجية الصيني

للوزير بيكر بشأن منحة ميدان تيانانمين

أشرق صباح السبت الثالث من حزيران يونيو ١٩٨٩ في واشنطن صافياً مشمساً. كان الجو مثالياً يجرى علي ممارسة الجولف، فهذا يوم من أيام الصيف الأولي التي تمر بسرعة بالفة قبل أن تهجم رطوبة تموز ويوليو وآب أغسطس الخانقة التي توهن الروح وتزعج الجميع ماعدا أبناء البلد الأثداء، ومن وهي اللحظة اتصلت بلدى تشيفي تشيس للريفي ثم اتصلت بأكبر أبنائي جيمي هاتفياً في منزله بضاحية الإسكندرية بفرجينيا. كانت الساعة نحو التاسعة والنصف صباحاً.

وقلت له: «لدى صفقة عظيمة لك. فأمامنا فرصة لممارسة الجولف في تشيفي تشيس، فاحمل عصيك وتعال في الحال فسوف نلعب بعض الجولف».

ورد جيمي: «اعتقد أنك لن تستطيع لعب أي جولف اليوم».

وتساءلت: «ماذا تعني؟» حسداً.

فرد قائلاً: «إنني أجلس هنا أشاهد السي إن إن والديهات نتكلم ميدان تيانانمين».

«إنك مزح معي».

«لا».

وبعد بضع ثوان من الصمت الزهيب، أدركت أنه لم يكن يمزح.

وقلت: «حسداً. علي أن أذهب».

وأثناء قيامي برضخ سماعة الهاتف إذا بهجس الهاتف بين. كان المسئول المتأرب بمركز العمليات بوزارة الخارجية يهبطي بأن وحدات متدججة بالصلاح من جيش تمرير الشعب بدأت بالفعل في إطلاق النار علي المتظاهرين في قلب بكين، وأهبطي بأنه من المتوقع أن تكون الخسائر البشرية مرتفعة. كانت مذهبة تيانا نمين بدون شك أقوى لحظة للتطبيع منذ انفتاح ريتشارد نيكسون التاريخي علي الصين عام ١٩٧٢ م وبده للعلنية. وأطاح تمت حركة الديمقراطية، الذي أصدر أولمره نظام غولجوز بطوى علي مغارقة تاريخية،

بإجماع غير حزبي في الولايات المتحدة شيدته بحرص علي مدي عقدين خمس إكثارات متتالية للتعامل مع الصين. وبين عشية وضحاها تقريباً أصيب أحد أهم النجاحات الاستراتيجية المدوية في حقبة الحرب الباردة بهزة في السميم.

وفيما نقلت عدسات التلفزيون الإخبارية المتحركة إلي المنازل وحشية للنظام القائم في بكين سرعان ما تبحر مناخ حسن للثقة تجاه الصين لدي المواطن الأمريكي . وفرض السخط الداخلي تصرفاً احتيالياً علي إدارتنا الجديدة. وفجأة فرص علينا تحد للدفاع عن سياسة تتضمن مصالح جيوسياسية وتجارية وأخري تنمق بحقوق الإنسان علي قدر كبير من التعارض. وفي النهاية أعتقد أننا انتهجنا نهجاً وسطاً سَكَنَ العلاقة من اجتياز الأزمة بنجاح لكن دون مضاعفات تعين علي الدولتين الإبراء منها تماماً.

اللقاءات الأولى في مملكة من العصور الوسطي

تعود معرفتي الجهورية الأولى بجمهورية الصين الشعبية إلي ربيع عام ١٩٧٧ بعيد عودتي إلي هيوستون لاستئناف عملي في المحاماة بعد هزيمة الرئيس فورد أيام جيمي كارتر. واتصل بي جورج بوش في أحد الأيام ليبلغني بأن الحكومة الصينية دعتة لزيارة الصين في شهر تشرين الأول أكتوبر، وأنه يريدني أن أرافقه لنا وسوزان في زيارته. كانت سوزان حاملاً في ابنتنا ماري بونر التي كان يتوقع أن تري النور في شهر أيلول سبتمبر، وهكذا لم يكن بوسعها للسفر إلي الصين مما أصابها بإحباط كبير. لكنني كنت متلهفاً علي زيارة هذا الكيان الشيوعي السداسي الأطراف الذي لا أعرف عنه سوى القليل، باستثناء تشانج كاي تشوك والدمور الطائفة في الحرب العالمية الثانية، والمعرفة المؤكدة بمقتل كثير من شباب مشاة البحرية من قاعدتي تشوانتكو علي يد «المنطوعين» في كوريا.

وعامل مصيفونا فريقاً للزائر الذي ضم أيضاً الصطق الإنذاعي لويل توماس كوفد ملكي. والتقينا مع عدد من قادة الحكومة ومن بينهم دينج شياو بينج، وأتبع لنا زيارة أجزاء الصين

المحرمة علي الغربيين . كنا من بين قلة من الأمريكيين سمح لهم بزيارة التبت منذ انتفاضة عام ١٩٥٩م لتأييد الدلاي لاما، ونجم عنها حركة القمع الصينية التي شهدتها التبت ثم هراز الدلاي لاما إلي الهند . ووصلنا إلي العاصمة لاما بعد رحلة بالطائرة أحرقت أعصابنا، واخترقت الطائرة خلائها أجواء ملبدة بالغيوم علي ارتفاع ٢٥٠ ألف قدم . ونظرت من النافذة لأرني قمم جبال الهيمالايا تتجاوز ارتفاع طائرتنا . وحين هبطنا في المطار كان مضيقونا الصينيون في استقبالنا باسطوفات أوكسجين صغيرة لمساعدتنا علي التكيف مع الارتفاع عن سطح البحر بأثني عشر ألف قدم . وحدث للتبت بلداً محتلأً، فعدد جنود جيش الشعب الصيني يفوق عدد مواطني التبت . ومن للذكريات التي لا تنسى الاستمتاع ببزاقة البحر البارد علي الإفطار . ومشاهدة صورة للشاب لويل توماس في معرض متحفى يصور الإمبرياليين الأمريكيين المحظور عليهم دخول التبت بسبب إصداهم للبلاد .

كانت معاودة الاستقبال ومنخامة برنامج الرحلة خير دليل علي المشاعر التي يصورها الصينيون لباربرا وجورج بوش مبعوث الولايات المتحدة إلي الصين من عام ١٩٧٤ حتي عام ١٩٧٦ قبل إقامة علاقات دبلوماسية رسمية بين الدولتين . ووجد الصينيون في جورج بوش صديقاً حقيقياً، رجلاً طاملاً تفهم وأعجب بثقافتهم، وسمي إلي تعزيز وتوسيع نطاق العلاقات الصينية الأمريكية خلال مهمته في بكين . ولم يدر بخلى بأى حال بالطبع أنه بعد اثنتى عشرة سنة فإن مصداقيته لدى المسؤولين الصينيين والعلاقات الشخصية التي أقامها في هذا البلد ستساهم بشكل جوهري في تدعيم للعلاقات الثلاثية حتي في أحلك اللحظات التي ستمر بها منذ الزيارة التاريخية التي قام بها نيكسون للصين قبل سبعة عشر عاماً .

وصافرت إلي الصين برفقة الرئيس ريجان عام ١٩٨٤ ثم قمت بزيارة قصيرة لها عام ١٩٨٦ عندما كنت وزيراً للخزانة للتفاوض مع الحكومة الصينية حول اتفاقية منريبية . وفي شباط فبراير ١٩٨٩ رزتها للمرة الرابعة لمرافقة للرئيس بوش هذه المرة في أول جولة خارجية له للمشاركة في جنازة إمبراطور اليابان هيروهيتو .

كان الرئيس هو صاحب فكرة توسيع نطاق للجولة لتشمل التوقف في كوريا والصين . وإلي جانب تعزيز الالتزام الأملى الأمريكى تجاه الكوريين الجنوبيين كان الرئيس يعتزم

ابتهاز فرصة الزيارة المبكرة ليؤكد للصينيين الأهمية التي يوليها للعلاقات الصينية الأمريكية، وتصميمه على الإعراب عن أن الولايات المتحدة قوة في المحيط الهادئ بقدر ما هي قوة أطلسية.

وخلال تلك الزيارات التقى مع وزير الخارجية الصيني تشيان تشي تشين في مقر السفارة دياويوتاي. وأبلغت أن تشيان السدخن للشره واحد من الثقة الصلبة للغرب دون مواربة بين القيادة الصينية. فولعه بالثقافة الأمريكية أمر معروف بين البعثات الدبلوماسية، ولا سيما ولعه بموسيقى الزيف والغرب الأمريكي وجبال تينيسي للثقافية العظمي. كان الاجتماع حميماً وودياً أكدنا مجدداً فيه التزامنا بتميز وتوسيع العلاقات الثنائية. وتركز معظم الاجتماع على القضايا الاقتصادية. وأبلغت تشيان أنه منذ تركي لوزارة الخزانة، أنهلني المدي الذي قطعته العلاقات بين بلدينا خلال الأعوام الماضية، ولم يمارزني أدني شك في أنه بعد أقل من مائة يوم ستعرض علاقتنا برمتها لمخاطرة جسيمة.

مساعدتنا في الصين هو رئيس الولايات المتحدة

بالطبع فإن وزارة الخارجية هي المؤسسة التي يحتفظ فيها التفاعل للفكرى بغرض من الأوراق السياسية التي تتدفق روتينياً عبر الليبروقراطية لتجرى مراجعتها في المستويات السياسية العليا في الحكومة. ومع ذلك فإنه في حالة السياسة الأمريكية تجاه الصين فمن الإنصاف القول إنه لم يخرج سوى القليل من المبادرات من الخارجية أو مجلس الأمن القومي خلال تولي للوزارة. فلم تكن هناك حاجة لمثل تلك المبادرات. فقد كان جورج بوش علي معرفة تامة بالصين، وأشرف علي توجيه معظم جوانب سياستنا تجاه الصين مما حدا ببعض كبار خبرائنا في الشؤون الصينية إلي الإشارة إليه بمسئول الحكومة بشأن الصين.

كان بوش في المقام الأول نِعَمَ لمساعد في شؤون الصين. فبعد أن أمضى عامين رئيساً لمكتب الاتصال الأمريكي في بكين في منتصف السبعينيات فهم جيداً نفسية الشعب الصيني ووظف مواهبه في الدبلوماسية لشخصية لإقامة علاقات متينة فعلاً مع كافة المسؤولين في القيادة الصينية.

ومنذ لحظة تنصيبه رئيساً للولايات المتحدة أبدى اهتماماً شخصياً بالسياسة الأمريكية تجاه الصين، ودفعها نحو التطور لدرجة غور مسبوقه. ولعل اختياره لجميس ليلي ليصبح مديراً للولايات المتحدة في بكين خير شاهد على ذلك. كان ليلي يتحدث اللغة الصينية بطلاقة. كما رافقنا في زيارتنا للصين عام ١٩٧٧م. وعمل ليلي مديراً لمحطة المخابرات المركزية الأمريكية في بكون فترة شغل بوش لمنصب سفير الولايات المتحدة في بكين، وكان مثل الرئيس علي علم بأدق تفاصيل السياسة والثقافة الصينية.

وكننت علي اتفاق تام وصادق مع الفلسفة للرئيس الأساسية تجاه الصين بالبداة فوق سياسة ريجان بالارتباط الوثيق. فليس هناك شك في أن الصين كانت قوة ناشئة عملاقة في المحيط الهادى لا يمكن تجاهلها. ومثلما هو الحال في أوروبا بدأ نظام جديد في التشكل في آسيا يستند أساساً إلي النمو الاقتصادى والتجارى المذخل. أما وقد خاضت ثلاثة حروب في آسيا في جيل واحد كانت الولايات المتحدة مؤهلة للاضطلاع بدور حاسم في وضع هيكل هذا النظام الوليد الجديد، وكانت الصين محور تلك التطورات.

واعترفنا بالطبع بأن لهفة الصين لتحقيق للتنمية الاقتصادية أكار جلاءً من التزامها بالإصلاح المياسى. وساهم سجل الصين بشأن حقوق الإنسان بنصيب والفر في عزوف الكونجرس عن تمسين العلاقات. وفي الحقيقة كان أداء الصين في مجال حقوق الإنسان مفزعاً بالمعايير الغربية. ولمست ذلك مباشرة وأنا وزير للخزانة. فالإدارة منهكة في تطبيق قيود علي استيراد السلع المصنعة في مصكرات السفر في الصين. ومع ذلك كان تقييماً أنه يتم إحراز تقدم ما، وأنها نعتقد أن توسيع علاقاتنا سوف يشجع الصينيين تجاه تحقيق مزيد من التقدم.

ويوضح للتاريخ أن الإصلاح الاقتصادى والسياسى ما هما إلا وجهان لعملة واحدة والعكس صحيح. وبالمصط علي الصين في مجال حقوق الإنسان أردنا بذل كل ما يمكننا عمله لإقناع قيادة أصابها الشيخوخة أنه عليها وهي تتعد عن اقتصاد علي النمط السوفيتى الاعتراف بأن سرعة للتغير السياسى ينبغي أن تلبى طموحات الشعب الصينى.

وأذكرنا أيضاً أنهم في حاجة إلي مساعدتنا لمواصلة نهوض الاقتصادى. وكنا علي استعداد لاستغلال هذا النفوذ لتشجيع إحراز تقدم أكيد صوب الإصلاح السياسى. ولكل هذه

الاسباب صمم الرئيس علي للمشاركة الفعالة في الشأن الصيني واعتزم أيضاً الوصول إلي مستوى جديد من الاستقرار في تعاملاتنا القتالية .

وعلي مدار أكثر من ١٥٠ عاماً من الاتصالات الصينية الأمريكية يمكن القول بإنصاف أن طبيعة العلاقة تدرج تحت عنوانين فقط . فأتداء الكارثية في الخمسينات كان الصينيون هم الملاحدة الشيوعيون الذين قتلوا أبناءنا في كوريا وهؤلاء خير مثال للشعب الصيني . أما في السبعينيات فكانوا للشعب للتدوير علي العمل الذي كابد الكثير والذي ألهمت ثقافته الفاعنة والغريبة رومانسية الرأي العام الأمريكي، واستحققت مشاركة قيمة مكلفة من جانب الرؤساء الجمهوريين والديمقراطيين علي حد سواء، وأراد الرئيس لإنهاء التأرجح بين المفرطين في الدعوة للمواجهة أو الإفتتان بالصين .

بداية مبشرة تنقلب إلي علاقات مريرة

في أوائل عام ١٩٨٩ بلغت العلاقات الأمريكية الصينية ذروة ما بعد التطبيع . فقد ازدهرت العلاقات في مجموعة متنوعة من المجالات الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية . وكان ونيسلون لورد سفيراً للولايات المتحدة في بكين متزوجاً من المواطنة الصينية بيتي باو لورد . كانت الإصلاحات الاقتصادية التي بدأها دينج شياو بينج يشدد عودها، ونتيجة لذلك اتسعت التجارة الأمريكية مع الصين . وبدأت سفارات من العمل السري التدوير من جانبها لتغيير السياسات التجارية في الصين حتي تتمكن من الانضمام إلي نظام الجات للتجارة العالمية تبشر بتحالف طيبة . ومن الناحية الجيوبولوتيكية بدأ الصينيون صرحاء ومنفتحين بشكل متزايد . وعلي سبيل المثال فلم تكن العين تخطي صراحتهم تجاه ما يجري في عملتهم دولة كوريا الشمالية، واستعدادهم للتدخل بهدوء مع بيونج يانج لخدمة المصالح الأمريكية . وبوجود سديق ملتزم للصين دخلت للبيت الأبيض كانت التوقعات ضخمة في أن العلاقة ستصل إلي مستوى جديد من التمتع والاستقرار .

وفي الوقت ذاته كانت تفضل موجة جديدة من الاضطرابات الداخلية في الصين، وعلي مدار الثمانينيات أجريت الإصلاحات الاقتصادية بوتيرة جيدة. لكن وتيرة الإصلاح السياسي كانت أقل. مما ولد استياءً عاماً علي القور. ومع تولي الرئيس بوش للسلطة رصد خبراء الشؤون الصينية أدلة متزايدة علي وجود صراع علي السلطة لدخل الحكومة بين رئيس الحزب تشاو تشي وانج الذي يؤيده دينج (كنت قد التقيت وأنا وزير للخزانة مع تشاو في الصين) وهو أحد أنصار التوسع في الإصلاح، وبين جناح أكثر تحفظاً يقوده لي بينج رئيس الوزراء. واتسم المؤتمر العام السنوي للحزب الذي عقد في آذار مارس عام ١٩٨٩ بما توقعه الخبراء الغربيون أنه تراجع الاهتمام بالإصلاح السياسي.

وفي الأسابيع التالية اندلعت المظاهرات للطلاب في عدد من المدن بما في ذلك سلسلة من الاحتجاجات في ميدان تيانانمين التاسع في بكين. وتصاعدت المظاهرات تدريجياً إلي الدرجة التي انضم معها مئات الآلاف من المتظاهرين الذين يمثلون قطاعاً عريضاً من المجتمع الصيني إلي الاحتجاجات الطلابية شبه اليومية. ومع تصاعد هذه الاحتجاجات قويت حجة المتشددين بأن المظاهرات اتخذت طابع حركة ثورة مضادة وينبغي التعامل معها بالقوة.

وفي أيار مايو أعلنت الحكومة فرض الأحكام العرفية، وأمرت بإزالة وحدات الجيش إلي بكين لاستعادة النظام. واجتمعت بعد ثلاثة أيام بالمصادفة في واشنطن مع وان لي ثالث أرفع عضو في الحكومة للصينية. بالإضافة إلي صفته كعضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني وك رئيس (لمؤتمر الشعب الوطني). كان الرجل العجوز الذي يكسو الشعر الأبيض رأسه محملاً بذكريات نعب للفتن مزوراً مع جورج بوش عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥م. ومع استخدام المظاهرات ظالماً حدثت الإدارة مراراً حكومة الصين في الاتصالات العامة والخاصة علي صنبط النفس. ولكنك تلقى الرئيس لوان لشي كان في مركز جيد يتيح له التأثير علي سياسة الحكومة.

وقلت: «بينما عدم الاستقرار في الصين أمر غير مرغوب، فإننا نأمل في استمرار التوجه نحو الإصلاح والتسامح السياسي». وألمحت إلي أن أي تكوس عنه ستكون له آثار

سلبية، علي علاقتهما. ورد بأن الحكومة بغرضها للأحكام العرفية قد تصرفت بشكل سلمي لاستعادة النظام، وأن حفنة قليلة من المتظاهرين هي التي تحاول تأجيج الموقف. وأصح في تشاؤم إلي أنه لا مناس من بعض الأشياء. ويجب علي المرء ألا يستبعد إمكانية حدوث بعض الأحداث المأساوية. فلا يمكن تجنب احتمال إراقة الدماء. وكررت القول: إنه في الوقت الذي تشيد فيه حكومة الولايات المتحدة بتحلي حكومة الصين بضبط النفس. فإن العلاقات الصينية الأمريكية مستعرض للخطر إذا تم التخلي عن ضبط النفس لصالح إجراءات عنيفة. وأحسست أنه فهم مقصدي أيضاً. وما سوف أتذكره بقطر قريباً جداً هو التدبير بمأساة قادمة.

مذبحة الأبرياء

وأخيراً وفي ليل الثالث من حزيران يونيو بلغت المواجهة حداً حرجاً. فقد بدأت قوات الجيش للنظامي التي صدرت إليها الأوامر باستعادة النظام بوسط بكين بإطلاق النار علي المتظاهرين. وفي عدة ساعات استغرقها المذبحة قُتل عدة مئات علي الأقل من المتظاهرين وأصيب آلاف آخرون. وأصبح ميدان تيانانمن - محور الحياة الصينية - الميدان الذي يمارس فيه جنود الجيش القتل. وفي ظرف ساعات أُخلي الميدان من المتظاهرين، وبدأت موجة من لقمع الوحشي في مختلف أنحاء البلاد.

ويجدر التنويه إلي أن أثر المذبحة علي العلاقات الصينية الأمريكية كان سويصيح في غاية السوء لولا التصرف السريع والشجاع من جانب العاملين بالسفارة الأمريكية. فبمجرد أن تنامي إلي علم مسئولى السفارة أن المشود السلطة الضخمة والتهديدات في طريقها إلي الميدان أوفد السفير جيم فيلي مسئولى السفارة إلي الميدان لتحذير الأمريكيين والمواطنين الأجانب الآخرين بضرورة مغادرة الميدان علي الفور. واستجابة لهذا التحذير غادر عدد من الأمريكيين الساحة علي الفور قبول دقائق معدودات (بالسني العرفي) من بدء إطلاق النار.

كانت المأساة المروعة في ميدان تيانانمن إثباتاً كلاسيكياً لظاهرة جديدة قوية: هي قدرة ثورة الاتصالات التكنولوجية علي توجيه السواصة. فلم يشهد الأمريكيون منذ حرب فيتنام مثل هذه الصرور المأساوية في حجرات المعيشة.

وعلى نقبض فينتام حيث كانت الأتباء تتأخر في العادة لمصاصات أو لأيام في بعض الأحيان كانت مذبحه يكن تلتقط حية ونبث علي الفور عبر القمر الصناعي، ولعل أقوى المشاهد علي الإطلاق بالتأكيد تلك التي أقدم فيها متظاهرو وحيد بكل جسارة علي التصدي ندبابة.

ومنذ ذلك الحين باتت تغطية الأخبار، شاهد عيان، أمراً شائعاً. ففي للعراق وبوسنة والصومال ورواندا والبوشان وأماكن أخرى ساهمت التغطية الحية لبؤس الصراع من جانب وسائل الإعلام الإلكترونية في خلق ضرورة قوية جديدة تدفع للقيام بعمل فوري، وهي تغطية لم تكن متوفرة في أوقات أقل حدة.



وفي المستقبل أظن أن هذا التوجه سوف يتصاعد إلي جانب ندابات عامة تطلب بضرورة تدخل الولايات المتحدة في مواقع للأسى للحمى التي ربما تكون أو لا تكون علي اتساق مع مصلحتنا الوطنية.

ومن الضروري أن تبقي الولايات المتحدة علي مشاركتها علي الساحة الدولية، ولكن حتي ونحن آخر قوة عظمى لا يمكننا منع أو حل كافة الصدمات الدولية. وهكذا فربما نحن لنندمج فيادانتنا مبدأ الانقضاء المستند إلي متطلبات مصلحتنا القومية وقيمنا ومبادئنا، لكن التواجد الحتمي للتلفزيون والأقمار الصناعية سيجعل من السير للظبة المشاركة بشكل إنتقالي في العقود القادمة.

وأثناء الدورة الثقافية كان الدبلوماسيون يعملون من التحميم إلي حد كبير بشأن نطاق القمع الذي تمارسه الحكومة. وفي هذا القمع السلطوي المفرط لم يكن بالوسع إنكار وحشية النظام، ولم يكن هناك شك في ضرورة إصدار رد قوي.

وروعت المذبحة الرئيس كما روعتنا جميعاً، لكن الذي فاقم قلقه الشخصي هو سابق علاقته مع القيادة الصينية التي أصرت بارتكاب المذبحة. ولذلك الرئيس أن العلاقات الاستراتيجية تلقت لكمة قوية. وقال لي يوم أن تلتفت أعمال العنف إنه من الصعب إدارة هذه المشكلة. وعلي أمل احتواء الأضرار التي قد تحيق بالعلاقات الثنائية ووقف إرافقة الدماء

حاول الرئيس الاتصال ببينج مباشرة لكن محاولته قوبلت بالرفض جفاً. ولم يغضب ذلك فحسب. بل عزز قلقه حول ما إذا كان بالوسع معالجة القضية بنجاح.

وبالمصادفة كان قد سبق لى الموافقة على إجراء حديث صحفي بعد ظهر الثالث من حزيران يونيو مع نشاز بيريوارث هيرالف هوجلابر في برنامج هسانج الأخبار السبت الذي تذيعه شبكة CNN الإخبارية. واعترفت فى الحديث بأن الوضع فى الصين يتطور بشكل مزعج وفوضوى. ونصحت الحكومة الصينية بوقف أعمال العنف.

وأكثر ما يطق بذكرتى عن هذا الحديث أنه تم قطعه أثناء إذاعته بث رسالة حية بالهاتف من مايك شينوى مرسل شبكة CNN الذى كان يقوم بتغطية تطورات أعمال العنف من ميدان تيانانمين. وفيما شينوى يتحدث عن إطلاق آلاف الجرد النار على الحشود بل وبلن المتظاهرين بالسونكى عادت بى للذاكرة إلى المجر عام ١٩٥٦م حين شاهدت وأنا طالب بكلية الحقوق بجامعة تكساس القنطلات للكبيرة فى الجريدة السينمائية للديابات السوفيتية وهي تسحق مقاتلى الحرية فى بونابست. وبعد ثلاث قرن لاحقاً شعرتى شعور قوى بما سبق وأن شاهدته وأنا لستم إلى أنباء قتل شباب وشابات على يد نظام شيوعى محلى آخر.

وأثناء تدارسنا لردنا على المنبهة لم يكن هناك أى خلاف على ضرورة التوصل إلى توارن دفرق بين الحاجة إلى اتخاذ خطوات حاسمة وضمنان للتأكيد على العلاقة الاستراتيجية إلى أقصى مدى ممكن.

وكما نره الرئيس بوش لاحقاً: إن هذا ليس وقت الرد للعاطفى. لكنه وقت اتخاذ إجراء متمثل وحريص يضع فى الاعتبار المصالح بعيدة المدى والاعتراف بتعقيدات الوضع الداخلى فى الصين. وبالتأكيد، كان من للوضع لنا جميعاً أنه لم يعد بالإمكان التصامم كالتمتاد مع الصينيين. فالرئيس يغمره شعور بالاشمئزاز بسبب المنبهة، وأحسن أنه ليس أمامه من خيار سوى الرد بقوة على ما حدث من رعب فى ليانانمين. سواء من منظور سياسى أو كمسألة مبدأ.

وفيما يتجاوز الواقع السياسى فى الدخول كانت للحكومة الصينية فى حاجة لتفهم أننا لسنا بمروراً من ورق فى كل ما يتعلق بمسألة حقوق الإنسان. فالقوة حتماً تكوير حفيظة

الصينيين لكنهم يفهمونها جيداً. إن غياب الحزم في التعامل معهم كان لابد وأن يؤدي إلى حسابات خاطئة فاحشة من جانبهم.

ومن الناحية الجيوستراتيجية كان من الضروري أيضاً وضع معيار القوي المحافظة في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية حيث المعارضة للصحة للديمقراطية لا تزال تمثل إمكانية مستمرة - حتى يدركوا أنه ستحدث مضاعفات خطيرة في علاقتنا حال التصرف بشكل مماثل.

ومن ناحية أخرى كنا في حاجة إلى التقدم بطريقة مثلى. فالقيادة الصينية تعاني بوصف من اضطراب في التفكير. وتاريخياً وأثناء الاضطرابات الداخلية تعمدت تلك القيادة على إلقاء تبعة للسلوية علي عاتق «الأجانب» ونحت منحني أكثر رجعية. وكان من المهم الرد بشكل لا يملأ ميزة للمتشددين الذين يغفلون من أجل إجراءات أكثر قمعية ستؤدي بلا ريب إلى إراقة مزيد من الدماء.

وأخيراً: من المهم لنا الإعراب عن غضبنا وإدانتنا للقمع الدموي الذي مارسه حكومة الصين ولن نفعل ذلك قدر الإمكان بطريقة تسحب البساط من تحت أي تشريع عقابي يصدره الكونجرس قد يصعب المدول عنه، ويمكن أن يلحق أضرار بعيدة المدى في علاقتنا ولا طاقة لنا بها.



وفي الخامس من حزيران يوليو أعلن الرئيس بوش فرض عقوبات ضد الحكومة الصينية. واشتملت تلك العقوبات تطبيق لسياسات العسكرية الأمريكية ووقف كافة الزيارات بين القادة العسكريين الأمريكيين والصينيين. إضافة إلى ذلك فقد وجه الدعوة تقريباً للطلبة والدراسين الصينيين في الولايات المتحدة أن يطلبوا تأجيل عودتهم إلى الصين معطياً أن مثل هذه الطلبات ستحظى بمراجعة متعاطفة. واستقبل مجموعة من الطلبة الصينيين ليعرب عن قلقه بطريقة أكثر دلالة. وصرح الصحفيين «بأن الولايات المتحدة لا يسعها أن تصفح عن هذا القمع، أو يمكنها تجاهل عواقب هذا القمع علي علاقتنا مع الصين».

وفي وقت لاحق من اليوم وافق الرئيس علي توصيتي بأن نعلق الزيارة المقرر أن يقوم بها وزير الخارجية الصيني لوشطن في الثاني عشر من حزيران يونيو. وكانت مجموعة عمل حكومية قد أوصت بإتمام زيارة تشيان. لكني لم أكن أعتقد أن الإعراب عن غضبنا لتشان ثم استقباله بعد أسبوع من المذبحة يوجه الرسالة القوية للكافية بأن الأمر قد انتهى كالمعاد. وسارع الصينيون علي الفور بإعلان أن تأجيل الزيارة فكرة سيئيلة.

وفي غضون أربع وعشرين ساعة بدلنا في ترحيل أفراد عائلات الدبلوماسيين الأمريكيين العاملين في الصين، وطلبنا من ٨٨٠٠ مواطن أمريكي يقيمون في الصين مغادرتها علي الفور. وأدركنا في حينه أنه من شبه المؤكد أن الحاجة ستدعو إلي فرض مزيد من العقوبات.

كان القمع في الصين أسوأ بكثير من الاعتقاد السائد في البداية. ومع تراجع وطأ القمع في بكين كان من الضروري بالنسبة لنا أن نقود رد الفعل العالمي بدلاً من ترك الانطباع بأن الكونجرس يقودنا. ومن ناحية أخرى ساهم التبادل الثقافي والدراسي والعملي في إبقاء الصين مفتوحة أمام قري التغيير التي كانت حاسمة بالنسبة للإصلاح، وكنت أعتقد بضرورة إبعادها عن الإجراءات الأمريكية المصادمة قدر الإمكان.

ومثل الرئيس عارضت بشدة فكرة إلغاء وضع الصين كدولة أولي بالرعاية. ولحسن الحظ كان الرئيس قد أرسل شهادة التجديد المطلوبة لوضع الدولة الأولي بالرعاية الخاصة بالصين إلي الكونجرس قبل ثلاثة أيام فقط. وكان وضع للدولة الأولي بالرعاية محفزاً حاسماً في تعزيز علاقاتنا الثنائية وتدعيم الإصلاحات التي يقوم بها دينج لإقامة اقتصاد السوق. ومن بين كل الإجراءات الانتقامية التي اقترحها المنتقدون لدينا كان هذا بوضوح أشد هذه الإجراءات سلبية. وكان من شأنه الإضرار اقتصادياً بالولايات المتحدة، وإلحاق الضرر بقوي الإصلاح في الصين وعزلها لدرجة بالغة الخطورة.

المحاولات الأولي لإثارة الوعي

في السابع من حزيران يوليو استدعيت هان تشو سفير الصين في الولايات المتحدة إلي مكبتي بالدور السابع بمقر الخارجية. وكنت أعرفه جيداً منذ أن التقيته في أول زيارة لي

للسيون عام ١٩٧٧م حيث كان في ذلك الحين يشارك ويقدم العون بشكل غير عادي أثناء عمله كمسؤول اتصال وزارة الخارجية للصينية مع فريق بوش. وساعد مسؤولى إدارة نيكسون في الإعداد لزيارته التاريخية للتاريخية عام ١٩٧٢م وكان متفاعلاً قوياً عن تدعيم العلاقات. واعتبره الرئيس واعتبرته صديقاً وقياداً، وسرت عتمة عين سفيراً للصين في واشنطن. ورغم هدوئه اللام كنت أشعر أنه يعانى من صراع داخلى رهيب حول سياسة أوفن أنه ينظر إليها في قرارة نفسه برعب وحسرة، وفحصت حدة اللحظة نفسها بشكل حاسم.

وأبلغته «بأن الرئيس يعتقد أنه من الأوفن لك أن تسمع منى منى ما يعتريه ويعترينى من قلق حيال ما يجرى فى بلدكم. إن للولايات المتحدة ملتزمة بالديمقراطية وحرية التعبير والتجمع، ولا يمكننا أن نصامح تجاه ما نراه، وأبلغته أيضاً أن الرئيس يتوقع حماية أرواح وممتلكات الأمريكيين. كما أننا نريد منح حق الهبوط لطائرات حربية أمريكية تتركز فى اليابان بهدف إجلاء السوالمطين الأمريكيين بمجرد الإخطار عند الاقتضاء. وعليكم أن تتذكروا أنه بينما الرئيس العالى صديق لبلدكم فإن تصرفات حكومتكم تلقى بظلال خطيرة على العلاقة بين بلدينا».

ولم يكن لدى السفير الكثير ليقوله، وكرر الحجة الواهية المتعذرة فى أن هذا شأن صينى داخلى، ووعد بنقل اعتراضاتى إلى حكومته. وكان يدرك على تمام أن العلاقات بين بلدينا على شفا الانزلاق إلى هاروة قد يقتضى الخروج منها سنوات وملاوت. ودلر بخلدى أنه لابد وأن يكون من الصعب على المرء الحفاظ على كرامته فى مثل هذه الظروف وهو مضطر للدفاع عن سياسة لا يمكن الدفاع عنها مثل هذه السياسة. ولم يعطى تقديم العون سوى الشعور بالرتاء لحاله.

والثغيت بهان تشو مرة أخرى فى العاشر من حزيران يونيو فى محاولة لسوية مصير فانج نيتشى عالم الفيزياء الفلكية الذى جعل منه ارتباطه بالمعارضة هدفاً للحكومة. وخشية على حياتهما لجأ فانج وزوجته إلى السفارة الأمريكية للتماساً للأمان بمجرد بدء عمليات القتل. واستاء الصينيون من قرار الرئيس بمنحهما اللجوء المؤقت. وألغى مصدر صديق فى الحكومة الصينية إلى مسئول أمريكى بأن ديلج نفسه مستاء للعالية من هذه القضية، وأن

الحكومة متجنباً لاستخدام القوة لضبطه إذا حاولت الولايات المتحدة إخراجها خارج البلاد، وهو حل اقترح ليلى دراسته في لحظة ما.

وبرغم أن فانج بات مصدر خلاف في علاقتنا مع الصين فقد استشاط غضب الصين عندما وجهت إليه الدعوة لعضور مأدبة عشاء أقيمت تكريماً للرئيس أثناء زيارته عام ١٩٨٩م للعاصمة الصينية ولم يثرأي تساؤل عن منحه للجوء. ومع ذلك وبعد أن تفاوضنا لخروجه بأمان من الصين أظهر فانج الاستئذان لجهودنا بسلوه مراراً إلى الولايات المتحدة. كما أنه انتقد مراراً رفضنا إلغاء وضع الدولة الأولى بالرعاية الممنوح للصين.

وأبلغت هان تشو: (إحدى أعرف مدي أهمية هذه القضية لقيادتك، لكلي أود التأكيد علي أهميتها أيضاً بالنسبة للرئيس بوش). وأردفت قائلاً: إن الرئيس منفتح لأي اقتراح تعرضه بكون حول كيفية حل المشكلة بطريقة تضمن مصلحة بلدينا. وألمحت إلي أن لجوءه إلي بلد ثالث يمثل حلاً وسطاً. لكننا لن نسمح بإخراج فانج عنوة من السفارة. وأشارت إلي أن السماح بتحويل هذه القضية لخلاف كبير بين بلدينا سيساهم إلي حد كبير في تعقيد المهمة الأسمى بإعادة علاقتنا إلي سابق عهدنا. ولمسه الحظ بدا أن الصينيين غير مهائين بقلقنا. وكان ردهم أكثر قسوة. فقد ظهر ديج في التاسع من حزيران يونيو علي شاشة التلفزيون يصدق علي تصرف قادته العسكريين.

وفي إجراء تال أعقل أكثر من أربعمائة منشق صيني في بكين، وصدرت الأوامر بحل كافة الاتحادات الطلابية والعمالية المستقلة. وفي مزيد من نذر للشوم بدأنا في تلقي أنباء صدور أحكام بالإعدام علي المنشقين في محاكمات صورية. وناشد الرئيس حكومة الصين رسمياً العفو لكن دون جنوي. ومع بدء الإعدام قررنا اتخاذ مزيد من الإجراءات المشددة.

وفي العشرين من حزيران يونيو أعلن للرئيس موجة ثانية من العقوبات، وأصدر الرئيس أوامره بوقف كافة الاتصالات رفيعة المستوى مع بكين، وطلب من مؤسسات التمويل الدولية مثل صندوق النقد الدولي وقف كافة القروض الجديدة إلي الصين لأجل غير مسمى. وألغيت زيارة كان من المقرر أن يقدم بها للصين وزير التجارة بوب موباشر في شهر تموز

يوليو. وفي نفس الوقت تقريباً تلقت واشنطن ألبام إعدام أربعة وعشرين من المتظاهرين. وفي ٢٤ حزيران يونيو إتهم تشاو تسي يانج بتشجيع «تمرد اللثورة المضادة» وأعفى من رئاسة الحزب، ووصع رهن الإقامة الجبرية بالمنزل.

الكونجرس يسخن الموقف

تمعدت محاولاتنا لإنقاذ علاقتنا الاستراتيجية بتبني نهج وسط نتيجة لضغوط مكثفة من الكونجرس حيث توحدت صفوف تحالف لم يكن محتملاً بين الليبراليين الذين خابت آمالهم بسبب انتهاكات الصين لحقوق الإنسان والمحافظةين المتشددين المناهضين للشيوعية، في المطالبة بتبني نهج أكثر تشدداً تجاه بكين. وكانت أعمدة هذا التحالف تشمل في السيناتور جيسي هيلمز من نورث كارولينا والنايبيين مولا ريتس من نيويورك ونايبي هولوسي من دائرة كاليفورنيا التي تضم المي الصيني في سان فرانسيسكو.

وطيلة مراحل الأزمة أخطر الكونجرس الرئيس بوابل من المطالب بهذا المرید أعقبها تهديدات بإصدار تشريعات بفرض عقوبات أشد سرامة من تلك التي فرضها بالفعل. وكنت أعتقد أن مثل هذا النهج سيثير غضب الصين، وسيلحق الضرر بقضية الإصلاح، ويحدث ردة ربما تهدد أساس العلاقة من جذوره. وفي شهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب في الثاني والعشرين من حزيران يونيو أوضحت أن تحول الرئيس عن أصدقائه القدامى أمر حقيقي «قد يستطيعون تطهير الميدان. لكنهم لن يستطيعوا التخلص من ضمايرهم» لكنني طلبت من الكونجرس توحيد الصفوف مع الرئيس في سياسة موحدة بدلاً من التمسك بنهجه قصير النظر.

وفي كلمة أمام جمعية آسيا في نيويورك بعد أربعة أيام سميت إلي تميز هذا الخط. وقلت «إن الفص المتسرع لعلاقة بناءة بين الصين والولايات المتحدة كُست بحرص بالغ علي مدى أكثر من عامين لن يخدم مصالحنا ولا مصالح الشعب الصيني. فضلاً عن ذلك

فلن يساهم في مساعدة طموحات الديمقراطية التي تبنت بوضوح في الملايين التي سارت إلى ميدان تيانانمين.

وبالرغم من نتائج استطلاعات للرأي العام التي أظهرت تأييداً للمنهج الوسط للرئيس بفارق كبير، أصبر الكونجرس علي المطالبة باتخاذ إجراءات أشد، وفي الثلاثين من حزيران يوبير وافق مجلس النواب علي تعديل لمشروع قانون بسلطة التفويض في المصونات الخارجية وفرض عقوبات إضافية علي الصين بأغلبية ٤١٨ صوتاً دون اعتراض. وفي تموز يوليو هذا مجلس الشيوخ حذر مجلس النواب بإصدار تشريع مماثل بأغلبية ٨١ ضد عشرة أصوات. وكان فارق الأصوات كاسحاً لدرجة بات معها من المستحيل أن يستخدم الرئيس الفيتو وصدق علي القانون علي مضمّن.

القرار سري

حتى مع توسيع نطاق العقوبات ضد الصينيين بحثنا أيضاً عن سبل خلافة لإبقاء العلاقات حية، اعترافاً بأنه ليس هناك علي الصعيد الثاني ما يمكن عمله في المستقبل المنظور. ودارت الأفكار حول ضرورة الإيضاح للصينيين في الدوائر الخاصة أنه بينما لا يمكن قبول سلوكهم ولا يمكن غفرانه، فإن الإدارة لا تسعى لفرض العقوبات، ونسعي للتوصل إلي سبل لإصلاح تدهور العلاقات.

ومع ذلك فعلي الصينيين أن يتأكدوا أن تحقيق تقدم أمر مستحيل حتي يتوقف القمع.

ولتعزيز هذه الحقيقة بما لا يثير أي لبس اقترح الرئيس ليفاد سكركرافت في مهمة سرية إلي الصين. ووافقت علي الاقتراح لكنني عارضت فكرة ليفاد سكركرافت إلي الصين بدون مرافقة ممثل من الخارجية. ولم استمع مطلقاً للمهام السرية التي يقوم بها مسئولو مجلس الأمن القومي. ففي حقبة ريجان شاهدت أكثر من مرة ما حدث لمسار السياسة الخارجية نتيجة السماح لمجلس الأمن القومي القيام بمهام. ولأن يعمل النظام ببساطة إذا استبعدت الخارجية من مثل هذه المصاعى. وكنت أفضل لو ذهبت بنفسى لكن

مهمة من هذا النوع ينبغي أن تحاط بأقصى قدر من السرية ولا يليق بأي حال بوزير خارجية في العصر الحديث أن يسافر باسم مستعار. ولقد رحت علي الرئيس أن يوافق نالبي لاري إيجلبيرجر مستشار الأمن القومي في زيارته للصين ووافق للرئيس. وكانا زميلان وصديقان قديمان وكل منهما يكمل الآخر. وبحث الرئيس برسالة شخصية إلي دينج شياو بينج يطلب منه مقابلة مبعوثه.

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من حزيران يونيو، وبعد مبارلة جولف بقاعدة أندروز الجوية مع بوب هوك رئيس وزراء أستراليا عاد بوش وأنا أرافقه إلي مقر إقامته في البيت الأبيض حيث انضم إلينا لاري ورينت. وقال الرئيس إنه تلقى رداً علي رسالته. فقد وافق دينج علي استقبالكما وتعد بإحاطة الاجتماع بأقصى درجات السرية.

كانت ترجيحات الرئيس واضحة. فونبغي إضفاء الصينيين أنه بينما الرئيس ملتزم بالحفاظ علي الملائمة بين الولايات المتحدة والصين فإنه شخصياً يشعر بالفزع من العنف ويأبى ضميره عودة العلاقات إلي طبيعتها إلي أن يتم وقف العنف.

وفي منوه المناخ السياسي المعائد فمن الضروري ألا يتسرب أي شيء للصحافة. فسوف يسارع المتشددون في الكونجرس إلي اتهامنا بتملق «سفاحي بكين» وسوف تتعرض جهود الرئيس للحفاظ علي علاقتنا مع الصين لاضطراب رهيب. فضلاً عن ذلك فسوف يتصلب موقف الصينيين تجاه أي انتقاد علني جديد، وسيزداد الحال سوءاً عنه قبل الزيارة.

وكانت الحاجة لإحاطة الزيارة بالسرية المطلقة بالقوة لدرجة استدعينا معها جيم لينلي من بكين لينظري نبدأ الزيارة بنفسه تجنباً لإرسال برقيات دبلوماسية مما يميز فرص كشفها قبل الأوان.

وتحت جناح الليل غادر إيجلبيرجر وسكوكروفت واشنطن في الساعة الخامسة فجراً في الثلاثين من حزيران يونيو. ومضت الزيارة دون أدنى معاجلة. ولتجنب اكتشاف أمرهما لدي هبوط طائرتهمما للتزود بالوقود أعيد تزويدها بالوقود بواسطة طائرة تزويد بالوقود في الجو تابعة للقوات الجوية الأمريكية. وأمضيا أربعاً وعشرين ساعة في الصين وعادا دون أن

ينحظهما أحد، ورفعنا تقريراً للرئيس بأن الصينيين غامضون كعادتهم. فالقادة اشتكوا من الصعوبات وكرروا أصرارهم المعناد بأن الولايات المتحدة تتدخل في شئونهم الداخلية. لكن كما قال لي ايجلبيرجر: «إنهم لم يقولوها مباشرة، لكن اعتقد أن الأنكياء منهم قد استوعبوا الرسالة بأنه يمكننا عمل المزيد لهم عندما يكونون عن قتل أبناء شعبهم».

التأجيل الأول في باريس

بعد مرور سبعة أسابيع علي وقوع المذبحة، وطي هامش مؤتمر السلام في كمبوديا الذي رعيه الأمم المتحدة، عقدت اجتماعاً خاصاً مع تشيان تشيتشين في باريس في ٣١ كانون الثاني يناير وبكرم من رولان ديماس وزير خارجية فرنسا وفتح مكتبه بمركز كليبر للمؤتمرات تحت تصرفنا لعقد الاجتماع. وفي هذا الاجتماع الذي يمثل أول اتصال واري بين بلدينا منذ وقوع المذبحة كنت علي يقين من أن الصينيين سيلتزمون بالجانب الدفاعي تجاه أي مسعى أمريكي، لذا فقد بدأت الاجتماع عن عمد بنقاش مطول عن القضية الكمبودية. وكنا نحتاج مساعدة الصين للوصول إلي تسوية إشكالية كمبوديا من خلال التفاوض، ولم أرد أن يسم للثورت في علاقتنا الثنائية الأجواء، وأن يدفع الصين إلي الإمساك عن ممارسة نفوذها لهم علي مقابلي الخمير الحمر. وبعد الحصول علي تعهد من تشيان بتقديم المساعدة وجهت دفعة الحديث بحذر إلي مسار أكثر صعوبة.

وقلت: «أعلم أنكم تدركون أن الرئيس وفهم الصين. فهو يكن لها مشاعر خاصة. وأنه لا يريد أن تتكلم الصين علي نفسها. إن مصالحنا الاستراتيجية تدعو إلي بذل ما يمكننا عمله للحفاظ علي علاقتنا».

ومضيت قائلاً: «لكن علي أن أكون صريحاً معك: إن تكون السهمة سهلة. فالأمريكيون قد شاهدوا ما حدث في تيانانمين، وأن ما شاهدوه يشكل انتهاكاً للمبادئ التي قامت عليها بلندا. فمصلحتنا الوطنية تقتضي توسيع نطاق الحريات التي يستمتع الأمريكيون في التمسك بها. فالأمريكيون يجدون صعوبة بالغة في تفهم ما فعلتموه وهو ما خلق واقعاً جديداً وعاطفياً

في بلدنا، وتعزيزت مصداقيتي نتيجة إقرار مجلس اللواب في اليوم السابق فقط لمشروع قانون المقويات بالأغلبية المذهلة ٤١٨ صوتاً ضد لاشيء.

وقلت: «إننا نريد استعادة علاقتنا. لكن لا يمكننا إنجاز ذلك بمفردنا ولو كانت الصين ترغب في الشيء نفسه فعلوكم مساعدتنا. إنني أود أنأ والرئيس أن تكف للصين عن القمع. وإذا لم يحدث المزيد من المحاكمات للصورية والاعتقالات الجماعية فممكننا بأمانة أن نضع الصين في صورة أكثر إيجابية. لكن إذا واصلتم القمع فسيكون من الصعب تسير علاقتنا.

وكأن شيان مستمناً في الدفاع بصورة أكبر مما توقعت. وأكد قائلًا: «إن أحداث بكين لم تُقرر بمشورتنا، وألقى مسئولية المذبحة بدوره على المشاهدين من الطلبة والفرصيين ووسائل الإعلام العالمية والعملاء للتاوانيين وصحافة هونغ كونج. وقال إن حكومة بكين تأثرت بصبر غير معهود لمدة شهرين، ولقد أن الحكومة للصينية أظهرت أقصى قدر من ضبط النفس، حتي لم يعد هناك في النهاية خيار آخر. وأصر علي أنه حتي الأنباء الخاصة بالوفيات مبالغ فيها إلي حد كبير.

وأبلغني: «أنتم تعرفون أن الصين لا تخشى من الضغط. فالإجراءات الأمريكية بهدف الضغط علي الصين قد أضرت بالصين، لكن الصين أن توضح للضغط، واعترف بأن الرأي العام الأمريكي تشكل نتيجة «للتقارير المبالغ فيها من جانب وسائل الإعلام الأمريكية. وبعد هدوء الموقف علي الجانبين أن يظهر هذا بهدوء جيد.

وحاولت أن أشرح لشيان أن العلاقات كسابق عهدنا ليست محل تساؤل. وعاد إلي ترديد السقولة القديمة «إن هذا شأن دخلني» وأنه يجب علي الرئيس وعلي لإيلاغ للكونجرس بضرورة الكف عن نهجه التدميري. وقلت: «إن الدخول في جدل عما إذا كان ذلك شأنًا لدخولنا أم لا لن يحقق أي مصلحة لنا. فالحاصل أن حادث تيانانمين خلق واقعاً جديداً في الولايات المتحدة، وعلي للتأكيد أننا لا يمكن أن نفعل ذلك بمفردنا. وأشرت إلي أنه سيكون من المفيد إذا عرف العالم أنكم إن تقللوا للعقاب بهؤلاء الذين يعيدون عن حقوق الإنسان الأساسية.

ومرة أخرى أظهر تشيان مجدداً للغموض المحسوب. وقال: «إن العقاب لن يطال أولئك الذين اكتفوا بالتظاهر وترديد للشعارات حتي لو كانوا متشددين ما لم ينتهكوا القانون، وبمرغم انتهاء الاجتماع بدون نتائج حاسمة إلا أنني أعتقد أنه نجح في زيادة معرفة تشيان بجدية موقفنا

محاولة أخري في أيلول سبتمبر

في ٢٨ أيلول سبتمبر وعلي هامش دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة اجتمعت مع تشيان وزير خارجية الصين للمرة الثانية منذ مذبحه تيانانمن. ويبدو أن حالة الحصار في الصين قد بلغت درجة محتملة، ونتيجة لذلك فقد كان الغضب الداخلي أقل تأججاً في الولايات المتحدة. لكن الصينيين كانوا لا يزالون غير مدركين للأخطار المحدقة بالعلاقات الثنائية. وفي مستهل حديثنا قلت لتشيان: «إن هناك اعتقاداً يتكلم في الولايات المتحدة بأن الصين توشد للباب». فإن أي شيء يمكنكم عمله للحفاظ علي الباب مفتوحاً سيقدم يد العون.

ورد تشيان: «لسنا نحن الذين نريد إحصاء الأبواب. إن أبوابنا مفتوحة. لكن الباب المقترح يتطلب جانبين». ويمثل فن الإقناع تمديداً خاصاً في التعامل مع الصينيين. وأكد أنه شيء بالغ الأهمية بشكل غير معتاد. لذا فطبي المحاور أن يتفاوض معهم في توازن دقيق يدفعهم نحو المسار المفصل بدون إغصانهم أثناء التفاوض. وبناءً علي هذا فقد نزلت عدد حساسيتهم قائلاً «إننا نعرف أن جانباً من هذا الأمر له علاقة بالسياسة الداخلية في الصين». لكنني ألمحت أيضاً إلي أنه ربما أمكن تقديم النصيحة بدراسة رفع الأحكام العرفية والانتباه إلي الدعاية المناهضة لأمريكا التي تظهر بين الحين والآخر. وإلا فسوف يكون من العسير علي الرئيس وعلي أنا ومن يفكر مثلاً أن يواصل السعي لتعزيز العلاقة إذا كان اعتقاد الرأي العام ومراجعه علي النقيض. وقت تشيان: «لا تنس أن الرئيس قرر أو إن لم يكن قد أعلن بعد السماح للمتحاقدين الأمريكيين باستئناف العمل في تطوير الأجهزة الإلكترونية الخاصة بالمقاتلة الصينية إف - ٨». وقت: «إن تقديم مثل تلك اللقطة الكريمة المتبادلة من جانبنا في مثل هذه الظروف يبدو في سياقه تماماً». ورد تشيان: «بأن حكومته تشعر بضيق بالغ بسبب

استمرار صغوط مجموعة السبع المطالبة بإنهاء القمع. وشكا أنه منذ «الانتفاضة اليوكسر» عام ١٩٠٠ عندما أرسلت قوات عسكرية من القوي الثماني للكبحي بما في ذلك الولايات المتحدة إلى بكين لحماية المواطنين الأجانب لم تعامل السيادة الصينية بمثل هذا الأزدراء. وقال إن مثل هذا النهج الظالم لن يتم للتصامح معه. وحذر من أنه إذا استمر هذا النهج يوماً بعد يوم. فن يمكننا تجلب إيذاء مشاعر الشعب الصيني والإضرار بالعلاقات الصينية الأمريكية.

ولم يكن لدي تشيان أي غصاصة في أن يطلب الحصول علي تذايلات أمريكية ويتجاهل في الوقت نفسه طلبى «باتخاذ خطوات إيجابية وظاهرة» من جانب الصين لتسهيل تديد غضب الكونجرس والرأى العام من بكين. وأكد أن علاقات الزنام تقتضى تجديد اتفاقات التعاون العلمى والتكنولوجى الثنائية واستئناف قروض البنك الدولى. فضلاً عن ذلك فهناك «أيضاً مشكلة إطلاق الأقمار الصناعية» في إشارة إلى اتفاق سرى حينذاك بسمع للصين بإطلاق ثلاثة أقمار تجارية أمريكية الصنع على صواريخ صينية اعتباراً من عام ١٩٩١. وقلت إننا نمتزم للتمسك بالزامنا. لكن هذه قضية بالغة الحساسية في الولايات المتحدة، وأحشى لو ظهرت علي السأ أن يطلب للكونجرس منا أن نلغيه أو نرفض تنفيذه. وهكذا فإننا في حاجة إلى نوحى حرص بالغ من ناحية التوقيت».

الجمود

طيلة بقية عام ١٩٨٩م بل وبقية فترة رئاسة جورج بوش كافحت العلاقات الصينية الفرق. وكان مأل أى فرصة لتحسين تلك العلاقات هو الموت الذى لاقاه المتظاهرون في الميدان ذلك المساء من شهر حزيران يونيو. وفي لهفة لتحويل السياسة تجاه الصين إلى قضية انتخابية دلب الديمقراطيون وأعينهم علي انتخابات عام ١٩٩٢م علي مهاجمة الرئيس بالادعاء بأنه كان بالغ اللين تجاه الأعمال الوحشية ضد حقوق الإنسان في الصين. ومن دواعى السخرية أن محاولاتهم بتحويل هذا الجدل إلي مكسب سياسى ضيق قد أجهضت

نتيجة انتهاء الحرب الباردة. وأدى انهيار الاتحاد السوفيتي إلى ضعف الإجماع الداخلي
بالتعامل مع الصينيين ككفيل معضال للسوفيت، وخاصة بسبب سوء سجلهم في مجال حقوق
الإنسان.

وفي هذا السياق بلغ تدخل الكونجرس ذروته عندما أقر الكونجرس قانوناً يتيح
للمواطنين الصينيين الموجودين في الولايات المتحدة للبقاء لفترة ممتدة من الزمن. وفي
الثلاثين من تشرين الثاني نوفمبر استخدم الرئيس الفيتو ضد القانون. ورغم أن الرئيس ما
ليث أن يادر بتصميم نفس الهمود في أمر تنفيذي فلم يحظ الفيتو بالقبول في الكونجرس أو
لدي الرأي العام. ومع ذلك فقد ساعد هذا الإجراء العلاقات الصينية الأمريكية إلى حد ما.

ورغم هذا فلم يهدأ للديمقراطيين بال مطلقاً. ولإنراكم التام بتصميم الرئيس علي
تبلى النهج الصيني الذي يقر أنه يحقق المصلحة القومية ومعارضته للنهج السياسي الأكثر
شعبية أصدرنا مراراً تشريعات وبلغاء وضع الصين كدولة أولى بالرعاية مما اضطرنا إلى
لملة أقلية تكفي من الأصوات لدعم للفيتو الرئاسي.

ولسوف تؤكد حكمة معارضة الرئيس الصلبة والنجاحة لهذه المحاولات الحزبية قصيرة
النظر من عام ١٩٩٠م حتى عام ١٩٩٢م من تصرفات خلفه لاحقاً. وأثناء الحملة الانتخابية
الرئاسية عام ١٩٩٢ فلتقد بول كلينتون حاكم أركانسو سياسة الرئيس تجاه الصين، وزعم أنه
فرط لصالح أصدقائه في الصين. وبعد عام تبلى الرئيس كلينتون سياسة الرئيس بوش بربط
التقدم في حقوق الإنسان في الصين بتجديد وضع الدولة الأولى بالرعاية. وبعمله هذا فإنه
يكون قد اعترف ضمناً بأن سياسة بوش بهذا كل ما يمكن لتحسين وضع حقوق الإنسان في
الصين دون تدمير للعلاقات الاستراتيجية كانت هي الطريق الصحيح بالنسبة للولايات
المتحدة.

وفي كانون الأول ديسمبر أعاد الرئيس إيفاد كل من إيجليبرجر وسكوكروفت إلى بكين
مرة ثانية. ولموء للحظ أثارت للزيارة جدلاً جديداً بعد أن سمح الصينيون بالتغطية الإخبارية
للبادل الأنحاب في قاعة الشعب الكبرى. وهامهم ملتقوننا يعاونون اتهامنا مجدداً بالاتفاق مع

القتلة . ولو كانت للزيارة قد أحيطت بالسرية كالزيارة الأولى لنقادينا تحولها إلى قضية جانبية أعطت منقادينا ذخيرة جديدة* .

ومع هذا نجحت الزيارة في إقناع الصينيين - وكما قال للرئيس في خطاب تنصيبه - بأن حسن النية يولد حسن للدية . وفي ١٩ كانون الأول ديسمبر ألقى للرئيس خطاباً عرض فيه الكونغرس علي فروض بنك الاستيراد والتصدير للشركات التي تتعامل مع الصين ، وأعلن علانية بيع ثلاثة أعمار صناعية للاتصالات ليكين . وليس من قبيل المصادفة بأن حال أن ترفع الأحكام العرفية بعد ثلاثة أسابيع ، وأن يعاد فتح ميدان تيانانمن للجمهور للمرة الأولى منذ المذبحة . لقد نجح نهجنا تجاه هذه الأزمة - رغم انتقاد عديدين - بالعودة بالعلاقات إلى عقود خلت . ونجحت حكمة هذا النهج - برغم عدم وجود طريقة بالطبع لإثباتها في حينه - مع نهاية العام بشكل مفاجئ عندما كان صوت الصين في مجلس الأمن الدولي حاسماً لحل أزمة الخليج .

* في المؤتمر من كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩م الذي ظهر في برنامج «هذا الأسبوع» مع ديفيد بيرنكي أثناء لخطب إيجاهيرجر وسكوكروفت رابرتهما الثانية لكنها عطية هذه المرة ليكين ، قلت بتقائية لهرينكي . إن هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها مسؤولون علي مستوى رفيع بزيارة الصين منذ المذبحة . وبعد أسبوع كشفت شبكة سي إن إن ، الزيارة الأولى التي قام بها إيجاهيرجر وسكوكروفت . لقد كانت السرية الضرورية حول الزيارة الأولى مطلقة لدرجة نسبتها بكل محي الكلمة أثناء لقاءات التلفزيون مما اضطر إلي لهرينكي التكلم لاحقاً .

الفصل الثامن

الشرق الأوسط

الوضع في المستقبل

عذني لأي مكان شرق السويس حيث يستوي التبعث مع
الطبيب.

رونيارد كيلينج

علينا أن نشرق بون أخذ زمام المبادرة وبين طرح مبدئية.

تقرير مجلس الأمن القومي / ٧ / من الشرق الأوسط
٢٩ آذار مارس ١٩٨٩

مدد اليوم الأول كانت عملية السلام في الشرق الأوسط آخر شيء أردت أن أعالجه. ومع ما بدا أنه حرص تاريخية وجذرية متاحة في العلاقات بين الشرق والغرب كنت أرى صراحة أن الصراع العربي الإسرائيلي فتح يحسن تطلبه لا فرصة يجب انتهازها.

يرجع أساس هذا التقويم الواضح والنقطة إلى النتيجة التي خلصت إليها بأنه لا يوجد دليل حقيقي يدعو إلي الاعتقاد بأن الأجواء مهيأة لإعطاء أي زخم لسراع طالما تمدى الحلول قرابة نصف قرن. وعزز قناعتي أيضاً خبرتي الخاصة كرئيس لهيئة موظفي البيت الأبيض أثناء فترة رئاسة ريجان الأولى حيث لم تكتمر الدبلوماسية الهجومية جيدة الإعداد سوى عن الجمود. كما أن التدخل السأسري في لبنان انتهى بالهجوم الإرهابي علي ثكنات مشاة البحرية في بيروت الذي لودي بحياة ٢٤١ أمريكياً.

وأذكر تطيقاتي عدة مرات للوسطيين الموفقين بأن كافة وزراء الخارجية انزلقوا لاصحالة في الشرق الأوسط حيث انفقوا الكثير من الوقت والجهد الذي لم يخل سوى حيلة احتمالات للجراح وأفاق صغمة لغوية الأمل. وكنت عاكفاً العزم علي مقاومة لرديد نغمة إسرائيل وجبراتها للعرب وخاصة عندما يبدو أن أي جانب غير معني بدراسة الاختيارات السياسية الصعبة الضرورية لخلق عملية سلام حقيقية.

وشجمني في هذا الصدد المشاورات التي أجريتها قبل إقرار تعييني مع الرؤساء ووزراء الخارجية السابقين تحدث كلهم عن مسألة الشرق الأوسط بلهجة حذرة، لهجة من أكنوت أيديهم بديران التورط في معالجة القضية. وكان موقع كان ريتشارد نيكسون أكثر الجميع صراحة ووضوحاً حين قال: «إن ريجان هو أكثر الرؤساء الأمريكيين تأييداً لإسرائيل في التاريخ. إن الوقت قد حان لنقدر من الإنصاف هناك. لكن الشرق الأوسط قضية تستعصي علي الحل فلتبقى بعيداً عنها».

كنت متيقناً من أنها نصيحة حكيمة. لكني أعرف أيضاً أن منطقة الشرق الأوسط منطقة حيوية للمصالح الأمريكية ووزرة لشمال أبدية فرضت أزماتها دائماً علي أسلافي ووزراء الخارجية الالفتات إليها.

فعملية السلام هي أيضاً أحد عناصر السياسة الداخلية بسبب علاقتنا الاستراتيجية الخاصة مع إسرائيل، والفترة السياسية التي تعطي بها للجالية اليهودية الأمريكية. ولم يكن أمامي من خيار سوى أن أقود هذه القضية أو أن أدعها تقودني. وسواء أكرهها أو أحببتها فلم أملك ترف تجاهلها كلية.

وهكذا وبينما ركزت الدبلوماسية الأمريكية علي علاقتنا مع الاتحاد السوفيتي خلال عام ١٩٨٩م سعياً إلي إبادة هذه القضية بانتهاج ما يمكن وصفه بسياسة نشطة باعتدال في الشرق الأوسط. ولانتهاء أي سبب خاص يدعوني إلي الاعتقاد بأن جهودنا ستقود إلي وجهة محددة، قررت عدم انتهاج سياسة الدبلوماسية المكونية، وأجفت للقيام بأي زيارة للمنطقة حتي تكون الظروف أكثر مواتية. ومع ذلك وخلال الفترة ما بين شباط وأذار مارس ١٩٩٠ حاولنا الترويج لإجراء حوار بين إسرائيل والفلسطينيين وللحصول علي اقتراح إسرائيلي ولو متواضع بإجراء انتخابات في الأراضي المحتلة. وبينما أحرزنا بعض النجاح مع الفلسطينيين تبددت جهودنا نتيجة لعزوف رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق شامير عن دعم مبادرته الخاصة، وما لبثت أن انهارت هذه الجهود برمتها إثر رفض شامير قبول خطة وسط كنا سنوصل إليها مع وفد فلسطيني من الأراضي المحتلة بإجراء مباحثات سلام. وأصابني هذه التجربة بانتشاز من مستنقع الشرق الأوسط وتكررت في حينه لعدم الانقياد لغرائزي الأصلية بالابتعاد عنه. وفي ذلك الحين أيضاً تعلمت عدداً من الدروس القيمة سوف تساعدني في وضع استراتيجية بشأن الجهود المستقبلية تجاه عملية السلام في الشرق الأوسط.

علي طريق البحث عن بداية

في البداية كان للرأي التقليدي الذي يعتقد حبراء الشرق الأوسط بالإجماع أن احتمالات تحقيق انفراجة جوهرية هي احتمالات قائمة في أحسن الأحوال. فالسلطة في

إسرائيل تمسك بها حكومة وحدة وطنية برئاسة رئيس وزراء متشدد يفضل وفقاً لتوجهاته الاحتفاظ بمعظم الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب عام ١٩٦٧. كانت إسرائيل ومصر قد توسلتا إلى السلام لكن أياً من دول المواجهة العربية الأخرى لم تكن معنية علي ما يبدو بالبحث عن أسس مشتركة. وظلت منظمة التحرير الفلسطينية متمسكة بهدف تدمير إسرائيل، أما الرئيس السوري حافظ الأسد فقد تعهد بالتوصل إلي التوازن الاستراتيجي مع العدو الصهيوني، وواصل العرب مطالبتهم بعقد مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط تحت رعاية الأمم المتحدة وهي فكرة مرفوضة تماماً من جانب حكومة الوحدة الوطنية التي يرأسها شامير ومن للجانب الأكثر برلمانية في حزب للعمل. وأوضحت كافة الأدلة أن أي استخدام مكثف للدبلوماسية سيمنع هباءً.

ووسعت مذكرة أعيدت لعرضها علي اجتماع لمجلس الأمن للقومي في أولئ عام ١٩٨٩ الواقع كالآتي، إن الولايات المتحدة في موقف يمكنها من ممارسة القيادة في المنطقة. وهذا لا يعني مع ذلك إن الوقت ملائم لطرح مبادرة دبلوماسية رئيسية جديدة. فأىحلة جديدة ستؤدي إلي تصف كافة الأطراف وتستقطب المعارضة حولها. وسوف يركز زعماء المنطقة علي تفاصيل الغلبة بدلاً من التركيز علي تهوية الظروف الحقيقية اللازمة لإحراز تقدم تهاء إجراء مفاوضات.

ومع ذلك فإن دينيس روس كان يعتقد أن الانقفاضة الفلسطينية في الأراضي - والتي كانت في عامها الثاني حينئذ - قد خلقت ديناميكية جديدة معقدة يعمين دراستها بحذر شديد. وشاركه في رأيه كل من بيل بيريز ودان كروتزير وآرون ميلر من إدارة التخطيط السياسي وجون كيلي مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. وكانت حججهم أن الانقفاضة تمثل مصدر القلق المتزايد داخل صفوف حكومة الوحدة الوطنية التي يرأسها شامير. ومع احتدام الانقفاضة الذي استتبع تصاعد حدة القمع في شكل الاعتقال الإداري والإبعاد بدأ الاستقطاب في الجدل الداخلي في إسرائيل. وطلب حزب العمل الإسرائيلي بالتوصل إلي حل وسط مع الفلسطينيين وهدد بغض الائتلاف الحاكم مالم يخفف شامير من أحلامه بإقامة «إسرائيل الكبرى» المأهولة بعشرات من المستوطنات الجديدة في الأراضي. علاوة علي ذلك أبلغت للقرات المسلحة الإسرائيلية، وإسحاق رابين وزير الدفاع البرلماني،

شامير بعدم توفر حل عسكري: فوقف الانتفاضة لا يحققه إلا حل سياسي. وكانت كل تلك العناصر تشكل صفعاً علي شامير لانتهاج توجه أكثر مرونة تجاه الأراضي.

وعلي أرض الواقع أظهرت الانتفاضة وجود اختلاف بين منظمة التحرير في تونس وبين الفلسطينيين المقيمين في الأراضي. فالانتفاضة حركة شعبية نابعة من الداخل لم يخطط لها في الخارج بل من المدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة. وأثار هذا الواقع المجرد احتمال أن يكون فلسطينيو الأراضي علي استعداد في المدى البعيد للتفاوض لتقرير مصيرهم دون إنتظار لتحرك منظمة التحرير الفلسطينية. فإذا قرر فلسطينيو الداخل فعل شيء ما لأنفسهم فسوف تتكلم سلطة منظمة التحرير الفلسطينية. وفي الوقت الذي لن يتفاوض فيه الإسرائيليون مطلقاً مع منظمة التحرير الفلسطينية فيما يتم إغراؤهم للجوس مع الفلسطينيين بدون مسئولية منظمة التحرير الفلسطينية. وينبغي أن تركز الاستراتيجية الأمريكية علي التوسط لإجراء حوار فلسطيني إسرائيلي، ولحسم الحظ وبفضل جهود سلفي جورج شولتز ووسطاء سريدين تهيأت لنا وسيلة متوازنة في هذا الصدد.

ومنذ كانون الأول ديسمبر ١٩٨٨م بدأ روبرت بيليترو سفير الولايات المتحدة لدي تونس في إجراء حوار مع مسئولين أدني مستوى في منظمة التحرير الفلسطينية. واستبعد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية تماماً من هذا الحوار. فقد كانت سمعته كإرهابي متأسلة لدي الرأي العام لدرجة لم تستطع أي إدارة أمريكية معها علي الإقدام علي التعامل معه صراحة. ومع ذلك فإن يكون هناك حل متاح دون موافقة الخاصة علي إجراء حوار منفصل بين إسرائيل وفلسطينيين من الداخل. وفوضتني السياسة التي وافق عليها الرئيس في أوائل عام ١٩٨٩ بالبحث عن أساس مشترك يمكن أن يقبل به الفلسطينيون والإسرائيليون. وسواصل الحوار الأمريكي مع منظمة التحرير الفلسطينية علي المستوى الأدنى، وسوف يتكفل المصريون بالمباحثات المباشرة مع عرفات. وكان هدفنا الأساسي التكتيكي هو إقناعه بقبول إجراء مفاوضات بين إسرائيل وفلسطيني الداخل. وفي الواقع كنا نطلب من عرفات تجريد نفسه من صلاحياته إستناداً إلي الموامة السياسية: فن تقبل أي حكومة يرأسها شامير مطلقاً للتفاوض مع منظمة التحرير. ولجعل هذا للدواء مستساغاً لعرفات كنا في حاجة لمجموعة أفكار إسرائيلية جديدة بالغة.

وخلال الفترة الانتقالية بين إيلرتي ريجان ويوش قدم مسئولون إسرائيليون بمصر
الإشارات للغامضة عن خطة جديدة للسلام، وتم إيلاغى بأن الإسرائيليين يدرسون المبادرة
بهبود بخطة سلام وقائية لأنهم غير واثقين كما أنهم متشككون بمصر الشيء من توليا
الرئيس وبولايى أيضاً. فهم يعرفون أننا لفتحنا علي الرئيس ريجان ليطلب من مناهم بيجن
إنهاء غزوه الدلى للبدان صيف عام ١٩٨٢. وهم يعرفون أيضاً أننى قدت ولقا رئيس لهيئة
موظفى البيت الأبيض الجهود التشريعية الاستراتيجية لتأييد قرار الرئيس ريجان للسماح ببيع
طائرات أولكن للعبودية السعودية عام ١٩٨٨. ومع ذلك كنت أشعر بأن مخاوف إسرائيل منى
ومن الرئيس تعتمد جذورها أساساً من أسطورة علاقاتنا المستتجة بالعرب نتيجة نشأتنا فى
تكساس. وفى الحقيقة كان كلانا يعتبر إسرائيل حليفاً قريباً وشريكاً استراتيجياً نلتزم بالحفاظ
علي أمنه ووجوده. لكن من الحقيقى أيضاً أن كلينا يعتقد أن السلام لا يمكن أن يحل مطلقاً
فى الشرق الأوسط مالم تبد إسرائيل استعدادها لقبول مبدأ الأرض مقابل السلام المنصوص
عليه فى قرار مجلس الأمن الدولى رقم ٢٤٢ وهو الأساس الذى استندت إليه السياسة
الأمريكية خلال كافة الإدارات السابقة. سواء أكانت ديمقراطية أم جمهورية.



وفى ١٣ آذار مارس التقيت فى مكتبى مع موشيه أرينز وزير الخارجية الإسرائيلى الذى
جاء من إسرائيل للإعداد لزيارة شامير واشنطن بعد ثلاثة أسابيع. وكان أرينز قد درس
الهندسة فى الولايات المتحدة، وقد سبق أن التقيته عندما كان صغيراً لإسرائيل لدى الولايات
المتحدة. وتوقع التقرير الموجز المبروض أسامى أن أرينز يريد تحديد لعد الأذى الذى
يتسبب علي إسرائيل عمله لتشاركنا فى صنع عملية السلام. وإلى جانب ضمان أرينز بالقيام
أمريكا الصلب بأمن إسرائيل كان هدفى الأساسى هو نقل رسالة له أننا نتوقع أن يصل شامير
إلى واشنطن حاملاً معه علي الأقل إعلاناً علماً لتوليا تجاه الأرضى.

وأردت أن يعرف أرينز أن الولايات المتحدة مستعدة لأن تكون شريكاً لإسرائيل فى
صنع السلام، وقلت له: لكن لا يمكنكم أن تتركونا مكشوفين. لا يمكنكم أن تتركونا عراة.

عليكم أن تعملوا شيئاً يمكن العمل معه، كان آرينز عضواً متشدداً بالليكود رغم أنه لم يكن متصلياً مثل شامير. ولم يكن كرئيسه معنياً بشكل خاص بهذا محاولات جادة علي طريق السلام. لكنني أحببته واعتقدت بأنه سيتعامل معي بصراحة.

ولتعزيز الرسالة التي نقلتها آرينز كديت إلي شامير في ٢٤ آذار مارس بتكليف من الرئيس أبلغته بأنه يتعين عليه وعلي الفلسطينيين التوصل إلي طريقة للتبادل للحدوث بها. وأصفت قائلاً: «لقد أبلغكم شعب إسرائيل بتوخي الحذر والصرامة وتلك نصائح مغلصة. لكن أعتقد أيضاً أنهم وجهوا رسالة إلي جيرانكم بأن السلام ممكن شرط أن يوضح الفلسطينيون أنهم شركاء في تحملون المسؤولية. فهذا هو معيار الالتزام الذي يمكنكم أن تقرروه كرجل دولة من خلال الدبلوماسية. وهذا شيء يمكن لولايات المتحدة وإسرائيل تحقيقه باعتبارهما شريكان استراتيجيان».

نقاط شامير الأربع العاصمة

سبق أن التقيت بإسحاق شامور ذات مرة لقاءً عابراً في السطوات الأولى لحكم ريجان. كان شامير وزيراً للخارجية في حكومة إسرائيل المتشددة برئاسة مناحم بيجن والتي ضمت آرول شارون وزيراً للدفاع. وكانت مقتنعة بأنه من الصعب الحديث معه. بل ومن الشاق التأثير فيه. ويرغم هذا أردت بذل محاولة لإقامة جسر من الثقة الشخصية، وهكذا فقد بدأ أول اجتماع بيننا في ٥ نيسان إبريل ١٩٨٩ باقتراح نوع من الأساس المشترك.

وقلت: «السيد رئيس الوزراء: يعرف كلانا أن من عادة وسائل الإعلام تلقف الأخبار لتبادر بإذاعتها، وأنتك توصف لي بأنك رجل متحمك بالمبادئ لا يستطيع أن يكون رجلاً عملياً. والمزجج أنني أوصف لك بأنني رجل غير معني بالمبادئ كلية لا يشغلي سوي أن أكون رجلاً عملياً. دعني أتل لك، إنني مثلك رجل أكثر ما يديه المبادئ لكن أعتقد أيضاً أنه يجب عليك أن تكون عملياً لو أردت تحقيق مبادئك. بل إنني أعتقد أنكم شخصية أكثر عملية عما هو شائع عنكم. ولأري أنني قد أستطيع أنا وأنت أن نفاجئ الناس بالعمل سوياً. وضحك

شامير. وقال: «السيد وزير الخارجية: حسناً ربما كان الأمر كذلك. إنني أكثر واقعية عما يعتقد الناس» وقلت لشامير: «إبني أعرف أنك جئت تحمل بعض الأفكار. ونحن نريد معرفة ما تحملون لدروج له لدى العرب. تكن عليكم أن تقدموا لنا شيئاً ما». ورد شامير: «إنني أريد أن أقدم لكم شيئاً، لكنني لا أريد أن أعطيكم شيئاً يفتقر منا، ولا أريد تقديم أي شيء لمنظمة التحرير الفلسطينية». وردت بأن الطريق الوحيد لإحراز تقدم هو طرح خطة يمكن للفلسطيني الداخل اللقطة بها. وقلت: «إذا أفرطت في تكبير القصبة. فسوف نضع منظمة التحرير الفلسطينية في موقف يتيح لها عرقلة ما في وقت يوجد فيه زخم مؤكد (داخل الأراضي) لتتحرك قديماً».

ويسمى القول أن منطقتي أغري شامير. وفي الوقت نفسه كان من الصعب عليه قبوله. ولست تناقشاً صارحاً لدي الرجل. فقد بدا موزعاً بين الرغبة في عمل شيء ما والفرع حتى الموت من سقبة الإقدام علي عمله. وعقب لقائه مع التريث كشف شامير عن خطة النقاط الأربع، وأهمها إجراء انتخابات في الأراضي لاختيار ممثلين لإجراء مباحثات سلام مع إسرائيل. كابت الإدارة قد أوصحت إلي موافقتها علي الخطة قبل وصول شامير في الأحاديث الخاصة علي مستوي العاملين. لكننا نعرف أنها خطة ضعيفة سيكون من الصعب إقناع العرب بها. فالخطة تملو من أي التزام حقيقي بإجراء مباحثات للتقرير الوضع النهائي، ولا تنصص سوي تعميمات حول كوفية إجراء الانتخابات. فلن تترك الخطة أي لنتباع لدي العرب. فخلال زيارته لولنطن في اليوم السابق قال حملي مبارك إنه يتعين علي إسرائيل أن تتباحث مع منظمة التحرير الفلسطينية وليس مع الفلسطينيين. وفي الحقيقة فإن هناك علي الأقل خطة إسرائيلية. وبشيء من التهذيب البارح والمنكة للدبلوماسية بات لدينا الآن شيء يمكننا به مجابهة الفلسطينيين وأصدقائهم المصريين والأردنيين لكي يستجيبوا له بقدر مماثل من المرونة. لم تكن غارقين في أية أوهام. لكننا كنا علي استعداد وفي لهفة للمحاولة.



وعلي مدي الأعوام الثلاثة التالية خضعت صراعات مريرة مع شامير، ولا سيما حول القضية المتواصلة المتعلقة بالمستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. لكنني أعتقد أن هذا

اللقاء الأول أحرز نجاحاً رمزياً. وكما نكزت في منكرة للرئيس «أعتقد أننا أضنا علاقة ثقة وهو أمر ضروري إذا أردنا أن نهيئ أية فرصة لحلحلة شامير بمرور الوقت،

إنها مجرد بداية، فشامير قد منحنا شيئاً لنسوّفه» وقال إنه مكتفين من أن حالة الأمر الواقع غير مقبولة. لكن هناك طريقاً طويلاً يتعين قطعه. وعقب اجتماعه مع شامير أكد الرئيس بوش مجدداً معارضته أي ضم إسرائيلي من جانب واحد، أو احتلال لكامل الضفة الغربية وقطاع غزة، وبادر شامير بالرد بأنه يتعين على إسرائيل ألا تتحلى عن تلك الأراضي مطلقاً.

وفي رسالة «إلي الوزير ميشا» في ٢٤ نيسان إبريل أبلغت آرينز بأن اقتراح شامير بإجراء الانتخابات بشكل «خطوة إيجابية». كما أبلغته أيضاً بأنه يتعين البحث عن «طريقة خلاقة» لمعالجة القضية بالسماح لفلسطينيين لا يقيمون في الأراضي بالمشاركة في العملية. وكنت شديد اللومح حول نقطة أخرى مدار خلاف بين حكومتنا وكنت له «أعتقد أنه يتعين إيجاد طريقة للسماح لسكان القدس الشرقية بالمشاركة في (الانتخابات)». وكان من الواضح لي أن قضية التمثيل ستكون أصعب القضايا التي سيتعين معالجتها، وحتى في هذه المرحلة المبكرة أردت التأكيد علي ضرورة أن يبدأ إسرائيل قديراً من الإبداع في هذه النقطة بمد شرطاً جوهرياً لأي تحرك.

داخل عربين الأسد مع إيهاك

في الرابع عشر من أيار مايو أقر مجلس الوزراء الإسرائيلي رسمياً خطة للنقاط الأربع لشامير. وعلي الفور تقريباً بذلت الحكومة لتراجع عما طرحته بنفسها. ففي خطاب ألقاه أمام الكنيست بعد يومين فقط أعلن شامير انتهاء خط متشدد مع فلسطيني الداخل. وبعد أن حذر رابين من أن الفلسطينيين قد يحرمون من «ميرة العمل في إسرائيل إذا رفضوا خطة السلام، أعيد آلاف العمال العرب إلي منازلهم في غزة لفترة مؤقتة تذكرهم لهم بوضعهم كخاضعين للاحتلال. وأثارت هذه التصرفات حلق المصريين والفلسطينيين وقوضت جهود الولايات المتحدة لإقناعهم بأن مبادرة شامير جديرة بالقبول.

وبالمصادفة كان من المقرر أن ألقى كلمة أمام المؤتمر العيساي السنوي للجنة العلاقات العامة الإسرائيلية الأمريكية «إيباك» في ٢٢ آيار مايو. وحلّى العاملون معي علي أن أنتهز هذا التدويرت للعين لإصلاح الضرر الذي أحدثته للتطورات في العالم العربي وإعادة للزخم العملية والتأكيد في الوقت نفسه مجدداً علي الالتزام الرئيس القوي بأمن إسرائيل.

وكنا نريد توجيه رسالة إلي العرب بأنه في الوقت الذي نؤيد للخطة الإسرائيلية بقوة فإننا نعتزم مواصلة عملية للسلام كوسيط أمين. وقررنا التركيز علي إعداد قائمة بالتحديات السياسية الصعبة التي يدعي أن يجابهها الجانبان ويتغلب عليها للوصول إلي تسوية شاملة للصراع. وكنت أعرف تماماً أن الحضور سيكونون أكثر تحمساً لتوصياتي للعرب - مثل رفع المقاطعة المفروضة علي إسرائيل ونبذ الانتفاضة- عن أي اقتراحات أوجهها لحكومة شامير. لكنني كنت عارماً علي أن يكون الخطاب متوازياً. مدركاً تمام الإدراك أن الدوازن في هذا السياق قد يفسر بأنه أهد ما يكون عن الفضيحة. ولا يزال الخطاب يذكّر حتي اليوم أساساً بسبب احتوائه علي عبارة وحيدة حددت السياسة الأمريكية طويلة الأمد بصياغة مجردة من الماطفة: «لقد حان الوقت الآن أمام إسرائيل لتتخلى ولأبد عن فكرة - إسرائيل للكبري - غير الواقعية. أن تتدخل عن العزم» وتوقف للنشاط الاستيطاني، وتسمح بإعادة فتح للمدارس في الأراضي، والنظر إلي الفلسطينيين كجيران يستحقون التمتع بحقوق سياسية».

ورغم المسميت الصديق الذي ران علي الحضور ١٢٠٠ شخص خلال قراءتي لتلك الفقرة فقد استقبل للخطاب استقبالاً جيداً. وحقب للنهاي من إلقاء خطابي لمعظمي كل أعضاء مجلس إدارة اللجنة تقريباً بالإشادة. وكان توم ديني المدير التنفيذي لأيباك أكثرهم حماسة في الإطراء. وقال: «إن هذا خطاب عظيم. بل وربما كان أعظم خطاب علي الإطلاق، ومع ذلك وسيراً علي أحد تقاليد واشنطن للعتيبة سرعان ما بذلت (لوبيه) غذاها تنقل حفة من القياتل الوسطي في أيباك بين المولدد تشكو من أن خطابي كان عنيفاً بدون مبرر. ووجد المنشقون المهيجون حليفاً جاهزاً في جون جروشكو من صحيفة واشنطن بوست الذي أبلغ عدة أصدقاء من بين الحضور أنه أعطف خطاب حول إسرائيل يسمعه خلال عقدين من تخطيطه للقضية. وخلصت صحيف الصباح إلي أن رسالتى كانت موجهة إلي إسرائيل في المتنام الأول».

وفي غضون ثمان وأربعين ساعة كان رد فعل ديني أكثر حذراً فقد تارت ثائرة الطائفة اليهودية الأمريكية، وندد شامير بتصريحاتي باعتبارها «عقيمة». وبعد أربعة أيام تلقيت رسالة من أرينز. قال فيها: «لبنى واثق من أنكم لن تقاؤوا بأئنى وجدت أن مضمون ولهجة خطابكم محببة للأمال إلي حد بعيد، ووجدت نفسى وقد اعترتني خيبة أمل معاتلة من رد أرينز. وحلال اجتماعنا برأته فى عدد من المسائل إلي حد إغفال الإشارة شخصياً إلي القرار رقم ٢٤٢ بناءً علي طلبه فى البيان المشترك الذى صدر عقب الاجتماع. وعلي النقيض فلم يعاملنى بالمثل واختار خطأ الاعتقاد بأن الخطاب كان محاولة لكى أنأى بنفسى عن مبادرة السلام الإسرائيلية.

محاولة لتخفيض حمي المستوطنات

وخلال تلك الفترة عرقل شبح المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة باستمرار جهودنا لتوليد زخم جديد. فالحكومات الإسرائيلية المتعاقبة زادت النشاط الاستيطاني بإطراد فى الضفة الغربية وقطاع غزة رغم القلق الإمبريكي المتكرر. فقد أعلنت إدارة كارتر عدم شرعية تلك المستوطنات. وحتى إدارة ريجان كانت متفقة علي أنها تشكل «عقبة علي طريق السلام».

وفي أوائل عام ١٩٨٩ م أجزيت مناقشات غير رسمية بينى وبين الرئيس وسكوكروفت حول تشديد السياسة. ولتفقنا جميعاً علي ضرورة طرح حجة قوية بعدم شرعية المستوطنات. لكننا كنا علي يقين أيضاً بأننا لن نجدي شيئاً من دخول مواجهة مع حكومة شامير حول هذه القضية. وعلي النقيض فإنها ستعلق تعقيدات داخلية لنا مما سيزيد من صعوبة طرح أى مبادرة سلام. وهكذا فقد قررنا الاحتفاظ بصيغة ريجان. ولم يساورنى أدنى شك بأن المستوطنات تشكل علي الأقل عقبة خطيرة علي طريق السلام. وفيما كنا نعرب عن عدم سعادتنا بشأن المستوطنات عند سؤالنا كنت أعتقد أنه من المهم أيضاً تهميش هذا الحلاف لخدمة الهدف الأكبر بئث الحياة فى عملية للسلام المتحضرة.

كان هذا اقترافاً أكثر سهولة في مثاليته، وخاصة في ضوء اعتقاد الرئيس القوي بخطأ إقامة المستوطنات. ولمواءم الحظ تعزز رأيه المبدئي تجاه المستوطنات من اعتقاده بأن شامير لم يكن صريحاً معه في هذا الصدد، وهو إحساس يحتمل أن يكون مرجعه أول لقاء بين الرئيس وشامير في ٦ نيسان لإيرل ١٩٨٩ ففي هذا الاجتماع أبلغ الرئيس شامير بأن المستوطنات بالغة الأهمية بالنسبة له.

وفي البداية فصح شامير إلي أن هذه قضية داخلية بحتة وليس للولايات المتحدة دخل بها. فقد قال شامير: «لديكم ما يشغلكم، ولدينا ما يشغلنا، فلا تدعوا هذا يشغلكم». وفي ضوء حقيقة أن حجم مساهمة دافع للصرايب الأمريكي في المساعدة المالية لإسرائيل بلغ في ذلك الوقت أكثر من ألف دولار لكل مواطن إسرائيلي في العام فلم يكن يوش مستعداً لقبول هذا العرض القاطع من جانب شامير. وعندما وأصل الرئيس إظهار قلقه قال شامير في النهاية: «لا تفتق، لن تكون هناك مشكلة»، وأبلى الرئيس فيما بعد أن شامير ترك لديه انطباعاتاً قوياً بأنه سيتم وقف انتشار بناء للمستوطنات.

وبعد أسبوعين أنشئت مستوطنات جديدة في الضفة الغربية. ويات من الواضح بسرعة أن شامير عازم علي توسيع المستوطنات بسرعة قياسية. مواء بضبط أو بإيعاز من شارون وزير الإسكان في حكومته. وخلال تلك الفترة، وبينما أنا منهمك في البحث عن مبادرات دبلوماسية بين الفلسطينيين والإسرائيليين محمي النشاط الاستيطاني علي قدم وساق. وبين الحين والآخر بدأت تعرضني علي الرئيس خرقات المستوطنات الإسرائيلية وعليها علامات باللون البنفسجي. ومع التزايد المطرد للمساحة المملوطة باللون البنفسجي في كل خريطة تعمق إحساس الرئيس بخيانة شامير له. وتكرر بشكل حاس عندما علم في الثاني من آذار مارس أن شامير أبلغ بيل برون سفير أمريكا لدي إسرائيل بأن المستوطنات «لا تتهدد زلزالاً» بالنسبة للرئيس وفي مناسبات عدة أبدي كلانا اعتراضاته لشامير. وفي بعض الأحيان كان يسارع إلي تغيير الموضوع. وفي مناسبات أخري كان يعرب عن عدم موافقته سراً، أو يلقي المسؤولية علي شارون. غير أنه لم يقل شيئاً حيال القضية باستثناء سماحه بإقامة المزيد من المستوطنات. وأحياناً كان الإسرائيليون يبنون المستوطنات دون أن يتكلم إليها شخص واحد.

وفي ذلك الحين كان من الصعب عدم الاعتقاد بأن حكومة شامير تعرب ببساطة عن استحقاقها بالمصالح الأمريكية. وشعر الرئيس بأن شامير لا ينبغي في مستواه، ويبدو أن كل رفض جديد قد عمق الكنافر للشخصي بينهما.

رد بضاعة شامير إليه

خلال صيف ١٩٨٩م واسلت الدبلوماسية الأمريكية مساعيها بوثيرة أكثر هدوء. وكذبت بعض الرسائل وأجريت بعض المكالمات الهاتفية لتعزيز ما كنا نقوله علي مختلف المستويات.

وكان وقت المصريين والفلسطينيين لإعداد خططهم للإعراب عن حسن نواياهم. وفي أوائل ثور يوليو اقترح مبارك خطة النقاط العشر محدداً شروطه لإجراء الانتخابات، وتمثلت الخطة أيضاً وقف بناء مستوطنات جديدة ومشاركة فلسطينيين من القدس الشرقية ومن الخارج في العملية. وكان اقتراح مبارك يهدف إلي إعادة صياغة خطة شامير في صورة يقبل بها المعتدلون العرب والإسرائيليون. لقد استُجِبت - في الحقيقة - بمُدْخَلَاتٍ خاصة مهمة من إسرائيليين وأعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية. وبينما لم يقبلها شامير إلي حد كبير كان للخطة فضيلة دبلوماسية شملت في الإبقاء علي العملية قيد الحياة.

ومع أوائل الخريف أصبحت مقتنماً بأن الأسس باتت مهياً الآن لمزيد من التقدم، وأنه يتعين تكثيف المساعي الدبلوماسية الأمريكية. وكنت مقتنماً بأن هناك طريقة لسد الفجوة بين خطة النقاط الأربع لشامير وخطة النقاط العشر لمبارك. وكان الجانبان علي استعداد الآن لإجراء مزيد من المباحثات. وقررنا أن نقترح أن يجتمع وزيراً خارجية مصر وإسرائيل معي لاستطلاع سبل حل قضية التمثيل للفلسطيني. وفي ٢٨ أيلول سبتمبر اجتمعت في نيويورك مع آريئيل روزينر وزير الخارجية المصري عصمت عبد المجيد لوضع مبادئ عرب بعد ذلك بخطة النقاط الخمس لببكر، وكان أهم بتوحيها عقد اجتماع في القاهرة بين إسرائيليين وفلسطينيين

ليده حرار مباشر في النهاية. واتفقنا علي أن مصر إن تكون بديلاً للفلسطينيين، لكن يمكنها أن تكون وسيطاً معهم. كما أن إسرائيل لن تحضر إلا بعد الموافقة علي قائمة تضم شخصيات فلسطينية مرصية غير أعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية. فضلاً عن ذلك فإن كل الأطراف ستقبل بحلة شامير كأساس للمفاوضات، لكن سيكون للفلسطينيين الحرية في إثارة أفكارهم الخاصة بالانتخابات وعملية التفاوض. وأخيراً يعاود وزيراً خارجية مصر وإسرائيل الاجتماع معاً في واشنطن في غضون أسبوعين لتسهيل العملية.

وكانت خطة مقولة إلي أنصبي حد ألتاحث لإسرائيل بالفعل استخدام الفيدر علي تشكيل الوفد الفلسطيني. كما سمحت للفلسطينيين إثارة قضية الوضع النهائي للأراضي وهو ما كانت إسرائيل تعارضه تقليدياً. لأن أحد النتائج المحتملة قد يكون إعادة الأراضي. ومع ذلك كان أرينز وعبد المجيد يعتقدان أن هذا الحل الوسط سيحظى بالقبول في بلديهما.

وسرعان ما تسرب الاقتراح للصحافة، وفي ١٦ تشرين الأول أكتوبر رفضه شامير قائلاً في حديث صحفي: أنه لن يقبل بأي حل وسط مع الفلسطينيين حتي لو أدى ذلك إلي إنهيار حكومته واحتدام الخلاف مع الولايات المتحدة. ولم أكن سعيداً علي الإطلاق للتناقض تصريحاته تماماً مع التلميحات التي قدمها لي أرينز سراً. لكن أشد ما صليقني هو أن شامير سيعتد تمفظاته علانية قبل أن يتصل بنا سراً. وملكني اعتقاد بأن شامير يحاول وأد المبادرة الأمريكية في مهدها. ولتأيت الرئيس نفس للدرجة من الضيق. وفي الصباح التالي اتصل بشامير الذي سمعي علي الفور إلي الإفلات من صيقنا بتوجيهه للشكر للرئيس لمساعدته العنة والإصراره وقال: «إننا ملتزمون بمبادئنا السلمية نصاً وروحاً» ولم يكن مقتنعاً علي أية حال.

وتعداه الرئيس قائلاً: «إن هناك إحساساً بأن إسرائيل تبتعد حتي عن موقفكم الخاص. إن خطة جيم بيكر الشماسية تبعد قلقكم وتحمي إسرائيل. أنتم تعرفون مع من ستباحثون وعما ستباحثون. لقد استثمرنا الكثير في هذه المبادرة. إننا لا نحاول إجباركم علي التباحث مع منظمة التحرير. لكننا نريد ألا يحدث تأخير في الرد الحقيقي علونا حول تلك النقاط. فلو أعمليتُمونا رداً إيجابياً فيوسع الولايات المتحدة وإسرائيل حينئذٍ التحرك معاً. وإلا لم تردوا صوب نفس عدم الرد بأنكم لا تريدون التحرك قدمة».

والتزمت نبرة شامير جانب الدفاع بقدر الكبير. وأكد: «إننا لا نتراجع عن مبادرتنا... لكننا لن نجتمع مع منظمة التحرير الفلسطينية. وسيسعدني أن يتصل أريئيل بوزير الخارجية بيكر لتوضيح هذه المسألة».

ورد الرئيس: «حسناً. لأنني انتهيت لتوي من قراءة برقية تنقل عنكم الحديث عن مواجهة مع الولايات المتحدة. فإذا كنت تريد المواجهة فأهلاً بهاء. ولم يرد شامير علي جورج بوش الذي أعرف أنه كان مسيطراً علي أعصابه رغم ضيقه البالغ. وما لبث الرئيس أن حاول حمل شامير علي إلقاء ما هو مستعد لعمله لاستمرار تحريك العملية. وتسأل: «ماهي خطتكم لتطبيق مبادرتكم؟» مرة ثانية لم يلق إجابة. وبعد أن وضع سماعة الهاتف هزنا رأسنا من تصلب شامير. وبنا مدى صواب وصف مبارك لشامير «بالدكتور لا» الذي لا يلتزم بأي شيء مطلقاً.

العملية تتعظم وتحرق

وقاصل هذا العرض الكابوكي حتي عام ١٩٩٠م دون التوصل إلي نتائج ملموسة. وفي ١٤ كانون الثاني يناير ١٩٩٠م كنا لانزال ننتظر كلمة من الإسرائيليين حول خطة النقاط الخمس الأمريكية حين أبلغ شامير الكنيست بأن التدفق المتوقع للمهاجرين من اليهود السوفيت سيجعل من المحتم إقامة «إسرائيل الكبرى». كان السعي الضمني لهذا البيان في غاية الوضوح: إن حكومة شامير ليست مصممة فصحب علي بناء المزيد من المستوطنات بل إن هدفها الاستراتيجي هو سياسة التوسع الرامية إلي تحويل مبدأ الأرض مقابل السلام لمجرد حيار أكاديمي. وكان ردنا للطلبي محموباً، فقد وصفت مارجريت تايتولر البيان بأنه «غير مفيد». وأكدت مجدداً معارضة الولايات المتحدة للاستيطان. ومع ذلك نشطنا في الدوائر الخاصة. وعندما اقترح زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ بوب دول علي الفور استقطاع نسبة خمسة في المائة من المعونة الخارجية الأمريكية المخصصة لإسرائيل ومصدر تمويلها إلي الديمقراطيات الناشئة للتمردا بمعارضة الفكرة. وفي الواقع كنا سعداء بتوجيه دول رسالة إلي الإسرائيليين بأن التعاون مع الولايات المتحدة ينبغي أن يكون طريقاً ذا اتجاهين.

وبعد أربعة أيام عاد رابين إلي واشنطن حاملاً بعض الأفكار لكسر الجمود في مسألة تمثيل الفلسطينيين. وعملنا مع رابين على التكتان لمدة أشهر، كتناً بلع إلي لعد الذي كنت أشير به والعالمون معي إليه في كافة محادثتنا باسم «الرجل المدخن» للتمويه علي محادثتنا عبر القناة الخلفية، مع تشيني وزير الدفاع للمدخن للشراء.

وفيما يتعلق بقضية التمثيل الفلسطيني كان يعتقد أن شامير ربما يكون مستعداً لقبول «صاحب علولين» واحد علي الأقل - أي فلسطيني يقوم في الأراضي لكنه يحتفظ بسكن ثان في القدس الشرقية. وكان يعتقد أيضاً أن مشكلة فلسطيني الشدات يمكن حلها أيضاً بالسماح بعودة أحد المرحلين ثم إشراكه في الوفد. واعتقدت أن هذه تسوية بارعة يمكن أن يدعي كل من الطرفين أنها تتفق مع مواقفه المبنية.

ونطرق رابين مع شامير حول هذه الأفكار. وكالمعتاد كان لدي رئيس الوزراء تعفظاته. لكن رابين كان يعتقد أنه توصل إلي اتفاق من حيث المبدأ مع شامير. ومع ذلك وقبل محاولة الحصول علي موافقة شامير رسمياً أردت للتأكد من أن هذه الأفكار ستكون مقبولة لدي العرب. وكلفت روس بمناقشة هذه الأفكار بصيغة غير رسمية مع أسامة الهاز مستشار مبارك* والذي تصادف وجوده في واشنطن وبعد دراسة استغرقت يومين رد أسامة بالقول ليست هناك مشكلة. ثم أجريت اتصالاً هاتفياً بشامير في ٢٣ كانون الثاني يناير. وقت ذلك تباحثنا مع رابين. وعرض فكرتين حول كيفية التوصل مع المشكلتين اللتين تراجعهما. هل لديك فكرة عنهما؟.

وأكد شامير: إنني معاد علي تلك الأفكار. وحينذاك أترنا هذه الأفكار رسمياً مع المصريين وسرعان ما حصلنا علي قبولهم رسمياً مع صماتات بموافقة منظمة التحرير الفلسطينية.

وعندما اتصلت بشامير بهذه الأنباء في الثلاثين من كانون الثاني يناير كان أقل تحملاً. وقال بتيرة توحى بأن هذا موضوع يتوق بشدة إلي تجنبه. اعتقد أن عليك التحدث مع ميشا حول هذا الأمر. واتصلت بأريئيل وصدمت لدي سماعي بأن وزير الخارجية ليس

* أشار الموقف إلي التكرار أسامة الهاز علي أنه مستشار الرئيس مبارك للأمن القومي والمصمم الرسمي للدكتور الهاز ومدير مكتب الرئيس الشوري السياسية.

لديه أدنى فكرة. وقال: «إن هذه أخبار جديدة تماماً لا علم لي بها علي الإطلاق». وشعر آرينز بالصيق لاستبعاده من هذه المشاورات. خاصة عندما أبلغته بأن منافسه اللدود رابين علي علم تام بالحل الوسط. بل إنه في الحقيقة أحد مهندسيه. وقال: «لا بد وأن اتحدث مع رئيس الوزراء». ولقد رحت عليه للحضور إلي واشنطن في أقرب فرصة ممكنة.

وخلال الأسابيع الثلاثة القادمة حاولنا ضبط إيقاع الاقتراح لإرضاء شامير والليكود. واتفقا علي سبيل المثال علي استبعاد أي فلسطيني يحمل بطاقة هوية مقدسية حتي وإن كان يقيم حالياً في الأرض المحتلة. وأثناء اجتماع عقد في مكنتي في ٢٣ شباط فبراير وافق آرينز مؤقداً علي الاقتراح المعدل. لكنه أجهش آمالي في الاتفاق علي تحديد موعد لعقد لقاء ثلاثي في واشنطن مع المصريين لاختيار التوقيت الفلسطيني قائلًا إنه سيتشاور مع شامير وديزير ورايين. وتمهد بمعاودة الاتصال بي فور انتهاء تلك المشاورات.

وأبلغت آرينز بأنني لاحتاج كحد أدنى علي إجابة من شامير علي سؤال بسيط: فيما يتعلق بالمشاركين في الحوار الإسرائيلي الفلسطيني. هل ستكون حكومة إسرائيل علي استعداد لدراسة اختيار أي فلسطيني يقيم في الأراضي علي أساس مراجعة كل اسم علي حده اسماً، لاسماً؟

وسأوري التلق لعدم مبادرة آرينز بالاتصال بي علي الفور. لكن مساعدتي قالوا إنه ليس هناك أسباب كبيرة تدعو للتلق. وأقادت أشد الروايات خصوصية والمتوترة من إسرائيل أنه تم مؤخراً إفناع شامير بالموافقة. وتلقي روس مكالمة هاتفية من مارتين انديك العضو البارز في الطائفة اليهودية الأمريكية والذي عين لاحقاً في مجلس الأمن القومي ثم عينه للرئيس كلينتون سفيراً لدي إسرائيل. لفهنة الإدارة علي مخابراتها. وقال: «لقد حصلنا عليها. لقد حدث. ووافق شامير». وشعرت بالبهجة. فجمود شامير لعدة أشهر كان محبطاً.

ومع انتظارنا اتصالاً رسمياً من القدس حدثت واقعتان تبين في النهاية أنهما وقعتا في غير الأوان. ففي الأول من اذار مارس أثناء إدلاي بشهانتى أمام لجنة الاعتمادات الفرعية بمجلس النواب قلت: إن الولايات المتحدة سوف تؤيد طلب تقديم صمونات قروض بأربعمائة مليون دولار لبناء مساكن لإيواء للمهاجرين لليهود الموقيت شرط أن توافق إسرائيل علي

وقف بناء مستوطنات جديدة في الأراضي، وتردد في الدوائر الخاصة أن شامير استشاط غضباً من بياض الذي أرتأي فيه مساعدة اقتصادية أمريكية مشروطة لإسرائيل.

وبعد يومين من إدلائى ببيانى أمام الكونجرس ولقاء مؤتمر صحفى عقده الرئيس يوم السبت فى باليم سبرينجز مع رئيس الوزراء اليابانى توشيكو كايفو سئل الرئيس عن الانتهاء القائلة بأن الأسرائيليين يعتمرون بناء مستوطنات جديدة فى القدس الشرقية. رد الرئيس: «إن السيادة الخارجية للولايات المتحدة تشير إلى أننا نعتقد أنه ينبغى عدم إقامة مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية أو للقدس الشرقية، كان الرد إعادة تأكيد مباشر ومحسوب للسياسة الأمريكية طويلة الأمد. لكن فى فترة اللحظة أثبت ذكر القدس للمرة الأولى علناً أنه شيء مدمر. فقد هبت على الفور عاصفة نارية داخل للطائفة اليهودية الأمريكية وبين العتشددين فى إسرائيل».

وعلمت لاحقاً أن تصريحات للرئيس كان وراءها إلى حد بعيد جون سونو رئيس هيئة موظفى البيت الأبيض الذى دفع أصله اللبئانى بالكثيرين للاعتقاد بأنه مناصر للمرب دون مراعاة. فخلال الأسبوع الماضى عرض سونو على الرئيس خرائط توصح طبيعة التوسع النشط للمستوطنات الإسرائيلية لاسيما فى القدس الشرقية.

وبعد يومين اتصلت بالرئيس هاتفياً لأبحث معه كيفية لمعة الأمور. ولقت فى سرية: «إننا انتهينا بالكاد من التوصل لاتفاق فى الشرق الأوسط.. لكلك الممتد الأمور للغاية بهذا التصريح حول المستوطنات لدرجة لا أستطيع معها إصلاحها. كانت مصطلحاتى هى نفسها التى استخدمها معى عشرات المرات من قبل، شكل من أشكال المزاج الثقيل الذى تبادلناه فى صداقتنا عبر عقود».

وفى الحقيقة لم أكن أعتقد أن للوضع غير قابل للإصلاح. فأريز على الأقل مثلزم بقرة بالعل الأوسط. وإذا كان هناك من هو قادر على إقناع شامير فأنتى أعتقد أنه ميشا. وحتى إننا رفض شامير قبول الخطة فمن شبه المؤكد أن ينسحب حزب العمل من الحكومة اعتقاداً منه بأنه يستطيع حشد التأييد لتشكيل حكومة جديدة. وهكذا كنا نعتقد أنه من شبه المؤكد أن نحظى للحظة بالموافقة. وفى الحقيقة كنا مخطئين فقد عززت تصريحاتى وتصريحات الرئيس من قبضة للمحافظين بتحويل الاهتمام عن قضية السلام الأهم. أكثر من ذلك أنها

اعلمت له عددا مقبولا يتخفي وراءه ويتمثل في غضبه لتعرضه للصنقوط من جانب الولايات المتحدة . وعندما أجري شامير اتصالات في حكومته حول قبول صيغة «صاحب علولين» انضمت أغلبية كبيرة من وزراء الليكود الي نظرائهم من حزب العمل لتأييد الخطة الأمريكية . غير أن شامير صوت ضدها وأعفي بيرير من منصبه كوزير للمالية . واضطر حزب العمل الي طرح اقتراح بحجب الثقة عن الحكومة في الكنيست ، وفي ١٥ آذار مارس خسرت الحكومة الاقتراح بأغلبية ٦٠ صوتاً مقابل ٥٥ صوتاً .

وأجسست بالهزيمة والفخر . فمذ البداية حاولت ثيرة ساحة شامير . وكنت أعرف أنه شخصية متناقضة . لكنني أعتقد أنه يرغب علي الأقل في تحريك العملية . واتضح لي الآن أن معتقداتي تجاهه كانت خاطئة فترك الحكومة تنهار حول قضية هامشية السماح بإدراج فلسطيني واحد في الوفد يكون له سكن ثان في القدس ، أرحي لي أن شامير لابد وأنه غير جاد تجاه السلام . وتمثلت نقطة الصنوء للوحيدة للبداية في احتمال تولي حكومة جديدة أكثر اعتدالاً للسلطة الآن يمكنها الالتزام بجهود تحريك عملية السلام . (وكما تبين لم يكن الحال كذلك) .

وأصبحت قرابة العام في إنعاش خطة شامير الفائزة وتلقيحها لتكون مقبولة لدي الفلسطينيين ، وبالتشاور مع إسرائيل حول كل خطوة علي الطريق مارسنا صنغواً علي العرب بقبول صيغة نهرد منظمة التحرير من ولايتها بالفعل وتمنع إسرائيل فينر بحكم الأمر الواقع علي تشكيل الوفد الفلسطيني . وتوصلنا إلي صيغة كان يودنا القول أنها تلبي الاحتياجات السياسية للفلسطينيين دون انتهاك للمبادئ الإسرائيلية . وفي النهاية لم يكن شامير راعباً في تبني خطته الخاصة . واسترحت بمرارة تعذير هنري كيسنجر لي أثناء الفترة الانتقالية : «إن الإسرائيليين بارعون في استدراج الشره إلي مفاوضات شكلية وما يلعبون عند كل منحنى اتهامك بخيانتهم» . كان كيسنجر علي صواب . كان علي أن أصفى إلي نصيحته واتبع بصبرني .

وبعد أسبوع نقل عن يديامين نتانياهو نائب وزير الخارجية الإسرائيلية قوله : «من الغريب أن تبني قوة عظمي مثل الولايات المتحدة المفترض أنها تجسد العدل السياسي والأمانة الدولية سياستها علي أساس من التشويه والكذب» (أؤكد التشويه والكذب) ولم تكن

لعمته مقبولة من دبلوماسي كبير من دولة صديقة. وقررت علي الفور منعه من دخول وزارة الخارجية الأمريكية. وكتب لي بعد ذلك يدعي أنه أسىء فهمه، ولم أره بقية فترة ولايتي في الخارجية الأمريكية، علي الرغم من إلغائي قرار منعه من دخول مبني للخارجية*.

وبعد أسبوعين من انهيار الحكومة الإسرائيلية هدد صدام حسين بإحراق نصف إسرائيل، لو تعرضت للعراق لهجوم. وجاءت ظهر إحساس بأن الرأي العام الذي يحول للعرب نسبيته بالشوارع، ينصرف عن المصالحة باتجاه وحشية صدام. وفي الوقت نفسه تواترت تقارير عن أن المصريين يفقدون السيطرة علي منظمة التحرير الفلسطينية. وبدأ أن مركز النقل في العالم العربي بدأ ينتقل من القاهرة إلي بغداد. وربما سهل ذلك ملاحظة تبرؤ الحكومة الإسرائيلية ضمناً من خطتها للسلام. وفي الثلاثين من آيار مايو أعترضت البحرية الإسرائيلية زورقين يحملان فلسطينيين مدججين بالسلاح يتجهان نحو تل أبيب. وحالت المعركة دون وقوع هجوم إرهابي منظم منذ المدنيين الإسرائيليين، وأعلنت جبهة تحرير فلسطين برئاسة أبو العباس مسة السمعة مسئوليتها عن الهجوم الفاشل. وبغداد مقر هذه الجبهة، وهي إحدى فصائل منظمة التحرير الفلسطينية وطلبت الحكومة الانتقالية التي يرأسها شامير من الولايات المتحدة وقف مباحثاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية. ونفي عرفات مسؤولية منظمة التحرير عن الهجوم غير أنه رفض إدانته.

ورغم التدهور المستمر في علاقتنا الثنائية مع إسرائيل شعرنا جميعاً في الحكومة بالغضب من الحادث، ونقما علي رد فعل عرفات المتساهل. وإدراكاً منا علي محتض أن الحوار بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية قد أصبح الآن يمثل كل ما تبقى من عملية السلام المنهارة فلم أكن أنا أو الرئيس راغبين في فهمه ولكن عندما طال صمت عرفات لم يكن أمامنا من خيار آخر.

وبدد عرفات أي فرصة لتحرير مصنوقيته حتي ولو مرة واحدة من سلطاته الممنوعة برفسه إذانة الهجوم الإرهابي. ومن وجهة النظر للسياسة لم تعد منظمة التحرير الفلسطينية شريكاً يعتمد عليه. وبعد ظهر التاسع عشر من حزيران يونيو - أي اليوم السابق علي إعلان

* تصدت علاقتنا فيما بعد للثلاث ريلتي لإسرائيل عام ١٩٩٤ كمرلمان على صفت لهما ما ودياً لتغلب مع تظاهرة .

الرئيس علانية تعليق الحوار كنت أعكف علي مراجعة البرقية المقرر إرسالها إلي السفير بيليترو في تونس. وشعرت بالهزيمة من الإحباط الذي غمرني لأكثر من عام. وراقبني آرون ميلر في ذهنول وأنا أتلوح بالبرقية في الهواء. وقتئذ: «آرون أريدك أن تعرف شيئاً لو قدر لي أن تكون لي حياة أخرى لاخترت أن أصبح خبيراً في شؤون الشرق الأوسط مثلك لأن هذا يمنح وظيفته دأمة». وهاهي محاولتنا الوليدة للتوصل إلي السلام في الشرق الأوسط تؤول لما آلت إليه معظم المحاولات السابقة، وخزيتها يد الأعداء الألداء القدامي الماجزين عن الإقدام علي مخاطرة السلام.

عفواً النمرة غلط

في الحادي عشر من حزيران يونيو صوتت الكاتمت لصالح حكومة إسرائيلية جديدة بزعماء التيكود مع احتفاظ شامير برئاسة الوزارة. ومع خروج بيريز ورايين من التشكيل الوزاري الجديد كنت موقناً أنه ليست هناك أدنى فرصة لإحياء عملية السلام. (وفيما اعتبرناه لحظة محسوبة في الولايات المتحدة، وأصلت حكومة شامير الانتقالية بناء المستوطنات خلال للفترة الانتقالية). ونص اتفاق الحكومة الائتلافية الجديدة علي رفض إسرائيل التفاوض حتي بصورة غير مباشرة مع كل من يرتبط بمنظمة التحرير الفلسطينية. وحظرت مشاركة أي مقنسي شرقي في المفاوضات.

وتأكدت مخاوفي بعد يومين. ففي حديث متشدد مع صحيفة جيهروزايم بوست حدد شامير شروطاً مسبقة أشد تقييداً لإجراء مباحثات السلام. وقال: إن إسرائيل لن تتفاوض مع أي فلسطيني لا يتقبل بأرلها عن الحكم الذاتي. وصرح ليفيد ليفي وزير الخارجية الإسرائيلي للصحفيين بأن خطة النقاط الخمس الأمريكية قد «شوهدت» خطة شامير الرباعية وينبغي إلغاؤها. وزاد الطين بلة قيام موشا آريلز وزير الدفاع في الحكومة الانتقالية بزيارة اثنين من المستوطنات في للصفة للتربية في رفض رمزي للدبلوماسية الأمريكية.

كانت كل تلك التطورات حاضرة في ذهني بالحاح فيما بعد في اليوم الذي أدليت فيه بشهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب. فقد كتبت غيظي بالكاد من شامير ورفاقه، ولم أكن في الحقيقة راغباً في ذلك. وسمعت الكثير عندما أشاد عضو الكونجرس ميل ليفين عن كاليفورنيا بجهودي. لكنه ما لبث أن أضحى لي أن الصلابة خربت بسبب نصريح الرئيس في بالم سبرينجز حول المعتومذات. وقلت: ما لم تكفل كل الأطراف عن تسليها فلن يجرى أى حوار ولن يتحقق أى سلام، ولن تستطیع الولايات المتحدة الأمريكية تحقيقه... فالأمر يحتاج حقيقة إلي قدر من الجهد الإيجابي بحسن نية من جانب أصدقائنا في إسرائيل.

وأبليت ليفين: «إننا لم نحصل عليه ولا يمكننا أن نحصل عليه بسرعة... ويتعين على إيلياك أنه لا بد وأن يصرف الجميع هناك أن رقم الهاتف هو (1-202-456-1414) فانصلوا بنا عندما تكونوا جادين تجاه السلام». (وقع اختياري علي رقم بدالة التبيت الأبيض الذي وعته ذاكرتي بعد أربع سنوات. فلم أعرف مطلقاً رقم هاتف الخارجية).

كانت لغة «اتصل بنا نحن لا نريد الاتصال بكم» مصدر إلهام لنوم فريدمان المرسل الدبلوماسي لصحيفة نيويورك تايمز الذي نال بتخطيطه وتحليله المتعمق للشرق الأوسط جائزة بوليتزر. وبين العين والآخر طلبت من فريدمان أن يعرض على أفكاره علي ألا يدير جهاز التسبيل أثناء حوارنا. وفي واحدة من تلك الجلسات أشرت إلي عدم جدوي مفاعي السلام إننا لم يكن لدي الأطراف المعنية اهتمام حقيقي به. وفي اعتقاده أن أفضل طريق لإنارة هذا الاهتمام هو ترك الأطراف تعرف أننا لن نقدم المساعدة ما لم يظهرها منا، وكانت فكرة فل ذلك علناً من بذات أفكارى. فقبل بضعة أسابيع طرحنت لفكرة علي دبليس روس لكنه رفضها. وقد خلصت حينذاك إلي أنه علي صواب: فمثل هذا النهج الإحراقى لن يفيد في تخفيف التوتر مع شامير. ومع استمرار إسرائيل في إثناء عدم جديتها حيال السلام توصلت مع هذا إلي أن الوقت قد حان للتذكرة للجميع بمكن المشكلة علي وجه الدقة.

وفي الصباح التالي ترك لي صديقي الديمقراطي القديم يوب شتراوس وهو من أشد أنصار إسرائيل رسالة لي مع كارون جاكسون مساعدتي التنفيذية. وقال إن هدف تصريحاتي صحيح. وقال في رسالته: «ها أنت أخيراً قد بررت حملي لك علي ظهري كل

تلك السنوات ومساهمتي في ترفيتك لشغل هذا الموقع في السلطة. ويظهر أن الجبان سوف يقاتل لو أنك صيقت عليه الخناق، . كلنت إشادة بالغة ومصدر ارتياح كبير لي أن أسمع أن واحداً من أفضل أصدقاء إسرائيل في هذا البلد قد فعل إلى الصحيح وسرعان ما أظهرت استطلاعات الرأي في وقت لاحق أن أغلبية الشعب الأمريكي تؤيد رأيي أيضاً.

وانهالت المكالمات الهاتفية علي البيت الأبيض لدرجة اضطورت معها إلي إرسال باقة ورد إلي موظفي سنترال البيت الأبيض الذين حاصرتهم تلك المكالمات. وفي نفس تلك اليوم الرابع عشر من حزيران يونيو بحث الرئيس رسالة إلي شامير كانت مباشرة برغم لهجتها غير العادة ومضمونها الخالي من المواجهة. وقال الرئيس في رسالته: إنه ما لم تبد إسرائيل مرونة حول قضية التمثيل الفلسطيني سيكون من المستحيل البدء في جهود دبلوماسية جديدة باللفة.

وجاء في رسالة الرئيس: «المورد معرفته منكم هو ما إذا كنتم علي استعداد للمعنى قدماً دون طرح شروط مسبقة جديدة علي أساس الإقرار - سرّاً إذا اقتضت الضرورة - بأنكم سوف تحتضمون مع وفد فلسطيني من الأراضي يضم بضعة أفراد يتوفر فيهم شرطاً الإبعاد والعنوانين». إن غياب مثل هذا التعهد «يضايقني أنا وجميع بيكر إلي استنتاج أنه لم تعد أمامنا فرصة لتطبيق مبادرتكم». (وبعد مرور عدة أيام علم دينيس روس من إيلياكم «إيلي» روبنشتاين سكرتير مجلس الوزراء الإسرائيلي وأحد كبار مستشاري شامير «أن الحكومة الحالية لن تقبل هذين الأمرين». وماتت عملية السلام ضحية لعملية انتحار.

وفي ١٢ تموز يوليو للتفتيت في مكتبي بروبرت ماكسويل رجل المال والناشر البريطاني الشهير الذي يرتبط بعلاقات وثيقة مع إسرائيل، كان لقاء قصيراً وافقت عليه في المقام الأول مجاملة لعضو مجلس الشيوخ السابق هرولد بيكر من كنيتسي، وهو صديق قديم وزميل سياسي يرعى مصالح ماكسويل في الولايات المتحدة. ومع ذلك فقد أبلغني ماكسويل بشكل مفاجئ. خلال حديثنا أن شامير طلب منه إبلاغ شخصياً برسالة خاصة. ونقل ماكسويل عن شامير قوله «رجاء أن تبلغ للوزير بيكر أنني جاد وأنتي مستعد للعمل من أجل السلام».

وقلت لماكسويل إننى سعيد بهذه الأخبار وأن الأمل يراودنى بأنه ستلوح فى المستقبل فرصاً لسبر نوايا رئيس الوزراء. ورغم هذا سأورثنى الشكوك. أما وقد احترقت يداى من شامير مراراً فلم أكن فى حالة تسمح لى بإختيار تأكيدات ماكسويل. فقبل جلسات الاستماع لإقرار تعيينى قلت لأحد محاورى: «إن السلام لا يمكن أن يفرضه أو يحققه أحد من الخارج بما فى ذلك الولايات المتحدة». ومن الآن فصاعداً وطلت نفسى على عدم ارتكاب خطأ نجاهل بصيرتى. وعلى أية حال سرعان ما توقفت مساعى. فبعد ثلاثة أسابيع من تقائى بماكسويل غزا العراق الكويت. وكان على أى جهود جديدة للتفاوض على الطريق الشاق نحو السلام فى الشرق الأوسط الانتظار حتى اللحظة المناسبة. ولا حاجة للقول إننى عاهدت نفسى فى تلك اللحظة أننى لن أتعامل إلا مع رئيس جديد للوزراء ووزير آخر للخارجية فى إسرائيل.

الفصل التاسع

روح جاكسون هول

قصتي إحصائياً بعدم التصديق بأنفس مع مثل هؤلاء الناس.

إنه غير حقيقي

لورمان شاييرو

مطروح من جاكسون هول

ويوضح أثار لبعث لإدوارد شيرنلاند

حين التقيت كمحام شاب للعمل في مؤسسة أندروز أند كورث في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات كنت متفجراً بالطلاقة أكثر من التوجه. وهي حالة غير معهودة لمعلم الزملاء للدين يصنعون أقدامهم علي طريق المحاماة حينذاك، ولأن العمل مع شركة استشارات قانونية كبير يقتضى التعرف بتوازن حذر، وتقلب في التمرن علي مختلف أوجه العمل في الشركة ساعياً للوصول إلي مرتبة مناسبة بين ما يسعى أدلوه علي ما يرام (حتى أصنع شريكاً) وما استمتع بأدائه، حتي أعود إلي المنزل مزراح للبل في الليل، وبالنسبة لعدد كبير من الزملاء فإن المهارة والمصلحة لاكتسابك علي الإطلاق، ولذا فإنهم يتركون مراولة المهنة إما محترفين أو مصابين بحالة من الضجر. ولعن الحظ لم أكن منهم.

وفي البداية لم يحالفني الكثير من حسن الحظ. فقد بدأت مراولة المهنة لتتملكني رغبة في أن أكون محامى موضوعى أمام المحاكم ولا تسطنى للذاكرة لتحديد السبب الذي حدا بي إلي التمرن علي المحاماة، كل ما أعرفه هو أنني فعلت ذلك، ربما لأن الثقافة السائدة في كلية الحقوق أثناء الدراسة كانت تروج لأن مؤهلات المحامى لا تكمل سوى بالتدافع أمام المحاكم. لكنها كانت خيبة أمل. فقد ذهبت إلي المحكمة كمحام مبتدئ للتدافع في عدد من قضايا الأضرار الشخصية. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإدراك أن العلاقة بين الحقيقة وقضايا الأضرار الشخصية أوهى من خيوط العنكبوت في أفضل الأحوال. فليست هناك علي ما يبدو عقوبة حقيقية لطمس الحقيقة، ولا أتذكر أنني سمعت عن توجيه اتهامات بالكذب في اليمين ضد الشهود في قضايا مدنية. وبدأ لي أن الناس غالباً ما تنصعد إلي منصة الشهود وتبلي الأكاذيب. أما وقد علمتني عائلتي أن أسمى وما يقدرون به من استقامة وأمانة هو أمن رصيد لي لذا فقد قررت بسرعة بالغة أن هذا ليس مجال التخصص الذي سوف استمتع به. وهكذا فقد تركت التدافع في القضايا المدنية وتخصصت في القانون التجارى العام، وأمضيت وقتي في إعداد مشروعات الوثائق والاتفاقات والعقود وبيانات تسجيل الأوراق المالية والعقارات والغاز والبترول، واتفاقيات اندماج الشركات. وربما يبدو هذا عملاً جافاً لكنني وجدت فيه عملاً شيقاً ياهراً. ففي المقام الأول يقتضى هذا العمل إيلاء اهتمام مطلق بالتفاصيل، وإطالما نشأني ولدى علي أن «الإعداد المسبق يمنع ضعف الأداء». وحفرت هذه الكلمات الخمس أو أحرف (P) للخمسة بالإنجليزية كما باتت تعرف في رأسى في سن

صغيرة. وتبينت تماماً أن الإعداد السليم والجيد والعمل الشاق قد يستغرقان شوطاً طويلاً. ولم نس مطلقاً «الحرف (P)» الخمسة. وتادراً ما ساورنى إحساس بعدم الثقة رغم أنني أعرف أن هناك من يفوقنى. وبقاً ما شعرت بأنه يمكنى المناقصة بتجاح استناداً إلى العمل الشاق أو بأن أشق على نفسى عن الآخرين. ومعظم الزملاء تخرجت من مدرسة إعداد مسودات الاتفاقيات إلى التفاوض عليها. وفى عالم المال والأعمال فى تكساس فى حقبة السبعينات كانت الشركات تتطلع إلى المحامين الذين يمكنهم مساعدتها فى التنظيم والهيكلة، وغالباً دمج أعمالها بكفاءة وفعالية، وقد تشرعت الممارات التفاوضية بالنظم من الأكثر خبرة ثم من التجرة دلتها.

ولو كان هناك مفتاح لنجاحى فى التفاوض بخلاف الإعداد الجيد والعمل الشاق فإنه يتمثل فى أنني أعترف منذ البلوكبر بأهمية فهم موقف الخصم. وأدركت أنه لو أمكن أن أضع نفسى مكان المحامى الآخر ومكان موكله أو موكلته وفهمت ووضعت يدى على الزاوية التى ينظرون بها إلى القضايا، وأن أقدر العرافيل التى تواجههم فإن أساسى لفصل فرصة للمعالجة للقضايا والتوصل إلى اتفاق.

وينطبق الشيء ذاته على الدبلوماسية والسياسة. فالسياسة هي فن الممكن كما يقول الكلبيون. إننى أقول لأولئك الذين يقولون إن هذه الرؤية مفترضة فى البراجماتية لدرجة الحكم عليها بأنها غير عملية: إن البراجماتية التى تحكمها المبادئ هي التى تصادف النجاح. وطالما قال ريجان: «إنه من الأفضل أن تحقق ثمانين فى المائة من هدفك على أن تفق جامداً أو أن تصعد إلى الجرف ولا تحصل على شيء مطلقاً».

ويعنى ما يمكن اعتبار السياسة الدولية عملية تفاوض مستمرة. وتطمت أن أى مفاوضات محددة ما هي فى الواقع إلا سلسلة مشاكل منفصلة تحتاج إلى حلول. فطريقة العمل مع الطرف الآخر فى التوصل إلى حل للمشكلة الأولى ينطوى على أفكار تتجاوز كثيراً تلك القضية الواحدة. وفى الواقع فإن حلها يمكن أن يرمى ليس فقط السوابق المتطانية للقضايا للتالية بل يضبط أيضاً نغمة للعلاقة بين المتفاوضين - وعلى المدى البعيد - يمكن أن تؤثر تلك العلاقة على سير الأحداث تماماً مثل أى تحول موضوعى لعناصر للصراع.

وإذا ما نشأت ثقة واستقامة فإن أشق المفاوضات يمكن أن تتوصل إلى نتائج ناجحة . فالمفاوضون يشعرون بحرية في تحجيه مواقفهم التفاوضية الرسمية جانباً ويكشفون أفكارهم غير الرسمية - افتراضاتهم واستراتيجياتهم - بل وحتى محاورهم - تلك التي تعدد نهجهم وأسلوبهم . وغالباً ما وجدت أنه عندما أدع جانباً أفكارى الرسمية واتحدث بشكل غير رسمى مع نظيرى فمرعان ما يلحق للنجاح بنا . لكن إذا توترت العلاقة واتسعت بانعدام الثقة والخلاف . فهذا يشير إلي مدى الهوة التي تفصل بين الطرفين بالفعل . فإدراك انعدام الثقة يكسح أى واقع موضوعى .



وفى عام ١٩٨٩م عندما كان الاتحاد السوفيتى قوة عظمى فى مرحلة انحسار فلا توجد مفاوضات حاسمة سوى تلك التي تعالج كيفية حدوث هذا الانحسار . فالإمبراطوريات لا تتلاشى ويطويها النظام فى هدوء . ونادراً ما يتم التخلي عن السلطة بسهولة ونادرة هي حالات الانتقال السلمى . وفيما اتضح مع منتصف العام أن السوفيت يقلصون مواقفهم حول العالم تمثل السؤال الحقيقى فى : إلي أى حد سوف يذهب السوفيت ؟ وبالتالى فلم تكن هناك علاقة أهم من العلاقة مع جورباتشوف وشيفرنادزه . وحقب قمة الأطلنطى وزيارة الرئيس الناجحة لبولندا والمجر فى تموز/يوليو استعصمت علاقتى الشخصية مع موسكو بمزيج مخطط من الحوافف .

وكنيت قد خرجت من أول لقاء لى مع جورباتشوف فى آيار مايو بشيء من التوتر لى لم تكن الممرارة حول الاحتمالات . ولم أكن وفقاً من حجم للعمل والإنجاز الذى يمكن أن يحققه لو أنه معني أكثر من أى شيء آخر بالتودد عبرنا للرأى العام الغربى ، وأملت فى أن يكون افتراح الرئيس حول خفض القوات التقليدية فى أوروبا وقرارنا الناجح حول الأسلحة النووية قسيرة السدي قد أوصلا الرسالة إلي جورباتشوف بأن بوسنا أن نلعب نفس لعبته - بل وأن نلعبها بشكل أفضل .

وكنّت أكثر تفاؤلاً مع شيفرناندزة . ويعمله في عبادة جورباتشوف فقد ترك تسجيل الأهداف للدبلوماسية لجورباتشوف، وبدأ أنه أكثر اهتماماً ببحث جوهر علاقاتنا . وفي اجتماعين شديدي الاختلاف - في تموز يوليو بمقر للسفير السوفيتي بشارع لانيه في باريس، وفي أيلول سبتمبر في كابينة طائرة تابعة لسلح الجو الأمريكي ونحن نلحق فوق سهول الغرب الأوسط في طريقنا إلي ويومينج - دشتت أنا وشيفرناندزة انفراجة قوية لإرساء أواصر صداقة غريدة . وفي البداية كان شريكي ونظيري في التفاوض، وفي النهاية كان أكثر من رميل محترم - فقد كان صديقاً رطلتي وترطلني به عاطفة حميمة وعظيمة . لقد كانت علاقة سوف أعول عليها مرة تلو الأخرى في أداء دورى في المساعدة علي توجيه الحرب للباردة نحو نهاية سلمية .

انفراجة في باريس

في أواخر تموز يوليو كان من المقرر أن أتوجه إلي باريس للمشاركة في مباحثات السلام حول كمبوديا، وأردت انتهاز الفرصة لأرى شيفرناندزة . وعقد اجتماعنا على خلفية سلسلة من الأحداث المديرة التي يشهدها حوض دونيوس الغنى بالفحم في أوكرانيا وحوض كوزنيتسك في غرب سيبيريا . ففي هاتين المنطقتين وهما أول وثاني منطقتين غنيتين بالفحم في الاتحاد السوفيتي أصُرب أكثر من ١٥٠ ألف عامل عن العمل مطالبين بزيادة رواتبهم وتحسين ظروف العمل، واكتسبت الإضرابات زخماً سياسياً، واضطر جورباتشوف إلي اقتراح تقديم اعتراف رسمي بحق الإضراب، وهو شيء غريب علي الأسماع لم يعرف علي مدى السنوات القليلة الماضية . ولأن تاريخ الاتحاد السوفيتي يخلو من أي حركة عمالية مستقلة كذلك التي كانت موجودة في بولندا فالاحتمال صئيل في أن يصبح نجاح نقابة نصامن في إجبار الجنرال فرويش باروزلوسكى رئيس بولندا في الجلوس إلي مائدة التفاوض نموذجاً يحتذى به للعمال السوفيت . وكان شاغلي الأكبر في حيله هو أن جورباتشوف أو مسؤولين أدنى مستوى قد يشعرون بالحاجة إلي التصدى لصالح المناجم ومن ثم تنشأ مواجهة

تلقا الحكومة فيها إلى استخدام القوة. فأخطار حدوث مذبحة ثيانونمين ٢٧ لم تكن بعيدة عن السطح، وقررت أن تبحث القضية مباشرة مع شيفرنادزة.

ودخل مجتمع الاستخبارات في واشنطن والشركات الدولية في موسكو ثارت تكتلات كبيرة بقرب حدوث تطهير محتمل في صفوف الحزب الشيوعي. ففي أواسط تموز يوليو أبلغ جورباتشوف اجتماعاً مطلقاً للحزب الشيوعي بأن الكوادر في حاجة إلى تجديد وضخ دماء جديدة، وفيما كان جورباتشوف يتوق إلى استبدال الإصلاحيين بالمحافظين راح رؤوس وروائه نيقولاى ريجكوف يتحسر على ضياع مكانة للحزب قائلًا: «إنا لم نجد للحزب مخرجاً لهذا الموقف فربما يفقد نفوذه وتأثيره على حكومة الدولة».

وبالنسبة لى كانت أكثر للشائعات التي شددت انتباهي تلك المتعلقة بشيفرنادزة فكثيرون يعتقدون أنه في ضوء مشاكله الداخلية ربما يقدم جورباتشوف على الأرجح على استبدال شيفرنادزة بريجكوف، واعتقد البعض أن جورباتشوف سيحين شيفرنادزة سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي. وعلى أي الأحوال كان المهم هو أن يظهر جورباتشوف التزامه بالإصلاح بتعيين واحد من اثنين من أهم الإصلاحيين في المكتب السياسي للحزب في واحد من الموقعين الداخليين الرئيسيين (كان الإصلاحي الآخر هو الإصلاحي المعروف الكسندر ياكوفليف). وفي حينه شعرت بتضارب لأننى أصبحت أننى دشت بداية جيدة مع شيفرنادزة. واسترجاع الأحداث يسرى بقاء شيفرنادزة حيث هو رغم أنه يحتمل أنه كان بالوسع أن يخدم مصالح جورباتشوف المباشرة بغطائية أكبر لو أنه تولى منصباً سياسياً داخلياً (ولاحقاً عرض جورباتشوف تعيين شيفرنادزة نائباً له وهو ما رفضه شيفرنادزة وأبغضى سرّاً بالأمر قائلًا: إنه يعتقد أن عمله في مجال السياسة الخارجية أكثر أهمية).

وكنيت أعرف أن شيفرنادزة جاء إلى الاجتماع مهموماً بقضايا داخلية. وما لم أتوقعه هو مدي الصراحة والحميمية التي أبدتها معى عند طرح شواغله.

والتقينا في ساعة متأخرة بعد ظهر السبت ٢٩ تموز يوليو. وبعد عبارات الترحيب الأولية وبدت بدء الاجتماع بالحديث عن اجتماعنا القادم، وكنيت أعتقد أنه سيكون أكثر مرونة لو عرف من البداية أنني أتطلع إلى عقد اجتماع ثانٍ على المستوى الوزاري.

ومع ذلك اقترحت مارجريت تاتويلر أن نتخلي عن الترسيمات ولتخبراء للالتقاء في أجواء أكثر استرخاءً ومرونة . بما يعنى بالطبع الخروج من واشنطن . وفى ذلك العام فقط كنت قد اشتريت لتوى مزرعتى فى ويومينج واعززم إصغاء فترة استجمام فيها فى آب أغسطس وكنت أعتقد أن مشاهد ويومينج للخلافة سوف ترمز للصراحة الجديدة فى علاقاتنا وأكثر من ذلك ، وفى حينه وبسبب القيود التى فرضتها موسكو على تنقلات دبلوماسيينا فقد فرصنا قيوماً مماثلة على الدبلوماسيين السوفيت . وسوف يتيح الاجتماع للورارى لشيغرنادزة ووفده المرافق أول فرصة لهم لمشاهدة العمق الأمريكى (وقد أثرت القضية مع الرئيس أولاً حيث إنه كان يفكر فى دعوة جورباتشوف إلى كينيديونكهورت لكن البروتوكول كان يقتضى عقد القمة التالية إما فى الاتحاد السوفيتى أو على أرض محايدة) . وأشرق وجه شيغرنادزة بمجرد أن طرحت للفكرة عليه*.

وبدا رده بتسليمى رسالة تقدير من جورباتشوف إلى الرئيس بوش تتطرق بالفواصة السوفيتية الفارقة فى بحر الدروج . وكان الرئيس قد بحث برسالة إلى جورباتشوف يهرب فيها عن تعاطفه ، وعرض على السوفيت تقديم مساعدة أمريكية لانتشال الفواصة . واستهل حديثه بتوجيه الشكر لنا حول تلك القضية ، وكان شيغرنادزة يشعر على ما يبدو مثلى أنه يريد التخلي عن المفاوضات الرسمية وأردف بسرعة بقبول دعوتى للاجتماع فى ويومينج فى أول سبتمبر .



ثم انتقلت إلى شاغلى الرئيسى : وهو الأخطار المقرنة بتجوء موسكو إلى استخدام للقوة ضد عمال المظالم . وقلت : «إن الرئيس وأنا نرغب فى أن نكون فى وضع يتيح لنا التقدم بالعلاقات الأمريكية السوفيتية إلى الأمام . وفى صوة هذا فإننى أمل أن يصاغ ركنم على صعوباتكم الداخلية بطريقة تكفل إلى أقصى درجة ممكنة نقادى استخدام القوة . إن نقادى

* حرصت عليه بجمع صور لمرحلى لكى لتقريبها مفعولاً بما تجر به من مشاهد خلافة . وفى ختام لاجتماعنا وضعها فى جيبه وبمساروت لحطب إعادتها آلتها الصور لوحيدة التى كانت لدى .

اللجوء إلى القوة أمر مهم لو أريد عدم حدوث موجات عاطفية في الولايات المتحدة بفجرها أولئك الذين لا يريدون نجاح الليبرسترويكاء.

وحاولت رسم خط فاصل، وقلت: «إننا نعترف بوضوح بأهمية الحفاظ على النظام والاستقرار. لكن هناك اختلافاً بينا بين (تصرفات) أنلس متورطين في أعمال عنف طائفي يشمل قتل الأبرياء من ناحية، وبين الإضرابات السلمية التي يقوم بها العمال علي الجانب الآخر. إنني أتحدث عن ذلك بسبب رغبتنا الملحة في تحريك علاقتنا بطريقة إيجابية. إنني أثير هذا معكم. لأنه من المهم أن تفهموا شكل الضغوط التي يمكن أن توضع بها إدارتنا لو تطورت الأمور بشكل غير موات». واتضح لي بمراجعة الأحداث أن جورباتشوف وشيفرنادزه فكرا كثيراً في تداعيات مأساة تيانانمن علي إصلاحاتهما. وفي المقام الأول فقد حدث ارتباك في أول أيام زيارة جورباتشوف لبيكين. حيث غيرت الحكومة الصينية برنامج زيارته لعددٍ من الاحتجاجات الطلابية، وغادر بيكين بتوجيه إشادة جذرة بالطلاب واستمر تصاعد الاحتجاجات فقط ليتم إخمادها بعد أسبوعين ونصف الأسبوع.

ورد شيفرنادزه بالقول: أنه سعيد لقبامي بإثارة هذه القضية لأنه كان يعتزم إثارتها لو لم أثيرها أنا. وبعد الإشادة باهتمام الرئيس وأنا تجاه الليبرسترويكاء وبيانات التأييد قال بصراحة: «إن التوجهات التي تتبلور في الاتحاد السوفيتي باللغة الصعبة. فالديمقراطية والليبرسترويكاء والتجديد تؤثر علي كل مناحي مجتمعنا. بل تؤثر علي كل فرد وأسرة أيضاً. إننا الآن نمر بأهم مراحل ما نسميه بأنه ثورة. حقاً: إننا نقوم بثورة. فقد تركنا الآلية والآلة القديمة. لكن لسوء الحظ لا تستطيع الآلة والآلية الجديدة العمل بكامل طاقتها. إننا نمر بأكثر المراحل الحرجة. لأن تجديدنا للنظام السياسي يتقدم بكثير تجديدنا للنظام الاقتصادي. فالعبرات في عقول المواطنين أسرع بكثير عن التغييرات في عقول كثير من كبار المسؤولين،

وفي بضع دقائق مختصرات غير علاقتنا بطريقة مثيرة. فلم تكن تلك كلمات وزير في الحكومة يقرأ بياناً مكتوباً. لقد كانت كلمات رجل يشارك في معركة تاريخية. فلم يكن ينقل أو يتحدث عن الموضوع السياسي الذي وجدت حكومة جورباتشوف نفسها فيه بل أيضاً عن النضال الملير الذي تعيشه.

ففى آذار مارس وصف البيروسترويك بأنها «ثورية، لكنه يشير الآن إلى أنها حركة جماهيرية حقيقية - بما يؤثر بالتالى سؤالاً عما إذا كان جورباتشوف يقودها أو أنها هي التى تقوده؟ إن «ما بدأ على أنه ثورة سوفيتية تقليدية من أعلى، أطلقها وجهتها القيادة السوفيتية قد تحول إلى تمرد من أسفل، وهي حقيقة يعترف بها شيفرنادزه.

وقال: «بالطبع فإن إصرار العمال ظاهرة غير مألوفة بالمرة فى الاتحاد السوفيتى. لكن المثير للاهتمام هو أنهم لم يصعدوا ولو بياناً واحداً ضد البيروسترويك وعملية التجديد. وإن احتجاجاتهم تنصب على البيروقراطية. فالمسؤولون عن الإضراب منظمون جيداً ولديهم وعى رفيع. إن مطالبهم بتعسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية مطالب مرسلة، ومن المهم فهم أنها أظهرت فى النهاية تقديراً لما يمكن للنظام أن يزوده فى الوقت الراهن.

«إن بلادنا تواجه مشاكل اجتماعية واقتصادية رهيبية. فالوضع المالى فى غاية العرج. إن هناك اختلالاً كبيراً فى أسواقنا وفى كمية وسائل الدفع، وهناك شح كبير فى السلع. وأحياناً ما نقول إننا نواجه أزمة حقيقية. لكن هذا لا يعنى عدم وجود مخرج. وأشار إلى عدة مناطق - فى شمال القوقاز وقازاقستان - يشعر أن هناك تقدماً يحرز فيها لكنه ما لبث أن أشار إلى مناطق أخرى يتعثر فيها الإصلاح الاقتصادى.

وقال: «نعرف أننا وحدنا الذين يمكننا حل مشاكلنا. إننا نخلق مع ما نلتموه أنتم والرئيس يوش عن مسؤولية الشعب السوفيتى عن نفسه وعن نجاح البيروسترويك، وأصناف «وبالطبع فإن التعاون معيد، وأبنا نسعى للحصول عليه من الولايات المتحدة وأوروبا وآسيا. وإننا ندرك أيضاً محدودية قدرات شركائنا خاصة فى ضوء احتياجاتنا - إننا لن نطلب منكم أن تضخوا نحو ثلاثمائة مليون سوفيتى تحت جناحكم. وقال ضاحكاً: «إننا لا نريد خلق تلك المشكلة لكم».

وقال متطرقاً إلى الصراع العرقى: «إن مشكلة للقوميات هي مشكلة حقيقية وقد تراكمت واستعجلت على مدار عقود. وقال بحزم لقد حان أوان معالجتها. ولاشك أنه قد حدثت فجوة بين الواقع والمبادئ، وقال: «من الصعب التعرف على شعبنا فى هذه الآونة أن تفكيرهم الآن متحرر وأصيل وجريء وأمين». وأفاض فى أحاديث غير رسمية لمدة ساعة تقريباً.

وبدأت بطمأنته. وقلت: «أود إعادة التأكيد علي أننا ملتزمون بقوة بهجاح البيروستروكا ونقر بأن هذا يعتمد علي ما تقبلونه، وعلي كيفية استجابكم للتحديات التي تواجهونها. إن معظم الأمريكيين يؤيدون جهودكم. لكن فعلية محاولتنا لمساعدتكم تعتمد علي استمرار هذا التوجه الموافى لدي الرأى العام الأمريكى. وهذا هو السبب الذى دفعنا إلي الإشارة فى السابق إلي الاستجابات التي قد تصدر عنكم فيما يتعلق بصعوباتكم».

وأوما بالموافقة قائلاً: «إننى أقدر التزامكم، وأعرف أنه ليس من السهل علي الدوام أن نناقضوا عن سياستنا. إننى أعرف أن هناك البعض فى مجتمعكم مثل بريجنسكى* - يريد استغلال المشكلات السوفيتية. وكان آخرون يشاركونه رأيه فى توقعه بالانهاء الاشتراكية والحاجة إلي الاستعادة من هذا. انظر علي سبيل المثال إلي إقرار الكونجرس لقرار الدول الأسيرة. إننا نعى مسئوليتنا تجاه شعبنا وتجاه العالم. إننا لا نريد السماح بحدوث عدم الاستقرار فى الاتحاد السوفيتى - فعدم الاستقرار فى بلد سيمثل كالاتحاد السوفيتى بمقدرته العسكرية والاقتصادية للهولة سيكون شيئاً بالغ الخطورة علي الاتحاد السوفيتى وعلي للعالم. ويسرى الشيء ذاته علي أوروبا الشرقية. فالشيء الوحيد الذى نتحدث عنه هو التجديد، لكن عدم الاستقرار مصدر ويمكن أن ينسب فى كارثة».

وتدخلت قائلاً: «وعندما نتحدثنا عن الصعوبات فى الاتحاد السوفيتى فإننا أوضحتنا بهلاء أننا لا نريد عدم استقرار لكنكم علي صواب فى أن هناك فصيلاً فى الولايات المتحدة يعتقد أنكم غير جادين فى التزامكم». إننى أشر بقلق من أن «منع عدم الاستقرار قد يصبح سائراً نقمع الاحتجاج والرفض المشروع، وفى الواقع وفى المناسبات العامة أتحدث من الحاجة إلى التحرك نحو للشرعية، وحاولت أن أحصر الاستقرار فى نطاق الضيق للحد من التصحح. وفى أثناء حدوث هذا التخثير الكبير فإن إثارة الاستقرار يشبه ترسيخ الأمر الواقع، وحاولت سحب البساط من تحت شوغرنادزه، وأن أشرح التناقضات التي سيولدها استخدام القوة فى الولايات المتحدة». «إن هذا هو السبب الذى دعائى إلي الإشارة إلي أن طبيعة استجابكم علي الصعوبات بأنها وحشية وقمعية فى الولايات المتحدة. فسوف يقول معارضكم إن البيروستروكا وهم منذ بدايتها. وفى مثل هذه الأجواء سيكون من الصعب علينا مواصلة

* روجابر بريجنسكى كان مستشاراً للأمن القومى فى عهد الرئيس كارتر.

الاستجابة الإيجابية علي البيرسترويك. إن نظامنا وثقافتنا مبنية علي حق الفرد في التعبير عن غضبه سلمياً. وهذا هو سر الغضب والسخط العام في الولايات المتحدة بسبب ما حدث في ميدان تيانانمين. إنه يتعارض مع القيم الأساسية للشعب الأمريكي.

وليفته بأنني ألتفق مع فقهه من عدم الاستقرار في أوروبا الشرقية. فهذا هو السبب الذي كان الرئيس حذراً في التأكيد خلال زيارته بأننا نؤيد عملية الإصلاح. لكننا لا نريد بأي حال خلق المشاكل للاتحاد السوفيتي. إننا نعتقد مثلكم إن التحرك باتجاه مزيد من المصارحة سوف يستمر في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية. إننا نشيد بذلك. إننا نعتقد ويشدة أنه لن يكون بوسع أحد تغيير مسار العملية بمجرد تذوق ثمار الحرية.

ورد قائلًا: «عن استخدام القوة دعني أطمئنتكم بأن سياستنا تستهدف بناء أساس ديمقراطي وإنساني لمجتمعنا. وإن دخلي عن هذا باعتباره مبدأ يوجه خطواتنا. ولما يتعلق بالموضع العملي، فقد اضطررنا إلي استخدام القوة حينما لم يكن هناك سبيل آخر للتعامل مع الاشتباكات العنيفة بين مختلف الجماعات العرقية في أماكن مثل جورجيا. وكما تعرف فإن جورجيا هي مسقط رأسي. فقد حاول بعض المتطرفين هناك إشعال الإضرابات. لكن علي إيلائك أنه عندما أُرسلت إلي هناك أوقفت استخدام القوة بشكل قاطع ورفعت حظر التجول وأرجو تفهم أن أهم أهدافنا المقدسة الآن هي إشاعة حكم القانون في مجتمعنا، وبمساعدة لسنا في سبيلنا لاعتماد القوة في التعامل مع مواطنينا».

ورددت: «إنني مسرور لأن أسمع ذلك» وقول أن ألتحق بكلمة أخري قال شيفرناذر إن لديه نقطة إضافية حول أوروبا الشرقية. «إن قضية الاستقرار قضية بالغة الخطورة. دعنا نتصور انهيار آلية التعاون بين أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي. إن ذلك قد يعنى الفوضى. فالنظام القذافي للعلاقات الاقتصادية لا يمكن أن ينجح بين عشية وضحاها، ربما تعين استبدالها في غضون عشر أو خمس عشرة سنة بآليات أخري، لكن في اللحظة الزاهنة ليس هناك بديل سوي تنمية هذه البلدان. فالإصلاح سوف يستمر في بلدنا ولا يجب أن يتوقف لكن يجب أن يسير في أجواء استقرار».

وكان لطباعي أن سرعة الإصلاح في أوروبا الشرقية أصبحت تثير قلقاً متزايداً في موسكو. وأريدت أن تؤكد شيفرناдзе علي أن التغيرات قد تكسار علي الأرجح بما يفوق كل التوقعات. لقد أوضح الرئيس أنه لم يزر بولندا والسجر لتأجيج الاضطرابات والقتال أو تكثيف الضغط علي الاتحاد السوفيتي. إنني أريد التأكيد من أنني أفهم ما تقولونه: إن وجهة نظرنا هي أن هناك عدة بلدان تحاول التحرك نحو اقتصاد السوق ويطي هذا بالضرورة بده فص العلاقة المحكمة مع الاتحاد السوفيتي ولا اعتقد أن ذلك يجب أن يثير مشكلة من وجهة النظر السوفيتية، ومماثلت ألت علي صواب في ذلك الاعتقاد^{٢٢}.

ورد: نعم أنت علي صواب. إن الأمر مرهون بذلك بلبلان وشعوبها لتقرر لنفسها الكيفية التي يدين أن تسير بها عملية الإصلاح ومع من يريدون إقامة علاقات. فإذا ما خلصت إلي أن من مصلحتها تعزيز تعاونها مع الغرب وخاصة في المجالات الاقتصادية فهذا من شأهم. لكن لا يجب أن يساور أحد الشك في أن هذا سوف يستغرق وقتاً.

وفي تلك الليلة أبلغت للرئيس بأنني لا أشك في التزام شيفرناдзе بتجنب استخدام القوة داخلياً والسماح لدول أوروبا الشرقية بانتهاج طريق خاص بها، ولكن وكما كتبت، لقد خرجت بانطباع بأنني أتعامل مع رجل مثقل بالهموم وأكثر إنهاكاً عن ذي قبل. إنه يفتقر إلي الثقة ويصرني إحساس بأنه لابد وأن يكون سعيداً ليبحث معي البيريسترريكا ويطلعني عليها طيلة اجتماعنا. إن شواغله خير تنكار بما يركز عليه جورباتشوف الآن، وتنكار أيضاً بأن دور اهتمام شيفرناдзе يتحول بشكل متزايد إلي القضايا الداخلية.

وتأكدت وأنا أعادر باريس أن علاقتي مع شيفرناдзе تتطور في بعدين مختلفين. فهناك المستوي الرسمي الذي نبحث في إطاره للحد من التسلح والصراعات الإقليمية وقضايا دبلوماسية أخرى غالباً في جملات تضم مجموعات مصغرة يشهد بها الخبراء، وكان هذفا علي هذا المستوي هو تصفية تلك القضايا باعتبارها نقاط خلاف وأن نبحث عن أرضية للتعاون.

لكن علي المستوي الأكثر حسماً الذي تركز علي المستوي غير الرسمي حول مناقشاتنا علي التحول الداخلي في الاتحاد السوفيتي وضمننا علاقته بأوروبا الشرقية لم تكن زبيري

خارجية. بل محللين اجتماعيين تتشاطر المثلث والأفكار. وعكس شيفرنادزة الثورة التي تحتاج الكتلة الشيوعية. وجاء الدور على التطبيق على ملاحظاته مؤملاً أن تؤثر حججى على آرائه - رغم أنه تأثير هامشى - حتى تساعد فى تجنب كارثة محتملة تكثير قلقه وقلقى أيضاً.

مناقشات

بعد أن أمنت عطلة لمدة أسبوعين مع أسرته فى ويوميلج عدت إلى واشنطن فى نهاية آب أغسطس للإعداد لاجتماع جاكسون هول الـ ١٢. وكنت أريد أن يشكّل الاجتماع علامة فارقة فى علاقتنا مع السوفييت. لكن كان علىّ فى البداية أن أتحمّل مناقشتين: إحداهما دبلوماسية والأخرى سياسية.

بنارت أولاهما حول زيارة يلتسين إلى واشنطن فى ١٢ أول سبتمبر. وعندما التقىته فى وزارة الخارجية فى الساعة الثانية بعد الظهر ترك لدىّ صورة رجل قوى الهياض ضخم الجثة بشكل مروع أشبه بمهاجم كرة القدم الأمريكية لا صغر بالبرلمان وأكد مظهره البدنى الأشبه بالثور كثرة إشاراته وحركاته. وكانت يده الأشبه بالأسفاس تتجوزان للهواء لكنه كان يتدفق حماسة. وغمزنى إحساس قوى بأن هذا رجل عمل رجل صارق سوف يدمر الأمر الواقع بدلاً من تبادل للرقعة الدبلوماسية المعهودة.

كان القلق يساوره من أن الليبريستريكا والإصلاح فى الاتحاد السوفيتى يتحرران بشكل عام. وفيما أبدي تأييده لجورباتشوف أبلغنى أن القيادة السوفيتية ليس أمامها سوى أكثر من عام لتفصيل جهودها. وعن القضايا الاقتصادية استعرض نفس الفهم السوفيتى الخاطى لكيفية عمل السوق للحر. واعترف بأن الاستثمارات الأجنبية تمثل مفتاحاً للإصلاحات الاقتصادية وأشار من تلقاء نفسه إلى أن السوفيت أنفسهم بحاجة إلى تغيير قوانينهم والسماح بالملكية الخاصة.

وفى مذكرة بعثتها إلى الرئيس تلك الليلة بطون «بوريس يلتسين: ليس مجرد سوفيتى غير مأثوف. كتبت «إن يلتسين يتحدث بوضوح، ورغم اللبسة الصحفية العالية فإننى أعتبر الكثير من ملاحظاته الانتقادية موافية».

ولسوء الحظ لم تتم زيارة يلتسين للبيت الأبيض. فقد أُرُك عقد اجتماع في المكتب الأبيض مع الرئيس بعد الصمد الذي لاقاه مع بريكت سكوكروفت وبعد أن ذهب إلى حد دفعه إلى النوم أثناء حديث مطول من طرف واحد لنحو الساعة. وهذا هذا بعدد من المساعدين في البيت الأبيض الذين لا أعرفهم علي وجه التحديد إلى التقاد يلتسين في أحاديث صحفية غير مسجلة. ولم يكن تشويه يلتسين أو الحط من قدره في الصحافة يُخدم أي هدف علي الإطلاق. وفي الوقت الذي لم يتسبب فيه في أي أضرار علي المدى البعيد فقد استخدم لاحقاً صندبا كمؤشر لتأييدنا المفرط للوجهات جورباتشوف.

وفي الواقع كنا في ذلك الوقت نجرى تقويماً جاداً لعلاقتنا مع جورباتشوف. وفي مذكرة بطوان «علاق مننامية في الاتحاد السوفيتي: أزمة وشيكة؟ بتاريخ ٢٥ تموز يوليو أبلغني ديتس روس أنه يتأهب لإعلان سيناريوهات بديلة لمستقبل الاتحاد السوفيتي. وعكف موظفوه علي إعداد عدة أوراق. وصلتنى أولها في العاды عشر من أيلول سبتمبر. وحددت الورقة أربع سيناريوهات محتملة:

(١) تحديث التسلمية. (٢) انقلاب عسكري.

(٣) شل ما بعد جورباتشوف. (٤) انهيار ما بعد جورباتشوف.

وأوضح تعدد السيناريوهات أننا في حاجة إلي استراتيجية تمكننا من إدارة للموضوع المتنامي حول المستقبل السوفيتي. وكنت أشعر بحساسية تجاه لجنة جورباتشوف المشكوك فيها علي السلطة بعد التحليل الذي قدمه شيفرنادزة للأوضاع الداخلية في الاتحاد السوفيتي. ومافلته تلك الأوراق هو أنها عززت ميلى الذي يعود إلي أولكل الصيف بأنه يتحزن علينا أن نبذل أقصى ما نستطيع لإحراز تقدم مع جورباتشوف «لمبسه في للتغيير» علي حد تعبير بوب زوليك - وهو لا يزال في السلطة. وكنا علي يقين من أن جورباتشوف مستعد لتقديم تنازلات. ولنا متأكدين ممن سيخلفه، ولذا فمن المهم بناء علاقات قوية لتحقيق مصالحنا دون إغضاب الحلفاء المحتملين لجورباتشوف مثل يلتسين. وكانت وجهة نظرى دائماً هي أن يلتسين يفهم أنه يتعين علينا التعامل مع جورباتشوف. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي لم يشر مطلقاً إلي استيائه من الدهج الذي انتهذه.



وكانت المناقشة الثانية من صنعى أنا. ففي التاسع عشر من أيلول سبتمبر قررت عقد مؤتمر صحفى لاستعراض نتائج زيارة شيفرنادزه وسحاولة تشكيل أجواء «توقعات» للزيارة. ومضى كل شيء علي مايرام حتي سلفت للمرة الثالثة عن التطيقات التي أتلني بها جورج ميتشيل رعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ واتهمنا فيها بانتهاج سياسة «الترقب والانتظار» حيال التغيرات الجارية في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية. وفي جانب فإن دافع ميتشيل للإدلاء بالتصريحات هو كلمة ألقاها إيجلبيرجر في جامعة جورج تاون في ١٣ أيلول سبتمبر فقد قال إيجلبيرجر عن صواب أن هناك استقرار معيناً مرتبطاً بفئائية القطبية في الحرب الباردة. ومع ذلك فإن مجرد ذكر تلك الحقيقة هو امتقدينا للفرصة لاتهامنا بأننا مقنونون بالحرب الباردة.

وفي المرة الأولى التي سلفت فيها عن تصريحات ميتشيل أعطيت رداً دبلوماسياً رقيقاً وفي المرة الثانية كتبت في إعلان عدم موافقتي علي هذا الاعتقاد، ولكن في المرة الثالثة عندما صُفِّطَ عليّ للتعامل مع «انتقاد حاد غير مألوف لمجمل سياسة الإدارة» قررت أن أقول للأعور أنت أعور في عينه، وأوضح أن ميتشيل يلعب لعبة السياسة. وقلت: «حسناً دعني أتعامل مع الأمر بهذا الشكل بالقول إنه عندما يحظي رئيس للولايات المتحدة بتأييد سبعين في المائة لسياسته الخارجية، وكنت أنا زعيم حزب المعارضة فريما أقول شيئاً مماثلاً. إنه خطأ. واستشمرت الصحافة الحقيقة فيما قلته - لكنها تذكر أيضاً أنني «استدرجت» ومنحتها مادة لذيذة تجعل روليتها روليات ساخنة. ويرجع هذا لأن المنتظر أن يظل وزير الخارجية إلي حد ما فوق السياسة الحزبية بمنزلة النظر من الطبيعة السياسية للمنصب من الناحية العملية أو حجم للخبرة التي اكتسبها في الساحة السياسية.

وكم يبعث هذا علي السخرية في صنوه حقيقة أنه في الديمقراطية يصعب نجاح أي سياسة خارجية لا تستطيع اجتذاب إجماع سياسي داخلي.

جاكسون هول

وصل شيفرنادزه إلي واشنطن يوم الخميس ٢١ أيلول سبتمبر. وشهد الشهران اللذان مرا علي أحر مرة للقيحه فيها وضماً داخلياً أشد تفجراً. فلذا كان شهر تموز يوليو شهر

الاضطرابات العمالية في الاتحاد السوفيتي فقد كان شهر آب شهر مشكلة القوميات. ففي البلطيق نظمت مظاهرات حاشدة لإحياء الذكرى الخمسين لاتفاقية مولوتوف-ريبنتروب وريدت للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بإدانة فيديوس القومية في المنطقة، وهدت الحركات السياسية في جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز، وخاصة الجبهة الشعبية في أذربيجان.

ثم عشية اجتماعنا معني جورباتشوف في تنفيذ تهديده خلال الصيف وقام بتطهير المكتب السياسي. واستبعد ثلاثة من المحافظين. هم فلاديمير شيبشير بيتسكي وفكتور شيبيريكوف وفكتور نيكوبوف من المكتب السياسي المؤلف من اثني عشر عضواً يعاني أشد منتقدي جورباتشوف - إيجور لوجاتشيف - من العزلة.

وانضمت إلي الرئيس في الساعة للدانية ظهراً في أول اجتماع مع شيفرنادزة. وبدأ الرئيس بالقول: «إنني أشعر بالغبطة للطريقة التي انتهكنا بها من المواجهة إلى الحوار. إنني أنهي لكم الدجاج وأنتهي أن تمنح إصلاحاتكم قديماً لإقامة علاقة أفضل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي».

وقال شيفرنادزة: «أشكركم إننا نريد الانتقال إلى مرحلة الشراكة معكم. فحلل الأعيام الثقيلة الماضية وقمنا أكثر من أربعمائة اتفاقاً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وحدثت نيادلات كثيرة إننا نفهم اهتمامكم بما يجري في الاتحاد السوفيتي. إننا نقوم بإعادة تقييم الأمور. لكننا لا نريد إلغاء كل ما أنجزناه في تاريخ الاتحاد السوفيتي. فبدونه لن يمكن إجراء إصلاح. فطبي أساس الإنجازات الجادة والجمهورية فقط يمكننا التخطيط للمستقبل، لقد حاربنا سويماً في الحرب العالمية الثانية - وانقذنا الحضارة. فالإصلاحات تشمل الآن كل شيء في الاتحاد السوفيتي. إننا لنحذف خمس عشرة دولة وقوميات متعددة. إننا نتبع الآن سياسة قوميات سوف نمكنا من إعادة الأمور إلى نصابها. فكل دولة ذات سيادة وتكتمع بحكم ذاتي أو ستكون كذلك. لقد اختلفنا مؤتمراً حول هذا الموضوع. فالاتحاد السوفيتي يشهد عملية تسييس هائلة، ونحن نعتقد أن هذا الوعي السياسي يكفي رغم أنه يثير مشاكل لنا».

ومعني قائلاً بنبرة تأكيد: «لقد اجتدنا مرحلة بالغة الأهمية. إننا نعمل للخطب علي التفاهر في نظامنا الاقتصادي مع تلك النظم السائدة في الدول الغربية. إننا لا نسعي لمساعدة

منفردة. إننا نريد تعاوناً اقتصادياً. فلنصرف نتجج البريستويكا. إن لدينا بعضاً ممن يسمون أصدقاء يقولون إن أيامنا محدودة، وهذه ليست وجهة نظر جادة. إنني أعرف بلدي وأعرف شعبي. وسوف تكون لنا اليد الطولي.

وما لبث أن سلم : سالة طال لتفطارها إلي الرئيس من جورباتشوف حول الحد من التسليح. وكان الرئيس فقد بحث رسالة إلي جورباتشوف في ٢٠ حزيران يونيو لخص فيها خلاصة مراجعتنا لمختلف المواقف المتعلقة بالحد من التسليح. ومن وجهة نظري شكلت رسالة جورباتشوف المؤلفة من ست صفحات كاملة بدون سطر خال تغيراً في نهجه تجاه الحد من التسليح. فقد كانت موجهة بوضوح ويقدر أكبر نحو تعزيزك للمفاوضات نفسها، وليس تسجيل نقاط علاقات عامة.

والأهم أن لغتها كانت غامضة بقدر يكفي للإشارة إلي احتمال استعداد السوفيت لإسقاط الرمح بين سنارت ومباحثات حرب النجوم. وشكره الرئيس واتفقنا علي بحث قضايا الحد من التسليح تفصيلاً في ويومينج.

وانضم لي شيفرنادزة في الساعة السادسة والنصف مساءً في قاعدة أندروز الجوية لنستقل الطائرة إلي ويومينج. وبدلاً من أن نستقل طائرة البوينج النفاثة طراز ٧٠٧ كالمعتاد ركبنا طائرة من طراز دي سي ٩ قصير العمر في مطار جاكسون هول الذي يقع في حديقة جراند تيتون الوطنية. وفي الكابينة الصاخبة للطائرة انضم لي وشيفرنادزة كالمعتاد كل من سيرجي تاراسينكو وديليس روس ومترجميننا والمفبر دولين* وسفيرنا لدي موسكو جاك ماتلوك.

ويعد تناول العشاء المكون من دجاج بالخبز الحار والأرز والبارالا بالمشروم وقطائر الجبن الذي أعده طهاة لقوات الجوية، بدلت المحادثة بسؤال شيفرنادزة عن تقويمه لمؤتمر القوميات. وكان ما تلقينته تحليلاً دقيقاً محقداً، وبدأ قائلاً: «إن مشكلات القوميات هي أسحب المشاكل التي تواجهها وأكثرها حساسية». ومضني إلي شرح جذورها التاريخية منوهاً إلي «أنه من حيث المبدأ هي ظل لينين كان يتعين أن تتولي الحكومة الاقتصادية قضايا الدفاع

* سفير الاتحاد السوفيتي لدي الولايات المتحدة حينذاك (المترجم).

والدبلوماسية، علي أن تظل بقية السلطات والحقوق في يد الجمهوريات. لكن الأمور سارت بشكل مختلف في الممارسة العملية. وأضاف: «لقد تشبثت مركزية هائلة للسلطة». ولم تحدث هذه المركزية بسبب آراء زعمائنا اللوهمية حيث ذلك فقط بل أيضاً بسبب الظروف الحرجة التي وجدت بلادنا نفسها فيها. وهناك حاجة للمركزية إذا كان يتعين تحويل بلد ضعيف إلي بلد قوى. وكان لذلك فضل عظيم - خلال فترة حرجة لأنني لا أنصوّر أن ندخل حرباً بدون مركزية. وربما كان هناك مبرر ما بعد للحرب للحفاظ علي اقتصاد مركزي قوى. وكان علينا في المقام الأول أن نعيد البناء. ولكن في السبعينيات والسبعينيات كان من الواضح أن الفجوة بين حقوقنا الدستورية والممارسة العملية في الجمهوريات باتت كبيرة وضارة أيضاً.

وأضاف: «وفي ذلك الوقت ظلمنا أنفسنا بالاعتقاد أن مشكلة القوميات سويت تماماً. وكان هذا غير صحيح، وكان من الخطأ أن نفكر بهذه الطريقة. فكل دولة كالنمى حتى ينمو ويتطور ومن الخطأ الاعتقاد بأن مشكلة القومية يمكن أن تسوي مرة واحدة إلي الأبد». وسمعت في كلماته صدى لتطبيقات زوجته مانولي للمؤثرة في أيار مايو.

ومعني إلي القول إنهم يضعون سياسة جديدة خاصة بالقوميات لكن كان يصعب وضعها قبل خمسة وعشرين عاماً. وستكون اللامركزية هي المبدأ الحاكم الجديد. وسيظهر بمقتضاها ترتيب سياسي جديد بين المركز والجمهوريات. إننا نقوم بعملية بحث عن حل سياسي للعلاقات بين الجمهوريات والمركز. ولو جاز لنا التحدث من زاوية رسمية بحثة ربما وسعى القول إن كل شيء يبدو علي ما يرام. وفي المقام الأول فإن لكل جمهورية برلماناً ويمكنها مناقشة قضايا تتعلق بموازنة الجمهورية وقضايا أخرى. ولكل جمهورية أيضاً رموز سلطة للدولة. ول سوء الحظ فإن تلك الرموز لم تدرج إلي واقع. والحقيقة أنه يتعين إحالة كافة القضايا المهمة إلي المركز، ونحن الآن في سبيلنا إلي عكس هذه السلية. فسوف نعاد كل تلك القرارات إلي الجمهوريات.

كانت لحظة مكاشفة. لأنها أبرزت أننا نتحدث بصفة غير رسمية أكثر من إبرازها للصدق. فقد كان شيفرنادره صريحاً من قبل. لقد كانت نقطة تحول في علاقتنا لأننا صرنا

بعدها تتبادل الأحاديث والشجون بشكل غير رسمي في جلساتنا المفردة، ما لم يشعر أى منا بواجب طرح المنطق الليبروقراطي السائد وراء الموقف الحكومي في قضية مثار خلاف مثل الحد من التسليح.

وكلما أفاض في الحديث كلما تأكدت أن السوفيت لم يوصفوا بعد الكثير من الأبعاد الرئيسية للعلاقة بين المركز والجمهوريات. وبدأ لى أن معرفتهم ضئيلة بالكيفية التي سينتقلون بها من نظام مركزى مفروط في مركزيته وجموده إلى نظام لامركزى مفعم بالحيوية. واتضح لى أن توجههم هو ترك الأمور تسير بالتصور الذاتي بمجرد أن يخفف النظام قيوده. وانتهزت الفرصة لأطرح موقفنا حيال البلطيق بوضوح لا لبس فيه. وبدأت بالقول: «أعرب أن هذه منطقة حساسة لكم، لكن على أن أبلغكم أن لنا مشكلة إزاء البلطيق. بالقطع سمعنا وأنا أقول إننا نريد حقيقة نجاح جهود الإصلاح ولنا أن نعمل شيئاً لتعقيد العملية. لقد قلت علناً إننا لا نريد أن نرى زعزعة في الاستقرار في الاتحاد السوفيتى لكن دعنى ألق لكم إن سياسة الولايات المتحدة علي مدار الأربعين عاماً الماضية لم تعترف بضم دول البلطيق إلى الاتحاد السوفيتى فدول البلطيق دول مستقلة فلا يزال هناك ضغط عام قوى في الولايات المتحدة بشأن دول البلطيق» وأردت إقحامه أن سياستنا تجاه دول البلطيق تعود بجذورها إلى حقائق سياسية داخلية وتاريخية، وأن الرئيس لا يمكنه التحول عن تلك السياسة حتي لو أراد (وبالقطع لم يكن يريد).

واستطردت في القول: «إننا نعى تماماً قلقكم تجاه السيادة والحدود، وأنكم لن تغطوا شيئاً لمقاومة تلك المشكلة. ومع ذلك ويقدر الجهود المنضمة التي قد نبذلها لتحريك علاقاتنا معكم فسيكون من الصعب للغاية الاحتفاظ بعلاقات إيجابية إذا توصلتم إلي أن الضرورة تقتضى منكم استخدام القوة في البلطيق. دعنى أكتفى بالقول إنه سيصدر عدا رد فعل قوى للتأية، ولذا فإننى أمل في إيجاد حل سلمى لمشكلة القوميات بشكل عام وفي البلطيق بشكل خاص. أننى أثير القضية فحسب كي تستشعروا حجم الضغوط التي تتعرض لها. إننى لا أثير هذا بهدف الضغط عليكم أو ترهيبكم. وسمح لى هذا الحديث بتخفيف المضمون الشخصي للرسالة مع الاحتفاظ بصرامة الخط السياسى بوضوح. إنها فكرة جيدة للغاية أن يتم دائماً تنمية أى أبعاد شخصية مع المحاور في القضايا مثار الخلاف.

ورد باستعراض موجز حول كيف سيؤدي استخدام القوة إلى تعريض الليبرستروكا للخطر. وأما بالنسبة لتفكك حيال استخدام العنف دعوى أكتفى بالقول إن هذا مستبعد تماماً من جانبنا سوف يعنى هذا انتهاء الليبرستروكا. إنه سيؤدي إلى استعادة ما اعتدنا أن نسميه «ديكتاتورية البروليتاريا» (كان هذا تعريفاً للماركسية من جانب شيفرناذر حيث استولى البلاشفة على الحكم تحت شعار ديكتاتورية البروليتاريا). لا يمكننا أن نعلم نهجنا. لا يمكننا العودة إلى الماضي. وقد اضطررنا للجوء إلى القوة في بعض المناطق. لكن ذلك كان مقتضراً على ملابسات وحوادث قامت خلالها جماعات عرقية مختلطة مثل الأذربيجان والأرمن بارتكاب عمليات إبادة. فالقوة كانت مطلوبة هنا لاستعادة النظام. أما في البلقان فلا أحد يعتزم اللجوء إلى القوة وكما نعرف فقد استخدمت القوة في جورجيا وقد حدثت عواقب مأساوية. وكنت أنا وجورباتشوف خارج البلاد عندما اتخذ هذا القرار. فقد اتخذ هذا القرار من جانب سلطات الجمهورية وعندما عدنا ورأينا ما حدث أفسسنا المسؤولين عنه. وقد نددنا بالقرار. وأوضحنا أن استخدام القوة لا يتفق مع مبادئنا.

ونطرق إلى بحث ما قال إنه الصعوبات العملية والأخطار الحقيقية التي ستعرض لها استونيا لو أراد الانفصاليون للخروج من الاتحاد، وفي وضع ينتمي فيه ثلث سكان استونيا إلى القومية الروسية. ومضي إلى القول إن معظم المواطنين لا يريدون الانفصال وأن الانفصال غير عملي على أية حال. وألمحت عليه محاولاً حمله على التفكير في الكيفية التي قد تفكر بها ممكنة في خلق عملية سياسية للخروج من المأزق الذي أوجدته في البلقان.

وتساءلت منحاذاً إلى جانبه من أجل الجدول: «أولاً لو أن الانفصال غير عملي بالمرّة واختارت الأغلبية في أي جمهورية البقاء في الاتحاد فلماذا لا تكون المشكلة بإجراء استفتاء؟» فلو منحتم المواطنين حق تقرير المصير فسوف يصوتون على ما يريدون، ولذا ما قررت الأغلبية للتصويت لصالح البقاء في الاتحاد فإن يجد الانفصاليون قاعدة ينطلقون منها نحو الانفصال. ولم يماورني أي شك في أن معظم المواطنين سيصوتون للاستقلال بالفعل لكنني أحسست أنه بالتأكيد على الانتخابات والاستفتاء فإنه يمكن تحقيق الاستقلال في إطار عملية سلمية وتدرجية. وقلت: «ثانياً: أليس هناك فرق بين جمهوريات البلقان التي كانت مستقلة من قبل وبين الجمهوريات الأخرى التي لم تنعم بالاستقلال مطلقاً؟»

وأدرجت أدنى قمصوت في الضغط عليه عندما رد في تشوش قانوني: «إن مسألة الاستفتاء قضية دستورية». إنها قضية مرهونة بالدستور الوطني أو للدستور الاتحادي وبسور كل جمهورية. والدستور العالي يخلو من أي نصوص حول الاستفتاء، وحول هذا الموضوع توقف حديثنا غير الرسمي والتزم بدفاع رسمي عن موقفه، وكان يعي مثالي أن نصوص دستور برجينياف لم تعد مناسبة.

وعن القضية الموسعة التي أثيرتها رد في الجانب الأكبر بما يتم عن أنه زعيم سابق لجورجيا، ويقدر أقل باعتباره وزيراً لخارجية الاتحاد السوفيتي. «قد تلاحظ أن جمهوريات القوقاز كانت مستقلة للثلاثة أعوام بعد ثورة أكتوبر. كما كانت هناك حكومات منفصلة في باكو وبيرفان. وقد تشكلت تلك الحكومات في الواقع في ظل كيرائيسكي. وهكذا فرما لا يكون هناك اختلاف كما نعتقد، وفي الحقيقة لو تركت جمهوريات البلطيق الاتحاد فقد تقول شعرب القوقاز فلماذا لا نتركه نحن أيضاً؟».

وبصراحة إنني أوافق علي أن يكون هذا جزء من مناقشتنا. فنحن لا نضفي المناقشة. وبعد عامين وفي أعقاب الانقلاب الفاشل، وفيما أعلنت كل جمهورية سوفيدية استقلالها تذكرت كلمات شيفرنادزة كنبوة فريدة.

أما وقد وجدت نفسي في طريق مسدود بشأن البلطيق تحولت إلي بحث مسألة أوروبا الشرقية. وقلت لشيفرنادزة: إننا لا نريد أن نثير المشاكل للسوفيت في المنطقة. إننا لا نرغب في إقارة القلائل أو تأجيج الإضطرابات. لكننا سمساعداً لأوروبا الشرقية علي إقامة الديمقراطية والسوق الحرة.

وأشار شيفرنادزة إلي أن اتعلم الاستقرار في بولندا إن يفيدنا أو يفيدكم. وحذرنى من الأخطار المترنة بقطع العلاقات الاقتصادية فجاء بين الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية. ولذا فلو قطعتم كافة العلاقات فسيكون انتحاراً تاماً مثلما سيكون انتحاراً لدول البلطيق. ولا يستطيع أحد أن يطوى بولندا تحت جناحيه فهي باليقين ليست ألمانيا. نعم بوسعهم العمل مع بولندا، لكن ما من أحد يستطيع إلقاء الأموال التي تريدها بولندا. نحن فقط الذين فعلنا. نحن فقط الذين أهدرنا أموالنا.

ورداً علي سؤال حول المنظمات الأمنية والاقتصادية قدم اقتراحاً: «دعنا نحل كلاً من حلف شمال الأطلسي وحلف وارسو. دعنا نتخلص من حلفائنا وحلفائكم. فحينما توجد حلف الأطلسي، سيتواجد حلف وارسو. أما عن (CEMA) وهو اختصار منظمة الكوميكون بالأحرف الروسية - وهي للمنظمة الاقتصادية لدول حلف وارسو - فإنها في حاجة إلي إعادة هيكلة. فإذا أعادت المنظمة هيكلتها نفسها، وتحوّلت إلي منظمة فعالة فسوف نستطيع مواصلة البقاء. فإذا واصلت العمل بطريقتها الحالية فلن نخدمنا أو نخدم حلفائنا. إننا نعمل علي إصلاحها. لكن سوف نتابع كيفية عملها. هل يسعني الاستشهاد بتقديم ما قاله كول في مؤتمر حزبه^٥. إذا لم تكن قد قرأته فليكن قراءته فقد يفيد.

إنه أشبه بالتصريحات التي أدلي بها الزعماء الألمان في الثلاثينيات وقد وادنت قلناً بالخاصة لنا.... لقد تحدث بلهجة إنذار. بل إنه قال أيضاً إن الاتحاد السوفيتي علي شفا الانهيار والكوميكون علي شفا الانهيار، ومهمة العرب - علي حد تعبير كول - هو تحديد ما يتعين عمله في ظل تلك الملاحظات. ولم يكن لدى علم بالتصريح الذي يتحدث عنه شيفرنادزه. لكن النصح حينئذ أن المسألة الألمانية ماثلة في عقول السوفيت، بل إنها تلمس أوتاراً حساسة لا تلمسها قسائيا أوروبية أخرى. ورددت بالقول بأننا لا نريد زعزعة الاستقرار في أي مكان في المنطقة. إن «مانود لي دراه في أوروبا الشرقية هو أوروبا كلها وحررة حيث نزول التقسيمات وأن يجر هذا بطريقة سلمية».

وأبدى شيفرنادزه موافقته قائلاً: «من المهم أن نحترم الحقائق القائمة، وكان يشير بوضوح إلي ألمانيا الشرقية. ورددت بالقول: «مع تقدم الليبرستريكا وتطبيقاتها في جمهورية ألمانيا الديمقراطية فربما لا يسع لصرء أن يري الكثيرين الذين يرغبون في الخروج من جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وكما نعرف فإن الليبرستريكا تتحدث في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وعاد إلي عظامته «هذا حقيقي، لكن لكل دولة أن تقرر الطريقة التي تريد أن تعيش بمقتضاها».

ولجأت إلي المنطق قائلاً: «عندما يكون هناك الآلاف للذين يسعون لمغادرة البلاد فإنهم يقولون شيئاً واضحاً عن النظام وكيفية أدائه. ورد قللاً «حسناً. هذا ليس حقيقياً علي الدوام.

٥ الاتحاد السوفيتي الديمقراطي (المترجم)

إننا في الاتحاد السوفيتي نمر بمرحلة نمنح فيها حريات أكبر، ويغادر البلاد الآن نحو مائة ألف شخص سنوياً. إنك تدرك أنه من زاوية حرية التعبير لم يكن سجلنا جيداً، والآن يريد الناس أن يغادروه لقد كانت حالة نادرة ألزمت فيها جنود شيفرنادزة في النظام السوفيتي التمسك بالدفاع عنه.

ومعني إلى القول: «بالنسبة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية علي المرء أن يعترف بأنها تتمتع بمستوي معيشي أعلي، ولديهم بنية أساسية اجتماعية متطورة. وقد حلت مشكلة الإسكان لديهم إلي حد كبير، ولديهم مراكز رعاية. وهم يفرزون الكثير من أبطال الرياضة».

وقلت مواصلاً الضغط عليه: «إن ما هو تفكيرك لكل هؤلاء الراغبين في ترك البلاد؟». وقال: «حسناً. ربما كان تشتت الأسر والأقارب هو الذي يلعب دوراً إلي حد ما. وأخيراً ما هو إدراكه «غير الرسمي» يخطب علي منطقه «الرسمي». «لكن دعني أقول إن الأمر متروك لهم لتسوية مشكلاتهم. إن الأمر بيدهم. فلو كنت مكانهم لتركنت من يريد مغادرة البلاد أن يغادرها، وبالطبع لو غادر مليون شخص فسوف يخلق هذا مشكلة خطيرة لأوروبا الشرقية، ولكنني أتحكم بخرجهم بخرجون». وفيما استمرت مناقشتنا حول ألمانيا بصنع دفاق فقد كانت التناقضات والتوترات الداخلية في عبارات شيفرنادزة بالغة الوضوح، وبدون شك كان العمل مع السوفييت في إدارة للتعبير في ألمانيا يبدو شديد الصعوبة والاختلاف عنه في أي بلد في أوروبا الشرقية.

معني جاكسون هول

هبطنا في أجواء جاكسون هول الجبلية الصافية المنشطة ثم اجترينا البساط الأحمر، وقدم لنا الحاكم مايك سوليفان هدايا عبارة عن قبعات كابوي ومعاطف طويلة. وبدأت الإثارة فعلاً علي شيفرنادزة والوفد المرافق له لوجودهم في الغرب الأمريكي.

وعلي مدار الأيام الثلاثة التالية عقدنا ما جملة تسعة اجتماعات حول مختلف جوانب العلاقات بيننا. وأحرزنا تقدماً في كل مجال من المجالات، وأعتقد أن سلطة جبال تيتونز

الشامقة القريبة ونهر ستيك الذي يجري أمامنا ورحابة البيت الريفى على بحيرة جاكسون هول قد ساهمت فى التوصل إلى معظمه. وبالطبع كان عقد الاجتماعات كابوساً لوجسدياً تكن لم ينلله سوى الجهد الشاق والخلق من جانب كل من جروميرز وماتيو سميث مسؤول الاتصال السياسى مع البيت الأبيض ورجال المهام الصحية فى المشاكل اللوجستية فقد تمكنا من جلب زوج من الليوث للزعرى فى التهر عند سفح الجبال لتكون خلفية لصورنا للتذكارية.

وكان من الواضح من أسلوب عمله أن شيفرنادزة مشغول بالقبضات الداخلية. وكان منزناً هادئاً للنفس كالمعهد به دائماً. لكنه أكثر من القزاة من مذكرات عما كان يفعل من قبل. كما استدعى أعضاءه فى وفده أكثر من ذى قبل، ومن دون شك فإن شاعله بمؤثر القوميات الذى انتهى لتوه يفسر هذا الانشغال إلى حد كبير.

وعززت مناقشاتنا للإصلاح الاقتصادى هذا الانطباع. ومن أجل هذه المباحثات اصطحب شيفرنادزة نيقولاى شميلف، وهو اقتصادى شاب «راديكالى» متبع يؤمن بالسوق الحرة. وتركز بحثنا حول ما يمكن عمله لزيادة قيمة الروبل وزيادة القدرة التنافسية الداخلية، وإقامة شبكة ضمان اجتماعى ونظام للتصوير. كانت كل تلك الخطوات خطوات ضرورية بالنسبة لهم للمضى فمما فى الإصلاح الاقتصادى الحقيقى. ومن ثم جعل الروبل عملة قابلة للتحويل فى نهاية الأمر. وأحياناً ما بدا أن شيفرنادزة قد اصطحب شميلف ليلقنه درساً اقتصادياً وهو يتباحث معنا. ومن دون شك كان شيفرنادزة يأمل أيضاً فى أن يرتفع رصيد شميلف فى موسكو بسبب مشاركته فى هذا الاجتماع.

وعن قصة التحد من التسلح سألت شيفرنادزة بصراحة مطلقة عما إذا كان الاتحاد السوفيتى لم يعد يربط معاهدة ستارت بالتوصل إلى اتفاق فى مباحثات حرب النجوم، وقال: إن هذا أمر حقيقى وهو ما ورد ضمناً فى رسالة جورباتشوف. بل ويمكن التوصل إلى اتفاق لخفض الأسلحة الهجومية الاستراتيجية حتى إذا لم يتم التوصل إلى تفاهم حول معاهدة حرب النجوم أو ما هو مسموح بموجب معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية. وكان أى تقدم نحرزه حول قضايا محددة فى ستارت سيظل من قبيل اللطى حتى نلحق هذا الربط. ووافق شيفرنادزة أيضاً فى جاكسون هول على موقفنا بصراحة استبعاد صواريخ كروز

التي تطلق من البحر من معاهدة سنارت - رغم أنه اقترح ضرورة معالجتها في إطار جهد أشمل حول الحد من التسلح لليحري.



وقومنا أيضاً إلى اتفاق حول القضايا الرئيسية الأخرى الباقية في مباحثات للتجارب النووية واتفاق الأسلحة الكيماوية للتفاني. ولم يكن للتقدم الذي أحرزناه في هذه المجالات مجرد مؤشر علي أن تعاوننا يمكن فحسب أن يصفى قضايا قديمة مثل التجارب النووية التي تطرت لخمسة عشر عاماً. بل يمكن أن يضمن تقدماً مهماً في مجالات أخرى، وكان للرئيس شخصياً قد أعد معاهدة الأسلحة الكيماوية وهو نائب للرئيس. كما خصص خطاباً كاملاً لها خلال حملة التوعية من أخطار انتشار الأسلحة النووية. وكان مصمماً بنفسه علي رؤية إزالة الأسلحة للكيماوية. وفي كل مرة طلبت فيها مساعدته في تذليل عقبات البيروقراطية الحكومة الأمريكية لم يخل عليّ بجهد. وأصبح عملي مع شيفرنادزه في ويومينج حجر زاوية لمبادرة أشمل بشأن الأسلحة الكيماوية أثناء لجهته. جاءت الجمعية العمومية العامة للأمم المتحدة بعد بضعة أيام.

وبالنسبة للصراعات الإقليمية أبلغ شيفرنادزه للرئيس في واشنطن، إننا عند عودنا. فنحن لا نرسل أسلحة إلي نيكاراغوا. وفي جاكسون هول استمر في القول بأن السوفييت لم يردوا يزودون نيكاراغوا بمعدات عسكرية. وقال: إنه لا يسهه الحديث نيابة عن كوبا. لكنه يعتقد أن إمداداتهم تقتصر. والأهم أنه أبلغني بأنه لو كانت لدى مطبوعات ولقعة حول شحنات تقدمها هافانا أو مانانجوا إلي جبهة فلانجوند ومارتي للتحرير الوطني في السلفادور. فيجب أن أقدمها له، وسوف يبحثها مع الأطراف المعنية. وقال: إن الاتحاد السوفيتي إن يعتبر هذا التصرف تصرفاً ودياً من صديق إذا كانت تلك الدول تنتهك الالتزامات السوفيتية.

وفي المقام الأول فقد أحرزت تلك الإنجازات في أجواء صريحة غير رسمية. فلم أحطم أنا وشيفرنادزه الحواجز الرسمية في مباحثاتنا فحسب. بل سري للشيء نفسه علي أعضاء الوفدين. وكان إحساسي أن ويومينج دخلت حقبة جديدة في علاقتنا الشخصية، وأن تلك

العلاقات أصبحت مفتاح التقدم للذي أُحرزَ خلال الأحداث المفيرة التي شهدنا الخريف مثل
تفادى المشاكل الداخلية للسوفيتية، وتحرير أوروبا الشرقية لنفسها من الاتحاد السوفيتي.

وفي مأدبة غير رسمية في آخر لوالينا في ويوموتج فاجاً شيفرنادزة للجميع ومع شفاف
قلبي عندما أهداني لوحة ملونة للمسيح وهو يعلم للشعب رسمت في روسيا قائلًا: «كما نرى
حتى نحن الشيوعيين نغير أرامنا الدولية، ويدورى أهديتك حذاء كاويوى مداعباً إياه: «إن هذا
للحذاء يساعد الناس هنا في اجتياز الأراضى الصعبة أحياناً. وأنت تعرف أنني أفكر في
طريقة عملنا، فالإنسان ربما يتحمس طريقه ويحافظ على أقدامه مطبقة بالأرض، ولذا فقط
خطر ببالي أن حذاء كاويوى قد يساعدك في موسكو. فلا أعرف كم هي زلقة الأرض التي
تنتظرنا جميعاً».

الفصل العاشر

سقوط السور

فليبارك الرب أمريكا. شكراً على كل ما بذلتموه سعيدي.

سكوت تير هانز نيتريش جينشر

وزير خارجية ألمانيا لوزير الخارجية بيكر

تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٩

في عالم السياسة، الكلمة هي العملة السائدة. فلو استخدمت بحصافة يمكنها بناء عاصمة سياسية وإقامة إجماع عام أو إثراء أمة. لكن عندما تكهد أو توظف بدون فعالية فيمكنها أن تغش مرشحاً وتقضي علي سياسة. بل وحتى تقضي علي حكومة. والسياسة فوق هذا وذلك هي الإقناع أساساً حتي في عصر المودم والميكروبروسيسور ولتليفونات الخليوية والفاكس بنصير النظر عما إذا كانت الكلمة مسعورة أم مقروعة.

وهذا حقيقى تماماً في السياسة الدولية. ويجرى الحوار بين الدول علي مستويات مختلفة يأتي في مضمونها المناقشات الخاصة التي تجري سرّاً بين الحكومات. لكن الحوار العلني أيضاً له أمراً حاسماً. وكوزير للخارجية يبدأ صباحي المعتاد بأن يصطحبني الفريق الأعلى فيما بين الساعة ٦:٤٥ والسابعة والرابع صباحاً في رحلة قصيرة بالسيارة لا تستغرق سوى عشر إلي اثنتي عشرة دقيقة إلي المبني، وإلى الطريق أتفحص جدول المواعيد لليومي المعد سلفاً في الليلة الماضية، ويضلي كافة المواعيد المقررة لليوم من اللناحية الإجرائية والموضوعية. وبمجرد الوصول أحظي بحمية جون كرولى أخص مساعدى وزير الخارجية منذ هنرى كيسينجر. ويأذرنى كرولى بالتمساة رقيقة تساعدنى علي أن أبدأ يومى بيسر.

وعلي الإفطار أقوم بمراجعة تقارير المخابرات لليلة الماضية سواء أكانت واردة من المخابرات المركزية أو مكتب المخابرات بالخارجية (INR) ثم استمرص أقوال الصحف حول فضائيا السياسة الخارجية الواردة في مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات. وبالإصامة إلي ذلك أقوم بقراءة موجز للشرة الصحفية اليومية للبيت الأبيض. ولم يكن هذا مجرد طريقة لمناخبة الأحداث المالية لأن الكثير من على كوزير للخارجية يتم عبر الحوار العلني. ولطالما قيل إننى أولى اهتماماً كبيراً بالصحافة. وهذا حقيقى فالصحفيون أداة وصل أساسية لا غني عنها بين صانعى سياسة الأمن القومى وجمهورهم الذى يشمل الحكومات الأجنبية والرأى العام والكونجرس الأمريكى والشعب الأمريكى.

ومن رواية صبط إيقاع عملاً تبقي متابعة للتطبيقات الصحفية أمراً بالغ الأهمية. فلو أننى ألقيت خطاباً أو أدليت بشهادة أمام الكونجرس - علي سبيل المثال - فمن المهم أن أري كيف تنقلها دون أوبير دورفر أو ديفيد هوفمان في الراشنطن بوست أو دويلي مكمانوس أو

نورمان كعبستر من لوس أنجلوس تايمز وقوم فريدمان من نيويورك تايمز ووالث موسبيرج أو بوب جرينبيرجر من وول ستريت جورنال وزملائهم. لأن عناوينهم ورواياتهم ولقبياساتهم تلقي رواجاً هائلاً لدى الدوائر الدبلوماسية عن الخطاب نفسه. إنني أعرف الرسالة التي اعترفت نرجيحها. فبوسعى قراءة أقوال الصحف لأقرر ما إذا كنت قد نجحت في توصيل رسالتي - ثم استغل رد الفعل لتصحيح ما نقوله علناً (أو سراً) لحجب أو تعديل السياسة في اتجاه أو في آخر.

وبالطبع فإن الحكومات الأخرى تفعل الشيء ذاته، ولا سيما في دول مثل ألمانيا وإسرائيل حيث تحظى قضايا السياسة الخارجية بتدقيق مكثف من الصحافة. وفي أغلب الأحوال وقبل عرض اقتراح فإنها تلوح الفكرة «بتسريبها» للصحافة. وبالطبع فإننا نفل الشيء نفسه، وهكذا تدار الدبلوماسية.

ويكمل هذا «المصدر المفتوح» كما درجت دوائر المخابرات علي تسميته بالطبع بتقارير الاستخبارات مثل النشرة اليومية للرئيس (PBB) ونشرة الاستخبارات القومية (NID) التي تصدرها المخابرات المركزية، والموجز الصباحي لوزير الخارجية الذي يحده مكتب الاستخبارات بالخارجية الذي يرأسه القدير دوج مولهولاند الذي عمل معي في وزارة الحزاة. وحتى في تلك النشرات السرية للغاية يدور كثير من التحليل والمعلومات حول التصريحات العامة للمسؤولين الأجانب، وتقييم المعدي الذي تذهب هذه التصريحات في تقديم انعكاس دقيق للخطط السرية للحكومات المعنية.

وإلي جانب ما نقوله الحكومات سراً أو علناً هناك بالطبع ما تفعله تلك الحكومات. ولعل أكثرها وضوحاً هو استخدام القوة. وهذا تقاطع السياسة الخارجية والسياسة الدفاعية. فالعرب هي الأداة النهائية والأخيرة لقوة أي صراع دولي. وبالطبع فهي أقلها استخداماً. وهذا هو السبب الذي يقال في واشنطن أنه بينما تتولي وزارة الخارجية إدارة السياسة (ألا وهي الكلام) فإن وزارة الدفاع تكلف علي تطوير برامج (ألا وهي الأسلحة والقوات العسكرية).

وقبل فترة طويلة من إقدام الدول علي خوض الحرب - أو حتي التفكير في خوضها - فإن حكوماتها عادة ما تكون قد تباينت (بالمعني الحرفي) آلاف الكلمات سراً وعلناً بطريقة

مباشرة أو غير مباشرة . ولقاء العرب الباردة كان خطر نشوب حرب مأساوية بين القوي العظمى كبيراً لدرجة كان للدبلوماسيون يستخدمون الكلمات كبديل للقوة ، ويوجهون رسائل شديدة اللهجة بدلاً من بشاشة البحرية المدججين بالسلاح لتحقيق أهدافهم .

نقاط المصلحة المتبادلة

اتضح لي بعد اجتماع ويومينج الوزاري أن للعلاقات الأمريكية السوفيتية انتقلت إلى مرحلة نوعية جديدة . فقد أحرزنا في جاكسون هول تقدماً في كل مجال من مجالات علاقاتنا . فقد انتقلنا - علي حد تعديري أثناء الاجتماع - من المواجهة إلى الحوار ، إلى التعاون . وكنت عارماً علي بدل قصاري جهدي لترسيخ هذا التغيير - ليس فقط من زاوية السياسة الحكومية الأمريكية - بل أيضاً مع الكونجرس والرأي العام في مجمله . وكان اعتقادي هو أن الجدل العام لن ينتهي . فإذا كان ثم شيء آخر فهو أن مزيداً جورباتشوف أصبحوا أكثر استمانة في الدعوة لتقديم مساعدات غربية له ، وأن الذين يعتقدون أن جورباتشوف ليس سري ذئب في ثياب حمل قد أصبحوا أكثر عناداً . وفي هذا الطرف أحسست أنه من الضروري صياغة موقف إدارتنا بطريقة فذة رغبة المستوي في محاولة لاجتذاب أغلبية حول سياسة ذات مخزي يمكن أن تنال تأييداً عاماً من الحزبين ، وتعزيز فصب سبق في الجدل العلني . وإذا وفي سلسلة من ثلاث إقناعات وخطابات في شهر تشرين الأول أكتوبر حددت إطار التفكير الجديد لإدارتنا حول البيرسترويكا وطبيعة العلاقات السوفيتية الأمريكية . وتناول كل خطاب أو إفادة ناحية مختلفة إلي حد ما للمشكلة . ففي الرابع من تشرين الأول أكتوبر وفي شهادتي أمام اللجنة السالية بمجلس الشيوخ برئاسة لويد بنسكين ركزت علي الإصلاح الاقتصادي . وبعد اثني عشر يوماً في السادس عشر من تشرين الأول أكتوبر ، وفي خطاب لفقوبه أمام جمعية السياسة الخارجية في نيويورك ركزت علي مجمل العلاقة بين الدولتين . وفي خطاب تأجل بسبب زلزال لوما بريتا تحدثت في ٢٣ تشرين الأول أكتوبر أمام نادي الكونغرول في سان فرانسيسكو حول الاستراتيجية والحد من الصلح .

كانت السلسلة المنطقية في الخطابات والإفادات غاية في الاستقامة والوضوح. فقد شكت، إعلاناً عاماً، لما كنا نفكر فيه دخلياً منذ الاجتماع الوزاري في باريس وقلت إن الليبرستروكا «ثورة حقيقية، غيرت الاقتصاد لتحتوي كل المجتمع السوفيتي وعلاقاته كونياً». وقلت أمام مجلس الشيوخ: «إنها عملية مستمرة تعتمد علي حجم كبير لمنطق مضمون». وقلت: إن مصير نجاح الليبرستروكا مرهون بما يفعله السوفيت أنفسهم. لكن هناك مجالاً لعلاقة جديدة. وقلت أيضاً: إنني والرتوس نريد نجاح الليبرستروكا وليس لأن إصلاح المجتمع السوفيتي شأن من شؤوننا أو لإبقاء زعيم سوفيتي يحبه علي مقعد السلطة - حقيقة لا يسعنا عمل أي منهما - ولكن لأن الليبرستروكا تبشر بتصرفات سوفيتية تفيد مصالحنا. إن مهمتنا هي البحث بغائية عن نقاط الصلحة المتبادلة المتاحة - وربما هناك الكثير المتاحة بسبب الليبرستروكا.

وحددت خمس مجالات سوف نسمي فيها للبحث عن المصالح المتبادلة: وهي التصميم علي أوروبا كلها وحررة، وتسوية الصراعات الإقليمية، والتوسع في الحد من التسليح، ووضع مؤسسات للسلامة والديمقراطية، وتقديم المعونة الفنية لدعم الإصلاح الاقتصادي.

وبهذا أعدت تحديد وترتيب جدول أعمالنا السابق مع الاتحاد السوفيتي بشكل جوهري، ووسعت أوروبا والصراعات الإقليمية في مركز متقدم علي الحد من التسليح، وحولت قضية حقوق الإنسان إلي قضية إسفاء للديمقراطية علي المجتمع السوفيتي، وحولت قضية العلاقات الثنائية إلي جهد أمريكي لرؤية نجاح الإصلاح الاقتصادي.

فصلاً عن هذا جعلت القضية تكتسب بعداً استراتيجياً حتي لو تدهور وضع جورباتشوف، وكما قلت في سان فرانسيسكو: «إن أي غموض حول مصير الإصلاح في الاتحاد السوفيتي هو مع ذلك أقوى سبب يدفعنا لاغتنام الفرصة للراهنه. وحتى يمكن إنجاز مهمتنا وهي إزالة التهديد السوفيتي والتوصل لاتفاقيات يمكن التحقق منها بفعالية إذا لم تعد الليبرستروكا وياحتصار كان موقفي: «دعونا نحصل علي ما نعتبطع الآن وتثبت بالتغيير قدر المستطاع». فلم تكن أريد لأحد في المستقبل أن ينظر خلفه ويقول «لو فقط».

وكانت الاستجابة علي تلك المحطات تبحث علي الارتياح. فداخلياً كانت الدخلية الصحفية مناسبة في مجملها. حيث هنأت الافتتاحيات الإدارة علي تحركها. وعالمياً شعر

حفاؤنا بالاطمئنان مجدداً، وأُحسّ للسوفيت أن الخلاف الدخلى الناشب منذ الربيع قد انتهى بشكل حاسم. أو هكذا بدا الحال. ولم تكن قد أُلقيت خطابه في سان فرانسيسكو عندما وجدت علي مكتبى مسودة خطاب كان من المقرر أن يلقيه بوب جيتس. وطلبت من دينيس روس مراجعته علي أن أقرأه بنفسى. وانزعج روس وقال: «لا يمكن أن يلقى هذا الخطاب وسوف يفوض تماماً نتائج ويومينج والخطابات والإفادات التى قدمتها للتو. هذا سخف». ووافقت روس علي رأيه. وأحسست أن بوب ارتكب خطأ جسيماً لعدم تعبيره بين ما تعتقده الإدارة سرّاً وما تقوله علناً حول تلك الآراء. وكانت مسودته مفرقة في التشاؤم حيال حرص جورباتشوف في البقاء في السلطة. وبينما ينشاطر الكثير منا في هذا الرأي فإن إقراره في تصريحات علنية سوف يسحب البساط من تصريحات الرئيس بأننا نزيد البوريسستريكا. وتعليقياً لم أكن أختلف اختلافاً جوهرياً مع تقييم بوب. وفي الحقيقة كانت تصليح كشادة سرية حثامية بلغة في الكونجرس من نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، وهو المنصب الذى شغله بوب أثناء إدارة ريغان.

لكن من زاوية نهج سياسة إدارتنا الجديدة سوف تكون كارثة. سوف تثير جدلاً حول من يتحدث باسم الإدارة ونحسب قلق الكونجرس وأوروبا وموسكو بأن هناك مدرسين للتفكير، ومن وجهة نظرى سوف تقوض الكثير مما كتبته أو قلته أنا والرئيس لجورباتشوف وشيفرنانزة.

واتصلت بسكوكروفت وأبلغته بأنه لا مطن لإلقاء هذا الخطاب، واعتبرت الموضوع منتهياً. لكن في اليوم التالى لإلقاء خطابه في سان فرانسيسكو تلقت مذكرة من سكوكروفت مقترحاً خطاباً منقحاً مرفقاً بالمذكرة. فقد أثار جيتس بهارة علي مقتطفات خطابه في نيويورك. لكن في واشنطن كان الجميع في النوائر الدبلوماسية الصحفية يعرف أن الاقتباسات تهدف فقط إلي التعظيم علي اختلافها في الآراء. وكتب سكوكروفت: «أعتقد أن نص خطابه المعدل يعد تكملة جوهرياً لخطابكم، ويقدم تصوراً مفيداً في البيئة الحالية بطريقة تفيد للرئيس، ودونت في ملاحظة علي الهامش، لأمجال». وقبل أن أتصل بسكوكروفت لأبلغه بأن النص للتانى ليس بأفضل من الأول، ودونت أسبابى في مذكرات مرفقة لنفسى (O) (أسوأ توقيت ممكن نص الأسبوع الذى أُلقيت فيه خطابه).

(١) إن تجد الصحافة شيئاً مختلفاً - حتى لو قرأ خطابي.

(٢) إن هذا الخطاب بالغ القسمة في لهجته وتأكيديه مؤكداً منطقاً. كما يحترف بل ويتناقض تناقضاً مباشراً في بعض المواقع مثل أن التفكير الجديد نشأ من الحاجة إلى النقاط الانفاس - علي سبيل المثال.

(٣) لا يمكن تحديده، فقد حاول روس، فاتجاه لتكشاف اختلاف يعززه وجود اختلافات طفيفة.

(٤) سوف يخلق رأياً - أي وجود مدرستين للتفكير في الإدارة (وهو مالا يجوز).

(٥) في هذا الوقت بالذات نسجل درجات كبيرة في إرساء إطار عام متماسكة.

(٦) سوف يقوض ذلك، ويظهر أن البيت الأبيض يلف حول وزير الخارجية.

(٧) وأخيراً لماذا يشعر نائب رئيس مجلس الأمن القومي بالحاجة إلى الظهور بهذا الشكل السافر في قضية تتعلق بالاتحاد السوفيتي؟

(٨) جيتس درس الاتحاد السوفيتي ولقى خطاباً مفصلاً وأن عليه التعامل مع وزير الخارجية الساذج (توقيت مروع).

(٩) كان خطابي واضعاً؟

(١٠) إننا في حاجة إلى إعطاء الانطباع بأننا جبهة متماسكة.

(١١) خطأ فادح حتى إذا استطاع تصحيحه فلا يمكن تصحيحه.

ومع الوقت صقلت مواهبى ووردت خبرتى. وعندما كان جيتس في المخابرات المركزية الأمريكية ألقى خطاباً نمر تماماً سياسة جورج شولتز السوفيتية. وأضر ذلك بالرئيس ريجان حينذاك. وسوف يضر هذا الآن بالرئيس بوش، واتصلت بسكوكروفت وأدت الخطاب، وأبلغت الرئيس في اليوم التالي لضمان عدم إثارة للجدل مجدداً. وأقر الرئيس ما فعلته رغم أنه قال «سبب حقيقياً شديداً هنا».

وباسترجاع للحدث فإنني علي يقين بأنني فعلت الصواب، وفي الأسابيع القادمة سوف يتسارع انهيار الشيوعية في أوروبا بشكل ملحوظ. وسوف تتصاعد التوترات فيما سيتساقط حلفاء الاتحاد السوفيتي كقطع الدومينو. وسوف تصبح الوحدة الألمانية المشكلة الدبلوماسية للبحرية في أوروبا الشرقية. وفي تلك البيئة فإننا في حاجة إلي أفضل علاقات ممكنة مع جوياتشوف وشيفريادزه لتوجيه إخراج الموفيت من أوروبا الشرقية نحو نهاية سلمية. وكان خطاب جيتس موسم الأجواء في وقت غير مناسب تماماً، وفي السياسة الدولية ليس من الحكمة دائماً الإفصاح عما نعتقد*.

سقوط السور

في التاسع من تشرين الثاني نوفمبر كنت أقوم بأدية غداء للرئيسة الفلبينية كورازون أكيكو في قاعة بين فرانكلين بالدور الثامن بوزارة الخارجية عندما مرر أريك هوجواج أحد الموظفين المساعدين إلي* مذكرة مكتوبة من ستايفلون روي سكرتيري التنفيذي. وفي غتام مؤتمر صحفي متعدد الموضوعات أدلي جونتر شابوفسكي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية بصريح غامض حول إجراءات جديدة لاستصدار التأشيرة، وهو ما فسر بأنه يعني رفع كل القيود ولوائح تماماً عن السفر إلي الغرب. وعلي حد تعبير روي: «لقد أعلنت حكومة ألمانيا الشرقية لتوها فتح حدودها كاملة مع الغرب. وسيصبح الإعلان حرية التنقل الكامل بين نقاط العبور الحدودية الحالية بين شطري ألمانيا، وعلي أن أصرّف بأنني قرأت المذكرة بصوت عالٍ بشئ من التحمس أمام الجالسين علي طاولتي عندما رفعت كأساً طالباً أن نشرب نخب هذه اللحظة التي ظل العرب ينتظرها لأكثر من ثمانية وعشرين عاماً - تحول مذهل للأحداث.

* أرسل لي روي مذكرة مكتوبة بعد بضعة أيام جاء فيها: «لقد أتفق معكم في أنه سواء نجحت الإصلاحات أم لا في الاتحاد السوفيتي فلا يسعنا الوقوف علي الهامش لمشاورات تنتظر النتيجة النهائية إن عملية الإصلاح بعد ذاتها نهجاً للمعدي من التمرين لها، وسوف يجدنا التاريخ بقوة أو لم يفعل شيئاً».

ومعد انهيار محادثات القوي الأربع عام ١٩٥٣ أيدت الولايات المتحدة والقوي الغربية هدف توحيد ألمانيا. وفي ذلك الحين انضمت الولايات المتحدة إلى بريطانيا وفرنسا في إصدار بيان يحدد علي ضرورة أن يتم توحيد ألمانيا من خلال انتخابات حرة تؤدي إلى تشكيل حكومة ألمانية يمكن أن تهرم معها معاهدة سلام. ومع إقامة سور برلين في تشرين الأول أكتوبر ١٩٦١ تم ترسخ تقسيم برلين وألمانيا، وعلي سدي للعقدين التاليين بدأ معظم الأوروبيين والأمريكيين يعتقدون أن تقسيم ألمانيا بات واقعاً تاريخياً لا يمكن تغييره، وقد ساهم في دعم استقرار أوروبا بالفضل. وعندما وقف رونالد ريغان أمام بوابة براندنبورج عام ١٩٨٧ وقال: «مستر جونسون، عليك بهدم هذا السور قبل بعاصفة من التصفيق، لكن قلة فقط من الأوروبيين هي التي كانت متحمسة لتوحيد ألمانيا.

وفي ربيع عام ١٩٨٩ بدأت إدارة بوش في دراسة النهج المحتمل لتقصية الوحدة الألمانية المبادية في الألق. وأثناء تولي الوزارة للخزانة عملت عن قرب مع وزارة المالية واليونيسف في ألمانيا. وكانت صلتني مع شخصيات مثل جيرهارد شولتنبيرج وزير المالية حينذاك ثم وزير للدفاع فيما بعد وكارل لوتربول محافظ البنك المركزي حاسمة في المفاوضات التي أسفرت عن التوصل لإنفاقتي بلازا واللوهر. ورغم أني ولدي اشتراك في قتال الألمان في الحرب الأولى. فلازلت أتذكر جيداً مشاهد هنر في الجزيرة السينمائية التي تثير القشعريرة. فلم أكن أي عدوة للشعب الألماني أو خوفاً من أن التاريخ يسببه لأن يعود نفسه في وسط أوروبا. ومع تولي منصبى غمرنى إحساس بأن ألمانيا الغربية أظهرت نفسها كبلد حيوي ديمقراطي يسير وفقاً لاقتصاد السوق الحرة - ورغم أن معاصمتها تساوى مساحة أوريجون* فإن عدد سكانها يعادل ربع سكان الولايات المتحدة.

كما أنها ثالث أكبر قوة اقتصادية في العالم، وفي وقت الاضطرابات الدبلوماسية في أوروبا فلم تكن نريد أن تدور ألمانيا بثقلها فقط.

وفي يوم الأربعاء ٧ أيار مايو توجهت إلى البيت الأبيض لبحث القمة القادمة لحلف الأطلسي مع الرئيس علي القدام. وعلي قائمة المبادرات والمخططات التي أعدها لي بوب روليك كانت هناك واحدة تسمى «ألمانيا».

* أوريجون : ولاية تقع شمال غرب الولايات المتحدة على ساحل المحيط الهادئ مساحتها ٩٦٩٨١ ميل مربع (الترجم).

وقالت للرئيس: «هذه هي الفرصة الحقيقية لتقدم الركب وتجاوز للتوقعات فوائتي حلف الأطلنطي في الخمسينيات والستينيات تؤكد علي الدول للترام الحلف بالوحدة الألمانية. لكن سياسة الأوستويولتيك* وأزمة الصواريخ الأوربية في الثمانينيات ساهمتا في التسلية علي الفكرة. وقالت للرئيس لكن الآن: «ليس هناك شك في أن الموضوع عاد ليطرح نفسه. والسؤال الحقيقي هو ما إذا كان جورباتشوف سيتلقفها أو لا؟». وكانت أعرف حمية برش التناقصية منذ أيامنا في هيوستون وكمنير لعماته أدركت أنه من المفيد استشارة غرايزه التناقصية عندما نريد إقناعه ببنى قضية معينة. وواصلت للقول: «إننا في حاجة إلي التحرك وتولي رمام القيادة على طريق بحثن للقيادة الغربية لهذه العملية». وقالت: «علينا أن نسميها تطبيع، لا إعادة توحيد».

وكانت رغبته هي التأكيد علي القضية بناء علي دعوة رونالد ريغان للفصحة. ووافق علي أن توحيد ألمانيا يجب أن يكون قضية محورية في جوائته الأوربية. وفي ماينر في ٢١ أيار مايو، وفي واحد من أرقى خطبه بشأن السياسة الخارجية ذهب لشوط أبعد من مناقشاتنا، ووصف الولايات المتحدة وجمهورية ألمانيا الاتحادية بأنهما «شريكان في القيادة» ومعني إلي القول: «وكما تنهارت العواجز في المجر فوجب أن تنهار في أوروبا الشرقية بأسرها. فتمكن برلين هي القادمة، لكن برلين هي للقائمة. فالقسيم بين الشرق والغرب أشد ما يكون وضوحاً في برلين عنه في أي مكان آخر».

«وما هو ذا السور الوحشي الذي يوصل الجار عن جاره وللشقيق عن شقيقه، وما هو ذا السور يقف شاهداً علي فشل الشيوعية ويجب أن يسقط»

ومع نهاية الصيف بدأ آلاف الألمان الشرقيين الذين سافروا إلى المجر في المطالبة بالسماح لهم بالعبور إلى الغرب، وفي ٢٤ آب أغسطس اجتمع المستشار هيلموت كول مع رئيس الوزراء المجرى نيموث ووزير الخارجية هورن واتخذوا قراراً مثيراً: فقد اتفقوا علي فتح حدود المجر مع النمسا مما يفتح بالفعل باباً خفياً للاكتلاف على سور برلين. كانت تلك بداية النهاية للنظام القديم في ألمانيا الشرقية.

* الإنفتاح على الشرق.

وعندما زار بوش بودابست في تموز يوليو قدم نميث الى ولترئيس قطعة من السلك الشائك أجزاء من الأجزاء الأولى التي أزيلت من السلك الحديدى مقرونة علي لوحة نقش عليها هذا جزء من الأسلاك الشائكة التي كانت تشكل السلك الحديدى الذى امتد علي طول الحدود النمساوية المجرية والذي كرس تقسيم القارة الأوروبية إلي نصفين. ولم نتم إزالته إلا بإرادة الشعب المجرى والاعتراف بالتعايش السلمى والاعتماد المتبادل. إننا نعتقد أن الأسوار المصطنعة مادياً سوف تنهار فى كل مكان. ومع نهاية أيلول سبتمبر تحققت النبوءة وبأسرع مما هو متصور. وخلال الشهر وفى محاولة للعبور إلي الغرب تدفق الألمان الشرقيون علي سفارات ألمانيا الغربية فى بودابست وبراغ لتتسأ أزمة لاجئين كبرى أثناء انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وفى الأسبوع الأخير من أيلول سبتمبر فى نيويورك سألت هانر ديتريش جينشر: ماذا يسعنا عمله لكم؟ واقترح أن اجتمع مع التشيك والمجريين. وكان الاجتماع مع المجرين مباشراً ومستقيماً. فهددته قطعت شوطاً طويلاً علي طريق الإصلاح وتقدم الكثير للمساعدة. لكن الاجتماع مع وزير الخارجية التشيكوسلوفاكى يوهانسين خلق معضلة. فبراغ لا تزال رجمعية لا إصلاحية، وسوف يصفى الاجتماع مع أرفع مسؤول دبلوماسى تشيكوسلوفاكى قدرأ من الشرعية علي نظام منبوء. ولكنى اعتقدت أن هذا الأثر العكسى ستعوضه فرصة الضغط علي التشيكوسلوفاكيين للتعاون فى تسهيل هجرة الألمان الشرقيين.

وفى يوم السبت من ذلك الأسبوع زار جينشر براغ حيث يمسكر ستة آلاف لاجئ. ألماني شرقى بمقر السفارة الألمانية الغربية، وأعلن جينشر وهو يتحدث من شرفة السفارة أنه سيتم السماح للاجئين بالتوجه إلي ألمانيا الغربية عن طريق القطارات التى ستعبر ألمانيا الشرقية. وكان أريك هوبكر يريد إجلاء للاجئين قبل الاحتفال بالذكرى الأربعين لإقامة الحكم الشيوعى الذى يوافق السابع من تشرين الأول أكتوبر فى برلين الشرقية، ولذا فقد وافق علي إمكانية سفرهم إلي ألمانيا الغربية طالما أنهم سيخادرون، ألمانيا الديمقراطية حيث طريق المسكة الحديد، وبدأت أولى القطارات المحملة بلاجئين ألمان شرقيين من براغ ووارسو فى الوصول إلي ألمانيا الغربية فى الأول من تشرين أكتوبر.

ومع هذا كان رد الفعل علي قرار هوبكر أضخم من المتوقع. ومعدنلات ليال أبليت الرئيس: «أن نزيف للسكان فى ألمانيا سبب لإزعاجاً لنظام ألمانيا الشرقية بالفعل». ففى ضوء

١٣٠ ألف حالة مغادرة قانونية وغير قانونية حتي الآن يحاولون فرض قيود جديدة علي السفر مرة أخرى. لكن تلك المحاولات لم تساهم إلا في تفاقم الضغط الداخلي، وبدأت الأحداث تتوالي بسرعة رهيبة الآن، وتعمل بين طياتها أخطاراً جديدة.

وخلال فصل الصيف فيما تبارت بولندا والمجر في محاولة أن تكون الأولى في إسقاط الشيوعية أصبحنا أكثر انشغالا عما إذا كان جورباتشوف سوف صند التغيير في أوروبا الشرقية. فإلي جانب وجود أريعمائة ألف جندي من القوات الخاصة في ألمانيا الشرقية دفع الاتحاد السوفيتي أثناء «الحرب البولندية العظمى» (كما يطلقون علي الحرب العالمية الثانية) ثمناً تاريخياً وعاطفياً باهظاً لهزيمة النازي، وطالما أظهرت موسكو باستمرار خلال الحرب الباردة أنها لن تصفح عن تجدد التهديد الألماني. وجعل هذا للبعد النفسي التاريخي من أي تغيير في ألمانيا الشرقية أمراً ينطوي علي خطورة بالغة من زاوية رد الفعل للسوفييتي عنه في أي بلد آخر في أوروبا الشرقية. وأنا في سن المراهقة طالما أدهلني الدفاع السوفيتي عن ستالينجراد شتاء ١٩٤٢، فقد قاتلوا لمسة أشهر وشاهدوا مئات الآلاف يموتون أو يصابون ولم يستسلموا. أما وقد استمعت إلي شواغل شيفرنادره المؤثرة ونحن في الطريق إلي جاكسون هول بدأت الآن أتساءل إلي أي مدى سوف يصمد جورباتشوف في ألمانيا الشرقية.

ولم انتظر طويلاً حتي أعرف الإجابة. ففي السابح من تشرين الأول أكتوبر رار جورباتشوف برلين الشرقية للاحتفال بالذكرى الأربعين لإقامة الحكم الشيوعي. وفي كلمته أمام الاحتفال فجر جورباتشوف قنبلة، وقال: إن سياسة ألمانيا الشرقية لا تصاغ «في موسكو لكن في برلين». وكانت هذه أوضح إشارة علنية علي أن بوسنا أن نأمل في عدم تدخل السوفييت.

وفي اليوم التالي وفي حديث مع برنامج واجه الصحافة في شبكة إن بي سي قررت توجيه إشارة من جانبنا. وبدأ علي سؤال إليزابيث درو للكتابة في صحيفة نيويورك حول مستقبل ألمانيا الشرقية وإحتمالات إعادة التوحيد ردت: «إن سياسة الولايات المتحدة تتمثل في تأييد فكرة إعادة توحيد ألمانيا شرط أن تتم بحرية وسلام. وبدوننا أنه لا يجب أن يثور قلق من ألمانيا الموحدة مدمجة في مجتمع الدول الديمقراطية».



ومع استبعاد جورباتشوف في خطابه تدخل الاتحاد السوفيتي كان الخطر الأعظم التالي يتمثل في أن هونيكر سيحاول للتشبث باستخدام قوته لقمع الانشقاق. وخلال تلك الفترة حفلت الدوائر الصحافية والاستخباراتية بتقارير عن استعدادات القمع بواسطة جيش الشعب الوطني (NVA) والشرطة السرية شداسي. ومن الصغائر الغريبة أن مخاوف حدوث منبحة نيانامين أخرى لاحت في نفس اليوم الاثنين التاسع من تشرين الأول أكتوبر - الذي توجه فيه باو لين نائب رئيس الوزراء للصين إلى برلين للاجتماع مع هونيكر.

وفي تلك الليلة تواصلت المظاهرات الضخمة - وهي الأولى من نوعها منذ عام ١٩٥٣ - في ألمانيا الشرقية. وجاب نحو خمسين ألف متظاهر شوارع ليهبرج، ونظمت مظاهرات أصغر في عدد آخر من المدن فضت الشرطة معظمها - وتعد المتظاهرون بالبقاء والعمل من أجل الإصلاح.

كان حجم وتقافية المظاهرات غير عادي بالمرة. لكن قوات الأمن احتفظت بسيطرته من دون اللجوء إلى استخدام القوة على نطاق واسع. ورغم هذا ومع تكليف الضغوط على قيادة ألمانيا الشرقية وعلي حد تعبير في مذكرة بعثت بها للبرلين ليلة ١٤ تشرين الأول أكتوبر: «إن قيادة ألمانيا الشرقية لا تظهر أي مؤشر على الاستسلام. فقد واصل النظام إلقاء مسؤولية مشاكله على قوى الرجعية والتدخل الغربي مشيراً إلى ألمانيا الغربية. وبذل جورباتشوف خلال زيارة قام بها في عطلة الأسبوع قصاري جهده لعدم حدوث مزيد من عدم الاستقرار لعليف أساسي. لكنه وجه تلميحات عن الحاجة إلى التغيير. ووصف هونيكر في خطاب له الأمل في أي إصلاح بأنه «بيت من رمال». وما لم يعالج هونيكر الاستياء المتجذر الذي يثير المظاهرات فسوف تتصاعف مشكلاته بقدراً».

وبعد ظهر اليوم التالي وفد جيرهارد شولتنبيرج إلى وزارة الخارجية في زيارته المقررة منذ أمد بعيد. وقال لي: إن نظام أريك هونيكر يجتاز منعطفاً خطيراً. فإذا لم يتحركوا نحو الإصلاح فإنه لا يمكن استبعاد اللجوء إلى القوة».

ويوم الإثنين التالي كان من المقرر أن ألقى خطاب «نقاط المصالح المتبادلة» في نيويورك. وفي الوقت الذي كان الخطاب يتركز على الاتصالات الأمريكية السوفيتية كنت

علي ثقة من أن معظم الصحف ستولي اهتماماً خاصاً بأى شيء أقوله عن ألمانيا. ولذا قررت توجيه إشارة عينية أحري: «في ألمانيا الشرقية يتخذ المواطنون أنفسهم خطوات جريئة. وكما قلت الأسبوع الماضي لقد آن الآن لأن نتخط البيروسترويك والجلانوسيت إلى ألمانيا الشرقية. إن الأمر في الواقع لم يعد مقبولاً لدي تلك الأمة كما سبق وقيل شعباً بولندا والسجر. فلا يمكن للأبد حرمان شعب ألمانيا الشرقية في وطنه من حياة أفضل يسعون للحصول عليها الآن في الغرب، وبالطبع فإن الولايات المتحدة وحلفاءها في حلف شمال الأطلسي يزدنون منذ أمد طويل إقرار المصالحة بين الشعب الألماني. فلا بد وأن تلبي حقوقهم المشروعة يوماً ما. لكن دعوني أكون واضحاً: إن المصالحة من خلال تقرير المصير يمكن فقط أن تتحقق بحرية وفي سلام. ويجب أن يجري للتطبيع علي أساس القيم الغربية علي أن تكون نهايته شعب مندمج في مجموعة الدول للديمقراطية»

وبناءً علي اقتراح من برينت منكروفت فقد تعاضدنا تماماً استخدام كلمتي الوحدة وإعادة للتوحيد. فقد كان قلقاً من أن استخدام الكلمتين بدلًا لهما لفظية في ألمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتي كحجة علي أن الغرب يحاول إثارة الإضطرابات ولذا فقد استخدمت كلمة المصالحة. وتأملت في أن للعواصم الأوروبية وموسكو ستفهم ضعفاً أن المصالحة تعني ضعفاً عملية من حطوتين، أولهما مصالحة داخلية بين نظام ألمانيا الشرقية وشعبه، والثانية مصالحة خارجية بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية. وكان هدفي هو أن يسمح نظام ألمانيا الشرقية بمواصلة التغيير السلمي*.

وبعد يومين ذهبت كل محاولات هونيكز المستمعية للتشبه بالسلطة سدي بعد أن أطاح به عنف الاضطرابات من السلطة وحل محله إيجون كريستس الرئيس السابق لجهاز أمن الدولة شناسي الذي تحول إلي شيوعي إصلاحى. وبعد أسبوع وفي ٢٥ تشرين الأول أكتوبر أعطى جورباتشوف أقوى وأوضح منوه أحضر ممكن بإعلانه في هامسكي أن الاتحاد السوفيتي سوف يسمح للدول التابعة له بإجراء إصلاحاتها بطريقتها الخاصة وهي سياسة أطلق عليها جينادى جورباسيوف المتحدث باسم الخارجية السوفيتية اسم «مبدأ سينتراء**»

* في حينه أقر الرئيس بالفعل كلمة «ألمانيا الموحدة» في مؤتمر صحفي عقد في موسكو لكن برزت شعراً أن استخدام كلمة إعادة للتوحيد في خطاب رسمي ستكون له دلالة صريحة. وهكذا وبناءً علي فكرة من وجود جروج خيرير للشؤون الأوربية في إدارة التخطيط السوفيتي استخدمت كلمتي المصالحة والتطبيع.

** كان جورباتشوف يشير بالطبع إلي أغنية فرانك سينترا ١١ طريقى.

وهو يشير إلى أوروبا الشرقية قاتلاً: «ليس لنا أى حق أدبى أو سياسى للتدخل فى الأحداث الجارية هناك ونحن نفترض أن الآخرين لن يتدخلوا» .



كان نظام الحرب الباردة يتنامى أمام أعيننا ثم فى ٩ تشرين الثانى نوفمبر جاء إعلان جوبتر شابوشكى المرتجل . وعقب انتهاء مأدبة للقاء مع لىكنو توجهت مباشرة إلى البيت الأبيض لبحث استجابتنا مع للرئيس ، ونحن نتحدث كنا نتابع بثاً حياً لـ سى إن إن للشباب الألماسى وهم يتساقون سور براين . وها هى قلاع الشيوعية تنهار ، وها هو الستار الحديدى يتمزق . وفى وقت لاحق وعندما لاحظت لى الفرصة أخيراً لاسترجاع أحداث اليوم وجدت أنه من الصعب أن أمنع سقوط دموع الفرح وسيل البشر للمساوى للحرية فى الغرب قد تحول إلى طوفان .

وعلى أن أعترف أنه حتى بعد ظهر ذلك اليوم كنت موزعاً بين مشاعرى كأمريكى وبين ما يشغلى كرجل دولة . وكأمريكى شعرت بحبوية دقيقة لأن ما عملنا من أجله دائماً قد أصبح حقيقة فهذا انتصار حقيقى للحرية . لكن كرجل دولة كان على كبح مشاعرى وأن ألتزم بنفسي عن أن تهرقها المشاعر . وفى معظم الأحيان انتابنى إحساس بأن هذه التطورات لا يمكن أن تكون حقيقية فالיום يصانف الفكرى العادية والفهميين ليلة الكريستال - كريستالناحت - أى بداية الهجوم الوحشى النازى ضد اليهود والفكرى العادية والسبعين لانهار الإمبراطورية الألمانية فى الحرب الأولى .

وفيما بدأت حشود الجماهير فى برلين الشرقية ذات طبيعة حسنة إلا أنها كانت شديدة المصعب ، وخشيتنا من أن يفجر بعض المضمومين أو المهورسين من الألمان الشرقيين حادثاً قد يتصاعد ويخرج عن نطاق السيطرة . وخلال شهر تشرين الأول أكتوبر كانت اتصالاتنا مع موسكو مجرد تبادل دبلوماسى روتينى للأراء . وكان اعتقادى هو أننا قلنا علناً ما يغنى عن توجيه رسائل سرّاً إلى الكرملين . وتقرر أن يلتقى للرئيس بالمصحفين فى البيت الأبيض فى المكتب البيضاوى ، وسأدعو كل الشبكات فى ذلك المساء وكل البرلمج التى تذاع فى الصباح

التالى . وكنا نريد الترحيب بالتغيير دبلوماسياً برصانة ، ولأن نحاول بذل قصارى جهودنا حتى لا تتغلب العاطفة حتى لا يشعر جوربالشوف وشيفرنادرة والسوفييت الآخرون الذين يشاهدون رد فعلنا بما قاله الرئيس «إننا نضع أصبعنا فى أعينهم» .

ومع هذا كان من الصعب أن يستمر الهدوء فى اليوم التالى . فى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً أبلغنى ستاب روى بأنه تم تغيير تيودور جيفكوف رئيس الحزب الشيوعى البلغارى . وجاءت أكثر اللحظات المفعمة بالعاطفة لى فى الساعة 4:40 مساءً عندما تحدثت مع جينشر الذى اتصل بالهاتف وقبل أن أحادث جينشر قالسكرتيره بحرارة: «فلبارك الرب أمريكا ، نشكركم على كل ما بذلتموه سويدي» . وقال جينشر: «إنها لحظة باهرة فى تاريخ أمتنا - شكراً لكم على كل ما بذلتموه وقتلتموه . إننى أود أن أشكر الشعب الأمريكى لما بذله من أجل ألمانيا منذ الحرب العالمية الثانية وخاصة لبرلين» . وأصاف: «إن ألمانيا ستستمر فى حلف شمال الأطلسي والمجموعة الأوروبية» .

وقلت له: «إن كل ما قاتلتموه عن حلف شمال الأطلسي وتصميمكم على مواصلة سياستكم الحالية بالاشتراك مع الحلفاء الغربيين لأمر بالغ الأهمية» . ولقد قلت أمام حشد صمخ ضم عشرة آلاف شخص إننا سنواصل تحالفاتنا وتعهداتنا وإن تسلك ألمانيا طريقاً خاصاً بها . سوف نطور سياستنا بمشاركة حلفائنا» .

وقلت منتظراً سماع رد قلعه: «إن الولايات المتحدة ترحب بالأحداث المبهرة . لكن الطريق كان حويلاً بين حرية السفر حتى إعادة التوحيد . ربما كان من السابق لأوانه معالجة إعادة التوحيد الآن» .

وقال مشيراً ضمناً إلى أن فكرة المصالحة «الدخيلية» فى ألمانيا الشرقية شرط مسبق للمصالحة «الخارجية» بين شرطي ألمانيا: «إن شعب ألمانيا الديمقراطية يمارس حقه فى حرية التنقل الآن ، والخطوة التالية هي إجراء انتخابات حرة . ولا أعرف على وجه التحديد متى سيتم ذلك . واستطرد ليطمئننى: «إن ألمانيا لن تشكل مطلقاً أى تهديد لجيرانها عندما تصبح

حرة وديمقراطية. إنها تشكل خطراً عندما تخضع للحكم الشمولي، وأنهينا المكالمات بالاتفاق علي أنه ليس هناك حاجة حالياً لعقد مؤتمر للقوي الأربع*.

واستمر المد العاطفي في اليوم التالي عندما تحدثت إلي فيرنون ولانترز سفيرنا في ألمانيا الغربية الذي كان سعيها لقيامه بزيارة برلين الشرقية. واقتضت آمالي عندما أبلغني أن والنت مومير عمدة برلين الغربية قد تحدث مع شابوفسكي الذي أبلغه بأنه لن تحدث منبهة ثيادانسين هذا، لكن ما ثبت ولانترز أن أبلغني «أن الاتحاد السوفيتي يظهر اهتماماً كبيراً بضرورة ألا يحدث شيء عند بوابة براندنبورج» فالسوفيت لهم نصب تذكاري في الشارع يسمى «نصب ١٧ يوليو» وأن احتفالاً ألمانيا بالقرب من للنصب التذكاري السوفيتي لصحابا للحرب قد يثير رد فعل عاطفيا في موسكو**.

وفي الواقع كان المزاج السائد في الكرملين خالية في الوضوح في رسالة بحث بها جورباتشوف إلي الرئيس بوش، وحذر الزعيم السوفيتي من أن «الوضع الفوضوي قد يلغى إلي عواقب غير متوقعة» وهناك خطر حدوث «تطرف سياسي» في ألمانيا الغربية. وأراد جورباتشوف عقد اجتماع للقوي الأربع وهو طلب قبول برفض فوري. لكن كان من الواضح أنه لا يزال غارقاً بشدة فيما وصفه «بعلاق ما بعد الحرب الثانية - أي دولتين ألمانيتين».

وفي وقت لاحق من اليوم اتصلت بدوجلاس هيرد الذي خلف جون ميجور وزيراً للخارجية في بريطانيا. وبعد تهنيئته بمنصبه الجديد بحثنا الحاجة للداعية إلي تنسيق المواقف بيننا وبين فرنسا. وأكد الحاجة إلي الاستقرار مشيراً بقوة إلي: «أن الصحافة البريطانية قد تقدم علي الأرجح رؤية غير واقعية للتحولات في المستقبل». ومن الواضح أن قيادة الكرملين ليست الوحيدة التي تكابح الرأي العام.

* كان بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة حقوق فلتوتية كبرى لاحتلال لألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

** رغم أن المؤتمر دبلوماسي مقصود إلا أن نهجه تجاه سلطة الوحدة لم يكن إيجابياً تماماً ففي عدة مناسبات في خريف عام ١٩٨٩ اضطلع بدور هام لم يفرض فيه إما بالقبول بإعادة التوحيد أو الإصلاح عليه. وفيما كنا نسطر شعوره كان علينا أن نذكره بأن ملكة التصريحات لظنة غير المصرح بها تشوّل علي رسالتنا ونقض جهودنا لإدارة قضية الوحدة بمغالبية مع للدول الأخرى. لاسيما موسكو، وغالباً ما يشكو السفراء من سيطرة أو توجيهات واشنطن. لكن الحقيقة هي أنهم يدعون في التفكير ضد علي الأثر الذي قد تتركه الامتصاصية علي موقفهم.

وفي ١٣ تشرين الثاني نوفمبر انضمت أنا وديت إلي الرئيس في مقر إقامته علي
عشاء مع هنري كيسنجر الذي أعرب عما يشعر به: «إن للوحدة الألمانية - حتمية - وإن
الولايات المتحدة ستدفع الثمن لو شعر الألمان أن الولايات المتحدة تكف في طريق آمالهم
وطموحاتهم». وقال الرئيس إنه يريد «تطوراً حكيماً» فمهمتنا هي تحويل الحمى إلي تطور.

المنافرة الدبلوماسية

البعد العام

أذن انتهت تشرين الثاني نوفمبر بحوث جدل عام محتدم حول الوحدة الألمانية بين
بون ودرلين وموسكو ولندن وباريس. وفي الوقت نفسه لم تهر إلا مناقشات سرية قليلة عبر
القنوات الدبلوماسية. ولم تكن هذه مفاجأة بالمرّة. فقد دفعت صدمة انهيار السور للحكومات
إلى مراجعة خطط الطوارئ. كما أن البعد العاطفي البهيج غوّر الفتراسات الكثيرة حول
الوحدة الألمانية. وهكذا أصبح مفهوماً أنهم يريدون تطوير فكرهم الخاص وتشكيل حكومة
تحظى بقبول موسع علي الأقل قبل إثارة أفكارهم عالمياً.

ودأبت المستشار كول للكتور من رجال الدولة بطرح اقتراح في ٢٨ تشرين الثاني
نوفمبر. ففي إجراء مفاجئ حدد كول الإطار العام لمحة من عشر نقاط لإنهاء الوحدة
الألمانية في خطاب ألقاه أما لهوندستاج كانت خطة كول اقترافاً متواضعاً نسبياً يدعو إلي
تشكيل عدة لجان بيئية واقتصادية ولجان أخرى مشتركة، وتضمنت إقامة اتحاد فيدرالي بعد
فترة كرنفيدرالية. وحددت المحة إطاراً عاماً حذراً لإعادة توحيد الألمانيّتين، وشجعت
الألمان في الشطرين علي أخذ الوحدة علي محمل الجد. وفيما كنا نفضل لو أننا أُطْلِعْنَا
علي الخطة قبل إعلانها، فقد اتصل كول بالرئيس لطمأنته بعد الخطاب.

وفي اليوم ذاته تلقينا رسالة من كريستنس، وكان يريد أن يشكرنا علي اهتمامنا بالتطورات في ألمانيا الشرقية، ويطمئئنا علي أن حكومته ستواصل تطبيق تغييرات بعيدة المدى لكن في إطار اشتراكي، وبعبارة أخرى فإن حكومة ما بعد هونيكر في سبيلها لتطبيق التيريسنروكا في ألمانيا الشرقية لا الديمقراطية. وتضمنت الرسالة الإعلان مجدداً عن رأي ألمانيا الشرقية بأن وجود دولتين ألمانيتين يعدّ عنصراً مهماً لضمان الاستقرار في أوروبا. وهذا هو مضمون خطها السياسي المستقبلي. وكلفت في مذكرة للرئيس في تلك الليلة: «إلى تحليلنا هو أن رسالة كريستنس تشكل سياسة ألمانيا الشرقية قبل أن نبحث مستقبل ألمانيا في مالطة، (كان من المقرر أن يجتمع مع الرئيس جورباتشوف في مالطة الأسبوع القادم).

وفي الوقت الذي ربما تكون رسالة كريستنس قد طمأنت موسكو فقد وجد الكرملين نفسه مضطراً للرد علي أهم خطاب عام لبقية كول. وفي منوه للفوضى الحادثة في ألمانيا الشرقية لم يكن واضحاً أن النظام سيعمر طويلاً لتطبيق سياسته، وتمزقت حكومة كول داخلياً نتيجة احتمال إعادة التوحيد، وسيكون علي السوفييت أن يتعاملوا معه في الأشهر القادمة. واشتكي شومرنادزه من أن خطة كول سوف تجعل قبل الأوان بعملية يمكن أن تثير التضارب وتقود إلي عواقب غير منظورة. وقال جناداي جيراسيموف المتحدث باسم الخارجية السوفيتية في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر: ليس هناك بلد واحد في أوروبا اليوم يستطيع السعي لإتمام التوحدة الألمانية لأنها تثير تساؤلات حول الاستقرار. إنها قضية غير مطروحة علي جدول الأعمال وفي مؤتمر صحفي عقده في ميلانو قبل وصوله إلي مالطا قال جورباتشوف: إنه فيما لا يعمد استبعاد إعادة توحيد ألمانيا علي المدى البعيد. فإنها لا تظهر اهتماماً دولياً ملحاً فدعونا ألا نضبط أو نلج علي القضية. فال تاريخ سوف يسوي المسألة.

وكانت الشكوك تصار كلاً من لندن وباريس. وبسبب قدر من الهلع نتيجة قرار كول عدم التشاور معهم قبل إعلان خطته قال هيرد: «اعتقد أننا مسرورون بالنقاط العشر». (إنني أعتقد أن هناك حاجة لإحدى عشرة نقطة تقول إنه لن يتم عمل أي شيء من شأنه تدمير التوازن والاستقرار في أوروبا أو يثير اللقلق في عقول من يحق لهم أن يشعروا بالقلق).

وأوضحت مارجريت تاتشر بأنه حتي تتسحق حدود الديمقراطية في ألمانيا الشرقية فلا بد وأن تظل الحدود الشمالية قائمة بدون تغير.

وأبدت باريس ضيقاً من إعلان كول حيث لم يلمح كول بأي شيء خلال مأدبة عشاء خاصة مع ميتران قبل ثلاثة أيام فقط. وفور إعلان كول خطته في البوندستاغ أعلن كول أنه سيزور رئيس الوزراء الألماني الشرقي الجديد هانز مودروف في كانون الأول ديسمبر. ورد ميتران بلمحة واضحة علي كول بإبلاغ الصحافة بنها الزيارة قبل إبلاغ كول به.

وكان رد فعلنا أكثر مرونة. فقد زارنا جينشر قبل أسبوع، وكنت واثقاً من أن بون وواشنطن سوف تستطيعان إدارة قضية الوحدة الألمانية بدون لختلاف. وكان السؤال الحقيقي هو: كيف يمكن حمل موسكو علي الموافقة، ثم باريس ولندن بدرجة أقل. وكان مطلوباً كبح حماسنا تجاه سقوط السور وهو الهدف الذي جعلت أمريكا لتحقيقه علي مدار عقود، وبدأ منتقدونا في الداخل في الترويج لمقولة أن استجابة الرئيس الخافتة أظهرت غياب أي رؤية لديه. لا عليك فلا خبر برنجي من الشمامسة لأننا نعيش مرحلة بالغة المرح في الشؤون الأوروبية تقتضي رابطة الجأش والقنوة لوسائل هائلة إذا كان لنا أن نحافظ علي استمرارية التغيير.

وحاولت تهديد كل ذلك للقلق في اليوم التالي عندما تحدثت إلي المندوبين الصحفيين في البيت الأبيض حول قمة مالطا القادمة. وبدأت بتوضيح أن القمة القادمة لن تكون بالمالا الثانية، وقلت: «لن تجري أي مفاوضات، لن نبرم أي صفقات ليست هناك أي حدود. إن التعيير لا يقود بالضرورة إلي عدم الاستقرار. وعلي العكس فإنه للطريق الوحيد لإمكان استعادة الشرعية وضمان الاستقرار علي الصعيد الإقليمي والعلاقات بين الشرق والغرب. ومع هذا فإننا في حاجة إلي إدارة هذا التغيير بطريقة تشجع علي دفع ونجاح عملية التغيير. وقتئذ: إن هذا يعطي عدم انتزاع مميزات منفردة ضد السوفيت. لكن «أي محاولات للتدخل بالقوة أو الحيلة دون استمرارية التغييرات ستتطوى علي قدر بالغ من الخطر وعدم الاستقرار. ورداً علي سؤال حول الوحدة الألمانية «أشرت» إلي نقاط أربع خاصة بنا.

الأولي: إن تقرير المصير يجب أن يتم بدون حكم مسبق علي نتائجها . ولا يجب علينا في هذه المرحلة أن نصدق علي أو نستبعد أي تصور للوحدة .

الثانية : إن الوحدة يجب أن تكتمل في إطار استمرار التزام وتكامل أكبر في المجموعة الأوروبية مع الأخذ في الاعتبار الدور القانوني ومسؤوليات الحلفاء .

الثالثة : يجب أن تتم الوحدة تدريجياً وسلمياً وفي إطار عملية تدريجية .

الرابعة : ضرورة احترام قومية الحدود كما هو منصوص عليه في ميثاق هلسنكي .

وكنا قد بحثنا النقاط الأربع بشكل عام في اجتماعنا بالمكتب اليونسكو في الساعة الخامسة والرابع بعد ظهر اليوم السابق فلم نتفق تماماً علي أنها ستشكل عناصر سياسة الولايات المتحدة . وإذا فقد استودركت قائلاً : «إن هذه وجهة نظري» . ولم تمر تلك النقاط مر الكرام . وكان هرنالك فوكوياما نائب مدير إدارة للتخطيط السياسي الذي أصدر فيما بعد دراسة أثارت جدلاً واسعاً باسم «نهاية التاريخ» كان قد أعد مذكرة قبل يومين قال فيها: إن الولايات المتحدة يمكن أن تمارس قيادتها وتؤثر علي الجدول للذاكر بطرح مثل تلك «السياسات» علانية . وفي اليوم التالي لانتقاد قمة مالطا أعلن الرئيس السبائي الأربعة باعتبارها سياسة للولايات المتحدة . وأبرقنا بها إلي كافة مكاتبنا الأوروبية لشكل توجيهات لسفرائنا ، وبعد أيام فلائل تبنتها المجموعة الأوروبية أيضاً . وكان هذا حالة نموذجية أخري لسدي ثقل الكلمات ، وتحويلات النقاط الأربع إلي إطار عام مؤقت حيوي تمكنا من خلالها من متابعة التفسير للجدري في أوروبا بطريقة تكفل الاستقرار . ولقدتحت بأن مبادلتنا الأربعة هدأت موسكو ولندن وباريس ، ولماأنت في الوقت نفسه مجدداً يون بأننا لن نغضم إلي أي محاولات من جانب القوي الأربع لإخراج عملية الوحدة عن مسارها .

برزت فكرة قمة مالطا من مناقشات دارت بين الرئيس معي وأنا وسكوكروفت علي هامش قمة مجموعة السبع في تموز يوليو. أما وقد وُحدَ حلف الأطلسي بفسه خلف مبادرته التي طرحها هي القمة في أيار مايو والآن فقد عاين علي الطبيعة سرعة سير الإصلاح في بولندا والمجر. فقد شعر الرئيس أن الأرض باتت مهيأة لعقد اجتماع مباشر مع جورباتشوف. وقال: «أعتقد أنه يجب أن نجتمع قريباً لا لاحقاً». وتساءل: ما هي الفائدة التي ستعود من الإمتناع الآن؟ وكان يشعر أن البعد عن الترسيمات سيكون مفتاحاً مهماً. ووافقت علي الفور. لكن برينت كان قلقاً في البداية حول إثارة للتوقعات حول ما يمكن أو قد يجره هذا الاجتماع وحول الخلط بين تأييدنا لمبادئ الليبريستروكا وبين تأييد شخصية جورباتشوف. واختلفت للرئيس مناقشة المسألة بالتقول: «انتظر إن هذا الرجل هو الليبريستروكا» موضعاً بجلاء أنه ليس لديه وقت لمصنعه في التفرقة الأكاديمية بين الأشخاص والمبادئ.

وفي ٢ كانون الثاني ديسمبر، وبعد سلسلة من الاتصالات السرية المتتحدة بالترتيبات والمراعي جلس جورج يوش في القاعة الخاصة بالسفيرة الروسية مكسوم جوركي الراسية في خليج مارساكسلوك قبالة مالطا، لعقد أول اجتماع منفرد مع جورباتشوف*. والسبب الأصلي لعقد الاجتماع لدي الزعيمين هو كما حدده جورباتشوف «لنضع وزامنا إزعاج المعاوين المرافقين للتحدث وبدون عجلة أو مراسم بروتوكول في كل ما يجب أن نبحثه من منطق

* سلم قرأوس خطاب الدعوة لجورباتشوف في اجتماع عقده في شهر يوليو في المكتب الديبلوماسي مع المارشال سبريس أندروميف مستشار جورباتشوف للحد من التصاح. وقد تأيذت ووافقت علي هذه الخطوة فلم يحد بها شيفرناذرة حسناً وطعنا حل بها استشاط غضباً انطويه وتبع علي الاحتفال. كان أندروميف من معارف سكوكروفت ولم تكن تعلم أنه يحاول الانقلاب علي شيفرناذرة. وفي آب أغسطس رد جورباتشوف بإيجاد الكسندر بيسموتش لقب وزير الخارجية حينذاك إلي واشنطن بهدف علي هو إجراء مباحثات لتطيق بالتضام في ثم بحثها في بروكسج. ربما يدمر للسفيرة أن التسامح اكتسبت للرئيس لدعم لقاء جورباتشوف في الوقت المناسب رغم أننا كنا نكاف علي إيجاد الترتيبات للاجتماع.

وبداية دعا الرئيس جورباتشوف لزيارته في منزل الطلبة في روكو برينت في كوينزكورت أو إلي الجمع الفرنسي في كليب ديفيد في أولستر ليلول سبتمبر بعد حضوره دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ورد جورباتشوف بأخبار أمبانيا التي قال إن بها اجرواً هي الأخيرة فالقصر الرئيس مالطا بابتكر من شقته ويكي يوش الذي كان قد أصنعي حيلة مؤخراً فيها.

مراقبته، وقد تجاوزته الآن للزلازل السياسي الذي اجتاحت أوروبا الشرقية . كما أن السؤال الذي يدور بخلد الجميع هو: هل ستصبح قمة مالطا بالطا الثانية؟ هل ستشكل القوتان العظميان حلفاً ثنائياً وتحسمان القضية الألمانية بنفسيهما؟ ومن المفارقات الغريبة أن اقتراح الرئيس بعقد قمة السفينة قد نبع من إصرار جورباتشوف علي الاجتماع علي أرض محايدة، وعشق الرئيس بوش للبحر وإعجابه بمواقف جمهورية ألمانيا الغربية ببقاء الزعماء الأجانب علي السفن - علي سبيل المثال اجتماع مالطا الخاص بألمانيا الغربية مع تشرشل في شباط فبراير ١٩٤٥ .

ولسوء الحظ كانت الأحوال البحرية في مالطا بالغة السوء، واضطربنا عدة مرات إلي إلقاء عدة جلسات . فقد حبسنا الأمواج التي بلغ ارتفاعها عشرين قدماً والرياح العاتية التي تشبه الأعصار في السفينة الأمريكية بيلكناپ حاملة الصواريخ لوجهة . (وقال قبطان السفينة جون اف سيجار للرئيس إنه خلال عمله لخمس وعشرين عاماً في البحرية لم يشهد اضطراب البحر بمثل هذا الشكل وهو راس في الميناء) .

وفي أعقاب الأحداث التالية وتوحيد ألمانيا، والتعاون الأمريكي السوفيتي خلال أزمة الخليج، وإنهيار الاتحاد السوفيتي نفسه فمن السهل التقليل من أهمية لقاء مالطا، وعلي خلاف معظم القسم الأخرى لم يكن بها حفل توقيع إلزامي لكنني أعتقد أنها كانت حاسمة في تحقيق للاتحس الهام في التوازن الأمريكي السوفيتي الذي أصبح ضرورية حاسمة عام ١٩٩٠ .

وعلي الصعيد الشخصي دخلت قمة مالطا بين جورج بوش وجورباتشوف نفس العلاقة التي دخلتها جاكسون هول بيني وبين شيفرانازة ومكثتهما من إقامة علاقته شخصية متينة . وقبل الاجتماع كانت معرفه للرئيس بجورباتشوف نظريه بالطبع . وكما قال ريتشارد نيكسون في رساله نصيحة أرسلها الي الرئيس قبل يومين من قمة مالطا: « لا شك في أنه زعيم للاتحاد السوفيتي من نوعية جديدة مهمة، وأظننا رحبنا بالمبادرات التي اتخذها بالفعل دليلاً وخارجياً . لكن يتضح من فحص الأدلة أنه يفضل الفصيلة تحت وطأة الضرورة . وهذا لا يجعله بالضرورة زعيماً فاضلاً .

لكن مع قمة مالطة أصبحت العلاقة شخصية وإنسانية وخلال ربيع عام ١٩٩٠ ونحن نعمل لإدخال ألمانيا الموحدة إلى حلف الأطلسي كانت علاقة الرئيس للشخصية مع جورباتشوف حاسمة للغاية .

ومن الواضح أيضا أن نهج جورباتشوف تجاه الولايات المتحدة قد تطور أيضاً. وبينما نحن نعد للقمة في أواخر تشرين الثاني نوفمبر توقعنا أن يحضرا جورباتشوف بإحدى مفاجآته للرئيس. ولمواجهة هذا قررنا إعداد قائمة بمشرين مبادرة يستخدمها الرئيس في الطرح الأولي ليظهر لجورباتشوف أساساً أننا جئنا مستعدين للتعلم لبعثه.

لكن بالنسبة لجورباتشوف كشفت هذه المبادرات شيئا مختلفاً - هو أن «التوقف، الطويل قد انتهي، وأن الرئيس ولويس وزير الخارجية وحده أصبح مشاركاً بالكامل في دعم الليبريستروكا. ولم أعرف ما إذا كان جورباتشوف لديه مجموعة مبادرات قرر عدم طرحها لكن التصريح من كلامه عقب طرح الرئيس أنه انتقل من السياسة للتصادمية للتنافسية إلى علاقة أكثر تعاوناً، وفي رده علي قائمة الأفكار التي عرضتها الرئيس قال جورباتشوف: إنه توقع أن يسمع تأييد للرئيس لليبريستروكا لكنه استدرك قائلًا: «يعني للقول إننا علي استعداد لسماع خطوات محددة وقد قطعتم هذا اليوم». وحتى من قبل أن يعطى قول ذلك. وقال: إن الاقتراحات تعكس إرادة سياسة علي قصة حكومتكم لتحرك قنماً إيجابية، (وسرعان ما تم تجاوز المبادرات بإحراز مزيد من التقدم في العلاقة). واستطرد قائلًا: «لما بالنسبة للمستقبل فإننا جميعاً نضرب اليوم بأننا علي أعقاب مرحلة تاريخية. وعلينا أن نعالج مشكلات لم تكن نتوقع أن تصبح بهذا القدر من الحدة. وهل يحسن علينا أن نعالج تلك المشكلات بنفس الطريقة التي كنا نعالجها في الثمانين؟». وما لبث أن أجاب عن سؤاله: «لا. إلا فسوف نفشل. فطريق الحرب الباردة قد هزم استراتيجياً وفلسفياً. والجميع يدرك هذا. إننا نعرف التأثير الذي يملكه الناس علي السياسة. للناس في الشارع وفي الكونجرس ومجلس السوفيت الأعلى».

وعلى مستوى المبادئ طمأن الرئيس جورباتشوف مجدداً بشأن أوروبا الشرقية قائلاً: «كلى أمل في أن تكونوا قد لاحظتم أنه مع تسارع سرعة للتغيير في أوروبا الشرقية مؤخراً فلم نرد بحرص مفرط أو تصلب حتي لا ينعكس موقفكم». وقال للرئيس إنهم يقولون: «إن بوش شديد الجبن شديد الحذر، إنني حذر لكلي لست خائفاً. لقد حاولت أن أسير بطريقة لا تعقد صهيولتكم. ورد جورباتشوف بأنه لاحظ ذلك، وأنه يقدره. لكنه طرح نقطة أكثر شمولاً: «إننا نقبل دوركم في أوروبا. فمن المهم أن تكونوا هنا». وأعرب عن اعتقاده بأن أوروبا تسير علي طريق التكامل، ومع تقدم هذا للتغير قدماً يجب علينا ألا نفعل شيئاً لتقويضها - وعلينا أن نعمل سوياً وألا نهدر الفرصة.

وكان أشد ما يصايقه علي ما يبدو هو استخدامنا لاصطلاح «القيم الغربية» في خطبنا ونصريحاتنا العامة. وشرح الرئيس: «إن استخدام مصطلح القيم الغربية لا يعطى علي أي عداء». لكن جورباتشوف كان يعتقد أن كلمة غربية تشير ضمناً إلي أن الإصلاحيين لم يبنوا أو يمتدقروا بعض هذه القيم. في حين يشعر أنهم يعطون ذلك بالفعل، وفي ثانياً قلقة لامت الحزائنية الروسية الصمودة بين السلاف والغربيين. وسألت: لماذا لا تسميها «القيم الديمقراطية» ورد جورباتشوف: «هذا جميل» وبهذا التفاهم نشنا درجة جديدة من التعاون علي المستوى الشخصي والمبادئ.

الدبلوماسية كفن معماري

وأنا ذاهب للعمل يوم الجمعة الثامن من كانون الأول ديسمبر كانت واشنطن تذهب لأول عاصفة ثجية في فصل الشتاء. ومع الظهور كان سمك الثلج كبيراً (رغم أن معايير واشنطن منخفضة عن معايير أخرى) لدرجة أن الإشارات العامة أعطت أجازة للمعالة غير الضرورية. وكانت وزارة الخارجية مكاناً محزولاً نسبياً بعد ظهر ذلك اليوم عندما استقبلت سيرجي شينغريكوف القائم بالأعمال الروسي الذي جاء في مهمة عاجلة. فموسكو تطلب من

لندن وباريس وولشدمان دعوة سفرائهم لذي ألمانيا الغربية للاجتماع فى أسرع وقت ممكن مع نظيرهم السوفيتى ،للتبادل الآراء حول الشأن الألمانى . وقيل أربعة أيام فقط كان نحو مائتى ألف شخص قد احتشدوا فى ميدان فينسيسلاس فى براغ للمطالبة بتخلى الحزب الشيوعى عن السلطة . وقيل يومين أجبر ليجون كريكس الذى ثم يمض على نوايه السلطة سوى أقل من شهرين على أن يحدو حدو هونيكو . فقد فشلت محاولاته لتتسك بالاشتراكية ومن الإصلاحيون هجمات على المنشآت العسكرية فى ألمانيا الديمقراطية . كانت عجلة التغيير تدور بسرعة وبلغت موسكو عرضة للتأثر بنجاح الديمقراطية .

وفى هذا المناخ المتوتر كان من المقرر أن لزور برلين لإلقاء خطاب حول أوروبا . وقيل وصولى مباشرة وافقنا على الطلب السوفيتى ، وعقدنا أول اجتماع للقوي الأربع خلال ثمانى سنوات .

وفى هذا الاجتماع أكمنا العمل فى الاتفاق الرباعى البارز الذى نظم وضع برلين وحدد حقوق القوي الأربع فى المدينة . ويوم الأربعاء الثانى عشر من كانون الأول ديسمبر اجتمع السفير السوفيتى فى ألمانيا الشرقية فياتشيسلاف مع السفير الفرنسى بوندياكس والسفير البريطانى مالا باى والسفير ولترز بمقر هيئة مراقبة الحلفاء فى برلين الغربية ، وبدأوا مباحثات تمهيدية حول برلين ووصفها فى المستقبل .

وبدأت اليوم فى برلين على إضطرار مع كوكل لذى كان يشعر بشيء من الضيق . وأبلىنى أنه يحترم لقاء جورباتشوف قريباً ، وأنه واثق من أن موسكو ستكون أشد الأطراف تصلباً مع برلين . وأنه يعنى على حد قوله أن ،التغيير فى ألمانيا يعنى التغيير فى أوروبا كلها ، ويعنى أيضاً تغيير هيكل أوروبا والعالم .

لكن ما يلقه هو الإشارات الخافتة للى تصدر من باريس ومن لندن بشكل خاص . وكان يعتقد أن للجهود الغربية لفرطة إعادة التوحيد أو تهنيز رغبات الألمان الشرقيين لما هو أقل من الوحدة - مثل اتحاد فيدرالى - سيكون أمراً بالغ للخطورة . وقال إنه فى ضوء

السبح للمنتوى، الذى يواجهه الزعماء فإن للرأى العام فى ألمانيا الشرقية هو البولية الأشد خطراً. فإذا شعرت الجماهير أن تطلعاتها لن تتحقق فقد تلجأ إلي العنف. فأفراد الشعبين الألمانيين يريدون الوحدة وهم فى حاجة إلي «تمسور» لتحقيق تلك الوحدة. ولم يكن لديه أى مشكلة بعد أن شعر بالاطمئنان من المبادئ الأربعة التى أعلنها الرئيس. لكن تأتشر فاجأته بشدة. وقال إنها تعتقد أنه بعدم استخدام لفظ إعادة للتوحيد فإنها سوف تتلاشي. لكننى أشرت إلي أن الأمان أيضاً يبدو أنهم يتجنبون استخدام الكلمة أيضاً وهذا يخذى شكوك الجماهير وهذا هو الذى جطنا بحدود الوحدة كهدفنا للذالى.

وبعد الإفطار توجهت لعقد اجتماع قصير مع العمدة بومبر عمدة برلين الغربية ثم توجهت لفقد سور برلين بالقرب من بوابة الرايخستاج. كان يوماً ضبابياً سيء الطقس وكنت فى مجلسى الوافى من المطر أشعر وكأننى أبعد كشخصية من شخصيات رواية جون لويس. ولكن وأنا أنظر من فتحة السور وأرى اللون السجاني للقائم الكتيب الذى يميز برلين الشرقية تأكدت من أن الرجال والنساء العاديين فى ألمانيا الشرقية تولوا أمورهم بأنفسهم سلمياً وبإصرار. فهذه هي ثورتهم ومهمة رجال مثلي هي مساعدتهم فى الحصول علي الحرية التى يصلون جاهدين لنيلها.

وفى هذه الأجواء الصاخبة اكتسي خطبى أمام اتحاد الصحفيين فى برلين أهمية جديدة. ووضوح شديد كان الزلازل السياسى قد سوى بالأرض «عمارة» دبلوماسية أوروبية يعود تاريخها إلي أربعين عاماً كما وحاول لطماء الاجتماع أن يسموا المؤسسات الدبلوماسية. ويبدو أن معظم أوروبا تدربوا إلي الولايات المتحدة بحثاً عن التوجه.

وفى خطاب كتبه بوب زوليك استناداً إلي مصنفين أعدتهما إدارة التخطيط السياسى ومكتب الشؤون الأوروبية بذلت محاولة لطمأنة الأوروبيين بأننا لسنا فى حاجة إلي البدء من جديد تماماً، وتعرضت للمؤسسات الثلاث التى تهيمن علي أوروبا - حلف شمال الأطلسى، والجموعة الأوروبية، ومؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا - وأظهرت مدى حاجة كل منها إلي

التطوير للترويج لما أسميته «المنظومة الجديدة لحقبة جديدة» وهو اصطلاح اقترحه مفارصنا في معاهدة ستارت وسفيرنا السابق لدي ألمانيا ريك بورت.

وبدأت وأنا أدعو إلي الحاجة لأن يصبح حلف الناتو متحالفاً سياسياً بقدر أكبر عملية دفع السويد إلي قبول استمرار وجود حلف الأطلسي حتي مع زوال حلف وارسو وقبول ألمانيا الموحدة في عصوية حلف الأطلسي، وعن المجموعة الأوربية لم يكن لدى سوي الإشادة وهو ما أخذه الأوروبيون بعين الاعتبار. لأنهم كانوا يخشون من أن الولايات المتحدة قد تعارض محاولتهم من أجل التكامل. وبالنسبة لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا (الذي اعتبره منظمة غير عملية تدعو للإحباط) طرحت مجموعة مبادرات ستجعل منه أداة لتشجيع التخيير الداخلي المستمر في أوروبا الشرقية، واختتمت الخطاب بتأكيد مبادئنا الأربعة حول الوحدة الألمانية.

وفاق رد الفعل علي خطابي كل توقعاتي، وكنت أعرف أن استقامة روضوح لغتي ستشيع الاطمئنان. كما أن مجموعة المبادرات ستظهر أن لدينا أفكاراً جادة، ولكن كمعلم الأشياء في السياسة فإن للتوقيت هو الذي هيأ لها النجاح المثير. ففي لجوء التلق الدبلوماسي التي ألقيت فيها الخطاب وفر خطابي مادة ثرية للصحفيين والدبلوماسيين لاستغلالها في محاولاتهم الزامية إلي تفسير التغيرات التي تجتاح للقارة. ومرة أخرى فقد أظهر الخطاب أنه في الوقت الذي نسحب فيه قواتنا من أوروبا. فبوسعنا زيادة نفوذنا من خلال عدة أفكار متناقضة جيداً. وفي المقام الأول فقد أكد الخطاب علي أن للولايات المتحدة ستبقي قوة أوربية تضع للمبادئ التي تستمر في توجيه العلاقات عبر الأطلسي. وعقب الانتهاء من إلقاء خطابي غادرت فندق شتاينبرجر للقيام برؤية غير مقرر إلي بوتسدام بألمانيا الشرقية.

وكنت قد اتخذت قرار زيارة المدينة الليلة الماسية فقط. وعارض السفير والترز ووزيرنا في برلين هاري جيلموري فكرة للزيارة. لكنني عرفت أن للرئيس ميتران يعظم زيارة ألمانيا الشرقية الأسبوع القادم، وأرنت إظهار قوة للقيادة الأمريكية بالذهاب إلي هناك أولاً. والأهم فقد اعتقدت أن للزيارة يمكن أن تساعد في تأييد عملية التخيير السلمي، وبعد

الاستماع إلى نداء مؤتمر من ريتشارد باركلي سفيرنا لدى ألمانيا الديمقراطية بأن ريارتى سيكون لها مثل هذا الوقع، وبعد مراجعة كول وجينشر طالبت من بات كيندى وبارين جرومير اتخاذ الترتيبات لإنعام ما سيكون أول وآخر زيارة يقوم بها وزير خارجية أمريكى إلى ألمانيا الشرقية.

وكانت رحلتى إلى بوتسدام بالسيارة أكثر رحلاتى - كوزير للخارجية - خيالية، وعندما بدأتها عند الغرب بالعبور إلى الناحية الجنوبية للشرقية فى برلين الغربية واقتربنا من جسر جلوديك - كان الجسر مهكلاً محدثاً صدنا مقفراً يجتاز نهر هافل وهو أشهر موقع لتبادل عدد من الجواسيس، وبعد إسقاط طائرته فوق سيبريا عام ١٩٦٠ أطلق سراح الطيار فرانسيس جارى قائد طائرة من طراز (U2) عند الجسر، وحديثاً عبر أناتولى شارانسكى أشجع المنشقين السوفيت إلى الغرب من هناك. لكننى كنت متجهاً نحو الانتهاء العكسى، ولدى اقترابنا من الجسر توقف فريق حراستنا الألمانى الغربى فى حدة واضحة، وعبر موكبنا الجسر لالتقطه حراسة من شرطة ألمانيا الشرقية.

ولبرهة خاطفة ذُكرتُ بأن بوتسدام استضافت آخر مؤتمر للقوي المنتصرة ما بعد الحرب - بريطانيا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. (وقد زار جون فومستر دالاس برلين الشرقية فى الخمسينيات وبراها ويليام روجرز فى السبعينيات) وتذكرت أيضاً من أيام بريستون كيف قام زيرنست بيمين - بأول زيارة كوزير لخارجية بريطانيا - لبوتسدام بالطائرة للمشاركة فى مؤتمر بوتسدام، وها أنا استقل السيارة إليها بعد نحو خمسة وأربعين عاماً تقريباً. (كان بيفين اختيار اللحظة الأخيرة لرئيس الوزراء كلمين أتلى فيما هزم ويستون تشرشل فى انتخابات ذلك العام رغم أنه كسب الحرب. وأنا أسترجع الماصى الآن لا أجد غرابة فى أن يكون هذا مصير بوش. فقد إنتصر فى الحرب وهزم أيضاً فى أول انتخابات تالية لنصره).

لكن لطيف الذكريات سرعان ما أفسحت مكانها للمشاهد الوحشة والمقفرة على الجانب الألمانى الشرقى. وعلى حد تحبير كارون جاكسون مساعدنى للتفزيون لاحقاً كان

الأمر أشبه بالانتقال من عصر السينما الصلونة إلى عصر السينما الأبيض والأسود. وبالنسبة لي فإن براين ليست أبهج المدن. ربما لأتلى زرتها في الستار الألماني القائم. لكن براين التزيية تبدو أشبه بميدان التايمز أو سيرك اليكاديلي مقارنة بما انتظرونا ونحن متوجهون إلى فندق الإنتر بيوستدام. كان كل شيء قانماً، المدارس والسباني والشعب، والمراج. فالشوارع حاوية. اللهم باستثناء بضع سيارات ترابانت الصغيرة حافلة الإساءة كتكك التي تبعث من سقف قائم متسخ في مطبخ. ولم نحص أكثر من ساعة علي إلقاء خطابي وكنت جالسا في فندق الإنتر في اجتماع مع هانز مودروف رئيس وزراء ألمانيا الشرقية ونكرياتي عن الاجتماع مع مودروف عابرة وخاطفه كنظام مودروف نفسه باستثناء التأكيد لدي أوليته لإجراء انتخابات حرة. ولاحق لحظة مثيرة لدي دخول شخص يبدو للوهلة الأولى إنه إيجون كريستس رعيم الحزب الشيوعي الألماني. واعتقدت لوهلة أننا لصقنا، ولكن عندما قدم الرجل زجاجة مياه معدنية تأكدت أنه مجرد نادل.

ومالبذا أن قطعنا عدة بلوكات في طريقنا إلى كنيسة القديس نيقولاى للاجتماع مع ستة من زعماء الكنيسة اللوثرية، وانطوي الاجتماع علي مفارقة. لأن الكنيسة دمرت بواسطة قذائف الحلفاء والمدفعية السوفيتية في عام ١٩٤٥ ولم يعد بناؤها سوى عام ١٩٨٠.

وفوجئت بالمسؤولية التي أبدلها الزعماء ومدى اهتمامهم بمواصلة التقدير السلمي. وفي سدى لما قاله كزل لي في الصباح قلل أحد هؤلاء الزعماء: هذا وقت للجيشان العاطفي في بلادنا. فقد أثيرت التوقعات، وظهرت علي الملأ للمرة الأولى. والسؤال هو كيف يمكننا السيطرة علي تلك التطورات؟.

أما وقد شاركوا في المظاهرات العاشدة التي أسقطت هونيكز وكريستس فإنهم يعرفون سطوة وقابلية التحرك لجماعهيري للانفجار. كان للنفوس يساورهم من حدوث فراغ في السلطة واعترفوا بأنهم يمثلون السلطة المظوية للوحيدة في البلاد.

وعن قضية إعادة التوحيد أكدوا أن الاقتصاد لا القومية هو القوة المحركة للأغلبية في الانضمام إلى ألمانيا الاتحادية. وقال أحدهم: «لنا الحق في أن نتمتع بنفس نمط الحياة في

المانيا الغربية. إن هذا الإحساس لا ينبع من منطق القومية. بل من أننا نريد حياة أفضل. وكما قال آخر: «إن شعبنا لا يري أي سبب يدعو للانتظار عندما تعطي الوحدة تمسحاً قوياً لمستوي معيشته».

وفي تلك الليلة أبرقت للرئيس قائلاً: «ربما أكون مندهشاً بالالتزام بالتغيير السلمي والإصلاح أكثر من أي شيء آخر. فقد استعار مودروف عبارات جورباتشوف وشيفرنادزه: بأنه «لا عدول عن عملية التجديد. فلا يمكن عكس مسار العملية». وأشار مودروف صمداً إلي أنه «الشيء يمكنه رد تلك التقوي علي أعقابها، وأن مهمته هي إدارة العملية حتى إجراء انتخابات آذار مارس» وأضفت: «إن رأيي هو أنه ستنشأ وحدة اقتصادية بحكم الأمر الواقع علي أية حال بين شرطي ألمانيا... لكنني لا أعتقد أن المواطن الألماني الشرقي العادي بمعنى وقتاً طويلاً في دراسة هذا الخيار فكل ما يراه هو الطريق الأكثر إغصراً سوب ألمانيا الغربية».

هناك معضلة. فلا بد من إيجاد طريق ما لإشاعة روح الأمل حول تحسين الأحوال الاقتصادية إذا ما تعين إدارة ومعالجة الضغوط من أجل إنعام الوحدة... ولوالضح هو أن عملية للتغيير السلمي في ألمانيا الشرقية والقدره علي مواصلة نهج قوى لإعادة التوحيد مرهونة بسياسة إصلاح سياسي وهيكل جذري في للتدخل ومعوقة اقتصادية من الخارج. ويتعين أن تقود ألمانيا الغربية طريق المساعدة من الخارج. أما للباقي فهناك حاجة إلي تأييد من التحالف».

«إن مشاركتنا قد تعطي كول ستاراً ما لاخاذا الضغوط الاقتصادية الضرورية لتأييد ألمانيا شرقية إصلاحية، ولكن مهزوزة من دون إثارة قلق كبير لدي الجبران (حينئذ سيكون حراً في الحصول علي مصداقية سياسية في للتدخل وهو أمر جيد معنا). وبصراحة فإن نشاطنا الاقتصادي والسياسي في ألمانيا الشرقية يخدم مصالحنا وإياكلنا في اللعبة والألمانيان تتحركان نحو الوحدة، وأشك في أن السوفيت سيكونون أكثر استعداداً لروية تعزيز العلاقات بين الألمانيين لو اعتقدوا أننا نراقب الساحة».

واتخذ طريق عودتي إلى الولايات المتحدة طريقاً مفتوحاً: حيث زرت بروكسل ثم توجهت إلى سان مارتين في الكاريبي عبر جزر الأزور للانضمام إلي الرئيس في اجتماعه مع الرئيس ميتران.

اجتمعنا في ثياب فضفاضة تحت خيمة مقلمة علي الشاطئ بغندق لوهانباسيون دي لوفيللر، وهو فندق قحم علي الجانب للفرنسي من الجزيرة الهولندية الفرنسية المنتجع لبحث مستقبل أوروبا. وعقب اجتماع دام ساعة قال ميتران في مؤتمر صحفي: أنه يجب علينا أن نعالج المشكلة الألمانية بطريقة شديدة الانسجام، وعلي حد تعبيره الدقيق: «إننا لم نتحرك، جهاد الطريق بسرعة واحدة وسوف يقع حادثه وسوف يكون تفادي وقوع مثل هذا الحادث ورؤية ألمانيا وقد توحشت وأصبحت عضواً في حلف الأطلسي مشروعياً للدبلوماسية الثوري في العام الجديد.

الفصل الحادي عشر

بنما

ولت أيام الديكتاتور

إن عدم الاستقرار الناجم عن عدم حرك ديكتاتورية عسكرية
تسلطية فاسدة نحو ديمقراطية انتخابية مفتوحة يجعل
مصالح الولايات المتحدة الراسخة محفوظة بالقطر

من مذكرة سياسية لوزارة الخارجية حول بنما

آيار مايو ١٩٨٩

منذ بداية تولي مهام منصبين كنت أشعر بقلق دخلتي من أن أحد نقاط الإضطراب التي تولجها إدارتنا الجديدة ربما يقتضي في نهاية الأمر حلاً عسكرياً. كان الجنرال مانويل أنطونيو نوررييجا مثلاً لما نسبه في تكساس، الشخص الكريه. وبات نوررييجا الحليف السابق للولايات المتحدة يشكل خطراً متزايداً بعد تمسُّب وتعمق تولطه مع مهربي المخدرات للدوايين، وبعد تصاعد هجمات قواته المسلحة على الجنود الأمريكيين وعائلاتهم المتمركزين في بنما. وخلال إدارة ريجان رفض بازدياد كل الجهود الرامية للتوصل إلي تسوية من خلال التفاوض مع الولايات المتحدة، وحتى عرض إسقاط اللتم للفيرالية الموجهة له بالاتجار في المخدرات قد مثل في ضمان رحيله عن السلطة، وخشيت من أن يكون قد شجعه في التمادي عجز حكومتنا عن إسقاطه بالعقوبات الاقتصادية، ومن ثم فقد أصبح العمل العسكري ضرورة ملحة.

ولم يكن هذا الرأي يلقى قبولاً داخل الحكومة. فالبنتاجون بشكل خاص نأب علي ممارسة استخدام القوة أثناء إدارة ريجان، ومن المؤكد أنه سيعارض الفكرة مجدداً. وبالطبع كنت أريد وأفضل التوصل إلي حل سلمي. لكن مع ملاحظتي لعدائه شكَّكتُ في أن الدبلوماسية وحدها ستكفي.

ولم يكن الإبقاء علي الأمر الواقع أو التفاوض مع استمرار وجود نوررييجا في بنما بديلاً مقبولاً بالنسبة لي. فديكتاتوريته تهدد انتقال قتال بنما إلي السيادة الليمنية بموجب المعاهدة، وتهدد أيضاً قدرتنا علي الدفاع عن أمنها. وقوض نظامه العسكري للفاقد والقمعي جهودنا لإشاعة الديمقراطية في الأمريكتين ومكافحة تهريب المخدرات. ووفق هذا وذاك كان نوررييجا يمثل خطراً علي أرواح ووجود أربعين ألف جندي ومدني أمريكي في بنما. وأُسلِّتُ في أن يكون بوسعنا التعامل مع نوررييجا من خلال سياسة التصعيد السياسي والاقتصادي والضغط المبرى. لكن الهدف واضح. يجب إنهاء حكم نوررييجا بطريقة أو بأخرى.

وفي أوائل شباط فبراير ١٩٨٩ انفردت جانباً بمايكل كوزك عقب لاجتماع حول سياسة أمريكا اللاتينية. وتعد معرفتي بكوزك إلي عدة اجتماعات لمجلس الأمن للقومي حول بنما حضرتها بصفتي وزيراً للحزبة. وكموظف مدني ومدع عام تفاوض وجهاً لوجه مع نوررييجا

عدة مرات. كان كوزاك دبلوماسياً قديراً وفذاً يشغل منصب القائم بأعمال مساعد وزير الخارجية لشؤون الأمريكيين لنتظاراً للتصديق علي تعيين بيرني أرونسون، وخلال فترة الانتقال طلبت منه إعداد ورقة سياسية لي تتضمن ما هو الجديد الذي يمكن عمله لإقناع نوريجا بالتقاعد. وأوصت الورقة بتكليف المضغوط السياسية والاقتصادية والدبلوماسية، وهو ما يعارضه البنتاجون. وأتذكر كيف نهضت من الهنق للوالس الذي حدثته الورقة. فقد جاء بها «لا يمكن استمرار الوضع القائم، ولا يمكن تأجيل اتخاذ خيار سياسي جذري بعد الآن. ووافقت بتردد علي هذا التقييم الجذري».

وقلت لكوزاك: «إنني أعتقد منذ فترة طويلة أن الأمر قد يستدعي اللجوء إلي القوة لإقصاء هذا الرجل. والمشكلة التي نواجهها هي عدم اعتماد وزارة الدفاع لتبني هذا الحل. وإذا وصلت الأمور إلي هذا فطيناً أن نحقق أقصى ما يمكن تحقيقه وبما يتجاوز الوسائل الأخرى».

وأكدت الأحداث صحة رؤيتي. وبعد إنهيار مفاوضات دامت عدة أشهر اهتزت حالة الأمر الواقع الهشة بقتل قوات نوريجا صلباً بمشاة البحرية الأمريكية عن عمد في كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩. وبدأ علي ذلك شلت للقوات الأمريكية عمليات قتالية قبل خمسة أيام من عيد الميلاد للإغاثة بحكومته غير الشرعية واستعادة للديمقراطية وإحباط نوريجا للمثول أمام المحكمة في الولايات المتحدة. وفي غضون أربع وعشرين ساعة انتهى سجله الإرهابي وبعد أسبوعين كان الجنرال في المعز بالولايات المتحدة علي دمة المحاكمة بتهمة تهريب المخابرات. وأرسل قرار الرئيس تويجه صدى من أجل الديمقراطية إشارة قوية بأن جورج بوش شأنه سلفه مستعد لاستخدام القوة العسكرية الأمريكية لحماية المصالح الحيوية الأمريكية، ودعم مبادئ الديمقراطية في الأمريكيين.

ميراث ماث شاك

لنحو قرن كانت مصلحة أمريكا العليا في بنما هي الحفاظ علي بيئة سياسية مستقرة تكفل تشغيل قناة بنما والمنشآت العسكرية. وأثارت قضية الاستقرار هذه تصرفات متباينة

كانت مثار جدل من جانب الرؤساء الأمريكيين تكرواح ،ما بين قرار الرئيس تيودور روزفلت بالتدخل العسكري في عام ١٩٠٣ إلى قرار إدارة كلانتر بالتوقيع عام ١٩٢٧ علي معاهدة تسليم القنادة إلي بنما مع نهاية القرن للحالي.

ومع بدء تطبيق أحكام المعاهدة ثارت توقعات بتحمين العلاقات الثلاثية. لكن الأمور تحولت نحو الأسوأ هي حزيران يونيو ١٩٨٧ لعدم احترام نورييجا اتفاق عام ١٩٨١ بتسليم قيادة للجيش لخليفة مستشار، وأدى هذا التصرف إلى اندلاع مظاهرات وإضرابات عامة وأزمات دستورية لمدة أشهر سعت خلالها للولايات المتحدة للتوسط كوسيط نزوية بين للجيش والحكومة المدنية برئاسة أرتورو ديفالي. وفي شباط فبراير ١٩٨٨ وبعد توجيه هيلتي محققين كباريين فيدراليين إلى نورييجا بالتهمة بتهرب المخابرات استولى فعليا على الحكومة من ديفالي.

وحتى وقوع الانقلاب الفعلي كانت السياسة الأمريكية تهدف إلى استمرار للمنظم على القيادة السياسية والعسكرية في بنما لاحترام للزاماتها بإقامة للديمقراطية التي قطعها للجنرال الراحل عمر نوريغوس هيرييرا. وبامتلاكه السلطة والتهامات الموجهة إليه أصبح نورييجا شخصية غير مرغوب فيها بالنسبة لصناع السياسة الأمريكية.

وفي آذار مارس ١٩٨٨ فشلت محاولة انقلابية ضد نورييجا مما دفعه إلى إعفاء نحو ربيع شباط قوات الدفاع البنمية في حملة تطهير لتحريض قبضته على السلطة. وبعد شهر قرر الرئيس ريجان فرض أشد عقوبات اقتصادية على بنما بهدف تكثيف الضغط على نظام نورييجا غير الشرعي. وفي نفس الوقت أمر بإجراء مفاوضات للتفاوض مع نورييجا على الخروج من بنما، وكانت بنود الصفقة المرونة على نورييجا لإغرائه بالرحيل أكثر صفقة تشهد جذلاً حامى الوسطى في حكومة منقسمة بشدة بالفعل حول السياسة المناسبة للتعامل به. وكان ذلك حقاً أشرس جدل داخلى أتذكر أنني عايشته خلال عملي الحكومي على مدى اثنتى عشر سنة.

وأثناء اجتماع لمجلس الأمن القومي في آيار مايو ١٩٨٨ في المعرفة للصنفاء بالكنور الثاني بمقر إقامة الرئيس بالبيت الأبيض عارض جورج بوش نائب الرئيس حينذاك بشدة

إسقاط الاتهامات الموجهة إلى نورييجا إذا وافق على التوجه إلى المنفى. وقال: كيف يمكننا التصدي بحزم لتجار المخدرات لو صفحنا عن هذا الرجل؟.

وأيدته لأسباب سياسية وأخرى تتعلق بالسياسة إنذا كدولة لنا في موقف يسمح لنا بإبرام صفقة مع واحد من أسوأ تجار المخدرات في العالم وكمرشح للرئاسة سوف يعانى نائب الرئيس بشدة من جراء هذا الموقف. فبالها من سياسة سيئة بل وحياة سياسية أسوأ.

وبعد مناقشات مستفيضة وحامية رفض الرئيس ريجان هذه النصيحة، وتوصل إلي أن خروج نورييجا من بنما قد يخدم المصالح القومية الأمريكية بشكل أفضل. وفي رأيه فإن إسقاط الاتهامات الموجهة إلى نورييجا يعد ثمناً بسيطاً مقابل خروجه. وقد كان قراراً قتل في تحقيق النتائج المرجوة. وبعد تظافره بقول للصفقة في للبدلية عاد ورفضها بدعوى أنه أكثرأ لماناً في بنما منه في الخارج.



وإثر تولي إدارة بوش للسلطة كان السؤال المتعلق بماذا يجب عمله حياله واحداً من القضايا الأكثر إلحاحاً. وأساءه الحظ وبرغم المؤشرات الأولية الإيجابية فلم تكال بالنجاح «جهودنا الدبلوماسية لإقناع نورييجا بالرحيل». وفي أوائل عام ١٩٨٩ نقلت عدة مقترحات من نورييجا عبر الوساطات وأدعي أنه حريص على تحسين العلاقات، وكانت رسائل الرد من الرئيس بوش التي سلمت خلال عدة اجتماعات بين كوزك ومحامى نورييجا هي نفس الردود دائماً، وهي أن الولايات المتحدة مستعدة للتفاوض. لكن فقط إذا أبدى استعداداً لبحث مغادرته بنما علي وجه التحديد. وعلاوة علي ذلك فقد أبلغ بأن الاتهامات الموجهة ضده غير قابلة للتفاوض.

وهيما كنت ألتقي مع موقف الرئيس فإن رفضه المبدئي لإسقاط اللهم الموجهة إلي نورييجا قد بدد جوهرياً أي فرصة للتوصل إلي حل سلمي للقضية، وخلال مفاوضاته العام الماضي مع كوزك أوضح نورييجا أنه لن يفكر مطلقاً في مغادرة بنما ما لم تسقط الاتهامات

عنه - فغى إحدى اللحظات قلل كوزاك: «سوف تجدون رجلاً مثلي يأتي وتضمنوني علي الطائرة إلي ميامي». ولم يكن يستطيع مفاوضة منطقته لأنه من التفارقات القريضة أنه رغم صنوعه في تهريب المحدثات فقد تعاون لمدة سنوات مع سلطات مكافحة المتهدرات. وفي عدة مناسبات قام بتسليم عدة تجار مخدرات بتسليم إلي الولايات المتحدة. وطالما أنه تحت تهديد الاتهامات كنت أعتقد أنه سوف تنل اعتراف فرصة في بنما عن الذهاب إلي مكان آخر والمجازفة باختطافه علي يد عناصر أمريكية. ولأننا والقون تلمأ من أن الرئيس لن يسقط عنه التهم مطلقاً فقد وصل مسار المفاوضات إلي طريق مسدود. ربات من القواضح لي أن نورييجا قد حطم إلي أن الولايات المتحدة لن تتدخل عسكرياً مطلقاً في بنما، وأن خصومه الداخليين علي درجة بالغة الضعف ولا يمكنهم الإطاحة به. وبالشك كان مصيباً في النصف الأخير من اعتقاده، ويحتمل أن يكون مصوباً حول احتمالات التدخل الأمريكي مع غياب عمل قوي من جانب الولايات المتحدة.

وفي نيسان أبريل ١٩٨٩ بحث السفير الأمريكي آرثر ديفز السعين سياسياً والذي سبق له الخدمة في باراجواي والشخصية المفضلة لدي السيناتور جوسى هولمز - بحث ببرقية قوية إلي الخارجية بحث فيها علي انتهاء سياسة أكثر تشدداً لكسر الجمود. فقد أُنشأت مفاوضات عام ١٩٨٨ لنورييجا فرصة «للقاط الأنفاس» أعاد خلالها ترتيب موقفه وخلق سياسة حزم وأكد السفير «أن سياستنا تراجعت فقد درجنا رسمياً علي تجاهل للنظام واعتمدنا علي العقوبات الاقتصادية لإضعافه، وهناك حاجة الآن لانتهاز لإجرامات لقوي. إن استبعاد استخدام القوة للدفاع عن مصالحنا يمثل دعوة مفجوعة لنورييجا وهو أضمن طريق لعادث مهلك وأثبتت التطورات اللاحقة صلو رؤية آراء ديفز.

وكان من نتائج البرقية إعداد لقوي مذكرة داخلية أعدها كوزاك في ١٤ نيسان إبريل وحلها كبار معاوني. وقال كوزاك في مذكرته: «إننا كنا نريد إخراج نورييجا فعلياً أن نتصرف بأنفسنا. وعلينا أن نفهم بوضوح أنه لن يعادرنما إلا بمجهود أمريكي لقوي مما استخدم حتي الآن، وفيما نعتقد أن القوة العسكرية الأمريكية ستصبح ضرورية فإنه يجب علي الرئيس أن يكون مستعداً لاستخدام القوة كملاذ أخير. إن التهديد الواصل الذي يمثل استبعادنا

لاستخدام القوة يفتح خيارات أخرى، وهو الأسفيل الوحيد الذي يمكن أن يفرق بين نوريجا وقواته المسلحة.

وأكد كوزلك أن البديل الاستراتيجي المفضل هو تحريض قوات دفاع بنما علي القيام بانقلاب من خلال مجموعة تصرفات تصفى مصداقية علي التهديد بصل عسكري أمريكي. وأضاف: إنه إذا لم تتحرك قوة دفاع بنما بحلول الأول من أيلول سيمتدح يجب أن يصدر الرئيس أوامره بإقصاء نوريجا. إما عن طريق الخطف أو بعمل عسكري أمريكي*.

كانت فكرة خطف نوريجا محل بحث خلال عام ١٩٨٩. وفي سياق البحث عن سابقة قانونية توصلت الإدارة إلي أنه بوسع الحكومة الأمريكية محاكمة مشتبه فيه مختطف من بلد ترتبط معه الولايات المتحدة بمعاهدة لتسليم مجرمين. ونتيجة لهذا فقد ألقي للرئيس بوش الحظر الذي فرضه كارتر علي مثل تلك التصرفات. ولم يسألوني أي شك في أنه إذا ما أمر الرئيس «بخطف» نوريجا ف سوف يكون قراره قانونياً. وفي الواقع فقد أصدرت المحكمة العليا الأمريكية حكماً بهذا المعني في قضية منفصلة عام ١٩٩٢ م.

ومع هذا ظم يكن الرئيس معنياً باختطاف نوريجا. إما من بنما أو من أي بلد آخر ومع ذلك فقد أصر علي أن تتخذ استحداثنا للسعي لتسليم نوريجا بقوة لوكان علي درجة من المصداقية تدفعه إلي مغادرة بنما. ولاحق هذه الفرصة من دون توقع في صيف ١٩٨٩ عندما تلقت المخابرات الأمريكية ما اعتبرته إخبارية علي درجة عالية من الثقة بأن نوريجا علي وشك القيام بزيارة غير معلن عنها إلي جمهورية الدومينيكان لمحضور حفل زواج ابنة أحد أصدقائه وتأهب الدبلوماسيون الأمريكيون علي وجه السرعة - مملحين بتفويض من الرئيس - بإعداد وثائق التسليم، وإعداد خطة يقوم مسؤولو الدومينيكان بموجبها بانتزاع نوريجا لحظة وصوله إلي الدومينيكان ثم يصحوه علي متن طائرة تنقله إلي ميامي. ولأسوء الحظ لتضح أن الإخبارية كانت وهمية.

وفي الرابع من آب أغسطس، وبعد إخبارية كاذبة أخرى بأن نوريجا دخل أرضاً أمريكية لفترة قصيرة بحثت مع الرئيس وسكوكروفت في المكتب للبيضاوي إمكانية اعتقال

* كان أيلول سيمتدح هو المرحل المقرر لتسليم عملاء نوريجا في السلطة.

نورييجا لو تصانف وحدث ذلك مرة أخرى. وكان هناك إجماع عام بأنه إذا لاحت تلك الفرصة ثانية فيجب أن تعطل القوات الأمريكية نورييجا وتودعه الحجز وترحله إلى الولايات المتحدة ليمثل أمام المحكمة. وفي ١٧ آب أغسطس حددت الخارجية الأمريكية الإطار العام لمسلة خطوات تكفل تنفيذ أمر الرئيس باعتقال نورييجا بأقصى سرعة. وتم إعداد الآليات لكي الفرصة لم تلح.

انتخابات مسروقة

كان من المقرر إجراء لانتخابات رئاسية في بنما في ٧ أيار مايو. ومع اقتراب الموعد لتصبح مع ذلك أن حملة التزوير للمنظمة قد تحولت إلى عملية تهريب الطار. فقد تلاعب حلفاء نورييجا بقوائم الناخبين وحرّموا المعارضين من التصويت ورتّبوا لإدلاء الصوّالين له بأصواتهم بالجملة، وأخافوا مرشحي المعارضة وأنصارهم. وأثار لزدراء نورييجا بالملعلة الديمقراطية سحطاً رهيباً لذا فرصة لتكليف ضابطاً عليه روضع نهاية لهذا التشرؤم داخل حكومتنا.

وقبل يومين من إجراء الانتخابات لخصت الموقف في مذكّرة بحث بها إلى الرئيس . وقت: «إن كافة التقارير تشير إلى أن نورييجا قد زور الانتخابات وسوف يهرقه». وفي تلك الحالة سيكون من المهم اتخاذ خطوات فورية لتزجيه بإشارة ولمنحة وحاسمة إلى نورييجا أن الأمور لن تسير علي ما يرام كالمعتاد مع الولايات المتحدة لو سرق الانتخابات». وأصنفت: إنه لتعزّز الضغوط يجب أن يوافق علي مسلة من القرارات السياسية التي نورسلنا إليها بشبه إجماع من خلال مشاورات بين الوكالات الحكومية نولاهما أرونسون وكوزك.

وحذرت «من أننا نضع أنفسنا علي طريق سوف يعزّز لاحتمالات المواجهة. وعليك أن تدرك أنه بمجرد أن نتخذ تلك الخطوات سوف تولد زحماً. ونأمل أن يستشعر نورييجا بالصقوط ويتنحى باللتحى عن السلطة. لكن إذا لم يحدث ذلك. وهذا محتمل - فسوف نواجه ضابطاً لاتخاذ خطوات أخرى».

ونبهه إلى أن مثل تلك الخطوات سوف تزيد من مخاطر حدوث مواجهة عسكرية .
ومع هذا فقد تأكدنا خلال العام الماضي أن الإجراءات غير العاسمة كانت أسوأ خيار سياسي .
فقد أضربنا بالاقتصاد البنى والمشروعات الأمريكية هناك، لكننا لم ننظر بجدية كافية
لإقناع نورييجا بالتقاعد .

وبأوامر سريعة صنعتت الخارجية من أجل إرسال مراقبين دوليين إلى بنما فيما ركزت
أنا والرئيس الاهتمام الدولي على الانتخابات في سلسلة من التصريحات العلنية . فو مضي
نورييجا نحو سرقة الانتخابات فلنأ نريد أن يكون العالم شاهداً على تلك السرقة، ومن أجل
تهيئة الرأي العام لتقبل رد أمريكي ودولية أعنف .

وبالمتوقع سرق نورييجا الانتخابات من مرشح المعارضة جولييرو أندارا . ورصدت
مجموعة المراقبين الدوليين برئاسة للرئيس السابق جيمي كارتر الذى ألحقنا عليه للذهاب
إلى بنما أمثلة صارخة ومولقة للتزوير للصارخ في الانتخابات . وأيد إدانتهم القوية لسرقة
نورييجا المفترحة للديمقراطية بصورة لجولييرو (بولى) فورد أحد المرشحين على قائمة
إندارا لمنصب نائب الرئيس والدماء تكذب بخزارة من رأسه من إصابة سببها بلطجية نورييجا
بهلما حارسه الشخصى للقتل يرقد وسط بركة من الدماء .



وفي اليوم الثالثى لصادى عشر من أيار مايو صرح الرئيس للمحلفين بأن: «أبام
الديكتاتور قد رات، ثم أعلن سحب من يحملهم الأمريكيون غير المقيمين في قواعد عسكرية
أمريكية، واستدعاء السفور ديفز وخمسين عدد العاملين بالصفارة الأمريكية بواقع الثلاثين
 وإرسال لواء مشاة من القوات البرية لتعزيز القوات التابعة لقيادة المنطقة الجنوبية للمركزة
 بشكل دائم في بنما وقوامها ١٢ ألف جندي .

والأهم هو أن الرئيس قرر إنفاذ بند في معاهدة القناة يسمح للقوات الأمريكية بإجراء
مناورات تدريبية غير محددة بهدف زيادة نطاق ومدى تحركات قواتنا لدخل بنما . وسيجرى
جانب من تلك المناورات في مناطق يعتبرها البلميون خاصمة لسيطرتهم التامة . كانت حرباً

نفسية، وكنا نريد أن يدرك أننا قادمون لو لم يبادر بالرحيل. إساقفة إلي ذلك كنا نريد أن
يرجعه رسالة إلي قوات دفاع بنما. بأن نوريجيا هو المشكلة. فلما أن تخطوه وإلا فسوف يأتي
الجيش الأمريكي.

وعرضنا القضية علي منظمة الدول الأمريكية، وبدعم قوى من الولايات المتحدة تولت
فضولا رمان القيادة في الدعوة لعقد اجتماع طارئ لوزراء خارجية منظمة الدول الأمريكية
في واشنطن في السابع عشر من أيار - مايو. ومارست أنا وأرونسون ضغطاً لاستصدار قرار
متشدد. لكن الأمر استغرق جهداً شاقاً لإقناع اللاتينيين بإدانة نوريجيا بالأسم لسرقته
للانتخابات. لكن العقيدة القديمة بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول والخوف من القوة
الأمريكية لا يزالان يسلان حركة المنظمة. ورغم أن الوزراء أوفدوا وفوداً للاجتماع دورياً
خلال الأشهر التالية إلا أن منظمة الدول الأمريكية أثبتت عجزها عن تسوية الأزمة. ولازلت
أشعر أنه من المهم منح فرصة للمنظمة - حتي لو لم يكن هناك من سبب سوى إيضاح
أن الولايات المتحدة قد استفدت كل البذل السلبية والدبلوماسية ذلك إننا ما تعين استخدام
القوة.

ودار الاختلاف الداخلي الوحيد حول موقفنا المتشدد حول الجدول الزمني لسحب ستة
آلاف ممن يحملهم الجلود الأمريكيون ممن لا يقيمون في قواعد عسكرية أمريكية في بنما
وافقت الخارجية والمخابرات المركزية ومجلس الأمن القومي علي ضرورة اكتمال الانسحاب
السريع لهم في غضون ثلاثين يوماً. وكانت وزارة الدفاع قرع في إتمام العملية خلال
أربعة أشهر. وحتى بعد استبعاد الرئيس لهذا الجدول الزمني للتردى فقد تكأت قيادة المنطقة
الجنوبية. وعندما التقى وفد المراقبين الأمريكيين للانتخابات مع الجنرال فريدريك فيرنر قائد
المنطقة الجنوبية قال لهم: إن هناك عجزاً في صناديق الكرتون اللازمة لتحديد متعلقات
العوائل سوف يؤخر علي الأرجح ترحيلهم من بنما. ونوع السيدات جون مكاي من أريزونا
وعضو الوفد من هذا التفسير. ثم اشفكي إلي الرئيس فيما بعد بأن للقيادة الجنوبية جزء من
المشكلة وليست جزء من الحل. ولعدة أشهر بات كثيرون منا يعتقدون أنه رغم أن سجله
المعسكري باهر فإن الجنرال فيرنر قد أقام علاقة عميقة فريدة مع نوريجيا وأنه يمارض
سياسة الرئيس المتشددة. وفي كل مرة كانت تجري فيها دراسة توصية جديدة باتخاذ إجراء

أشد، كانت القيادة الجنوبية تبدي اعتراضها، وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير التي دفعت الرئيس بتوصية قوية من تشينغ وسكوكروفت وعلي باستبدال الجنرال ماكسويل ثورمان بالجنرال فيرنر في تموز/يوليه عام ١٩٨٩.

واستهدفت كل تلك الإجراءات رعزة ثقة نورييجا لإقناعه وإقناع جيشه بأن سبر الولايات المتحدة أخذ في اللفاد، وأن أهمل الحلول له هو حروجه المشرف في سلام من بنما. وفي ذلك الوقت لم يعد يراودني أى شك في عدم إمكانية بقاء نورييجا في السلطة، وبحلول الأول من كانون الثاني يناير ١٩٩٠ كان من المقرر تعيين بعدي لرئاسة هيئة قادة بنما بموجب معاهدة عام ١٩٧٧. ولم يكن هناك، بأي حال إمكانية لتسليم القادة لحكومة نورييجا غير الشرعية، ومن ناحية أخرى سوف تتور عاصفة إقليمية لو ألغينا المعاهدة.

وعلي الجانب الآخر أصبح نورييجا أكثر تشدداً واديكالية. فهو يحصل علي معونة مالية من ليبيا ويؤيد المقاتلين الماركسيين في السلفادور بالأسلحة ويؤيد كاسترو، ويقوم بتدريب وتسليح كتائب الكرامة، شبه العسكرية التابعة لنورييجا. وكان في الواقع في طريقه ليصبح معمر القذافي في أمريكا اللاتينية - شخصية عدوانية واديكالية متشددة يهرب للسفدرات ويتحالف مع أعدائنا، ويحكم سيطرته النامة علي بلد يتركز فيها جنود أمريكيون لحماية القنلة والبنفاخ عنها.

وبعد ثلاثة أسابيع من انتخابات آيار مايو أصدرت تطوعماتي لسفارتنا في بنما سيدي لتسليم الرسالة القوية التالية شخصياً إلي نورييجا:

«إن الاعتداءات التي ارتكبتها منذ قيادة المعارضة والبنميين الآخرين بمن في ذلك موظفين أمريكيين هي اعتداءات خبيثة وجبانة. ولم يشعر الرئيس شخصياً بالضيق سوى من جراء مشهد بلطجيتكم وهم يتحدثون علي مرشحي المعارضة للعزل تحت سمع وبصر قواتكم. إن الرئيس يظني تقارير مفصلة عن كل عمل عنيف أو تعرض يقوم به رجالكم والرسالة الموجهة لكم هي: أرحلوا، فالرئيس يقول إن الأرمة لن تنتهي إلا بتخليكم عن السلطة والرئيس يحكي ما يقوله».

وفي الوقت ذاته صدرت توجيهات إلى كافة المسؤولين الأمريكيين في بنما بتوجيه رسالة مماثلة في اتصالاتهم مع قوة الدفاع بينما. وأكدت الرسالة مجدداً أنه في الوقت الذي لا تعادى للولايات المتحدة الجيش فإن نورييجا قد لطمح كرامة وسمعة قوات الدفاع باستخدامها في التكيف بالمدنيين البنيين. وقد جاء دور قوات دفاع بنما لتمكين سمعتها بالانضمام إلى المعارضة الديمقراطية. واختتمت الرسالة بالقول: «إننا نحترم أي اتفاق سيوصل إليه الفائز في الانتخابات مع قولت دفاع بنما. وإن يكون هناك مكان في بنما لأولئك الذين سيقرون إلى جوارهم حتي النهاية. فالأزمة لن نحل إلا بتخليه عن السلطة. فالموقف قد يرداد سوءاً بل غاية في السوء».

وفي الحقيقة كنا نبذل قصاري جهدنا لتفريض علي القيام بالانقلاب، وكانت السياسة التي نذهبها هي تسعيد مطرد وشامل للصنوط. وكانت الرسالة تلي ترجمه علي كافة المستويات هي: إما أن تخله قوات دفاع بنما أو نخله نحن.

مهاجاة أكتوبر الفاشلة

مساء الأول من تشرين الأول أكتوبر اتصلت زوجة ضابط بنمي برتبة ميچور اسمه موبيس جيرولدي بمصوّل للمخابرات المركزية الأمريكية مرتبط بالقيادة الجنوبية في مرتفعات كوراي، وقالت إن زوجها يدبر انقلاباً ضد نورييجا، ويحتاج إلى مساعدة للجيش الأمريكي. وتحدثاً فهو يريد من القوات الأمريكية إغلاق طريقي حتي لا يستطيع نورييجا استدعاء تعزيزات بمجرد بدء الانقلاب. ورفضت تقديم أي تفاصيل لفظة العمليات لمحاورها الأمريكي. لم تكن نعرف الكثير عن جيرولدي لكن ما سمعناه أثار شكوكنا. فقد كان الميچور عضواً في طاقم نورييجا الأمني، وساهم في قمع المحاولة الانقلابية في آذار مارس ١٩٨٨ ولذا فقد افترضنا أنه موال لنورييجا وكانت للواقعة صعيحة كما علمنا بعد قوات الأوان.

ووصفت القيادة الجنوبية تقرير محاولة الانقلاب بأنه استفزاز بهدف اختبار أو مضايقة ماكس ثورمان الذي تولي للقيادة في اليوم السابق. واعتقدت أنه يجب تجاهل تلك التقارير. وكان كرلين باول الذي تولي رئاسة هيئة الأركان العامة المشتركة الأمريكية في ذلك اليوم

فحسب يشعر هو وروساء الأفرع بالقلق من المشاركة فيما يبدو أنه عملية غير معد لها جيداً. ومع ذلك كان الرئيس أكثر انفتاحاً لدور أمريكي. وقال خلال اجتماع قصير في المكتب البيضاوي في الصباح التالي: «أفكر نطالما ألححت على حلال للشهرين للماضيين متوسلاً من أولئك الناس أن يدبروا انقلاباً فإذا كان أحدهم علي استعداد للقيام بالانقلاب فعلينا أن نساعد».

ثم سمعنا في الانقلاب قد تأجل ليومين. وزادت تلك العطومات من شكوكنا. وقد راحت شائعات كثيرة من قبل عن حدوث انقلابات ضد نورييجا لكنها لم تحدث أبداً واقترعنا أن هذا من قبيل التمني من جانب الرتب الوسطي في قوات دفاع بنما.

وعندما بدأ الانقلاب بالفعل في ٣ تشرين الأول أكتوبر أكد الرئيس مشاعره السابقة بتأكيد أكبر. وقال: «إذا كان هناك من هو مستعد للقيام بانقلاب فسوف نساعد». ونفذت رغبات الرئيس ونتيجة لهذا قامت القوات الأمريكية بإغلاق طريق الخروج من فورت أمادور وكوبري الأمريكيين فوق للقتال وهو ما طُلب منا.

وكانت معلومات المخابرات الأمريكية مشوشة. وصلت مجرأة ومبتورة. ففي لحظة ما أبلغتنا السفارة الأمريكية في بنما سيتي أن جيرولدي يريد تسليم نورييجا إلى القوات. وبعد بضع ساعات أبلغتنا السفارة أن الانقلابيين ليس لديهم أي نية في التخلي عن طريقهم (نورييجا).

وقد حدث كل هذا والرئيس يستقبل في المكتب البيضاوي كارلوس ساليناس رئيس المكسيك. وفي الوقت الذي تجمعت لدينا معلومات كافية لإصدار الأمر للقوات الأمريكية بإغلاق طرق التمريرات كان الانقلاب قد فشل بالفعل.

كان انقلاباً هزلياً هزيل الإعداد أخرق التنفيذ. فقد اعتقد جيرولدي علي ما يبدو أنه بمجرد الاستيلاء علي - لكوماندانكيا - مقر نورييجا واحتجازه صوف يكون نورييجا أكثر سعادة بأن يستقبل وأن يغادر البلاد بعد تقاعده بشرف. وسمح جيرولدي لنورييجا باستخدام الهاتف ليستدعي التعزيزات وكان يوسعه أن يحتم نورييجا علي الفور بكل سهولة. وبدلاً من

ذلك وفي ظرف ساعات كان جيروولدى هو الضحية . فبعد عجزه عن تحريك القوات عن طريق اللبر بسبب إغلاق القوات الأمريكية للطريق ورغبة في عدم استئثار القوات الأمريكية وتبادل إطلاق النار معها استولى أنصار نوريجا علي الطائرات المدنية ووجهوا التهديدات من مهبط عسكري قريب إلي المطار الدولي حيث انتفعت إلي مقر نوريجا، ومرعان ما تخطت علي جيروولدى والمتعاطفين معه . ودفع فشل الانقلاب الإدارة إلي إجراء تحليل للذات وأثار انتقادات من الرأي العام . وكان من الواضح أن فرصة نادرة للإطاحة بنوريجا قد أهدرت . فرد فعلنا كان دفاعيا بحثا وبدلاً من التشكك كان علينا أن نذهب إلي جيروولدى ونطلب الاطلاع علي خطته مقابل تقديم المساعدة ونقوم بتقييمها ومساعدته في التنفيذ .

ولا يكفي القول أن صنع القرار في الإدارة كان قاصراً . ونتيجة لهذا فمنا بمراجعة عملية إدارة الأزمات برمتها . وتعزز دور لجنة اللواب لضمان حسن تدقيق عملية صنع القرار في أوقات الأزمات وفحصها علي الفور بين كافة الوكالات الحكومية المعنية . وكان لتلك التغييرات أثر محمود في أزمة الخليج .

وأثار أضراراً للجماعي هجوماً حاداً من الكونجرس لفشلنا في الرد بشكل جماعي أكثر قوة . وحتى من نرجوا علي تأييدنا من الجمهوريين هاجموا الإدارة . ووصلنا السيناتور جيسي هيلمز : بأننا مجموعة من العجالة تصطك ببعضها البعض ، وشكا هنري هايد عضو الكونجرس من ألبوني والعضو البارز بلجنة المخابرات بمجلس النواب من أننا نهدو غير حاسمين مذبذبين ضعفاء . ولم يكن الرئيس سعيداً بشكل خاص من إهدار مجموعة الفرص الجادة .

وجسدت محاولة الانقلاب للفاشلة الكثير من الإحباطات المحسوسة داخل دوائر الإدارة بين المدنيين بتسيير الشؤون السياسية اليومية . وحتى عندما تكون السياسة واسعة عادة ما توجد عراقيل بيروقراطية . فقد تلتقت للقادة الجنوبية أولمر بإجراء مفاوضات عسكرية قوية في آيار مايو علي سبيل المثال - لكن الكثير منها أُلغِي أو خُفِص ، وتجاهل أرونسون بشكل خاص - هذه الإحباطات وأربد الحراك بقوة . وقالت لأرونسون ذات يوم : إن هذه الأمور تستغرق وقتاً علينا أن ننتظر حتي يتشكل رأي عام . وإلا فإنني أتذكر مرادفتي للنفس - بأنه

سيحدث استقراز ضد المدنيين الأمريكيين بما يثير حنق الرأي العام ويجعل التدخل عملية أكثر صعوبة.



كانت المحاولة الانقلابية في تشرين الأول أكتوبر خطأ فاصلاً للسواسة الأمريكية تجاه بنما ونورييجا. ولعمدنا جميعاً بالأ ندع فرصة أخرى من هذا القبول ثم دون أن نلتها. فإذا لاحقت فرصة مرة ثانية فن نؤخذ للولايات المتحدة علي حين غرة. وأمر الرئيس برونغ خطط طوارئ مكثفة للتأكد من عدم إهدار أي فرصة للإطاحة بنورييجا. وكان أهمها تصير الإطاحة بنورييجا عن طريق محاولة انقلابية أخرى تقوم بها قوات دفاع بنما. ولم تتضمن أي منها احتمال القيام بغزو عسكري أمريكي وقائي منفرد - رغم أن الجنرال فورمان أعد خطة طوارئ للقادة للتدخل عسكري محتمل حال وقوع انقلاب.

وكما اتضح فلم تضيق قبضة نورييجا علي السلطة بعد الانقلاب علي النقيض من تصريحاتي وتصريحات زملائي العامة. وبدلاً من ذلك فقد أطلق عملاؤه في المخابرات ليميلوا تنكيلاً بين صفوف قوات دفاع بنما. وفي غضون أيام قدمت تلك العناصر أدلة علي تدبير محاولتين انقلابيتين أخريين. وتعرض الانقلابيون الذين كانوا أهل رتبة وأكثر قدرة من المهجر سىء المعط للتعذيب والسجن، وكانت النتيجة هي أنه علي النقيض من الانطباع العام فإن محاولة تشرين الأول أكتوبر الانقلابية قد عززت موقف نورييجا ولم تقوضه. فقد أصبح مشكلة أكبر عن ذي قبل.

ومن الممارقات اللافتة للظرفه حتي رغم أن نورييجا عزز قبضته علي بنما فقد ظهر للمسار الدبلوماسي علي السطح بشكل مفاجئ. فقد أبلغ محام في ميامي يدعي فرانك رويينو؛ كوزاك بأن موكله يريد للتقاعد. وعندما أكد كوزاك مجدداً أن استناد نورييجا لبحث شروط تخليه عن السلطة يمثل شرطاً مسبقاً للمباحثات. اعترف رويينو بأن موكله مستعد لهذا. والمهم أن رويينو أراد للتأكد من معرفة أن «الخيار الأمهني» لا يزال مطروحاً.

وفي أوائل ١٩٨٨ تطوعت للحكومة الأسبانية بعرض استبدالها لمنح نورييجا اللجوء السياسي. وباعتبارها البلد الأم لمعلم دول أمريكا الوسطى واللاتينية درجت أسبانيا علي منح اللجوء السياسي لزعماء مستعصرتها السابقة.

وعندما علمت بهذا للعرض الجديد أقرته مباشرة مع الرئيس ويريلت سكوكروفت. واتفقا علي أنه مقبول. وفي ضوء قولتين تسليح المجرمين للصارمة في أسبانيا فسوف نتخلي عن أي فرصة لمحاكمة نورييجا. لكنه سيكرس علي الأقل خارج بنما. فضلاً عن ذلك سوف تظل الاتهامات الموجهة إليه قائمة. فلن يجرؤ علي مغادرة أسبانيا دون مجازفة. وكان كما اعتقدت حلاً عملياً يلبي لإصرار الرئيس علي إبقاء الاتهامات المثارة منده قائمة، ويمل في الوقت نفسه القسبة للدرجة المتحيزة في حماية المصالح الأمريكية، ويعيد الديمقراطية إلي بنما. وقلت لكرزاك: إننا نعرضه في اقتراح للصفقة. وخلال اجتماعات ثنائية مع محاسي نورييجا أبلغ كوزاك أنهم سيوصون موكلهم بقبول العرض. لكننا لم نطق رداً علي الإطلاق. وفي ذلك الميعن أحاطت بنورييجا زمرة من المستمعين المتهتمين الذين أضعوه بأنه عمل «الجرند»^٥ علي الإنعاز. حقاً لقد أصبح سلوك نورييجا غير رشود وأكثر إثارة للضيق.

عملية المعلقة الزرقاء

علي مدى أكثر من أربعة أعوام درجت القوات البنمية علي التعرض بالجنود الأمريكيين وعائلاتهم. وقللت القيادة الجنوبية من أهمية الإلتفات لتلك الحوادث. وفي كانون الأول يناير ١٩٨٩ ردهد علي سبيل المثال سجل سبعة وثمانون حادثاً. وشعرنا بالتعلق من أن نورييجا سوف يصعد أعمال العنف ضد الأمريكيين في أعقاب المحاولة الانقلابية في تشرين الأول أكتوبر. وبعد المحاولة قام مدير محطة المخابرات المركزية الأمريكية في بنما سيتي بزيارة نورييجا لتوجيه رسالة شخصية قوية أخري من الرئيس. وكان بوش يريد أن يوقن نورييجا أنه لو لحق ضرر بأي أمريكي لو تعرض للتعرض للتعرض بأي حال فسوف يحميه رئيس الولايات

٥ لغة شائع الاستخدام بين الأمريكيين من ذوي الأصل الأسباني ويعني الأجنبي (وبخسة من الولايات المتحدة).

المتحدة المسؤولية شخصياً. ونتيجة لهذا المسمى توقفت الحوادث ضد المواطنين الأمريكيين حتى السبت السادس عشر من كانون الأول ديسمبر.

وفي اليوم السابق (١٥ كانون الأول ديسمبر) وفي خطاب أمام الجمعية الوطنية البنمية قال نورييجا: «سوف نجلس علي صفي القضاة نري جثث أعدائنا طافية بهاء. وبحريض منه ما لبثت الجمعية أن أعلنت حالة الحرب ضد الولايات المتحدة وخلفت علي نورييجا لقب «الزعيم الأعظم» وكان رد فعلنا الأول هو التقليل من أهمية تلك التصرفات باعتبارها استعراضاً بلاغياً. لكن في اليوم التالي قتل ملازم أعزل بمشاة البحرية الأمريكية علي يد الجنود البينميين. وفي جاذب ثان في تلك الليلة اعتقلت قوات دفاع بلما ضابطاً بالبحرية الأمريكية ورجلته واستجوب الضابط، وتعرض للضرب وهُذِّت زوجته بالاعتداء عليها جنسياً.

كان القتل الرعشى للضابط الأمريكي مأساة أصابني بالصدمة لكنني كنت متيقناً أيضاً أن المواجهة مع نورييجا قد وصلت إلي منعطف خطير. فقد نهياً لنا الآن سبب لعمل ما كان ينبغي عمله في تشرين الأول أكتوبر. والأُنْ لن يور جدل داخلي حول نهجنا هذه المرة. وأخيراً أثار مقتل أحد أبنائه ثائرة الجيش. وصدر خبر مؤثر علي هذا التحول في موقف البنتاجون عن جنرال شارك في اجتماع استمر حتي ساعة متأخرة بمركز عمليات وزارة الخارجية. ونساء الجنرال بقوة في لحظة ما ماذا لو قررنا استخدام القوة في هذا الصدد، هل لكم أن تقولوا لنا كيف سيتم ذلك؟ وبعد أعوام من التردد والعزوف هاهي وزارة الدفاع مستعدة للقتال. وبعد ظهر اليوم التالي ١٧ كانون الأول ديسمبر دعا الرئيس إلي عقد اجتماع طارئ لتكبار مساعديه في مقر إقامته فور انتهاء حفل بمناسبة عيد الميلاد بالبيت الأبيض. ونمت الحاجة كان الاجتماع قاصراً علي أبرز المعاونين وليس للعاملين. وقبل توجهي إلي البيت الأبيض أنصفت بأرونسون علي خط مؤمن لتلقي نصيحته. وألح علي بضرورة توجيه رد قوي. وقال أرونسون: «لو كان بالمستطاع إرسال فريق من قوات دلتا لاعتقال نورييجا وإحضاره إلي الولايات المتحدة فافعلوا، وإذا لم يكن متيسراً علينا بالقبض». ورددت: «إني لوافق. علينا بالقبض فلو انتظرونا سوف يقتل عشرين جندياً آخرين أو يحتجزهم كرهائن».

• ثبتت صحة رأيي فيما أن أمر الرئيس بمقابلة القزوق قبل أن يصدق علي الأمر طبقاً لتقرير من المخابرات بأن نورييجا أمر بكتابة الكلمة. بالمخالف جنود أمريكيين وجرائمهم مقتل مدنية.

كان الاجتماع نفسه مبهطاً: إنني أعتقد أنه ثار قلق من الجدال أو لم يثر علي الإطلاق حول جذري غزو بنما. وقال الرئيس: «لن هذا الأمر سيستمر وسيستمر» ووفقاً جمعياً وتركز الحديث حول ضخامة الكفاسيل للدبلوماسية والتجسسية التي يستدعيها القيام بعمل عسكري، وبالإضافة إلي التشاور مع زعماء الكونجرس سوف يتعين إخطار السوفييت والكوبيين ومعظم الدول الأمريكية أيضاً. وعلينا أيضاً أن نتأكد من أن إنذاراً وفورداً مستعدان لتولي رئاسة الحكومة - وصدرت أوامر بإجراء استطلاع الكتروني إضافي للمساعدة في اقتفاء أثر نورييجا. وأعلنت أوراق العمل الضرورية لرفع العقوبات الاقتصادية عن بنما وتعيين مرشح إنذاراً لتولي رئاسة هيئة القداء. ويفرض استمالة الرأي العام سوف يكفي مارلين فيلزونر للمحدث الصحفي باسم للبيت الأبيض بالقول: إن الرئيس يشعر بقلق تجاه أجواء العدوان التي تطورت في بنما بما أصبح يعرض أرواح مريد من الأمريكيين للخطر. وكان الرئيس كميده دائماً يشعر بالقلق إزاء تقديرات أعداد القتلى في السنوات القتالية. وأشارت تقديرات كولين بارل، إلي أننا سنفقد بضع عشرات من الأفراد إذا قمنا بالغزو خلال الأسابيع القليلة القادمة وسوف نضع أيدينا علي نورييجا.

وعرفت أن الرئيس أعد قراره بالفعل. لكنه استطاع رأي مستشاريه ولهذا نلوا الآخر. وقلت: «علينا أن نشذرع بإعلانه للحرب. علينا ألا ننتظر وسوف يقتل عشرين أمريكياً أو بحجزهم كرهائن». وصرعان ما وافق تشيلي وباول وسكروفت علي أن زمن الدبلوماسية قد ولي. وفي الساعة الثالثة وخمسين دقيقة صباحاً قال الرئيس: «للهطها، وأصدر أوامره بتنفيذ عملية الساعقة للغزو، وهي خطة للطوارئ لغزو بنما بقوات الجيش ومشاة البحرية، ولأن باول قال: إن البنتاجون في حاجة إلي ثمان وأربعين ساعة للإعداد للغزو. لذا فقد تقررّت ساعة الغزو في الساعة الواحدة بعد منتصف ليل العشرين من كانون الأول ديسمبر. وهذه هي المرة الأولى بمد غزو جرينادا التي تخوض للقرت الأمريكية حرباً. وفي الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة اتصلت هاتفياً علي خط مؤمن بجون بوشفيل القائم بأعمال سفارتنا في بنما سيتي وأبلغته بقرار الرئيس. وأبلغته بأنه وأنا المسؤولان لتوحيدان بوزارة الخارجية اللذان يعرفان بأمر الغزو، وطلبت منه الاتصال بإنذاراً وألبد في حشد أعضاء حكومة بنمية يمكن أن تزدعي التيعين الدستورية وتمارس أعمالها أثناء الغزو وأبلغته بأننا قررنا عدم استدعاء العاملين في السفارة للاحتفاظ بخصر المفاجأة حتي لا يبلغ زملاءه بالغزو.

وأصدر الرئيس توجيهاته بتكليف لجنة سياسية بين الوكالات الحكومية بدراسة للخيارات الدبلوماسية والاقتصادية علي أن ترفع تقريرها في الساعات الأولى من صباح الإثنين. لم تكن هذه سوي سحابة دخان. فقد سبق السيف العذل. ولم أفاجا حين سمعت لليوم التالي بأن اللجنة قد توصلت إلي النتيجة الواضحة: أي ليست هناك أي حلول سياسية أو دبلوماسية لندراسها.

. وفيما بعد طلبت الفوجه إلي المنزل لا إلي وزارة الخارجية. كان الرئيس مصمماً علي ألا تنسرب أي كلمة عن الفزوء ولذا فقد اتخذت القرار الأصعب بعدم الثقة في أي من العاملين معي، وشككت في أنهم يستشفون السبب الخفي لاختفائي المفاجئ. لكن للرئيس كان صارماً في عدم تعرض أمن العملية للخطر.

وصباح الإثنين طلب أرونسون لقالى. وقال: «إن أسألك عن أي شيء قد لا تكون في موقف يسمح لك بالإجابة عليه لكن إذا كنا سنقوم بالفزوء فهناك بعض الأمور التي يجب أن نكون مستعدين لها. فهل تشاء أن أقدم لكم نصيحة حول الخطوات التي يتعين اتخاذها؟ وقت لأرونسون: ربما كان ذلك من الحكمة. ولم أنس بشيء لأوثق معاولي بقية ساعات اليوم. لكن في اليوم التالي التاسع عشر من كانون الأول ديسمبر أبلغت إيجلبيرجر وكيميت وطلبت من كيميت تنسيق التخطيط للصريح رئاسي وتوجيه رسائل دبلوماسية وإجراء مشاورات مع الكونجرس. وفي وقت لاحق أبلغت مارجريت تاتويلر وجانيت مولينز.

وقبل أقل من ست ساعات من ساعة الصفر تحدثت مرة أخرى مع بوشغول الذي استضاف إندارا - الذي لم يشك في شيء - مع نوابه الإثنين علي العشاء في قاعدة هوارد الجوية وأبلغه بما يجري. وأبلغني أنهم شعروا بالصنمة. فلم يتوقعوا مطلقاً أن نعمل هذا بأي حال وسوف يبذلون قصاري جهودهم لإنجاح المهمة.

وحالي للساعة العاشرة انضمت إلي مولينز وتاتويلر لتناول البينزا ومأكولات صينية في مكتب تاتويلر. وفي وقت سابق من المساء توقفنا عن الرد عن المكالمات الهاتفية خشية أن يشي نواجههم في السبهي بعد ساعات العمل لبعض الصحفيين المظلمين بأمر الفزوء.

وصدرت الأوامر القتالية، ولم يعد هناك مجال للانتظار. ولم أشعر أن هناك مجالاً للإحساس بأي ألم. فقد كنت أعرف أن قرار الرئيس هو الصواب الذي توصل إليه بعد انتهاء وسائل لحربي.

وقلت: «إن هذه أصعب قصايا. لأنه مهما كان ما تبتذلونه فهناك أناس آخرون في طريقهم للموت عليكم أن تكملوا من الله أن تكونوا علي صواب».

وأجريت آخر مكالمة من أربع مكالمات مع يوشيفل ذلك اليوم في الساعة العادية عشرة وخمسين دقيقة قبل منتصف الليل من قاعدة فورت كلايتون العسكرية الأمريكية. وقال: «سوف تكون هناك مفاجأة لكن ليس بالقدر الذي كنا نريده» فقد بدلت الأخبار تتسرب أخيراً، وبدلت شبكة الـ سي إن إن في بث لقطات لإقلاع الطائرات الأمريكية من قاعدة البابا للجرية بنورث كارولينا المجاورة لقاعدة فورت براغ التي تتمركز فيها الفرقة ٨٧ المحمولة جواً.

وبعد ست دقائق من المكالمات الهاتفية وبعد دقيقة واحدة من منتصف ليل العشرين من كانون الأول ديسمبر أدى إلدارا وبلايه اليمين الدستورية، وفي غضون ساعة بدأت أضخم عملية عسكرية أمريكية منذ حرب فيتنام.

البحث عن «الزعيم الأعظم»

وبشاماً كما توقع باول سارت العملية بسلاسة. فلم تكن قوات دفاع بنما علي نفس القدر من التدريب أو تمتلك القوة التيرانية للقوات الأمريكية، وباسكتلاه المعركة للشراسة التي دارت حول مقر نورييجا لم تكن المقاومة كالمتوقع.

وفي اليوم التالي توجهت أنا وكيميت وأرونسون إلي وزارة الدفاع لقاء تشبلي وباول. إن هذه ليست بالرحلة المألوفة في العادة. إنني أتفق بحرارة مع رأي الرئيس الذي خرج به من خبرته القتالية في الحرب الثانية في المحيط الهادئ بأنه بمجرد اتخاذ القائد الأعلى لقرار

الحرب فعلي السلطات المدنية أن تقسح المجال للصكريين المحترفين لإنجاز مهمتهم. ومع هذا وفي هذه الحال أحسست أنه من الضروري تسوية ما يبدو أنه خلافات بيروقراطية حول أولوية الأهداف. فمن أجل استعادة السلطة المدنية في بنما بأسرع ما يمكن أرادت وزارة الخارجية من الجيش تأمين المباني الحكومية المهمة مثل البنك المركزي. إلي هذا كان خبراء وزارة الخارجية يعتقدون أنه من المهم تدمير أو الاستيلاء علي منشآت البث الإذاعي لإبعاد نورييجا عن الإذاعة. كان لدي البعض في وزارة الدفاع أفكار مختلفة لكن بارل وتشيني وافقا بسرعة. كما أبدأ استعملهما لتحديد خططهما لإنقاذ الصحفيين المحاصرين في فندق ماريوت بسبب القتال.

وبمجرد انكسار قوت دفاع بنما واستعادة السلطة المدنية لسيطرتها تكثف للبحث عن نورييجا وعشية عيد الميلاد أبلغت المخابرات عن رصد نورييجا في داهرى كوين في بنما سيتي وبمجرد وصول القوات الأمريكية تلاشي نورييجا، وبعد دقائق علمنا أنه لجأ إلي البعثة الثابوية بمقر القاصد للرسولى في بنما المونتسيرر سياستيان لا بوا. وكانت القوات الأمريكية قد وضعت عدة مواقع تحت المراقبة يحتمل أن يلجأ إليها نورييجا بما في ذلك سفارتي نيكاراغوا والاتحاد السوفيتي. ومن المفارقات الغريبة أنه رغم أن الكلمة الرومانية الكاثوليكية لها تقليد عريق في إيواء اللاجئين السياسين فلم يشك أحد في مقر القاصد للرسولى.

وأشرف كيمويت علي وضع مذكرة نورييجا وأوصي أيضاً الاتصال شخصياً بمسئولى الفاتيكان للتأكد من إدراك البابا للأهمية التي نوليها للمسألة. وفي الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة بعد الظهر عشية عيد الميلاد ومن مكتب منزل والدتي في هيوستون اتصلت بالكاردنال أوجستينو كازارولى وزير خارجية الفاتيكان. لكنه كان في طريقه لحضور قداس منتصف الليل في كنيسة القديس بطرس عندما علم بأمر الاتصال الهاتفى. وبعت برسالة عبر جيم كويجار نائب رئيس للبعثة الأمريكية في الفاتيكان بأن سوسة للفاتوكان المألوفة في مثل هذه الملاحظات هي ترتيب للحصول علي اللجوء السياسى في بلد ثالث، ونوه إلي أن هذا قد يكون مسألة معقدة.

ويوم عيد الميلاد عاود كازارولى الاتصال بي ليقول: إن الفاتيكان لم تقرر موقفها بعد وأنه يتشاور مع محامين دوليين. وقال: إنه يخوض معركة سياسية. وأن هذا الطلب جاء من الولايات المتحدة وليس من بنما. وهذا يضطنا أمام مشكلة.

وطلعت من كازارولى تملهم نوريجا بصفته هارياً من العدالة. وقالت: «نوافة الكاردينال إنها ليست قضية سياسية. إن هذا استثناء من الحصانة الدبلوماسية. لقد وجهنا إليه اتهامات كتاجر مخدرات. إنه مجرم عتيق. ولن ندعه يذهب لأنه يشكل تهديداً للأمن العام. إنه الآن لاجئ مؤقت. لكنه غير مؤهل للحصول على اللجوء السياسى. وعليك إنلرك أنه بعد فقد أرواح وأمريكية لاستعادة الديمقراطية فى بنما. فلا يمكننا للسماح لنوريجا بالذهاب إلى أى بلد آخر سوى للولايات المتحدة».

وأكد الكاردينال مجدداً: «إننا نولى اهتماماً جاداً لطلبكم».

وكلت أدرك تماماً أن القانون الدولى يقف فى صفنا. لكن نوريجا أثبت أنه ضيف تقول مرعب فقد اصطحب عدداً من الوضعاء لمقر إقامة للقاصد للرسولى وشعر لاهوا بضيق بالغ لذي علمه بأن مقر إقامته تحول إلى ترسانة مكسبة بحد كبير من الأسلحة. ولزيادة الضغط النفسى عليه قامت القوات الأمريكية ببث الموسيقى الصاخبة على مدار الساعة. وفى ليلة الثالث من كانون الثانى يناير اجتمع لاهوا مع مايك كوزاك ومع البريجادير جنرال مارك سيسيروس كبير قادة القيادة الجنوبية والميجور جنرال وإبنى دولونينج فى مدرسة بالشارع المواجه لمقر إقامة للقاصد للرسولى. وقال لاهوا: إن الموالين لنوريجا شعروا بالخوف من أن مظاهرة ضخمة ستعظم الصباح التالى سوف تكتسح قوت الأمن وتزلى جسد نوريجا وصباهه إرباً. وسأل دولونينج: عما ستفطه قولته إننا لقتحم المظاهرون العواجر. فرد بأن الجنود سيطلقون النار فى الهواء. وأراد لاهوا معرفة ما سيحدث لو واصل المظاهرون تقدمهم فقال دولونينج: «سيدى لن أقتل بريئاً ولحداً لعملية هذا الداعر». ولم تشر مفارقتنا مع لاهوا بأن المظاهرة مدبرة بمعرفة مسؤولين أمريكيين لتصعيد الضغوط على نوريجا وعلى الموسينديور.

وكانت تلك الجرعة المكثفة من الواقعية هي للفتة الأخيرة التى افنت القاصد للرسولى وقال: إنه سيقنع نوريجا بالمرافقة على للرحيل، وفى ظرف ساعات خرج نوريجا من بيت القاصد للرسولى إلى ملعب لكرة للقدم حيث سلم نفسه للقوات الأمريكية. وأقتله طائفة

هليوكبتر إلي قاعدة هوارد الجوية حيث تليت عليه قائمة بحقوقه، واقتيد إلي حجز إدارة مكافحة للمخدرات، وكان نوريجا يعتقد حتي ليلة الغزو أنه أخاف للولايات المتحدة. وها هو ديكتاتور آخر أسماء تقدير تصميم الولايات المتحدة علي حماية مصالحها الحيوية. وكان يعتقد أنه يستطيع تجاوز العاصفة، وبدلاً من ذلك وفي ظرف أسبوعين تحول من «زعيم أعظم» نصب نفسه إلي «هارب مطارده».

انعكاسات علي قضية عادلة

كان من شأن تدخل عسكري أمريكي عادي في أمريكا اللاتينية أن يثير موجات من الغضب من جيراننا في الأمريكتين وانتقادات من المعارضة السياسية في الداخل، وعقب عملية بلما جاء رد الفعل مفاجئاً. فلم يصدر سوى رد فعل متواضع من كافة الدوائر. وفي الكونغرس أشاد معارضون تقليديون مثل جون كيري وجوسي هيلمز للذين طالبها باتخاذ إجراء متشددة لمدة أشهر بموقف الرئيس.

ويخرج انعدام الإحساس بالخزي تجاه العملية إلي حقيقة أن نوريجا شخصية بالغة السوء وقبيحة ووسيمة، يعرفها جيرانها تمام المعرفة. وهو أيضاً مدغم بتهريب المخدرات مما ساهم في إهدار أي فرصة للتعاطف معه. ومع تراجع أهميتها الاستراتيجية بمرور الوقت فإن قناة بلما تقف شاهداً علي الخبرة الأمريكية فقد بنيت بالعرق ولتكد الأمريكية. ولا يزال أمنها يمثل أهمية قومية لأمريكا.

ومع ذلك كان للبعد العاطفي أثره البالغ. فخلال الساعات السابقة علي بدء العملية قرر ديك تشيني تغيير الاسم الكودي للعملية من الملقة الزرقاء إلي عملية القسبة العادلة. فلأن هناك عملية عسكرية أطلق عليها لتسب اسم فإنها هذه العملية. وفي جوهرها كانت عملية القسبة العادلة عملية لدعم الديمقراطية وحكم القانون في الأمريكتين فقد كان نوريجا ديكتاتوراً سرق الانتخابات وأهدر إرادة الشعب للينمي. وكانت الولايات المتحدة بكل بساطة تنفذ إرادة الشعب للينمي بإعادة الحكومة المنتخبة ديمقراطياً إلي السلطة. فصلاً عن ذلك

كان علي الرئيس واجب دستوري بحماية المواطنين الأمريكيين. فقد تجاوز نوريجا كل الحدود عندما بدأ في قتل الجنود الأمريكيين في بنما. ولم تكن الإدارة الأمريكية تنتظر حتي تري مقتل المزيد من الجنود الأمريكيين أو احتجازهم رهائن كما حدث في إيران لترد وبساسة. كنا ننفذ المقطع الرابع من النشيد القومي الذي يدعونا للفوز: «عندما نكون قسيبتنا عادلة».

ومع هذا فقد تجاوزت الآثار المفيدة للعلاقة العادلة موطنها. وكان لها أثر جاسم مختلف في كولومبيا. حيث كانت حملة الاغتيال الموسي التي يقوم بها لأباطرة المخدرات في ميديين قد أودت لونها بذات مرشح رئاسي، والمؤكد أنه لم يكن هناك احتمال لبقاء الديمقراطية بأية حال. كان تصميم الرئيس حافظاً مقبواً منح حكومة كولومبيا الشجاعة للتصدي لأباطرة ميديين. كما اقنعت حكومة السانديسنا أيضاً بأن عواقب سرقة الانتخابات وخيمة، وشجعت عزيمة المواطنين النيكاراغويين علي النهوض ليكونوا قوة تواضع هي الحسيان يوم الانتخاب.

وترك الغزو أيضاً آثاراً هائلة علي معظم الدول الأمريكية، وكان له الفصل الأول في صدور إعلان سانتياجو التاريخي في حزيران يونيو ١٩٩١ الذي أقرت فيه الدول الأمريكية مشروع قرار نعمته الولايات المتحدة بإلزام الدول الأعضاء في المنظمة باتخاذ إجراء جماعي أينما تعرضت الديمقراطية للتهديد. وبدون هذا الإعلان لكنت المنظمة قد عرفت إلي حد كبير عن الموافقة علي العقوبات الاقتصادية علي هايتي أو ممارسة الانقلاب في بيرو وجواتيمالا.

واعتقد أيضاً أنه بهيئة العظيمة الأمريكية لتعمل استخدام القوة في حقبة ما بعد فيتنام، فقد أرسيت بنما سابقة عاطفية مؤثرة مكنتنا من حشد للرأي العام الضروري لشن عملية عاصفة الصحراء بعد ثلاثة عشر شهراً.

ونبع كل ذلك من منبع وحيد فقط هو تصميم الرئيس علي أن اعتداء صارخاً علي الديمقراطية لن يمر دون حساب. وهاهي الولايات المتحدة قد أعريت مرة أخرى وبطريقة مؤثرة أنها ستهب دفاعاً عن الديمقراطية، وتقف بجوار أصدقائها في الأمريكتين.

الفصل الثاني عشر

حسابات الوحدة

علينا أن نجد طريقة ما لإقناع روسيا بلعب الكرة .

هنري ستيمسون

وزير الحرب للرئيس ترومان

١٩ أيار مايو ١٩٤٥

كان جياني دى ميخائيليس فى العادة هو أكثر الموجودين حيوية وانطلاقاً فى أى جملة . وحطى وزير الخارجية الإيطالى بمسمة مدوية كرجل الحظ والفرفة الذى يقضى معظم أوقات فراغه فى نواوى الديسكو . بل لقد ألف كتاباً عن الرقص . لكنه فى ذلك اليوم من أيام شباط فبراير فى أوتوا كان على التقيض تماماً - بل وشديد الحصافة - ولم يكن ميخائيليس مع عدد من وزراء الخارجية فى مؤتمر حلف شمال الأطلسى متحمساً لإقدامنا على إتمام الوحدة الأوروبية من حاك ما أصبح معروفاً باسم «اثنان + أربعة» وهو منتدى حاصر بالوحدة الألمانية يضم الألمانيتين و(بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة) مع عدم وجود أى عضو من حلف شمال الأطلسى، وكان قد بدأ فى إعلان اعتراضاته عندما هانز ديتريتش جينشر بشدة . وقال جينشر: «لستم فى اللعبة» .

والقصة للكاملة وراء مباحثات (اثنان + أربعة) فى ١٣ شباط فبراير هي قصة دبلوماسية «القوي العظمى» وهي لعبة ذكرت فيها بقوة أنه إذا كان الموقع هو الرصيد فإن التوقيت هو فن الحكم .

من يجب اشراكه فى اللعب؟

بعد مغادرتى بونستام فى كانون الأول ديسمبر لم تكف أفكاري عن العودة إلى هناك مرات ومرات فى الأسابيع التالية، وباعتبارها المكان الذى شهد آخر ثلاثة اجتماعات للقوى العظمى التى أنهت الحرب العالمية الثانية رمرت بونستام إلى مركزية القضية الألمانية فى الحرب الباردة، وبالنسبة للكثيرين سجلت بونستام فى الحقيقة بدء الحرب الباردة فقد حفل مؤتمر بونستام الذى عقد على مدى أسبوعين ونصف بديراما غابت عن اجتماعات ستالين ورزفلت وتشرشل فى طهران ومالطا . وبوفاة روزفلت أقدم خلفه هارى ترومان على إنهاء العلاقة الودية - أول إنجازاته على الساحة الدولية . فى الوقت ذاته وصل ستالين إلى بونستام أكثر زهواً بنفسه عن ذى قبل، وادعى أن هتلر لا يزال حياً وعلي ما يرلم ويعيش فى ألمانيا . وكان ستالين مشغولاً من الصحافة التى حاولت معرفة ما يجرى واعتري القلق تشرشل من أقوال اللندنيين البريطانيين فى رومانيا المحتلة واشتكي للتدكاتور السوفيتى من أن ستاراً

جديداً يفرض عليهم. ورد ستالين: «إنها كلها خطابات ملفقة، ليخذل نشرشل دبلوماسياً تماماً كما سيخذل الشعب البريطاني في الانتخابات في ٢٦ تموز يوليو. وفيما قررت للقرى الأربع الكبرى مصير أوروبا فقد أجري للطعام في آلامو جوردو بنومكسيكو اختباراً علي قبيلة ذرية ووافق نرومان علي الهجوم علي هيروشوما وولدت حقبة جديدة في السياسة العظمى.

وبالطبع لم أكن الوحيد الذي يفكر في بوتسدام وتداعياتها في شتاء عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠، وكانت القضية محور تفكير الجميع وظهر أثناء كانون الأول ديسمبر وكناتون الثاني يناير مجموعة مقترحات في وسائل الإعلام والدوائر الدبلوماسية.

ونركزت تلك المقترحات عامة في ثلاث فئات أولها: مبادرات سميت إلي تسوية المسألة الألمانية من خلال عقد مؤتمر موسع. وسيكون هذا شأناً أوروبياً صرفاً سيعمل علي إقرار تسوية سلمية نهائية للحرب الباردة. وكان مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا هو المكان الطبيعي المناسب لهذا. حيث أن الأعضاء الخمسة وللتلاتين يضمون كافة دول أوروبا وكندا والولايات المتحدة. كان هذا اقتراح روماني إلي حد ما. اقتراح يشبه مؤتمر فيينا الذي رسم خريطة أوروبا في أعقاب للحروب اللاتينية، أو معاهدة فرساي بعد الحرب العالمية الأولى. ومن وجهة نظري كان عقد مؤتمر في إطار مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا حول الوحدة الألمانية اقتراحاً غير عملي. فمن الصعب فهم كيف يمكن إدارة مثل هذه المفاوضات الدقيقة بحضور خمسة وثلاثين مشاركاً. كما أن قاعدة الإجماع المعمول بها في المنظمة سيعطي للدول الأصغر في المنظمة سلطة الفيتو في قضايا تتجاوزها بكثير. إن مثل هذا المؤتمر الموسع سيجد إلي الأذهان حملاً ذكريات فرساي والسلام الذي فرض علي ألمانيا في أعقاب الحرب الأولى، وكان آخر شيء نريد. هو خلق أساس للإستواء في ألمانيا الجديدة. وأخيراً سيستغرق مثل هذا المؤتمر وقتاً طويلاً في الإعداد، وقد يؤدي إلي حدوث تأجيل وإرتباك بل وانتهاء مع تلاحق الأحداث علي أرض الواقع.

ونبحث فئة المقترحات اللاتينية مباشرة من مؤتمرات الحرب اللاتينية وحقيقة أن للقرى الأربع الكبرى قد اتفقت في بوتسدام علي أن كافة الترتيبات المتعلقة بألمانيا ترتببات مؤقتة مؤقتة لإقرار تسوية نهائية. وبالنسبة لموسكو ثم لندن وباريس بدرجة أقل كان عقد مؤتمر

للقوي الأربع الكبرى هو أفضل طريق لإبطاء وإدارة عملية الوحدة. ومن الوجهة القانونية كان للقوي الأربع الكبرى حقوق باقوة سيحين التفاوض عليها في أي مشروع لإعادة توحيد ألمانيا غير أن السوفيت كدأبهم خلال الأيام الأولى للحرب الباردة ينظرون إلي القوي الأربع الكبرى ككلاس سياسي. لا كأحد كيانات القانون الدولي. وبينما كان الكريملين أشد إصراراً علي استخدام القوي الأربع الكبرى كانت لندن وباريس تعتبرها طريقاً مضطرباً وممارسة للتأثير علي تحرك ألمانيا نحو تسيد للقارة الأوروبية.

وخلال كانون الأول يناير مارست موسكو صغرىاً لعمد اجتماع للقوي الأربع الكبرى. ففي العاشر من كانون الثاني ديسمبر جاء السفير دويتون إلي وزارة الخارجية حاملاً رسالة شفوية من شيفرناندز وطلب شيفرناندز مشوراً إلي بروز إجماع حول الرغبة للإبقاء علي تبادل وجهات النظر حول القضية الألمانية داخل إطار «القوي الكبرى» وعقد سفلة مشاورات بين موسكو ولندن وباريس وواشنطن. وأصناف فكلأ: «إننا نطلق من أهمية كل تلك القضايا كلها إن لم يكن للعالم بأسره» وتقال «بالمسؤولية المعروفة» أنها تقع علي القوي الأربع الكبرى وبعد أكثر من أسبوعين، وفي ٢٦ كانون الثاني يناير سلم شيفرناندز مذكرة تثير الاهتمام إلي «تصاعد أنشطة اليمين المتطرف وقوي الالزية الجديدة مؤخراً في ألمانيا الانعادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وبعض دول غرب أوروبا الأخرى». إن هذا التهديد «يكشف» وإن موسكو تتطلع إلي اتخاذ جهود دولية منسقة للتعامل مع هذا الخطر «الذي».

وبالنسبة لنا فإن القوي الأربع الكبرى شمال إلي حد كبير مفارقة تاريخية تعود إلي الحرب العالمية الثانية، وكان الرئيس يعتقد أنه علي مدى أربعة عقود أظهر للشعب في ألمانيا الغربية التزامه بالديمقراطية والتحالف الغربي، وكان اعتقادنا بتقرير المصير وحقيقة أن إعادة التوحيد وهو هدف رسمي للتحالف علي مدى أربعين عاماً يتطلب منا بذل كل الجهود لمرزية ألمانيا الموحدة، وقد صارت واقعاً في إطار يوفر الاستقرار لأوروبا بعد انتهاء الحرب الباردة. والآن والشعب في ألمانيا الشرقية يدعي بصوته فلم يكن جورج بوش يريد أن يقف للدبلوماسيون في طريقه. وهذا هو السبب الذي جعلنا عمداً إلي التقليل من أهمية المطلب

للسوفييتي الأولي بمقد اجتماع للقوي الأربع الكبرى في كانون الأول ديسمبر، وواصلنا صد دعواتهم في الأسابيع التالية.

ولم يدع هذا سوي فلة ثالثة: وتحدوياً حل ألماني صرف تندمج في إطاره ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية من دون تدخل خارجي. وحيث أن معظم القضايا الحساسة تتعلق بشواغل ألمانية صرف كان الكثير من الألمان يعتقدون إنه ليست هناك حاجة لأي مشاركة دبلوماسية جادة من الآخرين وعلي الآخرين أن يتكفوا عن طريق الوحدة وبمجرد أن تتوحد الألمانيدان يمكن أن تجتمع للقوي الأربع معاً لتسوية قضية حقوقها القانونية الباقية. وكانت هذه العملية بالطبع الضار المفضل في بون، ولا سيما لدى المستشار كول. وقد صادف تأييداً في واشنطن ولا سيما من مجلس الأمن القومي.

ولم أشعر بالارتياح تجاه أي من الفئات الثلاث، وفي أصعب زيارتي لهوتسدام صرت علي اقتناع بأن خطى الوحدة تتجاوز توقعات الجميع. فقد ذلق شعب ألمانيا الشرقية طعم الوحدة والمكاسب المادية المتصورة بها، وسوف تتزايد هجرتهم إلي الغرب ويتزايد أيضاً الازدحام الذي يتعرض له الاقتصاد الألماني للشرقي. وسوف يكثف هذا بدوره من الضغوط علي كول وجيشنر للإسراع بالخطوات للسياسة الضرورية لتوحيد دولتي ألمانيا. ومع انطلاق قطار الوحدة الألمانية فوق القضبان صرت مهموماً من أن موسكو وربما لندن وباريس قد نحاولان إبطاء مسيرته بالظهور في طريقه. فلأزال للسوفييت ٢٨٠ ألف جندي في ألمانيا الشرقية. كما أن جورباتشوف يتعرض لضغوط متزايدة «للقضاء» أوروبا الشرقية. كما أن لندن وباريس غير متحمستين للوحدة. وكان السماح لشطري ألمانيا بأن يأخذا علي عاتقهما العمل للتوصل إلي حل لوضع من هذا النوع يمثل في اعتقادي وصفاً لتدمير القطار. وهذا هو السبب الذي حدا بي إلي عدم الموافقة علي نهج «دعه يعمل» الذي كانت بون والبيت الأبيض يفضلانه في البداية. وأحسست أننا في حاجة إلي عملية يمكن أن تساعد في توصيل الألمانيةيتين إلي بر الوحدة وتمتج جورباتشوف في الوقت نفسه مكاناً علي الطاولة حتي يكون بوسعهم أن يفسر للمتشددين أن موسكو لا تزال ضمن اللعبة، وكنت أريد أيضاً عملية تعظم من

شأن الأحداث الداخلية علي البعد الدولي للوحدة - ولم تكن أريد أن ينتهز السوفييت مميزاتهم لإثارة المشاكل وتحويل أهدافنا.

وحدثت علي هذه الصحيفة في مذكرة بحثها معي دينيس روس وبوب زوليك في ٣٠ كانون الثاني يناير. وتوصلت إدارة التخطيط السياسي إلي هذه الصيغة التي تجمع ما بين نهج لتفرد الألمانيتين بصيغة إعادة التوحيد الذي تفصله بين والبيت الأبيض ومنتدي القوي الأربع الكبرى الذي اقترحه موسكو وأيدته باريس ولندن. وسميت «إثنان + أربعة» وهدفها السماح للولايات المتحدة باستخدام صيغة «إثنان + أربعة» لإتمام الوحدة الألمانية. كانت مميزات تلك الصيغة باللغة الموضوع. فسوف تمنح «الألمانيان» سيطرة تامة علي القضايا الداخلية. لكنها ستسمح أيضاً للقوي الأربع بالاضطلاع بدور في الأبعاد الخارجية لقضية الوحدة. وسوف تمنح صيغة «إثنان + أربعة» شرعية كبيرة من القوي للعظمي للوحدة الألمانية، وهي نقطة اعترف بها الألمان. وسوف تبقي هذه الصيغة علي موسكو ولندن وباريس ضمن اللعبة بمشاركة واشنطن. والأهم هو أنها ستحقق عملية دبلوماسية لإعادة توحيد ألمانيا لتدرك مع سرعة الأحداث، وبدون مثل تلك العملية فسوف تتزايد مميزات واحتمالات خيار أن يتفرد الألمان والسوفييت بالاتفاق وبرنامج صفقة خاصة تنطوي علي مثالب للمصالح الغربية (كما سبق لهم وأبرموا اتفاقية بريست ليتوفسك عام ١٩١٨ وزيابو عام ١٩٢٢ واتفاقية مولوتوف ريبنتروب عام ١٩٣٩) وشعرت بأنه من المهم جمع القوي الكبرى علي مائدة واحدة حيث يمكننا أن نرى جميعاً الأوراق التي يلعب بها كل طرف منا.

وفيما اعتبر روس وزوليك أن صيغة «إثنان + أربعة» صيغة عبقرية فقد كان لها مختلفوها ليس فقط في مجلس الأمن القومي. بل وفي وزارة الخارجية نفسها. ففي الأول من شباط فبراير أثار راي رايتس مساعد وزير الخارجية للشؤون الأوربية اعتراضات جوهرية علي صيغة «إثنان + أربعة» تتبع جميعاً من رايه بأن الوحدة الألمانية لن تفضي بالسرعة التي توقعتها مذكرة «إثنان + أربعة» إتينا لا نواجه قراراً يستدعي أن ندع الألمان وبالجون الوحدة بأنفسهم. وأن يوسعنا المشاركة عبر قناتنا للاتاتية مع يون. ولم تكن هناك صعوبة في أن أعمل فكرى. ولا يحينى ما إذا كان السعي فطراً منطقاً أو قراراً فكل ما يعننى هو ألا ندع الفرصة تفوتنا.

مشاورات أولية

فى التاسع والعشرين من كانون الثانى يناير جاء دوجلاس هيرد إلى واشنطن فى أول زيارة له لـ واشنطن كوزير للخارجية. وكانت صحيفة «إثنان + أربعة» على قمة أفكارى إن لم تكن على طرف لسانى، وألففته أنه فى اجتماعى القادم مع شيفرماندة فإننى أعزم إبلاغ السوفيت بأن الوقت العالى ليس وقت بحث مستقبل ألمانيا فى إطار القوي الأربع الكبرى. إننا فى حاجة إلى إيجاد آلية خاصة - مكان هادئ - حيث يمكننا معالجة القضية بطريقة لا تبدو وكأنها التفاف حول ألمانيا، ولا تشكل تهديداً للشواغل السوفيتية.

روافق هيرد ولأنه هو الآخر قد التقى لثمة بهانز مودروف فقد كان يشعر بأن الوحدة حمية. وقال: «هناك الآن بالفعل تفزيون ألمانى ولحد شركة طيران ألمانية واحدة وهيبرت كول هو أكثر الزعماء السياسيين شعبية فى ألمانيا الشرقية، لكنه استدره قائلاً: «لكن لا أحد يفكر فى المواقب». واقترح نقض النبار عن بعض أفكار الحلفاء فى الخمسينيات عندما تصبح هناك إمكانية لتحقيق توحيد ألمانيا. وقال للرئيس إن ناقش عازفة عن فكرة الوحدة. فهي ليست صديداً لكنها عازفة عنها».

وبعد أربعة أيام وصل هـدوى منحصر هو هانز ديتريش جينشر إلى واشنطن. وأبلى جينشر أنه بعد انتخابات ١٨ آذار مارس فى ألمانيا الشرقية سوف تتفاوض بون للتوصل إلى اتفاقية ترسم الطريق لإنهاء الوحدة. واستنصرت من جينشر عن رأيه فى صحيفة «إثنان + أربعة» بعد أن طابت من زوليك بالفعل الاستفسار عن رأى فرانك إلبه فيها. وستصبح قناة روليك إلبه بالنسبة لألمانيا ماقلة لقناة رويس تاراسينكو بالنسبة للاتحاد السوفيتى - أى فتانى الخلفية الخاصة مع نظرائى. وأعجب جينشر بالفكرة واشترط أن تسبق (الإثنان) (الأربعة). ولم يكن هذا مجرد دلالة لغوية.

فالنسبة للألمان فإن «إثنان + أربعة» ترمز إلى أنهم سيمسكون بزمام القيادة فى قضية الوحدة. لكنهم يعتبرون «أربعة + إثنان» على الناحية الأخرى صيغة أشمل للإملاء. ولهذا فإنها غير مقبولة سياسياً وعاطفياً. واعتبر جينشر أن هذه الآلية لن تستخدم إلا بعد انتخابات

١٨ آذار مارس في ألمانيا الشرقية (قلم وشأ عمل أى شيء من شأنه إسفاء شرعية علي نظام مودروف المتداعى في ألمانيا الشرقية) .

وغادرت قاعدة «أندروز» الجوية في ٥ شباط فيراير للقيام بجولة من براغ إلي موسكو فسوفيا ثم بوخارست قبل العودة عبر الأطلنطي إلي كندا . وعقدت أول اجتماعاتى في شانون بأيرلندا . وأثناء التوقف السماتد للزود بالوقود كانت هذه هي المرة الوحيدة التى بعد السكان مناسباً ليرلان ديما وزير خارجية فرنسا ، ولوس للاجتماع لبحث قضية ألمانيا - ومما زاد الطين بلة في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة فجراً . وبدأ ديما مفهوماً بفكرة «إثنان + أربعة» رغم أنه اعترف بأنه يفضل «أربعة + صفر» . وقال إنه سيدرس للفكرة مع ميلران ويرد على . وبعد الهبوط في أجواء متبابية في براغ غفوت لفترة خاطفة ثم توجهنا إلي قلعة هرادكانى للقاء الرئيس فانتسلاف هافيل المؤلف المسرحى والمثشق نائع الصوت . عقد زج به نظام هوساك في السجن لعدة سنوات . لكن الشيوعيين لم يستطيعوا تدمير محتوياته علي الإطلاق .

وفي الحقيقة كانت «الروح الحرة» ولا تزال هي الطريقة الوحيدة لانتزاع تمس هافيل اللامحدود للحياة . ولم يكن قد مضى علي توليه مهام منصبه سوى عدة أسابيع . لكنه يريد طرح بعض الأفكار مشرواً إلي أننا لا نريد جذب الشهرة لتشيكوسلوفاكيا أو هافيل . فليس لهم من هو صاحب الأفكار سهاى أكان بوش أو جورباتشوف . وأبلغته بأن رونالد ريجان اعتاد الاحتفاظ بحارة علي مكتبه تقول «لانهاية أو حد لما يستطيع الإنسان أن ينجزه إذا لم يهتم عن يدال الثقة» . ورد هافيل بأنه يحتفظ بنفس الشيء علي مكتبه ثم انتقل لبحث قضايا أوروبا وألمانيا وبدأ بالقول : «إن تشيكوسلوفاكيا شأنها شأن الكثير من الدول الأخرى متعبة بالعودة إلي أوروبا» وأعرب عن اعتقاده بأن عقد مؤتمر هلسنكى آخر بعد طريقاً للتسيق ، لكن الأهم كان هو إقراره بعقد مؤتمر سلام يقوم في نهاية الأمر بقسرية قضايا للحرب العالمية الثانية ونقسم أوروبا . وقال بوضوح : إن إبقاء حقوق التقوي الأربع وإعادة توحيد ألمانيا سيكون محور مثل هذا المؤتمر لأنه وعلي حد تعبيره : «لا يمكن أن تقوم قائمة لألمانيا الموحدة في أوروبا مقسمة أو لألمانيا مقسمة في أوروبا موحدة» وفي الوقت نفسه كان يعتقد أن بعض الألمان سيريدون إعادة توحيد ألمانيا علي الفور . وسيكون ذلك مستحيلاً . وبالنسبة للقرات السوفيتية أبدي استعصامه علي فهم كيفية وصول «نصف مليون جندي سوفيتي» في

ليلة واحدة هي آب أغسطس ١٩٦٨ عندما قرر برجنيف سحق حركة ربيع براغ، وكيف يقولون الآن: إنهم لا يستطيعون سحب مبعين ألف جندي هذا اليوم. ولكنه أعرب عن اعتقاده بأن هذا شيء يمكن تسويته مع جورباتشوف.

وبدأت باستعراض بعض قضايا التجمس والمخابرات. فالنظم الشيوعية وفي الجانب الأعظم لا تحكم سيطرتها بقوة علي وكالاتها الاستخباراتية. ولأن الكي جي بي هي التي تولت تدريب وتزويد ثم اختراق تلك الوكالات لاحقاً، فقد ظلت أجهزة الأمن رجعية كسابق عهدها حتى برغم أن التغيير ربما يكون قد طال للحكومات في ثورات عام ١٩٨٩. وهكذا ومن خلال اتصالاتنا القاصة حاولنا مساعدة الحكومات الجديدة في إعادة السيطرة علي أجهزة مخابراتها، وما لبثنا أن انتقلنا بسرعة لإجراء مناقشات مستفيضة حول قضية الوحدة الألمانية ونهت بالسرعة التي تسير بها خطوات الوحدة الألمانية بما يفوق توقعات الجميع، وحاولت إنشاء عن فكرة المؤتمر الموسع. وقلت له أيضاً: إن إقامة ألمانيا محايدة ليست بالفكرة التي تروق للولايات المتحدة. وقال لي: إن مودروف سيزوره بعد ظهر اليوم، وأنه يتحدث عن ألمانيا محايدة في إطار حملة إعادة انتخابه. إن هذا هراء. ويأجهاز فقد أظهر هافيل التوتر والتوجس السائد بين كل الدول الصغيرة في أوروبا تقريباً. ففي ناحية كان يعتقد أنه يجب إعطاء خطي الوحدة، وأن مؤتمر سلام موسعاً يجب أن يكون المنبذ المناسب لحسم القضية. وفي الوقت ذاته كان يشعر بالقلق من ألمانيا محايدة - وهو ما يعني ضمناً أننا في حاجة سريعة إلي التحرك للإبقاء علي ألمانيا في حلف شمال الأطلسي، وأن نراها موحدة قبل إمكانية حدوث ردة في الإصلاحات في موسكو.

وتركت هافيل لأزور الكاردينال توماشوك ٩١ عاماً وفيما كان الكاردينال يروي بركة دور أمريكا في تأسيس تشيكوسلوفاكيا عام ١٩١٨ وجهودنا لمساعدة التشوك عام ١٩٤٥ وأهمية زيارتي، قلت له: «بوسعك أن تحول علي استمرار تأكيد الولايات المتحدة لشعبكم». وفي تلك اللحظة انفجر مترجماً في البكاء. فقد كان تشيكياً اضطر للفرار من البلاد عام ١٩٣٣ وانتقم النظام منه بفصل ولده من عمله. وهماو الآن قد عاد إلي براغ الحرة. وقد حرك اجتماعي مع الكاردينال مشاعره. ويبدو أن دورة حياته بأكملها قد طافت بذكريته في تلك اللحظة. وتأثرت أيما تأثر لأن زيارتي كان لها دور صغير في رحلة حياته الشخصية.

والتقيت في المساء في حفل استقبال مع رجل آخر رد إليه الاعتبار وهو الكسندر دوبتشيك. وباعتباره الأب للروحي لحركة ربيع براغ أقبل دوبتشيك بعد الفرو للسوفيتي ونعرض للمهانة والمخلة من جانب النظام الذي نصبته موسكو. ومن الواضح أنه مثل هانقول لم يفقد روحه. وأبطنى بأنه سيري مودروف بالفعل، واستفسر عما يجب أن يقول له. وقلت: «الانتخابات الحرة والسوق الحرة». وعلق دوبتشيك: «هذا ما تاديت به علي الدوام، ورددت: «أعرف ذلك، لأنني أتذكر كم أعجبت بك علي الدوام». إنه لشرف عظيم أن ألتقي بمثل هذا الرجل الشجاع الذي سبق الأحداث بأحد عشر وعشرين سنة.

وفي صباح اليوم التالي، وقبل إلقاء خطابي في جامعة تشارلز توجهت إلى ميدان فينيسيلابر لوضع باقة من الزهور علي النصب التذكاري لوان بالاش هذا الطالب الذي صمى بنفسه عام ١٩٦٩ احتجاجاً على القمع الشيوعي.

وبما كانت أعداد كبيرة من الناس تدرع الميدان استوقفتي خلوه علي نقبض صورة المشود التي ضمت مائتي ألف شخص أو أكثر اجتمعوا بالميدان أثناء الثورة المضطربة، في كانون الأول ديسمبر. إنه خير تذكاري علي أن تقدم الثورة سرعان ما يوضح الطريق إلي العمل المعنى لإقامة الديمقراطية، وهي الفكرة الأساسية لمطالبى الذى أديع هي كافة أنحاء البلاد.

وقلت أمام الطلاب: «إننا كان عام ١٩٨٩ هو عام الثورة والاكساح. فلابد وأن يكون عام ١٩٩٠ هو البناء الجديد». وفيما حددت إطاراً عاماً لثلاث عشرة مبادرة أمريكية ملموسة لمساعدة التشيك هي تأمين ديمقراطيتهم الجديدة أكدت حاجة كل النظم الجديدة في أوروبا الشرقية لتعزيز شرعيتها لأنه من دون تلك الشرعية على يترسخ الاستقرار في المنطقة. وفي الواقع كنا نعتقد أن الانتخابات الحرة أمر حاسم في إقامة حائط صد ضد أي ردة شيوعية لدرجة أننا جعلنا من تبني الانتخابات الحرة كمبدأ أحد شروطنا الأساسية لعقد قمة جديدة لمزتمر الأمن والتعاون في أوروبا لتطوير ميثاق هلسنكي. وعرضت أيضاً ضرورة إشراك براغ ووارسو وبودابست والديمقراطيات الجديدة الأخرى في العمل معاً في تجمع إقليمي جديد. وشعرت بأن هذا طريق لمساعدتها في تبديد مخاوفها حيال الوحدة الألمانية في الغرب وإمكانية مثل جورباتشوف في الشرق.

ورجعت نداءُ خاصاً للطلاب بأن يُيقنوا علي مشاركتهم. لأنهم طالما لعبوا دوراً أساسياً في إسقاط الشيوعيين وبقينا في حديث مع روس وتاتويفر في وقت لاحق بأننا في حاجة إلي إيجاد طريقة لمشاركة الشعب الأمريكي في مساعدة أولئك الطلاب في بناء الديمقراطية. عرضت تاتويفر وروس اقتراحاً بالقول: «ماذا عن خيالك الديمقراطية التي تشكلت علي غرار فيالق السلام، وهكذا ولدت خيالك ديمقراطية المواطنين - وهي حملة قام بها الرئيس بوش لتأيد الديمقراطية في المنطقة.

شواغل الكرملين

وفيما كنت متوجهاً بالطائرة من براغ إلي موسكو بعد ظهر السابع من شباط فبرابر انصب تركيزي علي مدي تأثير ثورة شرق أوروبا علي الشرق. وإلي أي حد ستكون موسكو ١٩٩٠ مشابهة لموسكو التي زرتها من قبل في أيار مايو الماضي. وكان أكثر من ربع مليون قد ساروا يوم الأحد الماضي إلي للكرملين لتأييد الإصلاحات الديمقراطية. وكان جورباتشوف وشيفرنادزة يشاركان في مؤتمر للحزب الشيوعي، وأبلفنا يوريس دوبرين لدي وصولنا بأن المؤتمر منقطع، وأن شيفرنادزة اضطر للتأخر بعض الوقت من اجتماعنا الأول.

وكان شيفرنادزة لدي وصوله إلي أوسويناك في الساعة الثانية مساءً في غاية الارتياح تملؤه للثقة - رغم ما كنت أعرف أنه مؤتمر مرهق. وقال إن المؤتمر أقر هدف وإقامة اشتراكية ديمقراطية إنسانية، ووضع عملية تكفل نقلاً إلي هذا الهدف، ومن ثم تحقيق الديمقراطية، وكان يعتقد أن الليبريسدروكا قد غيرت المجتمع السوفيتي «لدرجة أننا لم نعد نتعرف علي مجتمعنا فاللتغيرات هائلة. فالديمقراطية والتحول الديمقراطي والglasnost لم تكن مجرد كلمات أنها سمة للحياة اليومية. ورغم هذا كان القلق بادياً عليه. لأنه في الوقت الذي بدأت فيه الآليات القديمة تكف عن العمل لم تبدأ الآليات الجديدة في العمل بعد. واستعرضنا الإصلاحات الاقتصادية التي يجريها جورباتشوف بما في ذلك نظام الائتمان

والشكوى والأسعار. وقال: «إن سعر الخبز زهيد لدرجة بلت الناس تستخدمه في إبطام ماشيتها. إننا في حاجة إلي أسعار حقيقية تنفي شيئاً..»

لكن التغييرات الأعظم طالت السياسة. فالإصلاح السياسي «يسير بخطي بالغة السرعة» وبما يتجاوز الإصلاح الاقتصادي، وأيدي ترحيبه بالتمديد الجديدة في الاتحاد السوفيتي، واعترف بأنه يتعين علي القيادة اغتنام الفرصة. «ويتعين علي الحزب كحد أدني أن يتحلي عن احتكاره السلطة، وعليه أن يقر بأن هناك أحزاباً جديدة. وهذا قرار بالغ الصعوبة إن هذا قرارى، ودعنى أكل بصراحة: إنه يمثل مشكلة تولجها، وأن هذا يلقي مقاومة عنيفة الآن». وبينما كنت أتابع حديثه تذكرت كيف أبلغني شيفراندازه بأنه ليست هناك حاجة لنظام تمديد في الاتحاد السوفيتي. والآن فإن المعركة العظمى في المؤتمر هي مبادرة جورباتشوف بإلغاء المادة السادسة من الدستور السوفيتي التي تمنح «الدور القيادي» للحزب الشيوعي. وقال شيفراندازه مشيراً إلي أعضاء اللجنة المركزية: «لم يتعدوا علي العمل علي حمل الجميع علي للتصويت. إنهم يفترضون أن بوسعهم الفوز فقط. والآن فلنأخذ نقول لهم إنه لكي نفوزوا بموقع فطيركم أن تشاركوا في المناقشات».

وقت: «مرحباً إلي الديمقراطية. رغم أنها تكون صعبة وغير مريحة، وألححت عليه بشأن قضية ليخوانيا. حيث أعلن الحزب الشيوعي الليتواني استقلاله عن موسكو في ٢٢ كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩ مظماً فعل الحزب الشيوعي في أذربيجان. حيث قمت موسكو بحذف الجبهة الشعبية الأذرية في كانون الثاني يناير. وكما حدث في ويومينج ألححت علي فكرة الاستفتاء لأنني كنت علي افتتاع بأنه أكثر الطرق للسلامة والديمقراطية المتاحة أمام دول البلطيق للحصول علي الاستقلال الذي تتمتع به بحكم الأمر الواقع. ذهبت لشروط أبعد وأسألته: «إنني أتحدث إليك بصراحة تامة. ما هي الخسارة التي ستحدث لو قررت أذربيجان أن تكون جمهورية مستقلة؟» فريما كان ذلك أيسر حالاً لكل منكما إذا حصلت أذربيجان علي الاستقلال».

وقال وهو يحاج في قضية القوميات مرة أخرى: إنها «أفدح مشكلة، نواجه جورباتشوف. ووافق من حيث المبدأ علي فكرة الاستفتاء - وهو موقف يشكل خطوة مقدمة عن موقفه في الحريف - لكنه كان يخشي من أن يثير الاستفتاء حرباً أهلية، وكان يسارره

قلق خاص تجاه منطقته مستط رأسه - للقوقاز - حيث الناس أكثر نقلاً ومراجبة، وحيث اللجوء إلى الأسلحة أمر شائع عن التطبيق حيث الناس أكثر هدوء.



وانتهزنا بقية للجلسة واجتماعات المجموعات الأصغر في اليوم التالي لإحراز تقدم في بقية القضايا، وخاصة للحد من التسلح. وحملت مجموعة مقترحات حول كافة القضايا بدءاً من خفض القوات التقليدية في أوروبا والأسلحة الكيميائية إلى صواريخ كروز التي تطلق من الجو وصواريخ كروز التي تطلق من البحر، وكذلك موضوعات سرية كالمصواريخ غير المنصوبة ومضادات الأسلحة الأولية، ولهاغت شيفرنادزه: «سيكون بوسعك إبلاغ بيروقراطيتكم بأن الولايات المتحدة تسير في اتجاهكم ... وآمل أنه عندما تطلعون علي التفاصيل فسوف تقدرون تركاتنا. لأنه يجب على أن تكشف لك ظهري للزري اللدوب التي توضح أن هذا استغرق جهداً مضنياً.

ورد شيفرنادزه: «كما نعرف فقد أصابتهى أنا نفسي بعض تلك اللدوب». وفيما اكتسحت التغيرات السياسية الذرية التي تعين علينا أن نديرها مسألة الحد من التسلح. فإن قضايانا مثل صواريخ كروز التي تطلق من الجو استغرقت منا أيضاً وفتحت أحياناً معارك بيروقراطية متارية في عاصمتنا. وكان للحد من الأسلحة النووية قضية خاصة، واحتفظ كبار كهنة الحقبة الذرية بأسرارهم بحرص بالغ. وكما اعتقدت أكثر من مرة أنني توصلت لإلتقاء مع شيفرنادزه فقط لأري العسكريين السوفيت وقد دمروا في اجتماعنا التالي.

وفيما يتعلق بألمانيا استمر معنا صيفة، إثنان + أربعة في اجتماع منفرد آخر صباح يوم الجمعة، وذلك بعد إثارة قلقنا من تزايد نزع معاداة السامية في الاتحاد السوفيتي في البداية. وكان لدي شيفرنادزه عدة أفكار إن لم تكن متضاربة حول كيفية إتمام الوحدة. وكان يشعر بالقلق حيال تنامي للتحركات المناهضة للوجود السوفيتي في ألمانيا الشرقية. وأشار إلي أننا نعتقد أن بعض الشخصيات السياسية في أوروبا ربما تكون تتحرك بسرعة بالغة في مسألة الوحدة وتريد التحرك بسرعة بالغة. فالكريطين يريد إتمام الوحدة علي مراحل مرتبة.

لصمان الاستقرار. وهذا هو السبب الذي يدفع السوفييت إلى تفصيل صيغة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا. واعترف قائلًا: «لكن وبينما نتخذ أن هذه آلية مناسبة فإننا لا نقول أنها الآلية الوحيدة المتاحة». ومع ذلك فقد قال بعد دقائق: «إن اعتقادي الأساسي هو أن التاريخ لن ينظر لنا لو لم نستخدم آلية القوي الأربع بفعالية». واستدرك قائلًا في نفس العبارة: «إن قضية الوحدة ستحسمها الأمة الألمانية والشعب الألماني». لكن عليهما أن يعرفا آراء الآخرين. وهذا هو سبب اعتقاده بضرورة إجراء استفتاء ماء وشرح تناقضه بالقول: «إننا نتخذ أنه من الضروري دراسة كافة الآراء. وفي الحقيقة فإن تحركاتنا قد تأخرت كثيراً في ضوء تلاحق الأحداث».

ويبدو أنه كان واقفاً تحت تأثير البعد العاطفي للقضية. ولا يرجع ذلك إلى تعرضه لهجوم شخصي خلال مؤتمر الحزب، المضارة أوروبا الشرقية وألمانيا فحسب. بل أيضاً لفقدته شقيقه في الحرب. وقال: «ربما بسبب مشاعرنا وذكرائنا عن الحرب، ولأننا في حاجة إلى التفكير مرتين قبل التدخل في معركة مع ألمانيا فربما يكون هذا هو السبب في فرط حساسيتنا. إننا نحرف تماماً ويلات الحروب ولا يمكننا تسليح دروس الماضي».



وعلي النقص كان جورباتشوف واقفاً بل وقانونياً. ويحد هذا في جانب منه بدون شك إلى نجاحه في مؤتمر الحزب. حيث أحرز نصراً سياسياً ساحقاً علي خصومه المحافظين بإبهاء احتكار الحرب الشيوعي للسلطة وخلق رئاسة فعالة وإصلاح حقوق الملكية وقال: «كما نرى لقد قطعنا شوطاً ضخماً، وببساطة يمكن القول فقد صدق المؤتمر علي تصديق وتجذير اليجريسترويكا وكانت معنويات جورباتشوف مرتفعة بسبب النجاح الذي بدد به تقارير الصحافة الغربية بل والسوفيتية عن وضعه للسياسي: «حسناً يعني القول علي الأقل إنهم لم يكونوا مصدر إزعاج مطلقاً ولم يكونوا متطوِّرين ولم يكونوا مفيدين».

وكان يبدو أكثر استفادة من نهجنا تجاه الوحدة الألمانية وبعد تقديمي الأولى سأل ببساطة:

«إننى أقول «أربعة + إثنان» ولنتم نقولون «إثنين + أربعة» كيف تنظر إلى هذه الصيغة؟» ورددت: «إن صيغة «إثنان + أربعة» هي الأفضل». ولقد أعلنت رأى لإدوارد. «إننا لا نعتقد أن آلية القوي الأربع هي الآلية الفعالة. كما أن مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا آلية غير مناسبة. لقد خضنا معاً حربين لإقرار السلام فى أوروبا. ولم نبل بلاءً حسناً فى معالجة قضائنا السلام أثناء الحرب الباردة. ونحن الآن نواجه تغيراً سريعاً وجذرياً. وإننا فى وضع أفضل للتعاون فى الحفاظ على السلم».

ورد جورباتشوف: «إننى أفتق أساساً مع نهجكم. فالمعملية لازالت جارية. علينا أن نتكيف مع هذه العملية. علينا أن نتكيف مع الواقع الجديد وألا نكون سلبيين فى ضمان أن الاستقرار فى أوروبا غير قابل للإعتراف».

حسناً بالنسبة لنا ولكم، ونفس النظر عن اختلافاتنا فليس هناك ما يخيف من احتمال إتمام الوحدة الألمانية».

وكان هذا خلافاً جازماً للمرة الأولى لرى شيفرنادزه معارضاً فى قضية يتحتم لها جورباتشوف. لكن ربما كان هذا نابعاً من رفض جورباتشوف الإقرار بواقع أعظم: وهو إنحصار الاتحاد السوفيتى كقوة عظمى. وقال جورباتشوف: «إنه بالنسبة لبريطانيا وفرنسا فالقضية تكمن فىمن سيكون اللاعب الأساسى فى أوروبا. لكن القضية أسهل بالنسبة لنا. فنحن دولتان عظيمتان لنا كل خاص. «إننا نرى أيضاً كيف يتحدث كول وفريقه معنا. إنه يدرك تماماً ماذا تعنى بالظناء، ويبدو أن جورباتشوف كان يعتقد أن الاتحاد السوفيتى سيظل قوة عظمى فى أوروبا - حتى مع وجود ألمانيا الموحدة. وبدأت فى الاعتقاد بأن شيفرنادزه ربما يكون قد استشراف المستقبل بوضوح أكثر، وأنه يشعر بقلق من التصديق على استمرار انحصار الاتحاد السوفيتى».

ومع هذا كنت أكثر اهتماماً بالحصول على الموافقة للسوفيتية على صيغة «إثنان + أربعة» أكثر من تبين دوافع الكرملين. ولذا وعندما قال جورباتشوف إن صيغة «أربعة +

إثنان، أو «إثنان + أربعة» إستناداً إلى أساس قانوني دولي هي الصيغة المناسبة للموقف صدقت علي موافقته بسرعة وبهذوء.

وفي صباح اليوم التالي أصبحت أول وزير خارجية أجنبي يدلي بشهادته أمام مجلس السوفيت الأعلى. وكنت حتى ذلك اليوم لأزال مأخوذاً بالتغيبور الذي طرأ علي العلاقات السوفيتية الأمريكية، والذي كان من نتيجته أن يكون وزير خارجية الولايات المتحدة هو أول شاهد يقف أمام مجلس السوفيت الأعلى. وفي قاعة سفيردولف بالكريملين وهي قاعة بيضاء تتخذ شكل الكهف نلت سقب عبارة عن قبة جميلة مطلية باللون الأزرق تحدث أمام لجنة العلاقات الخارجية لمدة عشرين دقيقة، ثم أجبت علي أسئلة الأعضاء لدحو الساعة ومنهم المارشال أهرومييف ويقهيلي بريماكوف (وسيصبح بريماكوف في وقت لاحق من العام عنصر ازعاج رئيسي أثناء أزمة الخليج. كان الكثير من الأسطة محرراً وشاقاً. لكن الأشق والأصعب في الأمر برمته هو الحفاظ علي تركيزي وأنا أدرك تمام الإدراك أن ليهين بروحه وتمثاله المصنوع من المرمر الأبيض يحفم علي أكتفلي).



وبينما كنت أهم بمفادرة موسكو وصلها كول ولم نجتمع في موسكو قبل أن يلتقي جورباتشوف. فلم يكن يريد خلق انطباع عام في الاتحاد السوفيتي بأن الأمريكيين والألمان يتآمرون بشكل ما ضدهم. وفي المسركنا نقشاور رياستمرار، وفي ذلك الصباح كتبت رسالة إلي كول أطلعه فيها علي مباحثاتي، وأبنتت المستقار كول بأنني أكتبت خلال مباحثاتي مع جورباتشوف معارضتي لمسوية قضية الوحدة من خلال مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا أو القوي الأربع الكبرى، وأثرت صيغة «لثنين + أربعة» كبديل. وقلت له في الرسالة: «في الوقت الذي يساوره فيه القلق من الوحدة الألمانية - وقد يكون بعضها عائد إلي الشواغل التي تثيرها القضية في الاتحاد السوفيتي - فربما يبدو مستحسناً لقبول نهج مهم يمنحه سداراً أو تفسيراً لتصرفاته».

بلغاريا ورومانيا

وتوجهت من الاتحاد السوفيتي إلي صوفيا ثم بوخارست في زيارتين أصنفنا إلي جولتي قبل ثمان وأربعين ساعة فقط وكانت الحكومة الجديدة في بلغاريا قد سقطت في نفس اليوم الذي انتهت فيه قراري بزيارة بلغاريا، وكنت أريد زيارة الدولتين من للبلدية ولكن عندما أبلغني كريس ليدجيهود رئيس فريقى الأمدى أنه يشعر أن بإمكانه ضمان سلامتى في بوخارست كان على أن أتخذ للقرار النهائي.

كانت الذروة في صوفيا هي تلك الأعداد الغفيرة التي اجتمعت في الميدان أمام فندق شيراتون قريباً لوصولي ووصول زعماء المعارضة الذين اجتمعت معهم في ساعة متأخرة من الليل. وكتب علي بعض اللافتات التي رفعها الحشد شعارات مثل «ليرحل الشيوعيون» و«مرحباً بورير الخارجية» وفور وصولي تعالي هدير هتافات تصفيق العشود. كانت مظاهرة تلقائية ماكان يسمع عنها قبل بضعة أسابيع فقط. وفي الوقت ذاته وفي قارة أخرى كان الرئيس فريدريك دي كليرك يعلن أن نيلسون مانديلا سيصبح رجلاً حراً في جنوب أفريقيا. حقيقة لقد كنا نعيش ثورة كونية.

وأبلغني زعماء المعارضة بأشياء أوضحت ما تأكدت منه في براغ. فلا تزال هناك حاجة ماسة إلي بذل عمل شاق وشخم لتدعيم قرارات عام ١٩٨٩ لإقرار ديمقراطية دائمة، واستفسرت منهم عما إذا كان مسموحاً لهم بالوصول بحرية إلي وسائل الإعلام وأيضاً في اعتباري أن زعماء الحكومة أبلغوني أن فرصة الحكومة أقل في للوصول إلي وسائل الإعلام من المعارضة. ورد زعماء المعارضة: إن الحكومة بنت نكتة فوزيح الصحيفة الشيوعية يبلغ ٧٦٠,٠٠٠ نسخة إننا لا نحصل إلا علي ورق يكفي لطبع سبعين ألف نسخة فقط. وقال آخر: لقد قال زولفت يجب علي المرء ألا يفشاء الخوف. لكن الخوف جائم هنا، وأثناء كاهوس ستالين كنا نعرف بلذك العظيم وديمقراطيتكم وأنكم تقفون معاً، وقال رجل دين: من الصعب الحصول علي الكتاب المقدس، وأحياناً لا يمكن الحصول عليه إلا بأربعة أو خمسة أضعاف سعره (علمت فيما بعد من بات كيندى مدي الصعوبة التي لاقوها في تدبير غرف لمراقبتنا في صوفيا بسبب استمرار الشرطة السرية في السيطرة علي الكلاير من الغرف التي اعتادوا استخدامها للتصت علي الأجانب).

ويوم السبت الحادى عشر من شباط بذلت زيارة خاطفة إلى بوخارست، وكان من المدير للأعصاب أن أهبط فى المطار لأجد ناقلة جنود مدرعة فى انتظارى على المدرج. وكانت الرحلة من المطار أسوأ بكثير من كواييس جورج أورويل: سلسلة من الهانى السكتية الغريبة لا يفوقها فى قبحها إلا رتابتها إنها تصطف صفاً وراء الآخر شاهداً فى سميت على الجنون الذى ذهب إليه التخطيط المركزى، أو كما قال شيفرنادر فى موسكو: «ديكتاتورية شرسة خلقت مجتمعاً مشوهاً».

وفى مقر وزارة للشؤون الخارجية كان المبني محاطاً برجال الميليشا بزيمه الرسمى الأخضر اللون وهم يحملون بنادق طراز إيه كى ٤٧ الهجومية ويقفون ككتف إلى كتف. كان على أن أستوعب ما أراه أمامى مخكراً نفسى بأن هؤلاء أناس طيبون. فمن الواضح أن الحكومة لاتزال تشعر بالقلق من قول للشرطة السرية للرومانية السابقة فى عهد شاوشيسكو. وكما فعلت فى براغ نقلت معلومات عن أجهزة المخابرات للرومانية السابقة إلى رئيس وزراء رومانيا بهدف مساعدة الحكومة فى إحكام قبضتها على السلطة، واختتم الرئيس ليون ألبيسكو اجتماعى معه بسؤال: «هل تريد أن نرى قاعة البرلمان التى لم تستخدم لمائة عام؟» وأجبت بالإيجاب، ومالبث أن أرانى قاعة مستديرة عظيمة سقفها عبارة عن قبة رجاجية بديمة. وخلف المنصة ربيع علم رومانى حيث كانت تعلق صورة شاوشيسكو من قبل.

وكانت المعارضة الرومانية أكثر خوفاً. لكن وللمفارقة أكثر حديثاً من المعارضة البلغارية، وكنت أفترض أنها تعتقد أنه إذا كان قد وسعها اللجاة من معارك حربية فى الحرب الأهلية فبإمكانها اللجاة من أى شيء. واستهل أحد زعماء المعارضة بالقول: «إن هواتفنا مراقبة. ورسائلنا تفتَح، وهناك حوادث سيارات لا يمكن تفسيرها. إننا مهددون بالطرود من بلادنا والشرطة السرية تتحريش بناء وكان زملاؤه أكثر تمديداً وقالوا: «فى ٢٢ كانون الأول ديسمبر حدثت محاولة لتهريبنا. لم نعد عرضة للترهيب. بل عرضة للتحويق. فهناك فرق. فبممكن لشرطتنا أن نغير اسمها. لكنها لا تفهم للديمقراطية فحينما يحتدى عليك أحد باسم الديمقراطية تقول لك الشرطة: «أن بوسعهم عمل ما يحلو لهم لأنهم ديمقراطيون، ويأت من الواضح الآن أن المعركة قائمة بين صقوف للشعب للرومانى نفسه. وعلى حد تعبير أحد زعماء المعارضة: «نقولون إننا معارضة. معارضة ضد ماذا؟ إننا نقاتل ضد للعالم

الشيوعي بين أبناء شعبنا ونفسياً قيس لدى شعبنا أي مفهوم للديمقراطية . فالشعب الروماني مفتت بالكامل إلي ذرات متناثرة مما يصعب إلي حد كبير بدء تشكيل تجمعات من أي نوع من البداية الأولى، وما يستتبع هذا من صعوبة بالغة في إقامة للديمقراطية . ولدي مفادرتنا قاصدين السطار نظرت غالباً وشاهدت رجلاً وحيداً في أحد المباني السككية القميدة يصفق بيديه تعية للمصر . وكما كان من المؤثر أن نرى روحاً إنسانية تعيش في هذا المكان اللإنساني .

أوتارا وميلاد إثنين + أربعة

كان اقتراح للرئيس بوش الذي طرحه في آبار مايو الماضي في خطاب «مابعد الاحتواء» هو السبب للظاهري لمؤتمر أوتارا، وهو أول اجتماع لثلاثة وعشرين عضواً من أعضاء حلف الأطلسي وإيرسو منذ ثورات عام ١٩٨٩ لكن سرعان ما التصح أن الوحدة الألمانية هي اللبنة الأساسية - وأن الجميع يريد اللعب .

وبدأت يوم الإثنين لثلاثي عشر من شباط فبراير بإفطار عمل مع رئيس الوزراء مولروني ووزير الخارجية كلارك، وشيفرنادزه، وبدأت وطأة المؤتمر الآن أشد علي شيفرنادزه . وقال : «أنها معركة حقيقية، لكنها هذه المرة معركة القيادة»

وقال كلارك: يبدو الأمر وكأنه أشبه بالمعارك لدخل مجلس العموم . وقال شيفرنادزه: «هل أسوأ . إن البعض يوجه اتهامات سياسية، وكنت أعرف أن إيجور ليجاتشيف المناهض الصحافي الباقي في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي - قد حذر من ميونيخ جديدة» . لكن من الواضح أيضاً أنه لمدار شيفرنادزه هدفاً للهجوم . وأبلغنا أن أحد أعضاء اللجنة المركزية قال: «كان الاتحاد السوفيتي قوى في وقت ما . فقد كان كالصخرة . حيث أوروبا الشرقية رهن يديه مما زوده بضمان أمني . والآن يتداعي كل هذا» . ورد شيفرنادزه علي العضو بسؤاله عن ربيع براغ - تلك للفترة للرقعة من عام ١٩٦٨ عندما أراد الشعب عن بكرة أبيه أن يمشي الحياة بشكل مختلف - وكيف سحقه السوفيت بالثقة - وسأل

مستجوبه: ما قولك في هذا؟ وعندما سأله مولروني عن الإشارات المفيدة التي يمكن أن يوجهها الغرب، قال شيفرنادزه: إن الحرس القديم استخدم الدعم القوي لهورياتشوف ضد الإصلاحيين. وأضاف: إنه بالنسبة «للقوميين القدامى فعلى المرء أن يتوخى الحذر عندما يشاد بأعداء الطبقة العاملة». وقال شيفرنادزه: إنه يشير كل هذا لأنه يريد التأكيد على أهمية مسألة توحيد ألمانيا.

وفي منوره معاناته السياسية في الدخول فلا عجب من أن يبدو غارقاً في التصارب حول عملية إدارة هذه القضية «بالغة الأهمية» وقال بنبرة حزن: «إننا نحاول تدبير الأمر لإيجاد حلول. لا أعرف كيف؟ فمن الطبيعي أن يريد الألمان أن يتوحدوا، ومن ناحية أخرى لا أحد يدري ما هي المواقف».

ويبدو أن الأحداث قد تجاوزت السوفييت. رغم أنه لا يزال أمامهم عدة فرص، ومع انعدام توازن الكرملين كان علينا أن نسمي جامدين إلي وضع جدول أعمال، وأن نجنب السوفييت إليه كان لدينا ربح على الأرض، ومن الضروري الحفاظ على ربح فكري.

وعقب انتهاء الجلسة الافتتاحية للمؤتمر جلست مع جوتشر. وأكد مجدداً أن الألمان أن يحضروا اجتماعاً تملئ فيه القوي الأربع الكوري شروط توحيد ألمانيا. وطمانته مرة أخرى أن كلمة «الإثنان» ستبقى كلمة «الأربعة» وأعرب جوتشر عن اعتقاده بأنه يتعين أن توجه الألمانيتان الدعوة لطرح صيغة «إثنان + أربعة».

وفي وقت لاحق بعد الظهر أبلغني دوما أن باريس تؤيد الآلية. رغم أنها تفضل أن يسبق كلمة «الأربعة» كلمة «الإثنان». وقال: إنه سيبحث موضوع الآلية مع شيفرنادزه المقرر أن يلتقيه الساعة الرابعة والربع، وأثار هذا غضبي لأنني أعتقد أن هناك مشكلة رمزية لدى الألمان للحصول الفرنسيين الصيغة علي نحو «أربعة + إثنان» بما يتعارض مع اقتراحنا «إثنان + أربعة». وهناك أيضاً اختلاف جوهري: فقد كنا في حاجة إلي ضغط توحيد الألمانيتين علي الأرض للحصول علي موافقة باريس ولندن وموسكو. ولم تكن أرغب في أن يحصل دوما موسكو علي الموافقة علي نهج لا يوافق عليه الألمان. ولذا فقد أرسلت كارين جرومير للبحث عن شيفرنادزه حتي لئلا نقول أن يقاه دوما.

وفي الوقت ذاته اجتمعت مع دوجلاس هيرد، وأبلغته بأننا في حاجة إلى التحرك وفق صيغة «إثنان + أربعة». وألا فسوف نتعرض لصفوف من آخرين يريدون المشاركة، ولكننا نريد أن يكون السوفيت علي لفظ. إنهم يريدون إلحاح أن يشاركوا في العملية. ولكن إذا تكلأنا في صيغة «إثنان + أربعة» فسوف تطرح سينغ أخرى مثل مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا.

ورد هيرد: «بأننى رأيت شيفرناردز للكو وهو في حالة مزاجية يرثي لها. لكنه اعترف في النهاية بأن صيغة «إثنان + أربعة» هي أفضل ما يمكننا عمله وعليها المبنى فيها قداما». وقلت: «هذا هو انطباعي أيضاً، وعليها أن نتحرك حتى يتم التحدث به. فديما يوافق أيضاً رغم أنه يفضل الصيغة علي نحو «أربعة + إثنان» مما سيخلق لنا مشاكل مع الألمان الذين لن يقبلوا بها».

وتساءل دوجلاس: «ما هو الفرق بين «أربعة + إثنان» وبين «إثنان + أربعة»؟».

ورد راي سايتس إنه ليس حاسماً بالنسبة لنا. لكن من وجهة نظر ألمانية فمن المهم أن يوجه الألمان الدعوات. وقال بوب في ذلك: إن صيغة «إثنان + أربعة» تشجع إحساس الألمان بالتسلسل. فالألمان سيحلجون القضايا الداخلية، ثم يقوم الآخرون بمعالجة القضايا الخارجية معهم.

وأعرب هيرد عن اعتقاده بأهمية هذا، وقال مقفراً بصوت عال: «الآن وبعد أن أصبح أن المملكة المتحدة وفرنسا وشاطران الولايات المتحدة وجهة النظر الأساسية فإننى لتساءل عما إذا كان يتعين أن أسمى إلي شيفرناردز، وأبلغه بأن القوي الغربية الثلاث تتفق مع السوفيت علي التحرك وفقاً لهذه الآلية».

وقال هيرد: «إن هذه فكرة جيدة، مشيراً إلي أن مثل هذا الإجراء خطوة حكيمة الآن في ضوء مزاج شيفرناردز المعتل».

وفي الساعة الرابعة وحس وعشرين دقيقة اجتمعت مع شيفرناردز في لقاء علي هامش المؤتمر، ولحسن الحظ كان الجميع متأخراً كما تأخر موعد اجتماع ديما وشرحت مفهومى

بالتفصيل أكبر لصيفة «إثنان + أربعة» وأبلغته بأننا متفقون علي أننا في حاجة إلى التحرك قديماً. وحاولت أيضاً رفع معنوياته. وكان لا يزال في حالة تأرجح، وكنت على يقين بأننا سنكون في حاجة له لإقناع موسكو.



وكان اجتماعي التالي مع كريستوف سكوبيزفسكي خير تنكار للسبب الذي يؤكد أنه ليس في مصلحةنا السماح للألمانيين بإتمام الوحدة وحدهما. فقد قال الوزير «إنه متأكد من أن الوحدة تسمى قديماً وأن وارسو لا ترغب في عرقلة مسيرتها، وفوق هذا وذلك يجب علي المرء أن يكون واقعياً. إننا جيران. فقد بدأت الحرب الأخيرة في بولندا. إننا في حاجة إلى إقامة علاقات طيبة. فنحن محاصرون بين بلدين كبيرين». ولهذا وببما لا يريد البولنديون أن يكونوا من «المعارضين» للوحدة الألمانية إلا أنها تشكل مصدر قلق لهم. ومشكلة بولندا الرئيسية هي الحدود، أو كما وصفها وزير خارجية بولندا «التخوم» ففي نهاية الحرب العالمية الثانية توغل ستالين بالحدود البولندية مع ألمانيا نحو الغرب، واستولي على شريط من الأراضي البولندية، وهناك قلق في بولندا من أن ألمانيا الموحدة ستطالب بإعادة هذه الأراضي، وإشار إلي أنه إذا لم تتم تسوية هذه القضية سوف يندلع لنا عشر نزاعاً حدودياً آخر في أوروبا، وسيكون هذا أمراً «مؤسفاً». واعتذر بأن مسؤوليات للقوي الأربع تتحصر إلي حد كبير في برلين. لكن ومجرد أن تبدأ المباحثات بين القوي الأربع والألمانيين سيكون من المفيد إصدار بيان مبكر بشأن الحدود. بهدف إزالة هذا المنصر الذي يسم الأجداء. ووعتني إشارته إلي «الأربعة + الإثنان» بعض الشيء. لكنني مابثت أن تأكدت أنه اجتمع مع السوفييت. وكان هذا مؤشراً آخر علي أنه إذا لم نقر اتفاقنا في أوتواو فسوف نفقد ما قد يكون فرصتنا الوحيدة.

وبدأت صباح الثلاثاء الذي تماطلت فيه الخروج باجتماع عادي علي الإفطار. وأقر جينشر وببما وهيرد بأن التطورات تعني بأسرع من المتوقع، وأنه علينا أن نقر صيغة «إثنان + أربعة» هذا اليوم. وكنت أعتقد أنه يصحدر إعلان عام فسوف نحول الجدل مما إذا

كانت ستكون هناك وحدة ألمانية إلى ما هي للسرعة والشروط التي ستتم للوحدة بمقتضاها .
ويصنوع بيان عام أن يستطيع أحد الإقدام علي التراجع . وكُلّف بوب زوليك بإعداد بيان
قصير ، وقد فعل في ثلاث عبارات مكتوبة فقط :

أجري وزراء خارجية ست دول مباحثات في لوتلوا بولتقوا علي أنه بعد إجراء انتخابات
١٨ آذار مارس في جمهورية ألمانيا الديمقراطية سوف يجتمع وزيراً خارجية دولتي ألمانيا
مع وزراء خارجية القوى الأربع لبحث الجوانب الخارجية للوحدة الألمانية . وستبدأ عما
قريب المشاورات التمهيدية علي المستوي الرسمي .

وطالب جينشر تغيير نهاية للعبارة للثانية لتصبح علي النحو التالي : «الجوانب الخارجية
لإقامة وحدة ألمانية» . ويعني هذا التخيير صراحة أن السكتدي سينتهي بإقرار الوحدة لا
تأجيلها . وسارعت أنا وديما بالموافقة ، وانفق أربعتنا علي أن أفتاح شيفرناندة خلال جلسة
السماعات المفتوحة التي ستعقد في الصباح لاحقاً .

وبمجرد دخولي إلي مركز المؤتمرات طلبت من شيفرناندة عقد اجتماع جانبي
واستعرضت مع شيفرناندة بوجود مترجمه باقيل بالازشينكو ومترجمي بيتر أفاناسينكو فقط
البيان الطنامي الذي نريد إصداره - وقال : إنه سيتصل جورباتشوف علي الفور وسهرد علي
بمجرد أن يتلقي إجابة ، ولست تردداً من جانب شيفرناندة ربما نتيجة التيقن من أن الوحدة
الألمانية ستثير عاصفة هرجاء في موسكو ، وأن هذه قضية أكثر اختلافاً لا يريد أن يحتل
مركز الصدارة فيها .

وقبل الظهر دعاني شيفرناندة إلي قاعة اجتماعات صغيرة خارج قاعة المؤتمر . وقال :
لو أمكننا إدخال تغييرين أصوف يوافق جورباتشوف علي صدور بيان «إثنان + أربعة» فهو
يريد أولاً : حذف الإشارة إلي الانتخابات التي ستجري في ألمانيا الشرقية ، ولأن الجميع
يفترضون أنها ستأتي بحكومة مؤيدة للوحدة فلم يكن جورباتشوف يريد التأكيد عليها . وكنت
أعتقد أيضاً أن جورباتشوف يريد بعض المرونة لعقد اجتماع «إثنان + أربعة» قبل
الانتخابات . وفي ضوء أن أي اجتماع سيتطلب موافقة للدول الست فلم أشعر بالثقل . لأنني
أعتقد أن بوسعدنا استخدام الفيديو علي أي اجتماع مقترح بالعمل مع بون ولندن وباريس
والاتفاق علي عدم المشاركة ، ثانياً : أرلنت موسكو إضافة جملة تشير إلي «قضية أمن الدول

المجاورة، وكان تقديري أن هذه الجملة ربما تكون من بذات أفكار شيفرناندرز لا جورباتشوف، وأنها محاولة من جانبه لاستعادة وترضية بولندا، وخرجت بانطباع محدد بأنه يأمل في استغلال قلق وارسو علي الأقل لتأجيل صيغة «إثنان + أربعة» وإذا فشل ذلك فإنه يحترم علي ما يبدو أن يتصدر الدفءاع عن مسألة الحدود البولندية بين التقوي الأربع الكبرى، ويستعين تسوية تلك القضية في أي عملية للتوحيد ألمانيا. ولهذا فلم يكن لدى أي مشكلة في إدخال هذا الخيار. إن أبسط تفسير يشير إلي أن هذه هي طريقة موسكو للمألوفة لطمس الحدود بين «إثنان + أربعة» وبين مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ولكن نظراً لأنه لم تتم دعوة دول أخرى للمشاركة فلم يشغلي هذا التعديل. وقلت لشيفرناندرز إنه يجب علي أن أتحدث إلي جينشر وهيرد وربما. لكنني سوف أزد عليه بعد قليل.



ومع ذلك وقيل معادرتي أبلغني بأن جورباتشوف لديه عرض متضاد لمبادرة الرئيس بوش حول خفض القوات التقليدية في أوروبا، وكان الرئيس بوش قد اقترح «خطاب حالة» على الانعقاد السوفيتي قبل أسبوعين خفض عدد القوات الأمريكية والسوفيتية إلى ٩٥ ألف فرد فيما يعرف بالقطاع الأوسط للقوات التقليدية في أوروبا. والخصم الأساسي في هذا الاقتراح هو مساواة مستويات القوات في أوروبا الوسطي في الوقت نفسه، ومنح ميزة الولايات المتحدة في أماكن أخرى في أوروبا. ونظراً لأن القوات السوفيتية لا تتركز في أراضي أجنبية. إلا في القطاع الأوسط، وأذا نعتزم الاحتفاظ بثلاثين ألف جندي إضافي في بقية أوروبا. فإن الأثر الفعلي هو تحويل الحقيقة الأساسية للحرب الباردة وتعيداً تحويل السيرة السوفيتية في القوات التقليدية إلي مطلب. وقد أبلغني جورباتشوف بـخفض القوات بالصلوى لتصل إلي ما يدوراح بين ١٩٥ أو ٢٢٥ ألف جندي في أوروبا كلها. وباختصار كان يريد أن يصل إلى الحدود الدنيا للقوات. لكنه لا يريد أن يمنح الولايات المتحدة أي ميزة.

وأبلغني شيفرناندزة بأن جوريلانشوف تدبر الأمر خلال عطلة نهاية الأسبوع، وأنه مستعد الآن للموافقة علي مستوى خفض السماوى إلي ١٩٥ ألف جندى فى القطاع الأوسط شرط أن تدرج الولايات المتحدة خططها بتمركز ثلاثين ألف جندى إضافى فى مكان آخر فى أوروبا فى بند قانونى ملزم فى المعاهدة. وصنفتُ فهمد مشاورتنا فى موسكو لقرنت أن جوريلانشوف سيحتاج لمزيد من الوقت بشأن القوات التقليدية فى أوروبا. لكن يبدو أنه تشجع جراء اقتصاره فى مؤتمر الحزب، وأنه يريد الحفاظ علي زخم العلاقات السوفيتية الأمريكية. ولصمان عدم حدوث لبس سألت شيفرناندزة: «هل توافقون علي أن يكون هناك لا تناظر لقواتنا فى أوروبا؟» وبدأ إدولرد يرد، وبدأ بافيل فى الترجمة. وقاطع دينيس روس المترجم قائلًا: «ليس هذا مقالته» (وكان اجتماعنا قد رتب علي عجل لدرجة لم يتمكن معها مترجمى بيتر أفاناسينكو من العودة إلي قاعة المؤتمر فى الوقت المناسب). فقد ضبط روس الضعيف فى اللغة الروسية تصاريها قاتلاً فى ترجمة بافيل الذى تكاد لا تخطو من الأخطاء فى العادة. وتحدث بافيل مع شيفرناندزة برهة ثم قال: «سيكون هناك لا تناظر فى القطاع الأوسط، لكن نعم سيكون هناك لا تناظر فى بقية أوروبا».

وعدت إلي الاجتماع وأنا أشعر بأن الزخم فى جانبنا. فالفرصة سانحة أمامنا لإغلاق ملف واحد من أكبر القضايا للخرجة فى الحد من الأسلحة التقليدية، وأن نحيل العملية الدبلوماسية لتوحيد ألمانيا إلي منتدى يبرز قوتنا. وسألت قول زليكوف عضو مجلس الأمن القومى فى الرحلة إعداد بيان مقتضب بعد أن وافقت علي مسودته المكتوبة علي الفور، وطلبت منه مراجعته مع جيم دولسى مفاوضنا فى مفاوضات خفض القوات التقليدية فى أوروبا، وزاجه أيضاً كل من ريجى بارثولوميو وكيل وزارة الخارجية للشؤون الأمنية الدولية ورئيس وفدنا فى مفاوضات الحد من التسليح. ورون ليهامان مدير وكالة الحد من التسليح ونزع السلاح. وطلبت منهم أيضاً مراجعته مع واشنطن للتأكد من عدم اعتراض أحد عليه. (واتضح أن البعض فى واشنطن معترض علي إدراج بند فى المعاهدة) بل ومحترسون أيضاً علي الالتزام المنفرد للورد فى اقتراح الرئيس. لكن كل ذلك عولج فى حينه ليتمني لجرى كلارك أن يعلن الاتفاق فى الساعة السادسة مساءً ذلك اليوم. وغمرنا السرور جميعاً بتحقيق هذا الانفراج. فظمة الأولى منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية سيكون لموسكو قوات فى أوروبا

تتل عن قوات الولايات المتحدة. إضافة إلى أن حدود قوات الاتحاد السوفيتي ستحدد بطريقة يمكن التحقق منها وفي معاهدة ملزمة قانوناً.



وغادرت مركز المؤتمرات متوجهاً إلى فندقى حيث وصلت بعيد الظهر. وكانت أولى مهامى هي إطلاع الرئيس على أحدث التطورات والمواقف واتصلت بكل من الرئيس وسكروفت على خط واحد وبدأت في شرح بيان صيغة «إثنان + أربعة».

لم يكن برينت متحمساً وقال: «لست واثقاً بأن هذه فكرة جيدة لقد تمركزنا بسرعة بالغة». ورددت: «لقد فات أوان ذلك فالكل قد وافق عليه».

وقاطعتى سكروفت قائلاً: «لم يوافق كول» وسأل الرئيس: «جيم، هل أنت واثق من قبول كول لهذا؟» وقلت: «لم يكن جينشر ليوافق إلا إذا كان قد حصل على موافقة كول».

وقال برينت: «لقد تحدثت مع تيلتشيك، ولست واثقاً من موافقة المستشارية، ولم يكن هورست تيلتشيك المستشار الشخصى لكول لشؤون الأمن القومى علي وثام مع جينشر».

واختم الرئيس: «إننا في حاجة حقيقية إلى التأكيد من موافقة كول على هذه». وقلت: «ليكن سأراجع الأمر مع جينشر» وكنت أعرف أنه يجب علينا إسنابلبيان حيلث. إن أى تأجيل سوف يتيح ظهور معارضة من موسكو ولندن وباريس أو عواصم أخرى وقد يبيت إلى الحيلة أحد مستشارى المصوء للذين ينتشرون في الدوائر الدبلوماسية. ومن وجهة نظر الدبلوماسية العامة فسوف يظهر البيان صراحة أن صيغة «إثنان + أربعة» ستعمل على إنمام الوحدة الألمانية، وأن هذا هو أسس المفاوضات المستقبلية، وستمنع من حدوث ردة سوفيتية. واقنعاً بأن الرئيس وبرينت أساما فهم موقف كول طلبت من جينشر أن يعرج على فى غرفتى. وقلت: «هانز - ديترتش، البيت الأبيض غير واثق أن المستشارية تزيد صيغة «إثنان + أربعة» ورد: «لماذا هذا غير صحيح، سأتصل بالمستشار»، وقلت: «حسناً وأطلب منه أن يؤكد رأيه للرئيس يوش».

واستعار جينشر الهاتف للخلص بي في غرفة نومى لإجراء مكالمة خاصة مع كول. وبعد دقائق عاد إلي غرفة المعيشة ليبلغنى «ليس هناك مشكلة. كول موافق موافقة تامة، وهو يتصل الآن ببوش». وقررنا أن يعاود جينشر الاتصال مرة أخرى بكول فى غضون بضعة دقائق لضمان أن الأمور سارت علي مايرام وأنهما علي اتصال - فى الوقت ذاته ترقبت وأصغيت وجينشر يتحدث أمامنا عن البعد العاطفى للذى كنت إليه للوحدة: «تصرفون ألى ولدت فيما هو الآن ألمانيا الشرقية، وسوف أعود يوم الجمعة لألقى خطاباً فى ميقات رأسى. إنهم يطلقون إسمى علي المدرسة العليا: مدرسة هانز ديتريش جينشر العليا. فقد عُشي علي أستاذتى القدامى عندما عرفوا بإطلاق إسمى علي المدرسة، ومعنى إلي شرح كيف يتقاطر أفراد القوات المسلحة الألمانية الشرقية بالعمسون عملاً فى القوات المسلحة الألمانية الغربية، وكيف أن سجلات الجيش الألمانى الشرقى حاكمة بالجنود الذين أبلغوا أجازات مرضية بينما هم فروا من الخدمة بالفعل. وقال: «إنهم يواصلون التقدم ليذكروننى فحسب مرة أخرى بالأحداث التى تجري علي الأرض، ولنا فى حاجة للاستمرار، وأخيراً عاود الاتصال بكول وأكد لى أن المستشار تحدث إلي الرئيس بوش وطمأنه بأنه يوافق علي صيغة «ثنان + أربعة».

وعاودت الاتصال بالرئيس ومكوكروفت وسألت: هل اتصل كول؟ ورد الرئيس بأنه اتصل لكن كول لم يؤيد بوضوح صيغة «الثنين + أربعة» ولم يتطرق بالفعل لتأييد البيان.

وقلت: «لقد تحدثت كول وجينشر، وأبلغت الرئيس: «أنلى اعرف أن كول موافق، وإنه فى حاجة لمعاودة الإتصال به» وطلبت من جينشر أن يتصل بكول ليبلغه بأن بوش سيتصل به».

وفي نحو الساعة الثالثة والرربع بعد الظهر أعاد الرئيس الاتصال وقال: «لقد اتصلت بكول. وأنه موافق علي «الثنين + أربعة». فلتتمض قدما».



وفي وقت لاحق تبينت ماذا أثار التضارب. ففي مكالمة كول الأولى للرئيس الساعة ١:٤٩: بعد الظهر لم يكن كول واضحاً في تأييده «لأثنين + أربعة». وقال مشيراً إلي اجتماعاته مع جورباتشوف في موسكو: لقد بحثنا نفس النقاط التي بحثها جيمس بيكر بأنه يجب أن تعمل ألمانياان معاً مع القوي الأربع - للولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفيتي. لقد أبلغني هانز ديترش جيلشر الذي اتصل بي قبل ساعة واحدة من أوتارا أن وزراء الخارجية يبحثون نفس القضايا. وفي مكالمة للرئيس لكول في الساعة الثالثة ودقيقة واحدة قدم كول تأييده الصريح. وبدأ بالقول: «جورج. أشعر أن هناك كتابساً، إنني أوافق علي ما يبحثه وزراء الخارجية في أوتوا». وقال للرئيس أيضاً: إنني أشعر بالقلق لأن هذا الموضوع لا يزال مفتوحاً. إننا قد نجد أنفسنا في وضع يطلب فيه آخرون في الشرق والغرب الانضمام إلي جانب القوي الأربع الكبرى. حينئذ سوف تواجهنا مشكلة كبرى.

أما وقد تلقينا الصورة الأخضر من عاصمتها قرر جيلشر وأنا المضي قديماً وإصدار بيان صحيفة «إثنان + أربعة». فلم تكن نريد أن نمنح أي أحد ثنائية واحدة ليوكر مرة ثانية، وربما كنا ننظر بمكالمة كول والرئيس بوش اتصلت هاتفياً بدوجلاس هيرد وديما وحصلت علي موافقتهم علي الإضافات التي يريدان شيفراندزة في البيان. وفي الفقرة الثانية حذفنا عبارة «بعد انتخابات الثامن عشر من آذار مارس في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وكتبنا بدلاً منها بما في ذلك القضايا الأمنية للدول المجاورة في نهاية الفقرة»^٥.

ومعنيذا ونهياً نا لإنقاط الصور للتذكارية لوزراء الخارجية الستة علي درج الضيقة الذي كنت استخدمه للتأليفات فقط. كان المكان في حالة فوضى عارمة حتي جاء كيم هوجارد رابط للجيش الذي يعمل تحت ضغط دائم فأبعد بجسده العروس للزائد والمتفلقين، وأصبح ياقعة دوجلاس هيرد.

^٥ جاء نص البيان التالي علي هذا النحو. «أجدي وزراء خارجية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وفرنسا والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة موافقت في أوتوا». وأضاف علي أن يجمع وزراء خارجية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية مع وزراء خارجية فرنسا والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لبحث المراتب الخارجية لإقامة وحدة ألمانية بما في ذلك القضايا الأمنية للدول المجاورة، وسيتبدأ قريباً المفاوضات التمهيدية علي مستوى رسمي.

رائثناء للشد والتجذب حول ما إذا كان كول قد وافق حقيقة علي ما أجازناه بات من الواضح لي أن العاملين في مجلس الأمن للقومي لم يكونوا معترضين فقط علي صيغة «إثنان + أربعة» بل إنهم يعملون لدفع الرئيس علي عدم الموافقة عليها حتي علي الرغم من اقناع لندن وباريس وموسكو بالموافقة بل وموافقة الألمانين أيضاً.

وكنيت اعتقدت أنني أفضت في شرح الصيغة حتي قبل مفادرتي واشنطن. وكنيت قد أصليت للرئيس الورقة التي أعدتها إدارة للحطيط السياسي التي حددت إطار الآلية في ٣١ كانون الثاني يناير. كما أجري بوب زوليك مشاورات مكثفة مع بوب بلاكويل للمساعد الخاص للرئيس للشؤون الأوروبية. فضلاً عن ذلك فقد راجع البيت الأبيض الرسالة التي أرسلتها لكول من موسكو والتي ملئت ندوة هذه الصيغة.

وقبل أن أعود إلي قاعة المؤتمر أجريت ثالث مكالمة هاتفية مع الرئيس من جناحي. وفي هذه المرة تأكدت أن كلينا علي الخط. وقلت: «كان يوماً طيباً هذا. في الواقع إن هذا إنجاز تاريخي. لكن وبصراحة كان إنجازاً تعمق بشق الأنفس. لأن البعض كان متحيزاً ضد فكرة «إثنان + أربعة». كان جورج بوش رحب الصمد كدأبه، وأبغضى أنه يفهم وجهة نظري. وكنيت علي ثقة بأنه يشعر الآن سلى أن الطريقة التي عالجت بها قضية الوحدة الألمانية هي ولعدة من أهم إنجازات السياسة الخارجية خلال فترة رئاسته.

وشادرت جناحي للانضمام إلي مؤتمر حلف الأطلسي الذي أئمقد بميد كانت أجواء الاجتماع متوترة. ولم يكن أحد من وزراء الخارجية الآخرين قد علم بأمر المناقشات الخاصة بصيغة «إثنان + أربعة» والألتي أنهم لم يعرفوا بأمرها إلا من الصحفيين قبل أن أتمكن أنا وجينشر وهيرد وديما من العودة إلي مركز المؤتمرات لإطلاعهم علي الموضوع، وإستاء الحلفاء لعدم التشاور معهم. وقال دى ميخائيليس: «لقد عملنا معاً في التحالف لأربعين عاماً. وكرر هانز فان ديوك بروك نفس للشكوي مثلما ربحنا ممثلون من لوكسمبرج والنرويج وبلجيكا وأسبانيا وكندا».

• ما لبث الحلفاء أن أخذوا إلي عدم إرتياحهم لفترة «التصنيفات الأمنية القوية الصادرة» لأنها تظهر حسداً إلي أن صيغة «إثنان + أربعة» قد تبحث القضايا المتعلقة بأشياء بدونها، وأنها تشر بالقلق من التدخل السريالي. وكانوا يريدون إدراج كلمة «حيث من المناسب» قبل التصنيف. حتي يمكنهم إصدار بيانات منفردة فوسح لى أنهم ليس موضوعاً مناسباً لهذا المستوى. وأبغضهم بأن:

وحاولنا تهدئتهم بلطف بالإشارة إلي أن القوي الأربع حقوقاً قانونية تعين وصعها في الاعتبار. لكن في ضوء المشاحنات التي خضناها للحصول علي البيان لم يكن جينشر في حالة نفسية تسمح له بالدخول في مفاوضات مع دي ميخائيليس، وفيما أقنع دي ميخائيليس بشدة دي جو كلارك بالسرقة مؤذناً باختتام الاجتماع. وفي تلك الليلة ونحن نترقب كيفية نغمة الصحافة راودت نفسي: بأنه إذا كان من الصعب الاتفاق علي من يجب أن يلعب فكيف سيكون حال المباراة عندما نبدأ في معالجة قضايا لاحقة.

- هذا التغيير مستحيل لأن البيان قد أرسل بالإنجليزية بالفعل إلي الصحافة. لكننا وافقنا علي أنه بوسع جو كلارك أن يعلن أننا «أن الدول المجاورة، لا تشير إلي أي أعضاء في الحلف». كما أن الطلاء سألوا عما إذا كان بوسع المتحدث إلي شيفرناذر لأطلب منه حذف «ألا التعريف» (the) الموضوعة قبل كلمتي «التضامن والمجاورة» من نسخة البيان المكثفة باللغة الروسية لأن كلمة (the) يمكن ترجمتها علي أنها تعني «كله» و«الدول المتوردة» شيفرناذر وقالت: «إن بعض الطلاء يريدون تعديلاً بسيطاً في العبارة سألته هل يمكنكم حذف أداة التعريف (the) من العبارة التي استعملها بناء علي طلبكم بشكل الدول المجاورة؟» زيد بالتمسك: «إنه أمر بسيط وليس هناك أدوات تعريف في اللغة الروسية، ومن ثم نقترح غير موجودة في البيان بأن حاله».

الفصل الثالث عشر

أفريقيا: نهاية العزل العنصري

... حاولت كماله ووجدت فيها نبرة صدق. وأشعر أنني أتعامل مع رجل مستقيم. لكن كلفة أعمدة العزل العنصري لا تزال قائمة.

نيلسون مانديلا

عن فرينك ويليام دي كيرك
مصحفًا لوزير الخارجية جيمس بيكر
٢١ آذار مارس ١٩٩٠

بقدر ما تسعفنى للذاكرة أَتَذَكَّرُ أَننى كنت صياداً ماهراً. فقد غرس أبى فى حب الأماكن للحلوى، ونشأنى على هواية لازمتى طيلة حياتى ومنحتلى لحظات سعيدة. فعندما كنت فى السادسة اصطحبنى معه فى رحلات صيد للبط. وكان يري فيها طريقة يحنى بها الأب والابن أوقاتاً سعيدة معاً. وكان مصيباً. فقد أصيبنا بعضاً من أسعد لمطاطنا رابضين فى مكان من صيد البط. وفى الوقت المناسب سمح لى بممارسة ألعاب صيد أخرى. وعندما بلغت الرابعة عشرة قرر أننى كفاء بما يكفى لأرافقه فى رحلات صيد الأيائل فى ويومينج وفى تلك الرحلة فى صيف عام ١٩٤٤ وقعت فى هوى ويومينج وهو ما دفعنى إلى شراء مزرعة فيها عام ١٩٨٨.

وكمحطم الصيادين الشهرة طالما أردت القيام برحلة صيد كبيرى فى أفريقيا، وفى عام ١٩٧٤ تهيأت لى هذه الفرصة أخيراً. فقد قررت سوزان وأنا قضاء شهر عمل تأخر كثيراً فى رحلة سفاري، ولأصينا ثلاثة أسابيع رائعة فى بوتسوانا. هذا البلد الأفريقى المستقر نسبياً الذى يقطنه عدد صغير من السكان ولم تطله يد للتنمية، ويضم مساحات واسعة من البرية البكر فى جنوب القارة الأفريقية. ولم تستهونى للصيد لقطع الضخمة والأسود والتمور والفهود ربما بسبب جمالها الأخاذ أو ندرتها.

ومع هذا قمت بصيد حيوانات من عائلة الظباء مثل الكود، البقرة الأفريقية، الوحشية والإمبالا والليشوى والسمور وظبى سياتونجا وظبى السبخة.

ومن كل الحيوانات التى أصبتها فى للرحلة لم يكن هناك أكثر إثارة من جاموسة الكاب لطبيعتها التى لا يمكن للتنبؤ بها التى حبرتها فى تجربة شاقة. فبعد ظهر أحد الأيام وجدنا أنفسنا أمام جاموسة لأصاها أسد بجروح ومن دون إنذار إندفعت نحونا من مسافة قصيرة بالغة للخطورة. وسرعات ما صويت بنذيتى لأصيبها برصاصة بين عينيها للتهاوى على الأرض على بعد سبع ياردات منى. حدث كل ذلك بسرعة فائقة لم تكف لإعادة البندقية إلى كفى. ويقول الخبراء: يجب ألا تنظر فى أدغال أفريقيا إذا لم تكن صياداً بارعاً. وأكد لى حادث بعد الظهور صحة تلك العقولة.

ومع هذا كنت متردداً في صيد الأفيال، واشتريت عنده نصيد الأفيال. حيث أبلغني الأصدقاء بأن أنياب العاج تكفي لتغطية نصف كلفة رحلة سفاري. لكن رغم أن هوية الصيد وضعتني أكثر من مرة أمام ثور هائل كان يمكن أن يقضى عليّ فلم يسعني أن أقدم علي هذا*.

وفي تلك المغامرة سلكتنا طريقاً جديدة بكل مطي الكلمة. فقد كنا أول من يصيد في تلك المنطقة التي قررت الحكومة لتوها فتحها أمام الصيد. كانت المنطقة بكراً خير مطروقة لدرجة اضطررنا لتعليم الأشجار حتي يمكننا تلمس طريق عودتنا إلي المعسكر.



وهكذا وبمشاعر خاصة عدت بعد ستة عشر عاماً إلي جنوب القارة. حيث تفرع طرق سياسية جديدة. وتاريخياً كانت القارة بديهاً ضعيفاً علي طرولة الصراع بين الشرق والغرب. وعلي مدى أكثر من جيل كانت السياسة الأمريكية تجاه أفريقيا تحركها دواعي التنافس مع الاتحاد السوفيتي. لكن مع انتهاء الحرب الباردة وظهور جيريانشوف لاحت فرص جديدة لإخراج بعض الصراعات الإقليمية من عباءة الصلاقات السوفيتية الأمريكية. ونتيجة لهذا سرعان ما أصبح استقلال ناميبيا حقيقة قائمة وفي أوجها تلوح في الأفق مؤشرات إنجسار مواجهة نامت عقداً بين القوتين العظميين. ورغم تراجيع حدة التوتر في تلك المناطق كان خطر الحريق قوياً في جنوب أفريقيا. حيث استمرت وطأة نظام العزل العنصري. وأنا أتأهب لتولي وزارة الخارجية أتذكر تفكيرى أنه بينما نظام العزل للعنصرى سياسة تجلب كل هذا

* في حزيران يونيه ١٩٨٩ وسعني وزيراً للخارجية أوصيت بأن يلى الرئيس بوش حطراً أمريكياً من جانب ولند علي اسود العاج. ومهدت هذه المبادرة الطريق أمام للحظر الدولى الذى تمت الموافقة عليه في اجتماع تشرين الأول أكتوبر عام ١٩٨٩. في جلسات مؤتمر التجارة الدولية حول الأنواع المهددة بالانقراض في لوزان سويسرا.. وصقلت وزارة الختطاج أيضاً علي تقديم مائيتها من ختاض طائرات الهلوكبتر بالجوى إلي كينيا لمساعدة الدكتور ريتشارد ليكى في معركته سد سدود الأفيال. وعلاسا تسببت تكاليف السوالة العمالية في المعلم جنوي للتفكير أموت بتوجيه مليونى دولار من وكالة معونات الصبية الدتالية إلي هيئة لحماية البرية الكينية.

لعلقت في العالم المتحضر لدرجة سوف تزول بها آجلاً وليس عاجلاً. فإنها أيضاً قضية مثيرة وعديدة لن تنتهي علي الأرجح إلا بحمام دم . وفي بلد يتمتع بهذا الجمال الفائق حيث أصبح العنف سمة شائعة يهدد بالانفجار في صورة عملية لإعادة عصرية . فإن للتحدي المثل أمام الدبلوماسية الأمريكية هو انتهاج سياسة مثالية تقال فرص حدوث تلك النتيجة المأساوية.

التحرك بتجاوز الارتباط البناء

ومثل أمريكا الوسطى أحدثت جنوب أفريقيا انتقاسات سياسية عميقة في الكونغرس ولدى الرأي العام في الالمانيا حيث عارضت إدارة ريجان بقوة العقوبات التي قررها الكونغرس ضد حكومة الأقلية البيضاء في بريتوريا حفنة بدلاً من ذلك إنهاء سياسة الارتباط البناء بهدف إقناع الأمريكيان في الحزب الوطني الحاكم بإنهاء نظام العزل العنصري . وبعد أن أصدر الكونغرس القانون الشامل لمناهضة العزل العنصري عام ١٩٨٦ الذي فرض عقوبات دبلوماسية واقتصادية قوية ضد جنوب أفريقيا استخدم الرئيس ريجان الفيتو ضد مشروع القانون . وألقي الكونغرس فيتر الرئيس ريجان فيما بعد أكثر رفض مثير لسلطة الرئيس في إدارة السياسة الخارجية خلال فترتي ريجان.

وأعتقد بأن الوقت قد حان للتوصل إلي حل غير حزبي لتسوية هذه القضية العاطفية المثيرة للانقسام . وكسلفه كان الرئيس بوش يطرح في العقوبات معتقداً أنها توتى بشام عكسية . وكان يفضل التفاوض علي العزل . ووافقته لكنني أعتقد أيضاً أنها قضية ذات بعد أخلاقي . وأكثر من أي شيء آخر . كانت الخبرة الأمريكية محددة باعتقادنا بالمساواة بين كافة البشر . والعمل العنصري سياسة لا يمكن للدفاع عنها أمام معظم الأمريكيين ، وسيؤدي استمرارها إلي تكثيف الضغوط علي الإدارة المطلوبة بتشديد العقوبات وهو الأمر الذي أعتقد أنه سيفضي للجلد الداخلي ، ويدفع جنوب أفريقيا للتشدد في مواقفها .

ودخلت الخارجية الأمريكية اعتبرت جنوب أفريقيا قضية سيادة خارجية ذات تداعيات داخلية كبرى. وفي عالم الواقع اعتقدت أنها قضية حقوق مدنية داخلية مثارة في ساحة دولية، وستقضى أي سيادة ناجحة محللة للهددين بقوة.

ومع ذلك كان من الواضح أنه لاسياسة الارتباط البناء مع بريتوريا ولا عقوبات الكونجرس مندها قد أفلحت في تسوية لب المشكلة. وقلت أثناء جلسات المصادقة علي تعييني «يجب أن نحلي بشجاعة كافية للاعتراف بأن للعقوبات التي قررناها لم تأت بالثمار المرجوة» فلم توهي تلك العقوبات عزيمة الأفريقانز. ولم تعزز القوة التفاوضية السود. فالناخبون البيض تحولوا إلي اليمين وازداد القمع، فالنوقعات المفرطة للمناوئين لنظام العزل العنصري بأن النظام يلفظ أنفاسه كانت ساذجة. فقد اشتدت قبضة القمع الحكومي ضد السود، ولازالت حالة الطوارئ التي فرضتها الحكومة عام ١٩٨٥ معلماً رئيسياً للحياة في جنوب أفريقيا، وفي دوائرهم الخاصة يعترف المسؤولون للحكوميون للدبلوماسيين الأمريكيين بأن لجوء الثورة تخيم علي جنوب أفريقيا. ومع تصاعد خطر نشوب عصف جماعي فقد حان الوقت لحدوث تحول في السياسة يتعد عن موقف لامتوازن لمصلحة بريتوريا ضد المعارضة السوداء، ويعبني نهجاً يجتنب مزيدى المفارقات من البيض والسود في جنوب أفريقيا.

واستمرت السياسة الأمريكية وهن المراجعة من الناحية للرسمية خلال العام الأول لإدارة بوش. وفي الواقع ومع هذا كان قد تحدد نهج جديد لتسوية الصراع خلال ربيع عام ١٩٨٣م واتضح لي أثناء مراجعة السياسة للقاعة أن إناركاً واسع النطاق نشأ لدي الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا - حيث شعر الجانبان أن الإدارات السابقة قد فشلت في إقامة اتصالات مهمة علي المستوى الرئاسي مع للزعراء السود المشوق بهم في جنوب أفريقيا. وكتبت في مذكرة رفعتها إلي الرئيس في الثاني من أيار مايو ١٩٨٩* «أعتقد أن أولي خطواتكم بشأن جنوب أفريقيا يجب أن تكون هي تصحيح هذا النجاء».

* في عام ١٩٨٤ اجتمع الرئيس ريجان مع ديزموند توتو كبير أساقفة الكنيسة الانجليكانية في جنوب أفريقيا. وتم حرز الاجتماع أي نتائج. فانه أتي توتو محاضرة علي الرئيس حول أنشطة السياسة الأمريكية ثم هن هجوماً لانساً علي الرئيس وعلي سياسته في منر الجناح القوي. ولطهر الرئيس ريجان الذي لم يكن يريد في الأصل الاجتماع مع توتو فطلعت وكيلته في اليوم التالي عندما سأله الصحفيون عن الكيفية التي سار بها الاجتماع وقال الرئيس دون وجل: «خير منهم، هذا لا يتم ولا يؤخذ»

وأوصيته بتوجيه الدعوة إلي ألبرتينا سيسولو ليجتمع معها في البيت الأبيض. فللسيدة سائلة عائلة سياسية سوداء عريقة في جنوب أفريقيا زوجها يقضى عقوبة السجن مدى الحياة مع نيملون مانديلا منذ عام ١٩٦٤. أما ابنها لزميل السابق في هارفارد فإنه واحد من زعماء الجيل الجديد من للزعامات ويلقي لاحتلاماً واسعاً، وقد أمضى عامين رهن الاعتقال.

وجعلتها قيادتها المتشددة للجبهة الديمقراطية الموحدة التي لا تتنهج العنف وهي المعارض الرئيسى لنظام العزل العنصرى في بريتوريا أفتتحت لاحتبار الإشارة إلي قرار الرئيس بالاتصال بالزعماء للسود المستقلين، ولتوجيه رسالة قوية أيضاً لحكومة جنوب أفريقيا بأن الرئيس لم يعد محايداً تجاه نظام العزل العنصرى، وأنه مطلوب إنجاز الكفر قبل أن يوصى برفع العقوبات الأمريكية.

وكنيت علي يقين بأن حكومة جنوب أفريقيا ستكون حاسمة تجاه أى تحرك بإجراء اتصالات رفيعة المستوى مع المعارضة، وربما تقدم علي منح إصدار جواز سفر للسيدة سيسولو. وأشرت إلي أن حل هذه القضية أمر يسير عن طريق توجيه دعوة هائلة لويليام فريدريك دى كليرك للاجتماع معى أثناء زيارة خاطفة يحترم للقيام بها الولايات المتحدة قبل انتخابه المرجح كرئيس لجنوب أفريقيا في أيلول سبتمبر.

وأشرت إلي: «أن الاجتماع محك قد يكون غير مناسب في هذه المرحلة فإننا نعتقد أن دى كليرك سيشر بالارتياح إذا استقبل بمقر الخارجية الأمريكية، وحتي بدون اجتماع مع الرئيس فسوف يكون دى كليرك أول زعيم من جنوب أفريقيا يزور الولايات المتحدة خلال أرميون عاماً منذ إقامة نظام العزل للعنصرى».

وكان المتوقع لم يشمر مسئولو جنوب أفريقيا بأى لرتياح تجاه دعوة السيدة سيسولو. فبعد أن أبنتهم أيد بوركينز سفير الولايات المتحدة لدي بريتوريا بأمر الدعوة طلبوا السماح لدي كليرك بلقاء الرئيس. ورد بيركينز بوضوح بأن الإصلاحات الحالية التي تجريها حكومة الرئيس المريض بوك ويليام بوتلا لا تكفى لتوجيه دعوة لدي كليرك للقاء الرئيس رغم أنها جوهرية. واتخذت سياستنا للمشاكل التقليدية لاستراتيجية للترغيب والترهيب. وكنا نبعى من لقاء الرئيس مع الزعماء السود المعتدلين دفع الأفريكانز لإجراء الإصلاحات بعطي أسرع وأشمل وصولاً للنتيجة المرجوة وهي رفع العقوبات الأمريكية.

إرساء معلم جديد

فى ٢٧ أيار مايو اجتمعت مع رولف فريدريك «بيك» بونا وزير خارجية جنوب أفريقيا فى روما أثناء مرافقة للرئيس فى زيارته لإيطاليا وبلجيكا وألمانيا. كان اجتماعنا أول اتصال رفيع المستوى مع جنوب أفريقيا خلال إدارة بوش. وبالمعايير السائدة فى جنوب أفريقيا يعد بونا شبه ليبرالى. كان يحظى بشعبية طاعية فى دلتورته الانتخابية فى جوهانسبرج مما يبرر له أن يستحث الحكومة على تخفيف وطأة نظام للعزل العنصرى. وكان من النوع الاجتماعى المتظاهر المشهور المتروك - وكان يحلو له أنك كوهين مساعد وزير الخارجية للشؤون الأفريقية أن يصفه بأنه هوى لونغ* سياسة جنوب أفريقيا، وكان بالغ الفائدة فى مساعدة شيسر كروكر خلف كوهين فى التوسط لاتفاق استقلال ناميبيا وأعجبت به.

كان اجتماعاً وبدأ لكن صعباً، وأبلغت بونا أنه فى الوقت الذى تمارض فيه الإدارة بفرض عقوبات إضافية ضد بريتوريا فإن معارضة الرئيس غير قابلة للعزل وسط، واعترفت بأنه فيما تم إقرار تقدم نحو الإصلاح «إلا أن هناك حاجة لتغييرات جذرية مثل أن تتاح أى فرص للطبيع علاقاته وصفت عليه لرفع حالة اللطوارى وتخفيف الرقابة والقيود السياسية، والأهم من هذا وذلك إطلاق سراح لينسون مائديلا رقت؛ «إن هذا سيساعدنا على القول بأن فرص مزيد من العقوبات سيأتى بنتائج سلبية».

والفزم بونا جانب للدفاع وشكا من تجاهل الغرب لالتزام حكومته بانتهاء العزل العنصرى إلى حد كبير. وناشد تقديم المساعدة لا المراقبة مشبهاً موقف بلاده بموقف جوبانتشوف الذى يواجه مشاكل لمحاولة إقرار تخيير فى بلاده، وقال: إن الإدارة الأمريكية السابقة لم تعترف مطلقاً بأن جنوب أفريقيا تتحرك نحو الأفضل. وأضاف: «إن لدى حكومتى انطباعاً بأن حكومتكم لن يرضيها أقل من تسليم جنوب أفريقيا إلى كتلة مستفود البلاد نحو الإنهيار فليس هناك فهم لتحديد الموقف. وأكد لى أن حكومته ستكون أكثر مرونة فى التحرك قديماً نحو الإصلاح بعد إجراء الانتخابات. وأضاف قائلاً: إن مجلس الوزراء يجرى دراسة

* سياسى أمريكى يكنى باسم ملك المسجد عظمى من ١٩٩٢ حتى ١٩٩٥. ولد قرب فينيكس. حاكم ولاية أريزونا (١٩٩٨-١٩٩١) أبدي برنامجاً تلجأماً لتأخذال السنة. عضو مجلس الشيوخ (١٩٩٣-١٩٩٥). مطرجم.

مستغيبضة لمسألة الإفراج عن نيلسون مانديلا، وقال: إنه وعدة زعماء آخرين يفصلون الإفراج عن نيلسون مانديلا لكن قوات الأمن تعارض بشدة. وأسرلى «هأن مانديلا نفسه لا يريد الإفراج عنه في الوقت للراهن . إنه يواجه صعوبات خطيرة مع زوجته وبعض زعماء المؤتمر الوطني يريد تسويتها أولاً».



وقد حمت دعوة السيدة سيمولو بوضوح وترأ حساساً في برينوريا خاصة لأنها تتواكب مع دعوة دى كليرك. وقال: «لقد تولد انطباع بوجود ارتباط بينهما». وهذا لا يوجد وقت له بأنفسى رقة ممكنة إن الولايات المتحدة تحترم الاتصال بالموود والبيض، وأنه من المهم للغاية أن تمنح حكومته تأشيرة للسيدة سيمولو للذهاب إلى الولايات المتحدة وتطوع بونا بأن يكون مفيداً. ونذك، لدى انطباعاً قاطعاً بأنه سيكون مفيداً بدرجة أكبر لو أنه تم دعوة دى كليرك للقاء الرئيس بدلاً منى. ولم أقم له مؤشر تشجيع في هذا الأمر.

ورددت: «إننا نشعر بحساسية مفرطة تجاه شواغلكم السياسية الداخلية. إننا نطلب منك أن تصبرنا في اعتباركم أيضاً. وعلينا ألا نضغط من أجل سرعة علاقتنا الثنائية. وعلوكم أن تتفهموا أيضاً أن هذه ليست مجرد قضية سياسة خارجية. لكنها قضية أخلاقية وقضية سياسية داخلية خطيرة في الولايات المتحدة. إننا نعتقد أن العزل العنصرى عملية لأخلاقية». وأكد بونا: «بوسعى أن أطمأنكم إلى أننا قررنا إنهاء العزل العنصرى».

وساررتنى بحس الشكوك إلى حد ما. لكننى خرجت من هذا الاجتماع مع بونا باعتماد بأن رباحاً جديدة تهب علي جنوب أفريقيا، وأنه مجرد أن يفوز دى كليرك بالانتخابات فربما يجعل بخطي الإصلاحات. فسرعة الإصلاحات عنصر بالغ الأهمية لإقناع الرأى العام الأمريكى والكونجرس بأن نهاية العزل العنصرى بدأت تلوح في كل أرجاء تلك الأمة المعزقة. ولهذا كان من المهم الإبقاء علي الصفوط علي الحكومة للوفاء بالوعود التى قطعها دى كليرك.

وعلي مدي الأشهر القليلة التالية صدرت مؤشرات متباينة من برينوريا. وفي ٨ حزيران يونيو- أى بعد اثني عشر يوماً من اجتماعي مع بوتا قررت الحكومة تحديد حالة الطوارئ لأجل غير محدد. ومع هذا فقد حصلت ألبيرينا سيمولو على تأشيرة سفر وانتقلت مع الرئيس بوش في البيت الأبيض في ٣٠ حزيران يونيو. وبعد خمسة أيام لاجتماع بيك وبيلام بوتا مع مانديلا في السجن لبحث شروط الإفراج للذهلي عنه.

إلغاء دعوة مثيرة للجدل

أثار قرار دعوة دي كليرك للاجتماع معي جدلاً بالوزلوة. فقد أيد هالك كوهين ومكتب الشؤون الأفريقية الفكرة بشدة، ودفع بأن اجتماعي مع دي كليرك يجب تعزيز مستواه ليكون لقاء مع الرئيس. لكن لشكوك كانت تساور دينيس روس وبوب زولوك. غلى ١٢ حزيران يونيو أرسل لي مذكرة صيحت بخطية اعترضنا فيها علي لقاء دي كليرك للرئيس. وقالوا: إن الانطباع الإيجابي الذي من المؤكد أن اجتماع سيمولو مع الرئيس قد تركه داخلياً وبين القوى الديمقراطية في جنوب أفريقيا سوف يتلاشي إذا لم تقدم زيارة دي كليرك لخياراً جوهرياً حول احتمالات الإصلاح ودور الولايات المتحدة في العملية.

وكان بوتا قد أبلغني في روما أنه بولما دي كليرك يريد زيارة واشنطن فإنه في وضع حرج فهو لم يصل إلي قمة السلطة بعد، ومن ثم فهناك افتقار للتفاوض بإجراء الإصلاحات، ولا يمكن أن يخامر بأن ينظر إليه في وطنه علي أنه يقدم ضمانات خاصة لواشنطن قبل الانتخابات. وفي ضوء هذا الواقع اعتقد روس وزولوك أن من المؤكد أن الزيارة لن تسفر عن نتائج وقد تصعب السياسة الأمريكية بالتفصل.

واقترحاً أنه للتحويل علي دي كليرك يمكن أن يكون لقاءه بالرئيس مشروطاً: أي أن يقدم دي كليرك ضماناً خاصاً بأنه في غضون ستة أشهر من توليه السلطة سوف يفرج عن مانديلا ويرفع حالة الطوارئ. وحذر من أن إخفاقنا في اتخاذ موقف قوى يمكن أن يضر بمصداقية الرئيس.

واعتقدت أن حجج المؤيدين والمعارضين زادت سخونة للفتنة. لذا فقد كلفت كوهين بقاء دي كليرك وأن يسأله مباشرة عما إذا كان مستعداً لأن يستعرض خطمه لإنهاء العزل العنصري بشكل خاص مع الرئيس. وفي اجتماع عقد في ديربان أبلغ دي كليرك كوهين «ليس لدى أي دفاع عن العزل للعنصري، لكنني أصبحت علي يقين منذ سنوات بأنه نظام لا يؤدي أي ثمار. وما لم نجتذب السود كشركاء كاملين فن تكون بلادنا صالحة ليعيش فيها حبيدي». وأبدي استعداده للحركة الجذرية في أوائل عام ١٩٩٠ وقال: إنه سيمنح خطمه للرئاسة. وأبلغ كوهين: «سوف ألغى العزل للعنصري وأقيم ديمقراطية كاملة من خلال المفاوضات بأسرع ما يمكن، لكن لا يمكنني أن أعط ذلك علي الملأ الآن، فلا يسعنا أن نُخْطَرُ إيلينا علي أننا نلتقي الأولمريين الأمريكيين. وأمسك عن كشف إصلاحات محددة. لكنه قال إنه يفهم بأنه يتوقع منه أن يطمئن الرئيس بأنه ستُتخذ «تحرّكات مهمة وعلوية نهاء إنهاء العزل للعنصري خلال الأشهر الأولى لتوليه السلطة».

واستناداً إلي هذه المهادنة أوصي كوهين بأن يلتقي دي كليرك مع الرئيس. وأُبرق كوهين من ليبرفيل الجابون في ٦ تموز/يوليه: «عار علينا أن نخرج أنفسنا من اللعبة في الوقت الذي بدأ فيه الموقف في التطور بإيجابية. أعتقد أن زيارة دي كليرك تستحق المغامرة الداخلية».

وأثرت تلك المسألة لاحقاً مع الرئيس بشكل خاص. وفي النهاية توصلنا إلي أنه في ضوء الطبيعة المثيرة للجدل الداخلي كانت الضمانات السرية من دي كليرك غير كافية وأن اجتماعاً لا يسفر عن تقدم ملموس يمكن إعلانه سيذهب حتماً الجبهة المعارضة للعزل العنصري ويحطى دفة لمسامي فرض مزيد من التخريات، وقال الرئيس: إنه لن يجتمع مع دي كليرك حتي يتم إطلاق سراح مانديلا قبل الاجتماع - وهو مانعرف أنه شرط يستحيل أن يفي به دي كليرك حتي بعد الانتخابات وإثر إلاغه بإستحالة لقاءه بالرئيس ألغى دي كليرك زيارته إلي واشنطن. وأثبت روييف بوك بوتا وزير الخارجية مؤهلانه كرجل دولة قدير، وأعلنت أنه في ضوء المعارضة للكثيفة في الكونجرس فإن حكومته لا تريد إثارة صعوبات للرئيس بوش. وفي اليوم السابق كان مائة عضو في الكونجرس قد طالبوا الرئيس بعدم لقاء دي كليرك.

عودة إلى أفريقيا جديدة

في أواخر عام ١٩٨٩ اضطر كذوبر من المتشددون إلى الاعتراف بأن نظاماً جديداً يتجذر في جنوب أفريقيا. وفي ١٥ تشرين الأول أكتوبر - أي بعد أقل من شهر على لقاء دي كليرك اليمين الدستورية كرئيس في ٢٠ أيلول سبتمبر أطلق سراح ولترسيوسلو وسبعة من رفاقه في المؤتمر الوطني الأفريقي. وفي ١٦ تشرين الثاني نوفمبر أمر دي كليرك بانتهاء للعزل العنصري في كافة الشواطئ. وبعد أسبوع انسحبت آخر وحدة من قوات جنوب أفريقيا من ناميبيا بعد احتلال دام خمسة وسبعين عاماً. وفي ١٣ كانون الأول ديسمبر اجتمع دي كليرك مع مانديلا في كيب تاون لبحث قضايا انفصال السلطة بين البيض والسود.

وفي ٢ شباط فبراير ١٩٩٠ منح دي كليرك الشرعية للمؤتمر الوطني الأفريقي ولكافة الأحزاب الأخرى المناهضة لنظام العزل العنصري وفي ١١ شباط فبراير خرج نيلسون مانديلا من سجنه بعد سبعة وعشرين عاماً.

وعندما التقيت رولف هوتا في روما أبلغني أن دي كليرك سيخوض الانتخابات ببرنامج لإنهاء العزل العنصري. وكنت عازفاً عن تصديقه. ومع هذا فقد ألقطني الآن. وبدون شك لا يزال هناك الكثير الذي يتعين عمله. لكن الأجواء قد تغيرت جذرياً لدرجة أنني اعتقدت أن الوقت مناسب لزيارة الطرفين في المنطقة على أمل تشجيع المزيد من الإصلاحات. كان هناك الكثيرون من الجنوب الأفريقيين علي يمين دي كليرك وعلي يسار مانديلا الذين لازالوا يرفضون الحل الوسط. وكنت أعرف أن مراسم الاحتفال باستقلال ناميبيا قد اقترنت. وقررت انتهاز تلك المناسبة للاجتماع مع دي كليرك في كيب تاون في اليوم التالي. وسأكون بهذا أول وزير خارجية أمريكي يزور جنوب أفريقيا منذ عام ١٩٧٨.

وقبل توجهي إلى أفريقيا عقدت سلسلة اجتماعات مع زعماء الكونغريس ومع أعضاء في منظمة ترانس أفريقيا، وهي منظمة أمريكية أفريقية ملتزمة بقوة بإنهاء الفصل العنصري. وضم ممثلوها القس جيمس جاكسون وكورنيليا سكوت كينج، ورغم أن بعضهم يترشح علي لفتائى مع دي كليرك فإن عدم اعتراض أى منهم علي توجهي إلى جنوب أفريقيا كان شهادة قوية بالتقدم الذي يتم إحرازه.

وبعد التوقف للتزود بالوقود في جويلانا الفرنسية وجزيرة أسنشن بالمحيط الأطلنطي وصلت إلي ويندهوك في ساعة مبكرة من مساء ١٩ آذار مارس، والذي هبوطي من الطائرة لم أحطى لألفه كتب عليها مرحباً بكم في جمهورية ناميبيا، وبموجب اتفاق كانون الأول ديسمبر الذي وافقت كوبا بمقتضاه علي سحب قواتها من أنجولا، وتمهدت جنوب أفريقيا بمسحب قواتها من ناميبيا بكون استقلال ناميبيا قد سجل قطعاً لإنهاء للحقبة الاستعمارية في القارة الأفريقية. وبالتصديق مع عدد من حلفائنا كان هذا الإنجاز ثمرة لدبلوماسية أمريكية فعالة قادها سلفي جورج شولتز وشيستر كروكر للذي دعوته لينضم إلي الوفد الأمريكي للمشاركة في احتفالات استقلال ناميبيا.

صنع التاريخ مع مانديلا ودي كليرك

شارك مندوبون من ١٦٤ دولة في احتفالات ناميبيا بالاستقلال، وإذا فقد التهتزت الفرصة لعقد اجتماعات ثنائية مع أحد عشر من زعماء العالم ومنهم للرئيس المصري حسني مبارك وإدوارد شيفرنانزة، واجتمعت أيضاً مع للرئيس الأنجولي خوسيه إدواردو دوس سانتوس مؤكداً أنه من المستحيل تحقيق نصر عسكري علي حركة يونينا التي نساندها الولايات المتحدة، وحادثته علي قدم مباحثات سلام.

وبعد اجتماع عقده صباح ٢١ آذار مارس مع هانز ديكرش جيلشر في منزل فخم بني لتفسير الألماني عندما كانت ناميبيا محمية ألمانية باسم جنوب غرب أفريقيا عنت إلي مقر إقامتي للإعداد لاجتماعي مع نيلسون مانديلا.

وقبل خمس دقائق من الموعد المقرر لوصوله أرسل مانديلا أحد معاونيه ليستفسر مني عما إذا كنت أستطيع أن أتوجه إليه، ومسروراً بالسوقفة وصلت إلي البيت الذي يقوم فيه في ذات اللحظة التي كانت تطلق فيه سيارة شيفرنانزة لليموزين وهي مرسيديس ذهبية اللون. ورحب بي مانديلا وزوجته عند المدخل، واسطحباني حيث تولد عدد من رفاقه في

المؤتمر الوطني الأفريقي. وبدأت بالقول: «إنه لشرف لي أن أكون هنا، وإنني أعني ذلك. ومندبلا رجل الكرامة وحق الحساسية كتوم.

وترك لدى انطبعا بأنه شخصية قوية مقنعة. وربما كانت الحكمة التي اكتسبها خلال سجنه للظالم الذي دام سبعة وعشرين عاماً. قد صقلت بلاغته. لكن لم يكن هناك أدنى شك في تصميمه علي استكمال الدورة التي أنفي فيها شبابه، ولم يكن هناك شك أيضاً فيمن يحكم قبضته: فلم ينس أي من رفاقه بيئت شقة لأداء الاجتماع. إنه شخصية تكتم بحضور طاغ ومهابة كبيرة كمحاور.

وبدا بالتأكيد مجدداً علي ممارسة المؤتمر الوطني للعنف، ونخلي عن إصراره علي أن إنهاء العزل العنصري بشكل شرطاً مسبقاً للتفاوض. وقال: «من غير الواقعي توقع أن تلغي الحكومة النظام بين عشية وضحاها. فالأمر يحتاج فصحة من الوقت لإفائه.

وأضاف: «لقد تحدثت مرتين مع للسود دي كليرك، وحالت كلماته وجدت فيها نبرة صدق، وأشار أنني لأتصل مع رجل مستقيم. لكن كافة أصعدة العزل العنصري لا تزال قائمة، وهذا هو السبب الذي يدفعنا إلي طلب تشديد العقوبات.

وأصبت بخيبة أمل لسرقتي أنه لا يزال متشبداً بالنظريات الاقتصادية الاشتراكية البالية. وعندما تحدثت عن أهمية السوق الحرة رد بأن هناك حاجة إلي تأميم الصناعة. وحاج بالقول: «من الأهمية بمكان إعادة توزيع الثروة لمنح فرصة لأبناء الشعب الذين عانوا الحرمان والأميرين من نظام العزل العنصري»^٥.

كانت نقطة الخلاف الوحيدة في هذا الاجتماع للودي للغاية هي عدم ارتباطه للاجتماع الذي ساعده مع دي كليرك بعد ظهر اليوم التالي. وقال: «لا يمكن للمرء أن يبني نهجه تجاه جنوب أفريقيا استناداً علي رجل واحد. عليكم ألا تصفقوا عليه شرعية أكبر من خلال زيارات

٥. خلال اجتماعه مع أرابيس بورش في كانون الأول ديسمبر ١٩٩١ عاد مائديلا إلي افتقار الصقعة. وقالت له بصراحة قديداً: إن التأميم العنصرى للصناعة في جنوب أفريقيا سيجريه نعمة قوية إلي انتمالات الاستقطاب الأجدية في جنوب أفريقيا. وقت له أيضاً إن رؤساء للشركات الأمريكية بشكل خاص سوف يتجهون للاستثمار في جنوب أفريقيا. ويرى أن أحلم أنه بمجرد حركته إلي بلاتيه كف مائديلا عن الحديث عن تأميم الصناعات في جنوب أفريقيا.

رغبة المستوي حتي نري مزيداً من التغيير في حزيه ونظامه. ولم ألقأ كثيراً لتقليه علي ما يبدو من أهمية الإفراج عله من السجن قبل خمسة أسابيع فقط. وأجبت بأن الولايات المتحدة ستبقى العقوبات التي تفرضها علي جنوب أفريقيا حتي يتم رفع حالة الطوارئ، ويفرج عن السجناء السياسيين. ومن وجهة نظر تكنيكية ألمحت لماندبلا بأن شجاعة دي كليرك تستحق محاربة دعمه رمزيه. وأشرت إلي أن اتخاذ خطوات إيجابية يرجح أن تشجع علي اتخاذ خطوات أخرى.

كان اجتماعاً جيداً في شكله وأجوائه أكثر من جوهره. كان ماندبلا خلاله متفهماً. لكنه لطيف، وأبوقت إلي الرئيس: إنه سياسي بالسابقة يعرف كيف يؤثر في مستمعيه. لكن من الواضح أنه عملي وحصيف في الوقت ذاته، وطالما احتفظ بنفوذه العلوي فهناك أمل في إحراز تقدم.

وفي الصباح التالي غادرت ويندهوك في رحلة استغرقت ساعتين إلي كيب تاون بجنوب أفريقيا التي نزلت بها أثناء شهر العمل وأنا متوجه إلي بوتسوانا. كنت قد نسبت جمالها الأخاذ كمدينة خضراء بها ميناء مذهل تعوطه جبال مهيبة.

ولأسباب رمزية عقدت أول اجتماع لي في جنوب أفريقيا مع للزعماء السود. كان أكثرهم في السبعينيات من العمر وسبق أن سجلوا لخمسة وعشرين عاماً وتمهدت قلائد: «سوف نواصل الضغط علي الحكومة. لكننا سوف نعرف بالتغيرات الإيجابية ونقدم حوافز لإبقاء تتركها في الاتجاه الصحيح» وفوجئت بدعوتهم لإجراء تغيير سلمي وقلتهم من العنف بين السود في المستوطنات.. كانت تجربة مثيرة أن نلتقي بتلك الشخصيات وكانت فساتهم ورددتهم مصدر إلهام لنا جميعاً.

وبعد الغداء مع بريك بوتا التقيت مع دي كليرك في تيوهيوتر مقر الإقامة الرسمي السابق لحكام ما تأسس كمستعمرة الكيب، وفلجأني بأنه رجل صادق وأمين وصديق حميم يحسن السيجار الوردية. وبدأت بالإشادة بشجاعته السياسية باتخاذ خطوات إيجابية في برنامج، وتعددت بأن «الولايات المتحدة سوف تساعدكم في الحفاظ علي مذبحة للتغيير

الذى بدأهم . وذكرته بأن العقوبات الواردة فى القانون الشامل لتنازلة العزل العنصرى قاطعة ولن ترفع حتى يتم إلغاء العزل العنصرى ، لكننا ندرس كيفية التحرك بحذر حسبما تقتضى الظروف .

وفى الوقت ذاته منخلت على دى كليرك لرفع حالة الطوارئ خاصة . لأنها تمثل رمزاً لممارسات تكعارض مع المبادئ الديمقراطية . وتعجب من السبب الذى يدعو لعدم الاعتداد بحكومته بقدر كاف بعد التغييرات التى أجرتها بالفعل . وقال : إن حالة الطوارئ ما هي إلا أداة صارمة الآن للحفاظ على القانون والنظام . ونددت بالقول : السيد الرئيس . إن الاعتقاد بشكل اللواقع ، والاعتقاد هو أن حالة الطوارئ تشكل انتهاكاً لمقوق الإنسان الأساسية . وألمحت إلى أن أفضل طريقة لاكتساب منزلة أدبية وسياسية رفيعة هي رفع حالة الطوارئ ودعوة الزعماء السود إلى ممارسة كل ما يسمح من سلطة يسمحون لها بالمساهمة فى وقف أعمال العنف واستعادة للنظام إلى المستوطنات . ويبدو أن دى كليرك أخذ بهذه الحجة .

وأصبحت على اقتناع بأن حكومة جنوب أفريقيا ملتزمة بعملية التغيير وتترقب للتحرك بسرعة وتصميم لمواصلتها حتى تحقق نتائجها ، وكما هم فى الأصل يبدو أن دى كليرك ينظر إلى مهمته باعتبارها مهمة لا ابتكار حل عملى لمرطان العزل العنصرى ، ومن الواضح أنه يمي أن مستقبل البيض فى جنوب أفريقيا مرهون بالتوصل إلى حل سياسى عن طريق التفاوض .

ولخدم دى كليرك اجتماعاً ببيان قوى عن الهدف . وقال : «إننا على متن سفينة لا يمكن ولا يتعين أن تستدير وجهتها إنه لا ردة عن الصاية التى بذلناها . سوف نسل بها إلى نهايتها المتوقعة ، وما لبث أن طف منى أن ألقاه على انفراد . إن تلك الاجتماعات «الهامشية المنفردة» هي دبلوماسية مستقرة أداة يمكن بها تقليب القضايا باللغة الحماسية على مختلف جوانبها بطريقة بالغة للمرية .

وقال فى نبرة تشع بكل الإقناع : «سأكون آخر رئيس أبيض لجنوب أفريقيا . وفيما بعد أفضيت بتوقعات دى كليرك إلى بول سوينج سفيرنا فى جنوب أفريقيا الذى طماننى بأن دى كليرك رجل يحترم كلمته .

وأقنعنى اجتماعى مع كل من مانديلا ودى كليرك بأن رياح التغيير تتجتاح بالفعل أخيراً للمعارضة المناوئة للعزل العنصرى وحكومة دى كليرك لدرجة قد يكون بقية العالم متأخر معها فى الاعتراف بإمكانيتها. وأحسست برغم للبيانات البلاغية ومنفوط الراديكاليين من اليسار واليمين أن تولرن القوي علي كلا الجانبين يقع فى يد المستبدلين الذين يعترفون بحور الواقع السياسى للممثل فى أن كل جانب فى حاجة إلي تقديم تنازلات حتي يستطيع الآخر أن يطمئن ناخبيه. فهذان طلبا تولرن يكمل كل منهما الآخر ويتعاملان مباشرة كل منهما مع الآخر وهذا فى اعتقادى فأل طيب لتحقيق تقدم فى المستقبل. وفى مساء أبرقت للرئيس: «بينما المنفوط السياسية قد تكون شاقة علي كل جانب فقد كشف كلاهما عن الجدية والالتزام اليوم. فإذا كان الذكاء والتصميم شرطين مسبقين للنجاح فربما تكون أمامنا فرصة بالفعل لتحقيق تقدم».

وعقب الاجتماع مع الزعماء السود فى جوهانسبرج توجهت إلي كينشاسا عاصمة زائير لعقد اجتماعات حول أنجولا مع للرئيس مويوتو سيسى سوكو ويوناس سافيمبي رعيم حركة يونيوا. وأبانت سافيمبي بما دار فى لقائى مع دوس سافيتوس فى ويندهوك وطابت منه أن يقبل إجراء مباحثات سلام رغم تقدمه العسكرى. وصحت إلي واشنطن بعد منتصف ليل ٢٥ آذار مارس وأوصيت الرئيس لاحقاً بأن نتجنب دفع دى كليرك نحو التغيير دفعا. وأملى هو تجنب أى شيء من شأنه إثارة المتطرفين علي كلا الجانبين. وأعتقد أن دى كليرك ومانديلا يمتلكان الموهلات السياسية لكل منهما شجاعتهم للشخصية والسياسية لتحقيق تقدم نهائى تسوية خلافتهما سلمياً.

رياح السلام

والباقي كما يقولون هو للتاريخ بمعنى الكلمة. ففي ٨ كانون الأول ديسمبر قرر دى كليرك رفع حالة الطوارئ باستثناء إقليم ناتال. وفى وقت لاحق من الشهر بدأ مانديلا جولة عالمية ثم لاجتمع مع الرئيس بوش فى واشنطن فى ٢٤ حزيران يونيو. وفى ٦ آب أغسطس

أعلن المؤتمر الوطني الأفريق رسمياً للتخلي عن سياسة الكفاح المسلح سند الحكومة . وفي ١٨ تشرين الأول أكتوبر رفعت حالة الطوارئ عن إقليم ناتال.

وفي ١١ تموز يوليو ١٩٩٤ أعلن الرئيس بوش إلقاء للعقوبات الأمريكية علي جنوب أفريقيا متعللاً بالتغيرات للمنظمة التي لا رجعة فيها، التي تجريها حكومة جنوب أفريقيا. فبريتوريا تسير الآن علي طريق لا رجعة فيه نحو إقامة ديمقراطية غير عنصرية متعددة الأحزاب، وهو ما نادت به الولايات المتحدة علي مدى عقود.

وأخيراً وفي العاشر من آيار مايو ١٩٩٤ أدي نيلسون مانديلا لليمين الدستورية رئيساً للبلد الذي أودعه السجن لأكثر من ثلاث عمره، وأصبح دي كليرك نائباً لرئيس جنوب أفريقيا. كانت لحظة لم أتوقع أن أشهدها في حياتي. لحظة بالغة الإثارة كنتك، التي شهدت إنهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية. وبعد نصف قرن من التعتصب الأعمى والقمع هاهي التغيرات الكامنة تحتاج جنوب أفريقيا أخيراً. وساهمت الدبلوماسية الأمريكية للحسوية والمطردة في مساعدة وتشجيع تلك التطورات المهمة بطبيعتها السلمية .

الفصل الرابع عشر

رييح القلاقل

الوحدة الألمانية. استيغال ليتونيا. اضطرابات الاتحاد

السوفييتي.

هذه قضية القضاة.

إنولرد شيطرنافز

١٠ شباط فبراير ١٩٩٠

سنفوز بتلك المباراة لكن علينا أن نحظى بالمهارة أثناء اللعب.

الرائيس بوش

المستشار كول ٢٥ شباط فبراير ١٩٩٠

بعد عشرة أيام من صدور إعلان أوتوا للخاص بصيغة «إثنان + أربعة» في ١٤ شباط فبراير، وقبل أسابيع فقط من جولتي الإفريقية وصل هيلموت كول إلي واشنطن لإجراء مباحثات في عطلة نهاية الأسبوع مع الرئيس بوش وأثناء الاستجمام في كامب ديفيد لم يكن هناك سوى موضوع حقيقي واحد وقضية جوهرية واحدة: هي الوحدة الألمانية - وما تنطيه حلف الأطلسي.

وأكد المستشار كول لنا: «إن ألمانيا لا تريد أن تكون محايدة بأية حال، فسوف يكون مثل هذا القرار قراراً قاتلاً. وليس هناك اهتمام جدي في الحواد وستكون ألمانيا الموحدة عصباً في حلف الأطلسي».

ومع هذا كان الرئيس لا يزال مشغولاً بموسكو: «إنهم يقولون إن ألمانيا يجب ألا تنضم إلي حلف الأطلسي، فالونهبوا بكلامهم إلي المحيم. إننا أصحاب اليد الطولي وليسوا هم. لا يمكننا أن ندع السوفييت يفتزعون النصر من بين فكي للهزيمة».

وبصدور إعلان «إثنان + أربعة» فقد اعترفت موسكو ضمناً أن الوحدة الألمانية واقع وشيك. لكن ملاحظات ذلك الحدث لا تزال قائمة ولا يزال الكرملين يمول عليها. وقبل خمسة أيام فقط سرح جورباتشوف لصحيفة برافدا «بأن توحيد ألمانيا لا يشغل الألمان فحسب... فهناك قضايا جوهرية للعالم الحق في أن يحرقها، ويجب ألا تكون فيها مساحة للنموس».

وهيما يتطرق بحلف الأطلسي وحلف وارسو يجب «إنهاء الوحدة بإبلاء الاعتبار الواجب لمسألة أنه من غير المسموح انتهاك التوازن العسكري الاستراتيجي لهاتين المنظمتين للدوليتين، ويجب أن تكون هناك شفافية كاملة في هذه المسألة». فالنقط للسوفييت المتشدد لا يزال قائماً: أي لا يجب انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلسي.

ومع هذا كان كول واقعاً وقال: «إن السوفييت يتفاوضون لكن هذا قد يتحول إلي مسألة أموال. إنهم يريدون المال... إن بقاء ألمانيا بعد الوحدة في حلف الأطلسي سيثير قلقاً أمنياً للسوفييت وهم يريدون شيئاً في المقابل». وفوه للرئيس: «علوكم أن توسعوا جيوبكم،

وتوقع المستشار كول أن تغير موسكو رأيها وتوافق مع انعقاد القمة السوفيتية الأمريكية المقرر عقدها في نهاية أيار مايو، وألمح قائلاً: «يغمرني إحساس بأن هذا سيكون موقف جورباتشوف... إنه يريد إبرام صفقة مع القوة العظمى الأخرى. فالقضية الأساسية هي عضوية ألمانيا في حلف شمال الأطلسي. وفي النهاية سوف يقدم جورباتشوف هذا التنازل لرئيس الولايات المتحدة».

وتساءل للرئيس بوش: «ماذا يريد لإبرام للصفقة؟»

وقطعت بالإجابة: «إنه يريد أمرين. فجورباتشوف يريد أولاً أن يعرف أن ألمانيا تدعمه بقوة بالعضوية الكاملة في حلف شمال الأطلسي، وهو يريد ثانياً وضع المصالح الأمنية السوفيتية للمشروعة في الاعتبار».

وكانت للترجمات كول القاطعة تعانر من الشرط الأول لكن مسألة الضمانات الأمنية قضية مختلفة. وكنت علي يقين بأن ضمان وجود ألمانيا الموحدة في حلف الأطلسي سوف يقتضي منا توظيف كل السهات خلال الأشهر القادمة، وأن الكثير من الوقت في تلك الفترة سوف يستنفد في مهمتين في أماكن مثل ويلدهوك وتيرنبيوز في اسكتلندا وكليهما علي درجة كبيرة من الأهمية النفسية. فالأولي موجهة إلي الكرملين ولثانية إلي البنية الدولية. وتكمل الأولي في القيام بإفخاخ جورباتشوف وشيفرنادزه بأن ألمانيا الموحدة ويقامها في حلف شمال الأطلسي أن تشكل أي خطر علي الأمن السوفيتي بل قد تحززه. وسوف يقتضي هذا تسكين آلاف من جيل سوفيتي. لقد شاهدت النصب التذكارية للحرب، وأعرف أن القضية تضرب بجنورها في عمق وجدان الشعب. فضلاً عن ذلك فقد زادت تعقيداً نتيجة تزايد حدة الاستقطاب في السياسة الداخلية في الاتحاد السوفيتي. فالرجميون يشنون هجوماً مضاداً، والجيش يسعى لتأكيد نفسه، وللازاع في ليتوانيا ونذر بالتحول لأعمال عنف. وكانت قضية ليتوانيا أكثر من كونها قضية دبلوماسية بلقضية لجورباتشوف، فسمي ليتوانيا للاستقلال يلقي صدي طليباً لذي للشعب الأمريكي والكونجرس، ولأي محاولة من جانب موسكو لقمع هيلوس ستقتل مجال مبادرتنا في مجمل جدول الأعمال السوفيتي.

لما المهمة الثانية وهي إعادة تشكيل اللجنة للتولية بإصلاح حلف الأطلسي ودعم مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا فقد نبعت من المهمة الأولى. وكنت أعرف أن جورباتشوف وشيبرادزي في حاجة إلي حجج يستطيعان بها للتصديق لامتقديهما في الداخل، وتوفر لهما غطاءً سياسياً يحتاجانه للإقدام علي اتخاذ خيارات صعبة. وكان هذا يعني أنه يتعين علينا العمل مع شركائنا الغربيين لإصلاح حلف شمال الأطلسي ومؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ليظهرا في صورة أقل تهديداً أمام الشعب السوفيتي. إلي جانب هذا فهناك قضية أشمل هي أن ألمانيا الموحدة سوف تبذل الهيكل الأساسي للجغرافيا السياسية والسياسي الاقتصادي لأوروبا، ويبنى هذا أن حلف شمال الأطلسي يجب أن يصبح مؤسسة لتتسم بطابع سياسي أكبر ويتعين تدعيم مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا وسيتعين إجراء تقسيم قاطع ومؤثر وراسخ للمسؤوليات بين المؤسستين والمجموعة الأوروبية. فوالها من مهمة هائلة.

فبراير في كامب ديفيد: تبييت الموقف الألماني - الأمريكي

في كامب ديفيد كان كولد في حالة مزاجية رائعة. وقال: «لو سارت الأمور علي مايرام فسوف نشهد تغييرات هائلة في أوروبا حتي لو سقط جورباتشوف فسوف يسيطر حظه إلي إنتهاج نفس السياسات. إن هذا تطور جبري في الاتحاد السوفيتي. لقد قلت لجورباتشوف إنه لا يسمعكم العودة إلي نظام ستالين. وأبلغته بأنه إن تحدثت مذبة علي غرار تيانانمين في أوروبا لا في دريسدن، ولا بونابست، أو وارسو، فسوف تتمحصر مثل تلك التطورات علي الفهم. فقد كان هنر يقتل من يستمعون إلي محطات الإذاعات الأجنبية. لكن برامج التلفزيون الألماني تصل الآن إلي كييف. فقد تغير للملم خيراً هائلاً وكانت وسائل الإعلام أحد أسباب هذا للتغير. وقلت لراكوفسكي رئيس وزراء بولندا السابق «إنه سوتهمي هو والشيرعيون عندما يزور البابا بولندا. إن هذه التغييرات هي الواقع لذى نعيشه».

والواقع أكثر وضوحاً في جمهورية ألمانيا الاتحادية الديمقراطية، وقال المستشار: «لقد انهارت الشيوعية في ألمانيا الديمقراطية كبيت من ورق. فقد كانت تبدو كعملاق لكنه

علاق أجوف». والآن وفي أضخم صفقة في التاريخ هاهي ألمانيا الغربية مقدمة علي شراء ذلك للملاق الأجوف، وركبنا مع كول علي أهم قضيتين تتسمان بصفة الاستمرار وهي الحدود مع بولندا، وقبل ثلاثة أيام من اجتماع كول بحث تاديوش مازوفيكسي رئيس وزراء بولندا رسالة إلي الرئيس دفع فيها «بأن توحيد الأمة الألمانية في دولة واحدة يفتح صفحة حقبة جديدة في تاريخ أوروبا. ولايسعنا دخول تلك الحقبة بينما أمن كافة دول القارة لاسيما جيران ألمانيا غير مستعون».

ومن المحتمل أن يحاول الكرملين تنصيب نفسه بطلاً للبولنديين، ويستغل هذا في إعطاء سرعة الوحدة. وقد تنقسم لندن وباريس إلي البولنديين لتكون النتيجة وضع الألمان في حالة حصار - الأمر الذي سيحدث أي تسوية لتلك المشكلة*.

واستعرض كول المشاكل للداخلية التي تواجهه. وقال: إن قطعية الصلبي من الألمان تدرك أن الترسيم الحالي - خط لودر نومه - سيظل هو خط الحدود الفاصل. لكن البولنديين توغلو غريباً وطريد الألمان - وكان هذا رد فعل علي جرائم النازي. لكن الألمان الذين أصبحوا هم الأبرياء الذين يترواح عندهم ما بين اثني عشر إلي أربعة عشر مليون نسمة. أي أن ثلث سكان براغ عام ١٩٣٧ قد عزلوا. وفي عام ١٩٤٥ قتل مليوناً مدني ألماني أثناء فرارهم من أوروبا الشرقية. وعلينا أن نعالج هذه المسألة النفسية في بلدي. وقال بوش: لحل أفضل طريقة لمعالجة تلك القضية هي الاعتماد علي ميثاق هلسنكي الذي يعترف بتقسيم الحدود والاعتراف علناً بأننا نعترف بالحدود للبولندية الألمانية الحالية. وسوف يصنعنا هذا في الجانب الصحيح للقضية، ويمتدح بون فسحة من الوقت لترتيب الأمور مع وارسو.

وهرل عسوية حلف شمال الأطلسي أكد المستشار كول للتزلمه العام بالتحالف كما أثار أيضاً قضايا محددة بينها. قال: إلي أي مدى ستتأشب ألمانيا الديمقراطية كجزء من ألمانيا الموحدة مع حلف شمال الأطلسي؟ ما هي الآثار التي ستركها توسيع الحلف علي هيكله

* تقريبا أقيام بعد بضعة أسابيع قلناك بأن كبار مسؤولي المستشارية يعتقدون أن الفرنسيين وشجعون مازوفيكسي لزيادة مطالبه الحمة حول القضية، وأن كول اتصل بيجران لمشكره بعد أن أرسل الرئيس الفرنسي رسالة إلي الدول للتبع والخشرين أعضاء منبر الأمن والسلام في أوروبا التي لا تتشارك في سيادتها اثنين + أربعة لمطقتها بأنه سيكون لها صوت في العملية.

المسكوى في المستقبل ومتطلباته؟ وسيتضمن ذلك بالطبع إجراء مشاورات مع الأعضاء الآخرين في التحالف. وأشار الرئيس: نلتأكد أننا لن نترك حلفاءنا خارج القمبة كما لو كنا نقسم أوروبا، وإضافة لهذا قال المستشار: إنه لا يمكن تركيز وحدتنا من حلف شمال الأطلسي بما في ذلك القوات المسلحة الألمانية القريبة علي أراضي ألمانيا الديمقراطية، وإن يكون مفيداً أن تتواجد مجموعة من القوات السوفيتية في ألمانيا الشرقية لأجل غير مسمى. لأن هذا يشكل انتهاكاً للسيادة الألمانية. ولقد الرئيس قائلاً: لكنني أن نري فرنسا أخري في حلف الأطلسي. إننا في حاجة لمشاركة كاملة من ألماننا*.

وانفقنا علي أنه عند الإشارة إلي أراضي ألمانيا الديمقراطية يجب أن نستخدم اصطلاح «قوات» لا «ولاية». وعقب اجتماعي مع هانز ديترش جينشر في واشنطن في وقت سابق من الشهر بدأت في القول إن: «ولاية حلف الأطلسي» أو «ولاية القوات» لن تسمى علي ألمانيا الديمقراطية، وبدأت في استخدام العبارة أو مرادفها مع جورباتشوف وشيفرنانزة. لأنها غامضة في جانب وأيسر قبولاً لديهما. ومع هذا وحين جاء دور بلغاريا تأكدنا أنها تثير نصارياً محتلاً. فإن ذكر أن «ولاية حلف الأطلسي» لا تسمى علي أراضي ألمانيا قد يعادل قول إن المادتين السادسة والخامسة من معاهدة حلف شمال الأطلسي لن تطبقا - مما يعنى عملياً إبقاء ألمانيا الديمقراطية خارج التسميات الأمنية لحلف شمال الأطلسي. ولذا فقد بدأت في استخدام لفظ «قوات» وانفقنا علي تلك الصيغة مع كول، ويهدف للتأكيد وضمان مراقبة جينشر أرسلت له خطاب متابعة في ٢٨ شباط فبراير منوهاً إلي هذا التحديد.



والعاصل أن كول كان شديد الثقة وقال: «إن الجميع مرتبك ماعدائي مشيراً إلي أن جينشر يولجه مشكلات مع حزبه. ورغم هذا كان المستشار قلقاً من الآراء في بقية أوروبا.

* ينكر أن فرنسا ليست حصة في القيادة العسكرية الموحدة لحلف شمال الأطلسي.

وقال: «إن ميتران صامد بقوة. فمعظم أفراد الشعب الفرنسي معاً لكن الصفوة السياسية ضدنا. علينا أن نعالج هذه المشكلة. والنرويج وكوينهاغن حالتان صعبتان. وهولندا والمملكة المتحدة مشكلتان أيضاً».

وقال: «مارجريت تاتشر: لا أستطيع أن أفعل لها شيئاً. فلا يمكن أن أفهمها فالسيدّة تاتشر تتحدث معي بطريقة لا يمكن أن أقبّلها من أحد آخر. وطمأنته الرئيس: «بأننا لا ننظر إلى الأمور بهذا الشكل. إننا لا نخشى أشباح الماسنى، ومارجريت تخشاهن. لكن عليك علينا أن ندرك ونمتدح بدورنا الفريد في التاريخ». وقال المستشار كول: «في ألمانيا الاتحادية هناك غضب بين الألمان. لأننا كنا شركاء نقاء لأكثر من أربعين عاماً، لماذا لا يفيد هذا؟ إن المنطق لا يفيد».

مسيرة في ويندهوك: إثارة القضية مع شيفونادزة

كانت دولكر المخابرات تعتقد أن موسكو متذعن في النهاية لضغوط ألمانيا الموجودة في حلف شمال الأطلسي بقبول محبة، وكتب بوب بلاكويل ضابط المخابرات المسؤول عن الاتحاد السوفيتي في الأول من آذار مارس يقول: «إن القضية الألمانية قضية عميقة للجنود بين أفراد الشعب السوفيتي وأن لانتقاد سياسة جورباتشوف بدأ يظهر من مسؤولين مثل ليجانشف عضو المكتب السياسي ومسؤولين عسكريين آخرين».

«إن مثل هذا التهديد لا يشكل أي تهديد لجورباتشوف الآن. لكن لو بدأ الأمر على أن القوات السوفيتية تُجبر على الانسحاب من ألمانيا الديمقراطية، وألّه «خسر» ألمانيا، وأن البنية الأمنية باتت الآن أكثر تهديداً للاتحاد السوفيتي فإن انهياراً داخلياً - عندما يقتدر بشكاري أخري - يمكن أن يشكل تهديداً خطيراً لموقفه». «وجب على جورباتشوف التصب للطلاب».

(ورد التأكيد في النص الأصلي).

وهي موسكو وفي شباط فبراير أعرب جورباتشوف وشيفرنادزه عن قلقهما وحيرتهما تجاه عضوية ألمانيا الموحدة في حلف شمال الأطلسي. وقال جورباتشوف: «يقيناً فإن أي توسيع لنطاق حلف الأطلسي مرفوض». مشيراً إلى أنه سيحدد ندوة «البحث والخبرات». لكنه استدرك قائلاً: «أعتقد أن وجود القوات الأمريكية يمكن أن يكون بناءً وإيجابياً للغاية في الموقف الناشئ... إننا لا نريد في الواقع تكراراً لغرسان حيث يستطيع الألمان تسليح أنفسهم. فندروس الماضي تعلمنا أنه يجب أن تبقى ألمانيا ضمن هيكل أوروبا». كما شيفرنادزه واضحاً. وقال: «إننا نعتقد أيضاً أن للوحدة الألمانية ستدور تساولاً حول ما إذا كان حلف شمال الأطلسي سيبقي كما هو». وكان لكتيهما علي ما يبدو تصور لأوروبا يتم بموجبه تعزيز مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا وأن يحل حلفا شمال الأطلسي وولرسو نفسيهما أو دمجهما معاً.

وبحلول آذار مارس يبدو أن تطورات الأحداث قد فاقمت قلقهما. ففي رسالة لوزراء خارجية اللتين أرسلتهما في ٢ آذار مارس أشار شيفرنادزه إلى أنه قد تنشأ في ألمانيا الديمقراطية ظروف غير معروفة تقتضي صدور رد فعل، ومن المهم للغاية ومن وجهة نظري ألا ينلرد أي طرف منا ثمن السعة بالتصرف*.

ومضي إلى تحديد إطار عام لإجراءات الإخطار وإلا فقد نجد أنفسنا في وضع بالغ الصعوبة لأن الالتباس غير المرغوب قد يصبح محتملاً حينئذ.

وبعدة أيام تالمة سألت الصحافة جورباتشوف صراحة ما هو موقف الاتحاد السوفيتي تجاه أي مشاركة من جانب ألمانيا الموحدة في حلف الأطلسي؟

ورد بوضوح تام: «لا يمكننا أن نوافق علي ذلك». فهذا مستبعد تماماً. وفي آذار مارس عزز شيفرنادزه موقف رئيسه قائلاً في حديث صحفي إن انضمام ألمانيا الموحدة إلى حلف الأطلسي لن يتفق مع رؤية موسكو لمصالحها الخاصة والهيكل الأمني للبحر الأوربي

* عندما كان السفير ماتروك في موسكو من الجانب الأول لوزير الخارجية ألقوا كرفاليف عما تلى تعليقاته غير المقترنة. أثار كرفاليف إلى أن اللاتيات غير المقترنة لا يمكن وصلها أو توحيها بطبيعتها. ومع ذلك قل «إن التوسع في ألمانيا الديمقراطية مقسم». وأن للتطورات المتوقعة للأحداث فيها قد تضر بمصالحنا جميعاً.

المشركه . وأكد أيضاً أنه يحتمل علاج كل القضايا الأمنية المتعلقة بالتسوية الألمانية في إطار مباحثات اثنين + أربعة وفي الأصحاح التالي أوفدت بوب زوليك وريي سايكس وكروندى رايس للمساعد الخاص للرئيس للشؤون السوفيتية إلى بون للمشاركة في أول اجتماع لاثنتين + أربعة علي مستوي المديرين . وفي الجانب الأعظم انتحاز الفرنسيون والبريطانيون إلى جانب الأمن الغربيين وإلى جانبنا، ويظهر تعاون نمسي بين السوفيت والألمان الشرقيين . واتفق الستة علي جدول أعمال من أربعة بنود هي: الحدود والمسائل العسكرية السياسية، وبرلين وحقوق ومسؤوليات القوى الأربع الكبرى . وكانت موسكو تريد إضافة موضوعات اقترحتها ألمانيا الديمقراطية وهي «التزامن» وهو الاسم للكوندى للتغيرات في هيكل الأمن الأوروبية وقضايا الملكية في ألمانيا الشرقية والتزامات المعاهدة والتسوية السلمية . وقاوم فريقنا بشكل صحيح إدراج النقاط الأربع . ولجئاً لا فقد كان الاجتماع الأول اجتماعاً ناجحاً وقطع خطوة لتبديد أي قلق من أن مباحثات اثنين + أربعة قد يستغلها السوفيت كوسيلة لحرقة الوحدة . ومع ذلك كشف الاجتماع أن هناك الكثير الذي يتعين إنجازه إذا كان لنا أن نحمل موسكو علي الموافقة علي صم لألمانيا الموحدة إلى حلف الأطلسي - وهي مهمة . فمت بها بنفسى في ١٩ آذار مارس عندما التقيت شيفرنادزة علي هامش احتفالات استقلال ناميبيا في ويندهوك . (وبمينا كانت الاحتفالات نفسها رائعة إلا أن الإعاضة كانت كئوساً: فقد اضطر فريقنا إلى النزول كل اثنين أو أربعة في غرفة واحدة كما أقام فريقنا للصحفى في عربة للسكة الحديد) .

وبدأنا بسنارت وهو موضوع اعتقدت أنه سيكون أقل إثارة للجدل من لألمانيا . وقال شيفرنادزة إنه يعتقد أن بوسعا تسوية كافة القضايا الرئيسية طويلة مؤتمر القمة السوفيتى الأمريكى القادم . وماليت أن تطرق إلى القضايا التي أعتقد أنه يمكن تسويتها بسرعة وهي صواريخ كروز التي تطلق من الجو وصواريخ كروز التي تطلق من البحر ومدة سريان المعاهدة والتبند الصريح . ومن كل ذلك كان يعتقد أن لديه مشكلة حول صواريخ كروز التي تطلق من الجو حيث قال إن السوفيت أن يتراجعوا عن موقفهم . وقلت له: لو كان للحال كذلك فسوف يتعين علي رئيسينا حل المشكلة لأنه ليس لدى أى مساحة للتحرك . وقال مناصباً: «سوف نعتف لو فعلنا ذلك . فليس من المتعين أن يهدر الرئيسان وقتهما الثمين في مناقشة مثل تلك التفاصيل» إنتى أعتقد أنه ما كان يتعين أن نهدر وقتاً في بحث قضايا كان يمكن أن

يحلها مفاوضاتنا في جنيف، لكن الشك ساورني بأن القضية لن تحل إلا بإعفاء المارشال
أخرومبيف الذي يلعب دوراً متزايداً غير بناء في مفاوضات الحد من التسلح.

وما لبثت أن أثرت مبادرة ستارت جديدة، وخلال الثمانينيات ساور القلق البالغ
المحليين بسبب تطوير الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبات للرجعة المتعددة
مستقلة التوجيه الأكثر دقة (MIRVs) ويعتقد أنها أسطر الأسلحة على الإطلاق تهددنا
للاستقرار لأن برمع صاروخ واحد مزود بمركبات للرجعة المتعددة مستقلة للتوجيه تدمر
عدة أهداف مما يجعله أكثر الأسلحة فعالية في توجيه الضربة الأولى. واقترحت علي
شيفرنادزه حلاً علي مرحلتين: تقضي المرحلة الأولى أن يقرر فرض حظر شامل علي
الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبات للرجعة المتعددة مستقلة للتوجيه
والمدعكة. (وهذا يقتضي من السوفييت إزالة الصواريخ المحمولة علي عربات سكة حديد من
طراز اس اس ٢٤ وسوف يقتضي منا وقف جهودنا لنشر صواريخ محملة علي مركبات سكة
حديد من طراز إم إس أو للحفاظ علي مباحثات السلام التي نتعذر في الكونغرس) وفي
المرحلة الثانية وهي خطة أكثر طموحاً وتمتدق وفقاً أطول سوف نلتقي علي إزالة الصواريخ
الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبات للرجعة المتعددة مستقلة التوجيه المنصوبة في
صوامع. وساورنا القلق من أن جورباتشوف سوف يرضي بالانقراض لأنه ولقع تحت ضغط
المتشددين. وقالت لشيفرنادزه: «يمكن أن ينظر إلي هذا علي أنه خطوة كهري نهاء تعزيز
الاستقرار الاستراتيجي ويمكن أن نطمح المستقدين الذين يدعون أن مفاوضات ستارت الحالية
تسير الآن بشكل محاد ولا تمكن التغييرات التي تحدث في العالم».

وأبلغني شيفرنادزه بأنه سيحاول تقديم رد في غضون بضعة أسابيع. وأكد أنه «يُحِبُّ»
طرحنا لأفكار جديدة ولا سيما بشكل خاص وكثوم. (في ضوء موقف جورباتشوف السياسي
فإن أي مبادرة عظيمة رفعة المستوي لن تصالح إلا في خلق هفأ أمام المحافظين) وأضاف
قائلاً: «إننا نعمل في عدة أفكار جديدة حول الاستقرار الاستراتيجي لكن لم يتناول شيء حتي
الآن. ومع هذا فإن للجيش ومجلس السوفييت الأعلى، ينفقان في كل ما نصله وهما يتزعمان
زعمة عاطفية لكنه استدرك قائلاً: «إن أولي أهدافنا هي إكمال اتفاق ستارت». وعندما

ينتهي السوفييت برفض اقتراحنا فهذا أمر لم يفاجئني وسوف يتحيز أن تنتشر إزالة الصواريخ
المرودة بمركبات الترجمة للمستعدة مستقلة للتوجيه لمرحلة أخرى.

وتعددت خلفية مباحثتنا حول ألمانيا قبل يومين بنتيجة الانتخابات في ألمانيا الشرقية.
فقد صوت شعب ألمانيا الشرقية فيما سيصبح أول وآخر انتخابات في تاريخ ألمانيا الديمقراطية
في صندوق الاقتراع بنفس الطريقة التي صوت بها علي الأرض: أي لصالح الوحدة السريعة
والصالح الغرب، وحصلت الأحزاب المرتبطة بنظرتها في ألمانيا الاتحادية (كانت جميعها
تدعو للوحدة) علي أكثر من خمسة وسبعين في المائة من الأصوات، ولم يعد هناك أدلي شك
في أن كافة الألمان يريدون الوحدة وسرياً.

واختار شيفرناخز ربما متأثراً بنتيجة الانتخابات عدم الخوض في التفاصيل. لكنه ركز
بدلاً من ذلك علي بعض عناصر القلق العام. وبدأ بالقول: «تعرفون مدي براعة الألمان. إنهم
قوة إبداع كاملة هائلة، ولكن وكما شهدنا في الماضي كانوا قوة تدميرية مروعة، وكان يري
أن عملية الوحدة تندفع بسرعة بالغة وتتجاوز الحد من التسليح وجهود بناء هيكل أوروبي
جديد. واعترف بأن الوحدة بانت حقيقة واقعة، ولهذا فإن ما نلحقه يجب أن يكون له تأثير ما
علي سرعتها فمن المهم ألا تتسارع خطاها. وفيما تبقى من وقت أعتقد أنه يجب أن نسعي
لشيء من الضمانات الأمنية.

وفيما أوضح أن صيغة إثنان + أربعة ساهمت في ثنية بعض الاحتمالات السوفيتية،
أشار إلي أن هناك مشكلة أخرى: فالشعب السوفيتي لا يمكن أن يقبل انضمام ألمانيا الموحدة
إلي حلف شمال الأطلسي. وقال: «حقيقة ليس هذا هو تماماً ما أفكر فيه أو أعتقد أو أفكر فيه
أو أعتقد جورباتشوف...»

إننا لا نعتقد أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سيخوضان حرباً ضد بعضهما ما لم
تحدث تطورات غير استثنائية. لكن صورة العدو لا تزال مرتسمة في أذهان شعبنا. لقد
ارتسمت تلك الصورة عبر عقود. وببما أعرب عن اعتقاده بأن الزمن يتغير فإن الأثر
الواضح أنه لم يتغير بالسرعة الكافية.

وفيما قال في الوقت نفسه إنه لا يمكن قبول ألمانيا الموحدة في عضوية حلف شمال الأطلسي قال أيضا: «لنني أعترف بأن ألمانيا محايدة تعد مشكلة لا يمكن أن يقبل للمرء بها، وكان يمي أن موقف موسكو غير منطقي واعترف قائلا: «إنك لا تعرف حلاً للمشكلة وعليك وعلى أن تبحثها مرة ثلث المرة وعلى رئيسنا أن يبحثها أيضا».

وعندما تطرق في تبليان منطق انضمام ألمانيا الموحدة إلى حلف الأطلسي ومن ثم ضمان عدم تحمل ألمانيا مسؤولية أيها الخاص واستمرار توليد عسكري أمريكي في ألمانيا. قدم إجابة مهمة ومثيرة: «عليك أن تضع في الاعتبار ماذا سيحدث غداً، هب أننا تركنا ألمانيا الشرقية وسيكون من الأفضل أن نظلوا في ألمانيا وإن يمثل هذا لنا أي مشكلة. فلن نعتزس على وجودكم. لكن ما هو الموقف لو تعين عليكم الانسحاب أيضاً؟

وتدخلت قائلاً: «لا يمكننا التواجد إلا في إطار حلف الأطلسي». لكن تركيزه كان منصّباً على ألمانيا في المستقبل: «ما هو الحال لو قالوا لك إننا لا نريد الانضمام إلى حلف الأطلسي، وقد قلت لهانز ديترش جينشر إنه لو كان هو أو كول أو برانت مستشاراً لألمانيا الموحدة فإن يكون لدينا أي مشكلة لكن أنظر إلى الشباب المتصمك على الزوايا الجمهوريون... ربما أكون مضطراً فالسبائريوهات الأخري ولادة، ولكننا خرجنا بدورس عظمي من التاريخ وأثبتنا أننا عندما نتركها معاً أنقذنا العالم».

وبعد ستارت وألمانيا كانت التوترات في البلقان هي لبند الدالي على جدول الأعمال. ففي فيليبوس أعلن البرلمان الاستقلال في الأسبوع الماضي. وكنت ألتقي في ويندهوك بتقارير بأن السوفييت يحلقون بطائراتهم الحربية فوق العاصمة الليتوانية. وأصبحت أكثر قلقاً من أن جورباتشوف قد يستخدم القوة العسكرية في ليتوانيا. ومنذ بداية اجتماعاتنا أكدت لشيفرناندزة أن البلقان قضية مختلفة تمام الاختلاف في نظر الأمريكيين. وبجانب وضعها القانوني فإن دول البلقان تحظى بدعم قوى من الكونجرس وتبدو في نظر الأمريكيين على أنهم للفتية الصغار الذين استولي عليهم بلطجي يبدو أنه مقم الآن على مفك الدماء.

ولمأبني شيفرنادزة قائلاً: «إن نستخدم القوة، وأضاف قائلاً: «لكن الوضع قد يكون مختلفاً بالطبع لو تعرضت مواقفنا للهجوم، لكن ليست هذه هي طبيعة سير الأمور في ليتوانيا فربما يحدث هذا في القوقاز - لافى ليتوانيا». وقال: «إن الرد الوحيد هو حوarlo جاد وجوهري، وكان يري أن ليتوانيا اسببت بحمي الاستقلال، وقال في تأثر: إن «الكريملين حل الوضع في حذر بالغ». وقال: «إننا نوصلنا إلى نتيجة أنه لو انسحبت ليتوانيا من الاتحاد السوفيتي الآن فربما تنهار للجمهوريّة. فقد ترسخت العلاقات الاقتصادية علي مدار عقود. فلن يستطيعوا تشغيل مصانعهم ومجمعاتهم الصناعية وخطوط السكة الحديد. فهل لهم الحق في اتخاذ هذا القرار غير المسؤول؟».

وهو يعتقد الآن أن الكثير من الليتوانيين يذكرون أنه سمعوا عواقب. وأعرب عن اعتقاده بأنه سيكون أمامهم الآن نوع من الحوار الهادئ المتحضر تدور الحاجة إليه لتعزيز العلاقة في المستقبل وأشار مباشرة إلى تحركات القوات السوفيتية بالتوجه إلى أن الكريملين اتخذ تدابير احترازية لحماية المحطة النووية والمصانع العربية في ليتوانيا. وقال: أخيراً إن موسكو لاحظت اتزان لهجة بينائنا العامة وأنها تقدر لنا ضبط النفس.

وأبانت أنه بدأ محاولاً ألا نفاقم الموقف، لكننا نخشي بشدة من استخدام القوة أو التهديد بالجور إليها. وكنت سعيداً بأن أسمع منه التزاماً بعدم اللجوء إلى القوة. وقلت: «إننا سترافق الموقف عن كثب. وألمحت بشكل أكثر عمومية إلى أن هناك حاجة لإقرار مشروع قانون الانفصال بسرعة، وأن موسكو في حاجة إلى إقرار آلية موثوق بها لتطبيقها (ربما تكون إجراء استفتاء في كل جمهورية)». وقلت: «هذه في الحقيقة الطريقة الوحيدة التي أري أنها تكفل حل الكثير من المشكلات للقومية التي تواجهكم، وربما تختار بعض الجمهوريات الانفصال لكن الأم روسيا كما تقولون قوية، وهي تاريخياً هناك وستستمر».

وقال شيفرنادزة إنه يتفق معى. وأشار إلى أنهم يحاولون وضع اللامسات النهائية علي قانون الانفصال، وقال: «إن عليهم إنجازهم رغم ما ينطوي عليه من ألم. وخلص إلى أنه انتهى إلى قبول فكرة الاستفتاء أيضاً. لكن من غير الممكن المضي في تطبيقها بالسرعة التي اقترحها».

وأكدت مجدداً: لكن الوقت عامل جوهري. فما لم يكن بوسعكم أن تطرحوا مخرجاً أو آلية تبحث الجماهير عنها فسوف يخرج الأمر برمته عن نطاق السيطرة.

وقد حدث بعد أربعة أيام فقد استولت قوات المظلات السوفيتية على مقر الحزب الشيوعي في هيلنوس. وبدأ علي ذلك كنهت شيفرنادزة موضعاً أن قدرتنا على استمرار نبني موقف متوازن وأخذت تتلاشي الآن بسرعة. وأصفت تقول: «علوكم أن تدرؤوا وكما قال الرئيس بوش أن استخدام القوة أو الإكراه سيكون له مردود عكسي. إنه بقراركم طرد اثنين من الدبلوماسيين الأمريكيين ووسائل الإعلام المأهولة فإنكم تعطروننا إلى اتخاذ موقف على صادم. إن الخيارات المتاحة أمامنا بسيطة فاستمرروا تصرفات من هذا القبيل سيكون له بالقطع أثر عكسي على علاقتنا. وبعد بضعة أيام أرسل الرئيس رسالة معادلة إلى جورباتشوف لكن أياً منها لم يكن له أثر على تصرفات الكرملين، وللمرة الأولى منذ تولي إدارة بوش السلطة أشعر أن العلاقات السوفيتية تسير نحو منحدر سيئ.

نيسان إبريل في واشنطن: خطوات إلى الخلف

تصاعد خوفاً لدي وصول شيفرنادزة إلى قاعدة أندروز الجوية في ٣ نيسان إبريل لإنهاء الاستعدادات لعقد القمة السوفيتية الأمريكية. ولدي وصوله شبه شيفرنادزة الوضع في ليتوانيا بالبرلزال وصرح للصحافة «بأن الزلازل لا تحدث في الطبيعة فقط، وبدا شيفرنادزة في غاية الحيرة. والأسوأ أنه اللزم بالطابع الرسمي وقدم الجميع الأيديولوجية. بل وانحاز إلي المتشددين أمثال الماريشال أكروميف. وفي الواقع فقد تولدت لدي عنه صورة بأنه دبلوماسي يصوب بتفوق دبلوماسية إلى رأسه. فأى خطوة إلي الأمام يمكن أن نقود إلي الانتحار.

وقلت له في أول جلسة من مباحثاتنا استغرقت ثلاث ساعات ونصف الساعة كان موضوعها الوحيد هو ليتوانيا: «أجد لزماً على أن أبلغك أنني أشعر بالقلق. إنني أشعر بقلق

حقيقي وعميق - إننا لا نريد أن يتدهور الموقف . لأنه سيكون له أثر مباشر علي علاقاتنا لقد حققنا إنجازات هائلة خلال الأزمة صغر شهراً القامضية . ولا أريد أن يتقوض هذا .

ولأنه كان في سبيله لتعداد الضغوط السياسية التي تولجها القيادة السوفيتية بسبب قضية ألمانيا فقد حاولت إقناعه ما تولجه واشتغل بشأن التطبيق بالإشارة أولاً إلي تصويت مجلس الشيوخ بأغلبية تسعين صوتاً للأشياء لصالح إيلنة للتصرعات السوفيتية ، ثم بمرض حجة كان شخصياً يراها أكثر إقناعاً : «لقد طُلب من الصحافة الأجنبية مغادرة ليتوانيا وناقلات الجند المدرعة تجوب الشوارع وتُشاهد علي تلفزيوندا ، والآن فإن كل تلك التحركات بالطبع بذير بالجوء إلي القوة ، وهذا يحير الجميع ، وعلى أن أبلغكم أن كل من لا يريد أن يري وجود تقدم علاقاتنا من السراجه إلي التعاون يستظنون ما تفتونه كأداة للبل مءاء ولوما شيفرنادزه بالتفهم . واختلعت بالقول : «إنني لا أدرى إلي متي سنستطيع الإبقاء علي التعاون إذا لم نواصل لعملية تمنح ليتوانيا حق تقرير المصير » .

وكانت إجابته مزيجاً من الضيق والأيديولوجية الجامدة ، وقال : «إننا نريد حواراً جاداً . إننا نعرف أن الليتوانيين في حازق ، وإننا ندرى أنهم لا يعرفون كيف يخرجون منه . إنهم لم يأتوا عندما طُلبت منهم للحضور قبل أسبوع ، وقد أرسل لهم جورباتشوف دعوة شخصية ليأتوا ويبحثوا القضية » .

لقد أثار فيكتوراس لاند سبيرجيس أستاذ الموسيقى السابق الذي أصبح رئيساً لليتوانيا ضغط الكرملين بوضوح . وأشار شيفرنادزه لاحقاً إلي أنه : «يُحْتَبَرُ عديم الخبرة وساذجاً . ولذا فإنه يتحدث بأشياء خطيرة » .

وحاول شيفرنادزه في لحظة ما استدراجي بالإشارة إلي النقد الذي يتعرض له جورباتشوف ، وحاول الاستدلال بفزونا أنهما للزويد . وأصناف بدرة أيولوجية جامدة : «بالطبع قد لا تكون المقارنة بين ليتوانيا وبينما مناسبة بالضرورة . فهنا بلد مختلف . أما ليتوانيا فإنها جزء من بلندا ، ولكننا تصرفنا وقادرون علي التصرف والتحدث بشيء من ضبط النفس ، ولم يكن قد أثار مرصوع بينما علي أنه مشكلة أساسية خلال أي من محادثاتنا خلال الأشهر

الثلاثة الماضية. لكنه يعرج عليها الآن. والأدعي أنه يشعر بالقلق من حدوث أخطار أعظم. وقال: لقد سرحت للصحفيين الأمريكيين في الماضي، بأنه لا بد من تعديل عن الليبريسترويكا والحقيقة إن هذا خطأ، إن هناك بديلاً لليبريسترويكا فإذا لم تتجح فسوف يترك الاتحاد السوفيتي بعدم الاستقرار، ولو حدث هذا فسوف يظهر ديكتاتور.

وتدخل روس ليسأل شيفرنادزه: ماذا سيقولون برأيكم الآن لهذه عملية أو حوار؟ وماذا حال دون بدليها الآن؟ وأجاب شيفرنادزه: «حسناً. وسواءً أكنّا نتحدث بصراحة أو بشكل قانوني عليكم العودة إلي الأمر الواقع. إن قرارهم ليس له أي مسوغ قانوني. وعلي هذا الأساس نستطيع بحث أي شيء».

وأشرت قائلاً: «أقد أجبت علي سؤال دينوس بطريقة قانونية، بطريقة رسمية ولكن لماذا لا نتعامل معه سياسياً لا قانونياً؟ سياسياً لا يمكنك تجاوز أو تجاهل تصرف غير قانوني؟ نقول إن هذا الإجراء ليس له مسوغ قانوني. لماذا لا توافق ببساطة علي البدء في إجراء حول ونحن أنكم ستظلمون استثناءً وتجرون مباحثات حول العلاقات المستقبلية؟

فإذا كان هذا التصرف غير المشروع كما تقولون ليس له مسوغ قانوني. فلماذا تولونه الاهتمام؟ ورد شيفرنادزه: «في المقام الأول عليهم أن يأتوا إلي موسكو. فلا يمكن أن يذهب جورباتشوف. أنت تعرف وهم يمزقون كيف يمكن الذهاب إلي موسكو. برسمهم شراء تذكرة وأن يأتوا بالقطار أو سوف ترسل طائرة لنقلهم».

وعقب الجلسة قال دينيس سيرجي ناراسينكو: «إن الوزير يتحدث عن أهمية الحوار. لكنه يتجنب ذكر كيف يمكن لهذا الحوار أن يبدأ. فلماذا يمكن اتخاذه لهذه الحوار؟». وأجاب سيرجي: «لقد أصبحت مسألة كرملة لجورباتشوف» عندما لم يأت لاند سبيرجيس إلي موسكو رغم توجيه الدعوة له فإن عدم مجيئه قد أثار مشاكل عديدة لجورباتشوف. فقد كان هذا كلمة للسر التي أثارت للتكرار: لاند سبيرجيس إلي موسكو.

وفي الليلة التالية، وعلي عشاء خالص في مقر إقامتي سألت شيفرنادزه: «إذا توجه لاند سبيرجيس إلي موسكو ووافق علي تعليق - مقابل إلغاء - الإجراءات التي اتخذت في ليتوانيا فهل سيكون هذا لهذه حوار؟».

وصممت شيفرناندرز لفترة طويلة، وأجانب بأن مثل هذه المسائل تتطلب قراراً من «القيادة الجماعية» في موسكو - ولكن بشكل شخصي - فقد أحس أنه لوجاه لاند سبيرجيس إلى موسكو فسوف يكون ذلك إيجابياً ومفيداً للغاية وتوزع بقية زمن الاجتماع الوزاري بين بحث مسألة ألمانيا ولعد من للتصالح. وجاء بحثنا لقضية الوحدة في سياق بحث للقضايا الإقليمية، وحلّال البحث سمح شيفرناندرز لألكسندر بونتلينكو التعبير في المسائل الألمانية والمتشدد بأن وصول ويجول أثناء المناقشة. وشعرت بأن لدي شيفرناندرز سببين لإدراء الأمر علي هذا النحو. أولهما: أنه كان في حاجة لتحسين الفرصة المناسبة لأنه مكشوف سياسياً للغاية في الداخل لدرجة لا يستطيع معها تحقيق أي تقدم من جانبه (أو كما قالت مارجريت تاتشر عندما اجتمعت مع الرئيس في بومونا بعد أسبوع إن الانتقادات تدفع به إلى الهامش).

ثانيهما: كان يريد أن يتعرض زملاؤه لهجنا ومنطقنا. فقد كانت بيروقراطيته ولاسيما العسكريين في موقف المدافع عن السياسة السوفيتية. وفي الواقع كان يبلغهم بأنكم لو كنتم أذكاء فليكن أن تعادلو الأمريكيين. وكان الموقف علي جبهة تعد من للتصالح أسوأ حالاً. وفيما كنت أنا وشيفرناندرز نهجى معظم مباحثاتنا في جلسات منفردة من قبل فقد انتمت إلينا الآن للمارشال أنخروموف والييجور جنرال الكسندر بيرسيكين من هيئة الأركان للملحة الذي دفع مظهره المتجهج ببعض العاملين معي إلي وصفه باسم «السود السميك» كان السوفيت يمتنعون من الكثير من التفاهم الذي توصلنا إليه في موسكو في شباط فبراير^٩.

وقررت أنه في ظل هذه الظروف فإن الضغط علي شيفرناندرز غير مجد. فليست أمامه أي مساحة للمناورة وأن علينا العودة إلي موسكو لعمل جورباتشوف علي اتخاذ القرارات الحاسمة. وكما قلّبت في الاجتماع الحكومة بعد فترة وجيزة: «كلما تقدمنا في مباحثاتنا ومفاوضاتنا كلما استعصيت للقضايا علي الحل».



* اتفقا علي أن نتعامل مع سوراوخ كروز التي تطلق من البحر بالقوقاز، أي إعلانت سياسة ملازمة، فالسوفيت يريدون الآن حذراً حذرية ملازمة قانوناً وتحت صاية للمحقق جلفاء ويريدون الآن تشيملها، وبحول سوراوخ كروز التي تطلق من البحر توصلنا إلي اتفاق حول كل شيء باستثناء المدي، وكان السوفيت يريدون إعادة فتح قواعد العصر ومجموعة العناصر الأخرى.

وبعد أسبوع وفي ١٣ نيسان أبريل هند جورباتشوف فيلنيوس بفرض حظر اقتصادي مالم يعلن برلمان ليتوانيا إلغاء إعلان الاستقلال في غضون ثمان وأربعين ساعة*. وبعد أربعة أيام بدأنا ننقي تقارير مشوشة عن قطع إمدادات الغاز والبتروك عن ليتوانيا.

وفي الساعة الخامسة مساء وفي اجتماع مجلس الأمن القومي أوضح الرئيس أنه لا يريد التحرك بنهر. ومع انحصار الجانبين علي ما يبدو في لعبة معجوجة اتصلت بشيفرنادزة في ١٨ نيسان أبريل وأبلغته: «بالطبع سوف يعتبر أي حظر علي إمدادات الوقود والغار عملاً من قبيل الإكراه، وسوف يؤثر بالسلب علي مساعدتنا لإقامة علاقات تجارية أفضل» وهذا مؤشر علي أن الاتفاق التجاري الأمريكي السوفيتي سيكون عرضة للخطر إذا مضى جورباتشوف في تنفيذ تهديده. وأكد شيفرنادزة مجدداً أن الحاجة تقتضي أن يتحرك الليتوانيون أولاً. وفي محاولة للتوسط لبده حواراً سألته عما إذا كانت هناك أي مشكلة لو اتصلنا مع الليتوانيين ورد قاللاً: «لمست لدينا أية اعتراضات. لكني أريد أن تبقي هذه المكالمات بيني وبينك في طي الكتمان». وكان شيفرنادزة وأنا علي يقين تام بأن تصرف الولايات المتحدة كوسيط يمكن أن يكون بمثابة «ديناميت سياسي في موسكو وواشنطن».

وبسبب أخطار احتمال انعكاس أي اتصالات رسمية مع الليتوانيين علينا داخلياً والخارجياً أضرباً بمخافتنا الدبلوماسية مع موسكو فقد فاتحنا السيناتور ريتشارد لوجار، وطلبنا منه القيام بمهمة الوساطة، وفي الصباح التالي توجه نيدس روس إلي الكونجرس لإطلاع لوجار وتحديد الإطار العام لما نعتقد أن الليتوانيين بحاجة له لعمل موسكو علي إجراء حوار قد يلغى إلي منح الاستقلال سلمياً؛ فعلمهم أن يطقوا إعلانهم بالاستقلال انتظراً للمفاوضات، والعودة إلي موسكو لإجراء مباحثات، وفي الوقت ذاته طلعت من السفارة الأمريكية في موسكو أن إمدادات الغاز الليتوانيا خُفِضَتْ ولم تقطع بالكامل وأن خطوط الفاكس مقطوعة.

ولم تكن لدى أي حساسية تجاه نهجنا. ورغم أن الولايات المتحدة لا تعتبر ليتوانيا جزء من الاتحاد السوفيتي فقد كنت علي يقين تام بأنه في ضوء الوضع السياسي السائد في موسكو فإن الليتوانيين لن يحصلوا علي استقلالهم الفعلي ما لم يقدموا أولاً تلك التنازلات الرمزية

* راد قلقتا عندما أبلغنا البريطانيين أن جورباتشوف لم يعتمد النهج إلي القوة في اجتماع مع توجلاس مور في موسكو في ١١ نيسان أبريل، وأنه هند بفرض حكم وإلزام علي ليتوانيا.

غير المهمة إلي الكرملين . فعلي القيادة السواسب أن تتخذ الخطوات السولية الضرورية لتحقيق أحلامها .

وفي ٢٠ نيسان إيريل عاودت الاتصال بشيفرناذرة . وأبلغته بأنني « فوجئت » بل تحيرت بصراحة « بسبب قطع الغاز ولإيترويل الذي تولكب مع مكالمتي معك . فربما لم يكن حظرا شاملاً لكنه يقترب من الخطر التام . وكنت أريد أن يعرف أنه يصنع في موقف صعب .

وشاطرته رأبه تجاه رد لاند سبيرجيس الذي تلقته من لوجار . وفيما كان رئيس ليراتنا بعيدا بالمرّة عن الإيجابية حيث قال: إنه لو كان التجميد غير دائم (علي سبيل المثال تعليق إعلان الاستقلال بدلا من إلغائه) . حينئذ يمكن أن يوافق الليتوانيون . وقال شيفرناذرة إنه يعتقد من حيث السبدا أن الموار يمكن أن يبدأ مع تجميد أو تعليق إعلان الاستقلال . لكنه في حاجة لمراجعة جورباتشوف . ومعادنا مجددا في اليوم التالي وعلمت أنه في الوقت الذي أرسل فيه جورباتشوف برقية شديدة للهجة إلي الليتوانيين فقد التقى مسؤول صغير المستوى مع مجموعة نسائية ليتوانية وأشار إلي الحاجة إلي تعليق الاستقلال . ويات من الواضح أن موسكو تنهج مسارا مزدوجا بالترهيب والترغيب مع ليتوانيا في وقت واحد . لكن من المشكوك فيه أنه يمكن الحفاظ علي التوازن الدقيق .

وفي صباح يوم الإثنين ٢٣ نيسان إيريل علمت أن كبير المتحدثين باسم جورباتشوف أعلن أن بوسع ليتوانيا الاحتفاظ بإعلانها الاستقلال «للتاريخ» طالما ألغت ليتوانيا قوانين الاستقلال أو جمعتها . فقد تغير موقف موسكو رغم أنه تعور طفيف ، وفي اجتماع مجلس الأمن القومي مساء ذلك اليوم قرر الرئيس أن الهدف الرئيسي يجب أن يتمثل في معاملة وحماية استمرار تحسين مجمل العلاقات مع الاتحاد السوفيتي ، ولم أجد سوي تأكيد طفيف بين حلفائنا الأوربيين لاتخاذ إجراءات قوية لتسجيل عدم موافقتنا علي إجراءات الترهيب الاقتصادية السوفيتية تجاه ليتوانيا ، وهكذا فإن أي إجراء سوف نتخذه يحتمل أن يكون عبارة عن إجراءات منفردة . وقرر الرئيس «أن أي رد يجب أن يتناسب مع حجم الجريمة» . وهذا يعني أن الاتفاق للتجاري الأمريكي السوفيتي الذي نضع التماسات الدهائية عليه سيتم تعليقه - وكتب الرئيس رسالة إلي جورباتشوف في هذا الصدد في ٣٠ نيسان إيريل* .

* عور مجلس الشيوخ رحلة الرئيس في الأول من أيار مايو عندما موث بلغية ٧٣ مقبول ٢١ صرلاً بتوسيد أي مريلا تجارية مع الاتحاد السوفيتي حتي تم تسوية أزمة ليتوانيا ويتم رفع الخطر الاقتصادي .

آبار مايو في بون، موسكو، واشنطن تحقيق الانفراج أخيراً

كانت بون صبيحة ذلك اليوم الربيعي الشمس الينيع من الأسبوع الأول من آبار مايو تستضيف أول اجتماع وزارى لمباحثات إثنين + أربعة أما وقد أتمتت اليوم فى لقاءات مع جينشر ثم كول فقد اجتمعت مع شيفرنادزة فى ساعة مبكرة من المساء للحوار أربع ساعات فى جناحى فى فندق مارتيم كرجيسفوندر المطل على نهر الراين بجلوب بون.

ومرة أخرى فنادوا ألمانيا وليتوانيا والحد من التسلح. وبدأت مع هذا بإثارة قصيتين أخريين. فقد اقترحت أولاً. قيام الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بجهد مشترك لمساعدة المتضررين جوعاً فى أنيويوا - نحن نقدم الأغذية وهم يقدمون الطائرات - كان السيناتور ديفيد بورى يروج لهذه الفكرة، وكنت أعتقد أنها ستصبح نموذجاً للتعاون السوفيتى الأمريكى تجاه تسوية المشاكل الكورية. ثانياً. أثرت مخاوف تجاه شالعات سمهاها عن مذبحة تعزيم منظمة باميات الرجعية ارتكابها ضد يهود الاتحاد السوفيتى فى آبار مايو. واعترف شيفرنادزة بأن هذه ليست مجرد شائعات قائلاً: إن القيادة السوفيتية أعدت كافة الخطوات الممكنة لمنعها. وقال: يمكن أن تقع حوادث فردية لكن وزارة للدخالية والأجهزة الأمنية موضوعة فى حالة تأهب قصوى واستدعت زعماء باصيات وحذروهم من مغبة ارتكاب أعمال عنف ضد لليهود.

ونرى شيفرنادزة انطباعاً قاطعاً بأن موسكو أكثر استرخاءً وثقة بأن استراتيجيتها تجاه ليتوانيا توفى ضارها. ولم يبد ضمناً أى إحساس بالإلحاح قائلاً: علينا أن نتحلى بالصبر، وعندما أكدت أهمية عدم اكتفاء السوفيت بالحديث عن الحاجة إلى الحوار بل يجب عليهم بالفعل اتخاذ خطوات لإقامة حوار، قال: إنه يعتقد أن الحوار سيكون ممكناً وفقاً ما. وأشار إلى نصاعد الجدل بين القيادة الليتوانية حول الحاجة لإقرار تسوية وسط، وأشار ضمناً إلى أنهم سيوافقون، وأكد مجدداً أن السوفيت على استعداد لبده الحوار لو أعلن الزعماء الليتوانيون تجميد إعلان الاستقلال والقوانين للتالية له ولبدءوا استخدامهم للتوجه إلى موسكو لبده المباحثات. لكنه قال: إن المبادرة - أى الخطوة الأولى يجب أن تأتى من ليتوانيا.

وقلت: «أشعر أحياناً أنه عندما أبحث الموقف في ليتوانيا أرى سفينتين تبحران في الليل بمحاذاة بعضهما. إن ما أراه هو أنكم والليتوانيون تتحدثون عن حل المشكلة بالحوار السلمي لكنني لم أشهد بدء الحوار». واستضرت عما إذا كان لاند سبيرجيس وبقية القيادة الليتوانية قد فهموا بوضوح من السوفيت ما هو المطلوب منهم لترفع موسكو الحصار الاقتصادي وما سوف يحصلون عليه في المقابل. علي وجه التحديد - أي حوار حول الاستقلال. وقال: إنه رائق أنهم سيفعلون، لكنهم حتى هذه اللحظة لم يفعلوا شيئاً. إنهم يتحدثون لكنهم لا يفعلون شيئاً.

وأشار مرة أخرى إلي أن الكرملين سيحلي بالصبر، ويبتظر بعض الوقت، أثناء مناقشة الليتوانيين للقضية. ونبهته إلي أن المساحة المتاحة لأممنا للمناورة محدودة وأثرت احتمال أننا قد نُدفعُ إلي اللجوء إلي التقويات الاقتصادية. وقال: لن تكون هذه مأساة. لكنه سيكون سوء حظ وسيكون أيضاً مؤشراً علي النقطة التي تتجه إليها علاقتنا. وسلمني رسالة من جورباتشوف إلي الرئيس تتضمن نفس الرأي: «لقد القول سراحة إن للراجع الحاصل في موقف الإدارة الأمريكية عن موقفها المسؤول السابق قد لا يكون مثيراً في تطبيع الوضع في ليتوانيا أو تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية، ووصف القضية بأنها مشكلة من اختصاص الاتحاد السوفيتي».



ثم انتقلت إلي بحث الوحدة الألمانية بالقول: «من المهم للغاية ألا يكون هناك خاسرون أو رابحون في عملية الوحدة الألمانية». وحددت الإطار العام الذي يحكم موقفنا تجاه الوحدة. فمن ناحية لم تكن نريد تفريفاً أو التمييز ضد الألمان. وكانت هذه السياسة التي انتهجت بعد الحرب الأولى قد بذرت بذور الاستياء، وكانت أحد أسباب وصول هتلر إلي السلطة. ومن ناحية أخرى أردنا أن نضع في الاعتبار الاحتياجات الأمنية المشروعة للألمانيين. فإلي جانب الحدود مع ألمانيا. كان ذلك يعنى ضمان ألا تتحرر ألمانيا من وسط أوروبا، ومن ثم خلق عدم استقرار خطير. وعرضت عليه إطاراً عاماً لرأينا في صيغة «إثنان + أربعة» كحلقة توجيه، تستطيع اتخاذ قرارات حول عدد محدود من القضايا لكنها تستطيع مناقشة قضايا

أخري أكثر. ولتتهزت الفطاب الذي ألقاه الرئيس في ولاية أوكلاهوما في ٤ آيار مايو حول قضايا الأمن الأوروبي كمؤشر علي أننا سمعنا ما يقولونه*.

وقلت له: «إننا نعي دورس أصول ١٨٧١ و١٩١٤ و١٩٣٩ عندما تعين أن نعرض حربين علي هذه القارة في هذا البلد. وخصنا إلي جانبكم كخطاه أشرس للمعارك، وأكثرها تدميراً. لسنا في حاجة إلي تكرار هذا. وإذا فابتنا نريد ربط ألمانيا بأكبر عدد ممكن من المؤسسات.

ورد شيفرنادزه بالقول إن موسكو تذهب بأفكارنا الجديدة. وفي الحقيقة كانت مناقشاتنا لهيكل أوروبي جديد متسقة مع الكثير من أفكارهم - رغم أنها لا تزال في مرحلة البلورة. وقال: إنهم يفتقرون معنا في ضرورة عدم وجود تمييز ضد الألمانيتين لو في ألمانيا واحدة في وقت ما. وكان هذا مخزي صيغة «إثنان + أربعة» حيث تعطي الألمانيتان كشرطين كاملين علي قدم المساواة.

رداً علي توصيفي لصيغة «إثنان + أربعة» ك لجنة توجيه، ستتخذ قرارات حول بعض القضايا وتبحث قضايا أخري وتحيل قضايا أخري إلي منابر أخري. قل شيفرنادزه: إنه في حاجة لإجراء مزيد من البحث لهذا الموضوع. وأشار إلي أن السوفيت ينظرون بالفعل إلي صيغة «إثنان + أربعة» كجهاز لصنع القرار، وليس مجرد جهاز استشاري. فضلاً عن ذلك كان يعتقد أنه من الضروري ألا نندفع نحو اتخاذ قرارات وأن تكمل عملها فصيغة «إثنان + أربعة» في حاجة إلي معالجة الكثير من القضايا المعقدة. وهي في حاجة إلي مزيد من الوقت لإنجاز عملها. ولم يشجع السوفيت التأجيل لكنهم كانوا يشعرون أن صيغة «إثنان + أربعة» يجب أن تشمل بالتوازي مع مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا، ومع مفارصات خفض القوات التقليدية في أوروبا. وعلي حد قوله يجب أن تبدو العلاقة وكأنها صيغة واحدة.

* كان خطاب الرئيس في ذلك اليوم يهدف أن يظهر لموسكو أننا قدمنا في مسمى جاد لإضعاف طابع سياسي أكبر علي حلف الأطلسي وتعزيز مؤشر الأمن والتعاون في أوروبا. وبعت الرئيس برسالة لهذا إلي ماكريد فبرار ليهدي في حلبة مختلفة في التحالف لتعوير طبيعة الحلف، وهي حلبة اعتدنا الانكفاء منها في لغة الحلف في أوائل السبعين. وأردنا أن يظهر الاجتماع مدى التعوير الذي طرأ علي الحلف وأن نوترأه بروية وثوق وشيفرنادزه سلاًحاً شخصيته ضد مقتديهم في الدنكل.

وباختصار كذبت إلي الرئيس في تلك الليلة رغم أن السوفيت ليسوا علي نفس الموجة أعتقد أن تصورنا لصيغة «إثنان + أربعة» كلجنة توجيهية ربما يلقى قبولاً لديهم لكن حملهم علي قبول انضمام ألمانيا إلي حلف شمال الأطلسي قد يكون بالغ الصعوبة. وأكد شيفرنادزه مجدداً الصعوبة النفسية التي يجدونها، وخاصة الشعب السوفيتي في هضم انضمام ألمانيا للموحدة لحلف شمال الأطلسي. وقال هذا وهو يشير ضمناً إلي قبول منطق موقفاً - متخفاً علي أن حياد ألمانيا لا يخدم الاستقرار علي المدى البعيد، وذكر بوضوح أن السوفيت يريدون تواجداً عسكرياً أمريكياً في أوروبا (وليس تواجداً سياسياً واقتصادياً فحسب) وقال: إن الوجود العسكري الأمريكي في أوروبا يجب أن يستمر لسبعة أو عشرة أعوام علي الأقل وربما فترة أطول.

فالتواصح أن السوفيت لا يعرفون كيف يتصمون مع الحلبة. إنهم يتصارعون معها. إنني أشك في أن جورباتشوف لا يريد معالجة قضية عاطفية مثيرة من هذا النوع الآن، ومن المؤكد أنه لن يقدم علي تداولها قبل مؤتمر الحزب. وأكد شيفرنادزه أنه تقرر عقد المؤتمر في سترزبوليو، وأنه سيكون تجمعاً سياسياً في الاتحاد السوفيتي. وكنت آمل أن يحقق هذا لأننا لا نحرز إلا تقدماً ضئيلاً.

كان الاجتماع الوزاري لاثنتين + أربعة في الخامس من أيار مايو حافلاً بالمتناقضات التاريخية. ففي مثل ذلك اليوم من عام ١٩٥٥ انتهى نظام الاحتلال ما بعد الحرب للعالمية الثانية في ألمانيا، وفي ٧ أيار مايو ١٩٤٥ وقّعت أول هدنة في الحرب العالمية الثانية. وبدأت كلمتي بالقول: «إننا نبدأ اليوم عملاً للمصالحة لشعب عاش منفصلاً رداً طويلاً وقارة عانت من الانقسام لفترة طويلة. وستكون كل دول أوروبا هي الفائزة بمساعدة ألمانيا علي نيل وحدتها وحريتها». وأصاب جيتشر كبد الحقيقة بقوله: «إننا لا نريد إقامة أوروبا ألمانية بل لألمانيا أوروبية لكن شيفرنادزه اتخذ خطأ متشدداً لا يمكن شيئاً من للشك الذاتي الذي أمر به لي في حديث خاص، وخلص إلي القول: «دعونا يؤدي هذه المباراة للجديدة والأخيرة في الشأن الألماني بطريقة جديدة، وبكل الإدراك للدم لكافة الأخطار المحققة التي تنتظر أوروبا وهي تشق طريقها إلي القرن الحادي والعشرين». وفي تلك الليلة شاهدنا عرضاً للألعاب

النارية فوق بون فيما لحقت الألمان «ببهر الراين في اللهيب» كان عرضاً بديعاً ربما كان سابقاً لأوانه. فلم ينج في الأفق بعد حسم مسألة انضمام ألمانيا إلي حلف الأطلسي.

وفي طريق عودتي إلي الوطن توقفت ذلك اليوم في وارسو لأعيد طمأنة للهولنديين ولدعوة وزير خارجية بولندا لحضور اجتماع وزراء خارجية إثنين + أربعة في باريس في تموز يوليو. وتضمن كل من مازوفيسكي وسكريبزفيسكي موقفاً وسرهما أن نعلم الولايات المتحدة دعوة حضور اجتماع إثنين + أربعة بالديانة عن وفود إثنين + أربعة.

وبعد عشرة أيام وصلت إلي موسكو لإجراء مباحثات علي مدى أربعة أيام للإعداد للقاء الأمريكية السوفيتية في نهاية آيار مايو. وعلي غير المألوف قُبِح لي وقت فراغ. لذا فقد توجهت للقيام بجولة في المدينة ومرت محلات مكتوبالندز بغروبها الكبيرة ثم محل جزارة ومحل لبيع الملابس للنسائية وصيقلية. وبدأ أن الشوارع والمتاجر تبيع بالنشاط ولم تكن البنية الأساسية قد تغيرت. كانت لا تزال في مرحلة تحول. كما أن نوعية السلع في المتاجر هي أفضل النوعيات، وكان مكتوبالندز هو الأكثر شعبية، ويحتضن خطين أحدهما للبيع بالزول والآخر بالندلار.

وفي الاجتماع الزوري واصلنا بحث الحد من التسلع من حيث توقفنا في واشنطن. لكننا نتحرك ببطء هنا. وشعر شيفرنادزة بأنه مفرم بالبدء بقراءة إنجازاته عن الحد من التسلع أمام كل أعضاء وفده - كما كان يريد أن يظهر أنه موضع ثقة. ولم يكن مستعداً علي ما يبدو لاتخاذ قرارات أو طرح مبادرات كما كان يفعل في السابق. وكثبت للرئيس بعد مباحثاتي في اليوم الأول إن شيفرنادزة مشغول مشغول من كل شيء. فالمشكلات الاقتصادية والندم الفقة العامة، والأحساس بفقدان للسيطرة، وقضية القوميات، وللتعلق بشأن ألمانيا كلها قضايا شديدة الوطأة. وعليك أن تسأل مرة أخرى أنه مع مثل تلك المشكلات الضخمة، فكيف يتسني التفكير في صواريخ كروز التي تطلق من الجو؟ وهل تعتقد حقيقة أن بوسهم إدارة القصيدة؟.

كان شيفرنادزة أقل اهتماماً ببحث تطورات السوق في البلطيق عن مناقشة قضية القوميات الأشمل. وقال: «دعنا نفترض أنه قد يحدث انضمام ليتواني من الاتحاد، فماداً

سيحدث؟ ماذا يمكن أن يحدث بعد؟ أنا أقول لك، إن المولدافيين يقولون نفس الشيء ومعهم الجورجيين والأرمن والآذريين والأوكرانيين. وفي هذه الحالة يمكن أن نشهد أسوأ سيناريو. وهذا هو الذي يفرض عليك أن تتخذ موقفاً جاداً وممضوياً. فالوقوف برمته ليس قاصراً علي أوروبا بل إن آثاره قد تطلل أيضاً آسيا والشرق الأوسط، وربما لا تظهر الآثار الآن، ولكن في غضون عشر أو خمس عشرة سنة. ولأنه ينحدر من القوقاز فإن شيفراندزة يعنى تماماً الأبعاد المتفجرة لقضية الأعراق، واعتقد أنه يستشر توجهات سياسية أبعد مدى عن أي أحد آخر بمن فيهم جورباتشوف. وحاولت الإيحاء بحل. وتساءلت لماذا لا تدعون الجمهوريات تعنى وتتبادل العلاقات فيما بينها مثل العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبلغاريا؟ ولم يرد شيفراندزة.

وليرضى روسيا علي الطبيعة وللخروج من ضيق وصخب موسكو اصططحني شيفراندزة إلي بلدة زاجورسك في رحلة متفرقة تسماً وتسعين دقيقة بالسيارة من العاصمة، وتفقدنا معهد اللاهوت الأرثوذكسي بالبلدة وقدمني شيفراندزة إلي كبير أساقفة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وقمنا في لحظة ما بإيقاد الشموع معاً. ووجدتها مفارقة عجيبة أن أشارك في مناسبة دينية مع وزير خارجية دولة تكف ضد الدين. وكنت أفس علي النوم أن شيفراندزة رجل صوفي عميق الإيمان. ولطالما تمجبت كثيراً عما إذا كانت مظاهر الإيمان، مثل الأيقونة التي أهدانا إلی في ويومينج لم تكن طريقته ليظهر لي أن هناك أموراً مشتركة كثيرة تجمعنا أكثر من السياسة. (في عام ١٩٩٣ جري تمديد شيفراندزة في موطنه جورجيا).

وفي اليوم الثاني لمضيت خمس ساعات مع جورباتشوف. وتحدثت باستفاضة عن علاقة موسكو بنا والمجاز السالي في الاتحاد السوفيتي وألمانيا وليتوانيا خاصة، وأنه كان قد اجتمع لثمة مع كاريميرا برونسكين رئيسة وزراء ليتوانيا التي ينظر إليها السوفيت علي أنها أكثر مسئولية عن لاندسبيرجوس.

وللمرة الأولى خلال اجتماعاتنا أثار جورباتشوف بعض القضايا عن نهجنا الحقيقي تجاه الاتحاد السوفيتي، ورغم اعترافه بأن الرئيس بوش أبدي «ضيقاً للنفس وبغير الإعجاب».

علي الرغم من الضغوط الداخلية الحادة فقد شعر جورباتشوف أننا اتخذنا بعض الخطوات التي تشير إلي أننا لم نعمل عقولنا تماماً بشأن الليبريسكرويك. وقال: «إنني أؤمن أحياناً وأنا أنامل النقاط الحساسة في علاقاتنا أنكم تريدون نقطة، ربما تكونون تصعون إلي انتزاع ميزة. وكنت في الماضي ألحظ ذلك وأراه. والآن اعتقد أن علاقاتنا باتت علي درجة أجدني ملزماً معها بتبادل الرأي معكم».

ولورد أمثلة لذلك أوروبا الشرقية وألمانيا وليتوانيا. وأضاف: «إن لدى معلومات بأن جانباً من سياستكم يتحرك بخلف من محاولة عزل أوروبا الشرقية عن الاتحاد السوفيتي. إنكم تعرفون أن سياستي تتحالف في أنه إذا سمعت تلك الدول للائتمار عن الاتحاد السوفيتي، وإذا كانت تلك رغبتهم، فيفعلوا فليس. لكن لا، إذا كانوا يَدْفَعُون إلي هذه. وبالنسبة لحصول ألمانيا الموحدة علي عضوية حلف الأطلسي قال: «إن هذا سيحني تطوراً بالغ الخطورة في التوازن الإستراتيجي، إنه يعني تدهوراً في التوازن». وأشار أيضاً إلي الشروط التي أمليهاها بشأن المشاركة السوفيتية في تلك التنمية والتعمير الأوروبي كمؤشر علي محاولتنا لعرقلة الآخرين عن مساعدة الاتحاد السوفيتي».

وعن الجبهة الداخلية مضي قليلاً: «هناك آخرون يقولون إن الاتحاد السوفيتي هو الذي يقدم تنازلات في كل شيء من جانب واحد. وهناك مقاومة قوية لكننا نتحرك قدماً ونتوقع منكم أن تتحركوا قدماً أيضاً وإلا تتخطوا المداشات».

وقلت: «لسنا كذلك» لكنه قاطعني قاطعاً: «لولا علينا أن نجد بعض تفاهات، أليس كذلك» وخلصت إلي للقول: «حسناً، إذا لم تكن هناك تفاهات في نهاية الطريق فسوف نعرض نحن الاثنين لمشاكل جملة».

كان لسان حاله يقول علي ما يبدو أنه في ساعة للشدة. فإنه لا يريد أن تعقد حياته. وهكذا فإن برنامجي الداخلي مرهون بإنجازاته الدولية. لكن يبدو أن العالم الخارجي يفتق عليه الآن، وأن جورباتشوف بدأ يظهر كما لو كان عاشقاً هجرته محبوبته، وبات وحيداً في المذبح من دون توقع.

وأوضحت أننا لا نسمي إلي استبدال للمشاكل التي نمر بها موسكو، أو دفع أوروبا الشرقية للانشقاق. ونوهت إلي أننا سجد صعبة في تيرير استخدام أموال لدفع الضرائب الأمريكيين لمساعدة تمويل للقروض للاتحاد السوفيتي من خلال بنك التنمية والتعمير الأوروبي في الوقت الذي لا يزال الاتحاد السوفيتي يدعم دولاً مثل كوبا وقيتنام وكمبرديا بمبالغ تكرر ما بين عشرة إلي خمسة عشر مليار دولار سنوياً، ويبقى في الوقت ذاته علي ميزانية إنفاق مرتفعة. فضلاً عن ذلك لم تتقدم موسكو بعد في تنفيذ برنامج إصلاحى اقتصادى جدير بالثقة.

وقال جورباتشوف: إن الاتحاد السوفيتي سيواجه فجوة كبيرة في التمويل خلال الأعوام القليلة القادمة، وسوف يحتاج إلي عشرين مليار دولار في صورة قروض والتمانات، وقال: إنه يريد رمزاً علي مشاركتنا في مصاعى الإقراض، واعتقدت أنه يريد ذلك إلي حد كبير حتي يستطيع توضيح مدى النجاح الذي تحققه سياساته في حمل الولايات المتحدة علي المساهمة في تلوية الاحتياجات السوفيتية. وقال جورباتشوف: إن الأعوام القليلة القادمة ستكون حاسمة. لأن موسكو سيبيلها إلي الانتقال إلي اقتصاد السوق. فهي في حاجة لشراء السلع الاستهلاكية وفتح استثمارات لتمويل المصانع الحربية للإنتاج لصدنى لتخفيف آثار ووطأة التحول الاقتصادى.

وأبنتى جورباتشوف أنه يعرض لضغوط مستتية ليعمد لإجراءاته ضد ليتوانيا وإخضاع ليتوانيا لحكم رئاسى مباشر. وقال: لقد تلقت للتكثير من البرقيات من كافة أنحاء البلاد وربما لرئيس بوش.

ولأن ما يفعلونه هو احتجاج، كما أنهم يقولون أن للرؤساء الأمريكيين يتحركون بسرعة بالغة لحماية المواطنين الأمريكيين فلماذا لا تتحرك بصفتك رئيساً للاتحاد السوفيتي بسرعة لحماية المواطنين الروس في ليتوانيا؟ ومع هذا فقد كان مصعماً علي إيجاد طريقة سلمية لحل الأزمة. وقال: إن الليتوانيين خطوا الأمر في غاية للصعوبة. لكن إذا قرروا تطبيق إعلان الاستقلال فسوف يبدأ في إجراء حوار ويرفع العقوبات علي الفور. حينئذ يمكن مناقشة وتسوية كافة القضايا الصعبة مثل العلاقات الاقتصادية في المستقبل والمنشآت العسكرية

والمطالب الإقليمية في بيلاروس. فإذا كان الليتوانيون يريدون الاستقلال سوف يقبله طالما جاء عن طريق مفاوضات سلمية.

وكانت برونسكين على استعداد لتطبيق تطبيق قرانين الاستقلال لا إعلان الاستقلال. ولم يكن هذا كافياً من وجهة نظر جورباتشوف. قلن يجبر الليتوانيين على إلغاء الإعلان وسوف يذللهم هذا الإلغاء إلى حد كبير. لكنه يطلب تجميد الإعلان. وبدأ علي سوالي قال: إنه يعتقد أن برونسكين استوعبت المطلوب وسوف تعود إلى فيلنوس لإقناع مجلس السوفيت الأعلى في ليتوانيا بالتصرف وفقاً للمطلوب.

والنقيب برونسكين عقب اجتماعي مع جورباتشوف مباشرة. واتخذت خطأ متشدداً حول الحاجة إلى الإبقاء على الإعلان. وفيما طمأنتها علي الكرمانا باستقلال ليتوانيا قلت: إن التحدي المائل أمام الليتوانيين هو اتخاذ خطوات سوف تترجم آمالهم في الاستقلال إلى واقع فعلي. وقلت من دون تقديم نصيحة إن التصرفات سوف تفضي إلى حوار فوري. وسألت أيضاً عما سيحسره الليتوانيون بعدم تقديم تجميد فوري لإعلان الاستقلال. وهو التجميد الذي يمكن إلماذه دائماً لو أبدي السوفيت سوء نية.

وقالت برونسكين وزملاؤها: إن تجميد الإعلان سيحضي العودة إلى الالتزام بالقوانين السوفيتية. وكنت أرى أنه لا يوجد فرق جوهري بين ما يريد جورباتشوف وبين ما يبدى الليتوانيون استعداداً لسله من الناحية العملية. إلا أن هناك فجوة حقيقية في الرموز. وبدأ شبح الشرق الأوسط يلوح في الأفق حيث الشكل يدمر المضمون باستمرار. وأبليت الرئيس: إنه حتي برغم الاجتماع مع جورباتشوف وبرونسكين. فإننا لم نخرج من الأحرار بعد.

واستحوذت ألمانيا علي معظم وقت اجتماعي مع جورباتشوف. وسويت لإيضاح أننا حاولنا الرد علي اتفاق السوفييتي. وقد وفرت صيغة «إثنان + أربعة» عملية منحت السوفيت مكاناً علي طاولة المفاوضات نظير أنهم يساهمون في تسوية القضية. فضلاً عن ذلك فإننا نستخدم صيغة «اثنين + أربعة» في توجيه بعض القضايا الأخرى إلي مذابر أخرى؛ وعلي

سبيل المثال إلى مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوروبا حيث يضطلع السوفييت بدور أيضاً.

والأهم أنني قدمت لجمهورياتشوف ما أسمونه «الضمانات التسع» تسع خطوات محددة شكلت صيغة شاملة يرغب الغرب في اتخاذها لتبديد القلق الأمني السوفيتي وهي:

١- خفض القوات الألمانية في معاهدة الثانية لخفض القوات التقليدية في أوروبا.

٢- الإسراع بخطي مفاوضات الأسلحة النووية قصيرة المدى.

٣- ضمان أن الألمان إن طوروا أو يمتلكوا أسلحة نووية أو بيولوجية أو كيميائية.

٤- استعمار عدم وجود قوات تحالف شمال الأطلسي في ألمانيا الديمقراطية لفترة انتقالية.

٥- تمديد فترة انتقالية لانسحاب القوات السوفيتية من ألمانيا الديمقراطية.

٦- الانضمام إلى حلف الأطلسي بجناحيه العسكري والسياسي.

٧- التوصل لاتفاق حول الحدود الألمانية البولندية.

٨- إقامة مؤسسات وتطوير مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا.

٩- تطوير علاقات اقتصادية مع الألمان مع ضمان أنه سيتم الوفاء بالالتزامات ألمانيا الديمقراطية الاقتصادية تجاه الاتحاد السوفيتي^٩.

٩ كما نذكر بالفعل أن هذا كلفة تلك الخطوات خطيرة خطوة. لكننا منطقتنا حققة واحدة وأن نسميها «الضمانات التسع» وقد حرصنا أن نذكرها للسياسي بيلمانا الكرملين بأنه سوري أكثرها كلفة. وقد وضعت المسألة حتى لا تند ألمانيا نفسها في وضع خريب. وحتى لا يمتلئ السوفييت بهزيمة تكملة. إلى المقام الأول فقد كانت محاولة من جانبنا لدعم جورياتشوف وللمساهمة في تلطيف القضية حتى يود بمرزلة لتسوية تسوية في الدليل.

وبدري جورباتشوف عدداً كبيراً من الملاحظات ولنا استعراض القائمة وأبدى موقفه الثامة عليها. وفي الوقت نفسه قال: إن انضمام ألمانيا الموحدة إلى حلف الأطلسي أمر مستحيل. وأشار شيفرناندز إلى: «أن هذا يعنى نهاية البيرسترويكا. وسيقول الناس إننا الخاسرون ولينا الفلازين». وكان جورباتشوف يستعد أن مشككتنا هي أننا أسعدنا شيئاً على فرضية واحدة هي تمديداً أن ألمانيا ستريد البقاء في حلف شمال الأطلسي وتساؤل: «ماذا سيكون الحال لو قالت ألمانيا الموحدة يوماً ما إنها تريد البقاء خارج حلف الأطلسي؟ وماذا سلفعل حينذاك؟ فطر حدث هذا فسوف نقف قدرتنا في التأثير على الأحداث، وإن نبذل أي شيء في الفترة الانتقالية لإعداد وتشكيل النظام الجديد. إن لدينا الآن حقوق القوي الأربع الكبرى وعملية الموحدة، وهذا يوفر لنا أداة لعمل شيء ما».

وسأله عما إذا كان يعتقد من وجهة نظره أنه يضمن أن تبقى ألمانيا خارج حلف الأطلسي؟ وأجاب: نعم إنها خارج ويضمن أن تبقى خارج أي تكتل عسكري.

وسألت: «هل تحدث عن ألمانيا محايدة؟».

ورد بدري منطق: «لا أدرى ما إذا كان يضمن أن أسميها كذلك». قد يجوز أن أسميها غير محايدة».

وقال إنه سيرى القضية مزيداً من الدراسة. لكن دعني أضف أنه إذا لم نستطع إقناعه بمحبتنا حينئذ فسوف أقول للرئيس بوش أننا نريد دخول حلف الأطلسي. إنك تقول في المقام الأول إن حلف الأطلسي غير موجه ضدها، وتقول أنها أوروبا جديدة، فلماذا لا نضم؟».

وأشرت إلى أن هذا سؤال وجه إلى في مؤتمر صحفي وقال جورباتشوف: «صدا، هو إذا ليس سؤالاً افتراضياً. إنه ليس أيضاً سؤالاً مستصواباً».

وعدت إلى إحدى خطتي الرئيسية: وهو أن موثاق الملتقى وكل حق كل دولة في التدخل في أي تعاقبات تزلها. إن محاولة الإيحاء للأمان وأن عليهم الانضمام إلى هذا التحالف أو ذلك أو تبني للحياد أو عدم التحيز سوف يحدد الاختيار لهم. ويهيئ أجواء

الاستياء في المستقبل. وقلت: إن الاستياء سينجم بسبب محاولة طرف آخر فرض إرادته علي الألمان».

وتسأل جورباتشوف: «لكن ماذا سيكون الحال لو أurdوا الانضمام إلي حلف وارسو؟ هل أخلص من كلامكم أنكم ستوافقون لو طلبوا الانضمام إلي حلف وارسو؟».

وأجبت: «بأن ميثاق هلسنكي يكفل لكل دولة الانضمام إلي التحالف الذي تريده».

وقال جورباتشوف: «حسناً. هل أخلص إلي أنه لو أرادت ألمانيا الموحدة الانضمام إلي حلف وارسو سوف توافق الولايات المتحدة؟»

ورددت بالقول: «إن موقفنا هو أن أفضل وصفة للاستقرار تكمل في ضرورة أن تكون لألمانيا الموحدة عضواً في حلف الأطلسي. لكن تبقى هذه مسألة يقع اختيارها في يد الألمان في نهاية الأمر».

واحدثم جورباتشوف اجتماعاً منفرداً بالقول: «من حيث المبدأ أنكم تؤيدون حرية الاختيار للألمان، وهو حق جوهري في العلاقات الدولية. وهكذا فلو أراد الألمان هذا سوف نعالجونه بالتفاهم».



وغادرت موسكو يوم الأحد ١٩ أيار مايو بانطباع طاع بأن جورباتشوف يشعر بأنه مضغوط ومن المرجح أن يرد بقوة علي أي تمرك أو خطوة تثير له مشاكل سياسية في الداخل. فالجيش يبدو الآن بشكل خاص مكلفاً بمسألة الحد من التسليح*. لكن لألمانيا في المقام

* في أعقاب اجتماع جورباتشوف كنا علي وشك الانتهاء من حوار مع كرويز الذي نطلق من البحر وكرويز الذي نطلق من البحر وبه قسما مدفوت. وإسره الحظ وبعد أن حصلت علي موقفة صريحة من جورباتشوف علي ناسيت ويثير حائل الفرد السرموي إندال عدد من القواعد الجديدة. (وناسيت ويثير هو صافوخ كروز يطلق من البحر مزود برأس نظيدية) ولتضي بي الحال بالبقاء يوماً آخر في موسكو لتسوية مشكلة ناسيت ويثير لم ومن الصراعات القوية وقصيرة فقد ألقينا كلمة صافوخ ناسيت ويثير في الساحات الأرمي لمرب الخريج وهكذا ألقيناها باحضرها إندلي قناوا مدفوت.

الأول تريد من الضغوط التي يتعرض لها، وكنت أعتقد أن شيفرنادزة أقل عاملية ومنطقية
عن رئيسه بشأن ألمانيا. لكن قلت من الواضح أن كليهما يولجه المشاكل. وأحسست أنهما
يقان فينا وهي القيادة الألمانية، وبدأ أحياناً أنهما علي وشك قبول ألمانيا في حلف الأطلسي
فقط يجرهما إدراكهما السياسي وذكرياتهما للنازيخية إلي الوراء.

وفي ٣٠ أيار مايو وصل جورباتشوف إلي واشنطن مع الوفد المرافق لعقد ثاني قمة
أمريكية سوفيتية بالولايات المتحدة. وفي اليوم التالي انصمعت إلي الرئيس في غرفة مجلس
الوزراء مع مجموعة صغيرة تبحث مسألة ألمانيا. وبدأ الرئيس باستعراض «الضمانات المتبع»
مرة أخرى مع جورباتشوف، وأثار قضية عضوية ألمانيا في حلف الأطلسي وكان فكر
جورباتشوف قد تطور منذ أن التقيته في موسكو لكن بطريق مختلف. فقد كان يعتقد أن
ألمانيا يمكن أن تكون عضواً في حلفي وارسو والأطلسي أو لا تنضم لأي منهما، ولم يكن
لهذا أي معنى لدي الجانب الأمريكي. لكن جورباتشوف وجه نداءً شخصياً إلي الرئيس.
وقال: «إنك بحار وتدرك أن وجود مرسي واحد أمر طيب. لكن من الأفضل وجود مرسيين».
وقال الرئيس: «إن موسكو تشعر بشكوك عميقة تجاه ألمانيا بينما لا تشعر الولايات المتحدة
بأي شكوك. فألمانيا بلد ديمقراطي حقيقي وصديق جيد للولايات المتحدة ولديها إمكانيات
بأن تصبح صديقاً قوياً للاتحاد السوفيتي».

وقال جورباتشوف: «إنه، بفهم المشاعر الألمانية. لكنه لسدرك قائلاً لا يمكنني إغفال
توجهات شعبي».

وقلت: إن لدينا خلطاً بالكشف عن حلف الأطلسي جديد معدل في قمة الحلف في نور
بولور.

وأكد شيفرنادزة ما اتضح أنه أسلوب الكرملين خلال اليوم، ثم حاول ترويج فكرة
انضمام ألمانيا إلي الحلفين. وتدخل جورباتشوف قائلاً: ربما تستطيع أي دولة أن تنضم إلي
أي حلف. فقد شارك ستالين وروزفلت وتشرشل في تحالف واحد. ومزح جورباتشوف بالقول
ربما. فقد يستطيع الاتحاد السوفيتي الانضمام إلي حلف الأطلسي. ولم تفلح مزحة الرئيس
مع أحرومييف بسؤاله عما إذا كان يريد قائداً أمريكياً.

وبعد مزيد من التشدد والجنوب للعتيم. حاول الرئيس بأسلوب آخر وقال: إنه بموجب مبادئ مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا فإن لكل الدول الحق في اختيار الحلف الذي تنضم إليه. وقال: وهكذا، فإنه يجب أن يكون بوسع ألمانيا أن تقرر اختيار الحلف الذي تريد الانضمام إليه. وسأل جورباتشوف: أليس كذلك؟

وقال جورباتشوف: نعم، وهو يومئ بالموافقة.

وكان الرئيس جفلاً كالجميع وقال محاولاً حمل جورباتشوف علي إعادة التأكيد علي موقفه الجديد: إنني سعيد بأن تبدو أنت وأنا علي اتفاق بأنه بوسع الدول اختيار التحالف الذي تنضم إليه. ورد جورباتشوف: علينا هنا أن نطرحه علي هذا النحو: إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يريدان أن تختار ألمانيا نفسها التحالف الذي تريد الانضمام إليه، بعد التوصل إلي تسوية في مفاوضات إلثنين + أربعة.

ولم يكن الرئيس يريد مثل هذه الصيغة المحايدة. وأشار بدلاً من ذلك إلي أن الولايات المتحدة تريد بقوة انضمام ألمانيا إلي حلف الأطلسي ومع هذا لو اختارت ألمانيا طريقاً آخر سوف نحترم اختيارها.

وقال جورباتشوف: أوافق، وبدأت سدمة حقوقيه لدي عدد من مساعديه لموافقة رئيسهم علي هذه الفكرة التي تعادل عملياً الموافقة علي انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلسي.

ومالبت أن بنا جورباتشوف يقل عائداً إلي خطه السابق في الجدول، وتحدث عن الحاجة إلي فترة انتقال طويلة. ولتفت إلي شيفرنادزه وطلب منه أن يبحث معنى مسألة ألمانيا. وفي تطور غريب تعدي شيفرنادزه جورباتشوف. وقال: إن هذه في المقام الأول قضية يجب أن يعالجها الرئيسان. وأخيراً وبعد أن ضغط عليه جورباتشوف وافق شيفرنادزه علي مصطن. وكان تقديرى أنه فهم التنازل الذي قدمه جورباتشوف، وأنه لا يريد تحمل مسؤوليته بأي شكل فكله ملق بالأعباء.

وأعتقد أن هناك عدة أسباب لتحويل جورباتشوف، أولها، للتبعن من أن الوحدة الألمانية تفرض نفسها، وأنها تتجاوز موسكو، وثانيها، أنه كان مفكراً مغرطاً في القانونية والمنطقية ينظر إلى الفجوات المنطقية التي تزيد حرارة حوته. ولكن ثلثاً، كان مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا هو الصيغة المعملة منذ أمد طويل لدى الكرملين كمؤسسة أمنية، وعندما اعتمد الرئيس علي مبادئ مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا لشرح خيار الولايات المتحدة بتفضيل حلف الأطلسي لتضم إليه ألمانيا الموحدة كان جورباتشوف في موقف صعب لتلايد حجة اعتمدت علي مبادئ مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا.

وشعرت مع تحقيق إنفراجة في مسألة ألمانيا، أو ربما ما يصفه الكثيرون في الردف السوفيتي ولاسيما أخروميديف بأنه انهيار، إننا قد استعدنا الزخم في العلاقات الأمريكية السوفيتية مرة أخرى. لكن من منظور جورباتشوف كان التقدم يقتضي العودة إلى موسكو محملاً بمزايا اقتصادية ملموسة، وهذا يعنى الاتفاق التجاري. وأبلغني شيفرناندر بعد ظهر الجمعة قبل ساعات من مشاركة الرئيسين في حفل التوقيع في القاعة الشرقية: «لا يمكننا العودة إلى الوطن بدون هذا» وكان قد سمع نفس الرسالة من جورباتشوف «إنني أريد هذا». وقال الرئيس بوش «لنصني قديماً ولنقله» وهكذا طلبت من دينيس روس الاجتماع مع الكسندر بسمرتديخ لإعداد صيغة. ووافقت عليه أنا وشيفرناندر وأدخلناه للرئيسين للتوقيع عليه مما أدى إلى تأجيل مراسم التوقيع في القاعة الشرقية ونحن نحكم علي إعداد التفاصيل.

وأصبحنا الرئيس وسكوكروفت وأنا اليوم التالي في كامب ديفيد في بحث القضايا الإقليمية مع جورباتشوف وشيفرناندر وأخروميديف في أجواء سادها الاسترخاء والود. وكان جورباتشوف في حالة معازاة. وقال مازعاً: «إن شرب القهوة منزوعة الكافيين يشبه لعق السكر من كروب» واندفع وقد شبعته قهقهاتنا بسرعة في مهمة أكثر حموية كان سكانها المناسب رغم ظرفها هو مباحثات يجريها ستة رجال في أجواء استرخاء عن نشرها في كتاب عنوانه «الدبلوماسية».

وحدثنا موضوعات تراوحت من كشمير إلى كوبا أو إثيوبيا إلى كوريا الشمالية. ويات من المزمك كما لو أن قبول جورباتشوف لتضمام ألمانيا إلى حلف شمال الأطلسي وقرار

الرئيس حول الاتفاق الجاري قد عزز علاقتنا إلي درجة متقدمة درجة أكثر تعاوناً ومودة شخصية، وذكرتني المناقشات بالمباحثات التي أجراها الرئيس مع المستشار كول وناتشر - أي للتفكير بصوت عالٍ والمقارنات وإقامة علاقات شخصية متينة.

يوليو في كوينهاجن، تيرنيرى، وبرلين

خطوة للأمام. خطوتان للخلف

بعد ثمان وأربعين ساعة من انتهاء قمة واشنطن للتقيت مع شيفرناذرة، وهذه المرة علي هامش اجتماع وزراء خارجية مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا في كوينهاجن، ويبدو أن القمة قد غيرته. فمع اعتراف جورباتشوف بأن موسكو لن تعارض بعد الآن انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلسي إذا كان هذا خيار ألمانيا فقد تطرقت مباحثاتي مع شيفرناذرة إلي بقية القضايا الحساسة المرتبطة بالوحدة. وكان أهم ما في المباحثات هو تغيير موسكو لموقفها تجاه القوات المسلحة الألمانية. ففي البداية كانت موسكو تريد تحديد مستوى القوات الألمانية في مباحثات، اثنين + أربعة ولكن في ٢٣ أيار مايو ظهرت موسكو موقفها عندما اجتمع شيفرناذرة مع جينشر وأبلغه بأن القضية ستحال إلي مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوروبا. والآن أبلغني شيفرناذرة بأن السوفيت علي استعداد لقبول الالتزام ألماني من جانب واحد خارج إطار مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوروبا. كان هذا انفراجاً أردت إبلاغ هانز ديتريش جينشر به علي الفور رغم تأخر الوقت لئلا . وبعد الاتصال بالعاملين مع جينشر توجهت إلي الفندق الذي ينزل به لأبلغه بالموقف السوفيتي الجديد. واستبد به السرور رغم اضطرابه لفكره سريره.



ومن كوينهاجن توجهت إلي تيرنبيري- اسكتلندا، وهي ملتجعة لممارسة رياضة الجولف تقام فيه بطولة بريطانيا المفتوحة للجولف للمشاركة في اجتماع مجلس حلف الأطلسي.

وانتهزت الاجتماع لتدعيم موافقة الحلف لموقفنا تجاه الوحدة الألمانية، وتهيئة الأساس لقمة لندن التي لم يتبق عليها سوى شهر واحد. وفي الوقت ذاته كان حلف وارسو يجتمع في موسكو. وفي إشارة لا تخطئها العين موجهة لنا جاء في بيان للحلف أن الدول الأعضاء تُقيم بشكل إيجابي بعض الخطوات التي اتخذها مؤخراً حلف شمال الأطلسي. ويتوقع أن يتم تعميق والإسراع بالتوجه الجديد للتغيير في حلف الأطلسي*.

وفي ١٢ حزيران يونيو اتصل بي جينشر ليطلعي علي نتائج أحدى زيارته لموسكو. وقال: إن الألمان وعدوا بصنع كمية كبيرة من النقد لمساعدة موسكو في سد المجزء المالي: خمسة مليارات دولار الآن ثم عشرين مليار دولار لاحقاً. وكان يعتقد أن موقف جورباتشوف حول الأطلسي بات الآن «نعم ولكن» بينما كان موقفه من قبل «لا»، لكن جينشر يعتقد أنه من الضروري أن يظهر حلف الأطلسي أنه يتغير. ووافق وقتئذ: إننا نطمح لإنجاز ذلك في قمة لندن.

وبعد عشرة أيام انضمت إلي خمسة وزراء آخرين للمشاركة في احتفال بإزالة نقطة نفديش تشارلي - أو علي حد تعبير دوجلاس هيرد: «ها نحن أخيراً نزيل تشارلي من أساسه». فطلى مدار تسعة وعشرين عاماً وقفت نقطة تشارلي رمزاً صارخاً لعالم مقسم. فقد أطلقت النار علي ثمانية أشخاص أثناء محاربتهم للهروب عبر نقطة النفديش تلك، وشكّن مشرورون ألمانياً شرقياً علي الأقل من الهرب منها. الآن ومع قيام رافعة بإزالة القنبي الصغير الذي كان يشكل نقطة عبور تشارلي، كانت إزالة النقطة يمكن أن تصبح رمزاً لوحدةنا أو هكذا اعتقدت.

* وعد الرئيس في خطاب ألقاه في ٤ أيار مايو بإستفتاء طابع سويسلي أكبر علي حلف شمال الأطلسي، وفي أكتوبر من العامت حول كيف حلف شمال الأطلسي الواقع الجديد في الدوائر الدبلوماسية الأوروبية.

(وماليت تفاؤلي أن تبدد لدي وصولنا إلي قصر نيدرشونهاوزن في منطقة بانكوف في برلين الشرقية للمشاركة في جلسة إثنين + أربعة. وقدم شيفرناندزة مداخلته أريكت تماماً كل التقدم الذي أنجزناه خلال الشهر الماضي مشوراً إلي أن هذا اليوم ٢٢ حزيران يونيو يوافق الذكرى الأربعين للهجوم الدفاشي على الاتحاد السوفيتي. ويدعو الاقتراح السوفيتي إلي الإبقاء على حقوق القوي الأربع الكبرى بعد إعادة توحيد ألمانيا وتعدد فجرة للتقالية مدتها أربع سنوات تتوزع ألمانيا الموحدة خلالها بين حلف الأطلسي وحلف وارسو، وتعدد حد أقصى للقوات المسلحة الألمانية كما ونوعاً إضافة إلي مجموعة أخرى من القيود.

وأثناء مداخلته شيفرناندزة مررت ملاحظة إلي جينشر متسائلاً فيها: ماذا يعنى هذا؟ وجاء رده: إنه تعريف للحقيقة. لكنه ليس علي يقين تام. وفي ضوء الوضع السياسي الذي تسوده الفرنسي في موسكو لم تكن علي ثقة بأنه لم تحدث ردة منذ الإصلاحيين.

وقلت بوضوح تام عند بدء مداخلتي: «إن السيادة الألمانية أقوى من أى شيء، لكن بدلاً من أن أقوده إلي هناك مباشرة أرسلت بوب زوليك وديتس روس للإعداد للنقاط مباحثات جديدة لما سيكون أصعب اجتماع من نوعه. وأحكم ديتس روس الخناق علي سيجرى تاراسينكو عقب انتهاء الاجتماع. وقال: إن هذه ردة كاملة. إنكم مراوغيون. ما هذا الحجم الذي نعيشه؟

وقال تاراسينكو: إن الوثيقة التي عرضتها شيفرناندزة هي وثيقة للمكتب السياسي وقد تهاورنها الأحداث. لكن لا يمكن العدول عنها قبل مؤتمر الحزب وسوف نحمد كافة التحركات حتى ١٥ سوز يوليو مع انتهاء مؤتمر الحزب وأصدر شيفرناندزة توجيهاته لتاراسينكو بالموافقة علي الأفكار التي تتوافق مع فترة بعد الخامس والعشرين من سوز يوليو.

وفي وقت لاحق من الليل توجهت إلي مقر إقامة السفير السوفيتي لتقاء شيفرناندزة، وبادرت بالسؤال: «ماذا حدث بين كوينهاجن وبرلين؟ إن الورقة التي عرضتها هنا تميل إلي وضع ألمانيا في موضع فريد للغاية. إنها بسبيلها إلي فصل الصموية. إنها تشكل قيداً علي السيادة. إننى أجد التزاماً علي القول إن الأمور تبدو تكمساً مأساوياً عما نغاضنا عليه في

كربنهاجن لدرجة أود معها أن تفسر لي ما يحدث. فبوسمى التعامل مع للصورة الحقيقية
تكني في حاجة لأعرف ما هي.»

وأكد شيفرنادزة قائلاً: «دعني أقل لك سرلة إنه في إعداد مشروع الوثيقة تلك راعينا
الموقف الداخلي. فالمزاج العام في البلد لا يتشكل لصالحنا. وعدم وضع هذا في الاعتبار ليس
غير معقول فحسب. بل إنه غير مسؤل.»

ومعني إلي القول: «إن هناك عاملاً مطوياً ونفسياً وسياسياً تحزن وضعه في الحسبان،
إننا في حاجة يمكننا معها إبلاغ شعبنا بأننا لا نواجه تهديداً رئيسياً من ألمانيا ولا من
الولايات المتحدة ولا من حلف شمال الأطلسي. لقد أدلي وزير دفاعكم مؤخراً بتصريح حول
خفض الاتفاق الدفاعي في العقد الحالي. إن مثل تلك المقررات تساهم في توضيح أننا لا
نفهم غمار مواجهة عسكرية بنفس الطريقة مع الولايات المتحدة بعد الآن.»

وردت «إننا نعي تماماً القيود السياسية المفروضة عليكم. ونحن نذكره أيضاً مندي
حاجتكم إلي تفسير سواسي ما يفرض الاستهلاك المحلي. وهذا هو السبب الذي حدا بي إلي
طرح الضمانات للتصريح. وقلت لشيفرنادزة: «إننا نقترح إقرار إعلان في قمة لندن لحلف شمال
الأطلسي يؤكد كيف الحلف مع عالم جديد شديد الاختلاف. وأبلغته أيضاً في هذا التصدد
بقرارات الرئيس الأخيرة حول مؤتمر الأمن والقانون في أوروبا بما في ذلك الموافقة علي
سكنارية سفيرة ومركز للحد من الصراعات. وأشارت جميعها إلي مندي جديتنا في تحويل
مؤتمر الأمن والقانون في أوروبا إلي مؤسسة، والتزامنا تجاه أوروبا جديتنا تضم للجميع.»

وبينما كنت أعتقد أن جوريلتشوف وشيفرنادزة يلتزمان موقفاً دفاعياً علي الصعيد
الداخلي، ويحتاجان إلي ستر في قضية ألمانيا كنت أشعر أيضاً أنهما يحركان الأمور حتي
يرى ماذا يستطيعان أن يحصلوا عليه من الولايات المتحدة وللتأكد من أنهما يستطيعان التأثير
علي الرأي العام، وكنا نضرب دائماً بالثق من أن السوفييت سوف يحاولون دائماً إظهار الأمان
علي الاختيار بين الوحدة وحلف الأطلسي. ولذا فقد حاولت إرساء مطم واضح من جانبنا.
وقلت في النهاية: «سوف تتوحد ألمانيا، وإننا مستعدون مع الآخرين لمنح ألمانيا السيادة التي

تستحقها والتي يجب الحصول عليها. ولم أشأ أن يعيش في أي وهم. «فإننا نحن معارسة الضغط فسوف نعتد بالمانيا موحدة في حلف شمال الأطلسي رغم الاعتراضات السوفيتية» قد يكون من الصحيح أن لكم مصالح أكثر تأثراً بشكل حيوي من أي أحد آخر. لكن دعني أكل لكم إننا أيضاً لنا مصالح».

وقال أربع مرات: إن إعلان لندن سوف يشكل حرجاً بالغاً لقدرة الإصلاحيين علي تفسير موقفهم في قضية ألمانيا. وأكد أن ذلك يعود في جانب منه إلي أن إعلانا سيصدر أثناء انعقاد مؤتمر الحزب، وقد يؤثر ليس فقط علي الموقف السوفيتي تجاه قضية ألمانيا. بل أيضاً علي وضع جورباتشوف السياسي.

كان شيفرنادزة محاصراً بدرجة لم أشهده فيها من قبل. «فالموقف السياسي الداخلي يمسك بخناقهم تماماً». وعندما سأله عن وضع جورباتشوف كسكرتير عام قال إنه لا يسعه التدبؤ به. ورغم قوله إنه يثق في قدرة جورباتشوف علي البقاء لو أراد فلم يكن والقاً من أن هذا سوف يحدث. واستمر في التأكيد علي مناخ الأزمة السائد في موسكو، وأصحت إجهاداً هائلاً علي وجهه.

وبرغم هذا كانت هناك أنباء جيدة نتيجة اجتماعاتي مع شيفرنادزة في برلين. كان متفائلاً تجاه التطبيق. فقد توجه زعماء التطبيق إلي موسكو للمشاركة في اجتماع المجلس الفيدرالي، واعتبر شيفرنادزة أن هذا مؤشر إيجابي علي جديةهم، ولم يشعر بالقلق تجاه بطء تحريك برلمان ليوانيا. حيث قال: إن هناك استعداداً للعمل ومعالجة للقضايا. إن هذه قضية تظهر علي الأقل أنها قضية خلافية، وأن موسكو وفيلنيوس يتحركان علي ما يبدو تجاه مفاوضات سلمية لتسوية الخلافات. (وفي الواقع قررت موسكو رفع الحظر في ٣٠ حزيران يوني) .

تموز يوليو في لندن:

حلف الأطلنطي جديد ونهج موفيتي جديد

في آيار مايو بدأنا الاستعداد تفصيلاً لقمة لندن. وأعد موظفو مجلس الأمن القومي بالتعاون الوثيق مع مجموعة صغيرة من المصاعدين في وزارتي الدفاع والخارجية مشروع إعلان يلعب موجر يتضمن عدة مبادرات مثيرة بما في ذلك إعلان أن الأسلحة النووية هي أسلحة الملجأ الأخير حقيقة. وإزالة المنفعة النووية الأمريكية، واقتراح استراتيجية دفاعية جديدة تسعى إلى تحقيق مزيد من خفض للقوت للتعبودية في أوروبا في المعامدة الثانية ودعوة الخصوم السابقين إلى فتح مكاتب اتصال بحلف شمال الأطلنطي، وتعزيز منظمة الأمن والتعاون في أوروبا بإسقاء الطابع المؤسسي عليها.

وفي ١٩ حزيران يونيو انضمت إلى ذلك تشينى وكولين بارل بمكتب بريت سكروكروفت لمراجعة نص الإعلان، ووافقنا على مشروع الإعلان مع إضافة بسيطة - تتمثل في فترة يتعهد فيها حلف شمال الأطلنطي بعدم الاعتناء، ويدعو حلف وأرسو إلى التعامل بالمثل، وذلك إلى جانب عدد من التفتيحات الطفيفة.

كان مشروع الإعلان يضم لثنتين وعشرين فقرة في صورة مطالبة طبق الأصل للإعلان السياسى المبلغ الموجز الذى سيكون له أثر بالغ في موسكو. لكن علينا أولاً أن نحصل على موافقة الأعضاء الخمسة عشر الآخرين في حلف الأطلنطي.

وسيراً على التقاليد قررنا الإبقاء على نص مشروع الإعلان على الكتمان، وأن يرسله الرئيس إلى نظرائه رؤساء الدول قبيل أيام من القمة حتى يتاح للتفاوض حوله من جانب الرؤساء وزراء الخارجية في القمة نفسها. وحلف الأطلنطي بهيروقرانيته مثل أى مؤسسة أخرى ولا يسعنا عمل السماح للبيروقراطيين بتفتيح وثيقة سياسية حساسة. فضلاً عن ذلك لم تكن نريد حدوث أى تسرب. فقد كنا نريد إحداث الأثر السياسى بكل ثقله ولأقصى حد في موسكو عند صدور الإعلان في النهاية. ويطى هذا انتهاج هذه الاستراتيجية غير العادية التى تتطوى على مغامرة.

وأخيراً وفي ٢١ حزيران يونيو بدأ الرئيس في توزيع مشروع الإعلان علي نظرائه . وجاء رد الفعل إيجابياً باستثناء مارجريت تاتشر والفرنسيين ، وعندما التقيت دوجلاس هيرد في بروكسل عشية القمة في ٤ تموز يوليو قال: إن تاتشر غير سعيدة بالمرّة خاصة تجاه عبارة «الملجأ الأخير» وأبنته بأنها تشعرك أنه من الضروري إدراج نص «الملجأ الأخير» لأن حدوث تغير في الاستراتيجية النووية سيكون له وقع يفوق أي شيء آخر ليظهر للسوفييت أن العالم يتغير. وكذا هيرد أن رئيسة الوزراء لا تريد دخول معركة مع الرئيس لكنها لا تشتر بالارتياح تجاه هذا النص .

وفي اليوم التالي انضمنا إلي الزعماء للمشاركة في القمة، ومن الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حتي الساعة السادسة والنصف بعد الظهر عملت مع زملائي وزراء الخارجية في حلف شمال الأطلسي، وساورني القلق في بعض الأوقات من أن المفاوضات لن تبرز أي تقدم. وقلت: «أيها السادة، إننا مضطرون للقول لحظة ما إنه يجب علينا أن نواصل مراقبة الكرة. إن سبب اجتماعنا والسبب الذي يدعونا إلي العمل لإقرار هذا الإعلان هو توحيد ألمانيا، ولنا في حاجة إلي تخفيف هذه الرقعة. فلدينا هدف واحد. إننا نعيش زمناً مختلفاً. إن هذا ليس عملاً عادياً. وللأسف كان عملاً عادياً بالنسبة للفرنسيين كالمادة حين أصدر من رولان ديما علي كل شيء تقريباً، وبما نحن نقض لحضور حشاه رسمي مع الملكة ورؤساء الدول اتفقنا علي العودة للاجتماع في الساعة العاشرة والنصف، وأخيراً وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل وفي ملابسنا نصف الرسمية انتهينا من الاجتماع وبقي جوهر الإعلان سليماً لم يمس.

ومن لندن توجهنا جواً إلي هيوستون لاجتماع القمة للسوى لمجموعة السبع . وولفتنا في القمة علي تكليف صندوق النقد الدولي بإجراء دراسة جادة للاقتصاد السوفيتي بهدف إرساء الأساس للمعونة الغربية، وأوضح كول أن الألمان سوف يقدمون من جانب واحد حجماً هائلاً من المعونة لموسكو.

وفي الوقت ذاته انفض مؤتمّر الحزب الشيوعي في موسكو، وتعرض جورباتشوف لانتقادات حادة لكنه صمد. وفي منتصف دورة للحزب ظهر دوى إعلان لندن الذي نشر

نمته كاملاً في صحيفة نيويورك تايمز. ومع صدور أكلة أولية مقسومة علي تغيير حلف الأطلنطي، وتعزيز هيكل الأمن الأوروبي استطاع جورباتشوف وشيفرنادزه بعض المصافلين*.

وبعد أسبوع كنا نتزود بالوقود في مطار شانغون بإيرلندا في طريق عودتنا إلي باريس لحضور اجتماع وزاري آخر لصيغة «إثنان + أربعة» سيحبون أنه غير موات تقريباً. وأبلغني عدد من الصحفيين المرافقين أنهم اتفهموا لتوهم من مراجعة مكانهم، وعلموا أن السوفيت والألمان توصلوا لاتفاق. فقد أصدر جورباتشوف وكول في اجتماعهما في ستافروبول مسقط رأس الزعيم السوفيتي بياناً مشتركاً أقرأ فيه باستعداد السوفيت لقبول انضمام ألمانيا للوحدة إلي حلف شمال الأطلنطي. واتفقا علي تحديد قوائم القوات المسلحة الألمانية بـ ٣٧٠ ألف جندي في إطار خفض القوات العسكرية في أوروبا وتكفل هذا محل كافة القضايا المتبقية في الملاقات الألمانية السوفيتية، وأعلن الجميع أن هذه المنفصلة تاريخية فقد تم حل «أبو الأسئلة» كما وصفه شيفرنادزه قبل خمسة أشهر، وفي اللحظة النهائية المرحجة وبعد أسابيع قليلة واجهنا سؤالاً عريضاً آخر. بل قضية حاصلة.

* مساعدة شيفرنادزه أرسلت له مشروع الإعلان علي أمل أن يفتح الإصلاحيون خطوة مقدمة علي الرجمين مع اعتماد جلسات مؤتمر الحرب. وفي وقت لاحق من الشهر أبلغني شيفرنادزه بأنه بدون الإعلان لكان من الصعوبة البالغة مكان بالنسبة لنا اتخاذ قرار بشأن ألمانيا... لهذا فارت ما يتوله لكم ولقول الآن بوثيقة براون تظهر كالكيل والتهار. إنه حقيقة مال السماء والأرض.

الفصل الخامس عشر

إرهاصة الغزو

تعتمد الحرب على التفاعل بين الإمكانيات والاحتمالات على
حسين أو سوء الخط. فلا مور على الإطلاق للظروف التي يسود فيها
تفكير متطفي بحت.

من التالى كلاوزيفيتش* من الحرب

توجهت إلى العراق وأجريت نقاشاً مطولاً حول هذه القضية مع
الرئيس صدام حسين. وأعتقد أنه معني بمسوية هذه القضية
ولمست لديه نية مهاجمة الكويت أو أي طرف آخر.

الرئيس المصري

حسني مبارك

٢٥ صول يوليو ١٩٩٠.

لن يحدث شيء.

الملك حسين

عامل الأردن في حديث هاتفي مع الرئيس بوش

في ٢٩ صول يوليو ١٩٩٠

* كارل فون كلاوزيفيتش (١٧٨٠ - ١٨٣١) جنرال بروسيا ولد في بروج، وقدم في الجيش البروسي، وأباني قيادة مدرعة للجيش
البروسي برئاسة الأركان في جبا يستأمر لهم مؤلفاته التي نشرت بعد وفاته هي مؤلفه بعنوان دهن الحرب، الذين عرض فيه
فكرة الحرب الشاملة وهي نظرية عسكرية ثورية أثرت تأثيراً بالغاً في ألمانيا وغيروها. توفي متأثراً بالتهور في
بروسلاف، (المترجم).

بعد شهر واحد من خطبتي لماري ستورانت استمعداً للزواج كنت أقطع مسافة الثلاثين ميلاً الذي تفصل واشنطن عن كوانتكو بفيرجينيا حيث كنت ضابطاً برتبة ملازم في فيالق مشاة البحرية علي وشك إتمام فترة التدريب الأساسي للتصليح ومدتها ستة أشهر. وتبعد كوانتكو مسيرة ساعة بالسيارة عن عاصمة الولايات المتحدة وجمال بخاطري أنه ربما لا تلوح لي الفرصة مرة ثانية علي الإطلاق لأكون شاهد عيان للتصليب رئيس أمريكي.

وبينما نحن نسلك شارع بنسلفانيا غير بعيد عن مقر الكونجرس لقدرت منا علي نحو غير متوقع مدير تنفيذي بإحدى الشركات الكبرى، وكما تبين لتضح أن ابنه أحد أفراد مشاة البحرية الأمريكية في كوريا، وقد أثار زعي العسكري اهتمامه. وكان الرجل يحتفظ بتذكريات إضافية لدخول استعراض للتصليب، وسأل لو كنا نريدهما. وشكرناه علي كرمه واتجهنا صوب المقعدين المخصصين في المنصات الموقفة المقامة علي جانبي شارع بنسلفانيا الذي كان يحج بالإثارة التي أنستنا بروية بعد الظهور. كان المقعدان في موقع متميز مباشرة في مواجهة منصة الشرف أمام البيت الأبيض. ولأزلت احتفظ بالأرشعة الملونة التي تسللناها بمناسبة الاستعراض.

وبعد نحو أربعين عاماً في الثامن من حزيران يونيو ١٩٩١ وجدت نفسي أجلس - في وضع لم يخطر علي بالي - في منصة أخرى أساهم في الاحتفال بنصر أمريكي مؤزر آخر. بالنهاية للحرب في الخليج. وتجمع أكثر من ثمانمائة ألف جندي أمريكي علي امتداد الطريق تكريماً للتضحيات الخمسمائة وخمسين ألف جندي الذين شاركوا في الحرب وثلاثمائة وتسعين جندياً الذين قتلوا في حملة تحرير الكويت من الاحتلال العراقي الوحشي. وشارك في العرض العسكري تسعة آلاف جندي يمثلون مختلف أفرع القوات المسلحة الأمريكية بقيادة الجنرال شوارزسكوف قائد عملية عاصفة الصحراء. وبينما سار طابور العرض بفخار عبر شارع كونيديتيوشن تحلق فوقه تشكيلات من المقاتلات الحربية بدءاً من طائرات الشبح لمقاتلة إف ١٧ حتي طائرة للنقل العملاقة سي ٥. غمرني شعور بالامتلاء لغرامي بدور في واحدة من أكثر اللحظات إثارة للكبرياء الوطني في التاريخ العسكري والديبلوماسية للولايات المتحدة. وتذكرت الكلمات التي القني بها لي نيك تشيلي فيما الرئيس يقضي كلمته أمام جلسة

مشتركة لمجلسي الكونجرس وسط تصفيق حاد قبل ثلاثة أشهر فقط: «بيكر، ليس هناك أروع من هذا».

واتسمت اللحظة بقدر لا بأس به من السخرية، فقبل ثمانية عشر شهراً عندما تولى الرئيس مهام منصبه كان يستعصى علي الفهم أن الولايات المتحدة ستحوص حرباً ضد العراق. فبعد ثمانى سنوات من القتال العناري مع إيران كان صدام حسين يرأس بلداً مستنزفاً مخابراته في الحضيض. فالصناعات العراقية نُمِرَتْ والمدن خربت من جراء الأضرار التي أحدثتها المذاب من صواريخ سكود الإيرانية. وسقط أكثر من نصف مليون قتيل من سكان للعراق البالغ عددهم ١٨ مليون نسمة فقط. وبالقطع لم يدر بخاد أحد منا أن هذا البلد الذي سعت أمريكا لخطب وده يمكن أن يجيش الجيوش ليضع العالم علي طريق الحرب في آب أغسطس عام ١٩٩٠م.

الميل ناحية العراق

استندت السياسة الأمريكية تجاه العراق التي ورثها الرئيس بوش من إدارة ريجان علي التصميم علي إجهاض الطموحات التوسعية للحكومة الثورية في إيران. فعلم أية الله الخميني بنشر الأصولية الإسلامية الراديكالية في مختلف أرجاء الشرق الأوسط كان يُنظرُ إليه بكل صواب علي أنه تهديد حقيقي خطير للاستقرار الإقليمي والمصالح الاستراتيجية الأمريكية. فإذا هدد المد الأصولي الدابع من طهران الحلفاء الرئيسيين لأمريكا مثل إسرائيل ومصر والعربية السعودية فسوف تسقط المنطقة بأسرها في هاوية الاضطراب. الأمر الذي يعرض للخطر التدفق المستمر لإمدادات البترول للغرب، ويزيد فرص نشوب حرب جديدة في الشرق الأوسط.

وكان لقرار احتواء إيران أبعاد سياسية وعاطفية أيضاً. وساهمت أزمة الرهائن في إيران عام ١٩٧٩ إلي حد كبير في انتخاب رونالد ريجان عام ١٩٨٠ وأصبح عجز جيمي كارتر

عن ضمان الإفراج عن الدبلوماسيين الأمريكيين الذين احتجزتهم إيران لمدة ٤٤٤ يوماً
مراعياً لشكل الرئاسة ولتحصار القوة الأمريكية في مختلف أنحاء العالم. وبما أننا كنا
المستفيدين انتخابياً من هذه الفترة النصفية في تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، وبما أننا شهدنا
أيضاً العواقب للوخيمة لفضيحة إيران كونترا عام ١٩٨٦ كنا علي إدراك تام بالقدرات
النامرة لآية الله الخميني علي السياسة الداخلية.

وقبل أربعة أشهر من تولي للرئيس ريجان السلطة قام العراق بغزو إيران مشعلاً حرباً
استغرقت ثمانية أعوام تلتتهى بالجمود وتدمير البلدين. وهأت الحرب لإنارة ريجان وسيلة
ملائمة لاحتواء إيران ومساعدة العراق. ومع نهاية عام ١٩٨٢ خلس الرئيس ريجان إلي أن
المصلحة القومية تقتضى تطوير العلاقات مع العراق. وفي عام ١٩٨٣ وبعد اتصال صدام من
الإرهاى الشهير أبو نضال قررت إدارة ريجان رفع اسم العراق من قائمة الدول التي نرعي
الإرهاب. وبعد عام استؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بعد قطيعة استغرقت سبعة
عشر عاماً. وفي غضون نفس الفترة بذلت الولايات المتحدة في تقديم ضمانات قروض
مكنت بمقدار من شراء حبوب أمريكية. وخلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية ثم تزويد
المراقبين بالمعلومات الاستخبارية العسكرية، وفي عام ١٩٨٧ عندما بذلت إيران في مهاجمة
ناقلات النفط علي أمل حرمان العراق من عائداته الحساسة من صادرات النفط قررت
الولايات المتحدة «رفع العلم الأمريكي» علي الناقلات المحايدة ونشرت سلفاً حربية في
الحليج لعمادتها من الاعتداءات الإيرانية.

وعندما انتهت الحرب العراقية الإيرانية في آب أغسطس عام ١٩٨٨ كانت إدارة ريجان
في أشهرها الأخيرة. وقرر الرئيس ريجان ترك أى عملية وإعادة تقييم جادة حول السياسة
الأمريكية تجاه الحليج إلي خلفه. وبالتالي فقد أمر الرئيس بوش بإجراء مراجعة استراتيجية
بعيد أداء اليمين للدستورية. وانتهت مراجعة تهيدي في نيسان إبريل ١٩٨٩ لكن إقرارها
بصفة نهائية تأجل إلي تشرين الأول أكتوبر.

وخرج العراق من الحرب في حالة صر شديد. فقد انهيار الاقتصاد العراقي بالنقل ودمر
الكثير من المدن العراقية وتعول الجانب الأعظم من البنية الأساسية إلي أطلال. وكان صدام

في حاجة ماسة إلى المال لتمويل بلاده المدمرة الأمر الذي يكتسب إقامة علاقات ودية ليس مع الدول الحربية الغنية فحسب بل مع الدول الغريبة أيضاً.

وكان جيوران صدام وخاصة مصر يشعرون بالامتنان له لتصدده للخطر الإيراني. واعتقدوا أنه سينصرف بعد الحرب إلى عملية الإعمار الداخلي وشجعوا الولايات المتحدة على استمالته. وكان حلفاؤنا الغربيين وخاصة الفرنسيين والألمان أكثر اهتماماً ببيع التكنولوجيا لا بإقامة للمواجز. وكان السوفييت لا يزالون قوة عظمى وصدام حليفهم الرئيسي. وفي ضوء البيئة الدولية والإقليمية السائدة حينذاك لم يكن أمام الولايات المتحدة سوى انتهاج سياسة الاحتواء المزودج ضد إيران والعراق للعمل وفقاً لأهليتها الذاتية. ولم توث هذه السياسة مفعولها.

وفي ذلك الحين كنا نرى في العراق حليفاً عربياً مغبوطاً محتملاً في تحريك عملية السلام المحصورة في الشرق الأوسط. وكنا نفترض أن عراقاً أقل انقساماً سيكون مغبوطاً إلى حد ما لعملية السلام. وعلي العكس كنا نعتقد أنه لو اخذنا العراق فإن يوسعه تشجيع الفلسطينيين والتأثير عليهم وأردنا إختبار اقتراح أن العلاقات السياسية والاقتصادية الوثيقة مع العراق ربما تفعله بالأ يكون حجر عثرة. وتشجعت أنا شخصياً بهذه الفكرة ليس فقط عن طريق عدد من زعماء الشرق الأوسط. بل أيضاً بواسطة بعض أفضل أصدقاء إسرائيل ومنهم عضو جمهوري بمجلس الشيوخ طلب مني بشكل خاص استمالة العراق.

وفي الوقت ذاته كانت إدراكنا نخوض صراعاً في واحدة من أكثر فترات التخبير الجذري في تاريخ للعالم. وشكل انهيار الاتحاد السوفيتي وتفكك حلف وارسو وتوحيد ألمانيا أعظم تغير في البيئة الاستراتيجية منذ اختراع القنبلة الذرية. وأنشَقَّ للتكثير من الوقت والاهتمام في عملية السلام في الشرق الأوسط والتطورات في أمريكا اللوسطي والأحداث المفاجئة مثل مذهبة المنشقين في ميدان تيانانمين في حزيران يونيو في بكين. وفي تلك البيئة حينذاك لم يكن أياً منا يعتقد أن السياسة الأمريكية تجاه للعراق تمثل أولوية ملحة. ولم تدر بحدى أو بخلد الرئيس. ولم تكن مراجعة إدراكنا للسياسة السابقة تجاه العراق بعيدة عن

الاعتمادات الاقتصادية للدخول. ومنذ البدايات الأولى لإدارة ريجان توسعت سياسة ضمانات القروض للعراق لاستيراد الحبوب بشكل مذهل. وكانت شركة الائتمانات السلعية التابعة لوزارة الزراعة تقدم أكثر من مليار دولار كضمانات قروض في العالم للعراق لشراء مواد غذائية أمريكية. ومع عام ١٩٨٩ أصبح العراق ناسح أكبر مشتر للمنتجات الزراعية الأمريكية. وحظيت هذه البرامج بشعبية طاغية في الكونجرس ولدى السياسيين المسؤولين عن الزراعة.

وحتى عن القول أن سجل العراق في تمديد هذه القروض كان نظيفاً، فلأننا حاولنا عزل العراق لحرمان الشركات الأمريكية أيضاً وخاصة للشركات الزراعية من فرص تجارية مهمة. ولوحدث هذا لتعرضنا بالتأكيد لانتقادات من المؤيدين للمتحسين في الكونجرس مثل الديمقراطي جاك بروكس من تكساس وشارلي روز من نورث كارولينا وكلاهما سيصبح منتقداً قوياً لكل السياسات التي سبق وأبداها بشدة.

وعلى مدى الأشهر الستة التالية لم تكن السياسة نحو العراق في بؤرة التركيز. ومع ذلك وقع الرئيس في ٢ تشرين الأول أكتوبر ١٩٨٩ توجيه مجلس الأمن القومي (Nsd26) بتحديد السياسة الأمريكية في الخليج.

وفيما يتعلق بالعراق خلص التوجيه إلي أن: «العلاقات الطبيعية بين العراق والولايات المتحدة سوف تخدم مصالحنا طويلة الأمد وتمتد الاستقرار في الخليج والشرق الأوسط، وكوسيلة لاختبار فرضية أن علاقات الصداقة ربما تدفع للعراق إلي تهذيب سلوكه تجاه قضايا مثل الإرهاب وحقوق الإنسان وإنتاج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية أديدا استعدادنا للتوسع في الحوارات السياسية والاقتصادية مع بغداد. وفي هذا الصدد اتخذنا علي مواصلة السعي لتسهيل الفرص أمام الشركات الأمريكية للمشاركة في إعمار الاقتصاد العراقي».

وتضمن التوجيه صراحة سياسة للحرمان من الحوافز لو لم تتجح. ولم تتمكنا أية أوهام بشأن وحشية سددام مع شعبه أو قدرته علي تصعيد التوتر مع جيرانه وفي حينه أقررنا

جميعاً أنه من المحتمل تماماً أن أي ثواب ستقدمه له سيفشل في تحقيق النتيجة المرجوة، ولو حدث هذا فقد نص للتوجيه ٢٦ (Nsd26) علي قطع أو خفض مستوى علاقتنا. ونوه التوجيه إلي أنه ينبغي علي القيادة العراقية أن تعي أن أي استخدام غير مشروع للأسلحة الكيميائية أو البيولوجية سيؤدي إلي فرض عقوبات اقتصادية وسياسية متسعي في سبيل تطبيقها إلي الحصول علي كل تأكيد ممكن من حلفائنا وأصدقائنا. وغابت هذه المرونة في التحول السريع من الموقف إلي الحرمان منها عن الكثيرين. لكنها كانت في الحقيقة أحد العناصر الرئيسية للاستراتيجية.

وكان من المفيد للغاية استطلاع إمكانية أن العلاقات الأفضل قد توقف الانتشار النووي وتغلب منافع اقتصادية وتبرز احتمالات التوصل إلي سلام بين العرب وإسرائيل. وعلي نفس التقدير من الأهمية كان بوسعا دوماً استئناف الاحتواء لاحقاً لو لم يجد الارتباط نفعاً.

محاولات الارتباط الأولى

حدث أول اتصال مباشر لي مع العراق بعد شهرين من أدائي لليمين. ففي الرابع والعشرين من آذار مارس ١٩٨٩ اجتمعت مع نزار حمدون السفير العراقي السابق لدي الولايات المتحدة الذي كان يشغل منصب وكيل وزارة الخارجية العراقية للشؤون الخارجية. وأبلغت حمدون أن الولايات المتحدة تولي أهمية كبرى لعلاقاتها مع العراق، وبأنها تأمل في توثيق العلاقات الثنائية معه. وأكدت أيضاً أن استخدام العراق للأسلحة الكيميائية خلال الحرب مع إيران وعند الأكراد العراقيين يمثل عقبة خطيرة أمام التوصل لهذا الهدف.

وفي السادس من تشرين الأول أكتوبر - أي بعد أربعة أيام من تحديد التوجيه ٢٦ (Nsd26) لسياسة تجاه العراق اجتمعت للمرة الأولى مع وزير الخارجية العراقي طارق عزيز. وكمعظم الاتصالات الأولية كان الاجتماع لقاء دبلوماسياً وبدأ حاول كل منا حلاله تكوين رأي عن الآخر ووضع أساس لاتصالاتنا في المستقبل. وأنكر الانطباع الذي تركه

عزير لدى. وطارق عزير شخصية مهذبة كورموويليتانية يتحدث الإنجليزية بطلاقة ويمتلك ناصبة الحديث*. إنه في الحقيقة رينتروب عصرنا.

كان اهتمامي الأساسي بقاء عزير يتمثل في السعي للحصول علي مساعدته في تحريك عملية السلام في لشرق الأوسط. وقوبل اقتراحي بإجراء مباحثات بين إسرائيل وفلسطين من الأراضي المحتلة، بالرفض. واختفت الاجتماعات التي عقدت في الصيف مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية في التوصل إلي اتفاق. وفي غضون تلك الفترة طرح مبارك حملة النقاط العشر بهدف كسر الجمود. وعندما طلبت من عزير الموافقة علي خطة النقاط العشر رد بأن تأييد العراق للخطة معروف تماماً في المنطقة. ومع ذلك كانت حكومته تنتهج سياسة الامتناع عن إصدار بيانات علنية عن عملية السلام. فمثل هذه الحديث قد يعقد الأمور واعتبرت تصريحاته تنصلاً سهواً. لكن الأمل كان لا يزال يرلودني في أنه ربما يتم إقناع العراق في نهاية المطاف بتقديم المساعدة في التوصل إلي حل.

وفي أول لقاء بيننا أبلغته بأن الولايات المتحدة راجعت علاقتها مع العراق وتريد تعزيزها وتوسيع نطاقها. وكانت هناك أسباب تدفعني للاعتقاد بأنه توجد إمكانية توجيه العلاقات بيننا في اتجاه إيجابي. وقال عزير إن صدام حسين أصدر إليه تعليمات بالإعراب صراحة عن أن العراق يسعى بنفس القدر لتحسين العلاقات، علي أساس التفاهم والاحترام المتبادل.

وما لبث أن غير لهجته علي خير توقع. وأخذ يكيل الاتهامات للولايات المتحدة بالتدخل في الشؤون الداخلية لبلاده، وللقوم بمحاولات سرية لتخريب الحكومة. كانت أخته واهية. فقد تلقى العراق تقارير تفيد بقيام دبلوماسيين أمريكيين كبار بالاتصال بنظرائهم العرب، إثارة خوفهم وشكوكهم، تجاه توليا للعراق التي قال إنها توليا سلمية. وشكك هؤلاء

* يولخيم دين رينتروب ١٨٩٢- ١٩٤٦ سياسي ألماني ولد في فيسول. انضم الحزب الاشتراكي الوطني عام ١٩٢٩. وأصبح مستشاراً لمفتي لشؤون الخارجية المسؤول عن المعاهدة الحرة الألمانية الجمهورية عام ١٩٣٥. وحصل سفيراً لألمانيا لدي بريطانيا عام ١٩٣٦. ثم عين وزيراً للخارجية (١٩٣٨-١٩٤٥) لدى البريطانيين عام ١٩٤٥، وأعدم بعد أن أخلته محكمة بريبرج. -المترجم-

المسؤولون - فوق ذلك - في المصاعى العراقية لتطوير «قاعدته التكنولوجية» وذلك في إشارة رقيقة إلى تعزيز القدرات العسكرية الذى يمثل مصدراً للإزعاج. وأكد «أن كل ما نلحقه هو لصالح شعبنا». وأخيراً وجه الاتهام بأن «بعض الوكالات الأمريكية» يفترض أنها المخابرات الأمريكية تسعى لزعزعة الاستقرار في العراق.

وأبلغته بأن المفاجأة تلجمني من هذه الشكاوي. كان هذا أول احتكاك مباشر مع جنود العظمة الذى أدركت لاحقاً أنه متجنز لدي الدولت العليا فى الحكومة العراقية. وهو ذات الجنود الذى عذني سلسلة حسابات خاطئة عن أمريكا والغرب رثبت عواقب مأوسوية فيما بعد.

وانتقل عزيز إلي للشكوي من انخفاض قروض شركة الإئتمانات السلمية للعراق من مليار دولار إلي ٤٠٠ مليون دولار فى العام القادم. وزعم أن هذا الإجراء الذى قال إنه سيؤدى إلي «توتر العلاقات» مرتبط دون مبرر بقضية البنك الإيطالي بنكاً ناسونالي ديل لا فارو، التى لم يكن لنا صلتع فيها. وهذه إشارة واضحة إلي ما تكشف عن قوام فرع البنك الإيطالي فى جورجيا بتقديم أكثر من ثلاثة مليارات دولار إلي العراق بدون خطابات ضمان معتمدة. وقال عزيز إن بلاده لها عظم الشرف بالقضاء علي الفساد. ويريد أن يعرف فوراً لو أن هناك أدلة علي ثبوت تورط مسؤولين عراقيين. ومألته عما إذا كانت الحكومة العراقية ستتيح تسليم أى مسؤول يشتبه فى ارتكابه أخطاء فرد قائلاً: إن ذلك يعتمد علي طبيعة المعلومات التى ستقدم للعراق.

وبما أثنى علي علم بالعمليات السرية للعالية للحكومة الأمريكية كنت طلي يقين بأن ادعاءات طارق عزيز بالمحاولات الأمريكية لزعزعة استقرار العراق لا أساس لها البتة. ومع هذا ومن قبيل الاطمئنان راجعت الأمر شخصياً مع للرئيس وسكوكروفت. وأبلغت طارق عزيز بعد شهر فى رسالة مكتوبة بأن الرئيس كلفني بإخطاركم «أن الولايات المتحدة لا تشارك فى أى محاولة لإضعاف استقرار العراق وبوسعى إبلاغكم هذا من أعلي سلطة».

وأصفت: إنه من المهم التطرق إلي «بعض الادعاءات الخطيرة التي تقتضي الحاجة
تقصيدها عن إدارة برنامج شركة الإئتمانات السليمة. وبالطبع كنت أشير إلي احتمال تورط
مسؤولين عراقيين في أنشطة البنك الإيطالي- وراودني الأمل في إمكانية تسوية تلك
المشكلات واستمرار البرنامج، وأكدت مجدداً: «التزام الرئيس شخصياً بإرساء أساس مبن
برغم الاختلافات الحتمية. وأبلغ عزيز سفيرتنا لدي بغداد إيريل جلابي أنه يحتر أن لهجة
رسالتى إيجابية.



وفي السادس والعشرين من تشرين الأول أكتوبر رفع جون كيلي مساعد وزير الخارجية
للشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا NEA وإيراهام صوفير المستشار القانوني لوزارة
الخارجية «مذكرة عمل» أوصياني فيها باستمرار تقديم ضمانات الإئتمان السلي للعراق. وأقر
التوصية كل من بوب كيميت وديك مكورماك وكيل الخارجية للشؤون الاقتصادية، وأشارت
للمذكرة إلي اتهامات للفساد العراقي وتدابيعات فضيحة البنك الإيطالي، ونوهت إلي
المشاورات التي أجراها محامون من وزارة الخارجية مع نظرائهم في وزارة الزراعة الذين
أفحت لهم فرصة الاطلاع علي تعقيقات البنك الإيطالي، والتشاور مع مكتب المدعى العام
الأمريكي في أطلانتا.

(وأجري المحامون أيضاً مشاورات مع وزارة العدل). وأشاروا إلي أنه في الوقت الذي
يعمل فيه تورط عدد من المسؤولين العراقيين في القضية. فإن مطوئنا عن التحقيق تشير
إلي أن الإدعاء لا يحترم توجيه الاتهام الآن لمسؤولين عراقيين «وأوصينا بتقديم الإئتمانات
السليمة. شرط أن تثبت عملية المراجعة عدم ارتكاب العراقيين أي أخطاء» علي أن تدار علي
أساس «مراجعة ذاتية دورية» علي أن يتم الصرف علي دفعت لضمان امتثال العراقيين
بالتزامات الإئتمانات السليمة والتعاون في التحقيق في قضية البنك الإيطالي.

واستشهدا بوعد طارق عزيز بالتعاون اللام في قضية البنك الإيطالي باعتباره «خطوة غير مسبقة من جانب العراق» واعترضا علي تقديم حجم إلتزمات للعراقيين يقل عما رفضوه في السابق «خاصة عندما يبدو واضحاً أنهم سيقبلون عمليات مراجعة أخرى وصعوبات أخرى مقولة». وسبقاً أيضاً سببا جوهرياً بأن كيلي علي وجه الخصوص سيحتج علي أن قدرتنا هي التأثير علي السياسات العراقية في المجالات المهمة لذا بدءاً من لبنان حتي الشرق الأوسط ستأثر إلي حد كبير بنتائج مفاوضات الإلتزمات السلمية.

ويندرج هذه الموقف ضمن معايير التوجه Nsd26. وفي ٣١ تشرين الأول أكتوبر وافقت علي التوصية، وطلبت من كلايتون يونر وزير الزراعة المضي قدماً في تطبيق برنامج قرض المليار دولار علي دفعات. وفي ذات اليوم اتصلت بيوتر وطلبت منه تنفيذ البرنامج بالكامل مع اتخاذ الضمانات الكافية للتأكد من عدم تكرار المخالفات السابقة. وأبطلني: «أعتقد أننا ننظر إلي الأمر بنفس نظرة رجله». سوف أشرع فيه علي الفور.

وبعد ثلاثة أيام قررت وزارة الزراعة المضي قدماً في تنفيذ برنامج قرض المليار دولار علي دفعتين مع الضمانات التي بحثها مع يونر وعرض الاقتراح علي المجلس الاستشاري القومي حول السياسات الدولية والمالية (NAC) وهي لجنة من الوكالات الحكومية تطي بالتنسيق سياسات مثل قروض الإلتزمات السلمية التي تتجاوز حدود الاختصاص. وفي السادس من تشرين الثاني نوفمبر أقر المجلس الاستشاري قرض المليار دولار كله علي أن تكون الدفعة الأولى خصمالة مليون دولار. وأن يتم تقديم الدفعة الثانية قبل مراجعة امتثال العراق ودراسة أي تطورات جديدة بشأن قضية البنك.

وفي رسالة بعثت بها لطارق عزيز في اليوم التالي أبلغته بأن القرار «يعكس الأهمية التي نوليها لأهمية علاقاتنا مع العراق بأنني سعيد لما بلغني عن تمهده بالتعاون اللام في قضية البنك الإيطالي». وأشرت إلي «أن تعاوننا في هذا الأمر خال من أي شائنة لعدم الشرعية».

وفي ١٧ كانون الثاني يتجاوز الرئيس معارضة الكونجرس ووقع توجيهاً بالسماح
لذلك التصدير والاستيراد بتقديم قرض بنحو مائتي مليون دولار لتمويل مشتريات الحبوب
للعراق وقال: إن رفض هذا القرض وأن يخدم المصالح القومية للولايات المتحدة، وتأكد أن
هذا القرار الذي أبدته بالكامل هو أقصى ما استطعنا بذله من جهود لوصول العراق علي تهذيب
سلوكه.

تحول صدام المشؤوم

وبرغم مواصلة نهج اللواب تدهورت علاقتنا مع العراق ونحن في مطلع العام الجديد.
وعلي الفور تقريباً تبني العراقيون نمطاً للسلوك وصفه جون كيلي بأنه ربيع سوء السلوك
الصدامي، ومع شهر نيسان إبريل بات واضحاً أن سياستنا لم تحقق النتائج المرجوة. وأصبح
من الضروري الآن اتخاذ موقف المواجهة مع بغداد.

ولا مجال للشك في أن سلوك صدام قد تغير للأسوأ في أوائل عام ١٩٩٠. ريات خطابه
أكثر حدة وتهديداً. وأعدم صحفياً بريطانيا إيراني المولد بتهمة التجسس* ونعالت شكونه في
مرارة من افتداحية أذيعت في إذاعة صوت أمريكا وتضمنت إشارة سريعة إلى الدولة
البوليسية في العراق، وأخذ يتهم الولايات المتحدة علانية بالقمع في الخليج. وقام ببناء
ست منصات لإطلاق صواريخ سكود في غرب العراق يصل مداها إلي إسرائيل، وعزز
جهوده لامتلاك تكنولوجيا متقدمة يمكنه تطويرها لمستخدم في برامجه العسكرية والنووية.

(وينبغي التنويه إلى أن النشاط المخابراتي لم يكف بشكل خاص علي ما كان يدور في
العراق. ويسري وصف وينستون تشرشل للاتحاد السوفيتي للستاليني تماماً علي العراق الذي
كان لغزاً فيه لغز مبهم).

* هو فلادimir بازوف الذي كان يعمل بسفينة الأوزر البريطانية (المرجم).

ونتيجة لذلك كان من الصعوبة البالغة بمكان تحديد مدي ما يصنعه صدام حسين من تحولات استراتيجية بل وحتى تكتيكية. وتبدو العناصر التي تسعيدها الذاكرة يسيرة على الفهم. فمدي الفقر الذي يطأى منه للعراق وحاجته إلي السطو علي بنك مثل الكويت أو جنود عظمه صدام من هجوم آخر علي منشآته النووية - كانت تقبل مختلف للتفسيرات في حينه.

ومع هذا تعارض سلوك صدام الوحشي المتزايد مع دبلوماسيته الخاصة التي تجنب بإفراط نحو المصالحة. وفي ١٢ شباط فبراير اجتمع كيلي وإيريل جلاسي مع صدام حسين لسبعين دقيقة في بغداد. وأشارت كل الروايات إلي أنه كان لاجتماعاً ودياً. وقال صدام إنه مع تراجع الاتحاد السوفيتي كقوة عظمي فإن أمام الولايات المتحدة فرصة للمساعدة في تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط.

وكان مغزي رسالته أنه يفضل السلام علي الحرب في الشرق الأوسط. لكنه يشك في أن الولايات المتحدة ستمارس الضغط اللازم علي إسرائيل من أجل تمريك عملية السلام. ومن جانبه أكد كيلي مجدداً التزام الرئيس بما قال إنه «صدافقة حميمة وحقيقية لمصلحتنا المشتركة، وأبلغ كيلي، صدام أيضاً بأن التقرير السنوي للخارجية الأمريكية عن حقوق الإنسان المقرر أن يصدر في غضون أسبوعين يتضمن انتقاداً حاداً لنظام بغداد.

ومع تزايد أذي صدام أصرنا عن قلقتا بحدة أكبر. ففي ٢٧ شباط فبراير أوضح سكرودرويت للسفير العراقي استياء الرئيس من انتقادات صدام الأخيرة للولايات المتحدة. وبعد ثلاثة أيام أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية توجيهاً قوياً لسفارتنا في العواصم العربية معتمداً تعليمات السفيراء بشرح اختلافنا الجذري مع العراق حول الانتشار النووي والأسلحة الكيماوية ونشر صواريخ سكود وحقوق الإنسان. وفي ٢ آذار مارس أبلغ سكيب جليم نائب كيلي السفير العراقي بأن تصريحات صدام «مروعة».

وفي الثاني من نيسان إيريل تغيرت حساباتنا الاستراتيجية عندما هدد صدام إسرائيل صراحة في رسالته إلي القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية. ظلمرة الأولي أكد صدام امتلاك العراق لأسلحة كيماوية وقوعد قاتلاً: «لنقسم بالاله العظيم أن نحرق نصف إسرائيل لو

تعرسنا للهجوم». وأثارت هذه التصريحات لنزعاج العالم الغربي والشرق الأوسط، وسارعت الإدارة بشجبها. وأصدرت تعليمات لتأنييل بأن تصفها «بأنها نارية وغير مسؤولة وخطيئة، ومع ذلك فقد ردت عندما سئلت بأن العلاقات الثنائية ليست قيد المراجعة نتيجة لتصريحات صدام النارية. ولئن صح هذا في تلك اللحظة فإنه لم يدم طويلاً.

وفي اليوم التالي للرسالة بقي كيميت وروس بعد انتهاء الاجتماع الصباحي للعاملين لبحث التطور الجديد معي. وقال لي: إن لفظ «مروق إسرائيل» لا يجب النظر إليه كشورة منعزلة. وقال روس: «إن سياستنا تقوم علي وهم خاطئ بأن بوسنا حمل هذا الرجل علي الاعتزال» وقال كيميت: «لا يمكننا» قم أعد لشعر بالارتياح لهذه السياسة، إنهم رجال غلاظ قد لا تجدى معهم غير الشدة. ربما أن سياسة اللواب لم تزلت بشمارها فقد حان وقت سياسة العقاب» وولفقتهما علي ضرورة تغيير سياستنا، وولفت علي توصية كيميت بأن تطلب الخارجية عقد اجتماع للجنة اللواب لدراسة تعديل سياستنا تجاه العراق لتصبح سياسة الاحتواء. وقررت أيضاً ضرورة تسليم للتوجيه لوزارة الخارجية العراقية. وفي ١١ نيسان إبريل أرسل كيميت برقية بهذا التوجيه إلي جلاسبي لنقله إلي العراقيين «بأن العراق ستكون علي مسار تصادم مع الولايات المتحدة لو واصل تبني إجراءات تهدد الاستقرار في المنطقة وتقوم المساعي الدولية للحد من التصح وتهازاً بالقوانين الأمريكية.



وفي اليوم التالي لاجتمع صدام مع أعضاء مجلس الشيوخ روبرت دول وجيمس مككوري وهرارد مينزديباوم وفرانك موركوفسكي وآلان سيمبسون في مدينة الموصل بشمال العراق. وبادء علي طلب منهم أرسلت وزارة الخارجية توجيهها سياسياً جديداً إلي السفارة الأمريكية في بغداد يتيح لهم الاهتمام بأرائنا قبل الاجتماع - كلن التوجيه مكتوباً بلغة غير دبلوماسية إلي حد غير عادي. وجاء فيه أن المواقف العراقية الأخيرة سببت «ترد شديد في العلاقات الثنائية وكررت حرفياً لغة رسالة كيميت إلي جلاسبي. وقدم لأعضاء مجلس الشيوخ تفاصيل عن

السلوك العراقي مثار للتساؤل وقلب منهم ابلاغ صدام بأنه يتعين عليه اتخاذ خطوات ملموسة لوقف انتهاكات حقوق الإنسان وإنهاء للشكوكات غير المشروعة. وأشارت البرقية إلى ضرورة لفت نظر صدام إلى أنه بدون مثل هذه الإجراءات من جانبكم فربما يتهدد القليل الذي تبقى من تأييد أمريكا للعراق.

وعاد أعضاء مجلس الشيوخ إلى واشنطن وأعلنوا أن صدام زعيم يمكن للولايات المتحدة أن تعمل معه. ولم تكن نصيحتهم الخاصة للرئيس ولي أقل تفاؤلاً عن تصريحاتهم العلنية. ورغم هذا فقد أثارت رسالة صدام مشاكل لدينا لدرجة اضطررتي لاستغلالها في اجتماع خاص عقد في مكتبي في اليوم التالي مع إدوارد شيفرناذر لممارسة ضغط عليه لتأييد دعوة للتوصل إلى معاهدة دواية للحد من الأسلحة الكيماوية. وقلت لشيفرناذر: «إن وجود أناس مثل صدام حسين سبب كاف لتقديم حافز لإثارة قضية الأسلحة الكيماوية بكافة أبعادها».

وفي البداية ساند كيميت قدراً من المعارضة من العاملين في مجلس الأمن الذين كانوا يؤيدون استمرار السياسة الحالية. وقال أحد مسؤولي مجلس الأمن القومي: «كيميت ربما يكون ببساطة شيء من الاختلاف في وجهات النظر في هذه القضية». ومع هذا وبعد أربعة أيام من لقاء أعضاء مجلس الشيوخ لصدام اجتمعت لجنة الدواب في البيت الأبيض في ١٦ نيسان إبريل لوضع خطة عملية تتمثل في كيفية الرد بقوة على السلوك العراقي غير المقبول وعلى تهديدات صدام، والاحتفاظ في الوقت نفسه بالقدره على إعادة بناء العلاقات تدريجياً لو تحسن سلوك بغداد. ووافقت لجنة الدواب على استمرار برنامج الدفعة الثانية من الائتمان. وقرر تشكيل لجنة من الوكالات الحكومية الأمريكية لتنسيق الجهود لمكافة الأنشطة النووية العراقية، وتم تقديم ورقة بالفيديوات المتاحة. وتأجل اتخاذ قرار حول الائتمانات أي إكس - أي إم وبينما شكل قرار تطبيق الدفعة الثانية من الائتمانات تغييراً مهماً في السياسة. فإن قضية ما يتعين عمله بشأن السياسة الأمريكية حيال العراق كان لابد وأن تشكل إرباكاً لمبادئ إجراء مراجعة سياسية شاملة.

وعقب اجتماع لجنة الدواب أرسل لي كيميت مذكرة يحث فيها علي ضرورة أن تسمي الخارجية لإلغاء برنامج الائتمان السلمي برمنه وقال: «إذا استمررنا في تقديم الائتمانات

السلمية والكمائنات أي إكس أي إم فإنني أعتقد أن صدام حسين سيمتد للقرار مؤشراً إيجابياً سي دفعه إلي الاستخفاف بالجهود الأخرى التي ربما نتخذها لوقف حملته للحصول علي الأملحة النووية.

وفي الأول من أيار مايو أدليت بشهادتي أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس لشيوخ. وفي سياق ردى علي سؤال للسيفاتور روبرت كاشين من ويسكونسين قلت: «من السابق لأوانه بحس الشيء، بحث عقوبات مستحطة عند للعراق. كانت معارضتي تعود أساساً لأسباب مؤسسية. فقد تقدم عدد من الأعضاء بمشروعات قوانين تدعو إلي فرض عقوبات إلزامية ضد العراق. وكنت أعتقد أن مثل هذه التشريعات ستهدأ أي مرونة في التعامل مع العراق وستجبر أيضاً علي حق الرئيس في إدارة السياسة الخارجية.

فصلاً عن ذلك، وبينما كانت علاقتنا تتحدر نحو الأسوأ لم أكن أعتقد أنه من الحكمة اتخاذ مواقف نهائية في اللحظة الزائلة. وطلب منا عدد من حلفائنا العرب ومنهم مصر والعربية السعودية انتهاج موقف وسط. وفي ٣٠ نيسان إبريل بحث الملك فهد برسالة للرئيس قال فيها إن حكومته تسمي «التهنئة الأمور» مع العراق. وفي الوقت نفسه زارني وفد من السفراء العرب ومنهم سفيرا مصر والكويت للتدخل في النزاع وأن التصريحات الدرية، أمر شائع من الزعماء للعرب للرابديكاليين. وفي هذه اللحظة لم يكن هناك ثمة سبب يدعو للاعتقاد بأن صدام يتجاوز مجرد التهديد الشفوي.

بالإضافة إلي ذلك كان استمرار السياسة القديمة لا يزال يستلعب عددا من الأنصار. ففي ١٨ أيار مايو أبرق أحد كبار العاملين بمجلس الأمن القومي بأفكاره من بغداد حيث كان في زيارة تقصى حقائق. وفي مذكرة نسبها للكليرون خطأ إلي جلاسي شدد بإلحاح علي ضرورة صرف الدفعة الثانية. فقد أبلغ العراقيين هو وفود الشيوخ لوهم بأنه لا توجد مؤامرة لمعاقبة العراق، وأن الولايات المتحدة لا تزال متفتحة أمام «علاقة عمل ممتازة لو هذب العراق تصرفاته وكتب قاللاً؛ «سالم تتر وزارة الزراعة اعتراضاً قانونياً قبلنا في حاجة المعنى قديماً في تقديم الدفعة الثانية من الكمائنات للسلمية». وكان فريق التدفوش التابع

لوزارة الزراعة قد أعطي للمراقبين بالفضل شهادة إزاء ذمة، وبالقلم فإن معاقبة العراق في مثل هذه الظروف «سيتم في نظر العراقيين مجرد جانب سياسي محض من مؤامرة أمريكية ضد العراق».

وفي غضون أيام اجتمعت لجنة النواب للمرة الثانية (٢٩ أيار مايو) لمراجعة مختلف الخيارات. وبعد عرض أحدث المستجدات حول الائتمانات السلوية وتحقيقات قضية البلاك الإيطالي ساد شعور بالإجماع لصالح تطبيق كافة برامج القروض الاقتصادية للعراق. وفي اليوم التالي وفي قمة بغداد ندد صدام بالكويت لمشاركتها «في حرب اقتصادية» ضد بلاده وتعدى أمير الكويت الذي رفض مطالب صدام بتقديم مليارات الدولارات علي سبيل التعويض وتقديم تنازلات إقليمية.

الموقف يتدهور

وفي أوائل فصل الصيف ازداد قلق الإدارة الأمريكية من عدوانية صدام التي تواصلت حديثها. وفي ١٦ تموز يوليو لشككي طارق عزيز في مذكرة لأمين عام الجامعة العربية من تورط الكويت والإمارات العربية المتحدة في «عدوان مباشر» ضد العراق بزيادة إنداجهما من البترول ورفض الاتهام الذي ساقه صدام علانية في خطاب ألقاه في اليوم التالي في الاحتفال بالذكرى الثانية والعشرين لعودة حرب البعث. وحذر صدام الذي اتهم الولايات المتحدة بتقديم «الخدج المسموم لأعدائه» من أنه إذا لم تجد الكلمات فمن الضروري فعل شيء ما*.

وفي ١٩ تموز يوليو أُرسلت برقية موجزة لسفارات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط تتضمن توجيهاً بالسياسة الجديدة حول النزاع العراقي الكويتي، وصدرت تعليمات إلي

* الرسالة موقعة ١٥ تموز ١٩٩٠-١٣ ذي الحجة ١٤١٠ هـ.

الدبلوماسيين الأمريكيين بالتأكيد علي تغطيتين في كافة اتصالاتهم مع نظرائهم العرب. هما: أولاً ضرورة تسوية النزاعات بالوسائل السلمية وليس عن طريق التهديد باستخدام القوة. ثانياً: إلى الولايات المتحدة لا ترج بنفسها في موضوع هو من صميم القضايا الثنائية يخص العراق والكويت. ومع هذا فلم يطرأ أي تغيير علي السياسة الأمريكية فلازلنا علي التزامنا بضمان تدفق البترول من الخليج وتأييد سيادة وحدة أراضي دول الخليج ... وسواصل الدفاع عن مصالحنا الحيوية في الخليج؛

وفي ٢١ تموز يوليو - أي بعد يومين من رصد الأقمار الصناعية الأمريكية تحركات حاشدة للقوات والعتاد العراقي باتجاه الحدود الكويتية طلبت دولة الإمارات للعربية المتحدة من الولايات المتحدة المشاركة في مناورة عسكرية مشتركة لإظهار التضامن ضد تهديدات صدام الجديدة. وعارض مكتب شؤون الشرق الأوسط الفكرة في البداية خشية إغضب صدام. وساورت الشكوك العربية السعودية أيضاً خشية أن تؤدي هذه المناورات إلي استعزاز صدام. واعتقدت أن المناورة المشتركة طريقة مناسبة لإظهار عدم الارتياح الأمريكي من صدام وإصباح للزاماً بحماية المصالح الحيوية للولايات المتحدة في المنطقة ووافق للرئيس علي إجرائها في ٢٣ تموز يوليو.

وفي ذلك الحين كنا نلقي تقارير استخباراتية عن حشود عسكرية عراقية قرب الحدود مع الكويت، وافق رأي الخبراء في التدخل والعارج علي أن صدام يرواغ علي أمل تخريف الكويت لحملها علي تقديم تنازلات. وفي حينه لم يكن ذلك افتراض غير منطقي. كما أن استراتيجيتنا في تشديد تصريحاتنا وبياناتنا والمشاركة في مناورات مشتركة كانت كافية لمواجهة التخويف فقط.



وفي ٢٥ تموز يوليو غادرت واشنطن في الساعة السابعة والربع صباحاً متوجهة إلي جاكربا لإجراء مشاورات تستغرق سبعة أيام في آسيا. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم

استدعيت جلاسي إلى مقر الخارجية العراقية في بغداد وبدون سابق إنذار نُقِلَتْ إلى مكتب صدام لمقابلة اجتماع دلم ساعتين. وبسبب الطبيعة المفاجئة للاجتماع تصرفت جلاسي بدون تعليمات محددة، ولكن علي ضوء للتوجيه العام الصادر في ١٩ تموز يوليو.

وفي تقريرها المؤلف من ثماني صفحات المرسلة في برقية واحدة عن الاجتماع، والذي يعد بحق وفقاً للتقاليد الدبلوماسية تحليلاً دقيقاً لحديث صدام الملتوى أشارت جلاسي إلى أن صدام يريد طمأننة الرئيس بأن نواياه سلمية، وهكذا فإنه يأمل في أن تخف حدة الانتقادات الأمريكية للعراق. ووافق صدام على التفاوض مع السعوديين والكويتيين في غضون فترة وجيزة للغاية. وكان «حاداً» في انتقاده للكويتيين، لرفضهم مساعدته في تخفيف الأزمة المالية للعراق. وبينما أشار إلى سمي «بعض الدول» في الحكومة الأمريكية لتعويض العراق. فلم يكن يعتقد أن للرئيس وأنا ضالمان في مثل هذا السلوك.

واعترفت جلاسي في تحليلها بأن المناورات المشتركة مع الإمارات ولدت الأثر المطلوب. وبات صدام يشعر الآن بالقلق من النوايا الأمريكية ويتوق لتجذب إغصاب الولايات المتحدة. وحصلت جلاسي: «لقد ملكنا اهتمامه تماماً وهذا شيء حسن». واعتقد أن من الملائم الآن تخفيف حدة الانتقادات العلنية للعراق حتي نري كيفية سير المفاوضات.

كان الأمل لا يزال يروودنا في نزع فتيل الأزمة. وفي ٢٨ تموز يوليو أعاد موظفو مجلس الأمن القومي ونجح موظفو الخارجية رسالة للرئيس التالية لصدام: «سررت بندا الاتفاق بين العراق والكويت علي إجراء مفاوضات في مدينة جدة للوصول إلي حل سلمي للثورة العالي بينكما. فلولايات المتحدة والعراق مصلحة قوية في الحفاظ علي السلام والاستقرار في الشرق الأوسط، ولهذا السبب فإننا نعتقد أن الوسائل السلمية هي أفضل طريقة لحل هذه الخلافات لا التهديد باستخدام القوة العسكرية أو الصراخ». وكان من الواضح أن هذه الرسالة لم تكن حازمة بما يكفي، وأن صدام ربما قمر الأيام الثلاثة التالية لاجتماعه مع جلاسي بعدم إحساسنا بقدر كبير من القلق.

وفي هذه المرحلة أوصت الخارجية بضرورة اتخاذنا خطوة إضافية بتوجيه قوة مهام خاصة من حاملة المظلات كانت تتجه إلى دبيجو جارميا في المحيط الهندي إلى شمال بحر العرب كمؤشر علي قلقنا، غير أن الفكرة قوبلت بمعارضة الجيش، وللإنصاف يجب القول أنه كان هناك إجماع لدخول الحكومة بلأى حدة الأزمة سخط. ورغم الحشود المراقية للفوز علي الحدود اعتبرت أنباء الاجتماع الذي سيقع بين دبلوماسيين كويكيين وعراقيين في جدة في ٢١ تموز يوليو تطوراً يبعث علي الأمل. ورغم هذا أقدمت القوات المراقية بعد يومين علي غزو الكويت للمزلاء.

دواعي التشكك في الفوز

وباسترجاع الأحداث نجد أنه من اليسير القول أنه كان علينا الاعتراف مبكراً بأننا لم نطلع في تهذيب سلوك صدام، وأنه كان علينا تغيير سياستنا في وقت مبكر ودرجة أكبر مما فعلنا. وكان ينبغي علي الأقل إعطاء سياستنا نحو العراق مساحة أكبر علي شاشة الرصد في وقت مبكر، وأعتقد أن الأسباب التي لم نعملنا علي تغيير سياستنا نحو العراق مبكراً والتي مدي بعدد أسباب عديدة ومعقدة. وببما وددت لو أننا أولينا مزيداً من الاهتمام بالعراق مبكراً. فإنني في ضوء ما حدث لازلت غير مقتنع بأنه كان بوسعنا ردع العراق عن غزو الكويت بأى إجراء باستثناء تحريك قواتنا إلي المنطقة.

ويوضح هذا الفصل برمته - ربما أكثر من أى شيء آخر - مدي صعوبة تغيير أى نهج دبلوماسي مستقر منذ فترة. وعلي أفضل الأحوال فإن هذه غالباً مهمة شاقة تستلزم الوقت. علاوة علي ذلك فإن الدبلوماسية - مثل التفكير الأمريكي - تتحيز بشكل أساسي إلي «تعيين العلاقات» فتشوير السياسة من التماون إلي المجابهة هو علي الدول اقتراح بالغ الصعوبة - خاصة عندما يكون للتأييد السياسة القائمة راسخاً بقرة في مختلف دوائر المصالح الانتخابية والبيروقراطية مثلما هو الحال في السياسة نحو للعراق.

وعلي سبيل المثال فإن تغيير السياسة كان سيستبعده انتقاد موسع حاد من الكثيرين الذين انتقدونا لاحقاً لعدم تغيير سياستنا في مرحلة مبكرة. فلو كنا قد لوحنا بوقف قروض استيراد الحبوب لتعرضنا لحرب ضروس من كبار أعضاء الكونجرس. وعلي نحو مماثل باندر كثير ممن انتقدنا لعدم تحلينا بقدر أكبر من الحسم تجاه العراق بانتقدنا عندما هددنا باستخدام القوة. ولارلت أعتقد أنه لو كان الرئيس قد تحدث قبل لب أغسطس ١٩٩٠ عن رغبتنا في التدخل في حرب لحماية الكويت لرفع الكثيرون من أعضاء الكونجرس أصابع الاتهام. وحتى بعد غزو صدام للكويت لم يكن هناك أدنى تأييد دخلي. هذا إذا كان هناك تأييد أصلاً - لاستخدام القوة العسكرية، وكان علينا بناء هذا للتأييد بشق الأنفس. ولا يجب علي رئيس أمريكي الترويج باستخدام القوة ما لم يكن مستعداً لاستخدامها بالفعل.

وكما سبق أن أشرت من قبل كانت الإدارة مشغولة أساساً بالتغيير الاستراتيجي الأكثر أهمية في العلاقات بين الشرق والغرب وهي السياسة الكونية نتيجة انهيار في أوروبا الشرقية. فقد سعي الغرب لأربعين عاماً لحدوث هذا التطور. وما يدعو للسخرية فإن انهيار الإمبراطورية السوفيتية الذي استغف طافاننا هو بالتأكيد الذي أصاب صدام بالاكتاب لدرجة دفعته لأن يري الولايات المتحدة في شباط فبراير ١٩٩٠ كقوة هيمنة تهدد طموحاته الإقليمية.



وبالإضافة إلي ماسبق كان أصدقائنا في المنطقة - بلا استثناء - يصرون باستمرار على أن صدام يستعرض عضلاته فقط، وأن التواجهة معه ستزيد الأمور سوءاً. وبساطة فإن السبب الذي لم يدفع أي إنسان للاعتقاد بأنه سيقدم علي شن هجوم يتمثل في أنه ما من حساب واقعي لمصالحه يمكن أن يدفعه إلي تصور القيام بغزو شامل للكويت. وحدد شيفرنادزه الأمر علي وجهه الصحيح في موسكو في ثالث أيام الغزو: إنه تصرف غير رشيد غير ذي معنى. بل إن صدام نفسه قال لجلالسي قبل أسبوع واحد من الغزو: «لا تدفعونا نحو

«الحرب». ولا تجعلوها الخيار الوحيد الذي يبقى لنا للدفاع عن كرامتنا. فإذا ما أثبتت الولايات المتحدة العراق علناً بأن يبقينا أمامنا من خيار سوى الرد مهما كان غير منطقي ومدمر للذات». ولمسوه الخط حول صدام كلماته إلي ولحقه.

وحتى الإسرائيليون كانوا يعتقدون أن صدام يهدد لانتزاع تنازلات اقتصادية من الكويت. وأبلغ مسئولو المخابرات الإسرائيلية المراسل نظرائهم في المخابرات الأمريكية بأن تصريحات صدام الدارية تهدف لردع أي هجوم إسرائيلي وليس تهديد العرب. وفي ٣١ تموز يوليو تلقينا تطمينات من الملك حسين والرئيس مبارك بأن تهديدات صدام تهديدات لغوية، لا تشكل تهديداً فعلياً. وما يدعو للسخرية أن معظم حلفائنا كانوا يبدون القلق في دولتهم الخاصة خلال ربيع وصيف ١٩٩٠ من أن الولايات المتحدة قد تبائع في ردها علي عدوانية صدام الجديدة.

ومن وجهة نظري فإن الفرصة الوحيدة لعودة صدام كانت تتمثل في تحول القوات الأمريكية إلي المنطقة. وما كان للكويتيين والسعوديين ولا حتى الكونغرس سيلايدون هذا الدوجه قبل الثاني من آب أغسطس. حقاً لقد كانت صدمة الغزو هي التي سمحت لنا بالتدخل العسكري قبل أي شيء آخر.

وأخيراً يثير السخرية: بالطبع إنه إذا ما نجحنا في ردع عدوان صدام فسوف يجادل الغرب في كيفية احتواء صدام الذي يستمد شجاعته من آلة حربية بالغة القوة وترسانة نووية وكيميائية أشد تفكاً مما تصوره المخابرات الغربية. وفي التحليل النهائي فإن «غسلنا» في ردع صدام ربما يكون قد حال دون وقوع نتيجة أشد سوء بكثير.

الفصل السادس عشر

بناء التحالف

إن لم يكن فاعلاً ... أنا لم يستطع العمل بطريقة جماعية
لصعد العسلون. فإنني لا أعرف ماذا سنفعل لنج تكرار حدوث
هذا مرة أخرى.

الوزير بيكر

لإدوارد شيرنادر

خلال قمة بوش - جيرياندوف

٩ أيلول سبتمبر ماسكي — فلندا

كان أبى بطلاً أمريكياً حقوقياً فى الحرب العالمية الأولى حين عمل ضابطاً برتبة كابتن فى الفرقة ١٩ مشاة العاملة بغرنا. ونال أعلى الأوساط لشجاعته. لكنه كمعظم الجنود الذين شاهدوا مقتل أسدقائهم لم يكن يحب الحديث عن هذا الموضوع كثيراً. ومع هذا فقد حكى لى عن اليوم الذى أمر فيه جنوده بالقتال خندق خندق احتله الألمان. وردوا بأن لضباط خال من جنود الأعداء. وحامره شعور قوى بأن الخوف يمتلك هؤلاء خشية اقتحام الخندق. ولذا فقد سحب مصدسه عيار ٤٥ ملليمتر وهبط درج الخندق بنفسه. وبعد عدة دقائق خرج يقاد ثلاثة من الأسرى الألمان. كان درساً فى القيادة والإقدام لأرلت أعوه حتى اليوم. كما أنه ساهم فى تشكيل لآرائى عن تفوق الرعامة الأمريكية فى مختلف أنحاء العالم.

ونشأت على الاعتقاد بأن أمريكا قادت العالم خلال الحرب العالمية الأولى عندما كان أبى يقاتل هناك، فى الخنادق ضد القيصرة، وقد عاشت هذه الزعامة فى الحرب العالمية الثانية. إن كل أمريكى من أبناء جيلى يتذكر أو تتذكر ماذا كان يعمل يوم السابع من كانون الأول ديسمبر ١٩٤١. كنت فى ذلك اليوم فى فى المعادية عشرة مولماً برياضة التنس. وبعد ظهر ذلك اليوم الأحد كنت قد انتهيت لتوى من لعب مباراة فى نادى أوكاس الريفى فى هيوستون، وكنت أسير من ملاعب التنس إلى مبنى النادى. وبينما كنت أجتاز لرض الجنوف، تنافى إلى سمى صوت الضجاء «تعرض ميناء بيرل هاربور للقصف للتو». لم يكن أبواى مغرمين بالرئيس روزفلت؛ فقد صوت أبى لصالحه مرة واحدة عام ١٩٣٢ لكنه لم يكررها مرة ثانية. وكان معارضاً قوياً للصفقة الجديدة التى كان يعتبر أنها ترقى إلى حد الاشتراكية. وأحياناً عندما يحل بعض ضيوفنا فى المنزل كان يطلب منى قراءة بعض ما أتذكر من أبيات مناوئة لروزفلت من الشعر الهزلى. لكن لم يخطر على بالى أو على بال أبى التشكيك فى عبقرية روزفلت فى إدارة السياسة الخارجية. ومثل جورج بوش فإننى أثنى لجبل اعتنق بصدق فكرة «البابكس أمريكان» أى أمريكا للقوة المشاركة من أجل إحداث تغيير خلاق وبناء حول العالم.

ولأزال أعتقد أنه فى القضايا الكونية وعلى مدار الخمسين عاماً الأخيرة حدث الكثير من الأخطاء ذات القيمة الدائمة إلى حد كبير نتيجة للمشاركة الديناميكية للفعالة للزعامة الأمريكية. وكان هذا أمر مسلم به فى حقلى على الدوام.

وما هي تلك الزعامة تتعرض للتحدى مرة أخرى في الثاني من آب أغسطس ١٩٩٠. وبهذا الغزو الفاضح للكويت أسفرت طموحات صدام حسين عن نفسها بكل قوتها وأبعادها. وبينما اعتقد كثيرون أن الحشود العسكرية العراقية علي الحدود مع الكويت في أواخر تموز يوليو لم تستهدف سوى تخويف الكويت لفتح خزانها، وبينما اعتقد البعض أن العراق قد يستولى علي حقل بترول الزميلة وربما بريان وجزر الوعدة ككروت مساومة لانزعاج تنازلات من أمور الكويت، لم يكن أحد يتوقع غزواً شاملاً. وإرساله طوابيره المدرعة إلي الحدود الكويتية السعودية كشف صدام عن شهيته واستحله للإقدام علي المخاطرة. ورغم البيانات المشتركة عبر المصبقة التي أصدرتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في مطار فلوكوفو/٢ في ثاني أيام الأزمة والتصويت بالإجماع في مجلس الأمن بإدانة الغزو واصل العراق دفع قواته إلي الكويت علي مدار الأسبوع التالي للغزو.

وربما علي ذلك أعلن بوش لدي نزوله من طائرة مشاة البحرية رقم واحد في حديقة البيت الأبيض بعد ظهر يوم الأحد الخامس من آب أغسطس ما يمكن القول أنه أشهر وأشجع موقف خلال رئاسته: «إن يستمر هذا العدوان علي الكويت». واستشهد بعض المنتقدين بهذا الحزم والتصريح الذي أصدره الرئيس علي أنه مؤشر علي نية الرئيس لخوض الحرب منذ البداية الأولى.

ومع هذا فسوف تكون هذه قزاة خاطئة لكل من جورج بوش الرجل والموقف الذي وجدت الولايات المتحدة نفسها فيه باعتبارها القوة العظمي للوحيدة الباقية في العالم في شهر آب أغسطس. فقد عكس التصريح إحساسه للغريزي والفطري منذ اللحظة الأولى بأن هذه ليست أزمة عادية، وأن هذا سيصبح نقطة فارقة في التاريخ. وأظهر تصريحه أيضاً تصميمه علي ألا يؤتى العدوان العراقي ثماره.



وفي المراحل الأولى من الصراع - منذ أيام شهر آب أغسطس الحارة إلى شهر شباط العاصفة - كان الرئيس يؤكد هذا التصميم مرة تلو المرة كلما أقدم علي اتخاذ قرار، ومع كل قرار كان المجتمع الدولي يقترب خطوة من طرد العراق من الكويت. وما لم يكشفه تصريح الرئيس هو الكيفية التي سيتم بها لتحقيق هذا الهدف.

ومن المشكوك فيه أنه كان بوسع أحد أن يتوقع كيفية نشوب هذه الأزمة. فلم يكن يسم سوى القلة تصور الدور الحاسم الذي سيلعبه الاتحاد السوفيتي بقيادة وزير خارجية نافذ البصيرة هو إدوارد شيفرنادزه في معالجة عدوان دولة حليفة. وما كان أحد يتصور المدى الذي سيذهب إليه العرب في العمل مع الأمريكيين والأوروبيين لعزل دولة عربية كان زعيمها يعتقد أنه الوريث الشرعي لعهد الناصر. واسترجاع الأحداث يمكننا الإشادة تماماً بالكيفية التي أتاح بها انتهاء الحرب الباردة إقامة هذا التحالف الدولي غير المسبوق المعروف بدرع الصحراء، والقيام بالمعجزة العسكرية عاصفة الصحراء. وكيف أتاحا بدورهما تحريك مسار عملية السلام في الشرق الأوسط مما أتاح لإسرائيل في النهاية الجلوس في مدريد والتباحث مباشرة وجهاً لوجه مع جيرانها العرب. فبدون تلك الأحداث المحفزة لما كانت إسرائيل في سلام الآن مع الأردن، وما كانت تتفاوض لإقرار السلام مع الفلسطينيين والبنانيين.

إن ما فعله الرئيس في الخليج هو الصواب بعينه. لقد أقدم جورج بوش علي اتخاذ خيارات صعبة توقعها العالم من الزعامة الأمريكية، وحتى عندما يشكر بعض أسدقائنا علانية من ممارستنا لتلك الزعامة. ولم يكن أي منا خافلاً عن العقاقير السياسية للزعامة التي أهرزها الأزمة لرئيس كنت ولتقاً أنه سيخوض حملة لإعادة انتخابه في غضون سنتين. وفي أحد أيام آب أغسطس كنا تجلس علي أفراد بالمتكب البيضاء. وقلت له: «أعرف أنك تدرك حقيقة أن الوضع يحمل كل الأسباب التي أدت إلي سقوط ثلاثة من آخر خمسة رؤساء أمريكيين: أزمة رهائن، ثوابت للقتلي، ركود اقتصادي شامل، نتيجة ارتفاع سعر برميل البترول إلي أربعين دولاراً. وفهم للرئيس المغزي تماماً. ورد قائلأ: «جيمس. إني أعرف ذلك، لكننا نفعل للصواب. إننا سنفعل ما هو في المصلحة الوطنية للولايات المتحدة وإبحدث ما يحدث».

دبلوماسية القوة وبناء التحالف

في اجتماع عقده مجلس الأمن القومي في الرابع من آب أغسطس في كامب ديفيد قرر الرئيس أن الأولوية الحتمية هي ردع أي تقدم عراقي نحو الحرية السودية . وتوازى مع هذه المهمة مهمة إفراغ الغزو العراقي من ثماره بانتهاج سياسة دبلوماسية القوة ضد صدام حسين . وسوف نبدأ بالصنغوف الدبلوماسية ، ثم تطبيق الصنغوف الاقتصادية لأقصى درجة منظمة من خلال الأمم المتحدة ، ولخيراً للتحرك نحو الصنغوف العسكرية بزيادة حجم للقوات الأمريكية تدريجياً في الخليج . وكانت استراتيجيتنا هي قيادة تحالف ميساسي عالمي بهدف عزل العراق . وأما عن طريق استخدام العقوبات الاقتصادية حمل صدام علي دفع ثمن غائل لمدروانه لوجود نفسه مضطراً للإفراج عن رهائنه للخربيين وينسحب من الكويت . وإذا لم ينسحب فسوف نطرده بالقوة العسكرية ، ولم يحاصرني أدنى شك في أنه لتطبيق هذه الاستراتيجية فإننا في حاجة لإقامة تحالف بين الشركاء ، وفي الحقيقة فإنني أبلغت شيفرناذر الكثير عندما إجتماعنا في الثالث من آب أغسطس . وللمره أن يتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لهجومنا الدبلوماسي لو كنا قد تجاهلنا السوفيت الحليف التقليدي للعراق . فاستراتيجيتنا في ممارسة صنغوف اقتصادية كان لابد وأن تمضي بالفشل لو رفضت تركيا إغلاق خط أنابيب النفط القادم إليها من العراق . كما أنه في حالة القوام بحمل عسكري فإننا في حاجة إلي تأييد الشعب الأمريكي ولكنهم ليس لدعم الحرب . ولكسب هذا التأييد فعلينا إثبات أننا استنفدنا أولاً كافة الوسائل السلمية ، وألنا تصرفنا كزعيم للمجتمع الدولي وليس كحارس منفرد ، وألنا أصدرنا علي أن تشاركنا الدول الأخرى للعبء وخاصة الكلفة المالية ، وأن الحرب في الخليج لن تثير حرباً مع السوفيت . لأنهم يتصرفون بالتصديق معنا . وفي ذلك الظروف لم تكن هناك أدنى فرصة أو نسبة مئوية لاتخاذ قرار منفرد بتحويل فرصتنا إلي حد كبير في تحقيق نجاح تام . لأنه سيمنى فشلاً سياسياً شبه مؤكد دولياً ومحلياً .

وعلي وجه التحديد كانت الأمم المتحدة هي الأدلة الأولى لتشكيل للتحالف . ففي الثاني من آب أغسطس ويتوصية منا أقر مجلس الأمن الدولي أول ما سيحصل مجموعه إلي اننى عشر قراراً ، ولم يكثف القرار رقم ٦٦٠ بإدانة غزو صدام للكويت . بل طالب بانسحاب شامل

وغير مشروط. كانت لغة القرار باللغة البساطة والوضوح قسماً بصياغتها بهدف التأكيد علي أن التصويت إما مع أو ضد العدوان، وكنا نعتقد أنه من الضروري إيجاد الجدل عن أن يصبح موجهة بين العراق والولايات المتحدة مما سيزيد من صعوبة مهمة بناء التحالف والحفاظ علي استمراره. وسافعت الطبعة الصارخة لعدوان صدام بكل تأكيد في ذلك فحتي كونا فاجأنا بالانضمام إلينا في التصويت بالإجماع بـ ١٤ صوتاً مقابل لا أحد. مع امتناع اليمن فقط عن التصويت.

وفي اليوم التالي في موسكو شاركت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في إدانة للغزو وقطع إمدادات الأسلحة إلي بغداد. وبعد ثلاثة أيام وافقت العربية للسعودية علي نشر مائة ألف جندي أمريكي في المملكة. وفي غضون أقل من أسبوع كانت كتل البقاء الأساسية الثلاث للتحالف قد أرسيت بالفعل.



وكان بالوسع أن تكون عملية حاصفة الصحراء مبادرة أمريكية صرفاً. فمن الوجهة القانونية كان الرئيس مستوفياً لشروط التصرف بموجب المادة ٥١، من ميثاق الأمم المتحدة التي تحول الدول الأعضاء حق الدفاع عن النفس.

واعتقد بعض حلفائنا أننا يجب أن نطبق المادة ٥١، وأن نبدأ بنشر القوائم الأمريكية في الخليج، وأن نباشر العمليات الحربية بأسرع وقت ممكن. كان أبرز هؤلاء للتصوير هي مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا، وليس في الأمر أدنى مفاجأة.

وفي السادس من آب أغسطس اجتمع الرئيس في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض مع رئيسة الوزراء. وكتب للتأكيد عن العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى كما أن العلاقات التي ربطت الدولتين علي مدي قرنين عظيمة ومستديمة من كافة النواحي. وليس لنا أصدقاء أفضل من البريطانيين. فلهذا علاقات بيننا شديدة الخصوصية. وهذا يمنح

البرلمانيين رخصة لا يملكها أحد غيرهم، هذه الرخصة التي كانوا يولون بها أزعجا أحيانا. وكانوا مهرة في ذلك في بعض الأحيان، وكما أظهرت قنانتها الشجاعة خلال حرب فركلاند عام ١٩٨٢ كانت مارجريريت تلتشر عضواً ريكناً في مدرسة - أفل ما يتحين عمله الآن وليسأورك التلق عليه فيما بعد - . ولم تكريد مطلقاً في أن تجهر بما تفكر فيه، وفي هذه الحالة لم يخالفها أنني حرج في الإحزاب عن شكوكها الخطيرة لتفسيلا اتباع نهج متعدد الأطراف تجاه صدام. وقالت: «لا يمكننا بكل بساطة للسماح باستمرار هذا. علينا أن نعالجه الآن».

وإنلقنا علي أن المادة ٥١٠ من ميثاق الأمم المتحدة تخول لنا الحق في التصرف من جانب واحد. لكنها كانت تعتقد أن التوجه بطلب إلى مجلس الأمن للفرض عقوبات ضد العراق، وهو ما حدث في ذلك اليوم - سوف يحرق اقتناذا لإجراء عسكري في وقت لاحق بموجب المادة ٥١٠ من ميثاق الأمم المتحدة. وأقنني بوب كيميت بأنها علي خطأ من للوجهة القانونية، وأعترفت هي بذلك في وقت ما فيما بعد. وانطلاقاً من طريقة تفكيري كان لاحتلاقنا حول الجوانب القانونية خلافاً أكاديمياً. وعملياً لم يكن أمام الولايات المتحدة من خيار أولى أحر سوي تجربة نهج للتخالف في التعامل مع الأزمة. وبدون هذا لم يكن بوسنا مطلقاً حشد كل هذا للتأييد لإقناع صدام بأنه يواجه المجتمع المتحضر بأسره. وليس قوة عظمي مفردة ربما يستطيع ترويعها. وبدونه ما استلطنا مطلقاً للحصول علي هذا القدر من التضامن من الدول، وهو تضامن بعد حاسماً لعزل صدام دبلوماسياً، وبدونه أيضاً لكأنت مصداقية فصيلنا موضع شك - نوس في العالم العربي فحسب - لكن لدي البعض في الغرب أيضاً بما في ذلك الولايات المتحدة. وفي هذا الوقت لم تكن تلك للتأييد السياسي الداخلي الضروري لعمل ما أقنمنا علي عمله في نهاية الأمر لطرده للعراق من الكويت. ونهريك ٥٥٠ ألف جندي أمريكي إلي الخليج وخصوصاً العرب. وكمن من المرات تعين علي القوي العظمي الادعاء كذباً بأنها تعمي لعمل جماعي ثم تمضي لتنفيذه بمفردها مظماً فطنا في جرينادا عام ١٩٨٣ وفي بنما ١٩٨٩. لكن الحال لم يكن كذلك هذه المرة بكل تأكيد.

أما وقد قررنا إقامة تحالف فقد صرفنا كل اهتمامنا إلي المهمة للعملية والشاقة بضم الأعضاء وللحفاظ علي للتحالف طيلة مراحل الأزمة. كأنت التفخيرات للجزيرة نتجاح الاتحاد

السوفيتي، فمضية الحرب لستقلال شيفرنادزة ليحرم الولايات المتحدة من أقوى حلفائها لدخل للحكومة السوفيتية.

وألفت سياسة السوفيات أعباءً مالية ضخمة علي عدد من الدول. بل إن الكثير من الدول المشاركة في التحالف كانت مترددة في البداية في للدخول فعلاً في حرب مع العراق. وكنت أعتقد أن الحفاظ علي التضامن في التحالف أشد صعوبة من تشكيله.

وفي إدارة التداعيات الإقليمية للأزمة كنا في حاجة لأن نفكر في مجموعة اللاعبين الرئيسيين في المنطقة إضافة إلي السعويين: مثل تركيا هذا البلد الذي تنقسم فيه الحكومة المدنية عادة بالضعف، والذي ساهم القلق الحقيقي الذي يتناهب حوال القومية الكردية في تفويض استقراره الوطني، وسوريا التي يكن رئيسها كراهية لصدام. لكنه كان أيضاً منح الراحة لإسرائيل، ومصر صويت الاعتدال العربي الرئيسي في المنطقة. وإسرائيل التي كان برسمها تفويض للتحالف في أية لحظة بالإقليم علي أي تحرك وقائي ضد صدام وإيران التي لم يتفوق علي عدائها للعراق سوي كراهية الولايات المتحدة، والأردن التي تتبع ملكها سياسة المروعة تجنباً لاثارة نفور جاره القوى صدام، وللفلسطينيون الذين هدد تأييدهم لصدام آمالنا في حشد أغلبية عربية مناهضة للعراق ودول الخليج المطمع التالي لصدام، واليمن الذي شق تأييده للعراق صف التضامن العربي.

وبرغم هذا كانت عملية درع الصحراء أولاً وفي المقام الأول مجابهة عالمية. وهكذا نجاة علي أعقاب انحصار القوة العظمي السوفيتية اتجه اثنان من أضخم جيوش العالم نحو القتال في منطقة تشكل ملققي للثلاث قارات وثلاث حضارات وثلاث ثقافات، بما ينطوي عليه ذلك من تداعيات محتملة بالغة الخطورة علي الاستقرار الإقليمي والأمن الاقتصادي العالمي. وأكدت الحاجة الملحة للأمن الاقتصادي العالمي إلي جانب الضرورة العامة لجمع مليارات الدولارات لتمويل جهودنا ضرورية إشراك القوى العالمية الناشئة مثل اليابان وألمانيا الغربية. ورسخ قرار نهائنا إلي الأمم المتحدة منذ البداية الطبيعة العالمية للأزمة بوضوح.



وربما تبدو عملية جشد تحالف دبلوماسي داخل مجلس الأمن - نظرياً - تجرية خادعة بسيطة. وفي أي قصة بديهية كنا عادة ما نبدأ بنظرنا بين الدول الخمس دائمة العضوية، بريطانيا العظمى وفرنسا والاتحاد السوفيتي والصين حيث يوسع أي منهم إجهاض أهدافنا باستخدام القيتو. وسوف نبدأ حتماً ببريطانيا لأخلص حلفائنا علي الدوام. ويلي بريطانيا فرنسا ثم السوفيت. وفي هذه الحالة، ونتيجة لاجتماعي مع شيفرناذرة في ٢ آب أغسطس كنا قد حصلنا بالفعل علي الدرام من السوفيت بفرض حظر علي تصدير الأسلحة للمراق. وظلت فرنسا لأمد طويل مصدراً رئيسياً للأسلحة للمراق، وكانت للحكومة واقعة تحت ضغط الفرنسيين. وما كان يوسع الفرنسيين الظهور بمظهر أقل ليناً عن السوفيت، وبمجرد أن نتوصل لإجماع قري بين هؤلاء الثلاثة يصبح من اليسور للتعامل مع الصينيين. ولم تكن الصين تكرة شيئاً قدر كراهيتها أن تكون مستفزة مما يجب كيमित أن يسميه «نادى الكبار» ببساطة شديدة يكره الصينيون أن يتم عزلهم. كما كانوا يكرهون بصفة خاصة أن يظهروا أنهم أشد عرقلة عن السوفيت. ويرجع هذا في جانب منه إلي أن مذبحة عام ١٩٨٩ التي راح ضحيتها مئات المنشقين في تيانانمين تسببت في عزلهم دبلوماسياً.

وكانت الاستراتيجية التي اتبعناها في مجلس الأمن استراتيجية تبادلية لسجل نهج دبلوماسية القوة. وغالباً ما أثبتت فعاليتها، وكان السوفيت مهمون - ليس فقط باعتبارهم قوة عظمى تمشي في مرحلة انحسار - لكن بوصفهم لاعبا إقليمياً فاعلاً وراعياً لتوريد الأسلحة للعراق وسوريا لفترة طويلة. ولكل من بريطانيا وفرنسا تاريخ طويل تقلب بين النجاح والفشل في الشرق الأوسط. فبريطانيا هي المسؤولة في المقام الأول عن إنشاء العراق الذي استقل عام ١٩٣٢. ويرغم ابتعادهما عن المنطقة بعد حرب السويس فإنهما اعتبرا الأزمة فرصة سانحة لتأكيد تراثهما كقوتين عظميين. كانت يكين علي الدوام لاعبا غير مؤهل من غير المرجح أن يؤيد جهودنا. لكنه لن يرغب في تعريضها في نهاية المطاف.

وفور ضمان تأييد الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن يمكن أن يتحول تركيزنا إلي الدول العشر الأخرى الأعضاء في مجلس الأمن. وللتكثير منها دول غير متحازة بالاسم، دول صغيرة يمكن انتزاع أصواتها. واتبعنا معها استراتيجية فاقت الامتياز تمثلت في الإشارة إلي أننا عرضنا قضيئنا علي الأمم المتحدة الملاذ التقيدى للفقراء بدلاً من العمل

بمفردها. وكان بوسنا استغلال واقع آخر: فمع انهيار الشيوعية ترسخ وضع الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة. ونتيجة لذلك بات الجميع يخطبونها. وقد أكتسبها هذا نفوذاً هائلاً لم تكن لتتربد في توظيفه خلال الأزمة.

السوفييت

اعتبرت السوفييت مقحاً أساسياً منذ البداية. وفي كل حساب للاستراتيجية كنت أعتبر تأييدهم شرطاً لازماً لتشكيل تحالف يحتد به. وكان يحين للتودد إليهم ورعايتهم وإشراكهم لدرجة لم يكن يتصورها أي صانع سياسة أمريكي من قبل. وفي الواقع فقد تبادلت أنا وشيفرناذرة إحدى عشرة مكالمة هاتفية وخمس رسائل في شهر آب أغسطس وحده، وهو مستوى من التشاور لم يكن بالوسع تصور حدوثه قبل عام واحد فقط. كانت مواقفهم حاسمة للغاية، وكانت علاقتي مع شيفرناذرة تحول عليها بالقدر الكافي للدرجة التي كنت مستمداً معها لقطع المزيد من الأميال للإبقاء عليها حتى في ضوئ الاعتراضات التي تصدر من حين لآخر عن بعض زملائي في أجهزة الأمن القومي. وحتى الآن كان تأييدهم لازماً علي قدر مشقته. وتذكرني بذلك رسالة تلقيتها من شيفرناذرة بعد يومين فقط من اجتماعنا في مطار هوكوهر/٢. كانت لهجة الرسالة مختلفة إلى حد بعيد عن اللهجة الرقيقة التي سادت اجتماعنا، وجاء في الرسالة أن حكومته سوف تعارض إصدار أي قرارات جديدة في الأمم المتحدة حتى يمتنع العراق وفقاً كافياً لسحب قواته من الكويت. كان من الواضح أن حالة الصبب تملك اللوبي العربي بسبب البيان الأمريكي للسوفييتي المشترك، وأن شيفرناذرة يدفع الثمن.

وفي صباح الخامس من آب أغسطس اجتمعت في البيت الأبيض مع برينت سكوكروفت ومع الرئيس لبحث المهمة الدقيقة بإبلاغ الأخبار العاجلة للسوفييت علي وجه السرعة بأن الملك فهد طلب تدخل القوات الأمريكية. وفي ضوئ رسالة شيفرناذرة فلا بد

وأفهم كانوا غير سعداء . وقررت ضرورة الاتصال بشيفرنادزة هاتفياً، وحاولت تجميل الأخبار قدر المستطاع، وأبلغته بأن الملك فهد طلب تدخلنا، لكننا لا نعتزم توسيع نفوذنا في الخليج.

وفي صباح السابع من آب أغسطس اتصلت من واشنطن بإدوارد شيفرنادزة بالداشا الخاصة به خارج موسكو . وناقشت معه أحدث تقارير المخابرات عن الغزو، وقلت إن الرئيس أرسل قوات أمريكية إلي الخليج استجابة لطلب الملك فهد، وأحبرته أن القوت ستبدأ انتشارها اعتباراً من اليوم التالي، وأن الرئيس سيدلي بتصريح علني عن الموضوع يوم الأربعاء . وفي الثامن من آب أغسطس أوضحت أن هذا الانتشار ذو طبيعة مؤقتة، وأن قواتنا ستفادر العربية السعودية بمجرد تسوية الأزمة . فليس لدينا نية في التمسك بوجود أمريكي دائم في المنطقة .

وأخبرت بمدي التوتر الموجود علي الطرف الآخر لقط الهاتف، فالمصروفيت يشعرون بحساسية مفرطة تجاه وضعهم . وحتى ورغم إخطارهم بقرارنا قبل ثمان وأربعين ساعة سلفاً كان الفصّب يتملك شيفرنادزة، وقال: أريد أن أعرف هل كنت تتشاور معنا أم تخطونا؟.

ورددت : حسناً، إدوارد إنني أتحدث معك لأن هذا شيء لا نريد أن نفعله بأنفسنا . إنني أريد أن أعرف منك ما إذا كانت القوات السوفيتية تريد أن تشارك معنا في قوة متعددة الجنسيات . كان هذا سيوضح للتصميم وسيجعل اللجوء للقوة أقل احتمالاً.

ولديكت مدد هذه اللحظة أنه من المفيد للغاية تجنب الإجابة المباشرة علي السؤال غير السريح علي أمل نقل المناقشة إلي أرضية أكثر راحة وألفة . كان التصرف تصرفاً رنجالياً لكن يبدو أنه كان فعالاً . ولست تخيراً في لهجته حين لم يبحث أن سأل: «ما رأيك في لجنة أركان الحرب بمجلس الأمن الدولي؟» . وكم سعي المصروفيت لسنوات لإحياء هذا للجهاز المستحضر المتبدق عن الأمم المتحدة كأداة لمنح أنفسهم دوراً أكبر في عمليات حفظ السلام . ويرغم التطمينات التي قدمتها لشيفرنادزة في موسكو قبل ثلاثة أيام كان للويس العربي بوزارته مقتنعا علي ما يبدو بأن للرئيس يتأمر لتوجيه ضربة أمريكية للعراق، وهكذا فإنه يلج علي فكرة لجنة أركان الحرب منذ وقوع الغزو علي أمل إمكانية استخدامها لمنع وقوع هجوم لم

تكن لدينا أى نية نشنه فى ذلك الحين . وأبلغته بأننى سوف أثير القضية علي الفور مع الرئيس .

وكما هو متوقع انتهى اقتراحي بشأن المشاركة السوفيتية فى قوة متعددة الجنسيات واقتراح شيفرناىزة بإحياء لجنة أركان الحرب إلي لاشئ مع بيروقراطية الخارجية . حيث دفعت بأن دعوة السوفيت لإقرار وجود عسكري أمريكي مقرر فى الخليج يتعارض مع أريمين عاماً من الدبلوماسية التي وضعت لمنع تدخل السوفيت فى المنطقة . وفى البداية أعرب كل من الرئيس وبارول وتشينى وسكوكروفت عن شكوكهم . وأدى باول قطعاً خاصاً حول منح السوفيت دوراً فى هجوم محتمل علي العراق فى المستقبل .



وشكل رأيي فى أننا بحاجة إلي السوفيت أكثر من أى أحد آخر . فقد أقدم جورباتشوف وشيفرناىزة علي الكثير من المخاطر فى الانطلاق معاً علي بيان مشترك . كان الاعتقاد أننا يمكننا مواصلة إبعادهم عن ساحة الشرق الأوسط بنطوى علي سذاجة وبشكل خطراً علي مصالحنا . وفى النهاية تطور إجماع بأنه ربما يكون من الأهمية البالغة بمكان إشراك السوفيت فى تحالفنا للعسكري . فبالأكيد ستقوم قيادة صدام حسين بمجرد أن يعرف أن المصدر الرئيسى لتوريد السلاح له ربما يكون قد بات علي استعداد الآن للانضمام إلي عمليات مشتركة مع الأمريكيين . واتصلت هاتفياً بشيفرناىزة فى ٨ آب أغسطس لإبلاغه بأن الرئيس ليس لديه مشكلة مطلقاً تجاه مشاركة السوفيت العسكرية فى قوة متعددة الجنسيات فى الخليج . ووعدنى ببحث الفكرة مع جورباتشوف . وبعد ساعات عدة اتصل بي ليبخني بأن السوفيت إن شاركوا فى تحالف عسكري . وعلمت فيما بعد أن تذكيرات المأساة السوفيتية فى أفغانستان حيث تورطت موسكو فى حرب عصابات مع التمرد الإسلامى قد ساهمت فى راد الفكرة . ومع هذا كنت متيقناً من أن هذا للرفض يشتم مصالحنا الاستراتيجية جيداً . أرفضهم المشاركة ألحق الضرر بمصداقية المستشدين الذين رفضوا المشاركة فى حل يشتمل علي

استخدم القوة. وفي الوقت ذاته ترجعت حدة حسابات السوق الهشة بعرضنا إشراكهم في التحالف. وأدركت أن مجمل علاقاتنا لم تصب بسوء، وذلك عندما أبلغني شيفرنادزه بأن السوق سوف يؤيدونا في قرار جديد في الأمم المتحدة.

الوصلة التركية

وفي وقت لاحق من هذا اليوم أصدر مجلس الأمن الدولي للقرار رقم ٦٦١ الذي تضمن فرض عقوبات اقتصادية مشددة على العراق. فقد أقر القرار بالفعل فرض حظر شامل على كافة التعاملات التجارية مع صدام وحكومته للعميلة في الكويت. ولم تكن أولى خطوات استراتيجتنا هي عزل العراق دبلوماسياً فقط. بل خلق اقتصاده أيضاً. فعزم صدام يعود في جانب منه إلي رغبته في ملء خزائنه الخاوية من عائدات البترول الكويتية الضخمة. ولمراته من هذه الثروة وإثبات مصداقية العقوبات كان من الضروري إغلاق خط أنابيب البترول الذي يمتد من العراق إلى البحر المتوسط عبر أراضي تركيا. وبعد ثلاثة أيام من تصويت الأمم المتحدة على القرار طردت إلى تركيا لمعد سلسلة من الاجتماعات مع الرئيس تورجوت أوزال رئيس تركيا للكون الأولي من عشرين دولة تعين على أن أوزارها خلال الأزمة.

وكانت أعرف أوزال منذ أيام وزارة الخزانة. فقد تولي وهو الاقتصادي البارح تعديل بلاده في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ويتحدث الإنجليزية بطلاقة. وهو رجل ودود سرعان ما تطور الانتماء شقيقه. واعتمد أسلوبه الثابت في صنع القرار على غريزته لا على البيروقراطية الحكومية. وكانت إحدى مميزات أوزال أنه أمر بالفعل بإغلاق خط الأنابيب في اليوم السابق لوصولي لأتقدم إليه بهذا الطلب. وأبلغني بأنه يعرف بأن للقرار أن يحظى بالشعبية. لكن هذا هو الصواب، وأنه إن يسمح بمرور نقطة واحدة، وقال أيضاً إنه يعتقد بأن صدام رجل مجنون، وأنه إذا نشبت الحرب فإن الجيش العراقي لن يقاتل. ووصف أوزال

الجيش العراقي بأنه جيش أجوف، وخلال اجتماعنا كان أوزال يفتح ويطلق للتلفزيون ليتابع أحدث التطورات عبر شبكة سي إن إن. وأعرب أوزال عن اعتقاده بأن صدام شأن معظم المستأبدين سيعبر نهجه عند المواجهة. وأشار إلي أن العقوبات ستؤتي الأثر المرغوب في غضون أقل من ثلاثة أسابيع. وبكم وددت أن يكون علي صواب. لكن إذا لم يكن الحال كذلك فسيكون علينا في نهاية المطاف أن نطلب الكثير من تركيا. ومنذ عام ١٩٦٦ احتفظت الولايات المتحدة بجناح من المقاتلات التكتيكية في قاعدة جوية تركية بالقرب من إنجريك. وكان الوجود العسكري الأمريكي في تركيا مشار جدد علي الدوام، وبسبب المعارضة السياسية الداخلية رفض الأتراك قيام طلائع أمريكية خلال أزمة الرهائن عام ١٩٨٠ أو نشر مشاة البحرية المشؤوم في لبنان عام ١٩٨٣. وإذا حللنا للعرب مع العراق فسوف نحتاج إلي موازنة أوزال علي نشر مزيد من طائراتنا العربية في تركيا وشن هجمات جوية من قاعدة إنجريك والقواعد الجوية الأخرى. ورغم تفاؤله كنت أشك في أن أوزال يشعر في قرارة نفسه بأننا سنكون في حاجة إلي قواعد في نهاية الأمر. ولمساعدته في مواجهته دبلوماسيته المصعبد والرائي العام التركي أبلغته بأن الولايات المتحدة مازمة بتوفير الأموال اللازمة لتدمير ما يقدر بنحو مليار دولار من المائتات السنوية ستخسرهما تركيا جراء الحظر الدجاري. وكنت أعرف أيضاً أن الاحتياجات النفسية لتركيا أكثر أهمية من المتطلبات الاقتصادية. قطي مدار سنوات ثار غضب تركيا تجاه ما تعتبره لفقدان الالتزام من بعض زملائها في حلف شمال الأطلسي. وكانت تركيا تتوق لكي تعامل كشريك كامل في حلف شمال الأطلسي. كما كانت تريد علي أحر من لجم الحصول علي عضوية المجموعة الأوروبية. وقلت لأوزال: إنني تشاورت بالفعل مع اللغفاء الرئيسيين في حلف شمال الأطلسي وإبدى مقصود في إعادة التأكيد علي التزام الحلف باللقاق عن تركيا لو تعرضت لهجوم عراقي انتقاماً لإغلاق خط أنابيب البترول. وأبلغته أيضاً أن الولايات المتحدة أقرت رسمياً وسوف تزيد بكرة طلب تركيا بالانضمام إلي المجموعة الأوروبية رغم أن هذا القرار من صميم اختصاصات المجموعة الأوروبية.

وأبدى أوزال استنائه. غير أنه كانت لديه قائمة مطالب خاصة. وقال إن تقديرات الخبراء الاقتصاديين الأتراك تشير إلي أن تركيا سوف تخسر عائدات تقدر بـ ٢٠٥٠ مليار

دولار نتيجة إغلاق خط أنابيب البترول. وأشار إلي أنه سيكون من المفيد لو أمكن إقناع البنك الدولي بزيادة قيمة قروضه إلي تركيا من ٤٠٠ مليون دولار إلي مليار دولار.

وتعسباً لهذا الطلب كنت قد تحدثت قبل أسبوع مع الرئيس بوش وللصديق لتقديم باربر كونايل عضو الكونجرس الجمهوري السابق عن نيويورك الذي عينه الرئيس رونالد ريغان رئيساً للبنك الدولي بتوصية منى كوزير للخزينة. وشعرت بالسعادة لإحاطار أوزال باستعداد البنك الدولي لتقديم قروض تدرج ما بين مليار إلي ١,٥ مليار دولار كل عام علي مدى العامين القادمين.

واعتقد أن كل ذلك كان له ما يبرره بكل جدارة. لكنه كان أيضاً مؤشرات برجماتية لواقع سياسي. فلنح في حاجة إلي تأييد أوزال. بل وربما نحتاج بشدة صلاحياته في وقت لاحق. ووفر استعداده للمجازفة والمشاركة من أجل الولايات المتحدة منذ البدايات الأولى لنا حافزاً شخصياً لتقديمها له. وخلال مراحل الأزمة كان أوزال متفانياً في تأييده للولايات المتحدة. لقد كان زعيماً ذو قلب كبير يتحلي بشجاعة فائقة، ومثل شيفرناذرة كان مستعداً المرة تلو الأخرى لتجاوز تحفظ وزارة خارجيته ولن يفعل للصواب. وكم كانت أمريكا محظوظة لأن يكون لها أصدقاء وحلفاء مثله. وكان لي عظيم الشرف أن أمثل بلاده وأنا مواطن عادي ويتكليف من الرئيس كلينتون في تشييع جنازته عام ١٩٩٣.

وقبيل انتهاء الاجتماع أكد أوزال مجدداً الفكرة الذائعة بأن صدام هو أكثر الطغاة خطورة في العالم. وقال أوزال إنه ينبغي - كحد أدنى - تبخير ما بحوزته من صواريخ سكود ومشاته الكيماوية، ويجب طرده من العراق بقوة السلاح لو اقتضي الأمر. ولكنه أكد أن هذه الخطوات غير كافية للتعامل مع الخطر.

وتحدث أوزال بصراحة بلغت حد القول: «هل نحن بسبيلنا إلي التخلص من صدام حسين؟». ورددت قائلاً: «إن القانون يمنعنا من اتخاذ إجراءات لمساعدة المسؤولين الأجانب. إن تركيزنا ينصب علي خنقه من خلال العقوبات السياسية والاقتصادية. ولم يبد القلق علي

بوزال. وقال- علينا في حاجة للإجهاز عليه. فالجميع معرض للخطر إذا استمر وجوده. إننا سنكون في خطر حقيقي. رجاء أن تبلغ الرئيس بوش بالمسنى قداماً في ذلك.

السوفيت مرة ثانية

خلال الأسابيع التالية تحدثت بشكل شبه يومي مع شيفرناذرة الذي لارال النوبى العربى يعرقله مع استمرار غضبه من اللبىاى المشترك الذى صدر فى هوكوفو. فمن يسمون بالمجرأ الذين طمانأ شيفرناذرة بأن صدام لن يشن أى هجوم يجادلون الآن أن بوسعهم السيطرة عليه. ونفعوا بأن التطويح باستخدام القوة أمر غير ضرورى لإعادة دولة حليفة إلي صوابها. بل إنه سوف يدمر العلاقة معها. وكنت أعرف أنه متردد، وأنه يريد الوقوف بجانبنا لكنه يعرض لضغوط جمة. وواصلت التأكيد علي أن القضية لا تكمل فى أننا للشمس ذريعة لاستخدام القوة. بل إننا فى حاجة إلي الإعراب عن استعدادنا لاستخدام القوة لإجبار صدام علي الخروج من الكويت. وهى غضون ذلك وافق شيفرناذرة علي تأييد اثنين من قرارات الأمم المتحدة. يحل أولهما بطلان ضم العراق للكويت ويطلب الثاني بالإفراج الفورى عن كافة المواطنين الأجانب الذين يحتجزهم صدام كرهائن بالفعل. غير أن التعاون بين الفوتين السلميين توقف تقريباً فى منتصف آب أغسطس عندما ذكرت المخابرات الأمريكية أن نافلة تجارية تبحر باتجاه ميناء عدن اليمنى حاملة شحنة من النفط العراقى.

كان للجدل حول ما إذا كان يحسن وقف النافلة باستخدام القوة العسكرية واحداً من المواقف القليلة التى وجدت نفسى فيها معزولاً تماماً من زملائى تشينى وسكوكريفت وباول الذين ارتأوا جميعاً ضرورة وقف النافلة وشل حركتها واعتلائها. بل كنت هناك بعض الآراء السنادية بإغراق النافلة لو تجاهلت طلقات التحذير الأمريكية. وبدأ البعض فى وزارة الخارجية بتتدر على مؤيدى هذا النهج بالإشارة لهم باسم «جمهور المادة ٥١»، وكنت مقراً بأن لنا الحق بموجب المادة ٥١ فى وقف إبحار النافلة. ولكن فى صوم أحاديثى مع شيفرناذرة كنت واثقاً من أن أى إجراء منفرد من جانبنا سيلطوى علي كارثة فى هذه اللحظة. فمجلس الأمن

الدولى قد صوت، بفرض عقوبات اقتصادية ضد العراق. لكنه لم يجهز وسائل عسكرية لتطبيقه، وبدون أى تفويض صريح جديد من الأمم المتحدة كنت واقعاً من ابتعاد السوفيت عن التحالف لتحديث كارثة سوف تهدد استراتيجيتنا كلها بكل تأكيد.

وكنت أتحدث عبر وصلة محمولة للاتصال بالقمر الصناعى مثبتة على قمة صخرة جرانيتية (تحولت إلى مرتع لقوارض المرموط) تبعد بضع ياردات عن الرواق الأمامى لكابينة مزرعتى ببندالى فى ويومينج، وأبلغت شيفرنادزى بأننى أوعزت للرئيس بأن نخلي عن اعراض الناقلة. لكن علي شرط أن يؤيدنا السوفيت فى إصدار قرار جديد فى الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة العسكرية لتطبيق الحظر للتجارى. ولم يبد عليه الارتياح وقال لى السوفيت يريدون التأكد من أن العراقيين ينتهكون الحظر قبل قطع أى خطوة جديدة.

وفى العشرين من آب أغسطس أبلغنى شيفرنادزى بأنه يرى أن بوسع السوفيت إقناع صدام بالانسحاب غير المشروط وطلب إهماله ضمة أيام للانتهاء من المسألة. ووافقت علي رفع طلبه إلي الرئيس لكننى اقترحت اختصار عدة المسألة.

وانصلت بالرئيس فى كينيديكورت حيث أصابه فقرامى بإحباط واضح. كان الجميع ينفخونه بأن التصويت سوف يقوض إدراكه للزيمة الأمريكية. وأبلغت الرئيس بأننا سنكون فى موقف أسوأ لو خسرت السوفيت مما لو خسرتا السبقينة وعقب اجتماع مع تشينى وباول وسكوكروفت ولارى إيجلبيرجر انهار إلي صفى علي منحض. ويوم الأربعاء ٢٢ آب أغسطس انصلت بشيفرنادزى وقلت له إن أمام السوفيت ثلاثة أيام. فقد وفق الرئيس علي تأجيل التصويت علي قرار جديد للأمم المتحدة حتي يوم السبت ٢٥ آب أغسطس. وتساءلت: لكن هل تعنى الآن أنه إذا نصرنا يوم السبت هل نحصل علي تأييدهم؟ وعرضنى شيفرنادزى ببحث الأمر.

وفى ٢٤ آب أغسطس اتصل بى شيفرنادزى وأبلغنى أن جورباتشوف بعث برسالة شديدة اللهجة إلي صدام يطلب منه تقديم إجابة قاطعة وشافية فى غضون أربع وعشرين ساعة عما إذا كان سيلسحب من الكويت. وبعد ظهر اليوم التالى وصلتني رسالة علي وزارة الخارجية.

جميعاً: وعدت بالاكتمال بكم في الساعة السادسة عشرة بتوقيت موسكو. ولكن نظراً لانشغالي في الكرملين قبلني لطلب مساعدة السفير ماثولوك لنقل رسالتي. لقد تقويت رداً من العراقيين. وأعتقد أن التطويق عملية غير مجدية. وهكذا فقد قررنا إصدار تطويعاتنا لندرينا بمجلس الأمن للاتصال بالسفير بيكرينج والندريين الآخرين بمجلس الأمن الدولي. وكما أبلغتكم فسوم، نقترح تعديلات محيطة على مشروع القرار دون المساس بهجوهره. لكن مع توسيع نطاق الوسائل التي يمكن استخدامها لأغراض السيطرة. وأعتقد أن توسيع مداولينا الآن بدء مشاورات فيما بينهم ومع الأعضاء الآخرين في مجلس الأمن الدولي للعمل على إقرار مشروع القرار. إذا كان لديك أي استفسار وحد الضرورة سأكون على استعداد غداً للقي اتصال بكم.

القي شيفرنادزه

وكنيت أصرف شيفرنادزه بما يكفي لأقهم أن لغة رسالته نحى أنه مدم تماماً من اللوبي العربي بوزارته ومن العراقيين أيضاً. وارتكب صدام خطأ جسيماً أيضاً في إسائة الحسابات لعدم الرد بإيجابية على السوفيت. وهكذا تقوض نفوذ اللوبي العربي في الخارجية السوفيتية على جورباتشوف وشيفرنادزه.



وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ٢٥ آب أغسطس أقر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ٦٦٥ بمنح كافة للتعاملات التجارية مع العراق باستخدام كافة الوسائل وصدر القرار بأغلبية ١٣ مقابل لا شيء مع امتناع اثنين عن التصويت هما كوبا واليمن. وأعتقد أن التأييد السوفيتي للقرار كان لحظة حرجية في العملية الدبلوماسية برمتها. فقد كان في اعتقادي تصويماً صحيحاً عن قرار استخدام القوة في تشرين الثاني نوفمبر. فلو كنا قد طبقنا عادة ٥١ - واعتدنا أو أغرقنا النافذة فأعتقد أننا ما كنا قد حصلنا على تأييد السوفيت لنا في هذا القرار الذي يجيز استخدام القوة العسكرية لتطبيق الحظر التجاري، وكذلك على القرارات التالية التي

أجازت استخدام القوة العسكرية لطرد العراق من الكويت ولو حدث ذلك قريباً انهار التحالف بمرمته . وفي النهاية سُمحَ المناقشة بالوصول إلي الميناء .

جولة قصيرة خاطفة

وبدأت عرلة مدام تأخذ مجراها . ومع أولائل أيلول سبتمبر أصدرت الأمم المتحدة خمسة قرارات . لكن الدأيد الدبلوماسية في الأمم المتحدة غير كاف برغم أنه حاسم وضروري . ومن وجهة نظر دبلوماسية وأخلاقية أيضاً كنا في حاجة ماسة إلي الإلحاح في الحصول علي للزمات مالية من دول أخرى للمساعدة في تأمين كلفة العملية . كان الرئيس علي استعداد لتحمل الجانب الأكبر من العبء ، فإذا اقتضت الحاجة استخدام القوة لطرد العراق من الكويت سوف يلقي الأمريكيون حتفهم في الخليج . وكان أقل ما يمكن توقعه من الدول التي نساعدنا ومن كافة حقلنا الموضوعين علي المحك في الأزمة أن يضموا إلينا في المقابل ليس بتقديم القوات بأكبر حجم ممكن بل أيضاً بتحويل كلفة عملية درع الصحراء .

وكنا علي يقين تام بأنه حتي إذا لم تدخل للحرب فإن الكلفة ستكون باهظة . فمن نمشد مئات الآلاف من الجنود وننقلهم بمعداتهم إلي الخليج جواً وبحراً . وبمجرد أن وصلوا إلي هناك علينا أن نوفر لهم كل شيء من الصواريخ حتي معجون الأسنان لعدة أشهر . كانت تقديرنا الأولية للتكاليف المباشرة علي وزارة للخرانة الأمريكية تبلغ عشرات الآلاف من المليارات من الدولارات . علاوة علي التزامنا علي ذلك فقد أحسنا بأن علينا التزاماً بتوفير الأموال اللازمة لتعويض للصعوبات الاقتصادية العادة التي سوف يسببها الحظر التجاري علي شركائنا في التحالف وخاصة مصر وتركيا . وفي وقت سالت فيه حالة من للمفوض الاقتصادي في الدخل كان من المستحيل سياسيا الحصول علي تأييد داخلي للمطبة مالم تبرهن علي أن للعم سام لن يسدد للماتورة بينما أثرياء آخرون مثلنا يجلسون علي الخطوط الجانبية .

وكان هذا أصل ما بات يشتهر في الصحافة باسم «الجولة القصيرة للخاطلة» لبيكر . كانت جولة استغرقت أحد عشر يوماً لتسع دول، وشملت أيضاً قمة بوش جونيور في واشنطن . إضافة إلى مباحثات حاسمة في موسكو حول الوحدة الألمانية وزيارة إلي ديمشق لإقناع الرئيس حافظ الأسد بالانضمام إلي التحالف . وقد بدأت الجولة وانتهت بالتوقف في اثنتين من الدول كان تأييدهما المالي لجهودنا بالغ الأهمية وهما العربية السعودية وألمانيا العربية .

وفي الرحلة التي استغرقت اثنتي عشرة ساعة من واشنطن إلى العربية السعودية بحثت مع العاملين معي للرقم المحدد الذي ستطلب الحصول عليه من شركائنا العرب . وراجعت صفحات وصفحات من التحليلات المالية التي أعدها المبتاعون ووزارتنا الخزانة والخارجية في محاولة لتقدير كلفة عملية درج الصحراء . وسبكون من الحكمة البالغة الإشارة إلي أننا اجتهدنا في مراجعة البيانات بهدف الوصول إلي اتفاق صادق حول حجم الكلفة المحتملة والتمصيف المتبادل للعربية السعودية والكويت فيها . لكن الحقيقة أننا كنا في هذه المرحلة المبكرة من الأزمة ندرك أن ضرورة اقتسام الكلفة تعد تحدياً سياسياً لا اقتصادياً في المقام الأول . كان ينبغي علينا أن نعرب لمواطنينا في الداخل أن للجميع - ولنا وحدنا - يحملون المساطر ويقدمون للتصحيحات، وكان للأرقام المعروضة أمامنا أساس في الحقيقة لكنها أرقام دقيقة حددها المحاسبون وتتلافى مع الأرقام التقصاصة التي يمكن قبولها سياسياً . ومن وجهة نظر رمزية كانت منخفضة بشكل غير مقبول . ولذا فقد ضاعفناها علي الفور وجرى حساب الأرقام المحددة، وبعد عدة أشهر وبعد انتهاء الحرب والأزمة في بعض الأحيان . وكانت قريبة إلي حد كبير من تقديراتنا الجراحية .

ووصلت إلي جدة في ٦ أيلول سبتمبر واجتمعت مع الملك فهد في الساعة اثنتسعة صباحاً . وعمرى إحساس قبل وصولي إلي المملكة أننا سنحظى بتعاون تام من السعوديين ومثل رعاياه كان الملك مشغولاً للغاية بتهديد صدام للثقلات للقابع علي قيد بصع مئات من الأميال من حدوده . وكان الملك يري أن وجود بلاده عرصة لخطر داهم . ومنذ البداية كان السعوديون أشد أعضاء التحالف تحمساً . فعندما وصل تشيبي إلي السعودية ليطلب السماح

بإرسال القوات الأمريكية كان الملك قد فكر ملياً بوضوح قبل أن يبدأ الاجتماع. ولم يكن السعوديون يريدون وصول القوات الأمريكية إلي أراضيهم فحسب: فكم تمناؤا في دولتهم الخاصة ألا يتم التوصل إلي تسوية دبلوماسية. فلم يكن السعوديون يريدون طرده من الكويت فقط بل كانوا يريدون تدميره.

والحل الوحيد بالنسبة لهم هو حرب تقودها الولايات المتحدة للقضاء علي آلة صدام الحربية مرة واحدة ولأبد. ومنذ البداية كانوا يدافعون دائماً عن الاستخدام الشامل للقوة. وكنا نعرف أنه إذا حانت لحظة للحرب فسوف يتم السماح تلقائياً باستخدام القواعد السعودية في العمليات. لكننا كنا نشك في استعداد الملك لتحمل أى عبء مالى يطلبه منه الأمريكيون.

وحدثني سفيرنا شاس فريمان علي عدم المغالاة في الأرقام. وأبلغني قبل الاجتماع بأنهم يشدون الحزام لتوفير الأموال فلا تلجأ في طلب الكثير الآن. وتم أوافقه.

وخلال اجتماعنا أبدى الملك امتنانه البالغ لما بذله أمريكا. وقال: إننا نقف بين السلام والكارثة التي يجلبها لبلادنا. كانت تعليقاته حادة ومتحاملة علي صدام وهوامر متوقع في ضوء التهديد الذي تكعرض له المملكة.

وقلت له: «إننا مستعدون ليس لوضع أموالنا فحسب بل ودمائنا تحت تصرف بلدكم ونحن في حاجة إلي تعمل نصيبكم العادل» وأضفت قائلاً اعتقد أن مبلغ ١٥ مليار دولار إسهام مناسب. وأبدى الملك فهد موافقته علي الفور. وأشار: عليك أن تبلغنا بما نريد وما نود أن نعطه. وعلينا بالتحدث مع وزير الخارجية. كان هذا هو امتنان الملك لما أبدته أمريكا من استعداد لعمله من أجل بلاده لدرجة غادرت معها الاجتماع بغيرنى إحساس بأنه لا بد وأنه سيوافق علي أى رقم أقترحه. وفي الصباح التالي التقيت علي الإفطار مع وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل خريج بيرنستون والأمير بندر سفير السعودية في واشنطن اللذين عرضا صراحة تصورهما حول اقتسام الأعباء. وقال بندر: «لا نطلب منا خمسة عشر مليار دولار ما لم نحصل علي خمسة عشر مليار دولار من الكويتيين فيمكنهم تحمل هذا المبلغ فلديهم كل

منه الأصول. ضامدا سيجنون إذا لم يستعيدوا بلدهم؟ لذا عليك أن تطلب منهم قدر ما تطلب منا وسوف تحصل على ما تطلب.

ومصباح اليوم التالي توجهت إلى الطائف بالعربية السعودية للاجتماع مع أمير الكويت الرجل للهادئ الذي بدأ ورقل في التبعيم واتخذ ثلاث عشرة زوجة. كان الفوز شديد الوطأة علي الأمير. فما هو أمير إقطاعي مُزِد من بلاده لفترة مؤقتة ولصطر للجوء إلي فندق الشيراتون في بلد مجاور. والأسوأ أنه محط زيارات وزير خارجية يطلب منه مليارات للدولارات، ودالما ما كانت تنتهي بسيل من أسئلة للصحفيين الأمريكيين - في مهانة لم يمرض لها مطلقاً في حياته - وعندما حدثته للمرة الأولى اضطرت لأبطلع لبصامة عندما لاحظت نظرة عيوس مروعة ارسمت علي وجهه. وقال لي بعد مخادرة الصحفيين: «ليس هذا هو تقليديا». ولم استطع منع نفسي من القول: «إنني أثق بأن سموكم سيحتاد عليه». وفي الوقت المناسب شعر بارتياح جم مع ما لاهد وأنه كان تجربة غير مريحة. لكن الأمور وافق بسهولة - كالملاك فهد - علي تقديم مبلغ ١٥ مليار دولار للذي قال السعوديون أنه يمكن أن يوفروها بسهولة.



وبعد زيارة حافظة للإمارات للمتحدة توجهت جواً إلي القاهرة لرؤية صديق قديم. وبعد أول لقاء لي مع حسنى مبارك إلي فترة ريجان الانفصالية ١٩٨٠ عندما كنت سميناً نشغل وظيفة رئيس هيئة موظفى البيت الأبيض، ولا يزال بوسعى تذكر أولي الكلمات التي أنصبي بها إلي. فقد دخل الخرفة في رشاقة وصافحني بحرارة متسائلا: «أين دباباتي؟» كانت إدارة كارفر قد تعهدت بتزويده بعدد من الدبابات لكنه لم يحصلها بعد. وعائيتني بركة قاتلا: «لقد وعدتموني ببعض الدبابات. إننا نريدها أين هي؟». وأحببت مبارك منذ ذلك الحين. وجاء حبه للدعابة وروحه المرححة التي يتسم بها الشعب المصري متمماً لنمط الشخصية الحارمة الشجاعة التي تعيد إلي الأذهان أنور السادات سلفه ورأعيه. وفي اليوم الذي تلت

علي الإفطار في الاسكندرية كان مبارك لا يزال يستشيط غضباً بعد أن ضلله صدام حسين الذي أبلغه قبل الثاني من آب أغسطس أنه لا يحترم غزو الكويت. وساهمت تطمينات مبارك فيما تبين أنه سوء تقدير بالغ لصدام من جانب الحكومة الأمريكية وفي أماكن أخرى وتكرر لحدلانه أصدقائه.

وكالموقع، انتابه غضب جارف من صدام. وقال وهو يلوح بأصبعه السبابة في الهواء وهي عاتته عندما بنقل: مجيم. إني أقول لك إنه رجل مجنون. كيف يكون مجنوناً إلي هذا الحد؟ كيف يخدع نفسه بهذا الشكل؟ إنه لا يستمع لأحده. وفوجئت حين عرفت أن حلق مبارك علي صدام لا بدائيه سوي لزيارته للملك حسين عاهل الأردن الذي اتهمه مبارك بالضلوع في مؤامرة مع صدام حسين لغزو الكويت وانقسام غنلكم الاحتلال. وأكد مبارك أن صدام أسطورة في شراء جيرانه. ففي عام ١٩٨٩ أقنعه بالانضمام إلي العراق والأردن واليمن الشمالية لتأسيس مجلس التعاون العربي لتعزيز العلاقات الاقتصادية. ومع ذلك فقد اتضح لمبارك بعد الغزو أن صدام كان يحترم استقلال مجلس التعاون العربي لتعزيز طموحاته الاستراتيجية الإقليمية. وفي إحدى مراحل التعاون عرض صدام علي مبارك وعلي عدد من وزرائه هدايا تمثلت في عدد من سيارات المرسيدس. ورفض مبارك السيارة المقدمة له وذلك للمروضة علي وزرائه. لكن الآخرين كانوا أقل احتراساً. وقال: «الذهب إلي عمان وسوف تري كل السيارات للمرسيدس الجديدة». وكان علي إقناعاً بأن الملك حسين سمح لنفسه بأن يشركه صدام معه. وبالنسبة له فإن هذا يضر رفض الملك لإخانة غزو الكويت. وقال: «لقد قلت للملك ماذا يجري، ماذا تفعل؟».

كان مبارك متشدداً في موقفه المناوئ لصدام كالمسعوديين تماماً. وأعرب عن اعتقاده بأنه يتعين تدمير قدرة صدام علي تهديد جيرانه، وأبدي استعداده لإرسال قوات مصرية للمشاركة في التحالف، وشعر بالارتياح والسرور لذي معرفته باستعداد الولايات المتحدة لإسقاط ديونه التي تبلغ سبعة مليارات دولار. وكان يريد اتخاذ إجراء ضد صدام وكان يعتقد أن الأمر لن يستغرق طويلاً. وتوقع أنه في غضون سنة أسابيع فسوف تجبر العقوبات صدام

الدليل علي التراجع في خزي .

وقلت : السيد الرئيس . أمل أن يكون هذا صحيح ، لكن لا يمكن أن نضع خططنا علي أساس أن هذا حقيقي . علينا أن نضع الخطط علي أساس أنه من الضروري استمرار تصعيد الضغوط عليه .

فصل إضافي في موسكو وهلسنكي

وتوجهت من القاهرة جوا إلي هلسنكي لانضم إلي الرئيس في قمة رتبت علي عجل مع الرئيس جورباتشوف لتنسيق مواقف القوي العظمي حول أزمة الخليج . وجاء الاجتماع نتيجة مطققة لمباحثاتي مع شيرنادزة في مطار فوكوفو/٢ قبل شهر . وفي غضون ذلك انهمك صدام في محاولة شق الصف العربي ، والعمل بقوة مع أنصاره في الخارجية السوفيتية . كان من الضروري في ذلك الوقت الإعراب مجددا علي أن للقوي العظمي لا تزال متفقة في موقفها من الأزمة . وخلال اجتماعي مع الرئيس وسكروفت لليلة السابقة علي القصة التي تستغرق يوما واحدا ، أكدت أن اجتماع الرئيس وجورباتشوف والتأكيد مجددا علي ما أعلنه وزيراً خارجيتيهما في مطار فوكوفو غير كاف . إن هناك حاجة إلي صدور بيان مشترك جديد لرفق لغة البيان السابق ، وقد طلبت من العاملين معي إعداد مشروع بيان مشترك أثناء رحلتنا من القاهرة إلي هلسنكي ، وسوف يوضع صدور بيان مشترك أقوي بطريقة مثيرة أنه يرغم جهود صدام فإن زعماء التحالف أكثر اتحاداً . بل إنهم مستعدون عند الاقتضاء لدراسة اتخاذ تدابير أشد لإجبار صدام علي الخروج من الكويت . وأراد الرئيس أيضاً توجيه نداء شخصي لجورباتشوف الذي كان يشعر بقلق واضح وكهجر من بوليا السياسة الأمريكية ، واحتمال استخدام للقوة بقدر يفوق شيرنادزة .

وفي صباح التاسع من أيلول سبتمبر اجتمعت مع شيرنادزة أثناء اجتماع الرئيس بوش مع شيرنادزة وجورباتشوف في قصر الرئاسة . وكالمتوقع كان السوفيت لازلوا يروجون

لحلهم طويل الأمد بعد مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط. وكان جورباتشوف وشيفرنادزه قد ألقيا خطابين قبيل بضعة أيام ربطا بينهما التسوية في الخليج بالمشكلة الفلسطينية. وقلت: «سوف تكون هذه كارثة. إنه يبدو وكأن سنسلم هو الذي لقلناه، وأنه حصل على شيء لا يستطيع أحد غوره للحصول عليه. سيكون نصراً مؤزراً له، وسيوجه رسالة بأن طريقته في التعامل تؤتي ثمارها. وسوف يصنع العرب المعتدلين في موقف دفاعي، ويثير كافة أنواع المشاكل مع الإسرائيليين. ببساطة لا يمكننا فعل هذا. وعقب مناقشة طويلة قال شيفرنادزه: «أوافق. لكن دعنا نتحدث عن السلام بشكل ماه. وقلت: «علينا أن نؤكد اهتمامنا بالتوصل إلى تسوية سلمية، واهتمامنا بصمان تحقيق النجاح وإنهاء استعدادنا لإبصار أنه إذا لم تؤت الحقوقات مفعولها فسنكون علي استعداد لاتخاذ خطوات إضافية. وأمل أنه إذا لم تجز الحقوقات نفعاً ولم تُجَز المهمة فسوف نشعرون بمطلق الحرية في الانضمام لنا في مجلس الأمن الدولي للحصول علي التفويض للحركة وفقاً لهنود للقرار الصادر حول الاعتراض البحري. إننا هنا نتحدث عن استخدام إجراءات مناسبة. إنني لا أطلب ذلك توقيع شيء علي بياض وأسألك أن تفعله اليوم. إنني أضع إطاراً عاماً فحسب رداً علي استفسارك عن الخطوات التالية، وعن الاتجاه الذي ربما نريد السير فيه.

ورد شيفرنادزه: «إنني علي اتفاق تام معك. فكل ما فطناه كان صواباً، ويمكن أن يخفق، وينهي علي القول إنني سأكون أقل قلقاً لو اعتقدت أننا نتعامل مع شخص لا يمكن توقع تصرفاته لكنه علي استعداد للمقاومة.

وما لبثت حينئذ أن أخرجت مشروع البيان المشترك المقترح الذي أعده العاملون معي وشرعت في قراءته علي شيفرنادزه، وتضمنت صياغة مشروع البيان إشارة إلي «خطوات إضافية، سيدرس بوش وجورباتشوف اتخاذها إذا رفض صلح الانسحاب من الكويت. وقال: «هذا حسن. هذا حسن جداً. فليعمل ديفيس [رويس] وسيرجي [تارلسونكو] في العمل في مشروع البيان».

وسرعان ما اتضح عندما عدت للانضمام إلي الرئيس لإبلاغه بنتائج اجتماعنا أن جورباتشوف ألح عليه بشدة في موضوع المؤتمر الدولي الخامس بالشرق الأوسط. وعندما

سمعته يقول: «حسناً، أعتقد أنه في سبيله لأن يطلب عقد مؤتمر دولي». فتناوبني للقلق من احتمال موافقته علي الفكرة. وعكفت مجموعة صغيرة منا اتهم سكركروات وسلونو وروس وجون كيلى وكوندى رايس وريتشارد هاس المساعد الخاص للرئيس لشؤون الشرق الأدنى في دراسة القضية.

وللفعل روس ليما انفعال - وقال: «لا يمكن أن نفعل هذا. إنه سيقوض تماماً ما نحاول عمله. إننا سنضع المعتدلين العرب في موقف يقدم فيه صدام للفلسطينيين ما لا يستطيعون تقديمه. فإذا أوجدنا هذه الصلة فهو سيعادى اللص». ولو حدث هذا سوف تواجه شرق أوسط أشد خطورة مما رأيناه».

ورد الرئيس: «حسناً لا أعتقد أنه سيقبل أى شيء أقل من هذا. فقد أشرنا إلي أن شيفرنادز فيل بالفعل مشروع البيان المشترك الذي أعدناه، وهو لا يتضمن أى ذكر للمؤتمر». وتدخلت في الحديث قائلاً: «ليس لدينا خيار. لا يمكننا الحديث عن مؤتمر دولي. إن هذا سيكون نصراً مؤزراً له، وسوف يكون كارثة لأصدقائنا في العالم العربي».

ورد الرئيس: «حسناً، إننى أخشى من أن نجد أنفسنا مضطرين لعمل هذا. إننا نريد إصدار بيان مشترك وجورياتشوف يريد هذا مقابل ذلك».

وذكرته قائلاً: «لقد حصلنا علي مشروع بيان مشترك. ولم يتم ذكره مطلقاً لا تلقى بشأنه». ورد الرئيس بعدة لم أعهد لها ولا يمكن أن أنصافها مطلقاً: «حسناً، لابد أن ألقى. لقد أرسلت كل هؤلاء الأولاد خارج البلاد ولم يقطعوا أحد آخر وقد فطعنا. وبدأت في اتخاذ كل الخطوات التي تضمن أنني لن أعرض لأرواحهم للخطر دوماً اقتضاء». فإذا استطعت استمادهم من هناك بدون قتال سوف أفضل. وفجأة خيم علي الغرفة صمت مطبق، وتحدث الرئيس من قلبه وبكل جوارحه عن الفرد والمسؤولية التي لا يشعر بها سوي القائد. وبعد عدة دقائق كسر سلونو حاجز الصمت وقال: «حسناً. ربما يكون بوسعنا وضع إشارة إلي مؤتمر دولي في البيان». وانفجرت صائحاً: «كف عن هذا جون». وأخيراً تحدث الرئيس قائلاً: «جيمي! انظر إذا كان بوسعك للحصول علي البيان بدون. سيكون أمر جيد».



كان روس وترايسينكو قد أعدا مشروع بيان مشترك أغفل أي ذكر للمؤتمر الدولي، لكنه تضمن إشارات غامضة علي العمل سوياً في المنطقة بعد انتهاء الأزمة. ولتسوية كافة المشكلات الباقية في الشرق الأوسط والخليج. وبعد أن وافقت أنا وشيفرناذرة عليه عرضت مشروع البيان المشترك علي الاجتماع التالي الجارى بين جورباتشوف وشيفرناذرة. وراجع جورباتشوف نص المشروع سراً، وطالب إدخال تعديلات طفيفة للنهاية قبل إضافة ذكر الاحتياجات الإنسانية للمتطوعين العراقيين. وبعد أن لخصت التعديلات أحس جورباتشوف بالارتياح، وقال: «حسناً، فلننقحه». وكما اقتضح كان أعضاء اللوبي العربى في الغرفة المجاورة يأملون في إفراغ مضمون النص الذى أقره جورباتشوف لترو. وفي تكرار لتجربتي في مطار فركوفو/٢ قاصوا بإعداد مشروع باتخاذ خطوات جديدة، ولخفضت مطلوبة صدام بانسحاب غير مشروط. وعندما أفضى لى روس بالأمر حولت دفة الاجتماع لأثير القسوية مباشرة مع جورباتشوف. وتساءلت وأنا أقرأ النص الأصلي علي جورباتشوف: «السيد الرئيس، أليس هذا هو للبيان الذى وافقت عليه؟» فرد «نأ، وفى هذه اللحظة علي الأقل نزم اللوبي العربى للحد.

وبالتبع فإن الغموض البناء يمكن أن يفيد فى ممارسة الدبلوماسية. لكنه أداة خطيرة فى معظم الأحوال إذا استخدم بشكل هزيل. وفى الغالب فإن التحديد القاطع هو الوسيلة الأكثر تفصيلاً. وبشكل عام فإلنى الفصل الخروج من الاجتماع وهو مشبع بأجواء الاختلاف بدلاً من سوء فهم سوف يتلى بمشاكل أكبر علي الطريق.

وما من شيء يثير غضبى مثل الصاور الذى يحاول مراجعة اتفاق اقتصادي جهداً شاقاً فى إعداد.

وأعطانا البيان المشترك الذى أصدره الرئيسان بوش وجورباتشوف أكثر من نصف الرغبة. فقد وافق السوفيت علي «تصميمنا علي إنهاء هذا العدوان وإذا أخفقت الجهود العالية لانتهائه فإننا مستعدون لاتخاذ خطوات إضافية». وبالتقابل التزمنا سراً - دونما حاجة للإعلان العام - بمحاولة العمل مع السوفيت فى مؤتمر إقليمى للسلام فى للشرق الأوسط بعد

انسحاب العراقي من الكويت وحرمان كل من صدام وأصدقائه في الخارجية السوفيتية من الحصول على الترام صريح بالربط الذي سموا إليه . كانت صفقة جيدة . وتعزز التعاضد السوفيتي مع استراتيجيتنا بقدر هام* .

وبعد يومين وفي ١٢ أيلول سبتمبر التقيت نظيري السوفيتي في موسكو لتوقيع الوثائق التي تقرر بهائياً إعادة التوحيد التاريخي لألمانيا، وبعد انتهاء محادثات إثنين زائد أربعة الوردية . أمضيت يوماً إضافياً للاجتماع مع جورباتشوف وشيفرنادزه في الكرملين لبحث مختلف القضايا الثنائية الباقية من قعة هلسنكي . ولاحقاً استفسر جورباتشوف وشيفرنادزه عما إذا كان يمكن نقلني ودينيش روس علي انفراد . وانتقلنا إلي غرفة اجتماعات صغيرة وجلسنا حول طاولة دائرية صغيرة . ولم يكن لدىّ أنني فكرة عما يدور بعقل جورباتشوف عندما بدأ الحديث بمناجاة عن أحلامه بتحويل النظام السوفيتي إلى اقتصاد السوق الحرة . وبدأ قائلاً: «إننا نريد المساعدة . إننا الآن في منتصف طريق التحول، وفي التحرك لتطبيق تلك الإصلاحات سيحدث استياء كبير . إن الأمر بالغ المشقة علينا الآن . فالوضع الداخلي يتدهور بشدة .» وفي غضون ساعة إلي ساعة أشهر سوف تتحسن أمورنا . لكننا نريد المساعدة الآن . فطينا توفير احتياجات الشعب خلال فترة التحول . أعرف أن هناك حداً لما يمكنكم عمله . لكن هل بوسعكم مساعدتنا في الحصول علي بعض المال من السعوديين؟ . وحدد مبلغاً يتراوح بين أربعة إلي خمسة مليارات دولار .

وأبلغت جورباتشوف بأنني سأنظر فيما أستطيع عمله . (وانتهى هذا الاجتماع بالغ الجدية نهاية هزلية عندما أظهرت لجورباتشوف شيئاً أعطاه لي أحد الأشخاص علي سبيل الدعاية في الولايات المتحدة . كان كيساً صغيراً يحتوي علي واق ذكري واحد . ورسمت علي وجهه صورة صدام ، وعلي ظهره كتب للحمقي القوافي الكبار الذين لا يعرفون مني بمعبرين . وانفجر جورباتشوف وشيفرنادزه في الضحك بعد ترجمة معني الكتابة، وأخذ جورباتشوف للكيس ووضعه في جيبيه) .

* أفريقيا بهذا الالتزام السري بالتسريح لي العمل فور انتهاء الحرب لمقد المؤتمر الإسلامي تحت رعاية الولايات المتحدة والائتلاف السوفيتي . وكانت النتيجة لتسكيد مؤشر جديد في ٢٠ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١ .

ولئن عودتى إلي واشنطن وبعد تقصى الجوانب القانونية للتأكد من عدم وجود موانع من طلب المعونة المالية من السعوديين للسوفيت، فنت بمراجعة الرئيس الذى لم ير فى الأمر أى عذاسة. فمن فى حاجة لاستمرار مساعدة السوفيت، وإن يكلفنا الأمر شيئاً أن نطلب المال من السعوديين دابة عنهم.

وبعد أسبوعين وخلال اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نيويورك أثيرت المناقشة فى اجتماع خاص مع الأمير سعود الفيصل والأمير بندر. وقلت لهما: لا يمكن إيلاغكما بهذا تفعلون، لكن جورباتشوف يمر بموقف عسير. إنه يتعرض لضغوط جملة من العرب القديم ومن المهم دعمه فى مواجهة هذه الضغوط.

ورد سعود: فهمت، سوف نفعل شيئاً. وكان عدد كلمته وتحول هذا الشىء إلي منح قرض سخي قيمته ٤ مليارات دولار إلي السوفيت فى الشتاء. وشمر جورباتشوف باستئذان عظيم للسعوديين، واتصل بالرئيس هاتفياً فى وقت لاحق ليشكره علي دعمه. وأعتقد أن دورنا فى ترتيب حصول السوفيت علي القرض كان جوهرياً فى تعزيز مساندة السوفيت لقرار استخدام القوة، واستمرارهم بقوة فى التحالف علي مدار الأزمنة.

اللمسات النهائية: دمشق وبون

وبعد الاجتماع مع جورباتشوف طرت من موسكو إلي سوريا فى زيارة أثارت جدلاً هائلاً فى الخارجية لدرجة هددت بعدم إتمامها. فقد استمات روس فى معارضة الزيارة. وشكلت وجهة نظره لأسبابه الخاصة فى أن للرئيس الأسد سوف ينضم إلي تحالفنا لامحالة. فالأسد يُحتمر عداء شخصياً لصدام الذى يعد منافسه الرئيسى فى المنطقة رغم انتمائهما لفرعى حزب للبحث، ولم تكن علاقتهما علي ما يرام نتيجة اعتقاد الأسد لصدام بأن صدام يسعى لقطه. وسيكون تركيع صدام أفضل خدمة لأغراض الأسد. ولم يكن هناك شك فى استمداد الأسد لإرسال قوات سورية إلي العربية السعودية. وعلمنا من مبارك أن الأسد وعد

بالفعل بإرسال فرقة سورية واحدة علي الأقل، ووعدَ السعوديون بتحمل تكاليفها. فصلاً عن ذلك، وافق الأسد على طلبنا بإيفاد ممثل لحضور اجتماع الجامعة العربية في آب أغسطس في القاهرة، والذي تم حلاله رسمياً الموافقة علي التحالف العربي. وكسألة عملية فقد تم ضمان الأسد تماماً. وجادل روس: «وعندما نذهب إلي دمشق فإنك تفعل شيئاً يريد علي أحر من الجمر وإن تحصل علي أي شيء منه لا يكون هو مستعداً لعمله بالفعل».

ومذ البداية كنت أريد الذهاب إلي سوريا رغم اعتراضات روس. ورغم وجهة حججه شعرت أن الأهمية الرمزية للمشاركة السورية لكثير حسماً بكثير من مشاركتها الفعلية. ومع تمثيل سوريا تبرز مصداقية شركائنا العرب في التحالف بقدر هائل، لكن كان علي بخبرن هدفاً أبعد بكثير. فليس هناك طريق لتحريك عملية السلام الشاملة في الشرق الأوسط بدون مشاركة حبرية من جانب سوريا، وأعتقد أن الفرصة ستكون مواتية لهذه في تهيئة الأرض مع الأسد لبذل مصاع جديدة لإحياء عملية السلام. كان السؤال الوحيد هو التوقيت. وكنت أعرف أيضاً أن الرئيس بوش يوافق لمشاركة السوريين. وكان يعتقد علي الضرام أن جورج شولتز ارتكب خطأ فادحاً بقطع الاتصالات مع سوريا عقب الانفجار للأساوي تلكلات مشاة البحرية الأمريكية في بيروت عام ١٩٨٣. وفي عام ١٩٨٦ أراد جورج بوش نائب الرئيس زيارة دمشق في إطار جولته في الشرق الأوسط لكن مساعديه ألقوه عن عزمه علي مصص خشية احتمال الإحفاق السياسي. وقيل له: كيف سيبدو الأمر إذا فجر الإرهابيون الذين نرعاهم سوريا طائرة؟ فسوف تجلب صورة كارثة عليه وعلي ريجان. وقبل كارها عدم زيارة سوريا، لكنه كان يعتقد دوماً أن الولايات المتحدة تخلفت عن الكفة، وإنه كان عليها أن تشارك مع الأسد رغم الاختلاف الشديد حول دعم سوريا للإرهاب الدولي والتورط القوي في تهريب المخدرات. وما هو الآن نموذج تتلقى فيه المصالح الاستراتيجيية الأمريكية مع اعتقاد الرئيس بأننا أهدرنا بالفعل فرصاً ذهبية للتعامل مع سوريا.

وبسبب معارضة روس المستمينة أَسْقَطَ دمشق أثناء التخطيط الأولى لجولتي المقررة في شهر أيلول سبتمبر. لكن في أحد أيام آب أغسطس أبلغني الرئيس: «أعتقد أنه يجب أن ندرس التوجه إلي سوريا. لا أريد أن نحظى للفرصة ثانية، ولأنني حذرت التوجه إلي سوريا

فى وقت ما أصدرت تعليماتى إلى تاتويلر بإدراج دمشق فى نهاية جوالتى . وأخيراً أثبتت بصيرة الرئيس صوابها عن أهمية سوريا . سواء من ناحية حرب الخليج أو فى عملية السلام .

وأعلنت لئلى سأتوجه إلى دمشق بنفسى ، وذلك فى مؤتمر صحفى عُقد فى أعقاب الاجتماع الرئاسى لعلف شمال الأطلسى فى بروكسل . ولأثر الإعلان سنجة كبرى فى الصحافة الأمريكية لأنه سيكون أول اجتماع على مستوى عالٍ بين وزير خارجية أمريكى ورئيس سورى منذ عامين .

واجتمعت بالأسد فى دمشق فى ١٤ أيلول سبتمبر فى مبنى يستصى وصفه بطل على شارع سكلى فى مواجهة البيت الذى يقيم فيه الأسد . كان الأثاث مريحاً لكن غاية فى البساطة . فالغرفة مستطيلة يوجد بها مقعدان وثيران تفصل بينهما منضدة صغيرة بأحد طرفى الغرفة . كانت الستائر الصفمية باللون الزيتونى تغطى حائطاً طويلاً بالغرفة ويوجد خلف الستائر نوافذ مزودة بزجاج رلق من الرصاص ولا يمكن فتحها حتى وإن ارتفعت درجة الحرارة فيها كما يحدث فى الغالب . وعدد الطرف الآخر للغرفة يوجد بابان بلمصبان إلى مكتب الأسد حيث يقضى معظم وقته . كانت اللوحة الوحيدة التى تزدان بها الغرفة عبارة عن لوحة تمثل معركة حطين التى هزم فيها القائد المسلم صلاح الدين أعداءه الصليبيين .

وبعد اندعابات الممتدة قدمت نفسى له بإيجاز ، وكنت على لئلى والرئيس صديقان حميمان منذ ثلاثين عاماً . وقلت : «إننا صديقان حميمان للغاية . إننى أشاطره كل شىء ويشاطرنى كل شىء» . وكنت أريد أن ينظر لى الأسد باعتبارى امتداداً للرئيس ، شخص يمكن قبول وصفه لوجهات نظر بوش كشىء مقنس ، وأن كلامه كلام حسن . وأبلبنى السفير إدوارد جيرجيان أن الأسد يولى أهمية كبيرة لمصادقية محاوره من عندهما . وقلت : له لئلى سمعت إنك مفاوص شديد المراس . لكن يمكن الثقة فى أنه يفى بكلمته بمجرد التمهيد بها .

ورد بابتسامة قللاً : «حسناً ، لقد سمعنا أشياء عنك أيضاً ، إننا نتابع للتقارير المتوقعة بألركم بحرص بالغ . لقد توصلنا إلى نتيجة بأنكم رجل قوى وحاسم ، فأنت نقول ما تعنى وهذا يجعلنا نعتقد أنك رجل مستقيم . ربما كان من الأفضل لنا أن نقول هذا من وراء

ظهورك. لكن هذه سمة مهمة. فمن الأهمية بمكان أن يكون الشخص صريحاً ومباشراً بنص
الانظر عما إذا كنا نلتق أم نختلف. وعندما تتوفر تلك الخصائص تتوفر الثقة حتي في حالة
الاختلاف. ويجب ألا تكون هناك قضايا خفية بيننا، وأهديت ملاحظة حول ثقة الرئيس. فإنه
يفضل استخدام لفظ التفخيم «نحن» في أحاديثه الدبلوماسية.

وشرحت التوسع في الخليج باعتباره أول أزمة حقيقية تندلع في حقبة ما بعد الحرب
الباردة - وقت: «لن نظاماً جديداً في طريقه للتطور بطريقة مهمة من كيفية تعاملنا مع هذه
الأزمة. وهذا هو السبب الذي يقتضي صدم نجاح صدام. حتي في الهزيمة لا يمكن أن ينظر
إليه كطال. واستعرضت استعداداتنا العسكرية بإيجاز أمام الأسد، وأبلغته بأن الهدف الأساسي
لزيارتي هو معرفة ما إذا كان مستعداً للسماح لفرقة بالمشراكة في التحالف العسكري
مشاركة فعالة. كان إرسال قوتل سورية بادرة رمزية مهمة. لكن إذا اندلعت الحرب فإننا
نريد مشاركة قوات الأسد في العمليات التي جانب المصريين.

وقلت: «في حالة المعلومات العربية فإننا في حاجة لمعرفة ماذا ستفعل بقوتلك التي
ترسلها إلي العربية السعودية وقوتلك العراقية علي الحدود العراقية السورية». ونحن نعتقد أنه
من المهم ألا تدرى مناقشة علنية لهذا الاحتمال سوي للقول إننا لا نستبعد إجابة مباشرة جرياً
علي ما عرفت أنها عاقته. وقال: إنه يأمل في أن نوهن العقوبات عزيمة صدام. وأعني في
تأمل: «إنهم قساة ولا يد من عقابهم، ولكن عندما سألته عن الوقت الذي يعتقد أن العقوبات
ستخفقه لتؤتي مفعولها رد قاتلاً: إنه ليس لديه معلومات بعد بها عن الوضع للداخل في
العراق. لكنه لم يترك أي شك في أنه لا يؤيد عدوه اللدود. وأشار إلي أن غزو صدام للكويت
خطأ. ولذا فإن سوريا تكتبي الموقف المبدئي بتأييد جهود التحالف. لكنه ظل علي غرض
نام حول نطاق مشاركة سوريا. وبعد لأي وجهه قال أخيراً إنه لم يقرر بعد حجم القوات التي
سرسلها إلي العربية السعودية. وتعهد: «سوف نكرم بإرسال العدد المطلوب حتي مائة ألف
جندي». وحيث إن السوريين لم يتعهدوا بالفعل سوي بفرقة مدرعة واحدة كانت بادرة
مشجعة أن يبدي الأسد عندئذ حتى مجرد استعداده للتوسع نطاق مشاركته. وقال: «سوف
نقل الصواب. لكن ليس من لكسل عمله بسبب للرأي العام السوري».

وقلت: السيد الرئيس . ليس بالهين علينا أن نكون هناك . فلدونا للرأى العام الأمريكى . وهناك الكثيرون الذين يتفقدون وجودى فى سوريا اليوم . لكن من المهم أن نكون هنا لبحث هذه الأزمة ، وآمل أن نكون هنا فى المستقبل أيضاً .

وألقى على الأسد محاضرة عن التجبى الأمريكى . لكنه كان تبادلاً إيجابياً للأراء . وبعد تفكير بئأعتقد الآن أنه من المرجح أن تكون هذه أول معرفة لى بأن الأسد ربما يكون مستعداً لدراسة تعمل جانب من الصعاطر الضرورية الهامة لإحياء عملية السلام المستعصرة .

وفى المقام الأول فالأسد رجل واقعى . فلم يكن فى حاجة لقول أن الانضمام إلى التحالف سيعزز نفوذه فى العالم العربى ، ويساهم فى تصفية ضغائله مع صندلم حسين . وهو يعرف بالبدية أيضاً أنه سيجعل من السهل على الولايات المتحدة التعامل مع سوريا . لكننى أردت منه الاعتراف بأن الصعاطر أكثر من الورد على طريق علاقتنا القائية . ومن وجهة نظرى فإن الوصول إلى نتيجة ناجحة فى الخليج سوف يفتح سبلاً جديدة لإحياء آفاق عملية السلام فى المنطقة .

وقلت : «إننا متفائلون من أن الملامبات التى تجمع سوريا ومصر ودول الخليج فى تحالف عربى رئيسى تشر بمستقبل جيد لعملية السلام للعربية الإسرائيلية» .

وفى ختام الاجتماع نوه الأسد : «إننا نشعر بالارتياح تجاه المناقشات ، وليس هناك بدول عن مثل هذه الاجتماعات المباشرة . وآمل أن يمكننا هذا فى المستقبل من إنجاز الكثير . فهنا من مصلحة كل بلدنا ومن مصلحة السلام فى الشرق الأوسط . إننى أريد للسلام عن طريق حقيقى . كان من السابق لأوانه إلى حد بعيد معرفة ما إذا كان يعنى ذلك ، فقد ظل يقوله لسنوات كمعظم الرعماء للعرب . لكن تم إنجاز الهدف الأكثر إلصاحاً . والتزمبت سوريا بالمشاركة فى التحالف .



وتوجهت من دمشق إلى روما لإجراء مشاورات مكتوبة مع الرعاة الإيطاليين الذين وافقوا على إرسال سرب من طائرات تورنادو إلى الخليج، ثم توجهت إلى ألمانيا حيث التقت في ساعة متأخرة بعد ظهر ١٥ أيلول سبتمبر مع المستشار كول في مسقط رأسه لوفينجهاوس التي لا تبعد كثيراً عن القاعدة الجوية الأمريكية العملاقة في رامشتاين. ورغم أن الدستور الألماني يحظر على كول إرسال قوات إلى الخليج فإن منعان الحصول على التزام مالي ألماني أمر ملزم من الناحية الرمزية. وقبول معاهدة واشنطن كنت قد تعرضت لوابل من الشكاوي أثناء إدلائي بشهادتي أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ حول الدول الأخرى التي لا تشارك في تحمل نصيبها من العبء. وتعرضت ألمانيا لانتقادات خاصة، وكنت أتهني وجهة النظر القائلة بأن استجابة ألمانيا للزمة كانت حتى ذلك الحين مخيبة للأمال. رغم أنني لم أفصح عن ذلك علانية. كان تردد الألمان مثبورا لميزة كبيرة. لأنني شاركت قبل يومين اثنين في موسكو في حفل للتوقيع على المعاهدة التي انهي الحلفاء الأربعة المنتصرون في الحرب العالمية الثانية بموجبها حقوق الاحتلال في ألمانيا الغربية. مما مهد الطريق لإعادة توحيد ألمانيا بعد نحو نصف قرن. وكان اتفاقاً توسطت فيه الولايات المتحدة أساساً، ويعرف الألمان ذلك. وها نحن الآن نريد شيئاً من المعاهدة في المقابل.

وقبل أن أصل كانت وزارة الخارجية قد بدأت في تسريب بعض الأنباء عن استعداد ألمانيا لأن تكون أكثر إيجابية. لكن كنت أريد للتأكد من أن المستشار كول يعي المعاذير. وافقصر الاجتماع علينا وعلى المترجمين فقط.

وقلت: «لقد عملنا عن كثب في العام الماضي لتلبية مطالبكم. واعتقد أننا أنجزنا عملاً جيداً، ولم يكن الأمر سهلاً على الدوام. لقد عملنا عن كثب سوياً وكنا نطمح على كل خطوة. كان إيجاباً رائعاً لنا. لكن لنا بعض المطالب الآن. وإنكم لن تشاركوا بأي قوات لأن دستوركم يحظر هذا، وإذا بدأ أنكم بخلاء بالنسبة للمال فسوف تحصلون على كل المزاي من هذا وإن تسامعوا بشيء، وحتى لو لم أكن أعتقد ذلك فإن الأمر يفهم على هذا النحو. عليكم أن تضعوني في موقف استطيع فيه عندما ألق أمام الكونجرس أن أقول إن ألمانيا تتحمل نصيبها العادل. إنني أعرف مدي أهمية العلاقات الأمريكية الألمانية لكم وأنتم تعرفون مدي

أهميتها عدى. لكن لا يسعكم أن تدعوني أُلْشَقَ بسببها، والمستشار رجل أطلنطى ملتزم ومنافع قوى عن الولايات المتحدة ووجودها فى أوربا وصديق مقرب للرئيس بوش وزعيم دائم الامتنان لما قدمته أمريكا. وأظهر هذا بتقديم مساعدة بلغت نحو مليارى دولار. إضافة إلى تقديم عتاد إسناد للقوات الأمريكية فى الخليج قيمته ملايين الدولارات، ووافق المستشار على قيادة المساعدة العسكرية والاقتصادية لتركيا بقدر مهم، وتقديم سفن ألمانية لنقل القوات المدرعة المصرية ونهاباتها الثقيلة إلى الخليج.

ولدى عودتى إلى واشنطن فى تمام الثالثة فجر السادس عشر من أيلول سبتمبر رلودتلى الأفكار بأن لدى أدلة ناصعة على أن دبلوماسيتنا توتى مفعولها. وفى وقت لاحق من اليوم سوف تصدر الأمم المتحدة قرارها السابع بإدانة الغزو. رها هو التحالف الدبلوماسى قد التأم. وبدأت العقوبات تؤثر على العراق وتعهد شركاؤنا بمليارات الدولارات لتحمل العبء المالى لعملية درع الصحراء. لكن صدام لا يزال فى الكويت، وتشير تصريحاته وخطبه إلى أنه ليس فى عجلة من أمره للانسحاب.

الفصل السابع عشر

كل الوسائل اللازمة

إن صدام رجل يفقد توازنه... رجل لا يعرف شيئاً عن الأخلاق .
شخص يستهين بكل قيمة إنسانية يعتقدونها أي مجتمع.
رما كان الله قد ساق هذه الأحداث لتخلص من صدام.

الملك محمد

للوزير بكر

جدة، العربية السعودية

٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠

بحلول تشرين الأول أكتوبر نجح الردع الأمريكي في الخليج . فلو كان صدام حسين يحطط لغزو العربية السعودية فإن نشر الرئيس للقرارات في شهر آب أغسطس يكون قد قلل من هذا التهديد*.

ونجحت مساعيها الدبلوماسية التي ساعدتها غطرسة صدام في عزله عن التيار الدبلوماسي الأساسي . فما من أحد يؤيد الغزو العراقي للكويت في أي مكان في العالم . لكنه ظل في الكويت مع ذلك غير عابئ بصغورنا ، وأصبح للرئيس علي اقتناع بأنه بات من الضروري الآن أن تنجا السياسة الأمريكية إلي نهج أكثر قوة .

ولسوء الحظ ثبت خطأ أصدقائنا المتفائلين في المنطقة في تقديرهم لآثار العقوبات الاقتصادية علي العراق . فبعد البداية كان مبارك وأوزال علي اقتناع بأن العقوبات ستتركع صدام وتحمله علي الخروج من الكويت في غضون سنة أسابيع . واتفق معهما جورباتشوف وشويفنادزة . وفي البداية افتتعا بتقييمهم المتفائل : فهم يعرفون خصمهم أفضل منا . ومع ذلك وبعد مرور شهرين وبينما الحظر يثبت فعالته المؤكدة بالمعنى الاقتصادي توصلت إلي اعتقاد شأل معظم رمالتي في الحكومة بأن العقوبات وحدها لن تنجح مطلقاً في طرد العراق من الكويت .

ومن أوجه كثرة كان العراق مرشحاً مثالياً لتؤثر فيه العقوبات الاقتصادية . فالعراق يعتمد علي الواردات إلي حد كبير لإطعام شعبه وتشغيل صناعاته . ويمكن الحد من صادراته الأساسية - البترول - بإغلاق خط الأنابيب للواصل إلي تركيا والعربية السعودية وفرض الحصار البحري في الخليج . ومن الناحية الجغرافية فإن العراق يعتبر معزولاً نسبياً . ورغم

* في الحقيقة ، أنه بعد بضعة أسابيع من انتهاء حرب الخليج حوت شيئاً أشار إلي أن صدام كان يحزم بشدة تهايز حدود الكويت وأبلغت في صدام بحث برسالة شخمية إلي الرئيس الإيراني علي أكبر خامني وأستدعي تحدث فيها عن نواياه في التماسيل السلي مع إيران علي أرض أثار إليها ملاحظاً أنق يند بطول ٨٤٠ كيلومتراً . ويبدو أن صداماني فتح الخريطة وتاس ساحل الخليج وتؤكد من أن صدام يصف حدوداً جديدة تمتد من الحدود العراقية في تلك القسطة إلي الإمارات العربية . يستدل بالفتح ساحل الحرية السعودية علي الخليج .

حدوث بعض الانتهاكات للحظر عبر المملكة الأردنية الهاشمية مع دول أخرى تناغم العراق، فقد كان الأردني يلتزم إلي حثكبير بالحظر المقروض علي جاره القوي.

وسياسياً لم يكن من المرجح أن تؤدي العقوبات إلي إجبار صدام علي الخروج من الكويت. فأولاً مكنت الطبيعة الشمولية للنظام، صدام دونما اعتبار أو خوف من احتجاج الرأي العام - من إعادة تخصيص الموارد للمنظمة في مختلف أنحاء البلاد لاستمرار إبطام وتزويد جيشه وأجهزته الأمنية بالعتاد، وثانياً فإن الزعيم البائس بالقدر الذي دفعه لغزو جاره من المرجح أن يتملكه قدر من اليأس يدفعه إلي التمسود في وجه العقوبات . كانت الكويت جائزة كبرى لصدام، وكان في سبيله ليُجبر علي دفع ثمن باهظ للغاية لإعادة الكويت.

فقد كبّدت ثمانى سنوات من الحرب مع إيران العراق كلفة اقتصادية وبشرية، وكان من المشكوك فيه أن العقوبات قصيرة الأجل يمكن أن تنجح في مصاعفة هذه الكلفة. وثالثاً كان الزمن في صف صدام حسين من الناحية العملية. أما هؤلاء الذين يحاجون بإعطاء فسحة من الوقت لتؤدي العقوبات مفعولها فإنهم يسيلون مراً وتقدير صعوبة الحفاظ علي تماسك التحالف لفترة طويلة. وأخيراً هناك احتمال لانشقاق شريك رئيسي عن التحالف ومن المرجح في هذه الحالة أن يتقوض التحالف. وكان من المقامرة للكبيرة أنه مع إبداء الاستعداد لاستخدام القوة لإعادة الكويت فمن غير المرجح أن يسلم صدام للكويت دون التلويح علي الأقل بتهديد قاطع باستخدام القوة ضده.

ومع ذلك كانت لاتزال هناك فرصة ضئيلة بأن العقوبات مقترنة بالتلويح بالقوة العسكرية ربما تقنع صدام بالانسحاب من الكويت. لكن حتي يمكن أن يكون لمثل هذا التهديد مصداقية فإن قولتنا في الحلوج تحتاج إلي تعزيز رئيسي. وفي الوقت نفسه فإننا في حاجة لأن نشرع في هدوء في تقصى احتمالات الحصول علي قرار من الأمم المتحدة يجرئ لنا استخدام القوة ضد صدام إذا لم ينسحب من الكويت في مطلع عام ١٩٩١.

تعزيز القوة

في منتصف تشرين الأول أكتوبر اتصل بي كولين باول وقال: «أريد أن اتحدث معك حديثاً خاصاً قصيراً». وهكذا التقينا بعد ظهر ١٩ تشرين الأول أكتوبر لخمس وأربعين دقيقة في مكنتي. واحترمت رغبة باول في أن يكون اللقاء خاصاً، وتخلّيت عن عاداتي بإبلاغ ديك تشيني بمثل هذه الاتصالات. وأُمنح البعض إلي أن باول وأنا معروف عنا معارستنا لاستخدام القوة، وأنه جاء يطلب مساعدتي في معارضة وصول التطورات لانتهاج هذا النهج. وفي الحقيقة لم يكن الحال كذلك حيث إن الاجتماع أسفر عن اتفاقنا نحن الإثنين علي ضرورة انتهاج سياسة عسكرية ودبلوماسية متشددة إذا تهددت كل الأمل في إخراج العراق من الكويت.

وسبق لنا العمل عن قرب خلال فترة الرئاسة الثانية لريجان عندما كان باول مستشاراً للأمن القومي وأنا وزير للخزانة. وكان يعرف أنه ترقطني علاقة شخصية وثيقة بالرئيس. واعترف بأن العقوبات لن تكون لها آثار جوهرية علي صدام، وكان يدرك أيضاً أن الرئيس سيصطر قريباً لاتخاذ قرار حول الديارات المتشددة الضرورية. وأعقد أن هدفه كان ببساطة هو معرفة إحساسي تجاه الموقف بشكل أفضل.

وفي ١٥ تشرين الأول أكتوبر التقيت مع بوب كيميت وبعثنا الخطوات المطلوب اتخاذها إذا تعين المضي قدماً في الحوار العسكري، وشملت تلك الخطوات استصدار قرارات إضافية من مجلس الأمن، وجهد دبلوماسي منظم لحشد التأييد لاستخدام القوة، وتعزيز قواتنا في الخليج، وإقامة تدريبات قيادة وسيطرة فعالة. ثم التقيت بجولة في أوائل تشرين الثاني نوفمبر للتشاور حول تلك الخطوات مع شركائنا في التحالف.

وكما نبيى كان يجمعني أنا وباول نمط تفكير واحد. فقد شاطرته قلقه من أن السياسة العالية تشكل انحرافاً. فإذا كان انتشار قولتنا قد ساهم في احترام مصطلحات صدام في المربية السعودية إلا أنه غير كاف لإخراجه من الكويت. وكان واضحاً تكلّياً أن الحاجة سندعو لاتخاذ المزيد لإجبار هذه المهمة، وانفقنا أثناء حديثنا علي أنه إذا لم يحدث مزيد من

الاستقرارات من جانب صدام فسوف تنحصر اختياراً لثلاثة لخيارات هي: إبقاء كل الخيارات مفتوحة وهو ما سيظل أمد الانحراف أو الاختيار السد سياسة الاحتواء المعلقة التي يتم بمقتضاها تعزيز العقوبات وأن تظل القوات الأمريكية في الخليج لأجل غير مسمى في إطار مهمة دفاعية في المقام الأول، أو تشكيل قدرة هجومية تكفي لطرد العراق من الكويت لو اقتضت الضرورة.

وحدثنا الخيار الثالث. وقال بول: فإن لدينا القدرة علي بناء قوة هجومية حقيقية. فلابد وأن يقطع هذا صدام حصين بأننا جادون وسوف يتطلب تعزيز القوة أربع فرق علي الأقل من القوات البرية. لكن كلنا كان يعتقد أننا لن نخرج علي الأرجح من الناحية السياسية إذا عملت الولايات المتحدة نسبة خمسة وسبعين في المائة من الخسائر البشرية في حالة نشوب الحرب. ويتعين أن يشمل حشد القوة نشر عدد جوهري من القوات الإضافية من دول أخرى وخاصة الدول العربية. ويمكن أن تكون هذه القوة المضخمة علي ألبه الاستعداد للقتال في غضون ثلاثة أشهر. ووافق بول في الرأي بأن الخيار العسكري لابد وأن يكون مرتبطاً بمسار دبلوماسية تفوضنا في استخدام القوة العسكرية عند الاقتضاء



وفي اليوم التالي هي المنزل تمت بتلخيص برنامج عمل يستند علي الخيارات التي بحثها مع بول في نقاط دونتها لنفسه علي ظهر مطرووف. وأشرت إلي أنه ولاستباق تراجع التأييد فلابد وأن يعلن الرئيس يوماً سيتم بعده استخدام القوة. وكنت أفكر بأن الموعود المناسب ربما يكون الأول من شباط فبرابر أو أول آذار مارس. لكن أولاً كان الموعد الذي سنختاره فإننا هي حاجة لأن نكون علي أتم استعداد. وفي الوقت ذاته يتعين أن نشرع فوراً في حشد قوة ضخمة في الخليج. ولتبرير هذا العمل كتبت: «إن النظام العالمي الجديد عليه أن يلتزم بالميادئ ويتصدي للعدوان، فيجب ألا تتكرر نفس الأخطاء التي ارتكبتها في الثلاثينات أو في هيتنام - كالفروض والرد - الخ. فإذا كنا نريد إنجاز المهمة فليتنا تشكيل

قوة ضخمة - وفي غضون ذلك علينا أن نتوجه إلي الأمم المتحدة والكونجرس طلباً لتأييدهما في حالة استخدام القوة -

وكتبت: «إذا وافق الكونجرس ولم ينسحب فضيك بالبدء؟ وإذا لم يوافقوا فما عليك حينئذ سوى الإعلان عن أننا سوف نحويه وسنواصل فرص العقوبات وسوف يستمر تركيز القوات هناك كما هي ألمانيا وكوريا وفي هذه الحالة سيكون علينا دراسة إجلاء نهائي لبقية الدبلوماسيين الأمريكيين المتواجدين في الكويت».

وفي اليوم التالي اتصلت بالرئيس وأبلغته برغبتي في لقائه لقاء خاصاً للتشاور حول شيء ما، ورد: «لماذا لا تأتي فوراً وسوف نتناول شرباً». وبعد ظهر ذلك اليوم - الأحد - لفصت أرائي له في البيت الأبيض. وقال إنه يعتبرها آراء مهمة وأنه يتماطف معها بشكل عام، ولكن كعادته يريد بعض الوقت لدراستها. واتفقنا علي ضرورة بحث القضية مع كبار مستشاريه. وفي الوقت الذي كنت أبحث فيه للفكرة مع الرئيس توجه بلول إلي الرياض لبحث مع شوارتسكوف احتياجاته لتوجيه تهديد هجومى فعال.

وعلي مدار الأيام الثلاثة التالية أثار الرئيس هذه القضايا مع تشيني وبلول وسكرتريوف ومعنى في عدة مناسبات. ففي ٢٤ تشرين الأول أكتوبر قال إنه يفضل نشرأ جديداً رئيسياً للقوات الأمريكية في المنطقة. وفي ٢٦ تشرين الأول أكتوبر - أى في اليوم التالي لعقد اجتماع لمدة ساعتين في غرفة الاجتماعات وافق الرئيس رسمياً علي تعزيز القوات برقع مائتي ألف جندى يُرسَلون إلي العربية السعودية، وضائف هذا النشر، وسوف يوفر القدرة الصادرة للقيادة المطلوبة لخوض معركة برية. وبمجرد وصول هذه التعزيزات من الولايات المتحدة وألمانيا فإن قوتنا الدفاعية ستكتسب قدرة هجومية ضخمة. وإذا احتلجت الولايات المتحدة خوض الحرب فسوف نكون في وضع يسمح بالقتال والنصر.

وإذ رغم أن البعض اتهم بأن تعزيز القوة يرقى إلي حد اتخاذ قرار بخوض الحرب كان الرئيس وكبار مساعديه لا يزالون يأملون في أن حشد القوات سوف يقطع صدام بالانسحاب

من الكويت بدون حرب، وأن دبلوماسية القوة ستؤتي مفعولها. وربما بدت الحرب وكأنها قضية واضحة ومباشرة نسبياً. ومع هذا فقد وجهنا أرقام معتدلة عن الخسائر البشرية قدرها الإنتاجون بالآلاف. ناهيك عن شبح شن هجمات بالأسلحة الكيميائية والبيولوجية وتوقعات استمرار الحرب لأشهر لا أيام. ولم يكن يخالجني أى شك في أن للرئيس سوف يجيز استخدام القوة عند الاقتضاء، وأنا حريصون على الحفاظ على خياراتنا في إطار المادة ٥١، من ميثاق الأمم المتحدة. لكن ومنذ البداية الأولى اعترف الرئيس بأهمية الحصول على الموافقة الصريحة للمجتمع الدولي لو كان ذلك ممكناً. ولسنوات دأب حلفاؤنا على الشكوى من عقلية راعى البقر الأمريكي. وقد عززت عملياتنا الفاعلة في جرينادا وبدا هذا الانطباع. وباختصار تشكل تحالف سياسي ودولي مناهض للمراق أثبت بوضوح أنه استوعب هذه الانتقادات. ومع هذا فقد كان يعتقد في المقام الأول عن صواب بأن للتطويع باستخدام القوة سيكون أكثر إقناعاً لو حظي بموافقة رسمية من معظم أعضاء العالم المتحضر. وهذا هو المسبب الذي دعاء في أواخر تشرين الأول أكتوبر - ليس فحسب إلى زيادة عدد لغوات الأمريكية. بل السعى أيضاً لاستصدار قرار من الأمم المتحدة يفرض التحالف خوص الحرب عند الضرورة.

وكان هذا القرار مفروغاً منه علي أية حال. وعارضت مارجريت تاتشر الفكرة معتقدة أننا إذا فشلنا في استصدار القرار فسوف تكفوس إلى حد بعيد قدرة التحالف على استخدام القوة بموجب المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. وكانت تعتقد الرأي القائل بأن الأمم المتحدة سوف ترفض مثل هذا القرار الذي ستقدمه، وهكذا فإن مخاطرة محاولة استصداره تفوق بكثير أى احتمالات للكسب. وليدها في الرأي ذلك تشيبي وبرينت سكوكروفت. وكنت أوافقهم جميعاً للرأي في أنها ستكون خسارة فادحة لو خسروا مثل هذا التصويت العاسم. ولم أبذل علي أية حال أى محاوله لاستصدار القرار ما لم أكن متأكداً من موافقة الأعضاء عليه ومع ذلك كنت أعتقد أن بوسع الدبلوماسية للكففة أن تمكنا من الحصول على التأييد الضروري. وهاججت بأن هذا سيحدث بطريقة تكفل عدم عرض القضية مطلقاً علي مجلس الأمن للتصويت ما لم نتأكد أننا حصلنا علي الإلزامات الكافية لمعرفة النتيجة النهائية وأخيراً وافق الرئيس علي أنها مجازفة تستحق للمغامرة، وكانت مهمتي ترويج القرار في مجلس الأمن ومع شركائنا في التحالف.

كل الوسائل اللازمة

أَمَلِي الجدول الزمني لجهودنا الدبلوماسية ولقعا بسيطا لا يَنَازِع. فبطريق المصادفة للبحثة ويمكن ترتيب منذ أمد بعيد، سوف تتولي الولايات المتحدة رئاسة مجلس الأمن ثم تنتقل الرئاسة الدورية للمجلس إليّ الذين حايك العراق الذي يمارس التحالف بشدة، وكمسألة عمالية سيخمين إجراء أى تصويت علي القرار في موعد لا يتجاوز الثلاثين من تشرين الثاني نوفمبر.

وفي تشرين الأول أكتوبر، وقبل وقت طويل من اتخاذ قرار تعزيز القوة كنت قد طلبت من لجنة النواب إعداد نص مشروع قرار مقترح. وكنت أريد أن يتضمن مشروع القرار إعلاناً واضحاً لا لبس فيه يجيز استخدام القوة، وليس التفويض باستخدام القوة. وتضمن النص الذي اقترحه كل الوسائل اللازمة بما في ذلك استخدام القوة. ومع هذا فإن الدبلوماسية البارة هي التي تسند إليّ فن الممكن. وإذا قد كنا في مركز قوى، ويطلب منى استقصى بوب كيميت الجوانب القانونية، وخلص إليّ أنه إذا اعترض الصويت وخلفاء آخرون علي مثل هذا التحديد فإن عبارة "كل الوسائل اللازمة" علي صياغتها تتضمن الإجابة للكافية لحوض الحرب. ومع هذا كنت أقل اهتماماً بقواعد اللغة عن اهتمامي بالفوق العدى الكاسح في مجلس الأمن. ومع وجود الهمس وكربا في عصرية مجلس الأمن في تشرين الثاني نوفمبر فس غير المرجح التصويت بالإجماع. لكن حدوث انقسام كبير في التصويت بمجلس الأمن سيجعل من اليسير علي صدام أن يدّعي بأنه ضحية ألتقام امريكي صهيوني، ومن ثم يقوض مصداقية العملية العسكرية.

وحرصت علي إجراء لقاء شخصي مع كل رئيس دولة أو وزير خارجية كل دولة عسو في مجلس الأمن في الأسابيع السابقة علي إجراء التصويت في المجلس. ويشتهر مندوبو الدول في الأمم المتحدة باستقلاليتهم. وسوف يجعل التفاوض مع رؤسائهم مباشرة وعدم التوصل إلي اتفاق في مجلس الأمن أمراً أقل احتمالاً. وأرنت أيضاً حضور وزراء خارجية الدول للحسن عشرة الأعضاء في المجلس عملية التصويت. فقد كنا نطلب من المجلس إجراء

استخدام للقوة للمرة الأولى منذ أزمة كوريا. فببساطة كان للقرار قراراً حاسماً يتطلب معالجة علي أرفع مستوى.

يوماً كان مقداره سبعا وثلاثين ساعة

غادرت واشنطن في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر. وفي غضون الأسابيع الثلاثة التالية أمضيت ثمانية عشر يوماً في التحويل بين اثنتي عشرة دولة في ثلاث قارات. وفي اليوم التالي لعيد الشكر أبلغني طاقم طائرتي التابعة للقوات الجوية الأمريكية أنني سجلت رقماً قياسياً شخصياً ليوم كان مقداره سبعا وثلاثين ساعة التفتت فيه من جدة إلى بوجوتا - كولومبيا - إلي لوس أنجلوس، ثم إلي مسقط رأس هيوستون. وفي العمل في الفترة المتبقية علي انتهاء تشرين الأول أكتوبر اجتمعت شخصياً مع كل نظرائي في مجلس الأمن في عملية مستمرة من للتعلق والإقناع والتهديد. بل وشراء الأصوات في بعض الأحيان. وهذه هي سياسة الدبلوماسية.

وفورئني الرئيس في حالة حدوث معارضة للقرار في تقديم بعض التنازلات لكسب أعضاء المجلس الجامحين. وخلال جرتي العالمية من شرق العالم اسفريه كنت أحتفظ في جيبي بقائمة من الإغرامات الدبلوماسية التي يمكن أن نلزم بها مقابل الحصول علي التأييد. وعلي سبيل المثال كنا علي استعداد للالتزام بسحب ستة معوية من القوات الأمريكية من العربية السعودية إذا انسحب العراقيون. كما كنا علي استعداد أيضاً لتشكيل هيئة تحكيم في لاهاي للفصل في الإدعاءات العراقية الكويتية لمعالجة النزاع الحدودي بشمولية. وكما تبين لم تكن هناك حاجة لأي من تلك الإغرامات.

وحلال زيارتي لاجتمعت مع معظم أعضاء التحالف العسكري لإطلاعهم علي آخر استعداداتنا، والحصول من كل منهم علي ثلاثة تطمينات حساسة. وكنا في حاجة للتأكد من

أن كافة العمليات ستكون تحت سيطرة القادة الأمريكيين، وكنا في حاجة أيضاً إلى معرفة أنه ليست هناك اعتراضات علي قصف العراق، وأن الشركاء سيظلون معنا حتي إذا انتقلت إسرائيل في حالة تعرضها لهجوم عراقي.

وخلال أول توقف في المنامة عاصمة البحرين للتقيت الأمير الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في مستشفى بابكو حيث كان يتعافى من نوبة قلبية. وتكلمي عائلة آل خليفة حكم البحرين منذ عام ١٧٨٢. وكما توقعت كان مؤيداً للخاية. وقلت له: «في حالة بدء القتال ومتي بدأ فابدا يريد أن نكون قادرين علي طلب توجيه ضربات. ونحن في حاجة أيضاً لأن نعرف ما إذا كان حلفاؤنا العرب والمسلمون في التحالف سيواجهون متاعب إذا ما تم شن عمليات هجومية ضد العراق بما في ذلك قصف بغداد. وإذا ما قصف صدام حسين إسرائيل هل سيواصل شركاؤنا العرب التزامهم بالرد العسكري ضد العراق؟». وكان الأمير إيجابياً تجاه النقاط الثلاثة. وتعهد قائلاً: «إن البحرين سوف تؤيد كل جهد ضد العراق. فلن يجدي السلام مع صدام. فالكلب المسعور يعض كل من يقف في طريقه».

وغادرت المنامة لتفقد قوات الفرقة الأولى فرسان بالجيش التي تركزت في ذلك الميناء في الصحراء الوسطي بالعربية السعودية. وفي نهاية رحلة صاخبة بطائرة هليكوبتر مفتوحة استغرقت خمساً وسبعين دقيقة كان مطر ٤٢٠٠ من جنود الفرقة الأولى فرسان الذي بدأ يلوح في الأفق مؤثراً ومتحركاً. وتحدثت إلى الجنود وأنا أقف تحت شبكة ضخمة موهبة من منصدة وقف بجانبها جنديان يرتديان زي الميخاض الذي يعود إلي القرن التاسع عشر. وذكرتهم بأنهم هم وجهوهم يشعرون تفكيرنا باستمرار، وأنه بدون شجاعتهم سيكون هذا الجهد كله مستحيلًا.

ولمست مدي ارتفاع معنوياتهم وأنهم مثلهفون لمواجهة كل ما ينتظرهم أياً ما كان ولمتزجت واختلطت بالجنود، وقال لي ضابط برتبة كابتن إنه ذهب إلي المدرسة ولعب الكرة مع ابني مايك هي أكاديمية نورث ويست بيهوستون. ولدي مفادرتي أهداني الجنود عليه مما يحضره الكثيرون واحداً من أقل للجوانب الجذابة للحياة العسكرية، للتعبين الميداني. ومنذ أيام

خدمتي في مشاة البحرية كنت أعرف أن أفضل وجبة في التعمين الميداني هي المعاق للحرارة وكنت أحمل معي زجاجة طويلة الوقت.

وفي الطائف حصلت من أسير الكويت علي موافقة ماثلة. وبالطبع كان يريد استعادة بلاده وهزيمة صدام، والأفضل أن يتم هذا بأسرع ما يمكن. واقترح أن أبحث نقاطي الثلاث مع ولي العهد الذي لم تكن لديه أي تمفيزات علي التفتين الأوليين. لكنه أعبر أن النقطة الثالثة تتلوي علي بعض المشاكل، ولماأنته قائلاً: «إننا لن نقبل أي حل جزئي، لكننا نريد أن نعرف موقف العرب إذا هاجم صدام إسرائيل. إننا نريد أن نتأكد أنكم ستكونون معنا. ويبدو أن سؤالي أثار التوتر بين الكويتيين. وساد صمت مطبق لبرهة. وسأل ولي العهد: هل لنا أن نصمن أن إسرائيل لن تتخذ الخطوة الأولى بهاجمة العراق». ورددت قائلاً: «للقترض العكس إننا نريد طرح هذه القساي علي الطاولة. إننا نريد أن نعرف موقفكم لو هاجم صدام حسين إسرائيل». وأعرض ولي العهد قائلاً: إنك محق في إثارة هذا السؤال. إن موقفنا واضح ولكنه لم يكن كذلك. فكل ما كان واضحاً هو الصعوبة التي وجدها في صياغة رده. ولم يقطع ولي العهد عن التحول لستشاريه والتحدث معهم بالعربية. وحلثه بلطف: «إننا نعرف أنه موضوع بالغ الصعوبة. وسوف أفتح الموضوع مع كل العرب الذين سوف اتقيهم في جرائتي وأطرح عليهم نفس السؤال ولابد أن أعرف الإجابة».

وأخيراً تلقيت الإجابة المطلوبة: «فيما يتعلق بموقف الشعب الكويتي إذا هاجم صدام إسرائيل، فلأنكم تحاولون تحرير بلادنا فإنني لا أعتقد أن أي كويتي سيقول أي شيء. فإذا بدأ الهجوم فلنكن».

ورددت: «هذا هو كل ما كنت في حاجة لسماعه».

وبعد ظهر ذلك اليوم تحدثت لفترة وجيزة في بهو فندق الشيراتون مع أربعة كويديين نجحوا في الهرب من وطنهم المهتل. وترسوا جميعاً للتعبير وأصيروا بامهات مبتدئة فقد أطلقوا النار علي مؤخرة رأس أحدهم وقطع لسانه وشوه وجهه بشكل مرعب. وتعرض آخر لاعتداء جنسي لدرجة بات عاجزاً بعدها عن المشي. وأتذكر أن هذه هي المرة الأولى

التي أشاهد فيها علي الطبيعة ضحايا تعذب إنسانية رجل. وأصابني الصدمة والخيبة والصنب نتيجة ما أصابهم.



وقبل اجتماعي مع الملك فهد في جدة اجتمعت لمدة ساعتين مع الأمير سعود الفيصل والأمير بندر الذي أُلح عليّ للتعبول ببده الحرب. كان الأمير بندر يصور بشكل خاص علي التحرك بسرعة. وقال في سخوية: «لما أن ينهار أو تنهار نحن في كانون الثاني يناير، وريبت فائلاً: إنه لا يزال علي الزلزال أن يتخذ القرار. لكنني أعرف الاتجاه الذي يسير فيه، وطرحنا عليهما الأسئلة الثلاثة التي سأثيرها مع الملك فهد. وتوقعوا ألا تثير أي مشاكل تجاه هيكال قيادة وعمليات هجومية أمريكية ضد العراق. وتكرتتهما: «بأن الطائرات الأمريكية سوف تقتل مواطنين عرباً في العراق». ورد الأمير سعود قائلًا: «إن العراق لم يقتل أمريكيين في الكويت بل قتل مواطنين عرباً. فهذه ليست مشكلة». وانقسما حول مسألة وقوع هجوم إسرائيلي علي العراق ومطامني بندر باتلوزينه التي أُنقذها خلال سنوات تواجده في واشنطن. لكن سعود كان يعتقد أنها ربما تكون مشكلة محققة سوتحين علي الملك حسمها بنفسه.

واجتمعت مع الملك في قصر السلام من الساعة المباشرة مساءً حتي منتصف الليل. وقدم الملك شراب الجزر المجلوب من الطائف، والذي قال إنه المشروب المفضل لمارجريت تاشر. كان الملك متشددًا مثل سعود وبندر. وبات يعتقد الآن أن صدام خطط في الأصل لمهاجمة المنطقة، ولم يردعه سوي الرد السريع للقوات الأمريكية. وقال: «إن الأصفاء الحقيقيين هم الذين يمكن الاعتماد عليهم عندما يحتاجهم الغرب». فالولايات المتحدة والمملكة في خندق واحد. ووصف صدام بأنه رجل يفقد توارثه. رجل لا يعرف شيئاً عن الأخلاق، شخص يستهين بكل قيمة إنسانية. وربما كان الله قد ساق هذه الأحداث لتخلص من صدام.

وكما توقعتم لم يكن من الصعب إقناع الملك بالحاجة للاستجابة بقوة أشد نجاه الأزمة. ووافق علي فكرة استصدار قرار من الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة. وعندما طلبت منه السماح علي الفور بنشر مائتي ألف جندي أمريكي إضافي أبدي موافقته بكل بساطة. وطلبت منه السماح بأن تكون السيطرة علي مجريات الحرب في يد القادة الأمريكيين لا بيد الضباط السعوديين. قال مبتسماً: «إن مثل هذه اللزوميات أمر ضروري. وأبدي موافقته في قضية إسرائيل الحساسة».

وأبلغته بكل استحياء ممكن عما إذا كان يوسع أن أسأله المزيد من الدعم المالي. رد مبتسماً «لا شيء مستحيل علي النقاش بين الشركاء» وذكرته أنه وافق خلال زيارتي السابقة علي تقديم ٢,٥ مليار دولار لمنظمة تكاليف الوقود والمياه والتجهيزات ونقل القوات الأمريكية داخل العربية السعودية. وقلت: «إنني أعتقد الآن أنه من المناسب له أن يغطي أيضاً تكاليف نقل القوات الأمريكية من الولايات المتحدة إلي العربية السعودية». ورد قائلاً: «إن هناك سرطاناً الآن في المنطقة، ولابد من التصحية بكل شيء لاستئصاله». «إنني موافق، ليست هناك مشكلة».

وطرت إلي القاهرة لعقد اجتماع خاطف مع الرئيس حسني مبارك بقصر الاتحادية بمصر الجديدة. وكانت إجاباته علي أسئلتى الثلاثة إيجابية كالمتوقع. ومع ذلك لم يكن مبارك مؤكداً مما إذا كان يوسع إرسال فرقة مصرية ثالثة إلي الطنج كما طلبت. وقال: «إن الشعب المصري لا يريد تدمير دولة عربية أخرى». وكان له تقديم مستحفظ علي طلبى بالسماح للطائرات الأمريكية باستخدام للتكنون من القواعد المصرية في شن عمليات هجومية. ومع ذلك كنت واثقاً من أنه سيوافق في النهاية.

الصينيون والروس المتشككون

وبعد الاجتماع أمنيته تسعين دقيقة في قاعة كبار الزوار بمطار القاهرة أمارس صغوباً علي وزير الخارجية الصيني تشيان تشيتشون الذي كان في طريقه لمقابلة صدام

حسين. وتم ترتيب اجتماعات قبل بضعة أيام عندما علمنا أنني سأكون موجوداً في المنطقة بالمسندة لحظة وجوده فيها. وتشجعت عندما أبلغني تشيان أنه يحترم ليلاخ سندم بأن الصين ملازمة بالتطبيق الكامل لكافة قرارات الأمم المتحدة، وبأن الانسحاب غير المشروط هو السبيل الوحيد لتجنب إرثقة الدماء.

وشرحت له قرار إجازة استخدام القوة، واستطردت: «إن أفضل شيء يمكن أن تفعله للمساعدة في التوصل إلي حل سلمي لهذه الأزمة هو ليلاخ سندم بأن الصين سوف تزد هذا القرار. ولم يبد تشيان الزامه. وكان تشيان يعتقد أن العقوبات بدأت تولى مفعولها وقال: بما أن الحال كذلك فإن الحديث عن استخدام القوة سابق لأوانه. ودفع قائلاً: «إن للحرب سوف تدير توازن القوي في الخليج ويضفي تعديها بأى ثمن. وطالما أن هناك بارقة أمل في السلام قل تألوا الصين جهداً في التوصل إلي تصوية سلمية. وعدت للإلماح عليه بشأن القرار. وقت «مالم نقتع سندم بأننا جانون فليست هناك أدنى فرصة. إن لم تكن هناك أى فرصة علي الإطلاق لانسحابه من الكويت سلمياً».

كان الصينيون لا يزالون علي غضبهم لعدم قيام للرئيس أو قياىمى بزيارة للصين. وشرحت أن مثل هذه الزيارة ستثير انتقادات داخلية من السعدم أن تصيب علاقاتنا الثنائية بانكاسة. ولتعزيز وجهة نظري قرأت رسالتين حديثتين من أعضاء في الكونجرس يمررون فيهما عن الغضب لدرق بوش في معاملة الصين، وتشيان مفاوض ناهية أراد الرط بين تأييد القرار بتمهد بقيام للرئيس بزيارة للصين وأبلغته بأننى سأوافق علي إبعاد بوب كيميت إلي بكين بتعليمات ببحث زيارة محتملة لى عام ١٩٩١.

وأعتقد أن تشيان فهم هذا علي أن استخدام للصين للفيتر سينطوى علي كارثة بالنسبة لتسعين العلاقات الصينية الأمريكية. لكننى أردت التيقن من أنه تلقى الرسالة. وأشرت علي استحياء: «أننا لا نتحدث مع أسدقائنا الذين لا ينضمون إلينا. لكن أسألهم ألا يقفوا في الطريق» ولم يرد تشيان لكن تعبيرات جسمه ولهجة تطبيقاته دفعنى إلي الاعتقاد بأن الصينيين أن يكونوا عتبة، وأبرقت إلي الرئيس بهذا التقرير «إن إحساسى هو أنه بمجرد عودة

تشيان إلي الصين سوف يخلصون إلي أن من مصلحتهم إما تأييد القرار أو الامتناع عن التصويت علي أسوأ الأحوال. وأعتقد أننا لسنا في حاجة إلي قيامي برحلة لهم للحصول علي تأييدهم أو قبولهم بقرار الأمم المتحدة.



واجتمعت في أنقرة في اليوم التالي ٧ تشرين الثاني نوفمبر لمدة ساعتين مع الرئيس أوزال الذي كان يعتقد شأن تشيان أن الخطر الاقتصادي بدأ يزدى مفعوله. وكخبير اقتصادي متمرس كان يتابع باستمرار حركة أسعار السلع في بغداد. وأشار إلي أن سعر جوال الأرز زنة خمسين كيلو جراماً قد قلز من ستة دنانير في اليوم السابق للغزو إلي أكثر من مائتي دينار. وبالمثل فإن ثمن ثمانية كيلوجرامات من التدقيق يزيد الآن عن المئتين للشهرين لكبار المسؤولين. وقلت: «أعرف أنك تعتقد أن العقوبات سوف تؤتي مفعولها. وقد سبق لشيغرنادزة أنقول إن آثارها ستظهر في غضون شهرين، وها نحن الآن في الشهر الرابع». وأيد أوزال القرار ووافق علي دراسة طلب بإرسال لواء مدرع إلي العربية السورية، كما وافق أيضاً علي السماح بزيادة عدد الطائرات الأمريكية المتمركزة في القواعد التركية من ٤٨ طائرة إلي ١٣٠ طائرة. غير أنه لم يكن واثقاً من السماح لتلك الطائرات بقصف العراق. وكنت علي ثقة من أن أوزال مثله مثل مبارك سوف يوافق إذا اندلعت الحرب التي كانت تبدو أكثر احتمالاً. وأسريت لأوزال، إننا متشائمون للغاية من فرص تسوية الأزمة سلمياً. فليست هناك أي بادرة علي أن صدام في سبيله للانصاف.

وطلعت من أنقرة إلي موسكو ببريدها وتوجهنا في السابع من تشرين الثاني نوفمبر. الذي يوافق الذكرى الثالثة والسبعين للثورة البلشفية، لإجراء مباحثات استغرقت ثلاث عشرة ساعة مع جورباتشوف وشيغرنادزة بدءاً من الساعة الخامسة صباح يوم الثامن من تشرين الثاني نوفمبر. وكنت أعرف أن الرئيس سوف يظن في غضون بضع ساعات قرار تحرير القوات. لذا أسرعنا في شرح التفاصيل لشيغرنادزة كنوع من المجاملة. وهيأت المجال لطرح مسألة

قرار استخدام القوة. لكن شيفرنادزه كان مقتنعاً بأن الوقت غير مناسب. وأعرب عن اعتقاده بأن التطويع باستخدام القوة ربما يحول صدام إلي بطل. وقال شيفرنادزه: «ربما يضمن علينا تشديد العقوبات». ورددت: «إدوارد. ليست هناك مشكلة في تشديد العقوبات. إن هذا الرجل سيدع كل فرد في بلاده ويصور جوعاً قتل الانحساب. ونكرته بأن شركاءنا للعرب يصرون علي أن الحرب لا يمكن أن تبدأ بعد منتصف آذار مارس عندما يحل شهر رمضان، ثم بعد ذلك سنحرقنا حرارة السيف لللافحة. ومن الناحية العملية فإن أي تأجيل ربما يضطرنا إلي تأجيل العمل العسكري إلي الخريف وقلت: «إن الشكوك تحيط بإمكانية أن نستطيع الحفاظ علي التحالف كل ذلك للفترة».

وبمجرد أن انتهيت قال شيفرنادزه: «أنهم ذلك». وأمني شيفرنادزه شهراً في قتال اللوبي المرعي في وزارته. فقد كان يعرف مدي هشاشة التحالف في الواقع. وما لبث نهجه أن تعبر علي الفور بالكامل. وقال: «هينلز قالشي» التوحيد العاسم هو أنه إذا كلمت مستخدمون القوة عليكم أن تضعوا نجاحكم. فقد نظمنا الكثير من أفغانستان. ولا نصغوا إلي المعسكريين الذين يقدمون لكم آراء بسيطة بضمان النجاح. عليكم أن تتأكدوا من النجاح. هل ألتقون من أنكم درست الأمر دراسة وافية؟ ومن الواضح أن الموفيت كانوا لا يزالون يعانون من صراعهم الخامس علي نمط فيتلان.

ورددت: «إنني أريدكم أن تسمعوا من العسكريين الأمريكيين. وسوف استدعى هوارد جريفر. إنه معيار لعلاقنا أن استدعيه ليوحدث معكم. إننا نفعل شيئاً لم يحدث مطلقاً من قبل. وأخليت القاعة من الجميع باستثناء المترجمين، وقدم الجنرال جريفر عرضاً سريعاً شديد التفصيل عن خطتنا للحربية. كان جريفر شديد الحرص بعدم الإفراط في تحديد قدرات أسلحتنا في الميدان. لكن عرضه لتصورنا التكتيكي في إدارة الحرب كان مع ذلك تبادلاً استثنائياً للمعلومات العسكرية من خصم سابق إلي آخر. وفي حقبة أحرى لم يكن يخطر علي البال مطلقاً أن يُسمح لمناصب أمريكي كجور ياطلاع وزير الخارجية السوفيتي علي خطط حربية ضد دولة حليفة للسوفيت.

وبدا جريفرز شرحه بالتقول: «إن تصورنا يتمثل في المقام الأول في تدمير قدرة العراقيين على توصيل التحميلات الاستراتيجية لقواتهم. وبهذه الطريقة سوف نحرمهم من القدرة على شن حرب ضد قواتنا أو تنظيم دفاع ضد هجمائنا. حينئذ سوف تدمر دفاعاتهم الجوية من الصواريخ والطائرات. وسجود إنجاز هذا سيكون بوسطنا التحرك دون تهديد لتدمير قواتهم البرية في الكويت والعراق». وبأسلوبه الهادئ المقصود لخص جريفرز مجموعة الأسلحة الفتاكة التي بحوزة التحالف مؤكداً للتفوق الساحق للقوات البرية الأمريكية. وقال: «بوسع دباباتنا تدمير دبابات الخصم وهي تنطلق بأقصى سرعة، ولا يملك العراقيون طريقة للدفاع عن أنفسهم. ولأسباب واضحة أمسك عن ذكر أن الدبابات العراقية اللدنية هي دبابات سوفيتية المصنع. وأشارت تقديرات جريفرز إلي أنه في أسوأ الأحوال وفي أسوأ السيناريوهات فإن العملية الجوية والبرية المشتركة لن تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر.

وكنيت أعرف أن للجدول الزمني الذي عرضه جريفرز جدول مخادع تماماً. لمخلخل الأسبروعين الماضيين عرض تشيلى وباول تفصيلاً على حطط البنناجون الطائرة في حالة الاضطراب لاستخدام القوة. وأشارت تقديرات هذه الخطط الحربية إلي أن التحالف سوف يكسب الحرب في غضون ثلاثة إلي أربعة أسابيع. وتشت طمأننى بأن هذا تقييم أمين للواقع العسكري. لكننى كنت أخشى من احتمال أن يعتقد شيفريادزة أنه مجال فيه إلي حد كبير. وأباحت جريفرز أنه إذا وعندما يتم استدعاؤه لتقديم هذا العرض فطيه أن يخفف السيناريو ويقول: إن الحرب ستنتهى في غضون ثلاثة أشهر. وعندما سمعت تمذير شيفريادزة من للركون إلي سيناريوهات للعسكريين للمحاكمة شعرت بالارتياح لأننا قررنا إلزام جانب للخطر.

وبدا شيفريادزة وكأنه مستوعب تماماً نتيجة التفاصيل واللقطة البادية من عرض جريفرز. وأثار سؤالاً واحداً في تصجب: ألا تفقكم صواريخ سكود؟ ورد جريفرز: «لا، إنها لا تشكل خطراً مطلقاً لأنها غير دقيقة بالمره. إنها لا تشكل خطراً على قواتنا. واستغرق الأمر بمره لا ابتلاع الإهانة الجسيمة التي وجهها جريفرز بلطف. فقد أبلغ وزير الخارجية للسوفيتى لدوء أن أحد لأعضل صواريخ جيشه لا يعدو أن يكون مجرد قطعة عديمة القيمة من الحديد الفخدة. وصنعت

شيفرنادزة لبرهة ثم لاحظت منه ابتسامة عريضة. فقد تم إقناعه علي الأقل بأننا نعرف مانا
نقول .

وقلت : «علينا أن نتأهب لاستخدام القوة . لأننا لا نعرف أن هذا القرار سيؤتي مفعوله،
ووافق شيفرنادزة . وحمل شيفرنادزة نفسه في النهاية علي القول مطناً : «بمجرد انتهائكم من
هذا عليكم أن نستعدوا وعليكم أن تعقوا النجاح» . فقد كان في البداية مقتنعاً بأن صدام لن
يقدم مطلقاً علي الغزو . ثم خلس إلي أنه بمجرد أن تضيق العقوبات عليه الخناق فسوف
يثوب إلي رشده ، وللمرة الأولى أحسست أنه بدأ يحرف بشكل لفتل .

وقال : «انظر إنني أريد أن أخرج وأهين الرئيس أولاً» ورفع سماعة الهاتف وأبلغ
جورباتشوف بأنه يتعين أن يقابلني وأن يوافق علي اقتراحي . ثم توجه جورباتشوف إلي داشا
في نوفو أوجاريفو ، ووصل قبل وصولي بشرين دقيقة لأعرض قضيتي مباشرة .

وما لبثت مركبتنا الصغيرة أن اتجه إلي نوفو أوجاريفو - الذي يشبه كامب ديفيد في رحلة
جميلة استغرقت نصف الساعة عبر السهل الروسي كثيف الأشجار الذي تكسوه الثلج . كان
المشهد غاية في الروعة . طبقة الثلج الرقيقة تزيد بهاء المنظر . كما أن بالتوسع رؤية الغزلان
من الطريق .



وعندما وصلنا إلي المبني الرئيسي للضخم للمجمع المنزل ولونه بلون الخردل استقبلنا
جورباتشوف بردهة المدخل تحت ثريا بديعة . وكنت أول مسؤول أمريكي رفيع المستوى يما
للسكان . والمبني مريح وحديث نسبياً ، وعلمت فيما بعد أن التلفزيون في غرفة العاملين
يستقبل إرسال شبكة MTV وليس شبكة CNN واصططحبني جورباتشوف للهبوط إلي قاعة
مكتبه لعقد اجتماع استغرق ساعتين ، ولدي تحول المصورين للصعبيين لالتقاط صور ما
قبل الاجتماع ندافعوا بحرف لدرجة حطموها معها طاولة خشبية وكسروا الزجاج وقربوا أباريق
النساء . واستهل جورباتشوف الاجتماع بقدر أصبغ السبابة والوسطي في كلنا يدبه قائلاً : «إن

المهم حقيقة هو أن نظل مخلصون ليعضدنا. فلا يمكن أن ندع سقاحاً كهذا يفلت بما فعل، كانت بادرة مشجعة. لكن جورباتشوف سرعان ما أوضح أنه غير متعمس للقرار، وقال: من الطبيعي أن نطلبوا معونة السوفييت. لكن من الصعب أن تسألوا المساعدة في شن حرب ضد دولة حليفة. فضلاً عن ذلك كان يعتقد أن تحديد مهلة نهائية سيكون له أثر عكسي. فالمقتبية العربية تنسم بالتضاد في وجه الإنذار حسبما قال.

وبدأت لهجة جورباتشوف تتحد: «أنت تعرف الآن. إنه إذا أصدرنا قراراً بيجز استخدام القوة، وإذا لم يتحرك صدام فطوبكم بالقفل أن تستخدموا القوة. وإذا فعلتم ذلك فهل أنتم مستعدون للقيام بذلك الآن؟». وقلت: إن الرئيس يدرك هذا تماماً. إنه عازف عن استخدام القوة لكنه مستعد لاستخدامها.

وبينما أبحث عن أرضية دبلوماسية وسط اقترح جورباتشوف بشكل مفاجئ إصدار قرارين. أولهما بيجز استخدام القوة. لكن بعد مهلة مدتها ستة أسابيع ويقضى الثاني بدء العمليات الحربية إذا لم يتسحب صدام حسين من الكويت. كانت فكرة مروعة. وقلت لجورباتشوف: إن الأمر يبدو وكأننا نراجع عن شرط الانسحاب غير المشروط. وقلت: إن المستصدر قراراً ثانياً، وسوف نشجع صدام علي القيام بالانسحاب ربحي يمكن أن يسفر عن حل جزئي، هذا هو ما اقترحته في محاولة للتوصل إلي تسوية مع جورباتشوف - أي إصدار قرار واحد يمكن بعده استخدام القوة. ولم يشأ جورباتشوف قطع أي التزام في ذلك الوقت، وقال عن فكرته ثنائية الأبعاد: إنها مجرد فكرة علي أن أنفحصها بشكل مفصل، ووعدني بتقديم إجابة للرئيس في غضون أحد عشر يوماً عند نقالهما في قمة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التي ستعقد في باريس.

وفي طريق العودة إلي بيت الصحافة أوسو بندياك أبلغت روس ومارجريت تاتويلر أن جورباتشوف سوف يؤيدنا في نهاية الأمر، وبدا الرئيس مسترخياً في هذا المنزل الريفى وكان ودوداً ورفيقاً مع العاملين معي.

وحدثت أنا وتاتويلر وروس في السيارة ماذا يتعين عمله مع جيش الإعلام الذى يتلفه لمعرفة ما حدث خلال ما كان بالقفل يوماً طويلاً ومشحوناً. ولدي عودتنا إلي موسكو عزف

شيفرنادزة عن لقاء الصحافة قبل استكمال اجتماعاتنا متطلا بعدم الانتهاء من بحث مسألة مباحثات الأسلحة التقليدية في أوروبا.

وقالت تلويتر: سيدي . إن صحافتنا غير معنية بالأسلحة التقليدية . إنها معنية بالخليج . وهي تعتقد أن هذا هو سبب وجوبنا هنا .

ومكنا وحتى قبل إلهاء ما كان بالفعل يوماً شافاً معنياً عقدت لنا وشيفرنادزة مؤتمراً صحفياً مشتركاً . وسلل عما إذا كان يرى أن هناك موقفاً يقتضى احتمال استخدام القوة لطرد صدام من الكويت فقال: «يحتمل ألا يمكن استبعاد هذا، كما أنه قد يظهر موقفاً يدعو بشدة إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء . ولم يسئني أن أحفي لبتسامة غير دبلوماسية . فقد أظهر شيفرنادزة مرة ثانية شجاعته في استباق خصومه وحملهم على الإذعان بالاعتراف بالأمر المعتم .

وبدأنا على العشاء اجتماعاً آخر تركز أساساً على المراحل النهائية لمباحثات الأسلحة التقليدية في أوروبا . لأننا أردنا إنهاء المفاوضات قبل قمة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ، وفي لحظة ما عرض شيفرنادزة مواصلة اللقاء طيلة الليلة . وكنا قد أحرزنا تقدماً كافياً لنبدا اليوم بعد الساعة العاشرة بقليل .

وفي صباح اليوم التالي أرسلت برقية إلى الرئيس بحلول يومي في موسكو الثامن من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠ . لخصت فيها ما شعرت أنه تقدم نحو تحقيق هدفنا . وبدأت البرقية:

«أجريت مباحثات مطولة غير عادية مع شيفرنادزة وجورباتشوف اليوم . وقد أسنى كلاهما وشرحاً شواغلهما . وطراً على موقفيهما تقدم هام أثناء سير المباحثات . واقترب شيفرنادزة بشكل خاص من موقفاً بضرورة صدور قرار من الأمم المتحدة بإجازة استخدام القوة في الشهر الحالي . أما جورباتشوف فإنه على الطريق لكنه لم يصل بحدوده وفي الوقت الذي اعتد أن شيفرنادزة غير متحمس لاستخدام القوة فإنه أكثر ميلاً للاعتقاد بأنها لا بد أن تستخدم في نهاية المطاف . ومن جانبها فإن تصير جورباتشوف عن النظام العالمي

الجديد هو أن الوقت غير مناسب للتعامل مع حقيقة أننا ربما نحتاج إلى استخدام القوة في هذا الاختيار الأولي.. وأعتقد أن لهما علاقة طيبة ورغبة في المشاركة معنا سندفعهما نحو الانتهاء الصحيح، لكن الأمر قد يتطلب بعض الوقت والجهد لتحقيق النتيجة.

بيكر



الأوروبيون والأفارقة

في التاسع من تشرين الثاني نوفمبر الذي يوافق للذكرى الأولي لسقوط سور برلين توجهت إلي لندن حيث لارالت رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر تعاني المشاكل من جراء قرار السعي لاستصدار قرار من الأمم المتحدة يجهز استخدام القوة. ولم تكن تعتقد أن الرئيس في حاجة لعمل هذا للمساعدة في حشد التأييد السياسي في الداخل وفي الكونجرس.

وأشرت بلطف: «السيدة رئيسة الوزراء. أرجو أن تدعينا أن نكون الحكم علي المواقف السياسية الداخلية في الولايات المتحدة». ومن منطلق صداقتنا وتحالفنا الوثيق لم ندع مجالاً للشك في أن بلدنا ستكون معنا بما كان القرار.



وفي العاشر من تشرين الثاني نوفمبر توجهت إلي باريس للقاء الرئيس ميتران وبالصدفة البهجة كان صديقي ومواطني لويد بينتسمين وزوجته بي. إيه برلان في غندق رويال مونسو حيث أنزل. واستمتعنا بشرب قهوة الصباح معا قبل لقائي بالرئيس ميتران.

والفرنسيون شددوا المراس بالفتنة، وعلي حد الوصف المهذب لندجلاس هيرد: «إن لهم طريقة خاصة في تناول الأمور، فقد وافقوا علي إرسال قوة الرد السريع الخاصة بهم إلي العربية السعودية لكنهم أسسوا في البداية علي ألا توضع تحت القيادة الأمريكية. ومن الناحية الدبلوماسية كانوا يفصلون تطبيق العقوبات لفترة أطول قبل دراسة اللجوء إلي القوة. كما أنهم حبسوا أيضاً ربط الأزمة بحلوة السلام في الشرق الأوسط الأمر الذي يفيد صدام حسين. وكنت أشعر علي الدوام بأن الفرنسيين سوف يكونون معنا في مجلس الأمن. لكنهم كانوا كذليهم في الشغب بالجدل والولع بالحديث وعرض المقترحات.

كان ميتران بارعاً في إلزام محاوريه جانب للدفاع، وهكذا فقد بدأ بالشكوي من التقارير الواردة في الصحافة الفرنسية من مسؤولين أمريكيين لم تحددهم بالإسم يقولون: إن الولايات المتحدة تشك في صدق عزيمة فرنسا. ومع هذا سرعان ما تركه شيئاً من الشك حول مدي الحاجة لاتخاذ إجراء قوي ضد صدام حسين. وقال ميتران: «إنه متوحش ونكبي وحاد وأكثر خطورة من الآخرين. وصدام حسين في الكويت لا يخطف عن الأسد في لبنان وفرنسا لا تري أي اختلاف بين ما يجري في الكويت وبين ما يجري في لبنان غير أننا لم نهب للدفاع عن لبنان. إنكم علي صواب عندما تقولون إننا حلوفغان منذ أمد طويل. ولو طلبت منكم المساعدة في لبنان فن يقدم أحد يد العون».

إن علاقتنا طيبة بالأمير وبالعربية السعودية. فقد زرت العربية السعودية مؤخراً. وتلقيت هدايا قيمة. وفي قصورهم لا تقع عين المرء علي نساء أو أفراد عاديين من الشعب. فهذه ليست الحكومات التي أرد أن أرسل جنوداً فرنسيين ليقبضوا في سبيلهم، فما من دولة يمكن أن تخلق مبادئ الكويت ولا يمكنهم أن يطلقوا جنوداً ليموتوا من أجل الطريقة التي يتحسب بها الكويتيون هذا الشكل من الحكومة. كيف يدلي أي أن أبلغ الفلاحين الفرنسيين بأنني رحت أرواح أبنائهم للاحتفاظ بملياردير؟ صحيح أن أمير الكويت رجل رقيق. هل يمكن أن تضمن أن استخدام القوة ليس مجرد حملة لأمن الأرصدة في بنوك سويسرا إنها فكرة تصيبني بفنور تامه.

«ومع ذلك، فمصلحنا ليس غير متنازع، إنه خطير، وهناك حاجة لاحتوائه فلنا في العربية السعودية سنة آلاف جندي يتمركزون هناك ويحاربوننا تقوم بمهامها في الخليج وأفريقيا. وبعد الولايات المتحدة فإننا نقوم بأفضل جهد، وإذا لم يشعر أنه مهدد قرن ينسحب. فالصداقة السابقة بين فرنسا والعراق لم تتحول إلى صداقة شخصية مع صدام. فقد طلب لقائي على مدار الأعوام التسعة الماضية. ولم أذهب إلى العراق مطلقاً ولم ألتق به مطلقاً وهناك فتور في علاقاتنا حتى برغم أننا - فرنسا - ساعدناه عسكرياً ببيع بعض الأشياء ولتسمع سلوك رفضت طلبه بإعادة بناء محطة الطاقة التي دمرها الإسرائيليون وعرض هذا الرفض علاقات بلدينا للخطر».

وبذا ميتران مستعداً للحرب. غير أنه لم يكن يعتقد أن المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة تكفي لتبرير هجوم من الوجهة السياسية. وقال: «إن المادة ٥١ لا تقنع الرأي العام. أن خمسة وخمسين مليون فرنسي ليسوا محامين دوليين. إننا في حاجة لأن يضمن ذلك القرار المواقب التي سيجريها».

وقال ميتران: «إنه يوجه نفسه في خيارات بسيطة: حرب أم سلام. إن إجازة الأمم المتحدة لإرسال قوات لتطبيق القانون الدولي هو الشكل الذي أفضله. وأعتقد أن تلك الحرب ضرورية. ولأن كانت التسوية فلا بد وأن تشمل نزع سلاحه وتهريبه من أسلحته. لقد لخصت آرائي، وسوف نشارك بقدر يفوق مشاركة بعض أسدقاتكم وحلفائكم».

وهامم للفرنسيين يرافقتنا علي طريقته الخاصة. وأبلغت ميتران بأن الرئيس ميشعر بسعادة بالغة لأرأله، وعزز خمس فرنسا احتمالات إقرار قرار استخدام القوة.



وبعد العودة إلى واشنطن بثلاثة أيام وزيارة حاطقة إلى ببرمودا للقاء جوي كلارك وزير الخارجية الكندي استأنفت ملحمتي في بروكسل في ١٥ تشرين الثاني نوفمبر حيث

شاركت في اجتماع مع مارك ليسكينز وزير خارجية الدنمارك في السادس عشر من تشرين الثاني نوفمبر. وكان اجتماعي التالي في جنيف مع ثلاثة أعضاء من مجلس الأمن للدولى ومن مجموعة عدم الانحياز، وهم ساحل العاج وأثيوبيا وزائير. كان أول اجتماع مع دينكا تسفاى وزير خارجية أثيوبيا، ورغم توجهاتها الراديكالية انحازت لأثيوبيا إلى جانبنا في عمليات التصويت العشر المباشرة في مجلس الأمن. ولأنها تعرضت لغزو موسوليني إيطاليا عام ١٩٣٣ فإن أثيوبيا تشعر بحساسية بالغة لتعرض الدول الصغيرة للاقتلاع بواسطة الجيران الأقوياء المعتدين، وقد وافقت علي العور. وكذلك كان الحال مع زائير برغم أن وزير خارجيتها كاتانيا موشاشوا أعرب عن عدم سعادته بقطع الكونجرس للمعونة العسكرية لزاير. وأبلغته بأن الرئيس يشعر باستياء بالغ تجاه قرار الكونجرس، وأن الإدانة ستحاول الإبقاء علي المعونة.

كانت المقعدة المستعملة الوحيدة تكس في ساحل العاج. وعندما التقيت مع وزير خارجيتها سيمون أكى الذي كان مثل ليسكينز وزيراً للمالية عندما كنت أنا وزيراً للخزانة تطرق إلي الموضوع مباشرة. وقال: «إن الشاغل الرئيسي لبلادي الآن ليس هو الخليج. إنه التنمية. إننا نعانى من أزمة مالية. فمجموعة السبع بحثت إسقاط الديون، وسوف يكون إسقاط الديون ملجأ للخلاص».

وكما اتضح لم تكن ساحل العاج مدرجة علي خطة إسقاط الديون التي أقرتها مجموعة السبع في تورنتو عام ١٩٨٦. وقلت: «دعني أرى ما إذا كان هناك شيء يمكن عمله. سأبحث ماذا يمكن عمله دون أن أعد بشيء أو أربطه بالموضوع الآخر الذي تناقشه اليوم، وأعرف أنكم لا تقرحون شيئاً من هذا القبيل» وبالطبع فإننا علي معرفة جيدة.

وفي ذلك المساء عقب لاجتماع قصير مع يونس مافيمبي بشأن أنجولا، اجتمعت مع العاملين معي لمراجعة هجومنا للدبلوماسية. وتجادلنا حول ما إذا كان يتعين علينا للتوجه إلي ماليزيا، وهي عضو في مجلس الأمن. وسوف تستلزم حفيظة الصينيين إذا خلقنا فوق

أراضيهم مرة أخرى دون أن نتوقف بها، ولذا قررنا تقصى ما إذا كان بالوسع إقناع
الماليزيين ببقائهم في مكان آخر.



وفي ١٨ تشرين الثاني نوفمبر اليوم السابق علي هامش اجتماعات مؤتمر الأمن
والتعاون في أوروبا للتقيت أدريان نستاسي وزير خارجية رومانيا في باريس. ولم ألق أي
مقاومة منه، وربما يكمن السبب في أنني قمت بزيارة بوخارست في آخر شهور العام الماضي
وقدمت ٨٠ مليون دولار كمعونة إنسانية للحكومة الجديدة ورغم تعفاننا علي سجل حقوق
الإنسان في رومانيا

وفي وقت سابق من اليوم أستميت نصف ساعة علي الهاتف مع وزير الخارجية
الصيني تشيان تشينشين من جناحي بفندق أنتركونتيننتال، وكانت أجهزة الاتصال التي
ترافق وزير الخارجية دائماً تمكنني من التحدث مع بكين عبر مركز العمليات بالخارجية.
وكان القلق يساورني من أن عروف جورباتشوف عن إعلان تأييده علناً للقرار سيحيل من
اليسير علي الصين استخدام الفيتو. وأكدت أنني أشعر بالثقة في أن السوفيت سيصوتون معنا.
وطلبت منه أن يدرس التصريح علانية بأنهم لن يستخدموا الفيتو ضد القرار. وقال: إنه لا
يمكنه الرد عبر الهاتف، وأنه يحب التشاور مع حكومته. كان الصينيون يمارسون دبلوماسية
شديدة المراس. ففي اجتماعنا بالقاهرة أبلغته باستعدادنا لاستقباله في واشنطن بعد انتهاء
التصويت في مجلس الأمن. وعرضت عليه حافزاً بأن الرئيس سيستقبله في حالة التصويت
بنعم. لكنني أنا الذي سيستقبله لو امتنعت الصين عن التصويت. وكان يصير علي لقاء الرئيس
طالما أن الصين لم تستخدم الفيتو. وتكررت قائلاً: «السيد الوزير. ليس هذا هو اتفاقنا،
وساورتنى الشكوك في أنهم لن يستخدموا الفيتو. لكننا كنا نريد تصويتاً بالإجماع من جانب
الدول الخمس دائمة العضوية. كما أن الاجتماع مع الرئيس هو أفضل ورقة ألعبها.



وفي الساعة الحادية عشرة والرابع مساءً اجتمعت مع شيفرنادزه الذي كان قد وصل في وقت متأخر إلي باريس . واستمر اجتماعنا حتي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل نبحث في صيغة للقرار فيما بدا لي أنه المرة المائة خلال الأسابيع القليلة الماضية . وعرضت علي شيفرنادزه مشروع صياغة كتبها بخط يدي . وتحت إلماحه خفت الصياغة من عبارة «استخدام القوة» وتضمن للمشروع أيضاً فكرة جورباتشوف عن حسن النوايا .

وأبلغني شيفرنادزه بأن السوفييت سيصوتون لصالح القرار ، وأنه لم يثر بشأنه أي تساؤل جوهري منذ اجتماعنا في موسكو . وقال : «لكننا لا نريد الإعلان عن ذلك علناً . فلن نريد التحدث مع العراقيين مرة أخرى» . وفي حوالي الساعة ١٠:٤٥ دقيقة التقينا لفترة وجيزة مع الصحفيين علي درج فندق انتركورنثينال ووجهت صعوبة حتي لا أظهر بالغ الاسترخاء والارتياح بدرجة تفصح فيها تعبيرات جسدي حقيقة أنني الآن في نهاية الأمر أعرف أننا سنحصل علي القرار . ولما هار جسدي فوق الفرائش من فرط الإثارة في الساعة الثانية صباحاً وبعد ربع الساعة أيقظني رئيس الهاتف ، وجاءني صوت مارجريت تاكوير بلأس ساحل المايك سوف تصوت للقرار غير أنها لا تقول هذا من أجل إعلانه . كان هذا تاسع صوت مؤكد .

من صنعاء إلي بوجوتا

وفي ختام مباحثات مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التي وقعت خلالها معاهدة خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا انضمت إلي طائفة الرئيس ، وتوجهنا إلي جدة في الحادي والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر . وصباح اليوم التالي انهمك قرطيس في احتفالات عيد الشكر السلولة مع قواتنا المتمركزة في العربية السعودية . وغادرت إلي العاصمة اليمنية صنعاء علي أمل إقناع اليمنيين بالتصويت معنا علي القرار . وكنت أعرف أنها مخامرة جسورة . فهناك تاريخ طويل من إراقة الدماء بين السعوديين واليمنيين زاده سوء إدارة اليمن

للملك، فقد لاستدعائه قوت أجنبية لأرض المملكة . ورد للسعوديون بتشديد إجراءات استخدام العمالة الأجنبية . مما اضطر آلاف اليمنيين للمودة إلي وطنهم . كان من الواضح شاماً أن لليمنيين لن يصرونوا لمصالحنا ، وأبغضى السعوديون وهم على صواب بأنني أهدر وقتي بالذهاب إلى اليمن .

كانت اليمن مهتدى محاولة إثارة المتاعب داخل مجلس الأمن للضغط من أجل استصدار قرار سعت إليه طويلاً منظمة التحرير الفلسطينية بهدف الحصول علي حماية الأمم المتحدة للفلسطينيين المقيمين في المناطق المحتلة . وإلي جانب مطالب أخرى كانوا يريدون من الأمم المتحدة تعيين مفوض لمراقبة معاملة الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة . والفكرة قديمة طالما لقيت تأييداً من كثير من الدول غير المتحيزة . لكن رعايتها يصعبون الآن لإجراء تصويت عليها في مجلس الأمن قبل التصويت علي قرار استخدام القوة . وإذا نجحوا في إجهار المجلس في التصويت عليها فربما تجد الولايات المتحدة نفسها مضطرة لاستخدام الفيتو . وسيثير هذا صعوبات لبعض شركائنا العرب ، ويعطى وزناً ومصداقية لاستراتيجية صدام في سبغ الأزمة بالطابع العربي الإسرائيلي . وفيما نحن نركز علي قرار استخدام القوة كان علي الدبلوماسية الأمريكية أن تجد للوسائل الكفيلة بحرقلة مبكرة لدراسة قرار الأراضي الذي يشكل عقبة كرودا .

ونكّرت الرئيس علي عبد الله صالح بأن الولايات المتحدة لم تدرج اليمن الموحد علي قائمة الدول الراحية للإرهاب - حتي علي الرغم من أن اليمن الجنوبي كان مدرجاً عليها قبل وحدته مع الشمال . ونذكره أيضاً بأننا حدثنا السعوديين علي تخفيف الوطأة علي اليمنيين . لكن دون جدوى . وقتئذ نحن لا نفهم عدم تعاونك معنا في مجلس الأمن ، وكنت أريد أن يعرفوا أنهم سوف يدفعون للثمن لذا واصلوا التصرف في الأمم المتحدة بأسلوب نعتبره غير مقبول . فاليمن يحاطر بسلوكه هذا بفقدان معونة أمريكية سنوية قدرها ٧٠ مليون دولار . وبدا أنه أقل اكترأاً بكثير تجاه أزمة الخليج عما يستوجبه الموقف . وأكد علي : إن هذا أشبه بعاصفة صيف وسوف تكتشفه ، ورددت : لو هبت للعاصفة ستكون عاتية .

وكان علي عبد الله صالح مضيافاً سخيًّا. فقبل اجتماعنا رتب لنا زيارة لصنعاء القديمة التي يرجع تاريخها لأكثر من ألفي عام. كان المكان أشبه بليلتي ألف ليلة وليلة. وأثناء تجوالنا في الأزقة والموازي المرصوفة بالأحجار في منطقة للسوق شاهدا الرجال القادمين لدوهم من جوف الصحراء لبيع ملعهم. كانوا جميعاً يرتدون العقال ويتمنطقون بالخناجر الفضية. كان للجميع رجالاً أم سيدة عجوزاً أم شاباً يلوك القفازات ذا التأثير المخدر المعتدل حسبما قيل لنا.

وفي أعقاب جولتنا في صنعاء القديمة تناول الفريق المرافق لي وأنا غداء يوم عيد الشكر مع الرئيس صالح. لقد فاق كرمه كل توقع - رغم أننا تناولنا الضأن لا للديك الرومي. وخرجنا للقاء الصحافة حيث أعرب عن ممارسة قوية للقرار. ولم تكن أتوقع للحصول علي تأييده - غير أنه لم يبد أي دلائل في اللقاء الخاص علي أنه سيرفض طلبي بمثل هذه القوة علي الملأ.



وعدت إلي جدة في ذلك المساء، وتلقيت رداً بأن وزير الخارجية الماليزي وافق علي لقائي إما في لوس أنجلوس أو هيوستون، أو مكان ما في الهادي. وقررت التوجه إلي لوس أنجلوس للقاء وزير الخارجية الماليزي في المطار من بوجوتا حيث من المقرر أن التقى الرئيس سيزار جافيريا تريخيرو لوس فقط لكسب تأييده في التصويت بل أيضاً لأعرب له عن عدم ارتياحنا من تصرفات مندوبه في الأمم المتحدة الذي شكاً علانية من سياستنا تجاه المراق. وعقب رحلة استغرقت ثماني ساعات إلي الأزور لإعادة التزود بالوقود طرت طيلة الليل إلي بوجوتا حيث توجهنا في المطار في سيارات مدرعة زرقاء كشاهد علي حملة الإرهاب التي يمارسها أباطرة المخدرات. ولقت للرئيس جافيريا: لقد ساءتني صراحة الأفكار التي عرضتها مندوبكم في نيويورك. إن هذه الأفكار تتطوى علي إمكانية تقويض كل ما حشدناه ضد كل ما حاول صنم جاهداً تحقيقه. إنني أطلب منكم أن تتشاوروا معنا حول

أنكاركم قبل كتابتها وتوزيعها علي نطاق واسع في الأمم المتحدة . وسوف تؤدي مثل هذه المشاركات إلي تجنب اعطاء إنبطاع بوجود إنقسام بين الولايات المتحدة وكولومبيا في مجلس الأمن . وبينما بدأ الارتباك والضيق علي مندوب كولومبيا في الأمم المتحدة الذي وصل من نيويورك للانضمام إلي الاجتماع لاحظ الرئيس جافيريا استيائي بوضوح .

وشرحت تفاصيل قرارنا بما في ذلك عبارة كل الوسائل اللازمة . ورد قائلاً : « من المهم أن تمثل كولومبيا والولايات المتحدة الأمريكيتين غير منقسمتين . فسوف يكون الأمر مثيراً لخبية أمل بالغة . فطريقة حل هذه المشكلة أمر حاسم للإنسانية بأسرها . إننا نطلبني نفس الأهداف مثلكم تماماً . وفي النهاية سوف نصوت معكم . وسوف نجد طريقة . لكنه كان يبحث عن ورقة توت لصندم . وقال : « من المهم أن يشعر صندم أنه يحصل علي شيء ما عندما يتمسح ، شيء مثل انسحاب القوات الأمريكية من المنطقة » . وردت بالقول : « إنه يصعب تمييز إنقاذ ماء وجه صندم عن مكافأة عدوان وحشي . لا يمكن أن نسقط في شرك الحلول الجزئية ، وغادرت بوجوتا بالتزام شخصي من جافيريا بالتصويت معنا بكل تأكيد ، وعلي علم تام بأن الكارثة التي سببتها بوجوتا في الأمم المتحدة علي وشك الانتهاء .



وبعد إعادة الذخود بالوقود في قرطاجنة طرنا لسبع ساعات إلي لوس أنجلوس لعقد اجتماع مع وزير الخارجية المائيزي أبو الحسن الذي أعرف أن من الصعب استمائله ويحكمهم الإسلامية التي تفيض بالكبرياء وشديدة السراي في الغالب كان المائيزيون يصططون من أجل استصدار قرار الأراضي المحتلة . فقد شعروا بالاستياء للطيران ثلاثين ساعة من مائيريا للقائى ولايد أنهم متعبون .

ومنذ اللحظة الأولى بدأ الوزير بخشونة مشيراً إلي «إننا كنا نفضل أن نراك في ماليريا» أعرف أن هذا الاجتماع سيكون شاكاً . وقال بلهجة عنيفة : «لايد لي أعرب لكم صراحة عن

عدم مساعدتنا نجاه نهج الولايات المتحدة في غرب آسيا، إنكم تفقدون هذا الإجراء لمعاقبة العراق. إننا في حاجة إلى التحدث عن العدوان الإسرائيلي على الفلسطينيين فماليزيا لا تعارض عقاب صدام. وفي الوقت نفسه يتعين معاقبة إسرائيل على الطريقة التي تهدد بها الفلسطينيين. سوف ندرس قراركم بمنايا فائقة. لكننا لا يمكن أن نؤيد العقوبات من أجل تدمير قطي للعراق. ورددت قائلاً: «إن هذا القرار يضلنا الأمل الوحيد للوصول إلى نهاية سلمية للموقف. إننا لا نريد إراقة دماء الأمريكيين في الصحراء. وهناك مخاطرة كبرى للأمريكيين ولإدراهم».

وتسائل: «هل تفكرحون تهديداً بالحرب؟».

وقلت إن القرار الذي نقرحه في الأمم المتحدة سيكون ذو طبيعة عامة. إنه إن يتصن ذكرنا بكلمة القوة، وإن يتضمن كلمة عسكري. إننا لا نسمي لقرار يطالب القوة. كان الماليريون يريدون إعطاء العقوبات مهلة من الوقت ولهذا فقد كررت حجمي المعهودة: أعتقد أن العقوبات لن تؤتي مفعولها على المدى الطويل. ولا يمكننا إبقاء قواتنا وبهذا الحجم في الصحراء فلا يتعين السماح للدول الكبرى بإبتلاع للدول الأصغر.

«من السهم القول لصدام حسين إنه سوف يتم طرده من الكويت بطريقة أو بأخرى. لقد أمضيت شخصياً أربعة عشر شهراً في خطة سلام عربية إسرائيلية. لكنني أعتقد بقوة أنه لا يمكنكم الربط بين القسيتين وإلا سوف تعطلون من صدام بطلاً».

وبعد مناقشة مطولة حول القضايا القانونية اختتم الوزير استعراضاً بالغ المشقة والصعوبة بقوله: «أمل ألا يؤثر موقفنا على علاقتنا الثنائية». إنني سعيد لعبارتكم بالإشارة إلى أنه في ضوء الأحداث العالمية الأخيرة ربما يكون من الضروري دراسة مستقبل للعلاقات مع الولايات المتحدة بظاية فائقة». ورددت «السيد الوزير: إن الطريق الوحيد للإجابة على هذا هو القول بأن هذا مهم لنا وللعالم، وأنه يجب أن يكون مهماً لكم». وفجأة ران سمعت مطبق على الغرفة وكان يوسع الثمره سماح دبة اللملة. واعتقدت للمرة الأولى أنه استوعب مدي خطورة الموقف الذي نحن حياله.



وعقب الاجتماع توجهت إلى هيوستون لأقصى عطلة نهاية الأسبوع مع أمي للبالغة من العمر ٩٦ عاماً ونال مني التعب والإجهاد عندما وصلت. لكنها كانت المرة الأخيرة التي أراها فيها. وفي الطريق راجعت البرقيات التي تحلق من كافة الدول الأعضاء في مجلس الأمن الدولي إيفاد وزراء خارجيتهم للاجتماع الذي سيعقد في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر وتضمنت الدعوة الموجهة إلي وزير الخارجية الكوي ملاحظة شخصية مني أطلب فيها الاجتماع في نيويورك ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر. وتضمنت البرقيات مشروع صياغة للاقتراح ومن المشروع علي استخدام كل الوسائل اللازمة إذا لم ينسحب للعراق من الكويت في موعد أقصاه الأول من كانون الثاني يناير.



وفي ٢٦ تشرين الثاني نوفمبر اتصل بي دوجلاس هيرد تليفونياً من لندن معرباً عن قلقه من أنه ربما يكون من الخطأ تحديد موعد قاطع في القرار للانسحاب للعراقي. وقال: إن تحديد موعد قاطع ربما يسبب إثارة كلما اقترب، ويريد من مخاطر احتمال وقوع هجوم وقائي من جانب للعراق. وقلت: دوجلاس. من الضروري إبقاء السوفيت في الصورة إنهم حساسون للغاية حول الموضوع. وطلبت منه المساعدة في ضمان نصريت الكولومبيين وقال إنهم مدينون لنا وسوف نحاول معهم.

الحشد الأخير في الأمم المتحدة

في ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر - أي في اليوم السابق علي التصويت توجهت وقصدت مباشرة البعثة السوفيتية لعقد اجتماع مع شيفرنادزه لمدة ساعتين، وهناك تلقيت مجموعة مريكة من الأخبار. وأفصح شيفرنادزه: لقد تحدثنا مع العراقيين وقالوا لنا: إنه إذا بدأت الحرب فسوف يهاجمون إسرائيل، وأعطاني مضبطة اجتماع في بغداد بين دبلوماسيين

سوفيت وطارق عزيز. وقال «أعتقد إنها بذخعة للفرق». وتساءلت: «هل سوبلغ عزيز صندم بالحقيقة؟» وألمح شيفرناندرز: «أعتقد أنه سيفعل». فلارنت غير متأكد، فالحمرور - أككر من مرة أن صندم يرد علي الأخبار السينة بإعدادات سريرة.

وخلال الاجتماع وافقنا علي الصياغة النهائية للقرار. وعزل جوربانشف موعد الأول من كانون الثاني يناير. ولا يزال جوربانشف بإيعاز من أحد أفراد الكوي العربي بورارة الخارجية السوفيتية يعتقد أن بوسمه إلي حد ما إقناع صندم بالانسحاب من الكويت إذا منح وقتاً كافياً، وألح علي يوم الحادي والثلاثين من كانون الثاني يناير كموعد نهائي للمهلة. وبمساعدة فمن غير السمعول الدأحر لمدة شهرين بعد إصدار القرار، فسوف يوفر وقتاً كافياً لعدوث مأساة ويثير تساؤلات حول مدى مصداقية استعدائنا لاستخدام القوة. واقترحت فرنسا تسوية. ووافق الرئيس وتمددت المهلة النهائية بالفاس عشر من كانون الثاني يناير.



وتوجهت إلي فندق والدورف إستوريا للاجتماع مع وزير الخارجية للكويت ابزودور مالمبركا. وهذا هو أول اجتماع رسمي علي المستوى الوزاري بين بلدينا منذ نحو ثلاثين عاماً، ومع هذا كان علينا التمايل علي القواعد لعقد هذا الاجتماع. ومن الناحية الفنية عقدت الاجتماع، مع وزير الخارجية للكويت بصفتي رئيساً لمجلس الأمن للدراي، وابس كوزير لغارجية الولايات المتحدة.

وهذا تأييد كوبا لسنة قرارات سابقة للأمم المتحدة ضد صندم حسين أرشنة مشتركة يمكن البناء عليها. وقلت: «هناك خلافات بيننا لكن ثم بعض الأمور التي يمكننا الاتفاق حولها. فبعض المبادئ عرسة للخطر. فلا يمكن السماح بنجاح عدول من دون استفزاز نمرست له دولة صغيرة. إن احتجاز الرهائن بشكل انتهاكاً لكل المعايير الدولية ويتعين إدانته. إننا نعرف أن حكومتكم قد أجرت مباحثات مع العراق تفيد بأنهم لابد وأن ينسحبوا

ويسمحوا بعودة الحكومة الكويتية. وبصرامة إذا لم نتفق حول تلك النقاط فإننا لا نعتزم الاجتماع معكم. «إننا نعمل من أجل هذا القرار لأننا نعتقد أنها الفرصة الوحيدة الباقية أمام السلام. وآمل في أن تتأكدوا أن الولايات المتحدة تعمل من خلال الأمم المتحدة. إننا نتصرف بطريقة مشروعة على الساحة الدولية. فقد شجعنا كثيرون علي أن يتم هذا التحرك وفقاً للمادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، لكننا رفضنا. إن لدينا عشر قرارات من مجلس الأمن الدولي وقد صرنا لصالح ستة منها ولم يطبق أى منهم».

وتعتبر الكثير من الدول الصغيرة مثل كوبا الأمم المتحدة مذبذبة للرئيس. ولذا فقد مصبت نشق طريقى للتأكيد على استراتيجيه متعددة الأطراف. وقلت: «إننا نرى أن مصداقية الأمم المتحدة على المحك هنا. فمن الأهمية البالغة بمكان ضرورة تنفيذ قرارات الأمم المتحدة إذا ما أريد للأمم المتحدة أن تكون جهاز فعالاً لصيانة الأمن والسلام للدوليين. وربما يكون الأكثر أهمية أن تكون لدينا أمم متحدة مؤثرة وفعالة من أجل الدول الصغيرة. فليس هناك مكان لنظام عالمى سلمى إذا كان يوسع الدول الكبري التهام الدول الصغرى. فهذا هو المعضل على المحك هنا. شكراً لتقدمكم. هذا ما عندي».

كان وزير الخارجية الكوي رجلاً عجوزاً يعاني من إعاقة فى القدم. وباستثناء وابل من الانتقادات اللاذعة للسياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين فقد أمسك عن الطنطنة الأيديولوجية الفارغة التى تترفعها جميعاً من قبل كاسترو تأييداً لنداء سلمى منقذ. وقال: إن الهدف هو تجنب القتال. والمشكلة كما يراها هي أن القرار سيؤدى تقريباً إلي وقوع الحرب التى يمكن أن تزيد من أسعار البترول وتخلق «كارثة اقتصادية للعالم».

وقال: «إننا نعتقد أن الكثيرين سيوتون إذا بدأت الحرب. ومع الوقت سوف يقتل العراق بالشروط. أما النزوع لاستخدام القوة فلن يفيد. فاللجوء بالقوة يساهم فى تصليب موقف العراق. إننا نعتقد أن إقرار هذا القرار لن يسفر عن نتيجة سلمية. إنكم تحاولون إيجاد صيغة للاقتتال بدون عمل عسكري. إننا نرى أن تحديد موعد قاطع أمر خطير قد يساء تفسيره. إنه يدفع العراق للمبادرة بالهجوم أولاً. إننا نشعر أن القرار الذى قمتموه هو عملية تدفع باتجاه الحرب إننا علي خلاف معكم».

ورددت: «لا يمكن أن ننازعكم فيما قلتم. إننا نختلف معكم حول أفضل ما يمكن الحصول عليه هناك. لنتم تقولون إن شعب الكويت سيعاني من الحرب. وأنا أقول ليست هناك معاناة تفوق معاناته حالياً. إننا لا نعتقد أن العقوبات ستؤتي مفعولها علي المدى القصير. فسوف يغتصم جيشه بالطعام أولاً، ولذا فإن التصويب الأوفر من المعاناة سيخص شعبه، ونتيجة لسياساته لا يمكن أن يقوم الجار الكبير بقزو الجار الصغير ويمارس وحشيته عليه. والخط الأساسي أننا ننفق علي الهدف النهائي. لكننا نختلف حول أفضل طريقة لتحقيقه. ولا يجب أن نكرر المجتمع الدولي نفس أخطائه في الثلاثينيات. وسوف يقول لكم السوفييت نفس الشيء. وآمل أنكم ستدرسون عدم التصويت ضد القرار وأن تتعرضوا للعزلة».

ولم نلقه حتى غير الرقيقة، ورد «إننا لا نخشي عواقب عدم التصويت لصالح القرار غداً. وآمل ألا نكون بمفردنا في هذا الموقف، لكننا إن ترددنا أن نكون بمفردنا وأن نحاول تجنب الحرب، كانت مغامرة كبرى: لأنه حتي في وجه الضغوط من حليفهم الرئيسي لأمد طويل السوفييت فلم تنزعج كوبا عن موقفها.

وتأخر وزير الخارجية الصيني تشيان علي الطريق، ولذا فقد بدأ اجتماعنا قبل منتصف الليل. ومع تلك اللحظة توصل خبراونا إلي أن الصينيين قرروا أن الامتناع عن التصويت هو الحد الأدنى الضروري لنا لإعادة العلاقات إلي مسارها. وكانوا علي صواب فقد سمحنا بالفعل لتشيان بزيارة واشنطن في اليوم التالي للتصويت لكنني بذلت محاولة أخيرة لإقناعه بأن الامتناع عن التصويت سيكلف المصالح الصينية الكثير. وقلت: «إن أي شيء أقل من تأييد القرار سيضعف وحدتنا ويريح سدلم، ومن ثم سيجلب انتقادات من الكونجرس والرأي العام الأمريكي. ويمكن أن يلحق هذا صبراً بأجواء زيارتكم بما قد يجد من قدرتنا علي المرونة لدفع للعلاقات الثنائية.» وحتى نكون أسيلاً فإن أعضاء الكونجرس يفترضون أنك سوف تصوت بنعم. إنني لا أعزم أن أضغط عليكم القيلة بما ستصوتون به. لكن التصويت الإيجابي سيكون عاملاً أساسياً لدفع علاقتنا إلي الأمام. فلذا لا هناك رأي في الكونجرس بأن علينا التعامل معكم. ومن المهم أن تكون هناك وحدة في موقف الأعضاء الخمسة دائمي

العضوية. لقد أغفلنا أى إشارة إلى استخدام القوة من النص. ومرحباً بكم فى واشنطن يوم الجمعة بغض النظر عن تصويتكم.

كان للصينيين يشعرون بالاستياء لعدم قبولى عرضهم بزيارة الصين. واشتكي تشيان قالاً: «هذا هو الاجتماع الخامس بيننا لكن ليس هناك تبادل للزيارات لعاصمتى بلدينا إن هذا أمر غير طبيعي ويضر بعلاقاتنا. إن نستخدم الفيتو ضد القرار، ولا يمكننا تأييده بسبب استخدام القوة. لقد زرت عدة دول مؤخرأ، وأمل أن تزوروا الصين، كان الامتناع عن التصويت هو أفضل ما خرجنا به من الصينيين.

ويبدو أن النظم الشمولية لا تفكر مطلقاً فى أن سياساتها الداخلية بغض النظر عن مدى قمعيتها لابد وأن تكون لها أى عواقب على العلاقات للدولية. ورددت: «إن لكم فى جورج بوش للرجل المناسب الذى يعرف الصين ويريد تحسين للعلاقات. لكن أمامه قيوداً سياسية لما يمكنه أو لا يمكنه عمله».

وأويت إلى فراشى نحو الساعة الواحدة والنصف صباحاً. واستيقظت صباح اليوم التالي على مكالمة من للرئيس الذى كان يريد الاطمئنان على سبل إقناع الصينيين بالتصويت لصالح القرار. وقال: إنه مستعد لاستقبال وزراء الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن على الغداء يمكن بعده عقد لقاء على الهامش مع الوزير الصينى. فهذه الصيغة هي التى سيظهر الاجتماع معها وكأنه مرتب على عجل، لقاء معاملة أكثر منه لقاء لتقديم مقابل دبلوماسى.

وعقدت وأنا لأزال بروب الحمام اجتماعاً مع كبار مساعدى بجناحى فى والدورف استوريا لبحث الاقتراح. وتم الاتفاق على ضرورة قيامى بالاتصال بالوزير وإبلاغه بدعوة الرئيس، لكن سامس أحد شر بأن هناك فرصة أكبر لقبولها. كان الصينيون شديدي المراس فهم يعرفون أننا نعرف أنهم لن يستخدموا الفيتو لإحباط القرار، وساورنى للشك فى أن اجتماعاً عاجلاً لن يكون مقبولاً. واتصفت بتشوان وعندما رد على فى منتصف اجتماعى مع درجلاس هيرد، نقلت له رسالة الرئيس. ولم يقدم رداً قاطعاً وقال: «أشكرك سوف أعرض الأمر على بكين».

ويمكن أن تتكرر أبعاد الصينيين عندما يريدون، وعدم الإدعاء أحد هذه الأبعاد. وبعد فترة وجيزة عاود تشيان الاتصال قائلاً: «لا يمكننا التصويت بنعم. فخطيمات حكومتى هي الامتناع عن التصويت. فلن نصوت بنعم لمجرد عقد اجتماع. فوبقى عقد هذا الاجتماع لأننا لملتحين عن التصويت» وقلت له أنتى أشعر بخيبة الأمل، ولكن كما وعدته فمرحباً به فى اجتماع. وقلت والآن «إننا فى حاجة لوضع خطة لزيارتكم إلى واشنطن، ومالم أفه أن تخطبنا سيضمحل اجتماعه معى وليس مع الرئيس».

وعقب التصويت نقل لى بوب كوميت رسالة من تشيان عند منتصف الليل. فقد شعر الصينيون بالنصب عندما رأوا مشروع خطة زيارة وزير الخارجية الصينى لوشنطن وقد خلت من لقاء مع الرئيس. كانت الرسالة واضحة: إذا لم يجتمع تشيان مع الرئيس فلن يزور واشنطن. وخذعنا الصينيون هذه المرة وبسبب كل مشاكلنا معهم لم نكن نرغب فى تسبيق خناق المعزلة عليهم. فقد سبق الإعلان بالفعل عن زيارة تشيان وموتسنب الإلغاء فى إصابة العلاقات الثنائية بالنداسة جديدة وسيثور ارتباك كلا الجانبين. واتصلت بالرئيس وأوصيت بالاستسلام حتى لا يتفاقم وضع غير سار بالفعل. وقلت: «هذا ثمن زهد لتجنب استخدام أنفوسه رواق على الغور، وسحصل الصينيون على اجتماع مع الرئيس. لكنهم لن يحصلوا على ما أرادوه بالفعل: أى زيارة الرئيس للصين والقرار بالسعى لرفع العقوبات الاقتصادية التى فرضت عقب مذبحة ميدان تيانانمين، وكان هذا سمحتنا نصوياً بنعم على القرار لكن بكلفة مربعة على حساب السبائى».



وخلال يوم التصويت عكفت على إعداد ملاحظائى كرئيس لمجلس الأمن بمسلة من الاجتماعات الثلاثية مع نظرائى الوزراء، ومنهم رولان ديمافى وقال ديمافى: «إن هذه مناسبة تاريخية. فمن غير المعتاد أن يتواجد وزراء خارجية للدول الخمس دائمة العضوية فى مكان واحد. ملنا يدور بخلافك عن اجتماعنا ونحن هنا لإعطاء العراق الانطباع بأن للدول الخمس القائمة موحدة فى تفكيرها».

وانسجمننا شخصياً مع بعضنا جيداً. ولكن ها نحن مرة أخرى نرى أن الفرنسيين هم الفرنسيون. فمن وجهة نظرهم فإننا نلتحق سياسة لينة تجاه إسرائيل أكثر مما يقتضيه الموقف. كان ديميا يحنال لتوجيه إيماءة إلى الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وحلفائهم في الأمم المتحدة. وقالت - رولان - إنني أشد رغبة في عمل ذلك لكنني غير مستعد لأن يجتمع خمستا ليبحث موضوع الأراضي المحتلة. فهذا سيكون ربط بين القسيتين. وقال: «أهمهم». يمكننا الحديث عن المنطقة بشكل عام، إنها فكرة معقولة من حيث المبدأ. إنني أعد لترتيب عشاء خاص لوزراء الدول الخمس دائمة العضوية في المجلس عقب التصويت.

وفي الساعة الثانية ظهراً اتصلت بالرئيس لإبلاغه بأنه ربما يكون عليه إجراء اتصال أخير برئيس الوزراء الماليزي. وأبلغته أيضاً بأن السوفيت والسعوديين والكويتيين لازالوا يمارسون ضغوطاً على الصينيين لتغيير موقفهم والتصويت بنعم. وبعد أربعين دقيقة اجتمعت لفترة وجيزة بخافيير بيريز دي كويار السكرتير العام للأمم المتحدة. وسلمته شيكوك بمبلغ ١٨٦٠ مليون دولار كجزء من الأقساط المتأخرة علي الولايات المتحدة للأمم المتحدة. (والموجب القانون لا يجوز لوزارة الخزينة إصدار شيك يزيد قيمته عن مائة مليون دولار). وتجاهلت عدة دول أقساطها المتأخرة المستحقة للأمم المتحدة، وحتى الولايات المتحدة عليها أقساط متأخرة للأمم المتحدة. غير أن الرئيس أرلاند توجيه إيماءة رمزية تقديراً للمساعدة التي قدمتها الأمم المتحدة خلال الأزمة. وسمعت أن «دي كويار مستاء لعدم قيام بيروقراطية الأمم المتحدة بدور في أزمة الخليج».

فمنذ البداية كان المرض عرضنا: فقد حشدنا للحالف وأرسل الرئيس أبناء أميركا وبناتها إلي الخليج.

وفي الساعة الثالثة اجتمعت لمدة قصيرة مع وزير الخارجية الكولومبي الذي أبلغني أن بلاده مع كوبا واليمن والمليزيا لن يضلوا خلال الاجتماع للتصويت علي قرار الأراضي المحتلة. وأخبرت بأن سبب رحابة أفكاره يرجع إلي أن بعض الدبلوماسية البارعة من جانب الولايات المتحدة وحلفائها، ولاسيما بريطانيا العظمي قد ضمنت عدم توفر شرط

الأصوات التسعة لعرض مشروع القرار علي المجلس. وشكرت الوزير علي أية حال لقدراته كرجل دولة. وقلت له: «إننا نعمل الصواب. فلا بد من ردع العدوان».

وبعد عشر دقائق أبلغني وزير خارجية مالتيزيا أن بلاده سوف تصوت معاً. لكنه اعتزم الضغط لاتخاذ إجراء لصالح الفلسطينيين. كانوا شديدي المراس لكنني شكرته لوفقه. وقلت: «لدينا خمسمائة ألف شاب أمريكي في الخليج وأعتقد أنك يمكن أن تتفهم قلقنا».

ولم يتبق أمامي سوى عشر دقائق للاستعداد لاجتماع مجلس الأمن. وتلقيت مذكرة عاجلة من توم بيكرينج مندوبنا لدي الأمم المتحدة وأعد مساعديه وقرأت للبيان الصمد للمرة الأخيرة.

وقبل انعقاد الجلسة أبلغني جون كيلي أن اليمين قرر بصفة نهائية للتصويت ضد القرار وقلت: «حسناً سوف يكون هذا أغلي تصويت به «لا» بالنسبة لهم» وأضادت عدة تقارير (حبارية) فيما بعد أنني أنارر ولم يكن الحال كذلك.

تصويت تاريخي

في الساعة الثالثة والنصف طرقت بالمطرفة طالبياً النظام. امتلأت القاعة وتدفق الحضور وجلس الدبلوماسيون ووقفوا بأعداد كبيرة حول مائدة الاجتماع. كانت الجلسة رقم ٢٩٦٣ لمجلس الأمن ولطها أعضاها علي الإطلاق. ومثل وزراء خارجية ثلاث عشرة دولة من الدول الخمس عشرة الأعضاء بلادهم، وهي المرة الرابعة التي ينعقد فيها المجلس علي هذا المستوى. كنت أعرف حقيقة الموقف من التصويت لكنني اتحدث إلي جمع غفير من الحضور. فقد حار الوقت لمواجهة كل من العراق والشعب الأمريكي بمسألة العرب في الصحراء. وقلت: «أود أن أبدا مناقشة اليوم باقتباس اعتقد أنه يوضح علي نحو مناسب سياق مناقشتنا لهذا اليوم، وهذا الاقتباس نصه: «ما من سابقة لشعب راح ضحية مثل هذا الظلم وما

برح حتي اللحظة مهدداً بأن يُفْرَكَ فريسة للموت، وأيضاً لم يوجد مطلقاً مثال علي حكومة
تسمى بارتكاب إبادة منهجية لدولة بانتباع وسائل همجية في انتهاك لأكثر العهود قداسة
التي قطعت لجميع شعوب المعمورة بالألا يكون لجوء إلي حروب الفتح، وبالألا تستعمل الغازات
السامة والمسموم المهلكة ضد الأبرياء من بني البشر،

هذه العبارات في اعتقادي كان يصح أن تصدر عن أمير الكويت لكنها لم تصدر عنه.
إن هذه العبارات نطقت بها في عام ١٩٣٦ وليس في عام ١٩٩٠ لقد صدرت عن
هيلاسلاسي زعيم أثيوبيا. الرجل الذي وجد بلده يتعرض للغزو والاحتلال كما صولت
الكويت بوحشية منذ ٢ آب أغسطس، ومن المبحزن أن هذا اللداه إلي عصابة الأمم قد وقع
علي آذان صماء، وفشلت جهود عصابة الأمم لوقف للحولان، وتلت ذلك الحرب والاضطراب
في الساحة الدولية.

إن التاريخ أعطانا الآن فرصة أخرى بعد أن خلفنا من الحرب الباردة فأمامنا الآن
فرصة لبناء العالم الذي كان المؤسسون لهذه المنظمة - مؤسرو الأمم المتحدة - يندشونه.
أمامنا فرصة لجعل مجلس الأمن والأمم المتحدة أداتين حقيقيتين تكم وللمدانة في العالم
بأسره. ولا ينبغي أن نسمح للأمم المتحدة بأن تلقى مصير عصابة الأمم. لابد أن نحقق رؤانا
المشتركة لعالم يسوده العدل والسلام في فترة ما بعد الحرب الباردة.

ولكننا إذا كان لنا أن نفعل ذلك لابد أن نواجه التهديد الذي يتعرض له السلم العالمي
والذي نجم عن عدوان صدام حسين، ولهذا فإن المناقشة التي نحن علي وشك بدئها تعتبر
فيما أظن من أهم المناقشات التي جرت في تاريخ الأمم المتحدة، وهي بالتقطع ستحدد والتي
حد كبير مستقبل هذه الهيئة. لابد أن يكون هذا اليوم هو إقناع صدام حسين بأنه لا يمكن
تجاهل المطالب الإنسانية للعائلة للمجلس والمجتمع الدولي، ولذا لم يكن العراق اتجاه مسار
الأحداث سلمياً فسيلازم لتخاذ إجراءات ضرورية أخرى بما في ذلك استخدام القوة. لابد أن
نصنع هذا الخيار أمام صدام حسين بكل وضوح.

ووفقاً للقرارات السابقة اتخذها بشأن هذا البند أجمع ممثل العراق الدائم لدى الأمم المتحدة إلي شغل مقعد علي طاولة المجلس، وأصبح نائب رئيس وزراء ووزير خارجية الكويت إلي شغل مقعد علي طاولة المجلس. وتحدث الكويتيون وتلاههم مندوب للعراق بنفس اللغة السقيمة ضد «العلومحات الإمبريالية الأمريكية» والتي ملأنا سماعها علي مدار أشهر، وهي الساعة الرابعة وعشر دقائق مررت مذكرة إلي السكرتير العام جاء فيها: «إن أفضل طريقة للدفاع ضد عمل الصواب هي انتقاد وتفريع الولايات المتحدة بقسوة»



وللإنصاف كان من حق خصوم مشروع القرار أن يُسمع رأيهم. وتحدثت اليمن بمقتضى ترتيب سابق. وشكا وزير الخارجية اليمني من ازدواجية المعايير حول القضية الفلسطينية، وادعي أننا في سبيلنا للصوت علي قرار بالعرب. وكان مصيباً علي الأقل في هذا الصدد.

وكم كان شديد الاندفاع بالفعل في رغبته في تهريج خصومه القدامى، السعوديين. وساروري اعتقاد بأنه سيكون نصر باهظ لليمن علي جيرانهم الأغنياء في الشمال. وكنت علي يقين أن كلفته ستكون باهظة مع الولايات المتحدة. ومررت مذكرة سريعة إلي بوب كيمت قلت فيها: «إن مندوب اليمن للدائم حظي بما يترواح بين مالتكن إلي مالتكن وخمسين مليون دولاراً من التصفيق لخطابه. وكان كيلى في حاجة إلي التحدث مع الكويتيين وكنت أريد التحدث مع كيلى ورجى عن برنامج مساعدتنا إلي اليمن».

وكالمترقب انحازت كوبا إلي جانب العراقيين أيضاً. وفي منتصف كلمة وزير الخارجية ماليريكا مررت مذكرة إلي برني أرونسون مساعد وزير الخارجية لشؤون الأمريكتين الذي تقع الشؤون الكويتية ضمن مسؤولياته. كان أرونسون متبرماً مني لمساعدى لوفت للصيد

* كل برنامج مرفق إلي اليس يبلغ ٧٠ مليون دولار سنوياً لكن دولاً أخرى في التحالف كانت تقدم موفرت أيضاً.

الجائر، وهو مسعي نبيل يعتقد أنه يريد طاقتي- وتوقفت في المذكرة قاتلاً: وبعد الاستماع إلي النصف الأول من كلمة وزير خارجية كوبا فيلني علي افتتاح تام بأن كوبا سوف تصوت -بلا - أو ب - بلا. إنك بسببك للفعل من موقفك العالي كمساعد لوزير الخارجية لشؤون الأمريكتين لمنصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الصيد للجائر.

وكان تشيان تشيتشين وزير خارجية الصين أخر سنة تحدثوا قبل إجراء التصويت. ورغم الامتنان للشخصي الذي يكره لي لكن كل جهودنا بأعت بالفضل في إثباته عن الامتناع عن التصويت. وقال تشيان: (أي الإجراءات المتعلقة بتناقض مع اعتقاد الصين بضرورة تسوية النزاعات الدولية بالطرق السلمية. ومرة أخرى سجلت مذكرة لنفسى «أن الصين لا يسعها اللجوء إلي الوسائل العسكرية. اللهم إلا في حالة الاختناق المروى مثلما حدث في ميدان نوانانمين في حزيران يونيو عام ١٩٨٩».

وفي الساعة الخامسة وست وعشرين دقيقة طلبت للتصويت برفع الأيدي. وكان التصويت كاسحاً. اثنا عشر صوتاً مؤيداً ومعارضة كوبا ولينين. وامتناع الصين عن التصويت. كان القرار رقم ٦٧٨ واصحاً وصريحاً. فقد قرر المجلس أن يمنح العراق فرصة واحدة أخيرة كلفته.. تكلم عن حسن النوايا لمحب قوائه دون شروط من الكويت في موعد أقصاه الخامس عشر من كانون الثاني يناير ١٩٩١ فإذا لم يسحب صدام من الكويت في هذا الموعد فإن المجلس يأذن للدول الأعضاء بأن تستخدم جميع الوسائل اللازمة... لإعادة السلم والأمن الدوليين إلي نصابهما في المنطقة.



ومنذ الأزمة الكورية عام ١٩٥٠ لم تمنح الأمم المتحدة هذا التفويض الساحق لشن الحرب.

روفقاً للتقاليد المعمول بها فإن لرئيس المجلس الحق في إلقاء الكلمة الأخيرة، وقلت: «السادة أعضاء المجلس، إننا نجتمع في ظرف تاريخي حاسم. فبوسعنا أن نستغل لنتهاء الحرب الباردة لتجاوز أسلوب تسوية النزاعات عن طريق القوة، وإلا فسوف نعود لنشهد صراعات إقليمية شرسة قد تكون القوة هي العنصر الوحيد الذي يميل للحق إلى نصابه. فبوسعنا سلوك الطريق الصعب تجاه السلام وحكم القانون، وإلا فسوف يسود أسلوب صدام العدواني الوحشي ويسود حكم الغاب. وببساطة إنه اختار بين الصوب والخطأ. وأعتقد أننا نتحلي بالشجاعة والقوة لاختيار للصواب».

وبهذا التصويت اكتملت بالفعل كافة العناصر السياسية والعسكرية لحظتنا لإجبار العراق على الخروج من الكويت بما يشفى مصداقية علي تهديداً باستخدام القوة، وأصبح التحالف الآن يملك قراراً من مجلس الأمن يبيح استخدام القوة عند الاقتضاء.

الفصل الثامن عشر

تحقيق إجماع في الوطن

من الضروري للغاية أن نتعاون إننا نواجه تحدياً شاقاً وقوياً.
إننا في حاجة إلى توجيه أقوى إشارة مكثفة إلى صدام بأنه لا
يمكن إطاعة الانقسام بين الأمريكيين.

الوزير بيكر

للمدات الكونغرس في البيت الأبيض

تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠

إن الرأي العام في هذا البلد هو كل شيء.

إيزاهام لينكولن

١٨٥٩

في السابع من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠ اليوم الرابع من جولة شملت إحدى عشرة دولة لحشد تأييد شركاء التحالف لدعم قرار كل الوسائل اللازمة، وصلت إلي موسكو بعد الساعة الخامسة بعد الظهر ونزلت بجناحي في فندق ميخونارووديانا بعد ساعة. وانتهرت فرصة عدم وجود ارتباطات في هذا المساء لالتناول عشاء في جناحي بالفندق ثم أجري عملية مساج، وفيما بعد وقبل أن أوي إلي الفراش في المساء عرجت علي غرفة بوب كيميت حيث احتشد فريق العاملون لتبادل الملاحظات في ختام يوم بدأ قبل أربع عشرة ساعة في أنقرة. كان كيميت يتصل بالهاتف بولاشطين بشأن معظم العاملين معي كنت أردي تريدينج سويت وحذاء خفيفا وهو للزي المفضل لنا بعد ساعات العمل. سواء علي الطريق أو في الرحلات الطويلة.

وفي وقت سابق من اليوم وأثناء توجهنا إلي موسكو لمعد اجتماع مع جورباتشوف وشيفرنادرة علمت من ريتشارد هاس ممثل مجلس الأمن القومي في الرحلة، أن التبيت الأبيض يعتزم الإعلان عن نشر جديد ضخمة للقوات الأمريكية في الخليج اليوم التالي. فقد اتعد الرئيس للقرار في ٣١ تشرين الأول أكتوبر - أي قبل ستة أيام من انتخابات التجديد. ولكن لدينا فرصة للتشاور مع شركائنا في التحالف، وإفغادي نحوله إلي قضية انتخابية حزبية. فقد قررنا تأجيل الإعلان الرسمي عنه حتي وقت لاحق. كان للتوقيت موعدا. فلم يكن الكونجرس ولا حلفاؤنا مؤهلين بالقدر المناسب لتلقي الأنباء. وإن يسعد السوفيت بالأنباء، وأنا أعرف أن شيفرنادرة الذي يعارض بشدة الحل العسكري يشعر بالفصم إذا شعر مرة أخرى بأنه أبلغ بالأمر بعد حدوثه. فقد كان من الأجنبي للتريت بضعة أيام للتأكد من إبلاغ كافة الأطراف. ومن وقع المفاجأة لعدم استشارتي في قرار نشر القوات سببت جام عصبي علي هاس وهو أكبر صحفية قريبة السال. ونساءت: «ما فائدة وجود رجل من مجلس الأمن القومي معي في الرحلة ١٠٢؟ وأمرت هاس برفع شكوي مباشرة إلي سكوكروفت بالنيابة عني، وفي الوقت نفسه أبرقت باعتراضاتي إلي سكوكروفت مضيفا توصيحا رمزيا بفوائد التأجيل. إن الإعلان الذي من شأنه أن يدفع البلاد إلي التفكير جدياً في الحرب يعين عدم إعلانه في يوم المحاربين القداماء.

ووضع كيمييت سماعة الهاتف، وأكد ما عرفناه بشكل غير رسمي علي الطائرة اليوم السابق. فسوف يعلن الرئيس صباح اليوم التالي في واشنطن قرار تعزيز القوة. ورفضت توصيتي بطلب تأجيل الإعلان حتي الانتهاء من إجراء المشاورات اللازمة مع الكونجرس والتحالف. وبسبب حساسيته المفردة أحيط القرار بأقصى درجات السرية بشكل استثنائي. وبات البيت الأبيض يخشي الآن من أن هنالك أنباء علي وشك التسرب من الليبتاجون، وإذا فقد قرر لاحتصار الموعد الأصلي للإعلان.

وكنيت أفترض أن البيت الأبيض سيقوم علي الأقل بقريب لقاءات خاطفة لكبار أعضاء الكونجرس قبل إعلان الرئيس للقرار، وكنيت مخملاً في هذا التصور، كما أوضحت مكالمة كيمييت. وفوجئت وشعرت بالانعراج من هذه الأنباء غير أن جانيت مولينز كبيرة مسؤولي الاتصال مع الكونجرس هي التي صنعت بشدة لدي معرفتها أن هذا القرار بالغ الأهمية سيتم الإعلان عنه دون التشاور المناسب مع الكونجرس. وقالت: «لا أصدق أن هذا سيحدث دون إبلاغهم بأي شيء». فليس لديهم أدني فكرة علي أننا نستعد للحرب. سوف يكون جلون هؤلاء الرجال. سوف تلاقى الكثير لدي عودتك».

كانت مولينز حادة علي الدولام في تقييمها لكيفية رد الكونجرس علي تطور معين. فالضغوط الدبلوماسية والعقوبات الاقتصادية هي أقصى ما يمكن أن يصدق عليه الكونجرس. أما التزام جديد شامل بالقوة العسكرية فإنه مسألة أخرى. وأذكر اعتقادي بأن حشد تأييد في الكونجرس أمر شاق يتساوي في صعوبة مع إقرار الإصلاح العنصري الشامل في ولاية ريجان الثانية.

وانصفت بالرئيس وطلبت منه أن يبادر بالاتصال هاتفياً بقيادات الكونجرس لإبلاغهم بالأنباء التي ستكون غير سعيدة بكل تأكيد. واقترحت أيضاً ترتيباً فورياً لقاء الرئيس مع زعماء الكونجرس بمجرد عودتهم إلي واشنطن في الأسبوع التالي.

وفي الواقع فقد استعرضت مولينز رد الفعل بشكل يخفف من وطأته، وحتى لو تم إخطارهم سلفاً لكان الكثيرون من الأعضاء قد عارضوا قرارنا. لكن القصب تملكهم من المفاجأة. واستغرق الأمر جهداً مكثفاً لمدة شهرين لاحتواء الضرر وإصدار قرار من مجلس

الأمن، ومجهود دبلوماسي أخير من الرئيس توج بمباحثات مباشرة بيني وبين وزير خارجية العراق بهدف إقناع أعضاء الكونجرس لتأييد خيار التدخل العسكري الأمريكي - وهذا نهج سياسي طالما نظر إليه الكونجرس بحذر منذ أن - تشيت ليندون جونسون بقرار الكونجرس حول خليج تونكين عام ١٩٦٤ كمبرر للحشد العسكري الأمريكي في فيتنام.

وفي النهاية تطورت أزمة الخليج بطريقة قاطعة فكان للصراع الموهن ما بعد فيتنام التطويل الأمد والمتكرر أثر مؤقت علي سيرها علي الأقل. وبالقوي المعايير، ولأن عملية عاصفة الصحراء أحرزت نجاحاً باهراً بات للشعب الأمريكي ومملوه المنتخبين أكثر استعداداً للموافقة علي استخدام القوة العسكرية عند ظهور ظروف شديدة الوضوح تتعرض فيها المصلحة الوطنية للخطر. (ومع هذا ومن قبيل المفارقة فإن الدجاج الباهر ربما خلق أعراضه الخاصة المألوفة للاستلاب. وفي المستقبل فإن استخدام القوة العسكرية الأمريكية في مواقف لا تستدعي القوة الشاملة ربما يكون أصعب سياسياً بكثير بسبب عاصفة الصحراء). لكن منذ بداية الأزمة لم يكن بوسع أي منا أن يدرك ذلك. وعلي النقيض كان قرار الرئيس السري بإصدار أوامر بتحريك القوات الأمريكية للقتال إذا اقتضت الضرورة لطرد صدام حسين من الكويت بفقر التأييد بوضوح لدي كل من الكونجرس والرأي العام.

ورغم عدم موافقة كل رملائي كنت مقتنعاً بأنه في الوقت الذي يملك فيه الرئيس السلطة القانونية للتحرك منفرداً كمسألة فعلية وسياسية. فإننا سترتكب خطأ جسيماً بخوض حرب كبيرة كهذه من دون ضمان تأييد الكونجرس. وسيتأكد أن هذه ستصبح مهمة لا تقل صعوبة عن حشد تحالف دولي ضد صدام.



وقبل غزو للعراق للكويت كنا قد بدأنا نشدد سياستنا تجاه نظام بشداد. كانت سياسة الارتباط البناء تتحول إلي سياسة أكثر واقعية وانتقاداً لصدام. ومع هذا كان هذا الخط المتشدد كافياً بدرجة يمكن معها التماس الحذر للغة المتابعة من الأمريكيين الذين أخطأوا لس هذا

التغيير . ثم هكذا عملياً بين عشية وضحاها لتقلبنا من محاولة للعمل مع صدام إلى تشبيهه بهتلر . وجعل هذا التناقض الواضح من الصعب إثارة وعى للشعب الأمريكى بالتهديد الذى يمثله صدام .

ومن وجهة نظر سيكولوجية فإننا نواجه عقبة لفت نظر الرأى العام إلى تهديد جديد تماماً . وعلى مدى جيل شاهد الأمريكيون الاتحاد السوفيتى كعدو وحيد . لكن مع عام ١٩٩٠ تراجعت موسكو فى أنهان معظم أفراد الشعب باعتبارها التهديد الجدى الحقيقى . وخلال هذا التحول يبرز العراق وصدام حسين الذى يتولى قيادة رابع أضخم جيش فى العالم فجأة ، قد امثلك مخروناً ضحماً من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية ويكف حديثاً على تطوير قدرات نووية . ومع ذلك لم يكن صدام حسين زعيماً معروفاً لدى الغالبية الساحقة من الأمريكيين . ولهذا كان من الصعب طرح قضية الخطر الذى يمثله صدام حسين . وتفاقت هذه المشكلة من حقيقة أن قلة قليلة فقط هي التى تعرف شيئاً عن الكويت . هذا إذا كانت تلك القلة تعرف موقعها الجغرافى على الإطلاق . وحتى هؤلاء الذين يعرفون أن الكويت بلد صغير تحكمه ملكية إقطاعية غير متشبعين بالتقاليد الديمقراطية الغربية وعلى مدار عقود منذ أن اقتطع البريطانيون الكويت من العراق لم تسمح عائلة الصباح الحاكمة بإجراء الانتخابات ولو مرة واحدة .

وبالمثل عكس عدم اهتمام الكونجرس لامبالاة الرأى العام الأمريكى . ولتأكيد سياسة السلطة التنفيذية طويلة الأمد بأن المصالح الأمريكية الحيوية فى المنطقة معرضة للخطر احتفظت الولايات المتحدة بوجود بحرى فى الخليج لأكثر من عشرين عاماً . ومع ذلك كان الرأى السائد فى الكونجرس لدى تملكه أغلبية الأعضاء من كلا الحزبين أن للتدخل العسكرى الأمريكى فى الخليج غير حاسم للمصلحة القومية الأمريكية . بل إن البعض اعتبر النشر الأولى للقوات الأمريكية فى البحرين السعودية فى أوائل شهر آب أغسطس رداً خطيراً مبالغاً فيه . إضافة إلى ذلك كان القرب بين البترول والاقتصاد الأمريكى مجرد ربط تجريدى إلى حد كبير . فقد مرت أكثر من عشر سنوات منذ أن تعرض الأمريكيون لأزمة طاقة . وإن يحدث تحول سريع لدى الناخبين لعنت للكونجرس على إرسال قوات لحماية مصالحنا فى الخليج .

شرح التهديد الجديد

عند البداية الأولى كان هجومنا الدبلوماسي في الأمم المتحدة عنصراً حاسماً في الفوز بتأييد الكونجرس المتردد. وعند أوائل آب أغسطس كانت لنا الخلية في مجلس الأمن الدولي واستصدرنا القرار ذو القرار لتشديد عزلة صدام حسين سياسياً واقتصادياً. وكذا نتفقد أن الأثر الدرامي لهذه القرارات سيكون له فائدة إضافية في الداخل تدفع في النهاية الكونجرس المتردد إلي وضع نشاط سياسياً. وكنت أريد أن أستطيع سؤال أعضاء الكونجرس المشككين كيف ينسني لهم حرمات الرئيس من تأييد قدمته له في مجلس الأمن دول مثل أوروبا وماليزيا وزائير. وعندما أصدرت الأمم المتحدة أخيراً القرار رقم ٦٧٨ في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر بإجازة استخدام كل الوسائل اللازمة لطرد العراق من الكويت تكون الالة الأساسية لاستراتيجيةنا الداخلية قد وضعت في مكانها. ولم يصبح لدينا للتفويض الدبلوماسي لش الحرب فحسب بل أصبحت لدينا الفعالية والقدرة السياسية - بالفعل - لإخراج المتريدين في الكونجرس لحملهم علي عمل الشيء الصحيح.

وفي مختلف الأحوال كانت هناك علاقة تبادلية وثيقة بين التحالف الدولي والتأييد الداخلي. وكلما قوي التحالف كلما كان من اليسير تحقيق إجماع في الداخل. وبالمثل كلما تشدد التأييد الداخلي كلما ازدادت القدرة القيادية للرئيس في مواجهة الحكومات الأخرى. وعلي سبيل المثال يمكن توظيف الانشقاق الداخلي لألمانيا واليابان لدفع بون وطوكيو لتقديم مساهمات مالية أكبر لتحرير عندهم مساهمتها بقوات مقاتلة في التحالف. والعكس صحيح أيضاً إذا بدأ التحالف في التصدع سوف يتكسب التأييد في الكونجرس والرأي العام. وهب أن للكونجرس غل يد الرئيس برفض تأييده سياسياً فربما تفرض التحالف.

وما يدعو للمخبرية أن المسار الدبلوماسي تسبب في انتكاسة مبكرة غير متوقعة لاستراتيجيةنا لمشد تأييد الكونجرس. ففي السادس من آب أغسطس وبطلب من الولايات المتحدة أقر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ٦٦ بفرض عقوبات اقتصادية علي العراق. ولسموه الحظ هيا القرار لبعض أعضاء الكونجرس فرصة لإشباع ميولهم المعروفة بالقلب علي الجانبين. فبوسعهم مواصلة التلديد بعدوان للعراق مع استغلال القرار في الوقت نفسه كستار

للمعزول في قبضة محصلة السياسة الوسطى: فهاذا منفصل لو لم تزلت المعوقات ثمارها؟ فقد ورر قرار المعوقات عذراً مبالغاً للكثير من الأعضاء لجذب الإقليم علي اختيارات صعبة لمدة عام وهو إطار زمني طاقماً تردّد في الكونجرس لكنه إطار غير واقعي بالمرّة. وليست هناك طريقة علي أية حال للحفاظ علي تماسك التحالف للدولى كل تلك المدة. وفي الحقيقة سلورنى الشك في أن السبب الذى حدا ببعض رعاة الكونجرس لإظهار تأييدهم القوي والمبكر لمعالجة أزمة الخليج في الأمم المتحدة يكمن في اعتقادهم أنه لن يجرى تصويت مطلقاً علي اتخاذ إجراء عسكري، ومن ثم إبعاد الكونجرس عن الشريك السياسى. وأكدت مولينز هذا في إطار مناقشات سرية مع بعض الزعماء والعمامين معهم. ومظاهر الجبن تلك ممارسة شائعة لدى الكليتين في الكونجرس الذين يستمتون في الصياق أنفسهم بانتصارات الرئيس، ويأثرون بأنفسهم عن فشله. رأى معيار كانت سياستنا تجاه الخليج محفوفة بالكثير من المخاطر. وفي إجماع آخر ناجم عن أعراض فينتام لم يكن أعضاء الكونجرس يرغبون في تحمل مسؤولية إرسال قوات من ولاياتهم ودولهم لما قد يصبح حرباً نامية. لذا فصل كثيرون في الكونجرس إطار السلامة سياسياً بعمل شيء لو كان متاحاً علي أية حال.

وكانت وجهة نظري بضرورة السعي للحصول علي تفويض من الكونجرس تستند إلي واقع سياسى لا واقع دستورى أو قانونى. وفي الجانب الأكبر سعت إدارة بوش جاهدة لاستمرار إطلاع الكونجرس علي مجريات الأحداث. وقبل أى شيء كان جورج بوش نفسه عضواً سابقاً بالكونجرس ويدرك بصيرته حكمة استمرار إطلاع الكونجرس. فضلاً عن ذلك، ومن جانبى كان التشاور مع الكونجرس وعلي مدار سنوات ختمتى في الحياة العامة تمتعت بعلاقة مع السلطة التشريعية ويرجع ذلك إلي حد كبير لعملى المستمر معها. وعندما عدت إلي الحكومة عام ١٩٨١ لأصبح رئيساً لهيئة موظفى البيت الأبيض في ظل رئاسة ريجان قررت ألا أغادر مكتبى في نهاية اليوم مطلقاً بدون الرد علي مكالمات أعضاء الكونجرس دونما اعتبار لمكانة العضو صغيراً كان أم كبيراً، ولانتهى عشرة سنة تمسكت بهذا للتقيد واعتقد أنه أتى بثماره للرئيسين ريجان وبوش ولى أنا أيضاً. ونحن في أمريكا نفقس نجاح أو فشل رؤسائنا إلي حد كبير اعتماداً علي سجلاتهم التشريعية. فقد كانت علاقة الرئيس كارتر مع الكونجرس الذى يسيطر عليه حزبه تمانى من توتر متكرر، وقد دفع ثمن هذا غالباً في

صورة التعلم الفعالية التشريعية مما ساهم في هزيمته. وأُعرف أن الرئيس ريجان سيكون مشغولاً مع مجلس يسيطر عليه الديمقراطيون لدرجة خوض معارك طاحنة معه، ولذا كان من الضروري الحفاظ على خطوط الاتصال مفتوحة ومتحيرة مع الكونجرس. ونتيجة لذلك ويرغم خوض معارك تشريعية شرسة مع الديمقراطيين أعتقد أن الرئيس ريجان حظي بعلاقات أفضل مع الكونجرس عما توقع معظم المراقبين.



ورغم هذا فإنني أعتقد أن الكونجرس (لا) يتمتع بحق مساو للرئيس، سواء في إدارة السياسة الخارجية أو نشر القوات العسكرية الأمريكية. ولا يمكن مهاجمة الدستور في هذه النقطة. فسلطة إدارة السياسة الخارجية خاصة عندما تتضمن الامتيازات للقاصرة علي القائد الأعلى تقع في يد السلطة التنفيذية. ولم يمارسني أي شك مطلقاً في أن الرئيس لا يحتاج مطلقاً إلي موافقة الكونجرس لإصدار أوامر للقوات بالقتال. ومع هذا فإن أزمة الخليج عملية غير محدودة مثل عمليات جرينادا أو بنما. وعني إذا كان القانون لا يقتضي الحصول علي موافقة الكونجرس فإنني أعتقد أن إرسال مئات الآلاف من الجنود إلي المعركة مع احتمال سقوط خسائر بشرية فادحة - وبدون موافقة الكونجرس - قد يثبت أنه انتصار باهظ الثمن. ويبيّن ويبس نفسي كنت أحتشي من أنه إذا لم نحصل علي موافقة الكونجرس فلن نستطيع شن هجوم علي صدام حسين من وجهة نظر سياسية وربما نضطر للاكتفاء بسياسة الاحتواء.

ورغم هذا ازدادت مهمتنا في حشد التأييد تعقيداً نتيجة تنازع الولاية الذي احتدم منذ حرب فيتنام بين الرئيس والكونجرس حول السلطة الحكومية التي يحق لها شن الحرب، واعتبر قانون صلاحيات الحرب لعام ١٩٧٣ - الذي حد من سلطة السلطة التنفيذية في إدارة العمليات الحربية غير دستوري، ولم يحظ سوي بالالتزام ظاهري من الرؤساء السنة السابقتين مما أثار حشيقاً كبيراً في الكونجرس. وفي تشرين الأول أكتوبر وأنا رئيس لهيئة موظفي البيت الأبيض جمع للرئيس ريجان قرارات الكونجرس في الغزوة للصغراء بمقر إقامته مساء أحد الأيام. وأبلغهم أن القوات الأمريكية ستغزو جزيرة جرينادا صباح اليوم التالي. وقال رئيس

مجلس النواب أونيل: إن هذه الصجالة غير كافية بموجب قانون صلاحيات العرب واشتكي:
إن هذا إخطار وليس مشاوراً. حظ سعيد. ويادر بمقدرة للبيت الأبيض تاركاً وراءه رسالة
ضمنية: عليكم ألا تنتظروا أي تأييد من جانبنا إذا سارت الأمور علي غير ما يرام.

وازدادت مشاكلنا تعقيداً نتيجة للتأكد أنه في خريف عام ١٩٩٠ ظهرت خلافات في
التصور بين الإدارة والكونجرس حول الاتجاه الذي تتطور فيه السياسة. كنا جميعاً في
الحكومة نتحرك علي مصطنع نحو الحقيقة التي شرع بها الرئيس في وقت مبكر - أي حتمية
استخدام للقوة علي الأرجح. وفي الوقت الذي كنا نأمل فيه أن تعزيز للقوة سيجتمع صدام إلي
التأكد من تصميمه وأن ينسحب من الكويت، وأن مجرد إرسال تلك اللقوات هو اعتراف
ضمني بأن الأوامر ربما تصدر إليها في نهاية المطاف بالدخول في معركة إذا لم ينسحب
صدام حسين، وهكذا فإن كل يوم يمر يزيد من احتمالات الحرب.

وعلي أمل نهينة الكونجرس والرأي العام لهذا الواقع الجديد، انتشرت فرصة خطاب كان
من المقرر إلقاؤه منذ فترة طويلة أمام مجلس الشؤون الخارجية الدولية في لوس انجلوس في
٢٩ تشرين الأول أكتوبر لمعالجة قضية الاستخدام المحتمل للقوة ضد العراق بشكل أكثر
صراحة عما حدث في تصريحاتي السابقة. وقلت: إنه في منطقة متفجرة مثل الشرق
الأوسط عندما تضاف أسلحة الدمار الشامل إلي المزيد من إمدادات الطاقة العالمية. يولد
مزيج متفجر، وأشرت إلي أن الرئيس مصمم علي عدم التماسل مع العدوان العراقي. وأضفت
قائلاً: «إن قولنا هناك لتقديم رد عسكري حاسم وهائل إذا اقتضي الموقف». وبكلمات متقاة
يحاذية تحدثت أثرها المطلوب، قلت: إنه في الوقت الذي لم يدع فيه الرئيس ساحة دبلوماسية
إلا وطرقها التماساً لحل سلمي، وليس هناك مجال واحد للشك في أننا لن نستبعد احتمال
استخدام القوة إذا استمر العراق في احتلال الكويت».

ولسوء الحظ تجاهل كثير من أعضاء الكونجرس تلك المؤشرات، وركزوا بدلاً من ذلك
علي تصريحاتي حول طريقة المعاملة المفجة للرهائن الأمريكيين في العراق. فقد انتهت كذبا
عنا في الواقع بالمبالغة في قصية معاناة للرهائن. ومن الواضح أن الكونجرس لم يكن لديه
أدني فكرة عن تغيير الواقع. كانوا لا يزالون يتبنون الخيار الأسهل سياسياً - أي الاعتماد علي

العقوبات. ونتيجة لذلك كان إعلان الثامن من تشرين الثاني نوفمبر بنشر جديد للقرارات بمثابة قنبلة ألقيت في الكونجرس وأخذت قيادات الحزبين في الكونجرس بالهفاجاة، ولا سيما السيناتور سام نان والنايب ليس أسبين رئيس لجان الخدمات المصنعة وهي اللجان المعنية. وشعروا جميعاً أنهم همّشوا وسارع نان بالإعلان صراحة أنه لم يعرف بأمر الإعلان إلا قبيل ساعات وفي أحد المطاعم. وأصابته السكتة قادة للتومقراطيين بشكل خاص. ولم يساهم إلترام الرئيس بعقد اجتماع مبكر سعياً للحصول على موافقة القيادات في تهدئة أهد.

وظائف، وظائف، وظائف.

في ٨ تشرين الثاني نوفمبر اليوم السابق على الاجتماع توجهت إلي بيرمودا لعقد اجتماع ثنائي عاجل مع جوي كلارك وزير الشؤون الخارجية الكندي. ومنذ وقوع الأزمة لم تتردد كندي في تقديم دعم قوي، وأبطلني كلارك بأن حكومته ستوافق على قرار استخدام القوة في مجلس الأمن، وعقب الاجتماع انتهزت فرصة المؤتمر الصحفي المشترك لأشرح أنه في الوقت الذي نصمم فيه على الوقوف في وجه عدوان صواريخ فإن هناك أيضاً تأهبنا داخلها جوهرياً لسياستنا.

وقلت: «إن شريان الحياة الاقتصادية للعالم الصناعي ينبع من الخليج، ولا يمكننا السماح لديكتاتور مثل هذا بصد شريان الحياة الاقتصادية وللأزول به إلي مستوى المواطن الأمريكي العادي دعني أأهل إن هذا يعنى الوظائف. وإذا أردت تلخيص الأمر في كلمة واحدة فإنها الوظائف، ويسبب التركود الاقتصادي للعالمى فإن سيطرة - بلد، واحد أو إن شئت ديكتاتور واحد - على شريان الحياة الاقتصادية للغرب سيؤدى إلي فقدان للمواطنين الأمريكيين لوظائفهم».

واختيرت كلمتي بحاية. فقبل ثلاثة أيام في موسكو قلت إن مستوى معيشة كل مواطن أمريكى معرضة للخطر في الخليج. وكان هدف تصريحاتي في بيرمودا هو تمزيق

تصريحاتي السابقة . وفي الحقيقة أصابني الإحباط لعدة أسابيع من جراء العجز الجماعي للإدارة عن وضع أساس قوى متناسق لسياسة للرئيس . وتراوخت بياناتنا العامة ما بين المبدئية إلى السرية . فأحياناً ما تمددنا عن التصدي للعدوان وإقامة نظام عالمي جديد . وأحياناً أخرى وصفتنا صدام حسين بأنه هائل جديد ، وتذرعنا بتهديده للاستقرار العالمي نتيجة ارتفاع أسعار البترول . وكانت كل تلك الحجج صحيحة . لقد قمنا بالرد على انتهاك صارخ للقانون الدولي ، وشجبنا حالة عدوان مافر ولأول أزمة حقيقية في عالم ما بعد الحرب الباردة . وما نحن نتعامل مع شخصية مصابة بجنون للسلطة . لكن من الحقيقي أيضاً أن مصالحنا القومية مهددة بالخطر ، وهو شيء تعترف به كل الإدارات السابقة . ديمقراطية أم جمهورية . وكان علينا أن نواصل تأمين إمدادات الطاقة . وشكل ردنا السريع في أوائل آب أغسطس ردعاً لصدام حسين عن غزو العربية السعودية . لكن إذا سمحنا له بالبقاء في الكويت سيكون بوسع صدام الدموي - الذي اعترف بنفسه أنه أقدم علي الغزول له - خزائنه الخاوية من عائدات النفط الكويتي - التأثير بسهولة علي قرارات تصدير البترول في العالم . وسيلي ذلك بالتأكيد ارتفاع لأسعار النفط الخام يحتمل أن يتسبب بدوره - ليس في فقط في تراجع في الاقتصاد العالمي بل أيضاً في ركود في الاقتصاد الأمريكي الهش . ويخفى هذا حقاً فقدان عشرات الآلاف لوظائفهم في أمريكا .

وبصراحة فقد بذلنا جهداً مضنياً - ليس فقط في شرح للمضاعفات الاقتصادية الجهرية للعدوان العراقي علي الاقتصاد . بل أيضاً التهديد الذي يشكله هذا للعدوان علي السلم والأمن الدوليين بسبب أسلحة للدمار الشامل . كما أننا بذلنا نفع ثمناً سياسياً في التدخل نتيجة المضارب في التصريحات . وبدأ التأييد العام لعملية درع الصحراء في التراجع . وبدأ المحتجون بإحاصرون الرئيس بمظاهرات تدعو إلي « لا للدم مقابل النفط » .

كان موقف الكونجرس متقلباً بشكل متزايد تجاه الجشد العسكري المستمر . وكنت أبحث عن صيغة تنبه الداخل إلي فداحة التهديد الذي يتعرض له المواطن الأمريكي العادي ، ومن ثم ضمان التأييد لسياسة ربما تنتهي بالحرب في صحراء الكويت .

وفي النهاية ظهر الأسوأ ، وفي غمرة محاولة لإسقاء بعض الانسجام علي رسالة الرئيس بالمت في رد على علي الشكاوي المتزايدة من أن النفط هو السبب الوحيد لوجودنا

في الخليج. لقد اتخذت قراراً سياسياً معقداً هو في أساسه موقف مبدئي ضد عدوان وقع دون استغزاه، وحاولت تعريفه أو طرحه كحساب اقتصادي مجرد - هو اللواطف - ولأزال أعتقد أنني كنت علي صواب. لكنه نهج لم يؤت ثماره. وهناك عنصر اقتصادي جبري في السياسة ولم يكن هذا العنصر مقصوراً علي النفط فحسب. ولو أنني استخدمت لاصطلاح، الرفاهية الاقتصادية، بدلاً من «اللطائف» فربما قويت باستحسان أكثر.



وهو انتهاء المؤتمر الصحفي تم تسليم نسخة برقية أثارت الانهياك. فقد حث السيناتور رينشارد لوجار من إنديانا وهو جمهوري صاحب صوت انتقادي في لجنة العلاقات الخارجية للرئيس علانية علي استدعاء الكونغرس للانمقاد من عطله الصيغة في جلسة خاصة لدراسة إصدار قرار يجهز اتخاذ عمل عسكري ضد صدام. كان لوجار يدرج لفكرته منذ بعض الوقت، وكان قد غادر المكتب البيضاوي لتوه بلقناع خاطئ بأنه نمت للرئيس لمساندته. كانت محاولة حصة اللثة من جانب لوجار. وقال ناخبوه إنهم لا يفهمون ضرورة إرسال مزيد من القوات، وكان لوجار يعتقد أن إصدار الكونغرس لقرار تأييد سيرجه يونانا قريباً وراضحاً لدعم غور حزبي لسياسته. واتضم السيناتور بوب دول إلي لوجار في اقتراحه. وارتأى دول أنه إلي جانب مميزاته فإنه يشكل فرصة للي ذراع الديمقراطيين الذين يمارسون السياسة لكنهم يشعرون أنه يتسلي فهم للتردد في التصويت ضد القائد الأعلى فيما يرفي جوهرياً إلي حد إعلان الحرب.

وفي ظاهره كان اقتراحاً مغرياً لمرمان الديمقراطيين من المزيد من الفرص في اللعب علي الجانبين. لكن اقتراح لوجار كان ينطوي علي كارثة محتملة. وفي حجة لم تكن تلك الأصوات لكافية. فقد كان الأعضاء للمؤثرون في كلا الجانبين يشعرون بالفتنب لعدم استشارتهم حول تعزيز القوة. فالسعي للحصول علي قرار وعدم للحصول عليه سوف يمثل كارثة. وسوف تظل يد للرئيس. وواقعياً لم يكن يتسلي لنا استخدام القوة بوجود معارضة

صريحة من جانب الكونجرس. وسوف يقف تحالفاً الدواى متمجّباً من مدي ديمومة التصميم الأمريكى، وسوف تلقى قدرة الرئيس علي إدارة السياسة الخارجية فى مهبط للشكوك. فضلاً عن ذلك فإن العقوبات الاقتصادية لم تطبق إلا منذ ستين يوماً. ولا تزال أغلبية أعضاء الكونجرس تعتقد أن العقوبات متجدر للعراق علي الانسحاب من الكويت إذا أصليت الوقت الكافى.

وحذرتني جانيت مولير من أننا إذا ذهبنا إلي الكونجرس كما يريد لوجار فستكون فرصته قوية في إصدار قرار مشروط بالحرب. وحينئذ ستكون لدينا إجازة بالذهاب إلي الحرب، لكن فقط في حالة إعطاء العقوبات عدة أشهر لتثبت فعاليتها. فالفكرة بالغة الخطورة إلي حد التحريم. ومن الناحية القانونية كنا نشعر أن لدينا للسلطة التحريك في الخليج. لكن عدم الحصول علي موافقة الكونجرس سوف تكون له عواقب وخيمة علي المدي البعيد.

ومن المفارقات الغريبة أن الذى خفف أزمنا إلي حد كبير هو تعاون زعيم الأغلبية الديمقراطية بـجلس الشيوخ جورج ميتشل. وبعد عودتي من بيرمودا اجريت عدة محادثات مع ميتشل. وفي النهاية اتفق معي علي أن قرار الكونجرس مهم - لكن بعد صدور قرار مماثل من الأمم المتحدة. وأبلغني ميتشل بأن التصويت هناك حقاً ليس من أجل تأييد قرار نظيف لكن قراراً حازماً من الأمم المتحدة سيوفر مبرراً قوياً لإقناع الأعضاء المترددين، وأخيراً أعلن ميتشل علانية أنه لن يدعو إلي عقد جلسة خاصة بناء علي اقتراح لوجار.



وفي اليوم التالي لعودتي من بيرمودا شاركت في واحد من أكثر الاجتماعات المشحونة بالخلافات التي يمكنني تذكرها مع قيادات الكونجرس من الحزبين. فالرئيس عاقد الحرم علي الدفاع عن قرار لإرسال القوتل باعتباراه الإجراء اللوقالى الأهم، ويؤكد علي أن أفضل أمل لتجنب الحرب هو إقناع صدام بأننا لا نمتحرض.

وقالت: «هذا هو الاحتمال الوحيد لتحمية هذه الأزمة سلمياً. فصحافته تصرخ بأننا عاجزون عن التنبؤ. إن علينا مسؤولية مشتركة بعدم توجيه مؤشرات متضاربة، كان التردد بادياً علي الأعضاء. لم يكن هناك مناص من الصخري وأنا استمع إلي إدانتهم لمبدأنا، فقد عدت لتدري من جولة هيأت فيها الحلفاء لاحتمال شن التعريب. بينما للكونجرس لادى تعتبر موافقة أساسية ليس علي الخط».

وعجل الفوران التشريعي المتصاعد الجدل لدخل الإدارة حول مدي صحة طلب الحصول علي قرار تأييد من الكونجرس علي الإطلاق. كنت لأزال أعتقد أنه يدعمين علينا المحاولة، وسوف يحصل عليه في النهاية. ففي كل الخلافات بين السلطين التشريعية والادفيلية حول صلاحيات خوض الحرب عادة ما انحاز الكونجرس إلي صف الرئيس في مثل هذه المسائل. وسوف يقتضي الأمر قدراً هاماً من التشاور والمعونة. لكني كنت علي ثقة من أن الرئيس إذا طلب القرار من الكونجرس فن يرد طلبه في النهاية، وكان نائب الرئيس يؤيد هذا الرأي بقوة. أما سكروفت فقد التزم جانب الحياد. فقد كان يري أن القرار معيد لكنه غير إلزامي. وعارض تشيبي الفكرة معتبراً أن مضاعفات خسارة التصويت باللغة الخطورة ومجازفة غير جائزة. وطلب جون ستونو رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض ضرورة تجاهل الكونجرس قلالاً أنه يجب علي الرئيس أن يفعل ما يشاء.

ولو كنا قد خلسنا إلي أنه لا مجال لقرار تأييد فقد كان الرئيس مستعداً علي الدوام للاتفاف علي الكونجرس عند الاقتضاء وخوض الحرب بموجب المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، ووفقاً لقرار الأمم المتحدة بإجازة استخدام القوة. وفي إحدى المراحل درسنا التحايل علي المسألة باللجوء للفظي إلي قانون صلاحيات الحرب الذي يجهز للرئيس خوض حرب لتسعين يوماً بدون موافقة الكونجرس. وكان للبتاجون يؤكد لنا أن هذه الحرب ستنتهي في هذا الموعود. وحتى إذا ثبت خطأ هذا التقدير فن يكون هناك مجال لأسام للكونجرس للتصويت بوقف القتال بمجرد بدء العمليات. وفي النهاية توصلنا إلي أن هذه الهيئة ستبقى سابقة دستورية مروعة تلازم حرية الرئيس في العمل مستقبلاً.

وفي اجتماع عقد في كانون الأول ديسمبر مع قادة الكونجرس انتهى الجدل الداخلي عندما سأل أحدهم جورج بوش عما يريد. وقال الرئيس: مما أفضله هو أن ندع الكونجرس يبارك ما أؤشك أن أفعله.

مواجهة في الكونجرس

كنت أرى أن أي محاولة للحصول على تأكيد للكونجرس بعودة عن اليقين، وهو رأي عززته شهادة علي مدي يورمين أمام اللوبي المتشككين. ففي أواخر تشرين الثاني نوفمبر تلقيت دعوة من دالتي فاسيل رئيس لجنة الشؤون الخارجية، وعادة ما أفسهم أنا وفاسيل جيداً. وباعتباره ديمقراطياً محافظاً كان يُعد للصقور في معظم القضايا التي تمس الأمن القومي وكنت أعرف أنه سيؤيد الرئيس، لكنه قال لي بصريح العبارة إن هناك تصوراً في الكونجرس بأنني أتحالي علي الكونجرس برفض الإدلاء بالشهادة، وكان مصيباً في هذا. فقد كنت عازفاً للغاية عن إطلاع الكونجرس علي المعلومات المتطقة بالمفاوضات الحساسة التي أجريتها من خطط الطوارئ الخاصة بالحرب. وأعرف أن أي شيء ألقوه به حتي وإن كان في الجلسات الحكومية سيظهر في صحف اليوم التالي. وهكذا خفست إلي أن الأوقع أن أُغضب الكونجرس مؤقتاً علي أن أغامر بحدوث تسرب إخباري قد يخرج سياستنا عن مسارها ويهدد الانسجام الداخلي لتحالفنا الدولي.

وأبلغني فاسيل إن سياسة التجاهل الرقيق هذه قد وصلت إلي ما يسمي في الاقتصاد بتناقض الخطة. وقال: إنني أحرص لانتقادات الأعضاء، وأعتقد أنك في حاجة للظهور هناك. وسمعت نفس الشيء من بعض الحلفاء الجمهوريين أيضاً. وكمسألة عملية كنت أعرف أيضاً أنه لا يمكننا أن نطلب من الكونجرس قراراً تأييد قبل موافقتي أولاً علي الشهادة. وقررت المشرك أمام لجنتي للشؤون الخارجية بالجلسين في أوائل كانون الأول ديسمبر. وبترتيب مسبق تحدد هذان السعدان فيما بعد الانتهاء من التصويت علي قرار إجارة استخدام القوة

في مجلس الأمن الدولي . سوف يزودنا قرار الأمم المتحدة بمسد قوي لمطالبية للكونجرس
بذاييد الرئيس . وكنت أدرك أن ظهوري أمام الكونجرس سيكون واحداً من القفرص الأخيرة
المتاحة لإقناع الكونجرس المفرد بأن السياسة التي يعارضها بوضوح وهي الإعداء للحرب
-هي في الحقيقة الفرصة الوحيدة لضمان التصوية السلمية التي نعمل جميعاً من أجلها . وكنت
أعرف أيضاً أنه سيكون من الصعب ترويجها .

وفي شهادتي أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ في الخامس من كانون الأول
ديسمبر استعرضت الحجج الأخلاقية والتاريخية التي دفعتنا للتصدي لعدوان صدام من جانب
الرئيس ومن جانبنا جميعاً منذ آب أغسطس . ودافعت أيضاً عن حشدنا العسكري باعتباره
إجراء اعتدائياً حكيماً لتفضيه الضرورة للحفاظ علي مصداقية مساعدتنا الدبلوماسية . فلو
اعتقد صدام أن الخيار العسكري ليس إلا مجرد تهويل فإن ونسحب من الكويت مطلقاً . لكن
هدفي الأساسي كان أن هجرم صريح علي الحجة التي يتولوي الكثير من أعضاء الكونجرس
خلفها . وهي الفكرة الخاطئة بأن العقوبات ستؤدي حتما إلي خروج صدام من الكويت لو
مُست الوقت الكافي . وقلت : علينا أن نواجه حقيقة مرور أربعة أشهر علي نشوب هذا
الصراع ولم تطلع أي من جهودنا في ظهور أي بادرة علي تفور صدام . أعتقد أن علينا أن
نواجه الحقيقة الصعبة التي لا يمكن لأحد أن يقولها لكم . إن للعقوبات وهما لن نستطيع
فرص كلفة باهظة علي صدام حسين نصله علي الانسحاب . إنني شخصياً متشائم في
إمكانية قدرتها علي ذلك .

وتوقعت أن نجاح صدام في حمل الغرب علي الإذعان وإن يكفل إلا مزيداً من النزاع .
مزيداً من الصراع ثم حرباً شاملة في نهاية المطاف . وإن يكون هناك سوي أمل سلول أمام
أي جهد لتحقيق السلام في الشرق الأوسط .

واققتصادياً فإن عدوانه يمرض للخطر شرليين الحياة للسلام - النفط - ويهدد بحدوث
كساد ركود هنا وفي الخارج ، وينزل أفدح الضرر بالديمقراطيات الوليدة التي نستطيع
التعايش معها بالكاد . إن عدوانه ما هو إلا محاولة لوهم الأمل الاقتصادية لعالم ما بعد
الحرب الباردة في قبضة رجل واحد .

أما سياسياً، السيد الرئيس - أ خيراً سياسياً - فقولنا أن نخلع عن زعامة أمريكا - ليس لأننا نسمي إليها لكن لأنه ما من أحد آخر يستطيع الاضطلاع بالزعامة. إننا لم نقف متحدين لأربعين عاماً لوضع نهاية سلمية للحرب الباردة من أجل أن يجعل العالم آمناً لأطفال صدام حسين. وببساطة إنه اختار بين الصواب وبين الخطأ. للسيد الرئيس. أعتقد أننا نتحلى بالشجاعة والإقدام لعمل ما هو صواب. وكنت أريد أيضاً أن يفهم الأعضاء أنهم في الوقت الذي ربما كانوا مترددين في المشاركة فطبعهم أن يتأهبوا لدفع ثمن سياسي للجلوس على الهامش. بينما الرئيس يسعى للحل السياسي. وألقيت بهذا للقفاز بلغة محسوبة لا تثير خجلهم لأقولها صراحة: «إن هذه أحر أفضل فرصة للتوصل إلي تسوية سلمية. فإذا كان علينا أن نتهياً أماماً أي فرصة للنجاح فلا بد وأن أذهب إلي بغداد بتأييد تام من الكونجرس والشعب الأمريكي لرسالة المجتمع الدولي».



(يوم الجمعة الماضي اقترح الرئيس ليفلدى إلي بغداد، وأن ترسل العراق وزير الخارجية طارق عزيز إلي واشنطن كمحاولة أخيرة للتوصل إلي تسوية سلمية).

وكما توقعت كانت اللجنة ودودة.. لكن سرعان ما جث الحول نحو المواجهة. واتضح لي أن الأعضاء مهووسون بالتمسك بالمعقوبات باعتبارها المخرج الأسهل لدرجة رفض التفكير في فكرة أن المعقوبات لن تجدي نفعا في حقيقة الأمر. كان هناك تمسك قاطع بأرائهم. وتساءل اللائب الجمهوري فرانك موركوفسكي من ألاسكا ما إذا كان يتعين علينا عرض حق مبروك كويتي علي صدام. وهي فكرة مروعة لدفع «ثمن للجريمة» وافق عليها الديمقراطي بول سيمون من أليزوي وكريستوفر رود من كونيتيكت.

وكان أشد المتفكرين صراحة هو بول ساريانيس من ميريلاند وديمقراطي آخر أبلغاني أن رأي الإدارة بأن الرئيس الحق في خوص العرب بدون موافقة الكونجرس «يتعارض تماماً مع الدستور» ثم ما لبث أن أبدى دفاعاً مؤثراً عن المعقوبات.

وقال ساربانيس في صوت أقرب إلي الصياح: «يبدو أنكم وضعتونا علي طريق الحرب. وزعم أن تعزيز القوة وتحديد المهلة وبيان في الحقيقة أننا غير مهنيين بالتوصل إلي تسوية سلمية. لأن العقوبات ستتطلب أكثر من أربعة أو ستة أو عشرة أشهره للحصول علي فرصة عادلة، وهو جدول زمني أعرف أنه غير واقعي من الناحية العملية.

واتهم قائلاً: «إن هذا التعزيز للقوة بأخذكم إلي طريق لا عدول عنه نحو خوض الحرب. والآن لا يمكنني أن أطلب أي أسرة تفقد ابناً أو ابنة في نزاع يمكن أن يشب خلال الثلاثين أو التسعين يوماً للقادمة. إن هذا بجهش أي احتمال للتسوية السلمية قبل التوصل إليها لأن خيار العقوبات لم يستنفذ بعد.

«إنكم تلتهمون سياسة نژتي معلوها. فالعقوبات تصهره. والواضح أنها تصهره يوماً بعد يوم. وبدلاً من ذلك تخلفنا عن سياستنا وتعدونا الآن إلي نهج أعقد أنه يقودنا نحو الصراع. إن هذا هو الوقت الذي يحتاج إلي الدأب والعزيمة وتصميم عداة المسافات الطويلة. والأمر يحتاج إلي شجاعة مثل هذه التوعية. فأحر أفضل فرصة للتسوية سلمية. هو استمرار سياسة العقوبات لفترة طويلة كافية من الوقت لسنحها فرصة لتزني ثمارها.

واعتقدت أن هذا المنطق للإقناع ساذج علي أفضل تقدير. وقد حصل ساربانيس علي منحة ميشيل رونوس ويتمتع بخبرة عريضة في الشؤون للدواية. وكمسألة عملية إنه يعرف تماماً كما أعرف أنه سيكون من شبه المستحيل للحفاظ علي التحالف الدولي كل تلك الفترة التي يقترحها.

كان ساربانيس قد قال كل ما عنده لدرجة لم يجرؤ معها علي أن يطرح سؤالاً واحداً، لكنني لم أرد أن يمضي دون عقاب. وقت: «السيناتور. دعني أفل: إنني أطل من نافذتي بوزارة الخارجية صباح كل يوم لأري مقبرة أولينجتون الوطنية. إنني أعرف تماماً ما هو الخطر الكامن هنا، وأعتقد أن رئيس الولايات المتحدة يعرف هذا جيداً. لسنا من النوع المنهور. لسنا متهورين. السيد للسيناتور: إنني كوزير خارجية لوطننا الحبيب أدرك جسامة المسؤولية التي تنتظري وإن نألو جهداً أو نترك حجراً دون أن نقلبه بحثاً عن حل سلمي، ويسرنى إيلاذك بأن هذا هو ما نقطه، وهذا هو ما ستواصل عمله. لأن هذا هو ما نريده.

وسوف أبلغك أيضاً أنني أعتقد أن هناك مخاطرة في إسامة تقييم ما يمكن أن يقودنا إلي التوصل إلي حل سلمي. وما لم يمكننا إقناع هذا الديكتاتور بأن التهديد باستخدام القوة تهديد جاد، وأنه يجازف بإمكانية طرده من الكويت إذا لم يترك الكويت سلباً. فإننا لن نتوصل إلي تسوية سلمية.

وفي اليوم التالي أدليت بشهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب التي كانت أقل تسليماً. ومثل نظرهم كان الشك يساورهم تجاه تعزيز القوات وأظهروا تفضيلهم لخيار العقوبات.

ووصلت جلسة الاستماع إلي أدنى نقطة عندما غابار فاسيل وكبار الأعضاء الديمقراطيون الآخرين الغرفة مسلماً رئاسة اللجنة إلي بيتر كوستماير من بنسلفانيا. وباعتباره عضواً صغيراً في اللجنة سيمسح لكوست ماير في الأحوال العادية بتوجيه أسئلة لمدة دقائق. ومع ذلك وباعتباره قائماً بأعمال رئيس اللجنة فبوسعه التأثير علي اللجنة متى شاء. وخلال المثلث عشرات للمرات أمام لجان الكونجرس لسنوات تطمت توخى الحذر عندما يبدأ عضو معارض حديثه بإشارة كديبة، وهكذا فقد انقطعت إيماءة بما سيحدث عندما يبدأ كوستماير بالإشادة، باقتداركم أنت ولزئيس في حشد وتحريك القوات الدولية ضد صدام حسين، ثم بعد قراءة مقتطفات من كلاوزيفيتس عن الحاجة إلي موازنة كلفة الحرب بقيمتها السياسية، سأل: هل أنتم مقتنعون علي نقيضنا باعتباركم وزيراً للخارجية ومواطناً دأب بأن هذا الموضوع يستحق فقد ثلاثين أو خمسين أو مئتين ألف جندي أمريكي؟

كان سؤاله مجرد تهديد وإثارة تستهدف جذب العلانين. وحتى في أسوأ السيناريوهات أشارت تقديرات البنتاجون إلي أن الخسائر البشرية تبلغ عدة آلاف. ووقف شحراً رأسي لمدي العناد اللبادي في هذا الهجوم الخريص. وقال لي معاوني للجالسون خلفي في وقت لاحق أن قفاي احمر بشدة خلال المداخلات التي تلت ذلك.

وردت: «إن هذا مجرد سؤال افتراضي ليس له أسس أعرفه في الحقيقة».

وأصدر قائلاً: «إن عدم سؤال نفسك هذا السؤال كرجل ربما يكون مشاركاً في اتخاذ هذا القرار، بالنسبة لي أعتقد أنه سوف يكون بكل الاحترام للولجب، سيدي، موافقاً غير مسؤول».

ورددت وحرارتي فرفعت: «بالطبع عليك أن تفعل. وعليك أيضاً أن تسأل نفسك أسئلة بالغة الحساسية أيضاً عن السدة التي تعتقد أن الاشتباك قد يستغرقها. لكن ليس عليك أن تفعل هذا في منتهي عام».

وواصل كوستماير لجنه السياسية إنه أداء كلاسيكي: «عندما تكف عن ضرب زوجتك». وفي الحقيقة فقد أراد أن يعرف متى قدر الخسائر في حرب بالفليج. وكان الكونجرس يمتزم مواصلة السعي لانتهاج سياسة الاتجاه المضاد. وكان أسهل طريق لعمل ذلك هو تعظيم صورة أكياس الجثث في أخبار المساء. فقد كان يعرف كما أعرف أن الإجابة الوحيدة المناسبة هي أن فقد روح واحدة كثير للغاية.

ولازال مصراً علي محاولة معرفة رقم متى وقال: «يبدو لي أنها إذا كانت ستكلف - ولا أعتقد رغم أنه ليس لدى أي فكرة ٢٥٠ ألف جندي ليس الأمر مهماً؟ ألا يستحق الأمر. فمن أجل ٢٥٠ ألف عليك أن تتحدث حول تلك القضية؟»

ومصمماً علي عدم إعطائه إجابة قلت: «حينئذ سوف أحيل السيد كوستماير إلي قيادة للجيش حيث هم فقط الذين يمكنهم تقديم تقييم معقول في هذا الصدد». ورد كوستماير بالإدعاء بأن قادة الجيش مثل الأدميرال كروى شهدوا بأن ترك العقوبات تؤتي ثمارها هو أفضل نهج سياسي. واعتدنت قائلاً: «إن هذا يمثل نسبة خمسين في المائة من تقييم سياسي». فقد أدبت للقول إنه خلال توليه رئاسة هيئة الأركان لم يرد كروى مطلقاً استخدام القوة العسكرية في أي مكان أو زمان وبأي شكل بغض النظر عن فوائده. لقد كان لديه دائماً سبب لضرورة عدم اعتماد للقوة. قبل نحو عقد من الزمان عندما فكر الرئيس ريجان في استخدام القوة في جرينادا استصحت إلي كروى في حديث خاص بعراض الغزو الذي نفذ لاحقاً من منطلق الولجب، وأسدرت لنفسى بالقول بأن كروى وأمثاله من المعتقدين هم عسكريون ممتازون. ونفخت بأنهم ليسوا خبراء بارعون في المسائل السياسية. وقال

كوستماير: هل هناك سؤال أهم طرحه من كم عدد الأمريكيين - للميد وزير الخارجية - الذين سيموتون في الخليج إن ذهبنا للحرب.

وردت بعدة: «كفى» دعى أبلغك بالوقت الذى يتعين السؤال فيه. إن السؤال ينبغي طرحه عندما وإذا أُتخذَ قرار باستخدام القوة. هذا هو الوقت الذى يجب طرح السؤال فيه ومن المناسب أن يوجه - إذا جاز لى القول - إلي القادة العسكريين».

ويشكوي زائفة لم تكن للقضية قد عولجت بعد أن استسلم كوستماير وشأن معظم المراجعات مع الكونجرس انتهت هذه المواجهة بالجمود. فلم أحدد له رقماً عن حجم الخسائر البشرية. لكن صوته كان عالياً في برامج للتلفزيون. وكنت أعتقد أنه نوع رخيص جديد من الهجمات، وأُغضبني بشكل خاص استناده أننا غير مباشرين بإرسال الجنود الأمريكيين ليلقوا حتفهم. وتساءلت بيني وبين نفسي - أثناء حدوث هذه اللعبة للرخصة - كيف كان كوستماير سيتصرف لو تبدلت الأدوار، وفي هذه الحالة لعل كوستماير بالصبط ما بينهما - بصله أى بالتلاعب بأوراق جنودنا. لقد كانت إسامة بالغة لهم ومضايقة للكونجرس والإدارة لم أكن معنياً بالتصامح حيالها في المستقبل، وفي المرة التالية حين طُلبت منى للشهادة أمام اللجنة بعثت برسالة إلي فاسيل تستفسر عما إذا كان شخصاً مفوضاً سيؤدي رئاسة الجلسة طيلة الوقت لضمان السيطرة علي الإجراءات.



وحلال بقية كانون الأول ديسمبر تابعنا جميعاً القضية في الكونجرس الذى تأجلت جلساته في أواخر تشرين الأول أكتوبر. وعملت عدة عناصر لصالحنا ليس أقلها تصيب صدام مع وساطات التسوية وآخرين، وصوتت الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر بأن إجازة استخدام القوة باتت عنصراً إلزامياً. والتصويت ضد الرئيس فلان الكونجرس لن يولى ظهره فقط لالتزام أمريكا التقليدي بتأييد قرارات الأمم المتحدة. بل إنه سيستخف

بإرادة المجتمع الدولي، وشكل مئات الجنود الموجودين بالفعل في الصحراء مشكلة حادة لأولئك المعارفين عن تأييد الرئيس، وإذا بدلت الحرب وثارت الصحاريات فسوف يتعرض الأعضاء للانتقاد إذا رفضوا تأييد الرئيس.

وجاءت المساعدة أيضاً من أقوى أنصار إسرائيل في الكونغرس. كان الكثير من هؤلاء من الديمقراطيين أمثال السيناتور آل جور وجوى ليبرمان والواب لوس أسبن وسناترين سولازر. وقد نظر بعضهم إلى الرئيس على أنه الشك اعتقاداً منهم بأننا ملأنا نحو للعرب أثناء محاربتنا إحياء عملية السلام في الشرق الأوسط العام الماضي. وما يدعو للسخرية مع ذلك أنهم كانوا سريعي التأثير بالإقناع لصديق الأفق - فمن وجهة نظرهم فإن الحرب في الخليج - رغم أنها ربما لا تكون احتمالاً مرغوباً فيه يمكن أن يكون لها أثر جانبي مفيد فسوف يتم تدمير أقوى تهديد لأمن إسرائيل. والسياسة حقاً تصنع المعالجات. فالكثير من الأعضاء غير المؤيدين في المعتاد أبدوا مبادرات الإنارة في الخليج.

وربما كان العنصر الحاسم هو عرض إيفاد بيكر إلى بغداد، وعزيز إلى واشنطن في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر. وهذا الأخير هو أن يظهر للكونغرس وللشعب الأمريكي وللأريخ أننا لا زلنا نبحث عن طرق تجلب الحرب لا شح حرب. وعندما فشل اجتماعنا في تحقيق انفراج بدأت المعارضة في الكونغرس في التراجع.

وبعد ثلاثة أيام في ١٢ كانون الثاني يناير صوت الكونغرس على تفويض الرئيس بشن الحرب في إطار قرار الأمم المتحدة. ووافق مجلس الشيوخ على القرار بأغلبية ٥٢ مقابل ٤٧ وكان حدوث أي تغيير في الأصوات سيغير النتيجة. وبات لدينا الآن ما وصفه توم فولي رئيس المجلس بما يرقى عملياً إلى حد إعلان الحرب. وكل ما بقي للأسف هو أن نستخدمه.

الفصل التاسع عشر

آخر الفصل فرصة للسلام

للأسف ...

الوزير بيكر

في مؤتمر صحفي عقب اجتماعه مع طارق عزيز

٩ كانون الثاني يناير ١٩٩١

عندما كنت طالباً أدرس للكلاسيكيات في جامعة برينستون أتذكر قراءة مؤلف المؤرخ اليوناني ثوسيديدس حرب بيلوبونيسيان. وما من شك في أن أي جهد من جانبي كان دفعه لـ هذه قراءة مطلوبة لدواع دراسية. وفي تلك الأيام كنت أكثر ميلاً للتركيز على استراتيجيات لعب الرجبي من التركيز على أرفق مكتبة فايرستون. كان شرح ثوسيديدس في بلاغة، إن ما جعل الحرب حتمية هو تنامي قوة أثينا وما سببه هذا من خوف في أسبرطة، تعبيراً رائعاً عن الواقعية السياسية. علاوة على ذلك فإن ثوسيدديدس واحد من أوائل المؤرخين الذين فكروا فيما إذا وكيف كان يمكن تجنب حرب وقعت بالفعل: أي ما هي الحالات المحددة التي تؤدي إلى وقوع الحرب؟ ما هي الفرصة الأخيرة المحتملة لتجنب وقوع الحرب؟ متي نضع الإرادة الإنسانية والرغبة في الحفاظ على السلام الطريق أمام الكارثة وتدعو الضرورة لشن الحرب؟

وبالنسبة لدارس فإن تلك أسئلة منطوق وأدلة. أما بالنسبة لرجل دولة يستند للواقع لإنهاء أسئلة العاطفة والغفلة. أما بالنسبة للجندي الذي يصل في ظل الخطر هلا مجال لكثرة الأسئلة لكثرة الأوقات التي يصبح فيها المستقبل المرعب واقعاً خطراً.

وخلال أزمة الخليج ظهرت لي الإجابة على تلك الأسئلة في ذلك المساء الصافي المنعش في جنيف عندما انتهت اجتماعي مع طارق عزيز بمقابلة إنتركونتيننتال توجد بيننا على الطاولة رسالة الرئيس بوش إلي صدام حسين. فلم يمنع إنذارنا النهائي للكارثة التي نوشك على أن تحل بالشعب العراقي. وحتى ذلك الحين كنت أعتقد أنه بقدر أهوال الحرب يبلج الأمل في السلام بأن العراق سيُفسح من الكوييت بدون استخدام القوة. ومنذ ذلك المساء أدرك قلبي ما أعطته عقلي من حسابات قبل زمن طويل: أي أمريكا ستخوض الحرب في الخليج، وإن مهمتي كدبلوماسي لن تكون بعد الآن محاولة للتوصل إلي حل سياسي ومن ثم منع الحرب، بل ستكون مساندة المجهود الحربي للغزو بالحرب. أما كيف توصلت إلي هذا الرأي فإنه رحلة غير مباشرة من تصويت الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠ بإجازة استخدام القوة لإنهاء العدوان العراقي.

ويرجع أساس لقائي بطارق عزيز إلي محادثة أجريتها مع الرئيس بوش مساء التصويت التاريخي في الأمم المتحدة. فقد تحدثت إليه من غرفة في الأمم المتحدة. كان سعيداً بالتأييد

المساحق للقرار ٦٧٨ وأراد استملاء الخطوات التالية. وقال: «أريد أن أتحدث معك عن فكرة طرأت على عقلي، وكنت أعتقد أنني أعرف ما يدور بعقله لأننا بحثناها بشكل عابر من قبل. ولكن لأنني كنت في غرقة يوجد بها آخرون ولم يكن الخط الهاتفي مؤمناً رددت بحذر. وقلت «لدي بعض الأفكار عن كيفية حشد الدأييد الداخلي، وما نحن الآن قد حصلنا علي الدأييد الدولي». واقترح أن يكون أول ما نفعله صباح اليوم التالي أن نجتمع مع سوكوكوفات.

ومن هذا الاجتماع الذي استغرق ساعتين ظهر الاقتراح الذي فكر فيه الرئيس علي مدار ثلاثة أسابيع: وهو بذل محاولة مباشرة وجهاً لوجه للفادي وقوع الحرب في الخليج. وكانت هذه المبادرة أكبر مفاجأة في أزمة الخليج بأسرها. بل إنها أكثرها جدلاً علي الإطلاق. فقد أثارت حيرة ونحول استدقالتنا وأدخلت السرور علي قلب منتقدينا وزادت الهمس عن ضعف تصميم أمريكا. وعلي الأقل فقد قوسيت مؤقتاً مصداقيتنا لدي بعض شركائنا في التحالف. وهأت لصدام حسين فرصة دعائية. ولم تعط المبادرة بقبول عدد آخر من أعضاء وزارة حرب الرئيس وآخرين من أقرب معاوني.

ومثلما كان إعلان تعزيز القوة في ٨ تشرين الثاني نوفمبر نقطة التحول في الحشد العسكري والقرار ٦٧٨ مفتاح دعم التحالف الدولي، أصبح اجتماعي مع طارق عزيز نقطة تحول في بناء الإجماع الداخلي. وعقب الاجتماع سيفوض الكونجرس الرئيس في استخدام القوة، وسيضع التحالف اللسعات النهائية وسيبدأ للجيش في التحرك.

عرض بيكر إلي بغداد، عزيز إلي واشنطن

حتى أواخر تشرين الثاني نوفمبر لم تكن قد حققنا إجماعاً داخلياً وراء استخدام القوة. وعقب تصويت الأمم المتحدة وجد الرئيس نفسه في موقف غريب. فقد كان مقتنعاً كل الاقتناع بضرورة شن الحرب إذا لم يحسب صدام حسين بحلول الخامس عشر من كانون الثاني يناير. لكنه عاجز حتي الآن عن جمع الكونجرس والرأي العام بفئات حوله.

وعقب محادثتي مع الرئيس بعد نصويت الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر استقبلت وزراء خارجية الدول الخمس دقمة العنصرية علي عشاء في فندق والدورف إسبوريا. كان العشاء قاسراً علي وزراء الخارجية فقط. فلا عاملين باستثناء المترجمين. وهدى من إقامة العشاء هو توجيه الشكر إلي شيفرنالزة وهورد وديما لصمودهم وممارسة قدر من الضغط القوي علي نشيان لاستمرار موافقته واستشرف خبايا المستقبل المتاحة.

وتحقاً من مأساوية اللحظة انهكنا في بعض المزاح ونحن نتناول الكوكبيل أثناء انتظار وصول نشيان. وقال ديما مازحاً: «إننا سعداء لعدم تولي دوجلاس رئاسة للوزارة. لأننا لا نريد فص مجموعتنا التي ألفت بلاء حساء. ورد هورد: «أعتقد أن الكي جي بي لها دخل في الأمر ليس كذلك؟» ورد شيفرنالزة بوجه جامد: «إن أقول الآن. ولكن عندما أكتب مذكراتي سيتمين علي قول الكليزه ومع حفوت الضحك أعاد شيفرنالزة دقة الحديث إلي الأرض الجادة التي يتعين علينا أن نتوصل لحل لها: وهي كيفية تجنب نشوب للحرب التي حصلنا علي إجارة لشنها: «علينا أن نكتف بما. لأن صدام يعرف كيف يلعب علي ما بيننا من تناقضات. إنه خطير لا يمكن توقع تصرفاته».

وأضاف ديما: «يجب علينا أن ندعه يعرف حقيقة مشاعرنا. لقد تلقيت معلومات ولدي الآن انطباع بأن معاونيه لا يظلمونه بالقدر الكافي. فهذا دلب كل ديكتاتور. فهو لا يريد أن يسمع ولذا لا يتم إبلاغه بالكثير».

وقال هورد: إن دي كويار للسكربتير العام للأمم المتحدة «يسل في غموض» لكنه يحترم القيام بزيارة للمراق في غصون أسبوع. وكنت أعتقد أن من لهم تأييد مهمته. وقلت: «انظروا. إننا نعرف أنه للأسبوع الأول سوف يضرب صدام صدره وينتقد القرار. فوولان يقول إنه يشعر بأنه لا يتم إطلاع صدام بالقدر الكافي، ويقترح احتمال أن وسلم دي كويار نسخة من القرار رقم ٦٧٨ لصدام مباشرة».



وتشكك شيفرنادزة ربما كان الوضع كذلك . لكنني لا أفكر هكذا . إنني أعتقد أنه يفهم ويعرف حقيقة ما يدور . نعم ، ربما يحيط به المتعلقون لكنه يعرف حقيقة ما يجري في العالم . إنه يعرف للعب علي للتناقضات بيننا . وهكذا فعلينا أن نلتقي نحن الخمسة فيما بيننا . علينا أن نقول هذا عبر السكرتير للعالم للأمم المتحدة أو آخرين لكن المهم أن يعرف صدام صاماً أننا نحن للخمسة نتصرف في توحده .

وما إن فرغ من هذه الكلمات حتي ألقى علي طاولة العشاء فكرة لم نفهم عنها شيئاً سلفاً فكرة اعترف بأنه لم يبحثها مع جويل الطوف . وعرض اقتراحه قائلاً : لماذا لا ن عقد قمة لرؤساء الدول الخمس دائمة العضوية قبيل بضعة أيام من انتهاء مهلة الخامس عشر من كانون الثاني يناير . وأبدي هيرد تشككه . وتدخل قائلاً : علينا أن نعرف ماذا نتوقعه من قمة من هذا القبيل . ورد شيفرنادزة : إن مجرد حقيقة إمكانية عقد هذه القمة سترتب آثاراً هائلة . يجب التفكير فيه . إننا في حاجة لتلقي تطمينات من زعمائنا .

ورأني دوماً في الاقتراح طريقاً لصنع عدم انشقاق الصيديين علينا مرة أخرى . وبراءة اقتراح احتمال عقد هذا الاجتماع في بكن . وهو اقتراح يستهدف بالتأكيد إرضاء غرور الصيديين . وإذا لم يتيسر إقناع الزعماء . فيحتمل أن يتحس علينا نحن الخمسة الاجتماع في الصين لإصدار إعلان مشترك .

وأصر شيفرنادزة علي القول : بأن اجتماع القمة سيكون في حاجة لإعطائه تطمينات بأن أحداً لن يهاجمه . فالأمر يستحق بحق للتفكير فيه . فإذا انسحب وإذا أظهر زعماء دولنا للخمسة احتراماً له فسوف يمسون شفاف كبيراً .

كانت هذه واحدة من المرات للقليل أثناء الحرب التي أشر أن شيفرنادزة يخدع نفسه . فحذر وساطات كثيرة أوضح العراقيون رأيهم بأنهم يخشون تعرضهم للهجوم حتي إذا بدأوا الانسحاب . وكانت أعتقد أنها خدعة جوفاء أخرى يقوم بها صدام لكسب الوقت بإقناع الحلفاء بأنه سيانسحب . وقلت بحدة : إن هذا ليس مجرد انقاذ لمام وجهه . بل إنه إنقاذ لمؤخرته . وجلس تشيان صامناً طيلة الحوار . ثم قال : إن صدام يريد مكافأة علي لانسحابه من الكويت . ويريد ضمانات بعد هذا . إنه يريد ضمانات بأن أحداً لن يهاجمه . إنه خائف من

الحرب . وأكد تشييان اهتمامه بإجراء مباحثات مباشرة بين الولايات المتحدة والعراق لتوجيه الرسالة بأنه إذا انسحب صدام فإن قوته المتسحبة لن تتعرض لهجوم التحالف .

وقال هيرد : «إن صدام يخشى أولاً وأخيراً الولايات المتحدة وليس المملكة المتحدة أو فرنسا أو للعربية السعودية . واقترح أن يوجه الرئيس تمهيداً بضممان سرى في هذا الصدد لبخلد علي أن يتم البدء في توريد نفس الشيء علناً لثلاثة أسابيع قبل انتهاء المهلة .

وقال شيفرناذر : «لأننا أعتقد أنه سينسحب من الكويت . ويتعين أن يذهب المكترير العام إلي بغداد . ثم نعطيه جميعاً نفس الرسالة بشكل منفرد . (بأنه لن يهاجم إذا انسحب من الكويت ثم نرسل جميعاً في الأول من كانون الثاني يناير بنفس الرسالة سواً) .

وأبدي دوما موافقته ، وقال : هل هناك ضمان أفضل بأنه إن يتعرض للهجوم أفضل من سماعه من الدول التي تقود مجلس الأمن ؟ وعطيه أن يأمل في أنه سينجو بالمصير الكامن فيما نقدمه له اليوم .

وانتهى عشاؤنا دون للتوصل إلي نتيجة حاسمة شأن الكثير من العشاء الدبلوماسي بدون خطة عمل حقيقية سوى الاتفاق علي تبادل المشاورات خلال الأيام القادمة . وكان من الواضح أن أحداً لا يترحم السماح بأن تتحول الأيام الخمسة والأربعين المتبقية «كمهلة للسلام» إلي فترة توقف حقيقية في دبلوماسية معاملة أزمة الخليج . ومن جانبي اعتقدت أن اجتماعاً بين الدول الخمس دائمة العضوية والمراقبين يطوى علي مخزي هام لكنها فكرة لا ينصح بها ، وصيغة تؤدي إلي فقدان السيطرة علي جدول الأعمال الدبلوماسي . ففي مثل هذا الاجتماع ستعرض الولايات المتحدة بالتأكيد لضغوط الضول عن القرار الذي أقره مجلس الأمن بالكامل لغوه .



وفي اجتماعنا صباح الثلاثاءين من تشرين الثاني نوفمبر في المكتب الليبيناوي أبلغني الرئيس لنا وسكوكروفت أنه يشعر بأن عليه التزاماً بنقسي احتمالات إجراء مباحثات مباشرة

مع العراق، وأن صيغة مثل هذه المباحثات تراود عقله لعدة أسابيع. واستبعد فكرة عقد اجتماع مع صدام نفسه، لكنه مستعد لاستقبال طارق عزيز، وأنه يريد مني الاجتماع مع صدام حسين. وقال الرئيس: «إذا خاف من الموقف منك أنت فسوف يعرف أن التهديد حقيقي».

كانت فكرة اجتماع «الفرصة الأخيرة» علي مستوى رفيع يروج لها في واشنطن بأشكال مختلفة. قبل ثلاثة أيام اقترح لي هاميلتون أحد أشكالها. وكان اقتراح الرئيس حسبما تمي النادرة - إن لم يكن توقعه شبه متوقع فالمباحثات المباشرة هي التعبير الأخير عن النمط الشخصي لجورج بوش في الدبلوماسية والسياسة. أما وقد اجتمع مع كل من تانشر وميلران وجورجيا تشوف وفهد ومعظم رؤساء الدول الآخرين المشاركين في التحالف، فإنه يريد الآن إعطاء دفعة شخصية أخيرة مع الخصم.

ومعني الرئيس إلي القول إنه إذا شاهد صدام حسين جلسات استماع الكونجرس في شبكة سي إن إن فربما شك في صدق حزيمتنا وواقفته، ففي الحقيقة وخلال جلسة مجلس الأمن في اليوم السابق استشهد مندوب العراق لدى الأمم المتحدة بأقوال السيناتور بوب كيري من نبراسكا، والتي ورد فيها أن تحولنا إلي استخدام القوة «خطأ يهدد احتمالات إقامة نظام عالمي جديد لصالح تكتيكات وأساليب النظام القديم. وبدلاً من الاعتماد علي الدبلوماسية والتعاون والتنظيم متعدد الأطراف لتدفق الأسلحة. سوف نلجأ أساساً للاعتماد علي القوات الأمريكية ومبيعات الأسلحة الأمريكية». فضلاً عن ذلك فإن صدام ربما يكون قد أخطأ قراءة التاريخ. إنه مأخوذ بتجربتنا في فيتنام، وأنه مثل حافظ الأسد يعتقد أن السعابدا من بيروت عقب انفجار ثكنات مشاة البحرية في بيروت في تشرين الأول أكتوبر عام ١٩٨٣ أظهر أن نفس الأمريكيين قصيره وعلي نقبض الأسد كان صدام يريد اختبار هذه الفرضية بطريق ملير ينطوي علي مغامرة كبيرة.

وواصل الرئيس حديثه بالتأكيد علي الكيفية التي سينظر بها التاريخ لأفعاله، ومع اقتراب الحرب كان يمكن بتقدير متزايد كيف سيتم الحكم علي أفعاله، ولا سيما ما إذا كان قد بذل قصاري جهده لتجنب اندلاع الحرب. كان بوش ملتزماً تمام الالتزام بالحرب إذا اقتضت

الضرورة، وقد عبر هذا الحاجز الشخصي قبلنا جميعاً. فالذهاب إلي الحرب هو آخر ما سمي إليه. فكل ما كان يهدف إليه حقاً هو خروج العراق من الكويت. وبينما أنا أصنى الحديث الرئيس تذكرني بحديث في هلسنكي في أيلول سبتمبر عندما أبلغنا جميعاً أنه وضع رجالنا ونساءنا في المسحراء، وأنه هو المسؤول أخيراً - وأنه إن يصرح أولهم للخطر مالم يشطر إلي ذلك.

وأحسنت أن الاقتراح يطوى علي ثلاث ميراث بديوية. **أولها** أنه سيمثلنا آخر فرصة دبلوماسية لتجنب الحرب. فإن اجتماعاً مباشراً ربما يولد ضروراته السياسية والعنسية التي قد تدفع صدام إلي الانسحاب. فبالتأكيد سوف يمنحه فرصة يمكن أن يستغلها لتجنب الحرب إن كان يريدنا. وإذا لم ننجح في إقناع صدام بالانسحاب في المفاوضات المباشرة حينئذ فلن يستطيع أحد التشكيك في أننا بذلكا قصصنا جهنماً. وسوف يساعدنا هذا في التعامل مع السوفييت والآخرين المترددون في استخدام القوة. وفي موسكو بشكل خاص سوف تملأ مبادرة الرئيس نفسهوراً لجمهورياتشوف بأن بوسعهم تلجيم المتشددين مثل ونجيني بريماكوف الذين يحاولون التدخل في لخط للصامم للذي لتحمه شيفرنازة تجاه أعمال قرارات الأمم المتحدة.

ثانيها سوف يساعدنا هذا الاقتراح دليلاً. فلو اجتمع الرئيس بطارق عزيز، وذهبت أنا لبغداد فلن يجرؤ - حتي منقذونا - علي القول إننا لم نقطع ما قال الرئيس مراراً: إنه الميل الأخير في بحر السلام. ومع وقوف الأمم المتحدة ورامنا بحزم لن يجرؤ عضو في الكونجرس بسندق علي معارضة الحرب إذا لم نطرح هذه الاجتماعات رفيعة المستوى في حمل العراق علي الانسحاب من الكويت. وللمفارقة، فبوسعنا بمجرد عرض عقد مثل هذه الاجتماعات أن نأمل في ضمان تحقيق الإجماع الداخلي الضروري فتن الحرب.

وأخيراً سيظهر الاقتراح أننا نعمل شيئاً آخر لا مجرد الإعداد للحرب مع اقتراب المهلة من نهايتها. كنت لأرسل مشغولاً تماماً بالحديث الذي دار الليلة السابقة في عشاء وزراء خارجية الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن حول اجتماع رفيع المستوى للأعضاء الخمسة دائمي العضوية في المجلس. وأحسنت أنه بدون مبادرة دبلوماسية من جانبنا

مسيكون من الصعب الحفاظ علي تماسك ووحدة التحالف الدولي في وجه الاقتراحات المطروحة من مختلف أنحاء العالم للتوصل إلي تسوية سلمية -ومعظمها سيتضمن بالضرورة تخفيف قرارات الأمم المتحدة.



وتعضح قلقي من حدوث جمود في وقت سابق من صباح اليوم عندما ظهرت في برنامج صباح الخير لأمريكا الذي تبثه شبكة إيه بي سي، وقبل أن أظهر علي الهواء سمعت السكرتير العام للأمم المتحدة يؤكد في حديث أنه يتعين عدم إهدار أي فرصة لإحلال السلام في الفترة المتبقية علي يوم الخامس عشر من كانون الثاني يناير. وبدأ علي سؤال تشارلي جيسون عما نص بصدد عمله في الأيام السابقة علي الخامس عشر من كانون الثاني يناير قلت «إن هذا لا يعنى أننا سنهزمك في خمسة وأربعين يوماً من الاسترخاء.. لكنه يعنى أننا سنعيش خمسة وأربعين يوماً في بذل جهود شاقة وأمانة وجادة بحسن نية في محاولة للتوصل إلي تسوية دبلوماسية وسياسية وسلمية لهذه المشكلة». والآن ونحن في المكتب البيضاوي نأكدت أننا إذا أخذنا زمام المبادرة يمكننا السيطرة علي أي مباحثات رفيعة المستوى. أما وقد جاهدنا للحفاظ علي تماسك التحالف شخرت بالتلق من أن حدثا آخر قد يهدم لإحداث أثر عكسي علي التحالف، ومن ثم يقلص مساحة قدرتنا علي العمل.

فخسة وأربعين يوماً يمكن أن تكون دهماً.

وشكلت العصبية سكوكروفت من الفكرة، ونمأل قلقة لاسمعي في أن مثل هذا النهج الشخصي قد يستغل من جانب صدام، وقد يساهم في تعقيد أو تأجيل التخطيط للمعركة. وتساءل: «ماذا نفعل، إذا سحب بضعة آلاف من جنوده وعرض الانسحاب إذا فطنا نفس الشيء؟». وعلمت فيما بعد أن التلق ساوره مع آخرين أنه بمجرد أن أذهب للتباحث مع صدام حسين - مع كل هذا التركيز العالي علي اجتماعي - فسوف تقودني غريزتي الطبيعية للتفاوض والعودة بحل وسط. وفي هذه النقطة كانوا علي خطأ تام. فمنذ البداية كنت من

أبصار وجهة للنظر للقائلة بأنه لا يجب علينا ولا يمكننا التفاوض -حقاً- حول التراجع عن قرارات مجلس الأمن التي عملنا جاهدين لاستصدارها -فمصادقية الولايات المتحدة في خطر-

ورغم معارضة سكروكروفت الصامدة قرر الرئيس للمضي قدماً في عزمه، وعكف ثلاثتنا بسرعة في إعادة صياغة بيان كان للرئيس قد أعد مشروعه شخصياً الليلة الماضية. ولتأكد من عدم وجود تلموحة واحدة عن استعدادنا للتوصل إلى حل وسط مع صدام أضفت العبارة التالية إلى مشروع البيان، «لكن دعنا نكن واضحين عما إن تحدثت عنه - وهو التراجع عن قرارات الأمم المتحدة-، ليس هناك ما نحن مستعدون لعله لصدام حسين ما لم ينسحب المراق. فلا يمكن أن تكون الولايات المتحدة قد قامت التزام في الأمم المتحدة لاستصدار قرارات مجلس الأمن ثم تلف حولها وتخلفها من جانب واحد في مفاوضات مباشرة مع العراقيين-

وفي الساعة العادية عشرة صباحاً توجه الرئيس إلى قاعة المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض، وأعلن أنه مستعد للقاء طارق عزيز في الأسبوع الذي يقع فيه الاطش من كانون أول ديسمبر، ثم يرسلني إلى بغداد لقاء صدام حسين «في وقت مناسب للطرفين» ما بين الخامس عشر من كانون الأول ديسمبر حتى الخامس عشر من كانون الثاني يناير ١٩٩١ أي في نهاية المهلة التي حددتها الأمم المتحدة للانسحاب العراقي. إن تكون هناك تنازلات لإغراء صدام للانسحاب من الكويت، وإن تصدر إيماعات لإنقاذ ماء الوجه. فالانسحاب غير المشروط هو البديل الوحيد للعرب. فعزمه مجرد محاولة أمام العالم هذه المرة «لقطع السيل الإضافي نحو السلام» لأن جورج بوش وحرب دوناً عن أي أحد آخر أننا مدينون لرجالنا ونساءنا للبراسل في الخليج وعائلاتهم في الوطن بأنه لم يترك حجراً إلا وقبّه بحثاً عن تسوية سلمية.

النتيجة ، التضارب مقابل الإجماع

أثار إعلان الرئيس للتناقضات بين متطلبات التحالف الدولي وبين تحقيق إجماع داخلي. ولم يكن وقع القرار جيداً لدي بعض أصدقائنا الذين شعروا بالضييق لعدم استشارتهم

سلفاً وتعامل بعض شركائنا في التحالف عما إذا كانت مهلة الخامس عشر من كانون الثاني يناير مهلة حقوقية، وساهم المرض في إثارة تكتلات بين العديد من حلفائنا الأمريكيين والعرب بأننا لا نريد حقيقة استخدام القوة، وأننا نطلع جاهدتين لتجنب هذا الطريق.

وخلفت الحاجة إلى السرية أجواء تصارب استغرقت منا بضعة أيام لتبديدها. ويحتمل أن يكون من الحقيقي أن صدام أساء تفسير مبادرتنا واعتبرها مؤشر ضعف.

وفي الوقت نفسه فقد أعادت المبادرة طمأنة حلفائنا الذين يتسمون بالحداد مثل الكويت والفرنسيين بأننا غير ملتزمين في تهور نحو العرب. ومكثنا أيضاً من القول بأنه لا يجب شل يد الرئيس بواسطة الكونجرس قبل مبادأت في وصفه آخر أفضل فرصة للسلام.

ومن بين حلفائنا كان السعوديون والكويتيون أكثر قلقاً بشكل خاص خشية أن تؤدي المباحثات إلى السيناريو الكابوس بانسحاب صدام من الكويت ولقمة العسكرية سليمة. وكانوا غير سعداء أيضاً لعدم إخطارهم مسبقاً. وبعد ثلاثة أيام من الإعلان عن المبادرة اجتمعت مع وزير الخارجية الكويتي والسفير الصباح بمقر الخارجية الأمريكية لطمأنتهما بأنه ليست لدينا أي نية للتراجع، ولبلغته بأن الحاجة لالتزام السرية كانت عسراً بالغ الأهمية لدرجة أنني لم أبلغ الأعضاء الخمسة دائمى المصنوية في مجلس الأمن سلفاً. وتراجع قلقه بعض الشيء عندما أبلغته - أنه رغم رغبتنا في التوصل إلى تسوية سلمية - فإن إحساسي الخاص يقول إنه ربما نضطر لاستخدام القوة.

وناحلياً روع الاقتراح الكونجرس. ودخل الديمقراطيون الذين استماتوا في معارضة العرب: فكيف يمكنهم معارضة رئيس يؤيد تحالف دولي غير مسبوق ويرغب في الإقnam علي مثل هذه المقامرة الكبيرة من أجل السلام؟. وكنت أعرف أيضاً أن الاقتراح عمل لإصلاح الضرر الناجم عن جلسات الاستماع في الكونجرس التي رأسها سام نان والتي شهدت أيضاً إدلاء ويليام كروى رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة السابق بمعارضة استخدام القوة. وظهرت أول يادرة عن أن الاقتراح ولد زخماً وراء مسعى الرئيس في اجتماع عقد بعد الظهر مع قيادة الكونجرس في غرفة للحكومة بالبيت الأبيض. وأثارت قيادات الكونجرس خلال الاجتماع عددا من الأسئلة - غير أن كل القيادات في الكونجرس تقريباً أشادت بالرئيس سراً، والأهم أن هذه الإشادة صدرت علناً عندما التقوا مع الصحافة.

وبوشت المسؤولين تماماً كأسواق المال التي شهدت تقلباً كبيراً نتيجة هذه الأنباء. ولم يعرف أي من أقرب معاوني شيئا عن الاقتراح سلفاً. وبالمتوقع لم يشعروا بالسعادة نتيجة لتبنيهم من عملية صنع القرار. وساررتهم الشكوك تجاه الاقتراح. وحذر يوب كيميت من أن غياب التحديد في البيان سيؤدي الانطباع في بعض الدوائر بأننا نراجع. واعتقدت مارجريت تاويزر أنه لاقتراح غير مفيد. وقالت إذا فعلت العرب ستلقى عليك مسؤولية الفضل الدبلوماسي. وحتى إذا تفاوضت حول انسحاب غير مشروط مع العراق سوف يتهمني البعض بالتفريط للديكتاتور. ولم يعرف ديليس روس شيئاً عن الاقتراح أيضاً، وعندما سمع أخباره قال لي إنه خطأ فادح. واعترف بأن المبادرة نفسها جيدة، ولا سيما من زاوية الحاجة إلي حشد تأييد لخلى لسياستنا. لكن فكرة المدة من ١٥ كانون الأول ديسمبر حتي ١٥ كانون الثاني يناير فكرة خطأ. فصور العراقيون: إن يوم الخامس عشر من كانون الثاني يناير موعد جيد ومن ثم يبددون مهلككم. وكنت قد أدرجت عبارة «موعد مناسب للطرفين» في بيان الرئيس اعتقاداً بأنها تقدم لنا مخرجاً. ومن الخلق القول إن موعداً قريباً من موعد انتهاء المهلة لا يلائم الطرفين. وواصل روس إصراره بالقول: «إنهم سيبحثون عن موعد متأخر للغاية، وسيفقدون ذلك لتفريغ المهلة من مضمونها» وكنت أشجع العاملين معي دائماً علي الحديث سراحة. لكن لم استمع أن يقال أن رئيس الولايات المتحدة والمسؤولين الأثنين الكبار عن السياسة الخارجية قد ارتكبا خطأ جسيماً. ومع ذلك فقد خلصت إلي أن روس مصيب في نقطة التوقيت. وفي غضون الأسابيع القليلة القادمة أعدنا التركيز علي الاستراتيجية، وقدما للجدول الزمني المقبول قبيل إنهاء المهلة لتؤكد من أن العراقيين يعرفون أن موعد الخامس عشر من كانون الثاني يناير موعد حقيقي لا يمكن التحدث عنه.



وعلي مدار الشهر الثاني ناور الجانبان لتحقيق مميزات دبلوماسية. وبعد يومين من المؤتمر الصحفي للرئيس قبلت الحكومة العراقية اقتراحه لإجراء المباحثات. وفي ٢٣ كانون الأول ديسمبر وافق العراقيون علي اقتراحنا بأن تكون المباحثات ثنائية ومطلبتنا بأن تكون

المشاركة محدودة، وسرعان ما أحبطنا اقتراحاً عراقياً أن تشمل المباحثات مندوبين عن الفلسطينيين. وفي ٦ كانون الأول ديسمبر، وفي تحرك محسوب لإضعاف الإجماع الدولي وراء استخدام القوة بدأ صدام في إطلاق سراح الزملاء الأجانب في العراق والكويت، ومن بينهم ألني رهينة غربية. أما وقد وجه إيماءة مثيرة تهدف إلي إظهاره كرجل مسؤول بدأ صدام يضغط علينا مرة أخرى لإجراء مباحثات موسعة لبدء حوار حول قضايا الشرق الأوسط. يستهدف تحويل البحث من «الكويت» إلي «فلسطين»، وقد لماً إليّه طيلة الأزمة. ورفضنا مجدداً. كان الموضوع الوحيد المقبول للمباحثات هو انسحاب العراق من الكويت.

وتصاعدت حدة التوتر مع مرور الوقت وأردت بغداد أن يلتقي صدام في ١٢ كانون الثاني يناير - أي قبل ثلاثة أيام فقط من انتهاء المسألة. وقبلنا اقتراحهم بأن يزور طارق عزيز واشنطن في ١٢ كانون الأول ديسمبر. لكننا استبعدنا يوم الثاني عشر كموعِد لزيارتي. ولإظهار مرونتنا اقترحنا خمسة عشر موعداً بدلاً ما بين العشرين من كانون الأول ديسمبر حتي الثالث من كانون الثاني يناير بما في ذلك يوم أعياد الميلاد. وكان هذا خداعاً لأنني كنت مستعداً للاجتماع في وقت متأخر نسبياً لو اقتضت الضرورة. لكنني كنت أمل أن يبالي سيشكل منعياً علي بغداد.

وفي ١٤ كانون الأول ديسمبر أعلن الرئيس أن الاجتماع مع عزيز «مستبعد». وعنف صدام لمحاولته التلاعب بالمفاوضات. وصرح للصحفيين «بأنه يستطيع أن يري جون كورنالي، ومحمد علي ، وتيد هيث بمجرد طلب المقابلة بعد خمس عشرة دقيقة. لكنه لا يملك ساعة أو ساعتين بين العشرين من كانون الأول ديسمبر والثالث من كانون الثاني يناير ليستقبل وزير خارجية الولايات المتحدة». وفي اليوم التالي قرر صدام إلغاء زيارة عزيز إلي واشنطن قائلاً: «إنه إذا أرادت الولايات المتحدة استغلال الاجتماعات لتكرار قرارات الأمم المتحدة فلا داعي للذهاب».



وعلي مدار الأسبوعين التاليين تمسك الطرفان بموقفيهما. وفي أول أيام العام الجديد جمع الرئيس كبار مستشاريه علي للشاء. وكنا متفقين علي أن فكرة اجتماع قمة بين الدول الخمسة دقمة المعنوية فكرة غير جيدة. لكن ما وصفه الرئيس في دواتره الخاصة بمبادرة «وطن ووطن» لم تناقش مطولاً. ومع هذا كانت أعرف أن لديه أفكاراً ثلثية حول إرساله إلي بغداد. وخلال الاتصال بي بعد الظهور لتنهلتني بالنظام الجديد أبلغني أنه يشعر بالقلق من احتمال أن يفسر حلفاؤنا الاجتماع مع صدام بأنه محاولة للتوصل إلي صفقة. وردت بأنه يتعين علينا إبقاء حوار بغداد قائماً لفترة. وخلال الأسابيع القليلة المتبقية علي انتهاء المهمة أحسست أنه من الضروري لأهداف داخلية أن ينظر إلينا علي أننا نخذل محاولات إضافية للتوصل إلي تسوية.

وسويت هذه المناقشات بين احتياجاتنا الدولية ومتطلباتنا للدخالية صباح اليوم التالي في اجتماع ضم سكروكروفت وسونوتو وأنا في حجرته الصغيرة المجاورة للمكتب البيضاوي. وقال للرئيس إنه يستبعد اجتماع بغداد. ومع ذلك ففي اليوم التالي الثالث من كانون الثاني يناير أعلن علي الملأ استعداده للقاء عزيز في جنيف في أي من السابح أو الثامن أو التاسع من كانون الثاني يناير. وأسرنتي فكرة الاجتماع مع صدام. لكن عندما استقر رأينا أخيراً علي جنيف كحل وسط لم تصبني خيبة أمل كبيرة - وبعد بضعة أيام من اقتراح الرئيس في ٣٠ كانون الأول ديسمبر أنصل بي الأمير بندر وأشار علي بأن بغداد هي آخر مكان كان يتحين أن أفكر في زيارته. وقال: «لا بد وأن تكون مسجوناً لنذهب إلي هناك». فلن يتسرع هذا الرجل عن احتجازك رهينة. كان بندر مقتنعاً بأنه إذا تم إقناع صدام حقيقة فسوف نلث خلقه لأن هذا الرجل لا يلتزم بأى قاعدة. وكنت لأرأى أعتقد أنه من المستبعد تماماً أن يقدم علي فطة من هذا القبيل. فريما يكون صدام غير رشيد لكنه يدرك تماماً أن احتجازي رهينة سيمطر علي رأسه جام غضب وانتقام حكومة الولايات المتحدة. وتأكد رأيي بعد أسبوع عندما بدأ صدام في إطلاق سراح الزهالان الغريبيين. كان بندر يريد مني ألا أذهب في المقام الأول. فانسوديين لا يرغبون في التوصل إلي حل وسط يدرك جيش صدام سلماً. ففكته لم يشكل محاطرة كبرى في رأيي ولم يكن له أى دور في قرار عدم لقاء صدام. لكنني أود الاعتراف

بأن نحمل للذهاب إلى بغداد قد تراجع إلي حد ما بعد حديثي مع بلدر، وخاصة أن روس أثار نفس القلق. ففي صوء محاولة اغتيال الرئيس بوش في الكويت في آذار مارس ١٩٩٣ التي دبرها صدام، فريماً تكون قد أعطيت صدام مصداقية تفوق ما يستحقه بكثير.



وبعد شهر اليوم الذي وافق فيه العراق علي عقد اجتماع جنيف اجتمعت مع أبريل جلاسي لأعرف رأيها قبل اجتماعي مع عزيز. وأثناء الحديث أعادت رواية قصة معجزة عن دعوتها مع دبلوماسيين آخرين إلي موقع بناء سد في شمال العراق . وتغوه صدام بتطبيقات ازدياء بالعمال الفيتناميين الذين يعملون في بناء السد ووصفهم بالدونية. وتعجب قائلاً: «هؤلاء هم الذين هزموا الأمريكيين». وخلال أشهر الأزمة الأربعة لمسا أدلة متكررة عن عقلية صدام هذه. فقد كان يعتقد أن فيلنام قضت علي الروح الأمريكية لدرجة أننا لن نقاتل مرة أخرى مطلقاً.

«عمل جيد ونتيجة بالغة السوء»

وصلت إلي جنيف بعدد الساعة للداثة مساء الثامن من كانون الثاني يناير منهكاً من اليوم الذي قضينته في لندن وتوقفي في باريس وبيون وميلانو. ومن للطبيعي أن يكون في استقبال وزير الخارجية الأمريكي لدي وصوله إلي جنيف سفيران أمريكيان يعملان هناك: وهما سفير الولايات المتحدة لدي سويسرا ومندوب الولايات المتحدة لدي المقر الأوروبي للأمم المتحدة. ومع ذلك فلم تكن نريد أن يثير اختيار جنيف كمكان لمعد الاجتماع أجواء «الأمر كالمعتاد» ولذا اتصلنا بهما وطلبنا منهما عدم استقبالي بالمطار. ومع وصول موكبي إلي فندق النركوتيننتال استقبلتني مجموعة من مناهضي للحرب تقف في زاوية عبر الشارع، فهكنا

المرمريون في احتياطهم وسلوكهم لدرجة أصبح فيها المشهد سريالياً. وظهرت السريالية في الداخل أيضاً. فقد أطلقت حماسة خشبية ضخمة يتدلى من سقفها غصن الزيتون علي الباب الرئيسي للفندق وآلاف الصحفيين يتحركون لا يقفون شيئاً بكل محلي للكلمة سوى تبادل المشاتبات.

وخلال الإعداد لهذا الاجتماع أردت أن أملك القدرة عند الضرورة لأحمل عزيز علي تقدير مدي الدمار الذي ستنزله للعرب بالعراق. ولذا فقد طلبت عندما كنت في لندن قبل ثلاثة أيام من هارولد جريفيز إعداد ملخص غير سرى لقطتنا للحرب والاستعداد لتقدمه خلال الاجتماع. وطلبت من اللبنانيون أيضاً توفير ست صور بالأقمار الصناعية عن الأهداف المحتملة في بغداد لتكون مع جريفيز عند الاجتماع. ومن الضروري أن تكون للقادة العراقية تدرك أنه لن يسمح للعراق بشن حرب استنزاف كذلك التي شنوها مع إيران للمائتي سنوات. فسوف نحدد قواتنا لا قواتهم قواعد الاشتباك. ومع ذلك كان لدى ذلك تشبهي وكولين باول في اليوم السابق علي الاجتماع أفكار ثانوية، فقد ساورهما القلق من أن الاجتماع يكشف الكثير عن خططنا التكتيكية. كان باول يشعر بقلق خاص من أننا إذا أفرطنا في التحديث عن الحرب الجوية فسوف يخصص العراقيون مما سيعقد مهمتنا في تدمير مركبات القوات العراقية ويطول أمد الحرب. ونتيجة لذلك فقد مزقنا الصور التي التقطتها أجهزة تكنولوجيا متقدمة. وكان عرض جريفيز بالغ الحرس محتاشاً الفوضى في أي تفاصيل قد تعرض قولتنا للخطر. ومع هذا كانت النسخة المعدلة التي عرضت علي في اليوم السابق علي الاجتماع تلخيصاً بارعاً لقدرة الجيش الأمريكي.

وأشار جريفيز: لديكم عندنا كبير من منصات إطلاق صواريخ سكود ويمكننا تدميرها في عدة أيام. نحن نعرف الوقت الذي تستغرقه إعادة تجهيلها ونستطيع استهدافها بناء علي معرفتنا بمبادئ عملياتكم. نحن نعرف أن لديكم عشرة آلاف سلاح برى هجومى في المنطقة. ونعرف مناطق تركيزها. ونعرف أن لديكم ٢١٠٠ دبابة إنكم في حاجة لمعرفة أن بوسع دبابتنا أن تطلق النار بفعالية شديدة وهي تتحرك. ويمكننا رصد دباباتكم علي مسافة كيلومترين ويمكننا تدميرها ونحن نتحرك بسرعة نحو ستين كيلومتر في الساعة. وإذا لم نستقدوا ذلك فانتظروا للثراء وقال جريفيز إن بوسع مدافعنا بعيدة المدى في بعض سفننا بأن

تبيد متركزات قواتكم، وأن صواريخنا من طراز توماهوك ليست مدمرة فحسب بل إنها بالغة الدقة لدرجة أنها تستطيع إصابة جزء محدد من مبنى في قلب بغداد بعد إطلاقها من سفنها المتمركزة في الخليج. وشرح كيف يمكن أن تعلق طائراتنا للشبح دون أن يرصدها الرادار وكيف تستطيع أسلحتنا أن تدمر قدرتكم على التحكم ونحن مستعدون لاستخدامها.



كان استعراضنا دقيقاً لقدرتنا التحالف على محاربة العراق. وقلت لهريفز: «دعنا ننتظر ونرى كيف ستسير الأمور فإذا اتضح أنها مناقشات جادة فربما لا نحتاج إلي عرضكم. فلنكن على استعداد كأنتم حطتي هي الرد بالمثل علي طارق عزيز. فإذا تحدث حديثاً أجوفاً ومولاً للقتال فسوف يصد جريفر ما في حديثي من فجوات. وإذا ثبت أنه «شرطي مخلص» لسلم فإن محاصرة تهديد حول التفوق العسكري قد يكون لها آثار عكسية.

والحقيقة كنت أمل أن يغير عزيز رأيه نتيجة ما سمعته مني. لكن لم تساورني أية أوهام. فقد افترضت أن المباحثات لن تكون ناجحة وأنه في غضون أيام سوف تنشب الحرب. كانت معظم بداية البيان المتشائم الذي أدليت به في مؤتمر صحفي عقب الاجتماع قد أعد في اليوم السابق علي الاجتماع. فلم يكن هناك سوى القليل الذي يبدت علي التفاؤل.

وفيما توجهت للنوم تردد صدي خافت لهذافات المتظاهرين المتألمين للحرب إلي غرنا بينما الاستعدادات جارية للاجتماع. وتفاوض فريقنا المتقدم المؤلف من كارين جرومير وكيم هوجارد وجودي بارنيس مع العراقيين حتي الساعة الثالثة فجراً حول مسائل البروتوكول بما في ذلك حجم الأعلام التي ستوضع علي الطاولة. وحتى قبل أن تبدأ مباحثاتنا صباح اليوم التالي ولجعت اختباراً دبلوماسياً. فمن المألوف أن نبدأ مثل هذا الاجتماع بالتصافح أمام الكاميرات لكنني كنت عازفاً عن القيام بذلك. ربما كان طارق عزيز يريدني بدلت مصدرة في باريس ويتحدث الإنجليزية كخريج أكسفورد. لكن هذه الفكرة

تخفى رجلاً فجاً وبطيئاً محلياً. وكنت لا أريد أن توحى مصافحتي بانطباع بأن هذا مجرد اجتماع روتيني آخر لوزيرى خارجية. كان الأمر يتجاوز ذلك بكل جدية. ولإزالة كل من عزيز وأنا دبلوماسياً محترفاً، ولا أريد أن أخلق أى هبة يمكن أن يستغلها البعض للإشارة إلى أننا غير جادين فى قطع الميل الإصافى. ولذا فقد قررت مصافحته بدون الانبساط، كانت نظرة الأشمزاز واضحة.

ومع انتهاء لحظة التقاط الصور جلسنا للعمل فى قاعة الأمم بالفندق بالفردية D وأمامى جلس عزيز وجواره مجموعة أيرزها برزان التكريتى الأخ غير الشقيق لصدام حسين، وهو رجل يشتهر بوحشيته التى تدعمها سيرته. ولعب برزان دوراً حاسماً فى تصفية واحد وعشرين مسؤولاً كبيراً فى مبنى صدام لدولى السلطة عام ١٩٧٩. ثم تولي رئاسة المخابرات حتى أواخر عام ١٩٧٣ عندما اختلف مع صدام حول مسألة عراقية. وإزالته عن طريقه نفى صدام برزان إلى سويسرا كمندوب دائم للعراق لدى المقر الأوربي للأمم المتحدة حيث قام فى إحدى المرات بصرب سائقه فى حفل استقبال دبلوماسى بسبب تأخره فى إحضار السيارة، وما لبث برزان أن رد الاعتبار لنفسه عن طريق مفاوضات السرية مع طهران لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية، وأيضاً بعمله فى شبكة الأسلحة السرية فى العراق. ولم يظفر بكلمة واحدة خلال الاجتماع. لكنه تلقى أثناءه عدة مذكرات بواسطة عدد من أفراد بعثته فى جنيف، كما غادر المعرفة عدة مرات والمباحثات لفترة. وكان وجوده إلى جواره إشارة لا تخطئها العين بأن صدام يريد تقريراً مستقلاً عن الاجتماع، وإذا كان هناك ما يثير الشك فلا بد وأن يكون جلوس المترجم الشخصى لصدام بجوار عزيز رغم أن وزير الخارجية يتحدث الإنجليزية بطلاقة. والواضح أن عزيز لن يخرج قيد أنملة عن تعليماته.



وبدأت الحديث، يلينى جمال هلال مترجمى الجديد للعربية. وأعتقد أن فرصته الأولى فى الترجمة هي أهم فرصة، وأملت أن يثبت نفسه فيها، (وقد فعل).

لقد حضرت إلي الاجتماع دون أن تعلق بي أوهام. حتى إذا كان صدام قد خطط للانسحاب من الكويت فإن يقدم عزيز أي تفاصيل. وبدلاً من ذلك سيحمل معه مجموعة من أسئلة الاستقصاء ومقارعة الحجج - فالحدود الأولية للانسحاب مع الخطوات التقنية يتعين أن تبدأ في وقت لاحق بواسطة صدام نفسه. ولذا فلم أكن أطمح في الحصول علي اقتراح محدد. لكن كنت أمل الحصول علي خطوة في الانتهاء الصحيح رغم عدم توقعها ولم تأت تلك الخطوة مطلقاً.

وبطريقة الحوار للدبلوماسي التي زادها الزمن إجلالاً بدأ عزيز وأنا بالتعميمات. وقلت: «إن هذا اجتماع مهم أمل أن توافقوني للرأى بأننا نجتمع كممثلين لدولتين ذات سيادة رغم خلافاتهما الجوهرية. ويجب ألا يكون هدفاً تبادل ممارسة الضغوط كل منا علي الآخر. ومع هذا ينبغي ألا تكون هناك مفاجأة في أنني هذا للتفاوض حول قرارات أقرتها الأمم المتحدة. إنني هذا لإجراء اتصال. لا يشمل التباحث فقط بل الإصفاء أيضاً. وأمل أن تشاطروني روح الرغبة في الحديث والإصفاء. وسوف أقبل بالنظام الذي تريده. لكن قبل أن تتخذ قرارك دعني أسلمك رسالة من الرئيس بوش إلي الرئيس صدام حسين وأطلب منك تسليمها. وأصل الرسالة في المظروف وها هي نسخة منها. وأخرجت الرسالة ودفعتها عبر الطاولة».

وفي اجتماعنا في بداية العام الجديد قرر الرئيس إرسال الرسالة كمحاولة أخيرة للاتصال بصدام مباشرة. ومع هذا كنا نشك في أن عزيز ربما يرفض تسليم الرسالة، وهكذا قررنا إرسال صورة منها في نفس الوقت إلي السفير العراقي لدي واشنطن. وتوصلنا إلي قرار بالإجماع أيضاً بوضع أصل الرسالة في مظروف مغلق وتسليم عزيز صورة منها. فلو كانت قد صدرت إليه أوامر بعدم تسليم الرسالة فيسقط تحت ضغوط شديدة لتجنب قراءة صورته.

وبدا للحديث: «السيد الوزير شكراً. إنني أمل أن يكون هذا الاجتماع اجتماعاً مثمراً وطريق تحقيق هذا هو أن يصغي كل منا للآخر. وطلب إمهاله بعض الوقت لقراءة الرسالة.

وقال عقب فراغه من قراءة الرسالة: «السيد الوزير، نكلم إلى هدف الاجتماع ليس ممارسة أي منا الضغوط علي الآخر، لقد قرأت للرسالة إنها مليئة بدمجيات التهديد. وفي

الحقيقة فإنها غريبة علي طريقة الاتصال بين رؤساء الدول فلا يمكنني قبولها. ربما يمكنكم نشرها في وسائل إعلامكم. وأمل ألا يتسبب هذا في عرقلة الاجتماع. إننا لم نتحدث طيلة الأربعة وسبعيناً بتجهان نحو المجابهة ويتعين بحث كل إمكانيات التوصل إلي تسوية سلمية بين بلدينا.

وردت: وأريد أن أوضح لندي لا أظنر هذه الرسالة غير مناسبة بأي شكل. إنها مهمة حتي يفهم كل منا الآخر بوضوح. ولا يمكنني أن أحصلكم علي أخذ هذه الرسالة معكم وإن أحاول. ومع هذا يجب أن تعرف أننا ربما لو لا ربما نشرها ذلك الشخص الوحيد في جانبكم الذي يعرف فعولها. إنها تبدو مسؤولية جسيمة أن يأخذها المرء علي عاتقه. إذا كان هذا ما تريده فليكن. وسرت رغبة في يد عزيز وتركت رسالة الرئيس بصورة عزيز منها في منتصف الطاولة. وفي أول استراحة طلبت من كارين جرومير ورون مانزر رئيس الأمن القومي تركهما في مكانهما.

وقلت: «إن هدف اجتماعنا هو أن نتركوا الكريت وهذا هو الحل الوحيد الذي نقبله، وإذا لم نتسحبوا فسوف نجد أنفسنا في خضم المعركة. وإذا حصلتم حرباً مع التحالف فسوف تخسرونها بكل تأكيد. قلن تكون هذه حرب استنزاف كطلة التي حاربتموها ضد إيران. وسوف نفاتكم بكل الوسائل والأسلحة التي نعزيز قوتنا لا قوتكم. إن لدينا الوسائل الكفيلة بأن نحدد نحن لا أنتم طبيعة المعركة التي سندخلها.

«إن هذا ليس تهديداً. بل إخطار لكم. قد تختارون رفضه أولاً تتفون فيما نقوله، لكن علينا مسؤولية إيلاحكم بأن قواتنا تتمتع بمميزات تكنولوجية مذهلة، ووجهة نظرنا تتمثل في أنه إذا اندلعت الحرب فسوف تواجهون قوة نووية متفوقة مهلكة. ومن رأينا وربما ترفضوا أو تفلتوا إن قواتنا سوف تدمر قدرتكم علي إدارة شؤون بلادكم بل، وستدمر قدرتكم علي قيادة قرائكم». «إننا ملتزمون بأن نهلكم بأنه لن يحدث جمود. قلن يكون هناك وقف لإطلاق النار بواسطة الأمم المتحدة أو فرصة لالتقاط الأنفاس لإجراء مفاوضات. فلذا بدأت الحرب فسوف تكون حرباً شاملة. وإن تكون هذه فينتام ثانية، فإذا بدأت الحرب، لا قدر الله، فسوف تكون بغرض الوصول إلي نتيجة سريعة وحاسمة.

ثم تطرقت إلى نقطة: «في الجانب المظلم للقضية الذي طلب منى كولين بارل تعديداً
التحدث عنها بأوضح عبارات ممكنة. وحذرت من أنه إذا استخدمت الأسلحة الكيميائية أو
البيولوجية ضد قواتنا فسوف يطلب للشعب الأمريكي بالانتقام. ولدينا وسائل الانتقام، وفيما
يتعلق بهذا الجانب من استراتيجيتي فإن هذا ليس تهديداً بل إنه وعد. فإذا حدث استخدام لمثل
تلك الأسلحة فإن هدفنا لن يكون مجرد تحرير للكوييت، بل القضاء على النظام الحالي في
بغداد، وسيحاسب أى شخص مسؤول عن استخدام تلك الأسلحة».



كان الرئيس قد قرر في كامب ديفيد في كانون الأول ديسمبر أن أفضل طريقة لردع
العراق من استخدام أسلحة الدمار الشامل سوف تتمثل في توجيه تهديد بالقضاء على نظام
البيعث نفسه، وقرر أيضاً ألا تتقدم القوات الأمريكية باستخدام الأسلحة الكيميائية أو النووية إذا
استخدم العراقيون الأسلحة الكيميائية. ولم تكن هناك حاجة واضحة لإبلاغ المراقبين بهذا.
وعلى أمل إقناعهم بالتحصر في شأن لمدي حماقة للعرب فكرت لديهم الانطباع عن عمد بأن
استخدام الأسلحة الكيميائية أو البيولوجية من جانب العراق سيستدعى حتماً للقضاء نووياً
تكتيكياً. (ونحن لا ندرى ما إذا كان هذا هو السبب الذي يبدوا أنه كان وراء عدم الاستخدام
المؤكد للأسلحة الكيميائية من جانب العراق أثناء الحرب. ومن رايي أن هذا لغموض
المحسوب فيما يتعلق بكيفية ردنا المحتمل بشكل جانباً من هذا السبب).

وخلصت إلى القول: «بأن الحرب سوف تفسد كل شيء جاهدتم لبنائه في العراق،
وسوف تثير بغضل عدم استعدادكم للانسحاب من الكوييت صراعاً سيحول العراق إلى بلد
ضعيف ومتخلف». وأعربت لميز عن قلقى بأن للعراقيين علي وشك ارتكاب خطأ آخر في
المصائب عن التصميم الأمريكي. وقلت: هناك زعماء آخرون أساموا حساب قدرة للديمقراطية
الأمريكية علي للقتال ودفوا الثمن في النهاية. فلا تكرر أخطاءهم. ولا تسبقوا تفسير مختلف
الأسوات التي تسمعونها من المجتمع الأمريكي. إن لدينا أقوى نظام حكم في العالم.
فسوف تتوحد أمريكا لمواجهة الحرب إننا لم ندعوا لنا أى خيار آخر».

وعندما سميت نحو تحويل هذا الجانب للقائم على إني جانب مشرق تدخل عزيز قانلاً
ترغيب وترهيب: «أشدت بحسن إدراكه مما انتزع منه ابتسامه تادرة» لقد أبلغت بقلكم من
احتمال تعرضكم للهجوم إذا انسحبتم لو لم تتسحبوا. دعني أكرر تعليمات الرئيس مباشرة إن
تعرضوا للهجوم».

وكنيت أذكرك في الواقع بأن الأمريكيين لا يطلقون النار على خصمهم في الظهر.
واحتلتم مداخلتي بالقول بأننا نؤيد قيام العراق والكويت بتحوية خلافتهما سلمياً لكن بعد
الانسحاب، وقلت إنني مسرور لإيفاد رئيسكم لكم إلي جنيف. فهذه آخر أفضل فرصة للسلام.



وبدلاً من الرد علي جوهر كلامي بدأ عزيز يطلب بالاحترام، وأحسن وكان من النقص
الوطني الذاتي قد أصابه أنه ملزم بالتأكيد علي أن بلاده لا يحكمها حققي. وسوف يعود إلى
هذه النقطة فوراً خلال الاجتماع.

وذكرني قانلاً «إننا نقود بلدنا منذ الثلاثين وعشرين سنة ومتوسط عمر قيادتنا هو
الخمسينيات فأنا في الخامسة والخمسين ورئيسنا في الرابعة والخمسين. وأعتقد أنك توافقني
علي أن هذه من ناصجة». ولأنني تجاوزت الستين لم أستطع رفض هذه الفرصة لأعلق في
سخرية «إن هذه سن الشباب». وأخطأ عزيز فهم للدعابة بل وينا عليه الغضب بوضوح. ورد
بلهجة أكثر حدة بعد أن اعتبر هذا الكلام إهانة «هذا غير حقوقي، فالحكام يقولون إن الحكمة
تأتي بعد الأربعين.. إننا نمنى تماماً ما يدور حولنا. فبعد الثاني من آب أغسطس ونحن نرفع
إجراء عسكرياً أمريكياً ضد العراق. فالولايات المتحدة قوة عظمى ومزخراً فقط بآنت القوة
العظمى الوحيدة في العالم. ولذا فعندما نتصرف كما نتصرف يجب ألا يمارركم أي شك في
أن هذا السلوك من جانبنا ليس نتيجة جهول. إنكم بلد متقدم وإنكم حركتم أسلحة هائلة إلي
المنطقة. إنني أطمئنتكم بأننا نعرف مدي الفعالية والقدرة للتنميرية لكل سلاح. إننا حكومة
مجتهدة ونشيطة. فنحن نعمل بكد ونقرأ ونحلق ونطالع. ولأصناف: «لا تساررني أية لوهام عن

كلفة الحرب. إن أصغر أبنائي في الحادية عشرة. وكل ما يعبه في حياته هو الحرب والغارات الجوية والصواريخ الإيرانية. فالحرب غير غريبة علينا. وهناك أية في القرآن تصف للحرب بأنها أمر يميض (كتب عليكم القتال وهو كره لكم). وهكذا فمن نبي هذه الحقائق ونعرف تصميمكم علي أن تكون الحرب محمّدة. «إنني أقول هذا بدون سلف رغم أن بعض بياناتكم تحتوي علي إهانات، وسوف تظل للقيادة الحالية تحكم العراق الآن وهي المستقبل. أما هؤلاء الذين سيخفون فليسوا في العراق بل بعض أسدقاكم في المنطقة».*

وندد عزيز «بالوصف للعربي، لبلادها بأنها دولة شمولية. وقال: «إن العراق بلد يعود تاريخه إلي ستة آلاف عام. وكما قامت علي أرضه الممالك والإمبراطوريات والحضارات. لقد صمدنا أمام تحالفات مثل تحالفاتكم في الماضي، وسوف نصعد أطول من صمود تحالفكم. إننا لا نخشي أن تهاجمنا قوة متفوقة. فشعبنا لا يؤيدنا فحسب، بل إنه يعيدنا. فشعبنا الثباغ عدده تسعة عشرة مليوناً مقتنع بأنه بمجرد أن تبدأ الحرب بيننا فسوف تنتصر. أريد أن أقول إن الحرب لا تخيفنا أو تردع العراق. فقضية الحرب ليست قضية نخشاه نحن أو أنتم. وآمل ألا نخطئوا في حساب قدرتنا علي تحمل كلفة الحرب». وتيقنت أنه سيكون من غير السجدي أن يعرض هولارد جريفر رؤيته السهلة للصراع المحتل.

ورفضنا الجلسة للاستراحة بعد ساعتين وخمسة دقائق. ورغم عدم تفوق تقدم كجانت لهجة الاحتراف هي للسيطرة طيلة الاجتماع، واتصلت بالرئيس من جذاعي لأبلغه تقريراً موجزاً وقلت: «لا يمكنني إبلاغك بشيء فلم نحصل علي أي تمرق منهم حتي الآن. لكنهم في سبيل الخروج عن طريقهم المألوف لمحاولة إظهار أنهم مسؤولون. إنه لم يتم رسائلك لكنه قرأها». وأبلغته أيضاً أنني أوقع من العراقيين أن يواصلوا تصليبهم.

وعلي الدرج انتاب السمار جيش الإعلام الذي كان يغطي وقائع الاجتماع. فقد استمرت مباحثاتنا وقتاً أطول من المتوقع مما أثار شائعات عن حدوث انفراج كنا نعرف أنه

* بالطبع كان غير ممعاً في هذا الأمر. فقد كان تمديدنا للحكم في العراق مدعوم بالسلطة الدمار الشامل الذي نعتقد أنه لم يحدث. ويضم الفصل ٢٤ مزيداً من التفصيل عن قرارنا الحكم بعدم دخول بغداد أو الإطاحة بسجدهم.

لم يحدث. لكننا كنا عاجزين عن إخفائه. فقد نظمت أسعار البترول والأسواق المالية بينما شبكة سي إن إن تنقل وقائع الاجتماع علي الهواء مباشرة لجميع أنحاء العالم. لقد كانت طريقة غريبة لإدارة الدبلوماسية لكنها حتمية في عصر الاتصالات القوية.



وعندما عدنا إلي طاوله المباحثات في الساعة ٢,٣٠ بعد الظهر تعارفت بقية المباحثات في قضايا غير جوهرية إلي حد كبير. واشتكي عزيز مراراً من ازدياد السعابير الأمريكية حيال إسرائيل. فبما كان يوسع العدو امتلاكه لأسلحة نووية وكيميائية للعراق كل الحق في امتلاكها. وتوقع بأن للمرب لو بذلت فسوف يندشق التحالف العربي قبل قتال أشغالهم. ووصف الرئيس مبارك بأنه دجافل بتاريخ المنطقة، واشتكي من أن الأمم المتحدة تصرفت بشكل ظالم ضد العراق.

ووصف الفوز بأنه إجراء دفاعي ضد تحالف بين الولايات المتحدة وإسرائيل وحكام الكويت السابقين لتدمير العراق. وفي نفس اللحظة ناقض نفسه بالتأكيد علي أن أحدث آب أغسطس وما تلاها لها صلة بنسبة مائة في المائة بالفلسطينيين. وها هو قد أعاد الربط بالقضية الفلسطينية مرة أخرى. وقال: إنها لم كل المشاكل. لقد كان هذا الحصر الذي أثار كل عدم الاستقرار في المنطقة. وقلت: «برغم روح للصراحة. فمن يقبل أحد في العالم تفسيركم - بمن في ذلك حلفائكم - بأنكم تصرفتم دفاعاً عن النفس ضد الكويت. إنني لا أشك في صدقكم، لكني أبلغكم أن أحداً لن يتسيفه في العالم. بوسعكم للتخطب علي كل تلك المشكلات بالانتمساب من الكويت».

وعندما سأله عما إذا كان قد قرأ تقرير منظمة العفو الدولية الذي يتضمن تفاصيل الفظائع التي أرتكبها العراقيون في الكويت رد عزيز بأغرب حجة سمعتها في الاجتماع كله «واعترف بوقوع بعض الحوادث» لكنه أشار مبعداً إلي أن الخدم الهنود هم المسؤولون عن معظم أعمال النهب والسرقة خلال الاحتلال.

وفي حديث سابق كان عزيز حريصاً علي إثبات قدرة القيادة العراقية مما بدا لي أنه خداع للقص. وأردت أن أنكره مرة أخرى بأن الخبرة الأمريكية في فيتنام وخبرة العراق مع إيران غير قابلة للتكرار بعد الآن. وردت: «لا تدعوا قادتكم العسكريين يفتخروا بأن استراتيجيتكم ضد إيران سيتم تطبيقها مرة ثانية ضدنا، إنكم تواجهون شكلاً مختلفاً تمام الاختلاف من القوة. لقد سمعت أنكم تعتقدون أنه لو أنكم استطعتم توسيع نطاق الصراع وتمكنتم من إحداث خسائر بشرية هائلة ان تستطيع الاستمرار. إننا نعتقد بقوة أن هذا ان يحدث فبسبب تفوق قواتنا سوف نملي شروطنا علي المعركة وان تملوها أنتم».

وبعد استراحة ثانية استغرقت عشرين دقيقة هذه المرة لسألف عزيز كلامه ورد بطريقة عشوائية علي النقاط التي سبق أن أثيرتها. وقال: «إن قادتنا العسكريين رجال شجعان لكنهم ليسوا حذقي. فلم خبرتهم الطويلة في الحرب. إنهم يتابعون نشر قواتكم ومراكزها بدقة بالغة. وقد درسوا دراسات متقدمة لنظم تسليحكم واعترف قائلاً: «إن حرباً جديدة سوف تكون مختلفة عن التجربة الإيرانية لكنها لن تكون أقل صعوبة. لم تكن الحرب مع إيران مهمة سهلة.. ورغم هذا يمكننا تحمل العبء والخروج منتصرين من الحرب، إننا نشعر أننا نعامل بشكل ظالم. هذا هو شعورنا، وعندما يتولد مثل هذا الشعور بين أفراد الشعب وتعرض علينا الحرب فسوف يقاوم الشعب فلا يساوركم الشك في تصميم شعبنا علي الصمود. إننا مصممون علي أنه إذا دخلنا الحرب فسوف تستغرق وقتاً طويلاً، سنة، سنتان، كانت تطبقه دليلاً جديدا علي أن العراقيين يفترضون أننا لم نعلم شيئاً من قبلنا».

ونوقح عزيز مجدداً أن الحرب سينظر إليها علي أنها صراع عربي أمريكي. وقال: «بمجرد أن يدخل شعب معركة وتطلق الذخائر وتراق اللدما، حينئذ يعود كل شعب إلي أصله ويتصرف بفطرته. فإذا هاجمتهم دولة عربية، ستصبحون عدواً للدول العربية وما لبث أن أضاف دون توقع: «إننا كنت مهتماً بإجراء مزيد من الحوار، يمكن إجراء مزيد من المباحثات، وأحيا اقتراح للرئيس السابق بمقد اجتماع بيني وبين صدام في بغداد. فقد كانت فرصة اللحظة الأخيرة لاجبارنا علي تجاوز المهلة النهائية. وفكرته بأن الرئيس بوش عرض هذا الاقتراح قبل ستة أسابيع علي وجه الدقة وقت: «السيد للوزير فات أوان ذلك. هذا الاجتماع هو فرصتك فإذا لم تكن مستعداً للتصرف في الأمر الآن، فلتكن. فلم يبق سوى سنة

أيام من الآن، لا تفكر أن بوسك تأجيله أو تمديد المهلة وأكدت لعزير أنني سأكون سعيداً بزيارة بغداد لكن فقط بعد انسحاب العراق من الكويت.

واستمر قائلاً: «لماذا لا تشجع حلاً عربياً؟ وردت «يمكن أن يكون هناك حل عربي، إذا انسحب العراق من الكويت». كأننا ندور في دوائر. وبكرت عزير بأنه لم يرد علي حالي السابق بالخروج الآمن لأعضاء سفارتنا، وكنت قد طلبت أن يضمن شخصياً إمكانية مغادرة خمسة دبلوماسيين أمريكيين باقين لبغداد في ١٢ كانون الثاني يناير دون إبطاء. وقطع عزير تعهداً شخصياً علي نفسه. وكان هذا هو التنازل الوحيد الذي انتزعته من العراقيين.

وبعد ست ساعات وخمس وأربعين دقيقة قلت: «السيد الوزير. انتهى ما عددي، ليس لدى مزيد. كيف تريد أن تواجه الصحافة؟ واقترح: «لماذا لا تذهب أنت أولاً وردت: «ليكن سوف يستغرق الأمر بضع دقائق للاستعداد وسوف أذهب أولاً، هل عقدتم العزم علي عدم استلام الرسالة؟ قال: «نعم، ولحق كان عزير دبلوماسياً محترفاً من البداية حتي النهاية. فقد كانت مباحثات فائرة ومباشرة وغير مثمرة بالهرة علي حد ما تسخطي الذاكرة وعلي نقيض المفاوضات المعتادة لم يسط عزير مطلقاً حرية الحركة، وبالطبع ما كنا للتفاوض حول قرارات الأمم المتحدة. ولم يرد علي عقلي أي شك في أننا نحتج نحو العرب، ولون أنسي مطلقاً نظرة عزير ونحن نقصافح في بداية الاجتماع. فم بيد عليه الغضب أو العدوانية بل كانت نظرات استسلام للتضاء والقدر. وقال: «وداعاً السيد الوزير ربما نلتقي ثانية وردت: «وداعاً السيد الوزير». ولم أشعر تجاهه بأي عداة علي الإطلاق. فقد أدني عملاً جيداً للغاية لكن بنتائج بالغة السوء.

الحرب تصبح ضرورة حتمية

ربناء علي تلميحاتي ظلت رسالة الرئيس إلي صدام وصورة عزير في منتصف الطاولة حتي بعد مغادرة للحجرة. وقد استردهما ساندو تشارلز عن موظفي مجلس الأمن القومي.

وقد وضع عزيز خطأ تحت ثلاث فقرات من الرسالة «كارثة تنزل بشعب العراق» . «فلو حلت الحرب ستكون مأساة مروعة تصدق بكم وببلنكم» ، وسوف يتم تحميلكم مباشرة مسؤولية الأعمال الإرهابية» .

وصعدت للدرج إلي جناحي وخلعت الجاكيت والحذاء وتحدثت علي السرير بينما يجري إيصال مكالمتي للرئيس بالبيت الأبيض . وقلت : «ليس هناك شيء فلم يفرطوا في بوصة واحدة . وليسوا علي استعداد لتغيير موقفهم . فلم يرحضوا شيئاً جديداً . ولو فكرة واحدة وقد أبلغتهم ذلك» ثم نزلت لأراجعه الصحافة .

وقلت : «سيداتي سادتي للأسف فطني مدار أكثر من ست ساعات لم أسمع شيئاً يوحى بأى مروية عراقية لياً كانت بامتثالهم لقرارات الأمم المتحدة . وعندما طلبت علي صفحي أن أصف أجواء الاجتماع لم أفكر في الإجابة . ورددت : كتيب .

ومن وجهة نظر تكتيكية كانت لهجة تصريحاتي تقصد تعزيز الرسالة بأن الولايات المتحدة لا العراقيين هي الطرف العاقل . كنت أعرف أننا سنفوز بالعرب مع العراق . لكن فوز المعركة مع الكونجرس والرأي العام لا يزال موضع شك . وكان المستهدف الأساسي لمؤتمري الصحفي هو الجمهور الأمريكي . وكان نموذجاً آخر للدبلوماسية عهد التايفايون ، ويبدو أنه كان ناجحاً . وسيلحق سام نان الذي صوت ضد قرار استخدام القوة في الكونجرس في وقت لاحق بأنه بمجرد أن نطقت بكلمة «للأسف» فقد تلاشت أي فرصة لهزيمة قرار استخدام القوة .

وأشاعت كلمة «للأسف» الاضطراب في البورصات العالمية . ومع استمرار الاجتماع ومع إصدار البيت الأبيض بيان جاء فيه أن السبلحات «مجهزية» ارتفع مؤشر داو جونز الصناعي بأكثر من أربعين نقطة وقت انعقاد مؤتمر الصحفي . وسجل عند الإقبال زيادة تجاوزت ٣٩ نقطة . أما أرقام النفط التي تراجعت فقد ارتفعت من ٢٣, ٣٥ دولارا للبرميل الواحد عندما بدأ المؤتمر الصحفي إلي ٣١ دولارا للبرميل الواحد في وقت لاحق . وإذا شكك أحد في الاعتماد المتبادل والدخول الكوني وقوة الاتصالات الفورية فلا بد وأن تكون تلك التطورات قد غيرت تفكيره .

وعدت فيما بعد إلي جداري متابعة المؤتمر الصحفي لعزیز. ولم يتفوق علي فصاحته
سوي تصليله. وعلي مدار خمس وأربعين دقيقة لم يتطرق بالذكر للكويت مرة واحدة مكتفياً
بالإشارة «إلي الموقف في الخليج» كان الأمر غريباً للغاية لأنه تحدث غالباً عن الكويت خلال
الاجتماع مستخدماً فقط كلمة «الفلسطينيين» أكثر. أما نهج الاستسلام للقضاء والقدر فقد
اختلف ليصبح مكانه لفظاً عديمة. وعندما سأله صحفي عما إذا كان للعراق سبهاجم
إسرائيل خلال الحرب لأجاب عزیز: «نعم، نعم» وسأل صحفي: هل باتت الحرب ضرورية
حتمية؟ لأجاب: «إن هذا يعود للإدارة الأمريكية للقرره. فالعراق مستعد لكافة التوفعات .. إننا
مستعدون منذ البداية».

ثم اتصلت بشيفرناذرة في موسكو لأبلغه بعدم إحراز تقدم. وتحدثنا لحو خمس وأربعين
دقيقة عن الاجتماع إضافة إلي للتوتر المتصاعد في البلقان.



ورغم تذكير عزیز بأن العراق غزا الكويت بسبب «موامرة» آل الصباح لتركيب العراق
اقتصادياً. فلم تكن الكويت سوي دفعة مقدمة لطموحات صدام الإقليمية. بل وربما الدولية
أيضاً. ها هو في المقام الأول زعيم معاصر في الشرق الأوسط مأخوذ بمقارنة نفسه
بذوخذنصر. هاهو كما أشار لي الرئيس مبارك بعد الحرب: استراتيجي رفض الضخامة
بقواته الجوية للمقاتلة ضد إيران عندما بذلت طهران تخسر الحرب. أيوفرها لأهدافه الإقليمية
في السيطرة. كان صدام ينظر باتجاه الشمال الشرقي والشمال الغربي لا باتجاه الجنوب.

وبالنسبة لانهاء الشمال الشرقي فقد رأى حليفه الاتحاد السوفيتي - يعيش مرحلة إنحسار
- مضطراً للتخلي عن إمبراطوريته في وسط وشرق أوروبا. وأكثر مما اعتقد معظم المفكرين
الاستراتيجيين الآخرين، كان صدام يري في الانحسار السوفيتي خطراً يوشع بحلول «العلة
القطبية الأحادية» وهي فترة ستكون فيها الولايات المتحدة هي القوة العظمى الوحيدة. ومن
شأن هذا ألا يناصر جهوده في الهيمنة علي الشرق الأوسط في ضوء العلاقات الأمريكية

الوثيقة مع إسرائيل، وبدرجة ليست أقل مع مصر وللعربية السعودية ومعظم المعتدلين العرب.

كان التهديد الذي يري صدام أنه يحدق بمخططاته المتعاضمة ليصبح عبد الناصر الجديد يمثل في انتهاء الشمال الغربي: أمريكا. وهذا أحد التفسيرات بكل تأكيد لتصريحات جنرل العظمة التي أدلى بها في أواخر ربيع وأوائل صيف عام ١٩٩٠، وفي إتهاماته الأولى بأن السابرات الأمريكية تحاول زعزعة استقرار نظامه. ولسوء الحظ أنه ربما كان خارج نطاق اهتمامنا لكننا كنا محور اهتمامه.

وخلال الاجتماع أبلغني طارق عزيز بأن قضية الحرب ليست قضية خوف من جانبنا أو جانبكم، كان مخطئا وكان ثوسيديديس علي صواب. فالذي حتم غزو الكويت والحرب التي جاءت لتنتهي هو هبوط القوة السوفيتية وصعود القوة الأمريكية، والخوف الذي سببه هذا لصدام حسين.. الخوف من أنه في الوقت الذي ربما لا تترد أمريكا لأن علي ذبحه علي السلطة فسوف يكون من المحتمل للغاية أن تفعل ذلك بمجرد أن تتطور القطبية الأحادية. ورأي صدام أن هذه هي فرصته وحاول استغلالها.

وفي صباح اليوم التالي ولنا أغادر علي متن الطائرة العسكرية ٧٠٧ التي كانت الطائرة الخاصة للرئيس كيندي. كانت شواطئ بحيرة جنيف تترامى تحتنا وقد كستها الثلوج. والنفثت مارجريت ثانويلر إلي دينيس روس ملخصة الحقبة المرة للحظة. وقالت: «دينيس إن هذه مدينة جميلة. علينا أن نعود إليها بعد أن تنتهي الحرب فليس أمامنا وقت طويل».

الفصل العشرون

الزرع يصبح سيفاً

ندعو الله جميعاً أن يساعد شعبه. فهدام حسين مستعد
للتضحية بلايين الشباب والشيوخ لإشباع نهمه.

الشيخ زايد

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة
أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة
١٠ كانون الثاني يناير ١٩٩١

إنه رجل لا تعنيه سوى نفسه. ولا يهتمه شيء آخر
حتى وإن كان تدمير بلاده.

ولي عهد الكويت

الطائف، العربية السعودية
١١ كانون الثاني يناير ١٩٩١

لا يمكنني توقع ما إذا كان صدام سوف يغور رأسه في الحفظة
الأخيرة وينسحب من الكويت. لكنني أغمض الأنف.

الرئيس المصري

حسنبي هيارث

القاهرة، مصر

١٢ كانون الثاني يناير ١٩٩١

بعد يومين من الاجتماع القاتل مع طارق عزيز في جنيف وصلت إلي الطائف لعقد اجتماع اخر مع أمير الكويت في المنفى. ثم قمت بزيارة تفقدية لطيارتي وأطقم جناح المقاتلات النكبيكية ٤٨ - بالقوات الجوية الأمريكية للذين أعيد نشر مقاتلاتهم القاذفة طراز إف - ١١١ وطائرات الدشويش الألكتروني من طراز إي إف - ١١١ من قاعدتها في إنجلترا في مطار عسكري سعودي في الصحراء خارج الطائف. كان هؤلاء الشباب والشابات علي وشك أن يصبحوا السنارة الخفية فيما كنت أعرف أنه سيكون المحاولة الأخيرة لإفناع القيادة المراقية بجدية المهمة للذهاب في ١٥ كانون الثاني يناير.

كانت ريارتي هذه هي الثانية والجناح الحرة. وعندما كنت هناك في الزيارة الخاطفة في أولول سبتمبر لم يكن قد وصل إلي القاعدة سوى بضعة مئات من أفراد الجناح. وأمسك منجرهم ومعلم وإحباطهم إلي حد كبير. كانت لهجة أسنانهم تحمل معنى انهم يعتبرون أنفسهم مجرد عمالة تجمول وتولدهم مجرد إستعراض للقوة.

والجناح/٤٨ يتمتع بخبرة قتالية ميدانية جيدة، فطائراته هي التي قادت الهجمات الأمريكية علي ليبيا عام ١٩٨٦. كانوا يريون العمل لا الهمود. ولم تفلح تجديرات الإمتكان والمرفان بخدمة الوطن في رفع معوياتهم وطلب أحدهم «دعونا نعمل شيئا»

والآن ومع إقتراب يوم الخامس عشر من كانون الثاني يناير بلغ عندهم نحو ثلاثة آلاف جندي وطائرتهم منجحة بالسلاح. وشعلت أربعة أشهر من التدريب في الصحراء من همتهم وارتفعت معوياتهم نتيجة فشل اجتماع جنيف. وربما كنت أتحدث إليهم في أحد المهاجر لم يكن مرحهم يتقد بل يذهب. فقد وصف جورج مارشال جنود أمريكا بأفضل وصف: أين نجد مثل هؤلاء الرجال؟. ويخون شك كانوا صفوة أمريكا. لكن في هذه المناسبة التكتبية لم أكن أتحدث حقيقة لهم فحسب. بل إلي مستمع آخر في بغداد..

وعقب اجتماع عزيز تأكدت أن احتمال تجنب الحرب لم يعد قائماً علي الأرجح. فقد بدا Saddam عازماً علي ارتكاب خطأ آخر في الحساب عن تصميم أمريكا. ولأننا نعرف أن Saddam يشاهد شبكة سي إن إن كانت هناك مناشدة أخيرة بالفعل فلا يمكن بسهولة تجاهل محاولة عامة كما حدث مع رسالة الرئيس في جنيف. وفي طريقى من الرياض إلي أبو ظبي ذلك الصباح أعدت صياغة مشروع كلمتى أمام الجناح/٤٨. وصنعت نظرياتي باختصار بلغة واضحة لا تخفي إشارتها. وقلت أمام القوات: إلى الوقت ومضى لكن الطريق أمام السلام

لا يزال مقبوحاً. ولا زال هناك وقت أمام العراق لسلك هذا الطريق... فلارال بإمكانهم اختيار السلام وتجنب الكارثة. لكن الاختيار بينهم وبينهم وحدهم. ولكننا نأمل وننتصرع ونعمل من أجل السلام. فإنه يتعين علي أمريكا وكافة دول التحالف الاستعداد لصراع لا نسعي إليه لكننا لن نفر منه.

وعندما تحدثت إليكم قبل شهرين أبلغني مستمكم أنكم مستعدون لتكم تصاعلم عن الوقت الذي سيمر قبل أن تعرفوا ما إذا كنتم ستستدعون للعمل لصد العدوان المروع. والآن وحتى تدق الساعة الثانية عشرة منتصف ليل الخامس عشر من كانون الثاني يناير لا يمكنني أن أعطكم إجابة شافية قاطعة. لكن يسطي ليلاكم بأنه إن يتعين عليكم الانتظار كثيراً لتسمروا إجابة لسؤالكم. وتفجرت هدفات محبومة لدي الجنود والطلقاء في الصافير وسرت عصبية محبومة. فالتوات مستعدة، وكما قلت في جنيف، هناك الكثير من الأخطاء العراقية في الحسابات وأندا نخشي سوء حساب آخر، فسوف يكون خطأ مأساوياً. إننا نعتقد أنه إذا انسحب العراق من الكويت فمن المستحيل أن يلقظ صدام حسين حتي يبلغ حافة الهاوية لنبحرك. وتركز قلنا أنه وفقاً لأساويه المعتاد فسوف يخطئ حساب أين توجد هذه الحافة.

وحتى لا يكون هناك مجال لسوء الفهم دعوني أكن في غاية الوضوح: «إننا نستصل حافة الهاوية في منتصف ليل الخامس عشر من كانون الثاني يناير. كانت هذه أكبر نقطة يقترب منها في الإعلان علنا عن الموعد الذي ستبدأ فيه الحرب. ودفعني لقاء الطوارين إلي تذكر تجربتي العسكرية المتواضعة والتفكير فيها. ففي عام ١٩٥٢ تخرجت من جامعة برينسيبتون وأنا أبلغ من العمر ٢٢ عاماً لأبدأ للخدمة العسكرية بالتدريب في وحدات مشاة البحرية - أعى تماماً مجموعة من الضباط برتبة ملازم ثان بمشاة البحرية الذي مالبثوا أن قتلوا في كوريا. كان المماس يغمرنى في ذلك الحين. ولم يكن بوسع للشباب الإنضمام إلي مشاة البحرية ما لم يكن مستعداً للقتال. ومن حسن حظي أنني لم أخدم في كوريا.

ومعاه ذلك اليوم في الطائف لمست مدي التناقض بين حسن حظي قبل أربعة عقود وحظ مئات الآلاف من شبابنا وفدائنا الذين ارتبكت حياتهم ومهنهم. بل وربما قدروها في سبيل التفاني في خدمة بلدكم.



ولأبنتى جيم ميد صديقتى وسقى فى جامعة برينستون الذى انضم معى إلى وحدت مشاة البحرية لدراسة استطلاع توجيه نيران البحرية وهو تخصصى العسكري الدقيق. وعادة ما يأت مستطلعوا وموجهوا للنيران البحرية للشاطئ فى السجوة الأولى تضمهم تشكيلات من مجموعات تكرواح من ستة إلى ثمانية أفراد لا فصيلة من أربعين فرداً. ولا يمتطع قائد المجموعة بمسؤوليات قائد لفصيلة المؤلف من أربعين رجلاً، وكان توجيه نيران السفن المرمية رغم خطورته أشد إثارة وتشويقاً من المشاة. وعندما دخلت مدرسة الأساس فى كولنكو بفرجينيا فى آب أغسطس ١٩٥٢ - تم إبلاغى بأن أولئك الذين قدموا أنفسهم ويحصلون على أعلى الدرجات سيتم تلبية طلباتهم بالمحاقم بالخصص الذى يحدارونه. وهكذا تفانيت فى العمل كواحد من المجتهدين، وجاء تلاميذ الخمسون فى مجموعة من خمسمائة مرشح لرتبة ضابط. وكنت أعتقد أنى أقرب من أن أكون الأول فى مجموعتى من الذين سواهم مهم احتياطية. وإذا عندما استدعانى للميجور قائد وحدتى للمديث حول تخصصى الأول قال: «بكر، لقد أبلت بلاءً حمداً أريدك أن تتولى قيادة فصيلة، إننا نحتاج أفضل عناصرنا فى مشاة البحرية قادة للفصائل». وأخذتني المفاجأة وتذكرت قولى له: «ميجور هذا يتناقض تماماً مع ما أبلتني به عندما بدلتنا هنا وهو أنى إننا ما برحت وأبلت بلاءً حمداً فسوف تكون فرصتى جيدة فى الالتحاق بالخصص الذى أفضله. إننى أريد حفيقة أن أكون فرد استطلاع وتوجيه نيران البحرية».

وتصورت أن صراحتى ستقودنى لأستقل أول سفينة تقل جنوباً إلى كوريا. وبدلاً من ذلك حدثت المفاجأة وأصبحت فرد الاستطلاع وتوجيه النيران البحرية للعلم رقم (٨١٠). ولم إلحاقى بصرية اتصال النيران الجوية البحرية بقوة مشاة البحرية بالأسطول بأطلانطا بكامب ليجينى نورث كاليفورنيا. ومن هناك أُلحِقْتُ بكتيبة للتعزيز بمشاة البحرية الأمريكية بالأسطول السادس فى البحر المتوسط حيث أُمضيت معظم الوقت على العمالة مدفوعة. وكنت أتوقع أن أذهب إلى كوريا كفرد استطلاع وتوجيه نيران البحرية. لكن لقسى نقطة وصلت إليها للاقتراب من القتال فى معارك التدريب فى البحر المتوسط ثم فى بورنيو لاحقاً حيث سلمت فى توجيه نيران المدافع العملاقة عيار ستين بوصة بالعمالة ميسورة.

كانت حرب كوريا فى عتفاتها، وكنت أفترض أنه قد يتم إرسالى إلى هناك فى أى لحظة وأُمضيت وقتاً فى التفكير فى ذلك، وانتهى الحال بشرات الملازمين من نغوى فى كولنكو

بالموت في كوريا. كنت راعياً في القنال. ناهيك عن القول أنني حشيتة. أما أولئك الذين تعرضوا لهذا الاحتمال وإن كان بعيداً بالذهاب إلي للقنال فإنهم يكتبون لو قالوا إن الخوف لم يملكهم حول عدم عودتهم.



وفي ذلك الهندج بالطائف لتذكر ما جال بخاطري بأنه يوجد هنا بعض أفراد مثل رجالنا في مدرسة الأساس الذين زاملوني وذهبوا إلي كوريا. وكأفراد دفعتي كانت تحركهم دوافع هائلة: فبحوزتهم طائرات رهيبة ويحرقون كما قالوا المرة تلو الأخرى للتخليق فوق العراق وإصابة هدفهم. وكنت أعرف من أعماقي أنه في غضون أربعة أو خمسة أيام علي أنقسي تقدير سوف يحلقون بطائراتهم لشن الهجوم، وإن يعود بعضهم إلي قواعده. وبالنسبة لي، والحقيقة بالنسبة لنا جميعاً هنا كانت لحظة مفجرة لكل المواطنين. وإغروقت عيناى بالدموع أكثر من مرة. وتداولت كل ما يمكن أن يحفظ هدوئى.

وشكلت زيارة الهندج الذرة الماطفية لهولتى التي استغرقت تسعة أيام وبدأت في السادس من كانون الثاني يناير وهي سادس زيارة لى إلي الخارج منذ اندلاع أزمة الخليج في آب أغسطس. واستقطب اجتماعى في ٩ كانون الثاني يناير في جنيف مع طارق عزيز في منتصف الجولة اهتمام العالم. وبينما كنا نأمل في تحقيق انفراجة في جنيف كنا نضع اللمسات النهائية لاستعدادتنا مع شركائنا في التحالف لخوض الحرب لو لم يحدث هذا الانفراج. وكنا في حاجة للتأكد من استمرار صمودهم.

كنا نريد للتأكد أنهم سيرسلون قواتهم إلي المعركة تحت قيادة الجدرالات الأمريكيين. أما بالنسبة لشركائنا العرب كان من المهم للتأكد مرة ثانية من صمودهم لو هاجم العراق إسرائيل كما يؤكد عزيز الآن علي الملأ، وكنت في حاجة أيضاً إلي يده إجراءات إحطار الحكومات الأخرى بشأن بداية للمقاتلات الحربية وصمان التزملمات جديدة بالدعم للمالى من الكثير منها. وحملتني رحلتى من حرارة الخليج اللافحة إلي برودة أوتارا حيث حالت الثلوج

الكثيفة دون مغادرتي إلي واشنطن. ولجماً لأقطعت ١٨٢٤٠ ميلاً للمقاء زعماء من خمس عشرة دولة والسكوتير العام لحلف شمال الأطلسي، وربما يمكن النظر إليها كلها - في الواقع - علي أنها اجتماع أحيار لمجلس وزراء الحرب الدولي.

وباستثناء العرب الذين كانوا متفقيين في تلهفهم للحرب ولجهت مزيجاً من التسميم وندير الشر في كافة الدول التي توقفت بها. فقد ساد قلق بشكل خالص في كثير من الدوائر حول الحمايل البشرية، ولا سيما الخسائر المسمومة وقوعها بين المدنيين نتيجة «الأسرار الإصافية» للمهجمات الجوية. وكان هؤلاء القادة الذين اجتمعت بهم قبل لقائي مع عزيز متشائمون من احتمالات تحقيق انقلاجة في اجتماع جديف. وشعر بعضهم بالقلق من أن صدام قد يعرض حلاً. وطمأنتهم بأنه ليست لدى نية بالقبول بما هو أقل من بنود قرارات الأمم المتحدة. كان المراج العام مزاج تسليم. فلم يترك صدام خياراً آخر.



بدلت الجولة في لندن حيث التأييد المطلق كالمعهد دائماً. وعقب اللقاء في ٧ كانون الثاني يناير مع دوجلاس هيرد الذي أخفق في إقناعنا بأنه قد تكون هناك صعوبة في قيام طائرانا بمهاجمة منشآت الإنتاج الأمثلة للبيولوجية كما هو مقرر، توصلت إلي اتفاق حاسم بالتمركز المؤقت للقوات مع وزير الخارجية الأسباني فيليب أورونيز، وهو دبلوماسي بارع وقدير معروف بين زملائه باسم «باكوا» (توفي أورونيز، لكن ليس قبل أن يعمل عن قرب معي مرة أخرى عندما وقع اختيارنا علي مدريد لاستضافة مؤتمر السلام في الشرق الأوسط). وتمركزت القواصات والسفارات الأمريكية في أسبانيا لتقود لكن حكومة مدريد أصبحت بالغة الحساسية تجاه هذا للتمركز.

وأرتأي البنجاجون أنه من الضروري حصول للقاذفات الأمريكية الثقيلة طراز بي ٥٢ وطائرات التزود بالتقود في الجو طراز كي سي ١٣٥ علي حق للتمركز المؤقت في قاعدة نوربخون. وتقبل أورونيز حجتي بأن هذه ملاصات غير عادية، وأبلى بأن حكومته ستسمح باستخدام قاعدة توربخون كقاعدة لطلاق للقاذفات بي ٥٢ ولعمليات إعادة التزود

بالتفرد لقائات أمريكية أخرى من نفس الطراز وهي في طريقها من قواعدها الأمريكية لشن هجمات علي أهداف في العراق والكويت .

الفرنسيون مرة أخرى

عقب التشاور مع جاك بوب وزير خارجية لوكسمبورج الذي تولي رئاسة المجموعة الأوروبية توجهت إلي باريس . وعندما وصلت إليها في ٨ كانون الأول ديسمبر كنت لأزال غاضباً من الفرنسيين بسبب إجتماع مجلس حلف شمال الأطلسي قبل ثلاثة أيام في بروكسل فقد وصل رولان دوما وزير خارجية فرنسا متأخراً ولنصرف مبكراً تاركاً أوامر لسفير فرنسا بعدم الموافقة علي أي شيء . وترتب علي هذا إقرار مجموعة قرارات تكمّل بحرب الخليج بأغلبية خمسة عشر صوتاً مقابل صوت واحد . وأصروا علي إجراء غير مسبق بتسجيل كل صوت للتركيز علانية علي الاعتراضات الفرنسية داخل حلف الأطلسي . وأبلغني مانفريد فيرنر أن للتصرف الفرنسي لم يكن مناسباً وزاد غضبه من حنق . وعندما التقيت مع دوما قبل إجتماعي مع ميتران تحدثت بصراحة بالغة حول ما أتصور أنه فوز فرنسي مريب .

وقلت : نحن لا نري هذا من أي بلد سوي فرنسا . وفي أماكن أخرى في أوروبا نشعر بأن علينا التعامل مع مثل هذه الكراهية . ففيرنر غاضب وأنا أيضاً . فهذه ليست طريقة معاملة الصديق . لقد تقاربنا لفترة طويلة بما يسمح بمنع حدوث هذا . وفي الوقت الذي ألقى فيه بالمسؤولية علي بيروقراطية بروكسل الأمريكية والفرنسية كان توجه دوما تصالحياً واعترف دوما : إن هناك في نهجنا ميلاً لكبرياء في غير موضعه . شعور بأن الولايات المتحدة تملأ أشياء علي فرنسا . وقال : إن مرجع مثل هذه الحساسية بقايا أعراض الديجولية في اللزعة الاستقلالية . كان دوما يعترف ضمناً بما اعتاد وزير خارجية أوروبا أن يصفه في توالده بالأسلوب الفرنسي . ويسود الانسجام للشخصي بيني وبين دوما . ووعدني بإصلاح الأمور . بل ووافقتني إلي المطار كبادرة لحسن نيته .

وبدأت الاجتماع مع ميتران بقرأة رسالة للرئيس بوش إلي صدام حسين ومطالبة مقترحاته. واعتبر ميتران أنها رسالة ممتازة: إنها رسالة عتيقة ومفهومة. إنها لا تدع خياراً أمام صدام سري الاستسلام التام. غير أنه اعترض علي عبارة وردت في صدر الصفحة الثانية تتعهد بأنه لو انسحب صدام من الكويت فسوف يظف للعراق من التدمير واعتبر أن هذه لغة حمقاء فمن الخطأ القول بتدمير للعراق. إنه 'يخلق خطأ بين المؤسسين المدنية والعسكرية، وهو أمر سيستخدم خطأ لأغراض دعائية. كان تعليقاً موفقاً للغاية. فلم يكن لنا لى مشكلة مع شعب العراق. فربما تم اعتبار الإشارة إلي تدمير بلد بأكمله محاولة منفردة من جانبنا لتوسيع قرارات مجلس الأمن. وبعد التشاور مع الرئيس بوش تم تعديل الصياغة لتصبح: «إذا انسحب للعراق فسوف تلت المؤسسة العسكرية العراقية من التدمير».

وبعد هذه النقطة بات الثمار أكثر صموية حيث حاولت الحصول علي التزام كان ميتران عازفاً بوضوح عن تقديمه. ويتمثل في أنه في حالة الحرب فإن قوات التحالف بما في ذلك القوات الفرنسية سوف تكون خاضعة لقادة موحدة بقيادة ضابط أمريكي. وبعد شد وجذب حول هذه النقطة أكد ميتران أنه في الوقت الذي لن تشارك قواته الجوية في الهجمات الجوية وليس هناك مانع من توحيد العمليات الحربية مع الولايات المتحدة تحت قيادة أمريكية في اليوم الذي تبدأ فيه العمليات للبرية.

ثم انتقلنا إلي بحث الخلاف بيننا حول مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط. فقد اقترح عقد مثل هذا المؤتمر علي مدي سبع سنوات ومتواصل تبني هذا الاقتراح. وقال: «إنكم مخطئون بمعارضته، وإسرائيل ترتكب خطأ بمعارضته أيضاً. فشامير بالغ للصلب والتعت حول هذه القضية» (ولابد من التنويه إلي أن إبلاغه لى بتعت شامير يشبه إبلاغ نوح بالطوفان).



كانت محادثات شاقة لكن موثران ملم في النهاية. وأبرقت للرئيس «سوف يكون الفرنسيون بجانبنا عندما ندعو الحاجة. فربما تكون الطريق وعرة في الأسبوع القادم أو بعده، وفي اجتماعي مع هيلموت كول بعد ظهر اليوم نفسه لاحظت أن الألمان أوفوا بالالتزامات المالية التي قطعها كول في أولول سبتمبر في لوندفيجشافين. ولكن كما هو الحال مع كافة حلفائنا غير المشاركين بقرات عسكرية سيكون من المطلوب تقديم المزيد عام ١٩٩١.

وقلت: «ليس لدى أدنى تفاؤل حول فرصتنا في تجنب صراع رغم أننا لا نستبعد تجنبه علي الإطلاق. فلزال من المحتمل أن يستوعب الرسالة. كان المستشار متشككا في إمكانية الترامنا بعدم مهاجمة الواحدات العراقية إذا انسحبت من الكويت. وقلت له يمكن صمان أننا لن نهجمها» وأن القوات الأمريكية هي القوات الوحيدة الكبيرة بما يكفي للتدبر له مشكلات خطيرة».

وفيما يتعلق بالأموال قال كول: إنه سيدرس بحناية طلبتي بتقديم ٣٣٥ مليون دولار شهريا. وقال: «علي أن أفكر في هذا الأمر لكنني سوف أفعل شيئا».

جاء التوقف الأخير قبل جنيف في مولانو حيث التقيت جيانى دى ميخائيليس. ولطالما دافع الإيطاليون بشدة عن الوجود الأمريكي في أوروبا وعن دورنا القيادي في حلف شمال الأطلسي، وساهموا بعدة أسراب من السفنات في الجهود الحربية. لكنهم كانوا يشعرون بحساسية في بعض الأحيان من أننا نولى اهتماما أكبر بالبريطانيين والفرنسيين والألمان. ورفض دى ميخائيليس طلب عقد الاجتماع في بروكسل، وأصر علي عقده في إيطاليا حيث أكد الإيطاليون مجددا مساندتهم لجهودنا.

العرب

بعد اليوم الحافل غير المثمر مع عزيز في جنيف توجهت إلي الرياض في العاشر من كانون الثاني يناير للتشاور مع السعوديين. وقبل لقاء الملك فهد اجتمعت علي العشاء مع الأمير سعود والأمير بندر اللذين كانا متحمسين كالمستوقع لإحتمال إقتراب موعد مجابهة

عدوهما اللدود. وحتى حلفاء صدام حملوا أنفسهم علي تقبل الحرب. وأسر سعود في نشوة بالعة نغلاً عن مصدر قال إنه وثيق الصلة بالملك حسين، بأن هناك جواً قاتماً يخيم في عمان بسبب عدم إنهيار التحالف. وتؤكد لي تأييد المملكة للثام. وتؤكد سعود: «لأننا نحترم أن نري هذه المشاركة وقد أُنجزت. فقد اتخذت العربية السعودية قرارها المظير الذي لا عدول عنه مطلقاً مثلما اتخذ الرئيس قراره». ولعلني يندر بأن له أخا كان مناهضاً قوياً لأمريكا، والآن لا يراني إلا ويقول إنه مدين باعتذار عن الولايات المتحدة. كانت هناك بعض المسامات النهائية التي يتعين وضعها. ولتفقنا علي أنه بمجرد صدور الأوامر بالهجوم سيقيم بندر بإبلاغ الملك فهد بكلمة سر متفق عليها: «صديقنا القديم سليمان سوف يأتي». وأشار إلي أن الملك سيجتمع حينئذ مع كافة كبار مسؤولي الحكومة في مركز قيادة تحت الأرض. وبمجرد تجمعهم سيتم قطع كافة الاتصالات الهاتفية مع الخارج. ورغم أن السعوديين أصدقلونا وجلفقلونا لكن تأمين اتصالاتهم يمكن وصفه تطفلاً بأنه - غير فعال - وفي ضوء الأرواح المزعنة للخطر فما من أحد يريد المخاطرة بوجود وزير ثرائر قد يفضح أمر الساعات.

وعرضتُ الحصة للسعودية في كلفة درع الصحراء لعام ١٩٩١ وقدرها ١,١ مليار دولار في الشهر وتزيد لو امتدت العمليات، و٨٠٠ مليون دولار معونة اقتصادية لتركيا ومليار دولار علي مدى خمس سنوات للصندوق للدفاعي الخاص بتركيا. و٨٠٠ مليون دولار لشرق أوروبا للمساهمة في ترميض ارتفاع أسعار الطاقة نتيجة الارتفاع الكبير في أسعارها بسبب حظر المفروض علي البترول للحرق. وكان سعود يريد أن يعرف ما سئلته من الكويت. ولما قلته بأننا نطلب نصف هذا المبلغ. وكما فعل في الاجتماع السابق حتى سعود علي ألا يطلب من الكويتيين أقل مما أطلب من السعوديين. وقال إن البلدين يعملان حصة متساوية عام ١٩٩٠ كما أن الكويت تمتلك احتياطياً أكبر من النقد الأجنبي. ووافقت علي أن أفكر في الأمر قبل وصولي إلي الطائف لقاء الأمير.

واعتقدت أن إصرار سعود علي تقسيم العبء المالي بالتساوي بين البلدين هو نتيجة لبعض التوتر بين الحكومتين أكثر منه تلميحاً إلي صعوبات مالية تعاني منها السعودية. ومع هذا، وبينما نحن ننتظر لقاء الملك لتقويت تلميحاً - بخطأ اعتقادي - فقد أشار شاس فريمان سفيرنا في السعودية علي بأنه يجب علينا ألا نطلب المزيد من السعوديين، وقال إنه نتيجة

لالتزاماتهم السابقة في عملية درع الصحراء فإنهم يولجھون عجزاً في السيولة المالية لم يشأ سعود أن يعترف به أمامي .

وبدت لي أنها حالة تقليدية للموالة من جانب واحد من أفضل دبلوماسييننا . وقلت : «إني سأواجه الكونجرس ، وسأطلب منهم تمويل هذه العملية . لقد شرحت للأمريكيين أن دماء أبنائهم قد تراق . فإذا كنت تعتقد أننا لن نطلب من السعوديين عدم تمويل هذه العملية سوف يكون هناك تفكير آخر مستقبلاً . وكانت هذه آخر مرة أسمع منه طلب التساهل مع السعوديين في كلفة العملية .

وكما توقعت كان الملك فهد بالغ الكرم عندما أبلغته أننا نحتاج مزيداً من الدعم المالي . وقال : «بالطبع فأنا لن أؤس أغلي من الأرواح ، فما قيمة المال إذا لم يخدمنا ونحن يؤدى واجبنا ؟ فكيف يمكن تقييم أرواح الذين يقاتلون بالدولار ؟ سوف تصاب طلباتكم وسوف تواصل العربية السعودية دفع حصتها العادلة في كلفة عملية درع الصحراء .



كان الملك قد تلقى عدة رسائل من صدام تطلب الاجتماع به . ورفضها بعبارة «استعراضاً سياسياً . وقبل يومين من غزو الكويت أرسل الملك فهد الأمير سعود إلي بغداد حيث كلفه صدام بأن يطمئن الملك بأن أنباء حدوث غزو غير صحيحة . ولتهدئة لهذه الخيانة الشخصية فإن يغفر لملك فهد لصدام أبداً . ويسمى القول أنه كلما شاهدت صدام في زيه العسكري علي شاشة التلفزيون فإنه يذكرني بمرشدي المتفرجين بدور السينما في هيوستون أيام شبابي . ابتسم فهد وقال : إن نفس الفكرة راودته وقال : «إن صدام ورجاله يبدون في أريائهم مثل السهرجين المبهرجين» .

وطلبت من الملك أن يساعدنا في اقتاع الرئيس الأسد في إلزام قوائمه بالمشاركة في الهجوم إذا باتت الحرب ضرورية . ولأسباب رمزية وعاطفية كان من المهم للجنود العرب أن يحرروا مدينة الكويت ، فقد أبلغني للرئيس مراراً : «إني لا أريد أن تدخل القوات الأمريكية

عاصمة عربية. . وبينما كنا جميعاً علي ثقة من أن قرأتنا ستكون حتماً رأس الحربة أي هجوم يرى فإن المشاركة السورية في الهجوم ستكون مفيدة للغاية.

وفي اجتماع رتب علي عجل في جلف في ١٧ تشرين الثاني نوفمبر نجح الرئيس بجهد كبير في إقناع الأسد بالسماح بنشر قواته في عمليات دفاعية لو بدأت الحرب. لكنه فشل في الحصول علي التزامه بتحريك القوات السورية عبر الحدود والمشاركة في الهجوم.

كانت أعرف أن الأمر سيكون شاقاً. وعلمت من السعوديين أن القادة السوريين يعرقلون القيام بدور هجومي ، وباعتبارهما من أوثق حلفاء السوقيت كان العراقيون والسوريون يحدون علي الأسلحة الروسية إلي حد كبير. وخشى السوريون من أنه إذا شاركوا في القتال علي الجبهة فربما يحدث خطأ بتحديدهم علي أنهم قوات معادية في غمرة المعركة ومن ثم تفكهم نيران القوات الأمريكية.

وأراد السوريون جنى الفوائد السياسية للمشاركة، ولكن من مسافة أمنة فقط. ولهذا عصبيتهم أوفدت هارولد جريفر إلي وزارة الدفاع السعودية ليطالب من نورمان شوارتسكوف إعداد دور هجومي قد يذاط بالقوات السورية. وبعد ساعة عاد جريفر حاملاً حل شوارتسكوف: قلن يطلب من السوريين دخول أراضى العراق لكنهم سيدخلون الكويت كاحتياطي استراتيجي للقوات المصرية المدرعة، وسيضمنون إلي الهجوم إذا احتاج المصريون إلي مساعدة. ووافق الملك فهد علي إيفاد الأمير سعود إلي دمشق صباح اليوم التالي للضغط علي الأسد شخصياً قبل وصولي بيومين.

وبعد منتصف الليل بفترة واجتماعنا يوشك علي الانتهاء عزم الملك فهد لقدراماً تكتيكياً جيداً. وأشار إلي أن القوات العراقية ستوضع في حالة تأهب قصوي في ١٥ كانون الأول ديسمبر. ولو تأجل الهجوم قليلاً ستخف درجة التأهب. وقال: «علما لا يحدث شيء يوم الخامس عشر سيقول البعض إن شيئاً لن يحدث. وأري الانتظار يومين ثم نهاجمهم، وتركبت نصيحته بشكل جوهري مع حساباتنا التكتيكية.



ومع معادرة طائرتي الرياض في الطريق إلي أبو ظبي صباح اليوم التالي تطلعت من نافذة الطائرة لأشاهد مئات الطائرات الحربية الأمريكية رابضة تصطف جناحاً بجوار جناح تلاً المدرج. وكان من المثير للتوقع من أن الأوامر ستصدر إلي هذه الطائرات بكل تأكيد للهجوم في غضون أيام.

وكالمالك فهد كان الشيخ زايد صقراً عنيداً. وكان يعتقد أن للحرب ستعزق ثلاثة أيام وسيتم إخراج العراقيين من الكويت في غضون ثمان وأربعين ساعة. وقال: إن صدام يحكم ومسدسه في يده. إنه لا يفرج عن مترب متباط جيشه بالرصاصة. ندعو الله أن يساعد شعبه. فصدام حسين مستعد للتضحية بالملايين من الشباب والشيوخ لإشباع نهمه.

ولم يبد اعتراضاً عندما أثرت مسألة ارتفاع كلفة الحرب. وقال: وأرجو أن تقدم لنا التقديرات. وسنبحث الأمر. وسوف نلتزم بما وافقوا به وما لبثت أن اجتمعت بعد ذلك في الطائف مع ولي عهد الكويت وأبلغته بأننا نطلب ٤٠٠ مليون دولار شهرياً تكلفة مباشرة للوجود العسكري الأمريكي في الخليج. وطلبت إضافة إلي ذلك تقديم ٨٠٠ مليون دولار لتركيا علاوة علي ١٥٠ مليون دولار سبق للتحهد بها. إلي جانب ٤٠٠ مليون دولار لدول شرق أوروبا. ووافق من حيث المبدأ علي كل ما اقترحه مالياً. وفي هذا الصدد تذكرت النقطة التي أرتأها سمود. فالأرقام التي طرحتها علي ولي العهد الكويتي متكافئة مع تلك التي طلبتها من السعوديين.



وبعد التحدث مع الطيارين وأطلق الجناح الثامن والأربعين توجهت إلي القاهرة حيث وجدت للرئيس مبارك متحكر المزاج. فقد تلقى لكوه ما وصفه بأنه رد «فج» علي رسالة تسالحيّة أرسلها إلي صدام مؤخراً. وفي صوره هذه التجربة غير السارة قال إنه لم يفاجأ عندما علم أن طارق عزيز رفض تسليم رسالة الرئيس. وقال مبارك: «كان عليه تسليمها، وكان علي صدام حسين أن يجيب عليها. فهذا هو الأسلوب الذي يتعامل به المتحضرين».

ووصف مبارك صدام بأوصاف لا ذمة ملأ أوصاف الملك فهد لصدام . وقال : إنه يطرح نفسه كصاحب رسالة كالنبي محمد .

وبالمصادفة كان عبد الكريم الإرياني وزير خارجية اليمن موجوداً في هذه اللحظة في القاهرة استعدداً للتوجه إلي بغداد علي أمل التوسط للتوصل إلي اتفاق مثير في اللحظة الأخيرة لتجنب الحرب . وأبلى مبارك أن الوزير يعتقد أن صدام ربما يوافق علي الانسحاب إذا اطمان إلي أن القوات الأمريكية لن تهاجم قواته المنسحبة . وكما نقول في تكساس كنت أعرف أن الكلب لن يسطاد . وعرضت ذلك بالضبط علي عزيز في جنيف لكن دون جدوي . وطلب مني مبارك التحدث مع الإرياني بأي شكل . ولم أكن مهياً لإهتدائي وقت مع اليمنيين بعد أن رفضوا التحاور في مجلس الأمن الدولي . لكن مبارك حليف وصديق قوي وكان قد طمأنني لقوة أنه بمجرد بدء الحرب «سكن أن تعتمد الولايات المتحدة علي مصر» كان مبارك صلباً كالصخر . فلمريكا مدينة له بتقديم يد العون أصراً أنها غير مجدية . ورفضت عقد اجتماع . تكلمت وافقت علي التحدث إليه في الهاتف . وبعد دقائق اتصل الإرياني علي الخط الخاص بمبارك . كانت تعني ساخرة عن عمد : «إنني أشعر بخيبة أمل كبيرة لتصويتكم ضد القرار رقم ٦٧٨» وأكدت مجدداً سياسة الرئيس : «إذا ما انسحب العراق علي الفور وبشروط فإن يشن التحالف أي هجوم . وهذا للوزير مفعماً بالأمل وأنهي المكاملة لبدء البحث عن تسوية وهمية . ولوقعت بوب كيميت إلي للفندق الذي ينزل به الإرياني لينقل رسالة لم أشأ ذكرها في الهاتف : «إذا ذهب الإرياني إلي بغداد فليؤكد من عدم وجوده بها بعد منتصف ليل الخامس عشر من كانون الثاني بذاير . ورد كيميت بأن الإرياني جفل بالمطى العرفي للكلمة — عندما سمع تحذيري ، وأوضح أنه لن يبق إلا ساعات فقط . وعلي الأمل فقد تلقي الإرياني للرسالة . ولعل أن ينقل إحساسه الشخصي بالانزعاج إلي صدام .

وكما طعت مع الملك فهد طلبت من مبارك المساعدة في إقناع السوريين وأشرت إلي أنه من الصعب علي الاعتقاد بأن السوريين سيجلسون علي الطاولة ولا يحملون نصيبهم . وقال مبارك : لا تلقى من صديقي الأسد .



وتوجهت من القاهرة مباشرة إلي دمشق لعقد اجتماع بعد الظهر مباشرة مع الرئيس الأسد استغرق نحو أربع ساعات. كان الأسد قد وجه لثمة نداء عتياً لصدام والشعب العراقي بالانسحاب من الكويت في محاولة أخيرة من جانبه لجذب العرب. وأعتقد أن كلينا كان يعرف في هذه اللحظة أن الحرب بائت حتمية. لكنني لم أשא أن أترك الأسد دون علم. وأبلغته بأننا إذا اتخذنا هذا القرار بعد انقضاء المهلة فينبغي أن يكون هذا بمثابة التشاور معكم. فلا تتوقع أن نسمع شيئاً آخر. والأسد رجل متمرس علي قراءة ما بين السطور ولهم ما أريد أن أقوله علي وجه الدقة. وهذا يناسبنا.

وأبلغته بأنه مع اقتراب المهلة من نهايتها فمن الضروري أن يكون لدينا تحديد واضح لطبيعة المشاركة السورية في العمليات القتالية. ولنا أشرح الخطوط العامة للمهمة القتالية المحددة التي قدمها نورمان شوارتسكوف قبل يومين: «عندما يجلس معظم الناس علي الطاولة يكونون مستعدين للتعامل مع الأورق»، لكنني لم أترك انطباعاً لدي الأسد الذي كان تردده مبنياً في الظاهر علي حسابات استراتيجية أخرى. وفي حديث مطول أظهر فيه اقتداراً علي المقارعة الفكرية التي يمكن وصفها بشيء من السخفية بأنها للمودية، ذكرني الأسد بأنه أمر قوائمه فقط بالدفاع عن العربية السعودية وليس بمهاجمة الأشقاء العرب. ولم يتطرق بالذكر لتعلق صلباته الذي سمعته في السعودية. بل ظهرت مؤشرات أجواء غير ودية. وتعمد قائلاً: «إن ندلف في أجواء صنبابية ولا يمكننا أن نسمح للآخرين بذلك». وأكثر من ذلك فقد أضح لي أن مشاركته بالعد الأدنى جلبت له متاعب مع الرأي العام.

وتساءل: «ماذا سنقول للشعب السوري. إن هناك من السوريين من يتسامح عن سبب إرسال جنود إلي الخليج».

وقالت: «السيد الرئيس. إن اقترح عليكم ما يقال للشعب السوري، لقد تحدثت عن الرأي العام الأمريكي. فلدينا مشاكل مماثلة».

«وربما يسعكم القول إن قواتكم تعمل كاحتياطي للقوات العربية التي تحرر أشقاء عرب تعرضوا للفظو والوحشية، وإن هدفكم الوحيد هو تحرير الكويت وإن قواتكم لن تعارب علي أرض العراق».

وقال: «لو كنت مولداً سورياً هل تعتقد أن يكفيك هذا».

وقلت: «أعتقد أن الشعب السوري يصدقكم عندما تتكلم. فلو قلت لهم هذا مصروف يصدقونك».

وقال: «نعم سوف يصدقونني. لكن الكلمات لن تكفي لإقناعهم. إنتى لا أصطوك قراراً نهائياً. إنتى أبحث القضية منك. إننا نريد أن يكون كل شيء واضحاً».

وبالطبع فإن فكرة أن الأسد مصداقية إلي حد ما لدي الرأي العام السوري غير قابلة للتصديق. فالأسد وسيطر سيطرة تامة علي بلاده. وعدد هذه النقطة في مفاوضات دقيقة وحساسة فالأكثر أهمية هو استمالة لا معارضة نحاوله لما أشر أنه قلق دخلى غير موجود.

وفي النهاية لم تفلح حججى في استمالة فيما يتحقق بمشاركة قواته فى القتال فى الكويت. ووعدنى قائلاً: «حسناً سوف نتحدث إلي السعوديين». وهذا ما أعرف أنه الساند الدبلوماسى، لا تحبس أنفاسك خوفاً، وكما أجريت مئات الجولات من المفاوضات خلال عملى سرّاً وفي العلن - كان الأسد علي الدوام وتعداً من أشد المفاوضين بأساً. وكنت أعرف أنه محاور مرعب فى مهمة ما بعد الحرب فى البحث عن السلام فى الشرق الأوسط. وأخيراً وافق السوريون علي دخول الكويت. لكن فقط فى دور إسناد عسكري غير مهم فى المؤخرة.



وغادرت دمشق متوجهاً إلي أنقرة لكن العذاب كان يظف العاصمة التركية. وعلي قيد صنع مئات من الأمطار من مدرج الهبوط اضطر قلاد الطائرة لإلغاء محاولة الهبوط مرتين. وتسبب ضعف الرؤية فى إفشال محاولة الهبوط لأكثر من مرة، وطلبت من الطيارين الكف عن محاولة الهبوط، وتم تحويل طائرنا إلي قاعدة إنجوليك الجوية حيث أخذت الطائرات الحربية الأمريكية أميتها للقتال. ولمعندئذ الليل فى أجنحة الطيارين العذاب. ونام كبار

العاملين معي علي أسرة خفيفة في غرف مشتركة بينما ألفت سيارات الأتوبيس صغار معاربي والطاغم الصحفي إلي فندق خمس نجوم. وعندما إنتهيت في النهاية مع أوزال في اليوم التالي كان صلياً كالعهد به.



وكان آخر ترفين لي مع أقوى حلفائنا بريطانيا العظمي وكندا. وكمايشر علي خطورة الموقف التقني بي جوي مجبور الذي تولي خلفاً لمارجريت تاتشر في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠، في لفحة كريمة خلال توقفى للتزود بالوقود في قاعدة جوية ملكية في أكونبوري. كان مؤيداً متحمساً كالمتوقع. وعندما استفسرت منه عما إذا كانت هناك حاجة لاستشارة أحد آخر. قال: فقط للسلطة إليزابيث هي للباقية التي يجب إخطارها. وقال: إنني أعتقد أنها لن —وسمك في سره — تملك عن تقديم الموافقة للمرة الأولى مد ثلاثمائة عام.



وفي أوتاروا لم يكن بريان مولروني أقل تأييداً من مجبور. وللمجب فإن هذا التوقف الأخير هو الذي سبب لي لعطالت غير مريحة. فقبل اجتماعي مع مولروني اجتمعت مع جاريت إيفانز وزير خارجية استراليا الذي تصادف وجوده في أوتاروا. كان إيفانز وزير خارجية متألق وقدير ولا مع وممتاز. وكان صديقاً أيضاً. وسررت عندما علمت منه أن استراليا تؤيد التحالف بشدة. لكن سعادتني تراجعت بعد الاعتراض علي قضية الإخطار المسبق للذقية. ولاجدال في أن حالتي للنفسية تأثرت بالإرهاق المصلي. لكنني رددت بطور علي إصراره بضرورة إخطاره مسبقاً بالهجوم لأن الاستراليين عرضة للخطر ورددت عليه: إن لديكم فرقاطة واحدة في الخليج. إن لدينا خمسمائة ألف جندي وجندية علي الأرض وإن أجارب بأمنهم بإخطار سابق لأوانه. وفي غمرة النقاش المحتدم الذي تلا ذلك

طلب ليفانز أن يعرف علي الفور موعد للهجوم بدقة، وأعلن صراحة أنني أخفي الموعد عن حليف. كان تحريضه ولهجته غير مقبولة. وقلت بملف: إن يكون هناك أخطار مسبق من أي نوع. وانتقدت صداقتنا الاجتماع وكذلك قدرتنا علي العمل عن قرب في عدد من القضايا المهمة المتعلقة بأسيا والهادي.

ليتوانيا تفجّر

عدت إلي واشنطن منتصف نهار الرابع عشر من كانون الثاني يناير بقمري لرتباح لتشاري مع كل الحلفاء. كان التحالف صلباً ومستعداً للأمر السحتم. وفي الوقت نفسه تمت تذكرني بأن السياسة الخارجية هي سياسة متعددة الأبعاد في الغالب في أخرج اللحظات. وبينما نحن نأهّب للدخول في حرب الخليج كنا نقوم بإجلاء الدبلوماسيين الأمريكيين والأجانب من الصومال حيث بات العنف العشائري يهدد باحتواء البلاد في حرب صريحة. وفجأة نشبت أزمة في البلطيق وكشفت هذه الجولة للتحدي الذي يواجهه صانعي السياسة الأمريكية ندي تعاملهم مع مجموعة متنوعة من الأزمات كتلك التي تحدث عندما يكون بعض المسؤولين يعملون في واشنطن وبعضهم خارج البلاد. فالحالم لا يسكن ولا يهدأ بينما للتركيز منصب علي أزمة واحدة. فمن شبه المحتم أن تحدث أزمة أخرى، وتحقيق النجاح فمن المهم للغاية تحقيق تعاون وتنسيق وثيق بين الإدارات والمسؤولين. وهذا هو السبب علي سبيل المثال لوجود مندوب من كل وكالة أو إدارة مطلوبة علي طاقتي. وبينما لا توجد سوى أمثلة قليلة لمؤشرات الإخفاق فإنه يحسب لكل المشاركين حقبة أننا بقينا علي اتصال وثيق كما فعلنا. ولأننا فطنا هذا فقد استطاع الرئيس أن يحمي وقته في قيادة الولايات المتحدة في التعامل مع مجموعة الأزمات المتعددة لا في تصفية الخلافات أو سوء الفهم بينها.



فى الحادى عشر من كانون الثانى يناير تفجرت فى فيلنيوس للتوترات التى كانت تترامد مند بداية العام بين موسكو والحكومة ذات اللزعة الاستقلالية فى ليتوانيا . فقد فتحت القوات السوفيدية للمحمولة جواً لى وصالت الى ليتوانيا لتطبيق قوانين التجليد - نيرانها على حشد يحيط بدار الطباعة الحكومية للرئيس مما أسفر عن إصابة عدة مواطنين بجراح . ومع نهاية لليوم ملوقت القوات محطة التلفزيون الحكومية ومبان حكومية أخرى .

وبعثت برسالة إلى شيفرنادزة شرحت فيها أن ميتران وكول وديما وجينشر وهيرد أبلغوني جميعاً أن أى قمع فى ليتوانيا سيترتب آثاراً سلبية على استعدادهم للاستمرار فى تقديم المعونة إلى الاتحاد السوفيتى . وينطبق نفس الأمر بوضوح على الولايات المتحدة . ورغم استقالة شيفرنادزة فى عشرين كانون الأول ديسمبر ، ولم يتبق له سوى أيام فى الخارجية أرسلت له الرسالة لأصليه حافظاً ومصدقية يستند إليهما فى إمكانية التوجه إلى جورباتشوف ويتحدث إليه عن عواقب الإجراءات الناجمة عن حرص للحكم الرئاسى فى البلطيق .

ورغم اتفاق جورباتشوف ويورى يلتسين على تصوية الأزمة سلمياً إلا أن القادة المحليين تركوا الموقف يتداعى ليخرج عن نطاق السيطرة . وصباح ١٣ كانون الثانى يناير ، الأحد الدامى ، قطعت للقوات السوفيتية خمسة عشر ليتوانياً وجرحت المئات فى هجوم على محطة التلفزيون . وبدأ أن سلطة جورباتشوف تتداعى وأن للبلطيق على شفا للفوضى .

كان إعداد رد مناسب على للموقف عملية خادعة . وبقدرنا لا يمكن الصلح عن العنف لكن يتعين أن تكون لغتنا أكثر من حادة . فحسرية على للرسع قد تحبط همة أصدقائنا فى البلطيق ، وتشجع متفئدينا فى الكونجرس للذين سيبدرون بالأكيد إلى الاتهام بأننا ننظر إلى الطريق الآخر للإبقاء على السوفيت فى تحالف حرب الخليج . والأهم أنه لو استغل السوفيت مهلة الخامس عشر من كانون الثانى يناير مفترضين لتشتائنا فى المراحل الأخيرة لتتخطوط للحرب فيفتحون تصديرهم من أوامهم . ومن ناحية أخرى لم يكن هناك شك فى أن جورباتشوف يتعرض لصعوبات متزايدة من أعداء الإصلاح . فالتشدد معه قد يشجع متفئديه ويضعف موقفه وهو ما يتعارض بوضوح مع المصالح الاستراتيجية الأمريكية . علاوة على ذلك قم نكن نريد أن نكون أشداء للغاية مع جورباتشوف لدرجة ربما تخزيه بالفكاك منا على

حد قول الرئيس. واتفق الرئيس معى على ضرورة أن تكون استجابتنا محسوبة لكنها قوية بدرجة تكفى لإقناع كافة الأطراف بمدى جدتنا. وأعتقد أن البيان الطلى الرئيس وكذلك بيان الذى صدر فى انقرة قبل اجتماعى مع أوزال فى ١٣ كانون الثانى يناصر قد حقق هذا الدوارن الدقيق. فقد أكدنا فيهما على أنه فى الوقت الذى نؤيد ونعجب بالمساعى السوفيدية للتخفيف من حلال البيروميتروكا ولجلاسكوسيت فإن استخدام القوة فى التطبيق يشكل تناقضاً جوهرياً ومأساوياً لهذه المبادئ. وقلت إن الحوار السلمى لا القوة هو الطريق الوحيد نحو تحقيق الاستقرار والشرعية على المدى البعيد.



وفى صباح الخامس عشر من كانون الثانى يناصر بذلت محاولة رسمية مع القائم بأعمال السفارة السوفيدية سيرجى شيرتيفريكوف الذى تولى إدارة السفارة حتى يتم تعيين بديل لأكسندر بسمرتنيخ وأبلغته بأنه ليس هناك مبرر البتة لاستخدام القوة ضد حكومة ليونانيا المنتخبة ديمقراطياً، وأن لدينا ما يبرر قلقنا من تغير السياسة السوفيدية نحو الأسوأ وقالت: «إن اللطف الذى يحدث فى دول التطبيق الثلاث يثير مفارقات غير سعيدة بفترات سابقة فى التاريخ السوفيتى. إنه يقدم سببا للقلق تجاه عملية الإصلاح، ويتعارض مباشرة مع تلميحات جورباتشوف للرئيس بوش فى قمة واشنطن بأنه سوف يحل مسألة التطبيق دون عتب. لقد أنتخبت حكومات التطبيق فى عملية أوجدها جورباتشوف نفسه. إن لقلق يساورنا من أنها تهدد ترققه للنازضى».

يردون وجود تلميحات بدأ شيرتيفريكوف كالمتوقع. وقال: «إلى قدر صراحة تطبقناكم، مستفسراً عما إذا كانت تمثل وجهة نظر شخصية أم أنها بيان رسمى لحكومة الولايات المتحدة». وردت بهرود: «لقد كلمنى الرئيس بأن أنقل قلقه. ولذا عليكم اعتبارها رسمية». ووصف هذه الأحداث بأنها «مأساوية تدعو للأسف» وأكد أن جورباتشوف تأي بنفسه عن تلك الحوادث، وأمر بإجراء تحقيق شامل. كانت اعتذاراته واهية. وقد فجرت التوترات إرتفاع الأسعار الأخير. وهناك تهديد حقيقى بحدوث الفوضى والاضطراب فى ليونانيا. فالتقوات

تصرفت للفصل بين الأطراف المتناحرة التي تهدد النظام العام . وتساءلت : «ما هو سبيل استيلاء القوت علي محطة التلفزيون ؟» . وقال : «الإسكات البيانات الملتحجة التي تدرس الجماهير علي مقاومة قوي الإصلاح للديمقراطي» ، ونكرته قائلأ : «لقد عملنا بقوة لتعزيز العلاقات الامريكية السوفيتية وأنجزنا عملاً عظيماً . ومع ذلك فإن استمرار العنف سيؤثر حتماً علي قدرتنا علي مواصلة طريقنا .» . ولم لكن ولقأ من أنه إستوعب الرسالة ، ولذا فقد كررتها في محادثة هاتفية أجريتها في الصبح مع بسمرتنيخ بحجة تهليله بتعيينه خلفا لشيفرنادزه وقلت : «إن قدرتنا علي استمرار العمل في تعزيز علاقتنا يعتمد علي تمسك حكومتكم بمبادئ الليبرسترويكأ وآمل ألا يشكل ما يحدث عودة إلي التفكير والممارسات القديمة» .

وأكد بسمرتنيخ أن هذه الأحداث غير السعيدة «أحداث فردية ولا تمثل تغييراً في السياسة» وقال : «ليس هذا هو الشكل الذي ينبغي أن تسير وفقه الأمور . ويمكن تسوية هذه النزاعات إنها لا تشكل قمأ» ، فالتوتر في هذه اللحظة خرج عن نطاق للسيطرة .

وأعسست أن بسمرتنيخ يعتقد فيما يقوله لي . وكنت أعرف أيضاً أن جورباتشوف يتعرض لضغوط شديدة من اليمين . وما لم يقدر مدي المطورة فربما يضطر إلي تبني خط أشد تطرفاً ضد دول البلطيق . كان بسمرتنيخ يفهم السياسة الأمريكية جيداً ، ونكرته بأن الكونجرس لن يتسامح نهائ مزيد من العنف وكذلك الرئيس . وقلت : «لا يمكننا أن نقف هكذا ولا نندب للتحولات الأخيرة . فإذا لم تفعلوا شيئاً ألكسندر صوف ينهي هذا كل شيء . وطمانني بسمرتنيخ أن جورباتشوف يفهم المخاطر المحدقة بملاقتنا ، وسوف يحل هذه للصعوبات بطريقة سلمية» .



كانت وجهة نظري الخاصة في حينه أن جورباتشوف يعرف عما حدث أكثر مما يود تصديقه كرئيس ، وربما يكون يغير الولايات المتحدة بدرجة ما . واعتقدت أيضاً أنه يعرف ما تفعله قواته في البلطيق . فسلطانه تتآكل بسرعة . فعمد الإرتياح من الإصلاحات بشجع

منتقديه من اليمين . وفي غضون ثمانية أشهر سينجو جوريلاشوف من محاولة إنقلاب لم تحسم مصيره . وفي حالة يأس أقدم علي مقامرة مصيرية للتحويل بإتجاه منتقديه المحافظين . فربما حفظ هجومه في البلطيق مؤقتاً من الضغوط الداخلية عليه . لكنه إذا استمر فسوف يدمر العلاقة الجديدة مع الولايات المتحدة التي عمل هو وشويفرناذرة معي ومع الرئيس لبئالها . وفي الوقت الذي لم يكن بوسعنا تجاهل التصرف السوفيتي لم تكن لتتحمل وطأة خسارة السوفيت عشية حرب الخليج . وهذا واحد من أمثلة كثيرة نلذعتنا فيها للمبادئ والمصالح والواقعة والمثالية هي صعبنا لممارسة دبلوماسية خلاقة .

وأعتقد أن ردنا حقق التوازن الدقيق : الشدة الكافية لتجنب كارثة في البلطيق تكن دون دفع السوفيت للمروج من التحالف . وتلقي بسمرتنوخ للرسالة على نحو ما أملت ، وبدأت حدة الأزمة أخيراً . لكن في وقت لم تكن معه إنقاذ قمة بوش جوريلاشوف المقررة في شباط فبراير ١٩٩١ ، والتي تأجلت لأجل غير مسمى . ولكن في الوقت الذي انتهت فيه مكالمتي مع بسمرتنوخ اقتربت أزمة الخليج من دروتها . فسوف تنقضي السهرة في غضون أقل من ثماني ساعات . وفي غضون ما يزيد عن أربع وعشرين ساعة بقليل ستدخل أمريكا حرباً . فقد وقع الرئيس الأمر الضرورية .

وأخطأت سياسة حافة الهاوية التي انتهجها صدام حساب قوة أمريكا علي الصمود . ومن المؤكد أن ثمن أخطائه في الحساب سيكون مأساوياً ، وكلني أمل أن يدفع هو ولكنه للمعسكرة المدن وحدهما لا هؤلاء الرجال والفتيات الذين كانوا يتأهبون في هذه اللحظة لتحويل عملية درع الصحراء إلي عاصفة الصحراء . ولم يتبق سوى شيء واحد هو أن نصلي من أجل نجاحهم وسلامتهم .

الفصل الحادي والعشرون

عبور الحافة

إن هذه أمتععب التلمبضات التي عشناها.

إسماعيل شاهير

رئيس وزراء إسرائيل

لإيجلسرجر نائب وزير الخارجية

٢٣ كانون الثاني يناير ١٩٩١

في رد لعله علي جمعت مواربع سكود العراقية

حسنًا فالأوقات بالغة التوتر.

بصورتنيح

وزير الخارجية السوفيتي

في مكالمة هاتفية مع الوزير بكر

٢٤ كانون الثاني يناير ١٩٩١

صباح السادس عشر من كانون الثاني يناير تقيت مكلمة من الرئيس. واستفهم قليلاً هل يمكنك القدوم علي الغداء؟ إنني أريد أن نتحدث. لم يكن هناك سونا في غرفة الطعام الخاصة بمقر الإقامة في البيت الأبيض. كنا نجلس علي انفراد كتلك الأوقات التي التقينا فيها مررت لا حصر لها علي مدار الأعوام الثلاثين الماضية. لكن هذه المرة أحسست بتوتر داخلي من غير السهل رصده في رجل اجتماعي وتبساطي مثل جورج بوش. فقبل إنقضاء اليوم ستكون الولايات المتحدة في حرب. لقد اتخذ لنوه قرارات متؤدى إلي إرسال ما قيل له أنه سيدفع ملكات الجنود ومضاه البحرية والطوارىء واللاحين إلي حتفهم. وفي لحظة الحقيقة في رئاسته وربما تكون اللحظة الأهم في الرحلة التي بدأناها معاً في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٨م، كنت أعرف أنه يلتمس شوقاً من الاطمئنان والسكينة.

وجدته متذكراً. إنه مطمئن للقرارات الصعبة التي اتخذها. وشعر أنه تلقى نصيحة جيدة من ذلك تشيلي والجنرالات، وكان مقتنعاً بأن قوات عاصفة الصحراء عالية التدريب والمجهز وروحها المعنوية مرتفعة. وموضوعياً ليس هناك مجال للخسارة بأية حال، فبدني أن ينتهي الأمر في غضون أسابيع بأني حصار بشري، ويتحقق أنه وهو الطيار الشاب السابق في البحرية في المحيط الهادى الذي خاض تجربة القتال من قبل يعرف أن الحرب لا تسير كما هو متون في الكتب وخطط العمليات - فهذه «صناعات الحرب».

وكما نذكرنا كولين باول أكثر من مرة فالمرتب ملونة بالصراجات. وأناأتني لهجة الرئيس بأنه يشعر بقلق عفيف من احتمال حدوث عواقب وخيمة. وقال: «أعرف أن هذا هو الصواب الذي يتعين عمله. وأعرف أننا ضلنا الصواب. إننا لم نهدر فرصة واحدة. ولا يمكن الحصول علي تقديرات بالخسائر البشرية المتناظر حدوثها. فلما كانت تقديرات العسكريين دقيقة فسوف تكون نتيجة المعركة القاتمة جيدة. أما إذا كانت التقديرات خاطئة - كما حدث في فيتنام - فستكون الخسائر البشرية مرتفعة والنتيجة أكل يقيماً. وكنا نعرف نحن الاثنين مدى الخطورة الماثلة نتيجة العواقب المحتملة للخسائر في أرواح الجنود وبين العائلات والبلد، ويجب الإعتراف بأنه إنناأتني قلق هائل مظه تماماً حيال النتيجة التي يحتمل حدوثها.

وقلت بالطبع: «إن قرار الدخول في حرب هو أصعب قرار يتعين أن يواجهه رئيس.
لكنك اتخذت القرارات الصحيحة. لقد اتخذتها بالطريقة السليمة وسوف تؤتي ثمارها».

وافترست أن الجانب الشاق في مهمتي قد إنتهى. والآن سيصبح من الضروري بالطبع الحفاظ على سلامة التحالف السياسي الذي أقمناه. وبالتأكيد سيتم استمالة السوفيت لطرح مبادرة دبلوماسية جديدة. ويمكن أن تهدد مثل تلك الجهود تماسك التحالف وسكون في حاجة إلي تطبيقها بلقاء تكن بحرم. وأحسست بظلمة الجهد الذي بذاه للرئيس وإدارته في الإعداد لإقامة التحالف الدولي وتعميق إجماع دولي لتأييد سياستنا. لكن دبلوماسية القوة أخفقت في حمل العراق علي الانسحاب من الكويت، وأصبحت أعتقد أن السياسة تفسح مكانها لشيء آخر فسوف يتحول التركيز في هذه الأرمة إلي ميدان المعركة والقتالون. وكنت مضطراً. وتقرباً علي الفور وجدت نفسي وقد عدت إلي قلب العاصمة. وكما تردد طارق عزيز في جديف تحول العراق بسرعة إلي ضرب إسرائيل في محاولة لاستفزاز حكومة شامير للانتقام. الأمر الذي قد يشكل تصعيداً مأساوياً سيهز التحالف السياسي والعسكري. وبينما صواريخ سكود تنهمر علي المدن الاسرائيلية ظهرت أمامنا مهمة سياسية إضافية. بهدف منع إسرائيل من الدخول في الحرب وخلال الأيام الأولى للحرب الجوية انفتحت معظم جهودى في بذل محاولات لإقناع إسرائيل بعمل ما لم نعمله من قبل وهو الامتناع عن الانتقام من المعتدى، وكانت جهودى لعمل السوفيت علي عدم إحداث مأساة جديدة أقل نجاحاً. وانفجر بيان مشترك مع وزير الخارجية السوفيتي الجديد في أواخر كانون الثاني يناير محدثاً مشكلة كبرى مع البيت الأبيض.

الحرب تبدأ

عقب تناول اللغداء مع الرئيس يوم ١٦ كانون الثاني يناير عدت إلي وزارة الخارجية للإعداد لجولة مكثفة من الإخطارات، وفي الوقت الذي كانت فيه الطائرات الحربية الأمريكية وصواريخ توماهوك تقترب للانقضاض علي العراق عقدت لقاءات منفردة مع

سفره إسرائيل والعربية المعبودة وألمانيا وصوريا واليابان . وأجريت أربع عشرة مظاهرة هائلة مع نظرائي وزراء الخارجية وكبار أعضاء لجنتي الشؤون الخارجية في الكونغرس الأمريكي .

وفي تمام الساعة السادسة وإحدى عشرة دقيقة مساء بتوقيت واشنطن أوقظت الكسندر بسمرتنيخ في شقته بموسكو وأبلغته بأن الهجوم على العراق سيبدأ «عما قليل» . ورد بسمرتنيخ بأن هذا تطور مثير، وأخ علي لمعرفة توقيت أكثر تحديدا . وأبلغته بأن يتوقع هجوما في غضون ساعة . وطلب مني للتأجيل . فسيحتاج جورباتشوف بعض الوقت لتوجيه نداء أخير إلى صدام . ولهذا السبب تحديدا أحجمت عن إبلاغ السوفيت حتى قبيل وقت قصير من بدء القصف . وهكذا لقد فات الأوان الكسندر لقد اجتزأ هذه النقطة .

بعد سبع وعشرين دقيقة طلبني بسمرتنيخ علي الهاتف . وقال: إن جورباتشوف يطلب كجميل شخصي من الرئيس أن يؤجل الحرب لأربع وعشرين ساعة علي الأقل . وأكد، إن هذا طلب شخصي من رئيس الاتحاد السوفيتي . . وأبلغته بأن الأحداث تجاوزت هذا الطلب «إننا في ساعة الصفر، ولا يمكنك تأجيل عملية بهذا الحجم» .



وفيما بعد جلست في مكثبي وقد تناولت شراب مارتيني دويل أشاهد شبكة سي إن إن . إن صديق برناردشاو والأمرايل جون هوليمان وكلاهما أعرفه من أيام البيت الأبيض وهما يثان علي لهواء مباشرة من بغداد أن تقارير الحرب الجوية بدأ ثبت خطوها علي ما يبدو لأن شيئا لم يحدث . وبعدها بثولن بدأ في التحدث من تحت مكتبهما فيما بدأت الانفجارات تهز بغداد . ودار بخلدني هانجن هذا . ولتذكر التفكير في أنني كنت شبه متيقن من أنني إن أكون مرة أخرى في موقف أشاهد فيه بالفعل بداية حرب شاركت بدور هام في الإعداد لها . وعادت أفكارى لتدور حول طيارى إف ١١١ الذين زرتهم في الطائف قبل خمسة أيام . وهامهم الآن في مروحهم الأولى للتخليق فوق بغداد . وتلوث صلاة صامعة نصرة لسلامتهم .

وبينما أننا نتابع وقائع الحرب الجارية علي شاشة التلفزيون تأكدت أن عدداً من التقارير استخدمت الخرائط التي كشفت دون قصد عن أهداف خططنا لضربها هذه الليلة، وطلبت من مارجريت ناتويلر الاتصال بجون مكويلى من شبكة إيه بى سى . ورالف بيجلابتر من شبكة سى إن إن لإبلاغهما بأن بعض الخرائط تكشف خطأ فظيماً للقصف . وللحقيقة أخذت الشبكتان باقتراحاتنا والتمتا الحرص فى المستقبل فى عرض تقاريرهما . وفى وقت لاحق فى المساء اتصل الرئيس هاتفياً وقال: يبدو أن للحرب بدلت بداية طيبة، وكان متحمساً للتقارير التي ترد من الميدان، ولم نفقد أى من طائراتنا فى الطلعات الأولى للهجوم وهو أمر لا يصدق العقل .

لكن سرعان ما تهدد ارتواحنا لانخفاض حجم الضائر البشرية فى صفوف التحالف فى المساء التالي عندما سقطت ثمانية صواريخ سكود علي تل أبيب وحيفا . وكنت أخلق شعري فى فندق شيراتون كارتون عندما سمعت نباح الهجوم . وتوجهت بالسيارة مسافة البلوكين النابقيين علي البيت الأبيض وقصدت مباشرة مكتب برينت مكوكروفت بالهناح الغربى فى تمام الساعة السابعة و ٢٩ دقيقة مساءً، وانضم إلينا لارى إيجلبيرجر وبوب جيتس وعدد من المساعدين فى مجلس الأمن القومى .

اللهمز الإسرائيلي

خلال فترة الإعداد للحرب كان إيماد إسرائيل عن دائرة الصراع هو الشاغل الاستراتيجى الرئيسى لدبلوماسيتنا . وتمتدت مهمتنا من جراء حقيقة أن العلاقات بين بلدينا لم تكن فى أفضل حالاتها . كنت لأزال أعتقد أن إسرائيل سوف تدرك أن ضبط النفس سيخدم أهدافها ومصالحها الأرحب . واعترف بعض أقدم أعدائها بهذه الحقيقة . كانت اللخبة العربية تعى أن صدام يشكل أكبر تهديد لها عن إسرائيل . ومع أننى استطعت تأمين التوصل لاتفاقيات مع كافة شركائنا للعرب فى التحالف أنه إذا هاجم صدام إسرائيل أولاً وإذا ردت إسرائيل فسوف يظلون علي بقائهم فى التحالف . فليس بوسع زعيم عربى التأكيد من أن

الجماهير لن تنزل إلي الشارع وتهدد استقرار نظمها إذا ردت إسرائيل بالانتقام. إضافة إلي أن مثل هذا التصعيد سيحلي إيران مبرراً لتعزيز موقفها السياسي في المنطقة بمغازلة الجماهير التي لم تكأثر وهي ترقب في الوقت نفسه للحكلاف يدمر لأد أعدائها للعراق.

وفي أوائل كانون الثاني وناشر حذر ديفيد ليفي وزير خارجية إسرائيل علناً من أن أي هجوم عراقي سيعتبر إعلاناً بالحرب وسيستدعي «عقاباً مروعاً». ولإبداء قلقاً بقوة من أن هذا التصرف سيكون سياسة غير حكومة تماماً أوفد الرئيس لاري إيجلبيرجر وويل هولفونيس لإسرائيل لحثها علي ضبط النفس. وكنك أعتقد أنه برغم تشدد ليفي فإن إسحاق شامير رئيس الحكومة الإسرائيلية قد أعد في الحقيقة حساباً استراتيجياً آخر قبل بدء الحرب بكثير يتمثل في كسر القاعدة والإحجام عن الانتقام والرد. وكان مثل هذا القرار بالغ الضرورة لأي رعيم إسرائيلي. فقد كان عنصر الرد القوي الشامل دائماً هو عماد نظرية الرد الإسرائيلية. فمن المبادئ الأساسية في السياسة الإسرائيلية: إنه يجب أن يعرف للعرب دائماً أنه مني هاجموا إسرائيل فإنها ترد بقوة ساحقة. لكن شامير يدرك أيضاً المخاطر الجمة علي إسرائيل. فالولايات المتحدة حشنت اكتلافاً دولياً غير محبوب يضم دولاً عربية للتعامل مع أقوى تهديد لإسرائيل. فإن يفقد إسرائيل الإقليم علي عمل من شأنه تعريض هذا الإجراء موضع الترحيب للخطر. وكمسألة عملية لا يمكن للقوات الجوية الإسرائيلية مسابرة التحالف فيما سينزله بصدام. وأدرك شامير أيضاً أنه إذا تخلفت إسرائيل فسوف يساهم هذا في تصدع التحالف مما سيؤدي إلي خسارة إسرائيل لهدفها الاستراتيجي الأكبر - التمثيل في تدمير القدرات العسكرية لصدام حسين. ومن وجهة نظر سياسية محضنة كان ضبط النفس مغنياً لشامير. فقد أصر نصليبه في عملية السلام بعلاقته مع الإدارة وللأى للعالم الأمريكي. وبالتصرف بشكل ممبرول فإن صورته الشخصية سوف تتحسن لديهما، وربما أحس أيضاً وله بعض المبرر أن إسرائيل تجني فائدة من ضبط النفس.

علارة علي ذلك وكما بات معروفاً تماماً الآن فإن شامير كان يجتمع سراً منذ بعض الوقت مع الملك حسين في محاولة للتوصل إلي صيغة ربما تؤدي إلي إقرار سلام بين إسرائيل والأردن. ويرغم استمرار تأييد الأردن للعراق خلال الأزمة فقد ظل علي اتصاله مع شامير. وخلال أهد اجتماعاتهما السرية أبلغ شامير أنه إذا اندلعت العرب فسوف يضطر

لهجومه أى طائرة إسرائيلية تدخل الأجواء الأردنية لمهاجمة العراق. وكان شامير يدرك أن الطيارين الإسرائيليين سيرون بالصل وسوف يتجهّد فجأة شبح حرب أشمل بين العرب وإسرائيل. وكان شامير يدرك تماماً أنه يعين علي إسرائيل ألا تعمل لمصلحة صدام بأن تدع نفسها تنزلق إلي الصراع.



ومجرد أن بدأت صواريخ سكود تنهمر علي المدن الإسرائيلية فإن تفصيل شامير لضبط النفس بدأ يتعرض لضغوط محمومة من قوات الدفاع الإسرائيلية ولاسيما القوات الجوية. وضغط وزير الدفاع موشيه أريئيل للسماح بشن هجمات جوية انتقامية، وفي غضون دقائق من سقوط أول صاروخ سكود اتصل أريئيل بالهاتف بديك تشيني يطلب للحصول علي الكود الإلكتروني (تعميد - العدو والصديق I F F) والذي يمكن باستخدامه تمديد الطائرات الصديقة من الطائرات الصادية. والأسوأ أن أريئيل أبلغ تشيني بأن الهجمات المضادة التي يطلبونها ستقتضي دخول الطائرات الحربية وطائرات الهايوكبتر الإسرائيلية الأجواء السعودية في طريقها لضرب للمراق. وطلب أن يتصل للرئيس يوش بالسعوديين لضمان سماحهم بتحليق الطائرات الإسرائيلية في أجوائهم.

واتصلت بالرئيس في مقر إقامته وأطلعته علي هذه الطلبات. كانت علاقته متوترة مع شامير، وإذا فقد طلب مني الاتصال برئيس الوزراء مباشرة وعناشدته ضبط النفس والاتصال أيضاً بأريئيل. وفي انتظار توصيلي هاتفياً بشامير اتصلت بمفراء العربية السعودية ومصر وسوريا لنقل رسائل مماثلة لهم: سوف نبذل قصاري جهودنا لنحمّ تدخل إسرائيل في الحرب. لكننا نتوقع أن تظل بلادهم علي صمودها كما تعهد لي شخصياً زعماء دولهم في أوائل كانون الثاني يناير. وأبلغت الأمير بندر بأن الإسرائيليين يريدون السماح لهم بالدخول في الأجواء السعودية لمهاجمة العراق. وقال بندر: إن الملك فهد رجل كريم لكن تقديم مثل هذا الطلب سيكون إهذاراً للوقت.

وكنيت أعرف ميشا أرينز جينا من خلال عمله كوزير للخارجية وقد عملنا معاً بشكل جيد. ورغم تشدده فقد استبرته دبلوماسياً عملياً أدى عملاً جيداً بالتوازن الحكيم مع متطلبات رأى عام إسرائيلى متفجر. وعندما تعادلت معه أخيراً فى الداسة وثلاثين دقيقة مساءً لم يكن مزاجه نصاباً مما يمكن الضغوط التى يتعرض لها بوصفه وزير دفاع مطلوب منه عمل شيء ما.

وأبلغنى أرينز بوصوح: ليس أمامنا أى خيار. علينا أن نرد لقد هاجمونا، فلا يمكن أن تجلس إسرائيل هكذا وتصير بالصورايخ ثم لا تفعل شيئاً. وأبلغته بأنه على المستوى الشخصى، فإن الرئيس وكلنا جميعاً نشعر بالحزن والأسف لوقوع الهجمات. «إننا نفهم الرغبة فى الانتقام بكل تأكيد. لكن الانتقام سيكون كارثة. فليس من مصلحتكم تعقد مهمتنا. إن هذا يشكل خطورة عليكم بقدر ما يشكل خطورة علينا. لا يمكننا أن تدعو هذا الرجل يفت من الشرك. أمل أن تجدوا طريقة بأقصى ما يمكن لعدم الرد على الهجوم. عليكم أن تتهربوا هذا طلباً رسمياً بعدم الرد». وكان أرينز متصلياً، ورغم تجاهل طلبه بالحصول على التكدو الإكترونى (I F F) فقد أسر على حق إسرائيل فى الدفاع عن النفس. لكنه وافق على بحث طلبنا بمنع النفس مع شامير على الفور.

وفى هذه الساعده كرر أرينز طلبه السابق بالحصول على موافقة بدخول الأجواء السعديه. وكنيت أعرف أنها مسأله مستحيلة. كان الملقه عهد قد أعطانا تمهداً قوياً بالاستمرار فى التحالف حتى إذا ربت إسرائيل لرتعصت لهجوم من العراق؛ لكن السماح بدخول الطائرات الإسرائيلية الأجواء السعديه أمر بالغ الصعوبه. ثم كلنا شددنا من صعوبه الرد أمام إسرائيل قلما قل فضلاً احتمال إقدامها على الرد.



أخيراً وبعد ساعة تم توصيلى بشامير وقلت له: «إن الغضب يملك الرئيس ويملكنا جميعاً من هذا العدوان. لكن أمل ألا تردوا. وفى غضون دقائق من إطلاق صورايخ سكود أمر شوارتسكوف بتوجيه قاذعات مقاتلة أمريكية وبريطانية إلى غرب العراق بأوامر بالبحث عن

منصات صواريخ سكود وتدميرها. وطعأنت شامير، بأن أربع طائرات إف ١٥ تحلق الآن فوق مواقع إطلاق الصواريخ. السيد رئيس الوزراء إننا سنتعامل مع غرب للعراق بالجندية اللازمة. فلا يمكن أن نفعل قواتكم الجوية ما لا نفعه قولنا. ولو كان الأمر كذلك فألفنا وسوف نفعه.

وكنيت أعتقد أن شامير يريد البقاء بعيداً عن الحرب رغم ضغوط جنرالاته وضغوط الرأي العام، ولذا فقد ألححت إلي أن ضبطه للنفس ليس ضرورياً فحسب بل إنه سيساعد في إصلاح العلاقات الثنائية والتي يعرف كلينا أنها تعاني من بعض السناجب. وقلت: «إننا نقدر تمام التقدير نهج حكومة إسرائيل خلال الأزمة. وسوف نتذكر ذلك فهذا أمر بالغ الأهمية لنا». ولم يغفوه شامير بالتكثير لكنه حذرني: «إن هذه مشكلة مروعة تواجهنا جميعاً. إن إسرائيل لم تقصر مرة واحدة في الرد. وشكرني علي ما أشر به من قلق وتعهد بمعاودة الاتصال بي في المساء. وقال: «إنني في حاجة للتحدث مع مجلس وزرائي، وكنيت أعرف منذ البداية أن شامير لن يصدر أوامر بشن هجوم إسرائيلي قبل معاودة الاتصال بي».

وفي الساعة الثانية وثلاث دقائق فجراً أيقظني شامير في المنزل ليبلغني رسالة مروعة للغاية: «السيد الرئيس لقد قرر مجلس الوزراء الإعداد لشن هجوم فوري رداً علي الهجوم علي تل أبيب وحيفا، وأبلغت شامور صراحة بأن مثل هذا الهجوم سيكون كارثة علي إسرائيل. وقلت: «لا أحد معرض للخطر ملككم. فلا تزيدوا تعقيد الأمور أمام إنجاز المهمة لكم. وقبل أن تقدموا علي شيء دعونا نري إذا كانت الهجمات ستستمر».

وأقر شامير بأهمية أن تبذل إسرائيل كل ما تستطيع لعدم استفزاز الدول للعربية. لكنه رفض استبعاد شن هجوم. وقلت: «السيد رئيس الوزراء لا يمكنكم عمل ذلك فليس في مصلحتكم. سوف نستجيب لكل احتياجاتكم. أولاً كانت. لكن لا يمكنكم الإقدام علي هذا».

وتحدث شامير وكأن الانتقام أمر واقع. لكنني أدركت تماماً أنه يعي وأرينز الحقائق العسكرية: إنه لكي تهاجم إسرائيل للعراق، فإنه يتعين علي قوات التحالف إما وقف العمليات، أي وقف للطلعات الجوية في منطقة معينة، ومن ثم إخلاء ممر جوي لطائرات إسرائيل الحربية، أو إعطاء إسرائيل الكود الإلكتروني (I F F). ولم تكن ندوى القيام بأي

من الأمرين. وطالما أن الحال كذلك فإننا نعتقد أن تواعد إسرائيل بالهجوم لن يتم تنفيذه علي الأرجح.

والإعراب عن حسن نيتنا في التوصل لحل لهجمات سكود قرر الرئيس إعادة إرسال إيجلبيرجر إلي إسرائيل وأعطي في المقام الأول شيكاً علي بياض: أيا كان ما تطلبه إسرائيل ثمناً لانهادها عن الحرب. وقلت لإيجلبيرجر: «ابدلوا كل ما في وسعكم لضمان السيطرة علي قضية صواريخ سكود، ثم قلت مازحاً: لا تعد إلي الوطن إذا لم تنجح، ووعدي «ان أفسل».



رعيده وصوله إلي تل أبيب في ٢٠ كانون الثاني يناير أبلغ شامير، إيجلبيرجر أنه إذا استمرت الهجمات بصواريخ سكود فسوف تتقدم إسرائيل. وكان تقرير إيجلبيرجر عن الحالة المزاجية لشامير وأرينز بلوغاً: «إن تصرفاتهما خطيرة وأصواتهما حادة... إن هناك حلاً لمنهبط إسرائيل للنفس - إننا تقترب منه، وأعرب أرينز عن اعتقاده بأن الولايات المتحدة لم تفعل ما يكفي للقضاء علي منصات إطلاق صواريخ صدام، وبالإضافة إلي شن مزيد من الهجمات الجوية طلب أرينز قناة اتصال مع أقمار التجسس الأمريكية حتي يتمكن المخططون الإسرائيليون من الحصول علي معلومات فورية عن تحركات القوات العراقية. وطلب إقامة قناة اتصال مباشرة مع مقر قيادة شولوتسكوف والسماح بتمركز طاقم تخطيط إسرائيلي علي متن حاملة طائرات أمريكية. كما أنه يريد كحد أدني إلحاق جنرال إسرائيلي بالقيادة المركزية الأمريكية.

ووافقت علي توصية إيجلبيرجر بضرورة رفض هذه المطالب برفق. كان أرينز يلح في طلب مساعدة القوات الأمريكية في وضع خطط للهجمات الإسرائيلية ضد العراق. كان هذا أمراً غير قليل للناش. واعتقدت أن أفضل طريقة هي المزيد من التزام التحالف لمواجهة صواريخ سكود. وكان الأمر صحيحاً تماماً كما وصفه إيجلبيرجر: «إن الأخطار التي نعدق بأهدافنا هي عملية عاصفة الصحراء نتيجة ذلك .. (تتقدم) إزاء الأثر المحتمل لهجوم إسرائيلي».

وعلي مدار الأيام الحصص الثلاثية تم الاتفاق علي مختلف التدابير. فقد أمر شورانسكوف قواته بشن مزيد من الطلعات الهجومية علي غرب العراق. ورغم أن إسرائيل رفضت عرضنا قبل الحرب بترويدها بمسواريج باترويت فأنها باتت متلهفة الآن للحصول عليها. وبدلاً تبادل معلومات المخابرات مع إسرائيل التي واصلت طلب إقامة قناة اتصال مباشرة مع مقر القيادة الدفاعية بإسرائيل. وساعدت المخابرات الإسرائيلية للقادة الأمريكيين في تحديد الأهداف، ووافق الرئيس علي بعض عمليات القوات الخاصة ضد أهداف في غرب العراق.

وبمجرد أن بدأنا في الاعتقاد بأن تهديد الانتقام الإسرائيلي بدأ يتراجع، سقط مزيد من صواريخ سكود علي تل أبيب في ٢٢ كانون الثاني يناير. واتصل بي إيجيبرجر هاتفياً ليبلغني أخباراً مزعجة: فقد نقل أحد مستشاري شامير المقربين رسالة عبر السفير الأمريكي: «إنه إذا لم يمكنكم إعطاءنا شيئاً كبيراً ومهماً فسنمنحني في الانتقام». وجدد الإسرائيليون طلبهم بفتح معر جوى بحرض خمسة أميال عبر الأجواء السعودية لشن عملية كوماندوز ضد منصات صواريخ سكود وتوقفه الطلعات الجوية الأمريكية بالقرب منه لمدة ثلاث ساعات. وصدرت التعليمات لإيجيبرجر بإبلاغهم أننا لن نفعل شيئاً لتمكينهم من شن هجوم. وعزز البنتاجون هذا الرأي بعد أن شعر بالإهانة لتصريح لرينز العلني بسحب أداء الجيش الأمريكي في تدمير صواريخ سكود. وفي الحقيقة فإن جهدنا لتدمير كل منصات إطلاق صواريخ سكود كان الجزء الوحيد من العملية برمتها التي كانت توقعات الجيش مفرطة في التفاؤل بشأنه.



وفي وقت لاحق من اليوم تلقيت طلباً ملحاً من البنتاجون. فقد أُسْتُغِلَتْ طائرة طيار أمريكي فوق غرب العراق. ويقضي أكثر الطرق المباشرة لطائرات البحث والإنقاذ الهليكوبتر الأمريكية المرور في الأجواء السورية. واتصلت هاتفياً بوزير الخارجية السوري فاروق الشرع وطلبت منه إذنا من الرئيس الأسد لأسباب إنسانية. وقال الشرع: إن لمثل هذا الطلب آثار سياسية يتعين دراستها ووضعها في الاعتبار، وقلت له: ليس أمامنا وقت لنل هذا التفسير. فينبغي القيام بعملية البحث في غضون ساعة وإلا وقع الطيار في أسر العراقيين. ورد الشرع

بعد لحظات قليلة. فقد وافق الأسد علي القيام بهذه العملية مرة واحدة بشكل استثنائي شرط عدم الإعلان عنها، وأن تحلّق طائرانا بدون أنصواء. وتم إنقاذ الطيار في نهاية الأمر. ومع ذلك فقد رفض الأسد الرد علي مطلب ثان قدمه البنتاجون، ونتيجة لهذا لم نستطع التحقيق في الأجواء السورية بصواريخ توماهوك.

وعززت الهجمات الجديدة بصواريخ سكود المنغوط التي يتعرض لها شلمير، وفي ٢٢ كانون الثاني يناير بعث برسالة إلي الرئيس يطلب فيها رسمياً من الولايات المتحدة أن تتكفي وأن تدع الانتقام لإسرائيل، وقال شامير: بكل الاحترام للالتزام للقوات الأمريكية «فإننا نعتقد أنه يمكننا بل وتعين علينا أن نشن عملية أمامها فرصة لإنجاز المهمة وتحقيق أهدافها». وفي هذا الوقت من الأزمة كنا قد دخلنا الكثير لإسرائيل. وكان الرئيس مستعداً ليقبل الأكثر لكننا جميعاً كنا نعتقد أن الأولى قد أن علي إسرائيل لترد لنا الجميل. وسدرت التعليمات لإيجلبيرجر بإبلاغ شامير بأن الرئيس لا يمكن أن يوافق علي «وقف العرب» لكن إذا ضبغت إسرائيل نفسها ولم تلتمح فإن الولايات المتحدة مستعدة لمضاعفة عدد صواريخ باتريوت في إسرائيل، وإرسال فريق من خبراء تحديد الأهداف لبحث اقتراحات التعامل مع صواريخ سكود وتزويد إسرائيل بمعلومات المخابرات التي تملأها شبكة أرقام الاتصالات الجديدة المتقدمة التي تختبر في الخلوخ. وكنا نعتقد أن هذا تعرضي وخدم مصالح إسرائيل تماماً.

وانزعج شامير مما اعتبره رابطاً غير مقبول في حرمنا. وانتقد رئيس الوزراء اقتراحنا باعتباره «غير إنساني» وقال إنه لا يفهم كيف يجوز صديق علي لثغره بمثل هذه الكلمات. فقد كدره الشرط الوارد في اقتراح صواريخ باتريوت. كان شامير يقابل ضميره من هجمات سكود الأولى، وبات يشعر الآن أن سماحته تعرضت للضياعة. وأبلغ إيجلبيرجر: «إن هذه أصعب لحظة نواجهها». وأبلى إيجلبيرجر أن للكلمات لا تهدى «لقد قطعنا خطوة كبيرة إلي الوراء نكوصاً عن أجواء الثقة التي استطعنا نهيتها خلال الأسابيع الأخيرة».

وفي إنكار للذات تطرح إيجلبيرجر بتحمل الفضل. وطلب مني السماح بالعودة إلي شامير وإبلاغه بأنه يشعر بالضييق لتجاوزة التعليمات الصادرة إليه بالربط بين المعونة الإسرائيلية وبين الالتزام بعدم مهاجمة العراق. وسوف يؤكد إيجلبيرجر مجدداً أنه في الوقت الذي لن

توقف فيه أمريكا العمليات الحربية وأنا نتوقع في الوقت نفسه أيضاً أن تتل إسرائيل يدها فإن عرض الرئيس بتقديم المعونة غير مشروط وسينفذ علي الفور. وقدم إيجلبيرجر نصيحة بأن تقديم شيء إلي جانب ذلك سوف يجعلنا نحصل علي معظم ما نريده، وتوضح لشامير في الوقت نفسه أنه لا يجب أن يطلب ماذا وقف العمليات الحربية.

وحتى في أخرج للتحظات لم يفقد إيجلبيرجر حسن التصرف، وأبرق لي قائلاً: «لو حازت نصالحي قبولاك، فإنني استطيع العودة إلي شامير في ساعة مبكرة صباح الخميس. أما إذا لم يلق ذلك قبولكم وقررت إعفائي: فلارجو انتظاري حتي أعود، إنني بحاجة إلي الطائرة لأعود إلي الوطن».

وبالمتوقع نصح إيجلبيرجر بكل خلاق لكسر الجمود، فتقديم مزيد من المعونة الأمريكية غير المشروطة إلي إسرائيل سيضلي شامير قوة كبيرة في مواجهة المقشدين في حكومته. فبوسعه الآن القول أنه انتزع تنازلات من الولايات المتحدة نتيجة للتزلمه بضبط النفس.

وفي النهاية أثبتت صواريخ سكود أنها لا تعدو لى تكون مجرد سلاح سياسى أكثر منه سلاح تهديد عسكري، وما هي المصلحة الاستراتيجية تلتصر في النهاية علي الاندفاع الكبير. وكان رفضنا إعطاء إسرائيل الكود الإلكتروني (I P F) حاسماً في تحقيق هذه النتيجة. وكان شامير يرأس حكومة انتلاهي هشة. فربما دفع للهجوم إذا حصل علي الكود الإلكتروني. وبدون هذا الكود كانت هناك مخاطرة فائحة بقوام طوار إسرائيلى بإسقاط طائرة أمريكية والعكس بالعكس، ولو حدث هذا لكان كارثة لل دولتين. ورغم تفصيل شامير العمل بالبقاء بعيداً عن الحرب، فإننى أعتقد أننا لو كنا قد أعطينا حكومة إسرائيل الكود الإلكتروني لكانت قد ردت علي الهجوم العراقي عاجلاً أم آجلاً.

البيان الذي انفجر

وقبل ساعتين من عودة إيجلبيرجر من تل أبيب في ٢٦ كانون الثاني يناير اجتمعت مع بسمرتيخ للمرة الأولى منذ تعيينه وزيراً للحارحية . كانت هذه الجولة الأولى من ثلاث جولات عقدت يوم السبت هيملت عليها تطورات الوضع في الخليج . وعلى المستوى الشخصي كنت تولفاً للتعاون مع بسمرتيخ . فقد كان سفيراً لدي الولايات المتحدة وصديقاً للإصلاح في الاتحاد السوفيتي . والأهم أنه رد بسرعة علي تحديرتي من التدخل السوفيتي في الخليج ، وتجادل بنجاح مع جورباتشوف بأن للتأييد الأمريكي للبريستريكا سيتقلص إذا لم تتوقف أساليب استخدام القوة ، وكان أقوى أصنافاً أمريكياً بين رفاقه . وكنت أريد مساعدته في تعزيز قاعدة قوته ولزامه شخصياً بالتعاون معنا . وبعد نقاش مطول أكدت خلاله مجدداً رأي الرئيس بأن اندلاع مزيد من العنف في الخليج ينطوي علي كارثة للتعاون الأمريكي السوفيتي . ثم تحولنا لمبحث أزمة الخليج . وطماننتي إلي أن جورباتشوف ان يراجع عن الالتزام السوفيتي تجاه استخدام القوة لطرد العراق من الكويت . وقال : « كان علينا أن نجلس معكم ونبحث الأمور » وفي الوقت نفسه كان القلق يتكاثف صانعي السياسة السوفيت مع ذلك من تصاعد حجم النصار وارتفاع حجم الخسائر البشرية . كان من الواضح أن للوبي العربي يمارس ألامه القديمة . كان بسمرتيخ يسمي للتوصل إلي صيغة لوقف القتال ومنح صدام لمروسة لإنقاذ ماء الوجه للخروج من الكويت . ونكرته بأن صدام حصل علي كل فرص الانسحاب من الكويت وأنه تجاهل كافة قرارات مجلس الأمن الدولي . لقد فرض الحرب علي شعبه . وقال في بيرة تانيب : « إننا سنبهون بالنسبة للخطوات السياسية في المرحلة التي ندر فيها الأعمال العربية . إن هناك موقفاً متكاملاً في العديد من البلدان من أن القصف أصبح أكثر تدميراً . وأنه لا يجري في الوقت نفسه البحث عن أي شيء آخر . والأهم هو البحث عن حل سياسي لإنهاء للحرب » وربما يكون من المناسب توجيه بادرة من نوع ماء وأصناف أن السوفيت يفكرون في عرض مشروع قرار جديد علي مجلس الأمن يدعو لوقف القصف .

كان اقتراحاً غير مقبول . ورددت : « بلأنا إذا منحناه مهلة . فسوف نوح أمامه فرصة لإصلاح بعض الأضرار التي حدثت . وسنمنحه فرصة لإعادة تسليح قوته . وسيكلفنا هذا أرواح جنودنا ، وكنا نعرف أيضاً أن إجراء جدل آخر في الأمم المتحدة سيمخ للسوفيت فرصة

جديدة لبناء زخم سياسى لوقف إطلاق النار مما قد يتيح لصدام حسين الفرار من الكويت ومعلم قوائمه سليمة.

وأصح بسمرتليخ قائلاً: «إننا حقيقة فى حاجة إلى اتخاذ بعض الخطوات. ومن المهم للغاية أن نبدأ للتفكير فى البنى الأمنية ما بعد الأزمة، وأخيراً كف عن التحديث حول قرار جديد واقترح أن نختتم لقاءنا بإصدار بيان مشترك كاليابانيين اللذين صدرا من قبل فى موسكو وهلسنكى وطلبت منه العودة وضعه مشروع معد. وكوشلر علي ضحف الأهمية التى أوليها لهذا البيان لم اقترح أن يقوم معاينى بإعداد المشروع الأولى للبيان المشترك كما فعلنا فى مطار فنوكوفو / ٢ وفى هلسنكى.

ويعد يومين من يوم الإثنين ٢٨ كانون الثانى يناير عاد بسمرتليخ حاملاً مشروعى بيانين مشتركين. أحدهما متعلق بحرب الخليج والثانى حول الشرق الأوسط. كانت صياغة كلا البيانين غير مقبولة بالمرة. فهي تحمل بصمات أسدقاء صدام حسين فى الخارجية السوفيتية. كانت صياغة البيان المتعلق بالشرق الأوسط باللغة الضطورية بشكل خاص لأنها أعادت شبح إحياء الربط الذى سحبا لتجنبه منذ بداية الأزمة. وفى الوقت نفسه كنت أعرف أن هزيمة صدام حسين سوف تهيئ فرصاً جديدة لإحراز تقدم فى المسائل العربية الإسرائيلية واقدرحت أن نعمل علي التوصل إلى صياغة يقبلها الطرفان وترضى السوفيت ويمنح بسمرتليخ قوة لتعزيز وضعه فى موسكو بأنه قوى مثل سلفه وتبقى الضغط علي صدام.

وجاءت الصياغة الأخيرة حلاً وسطاً يطلق يدنا فى المساومة أكثر مما يمنح لبسمرتليخ. ووافق السوفيت علي «أن فصحاب العراق من الكويت لا يزال يمثل هدف المجتمع الدولي». وبالمقابل وافقنا علي الصياغة التى طلبها السوفيت إلى الوزيرين لا يزالان علي اعتقادهما بأن تراجع الأعمال الحربية سيكون ممكناً لو قطع للعراق التزاماً قوياً بالانسحاب من الكويت».



وعلي الغطاء يوم الثلاثاء مع المعلمين معي قبل اجتماعنا مع بسمرتنيخ لوضع اللصحات النهائية علي البيان بحثنا إمكانية أن هذه الصياغة ربما يتم تفسيرها بأنها ضئف في تأييدنا للانسحاب غير المشروط. ولهذه الأهداف المحددة تمسكنا بصياغة ترمي إلي تعزيز تصميمنا. وأضيفت عبارة: أن الوزيرين لا يزالان علي اعتقادهما، للتشوي إلي عدم حدوث تغير في سياستنا الحالية. وأصرروا أيضاً علي أن أي التزام عراقي بالانسحاب لابد وأن تعززه خطوات فورية وملحوسة تؤدي إلي إمتثال تام لقرارات الأمم المتحدة التي تدعو إلي انسحاب غير مشروط. وخلصت إلي أن هذه المتطلبات تعميها من الاتهام بأننا نرسي سياسة جديدة. كانت تسوية وسطا اعتقدت أنها مقبولة تماماً، ولا سيما أننا افئذا السوفيت بقبول صياغة جديدة حول الصراع العربي الإسرائيلي تجاوزت بكثير الصياغة الواردة في البيانات السابقة.

كنا نعرف أن العصبية لتغلب البيت الأبيض من أن السوفيت يستعدون لبثأوا بأنفسهم عن استمرار الحرب الجوية. لكنني لم أشعر أن الحاجة تقتضي مراجعة موظفي مجلس الأمن القومي. إنه بيان وراي وليس بياناً رئاسياً، وعندما يتم إصداره فسوف يتأكد البيت الأبيض من أننا أئرمذا السوفيت بموقف أكثر مروحاً بتأييد للسياسة الأمريكية في الخليج والشرق الأوسط.

واجتمعت مع بسمرتنيخ بعيد الساعة الرابعة بعد الظهر في ٢٩ كانون الثاني يناير. ونحن علي وشك الانتهاء قال لي: «سيكون من المفيد فعلاً نشر هذا البيان، ومن وجهة نظر عملية أبلغته بأن هذا قول الفائدة. فسوف يظهه الرئيس في خطاب حالة الاتحاد في تلك الليلة. وقلت: «سأدقني بالأكسندر. إن هذا أن يحتل سطرين في أي صحيفة أمريكية». واقترححت عليه التريث لمدة يومين قبل نشر البيان.

وكان بسمرتنيخ متصلياً، وحذر من أنه: «إذا عدت إلي موسكو ولم يصدر هذا البيان فسوف أواجه معارضة هائلة». فريما يستطيع القوي العربي إقناع جورباتشوف بالإصرار علي إدخال تعديلات. وأصاف: إن هذا حقيقي فيما يتعلق بالصياغة الجديدة حول الشرق الأوسط وقال: «لنني أريد أن تكون قادرين علي إدراج تلك الكلمات. ولكن عندما أعود إلي موسكو فسوف يرون للكلمات القديمة وقد اخفقت وسوف تواجه مشكلة. دعنا نفرغ منه الآن وجعل منه حقيقة واقعة، ووافقت علي منحض إلي حد ما علي أن نفعل ما يريده البيان،

وسوف نكتفى بنشره بخرفة الصحافة والخارجية. واعتقدت أنه سيتم تجاهل الأمر حتى اليوم التالي بسبب خطاب الرئيس. وقررت للخروج علي عادتى المألوفة وعدم مراقبة بسمرتينج لهبوط الدرج. لأننى لم أشر أننا قد اتفقا علي شيء بشكل أهمية خاصة، ومما ضاعف من الخطأ، أن البيان لم تعد ولم تشرف عليه مارجريت تاتلر التي غادرت بعد أن أبلغت صحفيينا بأننى لن أعقد مؤتمراً صحفياً مع بسمرتينج عقب الاجتماع. وسيتعين عليها بدون شك التسارعة بالتحرف علي الخطر وتقتضى من واحد من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها وأنا وزير للخارجية.

وفي اليوم كان المصورون يضبطون كاميراتهم حتي يمكن للمراسلين الدبلوماسيين التخليق علي الجانب المدعق بالساسة الخارجية في خطاب الرئيس ومبني الخارجية مأخوذ كخلفية لهم. وكانوا أيضاً متلهفين لتغطية مغادرة بسمرتينج وأثناء مغادرته للمبني سألكه مجموعة من الصحفيين بشكل روتيني عن سير مباحثاتنا ولتتهز بسمرتينج للفرصة عند التوقف في فرج تقريباً وأخرج نسخة من جيب مصطفه وبدأ في قراءتها أمام الكاميرا بمفرده.

وفجأة ظهرت رواية مثيرة لصحفى الخارجية الذين انتابهم الصيبة بعد أن تحولت الأنواء عنهم للتركز على نظرائهم في البيتاجون والبيت الأبيض. ويشتهر الصحفيون بسوء السمعة لرغبتهم في عرض الأخبار من منطلق إما أبيض أو أسود. وهكذا وبدون الاستفادة والاستماعة بأى خلفية من مكتبي الصحفي. فعلوا الخطأ فبإشارتهم إلي أننا سنقبل وقف إطلاق النار مقابل وعد من المراق بالانسحاب من الكويت فقد افترضوا خطأ أن مبدأ المشروعية قد أدخل في المعادلة للمرة الأولى. علاوة علي ذلك يمكن القول أن هناك ارتباطاً بين القصصين وهي سياسة طالما قلومناها بإصرار وصلابة لمدة أشهر.



وبعد وقت غير طويل وجه سؤال إلي برينت سكوكروفت عن البيان خلال إيجاز صحفى في البيت الأبيض عن خطاب حالة الاتحاد. ولم تكن لديه فكرة عن البيان. وتشم

الصحفيون رائعة رواية لئد. وكريس لهيلة موظفي البيت الأبيض، فقد است في أكثر من مناسبة إلي أي مدى تعشق للصحافة ما أصبح يعرف بروايات «الشجار في غرفة القبطان» وطراً علي دغني ما يمكن أن تطل به علينا صحف الصباح من عناوين «سراع في الإدارة حول صرية سياسية جديدة».

ولا يمكن أن ألوم سكوكروفت لانزعاجه بعد أن أمسكت المفاجأة بملابيه. وعندما اتصل بي مستصراً عما يحدث طمأنته بأنني لم أرفق علي أي تغيير في السياسة، وبعد ليلة لم أذق فيها طعم النوم تقريباً. تفصلت بالرائيس لأقدم اعتذارى في اليوم التالي. وقت «تعرف تماماً أنني لم أقصد بأي حال التشويش علي خطاب حالة الاتحاد». وكان يدرك تماماً أنني لا يمكن أن أحاول عمل ذلك، وقبل نصيري بكل كرمه المعتاد. لكن سمار وسائل الإعلام خرج عن النطاق وبات يهدد بإلقاء ضلّالة علي خطاب حالة الاتحاد، وأفادت للتقارير علي نطاق واسع أنه غاصب منى. ومع أنه لم يظهر هذا التنبؤ لي مطلقاً فما كنت لأكرمه بكل تأكيد لو أنه أبدي غضبه منى. وعزز تقارير استياء الرئيس منى قدر كبير من تعمس جون ستونو رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض، وكذلك بعض المرشحين في مجلس الأمن القومي الذين تاهلوا لافتناص ميرة من خطأ الحساب الذي ارتكبه. وحدث الخطأ نتيجة لإعمال لا خطأ في التدبير. وكنت أعرف أن البيان لم يتضمن أي تغيير في السياسة، وكنت أعتقد بسخافة أن طبيعته الحميدة لن تستقطب سوى الاهتمام العادي السالف. ولأزلت أعتقد أن الحال لم يكن ليخرج عن هذا لو أن بسمرتنيخ لم يكن متهماً علي نشر البيان لأسبابه الخاصة. ولأنه معين حديثاً في منصبه فقد كان يحاول ترسيخ إقامته كوريث شرعي لشوفرنادز. فقد أراد توسيع أنه لا عب لا يقل مقدرة علي الساحة للدولية من صله. وعقب هذه المشكلة شعرت أنه تم استغلاي. لكنني كنت غاضباً من نفسي أكثر من غضبي من بسمرتنيخ، كان لا بد وأن أنصوّر ما قد يحدث. وخرجت بخبرة هائلة عن أساليب واشطل ووسائل الإعلام لسجد ارتكاب مثل هذا الخطأ غير المقصود.

وأثار البيان المشترك ضجة في حينه. وشكك للمنتقدون في جدوي ومفعولية إصداره والطريقة التي عولج بها والتي اتسمت بالضعف - لكن البيان لم يكن عليه غبار في حد ذاته. فهدفه هو أرام السوفيت بالبقاء في التحالف معاً. فقد ذهب حليفنا العظيم وكان

بسمرتنيخ جديداً في منصبه ولازال اللوبي العربي يخصصه للإختبار. حيث كان هذا اللوبي يمارس ضغوطه من أجل مبادرة سلام جديدة. وحتى قبل وصول بسمرتنيخ إلي واشنطن كان الحديث عن وقف العمليات الحربية يدور في موسكو. كانت فكرة تتطوّر علي كارثة، فلو توقفت الحرب فسيكون من شبه المستحيل استئناقها. وأحسنت أن صيغة جديدة تعيد إلزامهم بالوقوف مع التحالف وإجازة الأمم المتحدة القائمة سوف يمزج تعاوننا للقائم.

ولا زالت أعتقد أن هذا لم يكن بالصفقة الكبرى، ومع ذلك فقد خدم البيان الهدف الذي تصوره. فبعد ثلاثة أسابيع عندما حاول جورباتشوف طرح مبادرته السلمية قبل وقوع الهجوم البري فقد لجأنا إلي البيان المشترك لتذكيرهم بما سبق والفرموا به بالفعل. كانت ساخطاً علي معاملة الإحسان بالإساءة للدرجة لم أقاوم معها أدني رغبة في الانتقام.

ففي أحد الاجتماعات التي عقدت في شهر شباط فبراير، وكان يحضرها عدد من منتقدي انتهزت المناسبة لأرسم تمبيراً جامداً علي وجهي وأبلغ الرئيس بجدية إلى أفضل شيء هو أننا حصلنا علي هذا البيان. ولكن في الأسابيع التالية أثبت جورباتشوف واللوبي العربي في حكومته أنهم أكثر إثارة للمشاكل.

الفصل الثاني والعشرين

مناورة جورباتشوف

لو بدأت الحرب [البيرة] اليوم، فسوف تبدأ وسيرى العالم كله أنها تبدأ في ملايسات يكون الاتحاد السوفيتي قد حقق فعلاً إنجازاً ضخماً في التوصل لتسوية سياسية ... حينئذ سوف يتحمل أولئك الذين بدأها المسؤولية على عاتقهم.

بريتانوف

المحرث السري

٢٣ شباط فبراير ١٩٩١

أكد محاورى: «لبنى امت هذا كى أثير الانتقام بيننا، وإن لكون هناك لأخلق المشاكل، الوقت بميد ظهر الثامن عشر من تشرين الأول أكتوبر ١٩٩٠، زكري بريماكوف السياسى السوفيتى الذى يتمتع بقدر لا بأس به من المهارة والدهاء، وكان لدى كل الأسباب المديرة للشكوك. كان بريماكوف عصر المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفيتى أحد كبار أعصاء اللوى العربى بالخارجية السوفيتية، صديقاً لى ومطلقاً عن صدام حسين.

كان بريماكوف يرور واشنطن ليطرح على الرئيس مبادرة سلام سوفيتية أقتع ميخائيل جورباتشوف بتجنيبها بأمل إنهاء حرب الخليج. وجسدت زيارته الطبيعة المردوجة للسلوك السوفيتى خلال أزمة الخليج. وفى لحظات حرجية كان تضامنهم الدبلوماسى لا يقدر بضمن، فالانحداد السوفيتى قد ولفق فى الواقع فى ذلك الوقت على كافة قرارات الأمم المتحدة الفسحة ضد للعراق، وكان صلباً فى مطالبته بصروية انسحاب صدام من الكويت.

وبمجرد أن بدأت الحرب الجوية فى كانون الثانى يناير ١٩٩١ أصبحت الجهود السوفيتية لتجنب نشوب حرب برية بدون شك لكبر عائق سياسى أمامنا. ونمت سطار استعادة السكافة السوفيتية فى العالم سعي بريماكوف إلى تعلق جورباتشوف سحياً فى الوقت نفسه لتعزيز مركزه فى الخارجية والمكتب السياسى. ودبلوماسياً كانت جهوده ترمى إلى إنقاذ علاقة الحامى بالمصيل المتعددة بين الاتحاد السوفيتى والعراق أكثر من اهتمامها بحمل صدام على الانسحاب غير المشروط من الكويت، ونتيجة لهذا وجدت الولايات المتحدة نفسها الآن فى بعض الأحيان تعمل فى أهداف متعارضة مع أهم شريك استراتيجى فى الأزمة، وبحلول شباط فبراير ١٩٩١ ساهمت مناورات بريماكوف فى تعقيد خطط هجوم برى للتحالف لطرد العراق من الكويت.

وخلال عملية درع الصحراء نابت تدخل بريماكوف بمزيج من الضيق والصبر. كانت جولاته الإقليمية والكرونية أمراً مريضاً لكننا محققون للتصالح إزاءه. فكل من رأى شيئاً يستطيع حمل صدام على الخروج من الكويت دون شروط بدون اللجوء للقوة موضع ترحيب. وإذا كان لأحد أن يبدد أوهام جنون عظمة صدام فإنه بريماكوف الذى يعرفه منذ أكثر من عشرين عاماً، ويعتبره صدام أفضل السوفيت إلى قلبه. فصلاً عن هذا كنت أحب بريماكوف شخصياً. فقد أشاد به شيفرنادزة صاحب الفضل على الكثيرون فى البداية. لكنه ما لبث أن

بدأ يشعر بالمال منه لندخله في اختصاصاته. ويعود أول لقاء لى مع بريماكوف إلى شباط فبراير ١٩٩٠ في موسكو عندما تحدثت وأجبت عن الأسئلة أمام لجنة الشؤون الدولية بمجلس السوفيت الأعلى التي كان يرأسها بريماكوف. وتبحت لى فرصة معرفته بشكل أفضل في أيار مايو ١٩٩٠ في عشاء غير رسمي أقمته لى شيفرنادزه في منزل صديقه الفنان زوراب نسيريتيلي الذي أتبعنا فيه ليلته بوجبة جورجية عظيمة. في ذلك الوقت كانت للملاقات لانزال وثيقة بينهما وكانت القنولات الدبلوماسية مائلة بالكهفات بأن شيفرنادزه سيصبح قريباً رئيساً للوزراء وسيحل محله بريماكوف. وافترضت حينذاك أنه بدعوة بريماكوف كضيف وحيد علي العشاء أراد شيفرنادزه الإيحاء لى بأن بريماكوف ربما يكون نظيرى قريباً. وأتي ثلاثنا علي نصف جالون من الدخون، وهي فودكا جورجية قوية بحكمة الأعشاب بلون غسول اللحم. واستمتعت برفقة بريماكوف في ذلك المساء. ودخلت أنخاب الصداقة السوفيتية الأمريكية التي قدمت في تعاقب بلكنة إنجليزية رصينة إلي الاعتقاد بأننا تفكر بطريقة واحدة حول مستقبل اتجاه العلاقات بين بلدينا. وفي اجتماعاتى التالية مع المسؤولين السوفيت كان بريماكوف يلح في البحث عنى لإجراء حوار خاص في ركن هادئ بغرفة الاجتماع. وبدا أنه ملتزم بالهيرستوريكا وموال لشيفرنادزه. كان ذكياً رقيقاً ومحاوراً ممتازاً ويعرف تاريخه العرسي جيداً. ومع بداية الأزمة اعتقدت أن بريماكوف مؤهل للمساعدة في التوصل إلي تسوية سياسية.

مفاجأة بريماكوف في تشرين الأول أكتوبر

مع وصول بريماكوف إلي واشنطن في تشرين الأول أكتوبر كانت أوهامى قد تبددت منذ أمد طويل. وتهددت جهودنا لإبقاء السوفيت علي وفاق مع الدبلوماسية الأمريكية مراراً نتيجة نزوع بريماكوف لعمالية دولة حليفة للسوفيت. وشككت في أنه كان واحداً من أعضاء اللوى العربى الذين حاربوا تخفيف صياغة البيان المشترك الأول الذى عملت فيه مع شيفرنادزه في أولائل آب أغسطس. وفي اجتماع هلسنكى في أيلول سبتمبر حاول إزالة هذه الصياغة من بيان مشترك جديد وافق عليه بالفعل للرئيسان بوش وجورباتشوف. وروج

لاستراتيجية صدام لإنصاف التحالف العربي بربط الأزمة الكويتية بالتقضية الأشمل للصراع العربي الإسرائيلي، ولأنه وبعد ضغوط شخصية، وعلى غير رغبة شيفرنادزة تمكن من إقناع جورباتشوف بإيفاده إلي بغداد للتوسط في التوصل لاتفاق، وليس هناك مجال للشك في أن خطة بريماكوف كانت تخبا في ثوب حمل، واستلاماً لا حلاً وسطاً. وقد حذرني شيفرنادزة كلودراً، ففي رسالة خاصة سلمها إلي دنيس روس عبر سيرجي تراسينكو نبهني إلي أنه يمرض بشدة الخطة التي يعرضها علي بريماكوف حالياً. وقد أوص بأن بريماكوف غانه وأن جورباتشوف أهانه لأنه يسماعه لبريماكوف بطرح مبادرة سلام فقد سمح له بتجاوز صلاحيات شيفرنادزة كوزير للخارجية.

وبدا بريماكوف بما اتضح أنه الكلمات المشجمة الوحيدة التي سمعتها. وطمانني بأن جورباتشوف أمره بإعادة التأكيد على أن السوفيت سيظلون علي تأييدهم للنام للتحالف السياسي. ويسمى القول: وأنه مهما حدث فسنظل معكم، واستدرك قائلًا: لكن من الضروري مع ذلك بحث مقترحات جديدة للتوصل إلي تسوية سلمية. وقلت لبريماكوف من الواضح أن هذا هدف ثمين لكن لا يتعين تحقيقه علي حساب المبادئ. وقلت: «لا يمكننا مكافأة هذا للصرف، لا يمكن قبول ما هو أدني من الانسحاب خبر الشروط. فالترانس أدني استعداده علي الدوام للإسفاه لأي أفكار ربما تساهم في تجنب إراقة الدماء. لكن مكافأة صدام موضوع غير قابل للتفاوض».

وقال بريماكوف: «حسنًا. إنني أعرف هذا الرجل لعشرين عاما. إنه يعاني من عقدة الماسادا، فإذا وضعناه في الزاوية فسوف يحدث الانفجار». ولو خيرناه فقط بين الحرب والامتنع فبالأكيد سوف يختار صدام الحرب. وإن يثنيه التهديد بالقوة، ورددت عليه بجفاء إلي حد ما: «إنه إذا لم يكن للتهديد بالقوة كافيًا حينئذ ربما يتم استخدام القوة. واحتج قائلًا: «لكن الحرب سوف تخلق انفجاراً قد يكون من الصعب علي أي منا تجاوزه. فلماذا انفجر الموقف فسوف يكون الانفجار مروعا، ولذا فلماذا كان بوسنا تجذب إندلاع حرب، فمن في حاجة إلي هذا. فإنه الآن موضوع في للزاوية. وعلينا أن نجد له مخرجاً. لقد رأيت وأحسست أنه لن يتراجع. لكن أعتقد أن هناك سبيلاً لوضع نهج يمكننا من إخراج».

وباختصار عرض بريماكوف ما وصفه بأنه إنقاذ ماء الوجه بحارات غامضة وأشار إلي أنه قد يكون من المفيد أن تتكلم الولايات المتحدة بعد مؤتمر دولي بعد الحرب لمعالجة القضية الفلسطينية. وربما يحسن السماح لصدام باستمرار الاحتفاظ بجزيرتين متنازح عليهما وحقل الزميلة البترولي. وباعتبارهم لطرف معزبون فريما يرغب السعوديون في التفاوض علي للحصوليات مع العراق. ورغم عدم ثقته إلا أنه كان يعتقد أن صدام سيجد في هذه الشروط شروطاً مقبولة، وما يلفت أن يوافق علي الانسحاب طواعية من الكويت. ولا عجب فقد بدت كصيغة ربما يقبلها نيفرل تشمبرلين*.



والمثير للمفارقة أن رأى بريماكوف الكارثة لفترة ما بعد الحرب كان متحقق في الواقع علي وجه الدقة إذا منحنا صدام المخرج الذي اقترحه بريماكوف. ففي هذه الحالة كان صدام سيواصل الهيمنة علي المنطقة وستعثره الجماهير العربية أعظم قائد بعد عبد الناصر. وإن تستطيع دولة عربية مقاومة نفوذ زعيم تعدي كلا القوتين المنظمين. فمن شأن انتصار صدام تشجيعه علي شن مزيد من العدوان. وفي النهاية سوف تزيد مخاطر اندلاع مواجهات عسكرية أشد في المستقبل. كان خطة بريماكوف السلمية خطة دهاء. إنه يريد ببساطة حماية عميل ولم يكن هناك داع لإهدار مزيد من الوقت. فقد كان من المقرر أن أدلى بشهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب، ولم يكن هناك شيء في خطة بريماكوف لإنقاذ ماء الوجه ما يرضى بالتأخر عن الذهاب إلى الكونجرس.

وقلت: «حسناً. لماذا لا تواصل محادثاتك مع دينيس روس وسوف يبلغني بما يحدث. لكن أرى أنه من الصعب أن أشاركك التفاوض. أي كل ما تقترحه هو إما مكافأة له أو سينظر إليه علي أنه مكافأة له».

ولم يكن بريماكوف أحمقا. وبعد عدم التوصل إلي نتيجة أعاد تعهد جورباتشوف باستمرار التأييد. ووعده بأنه لن تحدث فجوة بيننا. وسوف نزيد كل ما نفعوه أيا كان. وإذا

* رئيس الوزراء البريطاني ١٩٣٧ - ١٩٤٠ الذي تابع سياسة تحدة تجلده خطر ومروايلي (المرجع).

كان هذا يعطى الحرب فتيك. لكنني أعتقد أن هذا سيكون خطأ مروعاً. ولأي أنه سوف يزيد التطرف في المنطقة. واعتقد أنه سيدمر كلياً.

وفي الصباح التالي التقى بريماكوف مع الرئيس في المكتب للبيضاوي. وكان بريماكوف قد نال في اجتماعه معي وفي الاجتماع التالي مع روس ما يكفي لتهديب نفسه مع الرئيس إلى حد كبير. وقامت الانقسام عندما سمعته يتحدث إلى الرئيس بأنه لا يجب مكافأة صدام حسين بأي حال. وبلغت مقترحاته أشد حرجاً بين يوم وليلة، لكنها لا تزال ترقى إلى حد الاستسلام. فلن يوافق الرئيس علي أي منها. لكن أضيف جديد إلى سوء حظ بريماكوف بالاجتماع مع الرئيس بعد أن قرأ لثوره تقريراً مروعاً أعدته منظمة العفو الدولية عن الفظائع العراقية في الكويت وكتاب بفصل للكيفية التي تصرف بها قوات هتلر في احتلال الدول. وأراد بريماكوف بدء حوار لكن لم تمنح له فرصة علي الإطلاق. وقال الرئيس: «إنهم كالنازي. إنهم يحتلون ويمثلون نهياً وسلباً لن نقبل هذا. إنكم تنفقون وجه من لا ينتمي إلى العالم المستثمر. لن نقبل هذا النوع من التصرف غير المستثمر في هذا اليوم أو الغد». وقال الرئيس إنه ليس لديه اعتراض علي زيارة بريماكوف لبعثات ليدل محاولة أخري من أجل السلام لكن عليك إبلاغه أنك وجدت حائطاً صلباً هنا.

كان اجتماع بريماكوف عملية تجميلية في المقام الأول، مجرد محاولة لجورياتشوف لإظهار أننا نأخذ التسوفيت علي محمل الجد، ونحتاج لتعاونهم للتبلماسي المستمر. لكن لا يمكن الثقة في أن بريماكوف سينقل تقييمنا بصدق إلى موسكو خشية تحمل الفشل، ومن ثم يخسر نقطة بيروقراطية. ولذا فقد بادرت عقب انتهاء الاجتماع بالاقتراح علي الرئيس بأن يتصل مباشرة بجورياتشوف للتأكد من أنه يعرف أنه في الوقت الذي نقدر فيه مساعدته فإن خطة بريماكوف تعد كارثة.

الرهانات السوفيتية وrehانائنا

خلال تلك الفترة شكل تدخل بريماكوف إرباكاً ضخماً لنا. لأنه سرعان ما إتضح مع مرور الوقت أنه ولا جورياتشوف يتمتعان بنفوذ كاف لدي اللمرقيين لمصلهم علي تعديل موقفهم. لقد أثارنا حجة هائلة دون أثر يذكر.

ومن ناحية أخرى كانت العلاقات الثنائية البداة حيوية للغاية للمصالح الاستراتيجية الأمريكية . وكان تعاونهما ضرورياً في قضايا مثل الحد من التسليح والاستقرار في أوروبا . وكان جورباتشوف شريكاً جيداً معنا في الوحدة الألمانية والخليج . ومع المشاركة البداة مع السوفيت فإن إحياء عملية السلام في الشرق الأوسط سيكون مهمة أقل صعوبة . كما أننا في حاجة أيضاً لمساعدتهم في صراعات إقليمية أخرى ، وإذا فمن السهم أن تساعدنا الولايات المتحدة في عملية التحرير السياسي والاقتصادي في الاتحاد السوفيتي . ولكل تلك الأسباب كان من الضروري دفع ثمن مناسب لجورباتشوف . وكعهد أنني علينا أن نصغي إلي مقترحاته وبسبب مقربيه . وأفكر مراراً ملاحظتي خلال تلك الفترة ، علينا ألا نصابقه في هذا ، وكان الرئيس متفقاً مع هذا الرأي . وفي كل تصريح علني تقريباً ، وفي كل محادثاته الخاصة مع جورباتشوف كان الرئيس حريصاً علي القول أنه يقدر شخصياً تلك الجهود التي يعتبر في نواته الخاصة أنها مبادرات خاطئة تحركها دوافع مخلصه ، وكنا نريد نحن الاثنين عمل كل ما نستطيع لدعم موقف جورباتشوف المتمحور في الداخل . إن إسقاطنا لمقترحاته وتسامحنا مع مبادرات بريماكوف الفضولية بأدب جم فهو خير دليل علي مدى الضعف العقلي الذي اعتري موقف جورباتشوف .

ولأسبابه الاستراتيجية العاصية إعترف جورباتشوف بشكل مائل بضرورة البقاء في الفلك الأمريكي أياً كانت القضاة التي يصر بها شخصياً تجاه هذا الاقتراح . كان استمرار الدعم المادي والمعنوي الأمريكي لبرنامج إصلاحه الاقتصادي للزمام والمثير للجدل أمراً مهماً . ومن وجهة نظر سياسية كان يدرك تماماً أن مفداح عدم انقطاع الدعم الإضافي لبرنامجهم يقع في يد واشنطن . فقد تدخلنا لدي السعوديين وأصدقائنا لتقديم الدعم المالي لجورباتشوف . وبإختصار فهو مدين لنا ومحتاج لنا . كان دافعه لاستمرار تعاونه مع السياسة الأمريكية تجاه الخليج يتعرض لمقاومة مستمرة نتيجة لضغوط متضادة هائلة .

وجغرافياً لم يكن يفصل الاتحاد السوفيتي سوى بضعة مئات من الأميال من الأراضي الإيرانية والتركية . ولذا فمن منظور عاطفي كانت الحرب بالضرورة علي أبواب الاتحاد السوفيتي . ولذا فإن قلقهم في هذا للتصدد أشبه بالقلق الأمريكي تجاه نشوب حرب في أمريكا الوسطى ، ومن ثم يمكن تفهمه . وتاريخياً وحتى غزوه للكويت كان العراق دولة عميلة

للسوفييت وواجهة لهم، وبعد خمسة أشهر تعرض الموصل «الحليف» لأقوي هجوم جوى غريب منذ الحرب العالمية الثانية - كما أن زاعبه طرف دبلوماسي في هذا الهجوم - وسوف يسرى هذا الشبح ليحطوف بدول أخرى حليفة سوف تتسائل بدون شك عن مدي مصداقية وديمومة ارتباطها بموسكو. وعسكرياً كان جورباتشوف يفتح لنفسه هائلة من جنراته. فالعراقيون لم يألوا جهداً في تعزيز قواتهم التقليدية، وزاد من قوة تسليحهم السوفيتي الحديث حصولهم على بعض الأسلحة العربية المتطورة. وما كانت تكتيكاتهم التي سبقتها على مر السنين آلاف من الخبراء السوفييت سري مرآة عاكسة للعقيدة القتالية السوفيتية. ومع أوائل شباط فبراير بات من الواضح أن الأسلحة والتكتيكات الأمريكية في الحرب الجوية تذل جيش صدام. وكم تباهي الضباط السوفييت مراراً أمام زائريهم الأمريكيين في أواخر ١٩٩٠ بأن الجيش العراقي سيكون نداً للتحالف بكل صنف. وفي هلسنكي حذرني الماريشال سوبرجي أخروميف. «عليكم ألا تسيئوا تقدير هؤلاء. فسوف يبلون بلاءً عظيماً وإن تكون المعركة معهم معركة سهلة».

والآن فلابد وأن أخروميف وكبار المسؤولين العسكريين السوفييت تملكهم العصبية البالغة لأن الحرب البرية لم تذلل الهزيمة بصدام حسين فحسب بل كشفت بوضوح زيف أسطورة القوة العسكرية السوفيتية.



ولا ينبغي بأي حال الاستهانة بالأثر الحاسم للقوضي الداخلية على عملية صنع القرار في الاتحاد السوفيتي خلال تلك الفترة. وبحلول خريف ١٩٩٠ تحرنت الليبريسنريكا لهجوم صار واستقال شيفرادرة، وبلت قبضة جورباتشوف على السلطة مهتزة بشكل متزايد. وعلى يساره بقب أشد الإصلاحيين تطرفاً بقيادة بورس يلتسين الذي لم يستمع لتكؤ خطي الإصلاح السياسي والاقتصادي، وكانت الشكوك تلوذهم أيضاً حول الالتزام الحقيقي له.

والأهم كان جورباتشوف محاصراً بهجوم محافظ مضاد بلغ ذروته في الانقلاب البراماني الفاشل في حزيران/يونيو ١٩٩١ والمحاولة الانقلابية التي وقعت بعد شهرين لاحقاً. وأصبح العرس القديم أشد ضرواً بشكل متزايد، وبالنسبة لهم كانت أحداث مثل توحيد ألمانيا وتحرير أوروبا الشرقية وانفصاض حلف وارسو ومعاهدة خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا مجرد ننادج للاستسلام السوفيتي. وساهم التخلي عن العراق في دفع المحافظين نحو الهاوية. وتكثرت بصلاية ضد جورباتشوف، وتمثل الحد الفاصل في إنذبات الحقن السوفيتي في قمع أحداث ليووانيا في كانون الثاني/يناير ١٩٩١. فلأن جورباتشوف كان يسيطر تمام السيطرة علي مقاليد الاتحاد السوفيتي لما وقع القمع في دول البلطيق حسبما أعتقد.

كانت كل تلك التوترات تحدث علي خلفية الخداع السوفيتي للذات عن انحصار وضعهم الجيوبولوتيكي. فأتداء حرب يوم كيپور* كان السوفيت شركاء أصليين. فقد حدد الاحتمال النظري بنشوب حرب نووية بين القوتين العظميين بتحويل هذا الصراع الإقليمي إلي حرب عالمية. أما هي أزمة الخليج فلم يكن هناك وجود لمثل هذا الاحتمال للنظري. فقد حيد البيان المشترك في الثالث من آب/أغسطس قدرتهم علي التحرك من وجهة نظر عسكرية وبمجرد صدور قرار كل الوسائل اللازمة، من الأمم المتحدة في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر أصبحت الدبلوماسية أقل أهمية من رواية تحديد النتيجة النهائية، لأنه لا يمكن إجراء مفاوضات بعداً عن قرارات الأمم المتحدة طالما نحن محبوسون. كان للولوى العربي في الخارجية السوفيتية بمعتقد أنه ما لم يتخذ إجراء ما لتغيير هذا التوجه فسرعان ما سينظر إلي السوفيت علي الأرجح علي أنهم فكرة عارضة بالنسبة للهيمنة الأمريكية علي المنطقة.

وفي هذا الصدد إنقعت مصالحي بريماكوف مع طموحات جورباتشوف الكبيرة في أن يصبح سانعاً للسلام. وفي عمرة للحرب الجوية كانت أزمة الخليج عرضاً أمريكياً بحداً. ومع ذلك فإن مبادرة سلام سوفيتية ناجحة تحول دون اندلاع حرب برية ستسمح للسوفيت للتأكيد بأنهم ساهموا هي صنع النتيجة. وسيتم كذلك تحقيق الحاجة المتزايدة لجورباتشوف لإظهار أن اتحاد السوفيتي السنداعي استعاد وضعه في الساحة الدولية.

* حرب أكتوبر ١٩٧٣.

هجوم جورياتشوف الدبلوماسي

وعلي الفور تقريباً تلاقى مختلف هذه الاعتبارات الخارجية والضغط الداخلي لتدفع جورياتشوف نحو السعي لإيجاد حل لفتاى نشوب حرب برية. وبعد يومين من بدء الحرب الجوية إتصل جورياتشوف بالرئيس يطلب وقف الأعمال الحربية. وقال جورياتشوف: إن وحشية هجماتنا مروعة. فقد تلقى صدام الرسالة بوضوح. والآن بات علي التحالف أن يخفف من وطأة الهجوم ويسمح للدبلوماسية السوفيتية بالتوصل إلي تسوية سلمية. ورد الرئيس بأن وقف العمليات الحربية سيعنى ببساطة السماح لصدام حسين بالادعاء أنه حمل أعدائه مرة أخرى علي الإنذاع. سوف تستمر الحرب.

وفي العاشر من شباط فبراير ويتصوي والتطورات المثيرة التي تبث علي الإنزعاج في الخليج، أعلن جورياتشوف لإفاد مجموعته الشخصى إلي العراق علي أمل وقف الحرب. وبعد يومين وصل بريماكوف إلي بغداد ليعرض خطة علي صديقه القديم صدام. كانت عناصرها خادعة بكل بساطة: فقد حث صدام علي إعلان استعداده للانسحاب من الكويت في غضون فترة محددة من الوقت يمكن أن يتم فيها الانسحاب. وأبلغ صدام أنه في المقابل يمكن إقناع التحالف بالموافقة علي وقف إطلاق النار - وهي صفقة لم يكن بريماكوف مفوضا ليعرضها ولا يمكن قبولها حتي من ظاهرها - ولم يكن لدي الرئيس أى نية لقبول صفقة تتراجع عن قرارات الأمم المتحدة. فلم تجر مناقشة هذا البديل من جانبنا مطلقاً حتي لو في السر.

ولا يحامرسى أى شك هي أن بريماكوف روج لمبادرته السلمية الجديدة بإبلاغ جورياتشوف أنه يمكن أن يسدي لصديقه جورج بوش جميلاً سياسياً بإنقاذ حياة آلاف الجنود الأمريكيين. ومصادف هذا للتفكير هوى لدي جورياتشوف علي الأرجح لأنه شجعه علي الاعتقاد بأن بوسعه في ذات الوقت الاحتفاظ بعلاقته مع الولايات المتحدة وتعزيز حقه للتراجع «بإنقاذه العراق، وتعزيز مكانته كرجل دولة من الطراز الأول.

وفي ١٥ شباط فبراير إتصل بي بسمرتنيخ هاتفياً في منتصف اجتماع لي مع الرئيس. وتلقيت المكالمة في غرفة صغيرة مجاورة للمكتب البيضاوى. وقال بسمرتنيج إن جورياتشوف بحث نحوه رسالة إلي الرئيس تتضمن تفاصيل إقتراح بريماكوف. والأهم هو

وجهة نظره بأن بريماكوف اكتشف عنصراً غير محدد ومشجع في سلوكه صدام، يبشر بإحتمال تحقيق إنقراج. وفي الحقيقة فقد أرسل صدام طارق عزيز إلي موسكو لبحث المسألة مع جورباتشوف. وأبلغته بأننا لن نصدر حكماً حتى نتلقى رسالة جورباتشوف.

وكم المتوقع أعطي بسمرتنيخ تفسيراً شديداً للصراحة لما توصل إليه بريماكوف بالفعل. ولم تكن مفاجأة لي أن يحجم عن إيلاغي بأن رسالة جورباتشوف تضمنت عبارات غير مقبولة «سيكون من غير المرغوب من هجمات برية شاملة حتي لو كانت مقررة خلال فترة مباحثات موسكو».

ولم تكن هناك حاجة لمناقشة ردنا. وفي بيان نشره في وقت لاحق في بغداد وافق صدام علي مجرد دراسة الانسحاب. وعندما قرأ الرئيس رسالة جورباتشوف كان رده بليغاً، «لا سبيل» ووصف الاقتراح بأنه «خدعة كبرى» واتصلت بسمرتنيخ لأؤكد له مجدداً للرأي بأن خطة بريماكوف ما هي إلا خدعة. وأبلغته بأننا لن «نقبل ما هو أقل من قرارات الأمم المتحدة بدون شروط» ومع ذلك فقد وافقته علي أن صدام قد بدأ أخيراً في تقدير عواقب موقفه. وأضفت قائلاً: «إننا نريد دليلاً، والدليل الوحيد المقبول هو أن يكف صدام عن فرض أي شروط حول أي انسحاب، ويبدو أن بسمرتنيخ أخذ بصلابتي. وقال إن العراقيين خلفوا موقفهم بدرجة مهمة، وأنه يتعين أن ترحب الولايات المتحدة بهذا التطور. لا أن تدينه».



وبعد ثلاثة أيام، وبعد ظهر ٨ شباط فيبرير عاد بسمرتنيخ الإتصال بي هاتفياً حاملاً أفكاراً أكثر تشجيعاً. فقد أسفرت للمباحثات بين جورباتشوف وطارق عزيز عن التوصل إلي اقتراح حل وسط جديد للسلام، وسوف تصل برقية من جورباتشوف لواشنطن في غضون تسعين دقيقة. وأكد لي أن عناصر الاقتراح «تقع في الإطار الذي ناقشناه». وعاد طارق عزيز إلي بغداد وطلب منه الحصول علي موافقة صدام حسين في أسرع وقت ممكن.

وفي وقت لاحق بعد الظهور لخص شينغفيريكوف خطة جورباتشوف لي في مكالمات هاتفية استغرقت عشرين دقيقة. وأول عناصر الخطة أن يعلن العراق استعداداته للانسحاب ويوافق علي موعد محدد لسحب القوات. وثاني هذه العناصر أن الانسحاب سيبدأ في اليوم التالي لوقف إطلاق النار، وثالثها أنه سيكون انسحاباً غير مشروط. وأخيراً فإن القوات العراقية المنسحبة لن تكعرض لأي هجوم كما سبق وتمهدنا علناً.

وقال شينغفيريكوف أنه عندما استفسر طارق عزيز عن القضية الفلسطينية الإسرائيلية رد جورباتشوف بأن الاتحاد السوفيتي سوف يصدر علي أن تعالج الأمم المتحدة كافة القضايا والصراعات المعقدة في الشرق الأوسط بما في ذلك قضية الأمن الإقليمي. وعلي هامش ملاحظات دولتها يخط اليد عن هذه المكالمات كتبت تعليقاً واحداً «عتيق». وها هم السوفييت يلعبون مرة أخرى لعبة الریط. ولم تتضمن الخطة أي بند عن تبادل أسري الحرب وتجاهلت متطلبات معظم قرارات الأمم الأحد عشر.

وفوهت رسالة جورباتشوف إلي أن للعراقيين ردوا علي مقترحاته «باستعراضات غامضة» ومع ذلك فلم يرفضوها كلية، ووافقوا علي السعي للحصول علي رد فوري من صدام. ورأي جورباتشوف «بدلية تخيير مؤكد في فهم الوقائع من جانب صدام وفريقه». وللمح جورباتشوف إلي أن هذه البدلية الجديدة من بغداد يجب أن توسع في الاعتبار لدي ش عمليات عسكرية في الأيام القليلة القادمة. فقد شكك له العراقيون من أن بغداد تعرض لقصف عنيف في الوقت الذي كان المبعوث الشخصي للرئيس السوفيتي يزور فيه العاصمة العراقية. ومن المحتمل أن بريماكوف عرض القضية علي جورباتشوف بأن الولايات المتحدة أكثر اهتماماً بمهاجمة العراق من صنع للسلام. وفي الواقع لقد قُصد بالهجوم لتحقيق السلام للتكثيف والمنطقة ككل.

وتضمنت خطة جورباتشوف عناصر جديدة. فمن الواضح أن صدام بدأ ينصرف وكأنه يخشي حقيقة وقوع هجوم بري أمريكي. لكن هذا لم يكن كافياً، وليلفت جورباتشوف بأننا لن ن فكر في الاقتراح ما لم يعلن العراق موافقته علي النقاط الأربع كلها. ثم أرسل الرئيس رسالة إلي جورباتشوف يعلن فيها أن الخطة غير مرضية. وفي وقت لاحق من يوم الثلاثاء ١٩ شباط فبراير أعلن أن الخطة «تقتصر في التوصل إلي حل مقبول».

واتصلت بسميرتيخ للتأكيد علي أن أي انسحاب لابد وأن يبدأ مع وقف إطلاق النار لا بعده كما اقترح جورباتشوف، وأن تبادل الأسري يجب أن يبدأ بعد أربع وعشرين ساعة. وقالت: إننا نخشى من أن صدام سوف يستغل أي غموض.

وفي رسالة ثانية إلي جورباتشوف في اليوم التالي خيب الرئيس آمال جورباتشوف بكل رقة. وجاء في الرسالة «إنني أقدر جهودكم لكن القلق يساورني من أن القصور والغموض الكامن في اقتراحكم قد يفرض صدام حسين بأنه يمكن أن يفلت من عواقب أفعاله ويؤدي إلي نتائج غير حاسمة قد يستغلها سياسياً. وتضمنت الرسالة شرطاً جديداً بأنه لن تتم دراسة وقف إطلاق النار قبل بدء انسحاب عراقي شامل» يجب أن يكتمل في غضون ست وتسعين ساعة.



وفي مناقشات جرت بعد ظهر الأربعاء والخميس وافق مجلس وزراء حرب الرئيس بالإجماع علي توجيه إنذار نهائي جديد مماثل للإنذار الذي وجه قبل شن الحرب الجوية. وبعد سلسلة مباحثات هاتفية مكثفة مع حلفائنا الفرنسيين مساء الخميس وصباح الجمعة أصبحنا متأكدين من أن شركائنا لا زالوا عند اللزمتهم .

لكن جورباتشوف لم يكف عن محاولاته لمنع نشوب حرب برية. ففي صباح يوم الجمعة ٢٢ شباط فبراير مع انتهاء الاستعدادات النهائية، اتصل جورباتشوف بالرئيس ليلبغه بصورة منفحة لاقتراحه السابق. وكنت أقوم مع الرئيس بتقييم التطورات الأخيرة في المكتب البيضاوي عندما جاءت المكالمة. كان الرئيس متأخراً عن مواعده في حفل مقام بالحديقة الوردية، ومن المقرر بعد الحفل أن يشهد مراسم أداء لين ماريتين لليمين كوزير للعدل. وطلب مني أن أتحدث معه حتي يمكنني الانتهاء من هذا الحدث. ولم يكن لدي كلينا أي فكرة عن أن المكالمة ستستغرق ساعة وأربعين دقيقة.

وبدا جورباتشوف بالقول: «لأود أن أطلعكم عن اجتماعاتي العاجلة مع السنديين العراقيين». فالحراق لم يوافق علي تلك المقترحات. لكن عزيز يعتقد أن صدام حسين سوف يقبلها. وسوف يقبل العراق الآن باتسحاب فوري غير مشروط علي أن يبدأ في اليوم التالي لوقف إطلاق النار، وبمجرد اكتمال الانسحاب في غضون ثلاثة أسابيع وفقاً لقرار الأمم المتحدة ٦٦٠ تلغي كافة للقرارات الأخرى. وهما أشاد به كتنازل منكم، أبلغني جورباتشوف بأنه تخلي عن فكرة ربط الأرمية بعملية للسلام في الشرق الأوسط.

وأشرت إلي أن الانسحاب للذي يتصوره جورباتشوف غير فوري ومشروط. إضافة إلي ذلك فسوف تمنح هذه الخطة حصانة للعراق ضد مختلف العقوبات والتحرصات والتجمعات حسب ما هو وارد في قرارات مجلس الأمن الدولي نتيجة لغزو الكويت. ونفست الحرب البحرية صدام نحو حافة للحقيقة. والآن فإنه يريد الإفلات من العواقب الأخرى لعدوانه غير المسبور. وأبلغت جورباتشوف بأنني لا أريد الافتراض بأنني أتحدث باسم الرئيس لكنني أعتقد أنه سيحظر أن تلك الشروط غير مقبولة.

ولم يمرر جورباتشوف من سماع هذا. وتساءل في لهجة تلبئ عن غضب: «ما هي أولوياتكم؟». لقد تعارفت معكم وحاولت التوصل إلي دور سياسي لحماية جنودكم والعراقيين. إن مهمتنا إيجاد حل حاسم لكافة صلي، فلا يمكنكم الحصول عليه في أسبوع واحد. ورددت: «لقد دخلوا الكويت في يومين، وعندما عاد الرئيس أعاد جورباتشوف عرض تفاصيل خطته دون جدوي. وبعد إطلاعه علي صور آبار البترول الكويتية المحترقة شعر الرئيس بالغضب الشديد لأن جورباتشوف يريد في واقع الأمر إعفاء صدام مما قرره كافة قرارات الأمم المتحدة. وعندما طلب منه جورباتشوف إهمال المفاوضات بضعة أيام فثلاث، لم يكن الرئيس في حالة تسمح له بالكلام. وقال: «إن هذا الرجل سيفعل كل شيء». لقد أشعل النار في حقول البترول الكويتية. لا يمكننا قبول هذا». وسرعان ما تراجع جورباتشوف قائلاً: «انظر، إنني لا أبلغ عنه، وفي ختام للمحادثة وضع للرئيس سماعة الهاتف وهو يقول: «إنه أمر غير مقبول بالمرّة».

مهلة وحيدة أخيرة

وفي غضون ساعة أمر الرئيس مارلين فيتزووتر المتحدث باسمه بتوجيه إنذار نهائي وحيد أخير، إنه في محاولة أخيرة لحمل العراق علي الإمتثال لإرادة المجتمع الدولي، وجاء فيه: «إنه إذا أريد تجنب حرب برية يجب علي العراقيين الموافقة علي كافة قرارات الأمم المتحدة السابقة، وأن يبدأوا انسحاباً شاملاً بحلول ظهر اليوم الثاني ٢٢ شباط فبراير بتوقيت نيويورك علي أن يكتمل الانسحاب في غضون أسبوع».

وبعد ذلك، طلب مني الرئيس الانضمام إليه في كامب ديفيد لتمضية عطلة نهاية الأسبوع. وقال إنه يريدني هناك عندما تكون الحرب البرية قد بدأت. وكنت أعتقد أن مرصعاً آخر بطرق فكره مثلي. فخلال الشهر الماضي استوعبت كما هائلاً من النقد اللاذع المنسوب إلي مصادر في البيت الأبيض نتيجة البيان المشترك مع بسمرتنيخ. واعتقدت أنها طريقته المعبودة في كرمها وصمتها - بإرسال إشارة بأنه غير راض عما يوجه لي. فهو يحتفظ بحقه في إعلان غضبه مني ويخبره لقاء خاص. لكنني أشعر أنه ما من أحد يمتلك هذه الرخصة وخاصة علي الطعن ودون إعلان أسماء.

ورغم رفض الرئيس، بذل جورباتشوف محاولة معمومة أخيرة للتفاوض وقبل الساعة الراحدة يوم الثالث والعشرين من شباط فبراير أيقظني بسمرتنيخ في سريري في بيرش لودج ليبلغني بأن طارق عزيز سوف يعلن عما قليل التزام العراق بالانسحاب فوري وغير مشروط وهكذا فليس هناك أي سبب لبدء هجوم بري، وقال: «إن إنذار للرئيس النهائي، «عقد الأمور، لكن الدبلوماسية السوفيتية حملت حسام علي القبول. والآن هانحن نتبادل الحديث مع بعضنا. ومرة أخري ذكرت بسمرتنيخ بأن عرض الانسحاب المقترح غير فوري ومشروط فيتمين إلغاء أحد عشر من قرارات الأمم المتحدة. وأشارت إذا كان العراق قد استطاع دخول الكويت في يومين فقد كان بوسعه بالتأكيد الخروج منها في غضون أقل من ثلاثة أسابيع.

وبدا احتياطي بسمرتديخ للدبلوماسي في التراجع. وشكا قائلاً: بأنه عشية نصر سياسي وعسكري، تدور خلافاتنا حول مسائل قانونية. إن هذا يشبه تجادل المحامين حول كلمات. وريدت بأن خلافاتنا جوهرية وليست خلافات شكلية، وأن صدام يستغل مباحثاته مع السوفيت كسائر حملة الأرض المحروقة للتدمير للكويت حتي ونحن نتحدث. إن نقول بما هو دور التطبيق الدام والقبول الكامل بشروط الرئيس. وقتت لو إقتضني الأمر سوف يبدى اعتراضنا علناً علي دعوة جورياتشوف بعقد اجتماع لمجلس الأمن مالم يوافق للعراق موافقة تامة علي شروطنا ويبدأ في الانسحاب. واتضح لي أن السوفيت لارأوا عاجزين عن إقناع العراقيين بالموافقة علي مجرد الحد الأدنى.



كان عناد صدام تكراراً للحظة الأزمة التي أحبطت نزعات جورياتشوف السلمية وجعلت مهمتنا أقل صعوبة. وفي النهاية نطقت العراقيون مع السوفيت كما نطخوا معنا في جديف. وعندما ظهر القوي العربي لإعادة تنظيم الجهود وإقناع جورياتشوف للتفويض بإجراء حوار جديد حذله العراقيون. وباستمرار كان العراقيون ألد أعدائهم. وكان بوسعهم بسهولة تعقيد جهودنا بشيء من المؤشرات للقواصة. وبشكل خاص فريما اضطررنا انسحاب جزئي من الكويت إلي دراسة تأجيل للهجوم البري، ولجعلنا الأمر أكثر صعوبة أمام استمرار وجود السوفيت في التحالف.

ولم تثن عريكة جورياتشوف ففي عصر يوم إقتضاء السهولة، ولكن قيل بداية الهجوم البري بالفعل اضطررت أنا والرئيس لقطع مباراة تنس رائمة نظلتها مجموعة متنوعة من الكرات الطائرة علي ملعب ريكيت. كان جورياتشوف علي الهاتف يقدم مناشدة أخيرة. وقلقي الرئيس المتكلمة في مركز اللوافة الصجير. وجلس علي دكة في غرفة الملابس للرجال وهو يتحدث في الهاتف وأشار إلي أن الاختلافات بين السوفيت الأمريكي والسوفيتي قد

نقلتمت لمجرد «التفاصيل» وألحج إلي أن بضعة أيام قلائل من المفاوضات ستكون مفصلة بالتأكيد عن مذابح الحرب البرية. كان الرئيس نمتاً في حزم. وأيدي تقديره لجهود جورباتشوف لكن صدام يتلاعب. وأشار إلي أنه لو تحدث جورباتشوف مع العراقيين في أي وقت في القريب عليه أن يذكرهم بأن المهلة التي انتهت لكنها يتعين اعتبارها مهلة حقيقية كذلك التي سبقت الحرب الجوية، وفهم جورباتشوف الرسالة الصعنية الواردة في الاقتراح، الرئيس .

وبعد بسع دقائق أي في الساعة ٢,٥٢ دقيقة مساء عاود بسمرتنيخ الاتصال بي واستقرت المكالمة الثنتين وعشرين دقيقة. كان بسمرتنيخ يصغي لمكالمة جورباتشوف مع الرئيس. وقال: «لأماننا الآن فرصة لوقف عودة الدخول إلي الوطن من الخليج». وامتدحت بسمرتنيخ لما وصفته «بالهدف النبيل، فقد سبق أن أشاد الرئيس بجهود جورباتشوف، لكن لا يزال هناك خلاف جوهري: إننا نعتقد أن صدام لن يخرج من الكويت مالم يهجر علي الانسحاب. وقلت: «إنهم لا زالوا يريدون الشراء، وعلينا أن نقدمهم بأن أبواب المنجر لم تعد مفتوحة. عليهم أن يقفوا ويقولوا إنهم صبروا ثم ينسحبوا فلا يمكن السماح باستمرار محاولتهم للشراء. وتلقي بسمرتنيخ هذا اللسد بكثرة».

وفي وقت لاحق من المساء عدت إلي واشنطن مع الرئيس الذي كان في طريقه ليحدث إلي الأمة عن بدء الحرب البرية. وفي الساعة ٩,٥٠ مساء إتصلت ببسمرتنيخ من مقر الخارجية الأمريكية لإبلاغه بأن الصلوات البرية بدأت منذ نحو الساعة. وسوف يعلن الرئيس هذا في الساعة العاشرة مساء. لكنه طلب إبلاغ السوفيت سلفاً كدخول من المعاملة. وقال بسمرتنيخ: «من الأسف أن أسمع هذا. وشكرته لجهوده ونميت العمل معه في ظروف أفضل في المستقبل. ولم تستغرق المكالمة سوى دقيقة واحدة فلم يكن هناك شيء آخر يمكن قوله. واستقال بسمرتنيخ وأصابته خيبة أمل جمة لمجزه عن وقف ماكان يعتقد أنه خطأ مروع».

ومثلما فعلت لذي بدء الحرب الجوية. سرعان ما بادرت بلخطار حلفائنا بمن فيهم السكرتير العام للأمم المتحدة ورئيس وزراء إيطاليا والسكرتير العام لحلف شمال الأطلسي

وزراء خارجية أسبانيا وهولندا وسوريا واليابان وإسرائيل ولوكسمبورج، وتعالى للسرور بوصوح الرمان شوقال لدي صماح هذه الأثناء، وتساأل عما إذا كنا نعتزم الإطاحة بصدام وربدت: أننا لا نعتزم توسيع الأهداف الحربية أو السياسية، لكن إذا أطاح الشعب العراقي بصدام من السلطة «فلن نهكي».

نهاية سريعة

وبرغم أنه مذهب في الكثير من القواعي، كنت بصراحة شديد العصبية تجاه بدء العمليات البرية. فالعرب الجرية سارت بأفضل صورة فافت أي توقعات: فلم نفقد سوى ٢٧ طائرة أمريكية في القتال، وهو رقم توقع بعضهم أن نفقده في الليلة الأولى للحرب. وإنساني القلق مع ذلك لإمكانية ارتفاع الفخائر البشرية. لأننا أرسنا فوالق مدرعات ومشاة للعراق والكويت. كان العسكريون لا يزالون يحشون من استخدام العراقيين للأسلحة الكيميائية ضد القوات المهاجمة، وكنت أعرف أن الحرب البرية تتطوى علي مخاطر وأكثر كلفة في الأرواح البشرية من الحرب الجوية. وأتذكر في إحدى اللحظات أنني تطلمت من نافذة مكبي بالفر السابح عبر نهر بوتوماك نحو مقبرة أرينجتون الوطنية. وتساءلت كم عدد الشباب الأمريكي للجسر الذي سيطره تراب هذه المقبرة في القريب.

ولم يدر جدل داخلي حول ضرورة الحرب البرية لتحقيق أهدافنا العسكرية والسياسية. كنا جميعاً نفضل تفادي الحرب البرية لو كان ذلك ممكناً، وكماح سابق كان أرنيس يدرك تماماً حدود قوة القوات الجوية، ولم يكن راغباً في مرحلة ثانية لأراء الجنرالات الذين كانوا يعتقدون أنه ليس هناك بديل.

ولم يتم تأكيد التخطيط الأولى للحرب البرية. وفي الحقيقة كم شكونا مراراً في أحاديثنا الخاصة، نشينى وسكوكروفت وأنا عن عروف مبكر ملحوظ في البنتاجون لاستخدام القوة لتحقيق أهداف سياسية. وكرايس لهيلة موظفي البيت الأبيض خلال فترة الرئاسة الأولى لريجان طلباً سمعت كبار مسؤولي وزارة الدفاع ينلقون مراراً عن عدم اللج بقواتهم في

أماكن مثل جريداداً. وكُتِبَ الكثير حول هذه الظاهرة وعكست الخطط الأولية للعمليات التي تم تقديمها في خريف عام ١٩٩٠ هذه العقوبة. وأشار سكوكروفت، بجفاء إلى أنها خطة قتالية ترمى إلى إظهار ماذا يدعين علينا ألا نقاتل. وكان محورهما مهاجمة صلب الدفاعات العراقية في الكويت، أسميناها خطة نصب واشتطن الذكاري - أي الاختراق في العمق، فسوف تحتشد قوتنا بأعداد ضخمة، ولابد وأن الحساائر البشرية ستكون فادحة. وتحت ضغط من تشيني وسكوكروفت ظهر ما يعرف بخطة «خطاب اليسار» وهي مناورة جريئة على الأجانب.

وكما نوقش خيار الهجوم كان البتجاجون بلح في طلب المزيد من الرجال والعتاد. وكانت إستراتيجية تشيني التي أبدتها أنا وسكوكروفت هي للتوصية لدى الرئيس بالانزول عند كل المطالب، وكان المطلوب نشر ست حاملات طائرات وفرقة مشاة بحرية وبقية ثان من الجيش من ألمانيا واستدعاء ١٥٧٠ ألف جندي لاحتياط بهدف تعزيز مصداقية التزامنا وتحقيق نصر سريع ساحق. وكانت النتيجة الإضافية لهذه الاستراتيجية ضمان إزالة أي تحفظات من جانب العسكريين.

وأعطاهم الرئيس كل ما طلبوا، وكان السيناريو الأخير للحرب خطة مناورة بارعة علي الأجانب. والآن وبعد أن أرتاحوا إلي أنهم سينجزون مهمتهم أصبح قادة الجيش أكثر تفاناً تجاه قدرة قواتهم علي إنهاء الحرب بسرعة ويأمنني قدر من الحساائر في الأرواح. وطمأننا أيضاً تقارير استخبارات دوريات مشاة البحرية التي استطاعت للتسلل خلف الدفاعات العراقية تحت جنح الظلام. واكتشفت تلك الدوريات أن الخنادق العراقية المتقدمة إما حارية أو مليئة بالجليث. وأبلغنا بابل أنه عندما وقع الهجوم سرعان ما تهاوت دفاعات العدو. كنت أعرف أننا سنفوز، لكنني أعترف بأنني كنت أقل اقتناعاً بأن تدجيج الحرب ستكون نظيفة وسريعة كما يقال لنا وخاصة في ضوء التقديرات السابقة للحساائر البشرية.

وفي النهاية كان التفاؤل أساس قوى. وكان الهجوم البري الذي شُن تحت جنح الظلام قبل فجر ٢٤ شباط فبراير مبرمجاً يحتثي للنجاح. ونزلت هزيمة مفكرة بقوات العراق. وكانت الحساائر البشرية الأمريكية صليبة للغاية. وفي غضون ثمان وأربعين ساعة تهاوت المقاومة

المنظمة في مسرح العمليات. وأعلن الرئيس أن الحرب سوف تستمر لكن قوات التحالف لن تهاجم الجنود العزل المتسحبين.

وفي صباح ٢٧ شباط فبراير تجمعا في المكتب البيضاوي لتقييم الموقف. وكان الرأي العام السائد بيننا جميعا أننا حققنا أهدافنا السياسية والعسكرية من الحرب. ولتذكر قول كولين باول بتأثر: «إننا نقتل آلاف الأشخاص بالمعنى الحرفي للكلمة، فالعراقيون يحاولون الهرب عبر طريق الموت السريع، واتصل الرئيس بدورمان شورنسكوف الذي وافق علي أن أهدافنا من الحرب قد تحققت. وفي هذه الليلة أعلن الرئيس وقف إطلاق النار بعد مائة ساعة من القتال.

وبعد ستة أسابيع من بدئها إنتهت عملية عاصفة الصحراء، كان الرئيس قد أحسن بتمهده «بأن هذا لن يستمر». وإنتهى أول اختبار للنظام ما بعد الحرب الباردة بانتصار القوة والدبلوماسية الأمريكية. فقد عوقب العراق وتلاشي تهديده الاستراتيجي للمنطقة إلي حد كبير. ولعنه الحظ سرعان ما ستؤكد الأحداث أن صدام علي بالهزيمة لكنه لا يزال في السلطة.

الفصل الثالث والعشرون

رؤية للشرق الاوسط ما بعد الحرب

علينا أن نتطلع الآن لما بعد النصر والحرب. علينا أن
نستجيب لتحدي ضمان السلام.

الرئيس بوش

في خطاب إلى الأمة

واشنطن دي سي ٢٧ شباط فبراير ١٩٩١

كان مشهداً لا يصدق من مشاهد جحيم دانتي. وبينما أنا متجه بالطائرة من الطائف إلى مدينة الكويت بعد ظهر التاسع من آذار مارس، بعد أقل من أسبوعين من إنتهاء عملية عاصفة الصحراء ما كنت لأصدق ما أراه من نافذة طائرة القوات الجوية الأمريكية. كانت سماء الصحراء الساطعة في العادة قد تحولت إلى ظلام دلمس مخيف بفعل كتل سحب الدخان المبعثة من أكثر من ستمائة حريق في آبار البترول التي أشطت القوات العراقية المنسحبة من الكويت النار فيها. ويطول أكثر من مائة ميل خرجت هذه الحرائق عن نطاق السيطرة. كانت السنة للهب ترتفع في السماء لآلاف الأقدام كنافورات الماء الساخن بارتفاعية اللون. وثم حرائق أخري تمر في صندوق بالأرض تمتد بطول أميال. وفي الوقت الذي هبطنا فيه بمطار الكويت الدولي المحترق الذي كان مسرحاً لمعركة ضارية بين مشاة البحرية الأمريكية والقوات العراقية. كانت طائرانا بلونها الفضي للبرق قد اكتست بطبقة من الشحوم البترولية.

وأنا أطلع من نافذة كابيتلي وجدت أنه من الصبر إستصاغة هذه الوحشية البالغة، وهذا العمل العدواني المتعمد. ولم يحسن عمل أي شيء سوى التعجب من كيفية تجرؤ أي إنسان علي إصدار أوامر بارتكاب هذا العمل غير المتحضر. ولتذكر أنني شاهدت حرائق في آبار البترول في تكساس من قبل - لكن لا يمكن مقارنة هذا بأي شيء حلي الإطلاق. لقد سمعتي هذا للمشهد المروع لدرجة أبرقت معها الرئيس لاحقاً بأنني رأيت لتوي مخرباً هائلاً وكارثة يبلية مروعة. لا بد أن يدفع العراق ثمن هذا.

وقبل الهبوط استعدنا نحو الشمال لنحلق فوق الطريق السريع رقم ٦ وهو الطريق الرئيسي الذي يربط مدينة الكويت بالبصرة. حيث إنفرد طياروا التحالف بالجنود العراقيين المسحبين في العراق في اليوم الأخير للحرب.

وشاهدت مئات الدبابات ونافلات الجند المدرعة وقطع المدفعية المحترقة. ناهيك عن مئات السيارات المدنية التي اغتصبها العراقيون. وعندما سدت المركبات المحترقة الطريق اندفع العراقيون نحو الصحراء حيث أصبحوا صيناً سهلاً. وعلي جانبي الطريق بحق مئات

الأمطار تتأثر الحطام فوق الرمال. ولا عجب فسرعان ما وصِفَ هذا الطريق بأنه طريق للموت.

وما لبثت أن أحسست بأن هذا الدمار والرعب المأساوي ينطوي علي شيء أكثر إيجابية: وهو بذور الأمل لمنطقة طالما وئدت فيها أحلام للسلام والمصالحة بقسوة لعدة قرون. فكل هذا الدمار المنذر تحت طريق رحلتنا للحرية اعتقدت أن غزو الكويت وتحريرها بواسطة تحالف قادته الولايات المتحدة قد هوأ واقعاً جديداً في المنطقة. فالتطرف للعربي قد مصداقيته لتقوي يد الدول العربية المعتدلة مثل مصر والعربية السعودية. وبهرمة العراق كسبت الولايات المتحدة عميق امتنان كافة دول الخليج. وفي الوقت نفسه حيننا أخطر تهديد لأمن إسرائيل. وها هو الاتحاد السوفيتي القوة المثيرة للمشاكل في المنطقة لأمد طويل، قد بات شريكاً للدبلوماسية الأمريكية. واكتسبت مصداقية الولايات المتحدة الدولية زخماً أكبر عن أي وقت مضى منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وبات من الواضح لي أن حرب الخليج فتحت نافذة غير مسبقة للبحث عن إمكانية إقرار السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب. وكان ديليس روس مغرماً بالقول: «لقد شهدنا زلزلاً علينا أن نحركه قبل أن تستقر طبقات الأرض فسوف يحدث الاستقرار وإن يستغرق وقتاً طويلاً علي الإطلاق». ووجدت هذا التشابه أسراً حتمياً في حسره التاريخ المولم للدبلوماسية في الشرق الأوسط. ولم أكن علي يقين تام علي الإطلاق بمقدرتنا علي احتكام هذه الفرصة للادارة. فلن يكون من التيسير غزو الكرالية المتأصلة مظلماً حدث مع القوات العراقية. والآن فإنني أشعر بقوة أنه يتعين بذل هذا الجهد. فالدبلوماسية الأمريكية أوشكت علي تحقيق انفراجة عام ١٩٨٩-١٩٩٠ في ظل ظروف غير مواتية إلي حد كبير.

رؤية ما بعد الحرب

في شهادتي أمام لجنتي الشؤون الخارجية بالكونجرس ٧٦، شباط/فبراير ١٩٩١ عرصت لصحة عن أفكارى تجاه إحياء عملية السلام في الشرق الأوسط بعد الحرب. ومع ذلك لم تط

التجنّان ولا وسائل الإعلام اهتماماً كافياً لهذا الجانب من شهادتي. وكان اهتمامهم منصّباً علي استكشاف مدي التقدم في الحرب الجوية والسطلية بالتعويضات من العراق بعد الحرب وانتقاد ألمانيا واليابان لعدم تقديمهما مزيداً من المساعدة المالية للتحالف.

كان الهدف الأساسي لشهادتي هو طرح تصور أولي لرؤية الرئيس لما بعد حرب الخليج. كان أحياء عملية السلام في الشرق الأوسط هو العماد الرابع لخطة من خمسة أجزاء لجلب الاستقرار إلي توازن القوي في المنطقة، ومنع عودة النزعة القومية العراقية للظهور مرة أخرى، وعلي حد تعبيرى «ضمان السلام، لذى نعمل علي تحقيقه للأجيال القادمة».

واشتملت الفسلة علي ترتيبات جديدة للأمن القومي بما في ذلك قوة حفظ سلام عربية ودعمها تواجد بحري أمريكي موسع في المنطقة، واتفاقات إقليمية للحد من التسلح لوقف انتشار الأسلحة التقليدية، ومنع العراق من إعادة تبنى برنامج صناعة أسلحة الدمار الشامل، وبرنامج طموح للإعمار الإقتصادي، وجهود جديدة للسياسة لتقبل الاعتماد الأمريكي علي البترول*.

وكان الجانب الأكثر إثارة للجدل في شهادتي هو التأكيد علي ضرورة إشراك عراق ما بعد صدام في جهود خلق منطقة أكثر استقراراً. وقلت: «إن عصر الإعمار والإنعاش ينبغي ألا يكون فرصة لأعمال انتقامية ضد دولة فُرضت عليها للحرب نتيجة طموحات ديكتاتور. فالمستقبل الآمن المزدهر الذي يأمل كل شخص في أن يراه في الخليج يستدعي [إشراك العراق]».

وفي اليوم التالي لشهادتي طرحت فكرة تلك التنمية في الشرق الأوسط في تمليقاتي أمام لجنة للعلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي لتمويل التنمية الاقتصادية في المنطقة. وعرضت هذه الفكرة بدون موافقة مسبقة من وزارة الخزانة التي كانت تبتدي غوراً

* كان موضوع الفسلة إضافة متأخرة للفسلة في رد فعل غير رشيد في المقام الأول علي مقال نشرته الواشنطن بوست كشفت فيه عن خطة القتل الأربع قبل حدة إلهام من إيلاي بيهانتي، وكان يهدف أيضاً إلي حث الجمهوريات علي المشاركة في القضية. وأثار هذا الإهتمام موضوع دخلني في خطة مقترحة السياسة الخارجية قدراً متغلباً من الحماسة في البيت الأبيض.

تجاه الفكرة . وعندما أعلن الرئيس علانية في وقت لاحق أن الأموال الأمريكية لن تتفق علي إعمار العراق، ماتت فكرة بنك التنمية . كانت حالة تقليدية تماماً لأزرع فكرة جيدة وحكيمة للغاية قبل أن تكون جاهزة .

ولازلت أري أن الخطوة بأكملها تصور قيم لما فيه من رؤية وتفاؤل في المقام الأول . كان بنك التنمية حلاً خلاقاً بشكل خاص . ولا يزال الشرق الأوسط أرض الثروة غير المتكافئة، هو المنطقة الوحيدة في العالم التي تفتقر إلي وجود مثل هذا البنك . ومع شروط مناسبة حول أي معونة لإعمار العراق، وعلي سبيل المثال عراق ما بعد صدام، لا يزال البنك بمثل فكرة جيدة ولم أفتأ عندما تبنته إدارة كلينتون عام ١٩٩٤ .

ولسوء الحظ وكما أثبتت الأحداث التالية أن الإطار الذي حددت ملامحه لم يلفذ إلي حد كبير، باستثناء عملية السلام . فقد أيدت دول الخليج في البداية فكرة قوة حفظ السلام العربية ثم ابتعدت عنها في هدوء . وفي الحقيقة فإن أمن الخليج يقع الآن بقدر كبير علي عاتق الولايات المتحدة كما كان الحال قبل عاصفة الصحراء .



ويرجع فشل خطة ما بعد الحرب في جانب منه إلي إساءة تقديرنا للفترة التي سيستمر فيها صدام . فمعظم تخميناتنا في هذا الصدد بنى علي افتراض أن صدام لن يستمر في السلطة . وعندما عزز سلطته في للشهور التالية لإنهاء للمعارات العربية تقروض الكثير من أسس الخطة .

وخلال شهادتي للجنة الإدارة بمحاولة السعي لإحياء عملية السلام . وقلت أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب : «دعونا ألا نخدع أنفسنا . لقد أثارت هذه الأزمة مشاعر بين الإسرائيليين والفلسطينيين لن تزول بسهولة أمام المصالحة . وأنصت قليلاً : ومع ذلك ربما لاحظت فرص للسلام لو كان لدي الأطراف استعداد له . وما هو وقت استكشاف ما إذا كان هناك وجود لمثل هذه الفرص .

كان فشل محاولتي الأولى في دبلوماسية صنع السلام في ربيع ١٩٩٠ قد ولد لدى شعوراً بخيبة الأمل واستعنت إلي حد ما لرأى يقول: إن الآمال متدبلة في إحراز تقدم في المستقبل المنظور. وأتذكر قولى لنفسى بعد ذلك إن عزوفى الأولى عن المشاركة كان له أسبابه القوية، وأنه يتعين على أن أسعى لنفسى والآن ودرغم نجاح الدبلوماسية الأمريكية والحرب نفسها لا تزال بعض الأصول المحترمة تعتقد بأنه ما كان يتعين إنفاق الأموال الأمريكية علي القضية.

وقبل ثلاثة أيام من مغادرتي إلي الشرق الأوسط تضمنت مذكرة داخلية تعكس آراء هارلي شورمان أحد أبرز أعضاء فريق للتخطيط بالخارجية تقييماً مذهباً للموقف: «إن النتائج أمامنا لحظة قصيرة لإعادة ترتيب بعض أثاث المنزل للداعر علي أمل جعله أكثر راحة».

ومع ذلك كان تقييمي نابهاً أساساً من العرب. وبمحصلة عملية أجمعت أننا ربما نتعرض للانتقاد علي الأرجح لو أننا لم نبذل محاولة جديدة. فأنشاء حشد هذا التحالف السياسى والعسكرى ضد العراق تعهدت مراراً بأن الولايات المتحدة ستعالج القضايا الأشمل للشرق الأوسط عقب تسوية أزمة الغزو. وبدرجة كبيرة مكنتى هذا الوعد من إحباط جهود ربط غزو الكويت بالصراع العربى الإسرائيلى، أما وقد أعطيت كلمتى فى هذا الصدد شعرت أن على التزاماً معنوياً بأن أبذل المحاولة.

وليس هناك شك فى أن بيئة المنطقة قد تغيرت. ويلات من الواضح أن العالم كله يريد فجأة التقرب من الولايات المتحدة. لقد ولت الإمبراطورية الموفيقية فقيم ومبادئ التجربة الأمريكية للديمقراطية والسوق الحر يتم اعتناقها فى مختلف أنحاء العالم علي نحو لم يسبق له مثيل من قبل. وهذا كما لو أن الجميع يريدون أن يكونوا أولئك أصدقاء أمريكا. ودرغم أننا لم نبذل جهوداً كبيرة لشرح هذا التصور، فإن هذا التقدم العالمى للمحاولات الديمقراطية يقدم ما يعنى به حقيقة بإسقاطح النظام العالمى الجديد وليس اختفاء الصراعات الإقليمية كما قسر الكثيرون. ونعزز مركزنا أيضاً كقوة عظمى وحينئذ نتيجة للحرب. وأصبحنا نتمتع بقوة ومصداقية هائلتين فى مختلف أنحاء العالم، وأصبحنا نقف علي قمة نفوذنا فى الشرق الأوسط. وكنت أعتقد لى الوقت قد حان لأغتنم اللحظة. فلو ترددنا لفقدنا فرصة تاريخية.

وعارضت برينت سكوكروفت الفكرة في البداية. ولخص الأسباب المتعددة التي دفعتني إلى تجنب طرح مبادرة سلام في الشهر الأولي بعد أن توليت وزارة الخارجية، اعتقد سكوكروفت أن أي جهد سينذل محكوم عليه بالفشل، وثمّلت وجهة نظره في أن إسرائيل هي العقبة الرئيسية أمام السلام، ولن يكون بوسعها إقناع شامير بالتخلي عن ممارسته المتصلبة بفتح حوار مع الفلسطينيين. وفي أحد اجتماعاتنا مع للرئيس قال: «إنني أعتقد أنه لا يمكن تحقيق أي شيء. هل نريد حقاً طرح شيء من حيث لا تلوح فرصة حقيقية للنجاح».

وكنت أعرف أن للرئيس مطلب معي لهذا محاولة: فقد أصر لي بذلك عدة مرات، وعندما فاتته في الموضوع في شباط فبراير وافق بحماس علي خطتي. لكن إذا استمرت معارضة سكوكروفت لطرح مبادرة جديدة سيصبح النجاح أكثر صعوبة. وإذا فقد طلعت من نائب إيجلبيرجر زيارته. وأبلغه إيجلبيرجر بصراحة لرائي رايح في بذل جهد فعلي ألا يعارضه. وأني سعي إيجلبيرجر الودي مع زميله ثماره ووافق برينت.

تصور المسارين

استخلصت الكثير من الدروس المهمة من خبرتي السابقة مع عملية السلام. ويات من الواضح لي الآن وعلي سبيل المثال أن أي مبادرة أمريكية جديدة ستفشل إذا استندت فحسب علي الأمر الواقع دبلوماسياً. إن بذل محاولة جديدة لإقامة حوار بين الفلسطينيين والإسرائيليين كما فعلنا عام ١٩٨٩ سيثبت قصور الرؤية ولن يحدى نقعاً، وأثناء الحرب اعطي بعض الفلسطينيين الأسطح وهم يهللون لسقوط صواريخ سكود العراقية علي مدن إسرائيلية ونديجة لذلك إرداد تشدد الموقف الإسرائيلي. ومن الناحية العملية سيستحيل إقناع شامير بالمشاركة مع الفلسطينيين دون إجراء إضافي. وسوف تتطلب أي مبادرة جديدة بعداً لدولة عربية.

واستخلصت درساً آخر مهماً عن أفضل طريقة للتعامل مع شامير. كان شامير شخصية شديدة التناقض. فقد كان يريد أن يكون صانع سلام لكنه أيضاً «مستوطن» جعلت سياساته

هي الصيغة الغربية السلام أبعد مثلاً. وحصلت إلي أن الطريقة للوحيدة للتعامل مع هذا هو ابتكار صيغة ما تضعه في موضع يستحيل أن يرفض فيه أي مبادرة جديدة.

وتوصلت إلي أن أفضل طريقة لاغتنام اللحظة هو ابتكار وسائل جديدة لكسر التابو المتعلق بالمباحثات المباشرة للقائم منذ بداية تأسيس إسرائيل ١٩٤٨. فلم تؤد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية الموقعة عام ١٩٧٩ إلي كسر هذا الحاجز فعلياً. وباستثناء مصر قل تعاملت حكومات عربية مباشرة مع الإسرائيليين. وللحجة مثيرة بكل بساطة: لا يمكنكم تحقيق السلام إذا لم يمكنكم التحالف. وطراً علي نغني أن هذه أفضل فرصنا بل وربما نكون آخرها لكسر هذا الحاجز.

وقررت في مشاوراتي مع كبار مستشاري أننا سنحاول سلوك نهج ذي مسارين. وسوف نحاول إحياء عملية تؤدي إلي إقامة حوار إسرائيلي فلسطيني - رغم اعتدائنا بأن مسألة التفاوض الفلسطيني ستكون في النهاية أصعب القضايا علي الحل. ومع ذلك وفي الوقت نفسه سوف نقترح مساراً ثانياً - إجراء مباحثات مباشرة بين إسرائيل والدول العربية في شكل مؤتمر إقليمي حول الشرق الأوسط برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تمثل فيه كافة الأطراف. كان هذا للشكل تجربة محسوبة في غموض بناءً. فيمكن للعرب الإدعاء بأن هذا هو المؤتمر الدولي الذي طالما سعوا إلي عقده، وبالمثل يمكن أن تدعي إسرائيل إن هذا لا يعدو أن يكون مجرد مباحثات مباشرة لأرئتها علي مدار أربعين عاماً. ولا تختلف عن مباحثات جنيف ١٩٧٣ التي شاركوا فيها، وابتعدت مؤتمراً دولياً موسعاً برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

وللعمل علي تهئية فرص نجاح المسار الثاني سيتعين علي إقناع كلا الجانبين بأن الجانب الآخر قد أبدى تديراً مهماً في نهجه. ولهذا السبب قررت اقتراح ما أصبح يعرف بالتيار ثنائي المتوازنة. وسأطلب من إسرائيل وجيرانها العرب دراسة تحليل معينة لبناء الثقة كوسائل للإعجاب عن أن الجانبين مستعدان لتهيئة أرض جديدة في مسألة السلام. وكنت أعلم أن كل جانب سيكون في حاجة ما من الطرف الآخر لأغراض التغطية للسياسية. وسيكون علي العرب تبدير أي تحركات تجاه إسرائيل بالإشارة إلي مرونة إسرائيل تجاه

الفلسطينيين. وبالمثل سيكون علي الإسرائيليون وضع أى تنازلات من جانبهم فى إطار مصالحه أشمل مع الدول العربية. إضافة إلى ذلك قلن يكون أى جانب مستعد للتحرك أولاً. وكنت أعتقد أن الخطوات المتبادلة المتوازنة هي الحل المنطقى لهذا المأزق.

وسينطوى التطبيق علي مقامرة كبيرة لكنه ممكن. واستندت حساباتى علي افتراض بأنه سيكون من الصعوبة البالغة علي العرب للقول لا للولايات المتحدة بعد كل ما بدلاه فى عاصفة الصحراء. وكنت أعتقد أيضاً أنهم لن يستطيعوا الجلوس علي الهامش كما فعلوا عام ١٩٨٩. ولأسبابهم الخاصة عليهم أن يهربوا أيضاً عن اهتمامهم بالقضية الفلسطينية. ومع فقد المتطرفين العرب لمصداقيتهم وبعد أن تدب للشقاق فى صفوفهم تعزز اعتقادى بأن العربية السعودية ودول الخليج الأخرى ستشعر بثقة أكبر، ومن ثم ربما تكون أكثر استعداداً للإقدام علي مخاطر أكبر، وربما يصبح الأسد أكثر استعداداً لإبداء المرونة بعد أن أصبح حلفاءه السوفيت شركاء - لامتناهين - مع الولايات المتحدة.

ولو استطلعت إقناع الدول العربية بالموافقة علي مباحثات مباشرة قلن يستطيع شامير الرضاى فى النهاية علي حد اعتقادى. لأن إسرائيل كانت تقول علي مدار أربعين عاماً إنها تريد إجراء مفاوضات مباشرة مع جيرانها العرب. وفى الوقت الذى علمتلى فيه تجرئى مدي للصعوبة التى سألاقيها فى العمل مع شامير كنت أعتقد أيضاً أنه يريد أن يكون رئيس الوزراء الذى بدأ عملية متجانب السلام يوماً ما إسرائيل.

اختبار المياه

ولأننى كنت أعتقد أن شامير هو أكثر عقبة مباشرة، فمن المهم الإعراب أولاً أن حرب الخليج قد أحدثت تغييراً فى نهج العرب. ولهذا للسبب قررت ضرورة أن تكون العربية السعودية هي أول توقف لى فى جولة تستغرق عشرة أيام فى سبع دول شملت إجراء مباحثات فى موسكو وأنقرة. وفى مباحثاتى فى العربية السعودية وإسرائيل ومصر وسوريا أوضحت أن الولايات المتحدة مستعدة لأن تكون ما وصفه الرئيس «محفزاً للسلام» لكن ليس

قبل أن تبدي كافة الأطراف استعدادها لتحمل المخاطر. وبعد شرح تصور السارين بالتفصيل أُلححت علي محاورى بضرورة تأييده، واستفسرت عما إذا كانوا سيدرسون اتخاذ خطوات تصلحية لو كان نظراؤهم علي استعداد لفعل الشيء نفسه.

وعقب وصولى إلي الرياض صباح الثامن من آذار مارس اجتمعت مع بورمان شرارتسكوف الذى كان شديد الحماس بعد نجاح الحرب، وقوياً فى اعتقاده بأن القوات الأمريكية قد انجزت مهمتها ويعين ألا يُلَبَّ عنها التبقاء فى المنطقة يوماً واحداً دون مبرر. وقال لى: «إننا فى حاجة للخروج من هنا اليوم قبل الغد». وطلبت منه ألا يقلق بسبب هذا الموضوع فقد وعد الرئيس بانسحاب مبكر كما تمهدت بنفس الشيء للسوفيت.

وقبل لقاء الملك، فهد للتقيت علي العشاء مع الأمير سعود وزير الخارجية ومع الأمير بندر، وهى أعقاب انتصار التحالف لمست لديهم جميعاً إحساس بالارتياح الموقر - ليس فقط تجاه وضعهم فى المنطقة، بل أيضاً لتعزيز علاقتنا الثنائية. ومع ذلك ساروهم القلق من استمرار وجود صدام بالسلطة رغم هزيمته. وحددت الإطار العام لخططنا باستمرار المقربات التى قررناها الأمم المتحدة لضمان عدم تهديد صدام لجيرانه. ولم نبذل تطميناتى كل قلق السعوديين.

وعقب اجتماع موسع اجتمعت لاحقاً مع الملك فهد علي انفراد لبحث عملية للسلام. وقلت: «يمكننا الشعور بارتياح كبير لما حققناه معاً. لكن لا يمكننا الاكتفاء بما أنجزناه فى الحرب. وعلينا الآن أن نعطى مزيداً من الطاقة والتصميم لضمان السلام». ولم أكن أرغب فى الإيحاء بالعجزة أو العطوسة. لكن الولايات المتحدة تكتسبت مصداقية لدى طرفى القضية الفلسطينية الإسرائيلية. إننا نرغب فى توظيف هذه المصداقية. إننا مستعدون بعد الحرب لنشمر عن سواعدنا وأن نعمل جاهدين لإقرار سلام عربى إسرائيلى كما فعلنا لهزيمة صدام. لكن دعنا نكون صرحاء: إن بوسعنا العمل علي التأثير علي مواقف إسرائيل ونهيين فرصاً للسلام. لكن فقط إننا كنتم ملتزمون علي قدم المساواة بالتحرك قديماً. وهذا يعنى أنه يجب عليكم أن تساعدونا بتقديم وسائل المعالجة. فلا يمكننا. بل إن نأخذ الأمر علي عاتقنا وحدنا. وهذا الملك مستمراً فى التفكير ويصفى بهذابة ويهز رأسه من حين لآخر.



وحددت الإطار العام لفكرة نهج المصالح، واعدت مجموعة تدابير بدء الثقة التي قد تفكر فيها إسرائيل وللمعربية للسعودية واقترحت إمكانية التخلي عن مقاطعة السعوديين لإسرائيل، ورفض قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٧٥ بمساواة الصهيونية بالعنصرية وإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل وبقاء الإسرائيليين على مسؤوليات دنيا أو تبادل سري لمعلومات المحادثات حول للنشاط الإرهابي. وفي المقابل فإنني مستعد لبحث شامير علي الرد بالمثل. مثل وقف الإبعاد والاعتقال الإداري للفلسطينيين في الأراضي المحتلة، وسحب الجيش الإسرائيلي من مدن معينة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وطماننت الملك بأن أي تنازلات محتملة من جانبه ستحاط بأقصى درجات السرية. وقلت: يجب أن تثقوا في بما فيه الكفاية حتي تبذلوا بما يمكنك عمله. وللتأكدوا أنني لن أطرحه علي الملأ علناً بدون التأكد من حصولكم علي مقابلة من الإسرائيليين».

وأبلغت الملك بكل صراحة أنني أحتاج منه شيئاً يمكن للتأثير به علي شامير. وتمهدت قائلاً: «إنني والرئيس مستعدان لعمل المطلوب منا. وهذا يتضمن مناقشات صريحة مع الإسرائيليين. لكننا نريد شيئاً ما نعمل معه. فماذا أنتم مستعدون لعمله؟ ماذا يمكن أن أقول للإسرائيليين».

«إنني أطلب منكم مرة ثانية أن تضعوا ثقتكم فيّ وفي الرئيس. إن هذا هو ألوان تعطيم التابوهات القديمة وتحقيق انفراجة من أجل السلام. فبدونها فإن الخلافات عميقة لدرجة قد يعود معها العالم العربي الي الافتراضات وأنماط السلوك القديمة. وسوف يبرر هذا رفض إسرائيل للتغير، وأخشي من ضياع فرصة تاريخية لتحقيق تقدم».

وتقليدياً فصل السعوديون للزلم درجة معينة من اللجين تجاه هذه المسائل في عملية السلام. لكن عندما بدأ الملك فهد في الرد علي تطيقاتي احسست بتغير جذري في لهجته. ثقة لم ألسها خلال اجتماعاتي الأربعة معه أثناء أزمة الخليج. فللمرة الأولى بدأ مستعداً لاتخاذ موقف قيادي تجاه عملية السلام. وأقصى بشيء لم أسمع منه علي الإطلاق من قبل: إذا أمكن إيجاد وطن للفلسطينيين فإنه مستعد للموافقة علي إقامة علاقات لقتصادية وسياسية كاملة مع إسرائيل.

ورد قائلاً: « السيد الوزير. إن ما فقتوه هو ما كنت أحس به في أعماق قلبي إنني أريد التوصل مرة واحدة وللأبد لتسوية المشكلة الفلسطينية الإسرائيلية . فهذه المشكلة هي الصراع الأساسي في المنطقة، وهي صلب كل للمشاكل . إنها تعطي صدام وآخرين مثل الثقافي مادة للترويج لأنفسهم. فلا ينبغي أن تقوم لها قائمة بعد الآن ، ينبغي حلها».

وكما توقعت كان الملك عازفاً عن الالتزام بأي أفعال محددة لكنه أقر بأهمية إعطائي شيئاً ما لاستخدامه مع الإسرائيليين ووعدني بالرد علي قبل مغادرتي المملكة.

وختم بالقول: « إنني أعتبر هذه واحدة من أفضل لياليي». فريما شامت إرادة الله حدوث أزمة صدام لتكون نقطة انطلاق لحل هذه المشكلة الأكبر- فلم يرفض صدام كافة عروض الرئيس قبل ١٥ كانون الثاني يناير ربما لم تنهدأ أمامنا هذه الفرصة السائلة أمامنا الآن».

وكانت لهجة الملك مشجعة لدرجة أرسلت معها هذه الرسالة إلي الرئيس: «إن الدليل في البردينج لكندا بعيدون ولا نستطيع أكله. ولكن اعتقد أنه من الإنصاف القول إننا أننا أشرنا اهتمامهم».



وفي الصباح التالي توجهت إلي الطائف لزيارة أمير الكويت الذي لم يمد إلي بلاده. وأشرت بأقصى رقة ممكنة إلي أنه سيكون من الحكمة بالنسبة له أن يعود إلي لوطن قريباً لإسكات الانتقاد الموجه إلي غيابيه . من الواضح أنه كان لا يزال متزعجاً من الغزو والسلب الذي تعرض له وطنه ويشعر بالمصيبة من أن التهديد الذي يشكله العراق لم يقض عليه بالكامل. وأفضل بقاء للقوت الأمريكية في الكويت بأعداد كبيرة لأجل غير مسمى. وشرحت له أن الرئيس يعتقد أنه من غير اللائق الاحتفاظ بوجود دائم للقوت البرية الأمريكية في المنطقة، لكن عدة آلاف من القوات ستبقى لغرة انتقالية.

كان الأمير أقل تقبلاً لأفكارى عن عملية السلام. وقال إن الخطوات المتوازية لن تكون لها مصداقية علي الأرجح مالم يقترحها مجلس الأمن الدولي. وذكرته بأن علاقة الولايات

المتحدة مع إسرائيل نعملنا البلد الوحيد صاحب النفوذ الكبير عليهم . وأشرت قائلاً : «سموكم، إنه باستحداًم الأمم المتحدة فسوف تكبد أى فرصة للتأثير علي إسرائيل» وأثناء حديثنا تكشف مدي عدم سرورى للمزيد تجاه عماد الأمير البادى خاصة وقد حررت بلده لفتو (يلزم الفتوى إلي أنه بعد فترة وجيزة أصبحت الكويت أشد تأييداً لجهودنا ولعملية السلام) .

ولحسن الحظ لم يشاركه فى ترده ولى العهد الذى اجتمعت معه بعد الظهر فى مدينة الكويت فى منزل أحد رجال الأعمال الأثرياء لا فى القصر الأميرى الذى أصيب بأضرار مادية أثناء القتال . وظهرت علي المدينة آثار قتال شرس . فأتار القصف البادية علي الكثير من المباني ولحشاء المدرعات للمراقبة وإجراءات الأمن المشددة علي غير العادة أفري تذكار للمعركة . وحلال اجتماعنا كان ولى العهد أكثر إيجابية تجاه مقترحاتنا عن ابن عمه . كان رد فعله أكثر قرباً من روح الملك فهد . وقال : «إن الوقت الحالى هو وقت التحرك وأماناً فرصة للتحرك الآن» .

وعدت إلي الرياض ، وفى العاشر من آذار مارس اجتمعت مع وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجى الذى يضم العربية السعودية ودول الخليج الأخرى ، وشهد الاجتماع أيضاً وزيراً خارجية مصر وسوريا . وقدم المجلس تأييداً بالإجماع لخطة الرئيس لتحقيق الاستقرار الإقليمى . وفى الدوائر الخاصة كانوا أشد تحمساً . وأبلغنى أمير البحرين أنه يريد استمرار الوجود البحرى الأمريكى لخمسين عاماً أخرى . وأبلغنى وزير خارجيته أن بلاده مستعدة لمطح الولايات المتحدة أى شىء تريده .

ومع ذلك كان رد قل فاروق الشرع وزير الخارجية السورى أكثر أهمية . وأبلغنى الشرع بشكل شخصى أنه لو سمح الإسرائيليون بإجراء انتخابات جديدة فى الأراضي المحتلة فسوف تمارس سوريا وجيرانها نفوذهم المهم للمنشط لانتخاب هيئة تمثيلية جديدة للفلسطينيين تكون أكثر تأييداً لعملية السلام .



وبات من الواضح حينئذ أن الدول العربية المعتنقة، ولاسيما العربية السعودية مهتمة بممارسة دور قيادي أكبر في قضايا الأمن الإقليمي وفي عملية السلام. وتؤكد هذا لي قبل أن أغادر للرياض حينما بحث لي تلك العهد برسالة عبر يندر بلتج بأنه يوجد نهج المسارين من حيث البداية، وأنه سيدرس اتخاذ خطوات محددة تيمناً لموقف شامير. وأبرقت إلي الرئيس بالرسالة التالية علي الفور مضيفاً هذه الفكرة: «إن أساس هذا التحسن في الموقف العربي يمكن في المصداقية عبر المادية التي نحظى بها في المنطقة. فلم يبلغ الموقف الأمريكي مثل هذه الذروة قط، ولم يثق العرب مطلقاً مثل هذه الثقة في قدرة الولايات المتحدة ليعطوا كلمتهم بتمننا مساحة للتحرك إلي الأمام».

وفي القاهرة وجئت الرئيس مبارك في حلقة ممتازة، وبات من الواضح علي الفور أنه يؤيد الولايات المتحدة بشدة، وأكد مراراً أهمية علاقته مع الرئيس. وقال: إن للقدرة علي رفع سماعة الهاتف وللحديث مع جورج بوش لا تقدر بثمن. وفي هذه اللحظة رفع بالفعل سماعة الهاتف واتصل بالرئيس الأسد في دمشق. ومن الواضح أنه أبلغه من أجلي أننا أفضل إدارة تعاملت معها المنطقة. وقال: «إننا لم يتم لإمراز تقدم مع هذه الإدارة فلن يسرر هذا التقدم». وقال لي: «من الضروري أن يقدم الأسد لك شيئاً ما للعمل به». لدي زيارته لسوريا. ورد الأسد بأنه يتطلع لزيارتي وسوف يشارك بجدية. وأيد مبارك تصور المسارين لكنه لم يكن متحمساً بشكل خاص لفكرة المؤتمر الإقليمي، ولازال متشككاً تجاه قبول إسرائيل مبادرة من هذا القبيل. وقال مبارك: لن يتغير شامير. إنه غير مهني بالسلام. وكرر هذا التقديم القاسي عدة مرات خلال الحديث.

رد الفعل الإسرائيلي

وتوجهت من القاهرة إلي تل أبيب لأصلها بعيد الساعة الثالثة بعد الظهر. وفي اليوم السابق كان إرهافي فلسطيني قد طعن أربع سيدات حتي الموت في القدس. ووصف القاتل نصرته بأنه رسالة شخصية موجهة لي. وتفجرت التوترات نتيجة الحادث وبناء علي نصائح الأمن أنقذت علي محض جولة سيراً علي الأقدام في المدينة القديمة مع العمدة تيدي

كوليك. وبعد ظهر اليوم التالي، ورغبة في مواساة أسر الضحايا، توجهت بالسيارة دون مابق إعلان، وفي محاولة غير ناجحة للتواري عن الأنظار - إلي مقبرة جيقات شاول لا يرافقتي سوي دينيس روس ومارجريت ناتويار للترحم علي الضحايا. ومع ذلك فإن الصحافة الإسرائيلية التي تنفقط تردد الشرطة سمعت أن هذا، وتدفع الصحفيون علي المقبرة. وكشفت للوحشية وعصر المفاجأة في قتل للنساء الأربعة لي البعد الإنساني لمأساة الشرق الأوسط، وهو بعد كان يُحجَّبُ تماماً في الغالب في غمرة الجدل السياسي المكثف. كان من المستحيل ألا يستثار المرء ويضطرب من واقع الخبرة.



وبرغم مشاكلنا السابقة مع حكومة شامير فقد تأثرت بحرارة الترحيب بي في أول زيارة لي لإسرائيل. وأتذكر إعجابي بروعة البلد وبهجة السفر من تل أبيب إلي القدس، وأثرت زيارة القنصل للتذكاري باد هاشيم في أنا وسوزان لدرجة شارفنا معها علي البكاء. وأنا أستدل الطائرة باتجاه الشمال لجولة تفقدية من الجو لمرتفعات الجولان استطلعت أن أسس للمرة الأولى الإحساس الإسرائيلي العميق بالتعرض للخطر. ومن طائرة الهليكوبتر التي ألقنتني كان يوسفي رؤية عرض البلاد كله من ساحل البحر المتوسط في الغرب حتي حدودها مع أعدائها في الشرق. وفكرت أيضاً في أثر التكنولوجيا علي الأمن. وتعتبر الجولان بدون شك مساحة حاسمة من الأرض. ولكن إطلاق صواريخ سكود من علي بعد مئات الأميال أثناء الحرب أوصح أن احتلال إسرائيل لمرتفعات الجولان لم يعد يقدم ضماناً مطلقاً ضد الهجوم من اتجاه الشمال الشرقي.

وتنازلت العشاء مساء ذلك اليوم مع ديفيد ليفي وزير الخارجية الإسرائيلي. وخرجت من هذا الاجتماع الأول باعتماد بأن ليفي أصبح أكثر مرونة واعتدالاً عن رئيسه، وبرغم أنه «كوزير الاضطراب» ساهم في ولأد محاولاتي الأولى لسمت في ليفي سياسياً بات الآن مستعداً لإلزام نفسه ومستقبله بقضية السلام. وأتذكر أنه في إحدى المراحل أشرت إلي أن الدول العربية التي كانت تعارض إسرائيل بشدة كانت تتحدث الآن عن السلام. وطمأنني ليفي

«بأننا نتحدث عن السلام مع أي أحد . كان سياسياً ومشجعاً، وعقب اجتماعنا وقبل أن أجتمع مع شامير صرح للصحفيين بأننا علي طريق السلام . لكن أصبحت أرى في ليفي رجلاً واقعياً مستعداً للإقدام علي بعض المخاطر من أجل السلام، ودفع شامير وأريئز وآخرين في هذا الاتجاه .

وهي الخامسة والنصف صباح اليوم التالي اجتمعت مع شامير . وبدأت بشكره علي ما أبداه من ضبط للنفس أثناء الحرب، وأكدت مجدداً الالتزام الرئيس بعثمان التفوق العسكري لإسرائيل . وأوضحت أن أمن إسرائيل غير مطروح للتفاوض . لكنني حثته علي اعتنام ما وصفته «بالتفرص والتوجهات الجديدة» في المنطقة، وبخاصة من جانب العربية السعودية . وقلت: «إن المحللين للعرب في التحالف أظهروا قيمتهم كضركاء . ولتحقيق تقدم معهم عليك أن تساعدكم في القضية الفلسطينية . وإن يكون هناك وقت أفضل من الآن للتحرك حيث إن المدبرين سخطوا وهاقدون مصداقيتهم» . وحيث يشعر أصدقائنا للعرب بالقوة والثقة وحيث المصداقية الأمريكية في أوجها . وأبلغت شامير أنه للمرة الأولى وجدت الملك فهد مستعداً لممارسة عملية القيادة في السلام . وكان متشككاً ونكرني بحفظ السعوديين تجاه مثل هذه المسائل . لكن عندما كشفت أن الملك أبلغني «بأننا نعرف أن هناك دولة تسمى إسرائيل، ولا يمكن لأحد، والأهم لا ينبغي لأحد أن ينفي وجودها، يبدو أن وقع الكلمات كان هاماً لديه . وقلت: «السود رئيس الوزراء . بصراحة إن السعوديين لا يتصرفون من منطلق تحفظهم التقليدي . أعتقد أنه عهد جديد . إنك زعيم تلوح أمامه فرصة ليختم لحظة استراتيجية في تاريخ إسرائيل والشعب اليهودي، وأريد أن أساعدكم . ويقدر ما أستطيع عمله فيمكنني إثراء الأوروبيين والسوفيت والآخرين عن فكرة المؤتمر الدولي لكنني أحتاج مساعدة» .



وكما فعلت مع الزعماء العرب عدت تدابير بناء الثقة التي يتعين أن يتخذها الجانبان . وحثته علي تبني سياسات أقل قصاً في الأراضي المحتلة، وإعلان استعداده للقاء الفلسطينيين

بدون إجراء انتخابات جديدة، والتفكير في الاستحاب من جنوب لبنان في غضون سنة شهر
إلى سنة إذا كان يوسعاً أن نرى عدم حدوث هجمات إرهابية ضد شمال إسرائيل. وقلت: من
المهم قطع التزام بالبدء في مفاوضات مع سوريا حول الجولان.

وكالمتوقع كان شامير أكثر اهتماماً بالحدث عما يتعين أن يفعله العرب. وأكد أنه كحد
أدنى عليهم تعليق المقاطعة الاقتصادية والاعتراف بحق إسرائيل في الوجود. ومع ذلك فقد
أدلى بعدة تعليقات مهمة. وقبل شامير رأيي بأن مفهوم «الحكم الذاتي» لسكان الأرض
«اصطلاح مطاطي» بالنسبة للفلسطينيين. وقال في لحظة من اللحظات: «لنا في حاجة إلى
إيجاد اصطلاح أكثر فعالية». ورد بشكل مواتٍ عليّ اقتراحى بأن «الحكم الذاتي» ربما كان
صفة لغوية أكثر فائدة وخاصة عندما أشرت إلي أن «السوريين أحبوا هذا الاصطلاح عندما
تناحلت معهم في الرياض». وشجعتى إصراره أيضاً بأن الولايات المتحدة يجب أن تبذل كل
ما هو ممكن لإبقاء الملك حسين في السلطة رغم تأييده لحسام حسين خلال الحرب، وقال إن
الأردن المستقر أمر حاسم لاحتمالات إقرار للسلام علي المدى البعيد.

وقال شامير إنه متأكد من أن المفاوضات يجب أن تتجاوز خطوات الحكم الذاتي
وتتداول الوضع النهائي للفلسطينيين في الأرض. وكرر اقتراحه لعام ١٩٨٩ الخاص
بالجدول الزمني الذي يمكن بمقتضاه بدء مفاوضات الوضع النهائي في غضون ثلاثة أعوام
من تطبيق ترتيبات انتقالية. وفي الوقت الذي كان من الواضح فيه أن شامير غير مستعد
لتغيير ممارسته لبدء الأرض مقابل السلام. فقد كان هذا رأي يتجاوز شاماً رفضه حتى
لمجرد مناقشة الوضع النهائي.

ولفت فكرة المؤتمر قبولاً ما لدي شامير الذي قال إنه سيحرص فكرة المؤتمر الإقليمي
مع مصر والأردن والعربية السعودية وسوريا. لكنه عارض عقد المؤتمر تحت رعاية مشتركة
مع الاتحاد السوفيتي. وأصبحت مع هذا أن هذه المعارضة سوف تزول إذا اختلفت السوفيت
علاقتهم الدبلوماسية مع إسرائيل.

وفي إحدى اللحظات قال: «السيد الوزير لا بد أن تكون متشدين» وقلت مبصراً: «السيد
رئيس الوزراء. إن يهتمكم أحد بعير ذلك». لكنه أظهر مرونة في الاجتماع كانت مشجعة

ومفاجئة. وكانت لهم بادرة تبعث على الأمل في ولقح جديد هي دعوتهم لموازن ولي بالمقاء معه ومع زوجته بمقر إقامة رئيس الوزراء بالقنص.

ورغم عدم ارتياح الحكومة الإسرائيلية استقبلت وفداً من عشرة فلسطينيين بعد ظهر ذلك اليوم بمقر إقامة قنصل عام أمريكا في القدس ومنهم فوصل الحموني وحلن عشاروى اللذان سيصبحان محاورى الرئيسيين من الفلسطينيين. وكان هدفى تعزيز اعتقاد الرئيس بضرورة تضمين الحقوق الفلسطينية المشروعة فى السلام للنظم. وأردت أن أذكرهما مع ذلك بأن تأييد منظمة التحرير الفلسطينية للعراق فى الحرب لم يكن مفيداً للقضية الفلسطينية. كانت مناقشة حيوية ومعملة، وأمصيا وقتاً طويلاً - كما توقع - فى شرح تفاصيل معاناة الشعب الفلسطينى على يد الإسرائيليين. وخف دفاعهما من مخطئهما بالتأكيد، ولم يكن موقفهما للتكتيكى سبباً وهما يعرفان ذلك. وسلموني رسالة من عرفات قال فيها أنه يفوضهم فى تمثيله. (وكتب أنقى رسالة مماثلة طبق الأصل فى كل لقاء تال معهم) وقلت: لقد اجتمعت مع رؤساء ثمانى دول عربية قالوا كلهم إنهم لن يؤيدوا قيادتكم. أنتم معتدلون وتتمتعون بإدراك جيد. عليكم أن تتأكدوا أننا لسنا فى سبيلنا لإحياء الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية فى ضوء مساندة عرفات لصدام حسين.

وطلبها رسمياً استئناف الحوار الذى أراد الإسرائيليون أن نصفه بأنه «انتهى» لكنى رصفته بأنه «معلق» عندما أوقفناه فى وقت سابق وذكرتهم قائلاً: «يا مكالكم أن نكونوا أكبر الفائزين أو الخاسرين أكثر من أى أحد آخر فى العملية. إذا تمسكتكم بمواقفكم القديمة، فلن نصل إلى شىء». وكما لو كانوا يؤكدون رأيى طرحوا اقتراحاً مغيماً بضرورة قيام نفس التحالف الدولى الذى طبق قرار الأمم المتحدة ٦٧٨ بتحرير الكويت بتطبيق القرارين ٢٤٢ و٢٣٨ بإخراج الإسرائيليين من الأرضى المحتلة. ورددت: «إذا كنتم تطهرون إرسال الفقرة ٨٢ المحمولة جواً فأنصوا الأمر. فلن يحدث هذا ومضيت فى طرحى فى شرح الفرق بين القرار ٦٧٨ الملزم وغير المشروط والقرارين ٢٣٨ و٢٤٢ اللذين يدعوان لإجراء مفاوضات على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام. وتأكدت أنهم شعروا بالارتياح بوصح لمجرد تحدثهم معنا مباشرة على الأقل.



كان عشاقى مع شامير فى لسماء لقاءً إجتماعياً فى المقام الأول يهدف من وجهة نظرى إلى إقامة جسور بيننا. وفى هذا الصدد فقد ساهم فى إقامة علاقة شخصية قوية بخلاف ما هو شائع. ووجدت فى شامير للشخص الوحيد فى الحكومة الإسرائيلية الذى استطاع أن يتبادل المعلومات معه على الدوام وكلى ثقة فى أنها لن تتسرب. وفى الوقت الذى تركنا فيه المنصب تأكدنا من أن رأى الآخر كان جيداً بغض النظر عن صعوبة اللحظة. كان هذا الشاء جزءاً مهماً فى بناء الثقة المتبادلة.

وعقب ذلك وأصفت زوجتانا الحديث على مائدة الطعام بينما انتهى رئيس الوزراء جانباً فى ركن صغير للجلوس بحجرة المعيشة. وأخرج من ملفاته رسالة بحث بها الرئيس فوررد إلى رئيس الوزراء الإسرائيلى حينذاك إسحاق رابين فى الأول من أيلول سبتمبر ١٩٧٥ بعيد فيها للتأكيد على دعم الولايات المتحدة لإسرائيل: وطلب منى قراءة الرسالة مع إيلاء أهمية خاصة للفقرة الأخيرة فى الرسالة، والتى تعهدت بأنه فى سباحة سياسة المستقبل فيما يتعلق بالتسوية السلمية سوف تعطى الولايات المتحدة وزناً كبيراً لموقف إسرائيل بأن أى اتفاق سلام مع سوريا يجب أن يستند إلى احتفاظ إسرائيل بمرفقات الجولان. كان التزاما طلب منى إعادة تأكيده فى خطابات الضمانات وقد فحفت. وكنت مؤكداً بعد الاجتماعين اللذين عقدتهما مع الرئيس الأسد خلال أزمة الخليج بأن سوريا لن تقبل مطلقاً إقامة سلام مع إسرائيل بدون إعادة الجولان. وفى ظاهر الأمر بدا شامور يؤكد أن إسرائيل لن تنسحب إنسحاباً كلياً من الجولان تحت أى ظرف. ومع ذلك خلصت إلى أن شامير يشير على الأقل إلى درجة ما من المروفة. وإلا لما كان قد فكر فى إثارة الموضوع معى. وسألته: ماذا لو وضعت قوات أمريكية هناك؟ وصمت لبرهة كما لو كان قد بوضت بالفكرة. وقال: «حينئذ سيكون الأمر مختلفاً وسعود إلى الموضوع مرة أخرى».

وأبلغنى شامير بأن إسرائيل جادة فى البحث عن السلام. لكن ليس هناك أحد يمكن التحدث معه. فالفلسطينيون اللذين اجتمعت معهم بعد الظهر غير مقبولين لديه. وقال: «إننا نعرفهم، إننا نعرف كل شىء عنهم. إنهم منظمة التحرير الفلسطينية. وأشرت دون أن أصادف أى نجاح إلى أنه بينما للكثير منهم مرتبط بعلاقات قيس بينهم مسؤول فى منظمة التحرير الفلسطينية، واتضح أن شامور سيعرض على مشاركة معظمهم فى أى وفد رسمى

فى أى مباحثات، وأبلىنى أنه اجتمع سراً مع الملك حسين وأن الملك حاسم السلام. وأضاف أنه يعتقد أن إقامة شكل من التكونفدرالية مع الأردن فى مرحلة قائمة فى المستقبل هو أفضل حل لمشكلة الضفة الغربية.

وفى تلك الليلة وجدت شامير جاداً ومفكراً. وعلى الأقل أكثر استعداداً عن ذى قبل للإقدام على حوارات أصعب، وأحسنت أن شامير فهم ذلك لأن أعدائه للداعمين يبدون الاعتدال وسيطلب منه المشاركة شاء أم أبى. ومع ذلك كنت أعرف أن نزاعه ستكون المعنى قدما لكن بخطي شديدة البهله والعرض.

الوصلة السورية

بدأت فى التوصل إلى نتيجة مفادها أن سوريا هى مفتاح تحقيق تقدم مهم. فمشاركة الأسد ستظهر مؤشراً بأقوى طريقة مثيرة. على مشروعية جهودنا فى أعين العرب. وفى الواقع فإن مشاركته سوف تحمى العملية. وأملت فى أن يؤثر الوزن الجماعى للدول العربية الأخرى فى الأسد. كما أن اجتماعى معه خلال أزمة الخليج قد أقتناني - على الأقل - أنه مستعد لمراجعة تصلبه التقليدى تجاه صنع السلام مع إسرائيل.

وأبلىنى مساعدي فى عجالة أنني أعددت بهمة أكبر للاجتماع الأول مع الأسد عن أى لقاء مماثل مع كل رعيم آخر تقريباً. وهناك قضايا سياسية محققة يصعب استيعابها، وكنت أريد أن أعرف طبيعة التوسع السياسى الداخلى فى سوريا وطبيعة علاقته مع الزعماء العرب الآخرين. ولتذكر أيضاً أنني كنت أحاول التعرف على شخصيته وأسلوبه فى التفاوض وتفكيره وكيفية تعامله مع القضايا. وتأكدت من أن الأسد يحتل بسمعته كرجل مفكر وجاد وصديق للنزاهة لا يستسلم، وأنه يحب الاجتماعات المطولة التى تستهدف إرفاق محاوره.

وقبل بضعة أشهر كنت ألتحدث عن للشرق الأوسط مع إسحاق رابين وزير الدفاع الإسرائيلى. كان كلاًنا يحرف أن أى اختراق نحو السلام لن يحدث بدون مشاركة فعالة من

جانب سوريا. وأبلغني رابين أن الأسد واحد من لئد أعدائه. لكن يحتمل أن يكون أنكي لاعب في الشرق الأوسط. وفي المقام الأول فإنه رجل يلتزم بكلمته، وقال رابين: «إنه شديد البأس لكن إذا توصلت إلي اتفاق معه فسوف يلتزم به حرفياً. لا تفترض أنه إن تكون هناك روح، لكن يمكنك الاعتماد علي ما يوافق عليه». وأذهلني تقويم رابين، وعقدت العزم علي إحتباره عند لقائي بالأسد في ١٤ أيلول سبتمبر ١٩٩٠ في أول لقاء من أحد عشر لقاء. وصل كل لقاءنا كان اجتماعاً مطولاً استغرق أربع ساعات ونصف الساعة دون انقطاع. ولم يرافقني سوى إدوارد جبريجيان سفورنا في دمشق للذي يتحدث العربية بطلاقة، وبات علي علاقة جيدة بالأسد علي مدى عامين قبل اللقاء.

وعقب جلسة مطولة تناولت الموقف في الخليج تحولت مناقشاتنا إلي إجراء حوار حول علاقاتنا الثلاثية التي تشهد توتراً علي مدار عقد من الزمن بسبب معاندة سوريا لأنشطة إرهابية دولية هي المقام الأول. وكما سيتم تذكرى في كل اجتماع، تعامل الأسد مع شكواي من معاندة سوريا للإرهاب بالطريقة التي ربما يتعامل بها الشخص مع عم منفلت في لقاء عائلي. أي كإزعاج حتمي يحمي يحمي تحمله بكل أنب. لم يظهر الأسد أي لين علي الإطلاق حول هذا الموضوع وتسامح بالكاد تجاه ما اعتبره تدخلاً في الشؤون الداخلية لسوريا. وقال: «لقد أجرينا مباحثات مستفيضة حول قضية الإرهاب مع السفير، ولنا في حاجة إلي الحديث عنها مرة أخرى». لكنني أصريت وألنفقا أكثر من ساعة في الحديث عنها علي أية حال. ولم يقدم الأسد أي اعتذار لتأييده للإرهاب ضد إسرائيل الذي كان يعتبره جزءاً من الكفاح الممنع من أجل التحرر من احتلال ظالم. لكنه أكد موافقته علي إدانة أعمال العنف في أماكن أخرى، وأكد أن «أي شخص علي أرض سوريا ينفذ أو يخطط لعملية إرهابية خارج الأرض المحتلة سوف يحاكم وقوانيننا بالغة الصرامة حقاً». وأثرت قضية تجويز طائرة بان أمريكيان في الرحلة رقم ١٠٢ عام ١٩٨٨ فوق لوكيربي باسكتلندا، وكذلك تقارير الصحابرات الأولية التي تشير إلي تورط سوريا. وكرر الأسد إصراره علي عدم تورط سوريا في المأساة، لكن إذا كان لدي الولايات المتحدة أي أدلة مغايرة فسوف يدرسها. «كان هذا واحداً من مرات عديدة أثرت فيها القضية مع السوريين حتي توصلت تحقيقاتنا إلي أن المأساة من تدبير إرهابيين ليبيين».



وأخيراً انتقلت مباحثاتنا إلى عملية للسلام. وبلغت كررتها عشرات المرات خلال زيارتي عرصة علي الأسد تصوري السيناريو النهائي: إنه بمجرد الانتهاء من إزالة التهديد الذي يشكله صدام علي استقرار المنطقة سوف تشعر كافة الأطراف بأنها أكثر قدرة علي الإقدام علي المخاطرة من أجل للسلام. وقلت: «إننا متفائلون من أن صلاحيات سوف تجمع سوريا ومصر ودول الخليج في تحالف عربي رئيسي يستطيع العمل جيداً من أجل مستقبل عملية السلام العربية الإسرائيلية».

وأبلغته بأن الولايات المتحدة لن تحاول فرض تسوية علي الأطراف وأشرت «إلى أنه في كتاب سدرمؤخراً ذكر للوفاء أنه إذا كنتم تعتزمون العمل علي إقرار السلام في الشرق الأوسط فعليكم أن تكونوا أظهروا توليد بنسبة تسعين في المائة، وإن يحل السلام حتي تكون الأم مستعدة». وضحك الأسد ثم قال: «يجب أن يعرف الإسرائيليون أن سوريا لن توافق علي إقرار السلام بينما جزء من أراضيها واقع تحت الاحتلال، وأنه بدون سوريا فلن يكون هناك سلام عربي إسرائيلي».

وأكد كالمعتوق: «يجب أن يفهم كل إسرائيلي أنه لا يمكن إقامة أي سلام بدون إعادة الجولان كاملة ومن المفارقات الساخرة أن ما كان يجب أن تكون كلمات بالغة الجدية قد شوهت نتيجة خطأ في الترجمة. فقد قال المترجم «لا يمكن إقامة أي سلام بدون إعادة» - وذكر كلمة للجوع - بدلاً من المرتضات كاملة كانت هذه واحدة من اللحظات المدهشة في هذا اللقاء الأول».

وعقب هذا الاجتماع أحسست أن الانقسام بين المعتدلين والمتطرفين في العالم العربي قد اتسع. وعلي المستوي الشخصي علمت لاحقاً أن الأسد أبلغ أحد مساعديه أنه أعجب بما وصفه «مزيجي التكتاسي - البريفيهوني».

ولدي تطبيق القانون - ورغم توفر سابقة تقود إلي صنع القرار- عليك أن تعتمد علي الحس مراراً وتكراراً. وعقب هذا الاجتماع الأول مع الأسد أحسست بفطرتي أن رابين كان مصيباً. فالأسد رجل نكي ملكر شديد اليأس غير ميال للإقدام علي المخاطرة لتحقيق أهدافه. لكن من المرجح أن يلتزم تماماً بأي اتفاق بمجرد التوصل إليه. ولم تساورني أية أوهام حول

شدة بأسه، وتاريخه المزعج في رعاية الإرهابيين. لقد خبر القوة وقد استخدمها بقوة في الماضي.

وفي الاجتماع الثاني الذي عقد في ١٢ كانون الثاني يناير ١٩٩١ الذي تركز أساساً على امتناع الأسد عن السماح بفراته بالمشاركة في العمليات الهجومية في الكويت في حالة وقوع هجوم بري. وانتهزت فرصة الاجتماع لإجراء حوار مطول مع الأسد حول عملية السلام أيضاً. والآن هم الأسد أنه سيتم تحديد مدغم كقوة سياسية إقليمية، وأن بيئة ما بعد الحرب ستبين مبادرات جديدة ومبشرة لاستعادة الأرض التي حصرها في حرب عام ١٩٦٧. كانت لفته أكثر إيجابية عنها في أيلول متهتم. وقال: «إننا نريد العمل معكم ومستعدون لذلك، ومع ذلك فقد أضاف إضافة حذرة إلى موقفه الأصلي، وأكد: «لا بد أن نستعيد الجولان +ستر، واستفسرت عما يعنى، ورد في اجتماعة: «حسناً إن الإسرائيليين أذكياهم. كان المفاوض الشرش يشير في دعابة إلي أن ثمن السلام لن ينقص نتيجة مشاركته في عاصمة الصحراء. وكم شاركت في مئات المفاوضات في حياتي العامة والخاصة كانت أشقها تلك التي أجريتها مع الأسد.

وكان اجتماعنا الثالث ١٣ آذار مارس الذي استغرق سبع ساعات كاملة أكثرها إيجابية من ناحية الأجواء. أما وقد أحاطه مبارك بتفاصيل إقتراحي فقد استرعبها بالفعل. وقال إنه يرغب في عمل شيء ما. وهكذا أبدي تأييده للهج المسارين، لكنه كان أقل تفعماً لإجراءات بناء الثقة المتوارية. ووافق علي أن إسرائيل هي التي يجب أن تتخذ مثل هذه الخطوات لكنه أبدي فتوراً تجاه فكرة أن الدول العربية يجب أن تفعل للشيء نفسه. وفي كل الزيارات الأخرى في المنطقة تم تبني تصور الإجراءات المتبادلة المتوارية. ومع هذا خلست إلي أن الأسد صادق عندما قال إنه لم يلمس قط القراماً أمريكياً بمثل هذه التصاقية من قبل، وأنه مستعد للرد علي جدية أمدافنا بجدية مماثلة. وأبرقت للزايى بهذا التقييم قائلًا: «ترك لدى الأسد انطباعاً واضحاً بأنه جاد في السعي لإقرار السلام، لكنه سيكون بتدقة وصعب قرقشتها.



كنت أقل انشغالا بشأن السوفيت الذين مرهم إدراجهم في اقتراح الرئيس بشأن الشرق الأوسط ما بعد الحرب. ومع ذلك وفي اجتماع عقد في موسكو في ١٥ آذار مارس نبهت بسمرتليخ إلي أنه يجب علي موسكو أن تكون مستعدة للإقدام علي اختيارات قاسية، وأبلغت بسمرتليخ بأن الرئيس مستعد لقبول عقد مؤتمر إقليمي برعاية مشتركة مع السوفيت. ومع ذلك فإنه يتوقع من جورباتشوف بالمقابل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل، وقلت: «الامجال للتأخير في هذا الصدد بالألكسندر. إن هذا معيار حاسم لعمس موياكم. إنه عهد جديد وإنه أفضل فرصة للإعراب للجميع علي أن للتفكير الجديد لا يزال قائماً بشكل جيد في السياسة الخارجية السوفيتية» وقال بسمرتليخ إن جورباتشوف مستعد للإعتراف بإسرائيل لكن ليس علي الفور. كان هذا مناسباً بالنسبة لي. ففي الوقت المناسب سأرغب بل سأحاول استغلاله لإجراء شامير للحصول علي شيء مقابله.

وبحثت البرقية التالية للرئيس: «تضع لي أن الكسندر رئيسه في حاجة لإشراكهما في هذه القضية لإظهار أن التفكير الجديد يؤتي ثماره خارج البلاد».



وعقب الاجتماع مع الرئيس أوزال في أنقرة عدت إلي واشنطن في الساعة ٢،٣٠ فجر الصباح عشر من آذار مارس يخالني إحساس بالارتياح بأن بيئة المنطقة قد تغيرت نتيجة الحرب. وأبلغت في تقريرى للرئيس في منتصف الجولة: «ليس هناك شك في أن شيئاً يحتمل أن يكون مهماً يحتمل بين العرب، ولا يمكننا أن نعرف الوقت الذى سيستغرقه هذا، أو لماذا كان سيحدث بما يكفى لتحريرك الإسرائيليين. وحتى لو كان الحال كذلك فلا يمكننا التأكد من أنه سيخلق علي الانقسام والاضطراب القائم بين الفلسطينيين في المستقبل القريب. لكن ربما تهيئ هذه البيئة الاستراتيجية الجديدة المسرح لت ظهور الفلسطينيين القادرين علي صنع السلام».

وأثناء عودتى إلي الوطن اتصحت لي ثلاث حقائق.

أولاً: إنه سيكون من الضروري تقديم تنازلات عربية لحمل شامير على المشاركة.
لكنني أعتقد أن كلا الأمرين ممكن.

ثانياً: إن حل عقدة اللحميل الفلسطيني للمستعصية سيكون أشد صعوبة عما كنت أتوقع.
وأخيراً: لن تكون هناك عملية فعالة بدون مشاركة سورية.

وهي الأسابيع التالية سيكون على أن أضع كلا الطرفين بالانتقال من التأكيدات المعصية
لحصن الدية إلى إتخاذ خطوات ملموسة لكسر الجمود. وحتى بالاستفادة بالواقع الاستراتيجي
الجديد وإشاعة تفكير جديد لمسوف يظل هذا هدفاً شاقاً كما كان قبل الحرب. فلنزال
الناشورات السابقة على حالتها. لكنها بدون شك تخضع لأقوي عملية مراجعة مكلفة في
تاريخ هذا الصراع المرير. وفي منطقة مستعصية كالشرق الأوسط ليس هناك أساس ولو
صغير للبناء عليه.

الفصل الرابع والعشرون

هدام يبقى في السلطة

إن مشكلتنا عظيمة فنحتاج جهود دولية.

هي رسالة لاجئين أكراد
سلمت إلي وزير الخارجية بكر
٨ نيسان إبريل ١٩٩١

صباح للماشر من آب أغسطس ١٩٥٣ ضرب زلزال عفيف ثلاث جزر يونانية في سلسلة جزر أيويان، وعلي مدار الأيام الخمسة التالية اجتاحته جرر سبفالونيا وليتهاكا وزانتي أمواج المد والحرالقي ومائة وعشرين تلبعا رئيسياً للززال. وأشارت للصابات المعاصرة إلي أن القوة التدميرية للززال تعادل لتفجار قنبلة ذرية. وتوفى نحو خمسمائة شخص، ودمر ٢٥ ألف منزل، وتشرذ ٨٩٣ ألف شخص من الناجين وأصبحوا بدون مأوى. واخذقت عدة مدن من علي وجه الأرض.

وكصابات برتبة ملازم ثان في مشاة للبحرية في الثالثة والعشرين من العمر مكلف بالمدممة في الأسطول السادس الأمريكي لمحتيت أسبوعين أشارك في عمليات الإنقاذ والإغاثة التي يقوم بها حلف شمال الأطنطي. وقمنا بإسقاط الإمدادات والخبز وصالح مياه الشرب من طائرات هليكبتر بريطانية إلي الناجين في عشرات المدن التي سويت بالأرض بالمعنى الحرفي. وقمنا لم يبق مبني قائما في زلكنيتوس عاصمة زانتي التي أحاطتها للحرالقي الضخمة من كل اتجاه عقب وقوع للززال.

كانت كتيبتى مكلفة بالمهمة المروعة باستخراج للقتلي من بين الانقاض. وسبق لي مشاهدة جثث الموتى، أثناء محاولتى للتصيرة لدراسة الطب، فقد رأيت الجثث تطفو في محلول الفورمالديهايد، ثم وطبة الطب يقومون بنشرحها لاحقا. ويمكن الآن أن أذكر حتي اليوم منظر الجثث المشوهة المتحللة التي لتنتشالها من تحت أنقاض منازلهم ومشاريعهم. وبعد أكثر من أربعين عاما لا تزال الوجوه الجميلة لعمرات الأطفال الذين دهمهم للززال أقوى تذكرا لمدينة زلكنيتوس .

ولم يقدر لي أن أشاهد مثل هذه الوجوه الجميلة الأخاذة حتي ٨ نيسان إبريل ١٩٩١، بين الجبال التي كست اللوح قممها بجنوب شرق تركيا وشمال العراق في منطقة يتسلها آلاف اللاجئين الأكراد الذين فروا من الرعب الذي تكبده قوات صدام حسين المتوحشة.

وقبل ثلاثة أيام فقط أعلن الرئيس عن جهد طموح بإسقاط جوى للإمدادات والأغذية إلي لأكراد العراق الذين يعانون بشدة. وكان قد طلب منى للحصول علي تقرير مباشر عن الموقف من تواجوت أوزال في أنقرة . غير أن مارجريت تاتويرل اقترحت زيارة أحد

معسكرات اللاجئين. ففي الأيام السابقة علي مفادرتي للقيام بشأني جولاتي في الشرق الأوسط بعد الحرب حدثني تاتويلر علي إضافة مثل هذه الزيارة إلي خطة الجولة. فقد تدهبت إلي تدهور محنة الأكراد وتزايد اعتماد الإعلام بها. وكنا جميعاً في الإدارة ندرك الانتقادات الموجهة إلينا لعدم بذل ما يكفي لحماية الأكراد في شمال العراق والشبعة في الجنوب من هجمات القوات العراقية. وقالت: من المهم الإعراب بطريقة مثيرة علي أن الولايات المتحدة لم تترك المنطقة بعد الحرب.

واصلت علي توصية تاتويلر دون تقدير للصعوبات اللوجستية التي ستلحقها مثل هذه الزيارة. كان المطار الوحيد الذي يمكنه استقبال طائرتنا البوينج ٧٠٧ يبعد خمسة وتسعين دقيقة بالهليكوبتر من الحدود التركية العراقية. واستبعد فريق الأمن استخدام طائرات الهليكوبتر التركية. لذا فقد تم تفكيك طائرات هليكوبتر عسكرية أمريكية ونقلت من قواعد أمريكية في أوروبا لإعادة تجميعها في مطار ديار بكر العسكري وبعد الهبوط هناك تفقدت واحدة من طائرات سي 130E التي ستستخدم لإسقاط المساعدات للفدائية للاجئين.

بعد رحلة بالهليكوبتر علي ارتفاع ١٤٠٠ قدم فوق التجم الجبلية الثلجية والوديان العميقة ونهر دجلة وصلت إلي مقر قيادة اللواء جاوردا بالجنح التركي قرب جوركوجا. وثقبت تقريراً موجزاً من مسؤولين عسكريين تترك والحكم المحلي للمنطقة. ثم استقبلت وفداً من خمسة وعشرين لاجئاً كردياً يمثلون مختلف الفصائل بمهامهم وسراويلهم الطويلة المنسوخة. كانوا في غاية الرقة، وأبدوا تقديرأ عظيماً لزيارتي. لكنهم أوشحوا لي أنهم يعتقدون أنه لا الولايات المتحدة ولا العالم قد بذلوا ما يكفي من أجل شعبهم. وسلموني رسالة مكتوبة بخط اليد وقعها العشرات منهم تضمنت شكر التحالف لجهوده في العراق، وطلبوا تقديم مساعدة إنسانية. أثناء فراجتي للرسالة استوفتني عبارتان (إن كافة العراقيين يطلبون الحرية ونظام ديمقراطي في بغداد. لكن الأخطاء والقرارات الخاطئة التي سمحت للنظام العراقي باستخدام الدبابات والهليكوبتر هي التي سببت هذه المأساة. وسري تيار خفي من العاطلة في هذا الاجتماع، ولا سيما عندما قصوا علي روايات عن قيام القوات العراقية بارتعاع أسدقائهم وأفراد عائلاتهم. لكن العرض الذي قدموه لي كان هادئاً وعقلانياً. لكن لا

هم ولا شريط الفيديو الذي عرضه أروال أمامي في أنقرة في اليوم السابق وأظهر قوائم اللاجئين بطول اثني عشر ميلاً هياؤني لما سوف نشاهده.

وبعد توجيهه للصبح بترك الطعام الذي أحضره بعض العاملين معنا لتقديمه للاجئين لأن من شأن ذلك إثارة أعمال عنف نكسنا في مركبات رباعية الدفع تابعة للجيش التركي، وسرنا لمدة عشر إلي خمس عشرة دقيقة في طريق ترابي ملئ باتجاه قمة سلسلة جبلية شاهقة بارتفاع نحو تسعة آلاف قدم ونحن نقرب من القمة بدأ المنحدر فجأة يسج بمجموعات من البشر. كان الحرمان واليأس المستشري في الساحة لا يطلق بمضي الكلمة. فالسود تتقن المياه غير النظيفة للشرب وغسل الملابس التي نشرت لتجف علي الشجيرات والأشجار القليلة الباقية في المنطقة. فقد قطعت معظم الأشجار لاستخدامها في الكتلة انقاء البرودة التي تصل إلي درجة التجمد ليلاً. وتناثرت عدة ديام قديمة متهاكة. كانت أوضاع الصحة العامة تمثل دعوة مفتوحة لانتشار الأمراض الخطيرة. ومعظمهم يسير حافي القدمين، والقليل منهم يرتدي ثياباً محقولة. وفي كل مكان تواجد الأطفال بما ينهي عن معانات خارية.



وعادت ذاكرتي إلي أطفال زاكيتوس لكن مع اختلاف كلي. فقد نجا هؤلاء الأطفال من الكارثة. وبدون مساعدة عاجلة فربما تلقى هذه البراة حرقها من العيش في العراء عرضة للعوامل الجوية ومن الجوع والأمراض. وبعد يومين توفي سبعة وثلاثون لاجئاً من البرد. منهم سبعة وعشرون طفلاً. ومن الناحية العملية لم يكن هناك ملاذ لحياتهم. وأمضيت وفقاً في الخلاء. وأعرف شدة البرودة التي نحل في الليل علي ارتفاع نحو تسعة آلاف قدم في الجبال حتي في فصل الربيع. وتذكرت عندما تسامات بوني وبين نفسي عما سيحدث لهؤلاء عندما تنساقط ثلوج الشتاء.

وعلي قمة السلسلة الجبلية خرجت من مركبتي وسرت علي الطريق الترابي وعبرت الحدود داخل العراق. وأنا أطلع إلي السفوح علي الجانب العراقي للجبل لأرني علي الفور

هول الكابوس. وأمامي وادٍ جبلى منخم يحج بنحو خمسين إلى ستين ألف لاجئ، وهو جزء فقط من قبض الملاجئين علي طول الحدود الذي أشارت بعض التقديرات أنه بلغ ربع مليون لاجئ. وعلي الفور أحاطت بي مجموعة من اللاجئين تصفق وتلوح لى. وجاء صوت لرحرح يصيح: مسدر بيكر، مسدر بيكر، هل يمكنكى التحدث إلينا؟ أرجوك؟ أرجوك مسدر بيكر إننى فى حاجة للتحدث إليك.

واندفع رجل ربة عبر المجموعة وحاول دون نجاح اختراق طوق القوات التركية التى تتولي حمايتى. وطلبت من الحراس السماح له بالمرور. كان اسمه سام وقد ترك كل متاعه الذى يملكه فى بلدة كركوك. وسار لسة أيام حتى وصل إلى هذا المكان الفقير سهجور. وقال لى: «إننا دمانى، إن أطفالنا يعانون الضاعة والجوع. إننا فى حاجة للأطباء والأدوية والمياه. فالقصص المكثف ينهال فوق رؤوسنا، عليكم أن تفعلوا شيئاً لمساعدتنا».

ومن الصعب حتى هذا اليوم وصف بلاهة وفصاحة مداخلته الصحيحة. وقلت له: سوف أبذل قصارى جهدى للبدء فى عملية إغاثة. وقلت: «إن الأمر بيد المجتمع الدولى ككل لعمل شيء ما تجاه هذه الجريمة، وبמיד دقائق أصبح ما كان همساً بين اللاجئين إعلاناً مدوياً بأن شخصية أمريكية رفيعة تزور المنطقة. وتدخلت كتل بشرية نحو مجموعتنا وسدت الطرق، وسدت طريق وصولنا إلى مركباتنا أثناء التندفع، وأبلغنا المسؤولين الأتراك الذين يراقبونا أنهم يفقدون السيطرة علي الحشود، وأصروا علي ضرورة مغادرتنا علي الفور. كان هذا واحداً من المرات القليلة التى أحسست أن أمنى للشخصى محروطة قلق حقيقى من الموقف. واستدرينا للعودة إلى تركيا، وبدا الجبل كله مغروساً، بالبشر ويدرى بالنصفيق والتهليل، وصممت علي أن أرى الولايات المتحدة وقد ضلت أفسى ما يمكنها عمله لمنع هذا الموقف من التحول إلى كارثة بشرية أكثر ما هو حاصل».

ونحن نستقل الطائرة الهليكوبتر فى طريق العودة إلى ديار بكر راودت نفسى بأن هؤلاء الناس الذين رأيتهم ما هم إلا نماذج حية لإرادة التحرر. فلا يمكن السماح بتدركهم ليلقوا حتهم، ولم يكن هذا مجرد تعدٍ سياسى للولايات المتحدة. فقد كانت حالة إنسانية طارئة فى الحقيقة ذات أبعاد متعددة.

وعندما عدت إلي ديار بكر عقدت مؤتمراً صحفياً مع أحمد وزير خارجية تركيا. وانتهرت هذه الفرصة لأظهر مدي الإلحاح والآنزعاج تجاه ما رأيته لقوى. وعقب إقلاع الطائرة استدعيت جون بولتون مساعد وزير الخارجية لشؤون المنظمات الدولية وبريسيتون ليمان مدير برنامج اللاجئين إلي كابيتلي وألقتهما بكل وضوح أنني أريد عمل شيء وشيء سريع للتخفيف مما اعتقدت أنه سيكون معاناة شاملة. كان هذان المساعدون من أفضل العناصر الوظيفية ولم يكونا في حاجة لعهما علي العمل وطماناني إلي أنه سيتم بذل كل الجهود لإزالة المعوقات البيروقراطية وحشد منظمات الإغاثة المتطوعة الخاصة والدولية. وأُقيمت الطائرة في رحلة استغرقت تسعين دقيقة إلي إسرائيل. ولعدة دقائق بعد الإقلاع رأينا الطرق المتراصة والممرات مكتظة باللاجئين النازحين من العراق. ثم اتصلت بالرئيس من الطائرة هاتفاً وأبلغته: «لا يمكنني أن أصف حجم المأساة الإنسانية التي شاهدتها لقوى. ليس لديك فكرة عن الكابوس الإنساني هنا. إن هناك كارثة ستحدث لو لم تحرك بسرعة. إن اللاجئين يموتون يومياً. علينا أن نفعل شيئاً وأن نقطه الآن. وإذا لم يحدث فسوف يلقى الآلاف حتفهم، وقت: «إنه لمنع هذه المأساة التي يستعصى وصفها يجب علي الإدارة أن تركز نفس الجهود للقيام بعملية إغاثة عاجلة كما فعلنا في حشد تحالف دولي في المقام الأول. واقترحت أن يتصل الرئيس بالسكرتير العام للأمم المتحدة، ويطلب منه تعيين مندوب إغاثة علي الفور، واقترحت أيضاً ضرورة اتصاله بقيادة التحالف للرئيسيين لعهما علي التمدد بمزيد من عمليات الإغاثة وتقديم للمساهمات علي الفور، وأوجيت أن نطلب من الكونغرس اعتماداً إضافياً عاجلاً كمعونة للأكراد وأن يتم الضغط علي الأمم المتحدة لدراسة رهن صادرات عراقية في المستقبل لدعم عملية الإغاثة. وقت: «إن ما عملناه حتي الآن شيء هزيل. علينا أن نحشد العالم. علينا أن نفكر في عمل منظم. وإلا فسوف يصبح هذا تدميراً منهجياً لشعب بأسره. ونحن الرئيس مدي الإلحاح في صوني، وقال إنه سيأمر باتخاذ عمل علي الفور.

ونحن في طريقنا من تركيا إلي إسرائيل اتصلت بيبوب كيمييت لإصدار تعليمات له بإجراء عملية بين الوكالات. وقت: «لا يهمني ما تفعله لكن عليك بفعل شيء ما. وفهم ما

أعديه لكنه أبلغني بأن البيروقراطية تكبر بعض الاحتفظات العملية والتوجسسية حيال عملية إغاثة.



وعندما وصلت فيما بعد إلي هندق السك داود بالقصر بعد عدة ساعات أريت متابعة مكثتي مع الرئيس ببناء شخصي لعملي شيء ما إلي ديك تشوني. لكنه كان في حديقة السفارة الأمريكية، ولذا فقد نقلت مارجريت تاتوير رسالة من ثلاثة أجزاء إلي كاشي ايمودي مساعدة تشوني منذ أن كنا نعمل جميعاً في الحملة الانتخابية للرئاسة عام ١٩٧٦. وتممعت الرسالة: «أولاً: إن الوضع بالأسوأ. ثانياً: إن اللاجئين سيعودون. ثالثاً: إن الجيش الأمريكي هو المؤسسة الوحيدة التي يمكنها المساعدة. لذا أرجو تجاوز كل الرسميات وتحطوا بالمرونة». وهما بعد علمت من كيموت أنه عقب تلقي الرسالة أبلغ تشوني زملاءه أنه علي مدرستين عاماً لم يعرف أنني «مثير للقلق». وهكذا فقد حازت رسالتي اهتمامه. ومع ذلك فقد تأكدت لي المبرنة الإنسانية وحدها لن تكون كافية. وبمجرد ضمان نجاةهم مما هم فيه يتعين أن يكون بوسع الأكراد في نهاية الأمر العودة إلي وطنهم دون سيطرة التهديد بالتمرض للاضطهاد والمضايقة التي دفعتهم إلي الفرار للنجاة بأرواحهم. لم تكن محنة اللاجئين الأكراد فحسب حافزاً للتوسع الضخم في عملية الإغاثة الأمريكية والدولية التي باتت تعرف باسم توفير الراحة، بل دفعتني أيضاً إلي الضغط لوضع سياسة جديدة أعلنها الرئيس في ١٦ نيسان إبريل بإقامة ملاذات آمنة للأكراد في شمال العراق. وهي عبارة عن معسكرات للاجئين تحميها القوات الأمريكية وتديرها الأمم المتحدة تحت قيادة الليفنتانت جنرال حينذاك -جون شاليكا شيفلي نائب قائد القوات الأمريكية في أوروبا- (ولاحقاً لن يصبح ممثل هيئة الأركان المشتركة الأمريكية علي ملائرتي بل سيحلف كولن باول في رئاسة الأركان). كانت أصحح عملية إغاثة عسكرية يتم تنفيذها، وقدم ما قيمته ملايين الدولارات من الأغذية والإمدادات لأكثر من أربعائة ألف لاجئ.

وأعتقد أن التدخل الأمريكي أنقذ حياة عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء لحرب الخليج وما بعدها. ولم تخف هذه الجهود مع ذلك من تعرض سياستنا ما بعد الحرب للانتقاد. فقد اتهمنا منتقدونا بأننا حرضنا على تمرد الأكراد والشيعية ضد صدام في الأيام التالية مباشرة لانتهاه الحرب ثم تركهم يواجهون قدرهم برصاص تقديم المساعدة لهم. سواء من خلال عمل عسكري أو مساعدة سرية. وهذه هي نفس الأصول الكثيرة التي تدعى أيضاً أنه تم وقف عملية عاصفة الصحراء قبل أولتها لأسباب سياسية، وأنه كان يحسن أن تدخل القوات الأمريكية ببغداد وتحل أجزاء كبيرة من أراضي العراق. ولم تكن قد تبتلنا كهدف حربي أو سياسي لاستبدال النظام العراقي. ومع ذلك فقد كنا نأمل ونعتقد أن صدام حسين لن يبقى في السلطة بعد هذه الهزيمة الساحقة. وما يثير السخرية أن الانقراض في الشمال والجنوب ساهمت في تعزيز قبضته على السلطة بدلاً من أن تضعفها كما كنا نتوقع. لأنه نجح بمهارة في إقناع جيشه بأن هذه الأحداث تتطلب استمرار قيادته من أجل الحفاظ على العراق. وعندما تمكن من تعزيز سلطته أريك صدام حسانتنا الاستراتيجية. وكانت النتيجة خبر نذكار بأن عواقب النجاح غالباً ما تكون أكثر تعقيداً ويصعب توقعها كما هو محسوب.

إنهاء الحرب

استندت سياسة الإدارة في الأسابيع التالية لوقف الأعمال الحربية على مزيج معقد من الحسابات تستهدف تحديد قلق استراتيجي شديد للوضوح في الذهن: هو ما كنا نشير إليه دائماً بلجنة العراق الذي كنا نعتقد أنه لو حدث ميختر كابوساً جيوسياسياً. لكن هناك بعداً عاطفياً أيضاً، وكان هذا واضحاً للغاية في قرار الرئيس الذي وافق عليه كافة مستشاريه السياسيين والعسكريين بانتهاء الحرب في الموعد الذي حددته بدلاً من استمرارها لبضعة أيام. ومن النقد الموجه إلي سياستنا خلال هذه الفترة، كان هنا لقلها قيمة. فالكثيرون ممن يشكون من أننا أخطأنا بقرار وقف الحرب كانوا من أشد المؤيدين له لذي إعلانه. والحقيقة هي أن قرار الرئيس بوقف إطلاق النار بعد مائة ساعة من القتال قد أيد به حمل كل من القوات المسلحة وشركاننا في التحالف وللكونجرس والرأي العام الأمريكي.

ففي غضون ساعات من شن الحرب البرية انتصح لنا جميعاً أن النصر سيكون سريعاً وشاملاً، وذكر باول وتشيلي أن العراقيين متوا بهزيمة منكرة. وذكرت المخابرات الأمريكية أن معظم قوات الحرس للجمهوري قد هزمت. وتم تدمير أو أسر آلاف الدبابات وقطع المدفعية. وحقق التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة أهدافه السياسية والعسكرية. فقد تحررت الكويت وأصبح للجيش العراقي ضعيفاً بدرجة شلت معها قدرة صدام علي تهديد جيرانه في المستقبل بشكل واضح وجوهري. كان للنصر نصراً ناجحاً ومدهلاً أكثر بسرعة وبأقل خسائر بشرية، ولم يكن هناك سبب عملياتي ودعوي للبقاء.

وكانت القوادات العسكرية متشدة في هذا الهدف. واعتقدت القيادة العسكرية أن القوة انجزت مهمتها علي خير ما يرام، ولابد من إعانتها إلي الوطن علي الفور، وباستثناء بعض الحوادث العارضة بحدوث وفيات أمريكية من «نيران صديقة» كانت الحرب إنجازاً هائلاً. ولكن وكما أوضح كلاوزفيتس فإنه في الحرب تصبح أوهن الأشياء باللغة الصعوبة، ومن ثم يسود الغموض. إن حرباً مطولة حتي وإن استغرقت يوماً واحداً أو يومين يمكن أن تسفر عن حدوث خسائر بشرية أمريكية لامبر لها.

ودبلوماسياً وداخلياً كان المزاج السائد يدعو إلي إنهاء القتال، وبات الطيارون الأمريكيون المقاتلون يعودون من مهامهم ليتحدثون عن «الرماية علي الدب» الروسي الحية للعراقيين البائسين الفارين إلي الشمال علي طول ما أصبح يعرف باسم طريق الموت، ومن المؤكد أن هذه التعليقات ستطوفا عما قريب صور إخبارية مروعة عن المذبحة. وقد سمي السوفيت بشكل محموم لمنع الهجوم البري. والآن هناك مخاوف حقيقية من أنهم قد يشقون صف التحالف بدعوة مجلس الأمن إلي وقف استعمار المذبحة. وعودة إلي الوطن بدأ يسود اعتقاد بأن هذه قوشك لأن تتحول إلي حرب لا أمريكية - لدرجة بالغة للحمق من الأسر بل من الممتن وقفها.

ومنذ بداية الأزمة وجدنا مراراً بأن الولايات المتحدة ليس لديها دوافع تتجاوز فرض الإمتثال لقرارات الأمم المتحدة وطرد للعراق من الكويت. وقلنا: إنه ليست لنا أي مخططات موسعة للاحتفاظ بوجود عسكري دائم وجوهري في المنطقة. وأبسط طريقة لتحقيق مصداقية

حول هذه النقطة لدى كل الأطراف هو الوفاء بكلمتنا: والانسحاب علي الفور من العراق. وباختصار ليس هناك سبب يدعو للبقاء من وجهة نظر عسكرية أو سياسية

شائعة الزحف نحو بغداد

يدور الجدل حتي هذا اليوم حول ما إذا كان من المعين أن نواصل هجومنا للدخول بغداد ونطرح بنظام صدام حسين. واعتقد أن هذه فكرة غير مجدية الآن كما كانت من قبل - ليس لسبب الأسباب القانونية الضيقة بأن قرارات الأمم المتحدة لا تجزئ أي شيء يتجاوز تحرير الكويت. فالحقيقة كاملة تجسد أبداً استراتيجية وعملية ودبلوماسية وسياسية دفعت الرئيس لاتخاذ قرار بعدم الزحف نحو بغداد - وهو قرار صائب علي الإطلاق لم يزل أي جدل فظيلاً.

واستراتيجياً كان الهدف الحقيقي هو إخراج العراق من الكويت بطريقة تكفل تدمير القوات العسكرية للهجومية لصدام حسين وتمجيد بسقوطه من السلطة. ومع إعلان وقف إطلاق النار في ٢٨ شباط/فبراير، كان الجانب الأعظم من الآلة العسكرية العراقية بما في ذلك معظم برامج أسلحته النووية والكيمياوية والبيولوجية، قد دمر. أما وقد تم إنجاز الأهداف السياسية والعسكرية، لم يكن هناك سبب بكل محني الكلمة يدفع لإرسال جنودنا نحو الشمال.

علاوة علي ذلك كنا نعتقد أن الزحف نحو بغداد أمر ضعيف من وجهة نظر عملية. فطبي أدني تقدير سيحول هذا الزحف صدام إلي بطل قومي. وهكذا فجأة يمكن تصوير حرب التحالف لتحرير الكويت من غزو ندد به للعالم علي أنها غزو أمريكي للعراق. فضلاً عن ذلك وحتى مع تفوقنا العسكري فإن احتمالات التطور علي صدام احتمالات بعيدة. وحتى في بدما البلاد الصديق للولايات المتحدة الذي تركزت فيه قوات أمريكية معظم سنوات القرن للحالي استغرق الأمر من قوات الغزو الأمريكي خمسة عشر يوماً للتطور علي الجنرال مانويل نورييجا وأسرهم عام ١٩٨٩. وعلي خلاف بدما، حيث كانت توجد حكومة منتخبة ديمقراطياً لتولي السلطة، فلا توجد أي معارضة عراقية منظمة لصدام، ولمزيد من الإيضاح يمكن توقع إقدام الجنود المدنيين العراقيين علي مقاومة استيلاء العدو علي بلدكم بصراحة لم تحدث في

ميدان المعركة في الكويت، وحتى إذا وقع صدام في الأسر وأطيح بنظامه فستظل القوات الأمريكية تواجه شبح الاحتلال العسكري لأجل غير معلوم لتهنئة البلد ودعم الحكومة الجديدة التي تولت السلطة. ويقبداً سوف تؤدي حرب المدن التي ستستتبع ذلك إلى سقوط خسائر بشرية بين الجنود الأمريكيين تفوق ما سقط خلال الحرب ذاتها، مما سيثير عاصفة سياسية في الداخل وانتقادات كثر من الحلفاء ثم تفكك التحالف. ومن المفارقات القريبة أنه بينما كان صدام مسقطاً في تصوره بأن معاناة أمريكا في فيتنام ولبنان سوف تنقذه من الحرب فإن الدروس المؤلمة التي استخلصها صناع السياسة الأمريكيون من هذين الصراعين ربما كانت هي ذاتها التي أنقذت صدام بالفعل من الأسر.

ودبلوماسياً، فإن الإلحاح للزحف نحو بغداد لم يكن ليتسبب في صدع داخل التحالف فحسب بل كان سيحدث زلزالاً، وفي الواقع أننا لو اخترنا هذا النهج ما كنا لنصبح في وضع يؤهلنا لبدا عملية سلام ذات معنى. لأننا سنفقد كل أعضاء التحالف العربي. فضلاً عن هذا فإنه بقدر ما يريد جيران صدام احتلاله بقدر ما يخشون من احتمال أن يصبح العراق ضعيفاً بطريقة غير متوقعة تفقد ملأى إيران الذين يمكنهم نشر الأصولية الإسلامية بمساعدة شيعية العراق، وسرعان ما يتحولون إلى قوة هائلة إقليمية. كان هذا بشكل عاجلاً حقيقةً لذي إنارة بوش وكثير من حلفائنا أيضاً. وشاملاً كما ساهم الخوف من التوسعية الإيرانية في تشكيل سياستنا ما قبل للحرب تجاه العراق كانت نفس الفوبيا عاملاً مهماً في صنع قرارنا ما بعد الحرب.

ونفسياً بشكل نجاح الحرب أقوى زخم للنفسية الأمريكية. ففي ستة أسابيع قضت عملية عاصفة الصحراء على الميراث المرير لحرب فيتنام. ولما تمتحت حمى النصر البلاد بدرجة لم تشهدها منذ الحرب العالمية الثانية. فلا عجب أن تكون النخبة السائدة حتى المواطن العادي في الشارع هي منروية «إعادة الأبناء إلى الوطن».

ولم تكن هناك أي رغبة علي المستويات العليا للحكومة الأمريكية في احتلال جزء من العراق. ناهيك عن رفض للجيش بقوة. ولأنغلى الأمير بندر في ٢٧ شباط فبراير أن العالم العربي يهمه أن يحدث الانسحاب بسرعة وبشكل ملحوظ، وفي نهاية الحرب سيطرت قوات

التحالف علي مساحة كبيرة من أرض جنوب العراق - أي كل ما يقع جنوب وشرق السامرة أسفل نهر الفرات حتي البصرة. وفي هذه المنطقة تتكاثر الأنعام والخيول الحية، وكان شوارتمسكوف يشعر بالقلق من حدوث خسائر بشرية لا مبرر لها. وعندما التقيته في الرياض في آذار مارس قال: إن احتلال أي أرض لا يحقق غرضنا عسكرياً، وأكد أن رجاله يعيشون في الحفر. إنهم لا يخدمون أي هدف، ليس هناك عدو. فقد هزمتنا العدو لكنها منطقة شديدة الخطورة ملوثة بالأنعام الأرضية والقنابل الانشطارية، إنه وقت للعودة، وأبلغته أن الرئيس قال إنه يريد عودة قولتنا بأسرع ما يمكن.

مساعدة الأكراد

في الثاني من آذار مارس أي بعد يومين من إعلان الرئيس وقف إطلاق النار، وفي اليوم الذي أقر فيه مجلس الأمن الدولي القرار ٦٨٦ الذي يحدد بوند وقف إطلاق النار انسحاب الشرطة المتمردون إلي المنشقين من الجيش للاستيلاء علي بلدة الناصرية. وحشد صدام حسين ما تبقى من قوات حرسه الجمهوري المنضوع لإخماد هذا التمرد. وفي الوقت نفسه كان يواجه تمرداً آخر في الشمال من الأكراد خصومه منذ أمد بعيد.

وفي الوقت الذي التزمنا الحذر في اتخاذ إقصاء صدام حسين من السلطة هدفاً سياسياً أو حربياً. فقد أعلنت الإدارة الأمريكية بوضوح منذ وقت أننا لن نذرف الدموع لو أطيح بصدام حسين من السلطة. وكان هناك سبب يدعو للأمل في أن قيادة القوات المسلحة المهزومة سوف تتلصص في وجه للرجل الصبور عن الهزيمة الساحقة في الكويت، وفي الواقع فقد حدث العكس تماماً. وقدم المتمردان سبباً مقنعاً للجيش لتتأسي أدائه المحرر في عاصفة الصحراء، وفجأة ظهرت حرب جديدة. حرب يمكنهم للفوز بها. واتضح هذا بجلاء مع استمرار القتال ببرغم ضعفها وقلّة عتادها كانت للفرق العراقية الأربع والعشرون التي لم تُشاهد وهي تشارك في أي قتال في عاصفة الصحراء كاهية لإخماد التمرد. ومن الناحية العملية لم يكن يكفل نجاح للتمرد سوي عمليات عسكرية أمريكية مباشرة علي الأقل.

ولم تكن تساعد المتمردين عسكرياً خشية التعجيل بتقميع العراق وجرد المنطقة إلى كثرة عدم الاستقرار في المقام الأول، وينظر إلى الشيعة بطبيعة الحال على أنهم منحازون إلى إيران. كما أن الأكراد الذين يطالبون بإقامة دولة كردستان المستقلة عن تركيا تتنازعهم قيادات مشتقة، ويشكلون مصدر قلق مستمر لتركيا. ولكل هذه الأسباب الجيوسياسية كنا نتوخي الحرص في مساعدة أي منهما. وكنا نعتقد أنه من الضروري أن يبقى العراق سليماً مع أو بدون قيادة جديدة أكثر عقلانية. ولم ننظر جميعاً بارتياح لمكس ذلك. وكنا نعتقد أن المتمردين سوف يوزان حتماً للضغط غير المرغوب بها في العراق والمنطقة بأسرها.



وتعزز حذراً في هذا الصدد عندما زج الإيرانيون بأنفسهم في المعركة. فسرعان ما بادرت إيران بتأييد المنشقين سعيها لاستغلال فراغ السلطة الإقليمي الناجم عن الحرب إحدى مداخلها اللدود. ودعا الرئيس الإيراني هاشمي رفسنجاني، صدام إلى الاستقالة، وناشد المواطنين العراقيين إلى الانقراض في وجه زعمائهم الذين فقدوا الثقة. وخلال تلك الفترة وجهت إيران عدة نداءات تحت الشبهة للإطاحة بصدام. ولا زال القلق قوياً في المنطقة من الأضرار الإيرانية، وكنا نخشى من مساعدة آيات الله في طهران بدون قصد عن طريق مساعدة الشيعة.

واستندت حساباتنا السياسية إلى عزوف، مكلف لدخل الإدارة بفعل أي شيء قد يؤدي في نهاية المطاف إلى إعادة اشتراك القوات الأمريكية في عمليات في العراق. ونمثل الحافز للفعال في أن الحرب قد انتهت، ولا يتعين أن تبدأ من جديد. كان هذا التفكير سائداً على نطاق واسع لدخل البلتاجون، الذي عارض توصية لجنة للفراب بإقامة منطقة منزوعة السلاح بجنوب العراق تقوم قوات الأمم المتحدة فيها بمهام الدورية. وشكل التردد المؤسسي عنصراً إضافياً في اتخاذ قرار بعدم إسقاط طائرات الهليكوبتر العراقية حتى بعد أن بدلت مهاجمة المتمردين.

وعندما اجتمع شوارتسكوف مع نظرائه العراقيين في ٣٠ آذار مارس لإملاء بنود وقف إطلاق النار كان قد حذر كافة رحلات الطائرات العراقية ثابتة الجناح. ولأن النصف الأمريكي أدى إلي تدمير الجسور في العراق طلب الجنرالات المهزومون السماح باستخدام طائرات الهليكوبتر لإعادة تزويد القوات العراقية المتناثرة في أنحاء البلاد. ومع إحكام القوات الجوية للتحالف لسيطرتها علي أجواء العراق كان شوارتسكوف يعرف تماماً أن طائرات الهليكوبتر لا تشكل أي تهديد لجنوده، ولذا فقد وافق علي هذا الطلب، كان قراراً اتخذ علي أرض الواقع، وإنصافاً لشوارتسكوف فإنه يبدو معقولاً بكل تأكيد من وجهة نظر عسكرية. وأيست هناك أسباب خاصة تدعو للشكوك فيما بدا في حينه أنه لا يمكن أن يكون مجرد مجاملة من المنتصر للمهزوم. وبمجرد أن بدأت طائرات الهليكوبتر الحربية في ذلك القري الشيعية والكردية أدركنا جميعاً أنه كان من الخطأ عدم اللص صراحة علي حظر طلعات طائرات الهليكوبتر العراقية كما حدث مع الطائرات ثابتة الجناح.

. ولا أنذكر حدوث جدل بين للرئيس وكبار مستشاريه حول هذه القضية. سواء قبل أو بعد قرار شوارتسكوف. وأعتقد أيضاً أن قوات صدام حسين كانت ستسيطر بسرعة علي التمرد بطائرات الهليكوبتر أو بدونها. وخلص محفلو الضابرات إلي أن التفوق العددي والمدفعية والمدركات العراقية كانت كافية لإخماد التمرد، وكان إسقاط طائرات الهليكوبتر كفيل بإحداث أثر علني رمزي. إلا أنه لن يكفل ضمان نجاح التمرد، واعتقد كواين باول بشكل حاس أن إسقاط طائرات الهليكوبتر قد يجزنا إلي حرب أهلية. وهو تصور لا نبتغيه نحن ولا شركاؤنا في التحالف، وثار جدل طفيف إن لم يثر علي الإطلاق في حينه حول أن أكثر الطرق المانسة أمام الولايات المتحدة لتعمل هي زيادة المساعدة الإنسانية للاجئين.



وخلال تلك الفترة ثار قدر من المناقشة حول تأييد التمرد ضد صدام حسين من خلال عمليات سرية. وأتذكر تماماً الحجج التي ساقها عدد من كبار المسؤولين من دول أخرى في التحالف. وأبطلني أحدهم: «علينا أن نجد طريقة لمساعدة الشعب في التخلص من صدام. لقد حان الآن وقت تأجيج الإضراب». وقال قليلون إنهم مستعدون للمساعدة بالأموال والمشاركة

في عمليات سرية. وقال هؤلاء: «إننا في حاجة لبعض المساعدة، وقيل لي: «عليكم بمعاملة المعارضة العراقية كما تعلمكم مع السجائدين الأفغان. فهذا هو الطريق الوحيد الذي يغسل للجيش العراقي عن صدام، وقال هذا المسؤول إنه إذا تم تزويد المتمردين بصواريخ مضادة للدبابات وصواريخ أرض جو فإن يصبح بوسعهم الدفاع عن أنفسهم فحسب بل يمكنهم أيضاً إلحاق هزائم كبيرة بقوات صدام. كانت فلور للجيش العراقي في حاجة إلى تحقيق نصر سريع لاستعادة ثقافتها المهددة. وربما يكون تمرد صعب ومكلف أمراً غير مقبول نفسياً. وقال أحد وزراء الخارجية: «إن الجيش بحاجة لأن يعرف أنه طالما بقي صدام حزين في السلطة فسوف يكون عليه أن يخوض حرباً داخلية طويلة ومكلفة، ومتى تحقق ذلك فسوف يكون الجيش أكثر استعداداً للتحرك ضد صدام. ولأسباب واضحة لا يمكنني الخوض في تفاصيل المناقشات الداخلية في الحكومة الأمريكية فيما يتعلق بمقترحات القيام بعمليات سرية. وغنى عن القول أنها أثارت مجموعة أسئلة شائكة. هل يمكن إجراء تلك العمليات بنجاح في ضوء تقييم المخابرات بأنه يمكن للولايات المتحدة وشركائها في التحالف القيام بها؟ هل ستؤدي مثل تلك العمليات إلى مجرد تقسيم العراق وتعمل ضد رغبتنا في إعادة الاستقرار إلى الخليج؟ وإذا تمت تجربة هذه المحاولات وفشلت هل يمكننا الاعتماد على المقويات الاقتصادية والسياسية للجوهرية ضد العراق؟. وألمح بعض السنسكريتيين إلى أن القيام بمثل هذه العمليات السرية وإسقاط طائرات الهليكوبتر أو الاحتفاظ بأرض عراقية ربما كانت قد ساعدت هدفاً بعيد المدى في ضمان أن النظام العراقي لن يشكل أي تهديد على استقرار المنطقة.

وفي ذلك الحين أثارت كل تلك الإجراءات المحتملة شكلاً أو آخر من أشكال المضاطرة. فمن ناحية هناك خطر من انهيار أو انعاس الجيش الأمريكي في حرب أهلية عراقية. وقد أومئنا خلال الأزمة في مشاوراتنا مع شركاء التحالف أننا لا نريد الانسلاخ بدور في الحفاظ على النظام في العراق. علاوة على ذلك فقد أردنا تشجيع دول الخليج مع السوريين والمصريين على إقامة بنية أمنية لما بعد الحرب في المنطقة. ووعد الرئيس مراراً أننا لا نسعي للاحتفاظ بوجود عسكري دائم، وأنه كلما تم الإسراع بمفادرة قوانيننا كلما نشأت الضغوط على دول الخليج للعمل على ضمان أمنها.



وكذا نشعر بحذر بالغ تجاه تفسخ العراق . وكذا نحتاج وجود التحالف بعد العرب بنفس احتياجنا له قبل الحرب لسببين أساسيين . أولهما : أننا علمنا أثناء الحرب أن برنامج صدام حسين لتطوير أسلحة الدمار الشامل أشد خطورة ومحاط بسرية بالغة عما كنا نعتقد في البداية . وكنا مصممين علي استغلال نصرنا في عاصفة الصحراء لإخضاع النظام العراقي لأقوي وأحق نظام تقييد علي الأسلحة لاستئصال أي فرصة أمام استمرار البرنامج . وكنا مصممين أيضاً علي استمرار فرض العقوبات السياسية والاقتصادية الجوهرية منذ العراق للحد من نزعاته العدوانية ، وهي العقوبات التي لا تزال سارية حتي الآن . وأوضح صدام في القصر إذا جاز التعبير فلماذا نحتاج إلي تطبيق قرارات الأمم المتحدة للقائمة (وإصدار قرارات إضافية جديدة) . ونريد كافة شركائنا في التحالف ليكونوا معنا لتحقيق هذا الهدف . ثانيهما كانت هزيمة صدام تعتبر نصلاً واضحاً من التطرف الراديكالي وهأت فرصة فريدة للسعي لإقرار سلام دائم في الشرق الأوسط بين العرب والإسرائيليين ، ولإنجاز هذا الهدف فإننا بحاجة إلي الحفاظ علي سلامة التحالف والتركيز علي إقرار السلام .

صدام إلي أين ؟

وبينما نزلت للهزيمة بصدام انتابت الحسبية زعماء آخرين ابتالته في السلطة . وعندما اجتمعت مع شامير في القدس في ٨ نيسان إبريل لبحث عملية السلام كان شديد القلق من أنه بالرغم من النصر الساحق فلا زال صدام حياً وبمسك بزمام السلطة ، وقال شامير : إنه درس غير جيد للمنطقة . فمثل هذا الرجل إذا جاز وصفه بأنه رجل . وهو الذي كلفنا الكثير من الخسائر ، والذي جرؤ علي مهاجمتنا بالصواريخ ، هو رجل لا يمكن أن نتطيش معه . واعتقد أن كل شيء في المنطقة سيظل مؤقتاً حتي تتغير هذه الوقائع . ورددت بأن كلمة شركائنا العرب في التحالف يعتقدون بأن صدام سيطاح به في انقلاب في غضون ست أو ثمانية أشهر . لكنني كنت قلقاً من أن الانقسام في الشمال والجنوب ربما تكون قد خلقت صيغة تأييد له .

وفى اليوم التالى فى القاهرة أعرب الرئيس مبارك عن قلق مماثل . وفى جانب من مناقشاتنا شمل مشكلة اللاجئين أشرت إلى أن صدام يسعى للانتقام من تركيا وإيران بإجبار الأكراد علي الفرار عبر حدودهما . ورد مبارك : إن صدام ليس بهذا الذكاء إنه ببساطة يود قتلهم .

ومن المهم تذكر أنه فى الوقت الذى سيتم فيه الترحيب برحيل صدام فإن هذا الرحيل لم يكن هدفا محظا لمباستنا . كنا نلتزم دائما بحذر بالغ فى إنكاره كهدف سياسى أو حربى . وفى الوقت نفسه لم نتوقع حقيقة أنه سينجو بعد هزيمة ماحقة بمثل هذا الثقل . وربما كان يتمين علينا تذكر أن صدام ناج مخادع وجد طريقة ما لإريك أعدائه . وحتى اليوم لا يزال صدام مسيطرا علي بلاده . بينما الإنارة التى هزمته بمهارة ودبلوماسية وعسكرية فذة لم تعد فى السلطة . وتذكرت كخبر شاهد علي غرابة أطوار التاريخ شيئا قاله طارق عزيز لى فى جنيف : سوف تبقى هنا لفترة طويلة بعد ذهابكم . كان هذا وانسأ من أمور قليلة ثبتت صحتها .

الفصل الخامس والعشرون

مقدمة المؤتمر الشرق الأوسط

إلقاء التبعة على الآخرين

أريد أن أشرح عليك أفكاري قبل أن تبدأ هذه الجولة. ليست لدي أي توقعات مخرقة. لكن هناك بعض المخالفات الجسيمة تجعل من المحتمل إحراز تقدم والفضل يرجع لنا ولكل من يبذل جهداً.

من متكرراً بيكر

إلى الرئيس بوش

عمية أول جولة من ثمانى جولات مكوكية فى عملية السلام

في غضون أسبوعين من عودتي إلي واشنطن من الشرق الأوسط في منتصف آذار مارس بدأ الحرف يراودني من أن نقاؤلي تجاه إحياء للسلام بات في غير موضعه. فجأة سقطت الكلمات الشجاعة ومؤشرات الأمل التي وجدتها في كل زيارة لي لنولة من دول المنطقة، ضحية للأمر الواقع للرعب. وعلى كل المستويات وصولاً إلي الرئيس مارست الدبلوماسية الأمريكية صغوباً علي كل الأطراف لتجاوز تفاقماتها، بانفاذ خطوات ملموسة ولم يكن أحد مسجداً للمساعدة.

ومع نهاية آذار مارس أصبح من الواضح أنه ما لم أكرر الوعد الذي قطعته علي نفسي بدعنب الدبلوماسية المكونية سوف تطلق نافذة للفرصة التي فحتها عاصفة الصحراء نتيجة للتصور الذاتي، وسيكون للسلام هو الفاسر. لكن مصداقية ومكانة الولايات المتحدة سوف تتأثر أيضاً. أما وقد بدأت هذه العملية أصبحت عاقداً العزم الآن علي محاولة إنقاذها من فشل سابق لأولنه.

وفي أوائل نيسان إبريل أوجيت لدى الرئيس بأن أبداً جولة مكلفة من الدبلوماسية الشخصية في المنطقة. وأشرت في مذكرة إلي الرئيس مؤرخة في السادس من نيسان إبريل إلي أنه، ليست لدى أي توقعات مفرطة. لكن هناك بعض العلاقات الجديدة نهج من المحتمل إحراز تقدم، والفصل يرجع لنا ولكل من يبدل جهده. وتعال هدفنا الاستراتيجي كما كان في آذار مارس في إقناع كافة الأطراف بكسر للتأوهات حول المباحثات المباشرة بين إسرائيل وجاراتها، وتحقيق هذا الهدف عقدت للمزم علي الصغط عليهم من أجل تقديم تنازلات رمزية للقضاء علي الميراث المتبادل للكراهية ولتهدام الثقة. وأسوف أطلب من الملك فهد والرئيس مبارك المساعدة في تبيين موقف الأسد. وإيعاده منظمة التحرير الفلسطينية عن أي دور رسمي في العملية، ومحاولة الحصول علي تصهلات من كافة الأطراف بالمشاركة في مؤتمر إقليمي للسلام. وستحلب معونة للسوفيت بمشاركة الولايات المتحدة في رعاية المؤتمر، وسيتم حت الأوروبيين ومنظمة التحرير الفلسطينية برقة متداهية علي الإبتعاد بسبب الاعتراضات الإسرائيلية.

كان محور نهجي التكتيكي بالغ البساطة، وكثبت في المذكرة أننا نريد من الجميع الاستثمار في العملية حتي لا يكون من السهل للفكك منها. إننا نريد منهم أن يساهموا

بخصصهم في مجالها وزيادة التكلفة عليهم لو فشلت. وفي تلك اللحظة لم يساورني أي شك في أن هذه اللجوة القادمة من دبلوماسية الشرق الأوسط ستحملني علي قطع ما يعادل دورتين حول العالم في سنة أسابيع. وما لم أتوقع أنه في الوقت الذي سيتم فيه إنجاز درجة من التقدم تفوق التوقعات المعقولة في نهاية هذه الملحمة فسوف يظل البحث عن السلام خداعاً مثيراً للعصب كالمهد به.

جفاء شامير

كالمعاد يمر طريق الآلام نحو السلام عبر القدس. وثوكب مع وصولي إلي إسرائيل في التاسع من نيسان إبريل ظهور مؤشرات متناقضة. فقد أعلن ميشا أريئيل إطلاق سراح ١٢٠٠ سجين منهم ثلاثمائة فلسطيني من المعتقلين إدارياً بسبب الانتفاضة. ومع ذلك خففت بهجة هذا الإجراء لبناء الثقة موصح الترحيب بسبب إقامة مزيد من المستوطنات في الأراضي المحتلة.

وسرعان ما بادرت بإعلان اعتراضي علي المستوطنات في اجتماع مع ديفيد ليفي الذي كان يزرع منذ البداية نحو تأييد السلام. وقلت: «لن ندبنا تفاهما واتفاقات يجب أن نكتسب مصداقية». وشكوت قائلاً: «لن تصريحات أريئيل شارون وزير الإسكان النارية ونزعته التوسعية تقوض عملية السلام، وخاصة لأن هذه التصريحات تحرك لتجدد وكأنها تعمل السياسة الرسمية لحكومة إسرائيل. إن هذه الأفعال تؤكد صراحة الانطباع بأن إسرائيل نعتلنا عن عمد».

وقال ليفي مازحاً: «عليك أن تتأل درجة نكتوره في الفلسفة في الأنغام الأرمنية والعراقيل إنك بارع في تمسها وتجنيها». ولم يراجع في مسألة المستوطنات مصراً علي أن إسرائيل لم توافق علي وقف بذاتها في شهر شباط فبراير. بل وافقت علي ألا يسكنها المهاجرون السوفيت.

وقبل مغادرتي واشنطن عقدت لقاءً خالصاً في منزلي مع داني مريدور وزير العدل السابق في حكومة شامير والدمج الساطع في حزب الليكود. وأبلغته بأنني أتوقع الحصول علي

بجانبه لثلاثة أسئلة جوهرية خلال زيارتي: هل ستشارك إسرائيل في مؤتمر إقليمي مع العرب وللفلسطينيين؟ هل سيوافقون علي أن أساس عقد مثل هذا الاجتماع سيكون التوصل إلي تسوية شاملة يستند إلي قرار الأمم المتحدة ٢٤٢؟ هل ستشارك إسرائيل لو شارك فلسطينيون من الأراضي؟. وأعدت هذه الأسئلة في القدس علي شامير في أول اجتماع مما سيصبح ثمانية اجتماعات معه خلال الأسابيع الستة التالية. وبعد حوار استغرق ربع الساعة حول قضايا أخرى قال شامير، الآن دعنا ننتقل إلي أسفلك التي تعرف أنها ليست الأسهل في العالم. وأحسنت بالارتياح بعد أن علمت أن شامير تقدم بعص الشيء. فقد تخلي عن ممارسته السابقة لمشاركة المرفوعة في رعاية المؤتمر، وقال إن إسرائيل بانت مساعدة الآن للمشاركة في مؤتمر إقليمي لكن ليس تحت رعاية الأمم المتحدة كما كان العرب يصرون لسنوات. ووافق أيضاً علي التمثيل الفلسطيني. لكنه أراد أن يكون الفلسطينيون جزءاً من وفد مشترك مع الأردن. وأعرب عن اعتقاده بأن تأثير منظمة التحرير الفلسطينية سوف يتلاشي بهذا الشكل ومع ذلك فلم يكن راضياً عن أسس المؤتمر. فالنصبة للعرب (ومعظم دول العالم) فإن قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ يقضي بمبادلة الأرض بالسلام، وهو ما كان شامير يتردد بالأبداً يحدث علي الإطلاق. فقد أراد إضافة عبارة «علي نحو ما تم الاتفاق عليه في كامب ديفيد، هي صياغة القرار. لأن موقف إسرائيل تمثل في أن مناهم ييجي لم يوافق علي مبادلة الأرض بالسلام في اتفاقية عام ١٩٧٨ التي توصل إليها مع أنور السادات تحت رعاية الرئيس جيمي كارتر في كامب ديفيد. وقالت له: إن هذه مجرد مسألة دلالة لغوية. فبوسع كلا الجانبين أن يفسرا صيغة القرار كيفما شاءا. غير أن العرب لن يوافقوا مطلقاً علي أي تعديل في الصياغة اللغوية للقرار ٢٤٢ باعتباره أساساً لعقد الاجتماع.



وكان اجتماعي مع فلسطينيي الأراضي بعد ظهر ذلك اليوم أكثر إحياءً بالفتاوى عن الاجتماع الأول في آذار مارس، وياغنى الغياب شبه الدائم للهجوم العنيف والشجرة المألوفة بالتحديث عن منظمة التحرير للفلسطينية. ولست في المقام الأول مرارة تولدت نتيجة

المشاركة في اجتماعنا الأول. فبرغم تعرضهم لانتقاد حاد من أشقاتهم لاجتماعهم معي للمرة الثانية أوضح كل منهم بجلاء أنهم يريدون أن يكونوا جزءاً من العملية. والأهم أنهم وافقوا علي الشروط المسبقة الثلاثة التي حددتها شامير لقاء الاجتماع معهم في إطار مؤتمر إقليمي. ووافقوا علي تأييد عملية المصارين بين إسرائيل والعرب والفلسطينيين، وعلي المفاوضات للمرحلية وإقرار السلام مع إسرائيل. وأشارت في رسالة للرئيس: «إن هذا وحده هو مؤشر جيد عن التغيير الذي طرأ علي المزاج والنهج بين الزعماء الفلسطينيين المحتملين في الأراضي». ولم أكن أريد البدء في مباحثات حاسمة مع شامير حول موضوع يؤثر مولجته، ولذا فقد تريت حتي بداية اجتماعنا التالي في اليوم الثاني ١٠ دسمان لإبريل للاحتجاج نديه علي الاستفزاز الاستيطاني الأخير. ففي ١٣ آذار مارس أعلن شارون أن إسرائيل ستبني ١٢٠٠٠ وحدة سكنية جديدة في الأراضي المحتلة خلال الأعوام الثلاثة القادمة. وفي وقت تطلب فيه الولايات المتحدة من كافة الأطراف أن تقدم مؤشرات تصالحية في قضية السلام كان هذا تطوراً محبطاً بشكل خاص.

وقلت لشامير: «إنني أري أي محاولة متعمدة لتخريب السلام على إنها مشكلة حقيقية بالنسبة لنا. وإنني أطلب منكم بكل الاحترام للمبادرة بنفي تلك التصريحات».

وكعادته حاول شامير الالتفاف حول شكواي وقال: «إنني غير مرتاح لهذه التصريحات وجميع من في البلاد يعرف ذلك».

ورددت: «إنني لا أطلب منك تبني موقفنا. لكنني أطلب منك منع هذا الرجل من زرع الأنغام علي طرق السلام».

وقال شامير: «لا أريد إقحامك في سياستنا الداخلية».

وحذرنه قائلاً «لا أود أن أري سياستكم الداخلية تستغرقنا. لكن هذا سيحدث لو استمرت الاستفزازات الإستيطانية»

ورد شامير: «سأتولي الأمر، والآن فقد أحسست بالطبع أنه لن ولم يفعل».

وتحولت إلي عملية السلام، وسرني أن أعرف أن شامير قرر التخلي عن عبارة علي نحو ما تم الاتفاق عليه في كامب ديفيد، وقال إنه سيدرس اقتراحي بالسماح بحضور ممثلين للمجموعة الأوروبية بصفة مراقب في المؤتمر. ولم يكن شامير يثق في الأوروبيين، ويعتقد أنهم يدافعون في معظمهم عن العرب، لكنني كنت أعتقد أن بادرة من نوع ما ستكون أمراً مهماً لاستبعاد بعضهم عن تعقيد العملية. ورغم هذا لم أفتأجأ عندما عرفت أن لدي شامير طلباً جديداً سوف يعرضه. ففي الاجتماع الأول طلب تمهيداً من الولايات المتحدة بأن الفلسطينيين لن ينفقوا مطلقاً بالفكر لمنظمة التحرير الفلسطينية. والآن فإنه يريد رسالة من الفلسطينيين الذين سيشاركون في المؤتمر بأنهم فيها بأنفسهم رسمياً عن منظمة التحرير الفلسطينية، ويتمهدون بأنهم لا يمثلون عرفات. ورفضت هذه الفكرة رفضاً باتاً. ولغيت نظريه قائلاً: «إنك تبالغ في التشدد فلا يمكنك أن تصر علي أن يتخروا، وقت سوف أبلغ العرب بأن الإلحاح العلي علي وجود منظمة التحرير سيعرقل للعملية، وهو ما كنت أعتقد فيه بشدة. وسوف تموت العملية لو أصرت إسرائيل علي الحصول علي الرسالة. وقت لشامير: «لو فرصت شرطاً يجعل من المستحيل التحرك فمناً فسوف أمضى وأعلن سبب فشلها علي وجه التحديد».

وقبل مغادرتي أردت التأكيد من عدم وجود سوء فهم حول قضية التمثيل الفلسطيني. كانت فكري بسيطة. وقت: «إننا لم تكن راغباً في الجلوس معهم إذا قالوا أنهم يمثلون منظمة التحرير، فإنني أريد إجابة شافية قبل مغادرتي الشرق الأوسط. فقال شامير إنه سيسطر كلها».

وبوجه عام أحسست أن الاجتماعيين شكلاً بداية مبشرة، ولم يساروس شك في أنه سيكون من الصعب حمل شامير علي الحركة. لكنه تحرك وبات لدي الآن شيء لأعرضه علي مبارك الذي كان متفائلاً كالمترقب عندما زرته بعد ظهر ذلك اليوم في القاهرة. وبعد قليل من التفكير في بداية الأمر بات مبارك علي استعداد الآن لتأييد فكرة المؤتمر الإقليمي ووافق أيضاً علي فكرة شامير بالمشاركة يوفد أرني فلسطيني مشترك، وتوقع أن كلا من إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية لن يدخل في مواجهة كلامية.

وفيما بعد طلب مبارك رؤيتي في اجتماع خاص. وقال: «لم أرد أن أقول هذا أمام آخرين. لكن جيم: إنني مندفع لتقدم شامير كل هذا القدر». فقد سبق أن أبلغتني أنه يعتقد أنه لن يتسلي مطلقاً تحقيق تقدم مع وجود حكومة إسرائيلية برئاسة شامير.

جفاء الأسد المائل

عقب اجتماعات منفصلة مع وزراء خارجية العربية السعودية ومصر وتونس توجهت بالطائرة إلى دمشق في ١١ نيسان لإبريل لمقابلة الأسد. واستغرق هذا الاجتماع خمس ساعات ونصف الساعة لم يدخله توقف إلا فترة الإفطار في رمضان. ولأنني أعرف أن الأسد أصعب مفارص عربي فلم أسع للحصول منه سوى علي القبول في البداية. وأبلغته «بأنه ليس المطلوب منكم الآن إنهاء حالة الحرب أو الاعتراف بإسرائيل، وأضفت قائلاً: «إن ما نود رؤيته من سوريا هو أن تلتزموا بالعملية وطلبت منه الإمساك عن انتقاد أي فلسطينيين يرغبون في التباحث مع إسرائيل والعمل لدى منظمة التحرير الفلسطينية للاعتماد قدر الإمكان. وإجمالاً فقد لردت للحصول علي موافقة الأسد علي المشاركة في المؤتمر الإقليمي. وأصفي الأسد في اهتمام إلي تخصيصي لرد فعل شامير. لكنه تجاهله تماماً مركزاً علي المؤتمر بدلاً من ذلك. وقال: إنه مستعد للمشاركة لكن فقط في حالة تلبية أربعة شروط. وأصر علي ما وصفه بأنه مؤتمر دولي. وأراد الحصول علي ضمانات بأن راعي المؤتمر سيضمنان كافة نتائج. وأنه يجب أن يبقى في حالة انقضاء لضمان إعطاء رخص للمفاوضات، وأضفت قائلاً: إنه لضمان أن المؤتمر لاكتسب ما وصفه مزاراً بأنه «شرعية دولية» وسلطة معنوية فلا بد من انعقاده تحت رعاية الأمم المتحدة.

وبدرجات متفاوتة شكلت ثلاثة من مطالبه الخاصة مشاكل لإسرائيل. لكنني أعتقد أن الحلول الوسط يمكن أن تصاغ بطريقة تكفل احتمال إقناع شامير بالموافقة عليها في نهاية الأمر. وفي الحقيقة فقد توصلنا إلي حل وسط خلال الاجتماع حول ما يمكن تسمية المؤتمر به. ورفض الأسد هي البداية تفصيل إسرائيل تسميته «بمؤتمر إقليمي» وقال: «إن هذا الوصف سيقلل من أهمية المؤتمر. لنطلق عليه الاسم اللوجب للذي يستحقه».

وتعامل بوجه جامد: هل هو مؤتمر تعليمي أو اقتصادي أو سينمائي؟ فلابد أن يطلق عليه اسم، وأبلغه أنني أفضل عبارة عصمت عبد المجيد وزير خارجية مصر بأن المؤتمر هو المؤتمر، وذكرته بأنه ليس هناك شيء يمكن أن يمنعه من وصف المؤتمر بأنه مؤتمر دولي أو يمنع إسرائيل كما أعرف من وصفه بأنه مؤتمر إقليمي. وأخيراً اقترح الأسد أنه طالما أن الاجتماع يرمى إلي تحقيق السلام، فلابد وأن يوصف بأنه مؤتمر سلام. ووافقت علي الاقتراح علي الفور. لأنه في واقع الأمر مؤتمر سيبدأ مفاوضات مباشرة حول السلام. أما شرطه الرابع بشأن إشراف الأمم المتحدة علي المؤتمر فقد كان خنجراً مشهوراً نحو قلب السلام. فإسرائيل كانت تنظر علي الدوام، ولها مبررها إلي الأمم المتحدة علي أنها عذر رهيب لا يكبحه سوى الفيديو الأمريكي في مجلس الأمن الدولي، ورسخ قرار الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ بمساواة الصهيونية بالانصرية وجهة النظر هذه، وكنت متيقناً تماماً من أن شامير لن يحضر مطلقاً أي مؤتمر يعقد تحت رعاية الأمم المتحدة أبداً كان ممعاه.

وحذرت قائلاً: أما عن قضية السلطة المعنوية لتواجد الأمم المتحدة فدعني أشير عليكم بما يلي كوسيط لا يمكننا إقناع إسرائيل بالمشاركة في مؤتمر دولي يعقد تحت رعاية الأمم المتحدة. إن هذه حقيقة مؤكدة لا يمكنني تجاوزها. وإذا أصروم علي ذلك فإنني أعرف أنني لا يمكنني أن أكفل نجاحه. ورد الأسد بدهاء: إذا كان قد تم توفير مظلة كافية من الأمم المتحدة لحرب الخليج. فلماذا لا توفر هذه المظلة للمؤتمر؟ وردت بالقول إن نواجد الأمم المتحدة لا يشكل مشكلة للولايات المتحدة، وقلت له في الحقيقة فقد رغبت في الضغط علي شامير للسماح بمشاركة الأمم المتحدة كمراقب. وأكدت مجدداً: إنه لا يسعنا التوصل إلي اتفاق لو كانت هناك مظلة من الأمم المتحدة.

واعتبرت مطالب الأسد في معطهما سئراً تجميئياً، واعتقدت أن هذه حجج من هو غير معنى حقيقة بإجراء حوار. وقلت للأسد: أين النقاط التي تثيرها هي مسائل تتعلق بالشكل لا بالجوهر. فالفصبة الحقيقية هنا ليست الاسم لذى سنطلقه علي المؤتمر. إنها قضية ما إذا كان الإسرائيليون والفلسطينيون والسوريون والأرثوذكس واللبانتيون قد قرروا أن الوقت قد حان لإقرار السلام. وإن يعرف ذلك مطلقاً إذا استمرت الأطراف بدون تبادل الحديث مع بعضها البعض. وروع الأسد للالتعاهف علي النقطة التي أثرتها بخطبة مطولة عن سبب امتناع

سوريا عن حضور مباحثات جنيف ١٩٧٣ . وهو مؤتمر إقليمي انعقد تحت رعاية الولايات المتحدة والسوفييت عقب حرب تشرين الأول أكتوبر في الشرق الأوسط .



وحاولت الصرب علي وتر الواقعية بالإشارة إلي أنه بالإصرار علي موقفه فسوف يمنح إسرائيل فرصة للرفض وتحميل دمشق المسؤولية . وقالت : « لا تقدم لهم عذراء لعدم المشاركة في مباحثات للسلام وأن يقولوا إنه خطأ العرب . ورفض الأسد للقبول تماماً دون أي استجابة للمنطق . وسألته وقد تصاعد إحباطي : ماذا يحتمل أن يخسره بالمحضور ؟ .

ورد : « سوف نخسر للرأي العام العربي . وعليهم أن يعرفوا ما يدور . فلن تكون هذه مقاومة بل ستكون شكلاً من أشكال الانسحاب . فلو أنها سياسة انتحارية تعود بالفائدة علي الشعب ما ترددت في انتحاجها لكن من العمالة البالغة انتحاجها إذا لم تكن هناك نتيجة إيجابية .

وفي النهاية اتفقا علي أن يدرس كل منا تعضلات الآخر وقت : السيد الرئيس . صميح أنكم لم تحطوا الأمر مستحيلاً . لكنكم جعلتموه بالغ الصعوبة . ونظاير بعدم التصديق وأكد : « لم يكن هذا قصدي . إنني أردت أن يكفل بالنجاح . لكن كان من الواضح أنه كان يريد نجاحه دون أن يقدم أي تنازلات من جانبه . وبينى وبينى نفسي لم أكن واثقاً تماماً من أننا سنستطيع تجلب اعتراضاته .

وتواكب إحباطي من الأسد مع صنيقي لحدث صرب آخر غير مرغوب من إسرائيل بالزعم خطأ أنني وافقت علي استبعاد فلسطيني القدس الشرقية من أي وفد فلسطيني . وفي طريقتي من دمشق إلي جنيف حيث اجتمعت مع طاهر المصري وزير خارجية الأردن . وممؤلي المجموعة الأوروبية وشيخون بيرير رئيس حزب العمل الإسرائيلي ، أملت رسالة إلي شامير من طائرتي وخاطبت للناحية الإيجابية ، وأبلغته بأنه في الوقت الذي كان فيه الأسد سعيماً حول قضية المؤتمر فقد وافق هو ولقادة العرب الآخرون علي تصور المسارين وشكل ما من أشكال المؤتمر علي الأقل .

وقلت في إشارة إلي التسرب: «إنني أريد تقادى الأنغام الأرضية. فلا تسلطوا عليها
المسره إن قدرتي على إنجاز المهمة تعتمد علي أن يحفظ الجميع في تصريحاتهم العلنية
حول القضايا للحصانة. وهذا هو السبب في أن التطبيقات العلنية لا تفيدينا في هذا الوقت. إنني
بالغ للجدية في محاولة تجنب قضية للقدس الشرقية. لكن في هذه المرحلة لا أستطيع مطلقاً
أن أقول إن أحداً من للقدس الشرقية إن يشارك في هذه العملية».

ولدي عودتي إلي واشنطن من جنيف في الثاني عشر من نيسان إبريل أحسنت أنني
أحرز تقدماً بطوناً. لكنني لم أشارك فريقى للرأى وساورتنى نفسى بأن العملية يحتمل أن
يقضي عليها، ومع كل الشروط التي تطرحها سوريا وإسرائيل فالهوة شاسعة بين الأطراف
إلي حد كبير.

وبعد عودتي إلي واشنطن تلقيت رد شامير علي رسالتي في الخامس عشر من نيسان
إبريل. وخط من عزيمتى أن أرى تمسكه بالشكل كالأسد. وقال في رده: «لأن المؤتمر
الإقليمي لن يكون هو الشكل الذى ستجري فيه مفاوضات السلام. فلا مسوغ لضمومه بأنه
مؤتمر سلام». وقال أيضاً: إن إسرائيل لن تقبل مطلقاً بمشاركة فلسطينيين من للقدس الشرقية
في أى وفد. إن هذا سيخلق وضعاً يستعصى للدفاع عنه. لأنه يمنع للقدس الشرقية علي
جدول الأعمال.

وبعد أربعة أيام من العمل في واشنطن واجتماع وزارى مع المجموعة الأوروبية في
لوكسمبرج عدت إلي إسرائيل في ١٨ نيسان إبريل. وفي اجتماع عقنته مع شامير اليوم
التالى أبلغته بأن الأمر استغرق جهداً مضنياً ومؤلاً لإقامة عملية تتواءم مع ما تشعر به
إسرائيل من قلق، وقدحان الوقت لكي يدرس الحلول للوسط. وقلت: لا يمكنى أن أتوصل إلي
اتفاق يقصر أعمال المؤتمر علي اجتماع واحد، لكن يمكنى للتوصل إلي اتفاق يوفر لكم
الحماية». فالمؤتمر لن تكون له صلاحيات أخذ الأصول أو اتخاذ قرارات أو فرض حلول
علي أى من المشاركين، وسيظل لإسرائيل الحق في الانسحاب في أى وقت تشاء.

وقلت: «إن ما أطلبه منكم أن تفعلوه أن تعطونى مرونة إجرائية كافية لإنجاز هذا. وإن
لم ينجح هذا فليضعنا في وضع نقى فيه النجمة علي العربة. ولم تكن هذه المرة الأخيرة

التي استخدم فيها هذا القول الذي يغيب أصله عن ذاكرتي. ومنذ البداية كان هو القوة الرئيسية التي أملاكها. وتخاصى شامير ومعاونوه عن بدائي. وبدلاً من ذلك راحوا يضعون باستمرار العقبات الإجرائية ونقاط الجدل وللتحفظات والقلق. وبدأ لي أنه لا نهاية لهذه الصراعات والممارسة المحسوبة للبليلة لكسب الوقت والتخلص من الخيارات الصعبة المطلوب اتخاذها. وبدأ صتيقي يحرّج لفضل ما لدى. فالآن قمت بتفصيل عملية بنيت أساساً علي مطالب إسرائيلية محددة، ولا يرضني عنها شامير. وأخيراً قلت: «إننا لم يمكننا مساعدتي فسوف أعود إلي الوطن».

تسارب في العقبة وردة في جعدة

وعقب لاجتماعي مع الفلسطينيين مرة أخرى قررت التوقف في الأردن، الذي كنت أتفادى زيارته في جولاتي السابقة بالمنطقة لعدم ارتياحنا لتأييده للعراق، وتوجهت إلي مدينة العقبة الساحلية علي البحر الأحمر حيث استضافني الملك حسين علي مأدبة غداء في قصره الصيفي. وتعود معرفتي بالملك إلي عهد بعيد. كما أنه صديق مقرب للرئيس بوش. ففي أوائل عام ١٩٧٧ وبعد عودتي أنا وجورج بوش إلي هيوستون عقب انتخاب جيمي كارتر حل الملك حسين ضيف شرف علي مأدبة غشاء في منزل بوش، وباربرا بوش، وجعلت علاقتهما الشخصية القوية التي توصلت نحو عشرين عاماً من تأييد الملك لصدام حسين خلال الحرب خيانة شخصية سببت ألياً هائلاً للرئيس. وكانت هذه العلاقة سبباً في إثارة غضب غير عادي لدي رجل يفصل تهرئة الصديق والعدو لو لم تتوهر أسلحة الإذانة. فلزال الرئيس يشعر بغضب عارم من الملك حسين لدرجة دفعته إلي رفض عدة طلبات من الملك حسين للاجتماع معه. كنت ما أزال مكرراً. لكننا كنا ندرك أنه إن تكون هناك عملية سلام بدون مشاركة فعالة من الأردن. وبشكل خاص سيكون الملك حاسماً في إقناع الفلسطينيين بالتقدم إلي مائدة المفاوضات.

وكنا نعرف أيضاً أن الولايات المتحدة تملك الآن قوة ملحوظة لممارستها. فالملك يشعر بأنه أكثر أماناً علي عرشه المحفوف بالمخاطر مع المساعدة الأمريكية. فضلاً عن ذلك فإن

الاقتصاد الأردني يجتاز فترة عصبية. كما أن معاوله السعوديين السابقين كانوا أكثر غصبا منه عنا. وبدأت ديونه الخارجية تتزايد. ويقوم أكثر من ثلاثمائة ألف فلسطيني في محبمات في بلاده في أعقاب الحرب يستنزفون من خزانته المذهبة. وببساطة فإن الملك محطم، ويريد مساعده أمريكية لإقناع معاوله في الرياض لإنتقاذه من عثرته. كانت كل تلك الأسباب العملية تدعو إلي الاعتقاد بأن الملك سيكون مستعداً لعمل أي شيء لإنهاء عزله السياسية وإصلاح علاقته مع الولايات المتحدة.

والملك رجل بالغ الرقة، ورحب بي بحرارة في قصره المطل علي البحر، وفيما كان مرافقونا يتبادلون للحيات للمألوفة قبل الغداء راودت نفسي بأن هاهنا أناسا يرموننا بأنهم لم يصدروا وكان شيئاً لم يكن. وكان اهتمامي منصباً علي تعزيزك عملية السلام. لذا فقد أردت أن يعرف الملك أننا مستعدون للتحرك خطوة خطوة حتي نصلح وبني الماضي، لكن فقط إذا شارك الأردن بفعالية في مبادرة السلام الأمريكية. وبترتيب مسبق أمنت معه ربع الساعة قبل الغداء علي انفراد لشرح هذا الواقع الجديد وتحديد الإطار العام لشروط التوصل إلي مصالحة نهائية.

وطالب مني الملك: أرجو إبلاغ أطيب تمنياتي إلي للرئيس. وقت سأنتقلها جلالكم، لكنني في حاجة لأن تعرفوا أن الأمر مستغرق مجهوداً شاقاً لإصلاح علاقات الأردن مع الولايات المتحدة. فمن الصعب فهم بعض ما قيل.

«إنني لا أريد للتطرق إلي ما يقسمنا. إنني هنا في محاولة لمعرفة ما إذا كان بوسعنا التحرك نحو السلام. لكن تجب الإشارة إلي أن هناك مشاعر صقيق شديد في الولايات المتحدة، وأمل أن نستطيع تجاوز هذا لكن الأمر سوف يستغرق بعض الوقت». وقلت له أيضاً: «إنه ورغم خلافاتنا سوف نبذل ما بوسعنا لمساعدته في إصلاح أموره مع السعوديين».

وأراني الملك صور بعض أحدث العناد الذي ضبط مع الإرهابيين الذين دخلوا الأردن لقطه. وقال لي أيضاً أنه ملتزم بالسلام وتحسين علاقاته المتوترة مع واشنطن. ولم يبذل أي محاولة حقيقية لتبرير تأييده لصلام. ومع ذلك فقد أفاض في الحديث لتبرير نصرته أثناء الحرب، ولم يكن حديثه مقنعاً لوفدنا بالمرة. وفي إحدى اللحظات زعم أن صدام يفكر في

إقامة نظام سياسي أكثر ديمقراطية . ونوهت في برقيتي إلي الرئيس : «إنني أعتقد أن العادلات القديمة تموت بعد نضال مريره . لكنني أبلغته أيضاً أنني وجدت أن الاجتماع مشجع للغاية .

ومع بداية العشاء كان من الواضح أن الملك فهم المعزي . فالنسبة لنا حتي نساعد الآل فطيه الاستجابة لشروطنا . وبسرعة بالغة ولفق علي حضور المؤتمر ، وأعلن أن الأردن سوف تشارك حتي لو غابت سوريا (وهو ما كنت أشعر في ذلك الوقت أنه أمر غير مرجح) . ووافق أيضاً من حيث المبدأ علي فكرة شامير بتشكيل وفد أردني فلسطيني مشترك ، وأقر أيضاً بالحل الوسط الذي اقترحه بمنح صفة مراقب للأمم المتحدة ، وتهدد بإبلاغ منظمة التحرير الفلسطينية بالابتعاد قدر الإمكان ، وأن يشجع الفلسطينيين علي استمرار الالتزام بعملية السلام . وطلبت منه أن يقول أمام الصحافة شيئاً ما عن تعطيل الدابوهات وقد فعل ، وأخطأ التفريق الصحلي المرافق لي رصد آثار نصريجه . لكنني انتهزت الفرصة عندما اتصلت بشامير هاتفياً قبل مغادرة العقبة بأى آراء الملك أقرب إلي آرائه من الأسد .



ومع نهاية اليوم أرسلت موجزاً إلي الرئيس : «لدىّ بصيص أمل في قدرتنا علي معالجة القضايا الرئيسية عقب اجتماعات اليوم يفوق ما كان لدىّ أمس . لكنني أعتقد أن مفتاح دبلوماسية معالجة القضية بين الفلسطينيين والإسرائيليين يكمن في الاعتراف بأنه سيكون هناك صعود وهبوط وعلياً أن نتحرك تبعاً لذلك . إننا لا نتعامل فقط مع مخاوف تمويل في الغالب إلي محاصرة الآمال . بل أيضاً مع تردد هائل في الإقدام علي التعهد بالتزامات محددة . وأفضل طريق للتعامل مع الأمر هو بحث الجميع نحو المزيد من الواقعية .»

وفي ٢١ نيسان إيدل عدت للقائه مبارك في القاهرة لألتزم بمساعدته مع السوريين والمصريين . وقلت : «إننا في مرحلة لا نستطيع فيها عمل أي شيء من دون أن تقدم الحكومات العربية علي اتخاذ قرارات . إنني في حاجة إلي مساعدتك ومساعدة الملك فهد .»

إنني أريد المساعدة لإقناع منظمة التحرير الفلسطينية - فبوسعكما أن تطلبا من عرفات عدم عرقلة هذه العملية.

وطمأنني مبارك بقوله: «إن الفلسطينيين يدركون أن هذا هو السبيل الوحيد إنهم يفهمونها».

وكدأبه كان مبارك سخياً بمرجه المساعدة في إقناع من أسامهم بالأشقاء وعرض الاتصال بشامير وإبلاغه بأن استمرار مؤتمر الأمم المتحدة لن يلحق أى ضرر بإسرائيل.

وتطوع بوضع طائرته الخاصة تحت تصرف مدير مكتبه للشؤون السياسية إسامة البار حتي يتمكن من زيارة الأسد والملك حسين علي الفور. وعرضت عليه مشروع بيان تأييد أمليت إن يصدره الملك فهد. وحذر من أن البيان سيخيف السعوديين. فحالف عملية السلام مع السادات فوجهت إلي الحرية السعودية أربع عشرة مرة. ولا أعتقد أنهم سيقولون هذا الكلام. ولم يكن هذا ما أمليت في أن أسمع، وكان مبارك حتي الآن هو الزعيم العربي الوحيد للمضي بما هو أكثر من الكلام للمنطق.

ورسلت إلي جدة في وقت لاحق من اليوم للقاء مع الأمير سعود قبل الاجتماع مع الملك فهد، وأبلغني سعود أنه في الوقت الذي تؤيد فيه بلاده الجهود الأمريكية فإن يكون من المناسب لها المشاركة في مؤتمر سلام. وهالتي ما سمعت. وحتى وفقاً لمعايير التحفظ السعودي التقليدي كان مثل هذا العرض دافعا لحبس الأنفاس في ضوء ماقطنه للولايات المتحدة لقولها للمملكة.

وفي اجتماع عقد في ساعة متأخرة مساء كالعمداد كان الملك ودودا للغاية كسابق عهده. لكن مرواغته برقة تعد نذكارا باللزعة السعودية التقليدية بالابتعاد عن المجازفة - وطلبت منه أن يصدر بياناً معديلاً تأييداً للسلام حتي يمكنني استخدامه لإلزام شامير جانب الدفاع. وتعلل بعدة اعتذارات عن عدم رغبته في إلهاب للرأي العام العربي. ونكرت الملك قائلاً: «لنا شركاؤكم. إننا نعمل هذا من أجلكم. ونريدكم أن تفقوا معنا. فكيف يتسني أن نكون شركاء في الحرب ولكن ليس في السلام؟. فإذا لم يصحكم عمل ذلك فماذا سأقول لصديقكم جورج بوش؟».

ورد الملك: «أبلغه بأننى صديقه. لكننا سنبحث الأمر ثم نرد عليكم». وفى النهاية تعهد الملك بأن ييخذل مساعيه لدى السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية. بل وحتى لدى شقيقه فى وقت ما الملك حسين. وأصدر السعوديون فى وقت لاحق بياناً معتذراً يوافق على المبادرة الأمريكية، ويؤيد فكرة عقد مؤتمر، ولقد كان هذا البيان أفضل من بياناتهم العامة المذهانة لكنه مختلف بحطوات عن للتقدم للحقيقى نحو الأمام. وسيتعين تشجيع الملك فهد لتقديم شيء ينطوى على أثر حقيقى. ومع ذلك فقد قدم هذا الشيء فى النهاية. وما كان يتيسر للشروع اليوم فى عملية سلام لولا للقرارات للشجاعة التى اتخذها الملك فهد والرئيس مبارك.



وعكست برفيئى إلى الرئيس عدم سعادتى فى تلك اللحظة. وكذبت له قائلاً: «برغم بياناتهم بدأ السعوديون فى العودة إلى سابق عهدهم، وبرغم تعهدهم السابق فلم يقدموا لنا شيئاً نعمل به مع إسرائيل. إننى أخشى من أن إيلاع إسرائيل بحدوث تغيير فى العالم العربى قد لا يحدث له صدى فى اليلة. لقد أبدت عدم لرتياهى للملك. وأرى أن عدم ارتياهى سوف يدفعه لهنل المزيد».

وأعاد إلى هذا التحول المثير للاضطراب الدور الأساسى للأمير بندر سفير السعودية لدى واشنطن. وباعتباره ابن أخ الملك فهد حظى بندر بنفوذ غور عادى لدى عمه. وقد تلقى تعليمه فى الولايات المتحدة وبملاك باصية للغة الإنجليزية، ولديه دراية واسعة بالنفسية الأمريكية أيضاً. كما يتمتع بدكاء خارق، وهو أكثر مستشارى الملك فهد المقربين منه.

وقبل كل زيارتى السابقة إلى العربية السعودية كان الأمير بندر يعود إلى بلده لإطلاع الملك فهد قبل وصولى. وكانت قدراته فى الإقناع حاسمة فى كثير من الأحوال. ومع هذا فلم أستطع الاستفادة من حذماته فى هذه الزيارة، فقد كان وهو الطيار السابق فى القوات الجوية السعودية قد اضطر للهبوط اضطرارياً بطائرته من طراز إف ٥ عام ١٩٧٧ مما تسبب فى إصابته بآلام مستديمة فى ظهره، ولشجبت عليه الآلام، واضطر لقضاء فترة نقاهة لمدة أسابيع فى الشاليه الخاص بوالده بالقرب من جنيف.

ولعدة أيام قبل وصولي إلي العربية السعودية تركت عدة رسائل لبتدر لم يرد عليها مطلقاً. وكانت آخر رسائلني تهدف لفت انتباهه: «أرجو إيلاخ الأمير بتدر أنني اتصل به بمجرد للسؤال عن أحواله. إني أعاني الأمرين هذا بينما هو جالس في شاليهه الملكي. أتمني أن يقضى أوقاتاً طيبة. سوف اتصل به لادي وصولي إلي قل لبيب».

وأراد بتدر أن يذكرني بأن الدبلوماسية السعودية غير متهورة، واتضح لي أن غيابه يشجع وزراء الملك فهد الأكثر تحفظاً. كان السبب هو ألام ظهره وما إلي ذلك. فقد كان لابد وأن يمارس الصنط عليه للانضمام إلي المناظرة إذا ما كان للملك فهد أن يرد علي شجاعة رئيس الولايات المتحدة قبل شهرين فقط.

دبلوماسية المفاتنة

في ٢٣ نيسان إبريل اجتمعت مع الأسد مرة أخرى في دمشق. وبدون شك كانت هذه أصعب وأثقل مفاوضات أجريها علي الإطلاق. وجعلت من مفاوضاتي المصولة للحد من التسلم تبدو بالغة اليسر. واستغرق الاجتماع تسع ساعات ومنا وأربعين دقيقة دون انقطاع في غرفة خائفة لا نطاق لا يسرى فيها سوى اللذر لليسر من الهواء المكيف، بلوافد مخلفة ولقية من الرصاص نعلفها ستائر سميكة زيتونية اللون. وصيفاً الأسد بتقديم القهوة التركية الثقيلة وعصير الليمون شديد الحلاوة غير المثلج الذي شربت منه كميات غريزة بسبب شدة الحرارة. وبعد مرور ست ساعات علي بدء الاجتماع ألح نداء الطبيعة علي السفير إدوارد جيرجيان، وفيما أسهب الأسد في حديثه المطول الأثير معلنأ شرور اتفاقية سايكس بيكو بلغ الموقف حداً حرجاً. وكتب جيرجيان رسالة بخط منمكش ينكرني بإثارة قضية سياسية معينة لم تثر حتي الآن. وقال فيها: «وبالطبع فإن الوقت ملائم لك الآن للذهاب إلي دورة المياه». كانت كليتيان يعملان بنشاط يستحصى تصويره. لذا فقد أشرت له بالفروج. كانت نظره الكرب الباندية علي وجهه بالغة الدلالة، ولوماً إلي وزير للحارجية السوري بأنه يحتاج إلي إجراء مكاملة عاجلة مهمة، وأثناء غيابه كشفت طبيعة مهمة جيرجيان: «قلت؛ السيد الرئيس

لك أن تتعجب لماذا ذهب السفير إلي دورة المياه لإجراء مكالمة هاتفية مهمة. وانفجر الأسد في الضحك. ولدي عربة جيبجيان تظهرنا بأننا لا نعرف شيئا.

وبعد ساعة أو أكثر سحبت متديلاً أبيض اللون راوحت به للأسد. وأعلنت «استسلامي على أن أذهب إلي الحمام». وهكذا تحت الوصف الذي سأطل أطلقه دائماً علي مباحثاتي ثلاث وستين ساعة مع الأسد «دبلوماسية المثانة».



كان للتفاوض مع الأسد بشكل دائماً مباراة لأقصى درجات التحمل مما يستدعي الانتباه لتقارير الصحافات التي تتواتر باستمرار عن سوء حالته الصحية. فالأسد صاحب عزيمة شديدة الصلابة. كنا نجلس دوماً متجاورين علي مقعدين كبيرين وليرين يشعراني بأنني أبعد كالقزم والأسد يشبه أبو الهول. فقدماء ملتصقان بالأرض، وركبتاه مضمومتان، ويداه محفودتان في حجره، ولا يغير هذا الوضع علي الإطلاق، وكما كنت في حاجة دائماً لإجراء مساج عقب كل لقاء معه حيث كان النظر إلي يساري بزواوية تسعين درجة يصيب رقبتي بالتشنج، وبات مرة عندما ذكرت هذا الأمر للرئيس مبارك انطلقت ضحكته الأثيرة وقال إنه طالما حدث الأسد - دون جدوي - علي تغيير وضع المقعدين حتي يواجه كل منهما الآخر. لكن الأسد علي الجانب الآخر لم يبد أنني قدر من عدم الارتياح. ويبدو أنه يستسيغ هذه الجلسات السجدة وهي حالة تقليدية لمحاولة للفوز عن طريق الإجهاد.

وفي هذا الاجتماع لم تثن الأسد قناة في مطلبين كنت واثقاً أن شامير لن يقبلهما. فقد أصر علي «مشاركة كاملة، للأمم المتحدة بحضور كافة أعضاء مجلس الأمن، وكذلك استمرار انعقاد المؤتمر - أي مؤتمر في حالة انعقاد دائم».

وفي بداية الاجتماع عرضت اقتراحاً يمكن وصفه بإنصاف أنه اقتراح مهم من حيث مده. وأبلغت الأسد بأنه استجابة لإصراره السابق بأن يضمن راعياً المؤتمر كافة تفاصيله فإنني علي استعداد لدراسة فكرة قطع تمهد رسمي أمريكي يضمن أمن الحدود السرية

الإسرائيلية في مرتفعات الجولان- وأوضحت أنه لا يمكن تقديم هذا الالتزام إلا بعد تفاوض سوريا وإسرائيل على سلام كامل وشامل.

وأبقتى النظرة البادية علي وجهه أن الاقتراح فاجأه واستحوذ علي اهتمامه. وممنيت إلى القول أنه سيكون مضيق للوقت بالنسبة لي أن أبحث هذه الفكرة مع الرئيس ما لم يكن مستعداً لإسقاط إعتراضية علي شكلوات المؤتمر وقلت: هلست مستعداً حتي لإثارة الموضوع مع الرئيس ما لم تكن مستعداً للتحلي عن هذين للشئين.



واعتُرف بأن هذا الوضع ما هو إلا محض أسلوب تفاوضي، وفي الحقيقة فقد ناقشت هذا الأمر مع الرئيس وسكوكروفت عقب اجتماعي مع الأسد. وكانت فكرتنا عن ضمان الحدود تتمثل في عرض شمرز قوات حفظ سلام أمريكية في منطقة عارلة في الجولان لضمان أمن الحدود بين إسرائيل وسوريا. وهذا هو الضمان الأمني النهائي. وفي المقام الأول أثبتت حرب الخليج أن التكنولوجيا العسكرية الأمريكية هي مسطرة العالم. وسوف يحتاج مثل هذا الجهد الدبلوماسي والعسكري موافقة الكونجرس. لكننا كنا نشعر أن معظم أنصار إسرائيل في الكونجرس سوف يرحبون بمثل هذه المشاركة الأمريكية المباشرة إذا أمكن أن تصبح محوراً لسلام آمن بين إسرائيل ولقد جيرانها العرب.

وقد أثبت شكل آخر للفكرة نجاحه من قبل. حيث كان عنصراً أساسياً لاتفاقيات السلام بين إسرائيل ومصر، وتواصل القوات الأمريكية الخدمة في سيناء من دون حوادث منذ أكثر من خمسة عشر عاماً بعد التوصل للاتفاق. وكان رأينا أن الجانب الأكبر من المؤسسة السياسية في إسرائيل قد سئم من كون إسرائيل بلد يعيش حالة حرب أبدية، وأن إسرائيل لن تنعم بسلام كامل حتي تحقق السلام الشامل مع سوريا.

وقلت للأسد: «انظر إن يمكنك مطلقاً حمل إسرائيل علي الانسحاب من الجولان ما لم نصنع أمداً. إن هذه قضية أمنية وليست بالقضية الأيديولوجية في إسرائيل. فالأمم المتحدة

لا نحظى بالثقة في إسرائيل لكن الولايات المتحدة هي التي تحظى بهذه الثقة. وربما كان هذا هو الطريق الوحيد لحمل إسرائيل علي التفكير في الانسحاب

واستطردت قائلاً: «إننا كان لنا أن نحرز تقدماً في هذه القضية عليك أن تقدم لي شيئاً أعمل به». ورد الأسد بالقول: «إن الأشواك الملقاة علي الطريق هي أشواك إسرائيلية لا عربية».

وقلت: «لقد أمضيت أكثر من ست وثلاثين ساعة محكم ووجدت نفسي أقول نعم بالعربية لئلاكم بالعربية أيضاً، ورد الأسد بالترجمة: «إنيك تتعلم العربية هذا شيء طيب».

وواصل الأسد جدله مثيراً مطالب مطحونة كنت أدرك أنها غير واقعية بالمرّة. ورحلت أتمس شيئاً مماثلاً قد يضطره إلي العودة إلي عالم الواقع. وأخيراً قلت بدون تفكير: السيد الرئيس حسناً. أنتم تعرفون وكما نقول نحن في تكساس أنه لو كان للمنشدع أجنحة لما حاك مؤخرته بالأرض.

وأصاب الذعر جيرجان لدرجة غمس معها يده دون أن يدري في سلطانية المشبهات* التي قدمت لنا للتصلي بها أثناء الاجتماع الطويل. ونظر جمال هلال إليّ وقد تملكه رعب هائل. وقال: «لا يمكنني أن أترجم هذا إلي الإنجليزية، فما بالك بالعربية، وأصيب الأسد بحيرة شديدة وتساءل ماذا يعنى هذا؟ ماذا يعنى هذا؟ وقلت: «إدوارد. اعتقد أن هذا صعب علي الترجمة، ورد جرجيان السيد للوزير اعتقد أنه لا يمكن ترجمته». وفكرت لبرهة ثم عدلت صيغة كلامي وقلت للأسد «لقد ذُكرتُ بما كانت تقوله أمي وأنا شاب، لو لم يتوقف الكلب عن الجري لاسطاد الأرنب، وكنت علي ثقة تامة من أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عما نتحدث.

وقلت: «السيد الرئيس. إننا في حاجة إلي اتفاق يتسم بالواقعية. لقد قدمت لي أربع نقاط لمعالجتها. وانتهيت بالفعل من معالجة إثنين منها وإنني أعمل للتعامل جزئياً مع النقطتين الباقيتين». ورواها الأسد قائلاً: «إنني أفس مدي قوة تصميمكم».

* المشبهات الشامية مصنوعة من العنبر وريت العنبر والقرم مختلف إياها القرم.

وقلت: لا يفصل بين أصبعي السجاية والابهام سوى بوصة. يمكننا أن نستغرق عشر سنوات أو خمسين أو مئة عام أخرى في معالجة القضية لكنكم تهدرون فرصة طيبة. إنكم لم تقطعوا شوطاً كبيراً، ولا يمكنني أن أستمع في التجوال، علينا في لحظة من اللحظات أن نعتبركم داخل العملية أو خارجها وهذا قراركم، لا قرارى. إننى أريدكم داخل العملية ولا يمكنني أن أحدد كيف يمكنكم أن تدعو هذه العملية تسيره.

ورد الأسد: لم كنت مكانى لما كنت أكثر مرونة على الآراء.

وحاولت احتواء إحساسى المتزايد بالضغط وشكوت: السيد الرئيس إنكم لم تفعلوا لى أى مرونة.

ورد قائلاً: إن الأرض عنصر مهم. إنها تمثل عنصر الكرامة والشرف فالرجل لا يختار لدخول الجنة ما لم يستطع أن يفعل ذلك بشرف. إننا لا نريد أحداً أن يقول إننا تخلينا عما كنا نطالب به على مدى عشرين عاماً.

ولخصت من الرد على كلامه المخرج بالقول «بوسبك للتحدث لعشرين عاماً أخرى بما نتحدث به عن الأرض وسوف يستمر الموقف فى التدهور. إن طبيعة المفاوضات وخلق عملية سلام هما المجالان اللذان يتعين علي الجميع أن يتحركوا فيهما بعض الشيء، إننى أكن كل تقدير واحترام لكليتكما الحديديتين، لكنكم للوحيد الذى لم يتحرك قيد أنملة،

وقال: «إننا نبغى التوصل إلى حل وسط بين الرعاية الكاملة من الأمم المتحدة للمؤتمر كما تريد سوريا وبين عدم مشاركة الأمم المتحدة كما تريد إسرائيل، ومنضلت عليه للموافقة على مقابل بسيط: إننى سأطلب من الرئيس الموافقة على الضمانات الأمنية. لكن فقط إذا أبليتمنى بأن هاتين القصبتين أن تملحاً على المائدة. وقبل أن أُنسى فدمعاً فأننى فى حاجة لكى أعرف أنه لو عدت حاملاً للموافقة فسوف تساعدونى على عقد المؤتمر. وقال: «بصراحة لا يمكنني أن أعطىكم إجابة قبل التشاور مع أجهزة الحزب والجبهة القومية اللدنية وسوف نبذل قصارى جهننا».



كان هذا كما أعلم هو الزفص النهائي. فليس هناك أحد في الجمهورية العربية السورية يحتاج الأسد لمشاورته سوى الأسد نفسه. وخلصت بجنة وأنا أعلق حقيبتى بسفك للتأكد من إدراك الأسد لمدي ضيقى: «ليكن دعنا ننصرف عنه».

وقبل أن أغادر الغرفة قورت إثارة المخاطر أمام الأسد. وقلت كان الجميع يبنغوننى أنك أدهى وأذكى رعيم فى الشرق الأوسط. وقد أوجت لى مباحثاتى معكم بذلك. لكن على أن أعترف بأننى أمضيت وقتاً سعيأ فى فهم لماذا أو كيف ستهدر الفرصة حتى وإن كانت منصفة لتحقيق الانسحاب الإسرائيلى من للجولان من أجل شروط إجرائية إن تؤثر أو تضمن تحقيق نتائج.

«لقد استمعت حقيقة بمباحثاتى هذا، وكانت محاوراتنا شيقة للغاية، فلو حصلت على الإجابات الصواب منكم على هاتين القضيتين فسوف أعود إلى دمشق، ولو حصلت على الإجابات الخاطئة فلا أتوقع أن أراك مرة ثانية لفترة طويلة». والحقيقة أن إحساسى قاذنى لى الاعتقاد بأن الأسد سوف يتحرك، وأنه ببساطة ينتظر ليرى نتيجة لقائى مع شامير يوم الجمعة. لكننى أردت التيقن من أنه فهم أن الكرة فى ملعبه. وأسوء الحظ عندما التقيت مع شامير مرة ثانية فى ٢٦ نيسان إبريل كان من الواضح أن الإسرائيليين أصبحوا أكثر لا أقل تصلباً. فلم يكونوا أشد تصلباً فى رفضهم لشكليات المؤتمر فحسب. بل أثاروا عقبات جديدة محتملة على الطريق. والآن تيقنت من صواب كويسيجور بأن هذا أسلوب معتاد. وسوف يعلن شامير موقفاً غير قابل للتفاوض يوصف فى البيانات الإسرائيلية بأنه «خط أحمر» ثم يصنعون الألغام عشرة أميال أمام هذا الخط. وأبئننى شامير الآن بأن إسرائيل لن تكون سعيدة لغياب السعوديين عن المؤتمر. ونذكرت لئننى حذرت الملك فهد من أن رفضه المشاركة سيقدم للإسرائيليين حذراً مقنعاً مزيد من اللباطط. وكالمترقب يقول الإسرائيليون الآن إن المؤتمر بدون السعوديين لا يشكل أهمية.

وبعد ساعة أو أكثر من الجدل تزايد لهاباطى من شامير. ونكرته قائلاً: «إننى أصعب الآن هيكل اجتماع يبنى مطلبانكم بشأن منظمة التحرير الفلسطينية بشروط تعكس مراحل كامب ديفيد. إننا نلبنى كل تلك الأمور وأنتم تقولون إن الأطراف لا يمكنها أن تجتمع ثانية حتى عندما يكون لكم الحق فى استخدام الفيتو على عودة المؤتمر للانعقاد. ولا بد أن أبلفكم أننى

أشعر بخيبة أمل بالغة. إننى أجهد نفسي ولا أجد تطوراً مذكم. لقد انتهيت. إننى أقول لكم إنه ما من أحد عمل بجد ويمسقة من ألكم مثلى».

وقال شامير: «أنتم تعملون بكل طاقكم. إننى أعترف بذلك لكنه لا يقينا نحن فقط. فما هي حاجتنا في ذلك؟» وقالت: «إن وجود الأمم المتحدة كمراقب مجرد وجود رمزي لا يكلف إسرائيل شيئاً ورد شامير: «لا يمكننى أن أقبل مشاركة الأمم المتحدة إنها مشكلة». وذكرت شامير بأننى تركت له ثلاثة أسئلة وقالت: «إن كل ما حصلت عليه هو لامين، واحتمال بمشاركة المجموعة الأوروبية. لقد جئت لأقول: «إننى كنت عارفاً أساساً عن السجىء إلى هنا مرة ثانية». واقترح شامير: «حسناً، عولك أن تفكر فيه ملياً وتمدد كيف يمكننا رأب الهوة،» وقالت مراوغة: فى الرد عليه. «إنك فى حاجة إلى التفكير فيه بعناية».



وكمر نوتر الأمظة حدوث تطور غير متوقع فقد استدعيت من الغرفة وأبلغتنى سوزان أن والدتى قد توفيت فى منزلها بهيوستون عن عمر يناهز السابعة والتسعين. واستدعيت الدبا بمزيج من الأسف ولحماس بالذنب لابن ابعد كلياً عن المنزل لسنوات، وكم اندابها للرصع لمودتنا إلى واشنطن عام ١٩٨٠ وكم افقدتنا كثيراً، وخاصة مع ضيف حالنها للصحية، وفى كل مرة كنت أتركها كان ضلعها يغمرنى بإساس مضيق بأن هذه هي المرة الأخيرة التى أراها فيها. ويرغم أنها عاشت حياة رائعة كما كان يحلو لها أن تقول دائماً. فقد كان من الصعب تقبل حقيقة أنها قد ماتت. وأبلغت شامير بأنه يجب على أنا أغادر على الفور. كان شامير كريماً فى تقديم ما يمكن أن أصفه حقيقة بأنه تعزية من القلب.

واسترج حزنى على موت أمى. بل وربما تفاقم من عدم ارتياحى بسبب تصليب رئيس الوزراء الإسرائيلى، وفى طريقى إلى المطار إستشرت خيبة أملى. وتوعنت أمام دينيس روس: «سوف أحمله للعبة ونصبح روس: علينا ألا نتصرع فى الحكم لئلا يكون سيكون ردهم. كانت نصيحة حكومة. لكننى أعترف بأننى كنت أغادر عائداً إلى الوطن فى حالة قوط بالبح أفقتى إيمانى فى مصداقية شامير».

وربما بسبب حالتي النفسية المتأزمة بحث لي روس بمنكرة في الثلاثين من نيسان لإبريل تشديد إلي توجه إيجابي وقال: «ببعض الطرق فإننا بالفعل نقرب من جمع الأمور». وأعترف بوجود خلافات ضخمة بين إسرائيل وسوريا حول القضيةين الأخريين. لكنه ذكرني بأنني وشامير بحثنا صيغة حول أصعب القضايا وهي قضية القدس الشرقية. ووافقت الولايات المتحدة علي عدم تضمين سكان القدس الشرقية في الجانب الفلسطيني من الوفد المشترك. وفي المقابل تعهدت إسرائيل علي عدم الاعتراض علي أي عضو في الجانب الأردني من الوفد يحمل جواز سفر أردني حتى لو تصانف أن يكون قد ولد أو نشأ في القدس الشرقية. ومع ذلك يمين التأكد من أن هذا الحل للوسط الجاد سيكون مقبولاً من الفلسطينيين.

وفي ٣ أيار مايو بعد يومين من عودتي إلي واشنطن بعد جنازة والدتي اتصل بي جيري هان بأن الأسد قد استلم في اللقطتين الشائكتين اللتين ألقينا في اجتماعنا السابق. فعلي حد قول وزير خارجيته أصبح الأسد مستعداً لقبول أي تسوية وسط حول وضع الأمم المتحدة كمراقب وعودة المؤتمر للانمقاد باتفاق المشاركين، وغمرتني بهجة شديدة. فقد بات لدي الآن قوة جديدة تمكنني من تمديد كافة الأطراف الأخرى وخاصة إسرائيل والسعوديين لإظهار مرونة مماثلة.

ظهر السعوديين يقوى

جعل هذا الانفراج مع الأسد من رفض السعوديين المشاركة بأي طريقة في مؤتمر للسلام أمراً مزعجاً. فظل المحتلون العرب علي الهمال فبوسع شامير الإدعاء عن حق أن المواقف العربية لم تخبر حقيقة، وسيزيد هذا من عزوفه في الاعتماد عن طاولة السلام. وبدا الموقف السعودي قصير النظر بالنسبة لي، ونتيجة لحفظهم بدأ سخط للكونجرس يتزايد حول فوائد عاصفة الصحراء. ومسلحاً بهذا الواقع قام ديتريش روس بزيارة الأمير بندر في منزله الفاخر بمناحى فيرجينيا، ودفع روس بأنه إن لم يحركهم سبب آخر سوي مصالحهم الخاصة فيجب علي المملكة أن توجه بادرة علي الأقل نحو السلام. ولقد ترحب أن يوفد السعوديون ممثلاً

عن مجلس التعاون الخليجي للمشاركة فى المؤتمر كمراتب. وعندما علمت بالفكرة فيما بعد من دينيس روس اعتقدت أنه طريق ساذج للتغلب على التحفظ السعودى القطرى. وسوف يوفر إيفاد ممثل لمجلس التعاون الخليجى الذى يضم ست دول خليجية للملك فهد ستار حماية تجاه أشد رعاياه تشدداً. وعلى العكس، وحيث إن السعودية هي القوة السهيمنة على المجلس يمكننى الدفع لذي الإسرائيليين بأن السعوديين يشاركون فى العملية بالفعل. وراقت الفكرة لبندر ووافق علي ترويجها بقوة لدي الملك فهد ومع من تأب علي وصفهم بشيء من الإحباط. بذور التفكير العميق، فى وزارة الخارجية.

وفى ٧ أيار مايو اجتمعت أنا والرئيس مع بندر فى البيت الأبيض لطلب منه رسمياً نقل طلبنا إلي الملك فهد. وطلبنا منه أيضاً أن يطلب من الملك أن يعن أن الحرية السعودية ستشارك فى مجموعات العمل متعددة الأطراف حول القضايا الإقليمية مثل المياه والحد من التصالح بعد أن يبدأ عمل مجموعات العمل السياسية. ومن المهم أيضاً أن يعن الملك علانية أنه سيقف حالة الحرب مع إسرائيل مقابل وقف إسرائيل للنشاط الاستيطاني. وقال الرئيس: «علينا حمل العربية السعودية علي التحرك فمناه. وقال بندر إنه سيتوجه إلي الوطن هذه الليلة. ووعده قائلاً: «سأبذل قصاري جهدي، وطلب منى فى حديث خاص ألا يساورنى القلق. وقال: «استرخ سوف نصل إلي شيء ما».

وبعد ثلاثة أيام أعلن السعوديون أن مجلس التعاون الخليجى سيشارك فى جلسة افتتاح مؤتمر السلام. والأهم أن السعوديين سوف يشاركون فى لمباحثات متعددة الأطراف. كان تطوراً مذهلاً. نفذ وفاق خادم الحرمين الشريفين أن ينضم للآخرين فى نفس الغرفة التى يجلس فيها الإسرائيليون. وفى البداية رفضت الدول للغمس الأخرى الأعضاء فى مجلس التعاون الخليجى للمشاركة فى المؤتمر. لكننى علمت فى وقت لاحق أن الملك فهد أيقظ حكام تلك الدول فى الساعة الثانية فجراً للحصول علي موافقتهم شخصياً. ووافق الملك فهد وبندر علي اثنين من طلباتنا الثلاثة: وما هو قطب عربى آخر قد انضم إلي الخط. وسوف تعزز مشاركة السعوديين الضغوط الآن علي الأردن وسوريا للقبول. وفى اليوم التالى ١١ أيار مايو غادرت متوجهاً إلي المنطقة فى الجولة الرابعة منذ إنهاء حرب الخليج. وخلال الخمسة عشر يوماً منذ مغادرة إسرائيل حدث تحول هائل فى المعنويات. كانت الحالة للمعوية علي الطائرة

في غاية الارتفاع. فالمساومة الشاقة تنتظرنا. لكن غمرني إحساس بأن هناك زخماً من أجل السلام بدأ يتجسد أخيراً.

رفض الأسد المزدوج

لم يدم تفاؤلي لوقت طويل. ولاحث أولي بوادر المشاكل مع وصولي إلى دمشق عشية للحادى عشر من أيار مايو حيث كان في استقبالى فاروق الشرع وزير الخارجية السوري، وكان هذا الاجراء إجراءً معدّناً من جانب السوريين. فبالإضافة إلي أنه إجراء مراسى جيد فإنه يمكن الشرع من التقاط خيوط أفكارى ويقوم لغة جسدى ويبلغ الأسد قبل اجتماعى معه. ومكنتى طريقة العمل هذه بالطبع من نقل رسالة قبل الاجتماع، وخاصة فيما يتعلق باللهجة. وأنشاء توجهدنا من السطر أشار على الشرع بأن الأسد غير موقفه بشأن أحدي النقاط الأساسية. وسيتعين علي الولايات المتحدة الموافقة علي إمكانية عودة المؤتمر للانعقاد بدون موافقة كافة الأطراف. وقلت: «ليس هذا ما اتفقنا عليه السيد الوزير». وحمل لى جيجريان صباح اليوم التالي المزيد من الأنباء السبعة. فقد أبلغه الشرع بأن الأسد عدل عن التزامه الثاني، وبات بصر الآن علي ضرورة حضور الأمم المتحدة المؤتمر «كشريك كامل، وطلبت من فريق العاملين معي للتطبيق في الحواشي علي صورة طبق الأصل من محضر اجتماعى السابق. وهكذا سأكون مستعداً لتفويده ما بدا أنه عدول تام في الرأي من جانب الأسد.

وهجس في نفسى أن هذا الاجتماع سيكون بالتقطع اجتماعاً غير سار، وليس مجرد اجتماع منهك، وهكذا وفي الساعة الحادية عشرة صباح ليوم اللانى بدأت جلستنا بمزحة علي أمل إشاعة جو من المرح علي الموقف. وقلت مازحاً: «إن الصحافة بدأت تشهر إلي الاجتماعات التي نعقدنا بدبلوماسية اللثانة، وتجاهل الأسد المزحة. وتساءل: ماذا حدث منذ أن غادرتنا؟ وعلي مدار الساعات الخمس والدقائق الخمس والأربعين التالية مال الحوار نحو التراجع.

وفي إيجاز أكد الأسد أنه يرفض الآن الحلول الوسط التي سبق وأن قبل بها، والأسوأ فقد باتت يهرر تصرفه هذا بالتأكيد علي أنني أسأت عرض طبيعة الضمانات الأمنية التي يبدو أن الرئيس مستعد لدراسة اتخاذها علي الحدود السورية الإسرائيلية.

وذكرت الأسد أنه في اجتماعنا السابق كنت محددا في قولي بأنني إن أثير موضوع الضمانات الأمنية الأمريكية مع الرئيس بوش مالم يوافق هو أولاً علي حل وسط بشأن النفطين مسار الخلاف. وأردت بالفعل إقناعه بأنه بعيد بالفعل عن التزاماته التي قطعها لرئيس الولايات المتحدة، واستفسرت قائلاً: «هلنا أقول للرئيس الآن؟» ورد قائلاً: «عليك أن تقول له إنني قدمت تنازلاً كبيراً بقبول مشاركة كاملة للأمم المتحدة بدلاً من رعاية كاملة من جانبها».

وما لبث الأسد أن أدعي أنني وعدت في اجتماعنا السابق بضمان عودة الجولان إلي سوريا مقابل تنازلاته. وقال أشعر أنكم تراجعتم في القضية الأساسية التي بحثناها في اجتماعنا الأخير. وقلت: إنني لم أفعل شيئاً من هذا القبول بل وشرعت في القراءة بصوت عال من محضر الجلسة السابق لدعم رأيي وأضفت قائلاً: «إن تجد في المحضر أننا نضمن أن نعيد إسرائيل الجولان إلي سوريا. لكن الواقع أنه فقط مع استمرار الضمان الأمني للحدود في اعتقادي ستتاح لكم الفرصة لاستعادة الجولان» كان محضر الجلسة غاية في الوضوح كما أن الأسد رجل شديد الذكاء لدرجة تدعسى معها إسادة للفهم. وبسبب ما قرر الأسد ألغيت بكلمته، وبات يتهمني بذلك الاتهام الآن في محاولة واضحة لتبرير تصرفه. وقلت: «إن موقفكم غير راقعي بالمرّة». ولم يهتز الأسد وأكد قائلاً: «إنني لم أطلب منكم ضمان إعادة الجولان. أنت الذي عرضت ذلك» في حقيقة الأمر كان الأسد يتهمني بالكذب. ورددت وأنا أحاول الحفاظ علي رباطة جأشي بشق النفس: «لا ياسيدي ليس كذلك». وأكد مجدداً: «لم يساروبي أي شك لو ليس في أن الضمانات المشار إليها في الاجتماع السابق يجري سحبها والحول عنها» ورددت بجمود: «إننا لم نسحب أي ضمانات».

ولضمن الحظ ما لبث الأسد أن بدأ في إلقاء درس في التاريخ بأسلوبه الأثير لتحويل الانتباه للاعتلال علي هجوم محاوره وإرهاقه في نهاية الأمر. كانت محاضرتي تهت علي

السأم، وحافظه بالتكرار العمل لدرجة راح معها نائبه عبد الحليم خدام في النوم. وبعد نصف ساعة من هذا الجو اتفأتم لم يعد بوسعى تحمل المزيد. وقلت: «سأكون صريحاً. إنك تدع إسرائيل بعيدة عن التفاوض. إننى أحاول للبحث عن سبيل يتيح لنا عقد هذا المؤتمر أو إذا لم يكن ذلك فلتلقِ التبعة علي الآخرين إذا لم ننجح». ولم يحرك الأسد ساكناً.

ونكرت الأسد بأن الطمأننة الأمريكية المقدمة ما هي إلا وسيلة لـمصل إسرائيل علي الانسحاب من مرتفعات الجولان. ومثل هذا العرض من الولايات المتحدة عرض غير مسبوق، ويتعين عليه ألا يقال من أهميته. ولَّفت نظره قائلاً: «لكن إذا كنت تفضل الآن التكرير علي الشكل لا علي الجوهر، فقل في أنك ستكون الخاسر. فسوف تفرقها إسرائيل بالسكان وإن تستعدها للأبد».



وأخيراً عرضت علي الأسد حلاً وسطاً جديداً حول وضع الأمم المتحدة المعقد لدراسته: ويمثل هذا الحل في أن راعى المؤتمر سبواصلان إطلاع الصكوتير العام للأمم المتحدة علي مجريات المصادقات الثنائية ومتعددة الأطراف. وقلت: في الواقع فإن هذا سيكون أكثر إقناعاً من صيغة المشاركة الكاملة التي يتبناها الأسد أو صيغة المراقبة التي اقترحها كحل وسط، ورد الأسد: «هذه فكرة جديدة تماماً وسوف أدرسها». لكنه رفض التلحرق تماماً إلي القضية الثانية. وقال: «بالنسبة لقضية استمرار انقضاء المؤتمر، فإنها قضية مفروغ منها».

وكمسألة مبدأ كنت قد ولدت نفسي علي مواصلة الاستماع إلي أحاديث الأسد المطولة في الاجتماعات السابقة بغض النظر عن حذلقها أو عدم ملائمتها للموضوع المطروح علي البحث. لكنه تجاوز لقد الآن من وجهة نظري. فقد أعطاني كلمته ثم سحبها وبتهمني بالندالة في التفاوض، ويات من الواضح لي الآن وكما نقول في تكساس أنني أتعرض للنش.

وأغلقت حقيبتي في حدة بكل ما أوتيت من قوة. وأعلنت: «لنا في حاجة للتوجه إلي القاهرة». لقد قلنا الموضوع بحثاً. إننا نعود إلي حيث بدأنا. وإن لكون بشراً لو قلت لك إننى لم

أصب بحببة أمل. ويفضل عنادك فن تجري مباحثات سلام. لكنني أشكرك علي ما لمصيناه من وقت. امل أن ألقاك مرة ثانية وقتاً مآه. وفي تلك اللحظة كنت واقفاً أننى لن أزور دمشق مرة ثانية علي الإطلاق لكن التبعة ستلقي عليها.

وللمرة الأولى بدأ الأمد فى موقف دفاعى وأكد: «إننى لم أقل شيئاً وأتراجع عنه مطلقاً ورددت: «السيد الرئيس يجب أن أقول، إننى أشعر بأنك مفرط فى التشك وعدم الثقة لدرجة سوف تستخلص معها معان لا أقصدها. لقد أعد هذا الاقتراح ليناسبك تماماً لكن بسبب شكرك فقد تهدر هذه الفرصة».

وقال الأسد «سوف نناقش هذا هنا فى سوريا. لكن انطباعاً الآن غير إيجابى، وتأكدت أنه سوء تقدير كبير. وألقى الأسد بالمسؤولية علي إسرائيل فتصلبهم. ورددت بأنه قد يكون محقاً ربما كانت إسرائيل غير جادة. لكن اختيارهم هو الطريق الوحيد الذى أعرفه. وقلت: «لاعتبر الأمر وكأنه سؤال عمن يعطى ماذا حول قضيتة الرمية. لكن انظر ماذا سيكون الحكم بعد الفصل. فلنضع نفسك فى موقف نعمل فيه سوريا من أجل السلام».



وعلي الطائرة التى أظننى إلى القاهرة تناقشت مع مساعدى عن سبب تراجع الأسد فى بجاجة. فريما اعتقد أننا نوشك علي التوصل إلى اتفاق وأراد إسلاء سرعة المسيرة. ومن المحتمل أيضاً أنه فكر فى الصماتات الأمنية، وخلص إلي أنها لا نستحق تقديم تنازلات. وآثرت الاعتقاد بأنه يلعنر حتى يرى ماذا يمكن أن انتزع من تنازلات جديدة من شامير. ومثل الكثير من الرعماء العرب كان الأسد يعتقد فكرة أن الولايات المتحدة يمكنها ببساطة أن توجه إسرائيل حيثما تشاء بسبب اعتمادها علي المساعدة المالية والأمنية الأمريكية. إننى أعرف مدي زيف ذلك الانطباع بالفضل.

لقد ضايقني الأمد لأنه انتهك واحداً من مبادئ الأساسية فى التفاوض. إننى أرد بقنور عندما يعيد محاورى فتح قضية ثم تسويتها بالفضل. إننى لا أؤمن بهذا الاتفاق لتناق.

وخلال الاجتماع حاولت عن عمد للتخفيف من حقيقى . وعمدت إلى الإشارة إلى تراجعه باعتباره مجرد سوء تفاهم ، لكننى فى الحقيقة كنت غاصباً مما اعتبرته سوء نية مجسوبا ، وخلال الرحلة التى استغرقت أربعاً وتسعين دقيقة إلى القاهرة للقاء وزير الخارجية السوفيتى الكسندر بسمرتديخ عرضت على الصحفيين المرافقين لى خلفية موجزة حملت فيها على الأسد . وأوصحت وأنا أتحدث للصحفيين من قبيل الاحتياط كمصدر زريع المستوى فى الإدارة ، أثناء توجه الوزير بيبكر من دمشق إلى القاهرة . إلى الأسد بشكل عقبة أمام التقدم ، وألمحت إلى أنه إذا ظل على تصلحه فإن الولايات المتحدة قد توأمل للمعلية بدون سوريا . وأردت ترك الانطباع بأن الأسد قد لا يكون على مستوى للتحديات المطلوبة من الزعماء للكبار ، وقد تجذت على ما يبدو . فبعد أسبوعين فى لشبونة اتصل فاروق للشرع وزير الخارجية السوري بدينىس روس الذى اعتقد أنه هو الذى أدلى بذلك لتصريح وناشده بوضوح بعدم الإدلاء مرة أخرى بمثل هذه التصريحات للمادة .

وفى برقيلى إلى الرئيس اعترفت بأنه من وجهة نظر شخصية فقد ترك عدول الأسد عن موقفه طعم الطعم فى حلقى . رددت آمالى فى إحراز انقراجة . واعترفت أنه فى هذه المرحلة كنت لأزال مصاباً بحيرة أمل من الأسد عندما وصلت إلى القاهرة . لكننى أحسست بفقد أكبر بعض الشيء من المكنية عقب اجتماعى مع بسمرتديخ فى الغرفة الذهبية بمقر إقامة السفير السوفيتى . كان بسمرتديخ يقوم بجولة مكوكية فى المنطقة بنفسه لأول مرة وعرض تقييماً إيجابياً عن مباحثاته . وقال لى : «أعتقد أن الأسد معتد لأن يكون أكثر مرونة تجاه قضية الأمم المتحدة مما يبدو عليه الآن» . وسوف يكتب جورباتشوف رسالة إلى الأسد وسوف يضغط هو على الأسد شخصياً بعد يومين فى دمشق . وقال بسمرتديخ : «أعتقد أنه متشكك فى الجدل حول المسؤولية» .

مصر والأردن ثانية

ولم تفلح ليلة من النوم فى إعادة الاعتدال إلى مزاجى المعتدل ، وفى اليوم التالى ١٣ أيار مايو حملت بدون حق - أحباطاتى إلى حسنى مبارك العريم العربى الوحيد الذى تعلى

بالشجاعة والالتزام بالسلام منذ البداية، والذي كان يستحق ما هو أفضل من ذلك من متبفه المحبط. كان السوريون قد أطلعوه على الموقف بالفعل. لكن تصرفي هو ما كان في حاجة لمعرفة بالفعل. وقال: «جيم، لا يمكنني تفسير خيبة الأمل البادية علي وجهك». وشكرت قائلاً: «لا يمكنني أن أنظر لتجربتي هنا بالطائرة. إننا عاجزون عن الحركة. وإسرائيل لا تريد للزحرج عن موقعها، لقد كابد مبارك كل هذا من قبل. وأشار عليّ قائلاً: «دكن صبوراً سوف تتألم السورييين». ورددت: «لقد القول إنتي لن أوصل ذلك. وإذا أردت أن أبقي هنا فالأفضل أن تقدم لي سبباً جيداً يدعوني للبقاء هناك. وحتى الآن ليس هناك ما يحملني علي البقاء.

وكان مبارك يعتقد أن الأسد يريد كسب الوقت علي أمل تحقيق صفقة أفضل. وقال: «إنك تتعامل مع تاجر شاطر. ومفاوض عديد. فالأسد يحطيك بخصوصاً من الأمل ثم ما يلبث أن يغير قواعد اللعبة» وقال بلهجة أبوية: «إن هذا هو الأسلوب المألوف للأسد وهو أسلوب أطفاله بالمشي في الماصي، وأصبح إلي أنني أبالغ في رد فعلي تجاه إحباط اللحظة. وأكد مبارك أن الأسد رجل شديد الذكاء بدرجة تجعله يقدر عواقب العناد.

وطلبت منه أن يذكر الأسد أنه بسبب حرب الخليج وتفوق وضع الولايات المتحدة في العالم فمن غير المرجح أن يكون أي رئيس أمريكي آخر في وضع يمكنه من تقديم ضمانات للحدود في الجولان، وقالت: «لا يمكنني تصديق أنه مستعد لتقويض هذه الفرصة». وكان مبارك يسبقني بخطوة كالمتعاد. وكان يستعد لقرجه إلي أوروبا خلال الأسبوع وقد غير خطته بالفعل ليتوقف في دمشق ليعزز رسالتي شخصياً مع الأسد. ووعدني مبارك: «سوف أبلغ شقيقتي أنه سيكون أحمقاً لو اختار عدم الموافقة علي الاقتراحات المطروحة».

وعقب غداء عمل مع مبارك بسميرتيخ اجتمعت مع وزير الخارجية اللبناني هاريس بوز الذي أكد لي بشكل قاطع أن لبنان سوف تشارك في عملية السلام. ورحبت بذلك الأنباة بشيء من الحفظ. فقلنا يعرف أن لبنان لا يستطيع عمل أي شيء إلا بموافقة الأسد.



وبعد ظهر اليوم التالي ١٤ آيار مايو توجهت إلي عمان لعقد ثاني لاجتماع مع الملك حسين. وذكرته بأن مشاركته حاسمة بغض النظر عن قرار الأسد. وألححت عليه للحصول علي الترام منه. لكنه قال: إنه في حاجة لمزيد من المشاورات. كان مستعداً لتشكيل وفد مشترك لحضور مؤتمر للسلام. لكن لو طلب منه الفلسطينيون ذلك. وأكدت مجدداً أن إسرائيل تدرك في قرارة نفسها أن أي وفد فلسطيني لابد أن يحظى بموافقة ضمنية من منظمة التحرير الفلسطينية. لكن دوراً ظاهراً للمنظمة لن يكون مقبولاً. وقلت: إن الفلسطينيين في الأراضي المحتلة في حاجة للعمل معكم في الظاهر. وعليك أن تبقي علاقتك مع المنظمة وراء ستار، وأن تعمل في تشكيل الوفد فلا يمكن أن يظهر عرقات في عمان أثناء تلك العملية. وأبلىني الملك بأنه لن تكون هناك مشكلة في هذا الأمر، ووافق علي توظيف قنائه الخاصة لطمأنئة الإسرائيليين بأنه لن تحدث أي مفاجآت في تشكيل الوفد. وكمافاءة لتشجيعه علي الاستمرار في التعاون قلت لملك: إنه برغم اعتراض الكونجرس فسوف تقدم الإدارة قريباً للأردن معونة غذائية قيمتها ٢٧ مليون دولار.

وأحسست بأن العامل العذرات شديد اللطف للمشاركة، لكنه سيحفظ بقراره حتي يري رد فعل الأسد. وفي تصريحاته للصحافة عقب اجتماعنا انصب حديثه علي تكرار الكلمات الواردة في مشروع بيان مشترك كنت قد عرضته عليه. وزاغ في إجابته علي سؤال عما إذا كان سيشارك في المؤتمر مبدئياً ترحيبه بقرار مجلس التعاون الخليجي بالمشاركة، وحث الأسد علي المشاركة أيضاً. وقال: لقد حان الوقت للتخلي عن الشعارات وللتابوهات، وأن يري علي وجه الثقة من هو الملزم حقيقة بقضية السلام، واعتبرت أن هذا التصريح الذي عكس تمديداً، للصيغة التي درجت علي استخدامها منذ أول جولة لي في المنطقة في شهر آذار مارس بشكل بادرة إيجابية.

وكان من المقرر أن أتوجه إلي القدس بعد اجتماعي مع الملك. وفي اليوم السابق كنت قد شكرت للعاملين معي: «أنتي سجين في جولاتي للأمن والصحافة الخرقاء. إنني تعريباً لم أشاهد الأرس التي يتقائل عليها هؤلاء الناس». ورنيت ناتويلر باقتراح أنه بدلاً من التوجه من عمان إلي القدس عن طريق الجو يمكننا السفر عن طريق البحر، ثم نجر جسر للنبي علي

نهر الأردن سيراً علي الأقدام. كانت للفكرة جيدة، وسيكون هذا عصاراً سياسياً ومعلوياً مهماً باعتباري أول وزير خارجية أمريكي يقوم بمثل هذه الرحلة.



وبعد انتهاء مؤتمرى الصحفى فى عمان توجه موكبنا لمدة خمس وأربعين دقيقة باتجاه الغرب نحو نهر الأردن. وعندما وصلنا إلي جسر اللقيى كان فى استقبالنا لثنان من ضباط الجيش الأردنى يرتبة عقيد ولغتانى سيراً علي الأقدام حتي منتصف الجسر، حيث انتظرني للبريجادير جنرال جادى زوهار من الجيش الإسرائيلى. وجره حافظة لنفا صمت رهيب. وما لبث أحد الضابطون الأردنيين أن التفت لى قائلاً: «سيدى لا يمكننى السير أبعد من هذا. وحياتى وزميله واستناروا وغادروا، وواصلت سيرى فوق الجسر برفقة الجنرال زوهار. وفيما أقطع بقية الخطوات نحو إسرائيل لمست مدى هشاشة الحاجز النفسى الذى يصل تلك الشعوب التى بدت خلافاً لهما مرات ومرات مستحبة علي الحل. كانت هذه الرحلة القصيرة لوزير خارجية عبر للجسر الخشبي اللعيق أكثر دلالة من أى شيء أخر علي أهمية تعزيز التعايش بين تلك الشعوب.

وكان اجتماعنا الرابع مع القزعماء للفلسطينيين الثلاثة فى القدس مساء ذلك اليوم أقل من مرسى. وعلي يقين الاجتماعات الثلاثة السابقة بدا وكأن الحسنى وعشرواى وركريا الأغا قد عادوا إلي سابق موقفهم. وعادوا إلي إثارة حجتهم القديمة بأنه يتعين معالجة قضية القدس قبل البدء فى مباحثات السلام، وأكدوا أن تشكيل الوفد الفلسطينى قضية تحسن للفلسطينيين وحدهم وهو الموقف الذى كرره الحسنى أمام الصحافيين فيما بعد.

وكانوا يلقونى دائماً دروساً عن ازديادية المعايير لادي الولايات المتحدة. وتساءل أحدهم «ربما أكون غير لبق ؟ مما دفعنى إلي أن أسأل نفسى عن الكيفية التى سأعرف بها الفرق. «إنك لم تستطع أن تحصل علي شيء من الإسرائيليين حول المستوطنات والإبعاد والتخنى الاقتصادى المتزايد. إن الأمور تزداد سوءاً وقد أظهرت أنك لم تسجل هدفاً صائباً.

والآن بدأت في الاعتقاد أن القسطنطينيين أكثر اهتماماً بالجدل من حل أى شيء، وقاطعت محدثي: هل سنظل نذكلكم إلى الأبد؟ إن خمسة وستين بالمائة مما تقولون إنها أرضكم قد أقيمت بها مستوطنات إسرائيلية. وإذا لم يتم لنا البدء في التفاوض فسوف تصبح خمسة وثمانون في المائة. لكن يمكننا سنحكم للمفاوضات لو تعاونتم. وبدأت أشعر وكأنني رئيس طاقم طائرة عتيقة ملصمة بالأسلاك والمككة وفي كل مرة يتم فيها سد شرخ يظهر شرخ آخر.

تسديد حلو مر في القدس

التقيت صباح اليوم التالي مع شامير للمرة الخامسة في غضون أسابيع، وفي الحقيقة تيفر صبرى تجاه مراوغاته. كنت مشغولاً عن أخرى، لكن رئيس الوزراء أقعنى عندما بدأ الاجتماع بتساوي رسالة تشهد بأن حكومته زرعت ألوكة من ست وتسعين شجيرة تنوب بحديقة الاستقلال الأمريكية كذكرى حية تخليداً لولادتي. ومست هذه البادرة شفاف قلبى وأغرورقت عيناى بالدموع وأنا أشكره على لفته. وتغير مزاجى تماماً. وأبلىنى مساعدى فى وقت لاحق أن لفته شامير أبعدت خروج ما كانوا يحشون من أنه ربما يتطور إلي اجتماع جاف، عن نطاق السيطرة.

ومع ذلك كان الاجتماع شافاً. وأبلفت شامير باننى لازلت غير سعيد لعدم استعداداه إظهار مرونة في القسطينيين الباقيتين مذار للخلاف: وهما وضع المراقب للأمم المتحدة في المؤتمر واستمرار انعقاده. وأعلمته أنني أشعر بصيق بالغ بشكل خاص من أن يوسى بن أهارون أحد مساعديه الرئيسيين قد استخف بالقرار السعودي بالمشاركة في المباحثات متعددة الأطراف بقوله في تصريح علني يوم الأحد إن القرار السعودي لا يضيف شيئاً لعملية السلام. وقلت وأنا أحتق في أهارون، علي مدار أربعين عاماً طالما دعا الإسرائيليون الدول العربية الي عمل ما فعلته العربية السعودية، ثم يأتي ممثلون إسرائيليون ليرفضه. لقد أرسل رد عطكم إشارة مرعبة للعرب. والتزم أهارون الصمت خلال هذا التثديد... وحاول شامير تلطيف الأجواء. وقال كما لو كان يتنذر: أنه لا يعني هذا في حقيقة الأمر.

«وشكرت أيضاً من أن للتسرب السابق لأوانه من جانب إسرائيل قد أحبط خطط زيارة رمزية مهمة لأحد أخوة الملك فهد للقدس الشرقية. وأشرت إلي أن مثل هذا للتسرب أمر مدمر. وبالطبع فإن إقامة أو التوسع في المستوطنات في كل مرة أصل فيها إسرائيل لا يرسل بالقطع مؤشرات إيجابية للعرب عن نواياكم».

وقلت له: إن أكبر إحباطاتي تكمن في أنكم تتركون إلتطباعاً بأنكم وسوريا في نفس المركب بأن كليهما يريد التمسك بالشكليات. وأعدت للحجج التي طرحتها على شامير المرة تلو الأخرى: إن العملية انحرفت عن عمد نحو الشروط الإسرائيلية، مما أثار غضباً كبيراً لدى العرب، بهدف منح إسرائيل ما كانت تريد على الدول. للمفاوضات المباشرة. أما الخفي وراء قضايا هامة ليس لها أثر على المفاوضات المباشرة فإنه رؤية قاصرة للغاية بالنسبة لمصالح إسرائيل».

وقلت: «إنني لا أعرف صراحة ما إذا كانت سوريا سوف تبدأ تغيير مواقفها حول الشكليات أم لا. لكن للذي أعرفه أنه إذا فشلنا فإنني أريد أن تكون سوريا هي الطرف الذي ينظر إليه باعتباره الطرف الذي رفض الموافقة على عملية مفولة».

وسألت شامير مرة أخرى أن يسقط اعتراضاته على للتصديتين الإسرائيليتين الباقيتين، وتمهدت هي المقابل بإبلاغ العرب بأنه ليست هناك إمكانية انضمام أي فلسطيني من القدس الشرقية في الجانب الفلسطيني في أي وفد مشترك. وأضفت إلي تعهدي: «ودعني أطمئنانك أيضاً أنني لن أسمح بتغيير الأهداف. فلن أعود إليكم لتداول هذه القضايا وأطلب المزيد. فيمكنكم التمسك بموقفكم وكلكم ثقة في أن المسؤولية ستقع الآن علي عاتق السوريين».

وقلت: «إنني أتوقع كحد أدني أن تقدم إسرائيل ملخصاً مكتوباً يحدد علي وجه الدقة ما وافقت عليه إسرائيل حتي يمكننا أن نطلع للعرب علي ما هو مطلوب منهم علي وجه التحديد للتوصل إلى اتفاق. وكان الورقة المل هذه هدف ثانوي أيضاً».



وفي الواقع فقد أردت هذا الاتفاق المكتوب حتي إذا ما وافق الملك حسين والأسد علي حل وسط حول القسطنطينيين الباقين في إسرائيل في موقف يتيح لها إثارة قصاصات جديدة.

وصغلت مرة أخرى علي شامير للتخلي عن اعتراضه، وقلت عليكم أن تعطوني شيئاً حول قضية الأمم المتحدة، وعلوكم أن تعطوني شيئاً حول استمرار انعقاد المؤتمر. وإذا لم يحدث ذلك فسوف تقع المسؤولية علي عاتق إسرائيل لا علي العرب.

ولم يكن شامير لين العريكة، ولذا لجأت إلي حيلة مسرحية علي أمل حمله علي تليين موقفه من منح الأمم المتحدة - صفة المراقب: إن أمامكم رجل يجلس هكذا - ووضعت يدي علي فمي حتي لا أستطيع التحدث. هل يمكنك أن تيلقني كيف يشكل هذا تهديداً؟ إنني لم أفهم. وحتى شامير ارتسمت علي وجهه ابتسامة وشكوت: «إنك لا تعطيني شيئاً حول هذا الأمر عليك أن تقدم لي شيئاً ما».

وقد فعلها في النهاية. ففي صباح اليوم التالي للخميس ١٦ أيار مايو رفض شامير أن يترشح قيد أنملة عن موقفه تجاه وضع الأمم المتحدة كمراقب، ولكنه أعلن أن إسرائيل ستنتظر إلي المباحثات متعددة الأطراف التي ستكون في المؤتمر علي أنها تشكل استمراراً للمعركة. لم يكن كافياً لكن مع مذكرة التفاهم حول المبادئ المؤلفة من اثنتي عشرة نقطة التي عكف فريق العمل علي إعدادها طيلة الليل فطلي الأقل هناك شيء جديد يمكن ترويجه لدي الأسد وحسين.

وصرحت للصحفيين في مطار بن جوريون بأنني لم أصب بالإحباط، أعتقد أننا نحرز تقدماً، وفي الحقيقة كان كل ما بحوزتي بعد أن قطعت ٦٨٠٠ ميلاً في جولة مكوكية بالمنطقة مجرد نذر يسير من التنازلات من شامير وتراجع من جانب الأسد. وفي طريق عودتي الطويل من تل أبيب إلي واشنطن أعددت مذكرة لعرضها علي الرئيس فلنخص وقائع جولتي وتحدد خطوات المستقبل. واستهلكت المذكرة بالقول إنني أعود من هذه الجولة محملاً بحبيرة أمل بسبب النهج الذي واجهته في سوريا. لكن الأمل لارل براوندي تجاه فرصنا. وبرغم صعوبة الطريق، وربما كان الهدف لا يزال بعيد المنال فإن أمامنا فرصة للبدء في العملية

وكنيت علي يقين من أنه إذا أمكن حمل الأسد علي تغيير موقفه فسوف تكون مشاركة الملك حسين مؤكدة. كان الشك يساورني حيال الأسد. لكن لانزال هناك فرصة لإمكانية إقناع الملك حسين بالمشاركة منفرداً. وبعد أن علمت أنه سيزور سوريا عما قريب اتصلت به قبل مغادرتي لإسرائيل، وأردت الحصول منه علي التزام بمحضور المؤتمر بغض النظر عن موقف سوريا وقال: «سأكون سيد مصيري. إنني أتوجه إلي دمشق لأسباب شكلية فقط. فلت مستعداً للمقاومة، لكن إذا أمكن إقناعه بالمشاركة فسيحل الوقت لإنهاء عزله السياسية والاقتصادية».



وبعيد عودتي إلي واشنطن قمت بمراجعة الموقف مع الرئيس ومكروفت، واتفقنا علي أن محاولة مكلفة من دبلوماسية الهاتف يشارك فيها الرئيس يجب أن يتلوا عمل ما للإجبار علي التحرك. ولفترة من الوقت درسنا تصريحك الأمور نحو الثروة بقيام الرئيس بتوجيه الدعوات لكافة الأطراف لمحضور المؤتمر. ومع هذا لم أكن علي ثقة تامة من أن الوقت مناسب تماماً لممارسة سياسة حافة الهاوية. فزوجها الدعوات وتختلف أهد عن المحصور فربما تنهار العملية برمتها كببت من الورق. وفي ضوء تصلب شامير لم أكن مستعداً للمجازفة بأي شيء في هذه المرحلة. وسوف يكون من الصعب علي إسرائيل وسوريا رفض دعوة استناداً إلي رموز لا تزال مثار خلاف.

وقررنا اللجوء إلي خطوة مؤقتة وفي ٣١ أيار مايو بعث الرئيس رسائل إلي شامير والأسد ومبارك والملك حسين والملك فهد يحثهم جميعاً علي إنهاء مرونة جديدة حتي يمكن عقد مؤتمر سلام. وقت أنا شخصياً بتسلم رسالة الأسد إلي وزير خارجيته في اجتماع في لشبونة في اليوم التالي. وتصقلت الرسالة لمة جديدة حول دور الأمم المتحدة علي أمل أن ترضى تحفظات الأسد. واحتوت الرسالة أيضاً علي تعذيرات مستمرة صيغت بعناية لحمل الأسد علي مراجعة موقفه. فقد كتب الرئيس: «لا يمكننا أن نوافق علي ألا تمنح العملية حتي

وإن احترمت عدم المشاركة. فضلاً عن ذلك فقد أشار إلي: «أن علاقتنا الثنائية رهن بأمور عدة: لكن ومع دول أخرى في المنطقة فإن جانباً حاسماً من تلك العلاقة رهن بموقف سوريا من السلام». وكنت واثقاً من أن الأسد سوف يقدر العواقب. فالتظار يفادر المحطة وسوف يحدث ما لا يحمد عقباه لو تخلت سوريا عن الركوب. وأكدت هذه النقطة مجدداً مع الشرع الذي أراد مني التوجه إلي دمشق لعقد جلسة مطولة أخرى. ورددت قائلاً: «لن يكون لهذا معني إلا إذا كنت موثقاً أن الزيارة ستكون إيجابية» وقال محتجاً: «لقد زار كيسينجر دمشق ثلاث عشرة مرة. وقلت: «لا أعزم عمل ذلك».

وبعد ستة أيام رد شامير برسالة باللغة الحدة رافضاً أي حل وسط حول قصصتي دور الأمم المتحدة أو استمرار انعقاد المؤتمر، وكنت أتوقع أن يكون رده أكثر اختلافاً، وقد أعادت لهجته المتشددة تأكيد ظنوني وشكوكي بأن شامير بكل بساطة غير معني بالسلام.

وبينما تعاشي شامير قول لا. بل إن رسالته أظهرت قدراً من العصبية بأنه ربما أمكننا المضي قدماً وتوجيه الدعوات أصمت أن آخر حولنا للتكثيف هي إقناع الأسد بأن يقدم قدراً من الحلول الوسط، ومن ثم إلزام شامير جانب الاندفاع. فهاذا أظهرت سوريا قدراً من المرونة لدرجة تنأى إسرائيل بنفسها عن العملية فسيميد شامير التفكير لتجنب دفعه بأنه الوحيد الذي لا يأبه بإجراء محادثات سلمية.

وعقب اجتماعي مع الشرع في لشبونة بعفت بهذا التقويم للخاص إلي الرئيس: «في النهاية أعتقد أننا جعلنا الأسد يشعر بأنه غير مستريح. إنه يريد إقامة علاقات محدة، وإنه يدرك أنه لا يستطيع ذلك، إذا تشدد معنا في عملية السلام. وبالمثل فإنه يشعر بالخوف من تحميله مسؤولية عرقلة السلام، كما أنه يطمح أننا جادون في التحرك وفي تحميل المسؤولية لمن يعرقل العملية. وربما كان هذا غير كاف لكن في هذه اللحظة فقد هبنا أنفسنا بأفضل ما يمكن».



ويرغم هذا كانت الدلائل الأولية غير مشجعة . فقد اتخذ السوريون موقفاً بأنه طالما أن
الإسرائيليين رفضوا رسالة من الرئيس فإن الأسد غير ملزم باتخاذ أى شيء . ونقلت رسالة
عبر جيرجيان مفادها بأنه عندما يرسل رئيس الولايات المتحدة رسالة إلى رئيس دولة آخر
فمن المتعين الرد عليها . وطلبت أيضاً من مبارك والعراك فهد تذكير الأسد أنه بمجرد الموافقة
علي التباحث سوف تكهياً أمامه فرصة ثمينة لا تقدر بثمن لطرح مؤهلاته كرجل دولة .
بينما ستتقل المسؤولية إلى أعدائه الألداء في القدس . وفشلت جهودى في زحزحة شامير .
والآن فكرت بشيء من السخرية في أن خط الدفاع الأخير لاتخاذ عملية السلام يقع في
دمشق . ويرغم العلاقة الحاسمة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فإن الأسد هو الوحيد الذي
يوجد في موقف يمكنه من تحريك الإسرائيليين . ولم يعد يمتنى سوى الأمل في أنه سوف
يحصد مزايا اغتنام الفرصة أكثر من شامير .

الفصل السادس والعشرون

من برلين إلى البلقان

لقد قتلنا الشيوعية لكننا لا نزال نواجه مخلفاتها التي
لا تزال سامة.

صالح بريشا

رئيس المعارضة الألمانية

٢٢ حزيران/يونيو ١٩٩١

الخميس ٢٠ حزيران يونيو، بعد أسبوعين - يوم ساطع للشمس في برلين، يوم مثالي للدروج والاستمتاع بدفء الشمس مع إنجاز بعض العمل. ووافق للكسندر بسمرتنيخ، ولذا فقد جلسنا حول طاولة بالحديقة الخلفية لمقر إقامة السفير، وحاولنا إحراز تقدم في معاهدة سمارت. وبالطبع لم يكن من اليسير إنجاز هذا. لكن بسمرتنيخ كان شديد الفطنة علي الدول. ومزح قائلاً: «إنه في الوقت الذي قمنا فيه بتسوية قضية الحد من التسليح سوف يعمل فيها أبني البالغ من العمر ستة أشهر، وبعد ساعتين لفلطنا بمؤتمر صحفي قصير.

كنت أזור برلين للمشاركة في اجتماع وزاري لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ولإلقاء خطاب يستند إلي خطابي في برلين في كانون الأول ديسمبر حول البنية الأساسية والدبلوماسية الجديدة في أوروبا. كنت أطلع للاستمتاع بأول مساء خالٍ من الاجتماعات عندما دخل برب بيرسون السكرتير التنفيذي لوزارة الخارجية علي عجل. وقال بيرسون: «إن المقرر الرئيسي تلقي للهو برقية عاجلة من السفير ماترك في موسكو». وابتعد حانجباي. كان تصديف البرقية «فلاش، لا يستخدم إلا في أشد حالات الضرورة. كاندلاع حرب أو هجوم علي سفارة. وشرح بيرسون: «إن العمدة بروف توجه إلي سبازو هاوس لمقابلة ماتوك لأمر عاجل. وكتب بقلم رصاص علي قصاصة ورق، هناك انقلاب سيقع ضد جورباتشوف. وذهب لورانس إيجلبيرجر إلي البيت الأبيض لمقابلة الرئيس».

وقلت: «هناك حاجة لإبلاغ جورباتشوف فلتصل بالرئيس، وإذا وافق فلنأتي لأريد مقابلة بسمرتنيخ الآن».

وعدت إلي فندق أندركونتوتال الذي يبعد عشر بالسيارة دقائق علي مسافة نسع دقائق، وتحدثت إلي للرئيس باستخدام وصلة الهاتف المضمنة إس تي يو I I I المركبة في جناحي. وكان الرئيس قد أبلغ إيجلبيرجر بأن يصدر توجيهاته لماتوك بطلب الاجتماع مع جورباتشوف. ووافق للرئيس علي ضرورة أن أتحدث مع بسمرتنيخ بعيد دقائق. وقلت له: «لدي شيء هام لك وأريد أن أبلغك به شخصياً، هل يمكن أن تأتي إلي فندقي في ظرف دقائق؟» ويوضح لم يكن لدي بسمرتنيخ أي مفتاح يفسر له سر غيبي في لقائه. وافترضت أنه اعتقد أنني أريد إيضاح بعض خفايا قضية الحد من التسليح، وعلي أية حال فقد أبلغني أن لديه ارتباطاً مع وزير الخارجية القيرصي: «ألا يمكن أن ينتظر هذا الأمر».

وقلت: «الكسندر اعتقد حقيقة أن الأمر ضروري. إن ما أحمله لك جديد ومهم».

وقال ربما استطاع أحد آخر للتقدم. ورددت «لا ألكسندر يجب أن تأتي أنت وبمفردك».

وأخيراً تلقى الرسالة. وبعد خمس عشرة دقيقة وصل إلي جناحي. وقلت: «ألكسندر. لقد أبلغتنا مصادر موثوق بها أنه ستقع محاولة للإطاحة بجورباتشوف غداً. لقد فهمنا أن المحاولة تشمل بافلوف وكريوتشكوف ويازوف ولوكيانوف*». إن ما نلوك يطف لقاء مع جورباتشوف. هناك حاجة لكي تحصل به وتبلغه بأهمية إتمام اللقاء وفوراً، ولكن لا يمكنك إيلاغه بالسبب عبر الهاتف «بسبب احتمال تنصت إليه كي جي بي». وشكرني بمزيج الذي بدت عليه للموافقة، وغادر علي الفور لإبلاغ جورباتشوف عن طريق مساعده لأمد بعيد أناتولي شيرينيليف. وفي ذلك الوقت كان للرئيس يطلع الرئيس الروسي بوريس ياكسين الذي كان متواجداً في البيت الأبيض في زيارة مقررة منذ أمد بعيد.

وبعد دقائق دلف ما نلوك إلي مكتب جورباتشوف في الكرملين ونقل له التحذير. والزعج الرئيس السوفيتي إلهما انزعاج. وتأكد من أنه في غمرة المناورة البرلمانية في ذلك الأسبوع كان المشددون يحاولون تضيق برنامج الإصلاح. لكنه توصل إلي أن فكرة الانقلاب فكرة خيالية، واعتقد أنه ليس بإمكان أحد الإطاحة به. وحتى هذه اللحظة كان علي صواب. فليست هناك محاولة انقلاب. ورغم أن بافلوف قام بمحاولة مكشوفة للاستيلاء علي السلطة من خلال البرلمان السوفيتي.

وكنا حكماء لأننا أخذنا التحذيرات بتدبير انقلاب مأخذ الجد. ولأولئك جورباتشوف علي أن يطاح به في محاولة انقلابية بعد شهرين. لكن جهودنا لتحذيره والعمل معه في ذلك اليوم من شهر حزيران يونيو كشفت عن واحدة من أشد الصراقات حسما في العلاقات الأمريكية السوفيتية منذ بدء أزمة الخليج حتي ربيع وصيف ١٩٩١ وهي أن التعاون الأمريكي السوفيتي بلغ نقطة الذروة فموقف جورباتشوف السياسي الدخلى واستقرار الدولة للسوفيتية يسجلان أدني مستوياتها.

* كان فالدني بافلوف رئيساً للوزراء الاتحاد السوفيتي وفلاديمير كريوتشكوف رئيساً لـ كي جي بي وبمجرد يازوف وزيراً للدفاع وأناتولي اركيكوف رئيساً للبرلمان وزيولا في مدرسة لتقريب جورباتشوف.

الفرص السوفيتية والأخطار

قبل نحو عام، وفي ١٨ تموز/يوليو التقيت علي هامش اجتماع لكتين + أربعة الوراري في باريس مع إدوارد شيفرناندز لبحث حالة العلاقات بيننا. كنت قادماً لتولى من قمة حلف شمال الأطلسي في لندن ومن قمة هيوستون الاقتصادية. وكانت القمتان قد ساهمتا في تقدم العلاقات بين الشرق والغرب بقدر مهم - قمة لندن بتبني إعلان سياسي وأمني ساعدنا في صم ألمانيا الموحدة لحلف الأطلسي، وقمة هيوستون بإصدار توجيهات إلي المؤسسات المالية الدولية بإجراء دراسة حول الاقتصاد السوفيتي كشرط مسبق لتقديم أي مساعدة مالية غربية علي نطاق واسع. لكن الهدف السياسي لعلاقتنا هو الذي أردت إثارته مع شيفرناندز.

وقبل أسبوع، وفي المؤتمر العام للحزب شن بلتمين هجوما عنيفاً علي الحزب وتركه. وأخذ في نوم للحرب دافعاً بأنه لا يمكن مطلقاً أن يكون قوة حقيقية لإحداث تغيير حقيقي. وذهب إلي حد المجازفة بانخاذ موقف أكثر راديكالية من جورباتشوف تجاه الإصلاح السياسي والاقتصادي. واستقال جافريل بويوف عمدة موسكو وأنتوتلي سوبشاك عمدة ليننجراد من الحزب. ولأول وهلة بدا الأمر كما لو أن نواة معارضة قابلة للتطور أخذت في التشكل.

وفي الوقت الذي وصلنا فيه الالتزام بالعمل من خلال جورباتشوف لتعزيز مصالح السياسة الخارجية الأمريكية، فقد أردنا حماية موقفنا بتنوع الاتصالات السياسية التي بدأنا في إقامتها في الاتحاد السوفيتي.

قلت للتكير للوفد الصحفي المرافق لنا في الطريق إلي باريس، لكنني أردت الآن استعراض نهجنا المتطور مع شيفرناندز. وقلت: «منقوم من وقت لأخر ببقاء رعماء المعارضة في الاتحاد السوفيتي مثلما تلقى مع رعماء المعارضة في بلاد أخرى. فعندما يأتي رعماء المعارضة في البلاد الأخرى إلي الولايات المتحدة فإننا نلتقي معهم. وهذا أمر عادي بالنسبة لنا. وأبلغته بأنني لا أريد منه أن يسيء تفسير هذا باعتباره حقوراً في رغبتنا في نجاح البيريسترويكا ومع هذا فإننا نشأ حزب المعارضة في الاتحاد السوفيتي وعندما ينشأ مثل هذا الحزب فمن المتوقع أن نلتقي بممثلي هذا الحزب. هذه هي الطريقة التي نتعامل بها مع أحزاب المعارضة في الدول للديمقراطية، ويجب ألا نسيء أنت أو الرئيس تفسير هذا الإجراء. إنه يشكل حقيقة جانباً من مفهومنا للديمقراطية».

وقال شيفرنادزة إنه سعيد بسماع هذا. وفي الحقيقة فقد كان يتطلع إلي الوقت الذي توجد فيه معارضة حقيقية في الاتحاد السوفيتي. وأشار ليجليرجر أنه في الوقت للراهن، فإنه لا وجود لما أسميه بالمعارضة المعسولة. فلا يوجد الآن سوى مغامرون علي الساحة السياسية. إنهم غير جادين لأنهم جميعاً يريدون المعارضة من أجل مصايقة جورباتشوف.

وقلت مازحاً: «عندما يزور جورباتشوف واشنطن فإنه يلتقى مع الديمقراطيين، وليس لدينا مشكلة مع هذا، إننا نفهمه».

ورد شيفرنادزة: «لكن يجب أن أقول إنني لا أتذكر أن هناك ديمقراطياً قد وجه إهانات لرئيس الولايات المتحدة أثناء تلك الاجتماعات» وقال بحدة: «إن ذلك يشكل ثقافة حقيقية الآن».

وانتهت المحادثة بمجرد أن بدأت تقريباً. وأصبحت علي ثقة الآن من أنني قد أرسيت الأساس للتوسع في عدد ونمط الاتصالات مع المعارضة السياسية في الاتحاد السوفيتي.



وبعد أقل من شهر أقدم العراق علي غزو الكويت وتزايدت حاجتنا ليس إلي التعاون السوفيتي فحسب. بل إلي مشاركة جورباتشوف شخصياً. وخلال أزمة الخليج وحرب تحرير الكويت تعين علينا الاعتماد مرة نلر الأخرى علي العلاقة الشخصية التي أقمناها والرئيس بحرص مع جورباتشوف وشيفرنادزة. فصلاً عن ذلك فقد تمكنا من الاحتفاظ بالزخم في العلاقات الأمريكية السوفيدية خلال تلك الفترة. ولثناء قمة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التي عقدت في باريس في تشرين الثاني نوفمبر صنفنا التغيرات التي شهدتها أوروبا خلال العام الماضي، وعززنا مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا وجعلنا منه ما أصبحت أسميه «معمبر القارة» وانضم كل أعضاء حلف شمال الأطلسي ووارسو إلي بقية دول أوروبا في التوقيع علي «ميثاق باريس» الذي أنهى حقبة الانقسام والمواجهة. وأعلن أن «الأمن لا يتجزأ» ووافق علي «إقامة شراكة» وبسط كل طرف يد الصداقة للطرف الآخر.

وبتأييد من العمل المصننى أكمنا معاهدة خفض القوات القتونية فى أوروبا ووقع عليها رؤساء للدول فى باريس فى ١٩ تشرين الثانى نوفمبر. (فى إحدى جلسات التفاوض المطولة مع شيفرناذر بمقر البعثة السوفيتية لدى الأمم المتحدة فى شهر تشرين الأول أكتوبر حصلت على استراحة عزفت خلالها نشيد مشاة البحرية على البيانو* . وقتت لزملاى السوفيت: «أعتقد أنه لم يدر بخلدكم على الإطلاق أنكم مستمعون نشيد للبحرية الأمريكية بحرف بمقر البعثة السوفيتية، ومن؟ من وزير الخارجية الأمريكى، وقررت معاهدة خفض الأسلحة التقليدية فى أوروبا التى أنجزت خلال أقل من عامين خفضاً مهماً ليس فقط فى عدد الأفراد، بل فى عدد الدبابات وناقلات الجند المدرعة والمدفعية، وهى الأسلحة التى ظلت لجيل كامل تثير المخاوف من حدوث هجوم سوفيتى خاطف على غرب أوروبا. فقد خفض أعضاء حلف وارسو الآن عدد معظم قواتهم حيث المطلوب منهم خفضها بحشرة أضعاف المطلوب من حلف الأطلطى.

وبرغم هذا، وبعد فترة وجيزة من التوقيع فى باريس برزت عدة خلافات حول تفاصيل المعاهدة. كان الجيش السوفيتى يعزق قوته بأقوى مما كان فى ربيع ١٩٩٠. واستغرق الأمر منا حتى حزيران يونيو ١٩٩١ لتسوية تلك الخلافات**.

لكن فى كانون الأول ديسمبر ١٩٩٠ حدثت الصاعقة. فى ما وصفه: «بأنه ربما كان لأفسر وأصعب خطاب، فى حياته استقال شيفرناذر من منصبه كوزير للخارجية فى الاتحاد السوفيتى «احتجاجاً على بداية الديكتاتورية». وشعرت بصدمة. فقبل أسبوعين فقط التقينا فى هيوستون حيث رار معالم هيوستون التى تشمل مركز جونسون للفضاء حيث تحدثنا مع رواد الفضاء الأمريكيين الذين يدورون حول الأرض بل شملت أيضاً المذلل الذى نشأت فيه. وقدمت إدوارد وماونولى إلفى ولندنى. كان شيفرناذر وزوجه بالنى الرقة مع ولندنى. ولهديا ولندنى براداً للشاي، وأمسك إدوارد بيدها برقة ولطف وهى تحكى لهما تذكيات جميلة على.

* كان هذا النشيد هو النشيد الوحيد الذى استطع عزفها على البيانو.

** لم أأعتقدنا مع الاتحاد السوفيتى حول حجم الدراسة التقليدية لموسكو. ثانياً: كان هناك سبب يحدق قلقة فى أن السوفيت بدأوا فى تمريك الأسلحة خارج الأططى إلى منطقة الأورال (آيه تى فى يو) ومن لم إخراجها من نطاق معاهد خفض الأسلحة التقليدية. ثالثاً: لاحظنا مع السوفيت حول تعريفهم للقرى الثلاث الممركزة قرب البحر الأسود. كانت هذه القرى مشكلة كنويات فى الجيش، ومن ثم تدرج فى إطار حدود معاهدة خفض الأسلحة القتونية فى أوروبا. وأعاد الجيش السوفيتى تعريفها بأنها وحدات لتطاح عن السربل لإخراجها من نطاق المعاهدة.

وعندنا إلي واشتغل علي متن طائرتي، وتناولنا شيئاً من الفودكا أثناء الرحلة. وبدأ شيفرنادزه تحت تأثير منغوط كبيرة بعيداً عن التركيز والتفكير ببعض الشيء قبل نهاية الرحلة. لا يفعل شيئاً سوي للصحك والمزاح. لم يكن لدى أدنى علم بأنه علي وشك الاستقالة. وتأكدت أن شيفرنادزه يتعرض لمنغوط ميساسة هائلة في الداخل، لكنه كان في مأزق دائم في موسكو. وكنت أشعر أنه من الصعب أنه سيدرك جورباتشوف. فقد بدا الاثنان وكأنهما متلازمان لا يفترقان.

وهبطت إلي قاعة الصحافة بالخارجية في الطابق الأول لأدلى بتصريح مقتضب عن استقالته. لم تكن بالمهمة السهلة، فقد كان زميلاً محترماً. لكن علاقتنا تجاوزت الملاقة المهنية بكثير. وقلت للصحفيين: «لنني أعرف أن إدوارد شيفرنادزه رجل عند كلمته. رجل الشجاعة والهادئ والإيمان الراسخ». وعندما استفسر أحد الصحفيين عن طبيعة مشاعري الشخصية قلت: «كلّي فخر بأن أصف هذا الرجل بأنه صديق. واعتقد أننا لنجزنا أشياء مهمة خلال الأشهر الثلاثة والعشرين التي استطعنا أن نعمل خلالها سوياً، ومن زاوية شخصية بحثه أجد لزاماً علي أن أقول أنني سوف أفقده».



وفي اليوم التالي تلقي مائتوك رسالة من شيفرنادزه عبر سبرجي ناراسينكو. وطلب مني شيفرنادزه أن أصي أنه ما كان ليستقيل لو لم يكن وفقاً من أنه لا مجال للمدول عن النهج الإيجابي في العلاقات الأمريكية السوفيتية. وكان يعتقد أن خليفته سيجد نفسه ملزماً باتباع نفس النهج. برغم أنه استحدثت تغييرات ببطء شديد. ورفض جورباتشوف قبول الاستقالة، غير أن شيفرنادزه شعر بأنه لا يمكنه البقاء بعد أن أعلن ترك منصبه. واعتقد شيفرنادزه أن الاستمرار سيكون انتحاراً معنوياً. وبعد شهر بحث لي رسالة وقال: «إنه شعر بدفء جميل من تصريحاتي العلنية حول استقالته. لكن وبصورة شديدة فقد تأججت مشاعري وأحاسيسي لفقتي من أن الاستقالة جاءت بمثابة مفاجأة لكم... وبالطبع لك الحق في أن تمنحني لعدم إيلاغي لك بما كنت أفكر فيه علي مدى العام الماضي رغم تعدد

لقاءاتنا. ومع هذا فهناك حد لا أملك بعده القدرة علي قطع خطوة واحدة، وهذا ما ألتق أن
بوسعكم تنظيمه تماماً. ورددت عليه وأتلى أنفهم سبب عدم إبلاغه لى بعزمه علي الاستقالة
وأكبرته، لأن قناعتم وقيمكم قد جعلكم علي الإقدام علي لتحاذ هذه الخطوة الشجاعة
والصعبة.

وساهمت استقالة شيفرنادرة وتصلب للجيش السوفيتي تجاه قضايا الحد من التسلح وقمع
مظاهرات ليدوانيا في كانون الثاني يناير ١٩٩١ في زيادة قلقي تجاه فرص جورباتشوف.
وأذكر جيداً جلسة عقدت في البيت الأبيض في أواخر كانون الثاني يناير مع اثنين من
خبراء الشؤون السوفيتية بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية هما بوب بلاكويل وجورج
كولت. وأذكر ما قلت في هذا الصدد عقب انتهائهما من عرض ما لديهما - وكانا مفرطان
في الشاؤم - «ماذا نقولان يا زميلان هل للبورصة تتجه نحو الجنوب؟» إننا نريد أن نبيع.

لكن في حالة للعلاقات الأمريكية السوفيتية يعني «البيع» محاولة الحصول علي أقصى
ما يمكن من السوفيت حتي قبل أن يحدث تحول أكبر نحو اليمين أو تغير باتجاه التفكير.
والسبيل إلي ذلك هو الاحتفاظ بعلاقاتنا مع جورباتشوف حتي يمكننا مواصلة حرب التحلج
بنجاح، وهو ما فعلناه، وكذلك الانتهاء من معاهدة سترات وهو ما أنجزناه في تموز يوليو،
وضمان عدم انهيار معاهدة خفض القوات التقليدية في أوروبا والتقدم في الوقت نفسه
في القضايا التي لم تكن في سياستنا الخارجية، وخاصة إحراز تقدم نحو السلام في الشرق
الأوسط.



وفي آذار مارس عدت إلي موسكو للمرة الأولى خلال ستة أشهر كان الاستقطاب
السياسي أكثر حدة. فقبل أربعة أيام من زيارتي نزل يلتسين وأقصاه إلي شوارع العاصمة
السوفيتية وعدد من المدن الكبرى الأخرى مستقبلاً جماهير غفيرة داعياً إلي إجراء
إصلاحات جذرية. وحث يلتسين أقصاه علي إعلان الحرب علي قيادة هذا البلد التي جرتنا
إلي المآزق.

وعندما التقيت مع جورباتشوف في ١٥ آذار مارس كان اهتمامه موجهاً إلى مشكلات وطنه، وخاصة يلقين. وباعتباره قارئاً نهماً لترجمات الصحافة الغربية وقعت عينا جورباتشوف في مجلة تايم علي تصريح لأحد مسؤولي سفارتنا بأن الاتحاد السوفيتي كان علي شفا ثورة. وقال جورباتشوف بحدة: «هذا خطأ. لم تكن تعيش علي شفا ثورة. بل إننا نعيش ثورة». وقال إنه يعاني من التوترات. كما أن الضغوط هائلة. لكن تغييرات طفيفة والإصلاحات جريت مع النظام ولم توت مفعولها. وهناك حاجة إلي فحص ومراجعة شاملة. ويجب أن تكون جوهرية وشاملة. ورغم هذا قال جورباتشوف إنه في حاجة إلي مساهمة للمناورة. وقال: «إن كل مناورة لا تستهدف العدول عن البهريسترويكا بل للحفاظ عليها». وعلي أية حال كان قلقه منصباً علي الاقتصاد بقدر أكبر من قلقه علي السياسة. وفي إشارته إلي التراجع الاقتصادي للحاد قال: «لقد استغل هنر التراجع الحاد في الإنتاج الاقتصادي للوصول إلي السلطة. فالديكتاتور يظهر ظاهراً في ظل ظروف تكسب بالفرضي والعجز الاقتصادي الشامل. فالمنعوط المهينة تظهر ديكتاتور كشكل الآن في الاتحاد السوفيتي».

وتساءلت مشيراً إلي الاستفتاء المقرر إجراؤه في ١٧ آذار مارس حول مستقبل الاتحاد: «لماذا لا يتم تسوية قضايا الجمهوريات والمركز أولاً؟ فهذه قضايا سياسية إنها قضايا قابلة للحل عن طريق محاولة إعادة تشكيل اقتصاد اصطناع علي مدار سبعين عاماً بتقاليد ونفسية النظام السرجه. فلماذا لا نستغل فرصة الاستفتاء لتحل الفوز وتسجيل للجمهوريات وتحل فولين الانفصال ١٢».

ركان جورباتشوف يعتقد أن مشروع معاهدة الاتحاد السوفيتي يلي هذه الاحتياجات. وكانت أثل ثقة في ذلك. فربما قفزت معاهدة الاتحاد علي بعض اختلافات الجمهوريات والمركز، لكن يبدو أن القوة تنتقل إلي الشارع - والمعبارة مستعارة من أقوال لينين - وهذا يرضى الجمهوريات علي المدى البعيد.

وعن يلقين كان جورباتشوف شديد الحساسية. وقال إن يلقين شخصية غور مستقرة وسوف يستغل الخطابية الجماهيرية ليصبح ديكتاتوراً لو تهيأت له الفرصة. وكرر شيفرناندزة نفس وجهة النظر، وشعرت أن يلقين رجل مسرحي وتاجر سياسة كبير رجل يعيل

للإحياءات المبالغ فيها، لكنه في المقام الأول سياسى الشارع للنكى الذى لمس المراج الديمقراطية يحتاج للإلاد. كما أن ما يبدو وكأنه عدم استقرار يمكن أن يفسر بسهولة ما يقومه الأعمال السياسى يلتصين وكنا بسبيلنا لنشهد صموداً وهبوطاً. لكن مبتغانا هو من يستطيع تحريك مئات آلاف الجماهير إلى الشارع.

ويوم وصولى إلى موسكو بحث يلتصين رسالة بأنه يريد لقائى بشكل خاص لمدة عشر دقائق. سواء قبل أو بعد العشاء الذى ساقبمه مساء اليوم القالى. وبمحت مذكرة إلى الرئيس أبلغه فيها بأننى أعترم لقاء يلتصين ما لم يعتقد أن اللقاء غير مستماع. ولم يعترض الرئيس ولذا امتنيت قداماً ورثبت موعداً للاجتماع. ومع ذلك وقبل ساعة من موعد العشاء وقبل عشر دقائق من الموعد المفترض أن أرى فيه جورباتشوف تذكرت أن يلتصين طلب لقالى إما فى مكتبه أو فى بيت للصحافة الخاص بجمهورية روسيا أو فى مكان محايد. لم يكن ذلك سوى محاولة لتعزيز أهميته الرمزية، ودفع جورباتشوف نحو الحائط. ولذا وبملا غادرت لمصور الاجتماع قام العاملون معى بالاتصال بمجلس الأمن القومى، وبعد التشاور مع الرئيس رد على سكوكرويت بأنه يتعين على إثارة الموضوع مع جورباتشوف الذى أثار صجة شديدة بطبيعة الحال. لكن قبل أن أتمكن من التحدث إلى يلتصين بحث العاملون معه برسالة لى بأنه لن يستطيع حضور العشاء (وبالقالى فن يوم اللقاء الخاص) وسرف يوفد شخصاً آخر*.



كانت هذه الواقعة مؤشراً على العلاقة المتقدة بين جورباتشوف يلتصين لكنها أظهرت أيضاً الدوائر الدقيق الذى يجب أن نحافظ عليه بينهما. فمن ناحية كان جورباتشوف فى صيف عام ١٩٩١ واحداً من أعظم السياسيين الذين لا يحطون بالشعبية فى الاتحاد السوفيتى لكنه يظل رئيساً وقائداً أعلى لجيش بلاد يملك ٣٠ ألف رأس نووية، والرجل المسؤول عن

* وقد قبل وأرسل فلاديمير لوكين الذى عينه يلتصين أول سفير لروسيا الاتحادية لدى الولايات المتحدة.

صناعة القرار في الكرملين في القضايا الحيوية لمصلحتنا مثل ستارت وخفض القوات التقليدية في أوروبا، والسلام في الشرق الأوسط. كما أن قراراته تجاه مثل هذه القضايا مهمة بالنسبة لنا هي التي ساهمت بقدر كبير في إنقاذ شعبه. ومن ناحية أخرى كان يلتسين هو القوة السياسية الأكثر نمواً في الاتحاد السوفيتي. وفي شهر حزيران يونيو سوف يصبح أول رئيس منتخب ديمقراطياً في تاريخ روسيا حصل علي تفويض ساحق بإجراء تغيير جذري. وبدون شك فإن توطيد العلاقات معه وتأييده أمر يتسجم مع قيمنا، ويصب بالتأكيد في مصالحنا بعيدة المدى بإقامة للديمقراطية في الاتحاد السوفيتي.

ولم يساورني شك في أن جهودنا للموازنة بين هذه المصالح المعقدة والحفاظ علي العلاقة مع كليهما قد أثارت حفيظتهما معاً من وقت لآخر. وبالنسبة للدبلوماسية الأمريكية فالتهم حقيقة هو ما إذا كان قدر قليل من الحفيظة قد استحال إلي سخط دائم أثر بالعكس علي مصالحنا. وأعتقد أنه من الواضح في حالة ميخائيل جورباتشوف يلتسين كان الحال هو العكس. كان كلاهما يقدر علاقته مع جورج بوش ولولايات المتحدة. ليس فقط من زاوية مكانتهما في العالم. بل أيضاً من زاوية موقفهما في الداخل. وكانت معاملتنا للتحول من جورباتشوف إلي يلتسين فعالة ومفيدة بشكل جوهري للولايات المتحدة من عدة أوجه.

وكان الدعم الغربي للإصلاح الاقتصادي هو القضية الداخلية الرئيسية في الاتحاد السوفيتي التي تعين أن نقيم فيها توازناً في ربيع عام ١٩٩١. ومرة ثلثي الأخيرة منذ مجيئنا إلي السلطة في كانون الثاني يناير ١٩٨٩ أظهر جورباتشوف عزوفاً عن ركوب الصعب وتبني برنامج إصلاح حقيقي. واتصل هذا عام ١٩٩٠ وحتى ربيع ١٩٩١. ولم يكن مرد هذا الاعتقاد إلي الأفكار الخلاقية. ففي آب أغسطس ١٩٩٠ اقترح ستانيسلاف شانالين وهو اقتصادي مؤيد للسوق الحرة وفقاً للمعايير السوفيتية وأحد كبار مستشاري جورباتشوف، اقترح خطة للتحول إلي اقتصاد السوق في غضون خمسائة يوم. لكن بعد دراسة «خطة الخمسمائة يوم» علي مدار شهر حولها جورباتشوف إلي «خطة رئاسية» أكثر منها خطة لاقتصاد السوق. ومع نيسان إبريل ١٩٩١ سكن الترجميون الكرملين بأعداد فاقت الاسلحيين، واقترح رئيس الوزراء بافلوف برنامج «لزمة» تضمن قدرأ أكبر من التخطيط المركزي يعوق ما احتواه من لقتصاديات السوق.

ودخل علي الخط جريجورى يافينسكى المستشار للمغرب ليلتين ولذى ساعد شاتالين في إعداد خطة الخمسائة يوم، ومجموعة من أساتذة هارفارد*. واقتراحوا فكرة «المساومة الكبرى» التى يتم بمقتضاها أن يتحرك الاتحاد السوفيتى بحسم ناحية نظام السوق الحرة مقابل أن يقدم المغرب مليارات للدولارات للمساعدة فى تخفيف حدة صدمة التحول. وساورنى الشك عندما علمت بالفكرة لأول مرة من يوب زوليك. وغمرنى الشك فى أن جوريانثوف يملك الإرادة السياسية أو المقدرة علي تطبيق الخطة. فضلاً عن ذلك لم يكن هناك اتفاق غربي لتقديم مبالغ المعونة الضخمة، ولم أر اتفاقاً من هذا القبيل بلوح فى الأفق. لكننى طلبت منه مواصلة العمل مع يافينسكى علي أمل الخروج ببعض الأفكار المتبادلة نجعلنا نتجاوز خطة يافوف. ولسوء الحظ كانت فكرة أى مساومة لاتزال مبعدة عندما قرر جوريانثوف إيفاد بريماكوف لبحث للقضايا الاقتصادية**.

وسياسياً كان تدخل بريماكوف فى أزمة الخليج قد أضر بمصداقيته لدي الإدارة الأمريكية. أما فى الاقتصاد فقد كان مبعثاً. وعندما التقيته فى ٢٩ أيار مايو قلت له: إننى أقول لجوريانثوف وشيفرنازدة إنهما فى حاجة للإقدام علي حيازات صعبة فيما يتعلق بالاقتصاد. ويصغى وزير خزينة سابق قلت له: ليست هناك طرق مضمونة. فلا بد أن نتحدث آلام بغض النظر عما يصنعان، ولذا فليطعما أن ينجزاه بسرعة وصواب. لكن بريماكوف لم يأت بجديد ويسعى القول إن اجتماعاتنا لم تحدث سوى تغير طفيف فى التفكير للسوفيتى. وواصل جوريانثوف المراوغة، وفى الوقت الذى جعل به للقضية السياسية للمساعدة الغربية أكثر انفتاحاً فلم يقم بإصلاحات اقتصادية لتحريك مثل هذه المعاملة، وانتهت «المساومة الكبرى» بأنها لا مساومة كبرى ولا يحزنون.

النهيار فى بلجراذ

عقب محاولة الانقلاب التى لم تنجح، والاجتماع الوزارى لمنتدى الأمن والتعاون فى أوروبا غادرت برلين يوم الجمعة ٢١ حزيران يونيو فى زيارة لمدة يوم ولحد لبلجراذ

* كان من بينهم يوب بلاكويل مسؤول السابق للشكف من قبل الرئيس بيلف أوروبا (وهو خير يوب بلاكويل موظف المخابرات

لأمريكية الأمريكية) الذى ترك مجلس الأمن القومى للعمل بالأكاديمية

** حاولت أنا والرئيس دعم نهج يافينسكى فى الإصلاح الجذرى بالإدلاء بصريحات تزيد أمله وأفكاره.

يوغسلافيا. كانت تلابيب صراع سياسى معقد وكثيف تمسك بخناق جمهوريات يوغسلافيا الاتحادية الست. سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك وصربيا والجبل الأسود ومقدونيا. وكان رعماء يوغسلافيا الاتحادية يقارون لتحقيق ميزة من التفسخ السريع ليوغسلافيا الاتحادية فيما فضل ولرين زيمرمان سفيرنا لدى بلجراد أن يسميه تناقض «الشد والجذب» بين القوميات.

كانت سلوفينيا وكرواتيا تسعيان للحصول على الاستقلال التام، وحددتا مهلة نهائية فى آخر حزيران يوتيو لاتخاذ خطواتهما من جانب واحد. وربما كانت يوغسلافيا الاتحادية أكثر بلد متناظر عرقياً فى أوروبا لكن محاولات إعلان الاستقلال من جانب واحد ومن ثم القضاء على إمكانية للتفاوض للانفصال سلباً قد أثارت شبح للحرب الأهلية. وفى الاجتماع الوزارى لمؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا الذى عقد فى برلين اتخذت المنظمة إجراء غير مسبوق بإقحام نفسها فى جدل داخلى يدور بأحد الدول الأعضاء و أصدرت بياناً يدعو إلى حل سلمى للأزمة الحالية، وكنداع إيجابى أوضح مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا أن المجتمع الدولى سوف يساعد يوغسلافيا فى جهودها فى التحول للسلمى والاقتصادى إذا حدث سلمياً وبالاتفاق. لكن لتكملة هذه الرسالة الإيجابية فإننا فى حاجة لتوجيه مؤشر سلمى فى محاولة لهدم مختلف قادة يوغسلافيا الاتحادية لقبول حقيقتين أساسيتين: هما أولاً: أنهم فى حاجة إلى التفاوض لتسوية خلافاتهم، وألا يقدموا على اتخاذ إجراءات متعددة، وثانياً: أن المجتمع الدولى لن يتسامح تحت أى ظرف تجاه استخدام القوة. وكانت هذه هى الرسالة التى حلتى جميع رملاى الأوروبيين فى برلين على نقلها إلى بلجراد، وهى رسالة كنت مستعداً لنقلها لأن قلناً كبيراً ساور للرئيس وساورنى من أن يوغسلافيا على وشك الانفجار.



بدأ يومى فى بلجراد بداية شوم فقد تلقى مكتب التحقيقات الفيدرالى إخبارية بوجود تهديدات لى، وكان المصدر على حد قول المكتب موثوق به. ولدى وصولى توجهت مباشرة إلى قصر الاتحاد، وهو مبني ستالينى الطراز يضم الحكومة لليوغسلافية وحكومات للجمهوريات الست. وكان لكل جمهورية قاعة لاجتماعات ضخمة مزودة بأعمال فنية

ممتوحة من تراثها العريق. وعلي مدار الساعات العشر التالية بخلاف جولة جانبية للقاء ممثلين عن أقليم كوسوفو تمت بجولة مكوكية من قاعة إلي أخرى اجتمع مع رعماء كل جمهورية. وبدأت يومى وأنهيته بجلسة مع آنتى ماركويفيتش رئيس للحكومة الاتحادية الذى كان يحاول دون جدوى منع برميل بارود البلقان من الانفجار.

وفى كل اجتماع طرحت نفس للنقاط الأساسية. ولأنى أזור بلجراد لا يصلنى ممثلاً للولايات المتحدة بل ممثلاً أيضاً لمؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا فقد أردت أن يمي زعماء كل جمهورية والاتحاد اليوغسلافى أن كل أوروبا وكندا والولايات المتحدة تشعر بقلق بالغ تجاه الوضع فى يوغسلافيا. وطلبت من كل ممثل شخصياً وباعتماداً زعيماً سياسياً التأكيد مجدداً على الالتزام بمبادئ هلسنكى، ولاسيما ضرورة التسوية السلمية لكافة النزاعات، ويجب ألا تتغير الحدود إلا بالاتفاق، ويجب حماية حقوق الإنسان وخاصة حقوق الأقليات.

ثم مضيت إلي مطرح أربعة شواغل محددة - أولاً: قلت: مراراً وتكراراً إن اهتمامنا الأساسى فى المسألة اليوغسلافية هو تسويتها سلمياً. وسوف نظل على محاربتنا لاستخدام القوة أو للتطويع بها للتسوية الخلافات السياسية. وأكدت مجدداً أن التصرفات المنفردة من جانب واحد تندر بوقوع كارثة وهو ما أكدته السوفيين والكروات وقت أيضاً: أنه فى الوقت الذى تؤيد فيه سلامة أراضي يوغسلافيا وحدود الجمهوريات القائمة وإن نقبل بالتغيرات من جانب واحد، فالمجتمع الدولى يعترف - بالطبع - بأنه إذا أرادت الجمهورية تعديل الحدود بالوسائل السلمية والاتفاق فإنها مسألة أخرى مختلفة تماماً.

ثانياً: أثرت مسألة حقوق الإنسان - الألبان فى كوسوفو والمجريون فى فويفودينا، والصرب فى كرواتيا. ولبلغت كل محاور من محاورى أنه يمكن حماية تلك الحقوق بشكل أفضل من خلال ما أسميه «تهديد ديمقراطى للاتحاد اليوغسلافى، وقتت لماركويفيتش وكل رئيس جمهورية فى الاتحاد اليوغسلافى إن شكل الاتحاد فيدرالى أو كونفدرالى أو أى شكل آخر أمر يحسمهم وحدهم. لكننى حذرت من أن أى محاولة لتقسيم يوغسلافيا على أسس عرقية ان تؤدى إلا لإراقة الدماء وإنكار حقوق الأقليات، وذهبت إلي حد الإشارة إلي أنه فى الوقت الذى لا نسعى فيه إلي عزل أحد فى يوغسلافيا فإن أولئك الذين يتلاعبون بحقوق الأقليات سيعزلون أنفسهم عن المجتمع الدولى. وأكدت على هذا الأمر بشكل خاص مع الصرب والكروات.

ثالثاً: أثرت الحاجة إلي استمرار الرئاسة النيابية بحكم الدستور في الاتحاد اليوغسلافي. وفي آيار مايو منح الصرب تولي الكرواتي سيبي ميسيتش للرئاسة. وأثار هذا حقن الكروات والسلويفيين، وفُسر عن «حق» بأنه تلاعب في السلطة من جانب الصرب.

وأخيراً: ولأن الاقتصاد في حالة تدهور، حاولت إررار المضاعفات الاقتصادية لمزيد من الصراعات. وفي الوقت الذي أُشرت فيه إلي أن المجتمع الدولي وللولايات المتحدة لن يقدموا للمساعدة لمن سيمزق البلاد، أكدت علي أن المجموعة الأوروبية والولايات المتحدة سيقدمان للمساعدة الاقتصادية باتجاه الحل السلمي. والأهم أنه في الأجل القصير عرضت المجموعة الأوروبية المساعدة في وضع دستور جديد، وألححت علي اليوغسلاف لسلك هذا الطريق لتسوية نزاعاتهم.



وتنقلت من قاعة إلي قاعة مشهراً هذه الحجج في كل اجتماع لكنني لم أفلح في إقناع أحد. فالرئيسان الهوسني علي عزت بيجوفيتش والسفدوني فلاديمير جنججوروف يتفهمان بالفضل موقف المجتمع الدولي ولا يحتاجان لإقناع، وأكثر من غيرهما ممن قابلتهم ذلك اليوم استشرى هذان للرئيسان واستشروا الخطر الحقيقي للشوب حرب أهلية.

وعلي نقيضهما كان الرئيس السلوفيني ميلان كوشان شبه العالم ويادر بالقول رداً علي مداخلتي: «السيد الوزير. سوف ترى إنه لا أحد في يوغسلافيا يحتكر الحقيقة، ففي سلوفينيا تؤيد نسبة ستة وثمانين في المائة من السكان استقلال الجمهورية. فالسؤال ليس هو ما إذا كان يحسن تنفيذ القرار بل كيفية تنفيذه. فلكم: إن تصرفنا قد يعجز أعمال عنف. لكن الحنف الروحي والمادي قائم بالفعل. إننا نود إنهاء ذلك. فالحنف يتهدى في صورة القومية والصراعات القومية. إن هذه مفارقة: فيوغسلافيا قامت علي الأيديولوجية، ولذا فإنها تنتمي إلي الماضي».

كان اجتماعي التالي مع سلوبودان ميلوسيفيتش رئيس صربيا وهو رجل قامت حياته كلها على استحضار الماضي لإلهاب الحاضر. ومنذ الوهلة الأولى يبدو ميلوسيفيتش بهيأته الودود وبذلة الشيك وشعره القصير مقسما وكأنها، وكنت أدرك أنه شأنه شأن المنصليين لا يحترم سوى القوة. وقررت ألا أهدئه وقت: «إننا نريد إقامة علاقات طيبة مع صربيا. لكن الأمر بيدك أنت، وأجد لزاما على ليلاذك بأننا نعتبر أن سياستك هي السبب الرئيسي لأزمة يوغسلافيا الراهنة. فبرسك المساعدة في أن تتقدم الصغوف لإقامة اتحاد ديمقراطي مردهو يفيد شعوب يوغسلافيا. وإلا فإنك تدفع شعبك وجمهوريةك ويوغسلافيا نحو الحرب الأهلية والتفكك».

وحذرته من أن استخدام القوة سيثير نفمة المجتمع الدولي. ثم عرضت قائمة بالقضايا التي تثير القلق وهي استغلال الضغط العرقي - عدم احترام حقوق الإنسان في كوسوفو - تخريب إصلاحات ماركويفيتش الاقتصادية، وعرقلة تولي ميسييتش السلطة.

روايات الحديث قائلا: «لو أصريت على الدفع نحو تفكك يوغسلافيا، فسوف توقف صربيا بمفردها، وسترضى الولايات المتحدة والمجتمع الدولي أي إدعاءات صربية بالسيادة على أراضي خارج حدودها. وستكون صربيا متبونا دوليا لدخل أوروبا لجيل لو أكثر».

كان هذا الاجتماع أشد الاجتماعات جدلاً في ذلك اليوم. كان محاوراً فائراً لا يريد أن يجد نفسه في خانة المدافع، ويسعى للقول أنه كان يحاول الحفاظ على المظهر الدبلوماسي «بالتبادل المألوف لوجهات النظر». وفي الواقع فقد مضى معظم وقت الاجتماع يفي أن يكون نصربيا أي علاقة بما تشهده يوغسلافيا من مشكلات. وأحياناً شعرت بأنني ألتحدث إلى جدار ذي شعر قصير، وسأورني شك في أنني لن أترك أي أثر من أي نوع.

وعقب انتهاء اجتماعي مع ميلوسيفيتش توجهت إلى لقاء فولتير توديمان رئيس كرواتيا. وبعد أن طرحت ما يتكلى بشكل عام أبدى رفضه التام. وقال: «إن مخاوف الحرب في يوغسلافيا يفاقمها أولئك الذين ليست لهم جذور سياسية في أي دولة. أولئك الذين يريدون فرض حلولهم على الدول الأخرى. فالضيوعيون المحافظون والمركزيون يريدون توريث للجيش ضد كرواتيا. ومع أنه جنرال سابق كان توديمان يعرف أنه برغم أن ثلثي عدد

الضباط من الصرب. فإن أيديولوجيتهم لا تسمح لهم بالتوصل ضد كرواتيا وسلوينيا، وبدأ لي هذا غير طبيعي ولم يكن هناك ما يمكن إضافته. لكن توديمان شخصية عديدة - وفي الحقيقة يبدو العناد وكأنه سمة نُحِيتْ على أساس عرقى - وعلى الأكل في الوقت الحالي فيما يتعلق بكوشا وتوديمان وميلوسيفيتش كان المنطق هو آخر ما يريد أن يصنى له هؤلاء الزعماء.

وابهت يوماً طويلاً مع رئيس الوزراء ماركوفيتش الذي كان رجلاً عاقلاً يدرك تماماً مخاطر الحرب الأهلية.



وبادر بالسؤال ما هو انطباعتك عن الاجتماعات التي عقدتها مع رؤساء الجمهوريات الست؟^٩

ورددت بصرلة: «لقد إزداد قلقي الآن عما كان عليه من قبل، ومضيت إلى طرح اقتراحين. الأول ماركوفيتش باستغلال عرض للمجموعة الأوروبية للمساعدة في إعداد دستور جديد لبدء حوار، وقلت: إنكم في حاجة ماسة إلى عملية. إنكم في حاجة إليها في القريب. إلا فإن للجمهوريات ستواصل اتخاذ إجراءات تكتملك بها بقوة أكبر. والثاني محاولة إقناع سلوفينيا وكرواتيا بالإدلاء ببيانات عامة. بل إصدار بيانات برلمانية إن أمكن بالاعتراف بأن مستقبل يومئذٍ يوضع عليها قيد التفاوض الآن. وكنت أشعر أن هذا ربما يتيح للصرب (وحلفائهم في لجبل الأسود) السماح بتولى ميسيتش للرئاسة. وكنت بعيداً عن التفاوض بأن أيا من المبادرتين سيؤتى مغفلة. لكنني شعرت بأنه يجب علي ماركوفيتش أن يفعل شيئاً.

وشرعت في إعطائه فكرة عما دار في لقاءاتي. وبدأت بالقول: «إنني لا أستخدم الكلمات. إن الزعماء الذي يخفون في التفاوض سوف يتحملون المسؤولية لو اندلع العنف. ولن تعترف الولايات المتحدة أو دولة أخرى بالانفصال من جانب واحد، وشرحت كيف حذرت ميلوسيفيتش وتوديمان من أي مؤامرة لتقسيم البوسنة. وهو ما أفضني به بيجوفيتش لي»^{١٠}.

ولأن ماركوفيتش يسيطر علي الجيش الوطني ليوغسلافي وعلاقاته ختمت حديثي معه -
بالتحذير مجدداً من مقبة أي استخدام للقوة للحفاظ علي الاتحاد اليوغسلافي؛ (إن اللجوء إلي
القوة سوف يستغل من جانب أولئك الذين يريدون تفكيك الاتحاد، وسوف تصور هذه القضية
علي أنها قضية الحرية والديمقراطية من جانب، وقضية القوة علي الجانب الآخر، وسوف
يحدار في الولايات المتحدة نفعاً قضية الديمقراطية إذا ما اضطررنا للاختيار بين
الديمقراطية والقوة. ثم تحولت للصرب علي وتر المصلحة الثنائية للحكومة الاتحادية قائلاً:
«إلى استخدام القوة سيقف يوغسلافيا تأييد معظم المجتمع الدولي، وبالطبع فإن الولايات
المتحدة ستدفع بحجة أن تقرير المصير لا يمكن أن يتحدد من جانب واحد. بل يجب أن
يتحدد من خلال الحوار والوسائل السلمية. لكن يمكننا إثارة هذه الحجة في حالة استخدام
للقوة».

ولم يرد ماركوفيتش بشكل مباشر بل غيّر الموضوع، وتحدث حديثاً فلسفياً وقال:
«علي مدار خمسة وسبعين عاماً تشكل الكثير من الهياكل التي لا يمكن أن تتفرض بسهولة.
فقد امتزجت الشعوب والأمم وارتبط الكثيرون بالزواج. فليس من اليسير علي أحد أن يمضي
تدماً في الانفصال».

ورددت: «إنني أتفق معك علي أن الانفصال سوف يثير أعمال عنف وازقة دماء.
ويسعد أن يبدأ لمن تستطيع وقفه. فلابد من التوصل لاتفاق بين الجمهوريات، وإلا فلن
يكون هناك سبيل لإنهاء سلوفينيا عن الانفصال والاستيلاء علي مواقع في غضون ستة
أسابيع. قد يكون من المنطقي استخدام الجيش لمنع حدوث هذا. لكنه سيشتعل الانفجار. فالأمر
لا يحتاج سوى عود ثقاب».

كان يوماً مثبطاً للهمة. واحداً من أشد الأيام إحباطاً التي واجهتها في حياتي كوزير
للخارجية. ولا أتذكر يوماً وجدت نفسي فيه في موقف تجاهل فيه محاورتي المطلق
ومصالحهم الذاتية تماماً. هؤلاء الزعماء يتوجهون إلي الحرب الأهلية مباشرة ولا شيء قادر
علي تغيير عقولهم.

وفي تقريرى عن هذا اليوم كتبت للرئيس: «عمقت بقوة صد اتخذ خطوات مغرقة من
جانب واحد قد تجهض عملية التفاوض، وجادلت جاهدًا لصخ جرة مركزة من الواقعية في

مذاخ سياسي غير ولقي بالمرّة يسود يوغسلافيا. وسر ماركويتش بالرسالة وقوة دفع الرقابة، وبصراحة يملأني الشك في جدواها. ويرجع سبب هذا الإحساس إلي أجواء الجنون التي سادت أجواء اجتماعاتي: فقد بدأ للزعماء كم يلقى بنفسه تحت عجلات السيارة وهو نائم ولا تجدى معه نفعا أصوات التحذير مهما علت، أو الصفع علي الوجه كما في حالة ميلوسفيتش وظلوا علي مكابرتهم.

وأبلغت الرئيس أننا في حاجة للعمل مع الأوروبيين لاستمرار سياسة عدم الاعتراف ضد أي جمهورية تعلن الاستقلال من جانب واحد، في محاولة لتشجيع الاعتدال. إن الخطرات الفعلية التي بدأت لتطبيق الاستقلال تشكل نقاط جمارك علي سبيل المثال، هي التي ستؤدي سريعاً إلي التفكك والحرب، ولذا نرغب في مواصلة إقناع ماركويتش بضبط النفس وخاصة فيما يتعلق باستخدام الجيش للرد علي إعلان الاستقلال.

وختمت تقريرى بنتيجة متشائمة: «إن إحساسي يقول لى إننا لن ننجح في إقامة حوار جاد حول مستقبل يوغسلافيا حتي تشعر كافة الأطراف تماماً بإحساس أكبر بالإكراه والخطر. ربما لا نستطيع أن نملئ ذلك من الخارج، لكن علينا نحن والأحرين أن نواصل السعي».*

الطريق إلي ألبانيا

رأيت بشارة انهيار الشيوعية في اليوم التالي وأنا أقطع رحلة بالطائرة لمدة ساعة نحو الجنوب إلي تيرانا عاصمة ألبانيا. وتحت ظل حكم أنور حوجه السكاليدي المتشدد لأكثر من أربعة عقود كانت ألبانيا أكثر الدول تخلفاً وعزلة في أوروبا. وكانت آخر من خلع العباءة الشيوعية عندما أجرت أول انتخابات تعددية في ٣١ آذار مارس ١٩٩١. وقبل أسبوع من وصولي تولت حكومة انقلابية مقاليد السلطة بدلاً من الحكومة الشيوعية وضمت جماعات من المعارضة، وأرذت استقلال المكانة الأمريكية، التي عززتها عاصفة الصحراء إلي حد كبير، لدفع الألبان للتحرك نحو الديمقراطية والسوق الحرة.

* في ٢٥ حزيران يونيو صوت برلمان كرواتيا وسلوفينيا علي الاستقلال، وفتحت الحرب في اليوم التالي. وبملاح الفصل ٣٢
السياسة الأمريكية خلال تلك الفترة.

ويعد هبوط شاق بسبب انتشار الحفر علي ممر الهبوط نزلت من الطائرة لتواجه لم
يخطر علي بال. ففي العادة كان وصولنا يتحول إلي ساحة عسكرية. لكن الأمر يختلف تمام
الاختلاف هذه المرة. فقد تجمع حشد من عدة مئات من المتحمسين علي مدرج المطار وفيما
أمم أنا والوفد المرافق بركوب السيارات والأكوبيسات المعدة لنا، استقل الأكبان الذين وفدوا إلي
المطار لاستقبالنا سياراتهم ولتوبيساتهم الحقيقة وحاولوا اللحاق بموكبنا.

وأثناء مغادرتنا المطار بدأت لحظ نجمعات صغيرة من الأفراد كل خمسين ياردة أو
أكثر. وعادة ما كانوا يقفون بجوار محراث يجره ثور أو ثورين. كانت الإهتسامة لا تفارق
هؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين رفعوا لافتات كتب عليها: «مرحباً بالمستر بيكر أو بيكر
أو ببيكر». ورفع آخرون لافتات كتب عليها: «بارك الله لمريكة».

وبعد قطع مسافة لا بأس بها عبر الريف الألباني الذهبي الذي ذكرني بأدغال
كاثيفورنيا المحيطة بمزرعة رونالد ريجان في سانتا باربارا وصلنا إلي مشارف نيرنا وبلغنا
إلي الفوصي. وتحولت مجموعات البشر الصغيرة إلي كتل جماهيرية هاشدة ثلاثة، خمسة،
سبعة، تتحلق علي الطريق. وقفز للتبعية ولشباب إلي الطريق للمس أو تقبل سيارتي. بل إن
رجلاً ألقى بنفسه أمام الموكب وأخذ يقبل الأرض. ونذر الكثيرون للرهور. وفقر عدة أفراد
فوق مقدمة وسقف سيارتي، واضطر فريق الأمان لإنزالهم. ولمنع حدوث إصابات ترك
أفراد الأمن سياراتهم وشرعوا في الهرولة بجوار سيارتي في محاولة لإبعاد الأطفال الصغار
حتى لا يصطأ أحد منهم تحت عجلاتها. وتوقف الموكب مرات ومرات، وأساطت بنا
الجماهير ودوت صيحات الفرح. وقد أثار هذا احتمال إقدام الحشد علي حمل السيارة وهو
ما بدا أنه أمر يستعصي علي التصديق يستغناء ما أفضى به بعض الطلبة الألبان لطابعة
فريقنا بالنية على فعل هذا.

وقال بيل جاستيل الرجل الثاني في قيادة فريقنا الأمني: «عليكم بمواصلة السير، لكن
في بعض الأحيان بدا أنه ليس هناك مكان للذهب إليهِ سوى الفوضى شيراً شيراً بين طوفان
البشر. وكلما اقتربنا من وسط المدينة كلما ازدادت صعوبة تحركنا واستغرق الأمر منا نحو
للساعة لقطع الأميال الأربعة أو الخمسة من المطار. وبدأ الشارع في الضيق. فعلي كل
جانب توجد مبان سكنية تتألف من ثلاثة إلي خمسة طوابق. وفي كل نافذة شاهدت الوجوه

المبتسمة والألبان الذين يحملون لافتات أو أعلام أمريكية صنعوها بأنفسهم. ورفع الرجال أصابعهم بعلامة النصر، والتي علمت فيما بعد أنها شعار المعارضة الديمقراطية الألبانية، ورفضت النسوة بأطفالهن لأراهم، وأتقين علينا بالقبيلات. وعندما وصلنا إلى ميدان اسكندر بك حيث كان من المقرر أن ألقى كلمة تدهمت علينا الهاتفات رويدا رويداً. كان الميدان مكتظاً بدحوريج إلى نصف مليون نسمة في بلد يتجاوز سكانه الملايين الثلاثة بقليل، وفي مدينة يقطها ٢٥٠ ألف نسمة.



كنا ندفع أن نري حشداً كبيراً لكن ليس بهذا الحجم. وعلي مدي خمسة عشر عاماً امضيتها في خدمة السياسة الوطنية لم أشهد مطلقاً شيئاً كهذا. لم يكن جون دانسي من أخبار شبكة ان بي سي الذي قام بتغطية السياسة الأمريكية وصدق هو الآخر ما يري. وذكرني مشهد الجماهير الفرحة التي نغمزها مشاعر عارمة باللقطات التي شاهدتها في الجرائد السينمائية لانتهاه الحرب العالمية الثانية. وبالنسبة للألبان وبعد العيش لسبعة وأربعين عاماً تحت ظل أنفسي نظام شيوعي استبدادي انعزالي في العالم ساورني اعتقاد أنه أشبه بانتهاه حرب. ولم أشعر من قبل بامتنان بمثل هذا القدر لتمثيل بلدي. كما لم أكن أعرف مطلقاً لماذا دور بقية أنحاء العالم - حتي وإن أخذناه علي أنه أمر مسلم به - تعد أمريكا نهسياً لأمل الحرية ومدينة تكلأاً فوق تل، كما اعتاد ريجان أن يصفها.

كان العشد صاخباً ومثلاً لدرجة أنه في محاولة لتهدئته جفت صالح بريشا زعيم المعارضة حينئذ يبدأ في الحديث أولاً. وساورني قلق من أن الحشد المتهيج قد يطوح بالمنصة الخشبية المفترس أن أتحدث عليها مما قد يتسبب في مأساة تؤدي لسحق البعض. وقال بريشا أمام الحشد: «إن الطريقة الأمريكية في الترحيب أهدأ من طريقنا أيها الأصدقاء. لذا أرجوكم أن مدعه يتحدث».

ولدي ارتقائي المنصة المؤقتة استقبلني هتافات «الولايات المتحدة.. الولايات المتحدة... الولايات المتحدة» «بوش... بوش... بوش» وبدأت بالقول «بالنيابة عن الرئيس

بوش والشعب الأمريكي أتيت إليكم اليوم لأقول إن الحرية أثبتت نجاحها، وبعد الترجمة اشتعل
 حماس الحشد. وأضيفت: «ها أنتم أخيراً أحرار في اعتناق ما ترون من أفكار، ومرة أخرى
 نماني هدير الجماهير. وتمايل الحشد في موجات متتالية مستغلاً حماسة ما ذكرني بحقل
 موسيقي روك حاشد أكثر من أي شيء آخر. وازداد قلبي من أن درجة الحرارة المرتفعة قد
 تسبب في حدوث حالات من ضربات الشمس. ولذا قررت لاحتصار كلمتي. لكن ذلك لم
 يختصر اللحظة التي سأظل أتذكرها إلي الأبد. ولا يمكن مقارنة لقاءتي مع السياسيين
 الألمان مع الجماهير التي رأيتها رغم جاذبية صالِح بريشا. وكمعظم زعماء ما بعد الشيوعية
 الذين لتقيتهم في أوروبا الشرقية كان بريشا قليل الخبرة، ففي ظل النظام الشيوعي لم يكن
 يعمل جراحاً للقلب. لكنه يفهم مجتمعه تماماً حتي وإن اضطر إلي التشرح مستخدماً
 المصطلحات الطبية. فقد قال: «إن أليانيا رأس ديمقراطي وقلب ديمقراطي تكن في جسد
 بلافي، وأمنيت معظم الصيف وبقية الصيف في الشرق الأوسط ولكن في آب أغسطس
 انطبق وصف بريشا عن الجسد البلافي علي الاتحاد السوفيتي برعاية جورباتشوف*».

* ناهت أماليا عن كتاب فيما بعد، ومرت أن يسبح بريشا رئيساً لأليشيا في نهان إبريل ١٩٩٢. وأهم سببي أن أري التزام
 الحكومة بمبادئ السوق الحرة والشفافية. وكما كتب ويليام ريدجون أول سفير لنا في أليانيا واسمرف البارح بالملك
 القديرياسي ذلك مرة: «إن الحرية أثبتت نجاحها، إنها أثبتت نجاحها سناً بما يلحق تصدع الكافرين عندما تمددت للقلب الأيمن
 في مودين إسكندر بكه.

الفصل السابع والعشرون

انفراجة على طريق السلام

تعلماً.

إسحاق شامير

رئيس وزراء إسرائيل مؤقتاً فبراير إسرائيل

بالشاركة في مؤتمر السلام ٣١ صوف يوليو ١٩٩١

بعد ظهر ١٤ تموز يوليو ١٩٩١ كتبت ألتجمع مع الكسندر بسمرتليخ في مكتبى بوزارة الخارجية لوضع التماسات النهائية حول معاهدة ستارت، عندما إلتفتى كارون جاكسون أن إدوارد جويرجيان يريدنى فى مكالمة عاجلة. وذهبت إالى الغرفة المجاورة لتلقى المكالمة. واستغرقت فى لهجة قال لى فيما بعد إنها أوجت بأهمية بالغة، إدوارد. ماذا هناك؟ ورد السيد الوزير، حسناً إلى يدى تمسك الآن برد الأسد على الرئيس بوش. إتنا نبعت برفقة الآن لكم وللرئيس. إنه قبول تام لدعوتنا لمؤتمر للسلام.

ولم يمعنى أن أصدق أنه ليست هناك ثغرة ما. كانت ذكريات مرارعات وخداع آبار مايو السحيولة لاتزال حية فى الأذهان. لكن جويرجيان دبلوماسى قدير بالغ الحرص. وشرح أنه كان متأكدأ تماماً أن فى الأمر خدعة لدرجة دفعته لقراءة الرسالة مرتين إيشفى غليل نفسه. وقلت: «عظيم ياإدوارد. إنجاز رائع. إبنى اتطلع لقراءة الرسالة». واتصلت بالرئيس هانقياً لم أبلغت الصحافة بهذه الأنباء. وقلت: «إنه وفقاً لسفيرنا فى دمشق فقد وافق الرئيس الأسد على قبول الدعوة».

ولامنى جويرجيان بؤد فى وقت لاحق لهيلة مخرج لنفسى بإرجاع التفسير الإيجابى له وليس لى. وتكررنى «قلت تعرف، حقيقة لقد وصفتى هناك». وكان على صواب. لكن تاريخ دبلوماسية الشرق الأوسط ملئء بالفضوض وصوء الفهم وأردت التيقن. وعندما اطلعت على برفقة جرجيان فى وقت لاحق من اليوم خلصت إالى أن جويرجيان مصيب فى رأيه. وجاء فى البرقية: «إن التطمينات والإيضاحات للواردة فى رسالة الرئيس «سيكون لها أثر تراكمى فى الوفاء بشروطنا من زواية دور الأمم المتحدة: كما أنها تقدم أساساً للشرعية للدراية». ونتيجة لهذا «فإن سوريا تطلبى دعوتكم بالمشاركة فى مؤتمر سلام تقديراً لجهود وساطتكم ليست هناك خدعة، وسوف تجلس سوريا على المائدة مع إسرائيل، وهكذا فإنها تتخلي عن الموقف السياسى الذى نهته منذ بدء الصراع مع إسرائيل».

وأنا أقرأ مواقفقه مرة أخرى أدركت أن الأسد قد منحنا القدر المفقود من القوة ليده المرحلة الأخيرة من أجل السلام. فقد تهيأت للفرصة الآن لتوليد زخم تستحيل مقاومته باتجاه مفاوضات مباشرة. كنت قد تأخرت بالفعل عن اللقمة السنوية لجمعية للدول

الصداقية السبع الكبرى. وفي اللحظة التي سيتم فيها احتتام القمة في لندن سأفوجه مباشرة إلى الشرق الأوسط. وانتويت استغلال فرصة موافقة الأسد علي المشاركة لإغواء الدول العربية الأخرى. ليس لأن تحذو حذوه. بل أيضاً لتوجيه بادرآت جديدة لإسرائيل. ومزوداً بتلك البادرآت الجديدة عن الاكترام للعربي بالسلام بآت بوسعي حينئذ أن أعرض علي شامير ما أملت أن يكون صورة واضحة تماماً عن استعداد العرب للتخول في مفاوضات مباشرة، وهو ما كانوا يرفضونه رفضاً قاطعاً. بل إنه هدف إسرائيل الصحن علي مدي أكثر من أربعين عاماً. واعتقدت أنه ليس بوسع شامير ولا الفلسطينيين الاستمرار علي عنادهم في ظل هذه الظروف.

وأخيراً أثبتت طرزي صحتها، والتقيت الأسد في ١٨ تموز يوليو، وبعد ثلاثة أشهر علي وجه التحديد وأربع جولات ممتدة ومئين ألف ميل إضافي من الدبلوماسية المكوكية وجهت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي دعوات سبعة بعناية وتطلبت جهداً ممتدلاً للمشاركة في مؤتمر سلام يعقد في مدريد اعتباراً من الثلاثين من تشرين الأول أكتوبر. إن القصة الحقيقية لكيفية خروج مدريد إلي الوجود قصة خصبة للتصميم والهدايات للزائفة والشجاعة السياسية والشخصية والألفة الملثوية والنداءة والدأب وإساءة التقييم وفقد الأعصاب والمفاوضات اللاهائية، وعشرات الحلول الوسط الخلاقة وحسن وسوء النية. وفي النهاية منبت سنوات المءاء والعوسني بالهزيمة أمام شجاعة وعزيمة الأطراف نفسها علي منح فرصة للسلام مدعومة بالمساندة النفسية ومصادقة لبداع حلاق من آخر قوة عظمي في العالم.

التأكد من أن نعم تعني نعم

أدي تصادف انعقاد قمة الدول السبع الكبرى إلي تأجيل وصولي إلي دمشق للتظفر بموافقة الأسد غير العشروطة، وتقديم الإشادة الدبلوماسية اللاتفة له. والأهم أنه هيا وسيلة قيمة لتعزيز اسدراتيجيتنا من أجل السلام بتأكيد الحاجة إلي إيماءات متبادلة بين العرب والإسرائيليين. وفي استجابة بالإجماع لاقتراح عرضته للرئيس بوش دعت مجموعة السبع

لإنهاء المقاطعة الاقتصادية العربية لإسرائيل ووقف بناء المستوطنات الإسرائيلية الجديدة في الأراضي. ولم يسمع الإسرائيليون. لكن مصداقية أمريكا كوسيط نزيه قد تعززت لدى العرب وهو ما كنا ننتويه.

ومنذ بداية اجتماعنا لم يدر يذهن الأسد شيء واحد وهو تأكيد قبوله لمقترحات الرئيس بوش. وأفصح عن نيته باختيار أن يكون للقاء قصيراً علي غير العادة، ١٥٠ دقيقة فقط، وهو ما يعد بالنسبة له لقاء عمل خاطف. وعندما بدأ الجلسة بتوقع أن يكون هذا الاجتماع أقصر من الاجتماعات السابقة لأننا سبق وأن بحثنا هذه القضايا باستفاضة. أدركت أن الموافقة الواردة في خطاب الأسد موافقة حقيقية. وخشيت من أن اجتماعاً موسعاً آخر سيوضح أن التزام الأسد أكثر غموضاً مما أعلن. فلم يكن بنفسه للقلق. وفي نقطة أخري تذكرني الأسد - كما لو كنت أنا سبب لقاءنا المطولة - أنه يجب ألا ننسى الحاجة لإجراء مناقشة موجزة بهدف إعطاء انطباع إيجابي.

وقلت للأسد إلى خطابه حفز قمة الدول الصناعية السبع وهو المسؤول مباشرة عن ضمان إصدار قرار يدعو إلي وقف بناء المستوطنات، وكذلك رفع المقاطعة العربية. وأضفت: «لا يمكنني المبالغة في وصف الأثر السثير الهائل الذي أحدثته خطابكم في العالم إنه ينظر إليكم الآن علي أنك اخترت السلام، وفي المفاوضات دائماً ما يكون الإجراء مغنياً، وقد أردت لمن وتر أنا الذي الأسد. وعرضت عليه نظرة عامة عن أسلوبي للتكبيكي. وقلت: «أمل أن نبدأ هنا في سوريا تهوية أجواء تُنقل لإسرائيل تجعل من الصعب عليهم قول لا».

وكما اتضح كان كلانا مشغول بقلق موار. وأردت للتأكد من أن سوريا لن تتراجع في مؤتمرنا الصحفي المشترك التالي. ورد: «لا محل للتساؤل. لقد اتفقا علي تلك النقاط إنها واضحة، ومن جانبه أراد الأسد أن يشعر بالراحة بالتأكد من أنه لن يحدث تراجع عن مقترحات ونقاط الرئيس، وطمأنته بأنه، فيما يتعلق بما نقترح لن يحدث أي تراجع فن تكون هناك عملية يسبقها تراجع».

واستقرت منه عن تصريحه الذي يحتمل أن يثير المشاكل، والذي أحلي به في اليوم السابق عن أنه تعين أن يكون للأمم المتحدة - المراقب دور هام في المؤتمر وهو ما وعدت

شامير بالآ يحدد. واتضح علي لقفور أنه بينما يفصل هذا الدور فإنه لا يشكل شرطاً للمشاركة. وسري أن ابغ الرئيس ه ليس هناك غموض. لقد قبلوا مقترحاتنا. فلدنا موافقة وسنقوم بمحاولة للبناء عليها.

أما وقد حصلت علي تطمينات كافية توجهت إلي القاهرة لأجد أجواءً متفائلة، ولدت أن يصدر مبارك بياناً يربط بين استعلاء العرب لتطيق المقاطعة بتطيق النشاط الاستيطاني. فمن شأن هذا البيان إحداث أثر نفسي يتجاوز كل المقاييس لإظهار حدوث تغير واضح لا تحمله العين في مواقف العرب تجاه الدولة اليهودية. وصمدياً سوف يتم دفع إسرائيل إلي موقف غير مريح برفضها شيئاً ذا قيمة حقيقية - أي رفع العقوبات بالتمسك بسياسة الاستيطان. وقلت لمبارك: أن تقدم حجة علي أن المستوطنات عقبة علي طريق السلام. وينبغي علي العرب أن يقبلوا ذلك. وكالمادة كان مبارك شجاعاً في تأييده وأدلي بهذا التصريح في المؤتمر الصحفي الذي أعقب الاجتماع.



وبعد يوم حافل بالاجتماعات في القاهرة في اليوم التالي توجهت إلي جدة للقاء الملك فهد في الساعة ٩،٤٠ جرياً علي عادته المفضلة بعقد الاجتماعات ليلاً. وقلت له: لا يمكننا أن نغادر العربية السعودية بدون نتيجة. مذكراً إياه بأن موقفه سيجعل من اليسير علينا التعامل مع الصغوط المتوقعة من لكونجريس لاتخاذ إجراء مبكر حول ضمانات القروض الإسرائيلية التي يمارسها بشدة. وشيء قليل من المراجعة والفق علي إصدار بيان يؤيد مبارك. وقال الملك: إن أضي مبارك زعيم عظيم وسوف تؤيد مبادرته. لكن علينا أن ننسق مع الأخ حافظ الأسد. ورددت أن حافظ الأسد لا يحب ذلك، وسوف ينظر إلي الطريق الأخرى.

كانت مولفة للملك من تدبير بندر إلي حد بعيد. فهو الذي توصل إلي الفكرة في المقام الأول، ودفع بأنه من الأوقع أن تخرج المبادرة من مبارك ويصدق عليها للملك، لا العكس.

وعرفت أن وزير الخارجية سعود بشعر يارتياح لكبير للانحراط في تيار الإجماع العربي الرئيسي. لكنه وعدني بألا أعادر جدة خالي الوفاض وقد أوفى. وطلبت من الملك فهد أن يضع علي الملك حسين والفلسطينيين لتشكيل وفد مشترك وإعداد منظمة للتحرير وراء الستار. ووافق علي كل مطلبي.

وقلت: «إنني وجورج بوش ممتنان لهذا القرار. أعرف أنه ليس بالقرار السهل لكنه الشيء الصحيح».

وقال الملك: «لقد تغير الشرق الأوسط فلذا سلكتنا طريق السلام فإن مقاطعة شركات الدول للصديقة لن تكون ذات معنى».

وبصراحة كان للقلق يساروني تجاه الملك حسين. وحتى وهو يطلب من الولايات المتحدة إصلاح علاقاته مع العربية السعودية أصدر كتاباً أبيض عن حرب الخليج حاول تبرير سياسة الأردن بتأييد صدام حسين. لكن مرعان ما انصح ادي وصولي إلي عمان في ٢١ تموز يوليو بأن الشجاعة التي أظهرها مبارك والملك فهد قد شحنت عزيمته. وخلال ثلاث ساعات من المباحثات وافق الملك علي المشاركة في المؤتمر، وأقر اقتراح الإيماءات المتبادلة رفع المقاطعة ورفع المستوطنات. وطمأنني أيضاً أنه يعمل بجدية لتشكيل الوفد المشترك. فقد وجه رئيس وزرائه الدعوة لفلسطينيين من الأراضي لزيارة عمان لبحث الأسماء المحتمل مشاركتها في الوفد. وذكرته بمعياري تشكيل الوفد. إن الوفد يمكن أن يضم فلسطينياً مقوماً في الأردن، وينتمي لعائلة مشهورة بالقدس علي ألا يكون مسؤولاً في الحكومة أو منظمة التحرير الفلسطينية. وأكدت أنه يجب عليه إعلان أن المباحثات قد بدأت مع «فلسطينيين من الأراضي» بهدف تهدئة مخاوف إسرائيل من مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية. وبحثت برفقة للرئيس «أن الملك أفضل في السرعه في اللحن. ومع هذا فقد قال علناً ما يكفي للمساعدة».

آخر الحصون: الفلسطينيون وشامير

كنت أعرف دائماً أن الفلسطينيين سيكونون آخر حصن عربي. ففي أوائل تموز يوايه القيت في مكبي في واشنطن مع فيصل الحسيني وحنان عشراوي، الفلسطينيتين اللذين التقى بهما بانتظام لاقتناعهما بحكمة تشكيل وفد مشترك مع الأردن. وحتى ذلك الحين وافقت إسرائيل سراً علي إمكانية مشاركة فلسطينيين من خارج الأراضي، فلسطينيو الشتات، في المباحثات النهائية حول الوضع النهائي للأراضي. ومع هذا كان الحسيني وعشراوي لا يزالان يصران علي ضرورة تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية بشكل ما في مؤتمر السلام، وهو ما أبلغتهما أن حدوثه مستحيل. كما عارضنا فكرة الوفد المشترك مع الأردن. وعندما التقيت بهما في القدس مرة ثانية في ٢١ تموز يوليو كانا لا يزالان علي عنادهما. كان لقاؤنا علي المشاء متوتراً ومثيراً للماطفة، وكما أبلغت الرئيس لاحقاً، فقد أبلغتهما بأن القطار يدعرك ومن الأفضل ألا يفرتهما. لأنه من غير المحتمل أن يعود مرة أخرى في القريب.

ولسوء الحظ كان عرفات لا يزال مصحماً عن تفويض الفلسطينيين الاجتماع مع الأردنيين. وطلبوا منى خطاب تفاهم لدفع عرفات لاتخاذ قرار، أو علي الأقل جعل الأمر أكثر صعوبة عليه في ملحق من الذهاب إلي عمان. وأبلغتهما بأن الولايات المتحدة ستقدم خطاباً منمانات. لكن فقط عندما يبدأ العمل الفعلي في تشكيل وفد مشترك.

وأكدت، أننا في حاجة إلي فصل قاطع بين الشكل والجوهر. إنني لا أقصد بهذا عدم الاحترام، لكنكما تعرفان كما أعرف أنهم يقولون إن الفلسطينيين لا يدعون أي فرصة لإصدار الفرس، وأرجو ألا تهدروا هذه الفرصة. وقلت: «من تعتقدون أنه وراء بيان مجموعة التسبع؟ ومن تعتقدون أنه وراء بيان مبارك حول الاستيطان والمقاطعة؟ من تعتقدون أنه وراء المرافقة السعودية؟ إن هذه الاشياء ثم تأت من فراغ».

وتوقعت قائلاً: «بمجرد أن تبدلوا أنتم وإسرائيل فإن يكون هناك مجال للتراجع، لكن هذا لن يحدث عالم نسوي قضية التعذيب». وقلت لهما: إن ثمن المشاركة سيكون لا بأس به. فسوف يقبل الإسرائيليون بمشاركة فلسطيني من أشهر عائلات القدس يقيم الآن في الأردن، ولكن في الجانب الأردني من الوفد المشترك. وبالإنابة عن الرئيس عرضت عليهما عدة

ضمانات بشأن المفاوضات المستقبلية. فسوف تؤيد الولايات المتحدة مشاركة فلسطينيين من القدس الشرقية وفلسطينيي الشتات في مفاوضات التوصل للنهائي للأراضي. بالإضافة إلى ذلك فإننا متفقون مع السوفيت على أن امتداد فلسطينيين من القدس الشرقية لن يرسى سابقة للمفاوضات القطبية ذاتها في المستقبل. لكن العلاقة غير المباشرة مع القدس الشرقية هو أفضل ما يمكنهما للحصول عليه الآن.



وعلي ما يبدو لم يبد أي منهما أي قدر من التغيير. وظلا بتشككهما وسرعة غضبهما متشككان في موافقة الأسد بشكل تام. وشكت عشاروى من أن رفع المقاطعة ما هو إلا مكافأة لإسرائيل على تخفيف سياسة الاستيطان. وأكدت قافلة: يجب أن يقطعوا هذا دون مكافأة. وبالمعنى فقد تملكهما الغضب لفقدتهما ورقة القدس. ومن المفهوم أن الوطء كانت أشد على فيصل الحسيني. فالحسيني مقدسي عريق الحسب. فوالده عبد القادر الحسيني المحارب الفلسطيني الأسطوري الذي قتل في حرب ١٩٤٨. كان فيصل الحسيني ابن أخ الشيخ أمين الحسيني مفتي القدس الراحل، وهو الزعيم المسمى لحركة فتح - الجناح السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية في الأراضي المحتلة لنحو عشرين عاماً. وأقيمت علاقته بفتح شامير بأنه إرهابي وهو اعتقاد لم يؤكد ما بحوزتنا من أدلة. لكنه عقيدة راسخة لدى الإسرائيليين. ويمكن القول أنه أكثر للفلسطينيين صدقاً. لكن إسرائيل لن تقبله عصباً في الوفد الفلسطيني. وأبليت الحسيني بأن الرئيس سوف يستقبله في البيت الأبيض باعتباره زعيماً شرفياً لفلسطينيي الأراضي. لكن عليه أن يقبل مشاركة فلسطيني في الجانب الأردني من الوفد المشترك باعتباره همزة الوصل الوحيدة لمسألة القدس التي يمكنني إقناع إسرائيل بقبولها. وكنت علي ثقة تامة من أن حزماته من حق للشرعي سيكون جوعة دواء مر يجرعها بشكل استثنائي. اتضح هذا بجلاء تام في تعبيرات وجهه عندما أبلغته ذلك.

ورد للحسيني «لا يمكننا أن نتناول هذا الأمر. إنها مسألة مبدأ. إنه خط أحمر بالنسبة لنا ولا يمكننا أن نتعامل في عملية نضطر فيها علي قبول هذا الشرط. فسوف ينظر الفلسطينيون

إلى غياب سكان القدس الشرقية من الوفد علي أنه بمثابة تشجيع لاجازة القدس الشرقية. ورددت إنه رغم أن حكومة شامير معارضة سياسياً في قضية السلام فإنه يمكنها حشد قوة ضخمة تجاه قضية القدس. ومن الوجهة العملية يتعين أن تنتظر قضية القدس لمرحلة لاحقة. رددت من أنه «إذا أبرزتموها أولاً فإن تكون هناك عملية سلام، وستكون هذه هي البداية والنهاية لكم. لأن للفلسطينيين هم الذي سيعانون أيما معاناة من غياب العملية السلمية».

وكأنه في اجتماعاتنا فرد الحسيني خرافات تظهر للمستوطنات الإسرائيلية فيها باللون البرتقالي. وقلت محاطباً العقل: «فيصل»، إذا لم تجلسوا علي المائدة، فموصوف نأني قريباً بخريطة كلها باللون البرتقالي، وسيكون هذا للنقل غير ذات أهمية علي الإطلاق».

وانفجرت عشريناي بصوت كالرعد: «إن هذا ظلم بين بل أشد أنواع الظلم. فالإسرائيليون الذين لم يتواجدوا هنا إلا منذ سنوات قليلة مشاركون في الوفد بينما سيحرم الفلسطينيون الذين تعيش عائلاتهم في القدس الشرقية علي مدي قرون من المشاركة».

وصحت: «ليكن، إن القضية ليست العدل، أو ما الذي يحتمل أن يكون صحيحاً. إنها مسألة واقع». إننا لا نقرب من حل هذا الوضع المعقد. وتطلت باجتماعي مع شامير لقطع الطريق علي مواجهة وشيكة. ومع ذلك أوجت لي فطرتي أنني أحرزت شيئاً ضئيلاً من التقدم. وأملت في أن حنكتهما - والاعتقاد بأنني لأهزل بأمانة أقصى ما أستطيع - سوف يعطيان في النهاية.

وقبل أن أصفه باليوم للصوب عقدت لقاءً منفرداً مع شامير في وقت لاحق في المساء. وكان يدرك أن مباحثاتي مع العرب قد عززت للضغط عليه، ولذا فقد حاول في التمهيد بأن يلرمي جانب الدفاع، ويدري بالقول إن هناك شبهة في إسرائيل بأن الولايات المتحدة عازمة علي إجبار إسرائيل علي الخروج من الأراضي. ورددت بأن هناك شبهة قوية في الولايات المتحدة بأنكم غير جادين بشأن مفاوضات السلام.



وبدأت سحمة حقيقية علي شامير وبدأ شبه مصعوق يعثره لشك تجاه قبول الأسد . وكما كان مبارك يشك في استعداد شامير في التوصل إلي حل وسط قبل ثلاثة أشهر ها هو رئيس وزراء إسرائيل لا يصدق الآن بقبول الأسد وخاصة لأن المؤتمر كما يعرف شامير سيدغد أساساً علي هدي من المطالب الإسرائيلي . ولذا أسئلة عاصفة كان يبدو وكأنه يحاول الاعتماد علي الحصول علي مصداقية لا يستطيع أن يتوصل إليها بنفسه يهبها لأند أعدائه . وسأل شامير : ما سر هذا للتخدير ؟ إن الأسد لم ينفوه بكلمة واحدة عن السلام ، ما هدفه ؟ إنه ليس شخصية مثيرة كالسادات . وأبلغته بأن مبارك وفهد والملك حسين أبلغوا الأسد جميعاً بأنه لن تتاح أمامه فرصة مثل هذه علي الإطلاق . وأنه اعتقد صدق هذا في نهاية الأمر . وقلت : إن ما حصل خلال هذا الأسبوع ليس أقل من لفرجة طامعا سعيد لها منذ عقود ، أما وقد استجاب شركاء للتفاوض العرب للشروط الإسرائيلية إلي حد كبير قالوا الآن هو وقت الجوهر . ونكرته أنه في غضون عشرة أيام سوف يلتقي الرئيس مع جوربالشوف في موسكو حينها سنطرح علي السوفيت موعداً لعقد المؤتمر . وأعتقد أن السوفيت سوف يوافقون علي انعقاده في الخريف . وطالبته بضرورة حسم للتردد الإسرائيلي الآن . وفي اجتماع سابق مع شامير ، وقبل أن أثير القضية مع الأسد تحدثت معه حول احتمال تركيز قوات أمريكية علي مرتفعات الجولان عقب توصل سوريا وإسرائيل إلي السلام . وبدأ أنه يرحب بالفكرة في البداية . لكنه شعر بفقدان لحررها في نهاية الأمر - ربما لأن تولجداً عسكرياً أمريكياً سيضعف أي حجة بأن إسرائيل تريد الاحتفاظ بالجولان لضمان أمنها . وسألني عما إذا كانت للولايات المتحدة لاتزال تؤيد خطاب للرئيس فورد عام ١٩٧٥ الذي أطلقني عليه في آذار مارس . وقال لا نريدكم أن تؤيدوا موقف سوريا بأنه يتعين علي إسرائيل الانسحاب من الجولان ، وأكدت موقفاً مجدداً بأن هذه مسألة من صميم المفاوضات الثنائية بين إسرائيل وسوريا ، وقت لشامير إننا سوف نؤكد مجدداً في خطاب للصحف أن الولايات المتحدة لإسرائيل إن الولايات المتحدة لاتزال تؤيد بحزم الالتزام الذي قطعه للرئيس فورد . وكان يوسعي أن استشف من لهجة شامير أنه لم يتوقع مطلقاً أن يوافق الأسد . ومع هذا وفي ضوء هذا للواقع كان يعرف تماماً أن الكرة في ملعبه الآن ، ولا يمكنه عملياً أن يقول لا لمؤتمر إقليمي . وفي ختام الاجتماع أحسست أنني طمأنته بما يكفي . لكنه قال إنه يحتاج بعض الوقت لاتخاذ قرار ، ووعدني قائللاً سوف أقيم لك رداً قريباً جداً .

وكالمعتاد وعندما تجتمع بحضور المستشارين من كلا الجانبين كان شامير كثير الشكوى
بعض الشيء في اجتماع ثان عقد صباح اليوم التالي. وفي إحدى المراحل طلب علي سبيل
المثال مني إعطائه نسخة من رسالة الأسد. ووردت «هل تتوقع مني أن أطلع الأسد علي
رسالة منك للرئيس بوش؟» وعرضت أن أطلعها علي موجز عن فعلها وقيل عرضي.

وفي النهاية قال شامير: «إننا في حاجة لبعض الوقت لكن سوف نتلقي الإجابات فلا
يصيبك الإحباط».



وفي الأسبوع التالي وجهت اهتمامي إلي مؤتمر رابطة دول جنوب شرق آسيا «آسيان»
في ماليزيا ثم القيام بزيارة خاطفة لمنغوليا لاستكمال تلك الرحلة التي قطعناها في آب
أغسطس ١٩٩٠ ثم قمة موسكو بين الرئيس وجورباتشوف التي تبدأ في تموز يوليو. وكان
الشرق الأوسط مهماً إلي حد ما بالنسبة لاهتمامات القمة التي بلغت ذروتها بالتوقيع علي
معاهدة ستارت. ومع ذلك فقد توصلنا إلي اتفاق مع السوفييت علي موعد في تشرين الأول
أكتوبر لمعد مؤتمر للسلام. وكان بسمرتليخ يفصل التريث حتي وقت متأخر من الخريف.
لكننا كنا علي شفا التوصل إلي اتفاق نهائي، وخشيت من أن أي تأخير قد يدمر زخمنا.
فالفلسطينيون بوجه خاص يملكون مشكلة. وسادني الشك أنه بدون ضغط بشكله متعدد موعد
نهائي حقيقي فلن يجتازوا العتبة.

وقبل مغادرتي القدس تركت رسالة بأنني مستعد للمودة لكن إذا وافق شامير علي
المشاركة في المؤتمر قبل وصولي. ونقل لي الإسرائيليون رسالة عبر دينيس روس في موسكو
بأن شامير قبل المشاركة. ومع ذلك لم تكن برقيتهم ترفي إلي حد القبول التام، وأبأني روس
«إنه يريد تأجيل قول نعم حتي تزور إسرائيل». أما وقد اكتويت أكثر من مرة فإن هذا لا
يكني. واتصلت بشامير هاتفياً من جناحي بفندق بيندا وشكرته علي رده الإيجابي، وقت
لكنني لن آتي إليكم ما لم تقل لي نعم الآن.

روعد شامير بألا يصيبني بالإحباط لكنني لم أفن . واحتج قائلاً لكن لدينا قلق يتحين مذاقته . مثيراً من جديد بعض التحفظات السابقة بأن العرب سيجدون طريقة لإقحام الأمم المتحدة بما يضر بإسرائيل . وطلب مني أيضاً إلغاء قرار دمج الصهيونية بالنصرية في الأمم المتحدة . وأبلغته بأنني سأدرس النقاط التي أثارها وأعود للاتصال به عندما يسمح وقتي بالحديث . وكنت مستعداً لموافقة علي بعضها لكنني لم أكن مستعداً للموافقة عليها كلها .

وبعد لتشاور مع الرئيس عاودت الاتصال بشامير صباح اليوم التالي وتمهدت بأن تبذل الولايات المتحدة جهوداً جادة لإلغاء قرار دمج الصهيونية بالنصرية وطمانته إلى أن الولايات المتحدة لن تسمح بأن تخلق الأمم المتحدة عملية تنافسية للمؤتمر . لكنني رفضت رفضاً باتاً ما طلبه باستخدام للفيتر لتقنياً اعدة شامير في مجلس الأمن علي أي إجراء تعارضه إسرائيل . وقلت له لن آتي إلي إسرائيل للتفاوض علي هذه القضايا .

وقلت : «إنني أريد منك أن تكون قادراً علي أن تقف معي بعد اجتماع فيسبر لنقول نعم لمقترحاتنا بحل وسط . فلا تزال هناك قضية التمثيل للفلسطيني التي يتحين محللتها . وما عليك إلا أن تقول نعم لاشيء سواها . وللمر في هذا إنني أريد أن تظهر وأنت تقول «نعم» وتلقى التهمة علي الفلسطينيين» .

وسادت لحظة صمت عابرة ثم في الساعة ٨:٤٠ مساءً قال شامير في صوت رقيق «لقد قررنا دخول عملية التفاوض وفقاً للاقتراح الأمريكي . لقد قبلناه» وقلت : «تسيد رئيس الوزراء هذا هائل إنني سعيد لسماع ذلك» وقلت له سأسعد بزيارتك في القدس اليوم التالي .



ووصلت حاملاً معي هدية من جورباتشوف أعلم أنها ستسر الإسرائيليين . ففي أول أيام قمة آب أغسطس أفضني لي جورباتشوف : «جيم بوسك أن تبلغهم أن الاتحاد السوفيتي سوف يستأنف العلاقات الدبلوماسية معهم قبل انعقاد المؤتمر» وقد احتفظت بتلك الأنباء التي عرفتُها وأيقنتها على الكتمان لمدة أشهر لأكشف عنها للقباب في الوقت المناسب مع إعادة

التصريحات التي أعطيتها لشامير عبر الهاتف. كان اجتماعاً قصيراً نسبياً هو في الحقيقة عكس التيار. لكن المسألة الحاسمة للمنطقة بتمثيل للفلسطينيين لم تزل قائمة، وطلبت من شامير القبول بالفغاهم الأمريكي الذي قدمته للفلسطينيين بشأن المفاوضات المستقبلية حول القدس. وقلت: إنني لا أسألك التوضيح بعبادتك. لكن أظن لي قدراً من المرونة لإبلاغهم - أي الفلسطينيين أنهم لا يتخلون عن مطالبهم حتي قيل أن تبدأ المفاوضات. وأبلغته بأن الأهم هو الإمساك عن التفاوض بشأن قضية التمثيل عبر الصحافة.

وفيما بعد التقيت أنا ورئيس الوزراء مع الصحفيين. وبدت لهجته رقيقة لكن هدوءه عكس غليظاً كان يعمل في داخله. فقد بدا شامير كما لو كان ثمرة بيرسيمون* بعد تطعيمها.

وقد أفنيت لي ذلت مرة أنه يعتقد أنه سيكون رئيس الوزراء الذي يبدأ مباحثات السلام مع العرب لكن أحداً غيره هو الذي سيحني ثمارها. وساورني الشك في أنه ما كان يتوقع مطلقاً أن تتحقق هذه البداية بسرعة بالغة. لكن ها هي الولايات المتحدة أوصفت جيران إسرائيل إلي صيغة لطيفة سعت إليها علي مدى أربعين عاماً. وهي المفاوضات المباشرة. ولم يكن أمامه خيار سوى قول نعم. كنت أعرف ذلك وقد قالها.

معركة تغليب الشك علي الجهر

أخيراً الآن وبعد لأي استقرت التهمة علي أكثاف طرف واحد «الفلسطينيون»، وربما لأنهم يتمتعون بذكاء مفرط نفهم أن للزخم الذي لا يقاوم والذي أمّنت في خلقه قد وصل إلي عتبة بابهم، كان الفلسطينيون أشد انفعالاً عندما التقينا في الثاني من آب أغسطس. وأبهنى الحسيني وعشرون أنهما يخشيان الاغتيال بيد متطرفين يمينيين إسرائيليين، وقال للحسيني: وإنيكم تتحدثون إلي رجل ميت. إنني علي ثقة تامة من أن للمتطرفين الإسرائيليين

* ثمرة صابون لآلئ لشجرة ديو سيروس ولحم ديو سيروس محبب من اللاكينة، وهذه الشجرة شجرة مطهرة وقزينة ومن السيلة الأندلسية وقراها متحدة بوزع مظلها في المطلق المطارة. (المترجم).

سيختارونني ربما في غضون أسبوع أو شهر أو شهرين لكنهم سينالون مني. فلا ندعوني لموت خالي الوفاً لشيء في جيبي.*

وأثناء هذا الاجتماع الذي استغرق أربع ساعات قرأ على رسالة عذيفة لازعة من تونس، ولم آخذها مأخذ الجد. وقت: أمل أن تكون الرسالة قد كتبت قبل الاجتماع. لكنها أضفت طابعاً مثيراً علي للسفوف التي يشعران بها صراحة.

ولم يكن لدى خيار سوى زيادة قلقهما بتذكيرهما بأنهم أصبحوا العقبة الأخيرة أمام عملية ربما تنهي احتلال إسرائيل للفلسطينيين يوماً ما. وقت لهما: لقد قبل شامير لتوه شروطنا للعملية. وهي نفس الشروط التي قال في رسالة إلي الرئيس إنه لن يقبلها. إنني لم أحصل علي موقفه النهائي، لأنه يستطيع الاحتماء بحقيقة عدم تشكيلنا لوفد مشترك، وفشلت محاولتي للضرب علي وتر المصلحة الذاتية في نهجكهما. فلأزالا مشغولين بقضية التمثيل وغير مستعدين لقبول أي حلول وسط. وأرادا من الولايات المتحدة تغيير سياستها طويلة الأمد للمعارضة لإقامة دولة فلسطينية مستقلة. وعرضت عليهما خطاب ضمانات أشرت إلي أنه سيبدد قلقهما. وقت: «ما يدور في رأسي هو صيغة محتملة ستجود تأكيد تأييدنا لحقوقكم السياسية المشروعة. وهي لا تتضمن دولة فلسطينية مستقلة منفصلة، ولكنها لا تستبعد حق تقرير المصير في إطار كونفدرالية مع الأردن».

وحاولت إقناعهما بأن مختلف هذه البيانات والتعهدات والإيماءات التي اقتضت إعداداً مسبقاً سيكون لها أثر كبير في توضيح أنهما لم يتنازلا عن مطالبهما المتعلقة بالقدس قبل إجراء المفاوضات، وأن قضية القدس للشرق الأوسط ستدرج علي جدول الأعمال في مرحلة ما. وقت: «إذا أبلغتكم أن هذا غير مستحسن بما يكفي. حينئذ أجد لزاماً علي أن أبلغكم بأن موقفكم يخلب الشكل علي الجوهر. وأن هذا الموقف ليس له الحد قد ساهم في خلق واستمرار

* بحثت موضوع حمايتكما لأن قلق ساروني علي سلامتهما. وإن يتول الفلسطينيون توفير حماية إسرائيليه من منطق المبادئ والسياسة وإذا وقع بهما من الرئيس قامت المخابرات الأمريكية أولاً بتدريب حراس شخصيين فلسطينيين علي مهام الأمن. وظلت من شديداً أيضاً دراسة ما إذا كان يومه القيام بأي إجراء غير قنولات المخابرات لتفكيك الضمانات وسارع بالرد بأنه سيبحث ما إذا كان بالوسع فعل أي شيء. ويسوء الحظ عندما تعرفت لثقة إسرائيل أمام صدمة بيت لحم إلياس فزوج خلال اجتماع في واشنطن طلب علي ألا ألق. وقال: «إنهم يسعون يفتنون تعديلات علي مدار العشرين عاماً الأخيرة».

المأساة الفلسطينية ، فبالله لا تدع إسرائيل تنكسر وراء للشكله . ومع نهاية الاجتماع رجوت
منهما شيئاً أخيراً وحيداً ، أن يولغا الصحفيين بأننا نحرز تقدماً ، وقتاً لهما ؛ المستما في حاجة
إلي رواية أن للتبعة ملقاء علي الفلسطينيين .

وأثرت نفس العجيج مع الملك حسين في وقت لاحق من اليوم في عمان . وطلبت منه
استخدام قناته الخاصة مع إسرائيل ليقدم الأسماء الفلسطينية إلي شامير . وفي تلك المرحلة لا
يمكن أن تكون هناك أي مفاجآت . ولطمانني بأن ذلك لو سيحدث بالفعل ، ووافقت علي طلبه
بالحصول علي خطاب ضمانات منفصل . وتوصلت إلي أن الملك بات علي الحال ويقوة
أخيراً . وفي برقية ثبلية أبلغت الرئيس : «حان الوقت لمحاولة تقديم المعونة مرة ثانية . ثم
فمت بزيارة المغرب وتونس والجزائر . وحصلت علي موافقتهم علي للمشاركة في المباحثات
متعددة الأطراف . وفي تونس تلقيت من الرئيس زين العابدين بن علي حماسة ضخمة تعمل
عص الزيدون . وقلت : دعونا نري إذا كان بوسعنا أن نجعل هذه للعمامة تطير . وعدت إلي
واشنطن في ٥ آب أغسطس . كنت قد قطعت مسافة طويلة للغاية لدرجة أن أفراد الطاقم
الأمني قالوا في المزاح بأنه كان ينبغي عليهم ملء بطاقات التصويت للقبائى سنفا * .

كابوس الضمانات المتعددة

بعد أحداث العام الماضي الخطيرة التي اضطرتني للقيام بجولة الأيام الثلاثة والعشرين
في اثنتي عشرة دولة قطعت خلالها ٧٦٩, ٣٣ ميلاً أصبحت أن هناك مبرراً لقياسي بأجازه ،
وهكذا عادت واشنطن في ٩ آب أغسطس علي أمل الاستمتاع ببعض الوقت للصيد في
مزرعتي في يومينج ، وبعد عشرة أيام تعكر صفو الرحلة بسبب المحاولة الانقلابية ضد
جورباناشوف من جانب المتشدديين (تورد مزيداً من التفاصيل في الفصل القادم) مما
اضطرنني إلي العودة إلي واشنطن لعقد سلسلة من اللقاءات مع الرئيس ثم للقيام بزيارة إلي

* في إحدى مراحل جولتها السطرية تلك بحث لي القويقات كوارنيل دين جاكسون قائد طاقرتنا بهذه المعلقة : «سوجب برنامج
سيرتنا المتكرر بحق لك التقييم بدرجة ذهاب لياكبين بين واشنطن دوسى . وهراوى الرجاء طلب هذا الطاقم

بروكسل للمشاركة في اجتماع عاجل لوزراء خارجية حلف شمال الأطلسي ثم زيارة الرئيس في مقر إقامته الصيفي بمسقط رأسه كينغدونكوبورت بولاية مين لإجراء مزيد من المشاورات حول الانقلاب الفاشل وتداعياته.

وعندما عدت إلي ويومنيج في ٢٢ آب أغسطس كان لا يزال من المتعين إنجاز أعمال حاسمة في عملية السلام ورغم موافقة إسرائيل للمشروطة. فلا تزال القضية الفلسطينية تعقيداً قاتلاً محتملاً. يأتي بعد هذا مسألة توفير غطاء دبلوماسي لكافة الأطراف لجعل مشاركتها في مؤتمر السلام أكثر قبولاً. وخلال مناقشاتي مع شامير في أيار مايو تعهدت بأن أقدم الولايات المتحدة خطاباً إضافياً يتضمن التزامات وتفاصيل مفصلة. وبدون مفاجآت سارعت إسرائيل علي الفور بتصريب تلك الأنباء إلي الصحافة. وبسرعة بالغة ردت الأردن وسوريا والفلسطينيون بطلبات للحصول علي خطابات ضمانات خاصة بهم. ويهدف إحداث نوع من التوازن لم يكن هناك بد من تقديمها. وهكذا بدأ شهران من المعلومات الشافة مع كل من هذه الأطراف لإعداد تلك الخطابات.

وأثبت هذا أنه تجربة تثير النفقة كمحاولة للسير في حقل ألغام ضخم. وأراد كل طرف من المشاركين صياغة محددة تهدد مخاوفه. ويتقنأ فإن الصياغة التي ستطعن واحدا منهم سوف تثير غضب الآخر. ومنذ البداية حاولت تقليل للتشاحن لأدني حد بمراعاة ثلاث حقائق مطلقة: أن كل الأطراف الأخرى ستطلع علي النهوض الواردة في كل خطاب - إن السياسة الأمريكية أو صلاحيات المؤتمر لا يمكن تغييرها بواسطة أي صياغة. «وسيظل هذا ألا نفع في نفس حجر الضمانات السرية المتصارعة كما سبق وحدث مع بعض أسلافي». ولتأثر ضيق إلي حد كبير تجاهل تلك الصياغ. أثناء التفاوض علي بنود الخطابات. وحاولوا جميعاً بشكل دائم - دون نجاح - اقتزاع للالتزامات سياسية أمريكية جديدة من خلال تلك الخطابات.

وتطلب وضع صياغة عامة يمكن أن تقبلها كافة الأطراف، وإقناعهم جميعاً بأن تصريب محتوى الخطابات ينذر بكارثة - وتطلب هذا مهارة خارقة علي أرفع مستوى، وكم من مرة أوشك صبري علي اللفاد بسبب محاولة محاور أو آخر للحصول علي مكافأة

ديبلوماسية بإبلاء إعتبار اضافي قليل من شأنه الإضرار بالتوازن اللغوي الدقيق للصياغة. وفي النهاية وفرت هذه الخطابات الدفعة النفسية بتشجيع كافة الأطراف مما أتاح انعقاد المؤتمر من وجهة نظري.



ومع منتصف أولول وبعد مشاورات مهمة مع كافة الأطراف قام بها خبراء وزارة الخارجية تم إعداد مسودات خطابات الضمانات. وقبل أن يحسني لنا توجيه دعوات لانعقاد المؤتمر، كان من المستحسن علينا التفاوض حول القبول الرسمي لكل خطاب. وأردت أن أعرض مسودة خطاب للدعوة لا التفاوض عليه حتي لا يفاجأ أحد بمحتواه. ولا زالت قضية التمثيل معترجة بسبب عناد منظمة التحرير الفلسطينية في المقام الأول. وأملت في أن تساهم جولتي الثالثة في الشرق الأوسط خلال شهرين، والتي بدأت في القدس في ١٦ أولول سبتمبر عقب زيارات للمكسيك وللتحول المفاجئ في الاعتماد السوفيتي، في إزالة ما تبقى من عقبات وإفساح الطريق أمام انعقاد المؤتمر. ومرة أخرى لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها نقاؤلي تناء عملية السلام في غير محله.

وجاء اجتماعي مع شامير هادئاً علي غير توقع. وقد أبدى الإسرائيليون بعض القلق من خطاب الضمانات. لكن تولد لدى الآن إحساس بأن عقبة شامير باتت أقل بكثير عن عقبة مستشاريه العسكريين مثل ميخا أرينز ويوسي بن أهارون. وخلال تلك المناقشات تطور نمط أصبحت الاعتراضات تثار من خلاله في بعض الأحيان من جانب بعض المعاونين مثل ابلي روبينشناين ويوسي بن أهارون. وفي إحدى المراحل قاطعت الحديث لأقول: إنني لا أريد سماع هذا الكلام من المعاونين. بل أريد سماع تلك الاعتراضات من رئيس الحكومة بموجب الدستور. فبوسع رئيس الوزراء أن يعبر عن نفسه. وكما توقعت لم يكن شامير يشاركهم كل تلك الاعتراضات.

أما اجتماعي مع الفلسطينيين بمقر إقامة تفصل عام الولايات المتحدة مساء ذلك اليوم فقد اتسم بالصعوبة كالمتوقع. وفي تعبير مجازي غير مقصود عن الهوة التي تفصل بيننا، تناول الرفدان طعامهما في مكانين متباعدين منفصلين بالقاعة مما يعكس مدي الإحباط.

فقد ظلوا علي جمودهم خلال الأسابيع الستة التي انتصت علي لآخر اجتماع معهم عاجزين عن التحلي بالعزيمة السياسية للتحرك قديماً. فلم يُحرزْ أي تقدم تجاه تشكيل الوفد المشترك مع الأردن. وبسبب ترويح توبس، أي منظمة للتحرير لم يبدأ الفلسطينيون في التفاوض مع الملك حسين. وأردت أن يوقفوا أن أنامهم يصبريني شخصياً بالإحباط وقد بدأ صبري يفقد سريماً تجاهه.

وقلت: « لقد حان الوقت للكف عن الحديث عن الفصل ليتم الشروع فيه. إنكم تتعرضون لخطر إهدار أفضل فرصة تلوح أمامكم حتي الآن لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي. »

إنني - عفواً لقرسيتي أدير ظهري لكم، وإنني في غاية الإحباط لأن جهودنا لم تسفر ولو عن أبسط دليل علي انكم تلتفون ما نطلبه منكم - أي البدء في اتصالات مع الأردن حول الوفد المشترك.

وصلتهم رسالة من الرئيس تتضمن اثنتي عشرة ضمانة بما في ذلك صيغة خاصة عن القدس كنت قد وعدتهم بها من قبل. وقالت: « هذا هو أفضل ما يمكننا عرضه. وهو أفضل ما نلتموه حتي الآن وأفضل ما تحصلون عليه - في اعتقادي قبل إجراء أي مفاوضات. »



وفي صباح اليوم التالي وعقب اجتماع مكثف للجدل مع شامير وكبار مساعديه أخفق في تسوية خلافاتنا حول المستوطنات وضمانات القروض غادرت الي القاهرة حيث وجدت مبارك علي صموده المعتاد. وأطلعني علي جهوده لإقناع منظمة التحرير الفلسطينية بالكف عن عرقلة الفلسطينيين. واجتمعت قبل توجهي إلي دمشق مع الأمير بلدرحيث أبلغني أن للسوديين تلقوا تقارير استخبارية بأن صدام حسين قد تيقن من خسارة كل شيء ويفكر في الانسحاب - لكن ليس قبل أن يشفي غيظه بالانتقام من المملكة. وساور القلق للسوديين من أنه ربما يستطيع شن هجوم أخير بثلاث أو أربع سوابيح سكود مزودة برؤوس كيميائية. وقال بلدر: « آمل أن تتدخل وسائل استطلاعكم بما يكفي لتعطيلنا إنذاراً مبكراً. ورددت بإبنا نراقب

القدرات العسكرية لصدام عن كعب، وسوف نبذل للسعوديين.. لكنني كنت أعتقد أنه من غير المرجح أن يقدم صدام علي الإنتحار. ومع هذا شعر بنذر بالارتياح عندما سمع أن الرئيس وافق علي طلب سابق بالحصول علي صولريخ باترويت إضافية. ووعدت بأن صولريخ باترويت ستأخذ طريقها الي المملكة من الكويت غدا.

كان اجتماعي مع الأسد بعد ظهر اليوم التالي اجتماعا مطولا استغرق ست ساعات. وقلت له: «إن أكبر عقبة الآن هي عجز الفلسطينيين عن عمل أي شيء». وطلبت منه توجيه مبادرة إلي الفلسطينيين ومنظمة التحرير الفلسطينية في تونس «بأنهم إذا لم يتحركوا معكم فربما يتحرك بدونهم مع الملك حسين». ثم سلحت الأسد مسودة خطاب ضمانات يتضمن ثمانين نقاط تفاهم محددة نصت النقطة السادسة علي إعادة تأكيد معارضة الولايات المتحدة مجددا للمستوطنات.

وفي هذه النقطة ثار نزاع جديد حول رسالة الرئيس فورد عام ١٩٧٥ حول الجولان. وكان شامير يصر علي أن تعيد الولايات المتحدة التأكيد علي تعهد فورد علي «إيلاء ثقل كبير» لرأي إسرائيل بأن أي معاهدة سلام إسرائيلية سورية «يجب أن تستند الي وجود إسرائيل في الجولان». وأبدي الأسد رأيا قاتما تجاه هذا التعهد قائلا: «إنه يتناقض مع وعد الرئيس بوش الواردة في رسالته المؤرخة ٣١ أيار مايو للأسد. وشكا قائلا: «إنها رسالة بالغة الغرابة. هل يمكننا أن نعطي حق التنازل عن أراضينا».

وقلت: «إن عرض الرئيس بوش بالضمانات الأمنية هو في حقيقة الأمر دليل نهائي علي «إيلاء ثقل كبير» لرأي إسرائيل وفي الوقت ذاته قدم فرصة لسوريا للتفاوض مع إسرائيل حول إعادة الجولان. ويبدو أن الأسد قد رلوع أمام منطق هذا الموقف فلم يظهر قبولاً أو رفضاً عن عمد. وتهددت آمالي في ضمان مولفقتي علي الحطاب قبل مفادرتي إلي عمان سرعاً، واتفقا علي العودة إلي الاجتماع في غضون يومين قبيل عودتي إلي واشنطن».

وأثناء زيارتي للأردن في ١٩ أيلول سبتمبر لقاء الملك حسين ألححت علي عقد اجتماع مع الفلسطينيين في عمان لإظهار بادرة رمزية مثيرة بأن هناك تحركاً جارياً باتجاه تشكيل وفد أردني فلسطيني مشترك. وطلبت من مبارك أن يضبط علي منظمة التحرير لعدم عرقلة

الاجتماع وعلي شامير ليسهل سفر حنان عشرواي من رام الله عبر الضفة الغربية إلى عمان. وحتى اللحظة التي أيقظني فيها وزير الخارجية الأردني حينذاك طاهر المصري في الساعة الثالثة صباحاً، كنت أعتقد أن الاجتماع لن يتم. وكنت أعرف أن الإسرائيليين لا يحبون عشرواي بسبب علاقاتها مع فتح. غير أن مصالحهم في تشكيل وفد مشترك تغلبت علي شكوكهم حول تطرفها.

ومع ذلك كانت عشرواي الصلبة للشجاعة التي تتحلى بالكبرياء والمشددة أحياناً واضحة وحاسمة في عرض رأيها بشكل استثنائي. وأكبرتها بغطرتي. وعندما لا تتحدث بشراهة فإنها تتحدث الإنجليزية بطلاقة. وفي البداية كنت هي مترجم فيصل الحسيني لكن مع مرور الوقت أصبحت تستطلع بدور أكثر أهمية في الوفد، وفي النهاية أصبحت المتحدث باسم الفلسطينيين. وكفلسطينية مسيحية بدت عشرواي مشحونة بغضب خاص من ادعاءات الإسرائيليين بأن الأراضي هي أرض الميعاد. وقالت: إن أجدادها قتلوا تلك الأراضي لقرون وهم أتباع المسيح.

وسلمت عشرواي مسودة خطاب الضمانات، وذكرتها بأن اللشال الفلسطيني يشكل أخطر تهديد لفشل العملية. ولو بقي الفلسطينيون خارجها فإنهم يقامرون بأن يظلوا علي الهامش. ووقعت أن العرب لن يشاركوا مطلقاً في المؤتمر بدون الفلسطينيين. وكنت متيقناً من أنها علي خطأ. وقلت: «إننا لا نفصل الحلول الجزئية. ولكننا نحصل علي ما يمكننا قبضه التقدم لفصل من لاشيء». وجاء دورنا لنوجه رسالة بأن الوقت مهيباً لاتخاذ قرار. وأشارت قائلة: «لماذا أعجبني ثباتكم ومثابرتكم في معالجة قضية فشل كليرون في حلها».

وَمَمَّنتُ إطرأها ونساملت عما إذا كانت الأيديولوجية الراسخة لمعها ستؤدي إلي فشل جهودى. وذكرتها برفقة في الختام أنه لو تسرب محتوى الرسالة التي يحوزتها إلي الصحافة تكون العملية قد ماتت ويوسى الذهاب للصيد. وقالت في ابتسامة رقيقة تفصح - نوس للمرة الأولى - عن روح الدعابة: «ربما كانت تلك نتيجة أفضل، السيد لوزير».

عقبة سورية أخرى علي الطريق

في ٢٠ أيلول سبتمبر وصلت إلي دمشق في تمام الساعة للحادية عشرة وعشرين دقيقة صباحاً. وفي الطريق من المطار إلي دمشق آثار للشرع مشكلة جديدة. وقال: إن الأسد يشعر بخيبة أمل تجاه خطاب الضمانات. ولم يسنئ سماع ذلك. وتواصلت المفاجآت في اجتماع مطول آخر استغرق نحو خمس ساعات.

وقلت: لقد أرعجني أن أسمع أن الشرع يروج لفكرة أن الولايات المتحدة أعدت خطاب الضمانات لسوريا مع الإسرائيليين. وأوضحت: «لقد قلت إننا لم نطلع أي طرف علي رسالة الضمانات الخاصة بالطرف الآخر. إنني أقول الحقيقة. فمن المهم للغاية أن تكون كلمتي حقيقية، وباقع الأسد عن الشرع وحاول تهديتي. وقال: «إن الوزير لم يقل إنكم عملتم مع الإسرائيليين في كتابة الخطاب. إنه يعنى أنه كان للإسرائيليين دور محدود لا أعرفه».

وبوضوح: فقد أراد الأسد إلزامي جانب الدفاع منذ البداية. وادعي أنه ظل حتي منتصف الليل يقرأ التقارير الإخبارية المتعلقة بخطاب الضمانات الإسرائيلي. وكلما أرغل في القراءة كلما قلت فرحته. وفي رأيه الخاطي أن الخطاب دمر صلاحيات المؤتمر. وهو شيء طمأنته بأن لن يدم السماح بحدوثه.

وقال الأسد: «إن هذا يعنى أننا نعود إلي المربع رقم واحد، وأننا نهدر وقتنا. إن الضمانات التي أعطيت لإسرائيل تدمر التقدم الذي نمتقده أننا نحرزناه كما تدمر كافة اتصالاتنا السابقة مع الولايات المتحدة».

وقلت: «أشعر بالأسف بسبب شعورك هذا. وحول اهتمامه إلي مسودة خطاب الدعوة الذي عرضته عليه موحياً بأنه لم تفقه أدق التفاصيل. وأبدي اعتراضه علي فقرة تصف المفاوضات بأنها مباشرة، وجهاً لوجه» وقال: «إنها مباشرة، ألا يكنى هذا؟».

وقلت مازحاً: «إن وجهاً لوجه أفضل بالقطع من ظهر لظهر» وقال: «لا ينقص إلا أن نقول.... «إهتمام» وقلت: «حسناً سأقبل» ولم يستخرب. وفاجأني بالقول «لا، لا أريد إهتمام» ووافقت علي هذا الإسقاط.

وما لبث أن وضع الأسد عقبة إجرائية جديدة، وقال: «لقد فوجئت تماماً بأن هناك لجاناً متعددة الأطراف تعمل لبحث القضايا الإقليمية بينما أراسينا لانزال محبلة». وقلت له: إنني بسراحة أشعر بالصدمة لأنه يريد أن يرهن عمل هذه اللجان بقضية ربما يحتاج حلها لعدة عقود.

ورد الأسد قائلاً: «كيف يمكننا بحث التعاون الاقتصادي بينما حالة الحرب لانزال قائمة؟ فلم يحدث هذا مطلقاً منذ بدء التاريخ. فإذا أراد أحد أن يبحث التعاون الاقتصادي مع إسرائيل فليفعل. فسوف نحاسب الجماهير هذا الشخص».

وذكرتُ الأسد بأنه وأنا تطرقنا عدة مرات لهذا الموضوع. ورغم أننا بحثنا الجندري على مدار ساعة كان من الواضح أن هناك خلافاً جدياً حول هذه النقطة. وكنت أعتقد أن المباحثات متعددة الأطراف حول حقوق المياه ولللاجئين والتنمية الاقتصادية ستكمل عملية السلام بتحسين الأجواء وتهيئة أرضية مشتركة بين كافة الأعداء القدامى. ومع هذا أراد الأسد أن تلصق الذصرة علي أن المفاوضات متعددة الأطراف لن تبدأ إلا بعد انتهاء المفاوضات الثلاثية بتجاح. وهي صيغة تستغرق سنوات. وقلت للأسد: لك مطلق الحرية في عدم المشاركة في المفاوضات المتعددة الأطراف ووافقت علي بحث صياغة وسط في هذا السدود بالأنا تبدأ المباحثات المتعددة الأطراف إلا بعد إحراز تقدم جوهري. وبالمقابل طلبت اختصار موعد بدء المباحثات الثلاثية ليومين بعد انتهاء مراسم الافتتاح بدلاً من خمسة أو سبعة أيام. ووافقتا علي دراسة هذه التعديلات ومعاودة الاجتماع في غضون أسابيع فلال. وفيما نحن نبحث المباحثات أريدت أن يعترف الأسد بأن قاعدة التناقص الضمنية تسري علي مساوماته وقلت: «نذكر في النهاية أن هذه دعوتنا. وفي مرحلة ما سوف نوجهها بغض النظر عن الاعتراضات السورية».

وخلصت إلي أن موقف الأسد رغم أنه يستند إلي آرائه للقدمة لا يعدو أن يكون مجرد مناورة أكثر منه موقفاً مبدئياً. كان الأسد يحس النبض ليرى ماذا قد يستطيع أن ينفذعه على. كما أنه يبدى رغبته في رهن كافة الاعتبارات الأخرى علي ومنع مفاوضاته مع إسرائيل. ورغم هذا توقعت في برقية أرسقتها إلي الرئيس بأن الأسد سوف يحضر المؤتمر. وأعتقد حقاً أن وسيكون مع كافة الأطراف حتي الآن هي الدعوة... فهذا هو الشيء الوحيد

الذى سيجبر علي اتخاذ قرارات ويضع الجميع في موقف يتعين عليهم فيه قول لا أو نعم. ولا أحد يريد قول لا. لكن الوقت يمر أمام عقد المؤتمر في تشرين الأول أكتوبر. إن الفتح يساورني مثل مبارك من أن العلية بدأت لا تحتل أي تأخير. وكنت أدرك علي مضض أنه لا يمكن تفادي جولة أخرى للمنطقة.

ختام الأغنية

وفي ساعة متأخرة مساء السبت ١٢ تشرين الأول أكتوبر غادرت واشنطن في طريقي إلي الشرق الأوسط في رابع زيارة لي للمنطقة في غضون عدة أشهر. فقد قرر للرئيس ضرورة توجيه دعوات عقد المؤتمر يوم الجمعة التالي عندما ألتقي بترتيب مسبق مع بوريس يانكين وزير الخارجية السوفيتي الجديد في إسرائيل. ومدد وقت طويل بدأت في الاعتقاد بأنه كلما سويت نقطتان مدار خلافا ثارت محلها خمس نقاط. وبشكل متزايد كانت المفاجآت تكتظرتني عند كل منحنى. فلن يتكفل بإسكات أولئك الذين يذابرون لتأجيل العملية أو إجهادها سوى واقع مؤكد بتوجيه دعوة عامة. ولم يكن أمامي سوى ستة أيام لإنهاء دبلوماسيتي المكوكية بالتوقف في القاهرة وعمان ودمشق ولقدس، وفي تلك اللحظة كنت أعتقد أننا في الجولة النهائية. لكن بعد ثلاثة أشهر من الرسالة التي وافق فيها الأسد علي المشاركة فلانزال مشاركته غير مؤكدة. ولانزال القعدة المستعصية للتمثيل الفلسطيني تلقى ظلالاً من عدم اليقين علي احتمالات تحقيق لفرجة تاريخية.

وسبق هذه الزيارة ثلاثة أسابيع من الدبلوماسية المكثفة بهدف تضيق هذه الخلافات بين الأطراف حول خطابات الضمانات. ولعل أهم تلك الجهود اجتماعي مع الشرع في جناحي بغداد وللدور ستوريا في نيويورك علي هامش دورة الجمعية للعامة للأمم المتحدة. وسرعان ما تحول إلي اجتماع غير سار بالمرّة عندما سلمني مسودة لاتشابه إلا في القليل مع النسخة الأمريكية التي تركتها في دمشق في ٢٠ أيلول سبتمبر. والأسوأ تضمنت مسودة الخطاب عدة نقاط تفاهم تمثل تغييراً مهماً في السياسة الأمريكية حول عدد من القضايا الحرجة. ونقطة نقطة شرعت في رفض صياغة الأسد لتناقضها مع هدف

الضمانات وقلت: «فاروق- بصراحة إن القلق يتلحى تجاه حسن نواياكم. لكنكم تغيرون القواعد الأساسية».

وقال الشرع: «إن تلك المطالب تتفق مع سياستكم، وفي تلك اللحظة كان قد استند قدرتي على التسامح وانفجرت أضرب الطاولة بيدي: «لا تبطل عما تكون سياستنا. إن سياستنا ليست تقرير المصير للفلسطينيين لقد تطرقت لذلك معك من قبل، وقلت لك إننا لن نغير سياستنا تجاه القرار رقم ٢٤٢ من أجل إسرائيل، وكذلك لن نغير سياستنا تجاه القرار رقم ٢٤٢ من أجلكم».

وفيما تواصل طرقي علي المصنعة ثلاثت فجأة شبهة للشرع لأجزاء حوار إنصافي. وأصبح قائلاً: «إنك تصيبنى بالسأم، ووددت إنني لا أقصد لإصابتك بالسأم لكن حينما نتاول أن نضع الكلمات في فمي فهذا يصيبنى بالجنون».

ويوم السبت ١٢ تشرين الأول أكتوبر بدأت جولتي الزامة في الشرق الأوسط في غضون أقل من عام بالتوجه إلى القاهرة وعمان. كانت رسالتي إلي مبارك ولملك حسين مطابقة والتممت معاونتهما في تشكيل الوفد في موعد لقلبي مع شامير. كنت في حاجة لقائمة الأسماء. «أسماء لا تجلب المشاكل وكنت في حاجة لأعرف أيضاً أن يعرف الفلسطينيون أنه إذا أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية الأسماء فقد انتهت العملية. وينبغي إبلاغ الأسد بأنه يجب أن يشارك في المؤتمر حتي لو لم يشارك في المباحثات المتعددة الأطراف. وطلبت معروفاً إضافياً من الملك، كان مطلباً حساساً. فقد حثته في لقاء خاص أن ينقل قائمة الأسماء عبر رسائله الخاصة حتي يطمئن شامير لعدم وجود مفاجآت. وأكدت «أنتم الشخص الوحيد الذي يمكنه عمل ذلك». إنه سيقف فيكم بقدر أكبر منا حول هذه المسألة. لا أريد منكم أكثر من هذا. إن هذا هو مفتاح العملية برمتها». ووافق علي تقديم المساعدة وشرع بالارتياح عندما تيقن أنني أتابع جاهداً طلبه العاجل بشرائه طراز متقدم للنظام متطور مصاد للصواريخ لطائرته الخاصة.

وطمأنني الزعيمان أنه رغم مظاهرة الردة فإن الأسد والفلسطينيين اتخذوا بالفعل قراراً أساسياً بالمشاركة. وفي الوقت الذي لم أشطر مبارك وحسين تكتهما فإنني كنت أعتقد أنني

في وضع جيد وأدرك أن الفلسطينيين لا يريدون العملية فحسب. بل يروغهم لدرجة الموت أن يتم تحميلهم مسؤولية القتل. وفي تلك الليلة كتبت للرئيس: «إنني في سبيل المضي قدماً. إنني في طريق لأوضح أننا نقترب من نهاية الطريق. فإما أن ندع هذه العملية تؤتي ثمارها الآن أو فإنني سأستعبد منها محمداً الطرف المسؤول عن القتل».

محاولة أخيرة مع الأسد المتعثرس

في الساعة ١٢،٤٥ دقيقة يوم الخامس عشر من تشرين الأول أكتوبر زرت الأسد علي أمل تسوية بقية خلافاتنا. بدأ الاجتماع بود كبير مع تأكيد الأسد لعماسياته وحديث عن عملية التأكيد لكبار مسؤولي الحكومة الأمريكية. ونوهت بشكل مرتجل إلي أن احتمال الصعوبة في تلك المسائل عادة ما يرتبط بأهمية الموقف. ورددت: «كلما قفز القرد لأعلي كلما استطاع المرء أن يري خلقه أكثر» وابتسم الأسد وقال: «مك حق».

وسرعان ما حل المال عندما عرض الأسد أربعة عشرة تعديلاً أراد إدخالها علي خطاب الضمانات. وانصب أهمها علي المباحثات متعددة الأطراف. وعرضت عليه صياغة جديدة تهدف إلي إزالة خلافاتنا. وتدعو الصياغة الجديدة المشاركين إلي الاجتماع لترتيب عقد للمباحثات المتعددة الأطراف في غضون أسبوعين لا البدء فيها بالفعل. وعندما وصلنا معادتنا مساء ذلك اليوم بعد استراحة لخمس ساعات رفض الأسد الفكرة. كان يريد للنص علي أن المباحثات المتعددة الأطراف ان تبدأ إلا بعد أن «تنتهي المباحثات الثنائية أعمالها بنجاح» وكنت أعني أن هذه وصفة لتأجيل العملية لأجل غير مسمى. وسعيت لحل وسط آخر: سيتم للنص علي أن للموريين غير ملزمين بالمشاركة عن طريق تعديل الصياغة من «الأطراف» إلي تلك الأطراف التي ستشارك في المفاوضات متعددة الأطراف.

وقال الأسد: «لا أريد أن أدخل حقل الألقام هذا. فهو حقل لا تجدي معه كاسحات الألغام إننا في سوريا لا يمكن أن نوافق علي شيء من هذا القبيل ما لم يكن لدينا شيء ملموس نقدمه لشعبنا. لا يمكنني أن أتحرك خطوة واحدة في هذا الاتجاه».

وقلت: «إنني لا أطلب منك شيئاً».

«لا يمكنني حتى التحرك بمجرد الكلمات. لا يمكنني حتى أن أقول إنني موافق. فلو فُتحت هذا فإنني مسؤول أمام شعبي». وأُحسست أن الوضع أخذ في التدهور وأكد الأسد شكوكي بإنهاء الحوار. وقال: «إننا الآن في المربع رقم واحد. لا يمكننا التحرك وفقاً لهذه الشروط. وعلى أية حال إننا ندفعك للزوم». ولم أكن شديد التيقظ في تلك اللحظة فحسب بل كنت استهبط غضباً.

وقلت في الختام: «لقد علمت أشياء عن العقبة العربية في معالجة عملية السلام. فلي نقص الفريين هأنتم العرب لا تسلكون طريقاً ما لم تعرفون إلى أين يقضى. لكن إذا لم نسله هذا الطريق فلن نصل إلى النهاية مطلقاً أو إلى مكان ما في هذه النقطة».

وعدت إلي جذاحي بالقدق وبدلت ملابس وارتديت الزوب وجمعت فريق العاملين في الساعة ١,٣٠ بعد منتصف الليل حول مائدة الطعام في جذاحي بفلنق شوبراتون. وشكوت قائلاً: «إن التعامل مع هذا الرجل يشبه خلع الضرس. لاشيء سهل. فالمرء يعتقد أنه توصل إلى اتفاق ثم ما يلبث أن يظهر شيء آخر في حاجة دائماً للتعبئة».

وكننا نشك في أن السوريين زرعوا أجهزة تنصت لذا خففت صوتي. وأشارت بيدي «كما لو كنت أمارس أسلوب الصيد» إننا نستسلم في هذه النقطة إذا اضطررنا. علينا أن نلزم الأسد بهذه العملية إذا كان لنا أن نحقق النجاح وهذا هو ما سنفعله. وقلت لهم: لو اقتصر الأمر سوف نستسلم في قضية المباحثات المتعددة الأطراف، وسوف تصاب إسرائيل بالإحباط. لكنني أحمست أن شامير أن يدرك العملية بسبب المتعددة الأطراف إذا وافقت سوريا علي لقاء إسرائيل وجهاً لوجه.

وبوّهت في برقيتي إلي الرئيس إلي أن الأسد فشل في تفهم أن المتعددة الأطراف يمكن أن تشجع علي استزاع تنازلات ملموسة بتوضيح أن العرب مستعدون للتعامل معهم كشركاء إقليميين. وكنيت في البرقية: «إن بعض تلك الحقائق لم تغير رأي الأسد. ببساطة، إنه يريد باستمرار عزل إسرائيل، وتوضيح أنه إن تكون هناك جوائز إقليمية حتي ينسحب الإسرائيليون

من الجولان. إن ضعفه لا قوته هو الذى ينفعه لمعارضة أى مباحثات متعددة الأطراف. خاصة لأنه يخشى أن العرب الآخرين سيدخلون فى القوصل لاتفاقات، ومن ثم تتراجع حاجة ودوافع إسرائيل فى الاستجابة له.

وكما ترى فقد عشت يوماً ملتوياً آخر فى الشرق الأوسط. إننى لا أعظم المعنى لفترة أطول. واختتمت البرقية بتفسير شخصى طامحاً مزج الرئيس معى لمولات حول ضرورة الأبعاد المعنوية للسياسة حتى وإن كانت عرضية مستخدماً كمقاله الخاص مؤتمرات الجمهوريين أيام الشباب، وأردت أن يعرف صديقى (الرئيس) مدى عذاب ثمانى ساعات من المصارعة مع الأسد. وكتبت بخط يد متمثل «إن هذا منع تقريباً مثل مؤتمرك أثناء الشباب» كانت تلك مذكرة دبلوماسية أعرف أنها لا تحتاج لترجمة خبير.



وصباح اليوم التالى عكف العاملون معى جاهدين على الانتهاء من صياغة مسودة خطاب ستامانات آخر وخطاب دعوة أملنا فى أن يرضى الأسد حول المباحثات المتعددة الأطراف. وفشلت كل جهودهم فى التحديث معى حول التصحية بالمتعددة. وقبل أن أعود للاجتماع مع الأسد قلت: «علينا أن نكون مستعدين للعمل بهمة ونشاط». وبعد قدر ملحوظ من الجدل اعتبرته غير ضرورى حول الصياغة بدأ الأسد يرهقنى.

وقلت: «سوف أعطيك شيئاً ما حول قضية الخطاب الفلسطينى» وقجاة وعلي غير توقع أتح على شيء ما نتيجة لمساواة حافة للهوية التى يمارسها الأسد وأسلوب الاجهاد الجسدى الذى تسبب فى نوبات دوار خلال جولاتى المكوكية فلم يكن الغضب يتناوب فقط لمجرد الأثر. وقتل: «إنه خطاب جيد. فإذا لم يرق لك ما نفعه وترى أن يوسع استعادة للجولان» «بدون الجولان مع إسرائيل قلتمس قديماً واستعداء».

ولم يتأثر الأسد بافجارى ورد قائلاً: «إنك لا تفعل هذا من أجلنا فى المقام الأول بل لمصلحتكم» وقتل: «نعم لكنه فى مصلحة شعوب المنطقة، وكل ما يسعنا عمله أن نكون محفزاً لا يمكننا فرض شيء. هناك أشياء يمكننا عملها وأخرى لا يمكننا عملها».

وأحدنا استراحة قصيرة حتى يتمكن الأسد من قراءة خطاب الدعوة . وخلالها ألق على الأسد في إضافة فقرة إلى خطاب الضمانات تقول: «إن القدس جزء من الأراضي المحتلة». كان يعرف أن تلك سياسة أمريكية قديمة. وكان يعرف أيضاً أن هذه سياغة مثيوبة بدرجة قد يدفع إدراجها إسرائيل لرفض المشاركة في المؤتمر.

وقلت محتجاً: «إنك تطلب مني أكثر مما يطلب الفلسطينيون لا أعتقد أن هذا مناسب. إنكم تدفعوننا لسدي بعيد للغاية. ربما لا تشاركون في العملية. لا أريد منكم أن تدمروا لإسرائيل أي سبب لعدم المشاركة وربما قطعتم».

ولدي عودة الأسد. أعدت عرض فكرتي. وقلت: هذا أفضل ما يمكن أن أفعله. واستمر الأسد علي موقفه متمسكاً بالمراوغة التي دفعتني إلى حافة انفجار ثان.

ومال الوزير محمد قدور علي الأسد، وحذره بالعربية لتأخذ حذرك إنه غاصب حقيقة وبدأ الأسد مرتبكاً. وتساءل: لماذا هو غاصب؟ إننا نتفاوض. وحينئذ تلات أعيننا وبدأ أنه أدرك إنه وصل إلى نقطة غير صحيحة بالتأكيد.

ورجاء أفضني الأسد بالكلمات التي تفت لسماعها: «إننا نوافق علي خطاب الضمانات. واعتقد أن هذا يحل القضايا». ومرر دينيس روس مذكرة لي: «أخذ النقود وأهرب. فلنخرج من هنا. ولم يلق الأسد قضية للمباحثات المتعددة الأطراف فيما يخصني علي التفسير».

فض السوق الفلسطيني

ونوجهت من دمشق إلي تل أبيب جواً واجتمعت مع للفلسطينيين بعيد الساعة الثامنة مساء بالتوقيت المحلي. وأخيراً وبعد لأي تم إعرار تقدم. فقد اتقي الفلسطينيون في عمان وشرعوا في اختيار أسماء للوحد ونشرت الصحف الأردنية قائمة بأسماء عشرين مرشحاً وطماننى الفلسطينيون بأنهم يعملون لإعداد قائمة بالأسماء المقبولة. ثم، ومن دون توقع

أعادوا فتح موضوع القدس طالبيين الحصول علي تنازل مستحيل . وسببت عدة شهور من الإحباط مقرونة بالإجهد في صدور رد فعل عاطفي محض لا حساب تكليكي .

وانفجرت قائلاً: كم مرة فتحنا فيها هذا الموضوع- إنني سلمت ونصت من هذا معكم . فإن السوق لا تغلق أبداً لقد نلتها أتمني لكم حياة سعيدة .

ونصت وسرت خارجاً من الغرفة باتجاه غرفة للضيوف بخلفية مقر الإقامة . ومن صانتى أن أسرع الخطي في مناسبتين : عندما يتاح لى وقت حر علي غير توقع ، وعندما استشيط غضباً ، وقد اجتمعتا فى هذه الحالة وذكرنى دينيس روس عندما قابلنى بعد خمس دقائق ، بأننى كنت لأسرع الخطي وأعلمهم بكلمة «هؤلاء الناس . هؤلاء الناس» . وطلب منه الفلسطينيين تهدئتى . وأبلغهم روس أننى أن لهذا مطلقاً ما لم يتخلوا عن مطلبهم الجديد . ووافقوا علي الفور ، وعندما أبلغنى بهذا هدأ روعى . واقرحت أن نبقى بضع دقائق قبل أن نعود . وأريدت تأجيل قلقهم ، وإذا فقد تأخرت لربع ساعة .

ولدى عودتى كانوا قد استوعبوا الرسالة . وقال الحسينى : «أعتقد أن بوسنا الحصول علي الأسماء لنقدمها لكم مساء غد أو صباح الجمعة وقت : إذا كان من شأن ذلك المساعدة فسوف أراها للمرة الأولى فى القدس الشرقية فى بادرة احترام لشجاعتهم .

وأبلغت الرئيس : «أعتقد أن احتمالاتنا تزدهر فلزالت فى حاجة للحصول علي الأسماء من الفلسطينيين ، وقد علمت أنه لا يمكن للمرء أن يصبح ثرياً لو قامر عليهم . ولزالت أعتقد أننا أحرزنا تقدماً كافياً اليوم لتقريب من النهاية للغاية» .

وعلي النقيض كان اجتماعى مع شامور فى صباح اليوم التالى نموذجاً للوضوح والثود . ومع ذلك كان الاسرائيليون قبل الأسد لا يزالون يعملون فى الهامش يتقصون أى شيء آخر يمكن أن يندرعوه منى . وخلال المفاوضات السابقة طلب المفاوضون الإسرائيليون إحال خمسة وأربعين تعديلاً فى خطب للضمانات وخطاب الدعوة . ووصلنا لاتفاق حول اثنين وثلاثين منها . أما بقية الثلاثة عشر تعديلاً فقد كانت تافهة تقريباً مثل ضمان أن تكون كافة كلمات الافتتاح فى المؤتمر معدلة اللهجة . وأخري أكثر صراحة مثل الحصول علي التزام

صريح بكافة الانشقاقات الثنائية الحالية، ونقاط تفاهم وعضامات حتي تلك الصادرة عن إدارات سابقة. وأوصحت لشامير أفني رفضت طلب الأمد بأن أصتح علانية علي الوعد المشغوي للذي قلعة الرئيس نيكسون عام ١٩٧٤ بأن الولايات المتحدة ستبلغ إسرائيل بإعادة مرتفعات الجولان. وقلت: لن أسك هذا الطريق مع أي طرف.

ولم يقل شامير للكثير خلال الاجتماع مما أفصح لي أن المناقشات لغوية في جوهرها. ومع ضمان مشاركة الأسد الآن باتت بذلك شامير مخلقة فعلاً. وما ثم بعطه الفلسطينيون ذريعة في النقطة الأخيرة، فلا يمكن لشامير أن يقول لا. والآن فلما نعم أو فسوف يتحمل التبعة.

وفي الساعة ٧،٥٥ صباح يوم ١٨ تشرين الأول أكتوبر اجتمعت مع عشرة فلسطينيين بمقر القنصلية العامة للولايات المتحدة في القدس. وبدلاً من الأربعة عشرة اسماً أعطوني سبعة أسماء، وطمانوني بأن بقية الأسماء ستعرض علي قريباً. ويهدف للتأمين تم حجبها نتيجة تهديدات القتل ومعارضة منظمة التحرير الفلسطينية. وأردت أن أهيئ شجاعتهم وعريمتهم. وفي النهاية طلبت منهم أن يلتفوا حولي. وقلت: أعرف مدي مبهمة هذا بالنسبة لكم لكن هذه فرصكم الأخيرة ولا نستطيع أن نقول إنكم لم تفتنموها. كانت لحظة عاطفية ومؤثرة تمثل بداية النهاية لرحلة شاقة لهم. وفي النهاية لم تكن قدراتي الإقناعية أو إلقاء التبعة هي التي أنجحت اليوم. لكنها خشيتهم من ضياع الفرصة. وأعتقد أنهم فهموا في النهاية أنه لو أنقصت هذه الفرصة ربما ظلوا في التبعة إلي الأبد.



وكل ما تبقى هو وضع للمسائل النهائية علي توجيه الدعوات مع بوريس باتكين. وتوجهت من القدس الشرقية إلي فندق الملك داود حيث اجتمعت مع باتكين في جناح يقع بالدور الثالث. وقررتنا مؤقتاً إصدار بيان مشترك في وقت لاحق بعد للظهر. ومع ذلك وأثناء الاجتماع علمت أن الفلسطينيين نفوا علانية إعطاء الأسماء لي وأتهم بأنهم يشاركون فيما وصف

لى بأنه معركة علي الخداء فى فندق بالاس لبحث اسماء سبعة أعضاء جدد. ونطلب حرصى المفرط علي رغبتى فى اكتمال العملية. وأبلغت بانكين أننى قد غيرت رأى. فريما يتحين تأجيل ترجيه الدعوات ليوم أو اثنين. وأبدي موافقه: فالموقف يشعرون بمرور بأنهم راع مشترك فى العملية لدرجة أننى أطلب الحصول علي تفويضهم أساسا فى أى ترتيب، وركز دينيس روس الجناح ليبلغ الوفد المرافق لى بأن المؤتمر الصحفى قد تأجل.

وبعد دقائق عاد روس وقال: إن فريقه فى حاجة إلي لقاءى علي وجه السرعة لمراجعتى فى قرارى. وصايقنى هذا الأمر لكن بانكين اتسحب فى لطف إلي غرفة مجاورة. وخلال الثلاث ساعة القادمة ناقشت مميزات لتأجيل مع تاتويلر وروس وبن كروتزر وويل بيرنز وأرون ميللر والمفبريل براون. وكان جميعهم متفقين علي حتى علي مراجعة موقفى. وقالوا: إن الأطراف متقاربة بدرجة لم نشهدها من قبل. فلا يستطيع أى قدر من المفاوضات الجديدة أن يقارب بينها. وما لم أفرض واقعا بترجيه الدعوة لهم فلن يقدم الفلسطينيون الأسماء السبعة الأخرى. وقال كروتزر للذى كان أكثرهم تأييدا للتحرك دون إعطاء: «إن التأجيل فى هذه الحالة سيؤدى إلي الاسترحام. فطينا أن نضحي قحما الآن، وأن نقدم علي المجازفة لأن المجازفة تصب فى مصلحتنا الآن». واقتضت فى النهاية، ولدى استئناف اجتماعى مع بانكين قلت: إننى غيرت رأى وسوف نضحي قحما كالمقرر. وفى الساعة ٤, ٢٥ بعد الظهر، وجهنا للدعوات فى مؤتمر مشترك ومنحنا المنعويين مهلة خمسة أيام للرد.

وذلك المساء تابعت سى إن إن علي عشاء من المسلمون المدخن والسلطة والفواكه المجففة فى جناحى وهرقنى روس وتاتويلر. كان الاجتهاد قد نال منا جميعا، ورغم عدم حصولنا علي موافقات رسمية لكن فى ضوء التوايا والأهداف فقد انتهي الأمر. ومنعت نفسى بكأسى مارتنى ونحن نتبادل الأنخاب احتفالا باحتمال إنهاء ما قد يكون أعظم تابو فى الصراع العربى الإسرائيلى، أى عدم استبعاد الأطراف حتى لسجرد الاجتماع والتحديث.

وفى الطريق إلي مدريد صباح اليوم للتالى لتوجيه الشكر للأسبان علي موافقتهم علي استضافة المؤتمر فى اللحظة الأخيرة، تلقيت رسالة بأن الفلسطينيين تقدموا بالأسماء السبعة الباقية كانت مقبولة جميعا من الإسرائيليين، وكان للفلسطينيين مطلب واحد. كانوا يريدون منا

أن نعلن أنهم أول من رد علي الدعوة . وضحكت في سري من هذا المطلب . وكما يذكرنا الكتاب المقدس فإن الأخير سيكون الأول وسيكون الأول هو الأخير .

يوم الثلاثاء ، لاهد من مدريد

مع انصاف شهرآب أغسطس باذت احتمالات عقد مؤتمر للسلام فعلاً في أواخر تشرين الأول أكتوبر كافية بما يجعل اختيار مكان مناسب لمعده أمراً لا مفر منه . وبدأت مناقشات مع روس وتالويلر وكارين جروميرز المخطط الرئيسي لهولاني . وبدلاً في البحث في هدوء عن موقع تتوهر فيه المتطلبات السياسية والإدارية للمؤتمر . لكن من المؤكد أن التوصل إلي اتفاق حول الموقع المناسب لمرشدديد للوعورة ككل شيء آخر مرتبط بعملية السلام . وفي النهاية كان اختيار مدريد هو الحل الوسط في اللحظة الأخيرة دون إخطار مسبق بالفعل .

ولأسباب غير خافية كانت واشنطن هي إختيارنا الأول الذي سارعت إسرائيل بقبوله . ومع ذلك كان السوفيت باعتبارهم راصياً مشاركاً أقل تفعلاً كالمترفع عنا لهذه الفكرة . ووقع تفضيلهم علي براغ وأينوا للقاهرة كعديل . لكن حتي علي الرغم من السلام القائم مع مصر اعترض شامير علي انعقاد المؤتمر في عاصمة عربية . فصلاً عن ذلك لم يكن راغباً في تقديم مكافأة لما اعتبره عن صدق بأنه فلور مبارك الشخصى تجاهه . كانت سويسرا مرشحاً وصحاً يريد الدور شأن للكثير من الدول الأخرى . لكننا ندرك أن الوجود للدائم لمقر الأمم المتحدة في جنيف سيثير حساسية إسرائيل تجاه مشاركة الأمم المتحدة . إلي ذلك فقد يثير فشل مؤتمر جنيف للسلام عام ١٩٧٣ الذي قاطعته سوريا والقطريون مقاربات تاريخية لا نروم لها .

وفيما تطور الاتفاق لصالح اختيار عاصمة أوربية لتستقر الرأي علي لاهاي . وبدأت لاهاي بكل الصعاب مكاناً نموذجياً . فهورلدا تتمتع بلاقات طيبة مع الإسرائيليين . لكن هورلدا كانت تتولي الرئاسة الدورية للمجموعة الأوربية في ذلك الوقت ، وهي مصانفة كنا نعتقد أنها تفرر تفصيل الأسد لدور أوربي أكبر . فصلاً عن هذا ولأن الأسد يلصق اسم «مؤتمر السلام»

اعتقدنا أن رمزية الموقع الموقّت للاجتماع - أي قصر المؤتمرات - مقر محكمة العدل الدولية - يصادف هوي لديه . ويوجد في لاهاي أيضاً غرف الفنادق وتسهيلات للاجتماعات لا تكفي لاستيعاب أحد عشر وفداً وسبعمئة مندوب فقط بل حشد الصحفيين الذي قدّر أن عدده يتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف - كما أن شامير أدرج لاهاي علي قائمته للقبولة .

وفي أواخر أيلول سبتمبر أوفدت مجموعة صغيرة من الخبراء برئاسة كارين جرومير للبدء سراً في التخطيط للمؤتمر مع مسؤولي الهولنديين . ومنهم وفد جرومير مسؤولين من البيت الأبيض ووزارة الخزينة علي دراية تامة بكل جوانب ترتيب اللقاءات الصعبة . كانت هذه الاجتماعات اجتماعات سرية لم تُخَطَر بها السفارة الأمريكية ، وبعد ثلاثة أسابيع من المداولات المكثفة أُعدّت خطة مفصلة وكل ما تبقي هو المهمة الدقيقة المتمثلة في ترويج الموقع لدي المشاركين أنفسهم . وطُرحت الفكرة مع الأسد في أول اجتماع من الاجتماعين اللذين عقدتهما معه في ١٥ تشرين الأول أكتوبر ، ولم يبد تفعماً بدعوي عدم وجود سفارة سورية في لاهاي ووجود مشكلة سياسية مع هولندا . ولم يشأ الأسد أن يوضح ما هي هذه المشكلة السياسية . ولذا طلبت من كارين جرومير أن تتصل بهانز فان دين بروك الذي قال : إن مشكلة الأسد ربما تكون نابعة من قرار للمقررات الاقتصادية الذي صوتت هولندا لصالحه . وأبدى تفصيله لسويسرا حيث اجتمع مع الرئيس كارتر عام ١٩٧٨ . وأشار إلي أن بلداً معارداً يناسبنا جميعاً . وفي نهاية الاجتماع أُعدت طرح فكرة لاهاي واعترض مرة ثانية ورفض اقتراحي البديل كوينهاجن (فليس لدينا سفارة) وبراغ (غير ملائمة) .



وفي منتصف تلك الليلة تقريباً طلبت من مارجريت ناتويلر تقديم عرض مفصل حول التسهيلات والمنشآت والترتيبات الرائعة في لاهاي . ودرغم تقديم ناتويلر عرضاً قوياً واطلاعتها الأسد علي خرائط وكتيب عن لاهاي فقد ذهبت جهودنا لاستمالته سدي . وسمعت ناتويلر التي انتابها الضيق تشير إلي أن السوريين وقد نسفوا ما أعدته سيكونون بالقطع أول

من يبادر إليّ للشكوي إذا لم يصر أي شيء عليّ ما يرام في المؤتمر. وسألت الأسد ما هي المدينة التي سيقبلون بها؟ وأجاب روما، بون، باريس، جنيف، لوزان، فيينا، أي مدينة إيطالية كلها مقبولة. وقلت مازحاً: «مونت كارلو فهذه أكبر مظاهرة في التاريخ، ورد صاحباً ولكن المفاوضات سيذهبون للعب القمار».

وأخيراً سألت ماذا عن مدريد أو لشبونة؟ ولم يكن لسوريا سفارة في لشبونة. وقال الأسد: «إن مدريد أفضل من لشبونة». وأدركت أنه بات لدينا حل وسط أخيراً. إذا كان بوسع الأسبان الترتيب لعقد المؤتمر في هذه الفترة الوجيزة. لأن مدريد كانت من بين الأماكن المقبولة لدى الإسرائيليين.

وفيتماعات الأولى من صباح السابع عشر من تشرين الأول أكتوبر اتصلت هاتفياً بوزير الخارجية الأسباني بالكو أوردونيز من غرفتي بفندق الملك داود بالقدس وطلبت منه الاستفسار من رئيس الوزراء فيليبى جونزاليز عما إذا كانت أسبانيا قادرة ورغبة في استضافة مؤتمر عليّ أن يوافقنا بالرد في غضون ثلاثين دقيقة. ورد أوردونيز بسرعة وقال: «إن الوقت مضغوط، لكن سيكون علينا بذل قصاري ما هي وسعنا». وفي ظرف يومين وبعد الحصول عليّ موافقة باتكين وشامير كنت في طريقى إليّ مدريد. وطلبت من العاملين الذين بذلوا جهداً معنياً في التنظيم سراً لعقد مؤتمر في لاهى إلقاء كل شيء وأن يتوجهوا إليّ أسبانيا. ولم يبق أمامنا للعمل سوى أحد عشر يوماً.

وأثبتت تنظيم أول مؤتمر من نوعه متعدد الأطراف للسلام بين العرب والإسرائيليين أنه نحد لوجستى هائل. فبالإضافة إليّ ترتيبات ضمان الأمن والإعاشة بشكل مناسب لكل الوفود والصحافة كان علينا أن نقرر تقريباً كل جوانب الاجتماع الفطى. تفاصيل مثل مدة ونظام إلقاء الكلمات، شكل المائدة التي صنعت خصوصاً، أماكن جلوس المندوبين، وهو موضوع كان مثار شد وجذب بين الأطراف، وحجم المساحات الإدارية التي ستخصص لكل وفد. ويعود جانب كبير من الفضل في نجاح المؤتمر إليّ فريق للتنظيم تاتويلر، جرومير، نان كروفر، لين دينت، جارى هوستر، وييل جاسكين. إن ما حققوه خلال أقل من أسبوعين لهو إنجاز رائع في حقيقة الأمر.

الحقوق قبل النكس

وأثبت التمسك الملكي في مدريد باستثناء لوحة الملك كارل الخامس (شارلكان)* وهو يذبح المسلمين والتي رفعت علي عجل لتوضع في المخزن لأسباب واضحة. أنه مكان بالغ الروعة لعقد مؤتمر سلام ونعت ثمانى ثريات ساحرة تملت في بهو الأعمدة الكف مندوبو إسرائيل وسوريا ومصر والأردن ولبنان والفلسطينيون تكسوم مسحة من الحذر حول مائدة علي شكل حرف T صباح الثلاثين من تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١.

وشهد مراسم افتتاح فعاليات المؤتمر للرئيسان بوش وجورجياشوف اللذان كان لكلمتهما البليغتين بالغ الأثر في إصفاء أجواء من الإثارة والروعة.

وسري في المكان نفسه التودد المقصود، وهو ما كان حقيقة في واقع الأمر. وقيم المندوبون كل منهم الآخر من طرف خفي وتحاشوا تبادل النظرات وبثلوا جهدا شاقا لتجنب حتي المصافحة الروتينية. واستثناء علمي راعى المؤتمر خلت مراسم الافتتاح من الأعلام انعكاسا لرفض إسرائيل للجلوس مع وفد فلسطيني يرفع علم منظمة التحرير الفلسطينية. ولا نعي ذاكرتي أي اجتماع خال من الشراك للديبلوماسية.

إن مؤتمر مدريد بشكل نصراً مدوياً بكل المعايير العقلانية. فقيمه الدائمة تتمثل بكل بساطة في انعقاده. فبعد ثلاثة وأربعين عاماً من الصراع الدامي طوي التاريخ تلك المحرمات للقدمة منذ تعادلت العرب مع الإسرائيليين في ظرف ساعة أعد لها بناية. وكجدران أريحا تهاوت الجولجوز النفسية التي ظلت قائمة لنصف قرن إلي الأبد صباح ذلك اليوم الحريفي الصافي.

وفي عمرة بهجة للمحظة لم تساور أي منا أي أوهام عن التعديات للقادمة. وكما قلت للصحفيين لاحقاً: «علينا أن نحبو قبل أن نمشي، وعلينا أن نمشي قبل أن نجرى، واليوم أعتقد أننا بدأنا الحبو جميعاً». ولنا أخط هذه الكلمات بعد ثلاثة أعوام فقد نصحت عملية السلام إلي

* الملك كارل الخامس (شارلكان) ولد عام ١٥٠٠ إمبراطور المغرب ١٥١٩-١٥٥٦. ملك أسبانيا ١٥١٦-١٥٥٦. إميل فلانسان

عام ١٥٢٠ وتوس ١٥٢٥ ونصف الجزائر ١٥٤١. إميل في تيريوست وتوفي فيه (الشارلكان).

درجة بدأت فيها المداوات القديمة في الراحيل، وربما تكون قد تعلمت الجري. وكلى أمل أن نرى في حياتى عدواً بارعاً تجاه إقرار سلام دائم. وآمل ألا أكون مخاطرأ لو قلت: إننى لحرور بالمساهمة فى عملية بدأت تستبدل الكراهية بالأمل والخوف بالصدافة.

وأبلغنى بعض مستشارى فيمابعد أنهم لم يرونى فى مثل هذه الحالة من السكينة والصفاء. فبعد ثمانية أشهر من الدبلوماسية المرهقة التى تثير المسطح فى بعض الأحيان ساروبى شك فى أنهم حللوا ببساطة الصفاء والسكينة بالإرهاق المصنلى. لكن فى الحقيقة كنت أدرك أننى وللرئيس قد انجرتنا شيئاً مهماً فى البحث عن السلام. وآمل أن أتناسى شيئاً من الرضا عن النفس فى هذا المجال.

وأثناء الاستراحة فى الجلسة الافتتاحية لمحت إيدان بنتمور فى الصف الأخير فى الوفد الإسرائيلى. وباعتباره موظفاً محترفاً فى السلك الدبلوماسى كان بنتمور أحد كبار مستشارى ديفيد ليفى، وكان مثل رئيسه واحداً من أقوى مؤيدى عملية السلام.

فمع أولل أيلول سبتمبر ١٩٩٠ وفى لقاء مع ديليس روس فى مطعم بنديويرك اقترح صيغة السارين التى أصبحت فيما بعد محوراً للمبادرة الأمريكية. وشددت على يده بحرارة وما لبث أن احتضننى بكل قوة. وقال بتأثر بالغ أزال تمطى للسهود: «السيد الوزير لقد نسلناها. لقد فعلناها. وريدت وأنت مصيب بالإنان لقد فعلناها».

الفصل الثامن والعشرون

الإمبراطورية تتداعى

إذا أطمعت الجماهير بالطعامات الثورية، فسيوف تصفى لك
اليوم وغدا وبعد غد أما في اليوم الرابع فسيوف تقول:
«فلتذهب إلى الجحيم»^٩.

نيكيتا خروتشوف

برغم أنني تكساسى حتى للحجاج فقد وقعت فى غرام ولاية أخرى منذ صباى: هي ويومينج، ومنذ أن وقعت عيناى علي روعة برية توروقارى عام ١٩٤٤ خلال أول رحلة لى لصيد الأيائل برفقة والدى وقعت فى هوى ويومينج بقدر ما يمكن أن يحب تكساس نشأ وترعرع فى تكساس ولاية أخرى.

ودرجت منذ العام ١٩٨٨ علي أن أمضى جانباً من شهر آب أغسطس استجم لأقصى ما يسهه المرء راغياً بشكل عام فى الانعزال عن بقية العالم وتعمق ذاته. وينطبق هذا بشكل فعلى علي فترة عملى كوزير للخارجية. لأنه فى لوفات كثيرة ظلمنا رغبت فى أن أترك العمل وراء ظهرى. لكنى كنت أجدّه ينتظرنى معظم الوقت. لكن علي الأقل فى مزرعتى علي الفصح الغربى لجبال وينديفر كان الأمر أكثر صعوبة. وكنت استمتع بتلك الأيام القليلة من شهر آب أغسطس عندما يكون بوسعى الطواف بالمزرعة والبرية المحيطة بها أتعقب حيوان اللوط والغزلان والأيائل، أو النزول إلي النهر للصيد تحت شمس الصيف. وحيثما أكون هناك أحاول أن أحب الأرض لأقصى مدى حيث أستيقظ مع بزوغ الفجر لأرى الحيوانات البرية وهي تتناول طعامها، واستريح اللؤل مع تولى الشمس خلف قمم كراجى.

كان هذا هو حالى مساء يوم الأحد ١٨ آب أغسطس ١٩٩١ عندما رحت فى النوم سريعا فى الساعة العاشرة وإحدى وعشرين دقيقة مساءً، عندما دق جرس الهاتف. كان مركز للعمليات بوزارة الخارجية علي الهاتف حيث أراد الموظف المناوب إطلاعى علي تطورات ذلك اليوم فى موسكو. فقد جاء فى إعلان بثته إذاعة موسكو فى الساعة السادسة صباحاً وأوردته وكالة الأنباء السوفيتية ناس أن جينادى ياناييف نائب لرئيس قد تولي رئاسة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية «معجز جورباتشوف عن ممارسة مهامه لأسباب صحية». وشكلت لجنة دولة للطورى، وقررت «عصابة الثمانية» كما اشتهرت فيما بعد وضمت فى عضويتها ياناييف وزير الدفاع ديمترى يازوف ورئيس جهاز المخابرات السوفيتية كى جى بى فلاديمير كريبو تشكوف وزير للدخالية بوريس يوجو ورئيس الوزراء قائلين بأطوف وثلاثة آخرين، قررت إعلان حالة الطوارئ لفترة «مؤقتة».

* الثلاثة الآخرون هم أراوج بكتانوف أحد كبار المدققين عن مؤسسة المخابرات العسكرية، وفاسيلى ستاروڤ بتسيف رئيس نقابة الفلاحين الرجعية، وإلكسندر فيريكلوف رئيس فئدة شركات الدولة.

وأقدمت اللجنة علي إجراءاتها بهدف انتشال البلاد من الأزمة المستعجلة والشاملة السياسية والعرقية والصراع الأهلي والفوضي والفوضوية التي باتت تهدد أرواح وأمن مواطني الاتحاد السوفيتي وسيادته وسلامة أراضيه وحريته واستقلاله. وذكرت عصابة الثمانية أنها تريد «منع المجتمع من الإنزلاق نحو كارثة وطنية وإقرار القانون والنظام».

ولم يتح لنا حتي ذلك الوقت أكثر من هذين للبيانين، وكنت أعرف أن جورباتشوف توجه إلي القرم لقضاء العطلة علي أن يجتمع مع رؤساء الجمهوريات في موسكو يوم الثلاثاء لتوقيع اتفاقية الاتحاد التي كانت ستقل السلطة بشكل جوهري بعيداً عن الهياكل السوفيتية المركزية، وكنت أعرف أيضاً أن الكسندر ياكوفوف أحد كبار مساعديه والأب الروحي للبيرسترويكا قد استقال يوم الجمعة الماضي من الحزب الشيوعي مخذراً من وقوع انقلاب. وانصح الآن فقط أنه كان نو بصورة نافذة. وبينما أويت إلي الفلش عاجزاً عن النوم استرجع عني التحذيرات التي أبلغناها إلي جورباتشوف وبسرنديخ من انقلاب محتمل قبل شهرين.

واصلت بالرئيس. وكان بعض عطلة في كيبيبونيكورت، والذي تحدثت معه مع سكوكروف الذي كان ينزل بأحد الفنادق هناك، وشاهد للقرارات الأولية علي شاشة سي إن إن. ولم تكن هناك أي معلومات حقيقية بخلاف ذلك التي نعرفها بالفعل. لكن كلنا قدر علي الفور مدي الخطورة المحتملة للموقف. واقترح الرئيس أن يؤدي بوب شتراوس سفيرنا المعين لدي الاتحاد السوفيتي اليمين الدستورية وأن ندرس إرساله فوراً إلي موسكو. وكان جيم كولنز القائم بالأعمال واحداً من أكفأ رجال السلك للدبلوماسية والفصل. لكن كان لشتراوس طابع سياسي استمد من صداقته للرئيس ولي -بعض النظر عن كونه ديمقراطياً- ويمكن أن يوجه ما يقوله أو يفعل بعض المؤشرات القوية. ووافقت علي أن تلك فكرة صائبة. لكننا قررنا التريث بسبع ساعات لرؤية كيفية تطور الأحداث في موسكو. واستفسرت سوزان بمجرد انتهاء المكالمة: «ماذا يحدث؟» ورددت عليها: «يبدو أن هناك انقلاباً في موسكو».

وقالت: «هاهي ذي عطلة أخري تقتضي بسرعة وبالطبع كانت أزمة الخارج قد نشبت في مطلع آب أغسطس للعام الماضي».

وقلت مطمئناً: «لا تقلقي يا عزيزتي فن يتكرر ما حدث للعام الماضي فلننتحل بالأمل والشجاعة أكثر من أي شيء آخر» وعمرني إحساس بأنه سيكون من العسير علي قوي

الرجعية في الاتحاد السوفيتي أن تعيد مارد الحرية إلى القمم الآن. فقد قطع الإصلاح شوطاً بعيداً. لكن من ناحية مشاعري على أن أعترف بأنني كنت فقراً. وكان النطق يساورني بشكل خاص علي إدوارد شيفرماندزة. صحيح أنه قد استقال من حكومة جورباتشوف إلا أنه لا يزال يمثل رمزاً حياً ينفص للديمقراطية في الاتحاد السوفيتي والعرب. وأحسنت أنه سيحتل بكل تأكيد، والله وحده يعلم ماذا سيلحق به بعد ذلك. فهذا هو الاتحاد السوفيتي كما أن عصاة اللمانية مهددت باتحاد إجراءات حاسمة. وشعرت بالنطق من حدوث نسخة لعام ١٩٩١ من الثورة البلشفية تحت قيادة اللجنة للعلواري.

الانقلاب: اليوم الأول

في الساعة ١٠:٥٤ فجر الإثنين للتاسع عشر من آب أغسطس انصرفت بمركز العمليات بالخارجية فيما سيصبح أول عدة إطلاعات سألتقاهها ذلك اليوم. وأخذت إذاعة موسكو والتلفزيون السوفيتي في إذاعة الموسيقى الكلاسيكية في مؤشر هام لحدوث اضطراب سياسي، وتواترت الأنباء عن نزول ناقلات الجند المدرعة والديابات إلى بعض شوارع موسكو. وفي ليتوانيا احتلت القوات للسوفيتية محطة التلفزيون. وبينما كانت تلك الأنشطة تثير النطق فإن الانقلاب كشف علي ما يبدو عن عشوائية مفرطة. وراودتني نفسي لا بد وأنهم اعتقلوا يلمسين والديمقراطيين الآخرين الآن. لا بد وأنهم قطعوا الاتصالات مع العالم الخارجي. لكن للمناوب طمأنني بأنه لا زال بوسعا الاتصال بموسكو. كما أن سي إن إن لا تزال تبث من هناك. كان الأمر محيراً للغاية.

وأبغثت كيم بأنني أريد معلومات أعمق وأشمل، وطلبت يلاخي بأي معلومات للاستخبارات والحصول عليها. في الوقت ذاته كان النوم ضيقاً من المستحيل. وبعد الساعة الخامسة فجراً بقول وهو الموعد المعتاد لاستيقاظي لمشاهدة الحيوانات تلقيت عدة تقارير استخباراتية قرأتها بعناية قبل أن أعاد الاتصال بالمناوب الساعة الخامسة وسبع وأربعين دقيقة للوقوف علي الأحداث. كان الوقت بعد الظهر في موسكو. ولتخفت الديابات مواقع لها

حول المبادئ الرئيسية ويبدو أن عملية عسكرية أشمل تنور في البلطيق. وفي مؤتمره الصحفي وصف يلقين الانقلاب بأنه «جنون وعمل غير مشروع» واعتلي ندابة ودعا الشعب إلي الإصرار وتحدي لجنة الطوارئ.

وأوصاني مركز العمليات بهوب شتراوس الذي كان يعنى عائلته في كاليفورنيا قبل تولى مهام منصبه الجديد وسألته أن يحزم حقائبه وأن يستعد للعودة إلي واشنطن فالأمور أخذت تستدم.

وفي الساعة السادسة وأربع عشرة دقيقة أوصاني مركز العمليات مع سكوكروفت الذي أبلغني بالمؤتمر الصحفي الذي احتلته الرئيس لتوه في الساعات الأولى من الصباح. كانت الساعة للثامنة وأربع صباحاً. وغير متأكدين مما يدور في موسكو قرر الرئيس وسكوكروفت الاكتفاء بالرد في الوقت الحالي بأسلوب خفيف رغم أن الرئيس أشار قائلًا: «أعتقد أنه من المهم أن تعرف أن الانقلاب يمكن أن يفشل. فبوسعهم الاستيلاء علي السلطة ثم ياقضون إرادة الشعب». وكان الرئيس في سبيله للعودة إلي واشنطن علي الفور. وأبلغت برييت أنني سألق بهم أنا وشتراوس في واشنطن أيضاً. وبعد انتهاء المكالمة أجري لاري إيجلبيرجر القائم بأعمال وزير الخارجية أثناء غيابي، أول مكالمة من خمس مكالمات معي في ذلك اليوم لتنسيق ردنا مع البيت الأبيض والحكومات الأجنبية.

وبعيد عدة دقائق اتصل بي هانز فان دين بروك من هولندا. وكان يريد عقد اجتماع لوزراء خارجية حلف الأطلسي ووافقته رغم اقتراح لي للتريث لبسعة أيام لمنحنا فسخة من الوقت لتقييم مدى أي تغييرات تحدث في موسكو. وقلت: «أعمل في إمكانية إجهاض الانقلاب. فلا ينبغي أن يفوت الحلفاء أي فرصة لإجهاض الانقلاب». وتساءل: «هل تعتقد أن عقد اجتماع لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا سيكون وهما في ظل للملاسات الحالية؟» وأبلغته علي العكس قائلًا: «إن الإصلاحيين وضعوا ثقة كبيرة في مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا. فبعد اجتماع لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا يكون طريقة ملائمة لإجبار النظام السوفييتي الحالي لاتخاذ موقف وفقاً لمبادئ هلسكي وميثاق باريس. فمثل هذا الاجتماع يمكن أن يفصل حبة القمح عن قشرتها».

واتصل دينيس روس الذى كان يستجم فى نيوهامبشاير بعد انتهاء مكالمته فان دين بروك بثلاث دقائق. وكان روس يشعر أن الجيش هو الأساس، أولاً: لأن الجيش كما أبلغنى ان يلجأ على الأرجح إلى استخدام الحظ ضد المدنيين المرفقت. وثانياً: إننا بدأنا نرى انشقاقات على أرض الواقع فى موسكو. فقد انضمت بعض القوات إلى ياكسين وقد يتسبب هذا فى فشل الانقلاب. وأكد روس: «إن هؤلاء قد يحاولون حشد التأييد بإثارة وجود تهديد خارجي، ونحن فى حاجة إلى انتزاع هذه الذريعة منهم».



وأثرت نفس تلك النقاط مع هانز ديتريش جينشر الذى اتصل بى فى الساعة السابعة وأربعين دقيقة صباحاً أى بعد ثلاثين دقيقة. وأكدت أيضاً أننا فى حاجة إلى استمرار تركيز الأنظار على موسكو، وألا نسمح لعصابة الألمانية بمحاولة تحويل الأزمة. إلى صراع بين الشرق والغرب. وهذا هو أحد الأسباب التى حدثت بى إلى تفصيل تأجيل عقد اجتماع لحلف الأطلسي لبضعة أيام. واستفسرت من جينشر عما إذا كانت لديه أى معلومات عن الكسندر بسمرتديخ الذى كان يمسى عطلة. لكنه كان يعززم العودة إلى موسكو فى ذلك اليوم. وقال وزير الخارجية الألماني إنه لا يعرف شيئاً عن مكان وجود بسمرتديخ.

وعقب انتهاء مكالمتى مع جينشر عاودت الاتصال بإيجلبيرجر ثم شتراوس ثم روس وأخيراً ناتويلر وناكبها ريشارد بوتشر للتأكيد على أننا مشترك فى الإيجاز الصحفي عند الظهور.

واتصل بوب زوليك الذى كان يمسى عطلة فى اسكتلندا بعد ساعة ونصف الساعة للتأكيد على نقطة واحدة معنى وهي أننا نفقر إلى كثير من عناصر القوة فى هذا الموقف. لكن الشرعية هي عنصر القوة الوحيد الذى نملكه. إننا فى حاجة إلى حرمان عصابة الألمانية من أى شرعية. وتصريحاً أننا هي الطريق لتحقيق ذلك الهدف. وأشار على أيضاً بأن نناشد الجيش، وعرض على عبارة مفودة: «إن جيش الشعب لا يمكن أن يطلق النار على أبناء الشعب».

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً اتصل بي إيجلبيرجر لإبلاغى أن السفير السوفيتى لدى الولايات المتحدة فيكتور كومبليكوف طلب عقد اجتماع وهو ما وافق عليه لارى من أجل ممارسة ضغط قوى، واستهل السفير الاجتماع بالقول: «إن جورباتشوف مريض وإن هذا سبب ما يحدث». وسلم رسالة من ياناييف إلى للرئيس. وكتب ياناييف محذراً من «وضع يخرج عن نطاق السيطرة تتعدد فيه مراكز القوى» ومن «خطر حقيقى بتفسيح البلاد، وفى ظل تلك الظروف لم يكن أمامنا من خيار سوى إتخاذ إجراءات حازمة لوقف الانزلاق نحو الكارثة». ومع هذا وفى محاولة للتدبيط ردنا تعهد ياناييف باستمرار مريان المعاهدات والاتفاقيات، وتصميم القيادة الجديدة علي تعزيز التعاون الذى يعود بفائدة متبادلة مع شركائنا الأجانب. ولخصت الرسالة بمحاولة خرقاء للطمأنة: وللطم فإن ميخائيل سيرجبيتش فى أمان تام لا يهدده شيء. وأعتقد أنه من السهل أن يقول للمرء هذا. وبالمقابل سلم لارى لكومبليكوف ورقة بموقف متشدد حددت الخطوط العامة لوجهة نظرنا. وجاء فيها «إن هذه المحاولة المضللة غير الشرعية للالتفاف علي القانون السوفيتى وإرادة الشعب لاتخدم مصلحة أحد». وأشارت ورقة الموقف «إلى انزعاجنا العميق من نتيجة الأحداث وإدانتنا إلى اللجوء غير الدستوري إلى القوة».*

وكان دوجلاس هيرد هو الذى فى قائمة المتصلين بالهاتف. وكان هيرد ينسق مع زملائه فى المجموعة الأوروبية، وكانوا يريدون منى الانضمام إليهم فى بروكسل فى اجتماع مجلس حلف الأطلسى يوم الأربعاء. ووافقت، وأبلغته بأنه فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى إدانة حازمة للانقلاب. فإننا فى حاجة إلى صياغة موقفنا لأنه ما من طرف خارجى يملك نفوذاً كافياً داخل الاتحاد السوفيتى لتغيير مسار الأحداث. وقال: لى حكومة جلالة الملكة اتخذت نفس الموقف الأساسى، ولم تزيد دعوة للبعض فى الغرب لشعب موسكو بالنزول إلى الشارع. فالحرىض للغربى قد يودى إلى نتائج عكسية، أو يسفر عن اندلاع حرب أهلية أو شيوع حالة من الفوضى. لكن علينا التأكيد علي إمكانية فشل الانقلاب وقد فعلنا. وقال: إن الأوروبيين يدرسون فكرة عقد مؤتمر للمجموعة الأوروبية وأبدت له قلقى من أن مثل هذا

* بدأت أول صياغة لمسودة ورقة الموقف فى الساعة السادسة صباحاً فى ذلك اليوم فى وزارة الخارجية برئاسة لارى نابز مدير إدارة الشؤون السوفيتية واتمروا كتابته فى من إدارة التخطيط السياسى.

الاجتماع قد ينتهي بتصافح حار وتون برنامج محدد وقت: بدلاً من ذلك ربما يكون توسع رئيس الوزراء جون ميجور زيارة للرئيس عندما يعود إلي كينيديوتكورت.

وبعد أربع دقائق اتصلت بالرئيس الموجود الآن في واشنطن. فقد عاد إليها صباحاً رغم هبوب إعصار برب الذي كان يضرب الساحل الشرقي، وطائرة القوات الجوية رقم واحد وهي تسمائل وتكرنح لدي شق طريقها باتجاه الجنوب الشرقي. وأبلغته بفجوي محادثتي مع دوجلاس هيرد. وتحدث للرئيس مع ثلاثين رئيس دولة وبات يشعر الآن أن عقد اجتماع لحلف الأطلسي أصبح ذا مغزي.



وفي الواقع أصبح يقينه وتزايد إلي حد ما بأن مآل الانقلاب إلي الفشل. وعلي مدار الساعات الست عشرة منذ الإعلان الذي أذاعته إذاعة موسكو لم تشاهد بعد المؤشرات التقليدية للانقلاب. ورصدت دولتر الصابرات محاصرة القوات لمنزل ناشا جورباتشوف على البحر الأسود، وتواجد عدد غير مألوف من السفن الحربية قبالة الساحل. لكن الانقلابيين لم يخلقوا وسائل الإعلام بعد، وأفقر الجهود الحري إلي التماسق ولم يعقل أحد. وفي مؤتمر صحفي اتخذت لجنة الطوارئ خطأ متشداً. لكن يدي ياناييف ارتفعت أثناء حديثه، وبدأ واحد علي الأقل من زملائه ثملاً. وفي الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر بتوفيت موسكو قرر ياناييف فرض حالة الطوارئ. لكن المواطنين كانوا ينتظون بحرية في المدينة كان أمراً بالغ الغرابة.

ومن ناحية أخرى بدت قوة يتصون تكصاعد مع تزايد الصغوط عليه. كان يلتصق بارعاً في تمريك الجماهير، ووصف الانقلاب بأنه «تفرد مسلح» وطلب بإعادة جورباتشوف. ويبدو أنه شجع رعماء موسكو بمن فيها ياكوفليف وشيغرنادزة. وفي الوقت الذي تنفست فيه السمراء لأنهما يمتعلان بالحرية ويتحدثان لملكني الميرة وتمجبت لعدم اعتقالهما حتي الآن؟ ويلز يخلدي أثنى كنت سأعتقلهما بالقطع لو كنت قائداً للانقلاب.

وانتابني إحساس أنا والرئيس بأن الزخم يتصاعد ضد الانقلاب. واتفقنا علي أن صندوق بيان رئيسي أفري سيكون مفيداً. لاسيما لأن يلتصين طلب هذا الطلب. «وتلقي جيم كولنز هذا الطلب من اندريه كوريريف وزير الخارجية للروسي». وما لبث أن تواتر المزيد من الأنباء. فعلي مسعود للجهة العسكرية انشقت فيما يبدو عناصر من فوج القوات الخاصة تاماسكي بما في ذلك، عشر دبابات بدلت تكأبب الآن للدفاع عن مقر برلمان الاتحاد السوفييتي، البيت الأبيض الروسي، كما يشتهر. فهل يمكن أن يتحول المد؟

وانشلت بقية فترة ما بعد الظهر في مزيد من المكالمات الهاتفية مع إيجلبيرجر ومكالمة هاتفية أخرى من هورد ومكالمة من نظيرتي الكندية باربارا مكوجال التي طلبت عقد اجتماع لمجموعة السبع وحلف شمال الأطلسي مما سيجعل الرد الغريي ذا طابع سياسي أكبر وعسكري أقل. من ناحية أخرى، وعقب اجتماع موسع بين الأجهزة الحكومية لمناقشة الخيارات ومعلومات الاستخبارات قرر الرئيس اتخاذ خط علني أكثر تشدداً، وأصدر ورقة الموقف التي سلمها إيجلبيرجر إلي كومباركوف في الوقت المناسب لتتصدر أتياء السماء.

وفي الخامسة إلا ربعا مساء ركبت طائرة تابعة للقوات الجوية في بيدالني ويومينج عائداً إلي واشنطن. وكان معي عدد من رفاق السفر وفيهم بوب شتراوس ومارلين فينزوتر المتحدث باسم البيت الأبيض وبيت ويليامز المتحدث باسم البناتاجين الذي كان يقوم بجولة في الزيف عندما هبطت طائرة هليكوبتر تابعة للحرس الوطني في ويومينج في مكان قريب وتم إبلاغه بأسر الانقلاب في موسكو. وكان لا يزال يرتدي ملابس التدريب ونحن نتجه شرقاً، وبعد توقف قصير للتزود بالوقود في قاعدة رايت تيرسون الجوية في أوهايو هبطنا في قاعدة أندروز الجوية في تمام لحادية عشرة والنصف مساء مع طلوع الشمس في موسكو، بينما كان الرئيس يتساءل: «ماذا عن آب أغسطس؟».

الانقلاب الفاشل

بدأت يوم الثلاثاء بالمتحدث إلي جيم كولنز في موسكو حيث أشار إلي حدوث حالة من الجمود. وشعرت بأن هذا مؤشر جيد، فالانقلاب في حاجة إلي زخم ليحقق النجاح. كما أن

موقف التحدى الذى اتخذه يلتسين منع عصابة الثمانية من احكام قبضتها علي البلاد. وفي الساعة العاشرة صباحاً انضمت الي الرئيس أثناء أداء شتراوس لليمين في احتفال خاص أقيم بالمكتب الليبنسارى، واستهل الرئيس يومه بالاتصال ببوريس يلتسين ليشد من أزرار العزم الروسى وليقوس الانقلاب. وتوجه الرئيس الي الحديقة الوردية لعقد مؤتمر صحفى في الساعة العاشرة والنصف، وقال بوصوح: «إن الاستيلاء علي السلطة بطريقة غير دستورية يشكل إهانة للأهداف والطموحات التى احتضنتها الشعوب السوفيتية في الأعوام الأخيرة. إن هذا العمل يصنع الاتحاد السوفيتى علي خلاف مع المجتمع الدولى». وما لبث أن أعلن - ما وصفه أحد كتاب الأعمدة بأنه صدمة كهربائية - إنه اتصل لثمة مع بوريس يلتسين وأنه أكد للسيد يلتسين استمرار تأييد الولايات المتحدة لهدفه بإعادة السيد جورباتشوف باعتباره الزعيم المنتخب بطريقة دستورية. واستخدم الرئيس أسرع المصادر المتاحة لتصل الرسالة إلي موسكو، وهي شبكة سى إن إن.

وعقب انتهاء المؤتمر الصحفى ترأس الرئيس اجتماعاً في المكتب الليبنسارى لتقييم الاحتمالات، وتولدت أنباء غير مؤكدة عن سقوط بافلوف مريضاً واستقالة بازوف من اللجنة. وفي حارج روسيا صدرت أقوي معارضة للانقلاب من الزعيم القازاقستانى نورسلطان نزار باييف إضافة إلي زعمى أوكرانيا ومولدافيا. وكنا نأمل جميعاً في تصدع عصابة الثمانية، لكننا لم نعمل علي ذلك. وأثار إعلان لجنة الطوارئ حالة الطوارئ. لكن هامي اللجنة عاجزة مرة أخرى عن تطبيقها. واستخدمت القوة في البلطيق دون اماكن أخرى في الاتحاد السوفيتى. ووراء ذلك كان للخطر ماثلاً باندلاع حرب أهلية. لاسيما إذا تواصلت الانقسامات داخل الجيش، وبات من المحتمل للغاية أن تنفصل الجمهوريات أو تستمر للجمود.

وقرر الرئيس التوسع في دعمنا يلتسين في جانب منه باستخدام إذاعة صوت أمريكا لنشر رسالته في مختلف أنحاء الاتحاد السوفيتى. وأراد الاستمرار أيضاً في حرمان الانفلايين من أى شرعية وتجميد المساعدة الاقتصادية. لكنه قرر الكف عن اتخاذ أى إجراءات أخرى مثل فرض عقوبات اقتصادية، أو إلغاء الاجتماعات المقررة حتي نرى كيفية سير الأمور في موسكو. وسوف يتوجه شتراوس إلي موسكو. لكنه لن يلتقى أو يقدم أوراق

اعتماده إلى النظام الجديد. كان الرئيس يحاول الاتصال بجورباتشوف منذ الاثنين دون أي نجاح. وحاولت نفس الشيء مع الكسندر بسمرتنيخ وأسفرت محاولات عن نفس النتائج. وفي الثانية عشرة إلا ربعاً وكنت لأزال في البيت الأبيض لتصل كومبليكوف وسألته: «أندوك وزير الخارجية؟ فمن الغريب أن تكون قادراً علي مدار ثلاث سنوات أن أرفع سماعة التليفون وأتحدث مع وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ولا أستطيع ذلك الآن».

وأبلغني أن بسمرتنيخ كان يستجم في مبيتك، وأنه عاد إلي موسكو يوم الأحد. وأن وزير خارجية الاتحاد السوفيتي يعاني من ارتفاع شديد في درجة الحرارة، وأنه ليس مريضاً دبلوماسياً. فهو علي ما يرام سياسياً.

كان القلق يماروني علي بسمرتنيخ فقد كان مزيداً قوياً للتعاون السوفيتي الأمريكي. كما كان عاملاً مهماً في للتوصل لاتفاقية ستارت، وفي دفع عملية السلام في الشرق الأوسط. لكن ليس هذا هو وقت المرض، عندما يتجه أفراد الشعب نحو المنابر.



وأمنيت بقية يوم الثلاثاء للإعداد لاجتماع حلف الأطلسي وعقد اجتماع ثاني مع جيرى دينستبر وزير خارجية التشيك، وأبلغني بأن الانقلاب مزعزع للغاية. وأشار دينستبر إلي أن بلاده قد تفرق في طوفان من اللاجئين إذا أدي الانقلاب إلي حرب أهلية أو إشاع حالة من الفوضى. وقد عززت جمهورية التشيك بالفعل عدد قوات حراس الحدود علي حدودها التي تمت بطول خمسة وخمسين ميلاً مع الاتحاد السوفيتي.

وشدت أعصابي في الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة مع تواتر الأنباء عن إطلاق نار بالأسلحة الآلية قرب مقر السفارة الأمريكية والبرلمان الروسي (البيت الأبيض) علي بعد مئات من الكيلومترات. ثم اشتعلت أعصابي مرة ثانية بعد برهة مع تواتر مزيد من الأنباء التي تكهنت بوقوع هجوم علي البيت الأبيض للروسي قبل الفجر الذي يوشك أن يزرع بعد ساعات في موسكو.

وأخيراً غادرت مقر الخارجية بعيد الساعة السادسة لتأهب لرحلة طيران ليلية إلى بروكسل بعد ساعات. وغمرني إحساس بالعبء - وهو شعور نادراً ما يتقلبنى في حياتي - بينما طائرتي تحلق فوق الأطلنطي في منتصف الليل. وانتظرت وقورع الأسوأ أو حدوث هجوم ساحق، وأن يتصل مركز العمليات ليلفتني بأنباء لاجتياح الكي جي بي وقوات وزارة للدخيلة للمنازيس وقتل يلتسين أثناء الاجتياح والهجوم.

لكن لم يحدث الهجوم الساحق. فلدي وصولي إلى بروكسل تلقيت أفضل ما يمكن أن أسأل عنه من أنباء: لم يحدث هجوم شامل، وجرت بعض التحركات العسكرية وصحق ثلاثة مدافعين شجاعين عندما تاورت مجموعة من ناقلات الجند المدرعة داخل بضع بلوكات قرب البيت الأبيض الروسي. لكن يلتسين لا يزال حياً، ولا تزال المنازيس سليمة.

وسيطرت التطورات المهمة في موسكو علي جلسة حلف الأطلنطي. وعقب الاجتماع مع السكرتير العام للحلف مانفريد فيرنز لم درجلاس هيرد جلست علي غداء عمل مع نظرائي قبل عقد لاجتماع رسمي لمجلس حلف شمال الأطلنطي. ولتأهاء الغداء مع الوزراء تقلبوا مزيجاً من التقارير كان من الصعب استخلاص نموذج محدد منها؛ فقد أعلن قائد منطقة الفولجا العسكرية تأييده ليلتسين، وخبم الهدوء علي كريف وبيورفان. وكانت الكي جي بي تتحرك صوب المشروعات المشتركة وشوهت الدبابات تنادر موسكو.

وفي لحظة ما استدعي فيرنز من بين الوزراء لتلقى مكالمة هاتفية من يلتسين. وأخيراً بدأنا نتلقى شيئاً من الأنباء المؤكدة. يبدو أن الأحداث تتلاحق بسرعة الآن. فأيفان سيلاييف رئيس وزراء روسيا وللكسندر روتسكوى نائب رئيس برلمان روسيا يتوجهان بنفسهما جراً إلي القرم لاصطحاب جورباتشوف والعودة به إلي موسكو. ووطلبا من عدد من السفارات الأجنبية لإيفاد ممثلين، وحاول كوليدز الانضمام إليهما غير أن تحركات اللوحلت العسكرية التي تنادر موسكو عرقلت حركة المرور مما حال دون لحاقه بالرحلة. ولكنت وكالة أنباء تأس أن وزارة الدفاع اصدرت أوامر لكافة القوات بمغادرة موسكو. وأبرق مسئولو السفارات بأن الدبابات التي نشرت للدفاع عن البيت الأبيض الروسي بدلت في مخازنه.



وعقب انتهاء الجلسة عقدت مؤتمراً صحفياً، واجتمعت لفترة وجيزة مع هيرد وديما، ثم اتصلت بالرئيس، ويبدو أن الانقلاب يتهاوى. لكننا كنا عازمين من قول أي شيء محدد حتي نتيقن منه تماماً. في الوقت ذاته اجتمعت مع كوزيريف الذي طلب علانية من الدول الديمقراطية أن تظل متحفظة. فليس هناك وقت للشعور بالبهجة، وكان يعتقد أنه حتي يودع كل أعضاء عصاة الدعاية السجن ويعود جورباتشوف إلي موسكو فليس يوسع أحد أن يتأكد أن الديموقراطيين قد انتصروا.

وقرر انتهاء لقائي مع كوزيريف جاء إليّ جينشر وقال: إن لكسندر ياكوفيف علي الهاتف في غرفة العاملين الأمريكيين في حلف الأطلسي. وأبلغني بأن كافة القوات والدبابات قد غادرت موسكو. وسوف يصل جورباتشوف في غضون خمس عشرة إلي عشرين دقيقة. وقد قمنا باعتقال عدد من أعضاء لجنة الطوارئ بتهمة ارتكاب جرائم ضد الدستور، وبادرت بالاتصال بالرئيس لإبلاغه بهذه الأنباء الطيبة علي الفور بعد أن حصلنا عليها من فم الأسد من موسكو.

وسرعان ما تحولت بهجتي إلي حذر بعد خمس دقائق عندما اتصل بسميرتنيخ. وحذرنى قائلًا: «كن حريصاً من تقارير وسائل الإعلام وخاصة سي إن إن. لأن الموضوع لم يعد إلي طبيعته. تمسك برد فحك الأصلي للمنادي بإعادة الحكومة السوفيتية الشرعية. وأبلغته بأننا سنقبل ذلك». وعقب حديث مقتضب حول عملية السلام في الشرق الأوسط استلمت منه عن حالته الشخصية. وقلت: «استلمت من سفيركم لدي واشنطن أن مرضكم ليس مرضاً دبلوماسياً» ورد «إنه ليس فيروس لكنه أخطر».*

وأخيراً وفي تمام الساعة الثانية والربع فجراً حطت طائرة إيرفوت بموسكو. وهبط جورباتشوف متجهماً ومهزواً إلي حد ما. وانتهى الانقلاب. لكن سلسلة ردود الأعمال قد بدأت.

* بعد يومين عرفت مدى خطورة الموقف عندما اتصل بي سميرتنيخ ليأخبرني أنه أجهز علي الاستقالة. فقد كان بالغ السلبية أثناء الانقلاب، وسكون من المستحيل أن يستمر في منصبه وزيراً للخارجية. أما ما لم يقله لي حتي إجراء المائدة البيضاية هي أن اليجوريل كان يسوره أثناء المكالمة.

لا يزال سوفيتياً، لكن هل هو اتحاد؟

عدت إلى واشنطن ليل الأربعاء ثم توجهت إلى كينيديونكهورت صباح الخميس لبحث الخطوات التالية مع الرئيس. وحصلنا إلى أنه مع لتتصار (المركز) (جورياتشوف) وزعماء الجمهوريات (بالتسعين) المتزامن بالإصلاح، وتقلص نفوذ أجهزة الأمن والجيش. فلا بد وأن نتوقع أن تتحرك القيادة السياسية بقوة نحو الإصلاح الآن. وهبعت عدة اعتبارات وحاجات علي مناقشاتنا:

١- صفقة إصلاح اقتصادية جذرية.

٢- تطبيق قوى لمعاهدة ستارت، وخفض القوات للتقليدية في أوروبا، ومتابعة مباحثات الحد من التسليح.

٣- السيطرة المدنية علي الجيش وأجهزة الأمن .

٤- خفض الإنفاق العسكري.

٥- استمرار المساسة للخارجية.

٦- إجراء مفاوضات جادة حول استقلال للبلطيق بحكم الأمر الواقع.

٧- توسيع التعاون الاقتصادي اللغنى .

٨- مراعاة الأعراف الدولية لحقوق الإنسان.

ومع ذلك يبدو أن جورياتشوف أخطأ تماماً في قراءة حجم التغيير الذي طرأ علي العالم بالفعل. ومن منزل عائلة بوش في ووكر هيرت شاهدت أنا والرئيس جورياتشوف وهو يعلن الحاجة إلي تجديد الحزب الشيوعي. وأصابتنا صدمة شديدة. فقد أراد الشعب بوضوح تصفية الحرب لا تجديده، وقد أفصح عن نواياه بوضوح بتحطيم تماثيل لينين في مختلف أرجاء الاتحاد السوفيتي. كان الاتحاد السوفيتي آخذ في التفتيح بسرعة، ومعه وضع جورياتشوف. ومع حلول السبت تعرض جورياتشوف لاعتقوط للاستقالة من رئاسة الحزب،

وحلت اللجنة المركزية للحزب ونقلت كافة أملاك الحزب إلى البرلمان. وخارج روسيا صوت البرلمان الأوكراني بأغلبية ساحقة علي الاستقلال، وقلاه في اليوم التالي برلمان بيلاروسيا ثم مولدافيا بعد يومين.



وعدت إلي المروعة علي أمل نيل قسط من الراحة والاستجمام قبل أن يتفجر جزء آخر من العالم. وأصبحت الأسبوع التالي أخذ أقل قسط يسعى من الراحة والاستجمام بينما يستغرقني كثير من التفكير في تلك الأحداث المروعة ولنا أزرع اللال التي تطوق مزرعتي. وبدأت الأسئلة التي تواجهني محددة تماماً. هل بوسع يلتسين وجورباتشوف التعاون؟ كيف سنعامل مع ما سيصبح حكومة ائتلافية بشكل أساسي؟ هل سيظل الاتحاد السوفيتي موجوداً؟ وأمست رأسي من شدة وطأة هذه الأسئلة؟.

ولم أذكر سوى علي إجابات قليلة في مذكرتين أعدتهما خبيرا للشؤون السوفيتية بإدارة التخطيط السياسي أندروكار بندال وجون هاناه. وأشارت أولاها، وكانت بطوان، ماذا يتعين عمله، وهي مسرحية عن كذاب لفين للمصادر عام ١٩٠٢ إلي أن الشعب الروسي قد أزال آخر آثار السلافينية، وبانت الأبواب مفتوحة الآن علي مصراعيها أمام احتمالات إجراء إصلاحات سياسية واقتصادية جذرية. وجاء بالمذكرة: «إن للمركز ومؤسساته ستظل قائمة في الوقت الحالي. لكن اعتماداً علي تساهل الجمهوريات إلي حد كبير، ومن أجل البقاء يجب علي المركز أن يحول نفسه إلي طليعة للإصلاحات الجذرية. وإذا أخفق في إحداث هذا التحول فصوره يصبح جزء من المشكلة بدلاً من أن يكون جزءاً من حلها. وفي ظل هذه الملاحظات ستحاول الجمهوريات تحيية للمركز جانباً وتعاول ابتكار آلية جديدة تصوغ العلاقات من خلالها». وباحتصار باتت أيام جورباتشوف محدودة إذا لم يصبح ديمقراطياً بدرجة أكبر من يلتسين وهو احتمال وجنته غير مرجح.

وبدأت في دراسة مجموعة من المبادرات للقيمة الواردة في المذكرة، وعلي سبيل المثال عقد مؤتمر للدول الماحدة المعونة الإنسانية، وتكثيف منخ للمساعدة الفنية الأمريكية.

تأسيس صناديق للمشروعات وبرامج قبائل السلام للجمهوريات وصندوق جديدة المحراث،
للتحويل للصناعات الدفاعية السوفيتية إلى الإنتاج المدني. إضافة إلى عدة انطلاقات سياسية
جديدة. علي سبيل المثال ربط المعونة بالانتخابات، وتعديل مناقشات سدارت لتتناول أخطار
نشوب حروب عارصة، وحظر الصواريخ الباليستية المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة
للتوجيه المنصوبة. (الذي اقترحه زورغيس موسكوفيتش عام ١٩٩٠).

وحتى نعرف كيف ستمضي العلاقة بين جورباتشوف ولينين، وبين المركز
والجمهوريات كنت حذراً في الكتابة إلى جورباتشوف كلفة. وكنت أعتقد أيضاً أنه من السابق
لأوانه طرح مجموعة جديدة من المبادرات علي الرئيس قبل أن أعود وأدرس مباشرة كيفية
تطور الأحداث في موسكو وبقية أنحاء الاتحاد السوفيتي.

وعلي أية حال فقد كانت أولوية الرئيس الأولي هي البلقان. وفي أعقاب فشل الانقلاب
تمركت دول البلقان بكل قوة لنيل الاستقلال. ودش يلينين البداية بالاعتراف باستونيا
ولااتفيا في ٢٤ آب أغسطس (كانت روسيا قد اعترفت بليتوانيا بالفعل في ٢٩ تموز يوليو). وقد
سارعت عدة دول اسكندنافية بالفعل للاعتراف بها، وتزايدت الضغوط علينا لنحذر حذوها.
ولأننا لم نعترف مطلقاً بضم دول البلقان إلى الاتحاد السوفيتي فقد أعلن الرئيس ببساطة في
٢٢ أيلول سبتمبر إقامة علاقات دبلوماسية مع ليتوانيا ولاتفيا ولاتفيا، ولأننا سنعمل علي تأكيد
حقيقة الاستقلال.

ونار السؤال السياسي الأكبر حول الجمهوريات الأخرى. وكنت أبحث عن أداة
دبلوماسية تساهم في تشكيل سلوكها. ووجدت فكرة مفيدة في المذكرة الثانية. فقد بدأت
بالإشارة إلي: «أن الإمبراطورية السوفيتية الخارجية قد انهضت عام ١٩٨٩ ويبدو أن
الإمبراطورية السوفيتية الداخلية تنهار الآن». وبينما بنا أن الشق الأكبر من الحملة الإعلامية
للاستقلال مرتبط بجهد تبذله كل جمهورية عن عمد لتعزيز مركزها التفاوضي في أي
مفاوضات خذرت المذكورة من أن هناك إمكانية حقيقية من أن إعلانات الاستقلال الحقيقية
ستثير نزاعات إقليمية واقتصادية وعسكرية بين الجمهوريات». ففي هذا الأسبوع حذر يلينين

من أن المناطق التي يسيطر عليها الروس من أوكرانيا وقازاقستان لن يسمح لها بالإصلاح. ومنعت المذكرة إلي القول: وفي الوقت الذي ستقرر فيه الأحداث علي الأرض. فإن آراءنا سيكون لها أثر كبير علي كيفية تحريك الزعماء تماماً مثلما حدث في الانقلاب. ويمكننا بتبني خمسة مبادئ، أن نضع الإطار العام للفلسفي والعملي الذي يمكن في سياقه أن تحدث عملية تفكك الاتحاد السوفييتي سلمياً بشكل منظم.

كانت المبادئ ذاتها مباشرة وصريحة: أولاً: حق تقرير المصير سلمياً بما ينسق مع القيم والمبادئ الديمقراطية. ثانياً: احترام الحدود القائمة حالياً علي أن تجري أي تعديلات سلمياً بالاتفاق. ثالثاً: احترام الديمقراطية وحكم للقانون وخاصة الانتخابات والاستفتاء. رابعاً: احترام حقوق الأقليات. خامساً: احترام القانون الدولي والالتزامات الدولية. وكانت قوة تلك المبادئ تكمن في بساطتها، ومثلما كانت مبادئ الرئيس «الأربعة» التي حكمت نهجنا تجاه الوحدة الألمانية فإن المبادئ «الخمس» يمكن أن تخلق بنية سياسية تساعدنا خلال ما اعتقد أنه فترة انتقال تزيد استقراراً.



ومع ذلك اعتقدت أن الأيام القادمة تعمل بين طياتها بمنزلة الفرص الحقيقية. فقد أبدى الشعب رغبته وتشوقه للحرية، وأحسست أن من غير المرجح أن تكبح تلك الطموحات مرة أخرى. كانت ناهضة الفرص مفتوحة أمام الديمقراطية لأن للشوعية باتت قوة بائدة، رغم أن الكثيرين من البيروقراطيين يتظاهرون بالديمقراطية بمجرد لبقاء في السلطة. كانت أقوى للمخاطر تكمن في احتمال أن التفسخ والتفكك قد يؤدي إلي اندلاع أعمال عنف بين الجمهوريات أو الأعراق. وهو أشد ما يثير القلق في بلد يمتلك آلاف الروس النوية.

وعزز ميلي إلي تبني هذه المبادئ لاجتماع عقد في ذلك الوقت بين جيم كولينز وسيرجي نارسينكو في موسكو. وحذر نارسينكو الذي كان يتحدث بالأصالة عن شيفريادرة،

حذر كولنيز من أن إثارة يلقين للزعة القومية الروسية أمر بالغ الخطورة. وأعرب تاراسينكو عن اعتقاده بأنه، ليس هناك قوة توازن حقيقية مع المشاعر القومية ومع القوي التي تدفع باتجاه التفكك. فالترينس ضعيف وهياكل الحكومة المركزية عاجزة تقريباً عن القيام بعمل مستقل، وكان شيفيرنادزة يعتقد أن صدور بيان منا يؤكد على مبادئ هلسنكي والحاجة إلى تسرية النزاعات سلبياً يمكن أن يفعل الكثير في تقليل احتمالات الصراع.

وبعد مناقشة المبادئ الخمسة مع سكوكروفت وموافقه عليها أعلنت تلك المبادئ في إيجاز صحفي بالبيت الأبيض في الرابع من أيلول سبتمبر. وفي ذات اليوم جُست مع الرئيس لبحث أولويات الاقتصاد السوفيتي. وتبلورت تلك الأولويات في أولويات ثلاث: الأولى: حث التلجة الاقتصادية السوفيتية الجديدة التي تشكفت غداة الانقلاب على إعداد خطة إصلاح شاملة نحو إقامة اقتصاد السوق بالتعاون مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وإلى أن يتم ذلك سيكون تقديم المعونة واسعة النطاق غير مجد من الناحية الفنية. وثالثاً أولوياتنا الثانية في المعونة الإنسانية في محاولة لمساعدة السوفيت على تجاوز ما كان ينبغي بأنه شقاء شديد القسوة، وثالثها: هو المعونة الفنية، وكنا نأمل أن يكون هدفنا توزيع الأغذية والطاقة وتحويل الصناعات الدفاعية إلى الإنتاج المدني.

وكان الأكثر أهمية من الاقتصاد والسياسة بالنسبة للرئيس هو قضية الأسلحة النووية. وأثناء المحاولة الانقلابية رصدت المخابرات الأمريكية عدة مؤشرات غريبة شملت قوات الصواريخ الاستراتيجية - أي للدراع النووي للجيش السوفيتي. وفي الوقت الذي لم تلح فيه مؤشرات على تزايد التهديد بوقوع حادث نووي فقد أثارت تلك المؤشرات للغريبة قلقه بالطبع، وطلب متى أن لرائ أهمية خاصة لقضايا السوطة والتحكم عندما تحدث مع جورباتشوف وبلغتين وقيادة الجيش*. وحدث ذلك بعد قليل لأننا قررنا أن هناك سهلاً وحبناً لمعرفة ما يدور حقيقة هي الاتعاد السوفيتي وهذا بالنسبة لي أن أتوجه إلي هناك بنفسى.

* أصدر الرئيس تعليماته أيضاً إلى دوك تشوي وكولنيز بأول بتقديم أفكار جديدة وجادة لتقليل خطر نشوب حرب نووية وبعد مناقشات وجدل مهم بين مستشاريه أعلن في ٧٧ أيلول بمؤتمر مطلة من القطر الجدية شئت إزالة أو تدهيم من جانب واحد للأسلحة النووية التكتيكية، إزالة الصواريخ بالبالستية المتحركة العابرة للقارات وصواريخ من ترابه لها الهجومية مسيرة مدني، وإفراج إزالة الصواريخ بالبالستية العابرة للقارات السويدة بسوكة الرجمة المصنعة مسطكة كزوجيه.

موسكو على شفا.....ماذا؟

فى كل مرة أهبط فيها موسكو صادفتنى مدينة جديدة على ما يبدو، ولم يكن العاشر من أيلول سبتمبر استثناءً من للقاعدة . وفى الواقع كان اليوم الأول لى فى موسكو يوماً سريالياً. وتوجهت من مطار أوريولوك المهجور إلى حد مرشح إلى الكرملين الذى كان يرفل فى عروني الأسابيع الماضية، ثم إلى البيت الأبيض الذى كان يمكن رؤية بقايا المتاريس حوله . وفى للحقيقة كانت المتاريس توجد على مسافات متساوية بين سفارتنا والبيت الأبيض، ويمكن رؤية الزهور وياقات اللورد التى وصعت تخليداً للشباب الثلاثة الذين ضحوا بأرواحهم أثناء الانقلاب.

وقصيت معظم اليوم مع جورباتشوف وبلتسين، وأعطيت كلا منهما واحداً من الأحلام الأمريكية التى كانت مرفوعة على الكونجرس الأمريكى يوم الحادى والعشرين من آب أغسطس، وعقب اجتماعى مع بلتسين توجهت إلى اجتماع مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا. حيث شاهدت وزير خارجية ليتوانيا يلقى كلمته أمام الحضور. وفى تلك الليلة كتبت إلى الرئيس: «لو أن أحداً قال لنا قبل شهرين أن وزير خارجية ليتوانيا المستقلة سيلقى خطاباً إيجابياً للغاية أمام اجتماع مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا بموسكو فى أيلول سبتمبر لنصدقها عما يعطاه. فذلك يحدد التعصبات الهائلة التى تحدث هناك».

كان جورباتشوف وبلتسين يتمتعان بثقة بالغة. وزالت عن جورباتشوف صورة المهزوز الذى لازمته فى أواخر آب أغسطس وحلت محلها صورته القديمة - الإصلاحى السوفيتى الوثائق الذى لا يكاد يتناهى أى شك فى الذات على الإطلاق. وكان بلتسين مفعماً بالقوة أيضاً. فقد حوله تلك التحولات التى اعتلى فيها الدبابة والساعات التى أمضاها من مبتدئ مسامر مارك إلى شخصية عالمية حقيقية.

وقلت لجورباتشوف: «لقد مضى زمن الكلام إتنا فى حاجة للعمل. إن أمامكم فرصة عظيمة للتحررك لأن الصقوط قد زالت. ويتعين الآن أن تحركه بحسم» وقلت نفس الشيء لبلتسين. وأكدت على حاجتهم إلى برنامج موثوق به يوضع بالاتفاق مع صندوق النقد

الدولى ولبنك الدولى بهدف الانتقال نحو اقتصاد السوق الحر. ووفق الاثنان. لكن كلا منهما أكد الحاجة إلى المساعدة الأجنبية، وخاصة لتلبية الاحتياجات الإنسانية التي ستتفاقم علي الأرجح مع دخول الشتاء الروسي القارس.

وأشاد جورباتشوف في دوائره الخاصة والعلامة بالرئيس بوش لدوره الشخصي أثناء الانقلاب، وحملني ببعض المشاعر لتوجيه الشكر للرئيس. وقال: «نعرف أنه بعد الانقلاب كان الجميع بالعي للرد معنى، والآن فقط فإننا نرى بأوضح ما يكون سواء دخل الاتحاد السوفيتي أو خارجه من كانوا معنا ومن كانوا صدينا». وفي مؤتمرنا الصحفي طلب من جورباتشوف تسليم الرئيس واحداً من أربعة أشرطة فيديو صورها في القرم خلال أعتك ساعاته. وكان يلتصق بحمل تقديراً عالياً للرئيس، ولا سيما مكالمته الرئيس له في ثالي أيام الانقلاب.

ولم تكن تلك نقاط الاتفاق العامة بينهما فقط علي الأقل في تلك اللحظة. وبصراحة شديدة فقد فوجئت تماماً بمدى تعارنهما وتنسيقهما واتفاقهما حول عدد من القضايا. وسألت كليهما: «من الذى سيدحكم في الأسلحة النووية؟ قلحون نقول علناً إننا نريد سلطة قيادة مركزية واحدة. ونحن لا نريد رؤية أكثر من دولة نووية». واتفق الاثنان علي أن المركز يجب أن يحتفظ بالسيطرة علي كافة الأسلحة النووية الاستراتيجية والتكتيكية، وأشاد جورباتشوف إلي أن للتصالح القوي يمر عبره. واتفقا أيضاً علي ضرورة وجود صعة وحيدة في الاتحاد الاقتصادي الجديد. واتفقا أيضاً علي أن لاتعانا اقتصادياً جديداً وأنسب أشكاله معاهدة اقتصادية يحكم علي إعدادها جورجورى يافينسكى مع الجمهوريات بعد أمراً جوهرياً لحكم ما وصفاه «بمنطقة اقتصادية ناشئة».



لم تكن المعين تحملى مدى حاجة كل منهما للآخر علي المدى القصير علي الأقل. وفي الحقيقة فقد أكد كل منهما لى علي قوة التعاون الوثيق بينهما. وأكد جورباتشوف علي شجاعة

يلتسين، وتحدث يلتسين عن جورباتشوف، ووصفه بأنه رجل قد تغير، وقال: إن الاتصالات الهاتفية بينهما لا تنقطع طوال الوقت. ومنح موقف يلتسين ضد الانقلاب شرعية له لدى المواطن العادي، وهي شرعية كان يحق لها جورباتشوف. وأصبح يلتسين يعرف بينهم به «فوجده زعيم كالقيصر يمكن أن يوفر الاستقرار الذي يرغبونه بكل شدة بعد فوضى حقبة البيريسترويكا. وكانت تلك الشرعية هي ما يفقده جورباتشوف الآن. وفي تلك الآونة كان يلتسين في حاجة إلي خبرة جورباتشوف لتسيير الحكومة. وكان يريد أيضاً علي ما يبدو المساعدة مع للجمهوريات الأخرى التي كانت تفضي لروس بشكل عام ويلتسين بشكل خاص.

ومع ذلك كانت مجالات اتفاقهما تعكس في الصميم أساساً أفكاراً سلبية، فقد كانا في حاجة إلي ردع أي محاولة لانقلابية أخرى. إضافة إلي الحاجة لمنع النسخ والفوضى العارمة ونعذب الجماعة. وقال جورباتشوف: «إن هناك قوي متعاطفة مع الانقلاب لم تفسح عن نفسها بعد. لقد قطعنا رأس الحية. لكننا نريد للدرك بأقصى سرعة لتجذب تكرار ما حدث.

وكان الإسراع بالتعامل مع الغرب، ولاسيما الولايات المتحدة يشكل قضية أخرى. ففي ضوء تزايد التومؤن حول مستقبل الاتحاد السوفيتي كنا في عجلة «للتشبهت» بالمكاسب هناك فضلاً عن ذلك والحصول علي السمعة الغربية كان يتعين علي موسكو تسوية عدد من مشكلات السياسة الخارجية. وقلت: «من المهم لنا جميعاً أن يكون بوسنا الإشارة إلي بعض النتائج الملموسة لهذه الزيارات، ولاسيما في مجال السياسة الخارجية، فلنقرب بعض الأمور التي لم نستطع تقريرها من قبل. فلنأخذ بعض الإجراءات التي بوسنا أن نأخذها للوسح بجلاء أن يوماً جديداً قد أشرق هنا. واستجاباً لطلب، وفي الحقيقة فقد كنا فاسنا في محاولة أن يكون كل منهما أكثر تعاوناً من الآخر. وضغطت بشدة علي كل منهما حول عدد من القضايا القديمة، ولاسيما شحنات الأسلحة إلي أفغانستان، وللمساعدات المالية لكوبا، والتواجد للمسكرى السوفيتي فيها. وقلت: إن الغرب سيكون مستعداً لمساعدتهم لأقصى مدى، وأن يساعدكم في قضية الدين لو أوضحنا أنهما لم يعونا يدعمان الأنظمة الشيوعية في مختلف أنحاء العالم. وقال جورباتشوف في مزحة ساخرة من الدين السوفيتي: «لقد أنفقنا ٨٢ مليار علي الأيديولوجية».

وكان يلتصق أكثر نزوعاً للعمل، لدرجة أنه عندما اقترحت وقف شحنات الأسلحة إلي أفغانستان ليعزز فرصة التوصل إلى تسوية في أفغانستان تدخل بقوة قائلاً: «سوف أبلغ جورباتشوف بأن يفعل ذلك». وعقب الاجتماع اتصل بجورباتشوف ثم عاود الاتصال بي وطمأنني بأن الاتحاد السوفيتي سيوافق علي مهلة الأول من كانون الثاني يناير ١٩٩٢ لوقف شحنات الأسلحة إلي أفغانستان. ذهبت من السرعة التي يمكننا بها إحراز تقدم. فقد وافق جورباتشوف خلال اجتماعي معه علي بدء الانسحاب من كوبا. ويدون توقع موافقته استفسرت منه أثناء توجيهها لمقدم مؤتمري الصحفي في قاعة سان بطرسبرج عما إذا كان يريسه إعلان ذلك. وقال إنه يمكنه وقد فعل. وهيمن هذا الإعلان علي تنظية الصحافة وأثار ذعراً قوياً ومشاعر صعبة في كوبا التي لم تطم بهذا الأمر للوهلة الأولى إلا من المؤتمر الصحفي. وفي وقت لاحق أبلغني بأنه سيتم خفض كافة أشكال المصونة العسكرية والاقتصادية مع الأول من كانون يناير ١٩٩٢ وسوف ينسحب كافة الجنود السوفيت من كوبا في ذلك الموعد. واتضح لي أن الدافع الرئيسي لاتخاذ مثل هذه الخطوة غير المسبوقة في موسكو رغم فشل الانقلاب هو تهديد الطريق أمام مساعدة أمريكية أكبر. وكانت اجتماعاتي مع بوريس يانكين وزير خارجية الاتحاد السوفيتي والندرية كوزيريف وزير خارجية جمهورية روسيا آنذاك اجتماعاتي مع رئيسيهما. وتعد كلامهما بالتعاون للنام*.

وفي المقام الأول كان أمام جورباتشوف ونيكسين بشكل عام مهمة سياسية في الأجل القصير بإقضاء من يتحدى سلطتهما. لكن علي المدى الطويل الذي سيطلب تطوير برنامج عمل إيجابي فقد كنت أقل ثقة. وفي تلك الليلة كتبت إلي للرئيس: «لا أعلم إلي متى سوف يستمر تعاونهما. لكن كليهما يري بوضوح أنه في مصلحة كل منهما الآخر».

ولكن عندما تفحصت الوجه الجديد المثير للأمل في الموقف السياسي وجدت الأخطار الكامنة علي نفس القدر. فقد تقوض الاقتصاد. كما أن للمعوية الإنسانية المطلوبة صخمة للغاية. واستمر جورباتشوف في إظهار فهم أقل للخطوات الأساسية المطلوبة لتحويل اقتصاد موجه إلي اقتصاد سوق حر، وأكثر من أي شيء آخر يدت للفوضى تعود العلاقات

* بدأ كوزيريف الاجتماع بالإشارة إلي الموقع الموجود علي الحدود. كما ترى فإن جدراننا عارية. فقد كان هذا البني مفرأ للحرب الشيوعي وقد رُمينا اللوحات القديمة ولم نغور بعد مفاً نضع مكثها.

الاقتصادية. «وفي لحظة ما، قال جورباتشوف إنهم في حاجة إلي سيطرة محكمة علي أي صندوق استقرار» لأن الأمور تخطى هذا. فقد حصلنا علي الكثير من الأموال من أجل الوحدة الألمانية، وعندما سألت الرجال أُلْبِخْتُ بأنهم لا يعرفون أي هي. وقال لي ياكوفيف أسأل في كل مكان، وسوف تكون الإجابة لأحد يعرف. وقال لي ياكوفيف في وقت لاحق «إنها ذهبت».

وأظهرت اللقاءات التي أجراها العاملون معي وموظفو السفارة مع رجل الشارع أن كل ما سمعوه هو مجرد كلام. وفي الوقت نفسه تزداد صعوبة للحصول يوماً بعد يوم علي الأغذية والسلع الأساسية عما كان عليه الحال قبل عام أو عامين. وقال أحد معارف مارجریت تاتويلر من زيارات سابقة لي أول من يمنع للفرد كما علي الأرفف سيكون هو الفائز بالجائزة. ويبدو أن هناك الكثير من التأييد الكامن لكل من يستطيع أن يعد بإقرار النظام. كان البعض أكثر صراحة. لقد ذهب ثمانية. لكن لا يزال هناك الآلاف. وتمثلت المشاعر علي ما يبدو في أنه لو لاحت فرصة جديدة للرجعية فإن الجولة الجديدة لن تكون عملاً ساجداً.

وعزز تلك الانطباعات المباحثات التي أجريتها في اليرمين التاليين. وبدأت يوم الخميس ١٢ أيلول سبتمبر مع إيفان سيلاييف رئيس اللجنة الاقتصادية الجديدة، وهو رجل واضح يتعجر بالطاقة. وتضم اللجنة بانكين وكوزيريف وياطينسكي الذي أصبح الآن أكثر اهتماماً بوضع خطة تضمن الحصول علي موافقة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. (وفي الليلة السابقة، وقبل العشاء أبلغ ياطينسكي بوب زوليك أنه كان ضمن المجموعة التي توجهت لاعتقال بوجو وزير الداخلية. وقبل دخولهم شقته كان بوجو وزوجته قد انتحرا بالمسدسات).

وبدا سيلاييف بتوجيه شكر لزعماء الانقلاب للذين قال إنهم دبروا للانقلاب في ذات الغرفة التي نجلس فيها. فقد عجلت تصرفاتهم بحدوث مواجهة بين المحافظين والإصلاحيين، والآن فإن الإصلاحيين هم الذين يطعنون القمة. ومع ذلك فقد بدأ واقعياً بل وحتى متشائماً تجاه احتمالات تغيير دفة الاقتصاد. وقال سيلاييف: إن الوضع بالغ الخطورة. فجذور الهياكل السابقة لا تزال موجودة. وكذلك للذين دافعوا عن الأساليب القديمة. وربما كان هناك بعض المتهورين للذين يحاولون انتزاع بعض المميزات. وأوضح أن مهمة إدارته

الانتقالية، هي تجذب وقوع مزيد من اللجوء الاقتصادي وتفادى المجاعة. وتطرفنا إلي العلاقة بين المركز والجمهوريات. لكنني أحسست بأن هناك الكثير الذي يتعين عمله. وبينما أشار سيلابيف إلي أنهم نجحوا في تقديم القضايا الاقتصادية علي القضايا السياسية فلم أكن متأكدًا إلي أي حد سوف يمتنعون بدون حل مسألة العلاقات السياسية للملحة.

وأكد علي تلك النقطة محاورى للتالى المسند بروف الذي قال: إلى كل جمهورية تجد نفسها في وضع مختلف عن الأخرى. فبعضها يمكنه الاستمرار بإمكانياته الذاتية. لكن ليس بوسع جمهوريات أخرى الاعتماد علي إمكاناتها. إن هذا سيدود مثل الكمكة الملقوفة. ورأيه فليست هناك حكومة قوية. فليس هناك سوى العصبية والغموض. وربما تجد روسيا نفسها مضطرة لتولى دور المركز. وسوف ينضم الآخرون. لكن إن يحدث هذا إذا كان لروسيا دور حاسم. والغرب في حاجة لصنع مساهماته إلي المركز. لكن بطريقة تحول دون إعادة تشكيل المركز، وهي ليست بالمهمة السهلة علي الإطلاق.

وأكثر من الزعماء الوطنيين كان العمدة منشغلاً بمشاكل حقيقية مثل إطعام سكان موسكو. وقال: إلى موسكو ليس يوسعها إعالة نفسها خلال الشتاء. إننا في حاجة لخمسة عشر ألف طن من البيض ومائتي ألف طن من الحليب ومئشرة آلاف طن من البطاطس المهروسة. ولدي جيشكم مخزون من بعض هذه المواد سيتم للتخلص منها بعد ثلاثة أعوام لكن موادنا تكفي الإعاشة لثلاث سنوات أمر يناسبنا تماماً. كان اعترافاً خطيراً بمشاكل تواجه بلداً تعدت زعماءه ذات مرة عن ذهن الغرب.



وكان لاجتماعى مع شيفرنلدره هو أشد الاجتماعات إثارة للمواقف علي الإطلاق. فبعد تسعة أشهر من تحديده من مخبة حدوث انقلاب واستقالته دفاعاً عن المبدأ هامر لاحقاً ينضم بشجاعة إلي بلتسين لإفضال الانقلاب. وأحسست بأننى هذا مع رجل الاستقامة. وبلى الشرف

بأن أدعوه صديقي. وقال: إن هناك فراغاً في السلطة والشرعية واضطرابات اجتماعية هائلة تصوج بها البلاد، ومطلب منا عدم الحكم علي البلاد بما يدور في موسكو وسان بطرسبرج. ففي أماكن أخرى لا يتمتع الديمقراطيون بالقوة الكافية. وكان هو أيضاً يشعر بالقلق من الشتاء. وقال: إن الناس قد تنزل إلي الشارع وهذا خطر حقيقي قائم. واعتقد أن جورباتشوف قزر أجبراً التحرك بطريقة جذرية. فصمير صديقي وضمير للكثير. إن أبسط تحليل يكشف عن أن هذا التهديد كان حقيقياً. وقد قام بإجازة بعد إجراء بروفة لهذا الانقلاب ولم يلحظه.*

وقال شيفرنادزة أيضاً: إن اللاتل والقوة الحقيقية في الاقتصاد انتقلت إلي الجمهوريات، ومرة أخرى أكدت الحاجة إلي ترتيب ما حتي يعرف العالم للخارجي أين تكمن القوة الحقيقية في مجال الاقتصاد. وهذه أيضاً حتمية تدعو لتطبيق برنامج اقتصادي موثوق به.

وفي المجال السياسي كان شيفرنادزة يتطلع كمعادته دائماً إلي المستقبل. وأشار إلي أن المبادئ الخمسة ستؤتي ثمارها في الفترة الانتقالية. لكن علي المدى البعيد فالأمر مختلف تماماً. ونوقع أن تصبح الأصولية هي مشكلة آسيا الوسطي مع نهاية القرن. وأسرلى: «سوف نجد نفسك في عالم جديد تماماً. عليك أن تفهم ضرورة إقامة اتحاد جديد، وإلا فسوف تعم الفوضى».



وفي ذلك المساء، وعندما استصنفت زعماء الجمهوريات علي الششاء شارك فيه مزيج من رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات ووزراء الخارجية. شاهدت حول المائدة وأثناء المباحثات صورة مصغرة للاتحاد السوفيتي المنتظر بعد الانقلاب ومشاكله. وأياً كانت الدشوة التي غمرتهم بإعلانات استقلالهم بعد الانقلاب فقد تبذرت لتضيق الطريق أمام قدر مهم من

* أبلتي جورباتشوف أن الحقبة هي أن الانقلاب كان موقفاً حذو ثمانية عشر شهراً.

المواقفية. وأشار رئيس وزراء مولدافيا فاليريو مورالسكى* إلى أن الاستقلال شيء قيم، ولكن علينا أن نعيش، وأن نحمل بالواقفية كانت هذه هي النصة الثابتة التي سمعتها من كل واحد من زعماء الجمهوريات باستثناء وحيد هو فيساريون جوجوشيفلي رئيس وزراء جورجيا رغم تمدنه عن الحاجة إلى إقامة تعاون اقتصادي بمجرد أن تعطي جورجيا بالاعتراف الدولي.

وأشاروا جميعاً إلى أهمية المبادئ الخمسة، وعندما أكدت علي أن العلاقات مع الولايات المتحدة وتأييدها سوف يعتمد علي مراعاة تلك المبادئ وجدت موافقة عامة. وكتبت إلى الرئيس في تلك الليلة: إلى المبادئ الخمسة يمكن أن تصبح أداة مفيدة للغاية في التأثير علي سلوك زعماء الجمهوريات واعتداف الزعماء أيضاً بلتفاقهم حول ما وصفوه بمنطقة اقتصادية واحدة، وتفهمهم لخدمة التعاون والتتسيق حول المعونة. واستعرضت الصعوبات التي ستواجه الغرب في تقديم المعونة الإنسانية والمعونات الاقتصادية الأخرى في غياب ترتيبات تعدد سلطة صنع القرار الاقتصادي.

وكان من الواضح أيضاً أن المشاعر القومية ليست علي درجة كبيرة من العمق. وانتهى بي الحال في نهاية المعاء كوسيط بين سيلابيف ورئيس الوزراء الأوكراني فيتولد توكين. وأبلغني الزعيم الأوكراني أن أوكرانيا سوف توقع علي اتفاقية الاتحاد الاقتصادي شرط أن تقضي صمائنات بأن توزيع المعونة الخارجية سيتم علي قدم المساواة، وهو ما لم يكن الحال بالنسبة لأموال الوحدة الألمانية. ووفق سيلابيف علي تقديم مال هذا الالتزام. لكن لشكوكي للمبادلة كانت بالغة الواضح. كان من شبه المؤكد أن الضغوط القومية في السياسة التنافسية الجديدة لكل جمهورية ستعصم عن نفسها. ومهما كانت الأسباب الاقتصادية للشريعة التي تدفع للتوحد فقد كانت أكثر توازناً من الأسباب السياسية التي تدفع نحو التفتخ.



* خبرت مولدافيا اسمها إلى مولدوفا كمال علي الثقافة الوطنية التي اكتسحت الاتحاد السوفيتي وطردت تغييرات أيضاً في جمهوريات أخرى. فقد تغير اسم بيلاروسيا إلى بيلاروس وأوكرانيا إلى أوكرانيا.

وبدأت يوم الجمعة بالاجتماع مع وكوفلوف رفيق سلاح شيفرنادزه، واستهل بالقول: «إن من الصعب فهم أن هذه ثورة حقيقية، وخاصة في تفكير الشعب». وشددني هذا التناقض الشخصي فشيفريادزه وياكوفلوف رجلان مثان متحضران كان دورهما قويا في إفشال الانقلاب. وقال: لقد ذهب إلهادي إلى المدارس الموضوعية حول البيت الأبيض. ولم أكن أنصور أن يحدث هذا، والآن فإن السلطة في أيدي الديمقراطيين. ولا يعرف الكثيرون حقيقة ماذا تعني الديمقراطية. إنهم يعارضون الحرب فمضب.

وحذر من أن أخطأ سوف ترتكب، لأننا نشغل بعض الوظائف بمدنيين فتح كرئيس ال كي جي بي الجديد، وهو مدني بنسبة مائتون في المائة. وعلمت أن القائد الجديد لشرطة موسكو لا يعرف شيئا عن مهام رجل الشرطة. لكن علونا أن نحمي الديمقراطية بالمدنيين. وشعر بأن انتحار المارشال أخروميف بعد ثلاثة أيام يعطوي علي مأساة حقيقية. وأشار الي بسمرتليخ، بأنه رجل جيد وديمقراطي صحيح. لكنه يفتقر إلي الشهادة.

واجتمعت مع وزير الدفاع الجديد بفجيني شابوشنيكوف في قاعة اجتماعات كبيرة مزودة بقمص لوحات جدلية ضخمة لمعارك حربية في الطابق الخامس بمقر وزارة الدفاع الذي مررنا أمامه عدة مرات لكن لم يُستقبل به أي من وزراء الخارجية الأمريكيين. وبدأ التورير طرحه بالإشارة إلي «أن هذا لم يكن انقلابا عسكريا نحن لم نستخدم أي سلاح ضد شعبنا. فقد قفقه مجموعة صغيرة من الانقلابيين لم تكن تعي ما يجري في بلدنا. كان عليهم أن يطلوا من نوافذهم. كان عليهم أن يسيروا. إن الشعب والجيش والعصر الذي نعيشه هم الذين لوقفوا الانقلاب. فالديمقراطية تيار كبير وليست تيارا ضيقا كما اعتقدوا. لقد انتقلت بلدي إلي طريق الديمقراطية».

وقلت له: أعني ذلك موقد أشرنا إلي شجاعته الشخصية أثناء الإنقلاب واستغسرت عن رؤيته للجيش السوفيتي الذي يتناسب مع الديمقراطية الجديدة .

وقال إنه اجتمع مع زعماء الجمهوريات. وأن جمهوريات البلطيق تمثل حالة خاصة. إنها تريد أنسحاباً قوياً للجيش السوفيتي. وقال: «لو بنيت مساكن في روسيا فسوف أنقلهم

بأسرع ما يمكن، وقد أبلغ زعماء البلاطيق بأن الأمر «يستغرق بعض الوقت، لكنه يشعر أنهم يتقهمون المشكلات التي تواجهه.

وبالنسبة لشابوشنيكوف فإن التحول الاقتصادي كان يمثل التحدي الأول، رغم أنه حذرني علي الصعيد السياسي: «أرجو ألا تتسرعوا في الاعتراف بكل تلك للجمهوريات الجديدة». ثم تحول بشيء من البراءة إلي مارجريت ثاتشير. أرجو من السيدة ثاتشير ألا تقول أمام الليغريون شيئاً عما قلته للتو. وطعنته إلي أننا لن ننسب إليه شيئاً في تصريحاته للصحافة الأمريكية، وكما يكشف هذا مدي حداثة. بل وحتى سذاجة للزعماء الجدد. وكان مثل جورباتشوف صلباً في اعتقاده بضرورة السيطرة المركزية علي الأسلحة النووية الذككية. فضلاً عن ذلك كان شابوشنيكوف والجنرال أوليج لوبوف الرئيس للجدد لهيلة الأركان الذي اجتمعت معه الثلاثين نفقة بكفان علي إجراء عملية تقديم لمجم وشكل الجيش. إضافة إلي هيكل القوة. وكان كلاهما يتوق إلي الاجتماع مع ديك تشيلي وكولين بارل، وكنت مقتنعاً بأن هذا يمكن أن تكون له آثار علي سلوك موسكو خارجياً. ليس علي السدي للبعيد فحسب. بل ويمكن أن يساهم في جعل للجيش أكثر قدرة علي الدفاع عن الإصلاح داخلياً.



ومثلما هو الحال في كل اجتماعاتي لحثفت العلاقات بين المركز والجمهوريات الصدارة في مباحثاتي. كان وزير الدفاع السوفيتي يريد إجراء إصلاحات ستحدث تغييرات جذرية في طبيعة الجيش السوفيتي ليحسب التوازن المتغير بين المركز والجمهوريات، وتحدث شابوشنيكوف عن الجيش الذي لربط بالفعل باتفاقية علاقات مع كل جمهورية. وحدث قللاً: لي تواجد الجيش في أي جمهورية سيتم صياغته وفقاً لعقيدة محددة تقتضي من الجيش حماية حدود الجمهورية مع إلزامه بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لتجمهورية. وأشار إلي

أن القائد المحلي سيكون ضمن التسلسل للقيادي لرئاسة الأركان. لكنه سيعمل بالتنسيق مع مجلس محلي من بين عشرة أو خمسة عشر زعيماً محلياً في كل جمهورية، ولتطلب الإطلاع على اتفاقية وضع عام للقوات (سوها) وهي الإطار القانوني الذي تستخدمه لذي تركز القوات الأمريكية في الخارج وإسماً نصب عيونه صياغة العلاقة بين الجيش وكل جمهورية، ورغم أنه كان قائداً للقوات الجوية فقد أراد تحويل وزارة الدفاع إلى مؤسسة تستند إلى أساس مدني. وكان مهتماً أيضاً بتغيير صورة الجيش في المجتمع السوفييتي باستمارة عقيدة قضائية محلية منا تستخدم في محاكمة أفراد الجيش الذين يرتكبون جرائم. وكان يعتقد أن هذا سيحول الجيش إلى جيش محترف وأقل تهديداً في عيون الرأي العام.

وفي وقت لاحق بعد ظهر اليوم وصلت إلى ميدان ديزيجينسكي الذي يوجد به مبنى لوبيانكا مقر الكي جي بي لأجد قائدين باكاتين الرئيس الجديد للجهاز في التظاري علي حافة الرصيف للترحيب بي. وقال أمام صحافتنا «أشعر بشيء من العصبية، وهو ما وجدت فيه اعترافاً صريحاً ملطفاً. فإذا كان قد حدث ولجتمع وزير خارجية أمريكي مع وزير الدفاع السوفييتي بمقر وزارة الدفاع فليس من المستغرب أن عقد اجتماعاً مماثلاً في عرين الكي جي بي نفسه، وأثرت معه مجموعة من القضايا التي نحتاج معادلتها فيها، ولا سيما قضية أسري الحرب والمفقودين في فيتنام. وقال: «سوف تفتح الملفات فيما كان هناك شيء يخص أسري الحرب والمفقودين في فيتنام، ولكن لنكن أماناً فإن هذه المنظمة غير معروف عنها الاحتفاظ بسجلات مكلفة كما أنهم دمروا الكثير منها، ولا أعرف ما إذا كنا سنمطر عليها». وقال: إنه سيعمل علي إصلاح هيكل الكي جي بي. فقد توسعت الكي جي بي وتمنحمت إلى حد كبير. وسنقوم بضمها.

وفي الأسبوع الماضي استضاف باكاتين اجتماعاً ضم رؤساء الكي جي بي في إثني عشرة جمهورية وانفقوا علي الصل للجمهوريات لا فوقها. وسنكون مهمته تنسيق الجهود، وتحدث عن تحويل الكي جي بي إلى منظمة أشبه بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية سي أي إيه. وأكد باكاتين علي أن دورها الأساسي سيكون الاستخبارات الخارجية لا القمع السياسي الداخلي أو للتخويف. وشعر بضرورة وجود أساس قانوني للكي جي بي، وعكف علي دراسة كيف يساهم القانون الأمريكي في دعمها وتعزيزها وتميزها.

وتسامل عما إذا كنا ستكون متفحجين حول تكليف التبادل بين الكي جي بي والسي آي
إيه وهو ما يراه مفيداً علي الأقل من ناحية الأثر الذي سيتركه ذلك علي تعويل الكي جي بي
إلي مؤسسة محترفة كما يريد. وقالت لنفسى إن هذا بلد داعر قفيل شهر واحد كان رئيس الكي
جي بي يعتقل الرئيس جورباتشوف، والآن يدرس رئيسها القانون الأمريكي لمحاكاة
المخابرات المركزية الأمريكية.

كان فاتراً لكنه مخلص وصريح ولم يظهر انفعاله إلا عند التطرق إلي مناقشة للعلاقات
بين المركز والجمهوريات. ودفع باكنتين قائلاً: إن زعماء للجمهوريات يتصرفون بشكل غير
محمول. استقلال، نعم، ليكن ولكن ليتصرفوا بمسؤولية. إننى لا أتحدث عن دول البلطيق،
ولكى عن الآخرين إنهم يعتقدون أن الانفصال سوف يساعدهم، وأن الغرب سوف ينقدهم.
ولا يسعنا سوى للعيش معاً - ليس كما كان الحال فى الماضى - ولكن معاً وخاصة فى
أوكرانيا.

وقلت له: إننى أشر أن الجمهوريات سوف تتعاون اقتصادياً.

روافق ولكنه أكد: دانتا فى حاجة إلي الاستقرار السياسى، وإلا فسوف نضلّق إلي هابوية.
فروسيا وفاراقستان وأوكرانيا لا يمكن أن تعيش بدون اتحاد، إننا نريد اتحاداً فضفاضاً لكى
تتشر الناس بالأمان.



وهى ذلك السماء توجهت بالطائرة إلي سان بطرسبرج (التي استعادت اسمها القديم بعد
أن حملت اسم ليننجراد لسبعة وستين عاماً.) لعضور مأدبة عشاء مع أناتولى زويتشاك صدة
المدينة الذى كان شجاعاً مثل يلقين فى تعدى الانقلاب. (وساعده الكولونيل جدرل فيكتور
سامسونوف قائد منطقة ليننجراد العسكرية الذى رفض نشر قواته أثناء الانقلاب، وجلس
سامسونوف إلي جوار زويتشاك خلال العشاء. وأسرتنى شخصية زويتشاك الكاريزمية
وأحسست أنه فى سبيله للانضمام إلي القيادة الوطنية، وإلي جانب جانيهه للشخصية كان

مشحوناً بأفكار جديدة . كانت علوية مثل طلبه البيض والطيب والمساعدات الإنسانية الأخرى . وفيما أنا استمع إليه شدني تجمسه وقيمه . لكن كافة الإصلاحيين يفتقرون إلي المعرفة العملية بسبيل إقامة مجتمع مدنى . كما أن آراهم حول اقتصاد السوق الحرة بالغة السذاجة . فالشيوعية لم تحمر الحرية فحسب بل قصت أيضاً علي الأفكار العملية اللازمة لتبليها . وتأكدت أن زويتشاك والأخريين سيكونون في حاجة إلي إيجاد طريقهم الخاص لإقامة الديمقراطية والسوق الحرة ، وأنه في الوقت الذى يمكننا أن نقدم المساعدة في هذه المهمة الشاقة فلا يمكننا أن نحل محلهم في تلك الجهود . ولنا أُلْقَتْ حولى انتابنى إحساس بالسفيرة لأن أكون في سان بطرسبرج مسقط رأس الثورة البلشفية ، وأن اضغى إلي واحد من حفنة الرجال المسؤولين عن إزالة ميراث لينين . وتناطلت عما سوحكم به للتاريخ علي رجال مثل زويتشاك وليفسين ، وزاودني الأمل في أنه سيكون منصفاً .

وفي مذكرة إلي الرئيس لفصت التحدي الذي نواجهه : « إلى الحقيقة للعالية هي أن لنا مصلحة هائلة في نجاح الديمقراطيين هنا . إن نجاحهم سوف يغير العالم بطريقة تعكس قيمنا وآمالنا . إن ما قد يكون علي المحك هو ما يعادل إنعاش ألمانيا واليابان ما بعد الحرب كخطاه الديمقراطيين لكن في هذه المرة بعد حرب باردة طويلة لا بعد حرب ساخنة قصيرة . إن فشل الديمقراطيين سيوجد عالماً أكثر خطورة وتهديداً ، ولا يساورني سوي القليل من القلق أنه إذا لم يستطيعوا البدء في تسليم السلع فسوف يبرز زعيم متسلط من اليمين المناهض للأجانب .

وفي ضوء الخلافات طويلة الأمد أعتقد أننا في حاجة إلي التحلي بالواقعية في الاعتراف بأن النجاح قد يرقى إلي منح رد فعل مضاد ومنتج الديمقراطيين مجالاً ووقناً للتهوس بما سيكون رحلة طويلة . لكنها ستكون في حد ذاتها مورثاً تاريخياً .

دول البلطيق المستقلة آخر المطاف .

أصنعت ليوم التالي ، السبت الثاني عشر من أولول سبتمبر أطول بدول البلطيق بدءاً بتالين ثم ريجا لأحط في النهاية في فيلادوس قبل العودة إلي سان بطرسبرج . وكان كل

توقف يوضح اختلافاً هاماً عن موسكو وسان بطرسبرج رغم أنه لا يُتَكرَّرُ بالانقلاب. ففي كل موقع ررته شاهدة إما مقاريس أو أكياس رمال أو صخور مستديرة ضخمة موضوعة أمام المباني الحكومية لحمايتها، ويقتل الاختلاف إلى حد ما في وظيفة الحجم؛ فموسكو وسان بطرسبرج تشبهان فينوبورك ولوس أنجلوس في الضخامة وكبير المساحة. ولكن مدن البلطيق تبدو مختلفة، وغمرني شعور حقيقي بأنه تحت الواجهة للشوعية تدلوي جذور تاريخية ووطنية مؤهلة للإبداع.

وفي الدول الثلاث كان هناك شاغل مفهوم حول الحاجة إلى التجديد الاقتصادي والإسراع لإيقاع، الإطلاق مع الاتحاد السوفيتي، علي حد قول إيجارسافيا رئيس وزراء استونيا. وبدا أن الاستونيين كانوا الأكثر تقدماً في مجال الإصلاح الاقتصادي، وقد يرجع السبب أساساً إلى ارتباطهم الوثيق لبعض الوقت مع هنلدا. وترك زعماء البلطيق انطباعاً مؤثراً للغاية - وخاصة رئيس الوزراء جومانيوس - حيث كانوا يقودون شعبهم نحو أكثر التوجهات أهمية من زوايا الإصلاح الاقتصادي، وفي ليتوانيا تحدث لانسمبيرجس وجيديماناس فاجنوريس رئيس الوزراء «بلغة» الخصخصة والإصلاح الاقتصادي. لكن يتعين التأكيد مما إذا كانوا علي استعداد تام «لقطع المسيرة».

كان زعماء البلطيق مهتمين بصيغة المعونة التي وافق عليها للرئيس، وأعلنتها في كل توقف. لكنهم رأوا أن لزيارة وزير خارجية الولايات المتحدة لبلادهم أهمية سياسية بالغة، فقد أبلغ الجيرداس سودارجاس وزير خارجية ليتوانيا أحد زملائي -بقدر كبير من المبالغة- عندما خرج وزير الخارجية من الطائرة، نظرت في ساعتى. إنها خطوة مهمة تمثل في أهميتها هبوط نيل أرمسترونج علي سطح القمر. وكان لعرضنا يولفاد مندوبي فياقي للسلام، وقع كبير، فقد قال للرئيس الأسطوني أرنولد روتيل: «أرجو أن توجد ثلاث كتائب».

لكن إخراج القوات السوفيتية كان قضيتهم الملحة. وكان الاستونيون يريدون إثارة القضية علي المستوى الدولي للضغط علي السوفيت، وكان اللاتفيون مستعدين للمسوية القضية علي مراحل. وكانوا يريدون أولاً أن تنسحب القوات من المناطق المنذبة وتتركز في القواعد العسكرية فقط. وكانوا يريدون ثانياً وضع آلية لاستكمال الانسحاب. كانت الدول

الثلاث تواجه صعوبة واحدة كبرى فيما يتعلق بالقوات، فهناك نقص حاد في المعلومات من جانب موسكو حول وضع للقوات والعتاد والمعدات في تلك الجمهوريات. وأبلغني الرئيس أناتوليوس جورونوفس: «إننا نريد أن نكون منطقة حالية من الأسلحة النووية -وفقاً لما يخطه السوفييت طيست هناك أسلحة نووية علي أرضينا، لكننا لا نعرف مدى دقة هذه الإعلانات. كان الليتوانيون متصليبين ويصرون علي أمور إن تحدث مطلقاً علي العدي القصير مثل الانسحاب الفوري والكامل للقوات السوفيتية ونزع سلاح بيلاروسيا وفرض قيود علي نقل العتاد العسكري إلي كالينينجراد، وهو شريط من الأراضي السوفيتية ملاصق لبولندا وأصبح ممزولاً الآن بعد استقلال ليتوانيا. وأرادت الدول الثلاث أن تقصدي للولايات المتحدة لإثارة قصبتهم مع موسكو.

واستجعت إلي كل ما أراد كل زعيم أن يقوله، وأبلغتهم بأننا نأمل في أن يحدث الانسحاب السوفيتي بأسرع ما يمكن وسنعلن هذا للسوفيت. لكن عليهم أن يتفاوضوا علي القضايا المحددة مع السوفيت. ونقلت النقاط التي أثارها شايوشنيكوف معي: أن السوفيت يتنهمون ويعترفون باستقلال البلطيق ولا يسأورهم أي وهم في إمكانية بقاء قواتهم فيها. فضلاً عن ذلك فسوف يتم تمرير مواطني البلطيق من للقوات السوفيتية. وبسبب نقص المساكن فسوف تكون موسكو في حاجة حتي الأول من كانون الثاني يناير ١٩٩٤ - وهو موعد تم ربطه بوضوح باكمال توحيد ألمانيا - لإكمال الانسحاب. لكن القوات التي ارتفعت بأعمال استفزازية لاسيما لدى الباربيات السوداء سيتم سحبها علي الفور.

ورفض الليتوانيون كل هذا، وبدأ الاستونيون مهتمين بها أما اللاتفيون فقد أبدوا اهتماماً واضحاً. وكتبت إلي الرئيس: «ربما نسمع بعض المواقف المتحمدة، وسوف يلين موقف الليتوانيين عندما يتعاملون مباشرة مع الجيش السوفيتي. والشئ الوحيد الذي أعتقد به بقوة هو أنه ينبغي علينا ألا ننغمس». وقلت إن غير ذلك سوف يلقى علينا بالمسؤولية في الوقت الذي نحتاج فيه أن نكون علي التماس لجذب كل طرف نحو الاتفاق.



والتي جانب القوي السوفيتية كان علي كل دولة من تلك الدول الجديدة للتعامل مع مشكلة الروس والآخرين الذين تم توطينهم خلال الاحتلال السوفيتي، ويدعون الآن أن وطنهم هو دول البلطيق. وخلال اجتماعاتي أكدت علي مبادئ هسكي في احترام حقوق الإنسان ومعاملة الأقليات علي قدم المساواة. ومرة أخرى هذا الثلاثيون الأكر تمقلاً. وكان الاستونيون أقل تعقلاً حيث أرادوا ضرورة مغادرة كلفة الروس للعاملين في مجالات الدفاع والأمن الداخلي أو قطاع للصناعات العسكرية لاستونيا -هتض النظر عن ملول فترة تقاعدهم أو فترة عيشهم في استونيا. وهذا الليتونيون الأقل تسامحاً في قضية الروس. وفي الوقت الذي أوصموا فيه أنهم لا يبدون فيه كل الذين سجنهم السوفيت لارتكابهم جرائم حرب في الحرب العالمية الثانية. فقد لمست شعوراً متأصلاً بأن بعض المواطنين أرفي من الآخرين في عيون الليتونيين. وكان هذا تذكراً آخر بأن الشيوعية جمعت للصناعات المرفقة طويلة العهد في مكانها، والآن ومع دويان جديد الحرب للباردة هن المرجح للغاية أن يقع محور الصراع علي الحدود العرقية ولا يوجد في التنافس بين الدول.

آلما آتا: هل لا يزال اتحاداً سوفيتياً؟

لمضيت معظم يوم الأحد في رحلة طيران لنحو ست ساعات بانتهاء للشرق والجنوب قاصداً آلما آتا* عاصمة قازاقستان. وقع آلما آتا الأرض للتفاح؛ علي مكان مرتفع بالجبال التي تفصل الاتحاد السوفيتي عن منغوليا والصين والهند وإيران والدول الأخرى اللواقمة في الجنوب. وفيما أطلع إلي للمقم الوعرة وللصحرا القاحلة لنتابني إحساس لوهلة أنني قد عدت إلي ويومين وسرعان ما عرفت أن الرئيس نورسلطان نزار باييف أراد أن يشعرني أنني في وطني.

* تدير اسمها إلي آتاي وقرر برلمان قازاقستان كذلك لأمولا طسمة كلالد مع أوائل القرن القديم. وقع أمولا بوسد قازاقستان علي نهر آتاي في منطقة السهول توجد بها مناجم النحاس والذهب. قد تنحصر بها الحرارة إلى ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر في الشتاء. عدد سكانها نهر ثلاثمائة ألف نسمة. تأسست عام ١٨٣٠. كانت تسمى سالهوجرد في الحقبة السوفيتية. اسم أمولا يحي بالمقبرة البيضاء لكن القويين يقولون أن الاسم يعني "العهد الأبيض". بعد ١٣٠٠ كم شمال العاصمة الحالية. وأغلباً تقرر تغيير اسم العاصمة إلى الآتشة (المرجوم).

وفى تلك الليلة حلت سوزان معى صنيفين على نزارباييف وقرينته وابنتهما علي عشاء خاص لم يشاركهم فيه من جانبنا سوى بوب شتراوس وديفيس روس وبيتر أفاناسينكو وعزفت ابنة نزار باييف علي البيانو أمامنا، وشربنا عدة أنخاب تحية لما أسماه الزعيم القازاقستاني «اللتحالف القازاقستاني الأمريكي الاستراتيجى». وبمجرد أن غادرت زوجته وابنته سارة عقب إنتهاء العشاء، شرع فى شرح سبب حاجة بلاده لملل هذا التحالف. وأشار: لو طفت ببلادنا سوف نرى الأطفال الروس يضربون الأطفال القازاق. هذا هو الأمر بالنسبة لى. ليس من السهل العيش معهم. ونزارباييف رجل بالغ للذكاء وقدير وكان حليفاً ومزيدياً قوياً ليجورباتشوف. وكان قلقاً بشكل خاص من يلتسين والرمرة المحيطة به «ما فيها سفير دلو فيسك» * المنحدرين من مسقط رأس يلتسين فيما وراء الأورال. وفى صورة طبق الأصل من الرسالة التى نقلها تاراسينكو إلي كولينز حذر نزارباييف من «قوميتهم الخطيرة». ويريد القازاق الذين تحيط بهم قوة عظمى من كل جانب تقريباً. للوصول إلي الولايات المتحدة باعتبارها القوة الوحيدة فى للعالم التى يمكنها ضمان سلامهم وأمنهم.

وعرض عليه روس المبادئ الخمسة. وكان من الواضح أنه تفهم كيف يمكن أن تساعده هذه المبادئ فى حماية بلاده من غلاة القوميين للروس. ومع ذلك فقد بدا أقل اهتماماً بالمناصر الديمقراطية فيها. وأكدنا علي أن مراعاة تلك المبادئ سيكون حاسماً - ليس من أجل الدعم السياسى الغربى فحسب بل للمعونة الغربية أيضاً.

وعقب انتهاء الاجتماع سأل نزارباييف عما إذا كنت قد استمعتت بحمام ساونا «علي النمط الشرقى» وعندما أجبت بـ لا، قال بكل بساطة: «هيا بنا» وقد توثقت معرفتنا للغاية وكان كريباً للغاية. وبدنا أن هذا هو أقل ما يمكن عمله، وسرعان ما تجرد مترجمنا بيتر أفاناسينكو وبوب شتراوس وأبنا من ملابسنا وجلسنا مع نزار باييف وصعدا للفريكا فى بانيا للرئاسة - وهي حمام ساونا روسى أكثر اتساعاً وراحة حتي بالمعايير الغربية. وانتظروا مازيز وبقيّة الفريق الأمنى فى الخارج مع ديفيس روس الذى توسل محتذراً بدعوى إصابته بالبرد.

* كان اسمها Ekaterin Burg ولقبها Yekaterin Burg لسمها بطرس العظيم عام ١٧٢١ وأطلق عليها اسم زوجته الامبراطورة كاترين الأولى. سجن فيها القياصرة الإمبراطور نيكولاس الثانى وعائلته عقب ثورة عام ١٩٠٧م. وأعدموا جميعاً فى ١٦ تموز/يوليو ١٩١٨ أمد تمسيتها عام ١٩٢٤ تحية إلي زعيم شيوى

وجدتُنا نزار بابيف عن عادات وتاريخ القازاق، وحاول بيتر أن يترجم لنا عبر البخار لكننى أنا وشترواس كنا قد تركنا للقلق الجيوستراتيجى وراء ظهورنا. وبعد نحو عشرين نقطة التفت حزمة كبيرة من أغصان الأوكالبتوس* وضربنى على ظهرى وقدمائى لكنى تكففت للمسامح وأزيد الأثر العلاجى للحرارة. ولدى رؤيته ذلك قلل شترواس إنه اكتفى وخرج وقال لجمعية من الأمن بالخارج مازحاً: «اللحظة. هاتولى رئيس للولايات المتحدة علي الهاتف. إن وزير خارجيته ينتحل عارياً ورئيس قازاقستان يضربه».

وأنتهينا اللقاء بتمنى ليلة طيبة لنزار بابيف بعد منتصف الليل للعودة إلي منزل الضيافة الرئاسى لأجد معظم المأمنين معى مستيقظين وهم يعتقدون أننى قد طرحت مبادرة كهري جديدة^١. وسألوا: كيف سار الأمر؟ قلت: «عظيم» .. دون أن أنسى غلبهم.



رفى اليوم التالى، وبينما طائرتنا ترتفع نحو السماء لتحلق فوق الجبال لتفجأ بجولة مكوكية أخرى فى الشرق الأوسط كنت شديد الامتنان لفشل الانقلاب وتجنب الكارثة المحتملة، لكن كان من الواضح للغاية أننا لم نخرج من الغابة بعد فيما يتعلق بالتخوير الجذرى فى الاتحاد السوفيتى، ولذا من الواضح أيضاً تماماً أن تهديدات صعبة تنتظرنا.

* الأوكالبتوس كلمة معربة عن اليونانية، ويحصى السار أو الصلبة لوجود ما يشبه الصلبة فى نوى الزهرة. شجر من الصلبة الآسية يوجد فى الأراض الرطبة ولا يحمل ثمره. أولاهه كثيرة. بعضها كبير ويسمونها صغور يستعمل ورقه وزهره فى الطب ويستخلص منه دهن عطري. (قاموس).

الفصل التاسع والعشرون

المستوطنات وثمانات القروض وسياسة السلام

في سبيل ٣,٩ مليون يهودي إسرائيلي ومليون من عرب
إسرائيل لا يتبعون رهن مستقبلهم بسبب مسألة ألف
مستوطن في الأراضي. فلنني أعزم القارة.

إسحاق رابين

لوزير الخارجية بيكر

القدس، ٢٠ شوال يوليو ١٩٩٢

قيل وكذب للتكثير عن العلاقات للعاصفة غالباً بين الولايات المتحدة وإسرائيل خلال إدارة بوش، ولن أنكر هذا الأمر للواضح. ورغم التزام أمريكا للوسخ بأمن إسرائيل منذ لحظة تأسيسها، وهو الالتزام الذي أكنته إدارة بوش مبكراً ومراراً فقد توترت علاقتنا الثنائية في الحقيقة بشكل دوري خلال فترة عملي وزيراً للخارجية. وفي المقام الأول وخلال فترة الشهور الثمانية للعاصفة بشكل خاص عام ١٩٩١ فقد درسنا بجدية إعلان أن سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة شخص غير مرغوب فيه. كما أقدم رئيس وزراء إسرائيل علي اتهام الولايات المتحدة بولاء المشاعرة اليهودية والصهيونية في التسميم، وهو إدعاء لا يستحق الالتفات إليه علي الإطلاق.

ومع ذلك فمن المهم عدم إغفال حقيقة أنه علي الرغم من تلك التوترات بسبب الاختلافات السياسية الجوهرية فقد قدمت الولايات المتحدة في الأعوام ما بين ١٩٨٩ و١٩٩٢ خمس إسهامات مهمة لوجود وأمن إسرائيل تفوق وتجاوز إنجازات أسلافنا. فالثلاثاء تلك الفترة مكنت دبلوماسيتنا وخزائننا إسرائيل من استعباد مئات الآلاف من اليهود الروس والسوريين والألبانيين. وكنا أدلة محورية في مساعدة إسرائيل علي إقامة علاقات دبلوماسية مع أربع وأربعين دولة بما في ذلك الاتحاد السوفيتي. وكنا وراء إلغاء قرار الجمعية للأمم المتحدة لعام ١٩٧٥م* بدمج للصهيونية بالانصرية. كما أن الجيش الأمريكي بعملية عاصفة الصحراء لم يطرد العراق من الكويت فحسب. بل إنه في الواقع قضى علي التهديد الاستراتيجي الذي كان يمثلته ألد أعداء إسرائيل. وأخيراً أعتقد أن التاريخ سوف يسجل أن أهم إنجازات بلدنا لصالح إسرائيل هو جمعنا جيران إسرائيل علي مائدة السلام لإجراء مباحثات مباشرة. وهو هدف طالما سعت إسرائيل لتحقيقه علي مدى أربعين عاماً، وهو إنجاز ساهم في إقرار السلام بين إسرائيل والأردن وإعلان المبادئ الدائري بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

فقد تطلب إنعاش عملية السلام في الشرق الأوسط، التي تجذرت في مؤتمر مدريد في تشرين الأول أكتوبر وتواصل إلي الآن من إدارة بوش الإقدام علي اختيارات بالغة القسوة

* قرار رقم ٢٣٧٩ الصادر عام ١٩٧٥م (قصرهم).

وغير شعبية. وربما كانت أشق هذه الاختيارات، وخاصة فيما يتعلق بعلاقاتنا الثنائية - هي قراراتنا في أواخر عام ١٩٩١ وربيع عام ١٩٩٢ أولاً بتعليق ولاحقاً بوضع شروط علي طلب إسرائيل بالحصول علي ضمانات قروض قدرها عشرة مليارات دولار لاستيعاب المهاجرين من الاتحاد السوفيتي. ولكتسبت هذه القرارات مصداقية في عديد من الدوائر، وجلبت لنا الثمار في دوائر أخرى، وخاصة بين العناصر الأشد تطرفاً في الحكومة الإسرائيلية وكثير من أقوى حلفائها في الولايات المتحدة. وبدرجة ما فقد ساهمت أيضاً في هزيمة حكومة شامير في حزيران يونيو ١٩٩٢ وحلول حكومة عمالية أكثر اعتدالاً برئاسة إسحاق رابين محلها. ومع هذا كانت الحوادث المؤسفة التي أحاطت بقضية ضمانات القروض حاسمة لقضية السلام، ومن ثم لمصالح إسرائيل الاستراتيجية رغم إصرارها وتمزيقها للعلاقات التاريخية بين الولايات المتحدة وإسرائيل من وقت لآخر. لقد كانت قضية صعبة مثيرة للخلاف وزاد من حدة صعوبتها وإثارته للحلاف تدخلها مع أكثر القمعيان نفجراً، وهي توسيع إسرائيل للمستوطنات في الأراضي المحتلة.

التزامنا التاريخي بالاستيعاب

مثل كل أسلافنا تفهمت إدارة بوش أن استيعاب اليهود من مختلف أنحاء العالم يمثل أساساً لالتزام إسرائيل كدولة. ومنذ عام ١٩٤٨ هاجر ملايين من يهود الشتات من أربع قارات إلي إسرائيل (خلال فترة عملي وزيراً للخارجية استقبلت إسرائيل نصف مليون مهاجر). وفي العقد الأخير قدمت أغلبية المهاجرين من الاتحاد السوفيتي نحو مليون مهاجر منذ عام ١٩٨٧. ويجب أيضاً تذكر أن الدبلوماسية الهجومية لإدارتي ريجان وبوش كانت حاسمة في إقناع السوفيت بمنح تأشيرات خروج للمهاجرين السوفيت، فجورج بوش عندما كان نائباً للرئيس تولي شخصياً مسؤولية تأمين خروج يهود الفلاشا من إثيوبيا. كما استطاع إقناع حافظ الأسد بالسماح بهجرة بعض لليهود السوريين.

وتاريخياً أيدت الولايات المتحدة بقوة للهجرة اليهودية. كما خصص جزء من معرفتنا العمالية إلي إسرائيل كل عام لتمويل برامج الاستيعاب. ومع ذلك وفي ظل الإنارات

الديمقراطية والجمهورية كانت السياسة الأمريكية تميز بوضوح بين استيعاب اليهود في إسرائيل ذاتها وبين توطينهم في الأراضي المحتلة. وفي الإدارة توسلتا في وقت مبكر إلى أن مثل تلك المستوطنات تمثل عقبة كروبا أمام عملية السلام في الشرق الأوسط، وكنا نعتقد كمسألة مبدأ أنه يجب ألا نسمح عن يقين بأن تمول أموال لدفعى للصرايب الأمريكيين أنشطة تتنافس مع السياسة الأمريكية والسلام. وفي كافة اجتماعاتنا مع نظرائنا الإسرائيليين علي كافة المستويات كنا نعرب عن تحفظاتنا تجاه السياسة الاستيطانية التي تنتهجها حكومة شامير.

ورغم هذا ومع الارتفاع الزهيب لأعداد المهاجرين من اليهود السوفيت بين عشية وضحاها من ثلاثة عشر ألفاً عام ١٩٨٩ إلى ١٨٥ ألفاً عام ١٩٩٠، تصاعد النشاط الاستيطاني الإسرائيلي، وكان الكثير من تلك المستوطنات الجديدة يقع في قطاع غزة والضفة الغربية. وعندما اتضح أن شامير غير مستعد أو عاجز عن تهديد قلق الرئيس حول المستوطنات كان من المحتم نشوب الأزمة. وتبدت الأزمة في صورة طلب إسرائيل عام ١٩٨٩ بالحصول علي ضمانات قروض أمريكية للإسكان بقيمة أربعين مليون دولار.

كانت مثل تلك الضمانات واحدة من عدة أشكال للمعونة الخارجية الأمريكية لإسرائيل. وفي المادة تسعى إسرائيل للحصول علي قروض من أسواق المال العالمية لجمع الأموال اللازمة لتمويل الاستيعاب. كما أن تعهداً أمريكياً بضمان تلك القروض حال المعز عن السداد مكن إسرائيل من الحصول علي أسعار فائدة أفضل. وفي الواقع كانت الثقة التامة في الولايات المتحدة ومصداقيتها هي الضمان الإضافي. (ومن غير المعروف أنه ومعرب القانون الفيدرالي يجب أن يكون حجم المعونة الاقتصادية الأمريكية لإسرائيل أكبر من الحجم السنوي للولجب الأبناء علي إسرائيل من القروض المستحقة التي تضمها الخزنة الأمريكية).

وفي الخامس والعشرين من آيار مايو ١٩٩٠ وافق الكونجرس علي ضمانات قروض بقيمة ٤٠٠ مليون دولار بغرض توفير الإسكان والبنية الأساسية في إسرائيل للاجئين السوفيت «في العام المالي اللذين يبدأ في الأول من تشرين الأول أكتوبر» وأعرب التشريع عن رغبة الكونجرس في ضرورة عدم استخدام ضمانات القروض في المستوطنات الواقعة خارج حدود

إسرائيل ما قبل عام ١٩٦٧ المسماة بالخط الأخضر. وعلي مدار الأشهر التالية أوضحنا مراراً لإسرائيل سواء في بياناتنا العامة أو في أحاديثنا الخاصة أن توطين اليهود السوفيت في الأراضي المحتلة وبناء مستوطنات جديدة يجرس عملية السلام للخطر. ولأنه لا يمكن تقديم أموال أمريكية لتمويل مثل هذه الأهداف فقد قررت وكالة المعونة الدولية حجب موافقتها علي الضمانات ريثما يتم الحصول علي ضمانات.



وفي الأول من آذار مارس أُنشئت لجنة الاعتمادات للفرعية للعمليات الخارجية بأن الموافقة علي ضمانات قروض بقيمة أربعمائة دولار مرهونة بالحصول علي ضمانات إضافية بعدم استخدام أي من هذه الأموال في الأراضي المحتلة. وكحد أدني فسوف تصر الإدارة علي إخطارها سلفاً بخطط بناء المستوطنات الجديدة وحساب دقيق لكيفية إنفاق مبلغ الأربعمائة مليون دولار.

وأثرت نفس النقطة في وقت لاحق في مكالمة هاتفية مع شامير الذي اتهم الولايات المتحدة بخرس شروط علي تأييدها لإسرائيل للمرة الأولى*. ورددت: «إننا لم نصنع شروطنا علي المعونة التي تبلغ ثلاثة مليارات دولار التي نقدمها لكم، ولكن بالنسبة لنا فمن المنطقي أن نطلب ضمانات للموافقة علي مبلغ إضافي»

وفي تلك اللحظة كان شامير موافقاً علي ما يبدو وقال: «من المنطقي أنه يجب عليكم أن تعرفوا كيف ستستخدم أموالكم، وحقيقة الأمر هي أننا نعرف أن قدرأ من السيارات الثلاثة التي نقدمها لإسرائيل سنوياً يستخدم في تمويل سياسة الاستيطان الإسرائيلي. لكننا كنا نريد ألا نري أموالاً إضافية لدافع للضرائب الأمريكي تستخدم في تمويل توسع عدواني لسياسة طائفا عارضتها بشدة الرؤساء المتعاقبون من الحمزيين.

* كان رعم شامير خاطلاً تماماً وفي الواقع فإن الكثير من برامج المعونة الأمريكية لإسرائيل يتضمن حدة شروط أساسية وخاصة تلك المتعلقة بالمعونة العسكرية

وفي الوقت ذاته توصل ظهور المستوطنات الجديدة بما في ذلك مستوطنة أقيمت في
الحى المسيحي من القدس للشرقية. وبعد أن وصف المتحدث باسم الخارجية هذا بأنه: «عمل
استفزازي يقسم بالبلادة» أعلنت وزارة الخارجية الإسرائيلية أن «من حق لليهود العيش في أي
مكان .. وخاصة في مدينة القدس».

وفي ٥ أيلول سبتمبر اجتمعت مع ديفيد ليفي وزير للخارجية الإسرائيلي في واشنطن
علي أمل منع أزمة وشيكة. فالاحتلال العرقي للكوييت دخل شهره الثاني، وسيكون ضمن
النية وضبط النفس من جانب إسرائيل حال اندلاع حرب في الخليج أمراً جوهرياً. وأبلغته
«أنني أريد تسوية تلك القضية. وأريد أن أحلها معكم» وقال لي إن إسرائيل مستعدة لتقديم
الأخطار المسبق بالنشاط الاستيطاني. وسلمته مسودة رسالة تتضمن تفاصيل الضمانات التي
ستحتاجها للموافقة علي ضمانات للقروض. وبعد ثلاثة أسابيع وفي اجتماع متابعة في
بيويورك تناولنا بعض المسائل الدقيقة. وقلت له: «إنني أريد الضمانات كذابة. وفي الثاني من
تشرين الأول أكتوبر سلمني ليفي رسالة تتعهد فيها إسرائيل بإطلاق الولايات المتحدة على
النشاط الاستيطاني الجديد، وسوف تبذل قصاري جهدها لوضع بيان بالإنفاق علي
المستوطنات في الأراضي. والأهم أنه تعهد بعدم توطين المهاجرين السوفيت وراء الخط
الأخضر. واستناداً إلي تلك الضمانات وافق الرئيس علي إمكانية الإفراج عن ضمانات
قروض بمبلغ أربع مائة مليون دولار بمجرد استكمال عملية المراجعة بواسطة الوكالات
الحكومية.

ولسوء الحظ فقد ذهبت تلك التعهدات أدراج الرياح. ورغم الضمانات التي قدمها ليفي
فلم نحصل مطلقاً علي المعلومات التي وعدنا بها. وفي ١٨ تشرين الأول أكتوبر بحث لي
ليفى رسالة يتراجع فيها عن التزامه بعدم توطين المهاجرين السوفيت في القدس الشرقية.
وشعرت أن ليفي رجل كريم. لكنني لم تكن مرتاحاً لما بدا أنه سوء نية من جانب حكومة
إسرائيل بشكل عام. فضلاً عن ذلك سرعان ما توافرت الأنباء إلي السفارة الأمريكية في
تل أبيب بأنه تم تنظيم زيارات للمهاجرين السوفيت للمستوطنات الموجودة في الأراضي
بهدف تشجيعهم علي الاستيطان هناك. وعندما ذكرنا الإسرائيليين بعوهم بتقديم معلومات
لنا كانت للتطمينات تردنا مراراً بأنها في البريد. ولم تصل تلك المعلومات مطلقاً، ونتيجة
لذلك رفضنا الإفراج عن ضمانات للقروض.

قضية المليارات العشرة

فى ٢٢ كانون الثانى يناير - أى بعد ستة أيام من قيام قوات التحالف بشن الغارات الجوية ضد قوات صدام حسين فى الكويت والعراق، أعلن إسحاق موريشاى وزير المالية الإسرائيلى أن بلاده ستطلب قريباً الحصول على مبلغ ثلاثة عشر مليار دولار كمعونة إضافية من الولايات المتحدة منها عشرة مليارات دولار فى صورة ضمانات قروض لتوطين اليهود السفريث، وثلاثة مليارات تمويناً عن الأضرار التى تكبدها المدن الإسرائيلية جراء الهجمات بصواريخ سكود. وكان لورانس إيجلبيرجر هو أول مسؤول فى الحكومة الأمريكية يعرف بهذا الأمر عندما كان فى إسرائيل يحاول إقناع شامير بعدم الانتقام من العراق. وفى غضون دقائق من علمه بالطلب من موريشاى شخصياً أستمع إيجلبيرجر إلى الأنباء فى إذاعة إسرائيل، وبحث برسالة إلى شامير قال فيها: أن توقفت مثل هذا الطلب شديد الرعب يجب سببه على الفور.

ونصايق شامير من الإعلان، وهدف وزير ماليته، لكن للمصير النفسى قد وقع بالفعل. ويقيناً كان بعض التعريف مطلوباً. فقد كان هناك تقدير بالغ لدخل الإدارة وفى البلاد ككل لضبط النفس الرابع من جانب إسرائيل. فلمرة الأولى فى تاريخها لم تقدم على انتقام سريع ضد أى هجوم. لكن الآن وبدون التشاور فإنها تطلب علناً بدعوى فى شكل أسلحة صفتة معونة أجنبية منفردة فى التاريخ الأمريكى. ومنذ البداية كانت مقامرة جريئة خاصة - لأنه لم قبل أى محاولة لتبرير الطلب ببيانات مبدئية. كان الأمر يبدو وكأن حكومة شامير قد جمعت تلك الأرقام من الهواء. وعلانية قلنا: إن الولايات المتحدة ستدرس الطلب دراسة واقعية. لكن لم يكن لدينا النية للقيام بذلك حتى نعين اللحظة المناسبة. وفى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة تخوض حرباً فى محاولة لهزيمة العراق الذى يشكل التهديد الأكبر لأمن إسرائيل كان من الخطأ فى تلك اللحظة للدخلى عن تلك المحاولة الرئيسية لدخول معركة مع الكونجرس حول الحجم المناسب لصفقة معونة إضافية لإسرائيل.

وفى النهاية ورغم عدم استعدادنا حينذاك لثبت فى طلب المليارات العشرة فقد أسفر اتفاق حل وسط مع زلمان شوفال سفير إسرائيل فى واشنطن عن الإفراج عن ضمانات

قروض مجمدة بمبلغ أربعمائة مليون دولار. وتقديم ٦٥٠ مليون دولار معونة مباشرة كتمويض مباشر للخدمات التي تكبثتها إسرائيل أثناء الحرب. كان للمبلغ الأخير سخياً لأن تقدير مراجعة الوكالات الحكومية أشارت إلى أن التكلفة الفعلية لتمويض إسرائيل عن الأضرار التي لحقت بها نتيجة صواريخ سكود العراقية كانت تقل عن مائتي مليون دولار. وبالمقابل وافقت إسرائيل على تجميد طلبها بالحصول على المليارات العشرة حتى انتهاء عطلة للكونجرس الصيفية في أيلول سبتمبر. حينئذ ستكون العرب قد انتهت وسوف تتأجل قضية ضمانات القروض الإضافية إلى العام المالي القادم.

إسكات لسان السليط

ركن المشاكل القائمة لم تكن كافية فقد زاد الطين بلة، وتعمد الخلاف نتيجة انفجار سمه للترقيت من السفير شوقال. وبين شوقال المصري الذي لا يرتبط بعلاقات وثيقة مع شامير أوليفي، بتعيينه في منصبه إلى سياسة الائتلاف. كان شوقال عضواً بارزاً وشريكاً في الائتلاف الليكود غير معال في حكومة شامير، واستمد شهرته من لسانه المنفلت. وقبل أول اجتماع بيننا وصف إسرائيل علانية بأنها: «بلن العم الفقير» الذي تريد الولايات المتحدة إعاشته في الغربة الخفية.

وتجاوز ولعه بدبلوماسية «اللسان السليط» كل الحدود في الرابع عشر من شباط فبراير عندما نقلت صحيفة واشنطن بوست قصصه لوكالة أنباء رويتر «لنا شعر في بعض الأحيان أن الولايات المتحدة تروغنا، واشتكي أيضاً من أن إسرائيل لم تنقل حتى الآن استأ واحداً من المعونة» لتمويض خسائرها الضخمة بما في ذلك خسائرها من السياحة نتيجة حرب الخليج. كانت هذه هدية عيد القديس فالنتين من حليف وثيق.

وفي اعتقادي فإن شوقال أبدي سوء نية واضحة بإعلان انتقاده علي العلأ، خاصة لأنه تم إبلاعه اليوم السابق بأننا سنلجج قريباً عن ضمانات قروض، ونملكى للفيظ لدرجة أنني طلبت من معاوني البحث عن العبروات القتالونية لإعلان شوقال شخصية غير مرغوب فيها

وطرده من الولايات المتحدة لانتهاكه الصارخ للأدب والأعراف الدبلوماسية. وفاتحت الرئيس الذى لم يكن سعيداً بالمرة بما حدث.

واستقر رأيى فى نهاية الأمر على أن طلب استدعاء شوفال سيزيد توتر العلاقات فى وقت دقيق. ولكن فى الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم استدعيتنى إلى مكتبى لاجتماع رسمياً. ولم أكن فى حالة تسمح بالمجاملات للدبلوماسية، وبدأت الحديث: «المان. إننا نواجه مشكلة، وليست مشكلة بسيطة إنها مشكلة عويصة، لقد قُلت أشياء غير حقيقية بالمرة. لقد قلت إننا لم نقدم لكم شيئاً واحداً. حسناً. من هم المواطنين؟ ما هي الأنظمة الأمريكية التى ندفع لها؟ ماذا عن الصواريخ التى يطلقها بتكلفة مليون دولار لكل صاروخ يطلق؟ ماذا عن أرواح الجنود الأمريكيين المعرضة للخطر فى الخليج الذين يتعاملون مع أخطر تهديد استراتيجى على وجود إسرائيل؟».

وبهتة قائلاً: إن الظهور أمام الصحافة لمحاولة للتأثير على السياسة الأمريكية استراتيجية تأتى بنتائج عكسية تماماً. وقلت: «إننى أشعر بالأسف لاضطرارى بأن أبلغكم بهذا، لكن الحقيقة هي أنكم لا تملكون تصريحاً بهذا الشأن. فإذا كانت لديك مشكلة فليدعك أن تأتى وتبلغ وزير الخارجية بها لا أن تهرج إلى الصحافة وتوجه التهديدات والانتقادات. فمن فى هذه الإدارة الذى سيقدم ويحصل لك على الأموال إن لم أكن أنا. إننى لا أتذكر واقعة قال فيها سفير حتى لو سفير دولة معادية مثل ما قلت عنا، وأشارت لو أن سفيراً أمريكياً تصرف على هذا النحو لأرسلوه إلى بلده».

وقال شوفال: لا أعتقد أننا قطعاً شيئاً طائشاً. لا أعتقد ذلك. أعتقد أننا جلسنا كما فعل، وقدم اعتذاره وقطع على نفسه وعداً بأنه سيحاول أن يكون كريماً وأميناً معي دائماً.

وكررت للقول: «إنك لم تفعل. فقد لجأت إلى الصحافة. كان بوسعك إبلاغنا لكذلك لم تفعل. وعلى أن أبلغك أننا غاضبون. إننى أشعر بالأسف لأن اختكم الاجتماع بعلى هذه الملاحظة. لكن هذا هو واقع الحال ولم أبذل أى شيء يتيح له الاستمرار حتى النهاية».

وأعتقد أن ثورتى ساهمت فى تأديبه حقيقة. وقال: «رب ضارة نافعة، وأمل أن تكون الأيام القادمة أفضل، ورددت: سوف نرى».



وللتأكد من أن شوقال قد فهم الرسالة بوضوح بعث الرئيس رسالة شفوية إلى شامير عبر سفيرنا وألحقتها بهذه الرسالة:

"بالأمس أدلى سفيركم بعدد من التصريحات حول العلاقة الإسرائيلية الأمريكية لا أعنفد أنها غير دقيقة أو مطلقة فحسب بل إنها معادية إلى حد كبير. ولقد لزاماً على القول بكل صراحة أنه سيكون من العسير استمرار إدارة شؤوننا الدبلوماسية من خلاله في ضوء التحيز الواضح في نهجه.

لولا أن الأوقات مثل هذه الدرجة من الحدة والفرج والتوتر كفافصل الآن لما كنت أقبل بأن يواصل تمثيلكم في واشنطن السيد رئيس الوزراء أما والحال كذلك فسوف أجوز مشاعري لإقراراً بأهمية اللحظة والحرص على استمرار الاتصالات الوثيقة بين دولتنا في هذا الوقت المخرج. ومع هذا وإذا حدث تكرار لما حدث بالأمس من جانب السفير فلن يكون أمامي أي خيار سوى طرده من البلاد.

إنني أشعر بالأسف لأن أحمل علاقتنا مشكلة أخرى. لكن لا يمكن هكذا بكل بساطة قبول تصرف مثل الذي حدث وكلني ثقة في أنكم سوف تسمعون له النصيحة"

وبعد فترة وجيزة رد على شامير برسالة قائلا: أنه سيضمن عدم حدوث شيء من هذا القبيل في المستقبل. وقد حدثت فقد تمسكت علاقتى بشوقال فيما بعد، ولعب دوراً حيوياً في إقناع حكومته بالمشاركة فى مؤتمر مدريد. وعندما تركت وزارة الخارجية أقام مأدبة عشاء

لتوديعي، وقدّم لي شديد الإمتنان لإنجازاتي بالأصالة عن بلاده . وكنا حريصان علي رؤية كل منا للآخر في المناسبات المختلفة بعد أن تركنا الحكومة سواء في إسرائيل أو واشنطن .

وبعد ستة أيام من اجتماعي مع شوفال انصرفت هاتفياً بليفي لأبلغه قرار الرئيس بالإفراج عن ضمانات قروض قيمتها أربعمئة مليون دولار، وعلي مدى الأشهر الستة التالية توارت قصة ضمانات القروض فيما ركزت الإدارة جهودها علي كسب الحرب وكفالة سلام أكثر استقراراً، والتعامل مع قضية اللاجئين العراقيين وتحريك عملية السلام في الشرق الأوسط .

لكن التوترات تصاعدت في تلك الفترة بسبب سياسة الاستيطان الإسرائيلية لأن آرل شاورن وزير الإسكان الإسرائيلي المولع بالقتال اندفع بشراسة في توسيع للمستوطنات . وأثناء زيارتي الأولى لإسرائيل في آذار مارس كنت قد نهبت ليفي إلي أن قرار الرئيس حول طلب ضمانات القروض «المليارات العشرة» سيقرره طبيعة النشاط الاستيطاني خلال الأشهر القليلة القادمة .



وفي زيارتي الثانية بعد شهر رفض شامير تلمأ إشارتي إلي ضرورة أن تعد إسرائيل من توسيع للمستوطنات كبادرة لحسن النية من أجل السلام . وبعد خمسة أيام في ١٦ نيسان إيرل انتقل للمستوطنون إلي مستوطنة جديدة في ريفافا بالضفة الغربية . وهو تقديم السفير الأمريكي بيل بروان احتجاجاً رسمياً بادر آرل شاورن وزير الإسكان الإسرائيلي إلي الإعلان عن خطط لبناء ٢٤ ألف وحدة سكنية جديدة في الأراضي المحتلة لإيواء ٨٨ ألف مستوطن . وبدلاً من ضمانات القروض الأمريكية سعت إسرائيل لذي دول أخرى وخاصة ألمانيا وفرنسا للحصول علي ضمانات قروض ومنح لا ترد للمساهمة في تمويل استيعاب المهاجرين عبر نشاط استيطاني إضافي .

وفي غمرة كل هذا أعلنت الحكومة الإسرائيلية أن شارون سيوزر وأنظمن في أوائل آيار ماير. وقبل وصوله اتصل بي المحامي ليونارد جارمنت وهو صديق قديم وقال: إن شارون طلب الاجتماع معي. وقتت لجارمنت لا يسطى التفكير في أحد لا أرغب في نقله. ورد جارمنت: ربما كان رئيس الوزراء للقاء في إسرائيل - وردت: إن سياسة شارون الاستيطانية أضرت بآمال السلام وعلاقتنا مع إسرائيل. إننى لا أرفض لقاءه فحسب بل إننى تتخلف لدي الرئيس ليمتع عقد اجتماع بينه وبين جاك كيمب وزير الإسكان والتنمية الحضرية في مكتب كيمب. وعقد الاجتماع الذى لم يكن يمتص بعقده تمت أى ظروف بالسفارة الإسرائيلية لعدم ترك أى انطباع بأن حكومة الولايات المتحدة تعلى مصداقية لشارون وسياسته غير المفيدة، ومثل سياسة الاستيطان كان شارون نفسه عقبة أمام السلام.

وبرغم توتر العلاقات واصلت الولايات تأييد قضية الهجرة اليهودية. وفي آيار ماير بدأت إسرائيل جسراً جويّاً لنقل ١٦ ألفاً من يهود الفلاشا. وكان تهجيرهم المرة مباشرة للنداء وجهه الرئيس نون إلى القائم بأعمال الرئيس الألبانى التيفتانت جنرال تسفاى جبرى كيدان. وفي كل اجتماع من اجتماعاتى مع الرئيس الأسد خلال ذلك العام سمعت لديه بشدة ومراراً للسماح بهجرة اليهود السوريين إلى إسرائيل.

المرواغة لكسب الوقت والسلام

فى الحقيقة كنا نأمل جميعاً فى أن تتواري قضية ضمانات القروض إلى حد ما، وبدلاً من ذلك فقد طفت على السطح فى أسوأ لحظة ممكنة. وما يدعوا للمحيرة أنه فى الوقت الذى تمركز فيه احتمالات إقرار للسلام فى صيف عام ١٩٩١ خيم شبح مواجهة حول المستوطنات و ضمانات القروض كشبح بانكر مهدداً بإهدار التقدم الملحوظ الذى أحرز منذ انتهاء الحرب، وبلغ من العاسم إيجاد طريقة ما لمواراة القضية حتى نهاية العام.

وكانت أقوى ذريعة سياسية للتأجيل هو حقيقة أن عملية السلام هي التى ستتواري بدلاً من ذلك. وخلال زيارتى إلى الشرق الأوسط ربيع وصيف العام أعرب كل القزعاء العرب

الذين للتفتهم عن عدم ارتياحهم مراراً لاحتمالات تقديم ضمانات للقروض في غياب قيد ما علي النشاط الاستيطاني. وهناك الغضب للفلسطينيين بشكل خاص من هذا الموضوع، ومع ذلك كانت الاعتراضات التي أبدتها الرئيس مبارك والمملكة فهد اعتراضات أكثر عملية عنها اعتراضات أيديولوجية. فقد دفعاً بأن ضمانات للقروض أصبحت تشكل اختباراً جوهرياً لإنصاف الولايات المتحدة فيما يتعلق بسلامة.

وقال لي الملك فهد في أحد لقاءاتنا في شهر تموز يوليو: «صديقي إن مصداقيكم كوسيط بريه هي أهم الكروت التي يمكنكم اللعب بها. إنني ألتهم التزام بلدكم تجاه وجود إسرائيل. لكن هذا ليس وجوداً، ولابد أن تكون لكم مصداقية، وكنت ولقاء من وجهة رأيه. فبدون تجميد شامل لبدء المستوطنات - وهو أمر مستحيل تماماً - فإن برنامج ضمانات قروض بهذا الحجم الذي تطلبه إسرائيل سينظر إليه حتماً في العالم العربي علي أنه إقرار مالي أمريكي لأطماع التليكوند في الأراضي، وكانا بخشيان من أن يظهرأ وكأنهما في موقف إضعاف.

وعلي التقيس فإن جدلاً عاماً حول المستوطنات قد يقنع شامير بأن عليه أن يرفض المشاركة في عملية السلام ويدعو إلي إجراء انتخابات. وبإختصار فإن معالجة الجدل حول ضمانات القروض بأسلوب المواجهة لن يفيد، ولم يكن هناك سبيل لتجنب خسارة الإسرائيليين أو العرب. وعلي أية حال سوف تنتهي عملية السلام إلي الموت.

وفي منتصف الصيف نهبنا حلفاء في الكونجرس إلي أن إسرائيل ومنظمة الإيباك بعدل الساحة لشن هجوم ساحق لانتزاع موافقة الكونجرس علي ضمانات القروض بالمليارات العشرة بموافقة أو بدون موافقة الإدلة، وبدأ دينيس روس وجانيت مولينز عقد اجتماعات مع نوم ديني وكبار المسؤولين الآخرين في الإيباك في محاولة لإفناحهم بأن توقيدهم لإثارة القضية توقيت مروع، وأن التأجيل أمر مفضل لمعركة سيخسرأ الجميع. وفشلت تلك الاجتماعات في إقناع مسؤولي الإيباك وحتى عندما قيل لديني وزملائه إن الرئيس سيخوض المعركة إذا لزم الأمر فلم يصدقوا. وأبلغوا شامير بأن الرئيس تعوزه الإرادة السياسية لتحدي الإيباك، وسرعان ما سيخضع للكونجرس علي أية حال.



ويحاول آب أغسطس شرعت الإيباك في توزيع مسودة تشريع علي أعضائها في الكونجرس، وكثفت منوطها علي زعماء الكونجرس. وشملت استراتيجيتهم التي عرفناها في إقناع جورج ميتشيل رعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، وتوم فوللي رئيس مجلس النواب بالموافقة علي الضمانات، وهكذا وضع الرئيس أمام الأمر الواقع. ولم يكن أمامنا من خيار آخر سوي استنهاج استراتيجية وقائية خاصة بنا.

وفي السابع والعشرين من آب أغسطس وضعت مولينز تفاصيل استراتيجيةنا في الكونجرس في مذكرة من صفحة واحدة. وكتبت مولينز في المذكرة تقول: "إن الخطوة الأولى هي التأكد من تفهم القيادة أن إثارة قضية ضمانات القروض الآن سوف يقضى علي عملية السلام. علاوة علي ذلك سوف نؤكد أن مسؤولية الفشل ستقع مباشرة علي عاتق الكونجرس، وفي ظل تلك التلبسات فإنني أعتقد أن الأمر سيشكل خطورة سياسية بالغة بالنسبة لهم، ومع هذا علينا تحقيق هذا الإقناع قبل أن يفعلوا هم .. ويظهروا تأييدهم علناً.

ومن سزعتني في ويومينج الصلت هاتفياً بميتشيل وفوللي في أواخر آب أغسطس موجهاً لهما رسالة بسيطة: عليكما أن تعلموا السلام فرصة، وأيضتهما بأنه عندما ألتصع مع شامير في غضون أسبوعين فإنني أريد أن يكون برسمي لإلاعه بأنه فصلحة تحريك السلام، فقد انضم الكونجرس إلي الرئيس في تأجيل القضية. وحيث إن الموعد المستهدف لعقد مؤتمر السلام في مدريد هو أواخر تشرين الأول أكتوبر. فسوف تكون أمامنا فسحة كافية من الوقت لأن تمضي العملية قدماً دون تكوس قبل أن تظهر قضية الاستيطان وضمانات القروض المزعجة، وأوصحت أن أي شيء أقل من ذلك سوف يقضى علي عملية السلام فإننا رافقنا علي ضمانات القروض سوف نخسر الحرب وإذا رفضناها فسوف نحسر إسرائيل.

وقلت لكتيها. "إن هذه أهم خطوة يمكننا اتخاذها في هذه اللحظة لإمكانية البدء في مفاوضات السلام التاريخية. ولم يلزما نفسيهما بأي موقف. لكنهما قالاً إنهما سوف يدرسان طلبتي. وأحسست أن فوللي سوف يساعدنا، لكن القلق ساورني تجاه ميتشيل الذي كان يحرص لصعق قوية من الإيباك.

وفي الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة بتوقيت روكي مونتين في الأول من أيلول سبتمبر تحدثت مع شامير بالهاتف من ويومينج. وقلت له إنه عندما اتفقا علي بحث

قضية ضمانات القروض مرة أخرى في أيلول سبتمبر لم تكن أعرف أننا ستكون في غاية القرب من إجراء مفاوضات مباشرة مع العرب. والآن فهنالك احتمال حقيقي بعقد مؤتمر السلام الإقليمي في تشرين الأول أكتوبر مسجلاً إجراء أول مباحثات مباشرة مع جيران إسرائيل العرب، وهو ما كانت إسرائيل تريده دائماً.

وقلت: «إننا نحتاج بعضاً من الوقت من جانبكم. فإذا أثبتت القضية الآن فإننا نهدد إمكانية إجراء المباحثات المباشرة. وكنت أريد تجنب أي جدل في الكونجرس يبرر للخلاف بيننا حول المستوطنات فلن يفيد هذا سوى المترجمين الذين لا يريدون لعملية السلام أن تمنح قديماً، وطلبت من شامير أن يوجّل رسمياً طلب الحصول على ضمانات القروض «المليارات العشرة» لمدة ١٢٠ يوماً أو حتى بداية العام.

ورد شامير بأنه منهيك للغاية بعد يوم طويل من المعارك حول مشروع الموازنة، ولم يستوعب كل ما قلته. وقال: إنه يريد أن يفكر في تلك القضايا باستفراق وحرص شديد، وأن يشارر مع معارفيه ثم يعاود الحديث مرة أخرى بالهاتف عبر خط أفضل. لكنني أتذكر تماماً وهو يبلغني أنه للوهلة الأولى يعتقد أن طلبى لتأجيل غير منطقي في ظل هذه الظروف. واتفقا علي معاودة الحديث في غضون ثمان وأربعين ساعة، وحدث ذلك بعد ظهر يوم الثالث من أيلول سبتمبر عقب عروتي إلي واشنطن.

وأكدت مجدداً لشامير في هذه المكالمة أنني وللرئيس «ملتزمان تماماً» بنجاح استيعاب اليهود السفوت في إسرائيل. لكنني أعريت «عن قلبي العميق» من أن إثارة قضية ضمانات القروض والمستوطنات عشية انعقاد مؤتمر للسلام ستحول إلي «مناخ صواعق للرافضين».

وقلت: «لو أثبتت هذه القضية الآن. فلن نجد طريقاً لتجنب نشوب معركة علنية حول المستوطنات، وأخشي من إمكانية خسارة فرصة تاريخية لإجراء مفاوضات مباشرة. فالأمر هكذا بكل بساطة»، وطلبت منه كعد أنني أن يوجّل طلب ضمانات القروض لما بعد اجتماعنا في القدس بعد أسبوعين.

وتعيرت لهجة شامير بوصوح عن محادثتنا السابقة. وقال: إنه بعد إيمان التفكير فإنه لا يمكنه الموافقة علي أي تأجيل. وعن تأجيل الطلب قال إنه مماثلة مالية ملحة، لأنه سيشكل

عبداً علي الموازنة، مثلما هو مسألة مهدأ، وأضاف: «لا يمكننا قبول ربط هذه القضية بعملية السلام». لقد انتظرتنا طويلاً، وعليها أن نمنحها».

وأبلغته بأنني أشعر بحجبة الأمل من قراره، وسوف أوصي علي مضمّن بأن يطلب الرئيس التّأجيل لمدة ١٢٠ يوماً رغم قرار إسرائيل، وقلت: إننا لا نريد افتتاح معركة مع إسرائيل لكنّ للخطر المحقق بعملية السلام كبير بدرجة لا يمكن تجاهلها.

كان التّغيير المفاجئ والحاد في لهجته من السّلامة إليّ للتّحت محبواً حتي عرفت فيما بعد أنّه ومستشاريه تشاوروا مع أصدقائهم في الولايات المتّحدة وتلقوا تطمينات بأنّ الكونجرس سيوافق علي ضمانات القروض بسهولة.



وفي اليوم التالي لهذه السّعادة مع شامير تناولت الغداء في مكّبي مع السّيدان تور باتريك جي لبهي من فيرمونت وأريك نيبوم رئيس موظفي لجنّته الفرعية، وطالما تعلّمت مع لبهي وهو صديق عزيز من أيام الدّراسة في برينستون خلال فترة عملي السّابقة بالبيت الأبيض ووزارة الخزانة. وفي كانون الأوّل ديسمبر عام ١٩٨٨ طلب لبهي أن يزورني في مكّبي المرفقة بوزارة الخارجية. وأبلغني بأنّه في سبيله لتولي لجنة الاعتمادات الفرعية للعمليات الخارجية. واعترف بأنّها: «وظيفة لا تهاب الشّكر، لكنني أريدك أن تدرك أنني أسمى لمساعدتك بكلّ السّبل الممكنة لإحراز تقدّم في عملية السلام».

وبرغم التّقادم لمستوطناتهم بين العين والأحر كان لبهي يعتبر صديقاً موضع ثقة لإسرائيل. وفي الحقيقة قد أبلغني أنّه إذا استطاع الرئيس وأنا أن نبرهن علي حدوث تقدّم حقيقي تجاه السلام فإنّه مستعدّ للوقوف في الكونجرس لتأييدنا حتي لو كانت قضية يحتمل أن تكون موضع معارضة من إسرائيل. كان موقفاً مبدئياً وغبياً في الشّجاعة من سياسي معارض وأبلغته بتدبري لرفقه وساورني الشّك في أنني سأحتاج عرسه وقتاً ما، والآن وبعد نحو ثلاثة أعوام ها هو قد جاء الوقت.

كان ليهي ونيوسوم في حالة عصبية شديدة لأنهما يدركان الواقع السياسي لتحدي الإيباك. وأكدت مجدداً أن لخر ما يفكر فيه الرئيس هو خوض معركة. وقلت: ولكن إذا لم نوجد صفوف تشب معركة. «إنكم لا تتركون لنا أي خيار ولا تروا لكم أوهام فيما ستكونه تلك المعركة». ولم أذع أي شك في أن اللقاء للتبعة الذي أحمله في متطقتي في الشرق الأوسط متاح الآن لاستخدامه في الداخل إذا أصر الكونجرس على إثارة القضية في هذا الوقت بالغ الحساسية برغم تعذيراتنا عن التأثير العكسي على عملية السلام.

وانتهنا نحن الثلاثة بالسيارة إلى البيت الأبيض. وكرئيس لهيلة موظفي البيت الأبيض خلال فترة الرئيس ريجان عقد رأيت في مناسبات عديدة كيف لانت عريكة أشد المتقدين تصلباً في أجواء بهاء المكتب للبيضاري. كان الرئيس بوش بالغ الفصاحة في عرض قضية التأجيل. لكنه قال أيضاً بلهجة رقيقة وحلزمة في الوقت نفسه: «سوف نشير إلي من نفع عليه المسؤولية».

ولم بعد هناك أي مجال أمام أنصاف الحلول. فقد أوضحت الإيباك بما لا يدعو مجالاً للشك أنها قضيتهم. وتوعدوا بأن أي عضو سيصوت لصالح التأجيل سيوصم بأنه عدو لإسرائيل. وفي معركة شاملة سوف يكون للخطر فادحاً بالنسبة للإدارة.

وفي نهاية اليوم تلقيت الوصف الذي كان يحلو لصديقي الراحل في أتورنر أن يطلقه في مثل هذه الملاحظات المحلوقة بمخاطر جمّة: «إما أنك بطل أو أبله، ولم ينهرب مني مطلقاً في أي تحدٍ ولم يكن لينهرب في هذه المرة فلا مجال لتجنبه. فعملية السلام تتجه لإثمار اللتانج».

وفي ١٢ أيلول سبتمبر، وقبل توجيه نداء علني للتأجيل عقد الرئيس لقاء مجاملة مع الزعماء اليهود في البيت الأبيض. وحذره أحد صيوقه بأن عليه أن يفكر مرتين قبل المضي قدماً. لأن أسدقاء إسرائيل سوف يرحلونه لو أصر على إجراء تصويت. وليس جورج بوش هو الذي يلزم حاجياته ويرحل دون خوض المعركة في مثل هذه المواقف. كان هذا التحدي سابقاً علي تصريحاته التي قال فيها: «إنه رجل وحيد يقاقل قوي سياسية قوية تبليغ نحو ألب عضو جماعة منخطه».

وأما المستقنون فتصير هذه التصريحات بأنها إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون لأصدقاء إسرائيل الحق في الضغط على الكونغرس لرفع الظلم، وأن الرئيس يثير قضية ازدواج الولاء. ولم يكن هذا قصده، وكل من يعرفه يعلم ذلك تماماً، ولكنه بهذا القول فتح ثغرة للإيهاك دون قصد لأن تبدأ في اتهامه بأنه معاد لإسرائيل، ومع هذا فقد كان هذا إدعاءً زائفاً تماماً ولم يصب أى مصداقية. وفي الواقع ومع نهاية الجدل، فقد اعترف الكثير من أعضاء إسرائيل في الكونغرس في دولتهم الخاصة بأن الإيهاك مذنبه بتصلبها الذي يصير على إثارة القضية الآن. وتفرد موقفنا إلى حد كبير بسبب هذا الخطأ التكتيكي وشعبية الرئيس للجافة بعد حرب الخليج. لكن الأهم هو اعتراف معظم أعضاء الكونغرس بأن طلب التأجيل معقول تماماً في ظل تلك الظروف.



ومع احتدام خطوط المعركة في الكونغرس عدت إلى الشرق الأوسط، وكان أول توقف لي في القدس حيث التقيت شامير في ١٦ و١٧ أيلول سبتمبر عقب انتهاء جولتي في الاتحاد السوفيتي. وانصب التركيز في جلستي للمباحثات بيننا حول وضع شكايات مؤتمر السلام. وبينما أحرز بعض التقدم في هذا الصدد. فلم نحرز أي تقدم من أي نوع حول قضية ضمانات القروض.

وعرضت علي شامير الإطار العام لاقتراح الرئيس ذي النقاط الست لتأجيل طلب ضمانات القروض حتي كانون الثاني يناير متعهداً بعدم تأجيل القضية مرة أخرى، وأنه سيتم تعويض أي خسائر مالية بسبب هذا التأجيل وقتئذ؛ «لأرحي لكم هو الإمساك بالكلاب وإبعاد الموضوع عن جدول الأعمال خلال المائة وعشرين يوماً للقائمة». ورفضت اقتراح أرينز بأن نوافق علي ضمانات قروض بقيمة ملياري دولار، وأن نوجه مناقشة القضية حتي كانون الثاني يناير.

وأخرجت من حقبيتي لفتحاحية لصحيفة نيويورك تايمز بعنوان «الرئيس علي صواب بشأن إسرائيل» وهو ما قيل بصمت مطبق.

وقلت لشامير: «إننا علي أعقاب مرحلة تاريخية: فالسلام أكثر أهمية بكثير من هذا بحيث لا يجب أن نعرضه للخطر بمعركة حول هذه القضية». ورد مساعده إيلي روبنشتاين* إن إسرائيل علي تمام الاستعداد لخوض معركة، وأضاف: «إن أماننا مهمة تاريخية. وقد أبعدنا أصدقائنا في أمريكا والكونجرس لأنها مصنوعة. وقد حدثت منا وليست منهم، وفي تلك اللحظة كنت علي يقين من أننا نمثل الأصوات الكافية لفوزنا في مجلس الشيوخ. وكان ليهي يؤيد التاجيل علانية الآن، وكشفت حملة ضغط مكثفة قادتها جانيت موليدر أن معظم الأعضاء غير مستعدين للمجازفة بانتهاء عملية السلام بمعارضة مطلب التاجيل، ربات من الواضح لي أن حكومة إسرائيل قد تلقت معلومات جيدة مخطوطة من أصدقائها في واشنطن، وأنها تسيء تقدير مدي تصميم الرئيس بوش نتيجة لذلك للمعلومات.

وفي البداية قال شامير إنه ليس أمام إسرائيل من خيار آخر سوي المضي قدماً، وأنها تعارض ربطاً بين المستوطنات وضمانات القروض ورددت: «إذا أردت الضمانات الأمريكية عليكم بقبول موقفنا حول المستوطنات، فلا يمكننا التوقيع دون شروط علي مبلغ عشرة مليارات دولار». وأخيراً يبدو أن شامير يشير إلي أنه رغم تعضلات أرينز وعدد آخر من المستشارين فإن حكومته يمكن أن تقبل التاجيل علي مضض. وقال لي: «إن هذا فرار أمريكي وكنا نريده غير ذلك، ولكننا سنقبل به».



وفي ٢ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١ وافق مجلس الشيوخ علي تأجيل دراسة مسألة ضمانات القروض لمدة ١٢٠ يوماً. وقال البعض إنها المرة الثانية التي تلقى فيها الإيباك هزيمة في مبادرة تشريعية. كانت الأولى هي تصويت مجلس الشيوخ عام ١٩٨١ حول بيع طائرات الاستطلاع أولكس للعربية السعودية في مستهل فترة حكم إدارة ريجان. وبعد شهر واحد اعتنقت إسرائيل مستوطنة أخرى لكن في الجولان هذه المرة.

* عمل سابقاً لإسرائيل لدى واشنطن وتولي لفترة رئاسة الوفد الإسرائيلي في مفاوضات السلام السورية (المترجم).

عودة وجع القلب

مع انتهاء مهلة المائة وعشرين يوماً في أوائل عام ١٩٩٢ أعلنت الإدارة تقييم قضية ضمانات القروض والمستوطنات، وخلصنا في وقت مناسب تماماً إلى أن موقف الرئيس قد تعزز خلال التدخل لفترة الأربعة أشهر. وتواصلت سياسة التوسع الاستيطاني من جانب حرب التلكود ولكن بثمن باهظ. فقد أظهر استطلاع للرأي أن نسبة ٧٦ في المائة من سكان إسرائيل تزدون على استعداد لقبول سياسة الاستيطان المشروطة وفقاً لما وصفته الإدارة الأمريكية باعتبارها شروطاً معقولة. وبدأت المشاعر داخل الطائفة اليهودية الأمريكية تتحول ضد الخط المتشدد لللكود.

وبرغم هذا تضمن مشروع موازنة شامير لعام ١٩٩٢ إقامة ٥٥٠٠ وحدة سكنية في الأراضي المحتلة. فضلاً عن ذلك فإن تقديرات موارد مشروع موازنته المخرضت تلقى ٢ مليار دولار في صورة ضمانات قروض أمريكية كدفعة أولى من الصفقات العشرة للمساعدة في تمويل بناء هذه المستوطنات. فقد كان يعتقد بوضوح أن بوسعه القور بالاثنتين. وكان من المهم أن يعم أن ذلك لن يكون بمقدوره.

وكتب دينيس روس في مذكرة بتاريخ ١٠ كانون الثاني يناير ١٩٩٢ «بأن مفتاح استراتيجيتنا يتمثل في ضرورة التركيز على حاجة حكومة شامير في أن تقدم على خيار أساسي بين الوفاء بالتعهد التاريخي باستيعاب اليهود السوفيت أو الاستمرار دونما تغيير في بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة».

وكنيت مع هذا التقييم لكلني فصلت محاولة إيجاد صيغة وسط. فقد عرض علي باتي ليهي بديلاً مرونقاً في اجتماع عشية عيد الميلاد في مكبي الشهر الماضي. فقد اقترح ليهي رهن ضمانات القروض بحظر بناء أي مستوطنات جديدة وخفضها بواقع الصلغ الذي تنفقه إسرائيل على الانتهاء من تشطيب المستوطنات التي يجري بناؤها بالفعل. واعتقدت أن هذه طريقة خلاقية لإنهاء الخلاف مع إسرائيل، وللتعامل مع مشكلة خفض ضمانات القروض بما يعادل ما ينفق على المستوطنات. فس طريق خفض ضمانات القروض دولاراً بدولار بما يعادل ما ينفق على المستوطنات فمن تستطيع إسرائيل اجتذاب اعتمادات من أماكن أخرى،

وحينئذ يمكننا أن نعلن أن ضمانات القروض الأمريكية لا تستخدم لبناء مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة. وفي ٢٦ كانون الثاني يناير رفض شامير تماماً اقتراحاً بهذا المعنى عرضته علي السفير شوغال قبل يومين. وواصلت أنا وشوغال للبحث عن الحلول الوسط الممكنة. وفي الحادي والعشرين من شباط فبراير أعلن أن إسرائيل مستعدة لقبول ملياري دولار في صورة ضمانات قروض لعام واحد. لكنها لن توافق تحت أي ظروف علي تجميد بناء للمستوطنات الجديدة. ورفضت هذا الاقتراح المصاد.



وفي ٢٤ شباط فبراير ذات اليوم الذي استؤنفت فيه جولة جديدة من مفاوضات السلام في واشنطن بين إسرائيل وجيرانها العرب، أعلنت موقف للرئيس في شهادتي أمام لجنة فرعية بمجلس النواب برئاسة ديفيد لوبي من ويسكونسين، كان لوبي هو نظير ليهي في مجلس النواب ومعارضاً قوياً للمستوطنات. وطعنني بشكل شخصي بأنه سيؤيدنا في القضية. وأبلغت اللجنة أن الرئيس سيقدم عشرة مليارات دولار كاملة كضمانات قروض علي مدي خمسة أعوام فقط إذا جمعت إسرائيل كافة النشاط الاستيطاني في الأراضي. وأوضحت أنه إذا لم يكن هذا مقبولاً فموقف نوافك علي مبلغ أقل كثيراً علي أساس سنوي. وسيتم خصم كلفة تشطيب المستوطنات التي يجري بناؤها بالفعل من أي ضمانات أمريكية. أو ما يسمى استقطاع ليهي. وفي أي الأحوال سيكون علي إسرائيل وقف كافة المستوطنات الجديدة في الأراضي.

روايل أصدقاء إسرائيل مضطهم للحصول علي أنسب الشروط. وفي ١٧ آذار مارس اجتمع الرئيس مع ليهي والسيداتور روبرت كاشين من ويسكونسين الزميل الجمهوري ليهي، والمدافع القوي عن مصالح إسرائيل. وقدما حلاً وسطاً يقضي بفتح إسرائيل ملياري دولار كضمانات قروض فورية يستأجل منها مبلغ مائتي مليون دولار يتوقع أن تنفقه إسرائيل علي المستوطنات عام ١٩٩٢. ومع ذلك، فقد كانت للنسخة الأصلية للاقتراح ملية بالاستثناءات

والإعفاءات والخصومات. وكان الأثر الفعلي هو إطلاق الحرية لإسرائيل في استخدام ضمانات القروض لاستمرار بناء المستوطنات بمعدل كبير لعام آخر علي الأقل. وكنت واثقاً من أن مثل هذا الاحتمال سوف ينقذ الحرب بعيداً عن مائدة للتفاوض. فضلاً عن ذلك فإنه يرتطم مباشرة بممارستنا للفنشاط الاستيطاني. ورفض الرئيس بوش هذا الحل الوسط باعتباره غير مقبول، وتزعم باستخدام الفيديو ضد أي تشريع لضمانات القروض لا يتضمن تجميداً لأي مستوطنات جديدة.

ووضع إنذار الرئيس تسوية القضية بالفعل. فقد انهارت المعارضة في الكونجرس تحت وطأة التطويق باستخدام الفيديو، وأقر مشروع قانون المساعدات الأجنبية في نيسان إبريل خالياً من أي ضمانات قروض لإسرائيل. كانت معوقات الرئيس أهم بعد في طريقة تطور الأمور في هذه المسألة. ولكن كم هي نادرة تلك الحياة أو السياسة المثالية حيث تكون النتائج ثمرة للمميزات والفضائل فحسب. وبعض الأذى عن تعنت حكومة شامير الذي ساهم في تعبئة الرأي العام الأمريكي ضد موقف إسرائيل في هذه القضية الخاصة. فقد استفادت قضيتنا بقدر مهم من قوة استخدام شعبية المعونة الخارجية وخاصة في سنة الانتخابات.

ويعود أذني شك كان فشل الإيباك السابق في عرقلة طلبنا بتأجيل ضمانات القروض لأربعة أشهر سلاماً نفسياً في صالحنا. أما وقد خسرت في أيلول سبتمبر لم يعد يخطر إلي الإيباك الآن علي أنها القوة التي لا تقهر في الكونجرس. ونتيجة لذلك كان من الأسر أن ندرج معوقات موقف الرئيس.

زيارة إسرائيل جديدة

في ٢٢ حزيران يونيو ١٩٩٢ أطاح الناخبون الإسرائيليون بحزب الليكود بزعامة شامير من السلطة بأغلبية كبيرة. وسيرأس الحكومة العمالية الجديدة إسحاق رابين، صوت الاعتدال الذي كانت آراؤه حول قضايا السلام والمستوطنات تختلف اختلافاً مهماً عن شامير.

واستيعاباً لوقائع الماضي فمن الواضح أن الجدل حول ضمانات القروض قد ساهم بوضوح في إلحاق الهزيمة بالليكود. ومع ذلك فلم نغدر في حينه أهميته بالنسبة للانتخابات الإسرائيلية. وفي الواقع فقد كنت أعتقد أن الليكود سوف يفوز مما سيشجع سياسات شامير المتشددة. وبدلاً من ذلك فإن إخفاق شامير في الحصول على ضمانات قروض من أوثق حلفاء إسرائيل قد هز حكومته. فتطور العلاقات مع الولايات المتحدة نتيجة سياسة الاستيطان المتبعة. قد كلف الليكود الكثير لأن الإدارة المناسبة للولايات المتحدة الأمريكية ضرورية ملحة لنجاح أي حكومة إسرائيلية. واعتقد أنه كان بوسع حكومة شامير أن تكون مرفعة بدرجة تكفي للحصول على ضمانات القروض من دون المساومة على مبادئها.

ولمخ عدة منتقدين إلي أن تشدد إدارة بوش في قضية ضمانات القروض قد انتهج عن عمد كوسيلة لحرقة الليكود. ولم يكن هذا حقيقياً. وللحقيقة هو أن معظم خبراء شؤون الشرق الأوسط بالخارجية كانوا يعتقدون أن عملية السلام ستكون في خطر على الدوام إذا استمرت حكومة شامير في السلطة. وبوسعي تذكر قول أحد معاوني لي على الطائرة العائدة من مدريد أنه في الوقت الذي تعد فيه مشاركة شامير جوهرية لترتيب انعقاد مؤتمر السلام فسيكون من المستحيل إحراز تقدم يذكر إلي أن تعال حكومة تلتزم بمبادلة الأرض بالسلام محل حكومة شامير. ووافقت علي هذا التقييم. لكن لم يكن من صميم سياستنا استغلال قضية ضمانات قروض المستوطنات للتأثير على الانتخابات الإسرائيلية. فقد أبلغني شامير نفسه في مناسبات عدة أنه يجب على الولايات المتحدة أن تتصرف كوسيط نزيه في عملية السلام. ولم يكن يسعد الوفاء بذلك للدراسة بدون رهن ضمانات القروض بفرض وجود علي النشاط الاستيطاني. فالفضل في ذلك سيطي إنهاء عملية السلام*.

وعندما كنا ننهضُ بإملاء للشرط على إسرائيل في قضية من قضايا السياسة الداخلية (المستوطنات) كان موقفنا يتمثل في بساطة في أننا لا نقول للإسرائيليين إنهم غير أحرار في

* لتقدير للاهتمام أنه بعد مرور ثلاثة أيام على الانتخابات نفتت صحيفة مطرب: عن شامير قوله في دواقره الفاصلة إنه كان يحترم المساواة في مباحثات السلام لآخر سنوات سيواصل خلالها سبله الاستيطانية المسمومة في الأرض المحتلة. وبني شامير هذا التقرير عبر ملاحظت باسمة. لكن هذا يؤكد مع ذلك شكوكي القوية بأنه شديد المروءة من الدرجة التي مندرج ولتقارض بجدية على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام

العيش في أي مكان يشاءون، أو أن الحكومة غير حرة في بناء المستوطنات في الأراضي، لكننا ببساطة لن نجمع أموال دافعي الضرائب الأمريكيين لتمويل سياسة تتعارض مع سياسة كافة الحكومات السابقة. جمهورية كانت أم ديمقراطية.



ويعزز رابين بذلت الجهود للتوصل إلي حل وسط حول المستوطنات وصماتات القروس. ففي ١٣ تموز يوليو اتصلت هاتفياً بزابين واقترحت عليه ضرورة أن تهيئ أرضية مشتركة للعمل للتوصل إلي اتفاق يزيل العقدة المتحصنة حول القضية مرة واحدة ولأبد خلال جولتي للقادمة في المنطقة. وأبلغني بأنه يسهلني أن أعرف أن حكومته تحترم إجراء خفض هام علي النشاط الاستيطاني.

وبعد ستة أيام التقيت رئيس الوزراء الجديد في القدس. وفي هذه المرة لم استقبل ببناء مستوطنة جديدة وعلي للعكس فقد جمد رابين بالفعل عقود بناء سبعة آلاف وحدة سكنية في الأراضي. وقال لي: إنه رغم المشكلات القانونية فإنه يعزم إلغاء تلك العقود. وكان في سبيله أيضاً إلي إلغاء مختلف أشكال الحوافز والدعم التي قررتها حكومة شامير لتشجيع الإسرائيليين علي الانتقال إلي الأراضي. وقال رابين: إن حركة المستوطنين مبررة بالسلح لكنه لن يرتدع. وقال: «في سبيل ٢,٩ مليون يهودي إسرائيلي ومليون من عرب إسرائيل لا يتعين رهن مستقبلهم بسبب مائة ألف مستوطن في الأراضي، فإنني أعظم المأخرة». وفي لحظة مشاعر فياضة شديدة التأثير أكد لي رابين: «سوف نفى بما نقول، ولن نكذب عليكم، كان تغير الأجواء جذرياً بشكل إيجابي».

وبرغم هذا قرر رابين أن الكلفة السياسية والمالية لإلغاء أحدى عشرة ألف وحدة سكنية يجري بناؤها بالفعل باهظة للغاية، وأعرب عن أمله في إمكانية الحصول علي ضمانات قروس أمريكية. وأبلغته بأنه في الوقت الذي لا يزال من المستعين تسوية بعض المسائل للعائلة فإنني أعتقد أن هناك ما يدعو لتوقع للتوصل لاتفاق عندما يزور الولايات المتحدة.

وكتبت للرئيس في ٢١ تموز/يوليه: «إنني أؤيد إسرائيل مختلفة. فالمزاج والأجواء تدفع للأمل». فربابن منفتح ومباشر وشديد الوضوح مع أهدافه. إنه يعكف حثيثاً على إعادة ترتيب أولويات إسرائيل بعيداً عن الأراضي والمصالح لتعاش الاقتصاد.

وفي العاشر من آب أغسطس استضاف بوش رابين في منزله الصيفي في كيبوبونكرت. وكما تبين كانت المفاوضات أكثر صعوبة مما توقعنا حتى أنها استمرت إلى الساعة الرابعة بعد الظهر قبل أن يتسلي للتوصل إلى اتفاق. كانت قضية الخلاف الأساسية هي ما يسمى بالمستوطنات الاستراتيجية التي أقامها الإسرائيليون في مرتفعات الجولان وغور الأردن. وقرر رابين بوضوح بين تلك المستوطنات والمستوطنات «السياسية» ولم يوافق صراحة على الكف عن «تكيفه للمستوطنات الاستراتيجية عند الانقضاء. لكنه طمأننا إلى أن الإسكان في المناطق الاستراتيجية أخذ في الانحسار، وأن حكومته تتوقع استمرار هذا الانحسار. وقال للرئيس: «إننا لا نعتزم إقامة أي مستوطنات جديدة في تلك المناطق لكن لا يسعى أن أقم لكم التزاماً سريعاً».

والأكثر أهمية أن رابين ألزم بسياسة استيطان مختلفة تماماً، وأشار بكل تأكيد: «إننا نرتب أولوياتنا. ولن تقوم حكومة إسرائيل بإنشاء أو تقرر بناء مستوطنة جديدة، وسنمنع الأفراد من بناء المستوطنات، ولن تصدر للأرض العربية بعد الآن لبناء المستوطنات. والأكثر من هذا فقد رضخت إسرائيل لإسراءنا بضرورة استقطاع أي أموال تنفق على تشييد المستوطنات الجارية بناؤها في الأراضي من أي ضمانات قروض».

واستناداً إلى هذا وضمنات أخرى من رئيس وزراء إسرائيل أعلن الرئيس أنه سيطلب من الكونجرس الموافقة على ضمانات قروض بعشرة مليارات دولار على الفور. وفي الخامس من تشرين الأول من أكتوبر وافق الكونجرس على ضمانات القروض. وبعد عدة أشهر من الخلاف المعتمد حول هذه القضية لم تعد العلاقات الأمريكية الإسرائيلية موضوعاً لهذا التوتر.

الفصل الثلاثون

إلى حيث ألفت

مشيعاً بالدموع بدون انفجار

إن الاتحاد السوفيتي كما نعرفه لم يعد له وجود والفضيحة الآن هي كيف يسير تفكك الاتحاد السوفيتي من الآن فصاعداً. وصفناه هو أن يحدث التفكك بأقصى درجة سلمية ممكنة.

من مذاكرة من سياسة وزارة الخارجية

٢٥ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١

على مدار أكثر من أربعين عاماً قامت الولايات المتحدة الغرب في نضاله ضد الشيوعية والتهديد الذي كانت تُفرضه على الأمن قيماناً. لقد تشكل هذا الكفاح حيلة كل الأمريكيين. واضطر كافة الأمم إلى العيش في ظل شبح التدمير النووي. وقد انتهت تلك المواجهة الآن

الرئيس بوش

٢٥ كانون الأول ديسمبر ١٩٩١

في الوقت الذي عكفت فيه معظم أيام شهرى لأول سبتمبر ونشرين الأول أكتوبر ١٩٩١ في الإعداد لمؤتمر مدريد للسلام في الشرق الأوسط كذا مراقب بحذر تفكيك الاتحاد السوفيتى لنفسه، وتلاشت إلى حد ما الحماسة الثورية التي ظهرت في أول خريف أغسطس وأوائل أول سبتمبر. لكن جهود جورباتشوف لإعادة التفاوض حول معاهدة الاتحاد المنكوبة لم تؤس شيئاً ذا قيمة. وواصلت الجمهوريات تكريس استقلالها وهو توجه تبرز في أواسط تشرين الأول أكتوبر عندما أعلنت أوكرانيا إنها لن تنضم إلى المعاهدة الاقتصادية. وبعد أسبوعين وفي يوم الإثنين ٢٨ تشرين الأول أكتوبر أعلن يلتسين أن الوقت قد حان لاتخاذ إجراء حاسم، واقترح وصفاً اقتصادية صديقة لجمهورية روسيا شملت إلغاء التسوية الجبرية مع نهاية العام والتعجيل بعملية المصححة، وخفص للدعم المالى للوزارات السوفيتية. وطلب يلتسين في خطابه من الجمهوريات الأخرى الانضمام إلى برنامجه. لكنه أوضح بجلاء أن روسيا لن تنساج مع أى تأجيل، وسوف تمنى بمفردها عند الاقتضاء.

وفي اليوم التالى انضمت إلى الرئيس بوش في مدريد عشية مؤتمر السلام الذى سيصبح آخر اجتماع مع ميخائيل جورباتشوف كرئيس للاتحاد السوفيتى. كان جورباتشوف مشدداً يفقد التركيز بدرجة لم أعطها عليه مطلقاً. لم تكن هذه عقلية... تلك العقلية المتعددة الذكاء. كان ما أشاهده تعقيداً مطلقاً - جراء التحديات الجسيمة التى تمسك بهاتفه، وبدأ جورباتشوف بمناقشة قضية الشرق الأوسط. لكنه مال إلى أن أصبح مشغولاً بمشاكله الداخلية ومال للحديث عنها. وانتقد زعماء الجمهوريات هلهج الكارثة، لدى يتجهجونه، وأبلغ الرئيس بأن مزيداً من تفسيخ الاتحاد السوفيتى سيؤدى إلى زعزعة استقرار العالم. وبدأ كفريق يبحث عن قشة يتعلق بها لإبقائه. كان من الصعب للشعور بعدم الرضاء لعاله.

وفي ساعة مبكرة في آخر أيام المؤتمر وبعد فترة طويلة من مخادرة الرئيسين عقدت جلسة استغرقت عشرين دقيقة مع يلتسين وزير خارجية الاتحاد السوفيتى، وكان بدوره أكثر انشغالاً بالعلاقات بين المركز والجمهوريات عن الصراع العربى الإسرائيلى. وقال: «لو جاز لى، فإننى أود اقتراح الرد الذى قد يقدمه رئيسكم على خطاب يلتسين. وقررت الإصغاء إليه - رغم يقينى بأن جورج بوش لن يقدم نصيحة لبوريس يلتسين في أمر السياسة الروسية. وقال بالتكىن: أولاً على الرئيس أن يبلغ يلتسين أن برنامجه الاقتصادى متماسك. لكنه في

حاجة عملاً إلى تنفيذ الآن. وقال بانكين: ثانياً: علي الرئيس أن يبلغ بالتسعين «أنه عندما تهاجمون مؤسسات الحكومة المركزية فقد تضرون بمصالحكم الخاصة. فقد أصبحت هذه المؤسسات المركزية وتغيرت. إنها في حاجة إلى تلقى المعونة من بقية العالم. والمساءلة هي أن السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي سياسة إيجابية. فقد تحققت إنجازات كبيرة وإن تدمير وزارة الشؤون الخارجية سوف يدمر صورتكم كزعيم سياسي يفكر بأسلوب كوني، وقلت له: سوف أنقل تعليقكم. لكني اعتبرت أقواله مجرد مؤشر آخر علي مدي تداعى المركز: فهاهو وزير خارجية الاتحاد السوفيتي يتوصل لي أن أطلب من الرئيس بوش أن يتدخل لدي رئيس جمهورية روسيا للإبقاء علي وزارته.

وكما اتضح كان بانكين سيستخدم بعض المساعدة للحفاظ علي وظائفه سليمة. وفي ١٣ تشرين الثاني نوفمبر وبينما كنت في سول لحضور اجتماع «الأبيك» بحث لي دينيس روس رسالة بأن فرانك إليه أحد مساعدي جيتشر قد تباحث لدوء مع سيرجي نارسينكو الذي قال إنه سيماد تعيين شيفرناذة وزيراً للخارجية. وحذر روس: «لكن تعيينه ربما يعكس رغبة جورباتشوف (بالاتفاق مع شيفرناذة) في حملنا علي الاضطلاع بدور أكثر فعالية في الحفاظ علي الاتحاد. واعتقدت أنه علينا أن نتوخى الحذر في هذا لأن هدفنا يجب أن يكون تحقيق مصالحنا (علي سبيل المثال منع انتشار اسلحة الدمار الشامل). وليس تأييد المركز أو الحفاظ علي الاتحاد.

الاعتراف بأوكرانيا

كانت سياسة التفاوض القوي التي شغلت بالي في أيلول سبتمبر آخذة في التكثف، ويات من الواضح أن الأول من كانون الأول ديسمبر يتبلور كأهم موعد لسياسة التسوية. ففي ذلك اليوم سيتوجه الأوكرانيون إلي صناديق الاقتراع للتصويت في استفتاء يؤكد استقلال أوكرانيا. وخلال الأسبوعين الأخيرين من تشرين الثاني نوفمبر أجرينا عدة مناقشات حول ما إذا كان يتعين الاعتراف بذلك الاستقلال*

* كلات النتيجة معروفة سلفاً بأن التصويت سيكون في صالح الاستقلال بأغلبية ساحقة.

كانت وزارة الدفاع هي الأكثر ميلاً ورغبة في الاعتراف بدءاً من التمهيدية تشينى. كان تشينى يريد رؤية تفكك الاتحاد السوفيتى، ويعتقد أن أوكرانيا هي المفتاح والأكثر من هذا اعتقاده أنه «يدخل عصر الدار» بالاعتراف فسوف تكون القيادة الأوكرانية أكثر نزوعاً لإقامة علاقات إيجابية معنا. واتحدت موقفاً مختلفاً بعض الشيء. وكنت أريد التيقن من أن الاتحاد السوفيتى تفكك، سلمياً، وهذا يعطى فى المقام الأول منع حدوث اشتباك روسى-أوكرانى. وفى اللعبة السياسية الثلاثية بين المركز وروسيا وكيبف لم يكن أريد أن نتحرك بالدفاع أو استفزاز أو بواقف براعى يمكن تجنبه. فصلاً عن ذلك أنه فى الوقت الذى كنت أعتقد أن المبادئ الحمسة، التى أعلنتها فى الرابع من أيلول سبتمبر قد ساهمت فى توجيه الطموحات السياسية فى اتجاه إيجابى فإن الاعتراف يشكل ورقة أكثر قوة. كانت هذه ميزة سياسية، ولم أكن أريد أن ألعب بهذه الورقة إلا عندما نحصل على ضمانات محددة من كل جمهورية حول قضايا مثل القيادة والتحكم فى الأسلحة النووية.

ونسوء الحظ وحتى قبل أن يتمنى بحث أرائنا مع الرئيس حدد جيف سميث من صحيفة واشنطن بوست إطار الجدل فى مقال نشره يوم الإثنين ٢٥ تشرين الثالى نوفمبر بعنوان «خلاف بين المسؤولين الأمريكين حول كيفية الرد على استقلال أوكرانيا». تملكى للكمد والفنصب اللجام ليس من ذلك تشينى. بل من الليبرورقراطية الخرقاء التى كانت المصدر الأول للرواية. ولعل هذه هي المرة الوحيدة فى تاريخ إدارة بوش التى ألتكر تسرب خلاف سياسى حقيقى كنت طرفاً فيه إلى الصحافة قبل أن يمكننا تسويته فيما بيننا.



وفى الساعة ٨:٢٧ صباح الثلاثاء اتصل بى شيفر بأدارة بعد عمله للمسؤولية كاملة من السياسة الخارجية السوفيتية لبحث قضية الشرق الأوسط. وانتهزت الفرصة لأسأله عن أوكرانيا. وكان يشعر أن للتصويت سيكون فى صالح الاستقلال. لكن هذا لن يقود بالضرورة إلى الانفصال عن الاتحاد. وتوقع قاتلاً: «إذا انفصلت أوكرانيا فسوف يثير هذا عواصف لا يمكن للتوقع بها مطلقاً. مثل مشكلة العلاقات بين روسيا وأوكرانيا، ووضع القرم ومنطقة

الدونباس (وهي منطقة مناجم الفحم وإنتاج المعادن، وهي دولة في حد ذاتها يقطنها الروس أساساً). ناهيك عن شرق أوكرانيا الذي سيكون قضية بعد ذاته. وأعرب عن أمله في أن تقدم القيادة على إجراء «تغيرات مهمة» فيما يتعلق بالعلاقات بين المركز والاتحاد ككل.

وسألت: «ماذا سيكون موقفكم من الاعتراف إذا أعلنت الجمهوريات الاستقلال على أن تظل جزءاً من دولة كونفدرالية أو عضواً في اتحاد فضفاض يضم دولاً ذات سيادة؟» وأبدى اعتقاده بأنه لن تكون هناك مشكلة، وأشار إلى أن أحدث مشروع لمعاهدة الاتحاد سيسمح بذلك، رغم أن المركز سيحتفظ بمؤسسات قوية للدولة تتمتع بسلطات قوية لكن سيسمح لأعضائه بإقامة علاقات مع الآخرين. وهذا النهج غير منطقي بالنسبة لي لكنني لم أشأ أن أصفط عليه أكثر من ذلك.

وبعد ساعتين توجهت إلي البيت الأبيض للمشاركة في اجتماع لمجلس الأمن للقمي حول أوكرانيا. وهي ورقة خيارات أعدها ليندهويت الذي حل محل كوندلي رايس كمساعد خاص للرئيس للشؤون السوفيتية تم تسوية معظم الخلافات بين الخارجية والدفاع. وبعد مناقشات قصيرة استقر الرئيس على خيار الخارجية «بتأجيل الاعتراف» رغم اتفاقنا جميعاً على أنه لمدة أسابيع لا أشهر. وقرر الرئيس أيضاً إيفاد مبعوث خاص إلي كييف بعد الأول من كانون الأول ديسمبر لتوجيه بيان تأييد قوي لرغبات شعب أوكرانيا، وإيفاد بوب زوليك إلي بروكسل للعمل على تحقيق إجماع داخل حلف الأطلسي ومع المجموعة الأوروبية. فضلاً عن ذلك، فقد اتفقنا على أن نزرر أوكرانيا وأجزاء أخرى في الاتحاد السوفيتي في أواخر كانون الأول ديسمبر. وفي غضون أقل من ساعة قمنا بحل قضية متفجرة محتملة أو هكذا اعتقدت.



ومع حلول صباح يوم الخميس كانت الوسيلة في قبضتنا. فقد حدد الرئيس الإطار العام لموقفنا في اجتماع خاص مع مجموعة صغيرة من الأمريكيين ذوي الأصل الأوكراني الذين سارعوا على الفور بتسريب كل ما قاله الرئيس له وأصبحين عليها كل إضافات ممكنة أثناء

ذلك . وتاهت المروق في موقفنا في تعاطية الصحافة . وكان للحفاظ علي اتفاق الحلفاء مع موقفنا صعب للغاية ، وفي موسكو انتاب الغضب جورباتشوف كما تردد .

ومع ذلك واري جورباتشوف غضبيه عندما اتصل به الرئيس يوم السبت ليطلعه علي أبعاد موقفنا . وأبلغ جورباتشوف برون أن التصويت لن يكون بالضرورة انفصاليا عن الاتحاد ، وهو ما كان من قبيل التمني علي أفضل الأحوال . واتصل الرئيس بيلتسين وبعثت رسالة شيفريادزة عبر السفير شتراوس . كان رد شتراوس بالغ للشلوم . وقال : إن تقارير الصحافة عن موقفنا دمرت شيفريادزة ، وأكد شتراوس أنه لم ير شيفريادزة يحمل هذا الاضطراب حتي وقت الانقلاب .

وفي الأول من كانون الأول ديسمبر صوتت نسبة أكثر من تسعين بالمائة من الأوكرانيين لصالح الاستقلال ، وانتخب ليونيد كرافيتشوك رئيساً للبلاد . وفي اليوم التالي صرح مارلين فيتزووتر : « بأن للولايات المتحدة تتطلع إلي إقامة علاقات طبيعية مع أوكرانيا . علاقة تدفع أن تقومها مع بلد يتحول إلي الديمقراطية ، ومن وجهة نظر المجتمع الدولي فإن إحدى قدمي الاتحاد السوفيتي علي الأقل قد باتت في القبر .

عودة إلي برينسبتون

بحثت في ذلك الأسبوع لفظ السياسي الذي أعتقد أن علينا أن نتلجه بعد الاستفتاء الأوكراني مع تاتريار وبوب زوليك وديليس روس ، ووضعت خططا مؤقتة لبلورة ذلك النهج السياسي في خطاب سألقيه في الثاني عشر من كانون الأول ديسمبر في برينسبتون . كانت عودتي إلي الكلية التي تخرجت منها بهذه الطريقة بالنسبة لي عودة جميلة إلي موطني ، ولكنها ستسمح لنا أيضا بتميز هادئا الأساسي . وهرانهيار الاتحاد السوفيتي . وكان جورج كينان صاحب مبدأ الاحترام في معهد الدراسات المتقدمة في برينسبتون وعرفت أنه سيحضر للاستماع إلي الخطاب لو سمحت له الظروف .

لم يكن النهج الذي يدور في رأسى هو التخلي الحاسم عن مبدأ الاحتواء (وهو المبدأ الذي بدأنا نتخلى عنه بالفعل منذ عامين) فقط بل التخلي أيضاً عن رهاننا الصحيح السابق علي جورباتشوف. وكنت أشعر أن جورباتشوف شخصية تاريخية حقيقية ربما كانت مسؤولة عن تحويل العالم إلي للشكل الذي سنعرفه. فقد أنهى الحرب الباردة، وأنهى الإمبراطورية السوفيتية سلمياً. الأمر الذي يجب أن نشعر تجاهه بالامتنان والاحترام لكن من الواضح أن حقبة جديدة قد بدأت في الظهور.

ويوم الأحد ٨ كانون الأول ديسمبر عندما سألتني بوب شيفر في برنامج «واجه الأمة» بشبكة سي بي إس عما إذا كنت أعتقد أن يومع جورباتشوف الحفاظ علي تماسك الاتحاد السوفيتي أوضحت ما يلي: «أعتقد أن الاتحاد السوفيتي كما نعرفه لم يعد له وجود. وأعتقد أن محاولات مستبذل للحفاظ علي شكل ما من أشكال المركز. فهل يستطيع أحد تصديق صلاحيات هذا المركز؟ ومضيت إلي تحديد القضية بأنه في الوقت الذي تلوح أمامنا فيه فرص هائلة فإن أخطاراً عظيمة تهدق بنا، وإذا لم ينفذ الاتحاد سلمياً فإن هناك احتمالاً بأن نشهد «يرغسلافيا بالأسلحة النووية».



وفي الوقت ذاته وعلي الطرف الآخر من الكرة الأرضية كان بوريس يلتسين يعمل علي ضمان عدم وجود الاتحاد السوفيتي بعد الآن. واتفق يلتسين مع نظيره الأوكراني ليونيد كرافتشوك والبولندي سدانيسلاف شوشكوفيتش في اجتماع عقدوه في منتجع الصيد قرب بريست بالقرب من الحدود البولندية علي إعلان تفكيك الاتحاد السوفيتي رسمياً. وفي ذات الاجتماع اتفقوا علي إقامة رابطة كومنولث الدول المستقلة (CIS) تكون عاصمتها مينسك. وتحدث إعلان بريست عن «قيادة موحدة في المجال الاستراتيجي للمبكرى المشترك، إلي جانب تنسيق السياسة للخارجية، وإقامة اتحاد جمركي ولقصادي. وفي ضوء ثقل الكومنولث من ناحية عدد السكان والإنتاج للصناعات والقوات المسلحة فلا يمكن النظر

إلى الكومنولث إلا باعتباره قضاء مبرماً على جهود جورباتشوف لإعادة التفاوض على معاهدة اتحاد. وبحكم الأمر الواقع فإن جورباتشوف تتلظز مصاعب حمة.

وأصاف يلتسين الإهانة إلى الجراح باتصاله بالرئيس بوش بعد ظهر يوم الأحد لاطلاعه على اتفاق بريست قبل أن يتصل بجورباتشوف. كان اتفاق الكومنولث معداً بشكل مدروس في جانب منه لفيل تأييداً، فقد تضمن البيان المبادئ الخمسة التي أعلنتها إضافة إلى كافة المواقف الصحيحة الخاصة بالأسلحة النووية. لكن مكلمة يلتسين مع الرئيس بوش كانت موجهة إلى الداخل. فقد وُعد مجرد إجراء المكلمة لطلباً بأن الولايات المتحدة قد وافقت على إقامة الكومنولث.

بدأ جورباتشوف معركة مصانة يوم الإثنين. ووصف الكومنولث بأنه «غير شرعي ويشكل خطورة بالغة. فن يساهم إلا في إشاعة القفوضي والاضطراب». وتوجه يوم الثلاثاء إلى مقر وزارة الدفاع السوفيتية في محاولة واضحة لاستمالة الجيش*.

وعقد يلتسين اجتماعاً استغرق ساعتين مع القيادة العليا السوفيتية يوم الأربعاء. كانت تلك التحركات تشكل كابوساً جيوسياسياً: فزعيم الكريملين، وبهذا القل يتصارعان على السلطة السياسية، ويحاول كل منهما اجتذاب الجيش إلى صفه مما أثار شبح اندلاع حرب أهلية والبلابة تعيط بالأسلحة النووية.

وفي أجواء الأزمة هذه اكتسب خطبتي في ١٢ كانون الأول ديسمبر أهمية إضافية. (في ذلك اليوم نهضت من النوم بالفعل في الساعة الرابعة والنصف مجراً يساورني القلق حيال توجه الخطاب. واتصلت بمارجريت ثاتشر للتأكد من عدم تسريب الخطاب إلى الصحافة لم يكن قد تسرب).

* في ذلك اليوم في واشنطن حضر بوب جونس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية الجديد في شهادته أمام لجنة الخدمات المسلحة بمجلس النواب عن حل من أن الأوضاع الاقتصادية بما في ذلك النفوس المدة في الرقود والأغذية في بعض المناطق وتلك القوات المسلحة، ولحمود الصراعات العرقية سوف تتفقم في هذا الشتاء السحب الخطر لاضطراب في الاتحاد السوفيتي. مد وصول البلاشفة إلى السلطة.

وبدأت الخطاب بتوجيه نحية عرفان إلي كيتان (الذي كان جالساً بالصف الأول). وقلت: لقد أنت سياسة الاحتواء مفعولها (الدولة التي أسسها لينين وبناها ستالين كانت تحمل بذور هزائنها) والآن (ونتيجة لانتهيار الاتحاد السوفيتي فإننا نعيش في عالم جديد. علينا أن نعتد فرصة هذه الثورة الروسية التي بدلت مع هزيمة انقلاب آب أغسطس لتأسيس علاقات --علاقات-- لا تفيد أمريكا وحدها بل والعالم بأسره)* وفي الوقت الذي أشنت عليه بجربراشوف لديميريه حدوث تلك التحولات فقد أوضحت اعتقادنا بأن عصره قد ولي، وقلت: لقد صمى مكانه في التاريخ لمساهمته في إنهاء الحرب الباردة سلمياً، وهو لهذا يستحق عرفان واحترام للعالم.

وحددت إطاراً نظرياً لإدارة عملية التغير السريعة المتوقعة بانهيار الاتحاد السوفيتي. وقلت: «وكما أننا قمنا تحالفاً ضد الستالينية أثناء الحرب الباردة. فطلي أمريكا الآن أن نعتد تحالفاً لتأييد الحرية. ولتحفيز هذا التحالف اقترحت عقد مؤتمر تنسيق للإمراع بجهودنا لتقديم المعونة الإنسانية لشعوب الاتحاد السوفيتي. لم يكن الهدف من المؤتمر أن يكون آلية لتحريك الجهود الدولية، بل طريقاً أيضاً للخطب علي التحقيدات البيروقراطية في الحكومة الأمريكية، واستمر للخطاب في تحديد الإطار العام لمسلة من المبادرات الرامية لإدارة المساطر المقترنة بالأسلحة النووية، ودعم للديمقراطية والاستقلال في للجمهوريات، وتقديم المساعدات للخطب علي الكارثة الإنسانية، وتشجيع إقامة السوق الحرة. واشتملت المبادرات الإحدى والعشرين علي خطوات محددة مثل إيفاد خبراء فنيين لمساعدة الجمهوريات علي إقامة رقابة علي صادرات التكنولوجيا الخطرة، وتعزيز علاقاتنا لعظيم الرعماء المحليين وزعماء للجمهوريات الأشكال للديمقراطية للإدارة، وزيادة بعثات فيالق السلام إلي الجمهوريات وتعيين لارء إيجابيرجر «قيصر» للإشراف علي برنامجنا (للمساعدة التي نقتصس الخطب علي المقاومة البيروقراطية).

* كنت أتعلم في الأصل الإشارة إلي العلاقات الأمريكية مع روسيا وأوكرانيا والجمهوريات الأخرى، لكن تأسيس الكومونات والفرنسات الجوفية حوله اقتضت على العدل، عن هذا الفكر الرحيد علي الجمهوريات، ولستحدثت التجربة الفريدة «روسيا وأوكرانيا والجمهوريات الأخرى رأي كينانت مفهومة. ومثلاً علي مهول المثال إلي الكومونات لتطلم مع أن مؤسسات بين الجمهوريات التي تنشأ عقب انتهاء الجمهوريات من مفارقاتها.

واحتتمت للخطاب بتعبير مجازي: «إذا كنا قد تولجنا خلال الحرب الباردة كمقربين في زجاجة واحدة. فإن دول الغرب والجمهوريات السوفيتية السابقة تقف الآن كمتسلقين غير مهرة فوق جبل شاهق تملك جميعها في حبل واحد، لذا فإن السقوط نحو الفاشية أو الفوضي العارمة في الاتحاد السوفيتي السابق سوف يجرد دول الغرب إلى السقوط أيضاً. وعلي نفس التقدر من الأهمية فإن سحباً قوياً مطرداً من جانبنا الآن يمكن أن يساعد الروس والأوكرانيين وجيرانهم علي التماس موطئ لأقدامهم ليصبح يوسعهم النهوض والتمتع بالديمقراطية والحرية. ويبدأ علينا تقوية الحبل لا قطعه».

وأثناء توجهي إلي موسكو في غضون لثمان وأربعين ساعة تساءلت عما إذا كان بالإمكان إيهاد موطئ قدم صلب في بلد يتحدر نحو الفوضى.

عودة إلي الاتحاد السوفيتي للمرة الأخيرة؟

عندما وصلت إلي موسكو بعد ظهر الأحد الخامس عشر من كانون الأول ديسمبر كنت محظوظاً أن أجد في استقبالي موكباً يستطيع نقلني إلي أي مكان. فقد أغلق أكثر من تسعين مطاراً بسبب نقص وقود الطائرات، وكانت معظم طائرات شركة إيرفوت رابضة في المطارات، وواجهت سفارتنا صعوبات في توفير للبنزين لسياراتها، وكل هذا يحدث في بلد ملك أضخم احتياطي بترولي مؤكد في العالم! وقد طمأنني كوزيروف عبر الهاتف أن أزمة وقود ليست علي هذا التقدر من السوء ولكن كالاعتاد بدل لبن ديت وطاقم لقوات الجوية دى نقلنا إلي أقصى بقاع العالم جهداً خارقاً في تذليل كافة لمشكلات اللوجستية. وفي وقت الذي كنا يستريح ليضع ساعات في فندق بلنا جاء متروبوليت من مجلة تايم وسلم يديس روس نمشة من حديث أجراه مع جورباتشوف، ورسالة من شخص ماء من العاملين مع جورباتشوف تلقي صمغانات بحجب اسمه.

وفي الحديث انتقدني جورباتشوف «لتسرعى لشديده فى القول إن الاتحاد السوفيتى لم يعد له وجود. فبالأحدث تقري هذا. وبينما نحن نحاول تدبير الأمور يبدو أن الولايات المتحدة تعرف كل شىء بالفعل! ولا أعتقد أن هذا من قبيل الإخلاص».

كان جورباتشوف يفكر فى الاستقالة علي ما يبدو، ولكنه أبقي خياره مفتوحة الآن، وربما درس القيام بدور فى رابطة كومنولث الدول المستقلة شرط عدم تعرضه للإهانة. لكن رسالة الموظف صحت إلي القول: إن هناك احتمالاً بنسبة خمسين فى المائة علي الأقل بأن يصبح جورباتشوف «شخصية عادية» فى غضون أسابيع فلاك، وإن البعض يحاول الشروع فى اتخاذ إجراءات جنائية ضد الرئيس السوفيتى. وطلبت الرسالة ضرورة ألا يتورط يلتسين فى مثل تلك الإجراءات. وقرنت للرسالة الاستعداد للخدمة فى الكومنولث بشروط مناسبة بخوف مشروع من محاكمة سياسية صورية.

وكانت الرسالة مؤشراً ملموساً عن القلق وعدم الاستقرار اللذين يجتاحان موسكو، وهو إحساس تعزز بعد عدة دقائق عندما أبلغني بوب بيرسون سكرتيرى للتفويض بأن جافريل بروف استقال من منصبه كمعد لموسكو.

وبعد برهة عقدت اجتماعاً مع أندريه كوزيريف فى مبنى المقر القديم للحزب الشيوعى بميدان ستارابا بموسكو. وأشار كوزيريف إلي أن هذه ربما كانت المرة الأخيرة التى نجتمع فيها هذا. بما يشير إلي أنه يعترم الاستيلاء علي مقر الخارجية السوفيتية قريباً.

وبعد أن وصف خطابه فى برينستون بأنه «ممتاز» تطرق إلي الموضوع مباشرة. وقال: «هذا هو وقت الأمل والتحدى». فالولايات المتحدة مطلوب منها جهد صخيم جديد فى إطار مساعيها لدعم الديمقراطية فى العالم».



وشرحت أن خطاىى كان هدفه منح الأمل للإصلاحيين فى الاتحاد السوفيتى، وتحقيق إجماع فى أمريكا وراء شراكته. وقتئذ: «إننا نرى الفرص السهبة والأخطار الكافية فى التطورات الحادثة هناك، لكننا لا نعتزم اللزج بأنفسنا فى تلك العملية الداخلية، وهو أمر أكدته الرئيس بوش فى مباحثاتنا ذلك الأسبوع. ومضيت فى تحديد أهداف جولتى التى كانت تشمل علي فهم التطورات السياسية للسوفيتية، وخاصة إعلان بويست، واستيضاح قصايا التحكم والسيطرة فى الأسلحة النووية، وبده مساعدة إنسانية شاملة.

وقال كوزيريف لاغياً الاتحاد السوفيتى من الوجود حتي قبل أن ينهار كله بالفعل: «إنه مع تقصص للدولة القديمة أصبح الأمر أكثر خطورة. فبقايا المركز تثير القوضي فى البلاد وتعرق الرغبة المنطقية للجمهوريات فى تقرير المصير وإقامة الكومنولث نحاول وبصع هذه العملية فى إطار سياسى وقانونى. وفى الوقت الذى لم نتم تسوية كل شىء فإننا نرى أن نحاول تدعيم تلك العملية. ولوضح كوزيريف خشية من تفصيح محتمل لو حاول المركز إعادة تأكيد نفسه فى شكل جديد. وحذر قائلاً: «لو حاول للمركز القديم إقامة مركز جديد، ولو فقدنا هذا الزعم نحر إقامة الكومنولث فسوف نفقد جمهوريتى روسيا وأوكرانيا، وسوف يحدث المزيد من التفسخ غير المسيطر عليه. إن هناك خوفاً ونفوراً من أى مركز، وخاصة طالما بقيت آثار المركز القديم. وستكون الجمهوريات الأخرى أقل استعداداً للتعاون مع روسيا حتي تخلفى كافة عناصر ومقومات المركز القديم. وما لبت أن قال إنه من أجل إقامة كومنولث فعال فإنه يجب علي الولايات المتحدة الاعتراف بروسيا وأوكرانيا وبيلاروس».

وربأ علي ذلك أشرت إلى أن القطنايا الخطيرة فى حاجة إلى دراسة قبل أن تعلن الولايات المتحدة اعترافها. وأوضحت أن هناك عدة تفسيرات للكومنولث، وتعين تسوية هذا الأمر. وطرحست استفسارات من قبيل: هل ستكون لكم سياسة خارجية مشتركة؟ هل تطلبون الاعتراف بالكومنولث باعتباره كياناً واحداً؟ هل تتحدثون بالنيابة عن جمهوريات الكومنولث الأخرى؟ هل ستكون هناك سياسة دفاعية مشتركة؟ ما هى الدول التى ستشارك فى الكومنولث؟

وأجاب كوزيريف بأن الكومنولث «مثل السلطة. فكل دولة فيه دولة مستقلة. وللكومنولث أشبه بمعاهدة صداقة بين تلك الدول، ويدعى للبعض أن هذه المعاهدة ما هى (إلا إصلاحاً،

نوايا. وإنه أكثر من هذا، كما أنه يمكن الوضع السياسي، بالمعنى من المبالغة القول بأن كل الأمور قد مرت. فسوف يكون المركز الوحيد في المجال العسكري. ولم نشف تفسيراته غليظاً وسألت: «قلت إنه ستكون هناك قيادة عسكرية مركزية، لكن من الذي سيتولى السيطرة على القوات في الأراضي؟» وأشار كوزيريف إلي أن بعض القوات ستوضع تحت قيادة سلطات الجمهوريات، وستوضع الأخرى تحت قيادة المارشال شابوشنيكوف. وسألت أيضاً: «لكن مع سيطرتي الأوامر، وكيف سيتدبرون السياسة الخارجية؟».

وانضم إلى بقية أعضاء الوفد. وسأل السفير شترومس عما إذا كانت روسيا تعترف الاعتراف ببقية أعضاء الكومنولث وتبادل السفراء. وسأل دينيس روس عن عملية السلام في الشرق الأوسط. وسأل ريجي بارثولوميو عما سيحدث بشأن تحويل الأسلحة التقليدية. واستفسر إيد هيويت عن رسوم الشحن على شحنات الحبوب، واستفسر ثوم نبلز مساعد وزير الخارجية الجديد للشؤون الأوروبية عن مصير النقد الأجنبي من عائدات البترول والغاز.



ولم يكن لدي كوزيريف سوى التقليل من الإجابات. هذا إن كان لديه أي إجابات، وقلت: «هل سيتعين علينا إجراء عشرات المناقشات؟» وأكثر من أي شيء آخر أكدت مناقشاتنا صحة توقعاتي، وأنه في غمرة هذه الثورة ستكون الأسئلة أكثر من الإجابات بكثير؟ ولم يكن لدي كوزيريف أي شيء ملموس ليقدمه لي، وربما كان هذا هو السبب في أنه ركز على الاعتراف. لكن كان هناك اعتباران يحركانه. فمن ناحية كان يعتقد أن الاعتراف سيغلي زخماً للكومنولث. لأن أوكرانيا علي وجه الخصوص لن تتلزم بآلية التصديق إلا إذا تم تلبية احتياجاتها النسبية للمكانة والشرعية الدولية بشكل تام. وقال: إنه بمجرد تلبية تلك الاحتياجات النفسية فسوف تتولد لدى الأوكرانيين الثقة والأساس السياسي للموافقة على ترتيبات التنسيق حول القضايا النووية والعسكرية والاقتصادية والحدودية. وأعرب كوزيريف عن اعتقاده بأنه في حالة عدم إشباع حاجة الأوكرانيين إلى تحقيق هويتهم فسوف يتعدد كييف وستعارض أي عناصر ستجعل من الكومنولث كياناً ذي مغزى.

ومن ناحية أخرى كان كوزيريف يشعر علي ما يبدو أن الاعتراف بروسيا أمر ضروري للتحلب علي تصاريب السلطة بين روسيا والمركز الذي يجعل من للصعوبة بمكان تحديد من تقع عليه المسؤولية. كانت حجة كوزيريف بضرورة الاعتراف للفورى بروسيا مدفوعة إلي حد كبير بقلقه من غياب قواعد لصنع القرار.

وكانت حكومة يلتسين فى حاجة إلي الاصطلاح بمسؤوليات دولة حقيقية. وفى الوقت ذاته كان وجود رئيسيين فى موسكو رئيساً للاتحاد السوفيتى، ورئيس لروسيا قد خلق تصارباً وغموضاً وتنافساً علي السلطة والمسؤولية.

غير أن عجز كوزيريف عن تقديم إجابات محددة، وخاصة علي أسئلة এমন سمساعنا فى القضايا التلوجستية والتوزيع والإشراف علي المعونة اللغزالية كشف عن أنه لا يزال يعين علي الروس معالجة الأسئلة الرئيسية للحكم. وأبرزت للرئيس فى تلك التيلة: «بأن الاعتراف وحده لى يحل تلك المشكلة. فإذا كان الروس يريدون منا أن نساعدهم فعليهم أن يسهلوا لنا مساعدتهم»

وأفصحت ببعض تلك الأفكار والشواغل لمن بات الآن صديقى وزميلي القديم إرنارد شيفرنادزه علي مائدة عشاء أقيمت تلك التيلة. ومرة أخرى كنا فى ضيافة صديقه الفنان الجورجى ريراب تسيرينيللى. ولدى دخولى شفته من الشارع فوجئت بوجود مصور سوفيتى وحيد. وفى الماضى كان اجتماعى مع شيفرنادزه يحتل الأولوية الأولى، وكان يدفع الصحافة إلي التدفق علي الشارع لفضولته بدرجة تترك حركة المرور. وتشاطرنا الرأى بأن نهاية الاتحاد السوفيتى أصبحت وشيكة. وسوف ينتهى دور شيفرنادزه أيضاً، ويبدو أن قدره هو أن يشهد نهاية البيريسترويكا وهو وزير للخارجية كما شهد بدايتها وهو وزير للخارجية أيضاً.

واجتمعنا فى غرفة مربانة بلوحات جريدية جريدة الأولون حول منصدة بلاستيكية بوضاء اللون وأثاث متعدد الألوان. واستهل شيفرنادزه المناقشة بالتأكيد علي أهمية تأييد الولايات المتحدة للتحول فى الاتحاد السوفيتى. وقال: «لن حصوركم بشكل أهمية بالغة. فلا يمكن للولايات المتحدة أن تقف علي الهامش، ولا يمكنكم أن تقفوا كمراقب خارجى فلا يمكنكم أن تفضوا الطرف، وتدعوا الأمور تجري خارجة عن نطاق السيطرة»

وبالنسبة للكومولث وافق شيفرنادزة علي أنه طريق معقول لبلورة العلاقات السياسية وبينما التعيير السلمي. وفي تلك اللحظة كان يعتقد أن الكومولث صيغ علي عجل، وأن يلتصق والزعماء الآخرين لم يفكروا ملياً في كافة التفاصيل. وأعربت استناداً إلي حديثي مع كوزيريف بعد ظهر ذلك اليوم -عن اتفاق مع تقيمه. وقلت: «لنني مقلك أشعر بقلق من أن أطراف الكومولث الجديد لا تعرف إلي أين هي ناهية». وأكد علي ضرورة أن تستخدم أمريكا معيارها الفريدة لدفع أعضاء الكومولث نحو التفاهم الضروري حول قضايا الحكم والسيطرة القوية.

كان شيفرنادزة أكثر قلقاً حول التفسخ العسكري المحتمل ودور الجماهير وقال: «إن القوات المسلحة في حالة يرثي لها، فنفكرها بالغ السوء الآن. فوزير الدفاع لا يعرف ماذا يفعل أو من يتبع. فهو يحترم جورباتشوف. لكنه يرى أن السلطة الحقيقية مع يلتسين. وأشار شيفرنادزة أنه لتحريك الأطراف في الانتهاء الصحيح يجب تطبيق الاعتراف الأقوي أورافنا، حتي تعيد الجمهوريات تدبر الأمور. وحذر من أنه إذا لم تسوق قضية التحكم والسيطرة العسكرية فسوف يفضل الكومولث علي الأرجح، وسوف نرى حدوث التفسخ في روسيا والجمهوريات الأخري.



وفي الوقت الذي كان يشعر بالقلق من الفوضي والاضطراب المحتمل مع روال الاتحاد السوفيتي فقد كان قادراً علي التذكر وصيغ للدولة المحيطة به بنظرة فلسفية، وأشار قائلاً: «لقد بدأ كل هذا في ويومينج ومالطا. ففي السياسة القديمة كانت هي العدو الولايات المتحدة، والآن فإننا نتخلص من كل هذا. إن كل ما حدث يبدو طبيعياً ومناسباً، وعندما بدأت أنا وجورباتشوف كنا علي يقين من أن للدولة كما نعرفها لا يمكن أن تدوم. لكن لم تكن لدينا حدود زمنية لوجداول».

وردت: «ليس هناك سبيل لتوقع الآثار المتعددة لخروج عفريت الحرية من القمقم. فسوف يسجل اسميكما أنت وجورباتشوف كزعيمين مستبشرين تحلياً بشجاعة سياسية

وشخصية منقطعة للنظير، وسوف يكون هذا هو حكم التاريخ. والطريق الآخر كان لا بد وأن يكون الانفجار العنيف. بل لا يزال بالإمكان حدوث حرب أهلية.

وقال ببذرة كدر: «لقد قمنا علي الأقل بعملية إصلاح محكمة وحلفا دون حدوث النموذج الروماني العطف، لكن كان يجب علينا بذل جهد أكبر علي الصعيد الاقتصادي».

وقلت وأنا أرتى لحاله: «لكن انظر إلي ما فعلت. فيها هي ألمانيا قد توحدت سلمياً والسلام يعم أوروبا الوسطي والشرقية. فقد كان من المحتمل ألا يحدث هذا سلمياً».

وتدخل شيفرناذرة قائلاً: «من السابق لأوانه بعض الشيء للحديث عن التاريخ. دع ذلك للمؤرخين. كان علينا أن نقيم اقتصاد سوق حرة. لقد أخطأنا - أولاً - في المراحل والتوقيت. ثانياً: إننا لم نفهم شعبنا جيداً.. وخاصة فتنة الرلاط للقومية والعرقية. لقد أسأنا تقدير دور القومية».

«لقد ارتكبت أخطاء، وكذلك جورباتشوف، إن قادة الانقلاب هم سبب هذا التمزق. كان يتعين أن يشغلوا تفكير جورباتشوف، ولطالما حذرت جورباتشوف. حذرناه جميعاً. كيف تسمح لنفسك وتذهب لقضاء عطلة؟ لقد انتشلهم جورباتشوف من لاشيء وأوصلهم لما كانوا فيه. ومع ذلك قال شيفرناذرة: «عليك أن تؤيد جورباتشوف بود وكرم. إنه في موقف صعب». (أبلغنا تاراسينكو أن شيفرناذرة غادر شقته في الليل وأقصى ساعات طويلة مع جورباتشوف لمجرد الحديث). وانتقد ستروب تاليت ومجلة تايم لتقديم ترجمة غير أمينة لصريحى هي برنامج دواجه الصحافة بحذف كلمتي «كما نمره» وأشار إلي أن جورباتشوف ما كان ليقول أنني تعجلت للغاية لو أنه تلقى النص الكامل لما قلته بالفعل».

وانتقلنا إلي غرفة بالطابق الأسفل، واسترخينا أثناء العشاء، وفيما نحن نتبادل الملاحظات والنكات علي العشاء الذي ضم لحم رأس الخنزير الببرى وتحفاته أنخاب للفويكا للترخونة للخبراء. شعرت بالارتياح لأنه في غاية الطمأنينة مع نفسه. فها هو نجمة في السلطة يوشك علي الأفول، وبدلاً من أن يكون منهزماً أو حسوداً فقد كان هادئاً راصياً عن الماضي، ومستعداً لمواجهة المستقبل.

الانقلاب السلمى

وفى اليوم التالى شاهدت على الطبيعة ماضى الاتحاد السوفيتى ومستقبل روسيا، وخلال نحو عشر ساعات من الاجتماعات مع يلتسين وجورباتشوف وشابوشنيكوف وشيفريادرة لاحظت حدوث انتقال السلطة مائلاً أمام عيني. وبدأت سلسلة الاجتماعات باجتماع مع يلتسين فى قاعة سانت كاترين فى الكرملين. كانت تلك للقاعة الشبيهة بمجلس الوزراء بالببيت الأبيض مقر السلطة السوفيدية. حيث دأب جورباتشوف على استقباله فيها خلال زيارتى السابقة لموسكو مثلما كان يفعل مع وزراء خارجية ورؤساء وزراء آخرين. لكن هذه المرة أصر يلتسين على لقائى فيها منحياً لجورباتشوف والاتحاد السوفيتى بشكل رمزى. وعزز يلتسين هذا البيان السياسى الذى لا يخطئه عين وذلك بإجلاس ينجينى شابوشنيكوف وزير الدفاع السوفيتى إلى جواره حتى ورغم أنه من المقرر أن ألتئم مع فى وقت لاحق ذلك اليوم.

ورحب بنا يلتسين «مرحباً بكم فى هذا المبنى الروسى على الأرض الروسية» كان يستشعر أهميته وقوته، وعلى أتم الاستعداد ليظهر من هو الرئيس. وقلت ليلتين إلى فى ضوء عدم خروجى بنقاط وتفاسيل محددة من اجتماعى بعد ظهر اليوم السابق مع كوزيروف فهذا وقت ملائم لإجراء مباحثات مستفيضة واهتمامنا الوحيد هو مساعدتكم حينما نستطيع». ورد يلتسين بطرف يخفى بين طياته مرارة وألماً: «بالأكيد فهذا ليس اهتماماً أمريكياً فقط». وقلت: «هذا حقيقى». فالتحول الذى يحتاج هذه المنطقة مصدر قلق واضح للولايات المتحدة. وأجد لزاماً على أن أنوه إلى عزمى عدم الخوض فى قضايا روسيا الداخلية. وما لبثت أن طلبت منه تفسيراً للتطورات التى أقصت لاتفاق للامتن من كانون الأول ديسمبر فى بريست وتداعياته.

وقال: «لقد ذهب الانقلاب بالنسخة الأولى لمعاهدة الاتحاد وفى الشهور التالية تفاوضت روسيا والجمهوريات الأخرى مع جورباتشوف. لكن هذا لم يؤد إلا إلى اختلاف جوهري حول شكل الاتحاد فى المستقبل. فجورباتشوف يصير على دولة موحدة ذات مركز وحيد قوى. ولم تكن هناك فرصة لأن يقر مجلس السوفيت الروسى ذلك». وقال يلتسين:

«ومع ذلك فإن العامل الحاسم في النهاية هي وفاة معاهدة الاتحاد هو الإستفتاء الأوكراني . فلا محلي لاتحاد بدول أوكرانيا . وأكد يلتسين أنه في ظل تلك الظروف لا يمكن لروسيا أن تنف علي الهامش . وقد حاول جورباتشوف إقناع كييف لكن يلتسين أحسن بأن عليه التزاماً بتنظيم اجتماع بريست ، وإلا «آله» للحال بروسيا ولأوكرانيا علي طرفي نقيض بجيشين مستقلين وعمليتين منفصلتين . وسيكون لاتفاق الكومنولث «مخالات موحدة» قيادة ولحدة للقوات الدورية . لكنه نفي نفياً قاطعاً الأنباء الصحفية القائلة بأن جورباتشوف قد يتولي رئاسة الكومنولث .

وأصبح يلتسين أن زعماء جمهوريات آسيا الوسطى للخمسة قد اجتمعوا وانفقوا علي الانضمام إلي الكومنولث ، وكان يلتسين وكرافتشوك وشوشكوفيتش علي موعد للقاء زعماء دول آسيا الوسطى في أما أنا في الحادي والعشرين من كانون الأول ديسمبر للمشاركة في حفل التوقيع وستوقع أرمينا ومولدافيا . وخلص إلي القول : «من الطبيعي أن تعلن الدول الثلاث المؤسسة للاتحاد عام ١٩٢٢ ، زولته ، وسيتم حل معظم وزارات الاتحاد السوفيتي والأجهزة الأخرى . أما قلتي أن تلقي فسوف تنتقل إلي روسيا . وسوف تنتقل إلي روسيا كافة السفارات ومكاتب التمثيل التجارية الخارجية . وقال : «إن روسيا ستشغل مقعد الاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن الدولي ، وسوف تستوعب وزارة الخارجية السوفيتية ووزارة الداخلية وجزء من الكتي جي بي وسوف تحترم كافة الاتفاقيات والمعاهدات المبرورة عن الاتحاد السوفيتي مع استثناء وحيد بعدم دعم الأنظمة الشيوعية الذي قال «إنه أخذ في التوقف بسرعة» .



وكان من الصعب ألا أباغتُ بعد هذا العرض المنفل . فالفهم بالنسبة لي هو قول : أن الاتحاد السوفيتي كما نعرفه لم يعد له وجود ، والأهم أن يحدد لي الإطار العام تفصيلاً من رئيس روسيا في ذات القاعة التي كانت المقر للرئيس للفترة السوفيتية . وقت يلتسين : تلهمت الرصع السياسي جيداً الآن . وأضفت قائلاً «لأن أعرف أيضاً إلي أي درجة يمكن أن تساعد

في العواصم الأخرى بتشجيع الخطوات اللازمة لتسوية القضايا الباقية. والآن جاء دورى لتحديث فقد كنت أريد أن يقدم يلتصين عدة تظمينات حلية حول القضايا الحيرية بالنسبة لنا: فيسؤاله (وكل الزعماء الذين التقيهم) بالإدلاء بتصريحات علنية كنت أريد إرساء معيار يمكن أن يلزمهم به في المستقبل. وكانت أربع من الضمانات السعنية تتعلق بالقضايا الأمنية أردت بموجبها الحصول علي موافقة من يلتصين بالعمل مع زعماء الجمهوريات الأخرى لمعالجة التحكم والسيطرة وتخزين الأسلحة النووية والمشاركة في الجهود للرامية إلي إحطال سلمى لسمفول الأسلحة للنووية، ومنع الانتشار النووي والتعاون معنا لضمان الإسراع بالتصديق علي معاهدة سدارت والقوات التقليدية في أوروبا.

كان يلتصين حريصاً علي اللطمانة في قضايا التحكم والسيطرة النووية (وأيدته شاربونديكوف الذي أوما بالموافقة) موضعاً أن الكومونولث الجديد سيمس هيكل تحكم وسيطرة وحيد علي درجة رفيعة من التوحد، ومضني يلتصين قائلاً: إن الإدارة المشتركة لنزر النووي غير ممكنة، وسيلتهى الحال بروسيا باعتبارها القوة النووية الوحيدة في الكومونولث بعد الفراغ من تطبيق خفض القوات النووية. ووافق أيضاً علي الدخول في مفاوضات معنا حول تفكيك وإحطال الرؤوس النووية، وحول التخزين الآمن للأسلحة والتخطيط المشترك للطوارئ بما في ذلك الحوادث النووية، وحول متابعة مبادرة الرئيس بإزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الترجمة المتعددة مستقلة للتوجيه التي أعلنت في ١٧ أيلول. وكانت الطمأنة الأخيرة التي سمعت للحصول عليها هو اهتمامنا لتبعئة الجهود لتقديم الممونة الإنسانية. ولم يساهم اجتماعي مع كوزيريف كثيراً في تبديد قلقي من عدم وجود هياكل ومؤسسات تكفل توزيع الممونة بمجرد تفكيكها. وأبلغت يلتصين بأننا نحتاج إلي أسماء مسؤولي المدن والأقاليم والمناطق الذين يمكن أن يخدموا كمسؤولي اتصال معنا. ووعد يلتصين بتقديم قائمة بالأسماء، ووافق علي فكرتي بأن يحمل عسكريون أمريكيون مع عسكريين سوفيت في توزيع الممونة. ورحب بمساعدتنا لتوسيع دائرة الدول المانحة، واتخذ برنامج الممونات الألماتي لعام ١٩٩٠ باعتباره محابياً لموسكو المركز إلي حد بعيد. وما ليث يلتصين أن طرح عدة أفكار. فإلي جانب الاعتراف كان يريد أن تكون روسيا هي الدولة الوريث للاتحاد السوفيتي وأعرب عن أمله في ضم روسيا وبيلاروس وأوكرانيا إلي مؤتمر الأمن والتعاون في

أوروبا وطلب صم الثلاثة إلي مجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلسي في ٢٠ كانون الأول ديسمبر*. وفي بادرة واضحة عن انعدام ثقته في جورباتشوف أكد بقوة أنه لو حتمت شيفريادزة الاجتماع ممثلاً للاتحاد السوفيتي فيجب أن يكون مفهوماً أنه لا يمثل روسيا بأى صفة.

وأبلغته أن كل تلك القضايا تأتي في سياق قضية الاعتراف، وإن يسعدنا حلها حتي نفهم جوهر مضمون علاقتنا بشكل أفضل.

وقال: إنه يريد علي المدي البعيد «دمج» المؤسسة العسكرية لكومنولث الدول المستقلة مع حلف شمال الأطلسي. واستنتج قائلاً: «سيكون من المهم لأمن روسيا الارتباط مع التحالف العسكري الوحيد في أوروبا».



وقبيل انتهاء جلسة تحول الاجتماع إلي اجتماع منفرد بيني وبين يلتسين لمناقشة تفاصيل قضية التحكم والسيطرة في الأسلحة النووية علي وجه التحديد. وعن الأسئلة الباقية عمن يسيطر بالفعل علي القوات النووية للاتحاد السوفيتي قدم لي يلتسين إطاراً عاماً لكيفية عمل نظام الإطلاق حالياً، وتصوره لكيفية عمل النظام في الكومنولث. وقال لي إنهم أقاموا «حطاً نووياً» ساعداً بيده وبين جورباتشوف وشابوشنيكوف. ويمكن هذا النظام الثلاثة من تنسيق أى عملية إطلاق لسلح نووي. قلدي كل واحد منهم حقيبة مزودة بشفرات الإطلاق ويجب علي الثلاثة الاتفاق قبل الضغط علي اللزر. وأوضح أن نظام الكومنولث سيعمل بنفس الشكل. لكن للحقائب ستكون بحوزته هو وشابوشنيكوف. وسيشترك الزعماء النوويون الآخرون في الخط النووي الساخن، لكن لن يكون بوسعهم إصدار أمر بإطلاق سلاح نووي.

* مجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلسي هو مبادرة لحلف شمال الأطلسي طرحتها مع هانز ديتر فيشتر الرئوس إلي دول حلف وارسو السابق. وكتبت جزءاً من مساهمة لتهيئة حلف شمال الأطلسي لعام ما بعد الحرب الباردة ونشرته في السبتي.

وقال إن زعماء أوكرانيا وقازاقستان وبيلاروسيا لا يعرفون كيف تعمل هذه الأجهزة وهذا هو السبب الذي حدثني وأبلغك أنت وحده. «فصوف يشعرون بالارتياح لوجود خطوط هاتف لديهم» وقال يلتسين: إنه مع وجود خمسة أطراف علي «الخط الدولي» مع وجود العقائب لدي اثنين فقط فإن أدق طريقة لوصف نظام التحكم والسيطرة في الكومنولث هو نظام «تساور لا تسوق».

وأثرت قضية واحدة أخيرة: وهو ما يروج من شائعات عن احتمال محاكمة جورباتشوف جنائياً. وقلت إن هذا سيكون خطأ أن يفهمه المجتمع الدولي. إننا نأمل في أن يتم انتقال السلطة بطريقة كريمة كما يحدث في الغرب. إن إدلال جورباتشوف لن يخدم أي غرض. ورغم كراهيته الشخصية لجورباتشوف فقد استوعب يلتسين الموقف وأبدي موافقته.



وبدنا لم يتبق سوى نصف الساعة علي الموعد المحدد للقائي مع جورباتشوف (هرعت بأقصى سرعة ممكنة لأن موكبتي كان يسير ببطء بالغ بسبب سقوط الثلوج بكثافة بعد الظهور) إلي السفارة الأمريكية لتناول ساندوتش خفيف من الدونة. وبعد الفداء السريع -عشرين دقيقة - في مكتب جيم كولينز بالسفارة عدت إلي الكرملين للقاء استغرق ثلاث ساعات. وعندما وصل وفدنا إلي الباب قدر مدير المراسم بالكرملين الذي شاهدنا ونحن نغادر قبل أقل من ساعة عودتنا بسرعة باهتمام مجاملة.

واجتمعت مع جورباتشوف في ذلك الغرفة التي تركتها قبل ثلاثين دقيقة لكن ثلوج الشتاء الكثيفة قد زادت قذامة يوم غائم بالفضل. كان الجو شديد القذامة في الخارج لدي بدء الاجتماع.

وحيث تألق يلتسين خبا جورباتشوف وأحاط به ثلثان من شركائه الأصليين، شيفرنادزه وياكوفليف. فقد ساعده في طرح الليبريسرويك والجلاسنوست والتفكير الجديد. لكنهما انتقدها أيضاً في مناسبات مختلفة، وابتعدا عنه لدرجة استقال معها كل منهما. ومع هذا هما الآن

قد عبانا والتفأ حوله فيما دورك يوشك علي النهاية. هاهو نموذج للرجال الأوفياء وبالإيمان الذين يمكن الإشادة به لوفائهما وإخلاصهما لمعتقداتهما ولأصدقائهما حتي في أوقات الشدة.

وبدا جورباتشوف بوقار قللاً بدون إقناع «من الأهمية بمكان أن التطورات هنا تجرى وفقاً لمسئورنا، ولم تنح نحو الغرضي، ولازلت ملتزماً بإصلاح هذه للدولة متعددة القوميات. فهذه العملية لم تصل إلي حد الصأرق. ففي الخامس والعشرين من تشرين الثاني في نوفمبر قريبا إيفاد مشروع للمعاهدة إلي الجمهوريات. ووقعنا جموعاً مشروع للمعاهدة هنا وتحدثت أنا شخصياً مع ستة من زعماء الجمهوريات، وجف حلقى وأخرجت للعلاميت التي كنت أحملها خصيصاً لاجتماعاتي للمطولة مع الأسد. وعندما لاحظ جورباتشوف تأويله واحدة وأخري لشيفرنادزة، وقال جورباتشوف محاولاً علي ما يبدو تذكر وقت أسعد: «نعم سأتناولها. إى هذا هو نفس الشيء الذي أعطيتني إياه في كامب ديفيد».

واستطرد جورباتشوف قللاً: «إن يقتسمين أثار إلي أن معاهدة الاتحاد إن تكون فمالة بدون لوكراينا، وهذا ما لا أفهمه الله. وقال مشيراً علي ما يبدو إلي الأنباء للصحفية الخاصة باجتماع الرئيس مع الأمريكيين ذوى الأصل الأوكراني وحديثي مع برنامج واجه الأمة: «إننى لا أريد حقيقة أن أقدم لكم تحليلاً لما حدث. لكن هذا مصدر قلق لنا وعلينا معالجته. ربما كانت هناك أخطاء فقد ارتكبت بعض الأخطاء للفاحشة من جانبى ومن جانبكم. ومع ذلك فإن ما يتعين علينا مناقشته هو المستقبل والواقع كما هو قائم الآن. ولذا فإننى أعتقد أن دورى هو توظيف كل إمكانياتى لضمان سير العملية الجارية بطريق تكفل عدم حدوث تفسخ أعظم».

ومضى إلي حد انتقاد اتفاق بريست. لكنه ما لبث أن غير وجهته عائداً إلي أرض الواقع، «إننى أريد أن أسأهم ويسأهم زملاي في تحديد مستقبل الكومنولث واستمرارية الوراثة. إننى حقيقة أتمنى لهم النجاح. لكن لا أعتقد أنهم سينجحون. ولذا لم ينجحوا فسوف يكون كل ما تفابينا في عمله خلال تلك السنوات في مهبط الريح. وما لبث أن اعترف بالوسع القائم قللاً في تساؤل سزعج: ففي ضوء ما بحثتموه مع بلتسين ولتئين من وزراء الخارجية فماذا تعتزم بحثه معى لليوم؟».

وأوضحت له أنني لا أريد للتورط في شؤونهم الداخلية وأنني بالغ للحرص في هذا الصدد. وأبلغته بأنني أشاطره قلقه وشواغله من عمومية اتفاقية الكومنولث وقلت إنني أمضيت أربع ساعات للتمس الحصول علي التفاصيل المحددة من رئيس روسيا، وأسفرت: «إن هذه الاتفاقية تعتبر قذيفة علي أفضل الأحوال، إنني أوافقك بأنه إذا لم تتجح هذه العملية فسوف يحدث تفسخ أفدح».

وأكد جورباتشوف أنه اتفق مع بلتسين علي إطار زمني انتقالي حول الكيفية التي يتعين أن تسير بمقتضاها هذه العملية، فوما يقترح أن يتضمن موعد تقاعد جورباتشوف كزعيم للاتحاد السوفيتي. لكن ما لبث أن عودته روح التحدي مرة أخرى قائلاً: «لقد اجتمعوا في بريست وقرروا طي صفحة الاتحاد السوفيتي. إن هذا انقلاب من نوع ما. إنني لم أبلغ بالاتفاقية إلا بعد إبلاغ الرئيس بوش. لذا فإنني أقول: إنني لأزال ملتزماً بموقفي. دع الشعب يقرر، ويتصرف كالديمقراطيين لا قطاع الملقق».

وأبدى فرجه من أن بلتسين يجعل علي ما يبدو بشروط اتفاقهما، باتخاذ قرارات حول وزارات الاتحاد السوفيتي من وراء ظهره. وبالطبع لهم الحرية في قول إن الاتحاد السوفيتي قد مات. فلو كان الحال كذلك فإنه ليس هناك قولين، وليس هناك دور في الأمم المتحدة .. فإذا كان الاتحاد السوفيتي قد انتهى ولا يوجد كومنولث لها هو للوجود إذن؟، وعلنا علي عدم الاعتراف بالدول الجديدة علي الفور. وأعرب عن اعتقاده أن بوسنا أن نقدم أفضل مساعدة باستخدام الاعتراف كهدف يتعين إنجازه.

لم تكن لنا مصلحة في إطالة عمر الاتحاد السوفيتي. لكن لاجتماعاتي أقمتني بالفعل بأنه ما من أحد يعمل علي إحياء الجسد الشيوعي الهامد أمامنا. لكن مصلحةنا الأكيدة في تشكيل مستقبل وسلوك الدول الوريثة. والاعتراف هو أستخم «جزء» نملكها، وأردت أن نصل إلي تفاهم معين مع جمهوريات روسيا وأوكرانيا والجمهوريات الأخرى.

وبعد شيء من الشد والجذب احلتم جورباتشوف الاجتماع بشيء من اللبيل. «إننا نتحمل المسؤولية عن الشعب، وعن هذا البلاد. سوف نساعد هذه العملية، وأمل أن تكون هذه المهمة الشاقة قد هيأت لك تفهما أقوى. أرجو نقل أطيب أمنياتي للرئيس بوش».



ولدي خروجنا سألت ياكوفليف عما إذا كان هو الذى نقل إلينا الرسالة عبر تالوت. ولم يكن هو*. لكنه انتهاز فرصة للقول: «سوف أواصل تأكيد جورباتشوف حتى النهاية. إننى أكره أن أرى جورباتشوف وقد حُطَّ من شأنه». وأجبت: «وأنا كذلك» وكلى ثقة بأنه من المؤكد أن هذا هو آخر اجتماع لجورباتشوف مع مسؤول غربي رفيع المستوى. فقد أظهر شجاعة منقطعة النظير في تطبيق الليبريستروكا والجلاسلوسيت والتفكير الجديد في المقام الأول فقد ساهم في تغيير الاتحاد السوفيتي، ومن ثم العلاقات بين الشرق والغرب. وغمرني إحساس بأن التاريخ سوف ينصفه. لكننى ألمت أيضاً أن يدرك قريباً أن دوره قد انقضى وأن ينتهي بالبقاء.

وانتقلنا وسط الثلوج إلى مقر وزارة الدفاع السوفيتية لعقد ثاني اجتماع في غضون ثلاثة أشهر مع وزير الدفاع شابوشنيكوف ورغم تقديم بلتسين للصورة حول الكيفية التى سيتم بها حل القضايا العسكرية لكومنولث الدول المستقلة فلا تزال بعض التفاصيل غالبة. وكنت أريد أن أسمعها مباشرة من العسكريين. فضلاً عن ذلك فإن شابوشنيكوف باعتباره قائداً للقرات الاستراتيجية، وأحد اثنين يملكان سلطة شن ضربة نووية فقد كان شخصياً عنصراً أساسياً في ضمان الأمان للترسانة النووية السوفيتية للصخمة. وبنفس التقدير أردت للتأكد من أننا على اتفاق تام في الرأي.

كان وزير الدفاع هادئاً تماماً، ويبدو واثقاً من أنه أحكم سيطرته، وسيستطيع صياغة تفاصيل التحول العسكري القادمة. وبدأ بالقول: «إن الحياة تعنى للأمام، وليس هناك من يستطيع أن يقف في وجه التغيير. واستعرض ترتيبات التحكم والسيطرة المعدلة للكومنولث وأكد ما شرحه لى بلتسين من قبل وسألت: «ممن تتلقى الأوامر الآن؟» ورد «جورباتشوف» وتابعت مشيراً إلي اجتماع ألياً أنا القادم: «هل سيتغير ذلك قبل العادى والعشرين من كانون الأول ديسمبر؟» وأجاب شابوشنيكوف: «إن الأمر ليس مزمناً بى، وذلك في محاولة واضحة لإبعاد الجيش عن مكائد الكرملين - على الرغم من أن اجتماعات جورباتشوف وبلتسين مع القيادة العليا في الأسبوع الماضى ووجود شابوشنيكوف في اجتماعى مع بلتسين أوجت لى بغير ذلك.

* حصلت فيما بعد أن الذى بث الرسالة هو بالحق بالانزلكو.

وسألته عن الأسلحة النووية للتكتيكية وهي الفكرة المقرر إزالتها بالكامل والواردة في اقتراح الرئيس بوش في ٢٧ أيلول سبتمبر. وطعنني شابوشنيكوف «بأن كافة الجمهوريات لديها اعتماد تام لتوريد القنابل الذي توصل إليه الرئيس بوش وجورباتشوف حول إزالتها. إننا نقوم بسحب كافة الأسلحة التكتيكية من الجمهوريات الأخرى إلى روسيا. وتعهد بإتمامها مع أوائل عام ١٩٩٢ كانت هذه ضمانات حاسمة، فإني جانب قضية التحكم والسيطرة كان القلق يساورني من أخطار فقدان الأسلحة النووية، فالأسلحة النووية التكتيكية صغيرة بما يكفي لتهددها خارج البلاد ولأماكن مثل بغداد وطرابلس.

وأشار شابوشنيكوف إلى أن قرار كرافتشوك بالاستيلاء على القنابل السوفيتية المتمركزة على الأراضي الأوكرانية قد أثار «مشكلة، ولكن تم التوصل إلى حلول فعالة خلال عدة أحاديث مع الرئيس الأوكراني. وقال شابوشنيكوف: إن الأهم «هو أن كرافتشوك أكد أنه ليس له أي مطالب في الأسلحة النووية، وأنه لا يسعى للحصول على زر نووي، وأعربت بيلاروسيا عن موقف مماثل *.



وانتقل ليشرح لي ترتيبات صنع القرار العسكري في الكومنولث، وأشار إلي تصريح يلتسين في وقت سابق من اليوم بأنه إن يكون هناك «مركز» في الكومنولث موضعاً أن هذا حقيقياً كإفراج عام. لكن الأمر مختلف في المجال العسكري، فلا يمكننا العمل من دون مركز. فالتكثير من القضايا تجمعاً مثل الحاجة إلى مجال عمليات وإستراتيجيات واحدة، وقسم تصوراً عن «تحالف دفاعي» حيث: الاعتداء على بلد يشكل عدواناً على الجميع». وتابع بوصف مجموعة من ترتيبات اتخاذ القرار والإمتداد والتخزين بدت مألوفة للغاية. وقال بديرة سخريه: «إذا بدأ ذلك مثل حلف شمال الأطلسي فأرجو ألا نقاجأ. فقد درست تحالفكم دراسة

* عندما سأله عن خطة أوكرانيا بإقامة جيش قوامه أربع مئة ألف جندي، وهي الخطة التي أثارت انزعاجاً لدرجة دعمتها لانتقادها علناً. قال شابوشنيكوف: إن تلك سيليخ في أوروبا بأسرها، وأن كرافتشوك اتفق معه على الكف عن الحديث حول مثل تلك الفكرة الكبيرة.

مأثنية. كان وصف شابوشنيكوف يستحق الإشادة بكل تأكيد (لقد خدم حلف الأملاني تمامًا) لكنه سيتطلب بالطبع التعاون التام من جانب زعماء الجمهوريات الأخرى، وقال إن المناقشات جارية وأنه سيحضر الاجتماعات القادمة في ألما أتا لشرح هذه للترتيبات.

ومالبت أن أثرت قضية تأييد الولايات المتحدة لازالة الأسلحة النووية السوفيتية. فمن المقرر تطبيق اتفاقيات مثل ستارت، وشعرت بأن هناك لحاحا للتصرف فيما يتعلق الجميع في كل مكان في المقام الأول. وقد سبق أن طمأنتني كل من بلتسين وشابوشنيكوف بأن الكومنولث سيلتزم بكافة المعاهدات التي وقعها الاتحاد السوفيتي، لكننا كنا نريد التأكد من أن تلك الالتزامات سوف تتحول الي حقائق علي الأرض. إضافة إلي ذلك فقد أبلغت شابوشنيكوف بأن الكونجرس رصد مخصصات ضخمة لهذا الغرض. والأمريكيين يرجع لكم في أن تقرر ما إذا كنتم تريدون منا أن نساعدكم، وإذا كان الأمر كذلك فلوكم أن تمددوا أين يمكن المساعدة، ورد شابوشنيكوف قائلا إنه في الوقت الذي كان فيه سباق التسلح باهظ التكلفة، فإن دفع السلاح سيكون مكلفا أيضا، ولم يكن مستعدا للوضوح في تفاصيل الكيفية التي يمكن أن نساعد بها، لكنه أبدى ترحيبه بخبرائنا. خاصة إذا كنا علي استعداد لتحمل جزء من التكلفة.

ولعقد آخر اجتماعاتي في ذلك اليوم توجهت في لوسونيباك للقاء شيفرنادره علي الغداء. وتوجهنا مباشرة إلي الغرفة للصغيرة التي اجتمعنا فيه لأول مرة في أيار مايو ١٩٨٩. وتذكرت الاجتماعات التي طالما عقدناها هنا في هذه الغرفة، والإنجازات التي تمخضت عنها تلك الاجتماعات. وكالتيلة السابقة وجدت شيفرنادره ملتقنا من مستغله راضيا به. لم يكن مشغولا بنفسه قدر لشغاله بما تخبئه الأيام القادمة.

وقال: «علينا أن نحاول الحفاظ علي كل ما أنجزناه خلال تلك الأعوام» كان يشعر بالقلق من احتمال أن يؤدي تصدير الأسعار وارتفاع حجم البطالة والتراجع المحتمل للاحتياطي النقدي مجتمعنا إلي حدوث انفجاره في شهر شباط فيبرير. وقال: «سوف تشعر الجماهير بالقلق، فهناك أسباب تثير الخوف من أن المتطرفين قد يثيرون الي السلطة - وهذا ما يضفي أهمية علي استمرار اتصالاتكم مع زعماء الإصلاح». ولوصح أن القلق البالغ يساور

الجماهير من عجز السواد التموينية والصلح قاتلاً: «إن زوجتي تخزن تلك المواد. إن شئني مكسدة بمواد نسا في حاجة إليها» ومعني إلي القول إن الطريق للوحيد لمنح الناس سبباً للإيمان بالديمقراطيين هو توفير كميات وفيرة من السلع والسواد للعدائية. وهذا يعنى اقتصاد سوق حرة بما في ذلك تحرير الأسعار والخصخصة.

وأبغضى شيفرناندر أنه لن يشارك في اجتماعات مجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلسي في بروكسل. لكنه سيرسل نائباً يمثل وزارة الخارجية وتساءل: «ماذا يعنى نهائي؟» موضحاً أن «الاتحاد السوفيتي» سيمثل ستة مقاعد في الاجتماع مما سيمكن وزراء خارجية الجمهوريات الأساسية من الحضور.

وفي محاولة للتخفيف من مشاعره قال: «لقد أبغضت تاراسينكو لأنه ما كان ينبغي علي العودة إلي وزارة الخارجية. لقد كنا نشر أن شيئاً سوف يحدث لكن لا أشعر بأي أسف. فقد عدنا أصدقاء لجورجالتشوف. ففي هذه الأيام الأخيرة في عصر الاتحاد السوفيتي ها نحن لا يزال هذا معناه.

وردت «لقد فطمت الصواب دائماً في أعين المجتمع الدولي. إنني لا أعتقد أنكم تدركون مدى ما تحظون به من احترام».



وعقب مؤتمر صحفي قصير اصطحبني فريق الأمن بسرعة علي نهر غور متوقع من مدخل خلفي للإبعاد عن المتظاهرين الذين كانوا يرددون هتافات في الردة. ولم يدع لي هذا أي فرصة لتوجيه الشكر لصديقي لكل ما بذله من أجل العلاقات بين الشرق والغرب ولأقول له وداعاً. وبمجرد عروفتي إلي جناحي بفندق بلنا لتصفت بشيفرناندر لأوضح له ما حدث. وقلت: «أسف بشدة لأنه لم تمنح لي فرصة كي أودعك شخصياً». ونفهم الموقف تماماً. وأصفت: «إنني أود أن أوجه لك الشكر لكل ما أنجزناه سوياً» ودعني أقل لك إن لي الشرف بأن ألقبك بصديقي. وأثناء اجتماعاتي علي مدار اليوم تيقنت أكثر من أي شيء آخر

أن مقانة المداقة المبنية علي الثقة هي السبب وراء إنجاز ما أنجزته أنا وشيفرنادزة . وقلت : «أتوقع أن ألقاك عما قريب مرة أخرى سواء في واشنطن أو موسكو» .

وفي تقريرى إلي الرئيس في تلك الليلة قلت كان يومى «مليناً بالتناقضات» التى تتقلب بين حيوية وثقة بتكسين وقلق وهولس جوريلتشوف والإصلاحيين فى الجمهورية فى التركيز علي مجموعة ضخمة من الترتيبات السياسية ، وكما أشار شيفرنادزة - فإنه لا يبدل جهداً كافياً لمواجهة المشاكل الحقيقية التى يعانى منها المواطن للمادى كنقص المواد الغذائية والبطالة علي سبيل المثال . وأبانت للرئيس : «إن السؤال الهام هو هل يستطيع يكسين ترجمة حماسه الثورية إلي تغيير فى السلوك وإجراء تحسينات علي أرض الواقع ؟ . فالتحولات طويلة الأمد... ومن شبه المؤكد أن الأمور ستزداد سوءاً لا تحسناً . ناهيك عن أننى لازلت أشعر بالقلق من أنه لا يزال هناك اتجاه للتركيز علي مجموعة ضخمة من الترتيبات السياسية مع استمرار تجاهل أهمية معالجة المشكلات الحقيقية التى تواجه المواطن للمادى» . وفى اليوم التالي سيرتد إليّ صدي كتمانى .

زاوية آسيا الوسطى

غادرت موسكو يوم الثلاثاء السابع عشر من كانون الأول ديسمبر ، وتوجهت جنوب آسيا الوسطى قاصداً بشكيك عاصمة قيرغيزستان . وفى غمرة تشكيل الكومونولث كان للرئيس القيرغيزى عسكر أكاييف شخصية جذابة . ففى منطقة الطابع الغالب فيها هو الإعجاب بالقادة العسكريين لا بالديمقراطيين أمثال جيفرسون كان أكاييف استثناءً يؤمن حقيقة بالديمقراطية واقتصاد السوق الحرة . وشعرت بأن زيارتى لقيرغيزستان ستكون رمزاً مهماً لأكاييف ولعسلى المنطقة بأن الولايات المتحدة مستعدة لمساندة إصلاحاتهم وهي قضية أثارها شيفرنادزة محي . وكنت أعي أنه من المهم أن يظهر لعسلى المنطقة نفس التشجيع الذى قدمناه للسلاف فى روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا . ولدى وصولنا إليّ بشكيك التى غطتها الثلوج كان فى استقبالنا الرئيس عسكر أكاييف وكامل مجلس وزرائه . وعند هبوطى درجات

سلم الطائرة كان أكاييف عاقداً قبضتي يده أعلي رأسه كما لو كان قد فاز ببطولة ملاكمة في الوزن الثقيل. وبعد انتهاء حفل الاستقبال التقليدي بتناول العيش والملح، توجهنا بالسيارة عبر الريف القريغيزي القح إلي مقر الرئاسة.

ولمست مدي التزام وإيمان أكاييف بالكمونولث. وأوضح أنه من الأهمية بمكان لأمن قيرغيزستان الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع روسيا، وأشار إلي أن العلاقة مع روسيا تستمد أهميتها من سببين رئيسيين: الحاجة إلي لتواء الأصولية الإسلامية، ومواجهة المشكلات المحتملة مع الصين. وقال: إن تحفظه الوحيد علي للكمونولث هو ضرورة المساواة بين دول آسيا الوسطى. ووعده بزيارة القضية في اجتماع لنا أننا كتعديل محتمل لمعاهدة للكمونولث.

وبعد انتهاء الجلسة الخاصة انضممنا دون توقع إلي العاملين معنا بالطابق الأسفل علي عشاء قيرغيزي تقليدي، ومع بدء تناول الأخاب قال: «لقد جعلت زيارتك لنا بشارة الخير – أي نقاط الثلوج – بما يبشر بمحصول وفير. إن زيارتك تاريخية، نرجو أن تداوم عليها.

وخلال اجتماعنا الفاص وأثناء تناول العشاء أبدى أكاييف ارتياحاً أكثر حيال تفاصيل الكمونولث عن زملائه في موسكو. ومن دون شك فإن السبب الرئيسي لارتياحه هو أن قيرغيزستان لا تمتلك قوات نووية استراتيجية، «ولا ترغب في امتلاكها». وقال أكاييف: إن كل ما نريده هو تشكيل «حرس وطني يضم نحو ألف فرد، فلنسا نريد جيشاً». وأوضح أن قيرغيزستان ستستلم بدلاً من ذلك بمبادئنا الخمسة. ومن هذا التصريح ما أحسست أنه الدرس الرئيسي المستخلص من هذه الزيارة الخاطفة: إنه مع نفوذنا الممتد لالهائل لدي الكثير من تلك الجمهوريات وزعمائها فإن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية فريدة لتأييد جهود الإصلاح علينا الانضلاع بها من خلال الرمز (مثل زيارتي لقيرغيزستان) والجهود (للمساعدات الفنية والإنسانية).



وعقب انتهاء العشاء غادرت بشكيك في رحلة استغرقت ٤٥ دقيقة متوجهاً إلي أما أنا
عاصمة قازاقستان للاجتماع مع الرئيس نزارباييف. كان نزارباييف لاعباً أساسياً في
الجهود الدبلوماسية لإعادة تشكيل الاتحاد السوفيتي، واعترف بضرورة تقديم توضيح الفصل
للمعاهدة الكومنولث. ورغم أنه رئيس لأحد أربع جمهوريات تمتلك أسلحة نووية استراتيجية
لم يشارك نزارباييف في اجتماع بريست. وفي غضون أربعة أيام سوف يستضيف اجتماعاً
للكومنولث. لذا أحسست أنه من الضروري أن أثير بعض هولجنا وشواغلنا، والأهم أن أسمع
شواغلهم وهواجسهم.

وبدا نزارباييف بحديث منفرد مطول سامر أعطي لنا خلفية مفاجئة عن مولد
الكونولث. وقال: «لقد دعاني جورباتشوف وأنا وشوشكوفيتش يلتسين وكرافتشوك للاجتماع
معه بعد ظهر الإثنين ٩ كانون الأول ديسمبر. وتوجهت إلي موسكو يوم الأحد الثامن من
كانون الأول ديسمبر. ولدي تواجد في المطار بعد وصولي تلقيت رسالة بأن يلتسين يسعى
في طلبى. كان يتصل بي من بريست. وبريست هذه تقع في القلبات. وقال: «إننا نجلس هنا
ونقرر إقامة كومنولث. ورددت عليه: «إنك لم تبلغي بهذا الأمر من قبله وكنت قد تحدثت
إليه يوم السادس من كانون الأول ديسمبر وأبلغتني أنه متوجه إلي مينسك، وتذكر أن هذا هو
يوم السادس لوضع اتفاق ثلاثي مع شكوشكوفيتش وقال إنه سيطلب من كرافتشوك أن يأتي
لإبلاغ الإثنين بأمر المستقبل.

وأصاف نزارباييف: «أبلغتني يلتسين بأنه يرغب في زيارة كرافتشوك ويتشاور معه
حول ما يريده بشأن اجتماع يوم الإثنين الذي دعا إليه جورباتشوف. وبدلاً من هذا فقد
حدث أن توجه إلي مينسك وأجرى صفقة. فلماذا تعجل في إيلام الصفقة؟ إنني أصلي أنها
صفقة مسلوقة. صفقة غير رسمية. صفقة مسلوقة تماماً.

كان نزارباييف غاضباً. لكنه لم يستفز. وسأل يلتسين: «هل هذه آخر صفقة من هذا
القبيل؟ هل هذه آخر صفقة يتم إبرامها؟ وأعرب شكوفيتش عن أسفه لرئيس قازاقستان
عن الكيفية التي سارت بها الأمور. وقال له نزارباييف: «إننا لا نتحدث عن طموح شخصي
لكننا نتعامل مع مجموعة ضخمة من القضاة. وأبلغتني نزارباييف أنه بينما لا يزال في

موسكو اتصل بجورباتشوف فى التاسع من كانون الأول ديسمبر لئبلغه بأنّه ان يحضر اللقاء ولن يحضره الآخرون أيضاً وقال: «إن جورباتشوف رد قاتلاً: لماذا لا تمر على لشتر دقاتى؟ وقد فعلت. ووجدت يلتسين هناك، ولم يكن يعرف أننى سأكون هناك، والقطع لم أكن أعرف أنه سيكون هناك. ووجه جورباتشوف عدة أسئلة بسيطة حول الجلدية والحدود والجيش لكن يلتسين لم يستطع الإجابة على أى منها.

«إن الحقيقة الآن هي أن ثلاثة منهم عقدوا اجتماعاً وتوصل ثلاثتهم إلى صفقة. فما الذى دعا ثلاث دول نووية إلى الاجتماع وترك الرابعة؟ ولم يقدم لى مطلقاً أى تفسير لسبب استبعادى.

وجرحت الترويتا السلافية كهرياء نزارباييف، والأكثر أهمية أنها لغطبت حساباته الجيوسياسية لكنه لم يكن الرجل الذى يعيش فى الماضى. وبعد أن استعرض معى التاريخ القصير للكونولث انتقل نزار باييف ليمتعرض أفكاره الاستراتيجية. وقال: إنه فى ضوء محدودية الخيارات للمحاة أمام قازاقستان التى تنحصر فى الانضمام إلى الكونولث أو تشكيل اتحاد فيدرالى لدول آسيا الوسطى أو المضى منفردة فسوف يعمل على إنجاح الكونولث. ولم يكن خيار جورباتشوف المفضل - إعادة وضع معاهدة اتحاد - قابلاً للتطبيق. وقال الرئيس القازاقستانى: «لقد انتهينا إلى ذلك. وأضاف قاتلاً: «بدلاً من ذلك فإننى أريد بذل كل ما هو ممكن للتوصل إلى معاهدة طبيعية هنا فى لىما آتا. وقال: كخطوة أولى سوف يصير على ضرورة إدخال تعديلات على الاتفاق* وقدر مميزاته على وجه التحديد. فهو يتمتع بثقل جمهوريات آسيا الوسطى الأربع معه. وهو يمتلك أيضاً أسلحة نووية. وقال: «إن لديهم مائة محطة لتوليد الكهرباء فى روسيا وأوكرانيا لا تستطيع العمل بدون فعمنا. الفحم المستخرج من قازاقستان». انتهى مددهش لعدم تدبرهم لما فعلوه.



* كان أول تعديل هو النص على أن كل أعضاء الكونولث أصنام «موسم» القادى حديث نظرية بين الجمهوريات السلافية والجمهوريات الآسيوية. (وهو شاملاً ما أبلنى به كاتيف فى وقت سابق). وقال نزارباييف: «هذا هو طريق الإنجاز فلا يمكن إجاز شيء بالطريقة التى تصورها به». وكان التعديل الثانى هو إلزام الجمهوريات النووية الأربع بتوقيع معاهدة ضد على وجه الدقة أدوات التحكم والسيطرة فى الأسلحة النووية. وأوضح نزارباييف: «لهم صاغوا مشروعها بأسلوب فضفاض لعمق. والتعديل الثالث هو إعادة التوقيع على الاتفاقى لى لىما آتا بعد التعديل المناسب.

ثم أبلغني: «لقد اعتذروا وانتهى الأمر. ومرة أخرى ها أنا أجد نفسي مضطراً لأقوم بدور رجل السطافى. إننى فى سبيلى لجمعهم مرة أخرى».

ومع انتهاء مفاجآته بدأت فى تكرار كل ما قلته للكافة فى موسكو. لقد أوضحت بجلال أننا غير معنيين بإلحاح أنفسنا فى العملية. إنها عملية يجب إتمامها بواسطة أطرافها أنفسهم وليس بواسطتنا. وأشار نزارباييف إلى أن يلتزم لتتجهز مكالمته الهاتفية مع الرئيس بوش ليدعى أنه حصل على تأييد الولايات المتحدة. وقلت له: إن الرئيس لم يتخذ أى موقف لا بشكل عام أو خاص، ولقد أوضح أن هذا من شأن الجمهوريات والمركز. وقبل نزارباييف توضيحي. لكن سوء فهمه فى البداية ألقى بعض الضوء على التصارب للواضح فى موسكو حول موقفنا تجاه الكومنولث. وساورنى الشك فى أن يلتزم لابد وأنه أبلغ جورباتشوف أنه تلقى هو والكومنولث مباركة للرئيس بوش مما يفسر على الأرجح رد فعل جورباتشوف المبالغ فيه على تصريحاتى بأن الاتحاد السوفيتى كما نعرفه لم يعد موجوداً.

وما لبثت أن أثرت مع نزارباييف قضيتين حاسمتين أخريين: هما الضمان قازاقستان إلى معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وإمكانية تقديم المعونة الإنسانية والظلية. وقال نزارباييف: «إذا اعترف المجتمع الدولى وقبل بوجود قازاقستان فسوف نعلن أننا دولة غير نووية. فهذا هو أفضل سبيل لضمان سلامة أرسيدنا. وهذا هو ما نطلبه». كانت إجابة مرضية رغم أننى علمت فى ربيع عام ١٩٩٢ أنه كان بوسعه - وليس فى الآراء مفاجأة - توتير المفاوضات للحصول على كل ما يستطيع من مميزات.

وفيما يتعلق بالمعونة الإنسانية رحب نزارباييف بكل ما يمكن أن نقدمه. وكان مثلها على اكتساب الخبرة الفردية لإتمام التحول الاقتصادى فى قازاقستان، وإقامة مشروعات تهذب الاستثمارات الأجنبية. وقال: «أرسلوا لنا خبراء ومستثمرين، لا أموال». وأبلغته أنه بالإضافة إلى إثارة تلك القضايا مع حلفائنا الغربيين وسندوق النقد الدولى فسوف أوفد بوب فاوهر الذى نقل من مكتب شرق آسيا لدولتي منصب نائب وكيل الوزارة للشؤون الاقتصادية للمساعدة فى الإسراع بخطى الإصلاح.

وعندما استقر بى الحال فى غرفتى فى الساعة الثالثة فجراً لحسنت بأن الساعات الثلاث التى أمضيتها مع نزارباييف كانت من أفضل الأوقات التى أمضيتها حتى الآن. فقد

كان رعيماً لا يمكن أن تخطيء العين مكانته لكن من دون شك كانت تنتظره أيام عصيبة فقد كانت أمامه مجموعة من القضايا الاقتصادية المعقدة ليتعامل معها في تلك الأيام. ناهيك عن أن اجتماع الكومنولث المقرر عقده في غضون ثلاثة أيام سيكون بالغ الأهمية. لكنه كان يمتلك رؤية لما هو مطلوب. إضافة إلى فهم دقيق لكيفية تحقيق إنجازات فعلية على الأرض.

الدولتان النرويجيان الأخريان بيلاروس وأوكرانيا

أمضيت يوم الأربعاء ١٨ كانون الأول ديسمبر مع ستانيسلاف شوشكيفيتش والرئيس الأوكراني ليونيد كرافتشوك في كييف لاستعرض نفس القضايا الأساسية: الأمان النووي. وإزالة الأسلحة النووية ونظام التحكم والسيطرة والالتزام بالمعاهدات القائمة للحد من التسلح والالتزام بمبدأ التحرر السياسي والاقتصادي ووعده بإقامة نقاط اتصال على المستوى المحلي للمساعدة في تنسيق وتوزيع المعونة الإنمائية.

وفي أول اجتماع لي في مينسك مع شوشكيفيتش لمست أنه شخصية واثقة ومقبولة بشكل عام. ولم يكن هذا الفيزيائي السابق قد تولي منصبه إلا في شهر أيلول/سبتمبر. وبعد أن غادرت الصحافة قاعة الاجتماع عقب التقاط الصور التذكارية (الإخبارية) قبل الاجتماع قال إنه اكتشف أن الرد على الصعفيين أمام الكاميرا «تجربة حمقاء فلتست محاذياً على هذا الجانب للمنبه».

وأبح شوشكيفيتش في التأكيد على أن بيلاروس ستقبل كل ما نريد بشأن الأسلحة النووية، ولأنه عاش كارثة تشيرنوبل كان يعتقد أنه من الضروري إزالة كل الأسلحة النووية من أراضي بيلاروس وسعي بذهبة للحصول على الخبرة الأمريكية في تفكيك تلك الأسلحة، ووعده بتقديم تلك الخبرة.

وسارع أيضاً بالانتقال إلى شرح كيفية تحريك بيلاروس في مجال الإصلاح السياسي والاقتصادي. وزعم أن بيلاروس تقصد كل الجمهوريات الأخرى على طريق الخصخصة،

وأن للبرلمان يناقض حالياً عناصر دستور ديموقراطي جديد. وقال إنه يريد إزالة آثار الحرب الباردة من بيلاروس وأتينا: «لأنزغب بأي حال من الأحوال بإعادة تجرية الأربعين عاماً الماضية. إننا نريد أن تصبح دولة عفوية طبيعية».

وعن الكومنولث أعرب رئيس بيلاروس عن أمله في نجاح اجتماع ألما آنا وأبدي استعداده للعمل على انجاحه. ودرغم أننا لم نبحث تعديلات نزارباييف على وجه التحديد إلا أنني أحسست أنها قد تمثل مشكلة ليلتسين أو شوشكيفيتش. وقتئذ: إننا نريد أن يكال اجتماعاً ألما آنا بالنجاح. لأننا نرى في جانبه خطر الأصولية الإسلامية يحتاج ما كان يعرف بأسيا الوسطى السوفيتية. ومضيت إلي القول إنه «يربط جمهوريات آسيا الوسطى بالجمهوريات السلافية. ويمكن أن تعمل كجسر بين الشرق والغرب وعازلاً آمناً أمام انتشار الأصولية الإسلامية المتطرفة».

ورد شوشكيفيتش: «بشكل عام فإننا على اتفاق تام مع موقفكم».

وأبدي كرافيتشوك تعاوناً مماثلاً مساء ذلك اليوم في كييف. كان هذا الأمر يبحث على الاطمئنان لأن التقى كان يساورني بشأن كرافيتشوك في اجتماع الكومنولث. وبهذا كنت في قازاقستان تلقيت تقارير بأن كرافيتشوك لن يحضر على الأرجح اجتماع ألما آنا. ولأنه يشكل ثاني أكبر قوة جيوسياسية بعد روسيا فقد خشيت من أن عدم مشاركته قد يتسبب في انفجار الكومنولث بما يحتمل أن يدفع المنطقة نحو الفوضى.



وما يبحث على المفاجأة أن كرافيتشوك استهل مباحثاتنا بالإشادة بالكومنولث. ويبدو أنه تشارك مع يلتسين ونزارباييف قبل الاجتماع معي، وهكذا فقد تغير موقفه من اجتماع ألما آنا، وسرعان ما أبلغني بأنه سيشارك في الاجتماع وأن أوكرانيا معتمدة للذهاب إلي الاجتماع.

وسألته عما سيحدث في روسيا إذا لم يصمد الكومنولث، ماذا سيحدث لمختلف الجماعات العرقية مثل شعبي الشيشان والألتايش؟ «ففي ظل مثل تلك الظروف سوف تواجه

روسيا صعوبات هائلة مع الضغوط الساعية نحو الاستقلال من قبل مختلف المناطق. إن روسيا تواجه مشكلات أيديولوجية خطيرة لأنها خليط من المسيحية والإسلام. وقال: إنه حتى علي الرغم من أن الكومنولث فكرة أوكرانية فقد كان للروس أكثر تعلقاً بها «وتبنوها بشغف بالغ». وحذر أيضاً من أن هناك أيضاً مطامع روسية في إقامة دولة عظمى «وهذا أمر غير مقبول».

وأعربت أوكرانيا عن استعاضها للانضمام إلى معاهدة حظر لانتشار الأسلحة النووية وقد طلبت بالفعل من الوكالة الدولية للطاقة الذرية إيفاد مندوبين إلى كييف حتى يتسنى البدء في عملية التنفيذ. وقال: إن أوكرانيا سوف تلتزم بكافة المعاهدات النووية القائمة وترحب بالخبرة الأمريكية للمساعدة في إجراء تخزين وتحويل وتفكيك آمن لأسلحتها النووية. ومثل زارباييف كان كرافيتشوك يفضل جهة سيطرة واحدة علي القوات الاستراتيجية، وأكد علي أنه حتي يتم الانتهاء من إعداد كافة الترتيبات للوجستية ستكون كافة القوات النووية المتمركزة في أوكرانيا «غير قابلة للعمل».

وعقب انتهاء ذلك للمساء في كييف كنت أكثر ثقة عن ذي قبل في وقت سابق من الأسبوع في إمكانية احتواء الصراعات السياسية. وكنت علي اقتناع بأن الكومنولث سيتشكل بصورة ما خلال اجتماع ألما آتا. كان اقتناعي للخاص أن الكومنولث لن يعمر طويلاً لكنه يمكن أن يعمل كآلية للتوسط في تسوية النزاعات بين الجمهوريات مع تأكيد وتطور استقلالها.

وخلال كل اجتماعاتي ذلك الأسبوع ظهر قاسم مشترك واحد جمع الجمهوريات ألا وهو الرغبة في إرضاء الولايات المتحدة. فقد أبلغني زارباييف أنه يحتفظ بالمبادئ الخمسة في أدراج مكتبه، وطلب منا كرافيتشوك إيفاد خبراء لضمان تطبيق أوكرانيا لظك المبادئ. وأبرقت للرئيس أن سلطتنا المصنوية «تهيب» فرصة نادرة، إنها تقتضي المسؤولية أيضاً، ويجب موقفنا - وفولنا - شبه التام لرغبتهم فإنهم يتطلعون للحصول علي مساعدتنا ويمكن توظيف استعدادنا لتقديم المساعدة لتشكيل وصياغة ما يفكرون ويوسمهم أيضاً لاستغلاله لإقامة سلطتهم، وقت: «إنه يمكن تأجيل الاعتراف لفترة طويلة. لكن يجب ألا تطول لأكثر مما ينبغي». وكنت أعتقد أنه ينبغي علينا الانتظار لما بعد اجتماع ألما آتا.

النهاية

امضيت الخمس ١٩ كانون الأول ديسمبر في اجتماع المجلس الوزاري لحلف شمال الأطلنطي في بروكسل، وأمضيت يوم الجمعة في الجلسة الأولى لمجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلنطي. كان الانعقاد الموفيتي، ينهار في تلك اللحظة، ومع وصولنا علمنا أن يلتزم إصدار قراراً بالاستيلاء علي الكرملين ووزارتى الخارجية والدخالية. ومع زملائي في حلف شمال الأطلنطي اقترحت أن يساهم الحلف في توفير الدعم للوجستى لتقديم شحنات الأغذية والأدوية إلي الجمهوريات. فالحلف لا يمتلك القدرة فحسب، بل سوف يشكل هذا نمواً رمزياً مهماً من كونه منظمة تتحرك نحو ردع العدوان إلي منظمة تساهم في إقرار سلام جديد.

(فالمبادرة تمثل أيضاً رمزاً لمضي سلاسة التعاون، بين وزارتى الخارجية والدفاع أثناء إدارة بوش. فقد توصلنا إلي الفكرة أثناء الرحلة) ووجدنا لسانها النهائية في كيب في اتصالات هاتفية مع كولن باول وديك تشينى. وتمثل الإزعاج الوحيد في العمران من النوم، فلم يذق هادلى خبير الأمن والحد من التسلح بوزارة الدفاع والجنرال شالوكاشفيلى مساعد باول في ذلك الوقت طعم النوم.

وأمضيت أيضاً بعض الوقت في تهئية خولطر بعض الأوروبيين بسبب مؤتمر التنسيق الذى اعتبره الكثيرون منهم إهانة لهم. وأبلغت جيلانى دى ميخائليس أن خطأنا هو عدم تضمين المجموعة الأوروبية في الدعوة. رد جيلانى: «لا بل إن خطأنا - المجموعة الأوروبية - هو عدم التفكير فيه أولاً. إننا في حاجة ماسة إلي عقد هذا المؤتمر» الذى اقترحه بوش بأسرع وقت ممكن. ولست استياء مماثلاً بين معظم شركائنا في الحلف رغم أن الاستياء اتخذ منسجماً مخابراً مع الفرنسيين. حيث وصفها الرئيس ميتران أنها مبادرة «غير ضرورية للبسة». وعن مؤتمر التنسيق أبلغت رولان ديما: «لا تطلق منه وعليك ألا تأتى إذا لم تكن راغباً في المعجى سوف اعطيك من اللافضين». وكان لهذا وقع طيب فقد شارك الفرنسيون وأدوا أثناء ممتازاً.

وشكل اجتماع مجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلنطي خطأً فاصلاً. ففي القاعة التى أديرت منها الكثير من الأزمات بين الشرق والغرب ها هو يومى الآن أنظر وأرى

وزراء خارجية يمثلون كل دول حلف وارسو السابق. كانت الدلالة واضحة. لكن الاجتماع شكل أيضاً محاولة أولية من جانب حلف شمال الأطلسي لهجر الحرب الباردة، وبذر بذور مرسومات ما بعد الحرب الباردة بالتوصل إلى دول للشرق وتوسيع مجموعة الدول الديمقراطية.



وفيما بين الاجتماعات الوزارية والثلاثية حاولت الاتصال بنزار باييف عدة مرات وأبلغني في إحدى المحاولات بأنه لا يوجد سوي خطي تليفون بريتان قازاقستان بالخارج. وقد أردت للحدث إلى نزار باييف قبل بدء الاجتماع لإبلاغه بالموقف الإيجابية التي سمعتها في مينسك، وكيف. وأخيراً تمكنت من الاتصال به مساء يوم العشرين في ذات اللحظة التي كان يستقبل الوفود التي تصل للمشاركة في الاجتماع التاريخي.

وبدأت المحادثة بالقول: «أود إبلاغكم بأطيب أمنياتي وأنتم علي وشك بدء الاجتماع. لقد قدمت أزملائي في حلف شمال الأطلسي تقريراً رافياً حول زيارتي لكم، وقد سروا للغاية من التمنينات التي قدمتموها بشأن الأمان النووي».

وأعرب نزار باييف عن تفاوله بإمكانية تهديد القلق الذي أبداه لي قبل ثلاثة أيام. لكن قلقه حيال أوكرانيا لا يزال موجوداً لكن حدثه خفت بعض الشيء. ويبدو أنه تلقى إجابات مشجعة علي التعديلات التي اقترح إدخالها علي معاهدة الكومولوث. وقال: «تلقيت صماتات من الجميع هنا بأننا منسجج في إقامة الكومولوث، وإن أدع أحدا يغادر هنا من دون التوصل إلي اتفاق».

وقلت: «لو أن هناك أحدا يستطيع دفع هذا الأمر نحو الأمام فهو أنت. إنني أنتظر معرفة للنتائج ورؤية قازاقستان عضواً في المجتمع الدولي في نهاية المطاف».

وفي اليوم التالي لدي عودتنا إلي وشطن تنصل بي نزار باييف علي الطائفة لإبلاغي بنتائج الاجتماع. وأبلغني بأخبار سعيدة للغاية. واستهل المحادثة: «لقد انهى اجتماع لما أنا

وشاركت إحدى عشرة جمهورية في الاجتماع. وبالإضافة إلى اللغمانى التى تعرفها* شاركت أيضاً كل من مولدوفا وأرمينيا وأذربيجان. لقد أقبلنا كومتوث الدول المستقلة.

لبن تفاسيل الاتفاق تشكل يقيناً خطوة متقدمة. وقال: «إننا عاكفون العزم وإن يكون هناك سوى أربع جمهوريات نووية. لكن السيطرة والتحكم فى الأسلحة النووية سيكون فى روسيا حيث مسجري التخلص من كافة الأسلحة النووية للتكيفية، وستظل الأسلحة النووية الاستراتيجية موجودة فى روسيا وقازاقستان. ومع هذا فسوف تظل قازاقستان أنها منطقة خالية من الأسلحة النووية بمجرد انضمامها إلى الأمم المتحدة».

وأضاف قائلاً: «قررنا أيضاً ضرورة كفاءة الأمن للثام لجورباتشوف، ويذهب توفيره. ثم. لقد أحطنا أيضاً علماً بطلب الرئيس يلتسين (الذى علمت فيما بعد أنه طرحه علناً فى مؤتمر صحفى عقب انتهاء لاجتماع ألتا) بضرورة كفاءة للعمل والعميش الكريم الرئيس جورباتشوف. ورددت: «أولاً يجب على إيلانك بأمقتالى اسكالمك ولتقديرك اللوافى إنه يتفق مع كل ما بحثناه مع زعماء الجمهوريات». وقال: «شكراً لك لكن الأمر لم يكن سهلاً». وأصفت قائلاً: «كان أذاكم رائعاً، وأريد إيلانكم بأننا مستحرك كالموقع فى مسألة الاعتراف بمعظم اصضاء الكومتوث بما فى ذلك قازاقستان».

وقال وهو يدارى ضحكة خافتة: «السيد وزير الخارجية أمل أن تكون قازاقستان فى مقدمة تلك الدول». ورددت: «اعتبر الأمر منتهياً. ستكون على اتصال قريباً».

وبعد أربعة أيام استقال ميخائيل جورباتشوف يوم عيد ميلاد للسيد المسيح. وكُلز العلم الذى يحمل علامة المطرقة والمنجل للمرة الأخيرة من ساريتة التى ظل يعرف عليها فوق الكرملين لسبعة وأربعين عاماً. ورفع مكانه العلم للروسى ذو الألوان الثلاثة. وحل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. فما هى التجربة التى بذلها كارل ماركس وفلاديمير لينين ونفذها جوزيف ستالين قد فشلت.

* هي الدول الصلافية الثلاث (روسيا وبيلاروس ولوكارنيا) ودول آسيا الوسطى الخمس (قازاقستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وبركمانستان، وأوزبكستان).

الفصل الحادي والثلاثون

دخول حقبة جديدة

أتذكر قبول وزير الخارجية حين راسك بمنحة حزن... في أي لحظة
من اليوم يستيقظ نسحو ثلثي سكان العالم على الأقل
يُستمدُّ البعض منهم على الأذى.

سايروس خان

وزير الخارجية الأسبق ١٩٨٢

طالما طُلبَ منى عدة مرات باعتبارى أحد سعة كان لهم شرف تولى منصبى وزير
الحرانة والخارجية أن أحدد الفرق بين وزارة الخارجية ووزارة الخزانة. ومن الواضح أن
الموقعين ينطويان على قدر بالغ من الأهمية والتحدى غير الاستثنائى. ففى وزارة الخزانة
أمامك مروة أكبر فى اختيار القضايا التى تريد التركيز عليها. وزير الخزانة حر نسبياً فى
تخصيص وقته، وتصديق أولوياته فى تنفيذ جدول أعمال سياسة للرئيس، وفى الجانب الأكبر
فإن القضايا التى تتطلب العناية يمكن توقعها إلى حد كبير.

ومع هذا فإن وزير الخارجية يعد رهينة لبيئته أكثر من أى عضو آخر فى الحكومة. فلا
أكاد أصل فى أى لحظة إلى مكاتبى فى الدور السابع بوزارة الخارجية فى الساعة صباحاً
ينتظرنى يوم حافل مشغول بالتفاصيل التى أعدت بكل دقة إلا لكى ألقى الجدول للمعد حتى
أتعامل مع تطورات غير متوقعة فى أقصى بقاع الأرض. وتطعت فى الخارجية أن للمشاكل
موهبة بارعة فى ملاحقتك أينما تكون.

فقد تفجرت بعض تلك الأحداث مثل غزو لكويت بينما أحدثت أخرى تستطلب اهتمام
العالم بأسره على أشدها. وثم أحداث أخرى لا تظهر فى الصحف، وأقل القليل ما يظهر فى
الصفحات الأولى، وتقع الأغلبية للعظمى منها بين الأحداث للقائمة بالقل. تكن جميعها على
درجة من الخطورة تفس نجاح السياسة الخارجية وتستوجب تخصيص القدر الواجب من
الوقت والاهتمام.

فى أى لحظة تقف أعين الرأى العام ووسائل الإعلام ترقب فى لحظة بالغة أهم قضايا
السياسة الخارجية فى تلك اللحظة. وفى إشارة بوش كانت هناك حرب الخليج، توحيد ألمانيا
وعملية السلام فى الشرق الأوسط، والعلاقات السوفيتية الأمريكية، وهذا هو ما تنازلت معظمه
من قبل. ومع هذا فلم تتأخر أى من هذه القضايا ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة من فراغ.
فالحقيقة أنه فى الوقت الذى كان للرئيس وكبار مستشاريه لشؤون الساسة الخارجية بالمجون
تلك القضايا فقد كنا نتعامل فى ذات الوقت مع مجموعة أخرى متداخلة من القضايا لفرزتها
مبادراتنا والأخرى فاجأتنا بها الأحداث. لكنها جميعاً قضايا تستدعى متابعة فعالة مستمرة
لضمان حماية وازدهار مصالح بلدنا. وما سوف أورد له ليس إلا نماذج لمجموعة قضايا كانت

إدارتها اليومية على نفس القدر من الأهمية لنجاح مسيرة السياسة الخارجية الأمريكية تماماً كالتقضايا التي تتطلب إدارة رفيعة المستوى.

الصين: إنقاذ زواج مضطرب

مع عام ١٩٩٠ ونتيجة للأجواء الصاعدة بالقبول الشديد تجاه الصين بعد مذبحة تيانانمين لم يكن هناك احتمال أو مبرر لطرح أي مبادرة مهمة لتحسين العلاقات الصينية الأمريكية. ومع هذا لم يكن لدينا أي استعداد لشطب الصين بكل بساطة. وترتيباً على هذا انتقل التركيز في سياستنا باتجاه الفرص متعددة الأطراف حيث يمكننا التعامل مع الصينيين في إطار أوسع وأقل إثارة للجدل حول القضايا ذات الاهتمام المشترك.

كان أهم إنجاز في هذا الصدد هو مسعانا للتأجيل لإثاء الصين من استخدام الفيتو في مجلس الأمن الدولي مما كان سيعرقل جهود الولايات المتحدة لإخراج صدام حسين من الكويت، وكانت مفاوضات الدبلوماسية مفيدة أيضاً في اتخاذ القرار الصيني بالانضمام إلى جهود الأمم المتحدة الرامية إلى التوصل لتسوية من خلال التفاوض للحرب في كمبوديا. وهي مبادرة توجت باتفاق باريس للسلام عام ١٩٩١ الذي أعاد الاستقرار إلى هذه الأرض المضطربة*.

وعملنا أيضاً على ضم الصين وتايوان وهونغ كونج إلى منظمة للتعاون الإقليمي أبوك عام ١٩٩١. وكان هذا العمل الأخير هو لقري رسالة إلى الصينيين بأنه في الوقت الذي نشعر فيه بقلق بالغ حيال القمع الذي يمارسونه في الدجل فإن للرئيس ملتزم باستمرار الارتباط الاستراتيجي قدر الإمكان.

ومع منتصف عام ١٩٩١ أصبحت قضية العلاقات الثلاثية أكثر إقذاعاً. ورغم تعاونهم في قضية الخليج تنامي قلقنا من صنوع الصينيين في انتشار الأسلحة النووية. وأكدت

* طرحت هذه المبادرة عام ١٩٨٩ لإزهاء مفاوضات السلام الدولية في كمبوديا، وحجتها اقترحت الولايات المتحدة بذل جهود للتوصل إلى تسوية تحت رعاية الدول الخمس دائمة العضوية في الأمم المتحدة.

مخابرتنا قيام ببيع صواريخ أرض / أرض إلى باكستان وسوريا وإيران، وأسلحة مصادرة للطلالعات إلى ليبيا تستخدمها لحماية مصنعها للأسلحة للكمالية. والأكثر مدعاة للقلق قيام الصين منذ فترة بمساعدة البرامج النووية لإيران وباكستان للتي يشتبه في محاولتهما إنتاج أسلحة نووية. لكن من المهم المشاركة مع الصينيين في تلك القضايا بغض النظر عن المناخ السياسي الدلعي. والحقيقة الصرفة هي أن الصين مهمة لمصالحنا الكونية لدرجة بتعذر عزلها. وبالفعل وعند انتهاء حرب الخليج كان بعض أشد المتكدين في الكونجرس يعترفون في دولتهم الخاصة بضرورة للتعامل مع الصين.

ومع هذا ظلنا مضطرا مراراً على الصينيين لتخفيف سمع القوي للديمقراطية، وانصب اهتمامهم كالمترفع على المطالبة برفع العقوبات الأمريكية، والحصول على رسالة رمزية رفيعة المستوى كزيارة يقوم بها وزير الخارجية الأمريكي إلى بكين. أما ولم تسددهم الاتصالات الأدي مستوي التي أمر بها الرئيس للإبقاء على الحوار، فقد ألهوا مراراً على لتحديد زيارة. وخلال اجتماعين مع تشيان تشينغشين وزير خارجية الصين في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠ وتركزوا على أزمة الخليج، أكدت أن أي زيارة يقوم بها مسؤول أمريكي رفيع المستوى للصين مرهونة بتحقيق تقدم كبير في مجال حقوق الإنسان، وقتل لشبان يوم ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر: لا يمكننا تحسين العلاقات من جانب واحد. فمن دون تقدم واضح من جانبكم لا يمكن أن أزور بلدكم، وليس أمامنا أي فرصة لإقناع الكونجرس والشعب الأمريكي بأهمية التحرك، فقاما وكبادرة لحسن النية أوفد بوب كيميت إلى الصين في كانون الأول ديسمبر مقوضاً بالتحديث حول زيارة أقوم بها، ولكن بمجرد تحقيق تقدم ملموس في قضية حقوق الإنسان.



ومع خريف عام ١٩٩١ اختلطت ردود بكين حول مساعيها المتكررة. ففي مجال بيع الصواريخ فقد رفضوا مطالبنا بالالتزام العلي بالخطوط العريضة لنظام الرقابة على تكنولوجيا الصواريخ MTCR وهو اتفاق دولي استهدف منع تدفق الصواريخ للبالستية مترسطة

المدى. ومع هذا وافقوا من حيث المبدأ علي قبول بدود اتفاقية منع إنتشار الأسلحة النووية. وبناءً علي أوامرنأ بدأوا في الضغط علي حليفهم كوريا الشمالية بأن تعزو حذوهم. وإلي تلك فقد طمأنونا بشكل خاص بأنهم سيلفون بيع صواريخ من طراز إم - ٩ إلي سوريا.

وعن حقوق الإنسان رفضت الصين إلغاء أو تخفيف الأحكام الصادرة بحق معظم المنشقين. كما رفضت الصاعى الأمريكية للحصول علي قائمة بأسماء اللوتي والمسجونين. كما رفضت أيضاً عدة ندابات من عدة دول بالسماح للسلب الأحمر الدولي بتفقد السجون الصينية. ومن ناحية أخرى فقد سمحت لفانج ليجي وأسرته بمغادرة الصين، وكذلك سمحت بمغادرة ازواج أو زوجات المنشقين للسقيمين في الولايات المتحدة. كما أطلقت سراح نحو تسعمائة اعتقلوا بعد وقوع مذبحة ميدان تيانانمين. كما وافقت علي اعتماد مندوب لصوت أمريكا بدلاً من مراسلها الذي طرد أثناء وقوع مذبحة الميدان. كما أستأنفت منح فولبرايت الدراسية وبرنامج فولاق السلام التي قررت قطعها بعد المذبحة.

ولم تكن تلك البادات كافية لتبديد قلق المعارضنة في الكونجرس لرفع العقوبات، لكن مع اقتدار تلك البادات باستعدادهم خلال حرب الخليج لعدم استخدام القهتو ضد قرارات مجلس الأمن الدولي التي لم يؤيدوها بالفعل اعتقد الرئيس ولنا بأن هناك أسباباً كافية الآن تسمح لي بالسفر إلي الصين علي أمل إقناع قيادتها بالمحاطر الحقيقية التي تمثلها سياساتهم القمعية.

وكنا لا نزال علي اعتقاد بأن الصينيين لم يستوعبوا حجم الدمار الذي الحقته المذبحة بالعلاقات الصينية الأمريكية، ولذا فقد قررت عقد اجتماع آخر مع تشيان في ٢٧ أيلول سبتمبر ١٩٩١ علي هامش اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. فقبل الالتزام بإتزام للزيارة أردنا تنبيه الصين إلي أن هذه آخر أفضل فرصة بالنسبة لهم، فإذا ما اعتبرت زيارتي غير ناجحة في الولايات المتحدة فلم يكن يساورنا أدنى شك في أن الكونجرس سينزع أمر للعلاقات الصينية الأمريكية من الرئيس.

وقلت لتشيان: «إنني أريد ألوجه إلي الصين تكن علي التأكد من أن الزيارة سوف تعزز علاقتنا لأن تزويد من صعوبة نفسها قديما. إن ما أريد معرفته هو ماذا يمكنني إنجازة بذلك الزيارة». وكان تشيان موغلاً في الضموض.

وألححت عليه: «إنني أريد تحريك الصين بشيء ما حول حقوق الإنسان ومنع الانتشار النووي». فالكونجرس ينتظر تجاوز الرئيس في قضية العلاقات مع الصين. فهل يمكن أن نتحدث علي وجه التحديد؟ إنني أريد تحديداً معرفة ما إذا كان هناك شيء مما يمكنني أنا والرئيس التوصل إليه».

وقال: إنه يمكن مناقشة أي قضية وإنني ولقي من أنه سيتم إحراز بعض النجاح. وأبلغت تشيان أن هذا لا يكفي. وها هو يبرأ على مرة أخرى لكنني أحسست أنه استوعب الرسالة.



وفي ٩ تشرين الثاني نوفمبر بعد ستة أيام من اختتام مؤتمر الشرق الأوسط في مدريد غادرت أوروبا حيث شاركت في قمة حلف الأطلسي مع الرئيس -متوجهاً إلى اليابان وكوريا والصين. ووصلت إلي بكين في الساعة ٢,٢٥ فجراً في الخامس عشر من تشرين الثاني نوفمبر، وبدأت مباحثات استغرقت ثلاثة أيام مع تشيان في بيت الضيافة ديا ويناي. وبدأ بتقديم قائمة من التنازلات التي يريدها مني وفي مقبعتها رفع كلفة العقوبات، وبدأ علي ذلك أثرت مجمل العلاقات الثنائية ومعتمدة الأطراف مستخدماً أقوى لغة حول قضية حقوق الإنسان.

وقلت في خطاب استعراض استغرق خمساً وأربعين دقيقة: «حان الوقت الذي يجب أن تنهجوا فيه نهجاً عملياً. إنني لا أتوقع حدوث معجزات. لكنني أتوقع الاعتراف بمصالحكم. إنني أريد نتائج ملموسة لا وعوداً ولا اجتماعات ولا تسويفاً. فعندما سأستقل الطائرة سأتعلق التبريمات علي الفور حول نجاح أو فشل هذه الزيارة. فإذا اعتبرت الزيارة فاشلة فسوف ينكر الكونجرس قضية سياسة الصين من الرئيس».

ولم يحرك تشيان ساكناً، وسارع برفض مطالبتي بضرورة عفو الصين عن العدائين بتهمة الاحتجاج دون عنف خلال انتفاضة حزيران يونيو ١٩٨٩ والسماح للجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي بتفتد أحوال السجون الصينية.

وحاولت في كافة اجتماعاتي اللاحقة التأكيد التام علي أن علاقاتنا تتجاوز مفترق طرق. وخرجت من اجتماعي مع تشيان بإعتقاد بأن القيادة الصينية لا يمكن أن تعي ببساطة أن مذبحة تيانانمين قد أطلحت بالذأيد القومي لاستعادة للعلاقات بين بلدينا، ومع نهاية اليوم لم يكن هناك أدني سبب يدعو للتفاؤل.



وعقدت في صباح اليوم التالي أول اجتماع من ستة اجتماعات مع رئيس الوزراء لي بينج. كان رجلاً نكثوقراطياً بالساقطة والخبرة ومتشدداً. لم يتدر مطلقاً عن نوره في سحق الحركة الديمقراطية. وتلقيت تحذيرات بأنه سيكون في غاية الصعوبة. لكنني ما كنت أترفع أن يكون غير بناء بالمرّة. فقد أصم أننيه لكل ما قلته بالفعل، وخاصة ما يتلق بحق الإنسان حيث قال: «لأننا نعتقد قبحاً مختلفة وأيديولوجية مختلفة فلا يمكننا سوي الالتزام بإجراء مناقشات».

كان الموضوع الأساسي لديه هو انضمام الصين هوياً ومن دون شروط إلي الاتفاقية للعامة للتجارة والتمريفات «الجات». وكان متصبلاً في طلبه بضرورة ضم الصين إلي الاتفاقية قبل نايوان. وأكد علي أن للصين تستحق أن تعامل كبقية الدول. وقلت له: إنه يجب علي جمهورية الصين الشعبية أن تمر ممارساتها التجارية للقواء بالمعايير الدولية قبل أن توافق الولايات المتحدة علي حصولها علي عضوية الجات. وأبلغته أيضاً بأن الولايات المتحدة ستزيد انضمام جمهورية الصين الشعبية وتايوان إلي الجات. لكنها لن تعد بانضمام الصين أولاً. واستاء من موقفى وكرر طلبه عدة مرات.

وعندما أدريت دعة الحوار مرة أخرى إلي قضية حقوق الإنسان لم تلح في موقفه لي بادرة لين. وعندما بدأ في تنفيذ وصفي لأحدث شهر حزيران يونيو بأنها مأساة أدركت أن احتمالات إحراز تقدم مهم لاحتتمالات قائمة وولمية. واعترف قائلًا: «إن أحداث ميدان تيانانمين كانت حدثاً طيباً. إننا لا نعتبرها مأساة. انظر إلي ما يدور في دول وسط وشرق

أوريا والاتحاد السوفيتي الآن . «ولكن علي أنه لو أن الدول الأخرى تعاضلت مع المنشقين بشدة لما راجعت إلا القول من المشكلات» . وقال : «إن شعبنا يؤيد ما قلناه في ذلك للحين» .

وبأبسط تعبير هالتي ما سمعت، وخاصة لأنه يؤمن بما يقول، ورددت قائلاً: «سأكون صريحاً معك . لو أن ما قلته لي ثوبك هو كل ما تمرضه لما كان بوسع للرئيس وأنا تأييد هذه العلاقة» .

ولم يظهر علي لي بينج أي قلق . وقال : «علوك أن تكون سعيداً لأنني قابلتك . وإذ عقدت كل تلك الاجتماعات مع كبار مسؤولي الحكومة» . وزاد الطين بلة شكواه من استبعاد بكين من مؤتمر السلام في مدريد .

ومن البداية حتي للنهاية كان الأداء مزعجاً لدرجة طرأ علي بالي احتمال الانسحاب من الاجتماعات . واعتقدت أن من غير الحكمة أن أنسحب، وواصلت الاجتماعات القيمة الخالية من الروح حتي أثبرت بقية فضائيا جدول الأعمال . واعتبرت ذلك الاجتماع كارثة وهو رأي شاركني فيه بعض أعضاء وفدنا الذين أبلغوني لاحقاً أنهم خلصوا فيما بينهم إلي أن الزيارة قد فُضلت، ولو أنني سألتهم رأيهم لأوصوا بالتوجه مباشرة إلي المطار ومقابلة الصين .

وسرعان ما طرأ مزيد من التدهور علي الموقف . ففي اجتماعي التالي أبلغني الرئيس بانج شايج كون وهو شخصية لطيفة : «إن أكبر إنجازاتكم هي الاستماع مباشرة إلي آراء القيادة الصينية التي يسمي الآخرون تفسيرها» . ورددت : «السيد للرئيس . إن هذا النوع من الإنجاز لا يقدم ولا يؤخر» .



كان المحاور الوحيد الذي بدا أكثر معقولية بعض الشيء هو جيانج زيمين السكرتير العام للحزب . ومثل لي بينج لم يكن يعتقد أن مذبة فيلانسمين حساسة . وتابع قائلاً : «لكن لا يسعني القول إنها نعمة» . ولم يكن جيانج محبباً سري بالثروة وقس الحكايات، وصدمني بمثاله مثل رفاقه عندما أثرت قضية حقوق الإنسان .

ولم تسفر مباحثات شاقة بالغة للصعوبة علي مدي يومين عن أى نتائج بشأن قضية حقوق الإنسان وهي المعيار الساسي الذهبي للحكم علي نجاح أو فشل الزيارة. كان للصينيين يتبعون استراتيجية الأرس المحروقة. إنهم يخوعون ويحاجون، ولا يتكبرون أى مساحة حتي اللحظة الأخيرة. بل وفي بعض الأحيان حتي بعد تلك اللحظة.

وكم تمنيت لو أصدق أن عريكة مصيفي أشقاء المراس سوف تلبس في نهاية المطاف، ولكن في الحقيقة لم يساورني أى هاجس حقيقي في أن تلك المباحثات علي وشك الانهيار والاحترق، وأن العلاقات سوف تشهد مريداً من التردى نتيجة تحت الصينيين إضافة إلي الجهود والمخاطرة التي أقمنا عليها بالقيام بزيارتى.

وأصبحت يومي الثالث والأخير في الصين في اجتماع مطول مع تشيان وعدد آخر من المسؤولين، وبدأت الاجتماع بقراءة رسالة من الرئيس بوش إلي دينج شياو بينج. وطلبت تسليم الرسالة شخصياً إلي دينج لكن طابى رفض. وكان الرئيس يأمل أن نداء شخصياً من سديق قديم قد يؤثر في دينج لكن رفض حكومته أوحى لى بأن الرسالة بادرة غير مجدية. ومع ذلك فقد أصرت علي قراءتها بصوت عال علي أمل أن يقوم أحد الحاضرين بإبلاغ مضمونها إلي دينج.

وما لبثت أن وصحت حداً للمطاردة. وقلت لتشيان: «لم أسمع شيئاً حول قضية حقوق الإنسان. وهي المعيار الذى سيتم الحكم به علي مدي نجاح زيارتى، وأمل أن يكون لديكم شيء هذا الصباح في هذا المجال».

وما لبث تشيان - الذى انتظر حتي أوشك اجتماعنا علي الانتهاء في الأجواء الصينية الممتدة - أن بدأ في تمديد القائمة التي يعتقد أن للجانب الصيني مستعد لتنفيذها. وقال إن الصين مستعدة لتأمين إخلاء شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية، وسوف توجه الدعوة إلي مؤتمر الحزب للتصديق علي معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية مع نهاية العام، كما أبدي استعداد الصين أيضاً لمرعاة الخطوط العريضة لنظام الرقابة علي تكنولوجيا الصواريخ MTCR و رعت الولايات المتحدة عقوبات بعيدها مفروضة علي الشركات الصينية. فضلاً عن ذلك فقد تمكنا من التوصل لاتفاقيتين تجاريتين مهمتين يتحققان بدخول السوق للصينية، وحماية حقوق الملكية الفكرية.

وأخيراً تطرق إلي مسألة حقوق الإنسان . فسوف تسمح الصين بسفر المنشقين الذين أمضوا مدرة العقوبة إلي الخارج ، وسيتم في القريب إطلاق سراح اثنين من أبرز منتقدي النظام . وستعرض حالة ٧٣٢ مظاهراً كانت قد سلمته قائمة بأسماهم خلال اجتماعنا الأول . وأكد تشيان أنها غير كاملة بالمرة . فلم يتم التعرف علي ٣٤٠ شخصاً كانت لدينا أسباب قوية تدفع للاعتقاد بأنهم رهن الاحتجاز . ووجد بتبديد القلق القائم حول تمخير السجناء في العمل في الصناعات المخصصة للتصدير ، وقبل طلبى بالسماح للدبلوماسيين الأمريكيين بزيارة السجون للصينية .



لم يكن انفراجاً حاسماً لكنه تقدم علي أية حال . وأبليت تشيان أنني أريد التشار مع فريق العاملين معي . ورفضت عرضة بذهابنا إلي قاعة اجتماعات قريبة افتراضاً بأنها مزروعة بأجهزة التنصت . وبدلاً من ذلك ترجلت مع كبار مباحثي علي درج بيت السباحة حيث جلسنا تحت الشمس نندرس خياراتنا .

وفيما بات من الواضح لنا جميعاً أنه ربما تكون قد أحرزنا تقدماً طيباً في قضايا منع انتشار الأسلحة النووية نتيجة للغة التي أمكننا استخدامها في التفاوض فلم نحرز أي انفراجة في قضية حقوق الإنسان . واقترح بعض العاملين معي ضرورة إنهاء الاجتماع عند هذا الحد ، ومعادرة الصين قبل موعد مغادرتنا المقرر بساعتين لإبداء استيائنا ، وخلصت إلي ضرورة بقاءنا والضغط علي الصينيين حتي وإن كانت لعمليات انتزاع المزيد من تشيان بعيدة .

وقلت : « لقد اتخذنا قراراً بضرورة إبلاغهم بعدم ارتدادنا تجاه حقوق الإنسان فلم يدل ما فيه الكفاية في هذا المجال » فلم تقدم أي حجة مقنعة ، وفررنا أيضاً رفس المطلب الصيني برفع العقوبات مقابل الاتفاق علي نظام للرقابة علي تكنولوجيا الصواريخ .

وعندما استأنفنا الاجتماع اقترحت علي تشيان تشكيل مجموعات عمل لصياغة بيان حول القضايا الرئيسية مدار للحلاف ، وأبلغته أيضاً بأنني أريد أن يكون بوسعي التصريح علانية بأن حوارنا حول قضية حقوق الإنسان سيستمر بعد الاجتماع . وبلغ كما هو متوقع .

وعاوننا الاجتماع بعد ساعتين. وقرأت علي تشيان - كلمة كلمة - الصياغة التي أعدتها مجموعة العمل الأمريكية حتي لا يحدث أى سوء فهم. وأثارت الصياغة الخاصة بنظام الرقابة علي تكنولوجيا الصواريخ مناقشة حامية. وشككت في أن السبب هو: أن الصين وقعت عقوداً مغرية لتزويد باكستان بالصواريخ. وعلي الأرجح فإن عدداً من كبار مسؤولي الحكومة والحزب أو عائلاتهم سيستفيدون من إتمام تلك العقود. فصدت عن ذلك فإن باكستان القوية تشكل ثقلًا مضاداً للهند التي تشترك في الحدود مع الصين.

وواصل الجانب الصيني محاولة إصطاد الثغرات. فقد أصدرنا علي ضرورة وضع إشارات محددة لسوريا وباكستان وإيران، واعتصموا علي كلمتي «سوف نتنزم» الصين بالخطوط العامة لنظام مراقبة تكنولوجيا الصواريخ وطالبوا بتغييرها إلي «نعتزم أن نتنزم». كان تشيان يالحاحه صعباً علي إدراج تعهد أقل حزمياً يشي ضمناً بأن مركزاً ما في دولتر الدفاع ربما يراوغ للتملص من هذا الالتزام. (وفي عام ١٩٩٣ فرضت إدارة كلينتون حظراً علي الصين لبيعها صواريخ إلي باكستان في انتهاك لنظام مراقبة تكنولوجيا الصواريخ).

وانتهي الأمر بعد خمس ساعات من بدله. فبعد ثماني عشرة ساعة من المفاوضات الشاقة علي مدى ثلاثة أيام تم إبراز نتائج تكفي لإنقاذ الزيارة من أن توصف بالفشل. وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده أبرزت موافقة الصين علي استمرار ديك شيفر مساعد وزير الخارجية لمقابلة الإنسان ليواصل حوارهم مع نظيره الأجنبي. كان نصراً محدوفاً، لكنه نصر مهم فهذه هي المرة الأولى التي يوافق فيها الصينيون علي بحث قضايا يعتبرونها من صميم شؤونهم الداخلية باستمرار.

وكانت نتائج الزيارة كافية للإبقاء علي العلاقات الثنائية علي قيد الحياة وإجهاض محاولات الكونجرس لاحقاً لحرمان الصين من وضع للدولة الأولى بالرعاية. وبكل معني الكلمة كانت سياستنا ناجحة في تأكيد الواقع: بأنه مهما كانت القوة بين نظامينا فإن الصين ليست كوبا. فتحقيق المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة يقتضي الارتباط لا العزلة. ولحسن الحظ كان هذا هو الدرس الذي استوعبه حلفاؤنا أخيراً. لكن بعد الدمار الخطير الذي لحقه سياسة التذبذب بمصداقية الولايات المتحدة.

كوريا الشمالية: دبلوماسية الارتباط والمخاطبة

ربما كانت جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية الأهدقوة في النظام الأول - أكثر النظم الشيوعية الباقية شؤماً في العالم. وجعلها تصميمها علي تنفيذ برنامج سري لصناعة الأسلحة النووية قوة أكثر خطورة باعتبارها قوة عسكرية تنفيذية مرعبة في آسيا. ومن المعارف العريضة أنه مع تبدد خطر نشوب صراع شامل بإنهاء الحرب الباردة فقد تضخم شبح انتشار الأسلحة النووية لاحقاً في واحدة من أكثر بؤر عدم الاستقرار في العالم - شبه الجزيرة الكورية.

وبرغم توقيعها علي معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية كلف الكوريون الشماليون سراً من تطوير أسلحتهم النووية، وبات لدي المفسّثون الدوليّين وثائق دليّة تثبت ازدواجيتهم في هذا الصدد. وفي الوقت الذي كان فيه التهديد النووي الكوري الشمالي بعيداً عن الحل، فلم تكن بيونج يانج تنتج تتمتع برفاهية مواصلة تحقيق طموحاتها النووية بدون تحد. والفصل في ذلك إلي حد كبير للدبلوماسية الخفية المكلفة التي مارسها إدارة بوش لإجبار الكوريين الشماليين بعد سنوات من المراوغة علي لوفاء بالالتزامات الدولية بالتوقيع علي اتفاق للأمان النووي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

وعندما انضمت كوريا لشمالية إلي معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية في كانون الأول ديسمبر ١٩٨٥ فقد أصبحت ملزمة بتوقيع هذا الاتفاق، والصماح بتفتيش منشآتها النووية في غضون ثمانية عشر شهراً. وبعد ثلاث سنوات مع تولى إدارة بوش كان لا يزال يتعين عليهم التوقيع علي الاتفاق. وبالتالي وفي أوائل عام ١٩٨٩ تبديلت استراتيجية المسارين للتعامل مع المشكلة. وأمر الرئيس بتكليف أنشطتنا الاستخباراتية لتحديد ما يجري علي وجه الدقة في بيونجبيون. وفي الوقت نفسه استهدفت دبلوماسيتنا ممارسة ضغط دولي علي كوريا الشمالية لإجبارها علي لوفاء بموافتها علي التوقيع علي اتفاق للأمان النووي تسمح بإجراء التفتيش.

ولم تكن الولايات المتحدة تكتفح بأدني نفوذ علي نظام كيم إيل سونغ، وبالتالي فقد التمسنا النعم من حليف كوريا الشمالية العظميين الاتحاد السوفيتي والصين المضط علي تلك

الدولة التي تدور في فلكيهما. وأثرت تلك القضية في ثالث اجتماع لي مع إدوارد شيفرنادزه في باريس في ٢٩ تموز يوليو ١٩٨٩. وأبلغت شيفرنادزه أن حكومة الولايات المتحدة تعتقد بأن كوريا الشمالية «ريما» كانت تبني بنية أساسية لبرنامج تسليح نووي قد يدخل حيز التنفيذ في التسعينيات. وطلبت من الاتحاد السوفيتي القيام «بجهد فعال» للضغط على الكوريين لوقف إعادة معالجة البلوتونيوم، والتوقيع على اتفاق الأمان النووي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية. ورد شيفرنادزه: «إننا نعمل في هذه القضية. إنهم ينفون تطوير أسلحة نووية لكنه وافق على إجراء مشاورات جديدة رفيعة المستوى للتسوية القضية.



بعد شهرين وأثناء اجتماعنا الوزاري في ويومينج كان شيفرنادزه أقل إيجابية. وصنما ألححت عليه مرة أخرى قال: «لقد سمعنا شكوككم من قبل. إننا نرفض وقف إرسال أسلحة (تقليدية) إلى كوريا الشمالية مع وجود مثل هذه العشود الضخمة للقوات الأمريكية في الجنوب» ومع هذا فقد اتفقتنا على أن الاستقرار مسألة تثير قلقاً بالغاً. كما اتفقتنا أيضاً على مواصلة الضغط على الشمال بشأن اتفاق الأمان النووي.

وعلى مدار عام ١٩٩٠ أثرت الموضوع مع شيفرنادزه في كل اجتماع. كما ألححت على الصين أيضاً. وأثناء اجتماعي في واشنطن مع وزير الخارجية الصيني تشيان تشينشين لبحث أزمة الخليج في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر أبلغني تشيان بأن حكومته أثارت القضية مراراً مع بيونج يانج التي ترفض باستمرار وجود أي نوايا شريرة*.

ورويداً وبدأت الجهود المتراكمة لديبلوماسيتنا لعزل كوريا الشمالية تؤتي ثمارها مع السوفيت. ففي حزيران يونيو ١٩٩٠ وفي لفحة انتقاد لاذع لحليفة طويل الأمد -كوريا

* دأب الصينيون باستمرار على انتقاد من نوايا الكوريين الشماليين أكثر من سوفيتهم، وخلال اجتماعي في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩١ مع رئيس الوزراء لي بونغ فو رفض قلبي. وقال: «ليني مهلتس دورى. فهم لا يمتلكون القدرة على القيام بذلك» ومع هذا وفي آخر اجتماعي أثناء تلك الزيارة تعهد تشيان بأن حكومته ستواصل الضغط على كوريا الشمالية للاعتدال والتوقيع على اتفاق الأمان النووي.

الشمالية- اجتمع جورباتشوف مع روه تاى وورئيس كوريا الجنوبية فى سان فرانسيسكو. وبعد ثلاثة أشهر أقام السوفيت علاقات دبلوماسية مع الجنوب. وتعرضت بيونج يانج لضغوط مكثفة، وعندما امتنع الصينيون فيما بعد عن استئجار القيتو ضد دخول الكوريين إلى الأمم المتحدة بات من الواضح أن ارداء كوريا الشمالية لمعايير منع الانتشار النووي يقردها إلى مسار العزلة الدولية.

ومع عام ١٩٩١ كانت الدبلوماسية الأمريكية تتمتع بميزة سلاح سيكولوجى قوى جديد. وهو نصرنا الكاسح فى حرب الخليج. ونفهم الاستعراض للرهيب الذى قدمته لقوة العسكرية الأمريكية خلال عملية عاصفة الصحراء إلى التوقف. فقد رأوا بطريقة جلية لابس فيها ما فعلته التكنولوجيا الأمريكية، وماذا يمكن أن تفعله بهم لو استدعى الأمر. فكوريا الشمالية نظام تأسس على القوة واستدام بها. فهم لا يفهمون غير ذلك. وعمل هذا الواقع لمصلحتنا هذه المرة. هلوا استمروا فى التصرف كنظام خارج على القانون قصوف يخشون فى لحظة من التحولات من احتمال للدخول فى مواجهة حتمية مع الولايات المتحدة. وفجأة تمعنا بمصادقية مهمة مع بلد لا نقيم معه علاقات دبلوماسية.

وفى الوقت ذاته أصطت خبرتنا فى الخليج رخصاً جديداً لهجومنا الدبلوماسى. فبعد حرب الخليج بات من الواضح أن برامج للعراق النووية والكيمائية والبيولوجية أكثر تقدماً عما كانت المخابرات الغربية تتصوره فى السابق. ونتيجة لهذا كثفنا المراقبة الأمريكية لمجمع يونجبيون النووى لمحاولة وتحديد ما يجرى على وجه الدقة. وبينما لم يصل الأمر إلى حد دراسة توجيه صرية عسكرية إلى المنشآت النووية للكورية الشمالية فقد قامت وزارة الدفاع الأمريكية مع ذلك بمراجعة خطط الطوارئ للقائمة لشن مثل هذا الهجوم باستخدام صواريخ كروز التى أثبتت أداءً رائعاً فى الخليج.



وكانت استراتيجية الدبلوماسية الأمريكية تجاه كوريا الشمالية خلال تلك الفترة تمثل انعكاساً - بحكم تصميمها - لما فعلناه أثناء عملية درع الصحراء. وكما حدث فى الخليج بدأنا

في حشد تحالف دولي للضغط من أجل التوصل إلى تنمية سلمية ملوحين في الوقت نفسه بشبح فرض عقوبات من جانب الأمم المتحدة إذا لم تجد الدبلوماسية نقعاً، وعندما تفضل كل للجهود فسوف يسمح لنا بأن تحدث قوتنا التي ظهرت في الخليج مع بيونج يانج.

وفي الوقت ذاته كانت سياستنا تقدم للترهيب مع شيء من الترغيب المهم. ففي أيلول/سبتمبر ١٩٩١ طرح الرئيس بوش اقتراحه بفرض حظر علي كافة الأسلحة النووية التكتيكية في مختلف أنحاء العالم، واتساقاً مع هذا القرار أعطا في ٢٣ تشرين الأول أكتوبر أنه سيتم إزالة كافة الأسلحة النووية الأمريكية من كوريا الجنوبية بحلول شهر نيسان/أبريل ١٩٩٢. وبعد ذلك سحب أول دفعة من تلك الأسلحة، وفجأة تبخر الأساس الراسخ لبيونج يانج لتوفير رادع نووي ضد أي هجوم من الجنوب.

واضطر هذا التطور كوريا الشمالية إلى الترشع في إجراء مباحثات مع سول. وهو ما بدا في حينه أنه خطوة أولى باتجاه التلطيع. وفي كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١ وقعت الكوريتان اتفاقيات تصهدان فيها بالتعايش السلمي، وتؤكدان ضرورة إخلاء شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية. وفي ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١ وافقت كوريا الشمالية علي التوقيع علي اتفاق الأمان النووي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، والسماح لمفتشيها بدخول مجمع يونجبيون وهكذا تمكنت الدبلوماسية الأمريكية مباشرة من إزالة ست سنوات من العناد الكوري الشمالي. وفي كانون الثاني/يناير ١٩٩٢ اجتمع مسؤولون كوريون شماليون مع مسؤولين أمريكيين كبار للمرة الأولى منذ أربعين عاماً في الأمم المتحدة. رأس الوفد الأمريكي أرنولد كانتر وكيل الوزارة الجديد للشؤون السياسية، وأوضح كانتر أنه ليس أمام بيونج يانج سوى خيار واحد: هو الامتثال للاتفاقيات الدولية التي وقعتها لها، وإلا فسوف نواجه مزيداً من العزلة. إضافة إلي السعانة الاقتصادية.

وأصبحت الأحداث اللاحقة عن عنصر آخر في عملية اتخاذ القرار في بيونج يانج. إنهم يعتقدون بوضوح أن توسعهم الترمويه علي حجم برنامجهم ويخدعون المجتمع الدولي بدفعه للاعتقاد ببراعة نواياهم. وأثبت هذا أنه خطأ كبير في الحسابات.

وكجزء من نظام الوكالة الدولية للطاقة الذرية فإن كوريا الشمالية ملزمة بتقديم سجل مكتوب عن برنامجها النووي. فهذا التقرير يزود الخبراء الغربيين بمعلومات جديدة لمقارنتها

بتحليلات الاستخبارات السابقة. وسرعان ما كشف هذا المسح أن كوريا الشمالية تخفي للحجم الحقيقي لبرنامجها النووي. وتوصل مفتشو الوكالة الدولية للطاقة الذرية إلى نفس النتيجة على الفور. فقد أوضحت فحوصات أجريت على المواد التي قدمت لهم أن الكوريين الشماليين عالجوا كمية أكبر من البلوتونيوم تفوق ما اعترفوا به.

وفي غضون نفس تلك الفترة اكتشفت الأقمار الصناعية وجود منشأتين مشبهتين فيهما لم تدرج علي القوائم المدرجة بالوثائق التي قُدمت إلى المفتشين. كان أحد الموقعين مبنى دخله الكوريون الشماليون بسرعة بالغة تحت املنان الأتربة وزرعت به أشجار حديثة العهد واكتشفت الاستخبارات الأمريكية بسهولة وجود هذا «الجميم».

وكان أحد آخر أعمال إدارة بوش في كانون يناير ١٩٩٣ هي تقديم صور الأقمار الصناعية الخاصة بهذه المنشأة إلى الوكالة الدولية للطاقة الذرية. لأن هناك أسباباً قوية تدعو إلى الاعتقاد بأنها استخدمت لإخفاء النفايات النووية. وفي ذلك الشهر أيضاً أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن عينات البلوتونيوم تشير إلى تحويل البلوتونيوم الذي يستخدم في صنع الأسلحة النووية سراً عندما أغلقت كوريا الشمالية مفاعلها النووي عام ١٩٨٩ وبعد أربعة أعوام ونتيجة مباشرة للجهود الأمريكية تكتشف ازواجية كوريا الشمالية*.

* ظل المجتمع الدولي يتفاوض مع كوريا الشمالية للسماح بإجراء تفويض لمحققين يدرسون حولها نزاع. وبينما ولى صرح لبعثات كوريا الشمالية بالانضمام من مساعدة انتشار الأسلحة النووية لهرمت إذرة كلنتون لثقل علم ١٩٩٤ مع كوريا الشمالية. لم تستمر سياسة الترهيب والفرهاب، وأصبحت سياسة ترهيب فقط أسفرت عن تقديم وعود للتخلف مساعدة اقتصاد كوريا الشمالية المحاصر ومخاضون جددون وعلاقات دبلوماسية. فضلاً عن ذلك ملحت بروج وبلغ مهلة خمسة أعوام أخرى لتفكيك ما تمهدت به عام ١٩٩١ - إلى السماح بتفصيل كامل لملفاتها النووية. كان هذا الاتفاق نقلاً سياسياً ملحقاً، وسيؤكد في نهاية الأمر في اعتقادي أنه خطأ سيهدد الاستقرار في شبه الجزيرة النووية لكل لحالاً.

وكانت أمل أن تكون حلتي خطأ في اعتقادي وأن يكون لدي المعتقدين اللازم بالقتراح نيج جدول. وبدلاً من الرضوخ لتهديدات بروج وبلغ المتطرفة والمرب أعقد أنه كان حلتي الولايات المتحدة التوجه إلى مجلس الأمن لاستصدار قرارات بفرض عقوبات اقتصادية على كوريا الشمالية لانتهاكها التزاماتها الدولية مؤكدة ضاماً كما لمعاً ضد العراق (وأي اعتقادي ويستند إلى مساعدتي معهم لم يكن الصيانيون يهتفونهموا القهر ضد عقوبات تقربها الأمم المتحدة ضد كوريا الشمالية لأنهم يترصون على وجود قوة نووية في شبه الجزيرة الكورية). وكذلك تعيد فوائدا في كوريا الجنوبية إلى حد تضمنه الضرورة. وإشهر كوريا الشمالية بوضوح أنه حلتي متدي لكثار من أروحين ضاماً حافظ الردع النووي على السلام في أوروبا أمام التلويح السوفيتي -

أنجولا : انتهاء الحرب الباردة في أفريقيا

مع بداية إدارة بوش بدأت الحرب السوفيتية الأمريكية غير المباشرة في أنجولا تظهر مؤشرات الوهن والإنهاك. فمُنذ عام ١٩٧٥ شن الاتحاد الوطني لاستقلال أنجولا التام (يونيتا) Unita بزعامة يوناك سافيمبي بتأييد من إدارة ريجان وكثير من أعضاء الكونجرس اليمينيين حرب عصابات ضد حكومة أنجولا الماركسية برئاسة خوسيه إدواردو دوس سانتوس وحركته الشعبية لتحرير أنجولا MPLA وحظيت حكومة دوس سانتوس بتأييد سوفييتي شامل تضمن أكثر من ألف خبير عسكري ونحو خمسين ألف جندي كوبي متمركزين في المستعمرة البرتغالية السابقة. وحظي سافيمبي بمعونة سرية لمركزية تقدر بملايين الدولارات وبمساعدة جنوب أفريقيا.

كان الصراع في أنجولا صراعاً قد منحّمه خبراء الاستراتيجية علي مدار نحو عقدين من الزمان ليصبح عماداً لتنافس الحرب الباردة. ومع ذلك فقد كنت أعتبر أنجولا شأن أمريكياً الرسملي قضية إقليمية يتعين تسويتها في إطار عملية صياغة علاقة تعاون استراتيجي مع السوفييت. وبينما كانت تلك المواجهة مفهومة في زمن سابق فلم يكن لدي القوي العظمي عام ١٩٨٩ أي أسهاب مقدّمة لتسدرج في هذا الصراع. فقد كان هذا وقت التحرك لمعالجة القضايا الأكثر إلحاحاً، وكانت الحرب الأهلية في أنجولا مهياةً للحل.

ففي كانون الأول ديسمبر ١٩٨٨ وقّعت في نيويورك اتفاقية سلام بواسطة أمريكية تضمن استقلال ناميبيا. وبمقتضى بنود الاتفاقية وافقت كوبا علي سحب قواتها من أنجولا. بينما تعهدت جنوب أفريقيا بسحب قواتها من ناميبيا. ونتيجة لذلك تملكى اعتقاد بأنه ربما كان هناك طريق لإحلال سلام في أنجولا يقبله سافيمبي، وكنت أبحث إدوارد شيفرنادزه في

لصالح في الأسلحة التقليدية، وألقا مستعمرون ضلماً لعل الشيء ذاته في شبه الجزيرة الكورية لوفاء بالترامباتا الأمنية تجاه كوريا الجنوبية واليابان

وفي سره سجلهم كل ذلك سبب جوهري يدفع للعمل عما إذا كان الكوريون الشماليون سيستخدمون قشق القاص بهم في الاتفاق الحالي، وأتفق الأوسا فيه مر أن رسالة خطيرة وجهت إلي الصالحين لامتلاك أسلحة نووية في حواسم مثل طهران وطرابلس وبيروت بأن الجريمة توثق لها.

كل اجتماع عقدناه عامي ١٩٨٩، ١٩٩٠ علي الانضمام لنا في تأييد مفاوضات سلام يمكن أن تؤدي إلي إقرار تسوية مقبولة في أنجولا. ولم يتعهد بأي التزام رسمي. لكن صراحته المبهمة عن تردى أوضاع الاقتصاد السوفيتي أفقتني بأن ميخائيل جوبرياشوف قد يبحث عن مخرج لهذه الورطة الإقليمية. وعزز اعتقادي تقارير الاستخبارات بأن المساعدة السوفيتية لأنجولا تقلصت، إلي النصف تقريباً عام ١٩٨٩ رغم أنها لا تزال مساعدة مؤثرة.

واسره الحظ فإن السوفيت وعميلهم الحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA باتوا يعتقدون أن انسحاب قوات جنوب أفريقيا بموجب الاتفاق يهيئ لهم فرصة أخيرة لتحقيق نصر عسكري. وفي كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩ شلت الحركة الشعبية لتحرير أنجولا هجوماً شاملاً لمسح حركة يونيتا مرة واحدة وللايد. وساعدت معونة عسكرية أمريكية عاجلة شملت صواريخ ستينجر الحاررية المحمولة علي الكتف - قوات سافيمبي في صد هجوم الحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA. وفيما بعد اتضح أنه ليس بوسع أي جانب تحقيق نصر عسكري، وخلال اجتماعاتي في أترار مارس مع دوس سانتوس في ناميبيا ومع سافيمبي في رالير حدثتهما علي الاعتراف باستفحال الأزمة والدخول في مفاوضات سلام.



وأثناء اجتماعاتي للوزارية في كانون الأول ديسمبر ١٩٩٠ مع شيفرناندر في هيوستون كانت أنجولا موصوعاً رئيسياً في المناقشات. وأصبح التقدم المتضائل الذي أشار إليه هانك كوهين مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشؤون الأفريقية أن الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ويونيتا ليستا علي استعداد لتقديم أي تنازلات من أجل السلام. وعندما سأله عما إذا كان لديه أية أفكار حول كيفية النضي قدماً فاجأنتني إجابة شيفرناندر بقوله: «إن هؤلاء الرجال لا يمكنهم أن يأخذوا الأمر علي عاتقهم في المفاوضات. إننا في حاجة لإعطائهم دفعة، واقترح أن يلتقي كوهين ونظيره السوفيتي ليضع ساعات لإعداد الخطوط العريضة لتصوير إطار عام لاتفاقية سلام. وأضاف: «حينئذ ستكون في حلجة إلي جمع كل الأطراف وإقناعهم بها».

وهي البديلية كنت أشك في قدرتنا علي التوسط في إتفاق تكون فيه الأطراف الرئيسية المتحاربة أطرافاً ثانوية في المفاوضات. ومع هذا وأثناء تمددنا أفضى شيفرنادره بأن السوفيت مستعدون لممارسة نفوذهم علي الحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA لإجبارهم علي الجلوس إلي مائدة المفاوضات، وكنت أعرف أن بومبا أن نفل الشيء ذاته مع حركة يونيتا. ونصت الوثيقة التي أعدها كوهين والسوفيت بين بلودها علي وقف إطلاق النار، وضمانات بحماية الحقوق السياسية ليونيتا، وجدول زمني لإجراء انتخابات حرة. ومع ذلك كان أهم ما في الوثيقة هو ما أصبح يعرف بصيغة الأسفار الثلاثة. ويقضى اتفاق السلام بضرورة توقف الولايات المتحدة عن تقديم المعونة العسكرية لسافيمبي، وأن يوقف السوفيت معونتهم للحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA. فضلاً عن ذلك سوف نعلن علانية حظرنا علي شحنات الأسلحة لكلا الجانبين من أي طرف خارجي، وذلك في إشارة مستترة إلي جنوب أفريقيا. فبدون المساعدة العسكرية فمن المؤكد أن أيًا من الطرفين لن يستطيع تحقيق نصر عسكري، وسرعان ما سيترف كلينا بهذا الواقع.

وبعد الاتفاق علي بنود الإطار للعام للاتفاق في ١١ كانون الأول ديسمبر رتبنا علي عجل اجتماعاً في واشنطن بعد يومين بين مندوبين أمريكيين وسوفيت وبرتغاليين والحركة الشعبية لتحرير أنجولا ويونيتا. ولإظهار تصميمنا علي ممارسة قيادتنا باصطلاحات قاطعة الدلالة اجتمع شيفرنادره مع سافيمبي، واجتمعت مع وزير خارجية أنجولا بيدرو كاسترو فان دونيم. كانت رسالتنا متطابقتين وفي غاية الوضوح. وهي أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي علي استعداد تام لوقف شحنات الأسلحة لسافيمبيما مدد أمد بعيد.

وأتى تدخل القوي العظمي بأثره المتوقع. ففي الأول من آيار مايو ١٩٩١ وفي أعقاب عدة أسابيع من المفاوضات في البرتغال توصفت يونيتا والحركة الشعبية لتحرير أنجولا إلي اتفاق حول معاهدة السلام، وبدأ وقف فعلي لإطلاق النار بعد أسبوعين تبعه انسحاب لآخر جندى كوبي يوم ٢٥ آيار مايو. وبعد ستة أيام سرني أن أشهد مراسم توقيع سافيمبي ودوس سانتوس علي اتفاقية السلام. وقييل مراسم التوقيع عقدت اجتماعاً خاصاً مع سافيمبي لضمانته بالالتزام الولايات المتحدة للثابت باستمرار المساعدات غير العسكرية ليونيتا، وأنها ستعترف بالحكومة الأنجولية التي تسفر عنها الانتخابات المقرر إجراؤها عام ١٩٩٢.

وأجريت الانتخابات في موعدها المقرر، وأشارت معظم الروايات إلى أنها كانت نزيهة. ومع ذلك ادعى سافيمبي بعد أربعة أيام أنها كانت مزورة. وفي ١١ تشرين الأول أكتوبر استؤنف القتال في أنجولا مما سبب الكثير من الإحباط. وتفاوضت الأمم المتحدة علي وقف إطلاق نار في تشرين الثاني نوفمبر لم يصمد إلا لأربعة أسابيع. وفي كانون الأول ديسمبر ١٩٩٢ وافقت بوبينا علي احتواء وقف إطلاق النار، وخيم سلام غير مستقر علي هذا البلد الذي مزقه للحرب. ولم يمر طويلاً قلم يلكه الألم والمعاناة لسوء الحظ.

ومع هذا فلم يعد الصراع الأنجولي حرباً غير مباشرة. علي الأقل فقد انتهت الحرب الباردة في أفريقيا. وعقب التوقيع علي اتفاق آخر لوقف إطلاق النار وقعت اتفاقية جديدة للسلام في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٤. وبمساعدة عدة آلاف من خبراء الأمم المتحدة سعد وقف إطلاق النار، وتم الاتفاق علي تشكيل حكومة مصالحة وطنية.

هايتي: خلد ما تمنحه لك الديمقراطية

طالما تحدث جورج بوش عن آمالنا العريضة في إقامة أول ديمقراطية كاملة في الأمريكتين. لكن هايتي المأساوية الصغيرة كانت استثناء صارخاً. فعندما نرجه الهايتيون إلي صناديق الاقتراع عام ١٩٨٧ لانتخاب رئيس للبلاد لقي أكثر من أربعين شخصاً مصرعهم في صراع أعمال عنف سياسي. وعندما أحجم الليفتانت جنرال بروسير ألفريل ديكتاتور هايتي عن التحرك قديماً في إجراء انتخابات جديدة عام ١٩٨٩ انتهزها فرصة محاولة انقلابية ضده بين صفوف الجيش للضغط عليه للرحيل. وقدما دعماً قوياً. ووفرنا الموارد لإجراء العملية الانتخابية، وحللتنا منظمة الدول الأمريكية والأمم المتحدة والرابطة الوطنية للديمقراطية علي إيفاد أكبر عدد ممكن من المراقبين الدوليين. وكانت انتخابات عام ١٩٩٠ أكثر انتخابات يشهدها تاريخ هايتي حرية وهدوء. وكان ألفاز جان برتراند أريستيد الذي يستمد شهرته من أعدائه لأمريكا. ومع هذا كانت الولايات المتحدة أول حكومة في العالم تعترف به وقدمت إدراتنا مزيداً من المعلومات لهايتي عقب انتخابه أكثر مما حصلت عليه كافة حكومات العالم مجتمعة.

وعندما أطاح انقلاب عسكري بأريستيد في ٣٠ أيلول سبتمبر عام ١٩٩١ قرر للرئيس علي الفور وقف المساعدة الأمريكية. وبعد يومين أُلقيت كلمة أمام اجتماع طارئ لمنظمة الدول الأمريكية في واشنطن. وقلت لزملائي وزراء خارجية المنظمة: «إننا لا نعترف وإن نعترف بهذا النظام الخارج علي القانون، وإلي أن تعود حكومة أريستيد فسوف يعامل للمجلس العسكري كالمذبذب في الأمريكتين. وسيحش بدون معونة وبدون أسلحة وبدون مستقبل. وبالاح من الولايات المتحدة نهنت منظمة الدول الأمريكية بالإجماع قراراً بفرض أول حظر تجاري في هذا الجزء من العالم ضد الانقلابيين.

وكان البعض في إدارتنا يعتقد أنه سيكون من الأوقع تأييد عودة الديمقراطية إلي هايتي علي أن ننأى بسياستنا عن أريستيد نفسه. هذا للزعم الذي تخطط سمعته وسجله. كانت تذبذبنا جمعاً مشاعر قلق حول سلوكه الغريب. وتركزت تجربتنا في التعامل معه خلال الأشهر الثماني التي أمضاها في السلطة وبعد الانقلاب لدينا مشاعر بأنه شخصية ضيقة.

وفي الوقت ذاته لم يدر أي جدل جوهري حول استبعاد أريستيد من السياسة الأمريكية كان موقفي في غاية البساطة: إذا كنت تريد الديمقراطية فطيك بتأييد ما تجلبه لك طالما أن العملية حرة وفضيلة وأن الفائزين لم يعطهم في المقام الأول استغلال العملية للوثوب إلي السلطة ثم ما يليها أن يدمروا الديمقراطية بإقامة حكم ديكتاتوري. وبغوزه الساق بنسبة ٦٧ في المائة فقد جسد أريستيد المفهوم الديمقراطي في الخير وفي الشر، حتى وإن جاز القول أنه هو نفسه أبعد ما يكون عن التجسيد المثالي للمفهوم الديمقراطي.



فصلاً عن هذا كنت أعتقد أن القضية أكبر من ذلك. إنها الأمريكتين التي نحش فيهما وليست هايتي فحسب بكل بساطة. لقد كانت مسيرة الديمقراطية تتحرك في الأمريكتين رغم أنها عملية هشة قابلة للحدول عنها، فلو سمح لانقلاب هايتي بالنجاح لكانت سلسلة من ردود الأفعال قد اجتاحت المنطقة بكل سهولة. وكان من المتوقع أن تصبح هايتي درساً مستخلصاً

لمباستنا - المثال الاستثنائي للوحيد بأن حكومة الولايات المتحدة غير مستعدة للسماح بدجاح (انقلابات) أخرى. وكان من الضروري صدور رد قاطع بالغ الوضوح. ففي حزيران/يونيو ١٩٩١ أى قبل ثلاثة أشهر فقط من الانقلاب صوت كافة أعضاء منظمة الدول الأمريكية علي اقتراح قدمته إدارتنا يقضى بالتزامهم بالرد الجماعى من خلال المنظمة علي أى تهديد تتعرض له الديمقراطية في أى بلد عضو. فقد شكل «إعلان سانتياجو» - كما بات معروفاً - تغييراً سياسياً جذرياً في الأمريكيتين. ورفضت دول أمريكا اللاتينية والكاريبي التي استوعبت إخفاق منظمة الدول الأمريكية مبدأ عدم التدخل وألزمت ديمقراطيتنا في الأمريكيتين بالدفاع الجماعى عن الحرية.

كانت هايتي أول حالة اختبار لهذا الالتزام. وكان الطامحون لتدبير انقلابات يتابعون ردنا عن كثب. فلو أخفقت الولايات المتحدة ومنظمة الدول الأمريكية في فرض عقوبات صارمة فسوف ينتهى هذا الالتزام إلي مجرد تهديد ألهوف لقيمة له، وسوف يتحرك آخرون للإطاحة بالحكومة الديمقراطية. وبدلاً من ذلك وبموجب إعلان سانتياجو منضمت منظمة الدول الأمريكية علي رئيس بيرو البرنو فوجيمورى للدعوة لإجراء انتخابات جديدة في بيرو عقب قراره بحل برلمان بيرو في نيسان/أبريل ١٩٩١ كما دعت أيضاً في واقعة مماثلة مع رئيس جواتيمالا جورج إيلياس سيراتو.

وكانت إدارة بوش تعتقد أن هناك مصلحة قومية في إعادة الديمقراطية إلي هايتي لكن ليس هناك أى سبب جوهري يستدعى استخدام القوة العسكرية (عندما لا يكون أمن بلدنا ومواطنينا عرضة للخطر). وهكذا فلم ندرس بجدية إمكانية استخدام القوة العسكرية لإعادة أريستيد إلي السلطة. فمن وجهة نظرنا لم تكن المصلحة القومية الأمريكية تقتضى بوصوح المفامرة بأرواح الجنود الأمريكيتين وإتفاق مخابرات الدولارات في شزو عسكري واحتلال شامل علمنا التاريخ أنه لا يمكن حدوثه إلا باحتلال مطول وهو ما يدركه حلفاؤنا.

السلفادور: صنع السلام

بالرغم من أن تركيزنا المبدئي علي سواستنا حيال أمريكا الوسطي يتمثل في تأييد إجراء انتخابات ديمقراطية في نيكاراغوا، فقد كنا نعتقد أن الفرصة تلوح أمامنا لإنهاء

الحرب. وفي الواقع كنا نعتقد أن إقامة الديمقراطية في نيكاراغوا سيعزز احتمالات إقرار السلام في السلفادور. ومنذ البداية قمنا حرص توجيه إشارة علي تأييدنا للتوصل إلي تسوية من خلال التفاوض، ولاسيما تسوية تكون مرتبطة بإجراء الانتخابات وإقامة الديمقراطية. وعندما طرح المقاتلون الماركسيون المناوئون للحكومة جبهة فارابوندو مارتى اقتراحاً في شباط فبراير ١٩٨٩ بتأجيل الانتخابات الرئاسية لمدة ستة أشهر علقت علانية بأن الاقتراح «جدير بدراسة جادة» ورغم عدم إقرار هذا الاقتراح فقد فاجأ الرئيس المنتخب حديثاً ألفريد كريستيانى المراقبين بقوله في كلمة تنصيبه بأن أولويته القصوى هي إنهاء الحرب بالتوصل إلي تسوية عن طريق التفاوض.

وكان الهجوم الشامل الذي شنته فارابوندو مارتى المناوئة للحكومة علي سان سلفادور في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٩ رغم الهزيمة العسكرية للمقاتلين من عدة زوايا محفزاً علي إجراء المفاوضات. فمن ناحية فقد قضى علي أية أوهام بين المقاتلين بأن السكان المدنيين علي استعداد لمقاومة دعوتهم. لكنه بدد أيضاً آمال الجيش بأن المقاتلين قوة مستهلكة، وأن الحرب سرعان ما ستنتهي عن طريق الاستنزاف. وأخيراً فإن القتل الوحشي لمقاومة يسوعيين علي يد عناصر في للقوات المسلحة في الأيام الأخيرة للهجوم دفع الكونجرس الأمريكي - كما لم يحدث من قبل - لتهديد حكومة السلفادور بقطع المعونة العسكرية.

وكان الإبحار عبر هذه التيارات أمراً غاية في الصعوبة. فمن ناحية كان علينا توجيه إشارة إلي الجيش بأن عليهم تأييد للتوصل إلي تسوية سلمية من خلال التفاوض وتطهير صفوفه من منتهكي حقوق الإنسان أو المقاومة بضمارة تأييد الولايات المتحدة، ومن ناحية أخرى كان علينا إقناع الفصائل المتشددة بين المقاتلين بأنه إذا ما استمرت الحرب فإن تدخل الولايات المتحدة عن السلفادور. ولتوجيه رسائل مختلفة عملنا بتنسيق تام مع المكسيك وغزويلا وأسيانيا وكولومبيا، وهي للدول التي رشحها بطرس بطرس غالي السكرتير العام للأمم المتحدة لتكون «مصدقاء» في عملية السلام. وبدلنا أيضاً حواراً مع فصائل فارابوندو مارتى التي اعتقدنا بأنها أكثر التزاماً بالمفاوضات. وكما حدث بشأن نيكاراغوا انضم الاتحاد السوفييتي إلي الولايات المتحدة في دعم المفاوضات بقوة.

وعملنا سوياً من وراء الكواليس مع كافة الأطراف للدخول لاتفاقيات ملموسة بين الحكومة والجبهة، وشكلت الثقة وحسن النوايا التي هيأها الإجماع للعام غير الحزبي حول أمريكا الوسطى والانتخابات الناجحة في نيكاراجوا أمراً هاماً مختلفاً. ففي اللحظات الحاسمة في عملية السلام حدثنا أبرز للرموز الديمقراطية في الكونغرس علي منحنا المساحة اللازمة التي نحتاجها لاستمرار تحريك عملية التفاوض وردوا بإيجابية.

وحدث الكثير من التطورات المفاجئة والانعطافات في العملية. لكن الرخم من أجل السلام تواصل ببطء ولكن بإطراد. وكان أحد أهم اللحظات المباعدة علي الارتياح لي كوزير للخارجية هو المشاركة في كانون الثاني يناير ١٩٩٢ بمكسيكو سيتي في التوقيع علي اتفاقات سلام بين الرئيس كريستاني وزعماء فرابوتندو مارتي. كان إقرار السلام في السلفادور نصراً تكافئ الأطراف. فقد وافق المقاتلون علي إلقاء أسلحتهم والمشاركة في العملية الديمقراطية، وتم للنص أيضاً علي إجراء إصلاحات بعيدة المدى في الجيش والقضاء والنظام السياسي والإصلاح الزراعي. وأهم ما من مشاعري هو أنني شهدت بداية مصالحة وطنية حقيقية بين السلفادوريين الذين قاتلوا لأكثر من عقد من الزمان في أكثر للحروب الأهلية دموية وسنارة في أمريكا اللاتينية.

الدبلوماسية الاقتصادية: إرساء أساس جديد

عندما كلمني جورج بوش بنولي وزارة الخارجية كنت متيقناً أن الشؤون الاقتصادية الدولية ستكون جانباً مهماً من مهام منصبى.. جانب أشعر أنني مؤهل له تماماً بكل تأكيد. وكوزير للخزانة أمنتت نحو أربعة أعوام أقتلر قضايا متفاوتة على العمل لوضع اتفاق تجارة حرة مع كندا، أو العمل مع أبرز الشركاء التجاريين لضبط فوضى عالم أسمار الصرف.

ولي شرف خاص بعرض اقتراح بضرورة توسيع مجموعة الدول الخمس الصناعية المتقدمة لتصبح مجموعة السبع بضم إيطاليا وكندا، ثم تعزيز روح التعاون الفعال بين مجموعة السبع. وفيما يتعلق بالاقتصاد الدولي فإنني أعرف القضايا والأطراف.

وأفعلتني خبرتي في وزارة الخزانة بأن القوة العسكرية والدبلوماسية العسكرية للولايات المتحدة مرتبطة كلية بالميزان الدقيق الحيوية الاقتصادية - بعبارة أخرى فإن قوة بلادنا تنبع من قوتها الاقتصادية. ولم تحظ أهمية هذا المبدأ تماماً باعتراف صناع السياسة الأمريكيين. وطالما تابعت خلال عملي للعام السابق المرة تلو الأخرى كيف يصحح بالقتال الاقتصادية مقابل كسب في السياسة الخارجية، وفي أول كلمة لي لموظفي الخارجية في نيسان إبريل ١٩٨٩ لغت الاهتمام إلي هذه الممارسة، واقترحت ضرورة التخلي عنها. وبعد فترة وجيزة أخطرت مكاتبنا في الخارج بهذا الصدد. وعقدت العزم علي أن الدبلوماسية الاقتصادية لن تلقى هذا الإغفال بعد الآن*.

تطورت حقبة التسعينيات لتكون حقبة الفرص والمغامرات الاقتصادية، وكان الاعتماد المتبادل يربط اقتصادنا المحلي حتماً بالعالم الخارجي. وكان للتنافس الاقتصادي بين الولايات المتحدة وحلفائها التقليديين في غرب أوروبا واليابان علي أشده. وهو اتجاه نصاعدت قوته مع انقضاء التهديد للسوفييتي المشترك. وأصبحت «نمور» شرق آسيا كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونغ كونغ تنمو بسرعة رهبة. بل إن جمهورية الصين الشعبية تتحول إلي صعلاق اقتصادي من زاويتها الخاصة. وحتى أمريكا اللاتينية التي رزحت تحت عبء ديون مرهقة وسياسات تدمير الذات لعشرات السنين تظهر مؤشرات عن الانعاش الاقتصادي. فلفكر السوق الحرة تحتاج للعالم. فوزراء المالية ومحافظو البنوك المركزية في كل مكان يتخلون عن نظريات كارل ماركس، ويزيلون الخبار عن نظريات آدم سميث.



باحتمسار فإن ثورتى الاستراتيجية خلال تولى لوزارة الخارجية قد واكبتها ثورة اقتصادية. وكانت رهاناتنا شاسعة وعريقة. فكل الرهانات مفتوحة علي ما يبدو لكن أين وكيف سلنص رهاناتنا الجديدة؟

* وأوضحت في ذلك اللقاء أيضاً أنه في الوقت الذي اعتقد أن لوزارة الخارجية دوراً هاماً في السياسة الاقتصادية الدولية فإن الوكالة الرائدة في هذا المجال يجب أن تكون هي وزارة الخزانة فضلاً كما كتبت عندما كنت وزيراً للتعرفة

كانت (أين) أكثر وصوحاً عن (كيف) فأوروبا الغربية وشرق آسيا أكثر حيوية؛ ماقتصادنا واقتصاد المنطقتين ينتج ثلاثة أرباع إنتاج العالم. كما أن أمريكا اللاتينية تشكل أولوية واضحة فهي قريبة من الناحية الجغرافية بحكمتها نحو ٤٥٠ مليون نسمة، وهي تمثل بفصل الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي تترسخ في أنحاء القارة سوق جذب متزايد للسلع والخدمات والاستثمارات الأمريكية.

ولكن كيف؟ وبالتأكيد فإن الجهود للتقاية مع شركائنا التجاريين ستكون جزءاً مهماً من استراتيجيتنا. وبالفعل وخلال تولي وزارة الخارجية تعاوتت الولايات المتحدة لإبرام عشرات الاتفاقيات الثنائية لتحرير التجارة الثنائية والاستثمارات. وكان من العيوى أيضاً أن تستكمل المفاوضات التي بدأت في فترة ولاية ريجان الثانية للتوصل إلى اتفاقية جديدة للتجارة متعددة الأطراف في إطار الجات. فمزيد من التحرر الاقتصادي بكل وضوح سفيد للولايات المتحدة أكبر مصدر في العالم. لكن كان هناك سبب ملح آخر للضغط للتوصل إلى اتفاق في الجات. وهو احتمال انشطار العالم إلى كتلتان تجارية إقليمية. مع تصدر المجموعة الأوروبية المقدمة. والجات وحدها هي الكفيلة بضمان أن التجمعات الإقليمية لن تستبدل غير الأعضاء بما في ذلك الولايات المتحدة.

وكنيت علي اقتناع أيضاً بأن بوسعنا تحقيق مصالحنا الاقتصادية من خلال تبني استراتيجيات إقليمية مبتكرة. وسوف تؤدي الاتفاقيات الإقليمية إلى نتائج باهرة من ناحية فتح الأسواق أمام السلع والخدمات الأمريكية عن المفاوضات الثنائية. فبإمكاننا تحقيق المصالح الأمريكية في منطقة ما عن طريق توليدنا وتعزيز نفوذنا وبوسعنا كذلك المساهمة في وضع الإطار المؤسسي لتعاون اقتصادي مستمر. ونظهر التضامناً ونخفي لكن المؤسسات نهقي حلزمة.

كان جيل للظماء من الزعماء الأمريكيين الذين حددوا مسار السياسة الأمريكية ما بعد الحرب العالمية الثانية في أولخر الأربعينات علي قدر كبير من المعرفة والحكمة فزعيمان مثل فرومان وأشبسون كانا سباقان رغم أننا أحياناً ما ننسى لهما بناء المؤسسات. فقد أسسا حلف شمال الأطلسي والمؤسسات الأمنية الأخرى التي تشكلت من الفوز في الحرب الباردة في نهاية الأمر. وعبروا المؤسسات الاقتصادية مثل الجات نفسها وإلتهك الدولي وصندوق

التفد الدولي مما هوأ ازدهاراً لدول العالم الحر فى العقود التى تلت الحرب العالمية الثانية. وفى وقت تنهياً فيه دلت العرص والمخاطر أعتقد أنه يتعين علينا أن نحدد حذوهم .



وطالما راود رونالد ريجان حلم إقامة سوق أمريكية شمالية مشتركة تضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، وباتفاق للتجارة الحرة الأمريكى الكندى لعام ١٩٨٨ تحول نصف العلم إلى حقيقة. غير أن الوقت لم يكن مهياً تماماً لإبرام اتفاق مماثل مع المكسيك، وبدأت المكسيك تحت رئاسة دى لا مدريد عام ١٩٨٦ التحول عن طريق الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر. وطالما عملت مع الكثير من المفكرين الجدد فى المكسيك حول مشكلة ديون المكسيك فى اللامانيات، لكننا كنا ندرك، أن هناك حاجة إلى تحرير اقتصاد للمكسيك بدرجة أكبر. والأهم أنه فى ضوء للعساسة السياسية للمكسيك تجاه الولايات المتحدة فإننا ندرك أنه يجب أن نصدر مبادرة مهمة للتجارة الحرة عن المكسيكيين. فبوسعنا تمهيد الطريق لكن عليهم أن يتخذوا الخطوة الأولى.

ومنذ الأيام الأولى لإدارة بوش كان تحسين العلاقات مع المكسيك جزءاً من استراتيجية إقليمية أشمل اشتملت علي تحقيق تقدم باتجاه إقرار حل سلمى للصراعات فى أمريكا الوسطى وإحراز تقدم حول قضية ديون أمريكا اللاتينية. بل وإصلاح اقتصاديات أمريكا اللاتينية نفسها.

وسرعان ما تحركت الإدارة الأمريكية علي الجبهة الاقتصادية. وأثناء فترة التحول وأوائل عام ١٩٨٩ عملت لنا وسكوكروفت مع ألان جرينسبان رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالى ووزير الخزانة نك برادى لوضع خطة لخفض عبء الدين علي دول العالم الثالث، ولاسيما فى أمريكا اللاتينية. ولعلقت خطة برادى التى أعلنت فى آذار مارس تفصيلاً عن الاستراتيجية التى اتبعناها فى ظل إدارة ريجان - ما يسمى بخطة بيكر - والتى مدت أجل مريان القروض الحالية، وعرضت تقديم قروض جديدة، وأكدت للخطة الجديدة علي إسقاط

الديون . واشتركت الإثنان في قاسم مشترك جوهري هو أن الإعفاء مرتبط بالإصلاح . وبحلول آب أغسطس تفاوضت المكسيك حول إعفاء مهم للديون بموجب خطة برادى . وكان من المقرر أن تخدم دول لأمريكية لاتبثبة أخري حذر المكسيك .



وبحلول عام ١٩٩٠ كان التحرر الاقتصادي - رغم عدم اتساقه - يتسرع من ريو جراندى حتي نيرا ديل فويجو . وقد شكل هذا قرصة مزدوجة للولايات المتحدة . فبتأيد الإصلاحات الاقتصادية يمكن ترويج أهدافا للسياسية بالاستقرار وللديمقراطية في منطقة تتحش إلىهما . وفي الوقت ذاته يمكننا فتح أسواق جديدة ونامية أمام الصادرات والاستثمارات الأمريكية .

وجاء مشروع مبادرة الأمريكتين الذي أعده وزير الخزانة بمبادرة من الخارجية وأعلنه الرئيس بوش في ٢٧ حزيران يونيو ١٩٩٠ بمثابة استجابة الإدارة للواقع الاقتصادي الجديد في أمريكا اللاتينية . وتضمنت مزيداً من إسقاط الديون ، وتأسيس صندوق استثمار متعدد الأطراف لأمريكا اللاتينية ، وعرض رسمي من الإدارة للتفاوض حول إقامة منطقة تجارية حرة ، واتفاقيات استثمار مع دول أمريكا اللاتينية ، وكانت للنقطة الأخيرة هي الأهم . فالرئيس كان يعتقد عن صواب أن التجارة ، لا الصناعة ، ستخدم قضية ازدهار الأمريكتين .

وكان قد قُطِعَ شرط هائل نجاه إنجاز هذا الهدف قبل أسبوعين عندما أعلن الرئيس والرئيس المكسيكي كارلوس ساليناس دى جورتارى عن عزمهما التفاوض للتوصل إلي اتفاق تجارة حرة ، وهكذا بدلت العملية التي ستؤدي في نهاية المطاف إلي اتفاقية للتجارة الحرة بأمريكا الشمالية (النافتا) .

ومنذ البداية كنا ندرك جميعاً أن النافتا لن تكون رفعة زنجية . وفي الحقيقة كان بعض مستشاري الرئيس أقل تحمساً تجاه المعنى قسماً . وستؤدي المفاوضات في النهاية إلي إعداد نص مؤلف من خمس مجالات يتناول التجارة والاستثمار والبيئة والتنظيم والمعايير وآليات

تسوية النزاعات، وستعقد المفاوضات بإضافة كندا التي سعت رسمياً للاشتراك بعيد صدور إعلان بوش ساليناس.

وتعين علينا أيضاً ترويج الاتفاقية سياسياً داخل الولايات المتحدة. فاتفاقيات التجارة الحرة دائماً ما يكون لها متحابوا في بعض قطاعات الاقتصاد. لكن إجمالاً فإنها تولد دائماً نشاطاً اقتصادياً عظيماً مما يزيد عدد المستفيدين عن عدد الخاسرين. وسوف تكون الاتفاقية نعمة كبيرة للاقتصاد الأمريكي، وستخلق آلافاً من فرص العمل، وتدر ناتجاً إضافياً يبلغ عدة مليارات، وسوف تكون أيضاً عماد علاقة جديدة مع المكسيك، وتعمز علاقات وثيقة حول مجموعة من القضايا التي تتجاوز الحدود مثل المخدرات والبيئة والهجرة. وسوف تساعد علي إنجاز الأهداف الأمريكية في المكسيك بما في ذلك إضفاء الديمقراطية علي النظام السياسي لكن المعارضة ستظل قوية. وسوف تعارضها عناصر مهمة للسائلة المنظمة وحركة البيئة، وكذلك حلفاءهم في الكونجرس الذي يسيطر عليه الديمقراطيون.

وستكون المشكلات السياسية التي تواجه الرئيس ساليناس عظيمة. فاتفاقية التجارة الحرة ستدعى التعويل بخطي الإصلاح الاقتصادي في المكسيك بما يطوى عليه من آلام. فسوف تستميت المصالح الاقتصادية والزراعية القوية في القتال لعدم فتح أسواقها. وأخيراً سينهين علي ساليناس تجاوز مشاعر عنده لأمریکا ترجع جذورها إلي مائة وخمسين عاماً. وسيتهم دائماً بالتفريط أمام اليانكي.

وأكد الترام ساليناس الشخصي بالتفاوض حول الاتفاق بأنه حاسم. فبعد أسابيع فقط من انتخاب جورج بوش رافقته إلي هيوستون للقاء التقليدي بين الرئيس الأمريكي المنتخب ونظيره المكسيكي. وكان الاجتماع هذه المرة مهماً: فساليناس نفسه منتخب لدوره، وفيما بينهما أطلق للرئيسان المنتخبان روح هيوستون. شراكة جديدة تطلق لاغتنام الفرصة المشتركة لا تعود بأنظارها إلي الماضي بمشاكله واضطرابات. ولم تدرَ قضية منطقة التجارة الحرة، وفي الواقع كان ساليناس لا يزال في ذلك الوقت معارضاً للفكرة. لكن روح هيوستون هيأت أساساً شخصياً لحدوث ثورة في العلاقات الثنائية خلال السنوات الأربع التالية.

ومن جانبي أخذت زمام المبادرة في إعادة الحياة ورفع مستوي اللجنة المكسيكية المشتركة التي تضم وزراء كلا الدولتين والتي انعقدت لأول مرة عام ١٩٨٧. ورافقتي نحو نصف أعضاء وزارة بوش في اجتماع للجنة في آب أغسطس ١٩٨٩. ولقائهم الجانب

الأمريكي علاقات عمل قوية مع أبرز الشخصيات المكسيكية، وأثبتت هذه العلاقة جدواها عندما سادفت المشاكل للجانبين وقد انضمت إليهما كندا في مفاوضات النافتا.



ومظما كان الحال في الجات أمسكت وكالات أخرى برمام للتقادة في المفاوضات الفعلية في النافتا. لكنني ألقبت علي اهتمام شخصي بمسيرة المباحثات. ولم يكن تركيزي منصباً علي التفاصيل الفنية للاتفاقية. بل علي السياسة الداخلية التي يمكن أن تؤدي في النهاية إلي تدعيمها أو إجهادها، ولإدني قلق خاص حول مواعدين، أولهما : هو انقضاء مهلة المسار السريع للكونجرس في أوائل عام ١٩٩١. فهذه السلطة تقصر علي الكونجرس للتصويت سلباً أو إيجاباً حول الاتفاقيات التجارية التي يتفاوض عليها الرئيس، وبدونه يستطيع الأعضاء كل علي حده أن يدخل تمديداً علي الاتفاق حتي يلفظ ألفاسه. وكان خصوم النافتا يعتبرون تصويت المسار السريع فرصة لإخراج المفاوضات عن مسارها قبل أن تبدأ، وحتى مع تقديم تنازلات حول العمل والبيئة فقد استغرق الأمر ضغطاً شاملاً للفوز بتجديد الكونجرس لسلطة المسار السريع في أيار مايو ١٩٩١.

وكان الموعد الثاني الذي يلقني هو انتخابات عام ١٩٩٢. وكنت أريد كالتريس إنجاز انافتا خلال فترة رئاسته الأولى. وكلما أمكننا عرض الاتفاق في وقت مبكر عام ١٩٩٢ كلما كان ذلك أفضل. إن أي تأخير حتي الدخول في معصمة للحملة الانتخابية سيؤدي إلي تسييس قضية مدار خلاف بالفعل. كان الوقت عملاً جوهرياً. وفي الخارجية والبيت الأبيض - فيما بعد - طالما أكدت مع سكرتريتي علي الحاجة إلي تحقيق تقدم مستدام ليس مع المكسيكيين والكنديين فحسب بل أيضاً مع مسؤولي إدارتنا الذين لا يبدو أنهم يمنحون النافتا الأولوية التي نستحقها. وأقام بوب زوليك ساعدي الأيمن في قضية النافتا قناة اتصال غير رسمية مع حوسيه قرطية دي مونتويا رئيس موظفي هيئة الرئيس سالتيدلس. ومن خلال تلك القناة استطاع الجانبان تحديد المشاكل، وأن تستحث البيروقراطية في كلا الجانبين.

ومضت المفاوضات بسرعة مذهلة في ضوء التعقيدات القائمة وبدأت المفاوضات الأمريكية المكسيكية صيف عام ١٩٩٠. وانضمت إليها كندا وسط عام ١٩٩١. وفي أواخر تموز/يوليو ١٩٩٢ كانت اختلافات خطيرة لاتزال تقسمها. ولكن في ١٢ آب/أغسطس استطاع الرئيس بوش إعلان اكتمال مشروع نص الاتفاقية. وفي ١٧ كانون الأول/ديسمبر وقع الرئيس بوش والرئيس ساليناس ورئيس الوزراء الكندي بريان ملروني الاتفاقية في مكسيكو سيتي.

وفي ذلك المين وبالطبع انتخب رئيس ديمقراطي وكونجرس جديدين، وتعين أن ينتظر التصديق النهائي علي الاتفاق. لكن شكلها النهائي كان مطابقاً تماماً مع ذلك الذي تفاوض عليه الرئيس بوش. وأعنفد اليوم كما كنت أعنفد دوماً أنها تشكل تراثاً عظيماً دائماً للرئيس بوش، فلم تخلق الاتفاقية منطقة تجارة حرة وتطنها ٣٧٥ مليون نسمة فحسب بل إنها تمثل انفراجاً تاريخياً حقيقياً في علاقتنا مع المكسيك وبقية دول أمريكا اللاتينية. ومع انتهاء ولاية بوش طلبت شيلي رسمياً الانضمام إلي الاتفاق. وكانت بقية دول أمريكا اللاتينية تقف وراءها. لقد للذهب خيال القارة جراء رؤية الرئيس بوش بإقامة نظام للتجارة الحرة في الأمريكيتين. وهي رؤية أكثر شمولاً عن السوق المشتركة لأمريكا الشمالية التي تبناها ريجان.

وفي مستهل هذا القرن أعلن أحد أسلافي - جون هاي - أن المتوسط كان قرن الماضي والأطلنطي هو الحاضر والهادي هو المستقبل. ومع تولي لوزارة الخارجية سرعان ما تحولت نبوءة هاي إلي حقيقة. فسوف يؤذن عام ألفين ببداية «قرن الهادي». وكانت مهمتي هي التأكيد من أن الولايات المتحدة ستكون جزءاً مهماً فيه.



وهي المقام الأول كنت عاقداً العزم علي أن أي تحرك باتجاه التكامل الاقتصادي في شرق آسيا لا بد وأن يصمم الولايات المتحدة. وفي وزارة الخارجية سأحاول كبح أي تحرك من جانب الآسيويين الشرقيين لاستبعادنا بكل كياسة لمصلحةها وليس بالكياسة الواجبة علي. لكنني أريت أيضاً استغلال تعاوننا الاقتصادي المكثف بطرق أكثر إيجابية. فسوف تساهم

العلاقات الاقتصادية الوثيقة مع اقتصاديات شرق آسيا في فتح أسواق ديمقراطية أمام الاستثمارات والمصادر الأمريكية. فضلاً عن ذلك فسوف تكمل علاقاتنا السياسية والاستراتيجية مع منطقة نظيرها حيوية منذ عصر نيودور روزفلت.

وأثناء تولي وزارة الخزانة عرض بوب زوليك وبوب فاوهر الموظف المقدر - فكرة بارعة عن مجموعة استشارية بين الولايات المتحدة وشرق آسيا علي غرار مجموعة السبع بل ولقد اقترحت إمكانية إقامة مثل هذه المنظمة في أخطر اللحظ التي ألمقبتها. وحلت حملة عام ١٩٨٨ وظلت الفكرة فكرة جنونية. لكن عندما انضم إلى الإثنان بوزارة الخارجية أبقينا أعياناً مفتوحة علي الشرق بانتظار أي فرصة تلوح. وهبطت هذه الفكرة في شهر تمسب بول - وجاءت هذه المرة من إسرائيل.

فقد اقترح بوب هوك رئيس وزراء إسرائيل علانية في شهر كانون الثاني يناير فكرة تجمع شرق آسيا للترويج لفكرة التجارة الحرة في المنطقة. ولم يتضمن إقتراحه للولايات المتحدة لكن لم نصاف أي صعوبة في إقناع صديق مخلص للولايات المتحدة ولجورج بوش بأن يلوح أمامنا مبادرة في اجتماع منتدى للتعاون الاقتصادي لآسيا والباسفك (أبيك) في كانبرا في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٩. وأصبحت إثننا حشرة دولة مرفقة علي ميثاق (أبيك) هي إسرائيل، الولايات المتحدة، اليابان، كندا، كوريا الجنوبية، نيوزيلندا، وأعضاء رابطة جنوب شرق آسيا (الأسوان) أندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافورة وتايلاند وبروناي. ونتتج دول أبيك مجتمعة نصف إنتاج للعالم، وأكثر من ثلث للتجارة العالمية. وحتى برغم أن أبيك محبة بالقضايا الاقتصادية الدولية اعتقدت أنه سيكون من المهم أن أبرز قيادتي للوفود الأمريكية في الاجتماعات الوزارية للأبيك.

وعكس أعضاء أبيك مجموعة شديدة التنوع من دول ذات مستويات مختلفة من التنمية الاقتصادية. وبين ثلثها القشرة الدبلوماسية طغي التعداد الخاصة بين اليابانيين، وربما كانت أبيك تمتلك إمكانات بعيدة المدى لا حدود لها. لكن علي المدى القصير سيحتم عليها اجتياز قضاياها بعناية فائقة. فكل شيء أبعد مدى - علي سبيل المثال - التحرك لتحريكها علي وجه السرعة إلي منطقة تجارة حرة، يمكن أن يثير الانقسام في صفوفها بل يلدها في العهد. وهي للبداية علي الأقل كان تركيزي أقل علي للقضايا منه علي الطابع المؤسسي. وكنا في

حاجة إلى تنظيم عقد الاجتماعات وتحديد أشكال التشاور وبناء الثقة. وللمساعدة في هذا الصدد اتفقتا علي أن تمتصيف أي دولة من دول الآسيان كل اجتماع سنوي آخر. فقبل أن تطلق أبليك يجب أن تعلم المشى.

وأنجريا مدغون أساسيون فى اجتماع كانبرا. وولفت سنغافورة وكوريا الجنوبية علي استضافة الاجتماعين اللوراريين السنويين للقادمين. وكلفت مجموعات عمل الخبراء بدراسة السبل التي تكفل لأبليك تشجيع للتعاون فى مجموعة متنوعة من للقضايا الاقتصادية والتعليمية والبيدية. ومع اجتماع ١٩٩٠ الوزارى فى سنغافورة اكتسبت أبليك معنى للديمومة رغم عدم تمكلى من المشاركة بسبب إصابته بنزلة انفلونزا معوية حادة وهي أشد ما عانيته من مرض خلال عملى كوزير خارجية.

أما الاجتماع الثالث الذى عقد فى سول عام ١٩٩١ فقد وجدنى ووجد أبليك فى حالة صحية جيدة. فقد باتت الصين وتايوان وهونج كونج أعضاء كاملى العضوية، وهي خطوة حاسمة للأمام اقتضت إجراء مفاوضات مستفيضة قبل إمكانية التوصل إلي تسوية نهائية. وكانت مجموعات عمل الخبراء تعرض تقارير عن موضوعات شتى كالترويج السياحى إلي قواعد البيانات الخاصة بتدمية التجارة والاستثمارات ومشروعات رئيسية لمكافحة التلوث البحري، وشكلت لجنة من الأكفاء لتقديم توصيات حول تطوير المنظمة فى المستقبل. وبعد عامين فقط كانت أبليك منظمة واحدة فكية.



ورغم هذا التقدم لم يهدأ للتهريض علي إقامة تكتل تجارى قاصر علي شرق آسيا. ولم يكل محاصرين محمد رئيس وزراء ماليزيا بصفة خاصة فى ترويج فكرته بإقامة المجموعة الاقتصادية لشرق آسيا EABEG علي غرار المجموعة الأوروبية. ولم يكن ينظر إلي محاضري علي أنه موال لأمرىكا. بل كان ينظر إليه علي أنه مصدر أذى، ولهذا فقد اتخذت موقفاً عاماً معذلاً من فكرته. أما فى السر فقد بذلت قصارى جهدى لوائدا. وكان بعض أعضاء أبليك

مبارين إليها لمجرد الاستجابة لإلحاح محاضر، وفي اجتماع أليك في سول أضح لي سانج أوك وزير خارجية كوريا الجنوبية إلي احتمال تأييد بلاده لاقتراح محاضر بالتصامم الأسوي. ونكرني بأن الأمريكيين وليس الماليزيين هم الذين أراقوا دماءهم دفاعاً عن كوريا قبل أربعين عاماً. كانت رسالتي غاية في البساطة: كل للدول ليست علي قدم المساواة. واستوعب الكوريون الجنوبيون الرسالة ولم يحدوا بلحون علي إقامة المجموعة الاقتصادية لشرق اسيا E.AEG.



ومن دون مساعدة يابانية قوية لكانت E.AEG قد شكت تهديداً لمصالحنا الاقتصادية في شرق اسيا. وكانت الشراكة الأمريكية اليابانية عاملاً رئيسياً هذا كأي شيء آخر في منطقة الهادي. فلو تخرت الشراكة فلن تكون للتجارة الحرة والاستثمارات مجرد احتمال بل أكثر رجحاناً. وإذا اهتزت فسوف تصبح المجموعة الاقتصادية لشرق اسيا حقيقة مؤكدة. وستضطرب العلاقات الأمريكية اليابانية. والسبب دائماً هو للتجارة. وكانت في غاية السعادة لأن أوكل مهمة المفاوضات التجارية مع اليابان إلي كارلا هيلز للمفوض التجاري الأمريكي الخاص للكفء المتدبرة. ومع هذا ولأن علاقتنا الأمنية مع اليابان كانت بالغة الأهمية باعتبارها مصدرأ للاستقرار في شرق اسيا وللهادي لأكثر من أربعين عاماً فقد كنت أراقب تطور العلاقة الاقتصادية الأمريكية اليابانية. ولم أكن مدافعاً عن اليابان. فقد كانت ممارسات التقييد التجارية لليابانية فضيحة دولية. لكنني كنت علي يقين من واقع خبرتي الخاصة في اللجانة أن الصبر والتصميم والمفاوضات الخاصة هي للتفيلة وحدهما بأن نوتي النمار مع اليابان. وفي للحارجية لم أتردد يوماً في التدخل في العلاقات التجارية الأمريكية اليابانية عندما أشعر بأن أخطار حدوث انفجار شامل فالت للحد.

وكانت القضية المطروحة هو مبادرة للموثلق الهيكاية SII التي طرحها الرئيس بوش ورئيس الوزراء الياباني سوزوكي أونو في قمة باريس الاقتصادية عام ١٩٨٩، وشكت المبادرة مسعي رفيع المستوى لتجنب فرض عقوبات تجارية أمريكية علي اليابان واحتمال نشوب حرب تجارية. وكانت للمباحثات الأمريكية اليابانية في إطار المبادرة التي فانها

بإقتدار ذلك مكرمك وكيل وزارة الخارجية للشؤون الاقتصادية أيسر مباحثات شاملة تجري بين الدولتين، وللمرة الأولى توافق اليابان علي بحث بعض مسائل الاقتصاد الجزئي الأساسية التي تساهم في تعزيز الفاتح التجاري الياباني مع الولايات المتحدة، وشمل ذلك سياسات استغلال الأراضي وتنظيم الأعمال والتسويق.

ويرغم هذا انهيارت المفاوضات في ٢٣ شباط فبراير ١٩٩٠. واجتمع رئيس الوزراء الياباني توشيكي كايفو مع الرئيس بوش في باليم سبرينج في أوائل آذار مارس لإعادة تأكيد التزامهما بعملية SII لكن الوقت كان مضبوطاً. وتحت ضغط مكثف من الكونجرس سيكون علي المفوض التجاري الأمريكي علي الأرجح الإعلان عن مجموعة جديدة من العقوبات التجارية قبل ٣٠ نيسان إبريل، وكنت أصرف أن رئيس الوزراء الياباني السابق نوبورو تاكيشينا سيروور واشنطن في منتصف آذار مارس. وقد عملت عن كثب مع تاكيشينا وهو رئيس للوزراء وعندما كان وزيراً للمالية في وقت سابق وكان لا يزال يشكل قوة ذات وزن داخل الحرب الديمقراطي الليبرالي للحاكم.

واعتقدت بأن الوقت سيكون مواتياً للعب مباراة جولف مع صديق قديم وأجراء مفاوضات مخفية. ولعبنا مباراة وبحثنا الخيارات وأبدى تاكيشينا استعداداً لبعض عددًا من التنازلات نيابة عن الحكومة اليابانية لعل أهمها زيادة شاملة في الإنفاق الاستثماري بهدف تعزيز الطلب للدخلى. ووفرت مباحثاتنا غير الرسمية الإطار العام لتسوية نهائية. واستؤنفت المفاوضات، وكان للتقييم الأولي الذي صدر عن الجانبين في نهاية الشهر إيجابية بدرجة كافية لجذب فرض عقوبات اقتصادية أمريكية (بالتكاد). واستمرت للعلاقات الأمريكية اليابانية عرضة لتوترات عارصة عالجتها من حين لآخر لكن الأزمة الكبرى حلت ثم انقضت.



ولازمني اعتقاد لأمد طويل أنه ما من علاقات ثنائية للولايات المتحدة تفوق في أهميتها اليوم علاقاتها مع اليابان. وأنا وزير للخزانة عملت مع عدة حكومات يابانية لتتسق سياساتنا الاقتصادية الذاتية لصالح العمل علي استقرار أسعار الصرف. وفي عام ١٩٨٩ دعوت إلي إقامة «شراكة كونية» بين الولايات المتحدة واليابان، وأعتقد أن للفكرة وجهتها

حتى الآن. فاليابان نموذج يحدني للتنمية الاقتصادية في العالم. والآن ولأسباب تاريخية قريبة يعين أن تمارس لليابان نفوذاً سياسياً يتفق مع ثقافتها الاقتصادية. ومع ذلك وعلى مدار العقد الماضي بدأت لليابان، ولكن على استحياء وباطراد في الاصطلاح بزعامة دولية أعظم.

وهو تطور أرحب به، وقد شجعته لأمد طويل. فارتباط اليابان الاستراتيجي نقل موارد جوهري يضمن عدم إقدام الصين وكوريا الشمالية على أي مغامرة إقليمية. فضلاً عن ذلك فإن أي دور ياباني أكبر من خلال الأمم المتحدة - بما في ذلك احتمال منحها وضعاً خاصاً داخل مجلس الأمن للدول في نهاية المطاف - يمكن أن يساهم في ضمان أن قوة اليابان هي قوة استقرار حول العالم والمحيط الهادي. ورغم اختلافنا حول التجارة، وعندما تركت إدارة بوش السلطة كانت هذه للشراكة العاسمة لاتزال قوية.

وفي ٢٣ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٣ وافق الكونجرس على اتفاقية للتجارة الحرة في أمريكا الشمالية. وبدأ سريانها في الأول من كانون الثاني يناير ١٩٩٤. وفي تشرين الثاني نوفمبر ذلك العام للزم قادة دول أبليك هي اجتماعهم في أندونيسيا بإقامة منطقة تجارية حرة تمتد من نيويورك حتى بانكوك بحلول عام ٢٠٢٠. وفي الأول من كانون الأول ديسمبر ١٩٩٤م أقر الكونجرس اتفاقية لجأت بصفة نهائية بما يضع نهاية لعملية بدأت قبل ثمانية أعوام في بوينا ديلا إيشتي بأرجواي.

وبالطبع وقعت تلك الأحداث بعد رحيل إدارة بوش. لكن لها منها ما كان متجهراً لولا الجهد الدؤوب لإدارتنا. ومع متابعتي للتغطية الصحفية وخامرتي إحساس بشيء من الأسف. وفي المقام الأول، ومن منطق عالم المفارقات كان لا بد وأن يحتفل رئيس آخر بتلك الانتصارات. لكنني أحسست أيضاً بالفخر بما أنجزه بوش وإدارته. وشأن الاتفاقية والجات وأبليك فقد وضعنا الأسس لنظام جديد وحر للتجارة الدولية يعتمد جذوره بثبات من مبادئ السوق الحرة من شأنه نشر الازدهار في الولايات المتحدة ومختلف أنحاء العالم لعدة عقود قادمة.

الفصل الثاني والثلاثون

دعم الحرية في الدول حديثة الاستقلال

من لازمة اعادة أم لا ؟

بوريص يفتسين

لمرجح من

كتاب ديفيد الأول من كتاب فبراير ١٩٩٢

طقس بارد، بل شديد البرودة، هذا هو الوصف الوحيد الذي أمكنني أن أطلقه عليّ للجو خارج سيارتي في ١٤ شباط فبراير ١٩٩٢ ونحن نطلق بسرعة نحو طريق سريع في عمق أراضي روسيا. وفي مشهد من مشاهد الدكتور زيفاجو كانت السهوب مطمورة تحت الثلج والريح تصفر في جنبات البحيرات المتجمدة، وتبدو جيوب أشجار البتولا بل والأشجار الحصراء التي تناثرت هنا وهناك كما لو كانت ولحات وسط الصحراء. وفي لحظة ما وقع بصري علي حصان يجر عربة جليد يجتاز حفلاً ليمبر المدي الذي تكسوه الثلوج ويندو ممتداً بلا نهاية. وكنت أتوجه جنوباً من إيكاترينبورج علي بعد عدة مئات الأميال شرق موسكو علي الجانب السيبيري من الأورال لمدة ساعتين قاصداً تشيليا بنسبك ٧٠. تلك المدينة التي لم يكن معظم العالم يعلم عنها شيئاً قبل عدة أشهر.

كانت تشيليا بنسبك ٧٠ إحدى منشأتين نوويتين في الاتحاد السوفيتي أقرب شبيهاً بمعملي ألأموس أو لورانس ليفرمور مع فارق واحد: مجرد وجودهما ناهيك عن أن للعمل الذي يجر هناك سر من أسرار الدولة ولم تظهر مطلقاً علي الخرائط السوفيتية. بل إن القلة التي تقطن إيكاترينبورج أكبر مدينة مجاورة لم تكن تعرف شيئاً عن تشيليا بنسبك ٧٠ حتي قبيل وصولنا. وفي الاتحاد السوفيتي كانت تشيليا بنسبك ٧٠ تعد ثقباً أسود، لكن في روسيا التي مر شهر علي عودة مولدها من جديد في شباط فبراير ١٩٩٢ أصبحت رمزاً محتملاً للعاون الروسي الأمريكي. بل وربما من قبيل الصدفة البهتة أن يزورها الأمريكيون للمرة الأولى في يوم عيد القديس فالنتين.

وعقب رحلة طويلة بعيداً عن الطريق السريع للرئيسي واجتياز عدة نقاط تفقيش عبرنا عدة أسوار شائكة للوصول إلي مبني للأبحاث مكون من ثمانية أتوار، وكان يوسى أن ألمح في كل نافذة للعلماء والفنيين والإداريين يقفون خلف كل النوافذ تقريباً يلوحون بحماسة وبهجة. كانت أصواتهم تكتأهي بشق الأنف عبر نوافذ الحماية من العاصفة التي عززت لتوقاية من الشتاء الروسي للقارس. وشعرت لوهلة كما لو أنني هبطت من المريخ شخص غريب يراه هؤلاء الرجال والنساء بأعينهم. ومع الفارق في برودة الطقس وشدة كثافة العشود لم يكن يسطى سوي تذكر تيرانا في حزيران يونيو ١٩٩١ حيث كان تدفق المشاعر تجاه أمريكا هو للقاسم المشترك، وامسطحنا ضيوفاً إلي قاعة محاضرات ضيقة لقاء خمسة

وعشرين من أبرز علماء المركز - ونذكر في القاعة بأيام دراسي في برينستون لكنها لا تقار بالموجود الآن. فهي تحمل طابع الخمسينيات لكنني علي يقين تام بأنني أجلس أمام نخبة من أكثر العقول تقدماً وتطوراً في العالم. ولأننا جلوسنا راودتني أفكار بأنه يوجد هاهنا الرجال الذين صمموا الأسلحة التي حددت الحرب الباردة. وهما نحن نجلس لتبحث السبل التي يمكن أن يساعد بها الغرب في ضمان مستقبلهم. حقاً إنها مغرية للتاريخ.



وبدا اجتماعنا باستعراض مفصل وشامل لبرنامج الأبحاث النووية للاتحاد السوفيتي سابقاً، وطبيعة العمل الذي يقوم به العلماء حالياً بتوجيه من جمهورية روسيا المستقلة حديثاً. وقال أحد العلماء أماسي وأمام زملائي: «ليس هناك نقص في الأفكار والنقص الوحيد هو في الأموال، وفي الحقيقة فقد أثاروا عدداً من الأفكار معي بدءاً من صناعة الثامن الصناعي مروراً بتطوير الألياف الضوئية، والتهاء بتحسين أسلوب التصوير بالرنين المغناطيسي النووي، وكان هؤلاء العلماء يتوقعون لتحويل معارفهم في تصميم الرؤوس الحربية إلى استخدامات سلمية مفيدة».

لكنهم يواجهون مشكلة حادة تتمثل كما قال أحدهم في «أنه في الأصوام الأخيرة بدأ الوضع المالي لمؤسساتهم في التدهور، وبات من الواضح أنه مالم يتم تدبير طريقة لنفع روائبهم فسوف يحاول الإيرانيون والكوريون الشماليون والأنظمة للحمراء الأخرى شراء خبرتهم المعرفية النووية بأرخص الأسعار، وهو ما أصبح نطلق عليه مشكلة «استنزاف العقول»».

وأجبت أن هذا هو ما نبحثه هنا، وبدلاً من النظر إلى الموضوع علي أنه مجرد مشكلة «استنزاف العقول علينا أن نبحثه علي أنه «كسب العقول» - أي أن يصل المجتمع الدولي مع روسيا والدول المستقلة الأخرى للمساعدة في تحويل مواهبكم إلي مشروعات مدنية مهمة ومفيدة».

وعرضت افتراحي بإقامة مركز علمي مشترك يعمل كمركز يبعد تأهيل علماء الأسلحة النووية وتكفيهم مع مشروعات بحثية وفكرية مهمة تكفي للتحدي. وردوا بحماسة، ثم أوصحوا أن ما يحتاجونه فوراً الآن هو منشآت للتخزين الآمن للأسلحة النووية المفقدة، والمساعدة في إيجاد طرق للاستفادة من المواد المفقدة.

وعقب اللقاء التقطنا عدة صور حول نقال إيجور في كورشاتوف الأب الروحي للبرنامج النووي السوفيتي. ونظراً لعدم السماح بدخول كاميرات تصوير أجهز تسجيل إلي المنشأة فقد استغرق الأمر شيئاً من الجهد لإقناع إدارة المركز بالسماح بالتقاط الصور. ولدي بحث الأمر وشد وجذب مع يقييني أفورين كبير العلماء وفكتور ميخائيل نائب وزير الطاقة النظرية همهم عدة علماء: «دعه يفعل، دعه يفعل». وأخيراً لانت عريكة أفورين وميخائيلوف. وقتل للعلماء المبتهجين: «ها هو يوم جديد». فقد كان هؤلاء العلماء يريدون أن يري العالم ويسمع الكليل عن إنجازاتهم.

ثم توجهت مع بعض للمساعدين إلي محل اختبار المواد حيث تجري التجارب علي الليثيوم والبلوتونيوم واليورانيوم. ولأننا في مناطق يحتمل أن تكون محملة بالإشعاعات فقد أمرت أنا ومساعدى معاطف وقبعات بيضاء، وأحسست كما لو ألقى في مؤتمر لبيكر. وما لبثنا أن وصعنا أعطية بلاستيكية شفافة حول أذنينا وسُم كل منا عداد جابجر شخصي. وظهرنا كما لو كنا فريقاً من «مفقودي الفضاء». فقد بدت المعامل عتيقة للغاية. وما هو تذكر آخر علي كيفية اضطراب السوفيت للتعامل مع القرب: فقد حل الكرملين المشكلات العسكرية الاستراتيجية بتحصيل موارء ضخمة لها، وتمكن في النهاية من التوصل إلي حلول بعد بذل جهود جبارة في ضوء القصور التكنولوجي المزمن. ولكن مع استمرار العملية أنضمت موسكو ومها المجتمع والدولة مما أوقع لهم نصب المسؤولين للسوفيت في فتر مدفع.



وبانتهاء جولتنا وفحصنا للتأكد من عدم تعرضنا للإشعاع هبط الطلام الداس، ونقلنا إلي موكبنا للعودة إلي إنكثريدبورج. واضطرونا للتوربان حول المجمع وأثناء دوراننا لمحا

ورشة ميكانيكا جيدة الإضاءة كان يقف بها رجل وحيد يبدو أنه يعمل على مضطرة. وأثناء مرورنا توقف عن العمل وتفحص المركب ثم رفع يده ببطء مشيراً بإبهامه ولسان حاله يقول: حمداً لله أن انتهت الحرب للبادرة فلنكن أصدقاء الآن.

وفيما نلي من أسابيع وشهور تحولت في الدول للسوفييتية السابقة حديثة العهد بالاستقلال، وعملت مع الرئيس يلتسين والإصلاحيين الروس الآخرين ونهض مشغول مراراً بذلك الرجل الذي كان يعمل في ورشة الميكانيكا وإشارته الإنمائية المؤثرة.

فن تفارق صورته مخيلتي نذكراً لي بالفرصة السوانية الفريدة للمساهمة في إقامة الديمقراطية وإشاعة الحرية بل ولتجديد آمالي وإيماني وجهودي.

مؤتمر التصديق

وبعد أن أمضيت بضعة أيام في عطلة ميلاد السيد المسيح عدت إلي واشنطن في الخامس من كانون الثاني يناير لما أعرف أنه سيكون يقيناً شهراً محموماً. فإلى جانب السفر إلي مكسيكو سيتي للترقيع علي معاهدة السلام في السلفادور، ثم إلي ماناجوا عاصمة نيكاراغوا فسوف أستمضيف مؤتمر التصديق ثم أتوجه إلي موسكو لاجتماع متابعة مؤتمر السلام في الشرق الأوسط، والمشاركة في اجتماعات الأمم المتحدة، ثم الإنضمام إلي الرئيس بوش ويلتسين في كامب ديفيد.

وبإلقاء نظرة علي المستقبل كنت أدرك أننا نقرب من مرحلة حرجية في العلاقات مع روسيا والدول حديثة العهد بالاستقلال، وبانهيار الاتحاد السوفييتي في كانون الأول ديسمبر. شرعت كل جمهورية في محاولة إقامة علاقات إيجابية مع الغرب، ولاسيما للولايات المتحدة وأن تكون قدرتنا علي التأثير في سلوكها كبيرة مطلقاً.

وفي برينسبتون حددت السياسة والاقتصاد والأمن كمجالات رئيسية ثلاث نأمل في تعريبها قديماً. وعلي جبهة الأمن كنت أدرك أننا في حاجة إلي التصرف بحسم لتأمين

الأسلحة السوفيتية. خاصة أسلحة الدمار الشامل. وفيما أصبحت دول الاتحاد السوفيتي السابق مستقلة رسمياً الآن فقد انضم معظمها إلى رابطة كومنولث الدول المستقلة. كما أثرت تساؤلات حول التحكم والسيطرة النووية وتطبيق المعاهدات القائمة وسياسة منع الانتشار النووي. ولتصوية هذه التساؤلات أوفدت ريج بارنولوميو وفريق حكومي إلى موسكو منتصف كانون الثاني يناير لقاء نظرائهم لبحث كيفية تقديم المعونة الأمريكية للتخزين والإزالة الآمنة للأسلحة النووية السوفيتية. خاصة الرؤوس النووية التكتيكية. وكتبت إلى كوزيريف في ١٤ كانون الثاني يناير أقول: «أود أن نكونوا علي يقين من الأهمية البالغة لقدرةنا علي إظهار تقدم حقيقي حول تحديد سبل زيادة سرعة التفكيك الآمن، ودمج وإزالة الأسلحة النووية السوفيتية».

ومن رواية أدمع الغربي للإصلاح السياسي والاقتصادي أردت للتأخر فرصة عقد مؤتمر التنسيق يومي ٢٢ و ٢٣ كانون الثاني يناير لبدء جهود المساعدة بثلاثة طرق. أولها: أنني أردت إرسال إشارة دعم بالغة للوضوح إلي الروس والأوكرانيين والآخرين أن العالم بأسره يريد أن تقتن تجاربهم بالديمقراطية والسوق الحرة والاستقلال حتي يضموا النجاح. وسيت إنجاز هذا الهدف جزئياً بمجرد عقد المؤتمر نفسه الذي ضم سبع مقاطعات دولية وسبع وأربعين دولة منها الأرجنتين وأستراليا وتايلاند والإمارات العربية المتحدة علي غرار مؤتمر أوروبا الوسطي تقريباً^٥. وأردت أيضاً إضافة لمعة مقيرة سلسري بسرعة فائقة عبر التدخلية الصحفية لسأل هذا الحدث الدبلوماسي. وأردت خلق قضية إخبارية قد تكتاقلها شبكة سي إن إن ووسائل الإعلام الدولية الأخرى لبث الأمل لدي من يحتاجه في دول الاتحاد السوفيتي السابق وفي الوقت نفسه تصفير الرأي للعالم والمبادرات الخاصة في الولايات المتحدة. وأقترحت مارجريت تاتويلر الوسيلة البارعة : جسر جوي من الغذاء والدواء لكل دولة ديمقراطية جديدة بازغة.

٥ كان عقد مثل هذا المؤتمر الذي يعد أنضم مؤتمر عقد في وزارة الخارجية بشكل مع ضغط حصار أيرت - نل من شهر الإحسد - كابوما مرصوا كافرين جرومير واين ديوت ويل ديوز مقرفي خرف الدور القلان الفارفي بوزارة الخارجية. وحوا المشكلة بجههم الخلاق المهود. بدأ في ذلك نقل أربعين من وزراء الخارجية ووزراء المنظمات إلي الغذاء في بنور فلوس بيراني لرويس مدرسين وموكل أساب سولوي الأمن بالمنداح.

وسيكون إقامة جسر جوى إنسانى إلى الاتحاد السوفيتى السابق باستخدام طائرات سلاح الجو الأمريكى إشارة واضحة - مثلما كان الجسر الجوى لبرلين - لبدا عهد جديد. وتعليمات منى أعد ريتشارد أرميتاج الذى تولى الإشراف على مساعدتنا للاتحاد السوفيتى السابق ما أصبح يعرف بعملية «بث الأمل» وهي خطة يمكن بمقتضاها تسيير أربع وخمسين طلعة تحمل الغذاء والدواء فى أسبوع واحد لكل دول الاتحاد السوفيتى السابق المستقلة حديثاً. بما فى ذلك اثنتى عشرة طلعة أولية بطائرات النقل للملاقة سي ٥ من قاعدة راين ماين فى فرانكفورت. وإجمالاً فإن عملية «بث الأمل» ستقدم ما جملته ٣٨ مليون رطل من دراهم والأغذية*.

وتتل هدفى الثانى فى زيادة عدد الدول المانحة للمعونة الإنسانية لموسكو وجاراتها تحرير التعاون بين الحكومات المانحة. وقدمت برنامج المساعدة فى معظمها على أساس نال، وجاء معظمها من الولايات المتحدة أو أوروبا، وكنا نريد حقيقة جهداً عالمياً حقيقياً نسقاً.



وكان الأوروبيون لا يزالون على استحيائهم لعدم اقتراح أن تتولى المجموعة الأوروبية رعاية مؤتمر للتعميق، ويظهر هذا الاستياء أوضح ما يكون من مفوضية المجموعة ومن فرنسا. وفي اجتماعاتى على هامش المؤتمر حاولت أن أشرح للأوروبيين أن جهودنا

* انقضى الجسر الجوى إقامة لثلاثين ودمم مكلف من جانب وزارتى الدفاع ووزارة الصحة الأمريكية لشملة مشتركة. حيث لم يبق سوى أيام قليلة لبدء العملية. رام بأنك تلك تطوى وكوفى بول جهدا. سواة فى مرحلة التخطيط لثى عرج خلاتها مسطوا هيئة الأركان لشملة المشتركة وأربك إيمان كير خبراء وزارة الدفاع القويون السوفيتية على وزارة الخارجية وسلموا فى تمديد أعبائهم للطلعات الجوية، وكذلك فى التخطى لتسلي الجسر الجوى. وقدموا حالتها لأرميتاج كل ما هو مقرب للإعداد النهى فى الاتحاد السوفيتى السابق بواسطة وكالة الاستطلاع على الطبيعة OSIA. وقيل خمس طولات كانت هذه الأهداف محددة كموقع مستهدفة من جانب الصواريخ الباليستية المنيرة للقنارات. كما كان خبراء وكالة الاستطلاع بطاردون الصواريخ وهاجر ذا مؤشر آخر على إنهاء الحرب الباردة.

تستهدف توسيع مصادر المعونة ونظما . وكنت مدركا أن محاورى للعقلاء نوجلاس هيرد وهانز ديترش جيتشر وهانز فان دين بروك علي سبيل المثال يفهموننى لكننى لم أكن مدركاً حقيقة موقف الآخرين .

ومع ذلك فقد تأكد رأيى بالنتائج التى أسفر عنها المؤتمر الذى شكل مجموعات عمل لمعالجة أربعة قطاعات استراتيحية هي الطاقة والغذاء والدواء والمأوى . وفى كل قطاع تمكنا من جذب مشاركين لوضع خطة عمل ستوضع موضع التنفيذ ونحن نقدر من الربيع . وعرض مانفريد فيرنر السكرتير العام لحلف الأطلسى مساهمة الحلف فى الدعم اللوجستى والتخطيط . وعرض جان كلود باى السكرتير العام لمنظمة للتنمية الصناعية أن تكون المنظمة بمثابة غرفة مقاصة لبرامج المساعدة الفنية . كان جمع خمس وأربعين دولة ومنظمة عابرة للقومية للتسيق بهذا الشكل مهمة خلاقة مهمة لأنها باقتدار كين جوستر ونالبي لارى إيجلبيرجر ومساعدى فى تنظيم المؤتمر .

وفضلاً عن ذلك قدمت حكومات من خارج أوروبا وأمريكا الشمالية عروضاً ضخمة للمساعدة الثنائية مما يبرز الطبيعة الكونية للمساعدات . وعلى سبيل المثال قدمت اليابان برامج تدريب فى البنوك الزراعية ومستويات الإدارة الوسطى والمشاريع الصغيرة . ووافقت علي تقديم ٤٥٠ مليون دولار قروضاً سلبية ، وحرصت الأرجنتين استضافة مائة ألف لاجئ ، وأعلنت كوريا تقديم قروض استيراد وتصدير وقروض سلبية بأكثر من مليار دولار ، وقدمت العربية السعودية مساعدة قدرها ٢٥٠ مليار دولار لمساعدة أندريجان فى تطوير طاقة إنتاج وتصدير البترول .

وكان ثالث أهدافى هو استغلال مؤتمر للتسيق كمهولة لحمل بيروقراطيتها علي التمرح . ففى أوائل كانون الثانى بذلير توجهت إلى زميلى ديك دارمان مدير مكتب الإدارة والموازنة طالباً منه أساساً مبلغ الـ ٦٤٥ مليون دولار التى أعلن الرئيس تقديمها فى بداية المؤتمر . ومع هذا أردت أيضاً إظهار أنه ليست هناك مصادر غير نقدية للمساعدة علي نفس القدر . وفى انفتاح مجنون ، تمكّن لارى إيجلبيرجر ونيتيس روس ومارجريت تاتويلر وديرب زوليك بمساعدة اثنين من الموظفين المتحمسين هما شيل هيسلين ولونى كينى (حيث رأيت تاتويلر

علي تسميتهما «بالأولاد» لحماسهما المفرط، من توفير حجم متنوع من المساعدات للبرامج الحكومية عن طريق التوحد والاقتراض بل والاستجداء. وشملت المساعدات أشياء مثل حمولة خمس طائرات س- ٥ من الإمدادات الحيوية من مخلفات عملية عاصفة الصحراء، وتمويل برنامج المزارع - إلي - المزارع وكذلك الأموال اللازمة لتأسيس مؤسسة يورو آسيا وأربعمائة طن من الحليب المجفف لصينة بطرسبرج و١٠٠٠٠ طن من الفزبد والمعلب وقمح بلغاري إلي أرمينيا.

بزوغ نجم يلتسين

وبعد أربعة أيام من اختتام مؤتمر التنسيق وصلت إلي موسكو، ورغم أن المشاركة في رعاية الجلسة الأولى للمباحثات متعددة الأطراف كانت هي السبب الأساسي لزيارتي. كنت أعتقد أن زيارتي لموسكو مناسبة جيدة للمباحث مع يلتسين وكوزيروف وبقة القيادة الروسية.

وبعيد وصولي في ٢٧ كانون الثاني بنابر أجمعت مع كوزيروف في قاعة بوجيانسكي في أوسينياك ليكون رابع وزير خارجية ألقاه هناك خلال ثلاث سنوات. وبعد استعراض خاطف لمباحثات اليوم التالي الخاصة بالشرق الأوسط وجه كوزيروف دفعة المحادثات إلي الوضع في روسيا. وقال: «إنني أقدر جهودكم خلال المؤتمر الذي عقد الأسبرع الماضي. فالرئيس يلتسين متحمس للغاية للجسر الجوي، وأعطي أولمزه للمسؤولين الروس بضمائم تسليمهم الإمدادات». وتطرقت أيضاً إلي بحث قضايا نووية. ولأن الرئيسين بوش يلتسين كانا علي وشك طرح مبادرات جديدة هامة فإننا تركنا الجوهر الحقيقي لمعالجه خلال اجتماعي مع يلتسين.

وأوضحت قلقنا تجاه احتمال بيع روسيا أسلحة لدول مثل إيران. وددت بالقول: «أعرف أن روسيا في حاجة ماسة إلي النقد الأجنبي من تلك المبيعات. لكن هذه المبيعات سوف تهدد الأمن الإقليمي وتثير مشكلات لدي للرأي العام الأمريكي، وهو عامل مهم إذا كان يتعين علينا تزويد روسيا بمزيد من المعونات». وقال كوزيروف إنه في الوقت الذي يفهم فيه رأينا

«إن الأسلحة هي واحدة من السلع الثقيلة التي يمكن أن تبوئها روسيا، وأن حكومتنا تعرض لصعوبة من الجيش للمضي قدماً في تلك المبيعات». واتفقنا علي أن يبحث الرئيسان هذه القضية باستفاضة في كامب ديفيد.

وعقب انتهاء مباحثات الشرق الأوسط، والتي عكس صفوها رفض الفلسطينيين للحضور للتفتيش مع بلتين صباح ٢٩ كانون الثاني يناير. وقبل يومين فقط غادر بلتين موسكو فجأة إلى جهة غير معلومة مما روج شائعات في الصحافة الغربية بشأن صحته والاستقرار.

وبعد خمس دقائق اتضح مع ذلك كما لو أن بلتين قد احتلني من دون سبب سوى للإعداد للقاء ونيس التفاوض. كان جذاباً. وقد شاهدت بلتين مختلفاً عن الذي رأيته من قبل. وفي الماضي كان غلباً ما يبدو غامضاً بل زاف اللسان، والآن فإنه يتحدث بتفصيل أعمق من دون الاستعانة بمذكرات حول قضايا فنية رفيعة، والنصب تركيزه كلية علي القضايا الأمنية. وعلي غموس مقترحات خفض الأسلحة النووية الاستراتيجية التي طرحها الرئيس بوش وذلك التي طرحها حول إزالة وتدمير الأسلحة النووية (الاستراتيجية والتكتيكية). ورويته للدفاع الاستراتيجي ومشكلة استنزاف العقول والحاجة إلي التوصل إلي تفاهم حول تمويل الصناعات الحربية التقليدية.

وأشاد بلتين «بالتقليد الجديد» في العلاقات الأمريكية الروسية متجسداً في حقيقة استعراض واشنطن وموسكو مقترحاتهما للنووية بدلاً من إعلانها عبر الصحافة. وأعرب عن اعتقاده بأن مواقفنا (مقاربية تماماً).

وردت «إن هذا أفضل كثيراً من التقليد القديم» تفوق أحد الطرفين. وقد أتعنتي نهية ثلاث سنوات أنه من دون إرادة كافية علي القمة فن نحقق الفرص المتاحة أمام بلدين. وقال بلتين «لا أتعني الموافقة علي المزيد. فالمعسكريون لا يريدون أن يعلموا بأنفسهم».

ولم يكن بلتين مثلهما علي بحث الوضع الاقتصادي. بل كان يمتلق عدة أفكار طموحة حول القضايا الأمنية. من بينها بذل جهود أمريكية روسية لإقامة نظام أمني كوني وتمويل مشروعات تشغيل الطعام السوفيت السابقين بهدف القضاء علي مشكلة استنزاف

العقول، وأبلغني يلتسين بصراحة شديدة أننا كنا نعيش في الماضي بشأن برنامج الأسلحة البيولوجية السوفيتية. ووعد يلتسين، أنه سيرسل في غضون شهر، سيتم بعدها السماح لمفتشين دوليين بالوصول إلي الموقع. وعن قضية التحكم والسيطرة في الأسلحة النووية قال إنه سيطر سيطرة تامة علي كافة الصواريخ الاستراتيجية في الاتحاد السوفيتي السابق، وسيتم إقامة خط هاتفى بين الدول النووية الأربع، وإذا إتفقت الدول الأربع، «لاسمح الله فسوف اتحمل مسؤولية الصنف علي للزر، وما لبث أن استدرك قائلًا: «وعلي أية حال وفي غضون أيام قلائل لن تكون موجهة إلي الولايات المتحدة».

ويزعم أن يلتسين أُلحِق إلي إعادة توجيه الصواريخ الروسية في حديث أدلي به لشبكة تليفزيون إيه بي سى فإن خطورة هذا الالتحاق أوشكت أن تدفعني للتفكير من مقعدى. وتساءلت: هل لك أن تفسر النقطة الأخيرة عن إعادة توجيه الصواريخ،

ورد بالقول: «إذا أمكننى أنا والرئيس بوش للتوصل لاتفاق قلن يتم توجيه أى صواريخ روسية تجاه الولايات المتحدة لأن الدولتين ستكونان حلفاء علي قدر كبير من الفعالية». وقال يلتسين إنه لضمان عدم إعادة توجيه الأسلحة التى لا تخضع لسيطرة مباشرة من روسيا «إننا ندرس إمكانية إلغاء جهاز صغير لإبطال مفعول الصواريخ أثناء عملية الصيانة الدورية لها في الدول الثلاثة».

وبالتطرق إلي جدول أعمال قمة كامب ديفيد القادمة استفسر يلتسين عما إذا كنت أفكر في إصدار بيان مشترك عقب اجتماعي مع الرئيس، وقال: إن مثل هذا البيان سيكون له أهمية دولية. وأومأت بالموافقة وقلت: «علينا أن نتجاوز أربعين عاماً من المشاعر السيئة في بلدنا وسيكون مثل هذا البيان مفيداً».*



* وتخللت لدي الرئيس وأبرزت له كذلك: مرحلة أعتقد أن هذا البيان سيكون مهماً لصلاحتنا أيضاً. سوف يزر يلتسين وسبعه لتقارب منا، وأعتقد أنه سيتم أيضاً اقتراحنا بمرافقه بلع عليه الآن. ونحنياً أننا لم نعد أعداء، إننا لم نعد بلدين متباعدين بدلاً من هذا علينا أن نكون صديقين بل حلفين. وكذلك فإنّه لا وسعي للتعاون بل يصي الشراكة حقيقية. وكما حدث في قبلاني المشتركين في سلاى فورتكوف ومضى أثناء أزمة الخليج كان لدى فريق عمل أمد مشروع بولس بالغ.

وكتبت إلي الرئيس في تلك الليلة أن الرئيس يلتزم سيزور أمريكا كزعيم عازم علي اكتساب الثقة، وعازم أيضاً علي إظهار أنه لاعب فذ علي الساحة الدولية كسلفه. وأظهر أداء يلتسين علي مدي ساعتيْن في ذلك اليوم وتركيزه علي القضايا الأمنية مدي حرصه ورغبته علي أن يأخذ علي محمل الجد. كان يلتسين يتحرك بشكل رمزي (وتحديداً مبادرته وإعادة توجيه الأسلحة النووية. لأنه يمكن علي أية حال إجراؤها بسرعة وسهولة) لكن أيضاً بأساليب يمكنها حقيقة تغيير طبيعة العلاقات الروسية الأمريكية.* وكنت علي يقين أنه إذا كان لنا أن نواصل هذا النهج فمن السهم أن نمنح يلتسين أقصى ما يمكن أن نقدمه من دعم. وكنت للرئيس من هذه الزاوية: «من السهم للغاية بالنسبة له أن يظهر له في كامب ديفيد أنه حاز علي نفس العلاقة الشخصية الوثيقة التي حازها جورباتشوف».

وقبل مغادرتي موسكو اجتمعت مع وزير الدفاع شابوشنيكوف الذي كان يتولي المهمة الدقيقة بالسيطرة وتنظيم وتفكيك الجيش السوفيتي الكبير باعتباره أرفع مسؤول عسكري في كومنولث الدول المستقلة. وبالنسبة لصنایط نشأ في المدرسة السوفيتية أظهر شابوشنيكوف احتراماً غير عادي للسلبية الديمقراطية للتميز للعلاقات مع الولايات المتحدة.

وقال في كلمة للترحيب: «علينا أن نتحدث أكثر من مرة. فهذا يساعدنا علي تجنب الأخطاء. وفي سياق وصفه لاجتماع ضم خمسة آلاف صنایط في موسكو أضاف قائلاً: «إن بعض الرؤوس الملتهبة يبلننا نقول أنه ونحن علينا توجيه إنذارات نهائية إلي الرؤساء. فهم لا يمكنهم فهم أن الرؤساء منتخبون بواسطة الشعب».

وعن قضية بيع الأسلحة لإيران طمأنني شابوشنيكوف أنه ليس هناك مشترين في طهران. وانتقد بيعنا الأسلحة إلي حلفاء مثل تركيا. ومثل كوريزيف قال إنه يجب علي الرئيسين بحث هذه القضية في كامب ديفيد. وأشار إلي أننا بحاجة إلي الاتفاق لا مجرد الحديث».

* ومع ذلك فقد أُنشئت توتسيماً مهماً إلي الرئيس: «علينا أن نفكر أنه رغم رغبته في تطوير وتميز علاقة السدقة معنا فإن يلتسين قومي روسي حقيقي. معروف ولكن حساساً تجاه أي التهديد بأنه يقدم تقديرات من جانب واحد وأنها كسلفه».

وبرغم استمرار بعض الاختلافات فإنني أعتقد أن شابوشنيكوف شأن يقتسمين
وكوزيريف كان يؤدي مهمة هامة في وضع بالغ الصعوبة بشكل غير عادي. وقلت له:
«قبل أن أغادر أريد أن تدرك أننا نقدر جهودكم، ونتمني لكم التوفيق في مهمتكم الشاقة».
وقال: «لا يضايقني أنني أتعامل مع هذه المشكلات، لكن يجب أن أعترف بأنني أحمد
بعض أسلافي والأوقات السليمة التي استمتعوا بها، حين كان للعدو وضعا والقضايا تبدو
سهلة نسبيا».

ولدي مفارقتي موسكو أثناء واحدة من أعالي العواصف الثلجية التي أشهدها خلال
عملي كوزير للخارجية غمرني تقلل تجاه ما ينتظرننا من اجتماعات. وفي غضون أقل من
شهر علي الاستقلال بدت روسيا مستقرة رغم أنها تعيش مرحلة انتقال. فالقضايا النووية
تجري مألجتها. وكان كل الزعماء الذين قابلتهم يقتسمين وكوزيريف وشابوشنيكوف علي قدر
من الجدية والمسؤولية وكلهم رغبة في التعاون معنا.

روح كامب ديفيد

عقب الاجتماع الأول الذي عقد في الأمم المتحدة لقادة الدول الخمس دائمة العضوية
في مجلس الأمن توجهت إلي كامب ديفيد في الأول من شباط فبراير لحضور اجتماع بوش
مع ياتسسين. ولأن هذه زيارة عمل، وليست زيارة رسمية لرئيسي الولايات المتحدة
الأفضل إجراء لقاء غير رسمي في كامب ديفيد. وكما كان الحال في ويومينج عام ١٩٨٩ مع
بناراد شيفرنادزة وفي عام ١٩٩٠ مع ميخائيل جورباتشوف أمل الرئيس في أن الاعتماد عن
واشنطن سيشرح إجراء مباحثات غير رسمية أكثر استرخاء.

وحقا كان ياتسسين مسترخيا. لكنه مثل استرخاء بطل للتس قبل المباراة: ففي ذروة
مباراته كان مستحيا وجاهزا علي الدوران لتصويب الهدف. وفتح الرئيس الروسي الذي تحدث
المررة ثلث المرة الأحمري بدون الاستعانة بمكررات، موضوع الإصلاح الاقتصادي. وكان هنا
الموضوع محل ترحيب. لأنه غاب فعلا عن مباحثاتنا في موسكو. وقال: «لقد تأخرت في

البدء لخص منلوتة لأن الإصلاآ لم يكن متاحاً بالفعل إلا بعد انتهاء الإمبراطورية والأيدولوجية الشيوعية . وقال إن روسيا لديها «برنامج واستج» بذاته بتحرير الأسعار فى ٢ كانون الثانى يناير . وأعترف والعين بأوجه قصور نهج مرسكو مشيراً إلى أنهم لا ينتهجون محطة تقليدية ، لأنه ليس لديهم وقت لتبنى إصلاحات فى مجال المصارف والصنائب والمجالات الأآرى قبل السماح برفع الأسعار .

وفما حلت «أوقات عصيبة بسبب ارتفاع الأسعار فقد كان أكثر قلقاً حيال أشهر شباط فبراير وأثار مارس ونيسان إيريل التى قال أنها أشهر حاسمة» . إننا نأمل فى أن يصعد للشعب فإذا فشلت الإصلاحات فسوف تحل قوى محافظة محل القوى الحالية متغور سوف ترفض تلك الإصلاحات . فسوف تقوم لدينا دولة بوليسية ، وسوف يحل القمع ويسود سباق التسلح وسوف تهدر مليارات الدولارات على الولايات المتحدة ويورط للعالم بأسره* .

وأكد أن القضاء هو شاغله الأول . وقال : «إننى ممن للجسر الجوى الضخم؛ لكنه أشار بتأكيد على أن للمرء لا يسمه إطعام روسيا عن هذا الطريق وحده . وأشار إلى أن الجسر سيتطلب مجهود عشرات الدول وعمليات نقل ضخمة ، من مختلف أنحاء العالم ، ووجه الشكر إلى الرئيس لحد مؤتمر التنسيق منوهاً إلى أنه خطوة بالانتهاء الصحيح .

وعرجاً على السياسة قال بقمين : «حتى الآن فإن علاقاتنا بيننا تسير بهبط» . إننى أتمحدث الآن عن الأشهر السبعة الماضية . إنها تلك الفترة التى كنتم لا تعرفون مع من تتعاملون بين جورباتشوف وروسيا . وأشار إلى أنه يتفهم تأرجحنا لكن «الوضع بات شديد للوصوح الآن عليكم إرسال المعونة إلى روسيا ودول الكومنولث» . وأعرب عن اعتقاده بأن التحرك نحو الكومنولث كان «صحيحاً وحسباً» فعندما انهار الاتحاد كان بوسع الدول أن تتحرك فى كافة الاتجاهات لو لم يكن هناك كومنولث . وكانت هناك أربع دول نووية ، وكان الجيش قد تمزق إلى شظايا .



* أشار إلى أن فريقه بقيادة ايجور جودار من الشباب الموهوب وقال يجب على الرئيس أن يحس قوته من كلفه لخلل مجلس السوفيت الأعلى ونفى أى مكان . صرف نفهم التقلب جودار إذا لم يحط بحسبة الرئيس .

وفي الوقت الذي لا يزال فيه الكومنولث فتحياً فقد كان فعالاً في تقليل الخلافات والتداعيات بين الجمهوريات. وقد أبلغني ياتسين في موسكو بأن الكومنولث «طفل مريض». وقال: «إننا لا نريد نشوب صراعات بيننا وبين أوكرانيا. إننا نسعي للتخلي بالمرونة وعدم الانتقام حول أوكرانيا^٥. وأوماً شابوشنيكوف بالموافقة وياتسين بدلي بأقواله تلك. وخلص إلي القول: «إنه ليس لدي روسيا أي مخططات إمبريالية، وليس لديها أي رغبة في الهيمنة علي الآخرين. إننا نريد أن يكون للجميع علي قدم المساواة في الكومنولث، فالطفل لا يزال ابن شهرين، علينا أن نرعاه وألا ندعه يسقط».

وانتقل ياتسين إلي القضية النووية وهو الموضوع الذي أُنقذ وقتاً طويلاً في الإعداد له وبدأ بالقول: «إن زر الإطلاق صمى ثم مع المارشال شابوشنيكوف بمدى. ويوسع رؤساء الجمهوريات الأربع إجراء اتصال فوري. وإذا حدث شيء لأقدر الله فبوسعنا الاتصال علي الفور. ويجب علي أن أتحرك وكذلك المارشال شابوشنيكوف. وليس من السّاح نقياً للآخرين السيطرة علي الأسلحة النووية. إنه مستحيل».



وبرغم أنه ما من شيء في مرجعيته يوحي بأن لديه استعداداً خاصاً للاهتمام بالحد من التسليح فقد تطرق ياتسين لكل ما يمكن تصوّره من تفاصيل كما لو كان يريد استعراض معرفته فحسب. والأهم من ذلك هو حديثه. وفي لحظة ما بعد أن شرّح لنا كيفية تحويل البلوتونيوم ٢٣٩ وليورانيوم ٢٣٥ إلي «قنبان» قابلة للاستخدام في محطات للطاقة النووية المدنية تسامح قائلاً: «ألا أبدو مثل خبير؟».

كان شاغله الأعظم هو انتشار الأسلحة النووية، وأعظم التهديدات خطراً تلك للقاعدة من الجنوب. وأشار إلي «أن صدام حسين ليس في وضع يمكنه من سرقة رأس حربية من أعلي

^٥ أشار ياتسين فيما بعد إلي وجود ١١ مليون نسمة من أصل روسي في أوكرانيا وقال «لا أعتقد أن أوكرانيا ستقدم علي اتخاذ موقف حاد في ضوء هذه الحقيقة». وقال أيضاً إن أوكرانيا حامل رئيسي لزعزعة الاستقرار. لكنه أكد علي علاقاته الشخصية الجيدة مع كرفتشوك (بني أُنشدت معه باستمرار عبر الهاتف).

صاروخ لكن يمكنه سرقة اليورانيوم والبلوتونيوم من مستودع. ويمكنه بهذا أن يهز العالم. إن الروس أيضاً، في عجلة من أمرهم لإزالة الأسلحة النووية التكتيكية من الدول المستقلة الأخرى من قازاقستان أولاً لمنع سقوطها في أيدي إسلامية.

وعن ظاهرة «استنزاف العقول» استعرضت فكرة مركز العلوم. وأبدى يلتسين موافقته على أن هذه قضية جوهريّة يتعين معالجتها، وأنه يجب علينا العمل سوياً حول هذه الفكرة وقال: «لدينا ألفا خبير نووي وإذا استطعنا إقامة برنامج مشترك سيكون بوسعنا توظيف الكثير منهم».

وعندما حان وقت التوقف لتناول الغداء تدخل يلتسين قائلاً: «هذه قضية واحدة أخيرة، هل لازدنا أعداء لم لا؟». وقال للرئيس: «لا لسنا أعداء». وقدم يلتسين المسودة النهائية للبيان المشترك الذي بحثته في موسكو مع الرئيس الروسي. وجاء فيه: «إن هذا يبعدنا عن المحبة القديمة». ولأن البيان بحقبة جديدة من «التعاون والصداقة الروسية الأمريكية»، وأعلن رسمياً انتهاء أكثر من سبعة وأربعين عاماً من التنافس. كان يلتسين متلهفاً لأن يصنّف إلي البيان عبارة: أن العلاقات قد انتقلت إلي مرحلة التحالف. لكن الرئيس عرّف عن التوصل إلي هذا الحد. وقال: «إننا نستخدم هذه اللغة الانتقالية لأننا لا نريد أن نحسب أننا حللنا كل المشكلات».

وفي مؤتمر صحفي عقد عقب الغداء أصدر الرئيسان البيان المشترك وأعلن أنهما سيتبادلان الزيارات الرسمية قبل نهاية العام. وأفاض الزعيمان في تبادل الإشادة. وقال الرئيس: «إن روسيا والولايات المتحدة تشهدان علاقة جديدة تستند إلي الثقة». وتلاه يلتسين: «من الآن فصاعداً ثم نعد نعتبر أنفسنا أعداء محتملين».

ولدي حودتنا في تلك الليلة تأملت الاجتماعات الرئيسية التي شاركت فيها خلال عملي في الحكومة، وأيقنت تماماً من مدى خصوصية وتاريخية هذا الاجتماع للكشف مع يلتسين. فلفترة الأولى اجتمع رئيس روسيا الديموقراطية المنتخب مع رئيس أمريكي. وبدأ الاثنان معاً طريق التعاون. وساورتني نفسى بالحدث حول «ما بعد الاحتراف».

إلى محطة كيشيف

بعد أكثر من أسبوع من مغادرة يكتمين للولايات المتحدة غادرت واشنطن في جولة تسدئق عشرة أيام تشمل الاتحاد السوفيتى السابق بدءاً من مولدوفا على الحدود مع رومانيا عبر القوقاز وآسيا الوسطى إلى سيبيريا. فانهيار الاتحاد السوفيتى حرر روسيا بل أوجد بجانبها إحدى عشرة دولة مستقلة (أربع عشرة إذا أخذت فى الحسبان دول البلطيق) تبحث جميعاً عن هوية دواية ونموذج مناصب للتنمية سياسياً واقتصادياً، وللمرة الأرائى خلال عقود بل وقرن تعمرت تلك الدول من سيطرة الكريمان. وبلعتبرى أول مسؤول رفيع المستوى يزور معظم تلك الدول كنت أريد تعزيز سيادتها واستقلالها باعتبارها (حاجزاً أمام أى نزعة توسعية روسية، وفى آسيا الوسطى لمواجهة النفوذ الإرائى). والتأثير على حكوماتها لتتحرك نحو الديمقراطية والسوق الحرة. وكانت تصاورنى بعض أولهم. كنت على يقين من أن الكثير من تلك الحكومات يتولاهما بهروقراطيون سوفيت تحولوا إلى ديمقراطيين، وأن ثقافتهم السياسية تشرب بجنورها بمعنى فى للتسلطية لا الديمقراطية. ولكن بعد هزيمة الشيوعية السوفيدية كانت مكانتنا فى ذروتها، ولملت فى التأثير على الأحداث من بعد.

وربما كانت تلك الجولة أكثر جولائى سحراً خلال عملى كوزير للخارجية، فمعظم الأماكن التى زرتها محفلة من الحرب بعقود. كما أن عدداً من ثقافات المنطقة غير معروف خارجها بالمرة. كانت معظم الوفقات مختلفة تماماً عن روسيا وعن موسكو وصا شعرت به فى جولائى فى الشرق الأوسط أو جنوب آسيا، وكثيراً ما رلوتنى نفسى بأنه يجب علينا الكف عن أن نسال أنفسنا عن سبب انهيار الاتحاد السوفيتى. فمع هذا التنوع الشاسع للشعوب التى تقطن تلك المساحة الشاسعة علينا أن نسال كيف استطاع أن يمر طويلاً.

كانت الرحلة فى حد ذاتها كابرساً لوجستياً. فبعض الدول المستقلة حديثاً لا يمتلها سوى تكبيد الزوار أقصى قدر من المشقة، وفى الواقع لم يكن من الواضح فى البداية أننا سنستطيع القيام بالجولة على الإطلاق: فمعظم مطارات دول الاتحاد السوفيتى السابق مغلقة لقص الوقود، واضطر لن دبلت إلى حمل آلاف الدولارات نقداً لنفص ثمن الوقود حتى نستطيع الانتقال من مكان إلى آخر. فن يقبلوا أى بيع لئتمانى حتى من الحكومة الأمريكية فى أماكن

ملى درثبه ويشكك، وفي معظم الرحلة اضطررنا لحمل المياه معنا. ثلاثمائة زجاجة مياه حيث تكديت كاربونة للطائرة بصناديق المياه المعدنية في كل مكان لدرجة تذكر معها العاملون معي بأننا ستموت غرقاً لا حرقاً إذا تحطمت طائرنا. وحملنا أيضاً الكثير من غذائنا. وكان من الصعب أيضاً للتمتع بالغدقة والمياه الساخنة. وفيما اعتبرت هذا شيئاً مثيراً بل ممتعاً فلم أكن متأكداً من أن كافة العاملين معي يستمتعون به نفس استمتاعي به.



وقبل نرجعنا إلي دول الكومنولث توقفت صباح العاشر من شباط فبراير في قاعدة راين ماين الجوية الأمريكية في فرانكفورت بألمانيا لتدشين احتفال البدء بعملية بث الأمل. ولسمعة الطربة أنجز ريتشارد أرميتاج المهمة المطلوبة به. وفي الحقيقة فقد حشد مساعدات سخية، وتمكن من جذب مساعدة دول أخرى للمشاركة في الجسر الجوي.

وفي ذلك المساء اقتننا قاصدين وجهتنا الأولي كيشوف، مولدفا مجرد شريط محصور بين رومانيا وأوكرانيا، وهناك النقطة الرئيس موريا سيجور، وأكبر التحديات التي تواجهه هو محاولة احتواء أنشطة الانفصاليين الروس في منطقة الدنيستر (تلك الأنشطة التي نهوات للأسف إلي أعمال عنف صوف ذلك العام). وأبلغته احتزل للولايات المتحدة دعم اعتراف كامل بمولدفا في الغريب شرط أن تكترم الحكومة بضمائم معينة*.

وعكست تعليقات سيجور لي ما اكتشفت أنه موضوع متكرر أثناء الجولة. فقد قال بصراحة: «إن هذا التحول والانتقال أدني إلي تفكك الكثير من الصلات التي ربطت الاتحاد

* في الوقت الذي احدثت فيه الولايات المتحدة باستقلال كل الجمهوريات السوفيتية السابقة فإن تبادل العلاقات الدبلوماسية احدث حتى تقي ضمانات معينة منحت بها علي كل رايوس النقطة في الجولة. ومن بين تلك الضمانات الانزال بهادير منظمة الأمن والدخول في أوروبا، ومهاجرات الخمسة، لتحديات ديمقراطية حرة، احترام حقوق الإنسان، بما في ذلك حقوق الأقليات وحرية الهجرة والانضمام إلي منظمة عدم انتشار الأسلحة النووية، والانضمام إلي المنظمات الدولية للفلسفة بأسطحة التماز الشامل، ورقابة صارمة علي الصناعات وعلي الانفاق العسكري، وقامة اقتصاد السوق الحرة مع اتفاقية دفع لموجب جدول من الاتفاقيات المالية للاقتصاد السوفيتي.

السوفيتي معاً وخلق مشاكل يتعين حلها. فنحن هنا في مولدوفا ندرك أنه يتعين علينا أن نغير النظام. إننا نريد الانفتاح على العالم الخارجى ولولايات المتحدة موقع مهم خاص في هذه العملية.

وردت قائلاً: «ليس من اليسر علي للولام التحرك نحو الديمقراطية والسوق الحرة. خاصة عندما تكونوا أبحرتم في الاتجاه للعكس لفترة طويلة. لكننا سنواصل تأييدكم طالما أيدتم المبادئ التي أعطاناها، وبحسبنا أيضاً الإصلاح الاقتصادى في كل محطة توقفنا بها. وطلبت من ليدهويت استعراض عدد من الاتفاقيات (للمنوجية) (علي سبيل المثال معاهدة ضرائب واتفاقيات استثمار ثنائية) وهي الأسس المعهودة للعلاقات التجارية. (ومع انتهاء جولتنا في آسيا الوسطى بدأنا نطلق علي إيد «الأب الرومى للرأسمالية الآسيوية»).

مرجل في القوقاز

وتوجهنا بعد ظهر ذلك اليوم باتجاه الجنوب الشرقى لنحلق فوق البحر الأسود وجبال القوقاز التي تطلعت قممها المكسوة بالثلج السحب لتسطع تحت أشعة الشمس. ومن الطائرة شاهدنا جبل أارات الذي يعتقد أن سفينة نوح استوت عليه، ولدي هبوطنا في بيرفان عاصمة أرمينيا سرعان ما لمحنا الأثر الناجم عن الزلازل القوي الذي ضرب للبلاد واستمرار الحرب الوحشية في إقليم ناجورنو كاراباخ. وأسفرت هذه الحرب عن فرض لأذربيجان حظراً علي الطاقة علي أرمينيا. ورغم الجمال الذي تجمعت به المنطقة فالقوقاز أشد مناطق الصراعات السياسية في العالم بما يطوى علي خطورة بالغة لدرجة دفعنا إلي عدم الذهاب إلي جورجيا بسبب للحرب الأهلية للفترة هناك.

وتم أر مطلقاً مدينة في الاتحاد السوفيتي السابق تلعم بإضاءة جيدة وفي بيرفان كانت الإضاءة ضعيفة إن لم تكن معدومة علي الإطلاق. وكانت التدفئة ضعيفة أيضاً في المباني، وعلي نفيس البهجة التي تشيع في كيشيف بدت بيرفان مخوفة بل مروعة تخلو شوارعها الهائلة من أى مظهر للحياة تقريباً في الليل. وبعد استراحة في بيت ضيافتها الشاسع

المنزاعي الأطراف حيث كان بعض معاوني يهودون ثلاثمائة متر علي رغم أننا نقم في مبني واحد، توجهت للقاء الرئيس لوفرون بتروسيان بمقر إقامته علي عشاء عمل. (كان وزير خارجيته رافي هوفانيسيان مواطن أمريكي من لوس انجيلوس وأديق لدرجة بدأ أفراد طاقمى الأمنى في الإشارة إليه «بأديق الوادى»).

ودارت معظم مباحثاتى تلك الليلة حول الوضع فى ناجورنو كاراباخ ذلك الجيب الأرمينى فى أذربيجان الذى يقاتل من أجل الاستقلال. وعلى غرار الوضع فى منطقة الدنوبستر فى مولدوفا كان الصراع الأرمينى الأذربيجانى حول ناجورنو كاراباخ بجسد القومية العرقية فى حقبة ما بعد الانحداد السوفيتى.

وبدأت للسديث بالقول: «يسرنا أن نكون فى أرمينيا الحرة الديمقراطية المستقلة. فالولايات المتحدة تربطها علاقة خاصة مع أرمينيا لكن يتعين علاج الوضع فى ناجورنو كاراباخ عبر الوسائل السلمية».

وقال الرئيس بتروسيان: «إننى علي يقين من أن الضمان الوحيد لاستقلال أرمينيا هو العيش فى سلام، إننا نسعي للتوصل إلى حل سلمى لقضية كاراباخ. ونحن نشارك فى المفاوضات الرامية إلى التوصل إلى حل سلمى لهذه القضية». ويتمع بتروسيان بأسلوب سهل شعبى ينفذ إلى قلب الموضوع مباشرة. ولستطرد قائلاً: «إن القضية قضية تقرير مصير فى المقام الأول. فبالأمن تحدثت مع الرئيس الأذرى ووافق علي أن للحل السلمى هو الطريق الوحيد».

وكنت علي ثقة من أنه بينما لا تكفل تلك الضمانات إنهاء الصراع فإنها خطوة مؤكدة فى الاتجاه الصحيح: «وأريد أن تأكّدوا من أنه إذا كان بوسع الولايات المتحدة المساعدة فعليكم أن تطلبوا ذلك علي الفور. وسوف نصارع بقول لا إذا لم يكن باستطاعتنا.. إن أمامكم أنتم وأذربيجان مهمة ضخمة لتتفروكم لبناء الاستقلال. فهذا عمل صنف فى حد ذاته. فمن لهم عدم تبديد الوقت والموارد والاهتمام».

واختتم بتروسيان بالقول: «بقدر ما بذلناه في أرمينيا لتجاوز المأزق المأساوي فإن ناجورنو كاراباخ قد تكسب في العودة إليه. إن مجرد وجودكم سيكون عامل استقرار في المنطقة».



وفي اليوم التالي قمنا برحلة قصيرة لساعات إلى باكو عاصمة أذربيجان حيث شاهدنا الجانب الآخر للصراع. وكان أول شيء تقع عليه أعيننا في باكو هو رفاعات البترول المكتسة قبالة بعضها، وخطوط الأنابيب التي كان معظمها فوق الأرض. وكانت رائحة النفط تفوح في كافة أرجاء المدينة، وتذكرت شبابي لهرمة عندما كان يحلوا لي كثيراً للقيادة عبر منطقة جوزي جريج بايتون المتاخمة لهيوستون واستلشاقى نفس الروائح ورأيت نفس المشاهد. كان الشيء الثاني الذي شاهدته هو القوضي الشاملة: فقد اقتحم وزير خارجية أذربيجان سيارة وفدنا، كما تسبب الرئيس عياض مطهوف في تأخير سفري لمحطتي التالية حيث نعل «مجرد غداء» عابر إلى وليلة ضيقة. لكن الشيء الثالث الذي تأكدت منه هو أن الجميع يهني وجهة نظر تختطف مائة وثمانين درجة مع ما سمعته الليلة السابقة في أرمينيا. ولحظة سأورثي فكرة أن وسواس خناس أعادني إلى منتصف عملية سلام أخرى.

وعندما التقيت بالرئيس مطهوف ألقى بكل مسؤولية الأزمة كالموقع علي الذرعة التوسعية الأرمينية ومحاولة الاحتواء لتدمير حكومته. وكانت روليه أكثر مرارة وتشاوماً عن بتروسيان. وشرح قائلاً: «إن الاتحاد السوفيتي برئاسة جورباتشوف وروسيا برئاسة يلتسين تتخذ موقفاً متحاراً ضد أذربيجان. كما أن الأرمن في الشتات يؤثرون في وسائل الإعلام العالمية».

وقلت له بحزم، في الوقت الذي لست فيه خبيراً بكل أوجه قضية ناجورنو كاراباخ فإن لدي أرمينيا وأذربيجان ما يكفي من المشاكل «وليمستا في حاجة لإضافة عبء جديد إلى الأزمة، وأكدت مجدداً استعداد الولايات المتحدة لبذل كل ما تستطيع لمساعدة الأطراف علي

التوصل إلى حل عبر التفاوض، لكننا نؤيد جهود الوساطة التي تقوم بها روسيا وقازاقستان ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا.

وقبل أن أعادر باكور بعثت برسائل أصف فيها مباحثاتي حول ناجورنو كاراباخ إلى اندريه كوزيريف ونور سلطان نزارباييف اللذين يتوليان جهود الوساطة في الصراع. وفي الوقت الذي أصرني فيه تور بتروسيان ومطربوف باعتبارهما «زعيمان عمليان يقدران تماماً مدى تعقيدات الصراع بينهما»، وأبرقت للربليس بوجهة نظري بأنه يتعين علينا أن نقتضي المشاركة المباشرة في التوسط في هذه الأزمة المستعصية. وكذبت له «بعد الاستماع لكلا الطرفين فإنني أشد اقتناعاً عن ذي قبل بأنه يتعين أن نساند جهود روسيا ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا للتوسط للتوصل إلى تسوية».

لعبة «جديدة» كبيرة في آسيا الوسطى؟

وبعد مرور خاطف علي الجنود الأمريكيين الذين وصلوا لقوهم إلى باكور برفقة شحنة في عملية بث الأمل، توجهنا عبر القوقاز وآسيا الوسطى إلى عشق أباد، عاصمة تركمانستان*.

أما وقد سبقت لي زيارة قازاقستان وقيرغيزستان كنت مثلهما لزيارة المزيد من دول آسيا الوسطى والأرض التي دخلت بسببها بريطانيا وقوي أوروبية أخرى «لعبة كبرى» لتطوى علي مشاطرة دبلوماسية جمعة في القرن التاسع عشر. وكنا بالطبع نشعر بالقلق حيال إيران، ولؤيد مساعي تركيا لجذب دول آسيا الوسطى لتحتل نفوذها بقدر أكبر.

* كان أرميناج الذي ترك انضماماً جيداً لفرقة السعفي المرافق قد ضمن جويط طائرة أمريكية من طراز سيه وسي ١٤١ أو سي ١٣٠ محملة بالأغذية أو الأدوية في كل محطة لوزل بها.

وفي الوقت الذي كانت تتفرد فيه مولدوفا وأرمينيا وأذربيجان فإن دول آسيا الوسطى شديدة الغربة بالفعل. وهي حقيقة اتضحت لي أكثر فأكثر لدي تحليلنا علي ارتفاع منخفض فوق صحراء قره قم للهبوط في عشق آباد حيث كان بوسنا أن نري إيران التي لا تبعد سوي عشرين ميلاً فحسب. وبمجرد خروجي إلي المدرج استقبلني مجموعة من الرجال في زيهم التقليدي وهم يرتدون قبعات منضعة مصنوعة من جلد الثعم. وفيما نحن في طريقنا إلي قصر الرئاسة اصطفت الجماهير تلوح لنا. فقد كان اليوم يوم عطلة خصيصاً لهذا الغرض. (وهو تقليد يضرب بجذوره إلي الاتحاد السوفيتي السابق).

واجتمعت مع الرئيس صابر مراد نيازوف في خيمة تركمانية مسقوفة بالخشب منصوبة بساحة الداشا الخاصة به. ولدي دخولنا إلي الخيمة قدم لي نيازوف ثوباً فضفاضاً مصنوعاً من جلد اللرنة (من أوائل أمريكا الشمالية) ودنا علي كل التقاليد الدبلوماسية وافترشنا الأرض.

وبدأت الاجتماع باستعراض الضمانات المطلوبة لإتمام الاعتراف الدبلوماسي الأمريكي مع نيازوف الذي أكد للترزاه بها جميعاً. وعندما حل دور ضمانات عدم انتشار الأسلحة النووية أبلغني أن لدي تركمانستان ثلاث مجموعات من الأسلحة النووية للتكثيكية من الجيش السوفيتي السابق. ومع ذلك فقد أبدي للترزاه بمنح الانتشار النووي (ولأننا نعرف بوجود الأسلحة النووية التكثيكية فقد راجعت الوكالة ومسئولي الدفاع، وعلمت أن موسكو فككت وأبطلت مفعول الأسلحة دون علم التركمان).

وعن قضية الإصلاح الاقتصادي قل نيازوف بكل بساطة: أننا نحتاج المساعدة. إننا نؤيد فكرة السوق. لكننا نحتاج رجال أعمال منكم. كان اقتصاد تركمانستان من بين أكثر الاقتصاديات البدائية في الجمهوريات السوفيتية السابقة، ووعدته باستعدادنا واستعداد الآخرين للمساعدة. وعندما طلب منا إيفاد «من أربعين إلي خمسين رجل أعمال يكونون علي استعداد لاستثمار مليون دولار علي الأقل في مشروع جديد». أوضحنا له أنه في الوقت الذي لا يعمل فيه اقتصادنا بهذه الطريقة فيسرنا أن نتفاوض معكم حول إطار قانوني تشر فيه الشركات الأمريكية باللفة في الاستثمار هناك.

ثم انتقلنا إلى غرفة مجاورة حيث بدأ مساعدونا في تناول الصنف السادس في وليمة تركمانية يقدم خلالها خمسة عشر صنفاً تشمل الطيور المحشية والخبز اللذيذ من كافة الأشكال والأحجام. وأصر صديقونا التركمان - إحساساً منهم بأنه من غير اللائق أن نبدأ أنا والرئيس للوليمة من منتصفها على ضرورة البدء بتقديم أول صنف. ولطماً ما كنت أزهو بشهيتي المفرحة التي لا ترفض شيئاً، لكن هذه الأسناف كثرة بل وكثرة للغاية. وقلت لنوم نيلز والتويلر: «لم أحد أستطيع لتناول أي شيء آخر فلا تدخيلان كم أكلنا في تلك الليلة».

وإجمالاً لقد كان عشاءً أسطورياً (إلى لم يكن خرافياً) اكتمل بالموسيقى والرقص والغناء وعقب الأنخاب السطولة وقف الرئيس نياروف لولعاً بالانتهاء وأخيراً غادرنا لأخذ قسط من الراحة وهضم تلك الوجبة.



وعقب قضاء يومنا التالي في زيارة متحف ومصنع للسجاد غادرنا صحراء تركمانستان باتجاه جبال دوشنبه عاصمة طاجيكستان. وفي الوقت الذي تعد فيه طاجيكستان واحدة من أقل الدول تقدماً من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق فإنها واحدة من أغنى من ناحية البيئة الطبيعية. ويوجد بطاجيكستان المنلخمة على ارتفاع شاهق بهاكستان وأفغانستان في منتصف سلسلة جبال بامير* (سقف العالم كما قيل لنا)، أعلى قممتين في الاتحاد السوفيتي السابق ويقع أكثر من نصف البلاد على ارتفاع يتجاوز لليرة آلاف قدم.

* سلسلة جبال شاهقة الارتفاع في آسيا الوسطى يقع معظمها في طاجيكستان بطعم جزء منها حدود شبهاتيج الزخور في الصين وجمهورية كشمير والهند وأفغانستان. تتجاوز ارتفاعات بعض قممها عشرين ألف قدم، ويبلغ ارتفاع أعلىها في الاتحاد السوفيتي السابق ٢٤٥٩٠ قدماً أما في الصين فيبلغ ارتفاع أعلىها ٢٥٣٣٥ قدماً (الفرسج).

وبينما يمتلك الطاجيك موارد معدنية غنية قلديهم لتقليل من الأرض الصالحة للزراعة. وعلي خلاف دول آسيا الوسطى الأخرى فإن معظم الطاجيك يتحدثون لغة أقرب إلي الفارسية، وهكذا تربطهم صلات وروابط أكبر مع طهران، وفي ضوء هذا فإن إيران كانت موضوعاً أساسياً لمباحثاتنا.

كان اجتماعي لمدة ساعتين مع الرئيس الطاجيكي رحمن نبييف مماثلاً لكل اجتماعاتي خلال الأيام القليلة الماضية. وأعرب في الإشادة بالولايات المتحدة ووافق علي العمل علي الوفاء بكل الضمانات التي طلبتها. وأكد رغبته في الانتقال إلي اقتصاد السوق، وأشار إلي أن التمددين قد يكون الطريق المؤدي إلي ازدهار طاجيكستان. وقال: «إن بلدنا ليست بلداً كبيراً. لكنه غني بموارده الطبيعية فعندما وزع الله الأرزاق وهذا الجبال» وقال أيضاً: «إنه يوجد في بلاده أعلى معدل للمواليد في العالم ونحن لا نريد ذلك».

وأشار نبييف بوضوح إلي أن الإيرانيين يبدون اهتماماً كبيراً بطاجيكستان، وأوضح أنه في الوقت الذي تفهم فيه الولايات المتحدة رغبة طاجيكستان في إقامة علاقات جيدة مع جيرانها الأكبر «فإن إيران تظهر المشاكل لكثير من الدول وليست للولايات المتحدة وحدها» وحذرت نبييف من أنه في الوقت الذي يسمي فيه النظام الإيراني إلي تصدير الثورة فإن المرء ليس في حاجة إلي القوة سحرية ليرى فيها لماذا تبتدي إيران اهتمامها بطاجيكستان. وقلت بوضوح: «لو طلبت نصيحتي حول كيفية التعامل مع إيران فسوف أرد، عليكم بدوخي الحذر». وأولاً نبييف بالمواقفة.

وعقب اجتماعنا ارتديت بعض الملابس الفضفاضة وزرت قرية راميت بوسط جبال بامير علي مسيرة ساعة بالسيارة من درشنه وألتقيت هناك بمعدة للقرية وأبنائه اللامائية بمنزلة. وكان جميع القرويين يرتدون الملابس التقليدية الملونة، وكان للكثير من الرجال دوى لحي بيضاء مرصلة. وبعد الترحيب للقروي «الشاي السالح» توغلنا في الجبال لتفقد محمية طبيعية بالغة الروعة. وأبطن المرشدون أن أفغانستان تقع علي الجانب الآخر لقمعة الجبل التي تطل علينا وعندما انزلت طاجيكستان في الحرب الأهلية التي حارمت عليها المقاومة الأفغانية جزئياً بعد أشهر لم أفاجأ مطلقاً.



وفي الصباح التالي غادرت جبال ملانجوكستان إلى أيكاترنبورج سفير دولفسك سابقاً مسقط رأس بوريس يلتسين إحدى المدن الصناعية في روسيا. وبينما أمضيت معظم يوم كامل في زيارة شيليا بنسك، أتاحت لي الفرصة لتفقد الموقع الذي أعدم فيه القيصر نيقولا الثاني ومشاهدة ما يعتقد أنه رفات ورقات معظم أفراد عائلته. وأتاحت الفرصة بمحضر الصدف. فأثناء عشاء مع حاكم المنطقة أبلغني أن للرفات قريبة، واستصر عما إذا كنت أريد أن أشاهدها. وأجبت بالطبع، وفي اليوم التالي رتب لي حاكم المنطقة روسيل جولة في الموقع.

ومنذ الدورة البشرية دأبت الحكومة السوفيتية علي نفى حدوث الإعدام، وأخضعت الموقع لحماية لصيقة. وفي الحقيقة فإن كبير الطماء الذي اكتشف الرفات أبلغني أنه كان يعرف بوجودها قبل عشرة أعوام، لكنه كان خائفاً من إبلاغ أحد. ولطأني علي صورة بالأبيض والأسود لجندي يقف علي حراسة الرفات المصفونة. وقد توفي الجندي وقدمت عائلته الصورة إلي العالم، وهكذا اكتشف المكان الذي دفن فيه القيصر.

وبدأت زيارة للموقع الفعلي الذي اغتول فيه للقيصر وأهم معالمه فقط زهر القرنفل الأحمر نطفيه الثلوج وصليب روسي أرثوذكسي.

ثم انتقلنا لمشاهدة الهياكل العظمية، وكانت رائحة الفورمالديهايد النفاذة تضي تماماً إنك في مشرحة. وأسفل السلم في غرفة صغيرة ضئيفة الإضاءة كانت للهياكل العظمية معددة فرق طاولات مغطاة بمفارش بيضاء، ورأيت مواقع اختراق الطلقات النارية عظام الصحايا بعد أن حصدت الطلقات الأولى أرواحهم. كانت جمجمة القيصر تحتوي علي فك أسنان ذهبية كما أن جمجمة زوجة القيصر كان بها عدد من الأسنان، وأبلغني كبير العلماء أنهم لم يستعملوها بعد التعرف علي الهياكل للإنسان لليكوس وإحدى البذات.

وكان الروس يريدون التأكيد من مصدر مستقل أن هذه الصظام حقيقية، وهكذا فقد وافقت علي إعارتهم عدداً من خبراء الطب الشرعي من مكتب التحقيقات الفيدرالي ومن قواتنا المسلحة.



وغادرت روسيا لمحتفلنا الأخيرة في آسيا الوسطى أوزبكستان يوم السبت الخامس عشر من شباط فيراير. وتاريخياً فقد هيمن الأوزبك علي المنطقة. يعود ذلك في جانب منه إلي أنهم يشكلون نحو أربعين في المائة من سكان آسيا الوسطى، واتضح لي أن الرئيس إسلام كريموف يعتقد أن تلك الهيمنة ما يبررها. وقال لي: إننا نركز في التركيز علي قازاقستان بالبدء بزيارتها.

وأمني كريموف تلك الشخصية المتسلطة أكثر منها ديمقراطية ثلاث ساعات بعد تفصيلاً التجاوزات التي تعرضت لها أوزبكستان علي أحدى النظم السوفيتي البلاد. ومع ذلك فقد أعرب عن تقديره والتزامه بالمبادئ الخمسة التي أعلنتها في أيلول سبتمبر ١٩٩١. ولدي إعلانة الموافقة أوضح لي أنه يحتفظ بنسخة من تلك المبادئ في مذكرة يضمها بحبيب معطفه، ورغم سروري لسماح التزام كريموف بتلك المبادئ لم يكن سجله في اتباعها يبحث علي الارتياح. وقلت له: «إنني سعيد بتأييدكم لمبادئنا لكننا مملون أساساً بالتطبيق، وعندما ألحمت عليه في قضية رفض الحكومة السماح بتسجيل أحزاب المعارضة السياسية، بادر في البداية بالدفاع عن موقف حكومته بالزعم بأن الأحزاب التي يعترض عليها إما مرتبطة بليبيا أو بالكي جي بي. وعندما منعت عليه أكثر وافق أخيراً علي (تخفيف) شروط تسجيل الأحزاب. وفي الحقيقة فإن كريموف الأشبه بالقرصان أخرجني عن لقاء زعمي المعارضة إيريك وبيبرليك اللذين تذكرني شجاعتهم في وجه ممارسات كريموف غير للديمقراطية بجماعات المعارضة التي التقيت بها في بلغاريا ورومانيا عام ١٩٨٩.

ولم تكن زيارة أوزبكستان شأن كل زيارتي في آسيا الوسطى لتنتهي إلا بوليمة. وبعد الوليمة التي تتجاوز أصنافها العشرة أصداف جاء دور الترفيه ببعض الأغاني الشعبية تلتها الرقصات.

وفي اليوم التالي رافقنا الرئيس كريموف في طائرته إلي مسقط رأسه مدينة سمرقند التاريخية القديمة. ومدينة سمرقند مدينة بالغة الروعة تعد أحد المعالم البارزة علي طريق الحرير العظيم الذي ربط آسيا بأوروبا ومن مرصد أولوج بك حتي نصب جوري أمير* كان كل مشهد وصوت يذكرنا بصدي روسخ ثقافة آسيا الوسطى.

وبينما نحن نطوف حول المدينة التي تشير بعض الاكتشافات الأثرية أن تاريخها يعود إلى ثمانية وثلاثين قرناً خلفت كثت متبقياً أنه تحت الطبقة الخارجية الناعمة للهائلة ترتد حرايات عرقية عميقة الجذور. ففي الماضي لدعي الطاجيك سيادتهم علي مدينة سمرقند وعلي مدينة بخاري الأوزبكية وفي الحقيقة كان الاتحاد السوفيتي السابق مزيجاً من المجموعات العرقية واللغوية المتباينة.

وما يدعو للأسف أن الشيوعية قد ألقت كاهل كافة الدول الجديدة بالأعباء. فأولاً: أعجز التخطيط المركزي اقتصاديات تلك البلاد وشوها إلى حد كبير علي الأقل. ثانياً أدى فرض الماركسية اللينينية تلك الأيديولوجية والهدأ التنظيمي الغريب إلي تجميد الحرايات العرقية عميقة الجذور، والصحيح أن الشيوعيين، وخاصة الستالين قاموا عن عمد بتعديل المنود وتهجير السكان من منطقة لأخرى لوضع كل قومية في مواجهة أخرى للحفاظ علي قبضة موسكر، وخلق هذا الجمع صراعاً شديداً ما بين الأعراق لأجبه التكافؤ القومي. وسرعان ما تجاوز هذا الخطر المحالوف من نشوب حرب نووية باعتباره التحدي الأمني الهازغ في عالم ما بعد الحرب الباردة فوس في أورسيا بل في قلب أوروبا ذاتها.

* مشروع بسم ثامرلاني وألوج بك وآخرون من سلالة تيمور. بنى في سمرقند في القرن الخامس عشر يوجد بداخله تشكيلات هائلة مستوحاة من الفنون العظيم والذهب وتطرق قبة بالقنة الزخرفة وجري لرمومه عام ١٩٦٧ (الكرج).

الفصل الثالث والثلاثون

الكابوس الإنساني في اليوسنة

هناك أناس يموتون بالفعل إننا لا نتحدث بالسياسة بأية حال.

هاريس سيلانيتش

وزير خارجية اليوسنة

إلى الوزير بيكر ١٤ نيسان إبريل ١٩٩٢

بجهد اليمم. أمين النهاية^{١٢}.

جون هيجوز

رئيس الوزراء البريطاني للوزير بيكر

٢٢ أيار مايو ١٩٩٢

أثناء وجودي في يوغسلافيا في ٢٦ حزيران يونيو ١٩٩١ للتحذير من تفرقاتها إلى الصراع والفوضى كانت يانبا لونيشار قريبة وزير خارجية يوغسلافيا تقدم سوزان إلى شخصيات المجتمع وترافقها في زيارة معالم بلجراد. تلك المدينة التي تعيش هدوء رهيباً في بلد يفتلق نحو الحرب. كان محور للجولة مأدبة غداء أقيمت علي شرفها. وحضر المأدبة قريبات الشخصيات السياسية والقانونية والفنية والفنية التي تشكل النخبة في يوغسلافيا. لكن المأدبة لم تكن مجرد مناسبة اجتماعية عادية. لأن الحديث في المأدبة ككل الأماكن في المدينة في ذلك اليوم كان يدور حول الحرب وحتميتها.

وعالما سمعت سوزان مراراً: «إننا لا نريد الحرب لكننا نتجه نحو خصوصها» وقالت لي لاحقاً في ذلك اليوم: إن الأمر برمته محير لأن للسوة يظن مختلف القوميات ولا أحد يريد العنف لكن الجميع يدورقونه. وتساءلت: «ماذا عن الرعماء للدينين أليس يوسعهم عمل شيء؟ وتلقيت الإجابة بأنهم سجلوا أيام تبتور ولم يعد لهم نفوذ حقيقي. وسألت أكثر من واحدة من الحضور: «لكنني لا أفهم لماذا ستخوضون الحرب إذا كانت ألي منكن لا تريدنا؟» . وفي إشارة واضحة إلي الزعيم الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش ونظيره الكرواتي فراتيو توديمان أبلغتها عدة سيدات «إن الصخريتين للجامعتين ليس أمامها طريق آخر».

رجاءت هذه الرؤية المتشائمة متفقة مع شواغل بريجت سكوكوفت ولاري إيجلبيرجر اللذين أمني كلاهما سنوات في يوغسلافيا (فقد عمل سكوكوفت ملحقاً عسكرياً وإيجلبيرجر سفيراً) وخرجت بانطباع قائم من زيارتي لبلجراد ذلك اليوم. وكما كتبت للرئيس لدي عويتي من البلقان في حزيران يونيو، إن زيارتي ليوغسلافيا كانت قوفاً تاماً. وقد راحة شديدة فإنني أعتقد أنه من السهل التعامل مع شامير والأسد عن محاولة التأثير علي ميلوسيفيتش ونوديمان.

«إن ما لمسته في يوغسلافيا هو أجرامات غير واقعية تسيطر علي اللاهبيين السياسيين، والحرف يملؤني من أنه سيكون من الصعوبة البالغة الحيلولة دون وقوع صدام عنيف. إن ما يزيد الطين بلة أن أولئك المشبكين بمواقفهم لديهم إحصاس زائف بالأمن لا اعتقادهم التراسخ بأن الأسوأ لا يمكن أن يحدث بل ولن يحدث. (فقد أبلغني توديمان أن المحاولف من نشوب

حرب أهلية مبالغ فيها إلى حد كبير. وقد صدر هذا عن رجل سارع بتسليح للحرس المدني في كرواتيا).

ومع اتساع نطاق الصراع في البلقان في صوب وخريف ذلك العام وانتشار الأوضاع في البرسة في الربيع التالي استرجعت ما كانت تقول سوزان. إنه يرمز لي بالملأمة الحقيقية التي آلت إليها يوغسلافيا. إنها حرب شامخا القوميون المتحصبون أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش وفرانكو توديمان، وأنه مع وجود هذين الطغين فقد تحول إلي صراع يستحيل أن يمنحه الآخرين. صراع لا ينقصه سوى استخدام القوة العسكرية الشاملة بما في ذلك القوات البرية ومن شأنه أن يرقى أرواح الكثيرين والكثيرين جداً من أولئك الذين يسمون لردع الحرب. وبمجرد بدله فإن صراعاً في يوغسلافيا السابقة يكتسب منطقاً عكسياً بذاته، وحيث إن نهجه المروع يكتسب زخماً فمن المستحيل أن يوقفه العالم الخارجي - علي الأقل من جانب مجتمع دولي منقسم يعيش في معصمة إقامة مؤسسات جديدة ويكيف القديمة للعالم ما بعد الحرب الهاربة.

الحرب الصربية الكرواتية

بعد أربعة أيام من زيارتي لبلجراد صوت برلمان كرواتيا وسلوفينا لصالح الاستقلال وبدأت يوغسلافيا الصرب في اليوم التالي. حيث يقاوم السلوفينيون للجيش الوطني اليوغسلافي للسيطرة علي نقاط العبور الحدودية السبع والثلاثين. وأصدرنا بيانات ننتقد لويليانيا وغرب لإعلانهما الاستقلال من جانب واحد. الأمر الذي قصي علي احتمالات التوصل لأي تسوية سلمية من خلال التفاوض، وكذلك لاستيلائهما بالقوة علي المعابر الحدودية، وهي إجراءات تشكل جميعاً انتهاكاً لاتفاقيات هسكي. وانتقدنا أيضاً كثافة الأطراف للجرم إلي العنف. لكن السؤال المرح للذي يواجهنا يكمن في الدور الذي يتعين أن نقوم به في محاولة لطرح مبادرة سلام. ولم تكن هناك أي أفكار في ذلك الوقت باستخدام القوات البرية الأمريكية في يوغسلافيا. فن يؤيد الشعب الأمريكي هذا الإجراء مطلقاً. وفي المقام الأول فقد خاضت الولايات المتحدة ثلاثة حروب خلال هذا القرن في أوروبا حربان

ساخنتان وثلاثة باردة. وتكفي ثلاثة حروب خاصة وألنا خضنا للتو حرباً شاملة. حرب في الخليج هذه المرة.

ففي أزمة الخليج التي اندلعت في آب العام السابق تبين للرئيس علي للفر أن المصالح الحيوية الأمريكية عرضة للخطر، وبادر بالحرك، علي للفر لتأكيد زعامة الولايات المتحدة للمجتمع الدولي. وعقب انتهاء عملية عاصفة الصحراء بنجاح في شباط فبراير ١٩٩١ أوفدني للرئيس إلي للشرق الأوسط للبدء في تحريك عملية السلام. وترك هذا التحول في مسار الأحداث مشاعر لدي للتكثير من الزعماء والدبلوماسيين الأوروبيين بمدني الحاجة إلي للتأثير والمشاركة في للتطورات التي تؤثر علي المجتمع الدولي. وفي المقام الأول كانت المجموعة الأوروبية ١٩٩٢ أمامها نحو عام والاتحاد السوفيتي يحول مرحلة انحصار والتحديث بدور في بروكسل وباريس وبون وروما وللمواسم الأوروبية الأخرى حول قوة عظمي بارزة. وفي هذا السياق فلماذا ما كان لأوروبا أن تتجهوا مكانها كقوة عظمي حينئذ فإن علي الأوروبيين لا الأمريكيين تولى زمام القيادة في إدارة الأزمة اليوغسلافية التي نشبت علي أعتاب أوروبا وأراد الأوروبيون تولى القيادة ورحبوا بفرصة التعامل مع الأزمة عبر المجموعة الأوروبية.

وشجرت إدارة بوش بالارتياح لتولي المجموعة الأوروبية مسؤولية معالجة الأزمة في البلقان. وبدأ أن الصراع من النوع الذي تستطيع المجموعة الأوروبية إدارته. والأكثر أهمية هو أن يوغسلافيا تقع في قلب أوروبا ولأن المصالح الأوروبية مهددة بشكل مباشر. فضلاً عن ذلك فإن للأوروبيين تاريخ طويل، حتي وإن كان أقل نجاحاً في التعامل مع البلقان في ضوء التاريخ المتعدد والنسيج المتشابك للقوميات في المنطقة.

والأهم أنه علي خلاف أزمة الخليج فإن مصالحنا القومية الحيوية لم تكن عرضة للخطر. فالصراع في يوغسلافيا ينطوي علي احتمالات الانحسار علي الحل. لكنه مع ذلك صراع إقليمي. فشبهة ميلوسيفيتش بنفس قوة شهية صدام لكن صربيا لا تشك الإمكانات أو القدرات التي تستطيع بها للتأثير علي المصالح الحيوية لأمركا مثل حرية تدفق إمدادات الطاقة. وكان التهديد الأخطر علي المصالح الأمريكية في ذلك الوقت يكمن في الوضع الهش بشكل متزايد في موسكو، وأثرنا لإبقاء تركيزنا علي ذلك للتحديد الذي ينطوي علي لتداعيات

كونية بالنسبة لنا خاصة بالنسبة للأسلحة النووية. إضافة إلى هذا ففي صيف عام ١٩٩١ كانت عملية السلام في الشرق الأوسط تسفرقنا تماماً، وكنا علي وشك جمع الأطراف علي مائدة التفاوض.

وكان لدينا سبب آخر للشعور بالارتياح لترك مهمة معالجة الأزمة للمجموعة الأوروبية. فقد خضنا معركة سياسية في بروكسل حول علاقة اتحاد غرب أوروبا (الجناح الدفاعي) للمجموعة الأوروبية وحلف شمال الأطلسي. وكانت هذه المعركة في جوهرها تدور حول تصورات مختلفة بشأن دور أمريكا وأوروبا. فبعض الأوروبيين وهم علي يقين من جدية الوحدة السياسية والفنية التي ستقضي إلي إقامة قوة عظمي أوروبية كانوا متشبثين بتأكيد قوة كيان دفاعي يقتصر فيه دور أمريكا في القارة إلي أدنى حد. وناضلنا ضد هذا التصور لفترة من الوقت، وحاولنا حملهم علي الاعتراف بهذا - فحتي مع تلاشى التهديد السوفيتي فإنهم لا يزالون في حاجة إلي مشاركة أمريكا. لكن احتجاجنا ذهب أدراج الرياح في عصفوان الاندفاع العاصف نحو إقامة أوروبا الموحدة. وكانت النتيجة تيار خفي في واشنطن يشعر به لكن لا يدور حوله الحديث إلا نادراً بأن الأوان قد آن لهزوغ الأوروبيين وإظهار أن بوسعهم التصرف كقوة موحدة. وتشكل يوغسلافيا أول اختبار جدي في هذا الصدد.



وترتيباً علي ذلك اصطلعنا خلال الصيف بدور مساند أثناء محاولة المجموعة الأوروبية عبر ممثلها الخاص لورد كارينجتون التوسط لحل الصراع، وإسوء الحظ فلم نحرز مساعي المجموعة الأوروبية سوى نجاح ضئيل في شهر تموز/يوليو وأب أغسطس ١٩٩١. فالأطراف اليوغسلافية تشارك في المفاوضات التي ترعاها المجموعة الأوروبية لكنها ستواصل القتال علي الأرض. ومع اقتراب الصيف من نهايته تطورت مساعي المجموعة مرة أخرى.

في الوقت نفسه تعزز قلقنا حيال الاتحاد السوفيتي بعد محاولة الانقلاب الفاشلة ضد جورباتشوف في ١٩ آب أغسطس. وبينما لم تستغرق الأزمة سوى ثلاثة أيام كان من الواضح

أن حطى التطورات السياسية في الاتحاد السوفيتي قد تسارعت بشكل جذري. ومن الواضح أن تركيزنا المحوري لشهور قائمة سيلصب على الإدارة السطوية لتفكيك الاتحاد السوفيتي. وكان الرئيس شخصياً أشد قلقاً حول سلسلة من الحوادث المتتالية بنظام السيطرة والتحكم أثناء محاولة الانقلاب، وأتفق معظم أيام أولول في إعداد المبادرة النووية التي أعلنها في ٢٧ أولول سبتمبر.

وخلال الخريف أجريت عدة مناقشات مع هانز فان ديرك بروك حول التكال التلتر بين المرب والمكروا، وفي ١٨ أولول سبتمبر أبلغته بأننا سنواصل دعم مساعي المجموعة الأوروبية لحل الأزمة. وباعتباره رئيسا للمجموعة الأوروبية في دورتها حينذاك كان مشغولاً بتجميع ورهن صفوف المجموعة في ضوء الاعتبارات القللمة مثل للوجهات التاريخية طويلة الأمد، والمساعي القومية، والأجانب الذين استقروا في البلاد الأوروبية المجاورة. فالألمان والإيطاليون يميلون حقيقة للمكروا والسوفيتيين. بينما البريطانيون والفرنسيون من أقوى مؤيدي صربيا للعلاقة الوثيقة التي جمعهم أثناء الحرب العالمية الثانية. وساور القلق بروك لأن الصراع يتحرر من أيدي المجموعة، ولأن المجموعة ستضطر إلى إشراك مجلس الأمن الدولي، وكان قلقاً من الانطباع الذي سيلركه هذا الأمر بشأن قدرة أوروبا على إدارة صراع في فعالها الخلفي، واحتمال عدم رغبة بعض دول مجلس الأمن الدولي في معالجة قضية يوغسلافيا كمسألة للأمم المتحدة. فقد كان يعتقد أن للصين قد تستخدم للغير ضد أي نورط فيما تحبوه بكونه شأننا يوغسلافيا داخلها.

وكانت أكبر مشاكلنا مع إشراك الأمم المتحدة تكمن في أن عدد اللاعبين سوف يزداد. فإذ المجموعة الأوروبية مشاكلها في الحفاظ على سياسة متصاسكة، وإن يساهم دخول الأمم المتحدة على الخط إلا في تعقيد الأمور. وكنا نشعر أيضاً أن مشاركة الأمم المتحدة قد تعزز الصغور للاعتراف بالجمهوريات الطامعة للاستقلال قبل تطبيق تسوية سلمية شاملة. ولم تساورنا أية أوهام. وكنا ندرك أن يوغسلافيا ككيان سياسي مشترك قد اضلني للأبد. لكن كنا نواجه عدداً من الرسائل التي نستطيع بها تهذيب سلوك مختلف الأطراف، وكنت شخصياً على اقتناع بمنكرة عرضها على دينيس روس في ٥ تموز يوليو بأن مصالح الولايات المتحدة لن يخدمها إعلانا واعترافات خاصة غير منسقة أو رفض واستخدام هذه المصالح

علي أكمل وجه إذا ما استطعنا المساعدة في وضع إطار فكري وعملي تقرر في إطاره عمليات الاستقلال الحالية والمستقبلية في الشرق بل وفي مختلف أنحاء العالم. كل جمهورية تلمس الشرعية في الغرب، ولذا فإن تعليق الاعتراف (أو منحه) يشكل أقوى الأدوات الدبلوماسية المتاحة. فكسب الاعتراف أحد مميزتنا لدى المتحاربين*. وكان الحصول على الأسلحة أداة أخرى، ومع حصار الصرب لبدة فوكوفار ولندلاع للقتال على الساحل الدانماسي في أيلول سبتمبر انضمامنا إلى المجموعة الأوروبية في مجلس الأمن الدولي لاستصدار القرار رقم ٧١٣ لدى قرر عرض حظر علي بيع السلاح لكافة الأطراف**.

وبعد ستة أسابيع وفي قمة للمجموعة الأوروبية في لاهاي انضمامنا إلى المجموعة الأوروبية في فرض عقوبات اقتصادية وفي الجهود الدبلوماسية إلى تعزيز حظر التسليح.

وفي تشرين الثاني نوفمبر اتفق الكروات والصرب علي نزع سلاح دوبروفنيك. ووافق الجانبان علي نشر قوات من الأمم المتحدة لحفظ السلام. وفي ٢٧ تشرين الثاني نوفمبر وافق مجلس الأمن الدولي علي إيفاد مبعوث خاص إلى كرواتيا وصربيا وعين سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكي السابق لشغل هذا المنصب. وفي الوقت الذي لازال القلق يساورني حول مشاركة الأمم المتحدة فيما كان عملية تفاوض تنفرد للمجموعة الأوروبية بالإشراف عليها ربطتني علاقة جيدة مع فانس (الذي كان مقرراً لإيجاهيرجر). ولذا فقد أحسست بأنه سيكون قادراً علي العمل جيداً فيما أصبح عملية تفاوض بازعة تشرف عليها المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة (فضلاً عن ذلك كان خافيير بيريز دي كويار قد تشارف مع قبيل صدور الإعلان لأنه في سبيله لاختيار وزير خارجية أمريكي سابق كمبعوث خاص وشجعته علي إختياره). ولمسوء الحظ فإن أحد المقترحات الأساسية التي كان يحتفظ بها كاريجتون

* بينما تقدم الأوروبيون لنا في نفس الوقت الفلاس بالاعتراف أناسيف وغريف عام ١٩٩١ كنا نقضي باستمرار أخباراً مثقلة بأن بعض الحكومات الأوروبية تفتح قنوات خفية مع مختلف للتسائل اليوسلافية لتمهيداً علي التسني تماماً. وفي الواقع لقد مارستنا متعمداً مكثفة علي الألمان علي غرار قمة حث شمال الأطلسي في روما في تشرين الثاني نوفمبر لندم الخروج علي الإجماع الأوروبي بشأن مسألة الاعتراف.

** بعد عدة أشهر التفتد البعض حظر السلاح. لأنه حال دون قيام الحكومة اليوسفية بتسليح نفسها. لكن الحظر كان يستهدف في حيله كرواتيا وصربيا. ولم يكن هناك قتال في البوسنة.

وقائس في المفاوضات - وهي موقف أوروبي موحد حول الاعتراف بكل جمهورية من جمهوريات يوغسلافيا - سرعان ما ولي.

معضلة الاعتراف

انفجر السد عندما أقدم الألمان منفردون تحت مظلة الضغوط الداخلية علي الاعتراف بـكرواتيا وسلوفينيا في ٢٣ كانون الأول ديسمبر. وقصني هذا علي جهود فان دين بروكه وكارينجتون لمنع بقية دول المجموعة من اتخاذ هذه الخطوة، وهي الجهود التي حاولنا تأييدها بقيام سفارتنا لدي دول المجموعة الأوروبية بتبني الدول الأعضاء بأن الاعتراف بـكرواتيا وسلوفينيا لن يزيد الموقف إلا تدهوراً. لكن تلك الجهود ذهبت أدراج الرياح لأن المجموعة الأوروبية حدثت حذر الألمان في الاعتراف بالجمهوريتين في ١٥ كانون الثاني يناير ١٩٩٢.

وصب قرار المجموعة الأوروبية طابت من إيجلبيرجر التباحث مع فانس. وطلب منا أن نتردث لأسبوعين علي الأقل، وحيناً لو تريتينا لمدة شهر قبل الإقدام علي الاعتراف. وسوف يتيح هذا فرصة من الوقت لنشر قوة الأمم المتحدة لحفظ السلام. وكان فانس يعتقد أن قرارنا بتعليق الاعتراف كان له أثر مهم في كبح الصرب كما منع ميلوسيفيتش وتوديمان من اقتسام البوسنة. ووضعنا هذا في موقف صعب داخلياً مع اللوبي الأمريكي الكرواتي لكنني قلت للرئيس علي الغداء في الرابع والعشرين من كانون الثاني يناير: «يمكننا، بل يجب علينا أن نقدم حماس الرأي العام وللكونجرس. علينا بذل قصاري جهودنا لتأييد مساعي فانس لأن أفضل آمالنا في تسوية الأزمة هو استمرار سريان وقف إطلاق النار، وتركز قوة الأمم المتحدة». ووافق الرئيس، ومن ثم انتظرنا.

واتصلت القنصية بالاستفتاء البوسني المقرر إجراؤه في الأول من آذار مارس فمن ناحية كنا علي شبه يقين بأن المسلمين والكروات في البوسنة سيصوتون لصالح الاستقلال. لكن كنا نشعر بالقلق من أن المتطرفين من صرب البوسنة سينتهزون العقوبات كدريمة للتحريض

علي العنق والتماس المساعدة من بنى جلدتهم الصرب في بلجراد. وفي ٢٧ شباط فبراير عرض على توم نيلز مساعد وزير الخارجية للشؤون الأوروبية ورقة تحدد الإطار العام لخمس خيارات حول الاعتراف. وفي ذلك الحين كانت خمس وأربعون دولة فقط قد اعترفت بسلوفينيا وكرواتيا. في حين لم تعترف بمقدونيا والبوسنة سوي بلغاريا وتركيا. واشتملت كافة الخيارات على الاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا. ولحاطت علامات الاستفهام بالبوسنة ومقدونيا وعما إذا كان يتعين علينا أن نتصرف باستقلالية أو الاتفاق مع المجموعة الأوروبية.

ولخمس نيلز معضلتا بافتدرا، وكتب يقول: «إن هناك احتمالاً حقيقياً بأن يتدلع العنق المائلى في أية لحظة في البوسنة والهرسك. فالاعتراف بعد طريقاً لتعزيز الاستقرار، ولا سيما إذا جاءت نتيجة التصويت مزيدة بوصح للاستقلال. فصلاً عن ذلك فإن عدم الاعتراف بالبوسنة ومقدونيا بتركهما عرضة لضغوط سياسية وأنشطة المتطرفين. فقد حذرنا الرئيسان المقدوني جابجوريف والبوسني عزت بيجوفيتش أكثر اللاعبين تعقلاً في الأزمة البوسلافية، من أن استقرارهما في خطر لو حظيت الجمهوريات الأخرى بالاعتراف ولم تحظ جمهوريتيهما به. وعلي العكس فليس هناك ضمان بأن اعترافنا سيمنع الانهيار في البوسنة».

وعرض هذه الحجج أيضاً وارين زيممان في بلجراد. وكان يتبدى الأمل الواقعي بأن الاعتراف بالبوسنة والهرسك قد يكون أحد الطرق لتحويل المشكلة، ومنع للصرب من التدخل. واختصاراً فإن الاعتراف الغربي المنسق بالبوسنة قد يردع العنق للصربي والكرواتي. وبعد استعراض التحفظات خلص نيلز إلي تأييد الاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة مع الإشارة إلي عزمنا العمل مع المجموعة الأوروبية حول مسألة مقدونيا (كانت فكرة أن البوسنة أكثر تفعراً، وأن الاعتراف بمقدونيا قد يؤدي إلي سقوط حكومة رئيس الوزراء ميسوتو كيس في أثينا، قد وردت ضمناً في التوصيات).^{*}

وفي ملاحظة علي غلاف مذكرة نيلز كتب إيجابجورج طرقته كالمعتاد وقال: «إن

* لأسباب سياسية وتاريخية عميقة الحدود اعرض اليوغاويون ضاماً علي اسخضم الجمهورية اليوغسلافية السابقة لاسم مقدونيا. وفي الواقع صار عشرات الآلاف في شوارع أثينا محترقون من أي تهاون في الموقف المكيبي المعتد.

مبحث تلقى هو أن سياسة تردد حول الاعتراف ستثير روح المخامرة الصربية والكرواتية في البوسنة والهرسك ومقدونيا وهذا هو مبحث اللقوق.

فضلاً عن ذلك لابد أن مقدونيا والبوسنة والهرسك تستوفيان كل معايير الاعتراف. فقد لجأت إلي عملية ديمقراطية لتهيئة أرضية العمل لإعلان استقلالهما. فقد تمركنا بحذر تجاه الاستقلال مقرتان بأن الوضع في يوغسلافيا لم يترك لهما أى بديل آخر كأمر وسيلة للحفاظ علي النفس. كما أن حكومتيهما متثلان وتلتزمان بمبادئ الديمقراطية بمعايير المنطقة علي الأقل. وباختصار كان من رأى إيجلبيرجر كيف يمكن أن نعترف بكونياتنا وسلوفينياتنا للثنين أعلننا الاستقلال من جانب واحد بما يتنافس مع اتفاقيات هلسنكي وألا نعترف بالبوسنة ومقدونيا اللتين أعلننا استقلالها بطريقة سلمية وديمقراطية؟ وأشار إلي أنه متلاً عن ذلك فإن عدم الاعتراف بالبوسنة ومقدونيا قد يشير عدم استقرار حقيقي ربما يستغله المقامرون في صربيا واليونان.

واكتشفت أن حجج إيجلبيرجر مقنعة، وفي اجتماع عقدته في الثاني من آذار مارس مع توم نيلز وريجي بارلو تومير ويوب بيرسون ومارجريت تاتوفير ولارى قررت المضي قدماً واختبار المياه قبل أن نقطع أى للتزم. وفلت ذلك في رسالة بحث بها في الخامس من آذار مارس إلي الأوربيين ولورد كارينجتون وسايروس فلنس. واقدحت عقد اجتماع أمريكي مع المجموعة الأوروبية الأسبوع القادم لبحث مسألة الاعتراف، واقدحت أن تتحرك الولايات المتحدة للاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا علي أن تتضمن لنا المجموعة الأوروبية في الاعتراف بالبوسنة ومقدونيا بعد ذلك بفترة. وجاء في الرسالة: «وكلى ثقة في أنه حقيقي بالنسبة لكم. لقد بحثنا قضية ما إذا كان الاعتراف باستقلال جمهورية البوسنة والهرسك سيساهم في جلب الاستقرار لتلك الجمهورية التي تقوم علي توازن دقيق، أو سيشجع الجهود التي تبذلها الأقلية الصربية للكبيرة لزعزعة الأوضاع. ولقد خلصنا إلي أنه بينما لا يوجد بوصوح أى نفوذ خارجي يمكنه أن يضمن الاستقرار وسلامة أراضي البوسنة والهرسك فميسعنا أن نقدم أفضل مساهمة لتحقيق هذا الهدف بالاعتراف الجماعي باستقلال الجمهورية، ونحذر من منحة الجهود الداخلية أو الخارجية لتفويض سلامة أراضيها. وأشرت إلي أن صربيا تحاول زعزعة استقرار الوضع، وقد وجهنا إنذاراً قوياً إلي ميلوسيفيتش لوقف

تلك الأنشطة، وإلا فسوف يقامر بالتعرض لعواقب وخيمة لمستقبل علاقات بلاده مع الولايات المتحدة*.

وأوضحت نفس الشيء بالنسبة لمقدونيا مؤكداً أن عدم الإسراع بالاعتراف سيؤجج المقامرين على التحرك بسرعة لتصعيد الوضع إلى صراع مفتوح. وفي الوقت الذي كان الأوروبيون يدفعون فيه عن الموقف الذي حذره اليونانيون للمجموعة الأوروبية حيال مقدونيا فقد كانوا عازمين عن الضغط على أثينا التي لم تشر بالارتياح لأفراحنا. وقال وزير الخارجية ساماراس: «لنعتقد الاجتماع لكن لا تهزوا للقلوب» بينما أعرب ميتسوتاكيس عن قلقه العميق بشأن البرونة تلقينا الكثير من التأييد وخاصة من الألمان والبريطانيين - رغم أن كافة أعضاء المجموعة الأوروبية لا يريدون تعقيد للمفاوضات البوسنية المتعقدة تحت رعاية المجموعة.

وتردد أن كارينجتون لا يشر بالارتياح للهج المجموعة الأوروبية تجاه مقدونيا ويعتقد أن الاعتراف قد يقطع الطريق على البرونة - رغم أنه يعتقد أن الاعتراف مفيد في مجمله. وأعرب فانس عن قلقه لإيجلبيرجر بأننا نتحرك بشيء من السرعة، وأن هذا الاعتراف قد يعزل مركز قوات الأمم المتحدة. لكنه تفهم أسبابنا وبدأ امرتاحاً إجمالاً. وبسبب قلق فانس تحدثت مباشرة مع لورد كارينجتون بعد ظهر التاسع من آذار مارس اليوم السابق للاجتماع مع المجموعة الأوروبية. وأبلغني كارينجتون أنه يعتقد هو وفانس أنه سيكون من الخطأ الاعتراف بالبرونة قبل وصول قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام. المقرر له بعد أسبوعين. وكان كارينجتون يريد منا التحرك بالتنسيق مع المجموعة الأوروبية وقال إن المجموعة سوف تعترف بالبرونة في الاجتماع الذي تعقده في ٦ نيسان/إبريل.

وأبلغته بأننا ستتحرك بالمشاركة مع المجموعة الأوروبية وسوف نتفق على جدول زمني سيكون مقبولاً لفانس والأمم المتحدة. وقلت أيضاً من سوء الحظ ألا تجلى البرونة

* في ٢ آذار مارس أصدرت نيمفى إلى زيمرمان رسالة إلى ميوسوفيتش بأننا نري مقدونيا واستمداً لأملات صربية تهدف إلى إنهاء نتائج الاستفتاء. فتملاً من ذلك فإتينا نظرمين الخطوة إلى الصفر الصربي في المعاملي التي يقوم بها الزعيم الصربي رادوفيتش كاراداييتش لزعزعة الاستقرار.

ومقدونيا سوي للتفليل من الجوائز رغم أنها قطعتا الطريق الصحيح للوفاء بشروط الاعتراف وأبدي موافقته.

وفي اليوم التالي في بروكسل توجهت إلي مبني شارلمان للمشاركة في الاجتماع الوزاري مع المجموعة الأوروبية. وبعد أن تحدث بعض المتحدثين بات بما لا يدع مجالاً للشك أن المجموعة ليست موحدة بأي حال من الأحوال. وألمح رولان دوما إلي أننا راجعنا المقويات المخفلة المطبقة حينذاك ضد التصرب قاتلاً: «إننا لا نريد عقاب طرف رئيسي» ولأنه بات من الواضح أن اليونانيين سيواصلون استخدام الفيتو علي أي تعرك المجموعة الأوروبية حول مقدونيا فقد سلمت بالواقع وكسرت طاقتي للبرسة. وجاءت أكثر المدخلات فائدة من جانب دوجلاس هيرد الذي عكس منطق إيجليبرجر بقوله: «لا يمكن أن ندع هذه الجمهوريات في مهب الريح. لأننا نحن الذين خلقنا الوضع الحالي بالاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا واختتمت الاجتماع بفقاهم خاص بأن تعترف المجموعة الأوروبية بالبرسة في اجتماعها التالي في ٦ نيسان إبريل علي أن تتبعها بالاعتراف بالدول الثلاث بعدها بقليل.

وعلمت أن مقدونيا سوف تستغرق بعض الوقت، وعلائية أصدرنا بياناً معتدلاً بأنه سيتم إيلاء «اعتبار بناء» للاعتراف بالبرسة والهرسك ومقدونيا (رغم أن المساسية اليونانية حالت حتي دون ذكر كلمة مقدونيا في البيان).



واستعصت الاجتماع الأمريكي مع المجموعة الأوروبية في اليوم التالي مع حارس سيلاديتش وزير خارجية البروسة الذي قال: «إن البروسة يمكن أن تشكل نموذجاً ناجحاً للدولة الاقتصادية لو كفت للعوي للخارجية عن التدخل في شؤونها» وقال: إن الاعتراف للخري يمكن أن يعزز الاستقرار علي أكمل وجه، واستعصرت منه عن الجيش الوطني ليوغسلافي وقال: إنه «يعمل» وإنه «بعيد عن السياسة» ووجدت في ذلك مفاجأة كبيرة لكن حارس سيلاديتش قال: إن الحكومة البروسية طمأنت للجيش بأنه إذا ظل بعيداً عن السياسة وحفظ أعباده فسوف تدعمه بأنصبي طاقاتها.

وبعد ثلاثة أسابيع في يوم الإثنين السادس من نيسان إيريل اعترفت المجموعة الأوروبية بالبوستة وحذونا حذوها في اليوم التالي. بينما وافق مجلس الأمن الدولي علي نشر فولت سلام في البوسنة، واعترفنا أيضاً بسلوفينيا وكرواتيا، وفي الوقت ذاته أعلن صرب البوسنة دولتهم المستقلة، وشدت طائرات الجيش الوطني اليوغسلافي هجمات صاروخية حول سراييفو.

وفي ذلك اليوم (الجمعة) أصدرت تعليماتي إلي زيمران سفيرنا في بلجراد بتحذير ميلوسيفيتش بأننا نشعر بالقلق من القوة والتخويف للصربي، وأنه إذا أرادت بلجراد إقامة أي علاقة معنا فعليها أن تحترم استقلال وسلامة أراضي جيرانها، ونقي ميلوسيفيتش أي تورط نفياً قاطعاً.

وبينما الأشخاص يخفون إلا أن ميلوسيفيتش عادة ما كان يرد علي مساعدتنا برفع حاجبيه وسؤال زيمران: «لماذا تأتي للقائي؟ إن هذه قضية بوسنية، وليس هناك صرب من صربيا متورطون فيها، وحتى الصرب غير مهتمين في البوسنة، إنه ينطق بسفيرة سواء كان شديد المروعة يدأي عن المسؤولية، ويحرك الأمور من وراء ستار في البوسنة.

واتبعنا رسالتنا إلي ميلوسيفيتش برسالة إلي شركائنا الأوروبيين أوصيناها فيها بأن يصدروا تعليماتهم ببذل ماضي في بلجراد، وحاولنا أيضاً حشد التأييد لطرد صربيا والجهل الأسود باعتبارها يوغسلافيا من المنظمات الدولية. مما سحرم النظام من الشرعية. وخلال عطلة نهاية الأسبوع وعقب مباحثات لمدة يومين تمت رعاية المجموعة الأوروبية التفتت الأطراف البوسنية علي وقف إطلاق النار. لكن القتال سرعان ما تجدد يوم الإثنين مرة أخرى.

وأصبحت هذه هي السمة السائدة خلال الربيع والصيف، فنحن نحرب عن قتلنا لبلجراد وميلوسيفيتش يتصل من أي مسؤولية. لكن القتال يحسر ثم ما يلبث الصرب بعد أيام قلائل أن يبدأوا في شن هجوم آخر. ربما كان ميلوسيفيتش متشدداً. لكنه متشدد معقد يفهم خبايا السياسة الغربية. فقد كان بارعاً في تحدي عزيمة المجتمع الدولي بحلاده ثم يتخذ خطوات تصالحية عندما يقتضي الأمر.

ويوم الثلاثاء ١٤ نيسان إبريل زارني سولاديتش في واشنطن وأبلغته بأننا وجهنا رسالة قوية عبر عادية إلي ميلوسفيتش، وألنا نشر بالقلق تجاه ما يحدث في البوسنة. وقت له: إننا سنعمل علي تفصيل للمجموعة الأوروبية والمجتمع الدولي رغم أنني لم أشأ تصليده بأن قوت الأمم المتحدة لمفط السلام ستحول إلي قوة لصنع للسلام.

وبدلت بالقول: «أرجو أن تعرض علي أوضاعكم»

ورد قائلاً: «سيدى، بينما نحن نتحدث هناك أناس يموتون. إنهم يقتلون المدنيين كما لو كانوا حيوانات. هناك أناس يموتون بالفعل، إننا لا نتحدث بالسواسة بأية حال». كان لطريقة حديثه الرقيقة وقع شديد التأثير وكشفت لغته الصريحة حجم الألم الذى تعالیه بلاده بطريقة لا تستطيعها أى مساع دبلوماسية علي الإطلاق. كان هذا الاجتماع بلاشك واحداً من أكثر الاجتماعات المؤثرة التى عقدتها كوزير للخارجية.

ومثل لقالى مع الأكراد فى الجبال دفعى اجتماعى مع سولاديتش إلي اتخاذ إجراء. (وعقب الاجتماع طلبت من لارى أن يصطحب سولاديتش للقاء المنداء السياسيين لترويجا المجموعة الأوروبية - للذين تصادف وجودهم فى الخارجية) وطلبت من مارجريت تاتويلر للتباحث مع وزير الخارجية البوسنى حول أهمية استخدام وسائل الإعلام الغربية لعشد التأثير فى أوروبا وأمريكا الشمالية لقضية البوسنة، وطلبت منها أيضاً إجراء اتصالاتها مع شبكات التلفزيون الأربع ومع الفوشل بوس وبيويورك تايمز لتحملهم علي إيلاء مزيد من الاهتمام بالقضية.

وفى الوقت ذاته بدلت فى إجراء اتصالات بالوزراء الأوروبيين. وبدأت بدوجلاس هيرد. وقت له: «لقد قطعت للبوسنة الشروط نحو الاستقلال بطريق صحيح وأنها تستحق تأييدنا. إننا فى حاجة إلي حشد التأييد لعزل ميلوسفيتش وصربياه. وتساملت حول ما إذا كان يمين أن تستمر بلجراد عضواً فى منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا. وأبدي هيرد موافقته وأنه سينقل قلتي إلي لورد كارينجتون الذى سيلتقيه الصباح التالى. لكن أعرب عن قلقه من محاولة تركز قوت الأمم المتحدة فى البوسنة حتي تستقر الأوضاع.



وفى الصباح التالي اتصل بي جينشر من اليونان حيث كان يسعى لحل قضية مقدونيا. وقلت له: «إننا فى حاجة إلى تسويق خطوات التعامل مع هذا الوضع المأساوى، وأكدت على أن الولايات المتحدة وأوروبا لا يمكن أن تتعاملوا مع قضية البوسنة باعتبارها قضية عادية». وأبلغنى جينشر بأن المجموعة الأوروبية قد اتفقت لتوها على خط متساهل للغاية تجاه البوسنة. لكنه سيسعى إلى تشديد هذا الموقف. ويحدد دقائق علود هيرد الاتصال بى. وعقب تحدته مع كارينجتون وافق هيرد على أن الورقة للفعالة الوحيدة المتاحة ضد ميلوسيفيتش هي حجب الاعتراف عن دولة يوغسلافيا الحالية، وكان يشعر أيضاً أنه من الضروري التعامل مع أنشطة الجنود الكروات غير النظاميين الذين يحركهم توديمان. وأعرب مجدداً عن قلقه تجاه قوات حفظ السلام، وأوضح أن اتحاد غرب أوروبا لا يملك الإرادة أو القدرة على القيام بمثل تلك العملية.

وبعد الظهر اتصلت بوزير خارجية البرتغال خولو دى دوس بينيرو الذى تولي الرئاسة الدورية للمجموعة الأوروبية خلفاً لفان دين بروك. وبادرت بالقول: «فى الوقت الذى ننف فيه بكل قوة خلف مساهمى المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة المالية فى البوسنة فإننا لا نريد الدخول فى مواجهة محكم. ولا يسعدنا أن ننف هكذا ونري الناس وهي تقتل». فالوضع فى البوسنة مختلف عنه فى كرواتيا. فهنا تصرف توديمان من جانب واحد غير مهال بحقوق الأقليات وأظهر نيته فى تقسيم البوسنة. فقد تصرف زعماء البوسنة بوحى من اتفاقيات هلسنكى والمبادئ الديمقراطية. واستطردت قائلاً: «إن ميلوسيفيتش قلق بشأن الاحتفاظ بشرعية يوغسلافيا. وإنه فى حاجة للتذكير بأن للولايات المتحدة وأوروبا احتمالاته المسؤولية». وأعرب دوس بينيرو عن قلقه من أن الجيش الوطنى اليوغسلافى لم يعد يعمل تحت قيادة موحدة، وقال إنه يتفق مع رؤيتى لكن باريس ستثير المصاعب.



ونذكرنى مكالماتى للهاتفية بالاتجاهين المتضاربين البارزين فى سياسة المجموعة الأوروبية تجاه يوغسلافيا السابقة. ولولهما التزامها الصارم بعدم التحرك إلا بموافقة كافة

الدول الأعضاء في المجموعة الأوروبية. فهذا النهج الإجماعي تسبب في التأجيل (حيث يتعين أن يصوت كل الأعضاء على أتفه القرارات) وعلى السياسات التي لا يجمعها سوى أبني قاسم مشترك. والاتجاه الثاني للمجموعة الأوروبية هو التسقوط في أسر تاريخها الخاص، أي الانضمام إلي التحالفات التي ظهرت على مدار عقود بل وحتى قرون. وعلى سبيل المثال غالباً ما انحازت بريطانيا وفرنسا إلي الصرب. بينما فاز لفرنسا دائماً بصفح الألمان، وادي هذا إلي تقويض المفاوضات حيث سرعان ما تعلقت الأطراف كيفية تأليب الأوروبيين ضد بعضهم مما قضى على فعالية المجموعة الأوروبية تماماً.

الخاتمة

مع انتهاء شهر نيسان إبريل وحلول شهر أيار مايو تصاعدت وتيرة العنف في البوسنة، وفرض الصرب حصاراً حول سراييفو. وفي ١٢ أيار مايو تمكنا أخيراً من تطبيق عضوية يوغسلافيا في منظمة الأمن والتعاون في أوروبا وهي المرة الأولى التي تتخذ فيها منظمة الأمن والتعاون في أوروبا قراراً رسمياً من نون إجماع بسبب اعتراض وفد بلغراد. وفي اليوم التالي أعلننا أننا سنستدعي وارين ريمرمان بمجرد انتهائه من استكمال ترتيبات تسهيل وصول المعونة الإنسانية إلي البوسنيين. وفي ١٦ أيار مايو أصدرت توجيهات إلي زيمرمان بالسعي للحصول على تعليمات من بلغراد بفتح للصرب مطار سراييفو، والسماح بمرور للمساعدات الإنسانية. ورد الصرب بمهاجمة قافلة إغاثة الصليب الأحمر الدولي، وقتلوا أحد أفراد الصليب الأحمر. واحتجزوا قافلة من النسوة والأطفال الفارين من سراييفو كرهائن. وعلى الفور ألغينا التصريح الممنوح لشركة الطيران اليوغسلافية JAT بتسيير رحلات من وإلى الولايات المتحدة. وطلبت من مسؤولي الوزارة إعداد مزيد من الخطوات السياسية والدبلوماسية الإضافية التي يمكن لتفانها لتعاقب بلغراد.

وهي يوم الجمعة ٢٢ أيار مايو وأنا في طريق إلي البرتغال للمشاركة في مؤتمر لتقديم المعونة للاتحاد السوفيتي السابق لاجتمعت مع رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور في ١٠ داونينج ستريت، واستهلكت بالقول: «إننا نشهد قطعاً ونقداً عاماً منازيحاً حول المعجز الفريسي أمام

الكابوس الإنساني الحقيقي. إن هناك سابقة مروعة ترمي عن طريق استخدام ميلوسفيتش الناجح حتي الآن للقوة لتحقيق أهدافه. وطلبت من ميجور حمل المجموعة الأوروبية علي التحرك بقوة ضد صربيا. وأبلغته قائلاً: «علينا عمل شيء حيال الأعمال الوحشية التي ترتكب هناك. وعلينا العمل علي توصيل الصعوبة الإنسانية، وهذا يقتضي دعماً قوياً من المجموعة الأوروبية». ووافق ميجور وهيرد علي تقييمي، وأبدا الخطوات التي نعتزم اتخاذها وتعاملت: «هل يمكن أن تتضمن المملكة المتحدة علي الفور؟» وأجاب ميجور «نظرياً نعم، عملياً لا». منذراً بالحاجة إلي التباحث مع شركاء المجموعة الأوروبية. ومضي إلي التحذير من أن الوضع قد يستمر سنوات «كالوضع الذي نعيشه في إيرلندا الشمالية» وتعامل بمجرد أن يبدأ هذا فأين النهاية؟ وفي عيون الأوروبيون أصبحت سرايفو تتحول إلي سايجون لا ننتظر إجراء حاسماً أو كما أوجر هيرد في حتام الاجتماع «إن اللجوء سوف تسيل تحت أبواب قمة منظمة الأمن والتعاون في أوروبا المقرر عقدها في تموز يوليو».



وفور انتهاء اجتماعي مع ميجور انتهزت فرصة وجود الصحافة لتقوية للبرة الدعاية. وأعلنت علي الملأ للمرة الأولى أن الوضع في البوسنة يشكل «كابوساً إنسانياً ولا يحتل» وحددت الإجراءات الدبلوماسية والسياسية التي ستتخذها الولايات المتحدة من جانب واحد؛ وهي رفض الاعتراف ببلجراد باعتبارها رديفاً لدولة يوغسلافيا حتي تتسحب كافة قواتها من الدول المجاورة وتحترم حقوق الأقليات - سحب زورمان بصفة نهائية من بلجراد، إغلاق القنصليتين اليوغسلافيتين - وقف الاتصالات مع JNA - سحب ملحقينا العسكريين باستثناء الملحق الجبري الذي سيستمر موجوداً لتنسيق جهود الإغاثة الإنسانية، وسحب موظفي سفارتنا في بلجراد.

وأردت ممارسة ضغوط علي المجموعة الأوروبية حتي تتخذ إجراءً سياسياً ودبلوماسياً علي الأقل، ومع اجتماع وزراء خارجية ثلثي عشرة دولة في لشبونة هذا التوقيت مواتياً

لعمل الأوروبيين علي التحرك، وأتي تصريحي باللمرة المرجوة منه. فقد استحوذ التصريح علي تغطية الصحف في اليوم التالي في الصحف الأمريكية والأهم الصحف الأوروبية.

ولدي وصولي إلي لشبونة اجتمعت أولاً مع وزير الخارجية الألماني الجديد كلاوس كينكل. واستهللت بالقول: «إننا نريد من كافة الدول الاثنتي عشرة أعضاء المجموعة الأوروبية مساهمة ما أعلنته في لندن، وأمنت فائلاً». لقد حاولنا تأييد مصاعى السلام التي تبذلها المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة ونحن متمسكون بسياستنا ورغم عدم موافقتنا علي اعتدائكم، ولكن الآن هناك كتابوس إنسانى جائم في وسط أوروبا. إن هذه إهانة ولا يمكننا الوقوف هكذا من دون عمل شيء وسوف نفعل الصواب. ومع استطلاعى بدأ الحديث يزنى مفعوله: «إن ما لديكم في المجموعة هو أدنى عملية تنسيق. وإذا لم يستطع بعض من الدول الاثنتي عشرة مساهمة فليكن. لكننى أمل أن نستطيع أساسيا الانضمام لنا. إننا نريد منكم تفحص الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الخاص بالعقوبات. إننا نريد تأييد الدول الأوروبية الكبرى إننا نريد النظر في فرض حظر بتزولى علي صربيا».

ورد كينكل: «إننا متفقون. إننا نريد هذا من البداية. لكن الآخرين أوقفونا. إننا نتفق مع ما أعلنتهوه القليلة الماضية في لندن. وعارضته فائلاً: «إن هذا مجرد لغو، إنه محض هراء. إن الناس يموتون بينما نحن نتحدث». وكان كلامنى وقع طيب. لكنى كنت علي يقين أننى في حاجة للألمان لتحريك الفرنسيين، ولذا فقد كنت عاطفياً لأقصى درجة مع كينكل. ورد كينكل بدبلوماسية: «كما قلت فإننا نرحب بمقترحكم لى طرحتموها في لندن. إننى جديد هنا وسوف أحاول ما يسعنى عمله. بل ومني بحث الخيار الصبرى. إننا نعلم إن الكلمات لا تكفى. ولكن علي مأذبة الفداء التي أتيتم منها لتدوى كان الفرنسيون واليونانيون في غاية الصعوبة». وقلت: «إن الورقة الوحيدة التي نملكها هي عزل ميلوسيفتش ولا يسعنى فهم كيف يمكن لأوروبا أن تغف هكذا ولا تترك سالكتاً وتدع هذا يحدث».



وغير لاختتام اجتماعى مع كينكل توجهت إلي مركز بيليم للقائى المشاركة في المؤتمر نفسه. وفي كافة اجتماعاتى أثرت أخطار استمرار التصعيد والحاجة إلي تعزيز العزلة

المفروضة علي صربيا بما في ذلك العقوبات المنصوص عليها في الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة كذلك التي استخدمناها في البداية في الأزمة للمراقبة. وفي للجلسة الموسعة والاجتماعات الفرعية لمؤتمر المعونة للاتحاد السوفيتي السابق كان للجميع تقريباً يبحثون قضية اليوسنة أيضاً. وفي الواقع فقد كانت الكثير من الديمقراطيات الوليدة في دول الاتحاد السوفيتي السابق تشعر بقلق عميق في ضوء تشجيع القوميات المتضارب من تكرار نموذج اليوسنة فيها، ومن ثم فقد كانوا مهتمين بالجميع بالدعوة لاتخاذ إجراء غربي لمنع حدوث مزيد من للتطهير العرقي. وقلت في منخليتي: «يتعين علي المجتمع الدولي ألا يتسامح بعد الآن مع هذه الوحشية. فهذا يشكل إهانة لضميرنا الجمعي».

وانتهزت فرصة المؤتمر الصحفي الذي عقد في ختام المؤتمر اليوم التالي لتسليط الأنواء علي الاختلافات الأوروبية بل وحتى المذبذبة الأوروبية. ورسمت صورة للواقع المرور مسلحاً بالبيانات التي جمعتها لي مارجريت تاتو: ٣٥ ألف مريض بالسكرب بدون أنسولين، ستة آلاف طفل وسودا بدون حليب أو أدوية أو أغذية أطفال بعد اختطاف اثنتي عشرة شاحنة إغاثة تابعة للأمم المتحدة، وناشدت رملاتي الأوروبيين، يوضح تام: لا يجب علي أحد منا أن يلمس الأعداء لعدم التنديد بقوة وشدة. ولا يجب علي أحد منا أن يحاول اختلاق الأعداء لعدم اتخاذ إجراء لإنهاء الكابوس الإنساني في قلب أوروبا. وفي محاولة لتوجيه إشارة واضحة إلي بلجراد عن اللعد الذي يمكن أن نذهب إليه ما لم يرفع الحصار عن سراييفو فقد رفضت عدم استخدام اللجوء إلي القوة (باستثناء استخدامها من جانب واحد من قبل الولايات المتحدة) وألححت إلي التحالف للذي شارك في حرب الخليج. وبمجرد انتهائي عم الارتباك الأوروبيين*.

وأبانت الرئيس من لشبونة: «إن ما قلناه مرة أخرى هو أن الأوروبيين يريدون أن ينمركوا بفعالية لكنهم في حاجة إلي دفعة منا لعمل ذلك حتي في القضية التي يريدون أن

* كان كمبريحتي وقها في بلجراد. وبينما كنت في الشبونة وجه القمرب رحلة بأنهم يريدون إلقاء ميمرت غلس للقاء لورانس إيجاردجر في بوطارست لكن ماذهب رفض وكذا نريد إلقاء العزلة علي مجلسيوتش حتي يتم فتح سائر سرائيفو وبشر قولاق الإغاثة بأمان. وكتب بلجراد رسالة إلي السكرتير العام للأمم المتحدة في محاولة لمنع فرض العقوبات.

يمسكوا فيها بزمام للقيادة بل وحيث يجب أن تكون لهم القيادة. ويمكن أن تكون الأعمال الجماعية والاستجابات متعددة الأطراف لكنها لن تقال زعماً ما لم تكن بمثابة محفز. وللاضئح أن المجموعة الأوروبية تريد أن تضطلع بدور سياسي رئيسي لكن تناقضاتها الداخلية سوف تعرقه ما لم نحوله إلى ثقل عن طريق دبلوماسيتنا الخاصة والأهم عن طريق دبلوماسيتنا الطليقة.

وأخيراً وبعد مؤتمر لشبونة تجاوز الأوروبيون خلافاتهم وبدلوا في التحرك، وبعد مرور أربعة أيام قررت المجموعة الأوروبية فرض عقوبات اقتصادية إضافية علي الصرب. وفي غضون أسبوع من تصريحاتي في لشبونة أقر مجلس الأمن الدولي بأغلبية ثلاثة عشرين صوتاً ضد لا شيء. واستناعت الصين وجمهورية الصين الشعبية القرار رقم ٧٥٧ الذي فرض حظراً اقتصادياً شاملاً علي صربيا، والآن عزلت صربيا بالفعل علي الأقل.

سياسة عدم اللجوء إلى القوة

وبرغم عزلة بلجراد سياسياً واقتصادياً فقد واصلت هجومها العسكري علي البوسنة والهرسك، ومساء يوم الإثنين الثامن من حزيران يونيو اتصلت بالرئيس علي خط مؤمن وأبلغته بتدهور الأوضاع. فقد اجتمعت لدى مع أندريه كوزيروف الذي كان يشمر بفعلان كبير في لشبونة تجاه احتمالات إقرار السلام. وعقب انتهاء المؤتمر توجه إلي البلقان. وكان يعتقد أن الصرب سيصغون إلي نصيحة من نظير سلاف. لكن رحلة كوزيروف غيرت موقفه بزاوية ١٨٠ درجة. ويات التشاؤم يملكه كالأخريين.

ويوم الأربعاء وافق الرئيس علي استخدام طائرات نقل أمريكية لتوصيل المعونة الإنسانية إلي سراييفو بمجرد سريان وقف إطلاق النار، ومع هذا فقد كان للسوفيت الذي يصننا هو هل سيصمد وقف إطلاق النار؟.

ورغم مرور أسبوعين لم يسر وقف إطلاق النار. ولا زالت سراييفو محزولة. ونتيجة لذلك، وفي شهادة أدليت بها أمام مجلس الشيوخ يوم الثلاثاء ٢٣ حزيران يونيو شددت موقفنا

تجاه الصرب بإعلان إغلاق آخر تصلياتهم في الولايات المتحدة وطرد سفيرهم. والعمل مع الدول الأخرى لتحقيق عضوية يوغسلافيا الجديدة في المنظمات الدولية. واستنفذ هذا كافة الإجراءات الدبلوماسية والسياسية المحتملة، ولم يكن لدى أُلّني وهم بأن مثل هذه الخطوات ستكفي لإحداث تغيير جذري في سلوكه صرب اليوسنة وبلغراد، وهكذا توجهت إلى البيت الأبيض بعد الظهر لأبحث مع سكوكروفت إمكانية استخدام أدلة -قوة عسكرية غربية- ربما تدبر مجري الحرب. وكان الوضع في سراييفو قد أُلّمي قلب سكوكروفت مقلّي تماماً. لكننا كنا عليّ يقين من أن اللاريس لا يريد ولا يجب أن يتورط في التزام عسكري مفتوح في يوغسلافيا السابقة. وكان كلانا يدرك أيضاً أن اللينتاجون يعارض بشدة أي تدخل عسكري في اليوسنة لأسباب نقدرها تماماً. ومع هذا فقد اتفقنا عليّ أنه يتعين بذل المزيد، وسأعرض اقتراحاً يتيح استخدام القوة العسكرية لهدف وحيد هو توصيل المساعدات الإنسانية.

وأثناء الليل عكف أندور كارنيداللي وأرّني كاتكر وديليس روس ومارجريت ناتويلر عليّ إعداد مذكّرة من صفحتين: خطة اللعب: الخطوة الثالثة حول اليوسنة. وهدف الخطة هو بذل كل ما هو ضروري لتوصيل المعونة الإنسانية إلى سراييفو، وحدثت أربعة إجراءات أساسية أولها تعريض حاملة طائرات عليّ الفور إلى البحر الأديرياتيكي. ثانياً: فرض حصار بحري متعدد الأطراف عليّ الموانئ لتطبيق الحظر المفروض وخاصة ميناء بار بجمهورية الجبل الأسود. ثالثاً لتكويّد تعزيز القويّات المطبقة بقطع خط أنابيب البترول الممتد إلى صربيا من رومانيا، ورابعاً توصيح الاستعداد لشن غارات جوية متعددة الأطراف (عليّ سبيل المثال ضد المدفعية المتمركزة عليّ التلال) كضرورة تهدف لتهدئة الأجواء لتوصيل المعونة الإنسانية.



ولم تقتض الخطة باستخدام مفرد القوة الأمريكية أو اللجوء إلى القوة لتسوية الصراع اللدّار. ومع هذا فلم يكن دافعنا مجرد دافع إنساني بل نتيجة إقرارنا أيضاً بأن استخدام القوة العسكرية بأي طريقة أو لأي هدف ستكون له تداعيات سياسية ودبلوماسية جوهريّة. فحينئذ اتخذ كافة الإجراءات من قبل أطراف متعددة تحت سلطة الأمم المتحدة وبموافقة سريعة

من الكونجرس، وأن تكون هناك "قوات مقاتلة أمريكية في ساحة القتال، واحتوت الخطة علي جدول زمني محكم للتدريج في تلك الإجراءات بدءاً باتصالات هاتفية فورية أجراها الرئيس، وجولة نقلتني إلي العواصم الأوروبية الرئيسية وموسكو. كان النموذج المائل في ذهننا هو الجهد الذي بذل في إقناع تحالف حرب الخليج، واعتزمنا استصدار قرار باستخدام كافة الوسائل اللازمة، في غضون عشرة أيام.

وعقب التشاور حول الاقتراح مع الرئيس ومككروفت حدد الرئيس اجتماعاً للمسؤولين صباح الجمعة، وكنت أدرك أن بول وتشيني سيعارضان خشية أن تقضى بنا إلي مزالق بتودنا إلي تورط عسكري أكبر يفوق الحد. وكان النموذج المعتدلي لديهما في استخدام القوة كالمفهوم هو حرب الخليج حيث إن البوسنة في رأيهما أكثر شبهة بفيتنام لا العراق. ومن ناحية أخرى، اعتقدت أنه لو اقتصر تفويض استخدام القوة بصراحة وبشكل نام علي توصيل المعونة الإنسانية علي ألا يشمل حل للصراع السياسي الدائر، فإن "المزالق" الذي نخشاه سوف يتقلص إن لم يتلاش تماماً. ولذا فقد اتخذت خطوة لجأت إليها أحياناً من قبل لئلاء إدارة بوش، وقصدت الرئيس بوش مباشرة في محاولة لتجاوز العملية المعتادة بين الوكالات الحكومية وإعداد النتيجة سلفاً.

وبعد ظهر الأربعاء توجهت إلي البيت الأبيض لإجراء مشاورات خاصة مع الرئيس. وعرضت عليه اقتراح خطة التسب، وأشرت إلي أنه أقل ما يمكننا عمله في ضوء الكابوس الجاثم الآن علي أعقاب غرب أوروبا، وأبلغني بأنه يعتقد أن ما حدثه سوف يؤتي ثماره. وقد تغير عروفيه الأولى بالابتعاد شاماً عن الوضع العسكري الشائك في يوغسلافيا نتيجة استمرار التفشاع في البوسنة وإحباطه من عجز الأوروبيين علي التحرك معاً. وأشار إلي أنه سيوصي البنتاجون علي الأرجح يوم الجمعة بوضع الخطة موضع التنفيذ.

كان اجتماع المسؤولين يوم الجمعة واحداً من أكثر الاجتماعات إثارة التي شاركت فيها كوزير للخارجية، واستعرض تشيني وهاول الأخطار المترتبة باستخدام القوة العسكرية، وحتى لتوصيل المعونة الإنسانية. وأكدت أنا وديفت أننا استخدمنا بالفعل كافة الوسائل الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية بكثير. وعقب محادثات مستفيضة أيد الرئيس بقوة خطة

الطلب التي حددتها رغم أن تقويتى وهاول أفعاء بأنه إذا كان يتعين تنفيذ الخطة فعليه تحريك مجموعة الاستعداد البرمائية MARG إلى بحر الأدرياتيك وليس حاملة طائرات.

وعدت إلى الخارجية ولسدوت تعليماتى إلى ديبس روس وأرنى كاندر لوضع اللشق للعاص يوزارة الخارجية فى خطة للطلب موضع التنفيذ واتصل روس ببندر وأبلغته بأننا فى سبيلنا للضغط على بوخارست لقطع خط أنابيب البترول، وسيكون طلياً لو عوض السعوديون جانباً من الأموال التي ستخمرها بوخارست جراء إغلاق النفط. وقال إنه سيحاول تقديم العرن. كنا نشعر أن الفرصة ستصلح بقوة للحصول على الدعم السعودى. لأن الملك فهد كتب للربى موضعها قلقه من عدم التحرك الغربى فى البوسنة.



وخلال عطلة نهاية الأسبوع بدأت الأحداث لتحرك لصالحنا. فقد منحت الأمم المتحدة مهلة ثمان وأربعين ساعة إلى الصرب، وهذا مجلس أوروبا حذوها بإصدار بيان يوم السبت يدعو إلى انفاذ كافة التدابير الفعلية لفتح مطار سراييفو. واستعرض الرئيس سياستنا مع الحلفاء للرئيسيين بمن فيهم بوريس ياتسين، وتوصل إلى أنهم جميعاً يؤيدون قراراً باستخدام كافة الوسائل اللازمة على شرار للقرار الذى أصدره مجلس الأمن الدولى مفوضاً بشن حرب الخليج. وكشفت اتصالاتى للهاتفية عن مستوى تأييد غير معهود من وزراء خارجية كندا باربارا مكوجال وحكمت شولتين وزير الخارجية التركى وكلاوس كينكل. وحصلنا على التأييد المنضم لدرجة أننا قررنا فى عطلة نهاية الأسبوع عدم القيام بجولتى. فلم يعد لها مبرر بعد أن بات من شبه المؤكد أن بوسنا استصدار قرار من مجلس الأمن الدولى على أية حال*. وفى الواقع فقد رفرف علم الأمم المتحدة ولانصاع الصرب للخطة. وبعد أربعة أيام بدأت الأمم المتحدة تسيير رحلات إغاثة جوية إلى سراييفو. وفى السابع من تموز يوليو أذن

* ربما كان إقدام الجبهة خطأ. لأنه كان من شأنها أن تشكل حدثاً يفضى إلى العمل. وتكاثرت قد سمحت لى بتجاوز العقبات البيروقراطية لدى حركات سائرنا فى نهاية الأمر.

اجتماع مجموعة السبع بقوة لجوء للصرب إلى العنف، وأعلنوا تأييدهم لتدابير أخرى، لا
تستبعد الوسائل العسكرية، لتحقيق أهداف إنسانية.

وعند هذا الحد تقلصت مشاركتي في معالجة أحداث يوغسلافيا السابقة. ففي الأسبوع
التالي، وبينما كنت استجم في مزرعتي في بنودالي في رومينج استدعاني الرئيس وطلب
منى العودة إلى البيت الأبيض لتولى رئاسة هيئة موظفي البيت الأبيض لتنسيق حملته
الانتخابية. وتحول تركيزي إلى السلطة الداخلية بعيداً عن السياسة الخارجية.

وسع كتابة هذه المذكرات بعد مرور ثلاثة أعوام لا يزال «الكابوس الإنساني» في قلب
أوروبا مستمراً. ولا أعتقد أنه كان بالتوسع منه عن طريق إجراءات سياسية ودبلوماسية
واقتصادية، وفي اعتقادي كان السبيل الوحيد لمنعه هو استخدام القوة العسكرية بكثافة في
مرحلة مبكرة بما يستدعيه ذلك من خسائر وخاصة في الأرواح، وباعتراف الجميع فإن
الخسائر ستكون مذهلة في مثل تلك البيئة، وكان قرار الرئيس بوش بأن المصالح القومية
الأمريكية لا تقتضي خوض أبناء وبنات الولايات المتحدة حرباً رابعة في أوروبا في الوقت
الحالي بما يستتبعه ذلك من خسائر هو قرار صائب إلى أقصى درجة. فلا يمكن ولا يجب أن
يتوقع أحد أن تكون رجل شرطة العالم، وما كان التأييد الضروري من الشعب الأمريكي
لدرجة استخدام القوة المفترض استخدامها في البوسنة ليدم أو يمكن الحفاظ عليه.

الفصل الرابع والثلاثون

من الحرب الباردة إلى السلام الديمقراطي

على مدار سنوات عميقة كانت بلغاريا قطبين، قطبان متعارضين... وقد أثر هذا بلأسد الطرق مأساوية على مصير العالم. فقد عصفت عواصف المواجهة بالعالم. وأوشك على الانفجار وأوشك على الهلاك متجاوزاً حدود الاتفاق.

بؤريس يلتسين

١٧ حزيران يوليو ١٩٩٢

كان من الصعب وأنا أغادر وزارة الخارجية لأسك كونستيتيوشين أفينيو قاصداً الكونجرس تحت شمس أحد أيام حزيران يونيو ١٩٩٢ ألا تقفز إلي مخيلتي تذكري أول رحلة إلي مجلس النواب للاستماع إلي خطاب يلقي أمام جلسة مشتركة للكونجرس. في السادس والعشرين من كانون الثاني يناير ١٩٨٢ وبصفتي رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض جلست لاستمع لأول خطاب للرئيس ريجان عن حالة الاتحاد، خطاب مفعم بالقوة والحياة استمرس فيه آراءه بطريقته المصهودة، خطاب ملؤه العاطفة والبصيرة والافتتاح الناجم عن يقين من يدرك أنه يقف علي الجانب الصواب من التاريخ.

في ذلك اليوم كان ريجان بليغاً في وصف التحدي الذي يفرضه الاتحاد السوفيتي. فقد قال يومذاك: «يتعين أن تكون سياستنا الخارجية مفرطة في الواقعية لا السناجة أو خداع الذات، إن الاعتراف بما تشكله الإمبراطورية السوفيتية هو نقطة البداية. فقد رصد وينستون تشرشل في مفاوضاته مع التسويت أنهم لا يحترمون إلا القوة والحزم في تعاملاتهم مع الدول الأخرى. وهذا هو السبب الذي حدانا إلي إعادة بناء دفاعاتنا القومية. إننا نلتزم الحفاظ علي السلام. وسوف نحافظ علي حرينا أيضاً».

والآن وبعد عقد من الزمان وأنا آخذ مكاناً في المجلس كان اللجاج الموزر لسياسة انكريس ريجان «السلام من خلال القوة» مثلاً، فهام أعضاء مجلسي الكونجرس بجمعهم للاستماع إلي أول رئيس منتخب لروسيا بوريس يلتسين الذي يزور واشنطن لمقابلة قمة مع الرئيس بوش، وكان موسوع اليوم هو «الشركة والصداقة، لا العدوة والتنافس». وفي عام ١٩٨٢ ما كان أحد ليتوقع أنه بعد عشرة أعوام أن الاتحاد السوفيتي سيكون في ذمة التاريخ لتحل محله روسيا المستقلة التي تعمل علي إقامة الديمقراطية والموق الحرة. وإلي جانبها أربع عشرة دولة مستقلة حديثاً.

لكن هامو يلتسين يقف علي المنصة ويعرض قننيته ببلاغة منقطعة للنظور. واستهل بالقول: «لقد بدأ العقل يتنصر علي الجنون. لقد تركنا وراء ظهورنا الحقبة التي نلوح إبهنا بالأسلحة، وعلي استعدادنا للضغط علي الزناد في أي وقت». وأضاف قائلاً: «يمكن للعالم الآن أن يتفلس بارتياح فقد لنهار صنم الشيوعية الذي بث الصراع الاجتماعي والعداء

والوحشية غير المسبوقة في كل مكان. ولدى أشاع الخوف لدى الإنسانية. لقد انهار ولن ينصب مرة ثانية وإن تسمح له بأن ينصب مرة أخرى في بلدنا.

وكان بالغ التأثير عندما بحث الشواغل الأمريكية حيال أسري الحرب في فيتنام. فشبه مغادرته موسكو صرح يلتسين لشبكة إن بي سي بأن بعض ملفات الأرشيف أشارت إلى أن النظام السوفييتي قام في الستينيات والسبعينيات بالتنسيق مع الحكومة الشيوعية في هانوي بنقل أسري الحرب الأمريكيين إلى الاتحاد السوفييتي لاستجوابهم. وقال: «لا يسعنا سوى الاعتقاد بأن بعضهم ربما لا يزال علي قيد الحياة» وبالطبع فقد أثار هذا جدلاً في مجلس الشيوخ والنواب وهدد بتعكير صفو الزيارة.

وخرج عن النص المكتوب في الخطاب ليقول: «أعذكم بأنه سيتم فحص كل وثيقة وكل أرشيف لتقرير مصير كل أمريكي مفقود. إنني أطمأنكم بصفتي رئيساً لروسيا أنه إذا ثبت وجود أمريكي واحد معتقل في بلادى ويمكن العثور عليه فسوف أعثر عليه. وسوف أعيده إلي أسرته». وهب للحضور إلى الوقوف في ترحيب حماسي، وردد الأعضاء هتاف «بوريس ، بوريس ، بوريس».



كانت ضربة معلم مياسية استحوذت علي أعماء الكونجرس المترددين ومهتد الطريق أمام إصدار قانون دعم الحرية، وهو التشريع الذي تقوم الإدارة بمقتضاه بمساعدة الاتحاد السوفييتي السابق. فقد كان ذلك بالنسبة للكثيرين مفاجأة مفرطة، لكنني كنت أعرف العكس.

وفي اليوم السابق، وفي اجتماع مكرس أساساً لبحث قضية لعد من الأسلحة النووية مرر الرئيس إلى منكرة مكتوبة جاء فيها: «لن يلتسين في حاجة ليقول أمام الكونجرس أنني لا أعرف ما إذا كان هناك أسير حرب أو مفقود أمريكي لا يزال علي قيد الحياة في روسيا أو

أى مكان فى الاتحاد السوفيتى العالى. لكننى سأفحص كل سجل وكل أرشيف لإلقاء الضوء على مصير الأمريكيين المفقودين. ويصعب أن أطمئنتكم بأنه لو أن هناك أمريكياً معتقلاً ويمكن العثور عليه فسوف أعثر عليه وسوف أعيده إلى أسرته. كانت بصيرة بوش نافذة، وبغداً اقتراح الرئيس ونقلاً تلك الكلمات المحددة إلى الوفد الروسى.

وبالعودة إلى هذا الحادث البسيط أعتقد أنه يوضح الضغوط التى قطعناها فى النصف الأول لعام ١٩٩٢ لإقامة للتعاون الأمريكى الروسى فى مختلف مجالات العلاقة بيننا. وبإهيار الاتحاد السوفيتى خلقنا أرضاً استراتيجية غير مطروقة، وكشفت الأشهر السنة الأولى لعلاقتنا مع روسيا وجيرانها المزيج المعقد من المثالية والواقعية الذى وجه سياستنا.

فمن ناحية كنا نعتقد أن هزيمة الشيوعية وسعود الديمقراطيين قد هيا فرصة غير مسبوقة، وروادنا الأمل فى أن نقيم علاقاتنا مع روسيا وأوكرانيا والدول الأخرى حديثة العهد بالاستقلال على أساس للديمقراطية والسوق الحرة: أى ما أسبغنا نطلق عليه اسم «السلام الديمقراطى» نوع السلام الذى أقامه مع ألمانيا واليابان، ويستند هذا السلام إلى قيمة ديمقراطية وليس على مجرد تشابه المصالح. وبينما كان النهض الديمقراطى فى روسيا ومعظم دول الكومنولث نبضاً حقيقياً فلم يكن لهذه الدول ميراث ديمقراطى، ولم تكن على يقين تام بأن تلك الديمقراطية سوف تتجذر. لكننا لا نريد خلق نبوءة نلحق نالها بالنتهاج سياسة توازن قوى محضنة نفترض أن تلك الدول ستعود حتماً إلى نظم الحكم للتسلية.

ومع هذا فقد تضمنت سياستنا جرعة مكثفة من الواقعية السياسية كتطعيم ضد أى تراجع عن الإصلاح. وهكذا ورغم تعاوننا مع الديمقراطيين فى روسيا وأوكرانيا والدول المستقلة الأخرى لدعم الديمقراطية والسوق الحرة فقد أضمنت معظم الربيع فى إدارة قضايا السياسة الواقعية: وتحديداً ضمان عدم نشر أسلحة نووية على أرضى الاتحاد السوفيتى السابق، وضمان إزالة كافة الأسلحة النووية للتكتيكية. وخفض للترسانة الاستراتيجية لروسيا من خلاله معاهدة سترات ٢ حتى لا تستطيع بعد الآن أن تهدد بتوجيه الضربة الأولى.

العمل علي استقرار اقتصاد روسيا - قانون دعم الحرية

في ختام جولة «المناب» في شباط فبراير ١٩٩٢ التقيت بوريس يلتسين في موسكو. وعلي خلاف زيارتي في كانون الثاني يناير ولجتماع كامب ديفيد مع الرئيس بوش في الأول من شباط فبراير حيث كان الرئيس الروسي معني أساساً بمناقشة القضايا الأمنية والسياسية، كانت المساعدات الاقتصادية هي أهم أولويات يلتسين هذه المرة.

وقال يلتسين: إن الحكومة الروسية ملزمة بتشديد السياسة الائتمانية وخفض العجز وخفض كمية وسائل الدفع وخصخصة الشركات العامة، وقال أيضاً إنه يعتقد ببذل جهود لدعم الروبل في مواجهة الدولار.

ومع هذا فإن روسيا في حاجة إلي معونة خارجية، وإنه ينطلق إلي الولايات المتحدة لتتصدر المجتمع الدولي في تقديم المعونة. كانت الحبوب تشكل مشكلة خاصة. وحتى رغم تلقي موسكو اتصالات إسرائيلية من بريطانيا وفرنسا وكندا فلا زالت روسيا في حاجة إلي المزيد - نحو ستمائة مليون دولار كمعاملات قروض من الولايات المتحدة.

ولم تكن احتياجات روسيا قاصرة علي الحبوب. وكان يلتسين يعتقد أن إقامة صندوق لدعم الاستقرار سيكون ضرورياً بالنسبة للروبل، فعلى هذا الصندوق الذي استخدم بنجاح في برلندا سيكون بمثابة تأمين لدعم العملة الروسية أثناء تناوئ الاقتصاد الروسي، «بالصدمات» وخلال نظام جورباتشوف طالما أننا فكرة إقامة صندوق الاستقرار، ورغم جهودنا لتعليم السوفيت علي سبيل المثال عبر مباحثاتنا الثنائية، واقتراح منحهم وضع الحساب خاص في صندوق النقد الدولي في كانون الأول ديسمبر ١٩٩٠، لم يبد جورباتشوف التزاماً مهماً بإقامة اقتصاد حر أو الأحد بطاصره الأساسية في أي من الخطط التي لتيها للسوفيت لصل صندوق الاستقرار. ومع هذا كانت حكومة يلتسين مختلفة تماماً. فقد كانت الخطة التي أعدها إيغور جيبدار نائب رئيس الوزراء حينذاك جادة وصادقة من زاوية مضمونها المالي والاقتصادي، وألقي يلتسين بقله الشخصي ورأها مما منحها مصداقية سياسية. سواء داخل روسيا أو خارجها.



وأبنت يلتسين أنه في حاجة إلي خفض الإنفاق الحكومي. وإجراء خفض حاد في نسبة نمو كمية وسائل الدفع، وأن يتابع موقف الدين الخارجي باستمرار، وفصلًا عن ذلك حدثته علي العمل مع صندوق النقد والبنك الدوليين باعتبارهما أفضل مصدر للقروض. كما أن مواهقتي تعد شرطاً مسبقاً لتلقي قروض ضخمة من مجموعة السبع. وطلب الاستعانة بخبرائنا الفنية في مساعدة حكومته في الإجابة علي الأسئلة التي طرحها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وأجبت بالوليفة مستشعراً بأن هذا مؤشر آخر عن مدى نطمه للمساعدة الغربية.

وطمأنت يلتسين «بأنني سأقنع شخصياً من أجل مصادقة صندوق الاستقرار، ولم أشأ أن أتركه ألمرية للأشراق». وهو الوصف الذي أطلقه علي المسؤولين الذين ينظرون إلي القضايا علي أنها مجرد اصطلاحات فنية وحسابية دون اعتبار لمضمونها الاستراتيجية والسياسي الأهم من كل شيء. وقت يلتسين سوف نحاول حشد المجتمع الدولي لإقامة صندوق الاستقرار. وبالطبع كان هذا سيستغرق جهداً شاقاً. وشاركت سبع وأربعون دولة وسبع منظمات دولية في مؤتمر التنسيق في كانون الثاني يناير. لكن هذا كان من أجل المساعدة الإنسانية التي ستكون كلفتها أقل من صفقة معونة شاملة. فضلاً عن ذلك، وفي ألمانيا كانت كلفة الوحدة لتتصاعد وقد دفع الألمان المليارات بالفعل، وليسوا علي استعداد لدفع المزيد. وفي اليابان كانت الحكومة تعترض استرداد أراضيها للشمالية وعلقت للمساعدة الاقتصادية حتي تتحرك موسكو بشأن التقنية.

وفي الوقت نفسه وفي واشنطن لم ترق فكرة صندوق الاستقرار لوزارة الخزانة علي الإطلاق، ومع هذا بدأت الوزارة في تغيير موقفها في شباط فبراير عندما فشل جولدبرج البقاء في واشنطن. وبحث برنامج الإصلاح مع كبار المسؤولين علي التوجه إلي كامب ديفيد ومرافقه يلتسين. ولكن حتي لو أمكننا الحصول علي اتفاق حكومي عام فسوف نظل في حاجة إلي الدأييد في الكونجرس. وفي غمرة تباطؤ الاقتصاد فإن قلة قليلة فقط من أعضاء الكونجرس هي التي تهتم بالتصديت علي المعونة الخارجية.



ورغم هذا فقد اعتقدت أننا لو اتجهنا استراتيجية ثلاثية صفوف نفوز بالتأييد الضروري في الكونجرس. أولاً فالروس في حاجة إلي الإبقاء علي الزخم الاقتصادي الذي ولده يلتسين بتحريك الأسعار في مطلع العام ومتابعة خطة إصلاح يمتد بها. وكلما أظهرت الحكومة الروسية التزامها بالإصلاح الحقيقي كلما أصبحت المؤسسات المالية الدولية أكثر ميلاً للموافقة علي خطة استقرار وكلما تعاطف الضغط علي مجموعة السبع للموافقة علي هذا الصندوق.

ثانياً: إننا في حاجة إلي دفع مجموعة السبع من خلال نواب وزراء المالية للذين كانوا يتولون التنسيق حول القضية. وبسبب عزوف وزارة الخزانة أجريت عدة محادثات مع الرئيس وارينتون سكروكرافت والتقيت أنا وسكروكرافت علي الغداء مع نيك برايدى لإبداء قلقنا. وبذل بوب زوليك وليد هويت من مجلس الأمن القومي جهداً شاقاً لحمل الطرف العالي في الحكومة علي التحرك (وتوفي هويت متأثراً بالسرطان في أوائل عام ١٩٩٣ وكان واحداً من الأبطال السجوليين في إعداد سياساتنا للسوفيتية، رجل كان يدع الأنانية ويؤدي عمله علي أكمل وجه، ولن أنسي تبحره في مشيحه ولا ابتسامته العريضة ولا نكاحه المتقد).

ثالثاً: أردت إيجاد أدلة يمكننا بواسطتها حشد التأييد والتصويت في الكونجرس، وفي أواخر الخريف وضع ستيف بيرى نائب جانيث مولينز الأساسي لشؤون الكونجرس تصور إصدار تشريع واحد ينهي القيود المفروضة منذ الحرب الباردة، وضمنت هذه المبادرة خطابي في برينسميثون في كانون الأول ديسمبر. والآن مع قيام مولينز وبيرى بتنسيق الجهود بقيادة فريق خبراء الخارجية، وضعا علي المسار السريع، ومع منتصف آذار مارس أصبح لدينا قانون دعم الحرية*.

وفي ٢٥ آذار مارس التقيت الرئيس وأطلعه علي تطورات الأمور. وكان البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ونواب وزراء مالية مجموعة السبع يحزنون تقدماً جيداً. وفي الواقع كانوا علي وشك إقرار برنامج لروسيا. لكنني قلت إن ذلك لن يكون كافياً. فالروس يتعلمون لذا لدولى زمام القيادة وبدونها سوف تكتثر الصفقة. وقتئذ للرئيس: «إن أمامنا فرصة الآن»

* من بين هؤلاء الخبراء تود بوشفيلد من مكتب المستشار القانوني وديل سكلارد من مكتب إيجيبيجر وجارنار بكهام وسكوت جيلاند من مكتب جانيث مولينز.

لكنها سوف تتلاشي لكسب أكبر أرضية لمساعدة الاتحاد السوفيتي السابق عليك باغتنامها. إن أفضل طريق للمساعدة وضمان عدم تحميلنا مسؤولية خسارة روسيا هو بذل قصاري جهنم لإنجاح الإصلاح، وهذا يعنى المعنى قسماً لإقرار هذا للتفريع الجامع الفقه.

وبدخلاً شكل مشروع القانون جدول عمل طموح للتعاون الأمريكي الروسى، وأريدت أن يستجيب الكونجرس لنا وليس العكس بالمكس. وبيروقراطياً لم أكن أريد أن يتوه فى غياهب الصنامة والخلاف بين الوكالات الحكومية. وقلت: «لو تحين علينا التفاوض داخلياً فن تحصل عليه وسوف نخسر الفرصة. وسيؤدى هذا ببساطة إلى تعصيد للرأى القائل بأننا لا نفعل شيئاً، وأنها نتردد حول أهم قضية تؤثر على أمن الأجيال القادمة من الأمريكيين». وكان الرئيس يوافق دائماً على ما هو عرضة للخطر من الناحية الاستراتيجية. لكن يمين الآن أن توضع الاعتبارات الانتخابية فى الاعتبار. ورغم هذه الاعتبارات كان الرئيس مستعداً للتحرك مع هذا.

وحدثت الإطاحة العام للتحرك لإقرار التشريع، ولم تكن نريد إقراره قبل ٣١ آذار مارس وهو المهلة المحددة لاستمرار الزخم فى الكونجرس فيما يتعلق بالمساعدات الخارجية. وإذا تمركنا قبل هذا الموعد فسوف يقع مشروع القانون رهينة فى قبضة قضائياً مساعدات أخرى: فضلاً عن ذلك سوف يوصف القانون بأنه مجرد معونة خارجية، مما سيقى به فى حفرة سياسية. وهكذا فإننا فى حاجة إلى التحرك بعد ٣١ آذار مارس، لكن قبل ٦ نيسان إبريل، وهو الموعد المقرر لبدء مؤتمر نواب الشعب. وكان المحافظون وحشون جهودهم ضد بلنسين، وأنه فى حاجة ليكون قادراً على الإشارة إلى صندوق الاستقرار وقانون دعم الحرية لإظهار أن الغرب يؤيد الديمقراطيين فى روسيا بالفعل. وفيما بعد قد لا يبقى أمامنا سوى يومين الأربعم الأول من نيسان إبريل والخميس الثانى من نيسان إبريل لإعلان المبادرة (وكقاعدة عامة فإننا لا نقدم على إصدار مثل هذا الإعلان للرئيسى يوم جمعة أو سبت أو أحد، وهي تقع بين الثالث حتى الخامس من نيسان إبريل).

ومع توصيل نواب وزراء مالية مجموعة السبع إلى اتفاق متعدد الأطراف فى باريس فى ٢٧ آذار مارس وموافقة صندوق النقد الدولى رسمياً على برنامج الإصلاح الروسى فى ٣١ آذار مارس فقد تمهد للطريق أمام إعلان مزدوج فى الأول من نيسان إبريل بواسطة

الرئيس بوش في واشنطن وهايموت كول في بون. لأن الألمان يستضيفون قمة مجموعة السبع في ذلك العام. وتضم للصيغة متعددة الأطراف تقديم قروض قيمتها ١٨ مليار دولار من القروض ومناخرات الديون ومساعدات مالية أخرى من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. إضافة إلى ستة مليارات دولار لصندوق الاستقرار لدعم الروبل. وبلغت حصة الولايات المتحدة نحو عشرين في المائة. فضلاً عن ذلك أعلن الرئيس أن قانون دعم الحرية الذي لم يقر تقديم معظم مساهمتنا في الجهد متعدد الأطراف فقط بل أصبح يشكل أساساً لحشد التأييد الأمريكي لروسيا وللدول السوفيتية السابقة حديثة العهد بالاستقلال. وتضمنت بنوده القاطعة علي وجه التحديد إلغاء تشريع الحرب الباردة الذي أحاق «تشجيع القطاع الخاص الأمريكي علي تطوير علاقاته مع روسيا وتعزيز مساعداتنا الفنية وتبادل البرامج». لكن أهمية كل ذلك لا تقارن بأهمية أن القانون كان بؤرة جهونا خلال علم الانتخابات الذي انتقد خلاله البعض الرئيس لإفراطه في الاهتمام بالسيسة الخارجية. وفي ذلك المهن قلت: إن قانون دعم الحرية هو دفاع بوسائل أخرى. لأنه بمساعدة إقامة الديمقراطية والسوق الحر فإننا نخلق مؤسسات تعمل علي إقرار سلام دائم، ولازات أعتقد أنه حتي لو لم يسعنا إعادة تشكيل المجتمعات الأخرى وفقاً لتصورتنا لديمقراطيات مثالية فكلمنا ساهمنا في أن تصبح أكثر ديمقراطية كلما كان ذلك أفضل.

وبالطبع كان إعلان الأول من نيسان إبريل مجرد البداية لحملة طويلة لكسب التأييد للقانون شملت خطابات مهمة ألقاها الرئيس وأنا أيضاً وجهوداً جبارة لحشد التأييد من جانب بوب شتراوس الذي ضمن تدخله لدي الديمقراطيين في الكونجرس لإقرار القانون في الصيف.

من أربع دول نووية لواحدة: بروتوكول ستارت

وعلي الجانب الأمل من المعاملة المصنيت معظم أيام ربيع عام ١٩٩٢ في التعامل مع قسيتين نوويتين مختلفتين شديدياً التشابك، وكانت معاهدة ستارت التي وقعتها للرئيس مع ميخائيل جورباتشوف في تموز يوليو ١٩٩١ اتفاقية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي،

ويعد انهيار الاتحاد السوفيتي ورثته روسيا من الناحية القانونية. لكن من الناحية العملية استمر وجود الأسلحة النووية الاستراتيجية على أراضي ثلاث جمهوريات أخرى هي أوكرانيا وقازاقستان وبيلاروس. ولنا مصلحة حيوية في ضمان ظهور قوة نووية واحدة فقط من بين انقاض الاتحاد السوفيتي المنهار، وقد بذلنا هذه الثورة مع قوة نووية واحدة حول هذا المجال الاستراتيجي، ولا نرغب في رؤية انتشار نووي في ثلاث دول عندما نقض غبار انهيار الاتحاد السوفيتي. فضلاً عن ذلك ورغم وجود الكومنولث كانت هناك خلافات سياسية حقيقية بين روسيا وأوكرانيا وقازاقستان، ولم تكن نريد بالفعل أن ينتهي الحال بدول تنور مثل هذه الخلافات بينها إلى أزمات نووية مستعصية ونفاس بينها.

و فضلاً عن ذلك كان الرئيس ملتزماً بالتوصل لما يتجاوز اتفاقية ستارت، والعمل على إجراء جولة أخرى من التخفيض المنظم للقوات النووية. واستكمل الرئيس مبادرة السابح والعشرين من أيلول سبتمبر ١٩٩١ حول الأسلحة التكتيكية باقتراح حول الأسلحة النووية كشف عنه في خطاب حالة الاتحاد في ٢٨ كانون الثاني يناير ١٩٩٢ وأعلن أن الولايات المتحدة سوف تتخذ عدة خطوات من جانب واحد (مثل وقف إنتاج ونشر صاروخ موجدثمان، وتحويل جزء مهم من قوة القاذفات إلى أدوار تقليدية) لكن الجانب الأهم في خطابه تعلق بمستويات القوات وببما تقضي معاهدة ستارت بخفض الرؤوس النووية الأمريكية من ١٣ ألف رأس إلى ٩٣٠٠ رأس نووي. فقد اقترح للرئيس في خطاب حالة الاتحاد إبرام معاهدة ستارت ٢ لخفض الرؤوس الحربية إلى نحو ١٧٠٠ رأس بالتخفيض بنسبة خمسين في المائة من مستويات ستارت (لرما يعادل المستويات التي كانت تمتلكها الولايات قبل التوقيع على أول اتفاقية للحد من الأسلحة). وسيم خفض قوات دول الاتحاد السوفيتي السابق بمستويات متساوية. والأهم هو أن الرئيس أعيا مبادرته بإزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الترجمة لمتحدة مستقلة للتوجيه. والتي أُنزعتها مع شوغرنادزة في ريدينهوك ناميبيا ربيع عام ١٩٩٠ وأو حظيت مبادرة الرئيس بالتقبل فسوف يتم إزالة تلك الصواريخ مما يؤدي إلى إحداث توازن نووي أكثر استقراراً.

وفي ذات الوقت تقريباً كان الرئيس يلتزمين بطرح مبادرته الخاصة للحد من التسلح التي تضمنت سلسلة من خطوات من جانب واحد. (وكبادرة بسيطة عن بدء الحقبة الجديدة

التي دشناها استعرض الرئيسان مقترحاتهما مع بعضهما سلفاً، ولو أننا في الحقبة السوفيتية
 تكاف من شبه المؤكد أن تعان المبادرتان علناً أولاً) وعرض يقسمين إجراء خفض أكبر يصل
 إلى مستوى يتراوح ما بين ألفين إلى ألفين وخمسمائة رأس. وقال إن الصواريخ الباليستية
 العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجمة المتعددة مستقلة للتوجيه هي أسل للبلاء من وجهة
 نظر التهديد الذي مثله علي الاستقرار، كما أوضح في رسالة للرئيس بوش في ٢٧ كانون
 الثاني يناير ١٩٩٢. وتمكن من تحديد تلك المستويات باقتراح بإزالة كافة للصواريخ الباليستية
 العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجمة المتعددة مستقلة للتوجيه. سواء العابرة للقارات
 المنسوبة برأ، أو الصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر. وليسوء لاحظ ولأننا نعتمد علي
 الصواريخ الأحيرة فمن شأن اقتراح يقسمين التأثير بإحداث تغيير جوهري في هيكل القوة
 الأمريكية، ويحرمان من مجموعة الاستقرار وهي للقذائف والصواريخ الباليستية العابرة
 للقارات والصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر وهي المجموعة التي ظلت تشكل عماد
 الردع النووي الأمريكي لقرود.

وبلما أنقش سبل التقريب بين الاقتراحين في زيارتي لموسكو في كانون الثاني يناير
 وشباط فبراير غمري إحسان بأننا لن نحرز أي تقدم مهم حول معاهدة ستارت ٢ حتي
 نستطيع أولاً نسوية مشكلة الانتشار النووي مع أوكرانيا وقازاقستان وبيلاروس.



وفي الوقت الذي وقع فيه أعضاء الكومنولث اتفاقاً حول القوات الاستراتيجية في ٣٠
 كانون الأول ديسمبر ١٩٩١ فقد انتصح الآن في شهر آذار مارس أن الخلاف السياسي بين
 روسيا وأوكرانيا وقازاقستان سرعان ما يجعل الاتفاق بلا قيمة. فالخلاف يشور بين روسيا
 وأوكرانيا علي اقتسام أسطول البحر الأسود. فقد طلب الرئيس كراتششوك بمن الولاء من كافة
 العسكريين المتمركزين في أوكرانيا، وما لبث في ١٢ آذار مارس أن أوقف نقل الأسلحة
 النووية التكتيكية من أوكرانيا إلى روسيا.

وفي ١٨ آذار مارس قبل يومين من انعقاد قمة الكومنولث عقدت أول اجتماع مع السفير الروسي الجديد فلاديمير لوكين. وأبلغني أن نواب وزراء الخارجية من أربع دول اجتمعوا وتوصلوا إلى اتفاق يسمح لنا بتنفيذ بروتوكول ستارت، رغم أنه لا يمكن أن تعرف ما يدور بخلاف أسفاننا الأوكرانيين. وعن معاهدة ستارت ٢ قال لي: «إن هناك حاجة لإيجاد طريقة لتعادي الآثار السلبية هذا في روسيا، ولا يمكن ليقين أن يسلي الانطباع بأنه يدمر كل شيء».

لكن ما تم الاتفاق عليه علي مستوى نواب الوزراء لم يجد طريقه بوضوح إلى رؤساء الدول. فقد انضمت قمة الكومنولث في قمرة حتى دون أن يتطرق القادة إلى بحث القضايا النووية. واتضح لي أنه سيحدث علينا تسوية المشكلة للأربعة أو المقامرة بفقدان معاهدة ستارت، وبدأت المجموعة اللامسية وهي أرفع جهاز للحد من التصالح من أهم الوكالات الحكومية أدنى من المستوى الرئيسي في إعداد للخبرات*. وكان أكثر الحلول صعبة هو حمل الدول الأربع علي التوقيع علي بروتوكول معاهدة ستارت الذي ينتج الأثر القانوني باعتبار روسيا ورؤساء للاتحاد السوفيتي. في حين تصبح أوكرانيا وقزاقستان وبيلاروس دولاً غير نوية موقعة علي معاهدة منع الانتشار النووي.

وفي ٧ نيسان إبريل اتصلت بكوزيريف وأثرت لفكرة معه. وبدأت بالقول: «من وجهة نظرنا فإن الجوهر أهم بكثير من المظهر، إن الفرصة متاحة أمامنا للتصديق علي معاهدة ستارت في الكونجرس، وإذا لم تكو صل للدول الأربع السوفيتية السابقة إلي حل فيما بينها، فيسرنى دعوتكم إلي التقدم إلي واشنطن لتسوية تلك القضية».

رد كوزيريف: «لست واثقاً من أن هذا سيكون متروياً. فقد تحدثت مع لاثولي زانينكو وزير الخارجية الأوكراني. وهو يريد الآن تسوية القضية، وسوف يأتي هذا إلي موسكو».

تكن بعد أسبوع ما ليث كوزيريف أن اتصل بي وقال بجلاء: «ليس لدى أنباء طيبة. فلاندا متجهدين في السياء حيث لم يسفر اجتماع الحادى عشر من نيسان إبريل بين

* حسب المجموعة التي مميت بالمجموعة اللامسية لأنه ليس من المفترض أن يعرف أحد شيئاً عن وجودها حتى تتجسس بارفليمور وجيم كيمبي من وزارة الخارجية، وأرني كاتر في البداية ثم جون جوردون من مجلس الأمن القومي لاحقاً، روج ماسيانين من المخابرات المركزية وفيس أوسى من وزارة الطاقة، وستيف هافلى من الدفاع، ومن هيئة الأركان العامة المشتركة أولاً مساعد رئيس هيئة الأركان هورلد جويوز، ثم جون شكلاه شافلى، وأخيراً باري ماكجهرى.

كوزيريف وزلينكو ونظيريهما القازاقستانى والبيلاروسى عن التوصل إلى أى نتائج حول القضية. علاوة على ذلك فقد تسميت تلك القضية الفنية بقدر أكبر. وفى زيارة مقررة سابقة لإظهار تأييدنا لأوكرانيا لمى دوتيس روس وليد هويت ويول فولغوفيتس وكول وزارة الدفاع للشؤون السياسية وفقاً متزايداً لدى الأوكرانيين تجاه الروس. واستمعوا إلى تصريحات من القيادة الأوكرانية على شاكلة «إن الروس يدون أنفسهم هم المركز. فلذلك الروس يحتفظون بحقبة الأبراطورية». وكانت كيف مشهولة برموز الاستقلال، ومن ثم فإن أوكرانيا تريد أن تكون طرفاً فى معاهدة ستارت.

ويدون تدخل أمريكى كنا فى سبيلنا لاستمرار الجمود ولذا فقد أرسلت رسالة إلى كوزيريف، وتحدثنا فى ١٦ نيسان إبريل. ووفق كوزيريف على البروتوكول المقترح الذى تلزم به الدول الثلاث بمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية كنول غير نووية، كما تلزم أيضاً بإزالة كلفة الأسلحة النووية من أراضيها فى ضمنون سبعة أعوام. (الإطار الزمنى المحدد فى معاهدة ستارت).



وانصلت فى وقت لاحق فى ذلك اليوم بالرئيس كرافيتشوك لبحث البروتوكول المقترح الذى سيقوم جون جوندريسون القائم بالأعمال الأمريكى فى كيف بتسلم صورة من مشروعه إلى الرئيس الأوكرانى حتى يتمكن من دراسته. ووصف كرافيتشوك مبادرتى بأنها «واقعية للغاية»، وقال: إنه سيعاود الاتصال بى فى اليوم التالى وقد فعل. وقال: «إن مبادرتكم بنامة للخالية إنها تظهر أن الحكومة الأمريكية مستعدة لمنع فى اعتبارها مواقف كافة للدول المعنية. إن أوكرانيا تزيد شكل ومضمون البروتوكول. وليس لدى سوى التوفيق من التطبيقات عليه لكن تلك التطبيقات لا تمنع المبادىء».

وبصمان موافقة دولة (أو هكذا تصورت) تحولت إلى بيلاروس وقازاقستان، وفى ١٩ نيسان إبريل تحدثت هاتفياً إلى ستانيسلاف شوشكفيتش رئيس بيلاروس الذى لم يبد أى

اعتراضى علي ليدروتوكول. ويبدو أن كاترنة تشرنوبيل دفعت للبيلاروسيين إلي معارضة متشددة لكل ما هو نووي.

وتحدثت في ذلك اليوم أيضاً مع للرئيس نزار باييف. وحاول نزار باييف في رسالة بحث بها قبيل بضعة أيام إلي للرئيس بوش ابتكار طريق ثالث فيما يتعلق بمعاهدة منع الانتشار النووي. وكان يريد أن تصبح قازاقستان قوة نووية مؤقتة، من أجل أهداف معاهدة منع الانتشار النووي و ربط لفترة التي سيستغرقها الصمام قازاقستان إلي معاهدة منع انتشار الأسلحة للنووية كعضو غير نووي بضمانات أمنية من الدول للنووية. لاسيما الولايات المتحدة. وأبلغته بأن الضمانات الأمنية عولجت في المفاوضات الأصلية لمعاهدة منع الانتشار النووي، وأن للولايات المتحدة قد أعلنت رسمياً عزمها عام ١٩٨٩ علي التسمي لانتماس المساعدة من مجلس الأمن الدولي إذا تعرضت أي دولة غير نووية للتهديد من جانب دولة نووية. وقت نزار باييف إننا متعمسون بهذا الالتزام وسوف نؤكد في حالة قازاقستان.

وكان نزار باييف حذراً، وشككياً، وأعرب عن أمله في استمرار العلاقة الخاصة، لكنه قال بواجازاته وشعر وقديماً بأنني أعترف بدور قازاقستان الجيد ولونجكي الخاص. وأختم حديثه بحلي علي استخدام الدبلوماسية الأمريكية للتأثير علي القيادة الروسية، وقال: «إذا لم تكبح للشوفينية الروسية فقد تراق الدماء، وقد تندلع حرب أهلية، وقد تذهب كل الإصلاحات لأراج للرياح وقد تكورط قازاقستان».

وخلصت إلي أننا إن نحرز تقدماً فنكر مع القازاقستانيين أو الأوكرانيين مالم نلب احتياجاتهم السياسية، وحالفنا الحظ بسبب الاجتماعات المقررة بين كرايتشوك ثم نزار باييف مع الرئيس في واشنطن في آيار مايو.

وسيزور يلتسين واشنطن في حزيران يونيو لعقد قمة شاملة. وبالتأكيد سوف يساهم للرمز السياسي للإستقبال في البيت الأبيض في تلبية حاجة الأوكرانيين النفسية للإعراب عن استقلالهم، ويحقق أيضاً رغبة نزار باييف في استعراض «العلاقة الخاصة» ولتلبية

الحاجتين، أعدنا مشروع «بيانين مشتركين» لكل من الأوكرانيين والقازاقستانيين للإعراب عن العلاقات الوثيقة التي تربطهما بأمريكا.



واعتقدت بأنه إذا أمكننا حمل الأوكرانيين علي التوقيع علي بروتوكول ستارت فسوف يمنحنا هذا السبزة التي نحتاجها لحمل القازاقستانيين علي الموافقة أيضاً. وبالوصول علي التزام من أوكرانيا وبيلاروس وقازاقستان بالتحويل إلي دول غير نووية نكون قد عالجتنا بتدريتنا واحداً من أخطر التحديات الأمنية في المنطقة، وحققنا أهدافنا بخروج دولة نووية واحدة من بين انقراض الاتحاد السوفييتي الشهاب. فضلاً عن هذا فسوف يحمز موقف بالتسعين والديمقراطيين داخلاً في مواجهة القوميين، وستحصل الإصلاحات للروسية علي زخم جديد وتتميز علاقات التعاون الأمريكية الروسية في القصة. ومن الواضح أيضاً أن روسيا لن تعمل علي التوصل لمعاهدة ستارت ٢ حتي يتم تسوية هذا الجانب في معاهدة ستارت.

وترنبها علي ذلك فمت خلال الفترة من ٢٨ نيسان إبريل حتي ٤ أيار مايو بالتحدث ثمانى مرات مع زلينكو ونحن نتباحث حول البروتوكول والخطابات التي ستترقب به. وفي النهاية كان لدي الأوكرانيين مجموعتين من المشاكل. الأولى تتعلق بالبرلمان الأوكراني (رادا) ولم يكن كرافيتشوك راغباً في قطع للتعزم قانوني أو الموافقة علي موعد محدد لإزالة الأسلحة النووية. لأنه يعتقد أن هذه القرارات من اختصاص الرادالبرلمان الأوكراني، ولذا فإنه أن أوكرانيا تريد ضمانات أمنية، وترغب في إتمام إزالة الأسلحة النووية في الاتحاد السوفييتي السابق تحت إشراف ورقابة دولية.

وفيما عكفت أنا وزلينكو علي إعداد مشروع بروتوكول والخطاب للرفق شمرفي شعور قوي بالغموض حول ما إذا كانت أي قضية يفترض أننا سوينها قد انتهت بالفعل. وكان هناك بالقطع قدر من «الغلب» في الصياغات الأوكرانية، وكنت متخوفاً من أننا قد لا نستخدم المفاوضات مطلقاً. ففي الأول من أيار مايو علي سبيل المثال أضاف زلينكو عبارة «سلامة

أرأسى، إلي خطاب المنظمات في إشارة واضحة إلي النزاع القائم حينذاك حول أسطول للبحر الأسود وشبه جزيرة القرم. وقد أزلت هذا. لكننا لم نواصل إلي اتفاق كامل بعد.

واضمان أننى لم أخسر الروس اتصلت بكوزيريف في الأول من أيار مايو ثم مرة ثانية في الثاني من أيار مايو. وأوصحت له أننا نعمل للتوصل إلي بروتوكول وخطابات مرفقة ملزمة وبموجب الحاجة إلي تصديق البرلمان علي معاهدة منع الانتشار النووي فن تمنع بيلاروس وقازاقستان وأوكرانيا في الموافقة علي الانضمام إلي معاهدة منع الانتشار، في سرع وقت ممكن، بدلاً من النص علي موعد محدد. وكان كوزيريف يشعر بالقلق من تخمير الوضع للكامن في بعض صياغتنا. لكنه يعتقد أن نهجنا سيؤتي ثماره إذا ما تم إقناع الجميع بالتوقيع. وأبلغته أنه برغم أنه من المقرر أن يكون كرافيتشوك في واشنطن في غضون ثلاثة أيام فإنني غير واثق تماماً من الحصول علي موافقة أوكرانيا. وأشار كوزيريف لي: «إن ممارسة ضغط إضافي علي الأوكرانيين قد يؤدي إلي التوقيع علي البروتوكول — رغم أن كريف شارس لعبة نفسية بالغة الخطورة تطابق اللعبة السوفيتية تماماً. وذلك في إشارة واضحة إلي تاريخ كرافيتشوك وزابنكو في الحزب الشيوعي».

وفي الرابع من أيار مايو اتصلت بزيونكو في محاولة لالتهام من الخطاب المرفق، وتضمن نص مشروعه بنوداً عن الإشراف الدولي علي إزالة الأسلحة النووية، وهذا نهج لا نقبل به لأنه سيجعل المجتمع الدولي لأوكرانيا مسؤولاً عن إزالة أو تدمير الأسلحة النووية علي أراضي أوكرانيا. وعندما حاولت الإشارة إلي أننا قررنا بالفعل أن هذا النهج غير مجد أبلغني زيونكو أن فكرة الإشراف الدولي من اقتراح الرئيس والرأى. فضلاً عن هذا فقد وقع الخطاب بالفعل. والرئيس غير موجود في مكتبه، وإن يصني المقرر عليه التوقيع علي خطاب جديد قبل سفره إلي واشنطن. وعلي أية حال فسوف يزوجه إدخال أي تغيير. ورددت: «إن معاهدة ستارت لا تنص علي أي إشراف أو رقابة دولية. كما أن حكومة الولايات المتحدة غير مستعدة لقبول هذا الشرط من جانب أوكرانيا للوفاء بالتزاماتها، وقت له لو اقتضت الحاجة يمكننا تعديل خطاب كرافيتشوك بالفعل. لكن إذا لم يضمن للتوصل لاتفاق قبل زيارة الرئيس الأوكراني حينئذ سيضطر الرئيس بوش إلي إثارة القضية معه مباشرة».

وواصلت القول: «أريدك أن تلمس مدى أسقى لعدم تسوية هذه المسألة حتي الآن، ثم قرأت عليه مقتطفات من افتتاحية منشورة في صحيفة نيويورك تايمز في ذلك اليوم بعنوان «ردة نووية في أوكرانيا» وطالبت الافتتاحية بضرورة تطبيق المساعدة السياسية والاقتصادية لأوكرانيا حتي تطلع إلزاماً بإزالة الأسلحة النووية. وقلت: «هذا ما حداني إلي العمل علي مدار الأسابيع الثلاثة الماضية حتي لا يتكرر صفو زيارة الرئيس كرافيتشوك».

وأخيراً تلقي زلنكو الرسالة وقال إنه «شخصياً لا يجد غضاضة في حذف العبارة موضع الخلاف. لكن علي أن يحلحل الاتصال بكرافيتشوك. وبعد ساعة عاد للاتصال بي وهو أشد اهتماماً بضمث لشيء عن ذي قبل، وقال إنه لم يستطع التحدث إلي الرئيس. وقلت له بضمث علينا الآن أن نتحدث عندما يصلوا إلي واشنطن.

ولدي وصول كرافيتشوك وأخفقه إلي بلور هاوس حيث سينزل خلال زيارته. وبدأت بالقول «السيد الرئيس إن هذه الزيارة مهمة لكلا البلدين. فأكول مرة يقوم رئيس أوكرانيا الديمقراطية المستقلة بزيارة الولايات المتحدة، ونفست في شرح إلي أي مدى نزيد نجاح الزيارة لكن هذا يقتضى الانتهاء من التبروتوكول وخطاب الضمانات. وقلت له «إننا نتفهم السبب الذي يدعوكم إلي العمل شكل ما من أشكال الرقابة علي الأسلحة بمجرد خروجها من أوكرانيا لكن لا يمكننا قبول ذلك في ستارت، وكان يريد فحسب أن نصيف كلمتي «وضع أوكرانيا» إلي العبارة المزعجة وفضلنا. وانتهت الزيارة بدجاح تام لعلاقة بلدينا.

والأهم أنها عزلت نزارباييف الذي أدلي بحديث لصحيفة واشنطن بوست في الخامس من آيار مايو نفس يوم اجتماع بوش وكرافيتشوك قال فيه أنه يسعى إلي الحصول علي ضمانات أمنية من روسيا والصين والولايات المتحدة قبل أن تسلم قازاقستان أسلحتها النووية. لكن مع موافقة الأوكرانيين يجب الآن علي نزارباييف أن يوافق، ولذا فقد صمركتي ثقة تامة وأنا أكتب له في ١٢ آيار مايو أحد له الإطار العام لأقراحننا حول ستارت، وتأكدنا مجدداً لتعهدنا بشأن عدم الانتشار للنووي لعام ١٩٨٩. ورد علي في ١٦ آيار مايو قبل يومين من الموعد المقرر لوصوله إلي واشنطن لمقابلة الرئيس بوش.

وأبلغني أن قازاقستان تلقت ضماناً آمدياً جماعياً من روسيا، وبالإضافة إلى تمهيدنا بشأن عدم الانتشار النووي لعام ١٩٨٩ فإنه يعتقد أنه حصل علي ضمان كاف للتوقيع علي بروتوكول سدرات والانضمام إلي معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية كدولة غير نووية. وأشرت إلي أننا في حاجة إلي خطاب مرفق، وقال إنه سيرسل خطاباً عبر السفير بيل كورتكي. وفي موسكو وهو في طريقه إلي واشنطن «أثار مسألة تقديم أراض قازاقستانية من أجل الدفاع المشترك، وأن نشر الصواريخ سيتقرر إستناداً إلي المزايا المتبادلة، وذلك في إشارة إلي أنه قد يحاول التوصل إلي اتفاق مع الروس للاحتفاظ بهاتين من ترسانته النووية.

وبمجرد وصول الرئيس القازاقستاني إلي واشنطن بعد ظهر ١٨ أيار مايو أصبحت ساعة معه في بلور هاوس، ثم تناولنا الإفطار لمدة ساعة في اليوم التالي في محاولة لالتهاء من الاتفاق الذي أكملاه في الوقت المناسب لخطبه الرئيس بوش وداربايف بعد ظهر الثلاثاء. ولكن بروتوكول سدرات، وسوف يوقع عليه في عطلة نهاية الأسبوع في لشبونة حيث نهدم كافة الدول العملية للمشاركة في مؤتمر معاهدة دول الاتحاد السوفيتي السابق، ونفست الصعداء. فقد انتهت ثلاثة أشهر من المفاوضات أو هكذا ظننت.



ولسوء الحظ كانت المحادثات لا تزال قائمة حتي ونحن في الطريق إلي لشبونة. وأثناء توقفنا في لندن اكتشفت أن الأوكرانيين يرلوعون، ولذا فقد نصفت بزاينكو من جناحي في فندق نثرشل. ولم تكذ تمضي دقيقة واحدة علي بدء المحادثة حتي اتضح أنه يتراجع في أبسط القصص التي تم تصويتها بالفعل. وأثار هذا للتصرف حقني: فليس هناك أسوأ في المفاوضات من أن تتحاور مع من تبدأ في الإحساس بفقدان الثقة فيه. وأخيراً كنت قد سمعت ما فيه الكفاية وأغلقت الساعة. وقلت وحدي في غير موجه لشخص بعينه: «هذا رجل كذاب. إنه ليس سوي شيوعى. لقد سمعت تلك القصة». وجاء ديتس روس - الذي كان يستمع إلي المكاملة كمسجل - إلي الغرفة تلو وجهه لتيصامة عريضة وسألته: «علي ماذا تبسم؟» وقال: «إن زابنكو لم يدرك أنك لست علي الخط، وظل يتحدث، وعندما لم يثلق أي إجابة تسأل:

السيد وزير الخارجية؟ السيد وزير الخارجية؟ أوم، لا لقد أغلق الخط. وفي لشبونة حدث الأسوأ. ففي الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر السبت ٢٢ أيار مايو - لليوم المقرر للتوقيع علي البروتوكول أحضرت زلينكو وكوزيريف إلي غرفتي ومع عدم وجود أي من العاملين أو أي مسجل طلبت منهما الجلوس وقلت: أيها السيدان، علوكما الانتهاء من هذا وإن أدعكما نغادران حتي تنتهيان منه، ولذا فحطيكما إنيامه علي الوجه الأكمل. وبعد أن تبادلنا نفرس بعضهما في قلق كما لو كانا ملاكمين مقدمين علي معركة فاصلة بدأ كوزيريف وزلينكو الحديث لسوية خلافتهما. وبعد أن غادر زلينكو قال كوزيريف: «إن هذا أسوأ من التعامل مع شيوعي بلغاري»*

وبصراحة لم أعبأ بهذا. فقد كنت أريد الانتهاء من البروتوكول. وأخيراً وفي الساعة الثامنة وعشر دقائق دخلت قاعة وينتر جاردن بفندق ريتس مع ممثلي بيلاروس وقازاقستان وروسيا وأوكرانيا. وفي مراسم متقشفة لم تلق فيها أي كلمة - فلم تكن نريد مباراة سباح. تم التوقيع علي البروتوكول وتبادل الخطابات، وبعد ست دقائق وصلنا إلي غابيتا؛ فن يكون هناك سري قوة نووية واحدة وريثة للاتحاد السوفيتي السابق**.

زيارة لصديق

ومن لشبونة غادرت في رحلة است ساعادت إلي الاتحاد السوفيتي السابق ليس للتفاوض علي الأسلحة النووية. لكن لزيارة جورجيا تلك الجمهورية السوفيتية السابقة التي يرأسها الآن صديقي إدوارد شيفرنادزة. وكانت جورجيا هي الجمهورية السوفيتية السابقة الوحيدة التي لم أزرها منذ انقلاب آب أغسطس. وماجت هذه الجمهورية بالاضطراب علي مدار الأشهر

* في برافيتي إلي الرئيس تلك الليلة كثبت: ممكن القول إن الجدل أعاد لي بعض التكريرات للقرية لزياراتي للاماني إلي تفرق الأوسط وما استطعت اتوجه للصورة لمؤشر مديود.

** ومع هذا نحن علي إدارة كوفيتون التعامل مع بعض المشاكل والتمويه من جانب أوكرانيا في تنفيذ ما وافقت عليه في البروتوكول.

الخاصية بعد الإطاحة عن طريق العنف يرئسها الديمقراطي زينايد جمساخورديا في كانون الثاني يداير بعد عام من الحكم القمعي. ولا تزال العصابات المسلحة تفرح في شوارع تفليس ليلاً، ومع شبح الاضطرابات الجاثم قررت الحكومة فرض حظر التجول من الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وعاد شيفرنادزة لتولي رئاسة جورجيا مؤقتاً في الربيع، ويادر بالمعية شديدة بوصف مسقط رأسه بأنه «بلد صغير مدغل بمشاكل مهولة، ورغم قطع (ثلاثة آلاف ميل، لإتمام زيارة لن تستغرق سوى أقل من أربع وعشرين ساعة لقد أدت الذهاب إلى جورجيا لأنني أحسست أن الزيارة ستصلح مجتمع جورجيا الهش دفعة قوية مهمة. كما نأمل أن تعطي شيفرنادزة وحلفاءه دفعة نفسية وهم مقدمون علي انتخابات عامة من المقرر أن تجري في ١١ تشرين الأول أكتوبر.

ووصلنا إلى المطار ذلك اليوم لنجد شيفرنادزة بشعره الأشيب ينتظرننا علي مدرج المطار وبجانبه سيرجي تاراسينكو وثياموراز ستوبانوف أخص مساعديه. وفي الوقت الذي كان مهموماً فيه بمحنة جورجيا كان شعر بارتياح واضح وهشور بزيارتي له في بلده ربناً علي زيارته لي في كانون الأول ديسمبر ١٩٩٠. ومن المطار توجهنا إلي بيت الضيافة الحكومي لتناول العشاء وعقد جلسة اجتماعات. ويقع بيت الضيافة القشبي الرحب علي قمة تل يطل علي مدينة تفليس، وشغله في السابق لافريونكي بوبريا الرئيس الريحب لمخابرات سدالين سف الكي جي بي. ولم أصدق أنني سأنزل في بيت كان ينزل فيه بوبريا أحد أسوأ ألتباع سدالين سمعة وفمرساً علي القتل، وهو الذي اعتدت أن أقرأ عنه في المطبوعات الأمريكية.

واجتمعنا في غرفة جلوس دافئة ومريحة. وبدأت بسؤال شيفرنادزة: «هنا نرى ما هي احتياجاتكم علي وجه التحديد وسوف بعمل بأنفسني طاقنا لتري ماذا يمكننا عمله. فلدينا عدة برامج وبعضها أيسر من الأخرى». وفي وقت سابق كنت قد طلبت من فريق العاملين معي

• كل حظر التجول، فضلاً في حماية الأبرياء لا رجع المجرمين. وفي الواقع فقد كان بالإمكان سماع دوي إطلاق الرصاص أثناء الليل خارج مقر الضيافة حيث أقيم.

الاتصال بريتشارد أرميتاج في واشنطن لنحدد ماذا يمكن عمله لتقديم إمدادات غذائية وطبية جديدة علي للفقر إلي جورجيا.



وشكرني شيفرنادزة علي عرضي، وقال إنه يشعر بالامتنان لتحريكنا للاعتراف بجورجيا. وقال: «لقد كان الأمر بالغ العرج والصعوبة بالنسبة لك بسبب الإطاحة بالرئيس الشرعي فلم يكن بالأمر السهل عليك، إنني أقر بذلك». وقال إن دولاً كبرى أخرى مثل روسيا لم تقدم علي اتخاذ مثل هذا الإجراء. وأفاض محدداً إطار الاتحادى الذى ينتظر إقامة الديمقراطية، ومضى قائلاً: «ليس هناك تقليد للديمقراطية في هذا البلد. فالداس هذا تحقد أن أسلوب سدالين هو أفضل طريق لإدارة شؤون هذا البلد. ولكم حتى التكبر من الزملاء علي الاستمواد علي كافة مقاليد السلطة. وبينما أبدو وكأننى أحوز علي ثقة للشعب فلننى أعتقد أنه يجب على أن أتحرك لإجراء الانتخابات. فلينا انتخاب برلمان طبيعى. وعلينا أن نعمل علي تسوية المشاكل الاقتصادية الهائلة التى نعانى منها. إن شعبنا شعب عظيم وحيوى. شعب يثير الاهتمام ويرغب في الشروع في الثقة بالديمقراطية.

وبينما هو مستمر في حديثه لم يكن يسطى سوى استعادة ذكرى الاجتماعات التى عقدها، وتذكرت شعورى عندما استمعت إلي رؤية جورجية ثاقبة من زوجته نانولى علي عشاء في شقته في موسكو في آيار مايو ١٩٨٩. ولكننى تذكرت علي وجه الخصوص قولاً لشيفرنادزة خلال اجتماعنا في ناميبيا قبل أكثر من عامين. وفي ذلك الحين كنت أمارس عليه ضغوطاً مكثفة بسبب القمع السوفيتى في البلطيق وأحاول إقناعه بأنه من الأفضل أن يدعها السوفيت تستقل. وجاءت إجابته في غاية البساطة قائلاً: «جيم. لو فلنا ذلك فلاني أبن سيلتهى الأمر، كيف ستمطيع الدفاع لعنم تركه الآخرين يفلتون الشيء ذاته؟ فسوف يريد بعض الآخرين الحصول علي الاستقلال. وهذا ما حدث بالصنيط، وما هو الآن قد عاد إلي مسقط رأسه محاولاً إقامة الديمقراطية.

وطمأننى شيفرنادزة أنه فى أجواء الغرب الوحشية فى تفلين فإن أمنه مسمان ولا يعدو أن يكون، مسألة هامشية تكسامل حقيقة بجانب ما تولجهه كبلك. ومع هذا فقد اعترف بأن الأمور «قد تتدهور قبل الانتخابات». فهؤلاء الناس يريدون أن ألوذ بمطلقهم السياسى الآن، وستل الحاجة كلما اقتربنا من الانتخابات» وعن الانتخابات توقع شيفرنادزة قائلاً «سوف تجري، لكننا فى حاجة إلى مزيد من الاستقرار هنا فإننا عشر إلى خمسين فى المائة من الشعب لا يزالون يريدون جنساً خورديا، وفى الجزء الغربى من البلاد لا يزال يوجد الكثير من المتعصبين».



وصباح اليوم التالى بدأنا اليوم بأن اصطحبنى شيفرنادزة إلى ديربالغ الروعة يعود إلى القرن العادى عشر يقع وسط سلسلة جبال تعيط بتفليس. وعكس للدير ثراء التراث للدينى لهذا البلد الصغير. ومن الدير قبور حكام جورجيا أثناء الحقبة الملكية، وقبب تفليس واحد من الأماكن النادرة فى القوقاز التى يسع المرء أن يجد فيها معالم تمثل كل الديانات الرئيسية تقريباً. فهاهو مسجد وذلك معبد يهودى وذلك كنائس أرثوذكسية أرمنية وجورجية، وبداخل الدير أقام الرهبان حفلاً بديماً، وأعطونا الشموع لإضاءةها.

ثم اجتمعت بمجلس الدولة الجورجى الذى يحكم جورجيا. حيث كنت تأييدنا لمصاعى جورجيا لإقامة نظام ديمقراطى وسوق حر. وكان وهذا يضم للفتنات جبرال جون شاليكاڤلى الذى تولى قيادة عملية «توفير الراحة» وهو ممثل الجبرال كوتلين باول فى الزيارة، وكان ولد شاليكاڤلى قد فر من جورجيا هرباً من الصوفيت عام ١٩٢١ وكان أجداده من علية القوم فى جورجيا. وفى الوقت الذى أحبط فيه شاليكاڤلى بأجواء احتفالية خلال الزيارة فقد تلقفته وسائل الإعلام منذ اللحظة التى وطئت أقدامنا فيه أرض جورجيا.

وخلال توجهنا إلى المطار لخترق ركبنا مناطق وسط مدينة تفلين التى دمرت خلال للاضطرابات الأهلية فى وقت سابق من العام. ويبدو مقر البرلمان كما لو كان يعود إلى أيام

الحرب العالمية الثانية، وفي نهاية المطاف الدمار يقع ميدان منضم لمتشد فيه الناس يحتفظون «باليوم الوطني» وهو يوم للاحتفال بمل هذا اليوم من عام ١٩١٨ عندما أعلنت جورجيا استقلالها. وكان لهذا اليوم أهمية خاصة هذا العام. فقد شاركت فيه أعداد ضخمة شديدة المرح.

ولدي أقاربنا من الميدان أراد شيفرنادزة الخروج لتحية الجماهير وقد فطنا، ولم يكن هذا التصرف التلقائي العفوي مصدر لوتياخ لفريق الأمن. فقد أبلغنا في وقت سابق بأن بحوزة كل جورجى تقريباً قطعة سلاح، وأن هذا الميدان يتحول في الليل إلى ساحة قتال. وقد ذهبت السعادة البادية علي للوجود التي أراها بأي إحساس بالفطر ربما يكون قد انتابني. وخطبت أنا وشيفرنادزة في للعشد من منصة أقيمت بالميدان، وفي الموقع كان حماس وتقدير ألوف الجماهير خير تذكاري لزيارتي لأبائنا قبل عام.

انفراج نووى: معاهدة ستارت ٢

خلال مفاوضات التوصل لبروتوكول ستارت كنت علي اتصال مستمر مع أندريه كوزيريف وأضماً نصب عيني ليس فقط لإنهاء بروتوكول ستارت بل أيضاً لإحراز تقدم حول ستارت ٢. وأحرزنا تقدماً في بعض القضايا البسيطة تاريخ كل شيء علي حاله. لكن دون أن نسد فجوة العلاقات الرئيسية في مفاوضاتنا.

وبالتوصل إلي بروتوكول ستارت، وحيث لم يبق علي موعد قمة بلنتين والرئيس سوي أقل من شهر بدأ الموقف الروس في التغير. وفي لشبونة طرح كوزيريف اقتراحاً يدعو إلي إزالة الأسلحة علي مراحل. وفي المرحلة الأولى سيقوم الجانبان بخفض الرؤوس النووية من ٤٥٠٠ رأس إلي ٤٧٠٠ رأس خلال فترة التسوف السبع المتصوص عليها في ستارت، وفي المرحلة الثانية سيقوم الجانبان بخفض الرؤوس إلي ٢٥٠٠ رأس بحلول عام ٢٠٠٥ وإزالة كافة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة للرجعة المتحدة مستقلة التوجيه.

وشكل هذا تحولاً مهماً تجاه مبادرة الرئيس التي طرحها في خطاب حالة الاتحاد. فقد كان إجمالي مستويات القوة في المرحلة الأولى هو نفسه الذي اقترحه بوش. كما شمل التزامه إزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات فقط لا الصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر. كان الحد الذي اقترحه كوزيريف هو ٢٥٠٠ رأس، وهو يقل بكثير عما ترغب فيه وزارة الدفاع الأمريكية.

وأبلغت كوزيريف بأننا لا يمكننا قبول حد الـ ٢٥٠٠ رأس وإذا تضمن اقتراح الإزالة التدريجية هذا الحد فلن نقبله حينئذ. ومع ذلك فقد أشرت إلي أنه لو أمكن تسجيل التزام كتابي بإجراء مزيد من الخفض في المرحلة الثانية فسوف نوافق علي اقتراح الإزالة التدريجية. وقال إنه يعتقد أنهم يمكنهم الموافقة علي الإزالة التدريجية علي هذا الأساس. وكان هذا حاسماً بالنسبة لنا. لأنه للوصول إلي حد الـ ٤٧٠٠ رأس في المرحلة الأولى يتعين علي الروس إزالة ثمانين في المائة من صواريخهم العابرة للقارات. وأحسست أننا نسير نحو التوصل لاتفاق. لكننا في حاجة إلي دراسة للتفاصيل وضمان عدم وجود عراقيل بيروقراطية في واشنطن، ولذا فقد أبلغت كوزيريف بأنني سأتصل به مرة أخرى.



وفي يوم الثاني والثالث من حزيران يونيو اتصلت بكوزيريف للاستفسار في استطلاع اقتراحه. لكن كان من الواضح أنه ليس أمامه مساحة للمناورة، واستضرت عما إذا كانت رسالة من الرئيس بوش إلي الرئيس يلتزمين ستكون مفيدة. وقال إن الوقت غير مناسب. ويوم الخميس الرابع من حزيران يونيو اجتمعت مع سكوكروفت وتشيلي وبازل لبحث الخطوات التالية، وقلت: إن «الإزالة ستكون نصراً سياسياً وموضوعياً محوياً للرئيس هو في حاجة إليه» ومضيت إلي القول: «إنها قصيته. إنها ليست شكلاً قديماً للحد من السلاح من ناحية الجوهر. فساداً في جنيف نتفاوض حول نص من أربعمائة صفحة. إننا نتطلع للتوصل إلي اتفاق بين الرئيسين سيحسم كافة القضايا الكبرى».

وحددت رأيي بشكل قاطع إنهم يعرضون علينا ما نريده. وما لم يجرؤ أحد آخر علي الإقدام عليه: أي الإزالة الكاملة للصواريخ الباليستية العابرة للقارات مع عدم إزالة الصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر، فلا يمكن أن ندع هذا يفت من بين أصحابنا لمجرد أننا نريد رقماً إجمالياً أعلي. فهذا أمراً يتحمله الرأي العام أو الكونجرس.

واتفقا علي دعوة كوزيريف لزيارة واشنطن ليقدر ما إذا كانت هناك أي مرونة في موقفه. وأمضيت معظم يوم الثامن من حزيران يونيو وصباح الثلاثاء أغلب مختلف الجوانب التي قد نعدل وفقاً لها مقترحاًنا للتوصل إلي اتفاق. ومرعان ما اتفقا علي حد ٤٧٠٠ رأس، لكن لم يسمعا الاتفاق علي الحدود القرعية الخاصة بالصواريخ الباليستية العابرة للقارات والصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر والقاذفات تحت سقف الـ ٤٧٠٠ رأس الإجمالية وكانت إطاراًنا الزمنية لتدمير الأسلحة النووية مختلفة أيضاً.

وأبلغت كوزيريف باستعدادي للتوجه إلي موسكو لإزالة أي اختلافات ورد: «إن يجرى هذا، أننا نلقي معونة قدرها ٢٤ مليار دولار ثم يأتي وزير خارجية الولايات المتحدة إلي موسكو ليحصل علي ما يريد» وأبلغني كوزيريف أيضاً أن مساحة المناورة محدودة أمام الإصلاحيين، وقال: «إننا في حاجة لإيلاء اهتمام بمجلس الأمن القومي الروسي. وأشار قائلاً: «نقد هزمت في التصويت سبع مرات مقابل اثنين حول العديد من القضايا. إن لدينا بعض المفكرين المتشدين الذين يقولون للغربيين أشياء عظيمة. لكنهم متشددون في دولتهم الخاصة».



وبعد المزيد من المباحثات بين الوكالات الحكومية ومنصة سياسية من يلتسين الذي قال أمام اجتماع كبار ضباط الجيش إن الولايات المتحدة تسعى للحصول علي امتيازات من جانب واحد، توجهت إلي لندن الخميس الحادي عشر من حزيران ويوبعد جولة مباحثات أخري مع وزير الخارجية الروسي. وأثناء الرحلة إلي لندن استقبلت الطائرة رقم ٢٧٠٠٠

(وهذا هو الرقم المكتوب علي ذيل الطائرة وهو الطريقة التي كنا نتعرف بها علي طائرة سلاح الجو التي نستقلها). وتذكرت للمرة الأولى التي استقلت فيها تلك الطائرة - برفقة جيرالد فورد عام ١٩٧٦ عندما كانت الطائرة رقم واحد، وأصبحت مندي تغير العالم منذ ذلك الحين.

وفي لندن أبلغني كوزيريف أن يلتصق اتصال به في الساعة الواحدة بعد منتصف الليلة الثامنة واستفسر متسائلاً: «هل تعتقد أن الأمريكيين سوف يقبلون أحدث مبادرتنا؟» وأبلغه كوزيريف أننا قد لا نقبلها علي الأرجح. وما لبث أن أمر كوزيريف بقاءه في الكرملين في الساعة التاسعة صباحاً. ولدي وصول كوزيريف كان كافة كبار مستشاري يلتصقين للأمن القومي بمن فيهم العسكريون موجودين. وأمره يلتصقين «عليك أن تشرح لنا لماذا لن نقبل الولايات المتحدة اقتراحنا، ولماذا لن نتفق أموال لتنفيذ ما ورد في الاقتراح الأمريكي». وأفاض كوزيريف في الشرح وأضطر الجنرالات إلي الموافقة فذلك ان يتطلب الكثير وقد منح يلتصقين وزير خارجيته مساحة أرحب للمناورة في المفاوضات.

وإلي لندن جاء كوزيريف أكثر مرونة، وتمكنا من تضيق حوزة الخلافات بقدر أكبر. وبعد تحديد الإطار العام لما وصلت إليه المواقف سألت خبراء مجموعتنا للإسمية صراحة، ما هي الأسئلة التي أنتم في حاجة للإجابة عليها؟ ولم يكن بوسعهم سوى طرح ثلاثة أسئلة محددة لأطرحها علي كوزيريف ووسمعي الإحساس بظهور حل وسط. لكننا لم نتوصل إليه بعد.

ويوم الإثنين الخامس عشر من حزيران يونيو وصل يلتصقين وكوزيريف ونقيب الوفد الروسي إلي واشنطن وتوجه كوزيريف مباشرة إلي وزارة الخارجية لمواصلة مباحثاتنا، ومن الساعة السابعة مساءً تقريباً حتي الساعة العاشرة وللنصف ظلمات أتفاوض إما مع الروس أو عناصر في حكومتنا. ولهره بدت وزارة الدفاع الأمريكية وكأنها العقبة الأكبر لا موسكو. ومع هذا فقد تمكنا من تسوية قضيتين فئيتين هما قواعد حصر القاذفات، وحدود خفض جملة الصواريخ من الرؤوس الحربية (علي سجل المعدل تحويل الصاروخ من صاروخ مزود بمركبة الرجعة المتعددة مصنعة للتوجيه إلي صاروخ باليستي عابر للقارات برأس واحدة).

واجتمعت في اليوم التالي مع مسؤولي الحد من التسلح الأمريكيين في الساعة الثامنة
 والثلاث صباحاً، ثم اجتمعت مع كوزيريف لنحو خمس وأربعين دقيقة، وبدأت أفقد صبري مع
 جابينا الأمريكية. فقد ذهب الروس لآخر للشوط بينما منظر الحد من التسلح في وزارة الدفاع
 يفشلون علي ما يبدو عدم التوصل لاتفاق سوي اتفاق يفتحنا (فقط) تسعين في المائة مما
 نريده. وترجعت إلي البيت الأبيض للمشاركة في حفل الاستقبال الرسمي ثم انصممت إلي
 الرئيس في أول جولة مباحثات ثنائية مع يلتسين .



ومثلما حدث في كامب ديفيد كان يلتسين في أوجه . وقال إن الجانب الروسي يريد
 التوصل إلي معاهدة ستارت ٢ وعرض اقتراحاً فريداً . وبدلاً من الاتفاق علي سقف من رقم
 محدد، فلماذا لا نتفق علي «نطاق» . واقترح أن يقوم كل جانب في المرحلة الأولى بخفض ما
 لديه من رؤوس نووية لإجمالي يتراوح بين ٢٨٠٠ إلي ٤٢٥٠ علي أن يتحقق النطاق في
 المرحلة الثانية لما بين ٣٠٠٠ إلي ٣٥٠٠ . كانت مميزات الاقتراح شديدة الوضوح علي
 الفور . فسوف تسمح للروس بالتوصل إلي الحدود الأدنى التي يريدونها لأسباب اقتصادية .
 وسوف تسمح لنا الاحتفاظ بعدد أكبر نسبياً (يتناسب مع هيكل القوة لدينا) . وفي المقام الأول
 فقد اعترف اقترح يلتسين أنه في عالم الأسلحة النووية فإن ميزة امتلاك بضع مئات رؤوس
 نووية إضافية عندما يمتلك الجانبان أكثر من ثلاثة آلاف رأس نووية ، ليست بالغة الأهمية
 علي الإطلاق . وأبلغ الرئيس بوش نظيره يلتسين : بأننا سوف ندرس اقتراحه .

وعدت إلي وزارة للخارجية وقبيل الصعود لحضور غداء عمل تكريماً للرئيس يلتسين
 اتصلت بالرئيس وقلت : أمل أن تقبلوا اقتراح يلتسين فسوف يكون هذا إنجازاً باهراً لرباسكم .
 لكن عليكم إبلاغ منظر الحد من التسلح أنكم ترغبون في حدوثه . فقد بذلت كل ما أستطيعه
 في هذا الصدد.

ورد الرئيس إلي أسمطه .

وبعد ظهر ذلك اليوم عاودنا الاجتماع في غرفة للوزارة لعدّ جولة ثانية. وأبلغ الرئيس بوش بتسعين أننا مستعدون لقبول باقتراحه، وقرر الرئيسان الإدلاء بالإعلان في الساعة الثالثة بعد الظهر. وأعلن الرئيس بوش: «إنه بهذا الاتفاق فإن الكابوس النووي يتلاشي بالنسبة لنا ولأبداننا وأطفالنا».

وبموجب الاتفاق للنهائي سيقوم الجانبان بخفض إجمالي مائتيهما من الرؤوس الحربية بما يتراوح بين ٣٨٠٠ إلى ٤٢٥٠ رأس بحلول عام ٢٠٠٠ وبما يتراوح بين ٣٠٠٠ إلى ٣٥٠٠ رأس نووية بحلول عام ٢٠٠٣. ومن شأن المعاهدة خفض عدد الأسلحة الاستراتيجية لدى الجانبين إلى أدنى مستوي منذ عام ١٩٦٩ والأهم أنه سيكون جديراً لإنهاء لحد من التصاح بإزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات للمنصوبة برأ. فتلك الأسلحة التي تتطلب من كل جانب تبلى عقوبة «استخدامها أو أفقدها» سوف تختفي تماماً مثلما اختفت للعرب المبلدة والإمبراطورية السوفيتية والاتحاد السوفيتي.



وبعد أربعة أسابيع توجهت مع الرئيس إلى مزرعتي في بيندلي لإمضاء يومين في التمتع بالصيد مع نجلينا جيمي بيكر وجيت بوش. ولم تكن حملة إعادة انتخابه تسير على ما يرام كالمألوف، وهناك طلب مني الرئيس العودة إلى البيت الأبيض رئيساً لهيئة موظفيه وكبيراً لمستشاريه. ولم يسعى عمل شيء سوى للتفكير في أوقات وطلبات أخرى: في عام ١٩٧٦ عندما طلب مني الرئيس فورد الاستقالة من منصب كوكيل لوزارة التجارة والمساعدة في حملته الانتخابية، وفي عام ١٩٨٤ عندما عينني الرئيس ريجان رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض لتتبع حملة إعادة انتخابه، وفي عام ١٩٨٨ عندما طلب مني نائب الرئيس بوش الاستقالة من منصبه كوزير للخزانة لإدارة حملته الانتخابية.

ولم أكن أريد ترك الخارجية فقد أنجزنا الكثير. لكن لا يزال الكثير الذي يجب إنجازه. لكنني لم أقل لا من قبل وإن أقولها هذه المرة.

وهكذا سارت الأحداث. ففي الثالث عشر من آب أغسطس ١٩٩٢ سمعت إلى منصة قاعة دين أشيسون بوزارة الخارجية لأعلن أنني سأستقيل من الخارجية بعد عشرة أيام. وفيما بدأت إعلاني متعلماً إلى الوجوه المألوفة لديّ قلت أمام حشد الموظفين وموظفي البنك الدبلوماسي وموظفي الخدمة المدنية المعيّنين السياسيين: «لقد أردت التحدث إليكم هنا في الخارجية لأننا اجتمعنا خلال السنوات الثلاث والنصف الماضية عاصفة تاريخية. لقد ضلنا الإيقاع ونشأ نهجنا خلال حقبة تقرير ثوري. وسطرنا التاريخ في هذه العملية. إنني أوجه الشكر لكم على ذلك».

ولتختتم حديثي محاولاً الاحتفاظ بريادة جاشي دون جندي بالقول: «لي الشرف لي خدمت معكم أنني أشكركم وأحبكم».

وفيما أتأمل فترة عملي كوزير للخارجية استوقفتني حسن الحظ لشغلي هذا المنصب خلال فترة ثورة وحرب وسلام. ثورة الحرية التي أطاحت بالشيوعية وحرب تحرير صنت عبوانه، وتقدم باتجاه سلام أرسى منطق العقل في منطقة مشحونة بالعداوة والصراع. ويتجلى حسن الحظ بوضوح عندما أتأمل للعالم الذي تعين أن يخوض أسلاف في لجهه. فمن عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٨٩ أدار أحد عشر وزيراً للخارجية سياسة أمريكا عبر خريطة سياسية شكلتها الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة. وعلي مدي ثلاث سنوات ونصف أعيد رسم تلك الحدود والحواجز بشكل دائم. وفي الواقع فقد تغيرت طبيعة للنظام الدولي كما كنا نعرفه.

وفي هذا التحول. يمكن بل ويجب أن يعزى أقل الفضل إلي الدبلوماسيين، فالمسؤولية الحقيقية عن حدوث هذه التحولات في العالم الذي نعيشه تعود إلي الرجال والنساء العاديين الذين بحثوا عن الحرية، وناضلوا ضد ظلام الشمولية، وهبوا لانتزاع الحرية لأنفسهم. وربما كان الأمر قد احتاج وثبة إيمانية. تكن الإيمان كان هو الشيء الوحيد الذي امتلكه هؤلاء الناس بوفرة. فمن أمّا آنا حتي فيليبوس، ومن ألبانيا حتي منغوليا رسمت للجماهير مصيرها بأيديها. وأظهرت إلي الأبد أن الحرية تؤتى ثمارها.

وبالنسبة للبعض فإن تفحص الماضي الآن بعد فترة من الزمان، فهذا حنين مؤكد للحرب الباردة. ففي سنوء إستصاء بعض للصراعات الإقليمية في عالم اليوم فإن بعض المتشائمين يريدون جلاء المواجهة بين الشرق والغرب. وفي الوقت الذي أوافق فيه علي أن العالم محفوف بالخطر وحقيقة أن القيادة الأمريكية عظيمة كمهدها. فإنني يقيناً لا أنظر إلي الوراء لسبب واحد بسيط: هو أن للعالم الآن أكثر حرية وأمناً عما خبرته في أي فترة من فترات حياتي، وهذا هو ما أشعر بالامتنان له.

المحتويات

المصحة

الموضوع

الفصل الأول :

٥ يوم وضعت العرب الباردة أوزارها

الفصل الثاني :

٢٩ عقود ثلاث من الصداقة

الفصل الثالث :

٥٧ العالم ضحية الثورة

الفصل الرابع :

٧١ وضع سيامة غير حزبية جديدة : فتح خراج أمريكا الوسطى ...

الفصل الخامس :

الاتحاد السوفيتي : جورباتشوف : سيفريادزه و : التفكير

٩١ الجديد :

الفصل السادس :

١٢٣ أوروبا كاملة وحررة

الفصل السابع :

١٤٣ الصين : خطوة كبيرة إلى الوراء

الفصل الثامن :

١٦٩ الشرق الأوسط الخوض في المستقبل

الفصل التاسع :

١٩٥ روح جاكسون هول

الفصل العاشر:

٢٧٢ سقوط العسور

الفصل الحادي عشر:

٢٥٧ بنما : ولت أيام الديكتاتور

الفصل الثاني عشر:

٢٨٢ حسابات الوحشة

الفصل الثالث عشر:

٢١٥ إفريقيا : نهاية العزل العنصري

الفصل الرابع عشر:

٢٢٢ ربيع القلاقل

الفصل الخامس عشر:

٢٧٧ إرهابية الفوز

الفصل السادس عشر:

٤٠١ بناء التحالف

الفصل السابع عشر:

٤٣٧ كل الوسائل اللازمة

الفصل الثامن عشر:

٤٨١ تحقيق إجماع في الوطن

الفصل التاسع عشر:

٥٠٥ آخر أفضل فرصة للسلام

الفصل العشرون:

٥٣٥ الذرع يصبح سيفاً

	الفصل الحادى والعشرون :
٥٥٩	عبور الحافة
	الفصل الثانى والعشرون :
٥٧٩	مناورة جورباتشوف
	الفصل الثالث والعشرون :
٦٠١	رؤية للشرق الأوسط ما بعد الحرب
	الفصل الرابع والعشرون :
٦٢٧	صدام يبقى فى السلطة
	الفصل الخامس والعشرون :
٦٤٥	مقدمة مؤتمر الشرق الأوسط إلقاء التبعة على الآخرين
	الفصل السادس والعشرون :
٦٨٥	من برلين إلى البلقان
	الفصل السابع والعشرون :
٧٠٩	انفراجة على طريق السلام
	الفصل الثامن والعشرون :
٧٤٧	الإمبراطورية تتدهأ
	الفصل التاسع والعشرون :
٧٨٥	المستوطنات و ضمانات القروض وسياسة السلام
	الفصل الثلاثون :
٨١١	إلى حيث انقت مشياً بالدموع بينون الفجار
	الفصل الحادى والثلاثون :
٨٥١	دخول الحقبة الجديدة

الفصل الثاني والثلاثون :

دعم الحرية في الدول حديثة الاستقلال ٨٨٩

الفصل الثالث والثلاثون :

الكابوس الإنساني في البوسنة ٩١٩

الفصل الرابع والثلاثون :

من الحرب الباردة إلى السلام الديمقراطي ٩٤٥



مؤسسة طباعة ونشر

7 دة شارع السلام أريش النواة للهنتمون

تلفون : 3256098 - 3251043

sharif mahmoud

Bibliotheca Alexandrina



0421385